الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

قدم له

الدكتور محمد موسى الشريف

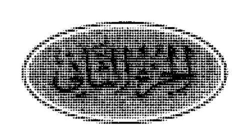
جمع وترتيب

الشريف فهد بن أحمد بن عبد الله المهدلي

ساهم في الطبع

الشيخ محمد عائض غرامة الأسمري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الطبعة الأولىٰ

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

جميع الحقوق محفوظة


الفوائد الغراء
من تهذيب
سير أعلام النبلاء



العِلْمُ والعُلَماء

أولاً : العلْم

١ـ فَضْلُ العِلْم :

صَحَّ عن رَبيعَة بنِ فَرُّوخ ، قال : العلْمُ وَسيلةٌ إلىٰ كلِّ فَضيلَة .

وقال مُصْعبٌ الزَّبيري : كان يُقالُ له : رَبيعةَ الرَّأي ، وكان صاحبَ الفَتْوىٰ بالمَدينة ، وكان يَجلسُ إليه وُجوه النَّاسِ ، وكان يُحْصَىٰ في مَجلسِه أربَعون مُعتمَّاً .

وعنه أخَذَ مَالكُ بنُ أَنَس[١] .

وقال المُزَنيُّ : سَمعتُ الشَّافعيَّ يقولُ : مَنْ تَعلَّمَ القُرآنَ عَظُمتْ قيمَتُه ، ومَنْ تكلَّمَ في الفِقْه نمَا قَدرُه ، ومَنْ كَتبَ الحَديثَ قَويتْ حُجَّتُه ، ومَنْ نَظَرَ في اللُّغَة رَقَّ طَبعُه ، ومَنْ نَظرَ في الحِسابِ جَزلَ رَأيُه ، ومَنْ لَمْ يَصنْ نَفسَه ، لَمْ يَنفَعْه عِلمُه[٢] .

٢ـ الخَوفُ والإشْفاقُ حالَ تَبْليغ العِلْم :

عن مَسْروقٍ قال : حدَّثنا عبدُ الله بنُ مَسْعود يوماً فقالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فرَعُدَ حتىٰ رَعُدَت ثيابُه ، ثم قالَ نحوَ ذا أو شَبيهاً بذا[٣] .

وقال أشْعَثُ : كان ابنُ سيرينَ إذا سُئلَ عن الحلالِ والحَرام ، تَغيَّر لَونُه حتىٰ تَقولَ : كأنَّه ليس بالذي كان[٤] .

---

(١) انظر السير : (ربيعة) ٦/ ٨٩ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٦٣٥ .

(٢) انظر السير : (الإمام الشَّافِعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٤٦ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن مَسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٩٧ .

(٤) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٥٦٩ .

وعن شُعبَة قال : ما رَأيتُ أحداً أصدَقَ من سُليمانَ التَّيميّ ، رَحمَه الله ، كان إذا حَدَّثَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم تَغيَّرَ لَونُه[1] .

وقال بَكَّارُ بنُ محمَّد السيريني : كان ابنُ عون إذا حدَّث بالحَديثِ يَخْشَع عنده حتىٰ نَرحَمُه مَخافَةَ أنْ يَزيدَ أو يَنقُص .

ولقد كان ابنُ عون بخَيرٍ ، مُوسَّعاً عليه في الرِّزْق . قال مُعاذُ بنُ مُعاذ : رَأيتُ عليه بُرْنساً من صُوف . رَقيقاً حَسناً . فقيلَ له : ما هٰذا البُرْنس يا أبا عون ؟ قال : هٰذا كان لابنِ عُمَر ، كَساه لأنَس بنِ سيرين ، فاشْتريتُه من تَركَتِه[2] .

وقال ابنُ الغلابي : قال يَحيى بنُ مَعين : إنِّي لأُحَدِّثُ بالحَديث فأسْهرُ له مَخافَةَ أنْ أكونَ قد أخْطأتُ فيه .

وقال محمدُ بنُ هارون الفَلاَّس : إذا رأيتَ الرجُلَ يَقعُ في يَحْيَى ابنِ مَعين فاعْلَمْ أنَّه كذَّابٌ ، يَضعُ الحَديثَ ، وإنَّما يَبغَضُه لما يُبيِّنُ من أمْر الكذَّابين[3] .

وقال عليُّ بنُ الحُسَين بنِ الجُنَيد ، سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، يقولُ : إنَّا لنَطْعنُ علىٰ أقْوامٍ ، لعلَّهم قد حَطُّوا رِحالَهم في الجنَّة من أكثر من مئتي سنة .

قال الذَّهبيُّ : لَعلَّها من مِئَة سَنة ، فإنَّ ذلك لا يَبلغُ في أيّام يَحْيَىٰ هٰذا القَدْر[4] .

قال ابنُ مَهْرَوَيْه : فدَخلتُ علىٰ عبدِ الرَّحمٰن بنِ أبي حاتِم ، وهو يَقرأُ على النَّاسِ كتابَ « الجَرْح والتَّعْديل » ، فحدَّثتُه بهٰذه الحكايَة ، فبَكَىٰ وارْتَعَدتْ يَداهُ ، حتىٰ سَقَطَ الكتابُ من يَدِه وجَعلَ يَبكي ، ويَسْتعيدُني الحكايَة .

قال الذَّهبيُّ : أصابَه علىٰ طَريق الوَجَل وخَوفِ العاقِبَة ، وإلاَّ فكَلامُ النَّاقِد الوَرِعِ في الضُّعَفاء من النُّصْح لدين الله والذَّبِّ عن السُّنَّة .

---

(١) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٧/٦٤٠ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٦/٦٥٧ .

(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩١١ .

(٤) انظر السير : (عبد الرَّحْمٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٠ .

تُوفِّي ابنُ أبي حاتِم سَنةَ سَبع وعشرين وثلاث مئة بالرِّي ، وله بِضعٌ وثمانونَ سَنة[1] .

٣ـ وُجوب العَمَل بالعِلْم :

عن مَيْمُون بنِ مِهْران ، قال أبو الدَّرْداء : ويلٌ للذي لا يعلَمُ مَرَّةً ، وويلٌ للذي يعلَمُ ولا يَعمَلُ سَبعَ مرَّات[2] .

وقال الشَّعبيُّ : إنَّا لسْنا بالفُقَهاء ولكِنَّا سَمعنا الحَديثَ فرَوَيْناهُ ، ولكنَّ الفُقَهاء مَنْ إذا عَلِمَ عَمِل[3] .

وعن وَهْب بنِ مُنبِّه : قَرأتُ في بَعضِ الكتب : ابنَ آدم ، لا خَيرَ لك في أنْ تَعلَم ما لَمْ تَعلَمْ ولَمْ تَعمَل بما عَلِمتَ ، فإنَّ مثَلَ ذلك كرجُلٍ احْتَطَبَ فحَزمَ حُزْمةً ، فذَهبَ يَحملُها فعَجزَ عنها ، فضَمَّ إليها أُخرىٰ[4] .

٤ـ رُؤىٰ فيها حَثٌّ على العَمَل بالعِلْم :

قال حُميدُ بنُ الرَّبيع : رَأىٰ حُسينٌ الجُعفيُّ كأنَّ القيامَة قد قامَت وكأنَّ مُنادياً يُنادي : ليَقُم العُلماءُ ، فيَدخلوا الجنَّة ، قال : فقاموا : وقُمتُ معَهم . قِيلَ لي : اجْلِسْ ، لَستَ منهم ، أنتَ لا تُحدِّث ، قال : فلَمْ يزَلْ بعدُ يُحدِّث بعد أنْ كان لا يُحدِّث حتىٰ كَتبنا عنه أكثَرَ من عَشرَة آلافِ حَديث .

قال أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليّ : حُسَينٌ الجُعفيُّ ثِقَةٌ ، كان يُقرِئُ القُرآنَ ، رأسٌ فيه ، وكان رجلاً صالحاً ، لمْ أرَ رجلاً قَطُّ أفضَلَ منه .

قال : كان جَميلاً لبَّاساً يخضبُ وخضابُه إلى الصُّفْرة .

---

(١) انظر السير : (عبد الرَّحمـٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٨٠ .
(٢) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٥/٢٧١ .
(٣) انظر السير : (الشَّعبيّ) ٤/ ٢٩٤ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٢ .
(٤) انظر السير : (وَهْب بن مُنبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١١/٥٥٤ .

قيلَ : إنَّ مَولَده في سَنة تسع عَشرة ومئة . وتُوفي في سنة ثلاثٍ ومئتين ، وله بِضْعٌ وثمانوَن سَنة[١] .

ويُروَىٰ عن أبي سَبرة المَديني قال : قلتُ للقَعْنَبيِّ : حَدَّثتَ ولمْ تَكن تُحدِّث! قال : إنِّي أُريتُ كأنَّ القيامَة قد قامت ، فصِيحَ بأهْلِ العِلمِ ، فقاموا ، وقُمتُ معهم فنودي بي : فقلتُ : إلـٰهي ألَمْ أكُنْ أطْلبُ ؟ قال : بلَىٰ ، ولكنَّهم نَشَروا وأخْفَيته . قال : فحدَّثتُ .

وقال إسماعيلُ القاضي : كان القَعْنَبيُّ من المُجتَهدين في العِبادَة[٢] .

وجاء في تَرجمة عليِّ بنِ أبي طاهِر قال الذَّهبيُّ : وثَّقه الخَليليُّ ، قال : سَمعتُ الحَسنَ بنَ أحمد بنَ صالح يَحْكي عن سُليمانَ بنِ يَزيد : أنَّ عليَّ ابنَ أبي طاهر لمَّا رَحلَ إلى الشَّام ، وكَتبَ الحَديثَ جَعلَ كُتبَه في صُندوقٍ ، وقَيَّرَه ورَكبَ البَحرَ ، فاضْطَربَت السَّفينَةُ وماجت ، فألْقَى الصُندوقَ في البَحرِ ، ثم سَكنَتِ السَّفينَةُ ، فلمَّا خَرجَ منها أقامَ على السَّاحلِ ثلاثاً يَدعُو اللهَ ، ثم سَجدَ في اللَّيلَة الثَّالِثَة ، وقال : إنْ كان طَلَبي ذلك لوَجْهك وحبِّ رسُولِك ، فأغِثْني بردِّ ذلك ، فرفَعَ رأسَه ، فإذا بالصُندوقِ مُلقَىٰ عندَه ، فقَدمَ ، وأقامَ بُرْهَة ، ثم قَصَدوه لسَماع الحَديثِ فامْتَنع منه . وقال : فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، في مَنامي ، ومَعه عليٌّ رضي الله عنه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا عَليُّ مَنْ عامَلَ اللهُ بما عامَلَكَ به علىٰ شَطِّ البَحْر ؟!! ، لا تَمتَنِعْ من رِوايَة أحاديثي » . قال : فقُلتُ : قد تُبتُ إلى الله ، فدَعا لي وحَثَّني على الرِّوايَة .

ماتَ عليُّ بنُ أبي طاهِر سنة نيِّف وتسعين ومئتين ، رَحمَه الله[٣] .

وعن ثابتِ بنِ أحمَد قال : رَأيتُ أبا القاسِم الزَّنْجانيّ في النَّوم يقولُ لي مرَّةً بعد أُخرىٰ : إنَّ اللهَ يَبني لأهْلِ الحَديث بكلِّ مَجلِسٍ يَجْلِسونَه بَيْتاً في الجَنَّة[٤] .

---

(١) انظر السير : (الحُسَينُ بن عليّ الجُعفيّ) ٩/ ٣٩٧ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٨٣٣/ ٥ .

(٢) انظر السير : (القَعْنبيُّ) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٨٧٥/ ٣ .

(٣) انظر السير : (عليُّ بن أبي طاهر) ١٤/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١١٣٥/ ٥ .

(٤) انظر السير : (الزَّنْجانيّ) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ١٤٢٣/ ٤ .

وقال ابنُ النَّجار : سَمعتُ المُبارك النَّحْويَّ يقولُ : كان ابنُ الخَشَّاب إذا نُوديَ علىٰ كتابٍ . أخَذَه وطالَعَه ، وغَلَّ ورَقَه ، ثم يقولُ : هو مَقطوعٌ ، فيَشْتَريه برخْصٍ[1] .

قال الذَّهبيُّ : لَعلَّه تابَ ، فقَد قالَ عبدُ الله بنُ أبي الفَرَج الجُبَّائي : رأيتُ ابنَ الخَشَّاب وعليه ثِيابٌ بيضٌ ، وعلىٰ وَجْهه نورٌ ، فقلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قال : غَفَرَ لي ، ودَخلتُ الجَنَّةَ ، إلاَّ أنَّ اللهَ أعْرَضَ عنِّي وعن كَثيرٍ من العُلماء ممَّن لا يَعملُ .

ماتَ سَنةَ سَبعٍ وستِّينَ وخَمسِ مِئَة[2] .

٥ـ العِلْمُ النافع :

(أ) صُورٌ من العِلْمِ النافع :

قال اللَّيثُ بنُ سَعد وغيرُه : كتَبَ رجلٌ إلى ابنِ عُمَرَ أنِ اكْتُب إليَّ بالعِلمِ كلِّه . فكَتبَ إليه : إنَّ العلمَ كثيرٌ ، ولكنْ إنِ اسْتطعتَ أنِ تَلقَى اللهَ خَفيفَ الظَّهْرِ من دِماءِ النَّاسِ ، خَميصَ البَطنِ من أمْوالِهم ، كافَّ اللِّسان عن أعْراضِهم ، لازماً لأمرِ جماعَتِهم ، فافْعَل[3] .

وعن مَسروقٍ ، قالَ : كَفىٰ بالمَرءِ عِلْماً أنْ يَخْشَى اللهَ تَعالَىٰ ، وكَفىٰ بالمَرءِ جَهْلاً أنْ يُعجَبَ بعَملِه[4] .

وعن مُنذِر الثَّوريِّ ، قال : كانَ الرَّبيعُ بنُ خُثَيم إذا أتاهُ الرجلُ يَسْألُه قال : اتَّقِّ اللهَ فيما عَلمْتَ ، وما استُؤثِرَ به عليكَ ، فكِلْهُ إلىٰ عَالِمِه ، لأنا عليكم في العَمْد أخْوَفُ منِّي عَليكم في الخَطَأ ، وما خَيْرُكُم اليومَ بخَيِّرٍ ، ولكنَّه خَيرٌ من آخَر شَرٍّ منه ، وما تَتَّبعونَ الخَيرَ حَقَّ اتِّباعِه ، وما تَفرُّونَ من الشَّرِ حَقَّ فِراره ، ولا كلَّ ما أنزلَ اللهُ علىٰ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أدْرَكتُم ، ولا كلَّ ما تَقْرؤون تَدْرونَ ما هو ، ثم يقولُ :

---

(١) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/٥٢٣ـ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٩ .
(٢) انظر السير : (ابن الخَشَّاب) ٢٠/٥٢٣ـ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٩ .
(٣) انظر السير : (عبدُ الله بن عُمَر) ٣/٢٠٣ـ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٧٠ .
(٤) انظر السير : (مَسروق) ٤/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٦ .

السَّرائرَ السَّرائرَ اللاتي يَخْفَيْنَ من النَّاسِ وهُنَّ للهِ بَوادٍ ، التَمَسوا دَواءَهُنَّ وما دَواؤُهُنَّ إلاَّ أنْ يَتوبَ ثمَّ لا يَعود[1] .

وقال الشَّعبيّ : إنَّا لَسنا بالفُقَهاء ، ولكنَّا سَمعنا الحَديثَ فرَوَيناه ، ولكنَّ الفُقَهاءَ مَنْ إذا عَلِمَ عَمِلَ[2] .

وعن الزُّهريِّ ، قال : حدَّثتُ عليَّ بنَ الحُسَين بحَديثٍ ، فلمَّا فَرغتُ قال : أحْسَنتَ هٰكذا حُدِّثْناه ، قُلتُ : ما أراني إلاَّ حدَّثْتُك بحَديثٍ أنتَ أعْلَمُ به منِّي ، قال : لا تَقُلْ ذاكَ ، فلَيسَ ما لا يُعرَفُ من العِلمِ ، إنَّما العِلمُ ما عُرِفَ ، وتَواطَأَتْ عليه الألْسُن[3] .

وقالَ مالكُ بنُ دينار : مُذْ عَرفتُ النَّاسَ لَمْ أفْرَحْ بمَدْحِهم ، ولَمْ أكْرَه ذَمَّهم لأنَّ حامدَهم مُفرِّطٌ ، وذامَّهم مُفرِّطٌ ، إذا تَعلَّمَ العالمُ العِلْمَ للعَمَلِ كَسَرَه ، وإذا تَعلَّمَه لغَير العِلْمِ ، زادَه فَخْراً[4] .

وعن ابنِ جُرَيج قال : أتَيتُ عَطاءً وأنا أُريد هٰذا الشأنَ ، وعندَه عبدُ الله بنُ عُمَير ، فقال لي ابنُ عُمَير : قَرأتَ القُرآنَ ؟ قُلتُ : لا . قال : فاذهب فاقْرأه ثم اطلب العلمَ . فذهبتُ ، فغبرتُ زَماناً قَرأتُ القُرآنَ ، ثم جِئتُ عَطاءً ، وعنده عبدُ الله . فقال : قَرأتَ الفَريضَة ؟ قُلتُ : لا . قال : فتَعلَّم الفَريضَة ، ثم اطلُب العِلم . قال : فطَلَبتُ الفَريضَةَ ، ثم جِئتُ فقالَ : الآنَ فاطلُب العلمَ ، فلَزِمتُ عَطاءً سَبعَ عَشرةَ سَنة[5] .

وقِيلَ للإمام مالك : ما تَقولُ في طَلَبِ العِلم ؟ قال : حَسنٌ جَميلٌ ، لكن انظُر الذي يلزَمُك من حين تُصبِح إلىٰ أن تُمسي ، فالْزَمْه[6] .

---

(١) انظر السير : (الرَّبيع بن خُثَيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/٤٩٢ .
(٢) انظر السير : (الشَّعبيّ) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٢ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ١/٥١٨ .
(٤) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٥/٦٠٩ .
(٥) انظر السير : (ابن جُرَيْج) ٦/ ٣٢٥ـ ٣٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/٦٥٤ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٣٣ .

وقال ابنُ السَّمَّاك : كم من شيء إذا لمْ يَنفَعْ لمْ يَضُرَّ لكن العلمَ إذا لمْ يَنفَعْ ، ضَرَّ[1] .

وعن ابنِ المُبارَكِ قال : أوَّلُ مَنفَعَة العلم أنْ يُفيدَ بَعضُهم بَعضاً[2] .

وذُكرَ مَعْروفٌ الكَرْخيُّ عندَ الإمام أحمَد ، فقِيلَ : قَصيرُ العلمِ ، فقال : أمْسِكْ ، وهل يُرادُ من العلمِ إلاَّ ما وَصلَ إليه مَعْروف[3] .

وقَصَّ إنسانٌ شاربَ مَعْروف ، فلم يَفْتُر عن الذِّكْرِ ، فقال : كيفَ أقُصُّ ؟ قال : أنتَ تَعْمَلُ وأنا أعْمَلُ[4] .

وعن الشَّافِعيِّ : العِلمُ ما نَفَعَ ، لَيسَ العِلمُ ما حُفِظَ[5] .

وقال عبدُ الله بنُ أحمَد بنِ شَبُّويَه : سَمعتُ أبي يقولُ : مَنْ أرادَ عِلمَ القَبرِ فعَليه بالأثَر ، ومَنْ أرادَ عِلمَ الخُبْزِ ، فعَليه بالرَّأيِّ[6] .

ورُويَ عن سُحْنُون قال : مَنْ لم يَعمَلْ بعِلْمِه ، لمْ يَنفَعْه عِلمُه . بلْ يَضُرُّه[7] .

وقال أبو إسْماعيل : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ عمَّار يَقولُ : العُلومُ خَمسَةٌ : عِلمٌ هو حَياةُ الدِّين وهو عِلمُ التَّوْحيد ، وعِلمٌ هو قُوتُ الدِّين وهو العِظَةُ والذِّكْر ، وعِلمٌ هو دَواءُ الدِّين وهو الفِقْهُ ، وعِلمٌ هو دَاءُ الدِّين وهو أخْبارُ ما وَقعَ بين السَّلَف ، وعِلمٌ هو هَلاكُ الدِّين وهو الكَلام .

قال الذَّهبيُّ : وعِلمُ الأوائل[8] .

---

(١) انظر السير : (ابن السَّمَّاك) ٨/ ٣٢٨ـ ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ٧٦١/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن المُبارك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٦٨/ ٧ .
(٣) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ٢ .
(٤) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخيّ) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ٥ .
(٥) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٥٣/ ٥ .
(٦) انظر السير : (ابن شَبُّويَه) ١١/ ٧ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٩٠٥/ ٢ .
(٧) انظر السير : (سُحْنُون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٩٨٢/ ٧ .
(٨) انظر السير : (يَحْيَى بن عمَّار) ١٧/ ٤٨١ـ ٤٨٣ ، وانظر النزهة : ١٣٥١/ ٣ .

قال الذَّهبيُّ في ترجمة ابنِ حَزْم الأنْدَلُسيِّ : فمَنْ طَلبَ العلمَ للعَمَل كَسَرَه العِلمُ ، وبَكَىٰ علىٰ نَفسِه ، ومَنْ طَلبَ العِلمَ للمَدارِس والإفْتاءِ والفَخْر والرِّياء ، تَحامَقَ ، واخْتالَ ، وازْدَرَىٰ بالنَّاسِ وأهْلَكَه العُجْبُ ، ومَقَتتْه الأنفُس ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[1] أي : دَسَّسَها بالفُجورِ والمَعْصيَة . قُلِبَتْ فيه السِّينُ أَلِفاً .

قال الشَّيخُ عِزُّ الدِّين بنُ عبدِ السَّلام ـ وكانَ أحَدَ المُجتَهدين ـ : ما رَأيتُ في كُتبِ الإسْلام في العِلم مثلَ « المُحَلَّىٰ » لابنِ حَزْم ، وكتابِ « المُغْنِي » للشَّيخِ مُوَفَّق الدين .

قال الذَّهبيُّ : لقَد صَدقَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّين وثالثُهما : « السُّنَنُ الكَبير » للبَيْهَقيِّ ، ورَابِعُهما : « التَّمْهيدُ » لابنِ عبدِ البَرّ . فمَنْ حَصَّلَ هـٰذه الدَّواوينَ ، وكان من أذْكياءِ المُفْتين ، وأَدْمَنَ المُطالَعةَ فيها ، فهو العَالمُ حَقّاً .

وقال أبو العبَّاس بنُ العَريف : كانَ لِسانُ ابنِ حَزْم وسَيفُ الحَجَّاج شَقيقَيْن[2] .

وقال أبو إسْحاقَ الشِّيرازي : العِلمُ الذي لا يَنْتَفعُ به صاحِبُه أنْ يكونَ الرجلُ عَالماً ولا يَكونَ عَامِلاً[3] .

وقال الذَّهبيُّ في ترجمة أبي حامد الغَزَّالي : تَدْري ما العلمُ النَّافع ؟ هو ما نَزلَ به القُرآنُ ، وفسَّرَه الرسُولُ صلى الله عليه وسلم قَولاً وفِعْلاً ، ولَمْ يأتِ نَهيٌ عنه ، قال عليه السلام : « مَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتي ، فلَيْسَ مِنِّي » .

فعَليكَ يا أخي بتَدبُّر كتابِ الله وبإدْمان النَّظَر في « الصَّحيحَيْن » وسُنَنِ النَّسائي ، ورياضِ النَّواوي وأذْكارِه تُفْلِح وتَنْجَح ، وإيَّاكَ وآراءَ عُبَّادِ الفَلاسِفَة ، ووَظائفَ أهْل الرِّياضات وجُوعَ الرُّهْبان ، وخِطابَ طَيْش رُؤوسِ أصْحاب الخَلَوات ، فكلُّ الخَير في مُتابَعة الحَنيفيَّة السَّمْحَة ، فَواغَوْثاهُ بالله ، اللَّهُمَّ اهْدِنا إلىٰ صِراطِكَ المُسْتقيم[4] .

---

(١) سورة الشمس ، الآيتين : ٩ ، ١٠ .
(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠١ .
(٣) انظر السير : (أبو إسْحاق الشِّيرازي) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٣٠ .
(٤) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٨٥ .

(ب) شروط العِلْمِ النافع :

قال الذَّهبيُّ في ترجمة الدَّارِميِّ : العلمُ لَيسَ هو بكَثْرَة الرِّوايَة ، ولكنَّه نُورٌ يَقذفُه اللهُ في القَلب ، وشَرطُه الاتِّباع ، والفِرارُ من الهَوىٰ والابْتداع . وفَّقَنا اللهُ وإيَّاكُم لطاعَتِه[1] .

٦ـ العِلْمُ الضَّار :

قال سَعيدُ بنُ عُفَير : ما رَأيتُ أخْطبَ من إسْماعيلَ بنِ صالِح علىٰ هـٰذه الأعْواد ، كان جامعاً لكل سُؤْدُد ، ويَعرفُ الفَلْسَفةَ ، وضَربَ العُودِ ، والنُّجومَ .

قال الذَّهبيُّ : عِلمُهُ هـٰذا الجَهْلُ خَيرٌ منه[2] .

قال سُفيانُ بنُ عُيَينَة : العلمُ إذا لَمْ يَنفَعْكَ ، ضَرَّك[3] .

٧ـ النِّيَةُ في طَلَب العِلْم :

(أ) وُجوب إحْسان النِّيَة في طَلَب العِلْم :

عن مُجاهد ، قال : طَلبنا هـٰذا العلمَ وما لنا فيه نيّة ، ثم رَزَقَ اللهُ النيَّةَ بعد[4] .

وقال مَعْمَرُ بنُ راشد الأزْدي : لقد طَلبنا هـٰذا الشَّأنَ وما لنا فيه نيّة ثم رَزَقَنا اللهُ النيّةَ من بَعدُ .

وقال عبدُ الرزَّاق : أنْبأنا مَعْمَر قال : كان يُقالُ : إنَّ الرجلَ يَطلبُ العلمَ لغَير الله فيَأبَىٰ عليه العلمُ حتىٰ يكونَ لله .

قال الذَّهبيُّ : نَعم يَطلُبُه أولاً والحامِلُ له حبُّ العلمِ ، وحبُّ إزالَة الجَهْل عنه ، وحبُّ الوَظائف ، ونحوِ ذلك . ولَمْ يكنْ علمَ وُجوب الإخْلاص فيه ولا صِدْق النيّة فإذا عَلِمَ حاسَبَ نفسَه وخافَ من وَبال قَصْدِه فتَجيئُهُ النيّةُ الصَّالحَة كلُّها أو بَعضُها وقد

---

(١) انظر السير : (الدَّارِمِيّ) ١٣/٣١٩ـ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٩٢ .
(٢) انظر السير : (إسْماعيل بن صالح) ٨/٣٥٨ـ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٢/٧٦٣ .
(٣) انظر السير : (سُفيان بن عُيينة) ٨/ ٤٥٤ـ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٨٤ .
(٤) انظر السير : (مُجاهد بن جَبر) ٤/ ٤٤٩ـ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/٥٣٠ .

يَتوبُ من نيَّتِه الفاسِدَة ويَندمُ . وعلامَةُ ذلك أنَّه يُقْصِر من الدَّعاوَىٰ وحُبِّ المُناظَرَة ومن قَصْد التَّكثُّر بعلمه ويُزري علىٰ نفسه فإنْ تَكَثَّرَ بعلمه أو قال : أنا أَعْلَمُ من فُلان فبُعداً له[1] .

وقال عَونُ بنُ عمارَة : سَمعتُ هشاماً الدَّستُوائيَّ يقولُ : والله ما أَسْتطيعُ أنْ أَقُولَ إنِّي ذهبتُ يوماً قَطُّ أطلبُ الحَديثَ أريدُ به وجْهَ الله عزَّ وجلَّ[2] .

قال الذَّهبيُّ : والله ولا أنا ، فقد كان السَّلفُ يَطلبونَ العلمَ لله فنَبَلُوا ، وصاروا أئمَّة يُقتَدَىٰ بهم ، وطلَبَه قومٌ منهم أولاً لا لله ، وحصَّلوه ، ثم اسْتَفاقوا ، وحاسَبوا أنفسَهم ، فجَرَّهم العلمُ إلى الإخْلاصِ في أثناء الطَّريق ، كما قال مُجاهدٌ وغَيرُه : طَلَبنا هـٰذا العلمَ وما لنا فيه كَبيرُ نيَّة ثم رَزَقَ اللهُ النيَّةَ بعدُ ، وبعضُهم يقولُ : طَلَبنا هـٰذا العلمَ لغَير الله فأبَىٰ أنْ يكونَ إلاَّ لله . فهـٰذا أيضاً حَسنٌ . ثم نَشَروه بنيَّةٍ صالحَة[3] .

قال إسْحاقُ بنُ الطَّبَّاع : سَمعتُ حَمَّادَ بنَ سَلمةَ يقولُ : مَنْ طَلبَ الحَديثَ لغَيرِ الله تَعالَىٰ مُكِرَ به[4] .

وقال محمَّدُ بنُ سَلام البيكَنْديّ : سَمعتُ وَكيعاً يقولُ : مَنْ طَلبَ الحَديثَ كما جاءَ فهو صاحِبُ سُنَّة ، ومَنْ طَلَبَه ليُقَوِّيَ به رَأيَه فهو صاحِبُ بِدْعَة[5] .

(ب) رُؤيا تُفيد الحَثَّ علىٰ إحْسان النِّية في طَلَب العِلْم :

قال عبدُ الله بنُ محمّد بنِ أسد ، سَمعتُ حَمزةَ الكِناني يقولُ : خَرَّجتُ حَديثاً واحداً عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم من نحو مِئتَي طَريق ، فداخَلَني لذلك من الفَرَح غيرُ قليل ، وأُعْجِبتُ بذلك ، فرَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين في المَنام ، فقُلتُ : يا أبا زَكريّا ،

---

(١) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ١٨ ، وانظر النزهة : ١/٦٧٢ .
(٢) انظر السير : (هِشَام الدَّسْتُوائي) ٧/ ١٤٩ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٥/٦٨٧ .
(٣) انظر السير : (هِشَام الدَّسْتُوائي) ٧/ ١٤٩ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/٦٨٧ .
(٤) انظر السير : (حمَّاد بن سَلَمَة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٧/٧١٥ .
(٥) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٩ .

خرّجتُ حَديثاً من مِئَتَي طَريق ، فسَكتَ عنِّي ساعَةً ، ثم قالَ : أَخْشَىٰ أَنْ تَدخُلَ هـٰذه تحتَ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[1] ،[2] .

٨ـ لذَّة العِلْم :

قال أبو الحُسَين أحمدُ بنُ فارس اللُّغَويّ : سَمعتُ الأسْتاذَ ابنَ العَميد يقولُ : ما كُنتُ أظُنُّ أنَّ في الدُّنيا حَلاوةً أَلَذَّ من الرِّئاسَة والوزارَة التي أنا فيها ، حتىٰ شاهَدتُ مُذاكَرَةَ أبي القاسم الطَّبرانيّ وأبي بَكْر الجِعَّابي بحَضْرتي ، فكان الطَّبرانيُّ يَغلبُ أبا بَكر بكَثْرَة حِفْظِه ، وكان أبو بَكْر يَغلبُ بفِطْنته وذَكائه حتى ارتَفعَت أصْواتُهما ، ولا يَكادُ أحَدُهما يَغلبُ صاحبَه ، فقال الجعابيُّ : عندي حَديثٌ ليسَ في الدُّنيا إلاَّ عندي فقال : هاتِ ، فقال : حدَّثنا أبو خَليفَة الجُمَحي ، حدَّثنا سُليمانُ بنُ أيُّوب وحدَّث بحَديث ، فقال الطَّبرانيُّ : أخبرَنا سُليمانُ بنُ أيُّوب ومنِّي سَمعَه أبو خَليفَة ، فاسْمعْ منِّي حتىٰ يعْلُو فيه إسْنادُك ، فخَجلَ الجعابيُّ ، فوَدِدتُ لو أنَّ الوزارَةَ لمْ تكن وكنتُ أنا الطَّبرانيّ ، وفَرحتُ كفرَحِه ، أو كما قال .

قِيلَ : ذَهبت عَينا الطَّبرانيِّ في آخر أيَّامه ، فكان يقولُ : الزَّنادِقَةُ سَحَرتْني . فقال له يوماً حَسنٌ العطَّار ـ تلميذُه ـ يَمْتحنُ بصرَه : كم عَددُ الجُذوعِ التي في السَّقفِ ؟ فقال : لا أرىٰ ، لكن نَقْشُ خاتمي سُليمانُ بنُ أحمد .

قال الذَّهبيُّ : هـٰذا قاله علىٰ سَبيل الدُّعابَة ، وقد عاشَ الطَّبرانيُّ مِئَةَ عامٍ وعَشْرة أشْهُر .

قال أبو نعيم الحافظُ : تُوفِّيَ الطَّبرانيُّ سنَةَ ستِّين وثلاث مِئَة بأصْبَهان[3] .

٩ـ العِلْمُ اللدُنِّي :

قال إبراهيمُ بنُ مضارب ، سَمعتُ أبي يقولُ : كان علمُ الحُسَينِ ابنِ الفَضْل بالمَعاني إلهاماً من الله ، فإنَّه كان قد تَجاوَزَ حدَّ التَّعْليم[4] .

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : ١ .

(٢) انظر السير : (حَمزَة بن محمّد الكِنانيّ) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٠ .

(٣) انظر السير : (الطَّبرانيّ) ١٦/١١٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٣ .

(٤) انظر السير : (الحُسَينُ بنُ الفَضْل) ١٣/ ٤١٤ـ ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٦ .

١٠ـ أخْذُ المال على العِلْم كان مَكْروهاً أيّام السَّلَف :

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ : كان الضَّحَّاك يُعَلِّمُ ولا يَأخذُ أَجْراً[١] .

وعن جَعْفَر البَرْمَكيّ قال : ما رَأيْنا في القُرَّاء مثلَ عيسى بنَ يُونُس ، أرْسَلنا إليه فأتَانا بالرَّقة ، فاعْتَلَّ قبلَ أنْ يَرجِعَ . فقُلْتُ له : يا أبا عَمرو ، قد أمَرْنا لك بعَشْرَة آلافٍ . فقال : هيهِ . قُلتُ : خَمسُونَ ألفاً . قال : لا حاجَةَ لي فيها . فقُلتُ : ولِمَ ؟ والله ، لأُهَنِّيَنَّكَها ، هي والله مِئَةُ ألفٍ ، قال : لا والله ، لا يَتَحدَّثُ أهلُ العلمِ أنِّي أكَلتُ للسُّنَّة ثَمناً ، ألا كانَ هـٰذا قبلَ أنْ تُرسِلُوا إليَّ ، فأمَّا على الحَديثِ ، فلا ، ولا شَرْبَةَ ماءٍ ولا إهْليلَجة[٢] ،[٣] .

قال بِشْرُ بنُ عبد الواحد : رَأيتُ أبا نُعَيم في المَنام ، فقُلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ ـ يَعني فيما كان يأخُذُ على الحَديث ـ فقال : نَظَرَ القاضي في أمْرِي فوَجَدَني ذا عيالٍ فعَفا عنِّي .

قال الذَّهبيُّ : ثبتَ عنه أنَّه كان يأخذ على الحَديثِ شَيئاً قَليلاً لفقْرِه[٤] .

وقال عليُّ بنُ خَشْرم : سمعتُ أبا نُعَيم يقولُ : يَلُومونَني على الأَخْذ ، وفي بَيتي ثلاثَة عَشرَ نفَساً ، وما في بَيتي رَغيفٌ .

قال الذَّهبيُّ : لامُوهُ على الأَخذِ ، يَعْني من الإمامِ لا من الطَّلَبَةِ[٥] .

وقال أبو أحمَد بنُ عَدي في « كامله » : سَمعتُ قُسْطَنْطينَ بنَ عبدَ الله مَوْلَى المُعتَمد ، يقولُ : حَضرتُ مَجلسَ هشامِ بنِ عَمَّار ، فقال المُسْتَملي : مَنْ ذَكرتَ ؟ فقال : أخْبرَنا بَعضُ مَشايخِنا ، ثمَّ نعَسَ ، ثم قالَ له : مَنْ ذَكرتَ ؟ فنَعَسَ ، فقال

---

(١) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحِم) ٤/٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٦٦ .

(٢) الإهْليلج ، بكسر الألف وفتح اللام ، وقد تُكسَر ، والواحدة بهاء : شجر ينبتُ في الهند وكابل والصين ثمره علىٰ هيئة حبِّ الصنوبر الكبار .

(٣) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٥ .

(٤) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٦١ .

(٥) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٦١ .

المُسْتَملي : لا تَنْتَفعوا به ، فجَمَعوا له شَيئاً فأعْطوه فكانَ بعدَ ذلك يُمْلي عليهم حتىٰ يَمَلُّوا[1] .

وقال محمَّدُ بنُ أحمَد بنِ راشِد بنِ مَعدان الأصْبهاني : سَمعتُ ابنَ وارَة يقولُ : عَزمتُ زَماناً أنْ أُمسِكَ عن حَديث هشام بنِ عَمَّار ، لأنَّه كان يَبيعُ الحَديثَ .

قال الذَّهبيُّ : العَجبُ من هٰذا الإمامِ مع جَلالَتِه ، كيفَ فعَلَ هٰذا ، ولَمْ يكُنْ مُحْتاجاً ، وله اجْتهادُه[2] .

وقال صالحُ بنُ محمَّد جَزَرَةَ : كانَ هشامُ بنُ عَمَّار يأخُذُ على الحَديثِ ولا يُحدِّثُ ما لَمْ يأخُذْ ، فدخلتُ عليه ، فقال : يا أبا عليّ ، حدِّثْني بحَديثٍ لعليِّ بنِ الجعد ، فقال : حدَّثنا ابنُ الجعد ، حدَّثنا أبو جَعْفَر الرَّازي ، عن الرَّبيع ، عن أبي العاليَة ، قال : عَلِّمْ مَجَّاناً كما عُلِّمْتَ مَجَّاناً . قال : تعرَّضْتَ بي يا أبا عليّ ؟ فقُلتُ : ما تَعرَّضتُ ، بل قَصَدتُك[3] .

وقال أبو أحمد عليُّ بنُ محمَّد : سَمعتُ صالحَ بنَ محمَّد يقولُ : كانَ هشامُ بنُ عَمَّار يأخُذُ على الحَديثِ ولا يُحدِّثُ ما لَمْ يأخُذْ ، فدخلتُ عليه ، فقال : يا أبا عليّ ، حدِّثْني ، فقلتُ : حدَّثنا عليُّ بنُ الجعد ، حدَّثنا أبو جَعْفَر الرَّازي ، عن الرَّبيعِ بنِ أَنَس ، عن أبي العاليَة ، قال : عَلِّمْ مَجَّاناً كما عُلِّمْتَ مَجَّاناً . فقالَ : تُعرِّضُ بي ؟ فقلتُ : لا ، بلْ قَصَدتُك[4] .

وقال أبو الحَسَن العَتيقي : حَضرتُ أبا الحَسَنِ الدَّارَقُطْنيَّ ، وجاءَه الحُسَينُ البَيْضاويُّ بغَريبٍ ليَقرأَ له شَيئاً فامْتنَعَ واعْتَلَّ ببعضِ العِلَل . فقال : هٰذا غَريبٌ ، وسَأَلَه أنْ يُمْليَ عليه أحاديثَ ، فأمْلَىٰ عليه أبو الحَسَن من حِفظِه مَجْلساً تَزيدُ أحاديثُه على العشْرين ، مَتْنُ جَميعِها : « نِعْمَ الشَّيءُ الهَديَّةُ أمامَ الحاجَة »[5] ، قال : فانصَرفَ

---

(١) انظر السير : (هشام بن عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٦ .
(٢) انظر السير : (هشام بن عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩٥٦ .
(٣) انظر السير : (هشام بن عَمَّار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٩٥٦ .
(٤) انظر السير : (صالح بن محمّد) ١٤/ ٢٣ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٧/١١٢٤ .
(٥) خبرٌ باطلٌ .

الرَّجلُ ، ثم جاءَ بعد ، وقد أهْدَىٰ له شَيئاً ، فقرَّبَه وأمْلَىٰ عليه من حِفْظِه سَبعةَ عَشرَ حَديثاً ، مُتونُ جَميعِها : « إذا أتاكمْ كريمُ قَومٍ فأكرِمُوه » .

قال الذَّهبيُّ : هـٰذه حكايَةٌ صَحيحَةٌ ، رَواها الخَطيبُ عن العَتيقيِّ ، وهي دالَّةٌ علىٰ سعَة حِفظِ هـٰذا الإمام ، وعلىٰ أنَّه لَوَّحَ بطَلَب شيءٍ ، وهـٰذا مَذهَبٌ لبعض العُلماء ، ولعَلَّ الدَّارَقُطنيَّ كان إذْ ذاكَ مُحتاجاً ، وكان يَقبلُ جَوائزَ دَعْلَج السِّجزي وطائفة ، وكذا وَصلَه الوَزيرُ ابنُ حِنْزابَة بجُملة من الذَّهب لمَّا خرَّجَ له المُسْنَد .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ وثلاثِ مِئة[١] .

وقال الذَّهبيُّ : كان القَلانسيُّ يَأخذُ الذَّهبَ علىٰ إقْراءِ العَشْرَة[٢] .

وقال ابنُ النجَّار : سَمعتُ أحمدَ بنَ البَنْدَنيجيِّ يقولُ : سألتُ أبا جَعْفَر أحمدَ بنَ أحمدَ بنِ القاصّ : هل قَرأتَ علىٰ أبي العزِّ ؟ فقال : لمَّا قَدِمَ بَغدادَ ، أردْتُ أنْ أقْرأَ عليه ، فطَلَبَ منِّي ذَهباً ، فقُلتُ : والله إنِّي قادِرٌ ، ولكنْ لا أُعْطيكَ على القُرآنِ أَجْراً ، فلَمْ أقْرأ عليه[٣] .

ماتَ سَنةَ إحْدَىٰ وعشرين وخَمسِ مِئَة[٤] .

١١ ـ أقوالٌ فيها حَثٌّ علىٰ طَلَب العِلْم من الصِّغَر :

عن مَعْمَر بنِ راشِد قالَ : سَمعتُ من قَتادَة وأنا ابنُ أربعَ عشرةَ سنةً فما شيءٌ سَمعتُ في تلك السِّنين إلاَّ وكأنَّه مَكتوبٌ في صَدري .

قال عبدُ الرزَّاق : قِيلَ للثَّوري : ما مَنعَك من الزُّهري ؟ قال : قِلةُ الدَّراهِم وقد كَفانا مَعْمَر (يعني ابن راشد)[٥] .

---

(١) انظر السير : (الدَّارَقُطنيّ) ١٦/ ٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٤ .

(٢) انظر السير : (القَلانسيّ) ١٩/ ٤٩٦ـ ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٢ .

(٣) علَّق المؤلف في « الميزان » بعد إيراد هـٰذا الخبر بقوله : أبو العزّ عندنا مع ذلك ثقةٌ في القراءات مرضيّ .

(٤) انظر السير : (القَلانسيّ) ١٩/ ٤٩٦ـ ٤٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٠٢ .

(٥) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧١ .

وقال عبدُ الصَّمَد بنُ سَعيد القاضي : سَمعتُ محمَّدَ بنَ عَوْف يقولُ : كُنتُ ألعبُ في الكَنيسَة بالكُرَة وأنا حَدثٌ ، فدخَلت الكُرةُ ، فوَقعَت قُرب المُعافىٰ بنِ عِمْران الحِمْصيّ ، فدخَلتُ لأخْذِها ، فقال : ابنُ مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : ابنُ عَوف بن سُفيان ، أمَا إنَّ أباكَ كانَ من إخْوانِنا . فكانَ ممَّن يَكتبُ مَعنا الحَديثَ والعِلمَ ، والذي كان يُشْبُهَك أنْ تتَّبعَ ما كانَ عليه والدُك . فصِرتُ إلىٰ أُمِّي فأخْبَرتُها ، فقالت : صَدقَ ، هو صَديقٌ لأبيك ، فألْبَسَتْني ثَوباً وإزاراً ، ثم جئتُ إلى المُعَافىٰ ، ومَعي مِحْبَرَةٌ ووَرقٌ ، فقال لي : اكْتبْ : حدَّثنا إسماعيلُ ابنُ عيَّاش ، عن عبد ربِّه بنِ سُليمان ، قالَ : كتَبَتْ لي أُمُّ الدَّرْداء في لَوْحي : اطْلبُوا العلمَ صِغاراً ، تَعْمَلوا به كباراً ، فإنَّ لكلِّ حاصدٍ ما زَرَعَ[1] ،[2] .

١٢ـ طَلبُ العِلْم مَلْهاةٌ ـ غالباً ـ عن الأهْل والمَال :

قال الحُمَيديُّ ، سَمعتُ سُفْيانَ بنَ عُيَيْنَة يقولُ : لا تَدخُل هـٰذه المَحابِرُ بَيتَ رَجلٍ إلاَّ أشْقَىٰ أهْلَه ووَلدَه[3] .

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة مرةً لرجلٍ : ما حِرْفَتُك ؟ قال : طَلبُ الحَديث . قال : بَشِّرْ أهلَكَ بالإفْلاس[4] .

وعن الزُّبَير بنِ بكَّار ، قالَ : قالت بنتُ أخْتي لأهلنا : خالي خَيرُ رجلٍ لأهْلِه ، لا يَتَّخذُ ضرَّةً وسريَّة ، قال : تَقولُ المَرأةُ : والله هـٰذه الكُتبُ أشَدُّ عليَّ من ثلاثِ ضَرائِر[5] .

وقالَ الحافظُ أبو إسْحاقَ بنُ حَمْزَة : سَمعتُ أبي يقولُ : كُنتُ رَحلتُ إلىٰ يَعقوبَ بنِ سُفْيان ، فبَقيتُ عندَه سِتَّة أشْهُر ، فقُلتُ له : طالَ مُقامي عندَك ، وليَ

---

(١) انظر السير : (محمد بن عَوف) ١٢/ ٦١٣ـ٦١٦ ، وانظر النزهة : ١٠٤٠/ ٢ .

(٢) انظر السير : (محمد بن عَوف) ١٢/ ٦١٣ـ٦١٦ ، وانظر النزهة : ١٠٤٠/ ٣

(٣) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَينة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٧٨٣/ ٣ .

(٤) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَينة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٧٨٣/ ٤ .

(٥) انظر السير : (الزُّبَير بن بكَّار) ١٢/ ٣١١ـ٣١٥ ، وانظر النزهة : ١٠٠٤/ ٢ .

والدةٌ . فقالَ : رَدَدتُ البابَ علىٰ والدَتي ثلاثينَ سَنةً[1]

١٣ـ طَلبُ العِلْم مَلْهاةٌ عن الطَّعام :

وقال الرَّازيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ أحمَدَ الخُوارِزْمي يقولُ : سَمعتُ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ أبي حاتم يقولُ : كُنَّا بمصرَ سَبعةَ أشْهر ، لمْ نأكلْ فيها مرقةً ، كُلُّ نهارِنا مقسَّمٌ لمجالِس الشُّيوخ ، وباللَّيلِ : النَّسْخُ والمُقابَلَة . قال : فأتَيْنا يوماً أنا ورفيقٌ لي شَيخاً ، فقالوا : هو عَليلٌ ، فرَأينا في طَريقنا سَمكَة أعْجَبَتنا ، فاشْتَرَيناه ، فلمَّا صِرْنا إلى البَيتِ ، حَضرَ وقتُ مَجلسٍ ، فلمْ يُمْكنَّا إصْلاحُه ، ومَضَينا إلى المَجْلس ، فلمْ نَزَلْ حتىٰ أتىٰ عليه ثلاثةُ أيَّام ، وكادَ أن يَتغيَّر ، فأكَلْناهُ نيِّئاً ، لمْ يكنْ لنا فَراغٌ أنْ نُعطيَه مَنْ يَشْويه . ثم قالَ : لا يُستطاعُ العلمُ براحَة الجَسَد[2] .

١٤ـ لا يُسْتطاعُ العِلْم براحة الجَسَد :

قالَ عبدُ الله بنُ يَحْيى بنِ أبي كَثير : سَمعتُ أبي يَقولُ : لا يُسْتطاعُ العِلمُ براحَةِ الجَسَد .

ويُروَىٰ أنَّ يَحْيىٰ بنَ أبي كَثير ، أقامَ بالمَدينة عَشرَ سِنين في طَلَبِ العِلمِ ماتَ سَنةَ تِسْع وعشرين ومئة[3] .

١٥ـ عَدمُ الاسْتكثار من المَسائل علىٰ حِساب الرَّقائق والرَّغائب :

عن محمَّدِ بنِ عُبادَة المعافريّ ، قالَ : كنَّا عندَ أبي شُرَيْح ـ رَحمَه الله ـ فكثُرت المَسائل ، فقالَ : قد دَرِنَتْ قُلوبُكم ، فقُوموا إلىٰ خالدِ بنِ حُمَيد المهريّ اسْتَقِلُّوا قُلوبَكم ، وتَعلَّموا هـٰذه الرَّغائبَ والرَّقائق فإنَّها تُجدِّدُ العبادَة ، وتُورث الزَّهادَة ، وتَجرُّ الصَّداقَة ، وأقِلُّوا المَسائل ، فإنَّها في غَيرِ ما نَزلَ تُقسِّي القَلبَ ، وتُورِثُ العَداوَة[4] .

---

(١) انظر السير : (الفَسَوي) ١٣/ ١٨٠ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٨

(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧٩ .

(٣) انظر السير : (يَحْيى بن أبي كثير) ٦/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٥/٦٢٧ .

(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن شُرَيح) ٧/ ١٨٢ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٨/٦٩١ .

قال الذهبيُّ : صَدقَ والله ، فما الظنُّ إذا كانت مَسائلُ الأُصول ، ولَوازِمُ الكَلامِ في مُعارَضَة النَّص ، فكيفَ إذا كانت من تَشْكيكاتِ المَنْطِق ، وقَواعدِ الحِكْمَة ، ودينِ الأوائل ؟! ، فكيفَ إذا كانت من حَقائقِ « الاتِّحاديَّة »[1] ، وزَنْدَقَة « السَّبعينيَّة »[2] ، ومرق « الباطنية »[3] ؟! فواغُرْبَتاه ويا قِلَّةَ ناصِراه ، آمَنتُ بالله ، ولا قوَّةَ إلاَّ بالله .

مات أبو شُرَيْح سَنةَ سَبعٍ وستِّين ومئة ، كان من أبناء السَّبعين ، ومن العُلماء العَاملين[4] .

وقال ابنُ مَهدي : سَمعتُ شُعْبَة يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصدُّكم عن ذِكْر الله وعن الصَّلاة ، وعن صِلَةِ الرَّحْم ، فهلْ أنتم مُنتَهون ؟[5]

وقال سَعيدُ بنُ الحَدَّاد : سَمعتُ سُحْنُونَ يقولُ : كُنتُ إذا سَألتُ ابنَ القاسِم ـ عالمَ الدِّيارِ المِصْريَّة ـ عن المَسائل ، يقوُل لي : يا سُحْنُون ، أنتَ فارغٌ ، إنِّي لأُحِسُّ في

---

(١) وهم الذين يقولون بوحدة الوجود ، وهو مذهب باطلٌ ، يُعرَّى القائل به من الإسلام ، لأنه يَعدُّ اللهَ والوجودَ شيئاً واحداً وأن اللهَ مَوجودٌ في كل مَوجودٍ ، وأنَّ ما نُحسُّه ونَشهَدُه هو اللهُ في صورة العالَم كما قال .

راجع « موقف العلم والعالم » لمصطفىٰ صبري ، الجزء الثالث منه ، فإنه قد توسَّع في بيان هـٰذا المذهب والقائلين به ، ونقده .

(٢) السَّبعينيَّة : فرقة نُسبَت إلىٰ رئيسها : عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي ، المتوفىٰ سنة (٦٦٩هـ) وهو من القائلين بوحدة الوجود قال ابن دقيق العيد : جلستُ مع ابن سبعين من ضحوة إلىٰ قريب الظهر ، وهو يَسرد كلاماً تُعقَل مفرداته ولا تُعقَل مركباته ، واشتهرت عنه أنه قال : لقد تحجَّرَ ابنُ آمنة واسعاً بقوله : « لا نبيَّ بعدي » ، وكان يقول في الله عزَّ وجلَّ : إنه حقيقة الموجودات وقد فصدَ بمكَّة فترك الدم يجري حتىٰ مات نزفاً انظر ترجمته : « عِبَر الذهبي » ٥/ ٢٩١ ، « لسان الميزان » ٣/ ٣٩٢ ، « النجوم الزَّاهرة » ٢/ ١٩٦ـ ٢٠٥ .

(٣) الباطنية : دعوة ظهرت أولاً في زمان المأمون ، وانتشرت في زمان المعتصم ، وذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلىٰ دين أسلافهم ، ولم يجسُروا علىٰ إظهاره خَوفاً من سيوف المسلمين ، ومنهم : مَيمونُ بن ديصان المعروف بالقدَّاح ، ومحمدُ بن الحُسين الملقَّب بذندان ، ثم حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي انظر « الفَرْق بين الفِرَق » . ٢٨٢ .

(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن شُرَيح) ٧/ ١٨٢ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٦٩٢/ ١ .

(٥) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٦٩٣/ ٧

رأسِي دَويّاً كدَويِّ الرَّحا ـ يعني من قيام الليل ـ قال : وكان قَلَّما يَعرضُ لنا إلاَّ وهو يقولُ : اتَّقوا اللهَ ، فإنَّ قَليلَ هـٰذا الأمر مع تَقْوى الله كَثيرٌ ، وكَثيرَه مع غَير تَقوَى الله قَليلٌ[1] .

١٦ـ كيفية طَلَب العِلْم ونَشره :

عن محمّدِ بنِ النَّضْر قال : أوّلُ العِلم الاسْتماعُ ، والإنْصاتُ ، ثم حِفْظُه ، ثم العمَلُ به ، ثم بثُّه[2] .

نحنُ المظاهرُ والمعبودُ ظاهِرُنا	ومظْهَرُ الكَونِ عينُ الكَونِ فاعتَبروا
ولستُ أعبده إلاَّ بصورته	فهو الإله الذي في طيِّه البشَرُ

١٧ـ الرِّحلة في طَلَب العِلْم :

قال محمَّدُ بنُ صالح بنِ هانىء : سَمعتُ محمَّدَ بنَ النَّضْر الجارُوري يقولُ : بَلَغني أنَّ محمَّدَ بنَ يَحْيىٰ كانَ يَكتبُ في مَجلس يَحْيىٰ بنِ يَحْيى الذُّهْلي ، فنَظرَ عليُّ بنُ سَلمَة اللَّبَقي إلىٰ حُسْن خَطِّه وتَقييده ، فقالَ : يا بُنيَّ ، ألا أنصحُك ؟ إنَّ أبا زكريَّا يُحدِّثك عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة وهو حيٌّ ، وعن وَكيعٍ وهو حيٌّ بالكُوفَة وعن يَحْيى ابنِ سَعيدٍ وجماعةٍ أحياء بالبَصْرة ، وعن عبدِ الرَّحمَـٰن بن مَهْدي وهو حيٌّ بأصْبَهان ، فاخْرُج في طَلبِ العِلم ، ولا تُضيِّعْ أيَّامَك . فعمل فيه قولُه فخرجَ إلىٰ أصْبَهان فسَمعَ من عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ مَهْدي ، والحُسَين ابنِ حَفْص ثم دخلَ البَصْرة وقد ماتَ يَحْيىٰ ، فكَتبَ عن أبي داوُدَ وأقرانِه ، وأكثرَ بها المُقام ، حتىٰ ماتَ سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة .

قال الذهبيُّ : ما كانَ يمُكنُه لُقيُّه ، فإنَّ سُفْيانَ ماتَ في وسَط السَّنة ولا كانَ يمُكنُه المَسيرُ إلىٰ مكَّة إلاَّ مع الوَفد ، وأمَّا وَكيعٌ فماتَ قبلَ أنْ يتحرَّكَ الذُّهليُّ من بَلدِه .

قالَ : فخرجَ إلى اليَمن : وأكثرَ عن عبدِ الرزَّاق وأقْرانِه ، ثم رَجعَ وحَجَّ ، وذَهبَ

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٨/٨٠٥ .
(٢) انظر السير : (محمد بن النَّضر) ٨/ ١٧٥ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٨/٧٤١ .

إلىٰ مصرَ ثم الشام . وبارَكَ اللهُ له في عِلْمِه حتىٰ صارَ إمامَ عَصرِه[١] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة الإمام أبي زُرْعَة الرَّازي ، رحمه الله : كانَ مَولدُه بعدَ نيِّف ومئتَين . وطلبَ هـٰذا الشَّأنَ وهو حَدثٌ ، وارْتحلَ إلى الحِجازِ والشَّام ، ومِصرَ والعِراقِ والجَزيرَةِ وخُراسانَ ، وكَتبَ ما لا يُوصَف كثرةً .

فذكرَ سَعيدُ بنُ عَمرو البَرْذَعي ، أنَّ أبا زُرْعَة قالَ : لا أعلمُ صَفا لي رباطُ يومٍ قَطُّ ، أمَّا بَيروتُ : فأَرَدْنا العبَّاسَ بنَ الوَليد بن مَزْيَد ، وأمَّا عَسْقَلان ، فأَرَدْنا ابنَ أبي السَّري ، وأمَّا قَزْوِين : فمحمَّد بن سَعيد ابن سابق .

وقال صالحُ بنُ محمّد جَزَرَة : سَمعتُ أبا زُرْعَةَ يقولُ : كتبتُ عن إبراهيمَ بنِ موسَى الرَّازي مئةَ ألفِ حَديث ، وعن أبي بَكْر بنِ أبي شَيْبَة مئةَ ألفٍ ، فقلتُ له : بَلَغَني أنَّك تَحفظُ مئةَ ألفِ حَديث ، تَقْدرُ أنْ تُمْلي عليَّ ألفَ حَديث من حفظٍ ؟ قال : لا ، ولكن إذا أُلقِيَ عليَّ عَرفتُ[٢] .

وقال أبو غالِب : سَمعتُ جَدِّي يقولُ : سَمعتُ والدِي أبا إسْحاقَ إبراهيمَ بنَ القاضي أبي أحمَدَ العَسَّال يقولُ : لمَّا ماتَ القاضي وجَلسَ بَنُوهُ للتَّعْزيَة ، فدَخلَ رجُلان في لِباسِ سَوادٍ ، وأخَذا يُولْوِلان ويَقولان : وا إسْلاماه ، فسُئلا عن حالِهما ، فقالا : إنَّا ورَدْنا من أغمات من المَغْرب ، لنا سَنةٌ ونصف في الطريق في الرحْلة إلىٰ هـٰذا الإمام لنَسمَعَ منه فوافَق وِرْدُنا وفاتَه .

تُوفِّيَ القاضي أبو أحمَد سنةَ تسعٍ وستِّين وأَرْبعينَ وثلاثِ مئة .

وكانَ مَوْلده سَنةَ تسعٍ وستِّينَ ومئتَين[٣] .

وقال أبو طاهر ، أحمدُ بنُ مَحمود : سَمعتُ أبا بَكْر بنَ المُقرِىء يقولُ : طُفتُ الشَّرقَ والغَربَ أَرْبعَ مرَّات[٤] .

---

(١) انظر السير : (الذُّهليُّ وابنُه) ١٢/ ٢٧٣ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/٩٩٩ .
(٢) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٥١ .
(٣) انظر السير : (العَسَّال) ١٦/ ٦ـ ١٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٦٥ .
(٤) انظر السير : (ابن المُقرِىء) ١٦/ ٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٠ .

ورَوىٰ رجُلان عن ابنِ المُقرىء : قالَ : مَشيتُ بسَببِ نُسخَة مفضَّل ابنِ فَضَالَة سَبعينَ مَرحلَةً ، ولو عُرِضَت علىٰ خَبّازٍ برَغيفٍ لمْ يَقبَلْها(١) .

وقال أبو طاهر بنُ سَلمَة : سَمعتُ ابنَ المُقرىء يقولُ : دَخلتُ بيتَ المَقدس عَشرَ مرَّات ، وحَجَجْتُ أربَعَ حجَّات ، وأقَمتُ بمكَّة خَمسةً وعشرينَ شَهراً(٢) .

وقد سَمعَ ابنُ المُقرىء الحديثَ في نَحوٍ من خَمسينَ مَدينَة .

قال أبو طاهر بنُ سَلمَة : سَمعتُ ابنَ المُقرىء يقولُ : اسْتلمتُ الحَجَرَ في ليلةٍ مئةً وخَمسينَ مرَّة .

وقد تُوفِّيَ ابنُ المُقرىء سنةَ إحْدىٰ وثَمانين وثلاثِ مئَة ، وله ستٌّ وتسعونَ سَنة(٣) .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي عبدِ الله بنِ مندة رَحمَه اللهُ : بَقيَ أبو عبدِ الله في الرحلَة بِضْعاً وثلاثينَ سَنةً(٤) .

وقال الباطِرْقانيُّ : سَمعتُ أبا عبدِ الله ـ يَعْني ابنَ مَندة ـ يقولُ : طُفتُ الشَّرقَ والغَربَ مرَّتين(٥) .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي سَعد السَّمْعانيّ : ولا يُوصَف كَثرةُ البلادِ والمَشايخ الذين أخذَ عنهم .

فسَمعَ بآمُل طَبَرسْتان ، وبأبِيْوَرد ، وبإسفرايين ، وبالأنْبار ، وببُخارَىٰ ، وببُروجِرْد ، وببَسْطام ، وبالبَصْرة ، وببَغْشور ، وببَلْخ ، وبتِرْمِذ ، وبجُرْجان ، وبحَلَب ، وبحَماة ، وبحِمْص ، وبخَرْتَنْك عند قَبرِ البُخاريِّ ، وبخُسْرَوجِرد ، وبالريِّ ، وبسَرْخَس ، وبسَمَرْقَند ، وبهَمَذان وهَراة والحَرمَين ، والكُوفَة ، وطُوس ،

(١) انظر السير : (ابن المُقرىء) ١٦/٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١٣٠٠/٣ .
(٢) انظر السير : (ابن المُقرىء) ١٦/٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١٣٠٠/٤ .
(٣) انظر السير : (ابن المُقرىء) ١٦/٣٩٨ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١٣٠١/٢ .
(٤) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢٢/١ .
(٥) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢٢/٢ .

والكَرخ ، ونَسَا ، وواسِط ، والمَوْصِل ، ونَهاوَنْد ، والطَّالقان ، وبوشنج ، والمَدائن ، وبِقاعٍ يَطولُ ذِكْرُها بحيث إنَّه زارَ القُدسَ والخَليلَ وهما بأيْدي الفِرَنْج ، تَحيَّلَ ، وخاطَرَ في ذلك ، وما تَهيَّأَ ذلكَ للسِّلَفيِّ ولا لابنِ عَساكر .

وكان ظَريفَ الشَّمائل ، حُلوَ المُذاكَرَة ، سَريعَ الفَهْم ، قَويَّ الكتابَة سَريعَها ، دَرسَ وأفْتىٰ ووَعَظَ ، وسادَ أهلَ بَيتِه ، وكانوا يُلقِّبونَه بلقَب والدِه تاج الإسلام ، وكان أبُوه يُلقَّب أيضاً مُعين الدِّين[1] .

١٨ـ من آداب طَلَب العِلْم ونَشره :

(أ) لا يُطْلَب العِلْم لتَقْوية الرأي ولكن لمَعْرفة الحقّ :

عن محمّدِ بنِ سَلام البيكَندي : سَمعتُ وَكيعاً يقولُ : مَنْ طَلَبَ الحَديثَ كما جاءَ فهو صاحبُ سُنَّة ، ومن طَلَبَه ليُقوِّيَ به رأيَه ، فهو صاحبُ بِدْعَة[2] .

(ب) تَحْديثُ النَّاسُ بما يَعلمون :

قال عُرْوَةُ بنُ الزُّبَير : ما حدَّثتُ أحَداً بشيءٍ من العِلم قطُّ لا يَبلُغه عَقلُه إلاَّ كان ضَلالةً عليه[3] .

(ج) عَدمُ الإكثار من تَحْديث النَّاس :

عن أنَسِ بنِ مالك ـ وقِيلَ له : ألا تُحدِّثُنا ؟ ـ قال : يا بُنيَّ إنَّه مَنْ يُكْثِرْ يَهْجُرْ[4] .

قال أبو اليَقْظان : ماتَ لأنَسٍ في طاعُون الجارف ثَمانون ابناً .

عن أيُّوبَ ، قالَ : ضَعفَ أنسٌ عن الصَّوْم ، فصَنعَ جَفْنةً من ثَريد ، ودَعا ثلاثينَ مِسْكيناً ، فأطْعَمَهم .

---

(١) انظر السير : (السَّمْعاني) ٢٠/٤٥٦ـ٤٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٧ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٩ .
(٣) انظر السير : (عُرْوَة) ٤/ ٤٢١ـ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٦/٥٢٨ .
(٤) قوله : يَهْجُر ، من هجر في كلامه ، إذا خلط فيه وإذا هذىٰ .

مات رضي الله عنه سَنةَ ثلاثٍ وتسْعين . عُمرُه مئةً وثلاثِ سنين[١] .

(د) الحَثُّ علىٰ أخذ العِلْم من أهْله :

عن أيُّوبَ ، قالَ محمّدُ بنُ سِيرين : إنَّ هـٰذا العِلمَ دينٌ فانْظُروا عَمَّن تَأخُذونَ دينَكم[٢] .

(هـ) حَوادثُ تُخالِف أدبَ نَشر العِلْم :

عن أبي عوانة ، قالَ : جاءَ رَقبَةُ إلى الأعْمَش ، فسَألَه عن شيءٍ فَكَلَحَ في وَجْهه ، فقالَ رَقبةُ : أما والله ما عَلمتُك لدائمُ القُطوب ، سَريعُ الملال ، مُستخفٌّ بحقِّ الزوَّار ، لكأنَّما تُسعط الخَردلَ إذا سُئلتَ الحِكْمَةَ[٣] .

وقال أحمدُ بنُ عبد الله العجلي : الأعْمَشُ ثقةٌ ثَبتٌ ، كان مُحدِّثَ الكوفة في زَمانه ، يُقالُ : إنَّه ظَهرَ له أربعَةُ آلاف حَديثٍ ، ولمْ يَكنْ له كتابٌ . قال : وكان يُقرِىءُ القُرآنَ وهو رأسٌ فيه . وكانَ فَصيحاً . وكانَ أبوه من سَبي الدَّيلم ، وكان عَسِراً سَيِءَ الخُلُق وكان لا يَلْحَنُ حَرفاً ، وكان عَالماً بالفَرائضِ ، وكانَ فيه تَشَيُّع ولمْ يَخْتمْ عليه سِوىٰ ثلاثةٌ : طَلحَةُ بنُ مُصَرِّف وكان أسَنَّ منه وأفْضَل ، وأبانُ بنُ تَغْلب ، وأبو عُبَيْدة ابنُ مَعْن .

قال الذهبيُّ : مُرادُ العِجلي أنَّهم خَتموا عليه تَلْقيناً ، وإلاَّ فقد خَتمَ عليه حَمزَةُ وغَيرُه عَرْضاً[٤] .

وقال عيسىٰ بنُ يونُس : خَرجْنا في جنازَة ، ورجلٌ يَقودُه ، فلمَّا رَجَعْنا عَدلَ به ، فلمَّا أصْحَر ، قالَ : أتَدْري أينَ أنتَ ؟ أنتَ في جبَّانَة كذا . ولا أردُّك حتىٰ تَملأَ ألْواحي حَديثاً . قال : اكْتُب . فلمَّا مَلأَ الألواحَ ردَّه فلمَّا دخلَ الكُوفَة دَفعَ ألواحَه لإنسانٍ ،

---

(١) انظر السير : (أنَس بن مالك) ٣/ ٣٩٥ـ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٧/٤٠١ .

(٢) انظر السير : (محمّد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٦٨ .

(٣) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤٤ .

(٤) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٤ .

فلمَّا أنِ انتُهى الأعْمشُ إلىٰ بابِه ، تَعلَّقَ به وقالَ : خُذوا الألْواحَ من الفاسِق . فقالَ : يا أبا محمّد قد فاتَ . فلمَّا أيسَ منه ، قال : كُلُّ ما حدَّثْتُك به كَذبٌ . قال : أنتَ أعلمُ باللهِ منْ أنْ تَكْذب[1] .

وقالَ أبو خالِد الأحْمَر : سُئلَ الأعْمشُ عن حَديثٍ ، فقالَ لابنِ المُختار : ترىٰ أحَداً من أصْحابِ الحَديث ؟ فغَمضَ عَينَيه وقال : لا أرَىٰ أحَداً يا أبا محمَّد ، فحدَّثَ به[2] .

وعن أبي العَيناء قال : أتَيتُ عبدَ اللهِ بنَ داود الخُرَيْبيَّ ، فقالَ : ما جاءَ بكَ ؟ قلتُ : الحَديثُ ، قالَ : اذهبْ فتَحْفَظ القُرآنَ ، قلتُ : قد حَفظتُ القُرآنَ ، قالَ : اقْرأْ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾[3] ، فقرأتُ العَشْرَ حتىٰ أنْفَذتُه ، فقال لي : اذْهبْ الآن فتَعلَّم الفَرائضَ ، قُلتُ : قد تَعلَّمتُ الصُّلْبَ والجدَّ والكُبَر[4] . قال : فأيُّما أقْربُ إليكَ ابنُ أخِيكَ أوْ عَمُّك ؟ قلتُ : ابنُ أخي ، قال : ولِمَ ؟ قلتُ : لأنَّ أخي من أبي ، وعَمِّي من جَدِّي ، قال : اذْهَبِ الآنَ ، فتَعلَّم العَربيَّة ، قلتُ : قد عَلِمتُها قبلَ هَـٰذين ، قال : فلِمَ قالَ عُمرُ ـ يَعني حِينَ طُعِنَ ـ يا للهِ ، يا لِلْمُسلمين ، لِمَ فَتَحَ تِلكَ وكَسَرَ هَـٰذه ؟ قلتُ : فَتحَ تِلكَ اللاَّمَ على الدُّعاءِ وكَسرَ هَـٰذه على الاسْتِغاثَة والاسْتِنْصار ، فقال : لَوْ حَدَّثتُ أحَداً ، لحَدَّثْتُك[5] .

قال أبو نصر بنُ ماكولا : كان الخُرَيْبيُّ عَسِراً في الرِّوايَة .

قال الذهبيُّ : لَقيَه البُخاريُّ ، ولَمْ يَسْمَعْ منه ، واحْتاجَ إليهِ في الصَّحيحِ ، فرَوىٰ عن مُسَدَّد عَنه ، وعن الفَلاَّس عَنه ، وعن نَصْر ابنِ عليٍّ عَنه ، وتَركَ التَّحْديثَ تَديُّناً إذْ رَأىٰ طَلبَهم له بنِيَّةٍ مَدْخولَة .

---

(١) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٥ .
(٢) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٦ .
(٣) سورة يونس ، الآية : ٧١
(٤) أي مسائل الفرائض .
(٥) انظر السير : (الخُرَيْبي) ٩/ ٣٤٦ـ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ١/٨٢٨ .

قال الخُرَيْبيُّ : وُلدتُ سَنةَ ستٍّ وعَشْرينَ ومِئَة .

ومات سَنةَ ثلاثَ عَشرةَ ومِئتين[1] .

وقال الحافظُ أبو عليّ الغَسَّانيُّ : أخبَرنا أبو القاسم أحمدُ بنُ أبي الوَليد الباجيُّ ، أخبَرنا أبي أنَّ الفَقيهَ أبا عِمْرانَ الفاسيّ مَضىٰ إلىٰ مكَّة وقد كان قَرأَ علىٰ أبي ذَرٍّ الهَرَويِّ شَيئاً ، فوافَقَ أبا ذَرٍّ في السَّراة مَوضِع سُكْناه فقالَ لخازِن كُتُبه : أَخْرِجْ إليَّ من كُتبِ الشَّيخِ ما أَنْسَخُه ما دامَ غائباً ، فإذا حَضرَ ، قَرأتُه عليه . فقال الخازنُ : لا أَجْتَرِىءُ علىٰ هـٰذا ، ولكنْ هـٰذه المَفاتيحُ إنْ شِئتَ ، فخُذْ وافْعَل ذلكَ . فأَخَذَها ، وأَخْرجَ ما أرادَ ، فسَمعَ أبو ذَرٍّ بالسَّراةِ بذلكَ ، فرَكبَ ، وطَرق مكَّة ، وأخَذَ كُتبَه ، وأقسَمَ أنْ لا يُحدِّثَه ، فلقد أُخْبِرتُ أنَّ أبا عِمْرانَ كانَ بعدُ إذا حدَّثَ عن أبي ذَرٍّ ، يُوَرِّي عن اسْمه فيقولُ : أخْبرَنا أبو عيسىٰ وبذلكَ كانت العَربُ تُكنِّيه باسم وَلدِه .

قال الذهبيُّ : قد ماتَ أبو عِمْرانَ الفاسيُّ قبلَ أبي ذَرّ ، وكان قد لَقِيَ ابنَ الباقِلاَّني والكبار ، وما لانْزِعاجِ أبي ذَرٍّ وَجهٌ ، والحكايَةُ دالَّةٌ علىٰ زَعارَّة الشَّيخ والتِّلْميذ رَحمَهُما الله[2] .

١٩ـ ضَوابِط في تَفضيل طَلَب العِلْم علىٰ فعل القُربات :

قال أبو أسامة : سَمعتُ مِسْعَراً يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصُدُّكم عن ذِكرِ الله وعن الصَّلاة ، فهلْ أنتُم مُنتَهون ؟[3] .

قال الإمامُ الذهبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه مَسألةٌ مُختلَفٌ فيها : هل طَلَبُ العِلم أفْضَل ، أو صَلاةُ النَّافلَة والتِّلاوَة والذِّكْر ؟ فأمَّا مَنْ كانَ مُخلصاً لله في طَلَبِ العِلم ، وذِهنُه جَيدٌ ، فالعِلمُ أوْلَىٰ ، ولكن مع حَظٍّ من صَلاةٍ وتَعبُّد ، فإنْ رأيتَه مُجداً في طَلبِ العِلم لا حَظَّ له في القُرُبات ، فهـٰذا كَسْلانٌ مَهين ، وليسَ هو بصادقٍ في حُسن نيَّتِه ، وأمَّا مَنْ كانَ

---

(١) انظر السير : (الخُرَيْبي) ٩/٣٤٦ـ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ٢/٨٢٨ .

(٢) انظر السير : (أبو ذر الهَرَويّ) ١٧/ ٥٥٤ـ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٣ .

(٣) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٧/٦٨٩ .

طَلبُه الحَديثَ والفِقهَ غِيَّةً ومَحبَّةً نَفسانيَّة فالعِبادَةُ في حقِّه أفْضَل ، بل ما بَينها أفْعَلُ تَفْضيل ، وهـٰذا تَقسيمٌ في الجُملَة ، فقَلَّ ـ والله ـ مَنْ رَأيتُه مُخلِصاً في طَلبِ العِلم ، دَعْنا من هـٰذا كُلِّه . فليسَ طَلبُ الحَديثِ اليومَ على الوَضع المُتعارَف من حيِّز طَلبِ العِلم ، بلْ اصْطلاحٌ وطَلبُ أسانيدَ عاليَة . وأخْذٌ عن شَيخٍ لا يَعي ، وتَسميعٌ لطِفْل يَلعَب ولا يَفْهَم ، أو لرَضيعٍ يَبْكىٰ . أو لفَقيهٍ يَتحدَّثُ مع حَدَثٍ ، أو لآخَر يَنسَخ . وفاضلُهم مَشغولٌ عن الحَديثِ بكتابَة الأسْماء أو بالنُّعاس ، والقارىءُ إنْ كانَ له مُشارَكةٌ فلَيسَ عندَه من الفَضيلَة أكثَرُ من قِراءَة ما في الجُزْءِ ، سواءٌ تَصَحَّفَ عليه الاسمُ ، أو اخْتبطَ المَتْنُ ، أو كان من المَوْضوعاتِ . فالعِلمُ عن هـٰؤلاء بمعْزِلٍ ، والعَملُ لا أكادُ أراهُ . بلْ أرَىٰ أمُوراً سَيئةً ، نَسألُ الله العَفْوَ[1] .

وقال نُعيمُ بنُ حمَّاد ، سَمعتُ ابنَ المُبارَك يقولُ : ما رَأيتُ أحَداً ارْتَفَعَ مثل مالِك لَيسَ له كثيرُ صَلاةٍ ولا صِيامٍ ، إلاَّ أنْ تكونَ له سَريرةٌ[2] .

قال الذهبيُّ : ما كانَ عليه من العِلمِ ونَشْرِه أفْضلُ من نَوافِلِ الصَّومِ والصَّلاةِ لمَنْ أرادَ به الله[3] .

٢٠ـ ضَوابِط في كتْمان العِلْم :

عن أبي هُرَيْرَة ، قالَ : حَفظتُ من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وِعَاءَينِ : فأمَّا أحَدُهما ، فبَثَثْتُه في النَّاس ، وأمَّا الآخَرُ ، فلو بَثَثْتُه ، لقُطِعَ هـٰذا البلعوم .

عن مَكْحولٍ ، قالَ : كان أبو هُرَيْرَة يَقولُ : رُبَّ كيسٍ عند أبي هُرَيْرَة لَمْ يَفتَحْه ، يَعني من العِلم .

وقال الذهبيُّ : هـٰذا دالٌّ علىٰ جَوازِ كِتْمانِ بَعضِ الأحاديثِ التي تُحرِّكُ فِتنةً في الأصُول ، أو الفُروع ، أو المَدْح والذَّمِ .

أمَّا حَديثٌ يَتعلَّقُ بحِلٍّ أو حَرامٍ ، فلا يَحِلُّ كِتْمانُه بوَجْه ، فإنَّه من البَيِّناتِ والهُدىٰ .

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٩٠ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧/٧٣٣ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٣٤ .

وفي « صَحيحِ البُخاري » : قَولُ الإمامِ عليٍّ رضي الله عنه : حَدِّثُوا النَّاسَ بما يَعرفونَ ، ودَعُوا ما يُنكِرون ، أتُحِبُّونَ أنْ يُكذَّبَ اللهُ ورسُولُه! ، وكَذا لَوْ بَثَّ أبو هُرَيْرَة ذلكَ الوِعاءَ ، لأُوذِيَ ، بل لَقُتِلَ ، ولكنَّ العَالِمَ قد يُؤدِّيه اجْتهادُه إلىٰ أنْ يَنشُرَ الحَديثَ الفُلانيَّ إحْياءً للسُّنَّة ، فلَه ما نَوىٰ ولَه أجرٌ ـ وإنْ غَلطَ ـ في اجْتهادِه[1] .

وقال أبو الحَسَن عبدُ المَلك المَيمونيّ : قالَ رجلٌ لأبي عبدِ الله : ذَهبتُ إلىٰ خَلَف البزَّار أعِظُه ، بَلغَني أنَّه حدَّثَ بحَديثٍ عن الأحْوَص عن عبدِ الله قال : « ما خَلَقَ اللهُ شَيئاً أعْظَمَ. . . » وذَكرَ الحَديثَ ، فقالَ أبو عبدِ الله : ما كانَ يَنبَغي له أن يُحدِّثَ بهـٰذا في هـٰذه الأيَّام ـ يُريدُ زَمنَ المِحْنَة ـ والمَتْنُ : « ما خَلَقَ اللهُ مِنْ سَماءٍ ولا أَرْضٍ أعْظَمَ مِنْ آيَةِ الكرْسِيِّ » وقد قالَ أحمدُ بنُ حَنْبَل لمَّا أوْرَدوا عليه هـٰذا يَومَ المِحْنَة : إنَّ الخَلْقَ واقعٌ ها هُنا على السَّماءِ والأرضِ وهـٰذهِ الأشْياء ، لا على القُرآن[2] .

قال الذهبيُّ : كذا يَنْبَغي للمُحَدِّث أنْ لا يُشْهِرَ الأحاديثَ التي يَتشَبَّثُ بظاهِرِها أعداءُ السُّنَن من الجَهْميَّة ، وأهلِ الأهْواءِ ، والأحاديثُ التي فيها صِفاتٌ لَمْ تَثبُتْ ، فإنَّك لَنْ تحِّدثَ قَوماً بحَديثٍ لا تَبْلغُه عُقولُهم ، إلاَّ كانَ فِتْنةً لبَعْضِهم ، فلا تَكْتُم العِلمَ الذي هو عِلمٌ ، ولا تَبْذُلْه للجَهلَة الذين يَشْغَبونَ عَليكَ ، أو الذين يَفْهَمون منه ما يَضُرُّهم[3] .

وقال عبدُ الخالِق بنُ مَنْصور : رَأيتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعين كأنَّه يُهَجِّنُ نُعَيمَ ابنَ حمَّاد في خَبرِ أُمِّ الطُّفَيل في الرُّؤيَة ، ويَقولُ : ما كانَ يَنبَغي له أن يُحدِّثَ بمثل هـٰذا[4] .

فأمَّا خَبَرُ أُمِّ الطُّفَيل ، فرَواهُ محمّدُ بنُ إسْماعيل التِّرمِذيُّ وغَيرُه ، حدَّثنا نُعيمٌ ، حدَّثنا ابنُ وَهْب ، أخْبَرنا عَمرُو بنُ الحارِث ، عن سَعيدِ ابنِ أبي هِلال أنَّ مَرْوانَ بنَ عُثْمانَ حدَّثَ عن عُمارَة بنِ عامِر ، عن أُمِّ الطُّفَيل امرأةُ أُبَيِّ بنِ كَعْب : سَمعتُ

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٣٠٩/ ٢ .
(٢) انظر السير : (خلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٩٥/ ٤ .
(٣) انظر السير : (خلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٩٥/ ٥ .
(٤) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٨٩٨/ ٣ .

رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَذكُرُ أنَّه رَأىٰ رَبَّه في صُورَة كَذا . فهَـٰذا خَبرٌ مُنْكَرٌ جداً ، أحْسَنَ النَّسائيُّ حيثُ يقولُ : ومَنْ مَرْوانُ ابنُ عُثمان حتىٰ يُصَدَّقَ على الله! ؟ وهـٰذا لَمْ يَنْفرِدْ به نُعيم ، فقد رَواهُ أحمدُ بنُ صالِح المِصْري الحافظُ ، وأحمدُ بنُ عيسى التُّستَري ، وأحمدُ ابنُ عبدُ الرَّحمَـٰن بنِ وَهْب ، عن ابنِ وَهْب . قالَ أبو زُرْعة النَّصْري : رجالُه مَعْروفُون .

قال الذهبيُّ : بلا رَيْب قد حدَّثَ به ابنُ وَهْب وشَيخُه وابنُ أبي هِلال ، وهم مَعروفُون عُدولٌ ، فأمَّا مَرْوان ، وما أدْراكَ ما مَرْوان ، فهو حَفيدُ أبي سَعيد المُعلَّى الأنْصاريّ وشَيخُه هو عُمارَةُ بنِ عَمرو بنِ حَزْم الأنْصاريّ[1] .

ولَئِنْ جَوَّزْنا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قالَ ، فهُو أدْرَىٰ بما قالَ ، ولرُؤياهُ في المَنام تَعبيرٌ لَمْ يَذْكرْه عليه السلام ، ولا نَحنُ نُحسِنُ أنْ نُعبِّرَه ، فأمَّا أنْ نَحملَه علىٰ ظاهرِه الحِسِّي ، فمَعاذَ الله أنْ نَعتقدَ الخَوْضَ في ذلك بحيثُ إنَّ بعضَ الفُضَلاء قال : تَصحَّف الحَديثَ ، وإنَّما هو : رَأىٰ رئيَّه ـ بياءٍ مُشدَّدة ـ وقد قال عليٌّ رضي الله عنه : « حَدِّثوا النَّاسَ بما يَعرفُون ، ودَعوا ما يُنْكرون » . قد صَحَّ أنَّ أبا هُرَيْرَة كَتمَ حَديثاً كَثيراً ممَّا لا يَحتاجُه المُسلمُ في دِينه ، وكان يقولُ رضي الله عنه : « لَوْ بَثَثْتُه فيكم لقُطِعَ هـٰذا البلعوم » ، وليسَ هـٰذا من بابِ كِتمانِ العِلم الذي في فَضائل الأعْمال ممَّا يَصحُّ إسْنادُه يَتعيَّنُ نَقلُه ويَتأكَّدُ نَشْرُه ، ويَنبَغي للأُمَّة نَقلُه ، والعِلمُ المُباح لا يَجبُ بَثُّه ولا يَنبَغي أنْ يَدخُلَ فيه إلاَّ خَواصُّ العُلماء[2] .

والعِلمُ الذي يَحْرُم تَعلُّمُه ونَشرُه عِلمُ الأوائل وإلـٰهيّاتُ الفَلاسِفَة وبعضُ رياضَتهم بلْ أكثَرُه ، وعِلمُ السِّحْر ، والسِّيمياء والكيمْياء ، والشَّعْبَذة ، والحِيَل ونَشْرِ الأحاديث المَوضُوعة ، وكَثيرٌ من القَصَص الباطِلَة أو المُنْكَرة ، وسيرة البَطَّال المختلقة ، وأمثالُ ذلكَ ، ورَسائلُ إخْوانِ الصَّفا ، وشِعرٌ يُعرَّضُ فيه إلى الجَناب النَّبَويِّ ، فالعُلومُ الباطِلَة كَثيرةٌ جداً فلتُحْذَر ، ومَنْ ابتُليَ بالنَّظرِ فيها للفُرجَة والمَعْرفَة من الأذْكياء ، فليُقلِّل من

---

(١) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٨٩٨/ ٤ .

(٢) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٨٩٨/ ٥ .

ذلك ، وليُطالِعْه وَحْدَه ، وليَسْتَغفِر اللهَ تعالَىٰ ، وليَلْتَجِىء إلى التَّوحيدِ ، والدُّعاءِ بالعافِيَة في الدِّين ، وكذلكَ أحاديثُ كثيرة مَكْذوبَة ورَدَتْ في الصِّفاتِ لا يَحِلُّ بَثُّها إلاَّ التَّحْذيرُ من اعْتقادِها ، وإنْ أمكَنَ إعْدامُها فحَسنٌ . اللَّهُمَّ فاحْفَظْ علينا إيمانَنا ، ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ[1] .

٢١ـ حَال أربعَة أصْناف من النَّاس مع العِلْم :

قال أبو نُعَيم الحافظُ : وسَمعتُ محمّدَ بنَ عبدِ الله الرَّازي بنَسا أنَّه سَمعَه يقولُ ذَهابُ الإسْلام من أربَعَة : لا يَعمَلونَ بما يَعْلَمونَ ، ويَعمَلونَ بما لا يَعْلَمونَ ، ولا يَتَعلَّمونَ ما لا يَعلَمون ، ويَمنَعونَ النَّاسَ من العِلم .

قال الذهبيُّ : هـٰذه نُعوتُ رُؤوس العَرب والتُّرْك ، وخَلقٌ من جَهَلة العامَّة فلَوْ عَملوا بيَسير ما عَرفُوا ، لأفْلَحوا ، ولَوْ وَقفوا عن العَملِ بالبِدَع لوُفِّقوا ولَوْ فَتَّشوا عن دينِهم وسَألوا أهلَ الذِّكْر ـ لا أهلَ الحِيَل والمَكْر ـ لسَعِدوا بلْ يُعرِضون عن التَّعلُّم تِيهاً وكَسَلاً ، فواحدَةٌ من هَـٰذه الخِلالِ مُرْديَةٌ ، فكَيفَ بها إذا اجْتمَعت ؟! ، فما ظَنُّك إذا انْضَمَّ إليها كِبْرٌ ، وفُجورٌ ، وإجْرامٌ وتَجَهْرُمٌ على الله ؟! ، نَسألُ اللهَ العافيَةَ[2] .

٢٢ـ من وسائل تثبيت العِلْم :

(أ) الاختبار والامتحان :

١ـ صُورٌ على الاختبار :

عن عُروَة ، حَّدثني الأحْنفُ ، أنَّه قَدمَ علىٰ عُمَرَ بفَتْحِ تُسْتَر فقالَ : قد فَتحَ اللهُ عَليكم تُسْتَر ، وهي من أرض البَصْرَة ، فقالَ رجلٌ من المُهاجِرينَ : يا أميرَ المُؤمنينَ ، إنَّ هـٰذا ـ يَعني الأحْنَف ـ الذي كَفَّ عنَّا بَني مُرَّة حين بَعثَنا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في صَدَقاتهم ، وقد كانوا هَمُّوا بنا . قال الأحْنفُ : فحَبسَني عُمرُ عندَه سَنةً يَأتيني في كلِّ يومٍ ولَيلَة ، فلا يَأتيه عنِّي إلاَّ ما يُحبُّ ، ثم دَعاني ، فقالَ : يا أحْنَفُ هل

---

(١) انظر السير : (نُعيمُ بن حمَّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ٦١٢ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٩ .

(٢) انظر السير : (واعظُ بَلْخ) ١٤/ ٥٢٣ـ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٧١ .

تَدري لِمَ حَبَسْتُك عندي ؟ قُلتُ : لا يا أميرَ المُؤمنين . قال : إنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم حذَّرَنا كُلَّ مُنافِقٍ عَليمٍ ، فخَشيتُ أنْ تكونَ منهم ، فاحْمَد اللهَ يا أحْنَف .

وقال العِجليُّ : الأحْنَفُ بَصْريٌّ ثِقةٌ ، كان سَيِّدَ قَومه ، وكان أعْوَرَ أحْنَفَ ، دَميماً قَصيراً كَوْسَجاً[1] . له بَيْضةٌ واحدة ، حَبسَه عُمرُ سَنةً يَخْتَبرُه فقال : هٰذا والله السَّيِّدُ[2] .

وقال القاضي أبو الحَسَن الدَّاوُودي : لمَّا جَلسَ بنُ داودَ للفَتوىٰ بعدَ والدِه اسْتَصْغَروه ، فدَسُّوا عليه مَنْ سألَه عن حَدِّ السُّكْرِ ، ومَتىٰ يُعَدُّ الإنسانُ سَكران ؟ ، فقالَ : إذا عَزَبَت[3] عنه الهُمومُ ، وباحَ بسرِّه المَكْتوم . فاسْتُحْسِنَ ذلكَ منه[4] .

وعن سَعد بنِ عليٍّ الزَّنْجانيِّ ، سَمعَ أبا نَصْر الوائليَّ يقولُ : لمَّا وَرَدَ أبو الفَضْل الهَمَذانيُّ نيسابورَ ، تَعصَّبوا له ، ولَقبُوه : بَديعَ الزَّمانِ فأُعْجبَ بنفسِه إذْ كانَ يَحفظُ المئَةَ بَيتٍ إذا أُنْشِدَت مرَّة ، ويُنْشدُها من آخِرها إلىٰ أوَّلِها مَقلوبَةً ، فأنْكرَ على النَّاسِ قَولَهم : فلانُ الحافظُ في الحَديثِ ثم قال : وحِفْظُ الحَديثِ ممَّا يُذْكَر ؟! ، فسَمعَ به الحاكمُ ابنُ البَيِّع ، فوَجَّه إليه بجُزء ، وأجَّلَ له جُمعَةً في حِفْظِه ، فرَدَّ إليه الجُزءَ بعدَ الجُمُعة وقال : مَنْ يَحفظُ هٰذا ؟ ، محمَّدُ بنُ فُلان ، وجَعْفَرُ بنُ فُلان ، عن فُلان ؟ أسامي مُختلفة ، وألفاظٌ مُتباينَة ؟ فقالَ له الحاكمُ : فاعْرفْ نَفسَك ، واعْلمْ أنَّ هٰذا الحِفظَ أصْعبُ ممَّا أنتَ فيه[5] .

٢ـ اخْتبار العُلماء بَعضُهم بَعضاً :

وعن أبي العَيناء قال : أتيتُ عبدَ الله بنَ داود الخُرَيْبيَّ ، فقالَ : ما جاءَ بكَ ؟ قلتُ : الحَديثُ ، قالَ : اذهبْ فتَحْفَظ القُرآنَ ، قلتُ : قد حَفظتُ القُرآنَ ، قالَ : اقْرأْ

---

(١) يَعني لا شَعر علىٰ عارضَيه ، أو نَقيَّ الخدَّين من الشعر .

(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٩ .

(٣) أي بعُدَ وغابَ .

(٤) انظر السير : (محمد بن داود) ١٣/ ١٠٩ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٠ .

(٥) انظر السير : (الحاكم) ١٧/ ١٦٢ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٢ .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾[1] ، فقرأتُ العَشْرَ حتىٰ أنفَذتُه ، فقال لي : اذْهبْ الآن فتعلَّم الفَرائضَ ، قُلتُ ، قد تَعلَّمتُ الصُّلْبَ والجدَّ والكُبَر[2] . قال : فأيُّما أقْربُ إليكَ ابنُ أخِيكَ أوْ عَمُّك ؟ قلتُ : ابنُ أخي ، قال : ولِمَ ؟ قلتُ : لأنَّ أخي من أبي ، وعَمِّي من جَدِّي ، قال : اذْهَبْ الآنَ ، فتَعلَّم العَربيَّة ، قلتُ : قد عَلِمتُها قبلَ هَـٰذين ، قال : فلِمَ قالَ عُمرُ ـ يَعني حِينَ طُعِنَ ـ يا للهِ ، يا لِلْمُسلمين ، لِمَ فَتَحَ تِلكَ وكَسَرَ هَـٰذه ؟ قلتُ : فَتحَ تِلكَ اللاَّمَ على الدُّعاءِ وكَسرَ هَـٰذه على الاسْتِغاثَة والاسْتِنْصار ، فقال : لَوْ حَدَّثتُ أحداً ، لحَدَّثْتُك[3] .

قال الذهبيُّ في ترجمة أبي نُعَيم : كان من أئمَّة هـٰذا الشأن ـ يَعْني الحَديثَ ـ وأثْباتِهم .

وقال أحمدُ بنُ مَنصورالرَّماديُّ : خَرجتُ مع أحمدَ ويَحْيَىٰ إلىٰ عبد الرزَّاق خادماً لهما ، فلمَّا عُدنا إلى الكُوفَة ، قال يَحْيَىٰ بنُ مَعين : أريدُ أنْ أَخْتبرَ أبا نُعيم ـ الفَضْل بن دكين ـ فقال أحمدُ : لا تُرِدْ فالرجلُ ثِقةٌ ، قال يَحْيَىٰ : لا بُدَّ لي .

فأخَذَ ورَقةً ، فكَتبَ فيها ثلاثينَ حَديثاً وجَعلَ علىٰ رأسِ كُلِّ عَشرةٍ منها حَديثاً ليسَ من حَديثِهِ ، ثم إنَّهم جاؤوا إلىٰ أبي نُعيم ، فخَرجَ ، وجَلسَ علىٰ دكانِ طين وأخذَ أحمدَ بنَ حَنْبَل ، فأجلَسَه ، فقَرأَ عَليه عَشرةَ أحاديث ، فلمَّا قَرأ الحادي عَشر ، قال أبو نُعيم : لَيسَ هـٰذا من حَديثي ، اضْربْ عليه ثم قَرأ العَشرَ الثاني ، وأبو نُعيم ساكتٌ ، فقَرأَ الحديثَ الثاني ، فقال أبو نُعيم : ليس هـٰذا من حَديثي فاضْربْ عَليه ، ثم قَرأ العَشرَ الثالث ، ثم قَرأ الحَديثَ الثالث ، فتَغيَّرَ أبو نُعيم ، وانْقلَبتْ عَيناه ، ثم أقْبلَ علىٰ يَحْيَىٰ ، فقالَ : أمَّا هـٰذا ـ وذِراعُ أحمدَ بيَدِه ـ فأوْرَعُ مِنْ أنْ يَعملَ مثلَ هـٰذا ، وأمَّا هـٰذا ـ يُريدُني ـ فأقَلُّ مِنْ أنْ يَفعلَ ذاك ، ولكنَّ هـٰذا مِنْ فِعلِك يا فاعِل ، وأخرَجَ رجلَه ، فرَفَسَ يَحْيَىٰ ، فرَمَىٰ به من الدكَّانِ ، وقامَ ، فدَخلَ دارَه ، فقالَ أحمدُ ابنُ

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٧١ .

(٢) أي مسائل الفرائض .

(٣) انظر السير : (الخُرَيْبي) ٩/ ٣٤٦ـ ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٢٨ .

حَنْبَل ليَحْيَىٰ : أَلَمْ أَمْنَعْك وأَقُلْ لكَ : إنَّه ثَبتٌ ، قالَ : والله ، لرَفْسَتُه لي أَحَبُّ إليَّ من سَفرتي[1] .

وقال محمّدُ بنُ يُوسُف البُخاريّ : سَمعتُ إبراهيمَ الخَوَّاصَ ، مُسْتَملي صَدَقَة ، يقولُ : رأيتُ أبا زُرعَة كالصَّبيِّ جالساً بينَ يَدي محمَّد ابنِ إسْماعيلَ ، يَسألُه عن عِلَلِ الحَديثِ[2] .

٣ـ اخْتبارُ الخُلَفاءِ العُلماء :

قال أبو المُظَفَّر في كتابِ « مِرْآةُ الزَّمانِ » قال عبدُ الصَّمَد بنُ المُهْتَدِي : لمَّا دَخَلَ المَأمُونُ بَغْدادَ نادىٰ بتَركِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ ، وذلك لأنَّ الشُّيوخَ بَقَوْا يَضْرِبُونَ ويَحْبسُون ، فنَهَاهُم المَأمُونُ وقال : قد اجْتَمَعَ النَّاسُ علىٰ إمامٍ ، فمَرَّ أبو نُعَيمٍ ، فرأىٰ جُنديّاً وقد أَدْخَلَ يَدَيْه بَينَ فَخِذَي امْرَأةٍ ، فنَهَاه بعُنْفٍ ، فحَمَلَه إلى الوَالِي ، فحَمَلَه الوَالِي إلى المَأمُونِ . قال : فأُدخِلتُ عليه بُكرَةً وهو يُسَبِّحُ ، فقال : تَوَضَّأ . فتَوَضَّأتُ ثلاثاً ثلاثاً علىٰ ما رَوَاهُ عبدُ خَيرٍ ، عن عليٍّ ، فصَلَّيْتُ رَكعَتَيْنِ ، فقال : ما تقولُ في رَجلٍ ماتَ عن أَبَوَيْنِ ؟ فقُلتُ : للأُمِّ الثُّلُثُ ، وما بَقِيَ للأَبِ ، قال : فإنْ خَلَّفَ أَبَوَيْه وأَخَاهُ ؟ قُلتُ : المَسْأَلَةُ بِحَالِها ، وسَقَطَ الأَخُ ، قال : فإنْ خَلَّفَ الأَبَوَيْنِ وأَخَوَيْنِ ؟ قُلتُ : للأُمِّ السُّدُسُ ، وما بَقِيَ للأَبِ . قال : في قَولِ النَّاسِ كُلِّهم ؟ قُلتُ : لا ، إنَّ جَدَّكَ ابنَ عَبَّاسٍ يا أميرَ المؤمنين ما حَجَبَ الأُمَّ عن الثُّلُثِ إلاَّ بثلاثَةِ إخْوَةٍ . فقال : يا هـٰذا ، مَنْ نَهَىٰ مِثْلَكَ عن الأمْرِ بالمَعْرُوفِ ؟!! إنَّما نَهَيْنا أقْوَاماً يَجْعَلونَ المَعْرُوفَ مُنْكَراً . ثمَّ خَرَجْتُ[3] .

وقال أبو العبَّاس السَّراج : حَدَّثنا محمدُ بنُ سَهل بن عَسْكَر قال : تَقدَّم رجلٌ غَريبٌ بيده مِحْبَرَة إلى المأمون ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، صاحبُ حَديثٍ مُنقَطعٌ به ، فقال : ما تَحفَظُ في باب كذا وكذا ؟ فلم يَذكُرْ شيئاً . فقال : حَدَّثنا هُشَيمٌ ، وحَدَّثنا

---

(١) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/٨٥٩ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٢ .
(٣) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ١/٨٦٠ .

يَحْيَىٰ ، وحَدَّثنا حَجَّاجُ ابنُ محمد ، حتىٰ ذَكرَ البابَ ، ثم سأَلَه عن بابٍ آخَر ، فلمْ يَذكُرْ شَيئاً ، فقال : حَدَّثنا فُلانٌ . ثم قال لأصْحابِه : يَطلُبُ أحَدُهم الحَديثَ ثلاثةَ أيَّام ، ثم يقولُ : أنا من أصْحابِ الحَديث ، اعْطوهُ ثَلاثةَ دَراهم[1] .

٤ـ اخْتبار العَالم فَهْمَ تلاميذه :

وقال محمدُ بنُ إبراهيمَ البُوشَنْجي ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ يَزيد الدِّمَشْقي ، حَدَّثنا عبدُ الرحْمَـٰن بنُ يَزيد بنِ جابِر ، قال : رَأيتُ في المقسلاطِ صَنماً من نُحاس ، إذا عَطِشَ ، نزَل ، فشَرِبَ . ثم قال البُوشَنْجي : رُبَّما تَكلَّمت العُلماءُ علىٰ سَبيل تَفَقُّدِهم مِقْدارَ أفْهام حاضريهم ، تَأديباً لهم ، وتَنبيهاً على العلم ، وامتحاناً لأوْهاهم فهـٰذا ابن جابر ، وهو أحَدُ عُلماءِ الشَّام ، وله كُتبٌ في العلم ، يقولُ هـٰذا ، والمقسلاط : مَوضعٌ بدمشقَ بسُوق الدَّقيق ، يُريدُ أنَّ الصَنمَ لا يَعطش ، ولو عَطشَ نزلَ فشَرب ، فيَنفي عنه النُّزولَ ، والعَطَش[2] .

(ب) المُناظرَة :

١ـ المُناظَرة بدون نية حَسنَة مَضرَّة :

قال ابنُ بَطَّة : سَمعتُ البَرْبَهاريَّ يقولُ : المجالَسةُ للمُناصَحة فَتحُ بابِ الفائدة ، والمجالَسةُ للمُناظَرة غَلقُ بابِ الفائدة[3] .

٢ـ من آداب المُناظرة :

عن الشافعيِّ قال : ما كَابَرني أحدٌ على الحقِّ ودَافَعَ ، إلاَ سَقطَ من عَيْني ، ولا قَبِلَه إلاَّ هِبْتُه ، واعْتَقدتُ مَوَدَّتَه[4] .

وقال الضِّياءُ : كان المُوَفَّقُ لا يُناظرُ أحداً إلاَّ وهو يَتبَسَّمُ .

---

(١) انظر السير : (المَأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/٨٧٦ .
(٢) انظر السير : (البُوشَنجي) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١١٨ .
(٣) انظر السير : (البَربهاري) ١٥/ ٩٠ـ ٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٥ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٤٧ .

قال الذهبيُّ : بلْ أكثَرُ مَنْ عايَنَّا لا يُناظِرُ أحداً إلاَّ ويَنْسَمُّ[١] .

٣ـ مَنْ كان حَسَنَ المُناظرة :

قيل لمالك : هل رأيتَ أبا حَنيفَة ؟ قال : نَعم . رأيتُ رَجلاً لو كلَّمَك في هٰذه السَّارِيَة أنْ يَجعلَها ذَهباً لقامَ بحُجَّته[٢] .

(ج) أجوبةٌ ورُدود :

١ـ مضرَّة تَرك الجَواب :

عن مَنصورِ بنِ أبي مُزاحم : سَمعتُ شريكاً يقولُ : تَركُ الجَوابِ في مَوْضِعِه إذابَةُ القَلب[٣] .

٢ـ حُسْنُ الجَواب يَجب أنْ يَقْترن بالأدَب :

قال أبو الحَسن بنُ المَرْزُبان : كان أبو محمد بنُ ماسي مِنْ دارِ كَعْب يُنفِذُ إلىٰ أبي عُمر ، محمدُ بنُ عبد الواحد البَغْدادي ، غلام ثعلب وقتاً بعد وقت كفايته ما يُنفِقُ علىٰ نفسِه فقَطعَ ذلك عنه مُدَّة لعُذْرٍ ، ثم أنْفَذَ إليه جُملة ما كان في رَمه ، وكتب إليه يَعتذرُ ، فردَّه ، وأمرَ أنْ يُكتبَ علىٰ ظَهْر رُقْعَته : أكْرَمْتَنا فمَلكْتَنا ثم أعْرَضْتَ عنَّا ، فأرَحْتَنا[٤] .

قال الذهبيُّ : هو كما قال أبو عُمر ، لكنَّه لم يُجمِلْ في الرَّدِّ ، فإنْ كان قد مَلكَه بإحْسانِه القَديم ، فالتَّمَلُّك بحالِه ، وجُبرَ التَّأخيرُ بمَجيئه جُملةً وباعْتِذارِه ، ولو أنَّه قالَ : وتَركْتَنا فأعْتَقْتَنا ، لكان ألْيَق[٥] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨١ .
(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٥/٦٦٢ .
(٣) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٣ .
(٤) انظر السير : (أبو عُمر الزَّاهد) ١٥/ ٥٠٨ـ٥١٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٥ .
(٥) انظر السير : (أبو عُمر الزَّاهد) ١٥/ ٥٠٨ـ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٥ .

٣ـ أجوبةٌ ذكيَّة :

قال رجلٌ لابنِ الحَنَفيَّة : ما بالُ أبيكَ كان يَرْمي بك في مَرامٍ لا يَرْمي فيها الحَسَنَ والحُسَين ؟ قال : لأنَّهما كانا خَدَّيْه وكُنتُ يَدَه ، فكان يَتوقَّىٰ بيَدَيْه عن خَدَّيْه[١] .

وقال مالكُ بنُ سُليمان : كان لإبراهيمَ بنِ طَهْمان جِرايَةٌ من بَيت المال فاخرة ، يأخذُ في كلِّ وَقت ، وكان يَسْخو به ، فسُئل مرَّةً في مَجلس الخَليفة ، فقال : لا أدْري ، قالوا له : تَأخذُ كلَّ شَهرٍ كَذا وكَذا ولا تُحْسنُ مَسألَة ؟

فقال : إنَّما آخُذُ علىٰ ما أُحْسِنُ ، ولو أخَذتُ علىٰ ما لا أُحْسِنُ ، لفَنيَ بَيتُ المال عليَّ ، ولا يَفنىٰ ما لا أُحْسِن . فأعْجبَ أميرَ المؤمنين جَوابُه ، وأمرَ له بجائزة فاخرة ، وزاد في جِرايَتِه .

مات إبراهيمُ بنُ طَهْمان سنة ثلاث وستين ومئة[٢] .

وقال مَخلدُ بنُ خِداش : سألتُ مَالكاً عن الشِّطْرَنج . فقال : أحَقٌّ هو ؟ فقلتُ : لا . قال : ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٣] ،[٤] .

وجاء في تَرجمة عليٍّ الرِّضَا الهاشِميِّ ، قال الإمامُ الذَّهبيُّ :

وقِيلَ : قال المَأمونُ للرِّضَا : ما يقولُ بَنو أبيك في جَدِّنا العَبَّاس ؟ قالَ : ما يَقولون في رَجلٍ فَرَضَ اللهُ طاعَةَ نَبيِّه علىٰ خَلقِه ، وفَرضَ طاعَتَه علىٰ نَبيِّه . وهـٰذا يُوهِمُ في البَديهَة أنَّ الضَّميرَ في طاعَتِه للعَبَّاس ، وإنَّما هو لله ـ فأمَرَ له المَأمونُ بألفِ ألفِ دِرْهم[٥] .

وقال عليُّ بنُ عبد الرحمَـٰن ، حَدَّثنا سَعيدُ بنُ كَثير بنِ عُفَير قال : كُنَّا بقُبَّة الهَواء

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٤٥٨/ ٤ .

(٢) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٠٦ .

(٣) سورة يونس ، الآية : ٣٢ .

(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣٦ .

(٥) انظر السير : (عليٌّ الرِّضَا) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٣٢ .

عند المَأمونِ فقال لنا : ما أعْجَبَ فِرْعَونَ من مِصْرَ حَيثُ يقول : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾[١] .

فقلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ الذي تَرَىٰ بَقيَّةُ ما دُمِّر . قال تعالىٰ : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[٢] ، قال : صدقت . ثم أمْسَك .

مات سَعيدُ بنُ عُفَير سنة ست وعشرين ومئتين[٣] .

وقال أبو تَمَّام في المُعْتَصِم أو ابنِه :

إقْدامُ عَمرو في سَماحَةِ حاتِمٍ في حِلْمِ أَحْنَف في ذَكَاء إياس[٤]

فقالَ الوَزيرُ : شَبَّهتَ أميرَ المُؤمنينَ بأجْلافِ العَرب ، فأطْرَقَ ثم زادَها :

لا تُنْكِروا ضَرْبي له مَنْ دُونَه مثلاً شَروداً في النَّدىٰ والبَاسِ

فاللهُ قد ضَربَ الأقلَّ لنُورِهِ مثلاً من المشْكَاة والنِّبْراسِ[٥]

وقِيلَ : كان القاضي الفَاضِلُ أبو عَليٍّ عبدُ الرَّحيم بنُ عَليّ اللَّخْميُّ أحْدَبَ ، فحَدَّثني شَيخُنا أبو إسْحاقَ الفَاضليُّ أنَّ القاضيَ الفاضلَ ذَهبَ في الرُّسليَّة إلىٰ صَاحبِ المُوصِل ، فأُحضِرَت فَواكهُ ، فقال بعضُ الكِبار مُنكِّتاً : خِيارُكُم أَحْدَبُ ، يُوَرِّي بذلك ، فقالَ الفاضلُ : خَسُّنَا خَيرٌ مِنْ خِيارُكم[٦] .

وسألَ رجلٌ ابنَ الجَوْزيِّ ، أيّامَ ظُهور الشِّيعَة : أيُّهما أفضلُ أبو بَكرٍ أو عليٌّ ؟ فقالَ : أفْضَلُهُما مَنْ كانت بِنتُه تَحتَه .

وهٰذه عِبارَةٌ مُحتَمَلَة تُرضي الفَريقَين[٧] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٥١ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧

(٣) انظر السير : (سعيدُ بن كثير بن عُفير) ١٠/ ٥٨٣ـ ٥٨٦ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٧ .

(٤) انظر السير : (أبو تَمَّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩٠٩ .

(٥) انظر السير : (أبو تَمَّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩١٠ .

(٦) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٣٠ .

(٧) انظر السير : (أبو الفرج ابنُ الجَوزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٤ .

٤ـ أجوبةٌ مُفْحِمَة :

عن أبي الصدِّيقِ النَّاجي : أنَّ الحَجَّاجَ دَخلَ علىٰ أسْماءَ بنتِ أبي بَكر ، فقالَ : إنَّ ابنَك أَلْحَدَ في هٰذا البَيت ، وإنَّ اللهَ أذَاقَه من عَذابٍ أليم . قالت : كَذبْتَ! كانَ بَرّاً بوَالدَتِه ، صَوَّاماً ، قوَّاماً ، ولكن قد أخْبَرَنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أنَّه سَيَخْرُجُ مِنْ ثَقِيفٍ كذَّابَانِ : الآخرُ مِنْهُما شَرٌّ مِنَ الأوَّلِ ، وهو مُبير »[1] .

وعن عبدِ المَلك بنِ عُمير قال : كتبَ المُغيرةُ إلىٰ مُعاوِيَة ، فذَكَر فَناءَ عُمرِه ، وفَناءَ أهْلِ بَيتِه ، وجَفْوَةَ قُريشٍ له . فورَدَ الكتابُ علىٰ مُعاويَةَ وزِيادٌ عندَه ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنين ، وَلِّني إجابَتَه فألْقَىٰ إليه الكتابَ ، فكتبَ : أمَّا ما ذَكرتَ من ذَهابِ عُمرِك ، فإنَّه لَمْ يَأكُلْه غيرُك ، وأمَّا فَناءُ أهْلِ بَيتِك ، فلو أنَّ أميرَ المومنين قَدِرَ أنْ يَقي أحداً لوَقىٰ أهلَه ، وأمَّا جَفوَةُ قُريش ، فأنَّىٰ يَكونُ ذاك وهم أمَّروك[2] .

وقال حَميدُ بنُ هِلال : سألَ عَقيلُ بنُ أبي طالب عَليّاً ، وشَكا حاجَتَه ، قال : اصْبِرْ حتىٰ يَخرجَ عَطائي ، فألَحَّ عليه فقالَ : انْطَلق فخُذْ ما في حَوانيتِ النَّاس . قال : تُريدُ أنْ تتَّخذَني سارِقاً!؟! قال : وأنتَ تُريدُ أنْ تَتَّخذَني سارِقاً وأُعطيكَ أموالَ النَّاس ؟ فقال : لآتِيَنَّ مُعاويَة . قال : أنتَ وذَاك . فسارَ إلىٰ مُعاويَة فأعْطاهُ مئةَ ألفٍ وقالَ : اصْعَد المِنْبرَ فاذْكُر ما أَوْلاكَ عَليٌّ وما أَوْلَيْتُك ، فصَعدَ وقالَ : يا أيُّها الناسُ! إنِّي أرَدتُ عَليّاً علىٰ دِينِه ، فاخْتارَ دينَه عليَّ ، وأرَدتُ مُعاويَةَ علىٰ دينِه ، فاخْتارَني علىٰ دينِه . قال مُعاويَةُ : هٰذا الذي تَزعمُ قُريشٌ أنَّه أحْمَق[3] .

وقيلَ إنَّ مُعاويَةَ قالَ لهم : هٰذا عَقيلٌ وعَمُّه أبو لَهَب ، فقال : هٰذا مُعاويَةُ وعَمَّتُه حَمَّالَة الحَطَب[4] .

وعن العُتبيِّ ، عن أبيه ، قال : دَخلَ سالمُ بنُ عبد الله بنِ عُمر علىٰ سُليمانَ بن

---

(١) انظر السير : (أسماء بنت أبي بكر) ٢/ ٢٨٧ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/٢٦٢ .
(٢) انظر السير : (المُغيرَة بن شُعبة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٢٥ .
(٣) انظر السير : (عَقيلُ بن أبي طالب) ٣/ ٩٩ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٦/٣٤٢ .
(٤) انظر السير : (عَقيلُ بن أبي طالب) ٣/ ٩٩ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ١/٣٤٣ .

عبد المَلك ، وعلىٰ سالمٍ ثيابٌ غَليظة رَثَّة فلم يَزلْ سُليمانُ يُرحِّبُ به ، ويَرفَعُه حتىٰ أقْعَدَه معه علىٰ سَريره ، وعُمرُ بنُ عبد العَزيز في المَجْلس ، فقالَ له رجلٌ من أُخْرَيات الناس : ما استطاعَ خالُك أن يَلبسَ ثياباً فاخرةً أحسنَ من هـٰذه ، يدخلُ فيها علىٰ أمير المؤمنين ؟ قال : وعلى المُتكَلِّم ثيابٌ سَريَّة ، لها قيمة ، فقال له عُمرُ : ما رأيتُ هـٰذه الثيابَ التي علىٰ خالي وَضَعتْه في مَكانك ، ولا رأيتُ ثيابَك هـٰذه رَفعَتْك إلىٰ مكان خالي ذاك[1] .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمة أبي العَلاء يَزيدِ بنِ أبي مُسلم أميرِ المَغْرب : ثم وَلِيَ الخِلافَةَ سُليمانُ ، فطُلِبَ أبو العَلاء في غُلٍّ ، وكان قَصيراً دَميماً ، كَبيرَ البَطْن ، مُشوَّهاً ، فنَظرَ إليه سُليمانُ ، فقال : لَعنَ اللهُ مَنْ وَلاَّكَ ، قال : لا تَفْعَل يا أميرَ المومنين ، فإنَّك رَأيتَني والأمورُ مُدبِرَة عَنِّي ، فلو رَأيتَني في الإقْبال لاسْتَعظَمْتَ ما اسْتَحْقَرت . قال : قاتَلَه اللهُ ما أسَدَّ عَقلَه . ثم قال : أتَرى الحَجَّاجَ يَهْوِي بَعدُ في جَهنَّمَ أو بَلغَ قَعرَها ؟ قال : لا تَقُلْ ذاك ، فإنَّه يُحشَر مع مَنْ وَلاَّه . فقال : مثلُ هـٰذا فليُصْطَنَع . ثم إنَّه كَشفَ عليه فلم يَجدْه خانَ في درهم ، وهَمَّ باسْتكتابه . ثم أَمَّرَه علىٰ إفريقيَّة يَزيدُ بنُ عبد المَلك ، فثارَت عليه الخَوارجُ ففتَكوا به لظُلمِه ، سَنةَ اثنتين ومئة[2] .

وقال أحمدُ بنُ وَهب ، أخبرني عبدُ الرحمَـٰن بنُ صالح الأزْدي قال : حَجَّ الرَّشيدُ فأتىٰ قبرَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومَعه مُوسىٰ بنُ جَعْفَر فقالَ : السَّلامُ عَليكَ يا رسولَ الله ، يا ابنَ عَمٍّ ، افْتِخاراً علىٰ مَنْ حَولَه فدَنا مُوسَىٰ وقال : السَّلامُ عَليكَ يا أبَتِ . فتَغيَّرَ وَجْهُ هارُون وقالَ : هـٰذا الفَخْرُ يا أبا الحَسَن حَقّاً[3] .

وقال مالكُ بنُ سُليمان : كان لإبراهيمَ بنِ طَهْمان جِرايَةٌ من بَيت المال فاخرة ، يأخذُ في كلِّ وَقت ، وكان يَسْخو به ، فسُئل مرَّةً في مَجلس الخَليفة ، فقال :

---

(١) انظر السير : (سالم بن عبد الله) ٤/ ٤٥٧ـ ٤٦٧ ، وانظر النزهة : ١/٥٣٢ .

(٢) انظر السير : (يزيد بن أبي مسلم) ٤/ ٥٩٣ـ ٥٩٤ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٥ .

(٣) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٣/٦٥٠ .

لا أدري ، قالوا له : تأخذُ كلَّ شهرٍ كذا وكذا ولا تُحسنُ مسألةَ ؟

فقال : إنَّما آخذُ علىٰ ما أُحْسِنُ ، ولو أخذتُ علىٰ ما لا أُحْسِنُ ، لفَنِيَ بيتُ المال عليَّ ، ولا يَفنىٰ ما لا أُحْسِن . فأعْجبَ أميرَ المؤمنين جَوابُه ، وأمرَ له بجائزة فاخرة ، وزاد في جِرايَتِه .

مات إبراهيمُ بنُ طَهْمان سنة ثلاث وستين ومئة[1] .

وقال سَعيدُ بنُ مَنصُور : قَدِمَ وَكيعٌ مَكَّة سَميناً ، فقالَ له الفُضَيلُ ابنُ عِياض : ما هـٰذا السِّمَنُ ، وأنتَ راهِبُ العِراق ؟ قالَ : هـٰذا من فَرَحي بالإسْلام ، فأفْحَمَه[2] .

وقال أحمدُ بنُ جَعْفَر بنِ سَلْم : سَمعتُ الأبَّارَ يقولُ : كُنتُ بالأَهْواز ، فرأيتُ رجلاً قد حَفَّ شاربَه ـ وأظُنُّه قال : قد اشْتَرىٰ كُتباً وتَعَيَّن للفُتيا ـ فذُكِرَ له أصْحابُ الحَديث ، فقال : لَيسوا بشيءٍ ، وليسَ يَسْوون شيئاً فقلتُ : أنتَ لا تُحْسنُ تُصلِّي . قال : أنا ؟ قُلتُ : نَعم ، أَيْش تَحفَظُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا افْتَتحتَ ورَفَعْتَ يدَيك ؟ فسَكتَ ، قلتُ : فما تَحفَظُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا سَجدْتَ ؟ فسَكتَ ، فقُلتُ : ألَمْ أقُلْ : إنَّك لا تُحْسنُ تُصلِّي ؟ فلا تَذكُرْ أصْحابَ الحَديث[3] .

وقال أبو الوَليد حسَّانُ بنُ محدم : دَخلَ أبو العَبَّاس السَّرَّاج علىٰ أبي عَمرو الخفاف فقال له : يا أبا العَبَّاس! من أين جَمعتَ هـٰذا المال ؟ قال : بغَيْبَة دَهرٍ أنا وأخَوايَ إبراهيمُ وإسْماعيلُ ، غابَ أخي إبراهيمُ أربَعين سَنةً ، وغابَ أخي إسْماعيلُ أربَعين سَنةً ، وغِبتُ أنا مُقيماً ببَغْداد أربَعينَ سَنةً ، أكَلْنا الجَشِبَ[4] ، ولبِسْنَا الخَشِنَ ، فاجْتَمعَ هـٰذا المالُ ، لكن أنْتَ يا أبا عَمرو! من أين جَمعتَ هـٰذا المالَ ؟ وكان لأبي عَمرو مالٌ عَظيمٌ ثم قال مُتمَثِّلاً :[5] .

---

(١) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٠٦ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨١١ .
(٣) انظر السير : (الأبّار) ١٣/ ٤٤٣ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١١٠١ .
(٤) طَعامٌ جشبٌ ومَجشوب : أي غَليظ خشن ، وقيل : هو الذي لا أدم له .
(٥) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ١/١١٦٣ .

أَتَـذْكُـرُ إذْ لِحَـافُـكَ جِلْـدُ شَـاةٍ　　　وَإذْ نَعْـلاكَ مِـنْ جِلْـدِ البَعيـرِ

فَسُبْحَـانَ الـذِي أَعْطَـاكَ مُلْكـاً　　　وَعَلَّمكَ الجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ[1]

وقال أبو مَنصور الثَّعالبي في « اليتيمة » : سَمعتُ الشيخَ أبا الطيِّب يَحْكي أنَّ الأمَويَّ صاحبَ الأنْدَلس كَتبَ إليه نِزارٌ صاحبُ مِصْرَ كتاباً سَبَّه فيه وهَجاهُ فكَتبَ إليه الأمَويُّ : « أمَّا بَعدُ : فإنَّكَ عَرَفْتَنا فهَجَوتنا ولو عَرفْناكَ لأجَبْناك » فاشْتدَّ هـٰذا على العَزيز بالله ، وأفْحَمَه عن الجَواب ، يُشيرُ أنَّكَ دَعيٌّ لا نَعرفُ قَبيلَتك[2] .

وقِيلَ : إنَّ طَاغِيَةَ الرُّوم سَألَ ابنَ الباقِلاَّنيَّ : كَيفَ جَرَىٰ لزَوْجَةِ نَبيِّكُم ؟ ـ يَقْصِدُ تَوْبيخاً ـ فقالَ : كَما جَرَىٰ لمَرْيَمَ بنتِ عِمْرانَ ، وبَرَّأهُمَا اللهُ ، لَكنَّ عائِشَةَ لَمْ تَأتِ بوَلَدٍ . فأفْحَمَهُ .

قالَ الخَطيبُ : سَمعتُ أبا بَكْر الخَوارِزْميَّ يَقولُ : كُلُّ مُصَنِّف ببَغْدادَ إنَّما يَنْقُلُ من كُتُبِ النَّاسِ سِوَى القاضي أبي بَكْر ، فإنَّما صَدْرُه يَحْوي عِلمَه وعِلمَ النَّاسِ[3] .

٥ـ أجوبَةٌ مُخْجِلَة :

يُقالُ إنَّ الصَّاحِبَ الوَزيرَ أبي القاسم إسْماعيلَ بنَ عَبَّاد قال : ثَلاثَةٌ خَجَّلوني : البندهيُّ حَضرَ المَجلسَ فقُدِّمَت فَواكِهُ ، منها مشمش فائِقٌ ، فأكَلَ وأَمْعَن ، فقُلْتُ : إنَّه مُلَطِّخُ المَعِدَة ، فقال : لا يُعجِبُني الرَّئيسُ إذا تَطيَّبَ ، والفرنديُّ قال : وقَد جِئتُ من دارِ السَّلْطَنَة وأنا ضَجِرٌ : مِنْ أينَ أقْبَلَ مَوْلانا ؟ قلتُ : مِنْ لَعْنَةِ الله ، قال : رَدَّ اللهُ غُربَةَ مَوْلانا . والثالثُ : المافرُّوخيُّ أيّامَ حُسْنِه داعَبتُه ، فقلتُ : رَأيتُك تَحْتي ، قال : مع ثلاثةٍ مِثْلي .

مات الصَّاحبُ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ وثَلاثِ مئة ، عن تسعٍ وخَمسينَ سَنة[4] .

---

(١) البيتان مع سبعة أبيات أخَر في « زهر الآداب » ٣/ ٢٦٣ ، في قصة جرت لمعن بن زائدة مع أعرابي .

(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٥ .

(٣) انظر السير : (ابن الباقلانيّ) ١٧/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٥ .

(٤) انظر السير : (الصّاحب) ١٦/ ٥١١ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣١٢ .

٦ـ الانقطاع وعَدم القُدرَة على الجَواب :

قال المُبَرِّدُ : قال ثُمامَةُ : خرجتُ إلى المأمونِ ، فرأيتُ مَجنوناً شُدَّ ، فقال : ما اسمُك ؟ قلتُ ثُمامَة ، فقال : المُتكَلِّمُ ؟ قلتُ : نَعم ، قال : جلستَ علىٰ هـٰذه الآجُرَّة ، ولم يأذن لك أهلُها ، فقلتُ : رأيتُها مَبذُولة ، قال : لعل لهم تَدبيراً غَير البَذْلِ ، متىٰ يجدُ النَّائمُ لذَّةَ النَّوم ؟ إنْ قُلتَ : قبلَه ، أحَلْتَ ، لأنَّه يَقظَانُ ، وإنْ قُلتَ : في النَّومِ ، أبطَلتَ ، إذْ النَّائمُ لا يَعْقل ، وإنْ قُلتَ : بعدَه فقد خَرجَ عنه ، ولا يوجَدُ شيءٌ بعدَ فَقْدِه ، قال : فما كان عندي فيها جَوابٌ[1] .

وعنه قال : عُدتُ رجلاً ، وتَركتُ حِماري علىٰ بابه ، ثم خرجتُ فإذا صَبيٌّ راكبُه ، فقلتُ : لِمَ رَكِبْتَه بغير إذني/ قال : خفتُ أن يَذهَبَ ، قلتُ : لو ذهبَ كان أهْوَنَ عليَّ ، قال : فهَبْهُ لي ، وعُدَّ أنَّه ذَهبَ ، واربَحْ شُكْري ، فلم أدْرِ ما أقول[2] .

صِرتُ إلىٰ أُمِّ ذي الرِّياسَتين ، الفَضلُ بن سَهْل ، أُعَزِّيها فيه ، وقلتُ : لا تأسَيْ عليه ، فإنِّي عِوَضُهُ لك ، قالت : يا أميرَ المؤمنين وكيفَ لا أحْزَنُ علىٰ ولدٍ أكْسَبَني مثلَك[3] .

وأُتيتُ بمُتَنبىءٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا موسى بن عِمْران ، قلتُ : وَيْحكَ! ، موسى بن عِمْران كانت له آياتٌ ، فائتِني بها حتىٰ أؤمنَ بك . قال : إنَّما أتيتُ بالمُعْجزات فِرْعَونَ ، فإنْ قُلتَ : أنا رَبُّكُم الأعْلىٰ كما قالَ ، أتيْتُكَ بالآياتِ .

وأتىٰ أهلُ الكوفَة يَشْكونَ عاملَهم ، فقال خَطيبُهم : هو شَرُّ عاملٍ ، أمّا في أوّلِ سنةٍ ، فبِعْنا الأثاثَ والعَقارَ ، وفي الثانية بِعْنا الضِّياعَ ، وفي الثالثة نَزَحْنا وأتيناكَ ، قال : كذَبتَ ، بلْ هو مَحْمودٌ ، وعَرَفتُ سُخطَكم على العُمّال . قال : صَدَقتَ يا أميرَ المؤمنين ، وكذَبتُ ، قد خَصَصْتَنا به مدّة دون باقي البلاد ، فاستعمِلْه علىٰ بلدٍ آخرَ

---

(١) انظر السير : (ثُمامَة بن أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٣ .
(٢) انظر السير : (ثُمامَة بن أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٤ .
(٣) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٨٧٦/ ٥ .

لِيَشْمَلَهم من عَدلِهِ وإنْصافِه ما شَمِلَنا . فقُلتُ : قُمْ في غير حِفظِ الله ، قد عَزَلْتُه[1] .

وقال عُبَيدُ الله بنُ يَحْيَىٰ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ أسْباط ، قال : حُملَ رجلٌ مُقيَّدٌ ، فأُدخِلَ على ابنِ أبي دُواد بحُضورِ الوَاثِق ، فقالَ لأحْمدَ : أخْبِرني عن ما دَعَوْتُم النَّاسَ إليه ، أَعَلِمَهُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما دَعا إليه ، أمْ شيءٌ لم يَعْلَمْه ؟ قال : بَلْ عَلِمَه . قال : فكانَ يَسَعُه أن لا يَدعوَ النَّاسَ إليه ، وأنتُم لا يَسَعُكم ؟! ، فبُهِتُوا ، وضَحِكَ الوَاثِقُ ، وقامَ قابِضاً علىٰ فَمِه ، ودَخلَ مَجْلساً ، ومدَّ رجْلَيه وهو يقولُ : أمرٌ وَسِعَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَسْكُتَ عنه ولا يَسَعُنا! ، ثم أمرَ أن يُعْطَى الشيخُ ثلاثَ مئة دينار ، وأنْ يُرَدَّ إلىٰ بَلدِه[2] .

* * *

(١) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٨٧٧ .

(٢) انظر السير : (الواثق بالله) ١٠/ ٣٠٦ـ ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٨٨٠/ ٩٩٩ .

ثانياً : العُلَماء

١ـ العُلماءُ قُدوَة لغيرهم :

عن موسى بن أعين : قال الأَوْزاعيُّ : كُنَّا نَضْحَكُ ونَمْزَحُ ، فلمَّا صرْنا يُقتدَىٰ بنا خَشيتُ أن لا يَسعَنا التَّبَسُّم[1] .

٢ـ مَكانةُ العُلَماء كانت عاليةً عند السَّلف :

عن يَحْيىٰ بنِ أكثَم ، قال : قالَ لنا المَأمونُ : لَولا مَكانُ يَزيدِ ابنِ هارون ، لأظْهَرتُ (القرآن مَخلوق) ، فقيل : ومَنْ يَزيد حتىٰ يُتَّقَى!! ؟ فقال : وَيْحَك إنِّي لأرْتَضيه لا أَنَّ لَه سَلْطَنَةً ، ولكن أخافُ إنْ أظْهَرتُه ، فيَردُّ عليَّ ، فيَختلفُ النَّاسُ ، وتكونُ فتنة[2] .

وقال ابنُ أبي حاتم : سَمعتُ أبا زرعَة يقول : دَعا المُعْتَصمُ بعمٍّ أحمد ، ثم قال للنَّاس : تَعْرفونَه ؟ قالوا : نَعم ، هو أحمدُ بنُ حَنْبَل ، قال : فانظُروا إليه ، أليسَ هو صَحيحُ البَدَن ؟ قالوا : نعم ، ولولا أنَّه فعل ذلك ، لكنتُ أخافُ أنْ يَقعَ شيءٌ لا يُقامُ له ، قالوا : ولما قال : قد سَلَّمْتُه إليكم صَحيحَ البَدَن ، هدأَ الناسُ وسَكَنوا .

قال الذهبيُّ : ما قال هـٰذا مع تَمكُّنِه في الخِلافَة وشَجاعَته إلاَّ عن أمرٍ كَبير كأنَّه خافَ أنْ يَموتَ من الضَّرْب ، فتَخرجُ عليه العامَّة ، ولو خَرجَ عليه عامَّةُ بَغْداد لرُبَّما عَجزَ عنهم وبَلَغَنا أنَّ المُعْتَصمَ نَدمَ ، وأُسْقطَ في يَده ، حتىٰ صَلُح[3] .

وقال المَرُّوذيُّ : مَرِضَ أحمدُ تسعةَ أيَّام ، وكان رُبَّما أذِنَ للنَّاس فيَدخُلوا عليه أفْوَاجاً ، يُسَلِّمون ويَرُدُّ بيَدِه وتَسامَعَ النَّاسُ وكَثروا .

---

(١) انظر السير : (الأوزاعي) ٧/١٠٧ـ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٨٥ .

(٢) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/٣٥٨ـ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٥/٨٢٩ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤٠ .

وجاءَ بَنو هاشم فدَخَلوا عليه ، جَعلوا يَبكُون عليه وجاءَ قَومٌ من القُضاة وغَيرهم ، فلمْ يُؤْذَن لهم ودَخلَ عليه شَيخٌ ، فقال : اذْكُر وُقوفَك بين يَدَي الله ، فشَهقَ أبو عبد الله ، وسالت دُموعُه .

فلمَّا كان قبلَ وَفاته بيَوم أو يَومَين ، قال : ادْعُوا لي الصِّبْيَان بلِسان ثَقيل قال : فجَعلوا يَنْضمُّون إليه يَشُمُّهم ويَمسَحُ رُؤوسَهم وعَينُه تَدمَع ، وأدخَلتُ تَحتَه الطَّسْتَ ، فرَأيتُ بَولَه دَماً عَبيطاً فقُلتُ للطَّبيب ، فقال : هـٰذا رَجلٌ فَتَّتَ الحُزنُ والغَمُّ جَوفَه .

واشْتدَّت عِلَّتُه يومَ الخَميس ووَضَّأتُه ، فقال : خَلِّل الأصابعَ ، فلمَّا كانت ليلةُ الجُمعة ، ثَقُلَ ، وقُبضَ صَدرَ النَّهار ، فصاحَ النَّاسُ ، وعَلت الأصْواتُ بالبُكاء حتىٰ كأنَّ الدُّنيا قد ارْتَجَّت ، وامْتَلأت السِّكَكُ والشَّوَارع[1] .

وقال الحَاكمُ : كان أبو محمَّد المغفَّلي إمامَ أهلِ خُراسان بلا مُدافَعة ، وقد حَجَّ بالنَّاسِ وخَطبَ بمكة ، وقُدِّمَ إليه المَقامُ وهو قاعدٌ في جَوْفِ الكَعْبَة ولقد سَمعتُهم بمَكةَ يَذكرونَ أنَّ هـٰذه الوِلايَة لم تَكنْ قَطُّ لغَيرِه ، ومن عَظمَته أنْ كان فَوقَ الوُزَراء ، وأنَّهم كانوا يَصدرُون عن رأيه وجاوَرَ مرَّة بمَكة ، وكُنتُ ببُخارَىٰ أسْتَملي له ، فذكر أنَّه حصل وَجْدٌ وشيءٌ من غَشي بسَبب إمْلاء حكايةٍ وأبْيات[2] .

٣ـ المحافظة على العلماء وعَدم الطَّعْن فيهم :

عن يَحْيَىٰ بنِ مَعين قال : إذا رَأيتَ إنْساناً يَقعُ في عِكْرِمَة ، وفي حمَّاد بنِ سَلمَةَ فاتَّهِمْهُ على الإسْلام .

قال الذهبي : هـٰذا مَحْمولٌ على الوُقوع فيهما بهَوىً وحَيْف في وَزْنهما ، أمَّا مَنْ نَقَلَ ما قِيلَ في جَرْحِهما وتَعْديلهما على الإنْصاف ، فقد أصاب[3] .

وقال عليُّ بنُ المَديني : حَمَّادُ بنُ سَلمَة هو عندي حُجَّة في رجال ، ومَنْ تكلَّم في حمَّاد فاتَّهِمُوه في الدِّين .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤٩ .

(٢) انظر السير : (المغفَّلي) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٨٢١ .

(٣) انظر السير : (عِكرمة) ٥/ ١٢ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٧٧ .

قال شِهابُ بنُ مُعمَّر البَلْخي : كان حمَّادُ بنُ سَلمَة يُعَدُّ من الأبْدال .

قال الذهبيُّ : كان مع إمامَته في الحَديث إماماً كَبيراً في العَربيّة ، فَقيهاً فَصيحاً ، رَأساً في السُّنة ، صاحبَ تَصانيف .

قال عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَهْدي : لو قِيلَ لحمَّادِ بنِ سَلمَة : إنَّكَ تَموتُ غَداً ، ما قَدرَ أنْ يزيدَ في العَمل شيئاً .

قال الذهبي : كانت أوْقاتُه مَعمورَةً بالتَّعبُّد والأوْراد[1] .

ورَوىٰ أحمدُ بنُ زُهَير ، عن يَحيَىٰ بنِ مَعين قال : إذا رَأيتَ إنْساناً يَقعُ في عِكْرِمَة ، وفي حمَّاد بنِ سَلمَة فاتَّهِمْهُ على الإسْلام[2] .

٤ـ سُنَّة الله أنَّ الكلامَ في العَالِم بهَوىً رافِعٌ له ومُعلٍ لقَدْره :

قال الذهبيُّ في تَرجمة الإمام الشافعيِّ : وما تَكلَّم فيه إلاَّ حاسِدٌ أو جاهِلٌ بحالِه ، فكان ذلك الكَلامُ الباطِلُ منهم مُوجباً لارتفاع شأنِه ، وعُلُوِّ قَدره ، تلكَ سُنَّةُ اللهِ في عِبادِه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾[3] ،[4] .

٥ـ كلُّ عالم لا يُفلِتُ من الخَطأ :

قال عيسَىٰ بنُ يُونُس : مَنْ يُفلِتُ من الخَطَأ ؟ رُبَّما رَأيت شريكاً يُخطيءُ ، ويُصَحِّفُ حتىٰ أستحيي[5] .

وعن عاصمٍ ، قال الكِسائيُّ : صَلَّيتُ بالرَّشيدِ ، فأخطأتُ في آيةٍ ما أخْطأَ فيها صَبيٌّ ، قلتُ : « لَعَلَّهُم يَرجِعِين » ، فو الله ما اجْتَرأَ الرَّشيدُ أنْ يَقولَ : أخْطأتَ لكن

---

(١) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧١٤ .
(٢) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمَة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/٧١٥ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآيتين ٦٩ ، ٧٠ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٦/٨٤٩ .
(٥) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٥ .

قالَ : أيُّ لُغَةٍ هـٰذه ؟ قُلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، قد يَعْثُرُ الجَوادُ قال : أمَا هـٰذا ، فنعَم[1] .

وعن خَلَفِ بنِ هِشام : أنَّ الكِسائيَّ قرأ على المِنْبَر : (أنا أكثرَ منك مالاً) بالنَّصْبِ ، فسألوهُ عن العِلَّة ، فثُرتُ في وُجوهِهم ، فمَحَوْهُ ، فقال لي : يا خَلفُ ، مَنْ يَسْلمُ من اللَّحْن ؟[2]

وقال يَحْيىٰ بنُ مَعين : لستُ أَعْجبُ ممَّن يُحدِّث فيُخطىء ، بل ممَّن يُصيب[3] .

٦ـ الحَثُّ علىٰ أخذ العِلْم من أهله :

عن أيُّوبَ ، قالَ محمّدُ بنُ سِيرين : إنَّ هـٰذا العِلمَ دينٌ فانْظُروا عَمَّن تَأخُذون دينكم[4] .

٧ـ أربعَةُ أصْناف لا يُؤخَذ عنهم العلْم :

عن مالك ، قال : لا يُؤخَذُ العلمُ عن أرْبَعة : سَفيهٍ يُعلِنُ السَّفَهَ ، وإنْ كان أرْوَى النَّاسِ ، وصاحبِ بِدْعَةٍ يَدعُو إلىٰ هَواه ، ومَنْ يَكذبُ في حَديثِ النَّاس ، وإنْ كُنتُ لا أتَّهِمُه في الحَديث ، وصالحٍ عابدٍ فاضِلٍ إذا كان لا يَحفظُ ما يُحدِّثُ به[5] .

٨ـ عُلَماءُ السوء :

عن هَرِمِ بنِ حَيَّان ، قال : إيّاكم والعَالِمِ الفاسِق فبَلغَ عُمر ، فكتب إليه وأشْفق منها : ما العالمُ الفاسِق ؟ فكَتبَ إليه : ما أرَدْتُ إلاَّ الخَيرَ ، يكونُ إمامٌ يَتكلَّمُ بالعِلمِ ويَعملُ بالفِسْقِ ، ويُشبِّه على النَّاسِ ، فيَضِلُّوا[6] .

---

(١) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٧ .
(٢) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٤/٨٠٧
(٣) انظر السير : (يَحيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٩١٣ .
(٤) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٦٨ .
(٥) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٢٨ .
(٦) انظر السير : (هَرم بن حيّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٥/٤٤٠ .

وقال الذهبيُّ : وقومٌ طَلَبوه - يَعني العِلمَ - بنيَّةٍ فاسِدَة لأجْلِ الدُّنيا وليُثْنَىٰ عَليهم فلَهُم ما نَوَوْا ، قال عليه السلام : « مَنْ غَزَا يَنْوِي عِقالاً فَلَهُ مَا نَوَىٰ »[1] وتَرىٰ هـٰذا الضربَ لَم يَستَضيؤُوا بنُورِ العِلم ولا لهم وَقْعٌ في النُّفوس ، ولا لعِلْمِهم كَبيرُ نَتيجة من العَمَل ، وإنَّما العَالمُ مَنْ يَخشى اللهَ تَعالَىٰ[2] .

وقَومٌ نالوا العِلمَ ووَلُوا به المَناصِب ، فظَلموا ، وتَرَكوا التَّقَيُّدَ بالعِلم ، ورَكبُوا الكَبائرَ والفَواحِشَ ، فتَبَاً لهم ، فما هـٰؤلاء بعُلماء[3] .

وبَعضُهم لمْ يَتَّقِ اللهَ في عِلمِه ، بل رَكبَ الحِيلَ ، وأفْتَىٰ بالرُّخَص ورَوَى الشَّاذَّ من الأخْبار ، وبَعضُهم اجْتَرأ على الله ووَضعَ الأحَاديثَ ، فهَتكَه اللهُ ، وذَهبَ عِلمُه ، وصارَ زادَه إلى النَّار وهَؤلاء الأقْسام كلُّهم رَوَوا من العلمِ شيئاً كَبيراً وتَضلَّعوا منه في الجُملَة فخَلفَ مِنْ بَعدهم خَلفٌ بانَ نَقصُهم في العِلمِ والعَمل وتَلاهُم قَومٌ انتَمَوا إلى العِلمِ في الظاهِر ، ولمْ يُتْقِنوا منه سِوَىٰ نَزْرٍ يَسير ، أوْهموا به أنَّهم عُلمَاء فُضَلاء ولمْ يَدُر في أذْهانِهم قَطُّ أنَّهم يَتقرَّبون به إلى الله ، لأنَّهم ما رَأوا شَيخاً يُقْتَدَىٰ به في العِلمِ ، فصاروا هَمَجاً رِعَاعاً ، غايَةُ المُدرِّس منهم أنْ يُحصِّلَ كُتباً مُثمَّنة يُخزِّنُها ويَنظُرُ فيها يوماً ما ، فيُصحِّفُ ما يُوردُه ولا يُقرِّرُه ، فنَسألُ اللهَ النَّجاةَ والعَفوَ ، كما قالَ بَعضُهم : ما أنا عالمٌ ولا رَأيتُ عالماً .

قال مُعاذُ بنُ هشام الدَّسْتُوائي : مَكثَ أبي - يَعني عاشَ - ثَمانياً وسَبعين سَنةً .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فهـٰذا يَدلُّ علىٰ أنَّه أسَنُّ من أبي حَنيفة وشُعْبَة ، وأنَّه وُلدَ في حَياةِ جابرِ بنِ عبد الله وطائفةٍ من الصَّحابَة .

قال الذهبيُّ : حَديثُه في الدَّوَاوينِ كلِّها إلاَّ « المُوَطَّأ »[4] .

---

(١) أخرجه أحمدُ : ٥/ ٣١٥ ، والدَّارميُّ : ٣/ ٢٠٨ ، والنَّسائيُّ : ٦/ ٢٤ ، من حديث عُبادَة بن الصامت ، مَرفوعاً ، بلفظ : « مَنْ غَزَا في سَبيلِ اللهِ ، ولَمْ يَنْوِ إلاَّ عِقَالاً ، فَلَهُ مَا نَوَىٰ » ، وفي مسند يَحيى بن الوليد بن عُبادة بن الصامت ، لم يوثقه غيرُ ابن حبّان ، وباقي رجاله ثقات .

(٢) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩-١٥٦ ، وانظر النزهة : ٧/ ٦٨٧ .

(٣) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩-١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٨٨ .

(٤) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩-١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/ ٦٨٨ .

٩ـ وجُوب الحِفاظ على العِلْم من الجُهَلاء :

قال الشافعيُّ : كان شُعْبَةُ يَجيءُ إلى الرَّجلِ ـ يَعني الذي لَيسَ أهْلاً للحَديث ـ فيقولُ : لا تُحدِّثْ ، وإلاَّ اسْتَعديتُ عليكَ السُّلطانَ[١] .

١٠ـ عُلَماءُ الصَّحابة :

عن مَسروقٍ قالَ : شَامَمْتُ أصحابَ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فوَجدتُ عِلمَهم انتَهىٰ إلىٰ سِتَّة : عليٍّ ، وعُمرَ ، وعبدِ الله ، وزَيدٍ ، وأبي الدَّرْداء ، وأُبَيّ ثم شَامَمْتُ السِّتَّةَ فوَجدتُ عِلمَهم انتَهىٰ إلىٰ عليٍّ وعبدِ الله[٢] .

وعن أبي موسىٰ قال : ما أشْكَلَ عَلينا أصْحابَ محمَّد صلى الله عليه وسلم حَديثٌ قَطّ ، فسَألنا عائشةَ ، إلاَّ وَجدْنا عندها منهُ علماً[٣] .

وعن أبي الضُّحَىٰ ، عن مَسْروقٍ ، قال : قُلنا له : هل كانت عائشةُ تُحْسِنُ الفَرائِضَ ؟ قال : والله ، لَقد رَأيتُ أصْحابَ محمَّد صلى الله عليه وسلم الأكابر يَسألونَها عن الفَرائِض[٤] .

وعن هشام ، عن أبيه ، قال : لقد صَحِبتُ عائشةَ ، فما رَأيتُ أحَداً قَطُّ كان أعلَم بآيةٍ أُنزلَت ، ولا بفَريضَةٍ ، ولا بسُنَّةٍ ، ولا بشِعْرٍ ، ولا أَرْوَىٰ له ، ولا بيَومٍ من أيّام العَرب ، ولا بنَسَبٍ ، ولا بكذا ، ولا بقَضاءٍ ، ولا طِبٍّ ، منها فقُلتُ لها : يا خالَة ، الطِّبُّ ، من أين عَلِمْتِه ؟ فقالت : كُنتُ أمْرَضُ فيُنْعَتُ لي الشيءُ ، ويَمْرضُ المَريضُ فيُنْعَتُ له ، وأسْمَعُ النَّاسَ يَنْعَتُ بَعضُهم لبَعضٍ ، فأحْفَظُه[٥] .

وقال الزُّهْريُّ : لوْ جُمعَ عِلمُ عائشَةَ إلىٰ عِلْمِ جَميعِ النِّساءِ ، لكانَ عِلْمُ عائشَةَ أفْضَل[٦] .

---

(١) انظر السير : (شُعبة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٨/٦٩٣ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مَسْعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٩٧ .
(٣) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٤٢ .
(٤) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٥/٢٤٢ .
(٥) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ١/٢٤٣ .
(٦) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٤٣ .

وعن يَزيدِ بنِ مُعاويَة ، قال : إنَّ أبا الدَّرْداء من العُلَماء الفُقَهاء ، الذين يَشْفُون من الدَّاء عن سالمِ بنِ أبي الجَعْد ، قال أبو الدَّرْداء : ما لي أرَىٰ عُلماءَكم يَذهَبون ، وجُهَّالَكم لا يَتعلَّمون! تَعلَّموا ، فإنَّ العَالِمَ والمُتَعلِّمَ شَريكان في الأجْرِ[1] .

١١ـ ذِكر لأعظَم عُلماء الإسْلام في عُلوم متعَددة :

عن خُصَيفٍ ، قال : كان أعلَمُهم بالقُرآن مُجاهد ، وأعلَمُهم بالحَجِّ عَطاء ، وأعلَمُهم بالحَلال والحَرام طاوُوس ، وأعلَمُهم بالطَّلاق سَعيد ابن المسَيِّب ، وأجمَعُهم لهٰذه العُلوم سَعيدُ بنُ جُبَير[2] .

وقال الذهبيُّ في تَعقيب له : الكتابةُ مُسَلَّمةٌ لابن البوَّاب ، كما أنَّ أقْرأ الأُمَّة أُبَيُّ بنُ كَعب ، وأقْضَاهم عَليٌّ ، وأفْرَضَهم زَيْدٌ ، وأعلَمَهم بالتَّأويل ابنُ عبَّاس ، وأمينَهم أبو عُبَيْدَة ، وعابرَهم محمدُ بنُ سيرين ، وأصْدَقَهم لَهْجَةً أبو ذَر ، وفَقيهَ الأُمَّة مالكٌ ، ومُحَدثَهم أحمدُ بنُ حَنْبَل ، ولُغَوِيَّهم أبو عُبَيْد وشاعِرَهم أبو تَمَّام ، وعابدَهم الفُضَيلُ ، وحافِظَهم سُفْيانُ الثَّوري ، وأخْبارِيَّهم الوَاقِديُّ ، وزَاهِدَهم مَعْروفٌ الكَرْخي ، ونَحَوِيَّهم سِيبَوَيْه ، وعَرُوضِيَّهم الخَليلُ وخَطيبَهم ابنُ نباتة ، ومُنْشِئَهم القاضي الفاضل ، وفارِسَهم خالدُ بنُ الوَليد ، رَحِمَهم الله[3] .

١٢ـ ذِكر عدَّة طَبقات من العُلماء :

قال الذهبيُّ في تَرجَمة عبدِ الله بن لَهيعَة : لا رَيبَ أنَّ ابنَ لَهيعَة كان عالمَ الدِّيارِ المِصْريّة ، هو واللَّيث مَعاً ، كما كان الإمامُ مالك في ذلك العَصر عالمَ المَدينَة ، والأوزاعيُّ عالمَ الشَّام ، ومَعْمَرٌ عالمَ اليَمن ، وشُعْبَةُ والثَّوْريُّ عالما العراق ، وإبراهيمُ بنُ طَهْمان عالمَ خُراسان ، ولكنَّ ابنَ لَهيعَة تَهاوَن بالإتْقان ، ورَوىٰ مَناكير ، فانْحَطَّ عن رُتبَة الاحْتجاجِ به عندهم[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧١/ ٤ .

(٢) انظر السير : (سعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥٠٨/ ١ .

(٣) انظر السير : (عليُّ بن هلال بن البوّاب) ١٧/ ٣١٥ـ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ١٣٤٣/ ٣ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ٣١ ، وانظر النزهة : ٧٢١/ ٢ .

وقال محمدُ بنُ غَيلان : سَمعتُ أبا أسامة يقولُ : كان عُمرُ في زَمانهِ رَأسَ النَّاسِ ، وهو جامعٌ ، وكان بعدَه ابنُ عبَّاس في زَمانه ، وبعدَه الشَّعبيُّ في زَمانه ، وكان بعدَه سُفيانُ الثَّوريُّ ، ثم كان بعد الثَّوريِّ يَحيَى ابنُ آدَم[1] .

وقال الذهبيُّ مُعَقِّباً : قد كان يَحيىٰ بنُ آدَمَ من كبار أئمَّة الاجْتهاد ، وقد كان عُمرُ كما قالَ في زَمانه ، ثم كان عَليٌّ وابنُ مَسْعود ، ومُعاذٌ ، وأبو الدَّرْداء ، ثم كان بعدَهم في زَمانه زَيدُ بنُ ثابت ، وعائشةُ ، وأبو موسىٰ ، وأبو هُرَيرة ، ثم كان ابنُ عبَّاس ، وابنُ عُمر ثم عَلْقَمة ، ومَسْروق ، وأبو إدْريس ، وابنُ المُسيِّب[2] .

ثم عُرْوَةُ ، والشَّعْبيُّ ، والحَسَنُ ، وإبراهيمُ النَّخْعي ، ومُجاهِد ، وطاوُوس ، وعِدَّةٌ ، ثم الزُّهْريُّ ، وعُمرُ بنُ عبد العَزيز ، وقَتادَةُ ، وأيُّوبُ ، ثم الأعْمَشُ ، وابنُ عَونٍ ، وابنُ جُرَيج ، وعُبَيدُ الله بنُ عُمر ، ثم الأوْزاعيُّ ، وسُفيانُ الثَّوريُّ ، مَعْمَرٌ ، وأبو حَنيفَة ، وشُعْبةُ ، ثم مالكٌ ، واللَّيثُ ، وحَمَّادُ بنُ زَيد ، وابنُ عُيَيْنَة ، ثم ابنُ المُبارَك ، ويَحْيَى القَطَّان ، ووَكيعٌ ، وعبدُ الرَّحمَـٰن ، وابنُ وَهْب ، ثم يَحْيَىٰ بنُ آدَم ، وعَفَّانٌ ، والشَّافعيُّ ، وطائفةٌ ، ثم أحمدُ ، وإسْحاقُ ، وأبو عُبَيد ، وعليُّ ابنُ المَديني ، وابنُ مَعين ، ثم أبو محمَّد الدَّارميُّ ، ومحمدُ بن إسْماعيلُ البُخاريّ ، وآخَرون من أئمَّة العلمِ والاجْتهاد .

واتَّفَقَ مَوتُه ـ يَعني يَحْيَىٰ بنَ آدَم ـ غَريباً في سَنة ثلاث ومئتين[3] .

١٣ـ صفاتُ مَجالس العُلماء :

قال السَّرَّاجُ : حَدَّثنا قُتَيْبَةُ : كنَّا إذا دَخلنا علىٰ مالك ، خَرجَ إلينا مُزَيَّنَا مُكحلاً مُطيَّباً قد لَبسَ من أحْسَن ثيابِه ، وتَصدَّرَ الحَلقَة ، ودَعا بالمَراوح ، فأعْطَىٰ لكلٍّ منَّا مَروَحةً[4] .

---

(١) انظر السير : (يَحيى بن آدَم) ٩/ ٥٢٢ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٣٧ .

(٢) انظر السير : (يَحيى بن آدَم) ٩/ ٥٢٢ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٣٧ .

(٣) انظر السير : (يَحيى بن آدَم) ٩/ ٥٢٢ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٣٨ .

(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٢٨ .

وكان اللَّيثُ بنُ سَعد له كلَّ يومٍ أربَعَةُ مَجالس يَجلسُ فيها : أمَّا أوَّلُها ، فيَجلسُ لنائبَة السُّلطان في نوائبه وحَوائجه ، وكان اللَّيثُ يَغشاهُ السُّلطانُ ، فإذا أنْكَرَ من القاضي أمْراً أو من السُّلطان ، كتبَ إلىٰ أميرِ المؤمنين ، فيأتيه العَزلُ ، ويَجلسُ لأصحابِ الحَديثِ ، وكان يقولُ : نَجِّحُوا أصْحابَ الحَوانيت[1] ، فإنَّ قُلوبَهم مُعَلَّقَةٌ بأسْواقِهم ، ويَجلسُ للمَسائل ، يَغشاهُ النَّاسُ ، فيَسألُونَه ، ويَجلسُ لحَوائجِ النَّاس ، لا يَسألُه أحَدٌ فيَردُّه ، كَبُرَت حاجَتُه أو صَغُرَت وكان يُطعِمُ النَّاسَ في الشِّتاءِ الهَرائسَ بعَسَل النَّحْلِ وسَمْنِ البَقَر ، وفي الصَّيفِ سَويقَ اللَّوْزِ في السُّكَّر[2] .

وقال الحُسَينُ بنُ محمّد بنِ عُفَير : حدَّثنا أحمدُ بنُ سِنان قال : كان عبدُ الرحمَـٰن بنُ مَهْدي لا يُتَحدَّثُ في مَجلسِه ، ولا يقومُ أحدٌ ، ولا يُبرَىٰ فيه قَلم ، ولا يَبتسِمُ أحدٌ ، وكان وَكيعٌ يكُونونَ في مَجلسِه كأنَّهم في صَلاة فإنْ أنْكَرَ من أمرِهم شَيئاً انْتَعلَ ودَخلَ ، وكان ابنُ نُمَير يَغضَبُ ويَصيحُ وإنْ رَأىٰ مَنْ يَبْري قَلماً ، تَغيَّر وَجهُه غَضباً[3] .

وكان ابنُ الشَّجريّ فَصيحاً حُلوَ الكَلام ، وَقُوراً ذا سَمتٍ ، لا يَكادُ يَتكلَّم في مَجلسِه بكلمةٍ إلاَّ وتَتَضمَّنُ أدَبَ نَفسٍ أو أدَبَ دَرسٍ ، ولقد اخْتَصمَ إليه عَلويان فقال أحدُهما : قال لي : كَذا وكَذا قال : يا بُنَيَّ احْتمِلْ ، فإنَّ الاحْتمالَ قَبرُ المَعايب . .

تُوفِّي سَنةَ اثنتين وأربَعين وخَمس مئة ، ودُفِنَ بدارِه[4] .

وكان الإمامُ عبدُ الغَني المَقْدسيّ رَحمَهُ الله يَقرأُ الحَديثَ يوم الجُمعَة بجامع دِمَشْق وليلةَ الخَميس ، ويَجتمعُ خَلقٌ ، وكانَ يَقرأُ ويُبْكي النَّاسَ كَثيراً حتىٰ إنَّ مَنْ حَضَرَه مرَّةً لا يَكادُ يَترُكُه ، وكان إذا فَرَغَ دَعا دُعاءً كَثيراً .

قال الضِّياءُ : سَمعتُ شَيخَنا ابنَ نجا الواعِظَ بالقَرافَة يقولُ على المِنْبَر : قد جاء

---

(١) أي ابدؤوا بهم .
(٢) انظر السير : (اللَّيث بن سعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٦/٧٣٩ .
(٣) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٦/٨١٠ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الشَّجريّ) ٢٠/ ١٩٤ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٠ .

الإمامُ الحافظُ ، وهو يُريدُ أنْ يَقرأَ الحَديثَ فأشْتَهي أنْ تَحضُروا مَجلسَه ثلاثَ مرّات ، وبعدَها أنتم تَعرفونَه وتَحصُلُ لكم الرَّغبَة ، فجلسَ أوَّلَ يومٍ ، وحَضرتُ ، فقرأ أحاديث بأسانيدِها حِفْظاً ، وقرأَ جُزءاً ففَرحَ النَّاسُ به ، فسَمعتُ ابنَ نجا يقولُ : حَصلَ الذي كُنتُ أُريدُه في أوَّلِ مَجلس .

وسَمعتُ بَعضَ مَنْ حَضرَ يقولُ : بَكى النَّاسُ حتىٰ غُشيَ علىٰ بَعضِهم وكان يَجلسُ بمِصْرَ بأماكِن .

سَمعتُ مَحمودَ بن هَمَّام الأنْصاريَّ يقولُ : سَمعتُ الفَقيهَ نَجمَ ابنَ عبد الوَهَّاب الحَنْبليَّ يقولُ وقد حَضرَ مجلسَ الحافظ : يا تَقيَّ الدِّين والله لقد حَملتَ الإسْلامَ ، ولو أمْكَنني ما فارَقتُ مَجلسَك[1] .

١٤ـ الحَثُّ علىٰ لُزوم العالم مدَّة طَويلة من غير مَلَل :

قال القَعْنَبيُّ : سَمعتُ مَالكاً يقولُ : كان الرَّجلُ يَختلفُ إلى الرَّجلِ ثَلاثينَ سَنةً يَتعلَّمُ منه[2] .

وقال أحمدُ بنُ حَنبل : قال غُنْدَر : لَزِمْتُ شُعبَةَ عشرينَ سَنةً[3] .

وقال أحمدُ بنُ أخي ابنِ وَهْب : حدَّثنا عَمِّي قالَ : خَرجتُ أنا وابنُ القاسم بضعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ مالك فسَنةً أسْألُ أنا مَالكاً ، وسَنةً يسْألُه ابنُ القاسم[4] .

وقال أحمدُ بنُ سِنان القَطَّان : سَمعتُ مَهدي بنَ حَسَّان يقولُ : كان عبدُ الرحمـٰن يكونُ عند سُفيانَ عشرةَ أيَّام وخَمسةَ عَشرَ يوماً باللَّيلِ والنَّهار ، فإذا جاءَنا ساعةً ، جاءَ رسُول سُفيان في أَثَرِه يَطلُبُه ، فيدَعُنا ويَذهبُ إليه[5] .

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٤ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٣٦ .
(٣) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/٨٠٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٦/٨٠٥ .
(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن مَهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٦/٨١٧ .

١٥ـ الحَثُّ علىٰ مُجالسة أكثر من عالم حتىٰ يُعرَف الخَطأ من الصَّواب :

قال الخَليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيدي : لا يَعرفُ الرجلُ خَطأَ مُعلِّمِه ، حتىٰ يُجالسَ غَيرَه[١] .

١٦ـ مساعَدةُ العَامَّةِ العُلماءَ في الثَّبات على الحَقِّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة أحمدَ بنِ حَنبلَ : إنَّ المَأمونَ نَظرَ في الكَلامِ ، وناظَرَ ، وبَقيَ مُتوقِّفاً في الدُّعاء إلىٰ بِدْعَته[٢] .

وقال الإمامُ أحمدُ وهو في سِجْنِه : لَستُ أُبالي بالحَبْس ، وما هو ومَنْزلي إلاَّ واحدٌ ، ولا قَتلاً بالسَّيفِ إنَّما أخافُ فِتنَةَ السَّوْط فسَمعَه بعضُ أهل الحَبْس ، فقال : لا عَليك يا أبا عبد الله ، فما هما إلاَّ سَوْطان ، ثم لا تَدري أين يَقعُ الباقي ، فكأنه سُرِّيَ عنه[٣] .

قال أبو عبد الله : ما رأيتُ أحداً علىٰ حَداثَة سِنِّه ، وقدْرِ عِلْمِه أقوَمَ بأمر الله من محمّدِ بنِ نُوح ، إنِّي لأرجو أن يكون قَدْ خُتمَ له بخَير ، قال لي ذاتَ يومٍ : يا أبا عبد الله ، اللهَ الله ، إنَّكَ لَستَ مثلي أنتَ رجلٌ يُقْتَدَىٰ بك قد مَدَّ الخَلقُ أعْناقَهم إليك ، لِمَا يكون منك ، فاتَّقِ اللهَ واثْبُتْ لأمر الله ، أو نَحْو هـٰذا فماتَ ، وصَلَّيتُ عليه ودَفَنْتُه .

قال صالحٌ : وصارَ أبي إلىٰ بَغْدادَ مُقيَّداً ، ثم حُبسَ في دارٍ اكتُريت عند دار عُمارة ، ثم حُوِّلَ إلىٰ حَبْسِ العامّة في درب المَوْصِليَّة فقال : وذلك بعد مَوْت المَأمونِ بأربعةَ عَشر شَهراً ، حُوِّلتُ إلىٰ دار إسْحاقَ ابنِ إبراهيمَ ـ يَعْني : نائبَ بَغْداد .

فلمَّا كان في اللَّيلة الرابعة ، وَجَّهَ ـ يَعْني المُعْتَصم ـ ببُغا الكَبير إلىٰ إسْحاقَ ، فأمرهُ بحَملي إليه ، فأُدْخلتُ علىٰ إسْحاقَ ، فقال : يا أحمدُ إنَّها والله نَفْسُك ، إنَّه لا يَقتُلُك

---

(١) انظر السير : (الخَليل بنُ أحمد) ٧/ ٤٢٩ـ ٤٣١ ، وانظر النزهة : ٣/٧١٣ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٣ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٤ .

بالسَّيفِ ، إنَّه قد آلَىٰ ، إنْ لَمْ تُجِبْهُ ، أن يَضربَكَ ضَرباً بعد ضَرب وأنْ يَقْتُلَكَ في مَوضع لا يُرىٰ فيه شَمسٌ ولا قَمرٌ أليسَ قد قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾[1] أفيكونُ مَجْعولاً إلاَّ مَخْلوقاً ؟ فقلتُ : فقد قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[2] ، أفخَلَقَهم ؟ قال : فسكتَ ، فلمَّا صِرْنا إلى المَوْضع المَعروف بباب البُسْتان أُخرجتُ ، وجيءَ بدابةٍ فأُركبتُ وعليَّ الأقْيادُ ، ما مَعي مَن يُمْسكُني ، فكِدتُ غيرَ مرَّة أن أخِرَّ علىٰ وَجْهي لِثقلِ القيود فجيءَ بي إلىٰ دار المُعْتَصم ، فأُدخلتُ حُجْرةً ، ثم أُدخلتُ بَيتاً ، وأُقفِلَ البابُ عليَّ في جَوفِ اللَّيل ، ولا سِراج ، فأردْتُ الوُضوءَ ، فمَدَدتُ يَدي ، فإذا بإناءٍ فيه ماءٌ ، وطسْتٌ مَوضوعٌ ، فتَوَضأتُ وصَلَّيتُ .

فلمَّا كان من الغَد ، أَخرجتُ تَكَّتي ، وشَدَدتُ بها الأقْيادَ أحْملُها وعطفتُ سَراويلي فجاء رسُولُ المُعْتَصم ، فقال : أَجبْ ، فأخذَ بيَدي ، وأدخلَني عليه ، والتَّكَةُ في يدي ، أَحْملُ بها الأقْيادَ ، وإذا هو جالسٌ ، وأحمدُ بنُ أبي دُوَاد حاضرٌ ، وقد جَمعَ خَلقاً كَثيراً من أصْحابه ، فقال لي المُعْتَصمُ : ادْنُه ادْنُه فلم يَزَلْ يُدْنيني حتىٰ قَرُبتُ منه ، ثم قال : اجْلسْ فجَلَسْتُ ، وقد أثقَلَتْني الأقْيادُ ، فمَكثَ قَليلاً ، ثم قُلتُ : أتأذَنُ في الكلام ؟ قال : تكلَّمْ ، فقلتُ : إلىٰ ما دَعا اللهُ ورسولُه ؟ فسَكتَ هُنَيْهَةً ، ثم قال : إلىٰ شَهادة أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، فقُلتُ : فأنا أشْهَدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ثم قلتُ : إنَّ جَدَّكَ ابنَ عبّاس يقول : لمَّا قَدمَ وَفْدُ عبد القَيْس علىٰ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، سَألوه عن الإيمان ، فقال : « أَتَدْرُونَ مَا الإيمَانُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعْلم ، قال : « شَهادَةُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، وأنَّ مُحمَّداً رَسُولُ الله ، وإقَامُ الصَّلاة ، وإيتَاءُ الزَّكاة ، وأنْ تُعْطُوا الخُمْسَ مِنَ المَغْنَم » قال أبي : فقال ـ يَعْني المُعْتَصم : لَوْلا أنِّي وَجَدتُك في يَد مَنْ كان قَبْلي ، ما عَرَضْتُ لك[3] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣ .
(٢) سورة الفيل ، الآية : ٥ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٣٤ .

١٧ـ مُكافَأةُ العامَّةِ العُلماءَ علىٰ ثَباتِهم على الحَقِّ :

قال القاسمُ بنُ أبي صالح : سَمعتُ إبراهيمَ بنَ ديزيل يقولُ : لمَّا دُعيَ عَفَّانُ للمِحْنَة كنتُ آخذاً بلِجام حِمارِه ، فلمَّا حَضَرَ عُرِضَ عليه القَولُ ، فامْتَنعَ أنْ يُجيبَ ، فقيلَ له : يُحْبَسُ عَطاؤكَ ـ قال : وكان يُعْطَىٰ كُلَّ شَهرٍ ألفَ دِرْهم ـ فقال : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[١] ، فلمَّا رَجعَ إلىٰ داره عَذَلَه نِساؤُه ومَنْ في دارِه ، قال : وكان في دارِه نَحْوَ أرْبَعينَ إنْساناً ، فدَقَّ عليهم داقٌّ البابَ ، فدخلَ عليهم رجلٌ شَبَّهْتُه بسمَّان أو زَيَّات ، ومَعه كيسٌ فيه ألفُ دِرْهَم ، فقال : يا أبا عُثْمان ثَبَّتَكَ اللهُ كما ثَبَّتَّ الدِّين ، وهٰذا في كُلِّ شَهر[٢] .

١٨ـ عَلاقَة العُلَماء بالمُلوك والأُمَراء والكبَراء :

(أ) الدُّخولُ عليهم ووَعْظُهم :

عن عَطيّة بنِ قَيْس ، قال : دَخلَ أبو مُسلم الخَولاني علىٰ مُعاوِيَةَ ، فقامَ بين السِّماطَين فقال : السَّلامُ عليكَ أيُّها الأَجيرُ فقالوا : مَهْ قالَ : دَعُوه ، فهو أعْرَفُ بما يَقولُ وَعَليكَ السَّلامُ يا أبا مُسْلم ثم وَعَظَه ، وحَضَّه على العَدْل .

قال المُفضَلُ بنُ غَسَّان الغَلابي : إنَّ علقَمة وأبا مُسلم ماتا في سنة اثنين وستِّين فاللهُ أعلمُ .

وبداريَّا قَبرٌ يُزارُ ، يُقالُ : إنَّه قَبرُ أبي مُسلم الخَولاني ، وذلك مُحْتمَل[٣] .

وعن مُطَهَّر بنِ الهَيثَم الطَّائي ، عن أبيه ، قال : حَجَّ سُليمانُ بنُ عبد المَلك ، فخَرجَ حاجبه فقال : إنَّ أميرَ المؤمنين : قال : ابغُوا لي فَقيهاً أساله عن بعضِ المَناسِك ، قال : فمَرَّ طاوُسٌ ، فقالوا : هٰذا طاوُوسُ اليَمانيّ ، فأخذه الحاجب ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، قال : أعفني ، فأبىٰ ، ثم أدخَلَه عَليه ، قال طاوُوسٌ :

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٢٢

(٢) انظر السير : (عَفَّان) ١٠/٢٤٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/٨٧٤ .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٤/٤٣٢ .

فلمَّا وَقفْتُ بين يَديْه قُلتُ : إنَّ هـٰذا المَجلسَ يَسألُني اللهُ عنه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! إنَّ صَخْرةً كانت علىٰ شَفير جُبٍّ في جَهنَّم ، هَوتْ فيها سَبعينَ خَريفاً ، حتى اسْتقرَّت قرارَها ، أتَدْري لمَن أعدَّها اللهُ؟ قال : لا ، وَيْلَكَ لمَن أعَدَّها ؟ قال : لمَن أشْرَكَه اللهُ في حُكْمِه فجارَ ، قال : فبَكَىٰ لها[1] .

وقيلَ : رَأىٰ سُليمانُ بنُ عبد الملك بالمَوسِمِ الخَلقَ ، فقال لعُمرَ ابنِ عبدِ العَزيز : أما تَرىٰ هـٰذا الخَلقَ الذين لا يُحْصيهم إلاَّ اللهُ ، ولا يَسعُ رزقَهم غَيرُه! قال : يا أميرَ المؤمنين! هـٰؤلاء اليومَ رَعيَّتُك ، وهم غداً خُصَماؤُك ، فبَكىٰ وقال : بالله أستعين .

وعن ابن سيرين قال : يَرحَمُ اللهُ سُليمانَ افْتتحَ خِلافَتَه بإحْياءِ الصَّلاة ، واخْتتَمَها باسْتخلافِه عُمرَ[2] .

وقيلَ لمالك : إنكَ تَدخلُ على السُّلطان ، وهم يَظلِمونَ ، ويَجُورونَ ، فقال : يَرحَمُكَ اللهُ ، فأيْنَ المُكلِّمُ بالحَقِّ[3] .

وقال ابنُ الجَوْزي : كان الإمامُ الزُّبَيْدي يقول الحقَّ وإنْ كان مُرّاً ، لا تأخذه في الله لَوْمَة لائم ، قيل : دَخَل على الوَزيرِ الزينبي وعليه خلْعة الوَزارَة وهم يُهنِّئونَه ، فقال : هو ذا يومُ عَزاء ، ولا يوم هَناء ، فقيل : ولِمَ : أهَنِّىءُ علىٰ لبسِ الحَرير ؟![4] .

وقال ابنُ الجَوْزيّ يوماً في وَعْظِه : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ تَكلَّمتُ ، خِفْتُ منكَ ، وإنْ سَكتُّ ، خِفتُ عَليك ، وأنا أُقدِّمُ خَوْفي عَليك علىٰ خَوْفي منك ، فقَولُ النَّاصِح : اتَّقِ اللهَ خيرٌ من قَولِ القائِل : أنتُم أهلُ بَيتٍ مَغفورٌ لكم[5] .

إذا اضْطُروا للدُّخولِ عَليهم فإنَّهم يَصْدَعونهم بالحَقّ :

قال أبو خُلَيْد عُتْبَةُ بنُ حَمَّاد القارىء ، حدَّثَنا الأوْزاعيُّ قالَ : بعثَ عبدُ الله بنُ عليّ

---

(١) انظر السير : (طاووس) ٥/٣٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٧٨ .
(٢) انظر السير : (سليمان بن عبد الملك) ٥/ ١١١ـ١١٣ ، وانظر النزهة : ٦/٥٨٥ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/٧٣٦ .
(٤) انظر السير : (الزُّبيْدي) ٢٠/٣١٦ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥٥ .
(٥) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٣٤ .

إليَّ فاشْتدَّ ذلكَ عليَّ وقَدمتُ ، فدخلتُ ، والناس سِماطان[1] فقال : ما تَقولُ في مَخرجِنا وما نَحنُ فيه ؟ قلتُ : أَصْلحَ اللهُ الأميرَ! قد كانَ بَيني وبَينَ داودَ بنِ عليٍّ مَودَّة قال : لَتُخبرَنِّي فتَفكَّرتُ ثم قلتُ : لأصْدُقَنَّه ، واستبسلتُ[2] للموتِ ثم رَويتُ له عن يَحْيىٰ بنِ سَعيد حَديثَ (الأعْمال)[3] وبيَدِه قَضيبٌ يَنْكتُ به ، ثم قال : يا عبدَ الرَّحمَـٰن : ما تَقولُ في قَتلِ أهلِ هـٰذا البَيتِ ؟ قُلتُ : حدَّثني محمدُ بنُ مَرْوان ، عن مُطَرِّفِ بنِ الشِّخير ، عن عائشَةَ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قالَ : « لا يَحِلُّ قَتْلُ المُسْلِمِ إلاَّ في ثَلاثٍ » وساقَ الحَديثَ .

فقال : أخبِرْني عن الخِلافَة ، وَصيَّةٌ لنا من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلتُ : لو كانت وَصيَّةً من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ماترك عليٌّ رضي الله عنه أحداً يَتقدَّمُه قال : فما تَقولُ في أَمْوالِ بَني أُمَيَّة ؟ قُلتُ : إنْ كانت لهم حَلالاً فهي عليكَ حَرامٌ ، وإن كانت عَليهم حَراماً ، فهي عَليك أحْرَمُ فأمَرَني ، فأُخْرِجتُ[4] .

قال الذهبيُّ : قد كان عبدُ الله بنُ علي مَلكاً جَبَّاراً ، سَفَّاكاً للدماء ، صَعبَ المِراسِ ، ومع هـٰذا فالإمامُ الأوْزاعيُّ يَصدَعُه بمُرِّ الحَقِّ كما تَرىٰ ، لا كخَلقٍ من عُلماءِ السُّوء ، الذين يُحَسِّنونَ للأمَراء ما يَقتَحمون به من الظُّلم والعَسف ، ويَقلِبون لهم الباطلَ حَقاً ـ قاتَلَهم اللهُ ـ أو يَسْكُتون مع القُدرَة علىٰ بَيان الحَق[5] .

عن سُفْيانَ قال : أُدْخلتُ على المَهْديِّ بمِنَىٰ ، فسلَّمتُ عليه بالإمْرَةِ ، فقالَ : أيُّها الرَّجُل! طَلبْناكَ ، فأعْجزْتَنا ، فالحَمدُ لله الذي جاءَ بكَ ، فارْفَعْ إلينا حاجَتَك فقُلتُ : قد مَلأتَ الأرضَ ظُلْماً وجُوراً ، فاتَّقِ اللهَ ، وليَكُنْ منك في ذلك عِبْرَة فطأطأ رأسَه ، ثم قال : أرأيتَ إنْ لمْ أسْتَطِعْ دفعَه ؟ قال : تُخَلِّيه وغيرَك فطَأطَأ رأسَه ، ثم قال : ارْفَعْ إلينا حاجَتَك قلتُ : أبْناءُ المُهاجرينَ والأنْصارِ ومَنْ تَبِعَهم بإحْسانٍ بالبابِ ، فاتَّقِ اللهَ ،

---

(١) سماطان : صفّان .

(٢) يُقالُ : أبْسلَ نفسَه للموت ، واستبسَلَ : إذا وَطَّنَ نفسه عليه واستيقنه .

(٣) إنَّما الأعمالُ بالنيَّات .

(٤) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/١٠٧ـ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٩/٦٨٣ .

(٥) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/١٠٧ـ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٨٤ .

وأَوْصِلْ إليهم حُقوقَهم فطأطأَ رأسَه ، فقال أبو عُبَيْد الله : أيُّها الرَّجلُ ارْفَعْ إلينا حاجَتَك قلتُ : وما أرْفَع ، حدَّثَنا إسْماعيلُ بنُ أبي خالد ، قال : حَجَّ عُمرُ ، فقالَ لخازِنه : كمْ أنْفَقْتَ ؟ قال : بِضْعَةَ عشرَ دِرْهَماً وإنِّي أرىٰ ها هُنا أُمُوراً لا تُطيقُها الجِبالُ[1] .

الدُّخولُ عليهم لقضاء حاجات النَّاس وأمْرِهم بالمَعْروف ونَهيِهم عن المُنْكر :

عن رجاءِ بنِ حَيْوَة ، قال : كُنتُ واقفاً علىٰ بابِ سُليمانَ إذْ أتاني آتٍ لمْ أرَه قبلُ ولا بَعدُ ، فقال : يا رَجاء ، إنَّك قد ابْتُليتَ بهٰذا وابْتُلي بك ، وفي قُربِه الوَتَغُ[2] ، فعَليك بالمَعروفِ وعَونِ الضَّعيفِ ، يا رَجاء ، مَنْ كانت له مَنزِلةٌ من سُلطان ، فرَفعَ حاجَةَ ضَعيفٍ لا يَستطيعُ رَفْعَها ، لَقيَ اللهَ وقد شَدَّ قَدمَيه للحِسابِ بين يَديَه .

قال الذهبيُّ : كان رَجاء كَبيرَ المَنزِلَة عندَ سُليمانَ بنِ عبدِ المَلك ، وعندَ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز ، وأجْرَى اللهُ علىٰ يَدَيه الخَيرات ثم إنَّه بَعدَ ذلكَ أُخِّرَ ، فأقْبلَ علىٰ شأنِه[3] .

وقال الأصْمَعيُّ : دَخلَ عَطاءُ بنُ أبي رَباح علىٰ عبدِ المَلك ، وهو جالسٌ على السَّرير ، وحَولَه الأشْرافُ ، وذلك بمَكة في وَقتِ حَجِّه في خِلافَتِه ، فلمَّا بَصُر به عبدُ المَلك ، قامَ إليه فسلَّمَ عليه ، وأجْلَسَه معه على السَّريرِ ، وقَعدَ بينَ يَدَيْه ، وقالَ : يا أبا مُحمَّد : حاجَتُك ؟ قال : اتَّقِ اللهَ في حَرَمِ اللهِ وحَرَمِ رَسولِه ، فتَعاهَدْه بالعِمارَة ، واتَّقِ اللهَ في أوْلادِ المُهاجِرينَ والأنْصار ، فإنَّكَ بهم جَلستَ هٰذا المَجْلس ، واتَّقِ اللهَ في أهْلِ الثُّغور ، فإنَّهم حِصْنُ المُسلمين ، وتَفقَّد أمُورَ المُسلمينَ ، فإنَّكَ وَحْدَكَ المَسْؤولُ عَنهم ، واتَّقِ اللهَ فيمَنْ علىٰ بابِك ، فلا تَغفُل عنهم ، ولا تُغلقْ دُونَهم بابَك ، فقال له : أَفْعلُ ، ثم نَهضَ وقامَ ، فقَبضَ عليه عبدُ المَلك وقالَ : يا أبا مُحمَّد! إنَّما سَألتَنا حَوائجَ غَيرِك ، وقد قَضَيناها ، فما حاجَتُك ؟ قال : ما لي إلىٰ مَخْلوقٍ حاجَة ،

---

(1) انظر السير : (سفيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦٩٨ .

(2) الوَتَغ : الهَلاك .

(3) انظر السير : (رَجاء بن حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٦/٥٥٨ .

ثم خَرجَ ، فقال عبدُ المَلك : هـٰذا وأبيك الشَّرفُ ، هـٰذا وأبيك السُّؤْدُد[١] .

وجاء في ترجمة الإفريقي ، قال الذهبيُّ : هو عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ زِياد ابنُ أنْعم ، الإمامُ ، القُدوَةُ ، شَيخُ الإسْلام ، أبو أيُّوبَ الشَّعباني الإفْريقي ، قاضي إفْريقية وعالِمُها ، ومُحدِّثُها علىٰ سُوءِ حِفظِه .

قال إسماعيلُ بنُ عيّاش : وَلِيَ السَّفاحُ فظَهرَ جَورٌ بإفريقية ، فوَفِدَ ابنُ أنْعُم علىٰ أبي جَعْفرَ مُشْتَكياً ثم قال : جئتُ لأُعْلمَك بالجَوْرِ ببَلدِنا فإذا هو يَخرجُ من دارِك! فغَضبَ وهمَّ به وقيل : قال له : كيف لي بأعْوان ؟! قال : أفليس عُمرُ بنُ عبد العَزيز كان يقولُ : الوالي بمَنزلةِ السوقِ يُجلَبُ إليه ما يُنفقُ فيه ؟ فأطْرَقَ طَويلاً ، فأوْمأ إليَّ الرَّبيعِ الحاجبِ بالخُروج .

قال الذهبي : تُوفِّي سنة ست وخمسين ومئة وكان الثَّوْري يُعظِّمُه جداً[٢] .

تَعليمُهم والجَوابُ علىٰ أسْئلتِهم :

قال أبو مُصْعَب : سَمعتُ مالكاً يقول : دَخلتُ علىٰ أبي جَعْفَر أميرِ المؤمنين ، وقد نزل علىٰ مثالٍ له ـ يَعني فرشه ـ وإذا علىٰ بساطِه دابَّتان ما تَروثان ولا تَبولان ، وجاء صَبيٌّ يَخرجُ ثم يَرجعُ ، فقال لي : أتَدْري مَنْ هـٰذا ؟ قلتُ : لا قال : هـٰذا ابني ، وإنَّما يَفزَعُ من هَيبتك ، ثم ساءَلني عن أشياء منها حَلالٌ ومنها حَرامٌ ، ثم قال لي : أنتَ ـ والله ـ أعْقَلُ النَّاسِ ، وأعْلَمُ النَّاس قلتُ : لا والله يا أميرَ المؤمنين قال : بلىٰ ولكنك تكتم ثم قال : والله لئن بَقيتُ لأكْتُبَنَّ قَولَك كما تُكْتَبُ المَصاحف ، ولأبْعَثَنَّ به إلى الآفاق ، فلأحْمِلنَّهم عليه[٣] .

وعن عُمر بنِ المحبَّرِ الرُّعَيني ، قال : قَدمَ المَهْدي المَدينةَ ، فبَعثَ إلىٰ مالك ، فأتاه ، فقال لهارُون ومُوسَىٰ : اسْمَعا منه ، فبَعثَ إليه ، فلم يُجبْهما ، فأعْلَما المَهْدي ، فكلمَه ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، العلمُ يُؤتَىٰ أهلُه ، فقال : صَدقَ

---

(١) انظر السير : (عَطاء بن أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٨٣ .

(٢) انظر السير : (الإفريقي) ٦/ ٤١١ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٦٧ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/ ٧٢٧ .

مالكٌ ، صِيرا إليه ، فلمَّا صارا إليه ، قال له مُؤدِّبُهما : إقرأ عَلينا فقال : إنَّ أهلَ المَدينة يَقرؤون على العَالِم ، كما يَقْرأ الصِّبْيانُ على المُعلم ، فإذا أخْطَؤوا ، أفْتاهُم فرَجَعُوا إلى المَهْدي ، فبعث إلىٰ مالك ، فكلمَه ، فقالَ : سَمعتُ ابنَ شِهاب يقول : جَمَعنا هـٰذا العلمَ في الرَّوْضَة من رجالٍ ، وهم يا أميرَ المؤمنين : سَعيدُ بنُ المُسَيِّب ، وأبو سَلمَة ، وعُرْوَةُ ، والقاسِمُ ، وسَالِمُ ، وخارِجَةُ ابنُ زَيْد ، وسُليمان بنُ يَسار ، ونافعٌ ، وعبدُ الرحمَـٰن بنُ هُرْمز ، ومِن بعدِهم : أبو الزِّناد ، ورَبيعَة ، ويَحْيَى بن سَعيد ، وابن شِهاب ، كلُّ هـٰؤلاء يُقرأ عليهم ولا يَقرؤون ، فقال : في هـٰؤلاء قُدوَة ، صِيروا إليه فاقرؤوا عليه ففعَلوا[1] .

(ب) عَدمُ الدُّخولِ عَليهم وحَثُّ بَعضِهم بَعضاً علىٰ ذلك :

قال جَعفَرُ بنُ بَرْقان : حدَّثنا مَيْمونُ بنُ مَهْران ، أنَّ عامرَ بنَ عبد قَيس ، بعثَ إليه أميرُ البَصْرَة : ما لَكَ لا تَأكلُ الجُبنَ ؟ قال : إنَّا بأرضٍ فيها مَجُوسٌ ، فما شَهدَ مُسْلِمان أنْ ليس فيه مَيْتَة أكلتُه قال : وما يَمنعُك أنْ تأتي الأُمَراء ؟ قال : إنَّ لدَىٰ أبوابِكم طُلاَّبُ الحاجات ، فادْعوهم واقضُوا حاجاتِهم ، ودَعوا مَنْ لا حاجَةَ له إليكم[2] .

وعن شَقيقٍ قال : كان ابنُ زياد يَراني مع مَسْروق فقال : إذا قَدِمتَ فالْقَني ، فأتيتُ علْقَمة فقالَ : إنَّكَ لمْ تُصِبْ من دُنياهم شيئاً إلاَّ أصابوا من دِينِك ما هو أفضلَ منه ، ما أُحبُّ أنْ لي مع ألْفَيَّ ألفَين وإني أكرمُ الجُندِ عليه[3] .

وقال فُضَيلُ بنُ جَعْفر : خَرجَ الحَسنُ البَصْريُّ من عند ابن هُبَيرة فإذا هو بالقُرَّاء على الباب فقال : ما يُجلِسُكم ها هنا ؟ تُريدون الدُّخولَ علىٰ هـٰؤلاء الخُبَثاء ، أما والله ما مُجالَسَتُهم مُجالَسَةُ الأبْرار ، تَفرَّقوا فرَّقَ اللهُ بين أرْواحِكم وأجْسادِكم ، فقد فَرطَحْتُم[4] نِعالَكم ، وشَمَّرْتم ثِيابَكم ، وجَزَزْتم شُعورَكم ، فضَحْتمُ القُرَّاءَ

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٧ .
(٢) انظر السير : (عامر بن عبد قيس) ٤/١٥ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٣٤ .
(٣) انظر السير : (علقمة) ٤/٥٣ـ٦١ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٣ .
(٤) كل شيء عرّضته فقد فرطَحْتَه .

فضَحَكم اللهُ ، واللهِ لوْ زَهِدْتُم فيما عِندَهم ، لرَغِبوا فيما عِندَكم ، ولَكنَّكم رَغِبْتم فيما عندهم فزَهَدوا فيكم ، أَبْعَدَ اللهُ مَنْ أبعد[1] .

وقال التبوذكي : سَمعتُ حمَّادَ بنَ سَلمَة يقولُ : إنْ دَعاكَ الأميرُ لتَقرأَ عليه (قل هو الله أحد) فلا تأتِه[2] .

وعن ابنِ القاسِم قال : ليسَ في قُربِ الوُلاةِ ولا في الدُّنوِّ منهم خَير[3] .

مَنْ كان يَرفُض العِلاجَ حتىٰ لا يَبرأ فيدخُل عليهم :

حَكى العِزُّ ـ أخو ابنِ الأثير ـ قال : جاءَ مَغربيٌّ عالجَ أخي بدُهْن صَنعَه ، فبانَت ثَمرتُه ، وتَمكَّن من مَدِّ رجلَيه ، فقال لي : أعْطِه ما يُرضيه واصْرِفه ، قلتُ : لماذا وقد ظَهرَ النُّجْحُ ؟ قال : هو كما تقولُ ، ولكنِّي في راحة من تَرْكِ هٰؤلاء الدَّولَة ، وقد سَكنتْ نَفسي إلى الانْقطاع والدَّعَة ، وبالأمْسِ كنتُ أذَلُّ بالسَّعْي إليهم ، وهنا فما يَجيئُوني إلاَّ في مَشُورَة مُهمَّة ، ولمْ يَبقَ من العُمرِ إلاَّ القَليل[4] .

تَعْييرُ مَنْ دَخلَ عليهم واتِّهامُهم :

وعن هشام بنِ عباد ، سَمعتُ جَعفرَ بنَ محمّد يقولُ : الفُقَهاءُ أمناءُ الرُّسُل ، فإذا رأيتُم الفقَهاءَ قد رَكَنوا إلى السَّلاطين ، فاتِّهموهم[5] .

عَدُّهم الدُّخول على السَّلاطين خُذلاناً من الله :

قال بِشْرُ بنُ الحارث : سَمعتُ المُعافَىٰ يقولُ : سَمعتُ الثَّوريَّ يقولُ : إذا لمْ يَكُن لله في العَبدِ حاجَةٌ ، نَبَذَهُ إلى السُّلطان[6] .

---

(١) انظر السير : (الحَسن البَصري) ٤/ ٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٥٦٣/ ٤ .

(٢) انظر السير : (حمّاد بن سَلمة) ٧/ ٤٤٤ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/٧١٥ .

(٣) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٥/٨٠٥ .

(٤) انظر السير : (ابنُ الأثير) ٢٢/ ٣٥٣ـ٣٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٥ .

(٥) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/٦٤٧ .

(٦) انظر السير : (المُعافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ٨٦ ، وانظر النزهة : ٤/٨٠٠ .

وقال عبدُ الله بنُ المُعْتزِّ بالله : أشْقَى النَّاسِ أقْرَبُهم من السُّلطان ، كما أنَّ أقْرَبَ الأشْياءِ من النَّار أسْرَعُها احْتِراقاً[1] .

الانْزِعاجُ إذا عَلموا أنَّ الأميرَ عَرفَهم :

قال الحَسَنُ بنُ الرَّبيع : قُرِىءَ كتابُ الخَليفة إلى ابنِ إدْريسَ ، وأنا حاضرٌ : من عبدِ الله هارونَ أميرِ المؤمنين إلىٰ عبدِ الله بنِ إدْريس ، قال : فشَهِقَ ابنُ إدْريس شَهْقةً ، وسَقطَ بعد الظُّهْر ، فقُمنا إلى العَصر ، وهو علىٰ حاله ، وانتبَه قُبيلَ المَغرب ، وقد صَببْنا عليه الماءَ فلا شيء قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون ، صارَ يَعرفُني حتىٰ يَكتُبَ إليَّ! أيُّ ذَنبٍ بلغَ بي هـٰذا ؟!

مات ابنُ إدْريس بالكُوفَة سنة اثنتين وتسعين ومئة[2] .

أقْوالٌ بَليغة تُحذِّرُ من مُخالطة السُّلطان :

قال عبدُ الله بنُ المُعْتزِّ بالله : مَنْ شارَكَ السُّلطانَ في عِزِّ الدُّنيا ، شارَكَه في ذُلِّ الآخِرَة[3] .

وكان ابنُ الحَدَّاد يقولُ : القُربُ من السُّلطانِ في غَيرِ هـٰذا الوَقتِ حَتْفٌ من الحُتوف فكيف اليوم ؟![4] .

(ج) عَدمُ قَبول أمْوالِهم وعَطاياهم :

قال إبراهيمُ بنُ محمّد بنُ المُنتَشِر : أَهْدَىٰ خالدُ بنُ عبد الله ابنُ أُسَيْد عاملُ البَصْرة إلىٰ عَمَّي مَسْروق ثلاثين ألفاً وهو يومئذ مُحْتاجٌ فلَمْ يَقبلْها[5] .

وقال أحمدُ بنُ شَبُّويه : حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاق قال : أكلَ مَعْمَرُ ابنُ راشِد من عند أهلِه

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المُعْتزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٧/١١٢٨ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن إدريس) ٩/ ٤٢ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٩٦ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المُعْتزِّ بالله) ١٤/ ٤٢ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٨/١١٢٨ .
(٤) انظر السير : (ابن الحدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٤٦ .
(٥) انظر السير : (مَسْروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٥ .

فاكِهَةٌ ثم سألَ فقيلَ : هَديّةٌ من فُلانَة النوَّاحَة فقامَ فتقيّأ وبَعثَ إليه مَعْن والي اليَمَن بذَهبٍ فردَّه وقال لأهْلِه : إنْ علمَ بهذا غيرُنا لمْ يَجتَمعْ رأسي ورأسُك أبداً .

مات مَعْمَرُ بنُ راشِد سَنةَ أربع وخَمسين[1] .

وبَعثَ ابنُ طاهِر حين ماتَ أحْمدُ بنُ حَنْبَل بأكْفانٍ وحَنوطٍ ، فأبى ابنُه صالِح أنْ يَقْبَلَه وقال : إنَّ أبي قد أَعَدَّ كَفنَه وحَنوطَه ، ورَدَّه ، فراجَعَه ، فقال : إنَّ أميرَ المؤمنين أعْفَىٰ أبا عبدِ الله ممَّا يَكْرَه ، وهذا ممَّا يَكْرَه ، فلَسْتُ أقْبلُه[2] .

وقيل : إنَّ المُكتَفي أراد أَنْ يُحَبِّسَ وَقفاً تَجتمعُ عليه أقاويلُ العُلماء فأُحْضِرَ له ابنُ جَرير الطَّبَري ، فأمْلَىٰ عليهم كتاباً لذلك ، فأُخْرِجَت له جائزةٌ ، فامْتَنعَ من قَبولها ، فقيل له : لا بُدَّ من قَضاء حاجَة قال : أسألُ أميرَ المؤمنين أنْ يَمْنعَ السُّؤالَ يومَ الجُمعَة ففعلَ ذلك[3] .

وذكرَ عُمرُ بنُ عَفيف يَحْيَىٰ بنَ مُجاهد ، فقال : كان من أهلِ العِلم والزُّهْد والتَّقَشُّف والعِبادة ، وجَميل المَذْهَب ، لمْ تَرَ عَيني مثلَه في الزُّهْد والعِبادة ، يَلبسُ الصُّوفَ ، ويَمشي حافياً مَرَّة ، ويَنْتعلُ مَرَّة فحَدَّثني محمدُ بنُ أبي عُثْمان ، عن أبيه أنَّ الحَكم المُسْتَنصِر بالله أحبَّ أنْ يَجتمعَ بيَحْيَىٰ بنِ مُجاهد الزَّاهد ، فلمْ يَقدِر عليه ، ووَجَّه إليه مَنْ يَتلطَّفُ به ويَستَعطِفُه ، فقال : ما لي إليه حاجَة وإنَّما يَدخلُ على السُّلطان الوُزَراءُ ، وأهلُ الهَيئة ، وأيش يَعملُ بأصْحابِ الأطْمارِ الرَّثَّة ، فوَجَّه إليه الحَكمُ جُبَّةَ صُوف وغَفَّارَة وقَميصاً من وَسَط الثِّياب ودَنانيرَ ، فلمَّا نَظَرَ إليها قال : ما لي ولهذه ؟ رُدُّوها علىٰ صاحِبها ، ولئن لمْ يَترِكُوني سافَرْت ، فيَئسَ من لقائِه وتَركَه ، وكان يَجلسُ إلىٰ مُؤدِّب بالجامِع يأنَسُ به .

تُوفِّي ابنُ مُجاهد سَنة سِتٍّ وستين وثلاثِ مئة وهو ابنُ سَبعين سَنة أو نَحْوها[4] .

---

(١) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٧١ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٢٦ .

(٣) انظر السير : (محمد بن جرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٠ .

(٤) انظر السير : (يَحْيَى بن مُجاهد) ١٦/ ٢٤٤ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٢ .

وقال غَيثُ بنُ عليٍّ الأرْمَنازِيّ : سَمعتُ مَنْ يَحكي أنَّ المَلكَ تاج الدولة تُتُش بنَ ألبْ أرْسلان زارَ الفَقيهَ نَصراً يَوماً ، فلمْ يَقمْ له ، ولا الْتَفتَ إليه وكذا ابنُه المَلك دُقاق ، فسَألَه عن أحَلِّ الأمْوالِ التي يَتصَرَّفُ فيها السُّلطان ، قال : أحَلُّها أمْوالُ الجِزْيَة ، فقامَ من عندِه ، وأرْسلَ إليه بمَبلَغ ، وقال : هـٰذا من الجِزْيَة ، ففَرِّقْهُ على الأَصْحاب ، فلمَ يَقبلْه ، وقالَ : لا حاجَةَ بنا إليه ، فلمَّا ذَهبَ الرَّسولُ لامَهُ الفَقيهُ نَصر المِصِّيصيّ ، وقال : قد عَلمتَ حاجَتَنا إليه ، فقال : لا تَجْزَعْ من فَواتِه ، فسَوفَ يأتيكَ من الدُّنيا ما يَكْفيكَ فيما بَعد ، فكانَ كما تَفَرَّسَ فيه .

عاشَ نَيِّفاً وثَمانين سَنة ، رَحمَه الله ، ودُفِنَ بمَقْبرَةِ باب الصَّغير تُوفِّيَ سَنةَ تسعين وأربعمائة .

قال الذهبيُّ : في مَجالِسِه غَلطاتٌ ، وأحاديثُ واهيَة[1] .

وعاشَ الفَقيهُ الخَبُوشانيّ عُمرَه لمْ يأخُذْ دِرْهَماً لمَلِك ، ولا من وَقْفٍ ، ودُفِنَ في الكِساءِ الذي صَحِبَه من بَلدِه ، وكان يَأكُلُ من تاجِرٍ صَحِبَه من بَلدِه[2] .

(د) رَفْضُ بَعض العُلماء مُقابلة الأُمَراء والكبراء :

وجاءَ في عِزَّةِ نَفْس سَعيدِ بنِ المُسَيَّب وصَدعِه بالحَقِّ : عن عِمْرانَ ابنِ عبدِ الله بنِ طَلْحَة الخُزاعيِّ ، قال : حَجَّ عبدُ المَلك بنُ مَرْوان ، فلمَّا قَدِمَ المَدينَة ، ووَقفَ علىٰ بابِ المَسْجدِ أرْسَلَ إلىٰ سَعيدِ بنِ المُسَيِّب رجلاً يَدعُوه ولا يُحَرِّكه ، فأتاهُ الرسُولُ وقال : أَجِبْ أميرَ المؤمنين ، واقِفٌ بالبابِ يُريدُ أنْ يُكلِّمَك فقالَ : ما لأميرِ المؤمنين إليَّ حاجَة ، وما لي إليه حاجَة ، وإنَّ حاجَتَه لي لغَيرُ مَقْضيَّة ، فرَجعَ الرسولُ ، فأخْبرَه فقال : ارْجِعْ فقُلْ له : إنَّما أُريدُ أنْ أُكَلِّمَكَ ، ولا تُحَرِّكه فرَجعَ إليه ، فقال له : أَجِبْ أميرَ المؤمنين فرَدَّ عليه مثلَ ما قالَ أوَّلاً فقالَ : لَوْلا أنَّه تَقدَّمَ إليَّ فيك ما ذَهبتُ إليه إلاَّ برأسِك ، يُرسلُ إليكَ أميرُ المؤمنين يُكَلِّمُك تَقولُ مثلَ هـٰذا! فقال : إنْ كان يُريدُ أنْ

---

(١) انظر السير : (الفَقيه نصر) ١٩/١٣٦ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧١ .

(٢) انظر السير : (الخَبُوشاني) ٢١/٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٣ .

يَصْنعَ بي خَيراً ، فهو لك ، وإنْ كان يُريدُ غَيرَ ذلك فلا أُحُلُّ حَبْوَتي حتىٰ يَقضيَ ما هو قاض ، فأتاهُ فأخْبَرَه ، فقال : رَحِمَ اللهُ أبا مُحمّد أبَىٰ إلاَّ صَلابَةً .

قال الذهبيُّ : كان عند سَعيدِ بنِ المُسَيِّب أمرٌ عَظيمٌ من بَني أُمَيَّة وسُوء سِيرَتهم ، وكان لا يَقبلُ عَطاءَهم[1] .

وقال الحاكِمُ : قَدِمَ شَقيقُ بنُ إبراهيمَ البَلْخي نِيسابُورَ في ثلاث مئة من الزُّهَّاد ، فطَلَبَ المَأمُونُ أنْ يَجتَمعَ به ، فامْتنَعَ[2] .

وذكرَ عُمرُ بنُ عَفيف يَحْيَىٰ بنَ مُجاهد ، فقال : كان من أهلِ العِلم والزُّهْد والتَّقَشُّف والعِبادة ، وجَميل المَذْهَب ، لمْ تَرَ عَيني مثلَه في الزُّهْد والعِبادة ، يَلبسُ الصُّوفَ ، ويَمشي حافياً مَرَّة ، ويَنْتعلُ مَرَّة فحَدَّثني محمدُ بنُ أبي عُثْمان ، عن أبيه أنَّ الحَكم المُسْتَنصِر بالله أحبَّ أنْ يَجتمعَ بيَحْيَىٰ بنِ مُجاهد الزَّاهد ، فلمْ يَقدِر عليه ، ووَجَّه إليه مَنْ يَتلطَّفُ به ويَستَعطِفُه ، فقال : ما لي إليه حاجَة وإنَّما يَدخلُ على السُّلطان الوُزَراءُ ، وأهلُ الهَيئة ، وأيشٍ يَعملُ بأصْحابِ الأطْمارِ الرَّثَّة ، فوَجَّه إليه الحَكمُ جُبَّةَ صُوف وغَفَّارَة وقَميصاً من وَسَط الثِّياب ودَنانيرَ ، فلمَّا نَظَرَ إليها قال : ما لي ولهـٰذه ؟ رُدُّوها علىٰ صاحِبها ، ولئن لمْ يَتركُوني سافَرْت ، فيَئِسَ من لقائِه وتَركَه ، وكان يَجلسُ إلىٰ مُؤدِّب بالجامع يأنَسُ به .

تُوفِّي ابنُ مُجاهد سَنة سِتٍّ وستين وثلاثِ مئة وهو ابنُ سَبعين سَنة أو نَحْوها[3] .

مَنْ كان السُّلطانُ يَزورُه فلا يُعَظِّمْه :

وقال غَيثُ بنُ عليٍّ الأرْمَنازِيّ : سَمعتُ مَنْ يَحكي أنَّ المَلكَ تاج الدولة تُتُش بنَ ألبْ أرْسلان زارَ الفَقيهَ نَصراً يَوماً ، فلمْ يَقمْ له ، ولا الْتَفتَ إليه وكذا ابنُه المَلك دُقاق ، فسَألَه عن أحَلِّ الأمْوالِ التي يَتصَرَّفُ فيها السُّلطان ، قال : أحَلُّها أمْوالُ الجِزْيَة ، فقامَ من عندِه ، وأرْسلَ إليه بمَبلَغ ، وقال : هـٰذا من الجِزْيَة ، ففَرِّقْهُ على

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨٣ .
(٢) انظر السير : (شَقيق) ٩/ ٣١٣ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٢/٨٢٤ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مُجاهد) ١٦/ ٢٤٤ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٢ .

الأَصْحاب ، فلمَ يَقْبلْه ، وقالَ : لا حاجَةَ بنا إليه ، فلمَّا ذَهبَ الرَّسولُ لامَهُ الفَقيهُ نَصر المِصِّيصيّ ، وقال : قد عَلمتَ حاجَتَنا إليه ، فقال : لا تَجْزَعْ من فَواتِه ، فَسَوفَ يأتيك من الدُّنيا ما يَكْفيكَ فيما بَعد ، فكانَ كما تفَرَّسَ فيه .

عاشَ نَيِّفاً وثَمانين سَنة ، رَحمَه الله ، ودُفِنَ بمَقْبرَةِ باب الصَّغير تُوفِّيَ سَنَةَ تسعين وأربعمائة .

قال الذهبيُّ : في مَجالِسه غَلطاتٌ ، وأحاديثُ واهيَة[١] .

وقال أبو المُظَفَّر بنُ الجَوْزيّ : سَمعتُ مَشايخَ الحَرْبِيَّة يَحكُونَ عن آبائِهم وأجْدادِهم أنَّ السُّلطانَ مَسْعوداً لمَّا أتىٰ بَغدادَ ، كان يُحبُّ زيارَةَ العُلماء والصَّالحينَ ، فالتَمسَ حُضورَ ابنِ الطَّلاَّية[٢] ، فقال للرَّسُولِ : أنا في هٰذا المَسْجد أنْتظرُ داعيَ الله في النَّهار خَمسَ مَرَّات ، فذَهبَ الرَّسُولُ ، فقال السُّلطانُ : أنا أَوْلَىٰ بالمَشْي إليه ، فزارَه ، فرآهُ يُصلِّي الضُّحَىٰ ، وكان يُطَوِّلها يُصلِّيها بثَمانيَةِ أجْزاء ، فصلَّىٰ معه بَعضَها ، فقال له الخادمُ : السُّلطانُ قائمٌ علىٰ رأسِك فقال : أين مَسْعود ؟ قال : ها أنا قال : يا مَسْعودُ ، اعْدِلْ ، وادْعُ لي ، اللهُ أكبر ثم دَخلَ في الصَّلاة فبَكَى السُّلطانُ ، وكَتبَ وَرقَةً بخَطِّه بإزالَة المُكوسِ والضَّرائب ، وتابَ تَوْبةً صادِقَة .

مات ابنُ الطَّلايَة سَنةَ ثمان وأربعين وخَمسِ مئة وحُمِلَ على الرُّؤوس ، وما خلَّفَ بعدَه مثلَه[٣] .

قال الحَسنُ بنُ أحمدَ الأوقيُّ : حَضرَ عند مُحمّدَ بنِ أحمدَ السِّلَفيِّ السُّلطانُ صَلاحُ الدِّينِ وأَخُوهُ المَلكُ العادِلُ لسَماعِ الحَديثَ ، فتَحدَّثا ، فأظْهَرَ لهما الكَراهَة وقال : أنتُما تَتحدَّثان ، وحَديثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يُقرَأُ ؟! فأَصْغَيا عند ذلك .

---

(١) انظر السير : (الفَقيه نصر) ١٩/ ١٣٦ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧١ .

(٢) ذكر في « الوافي » و« المستفاد » أن والدته كانت تطلي الورق عند عمله بالدقيق المعجون بالماء رقيقاً قبل صقله فاشتهرت بذلك .

(٣) انظر السير : (ابن الطَّلاَّيَة) ٢٠/ ٢٦٠ـ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤٩ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد حَدَّثَ السُّلطانُ عنه[1] .

مَنْ كان لا يَقومُ للرُّؤساء إذا مَرُّوا ويُحذِّر من النَّظَر إليهم :

وكان أحمدُ بنُ أبي الحَسن الرِّفاعيُّ لا يَقومُ للرُّؤساء ، ويقولُ : النَّظرُ إلىٰ وُجوههِم يُقَسِّي القَلبَ .

وكان كَثيرَ الاسْتغفار ، عالي المِقْدار ، رَقيقَ القَلبِ ، غَزيرَ الإخْلاص .

تُوفيَّ سَنةَ ثمانٍ وسَبعين وخَمس مئة ، رَحمَه الله[2] ، [3] .

(هـ) الإغْلاظُ عليهم إذا ظَلَموا أو فَسَقوا :

جاء في تَرجمةِ الخَبُوشانيِّ ، قال الذهبيُّ : قيلَ : التمَسَ محمدُ ابنُ مُوَفَّق الخَبوشاني من السُّلطانِ إسْقاطَ ضَرائبَ لا يُمكنُ إسْقاطُها ، وساءَ خُلقُه ، فقال : قُمْ لا نَصرَكَ الله! ووَكزَه بعَصاه ، فوَقَعَتْ ، فوَجَمَ لذلك ، ثم حَضرَ وَقْعَة ، فكُسِر ، فظَنَّ أنَّه بدُعائِه ، فجاءَ وقَبَّل يدَيه ، وسألَه العَفْو[4] .

وجاءَه حاجبُ نائبِ مِصْرَ المُظَفَّر تَقيِّ الدِّين عُمَرَ ، وقال له : تَقيُّ الدين يُسلِّمُ عَليك ، فقال الخَبُوشانيُّ : قُلْ : بلْ شَقيُّ الدِّين لا سَلَّمَ اللهُ عليه ، قال : إنَّه يَعتذرُ ويقولُ : لَيسَ له مَوضِعٌ لبَيع المِزْر[5] قال : يَكْذبُ قال : إنْ كان ثَمَّ مَكانٌ فأرِناه قال :

---

(١) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٩٣ .

(٢) قال صاحب النزهة : قال المؤلف في « العِبَر » بعد هـٰذا الكثير : « ولكن أصحابه فيهم الجيد والرديء ، وقد كثر الزغل فيهم وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات ، وهـٰذا لا عرفه الشيخ ولا صُلحاء أصحابه ، فنعوذ بالله من الشيطان » (٤/ ٢٣٣) ، وقال في « تاريخ الإسلام » : « ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات حية ، والنزول في التنانير وهي تتضرم ناراً ، والدخول إلى الأفرنة ، وينام الواحد منهم في جانب الفرن ، والخباز يخبز في الجانب الآخر ، وتوقد لهم النار العظيمة ، ويُقام السَّماع فيرقصون عليها إلىٰ أن تنطفىء » .

(٣) انظر السير : (الرِّفاعيّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٨/١٦٠١ .

(٤) انظر السير : (الخَبوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٦١٢ .

(٥) قال صاحب النزهة : المِزْرُ : بكسر الميم ، نبيذٌ يتخذ من الذرة ، وقيل : من الشعير أو الحنطة كما في=

ادْنُ ، فدَنا فأمْسَكَ بشَعرِه ، وجَعلَ يَلطِمُ علىٰ رأسِه ويقولُ : لَستُ مَزَّاراً فأعْرفَ مَواضِعَ المِزْر ، فخلَّصوه منه[1] .

(و) اعتذارُ السُّلطانُ للعالِم وتَقبيلُه يدَه طلباً للعَفو :

جاء في تَرجمةِ الخَبُوشانيِّ ، قال الذهبيُّ : قيلَ : التمَسَ محمدُ ابنُ مُوَفَّق الخَبوشاني من السُّلطانِ إسْقاطَ ضَرائبَ لا يُمكنُ إسْقاطُها ، وساءَ خُلقُه ، فقال : قُمْ لا نَصرَكَ الله! ووَكزَه بعَصاه ، فوَقَعَتْ ، فوَجَمَ لذلك ، ثم حَضرَ وَقْعَة ، فكُسِر ، فظَنَّ أنَّه بدُعائِه ، فجاءَ وقَبَّل يدَيه ، وسألَه العَفْو[2] .

(ز) الدُّعاء لهم وكيْفيَّتُه :

قال سُلَيمانُ بنُ محمّد : سَمعتُ عبدَ الله بنَ عبدِ العَزيز العُمَريَّ يقولُ : قال لي مُوسَىٰ بنُ عيسَىٰ : يُنْهَىٰ إلىٰ أميرِ المؤمنين أنَّك تَشْتُمه وتَدعُو عليه ، فبِمَ اسْتَجَزْتَ هٰذا ؟ قلتُ : أمَّا شَتْمُه ، فوالله هو أكْرَمُ من نَفسي ، لقَرابَتِه من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأمَّا الدُّعاءُ عليه ، فوالله ما قُلتُ : اللَّهمَّ إنَّه قد أصْبحَ عِبْئاً ثَقيلاً علىٰ أكْتافِنا فلا تُطيقُه أبدانُنا ، وقَذَىً في جُفونِنا لا تَطرِفُ عليه جُفونُنا ، وشَجَىً في أفْواهِنا لا تُسيغُه حُلوقُنا ، فاكْفِنا مُؤنَتَه ، وفَرِّقْ بَيننا وبَينَه ولكنْ قُلتُ : اللَّهمَّ إنْ كان تَسمَّىٰ بالرَّشيدِ ليَرشُدَ ، فأرْشِدْهُ ، أو لغيرِ ذلك فراجِعْ به ، اللَّهمَّ إنَّ له في الإسْلام بالعَبَّاسِ علىٰ كلِّ مُؤمِنٍ كفّاً ، وله بنَبيِّكَ صلى الله عليه وسلم قَرابَة ورَحِم ، فقَرِّبْه من كلِّ خَير ، وباعِدْهُ من كلِّ سُوء ، وأسْعِدْنا به ، وأصْلِحْه لنفسِه ولنا ، فقال مُوسَىٰ : رَحمَك اللهُ أبا عبدِ الرَّحمَـٰن ، كذاكَ لعَمْري الظنُّ بك .

= « النهاية » لابن الأثير (٤/ ٢٤) وكأنه يشبه (البيرة) في أيامنا وكان لتقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين مواضع يُباع فيها المزر علىٰ ما قيل ، فكتب الشيخ الخبوشاني ورقة إلىٰ صلاح الدين يذكر له هٰذا ، فسيرها صلاح الدين إلى ابن أخيه وطلب منه إرضاء الشيخ ، فركب إليه ، وطلب منه حاجبه أن يقف بباب مدرسة الخبوشاني ريثما يهيء له الأمور فتحادث مع الشيخ بهٰذا الحديث المذكور .

(١) نظر السير : (الخَبُوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١٦١٣/١ .

(٢) انظر السير : (الخَبُوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١٦١٢/٤ .

مات أبو عبدِ الرَّحمَـٰن العُمَريُّ سَنةَ أربعٍ وثَمانين ومائة ، وله سِتٌّ وسِتُّونَ سَنةً ، رَحمَه الله تعالىٰ[١] .

قال الفُضَيلُ بنُ عِياض : لَوْ أنَّ لي دَعوةً مُستجابَةً ما جَعلتُها إلاَّ في إمام :

قال عبدُ الصَّمَد بنُ يَزيد : سَمعتُ الفُضَيلَ بنَ عِياض يقولُ : لَوْ أنَّ لي دَعْوةً مُسْتجابَةً ما جَعلتُها إلاَّ في إمامٍ ، فصَلاحُ الإمامِ صَلاحُ البلادِ والعِباد[٢] .

عَدمُ الدُّعاء لهم إذا جارُوا :

جاء في تَرجمةِ الخَبُوشانيِّ ، قال الذهبيُّ : قيلَ : التمَسَ محمدُ ابنُ مُوَفَّق الخَبوشاني من السُّلطانِ إسْقاطَ ضَرائبَ لا يُمكنُ إسْقاطُها ، وساءَ خُلقُه ، فقال : قُمْ لا نَصرَكَ الله! ووَكزَه بعَصاه ، فوَقَعَتْ ، فوَجَمَ لذلك ، ثم حَضرَ وَقْعَة ، فكُسِر ، فظَنَّ أنَّه بدُعائِه ، فجاءَ وقَبَّل يدَيه ، وسأَلَه العَفْو[٣] .

وقيل : إنَّ العادِلَ أتَىٰ والشَّيخُ عبدُ الله بنُ عُثمان اليُونيني يَتوَضَّأ ، فجَعلَ تحتَ سجادَتِه دَنانيرَ فرَدَّها ، وقال : يا أبو بَكر[٤] كيف أدْعو لكَ والخُمورُ دائرةٌ في دِمَشْقَ ؟ فأبْطَلَ ذلك[٥] .

وقيلَ : جلسَ بين يدَيْه المُعَظَّمُ وطَلبَ الدُّعاءَ منه ، فقالَ : يا عيسَىٰ لا تَكُنْ نَحْس[٦] مثلَ أبيكَ أظْهَرَ الزَّغَلَ[٧] وأفسدَ على النَّاسِ المُعامَلَةَ[٨] .

---

(١) انظر السير : (العُمَريّ) ٨/ ٣٧٣ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٦٥ .
(٢) انظر السير : (الفُضَيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/٧٧٧ .
(٣) انظر السير : (الخَبوشاني) ٢١/ ٢٠٤ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٦١٢ .
(٤) قال صاحب النزهة : هـٰكذا في الأصل وفي تاريخ الإسلام بخط الذهبي ، فهي على الحكاية .
(٥) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/١٠١ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٦٨ .
(٦) قال صاحب النزهة : هـٰكذا في الأصل وفي تاريخ الإسلام بخط الذهبي ، وصوابها « نحساً » ولكن أبقيناها لأنها من كلام الشيخ .
(٧) العملة المغشوشة .
(٨) انظر السير : (اليُونيني) ٢٢/١٠١ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٦٨ .

مَنْ هاجَر من بلَده لأنَّه أُلْزِمَ في الخُطبة بوَصف الأُمَراء بصفات لَمْ يَرَها سائغة :

قال أبو شامَة : أخبرَنا السَّخاويُّ : أنَّ سَببَ انْتقالِ الشَّاطِبيِّ من بلدِه أنَّه أُريدَ على الخَطابَة ، فاحْتَجَّ بالحَجِّ ، وترك بلدَه ، ولمْ يَعُدْ إليه تَوَرُّعاً ممَّا كانوا يُلزِمون الخُطَباءَ من ذِكرِهم الأُمَراءَ بأوْصافٍ لمْ يَرَها سائغَة ، وصَبرَ علىٰ فَقرٍ شَديد .

قال السَّخاويُّ : أقْطعُ بأنَّه كان مُكاشَفاً ، وأنَّه سأَلَ اللهَ كَفَّ حالِه .

قال الأبَّارُ : تَصدَّرَ بمِصْرَ ، فعَظُم شأنُه ، وبَعُدَ صِيتُه ، انتَهت إليه رياسَةُ الإقْراءِ ، وتُوفِّيَ بمِصْرَ سَنةَ تسعين وخَمس مئة .

وجاءَ عنه قالَ : لا يَقرأُ أحَدٌ قَصيدَتي هـٰذه إلاَّ ويَنفعُه اللهُ ، لأنَّني نَظَمتُها لله .

وله قَصيدَةٌ داليَّة نَحو خَمس مئة بَيتٍ ، مَنْ قَرأَها ، أحاطَ علماً بـ « التَّمهيد » لابنِ عبدِ البَرِّ[1] .

(ح) مُتفرِّقات في عَلاقة العُلماء بالمُلوكِ والأُمَراء :

قال عبدُ السَّلام التَّنوخيُّ المُلقَّب « بسُحْنون » : ما أَقبَحَ بالعالِم أنْ يأتي الأُمَراءَ ، واللهِ ما دَخلتُ على السُّلطانِ إلاَّ وإذا خَرجتُ حاسَبتُ نفسي ، فوَجدتُ عليها الدَّركَ[2] ، وأنتم تَرَوْنَ مُخالَفتي لهَواه ، وما أَلْقاهُ به من الغِلْظَة ، واللهِ ما أخَذْتُ ، ولا لَبستُ لهم ثوباً[3] .

جاءَ في تَرجَمَة بَكارِ بنِ قُتَيْبَة ، قال الإمامُ الذهبيُّ : كان عَظيمَ الحُرْمَة ، وافِرَ الجَلالَة ، من العُلماء العَاملين كان السُّلطانُ يَنزلُ إليه ، ويَحضُرُ مَجلِسَه[4] .

وقال الذهبيُّ : كان وَليُّ العَهدِ المُوفَّقُ قد اسْتبدَّ بالأمور ، وضَيَّقَ علىٰ أخيه الخَلفية

(١) انظر السير : (الشَّاطبيّ) ٢١/ ٢٦١ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٨ .
(٢) بفتح الرَّاء وإسْكانها : التَّبعَة .
(٣) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٣ .
(٤) انظر السير : (بكّار بن قُتَيبَة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٩ .

المُعْتمد : قال الصُّوليُّ : تَخيَّل المُعْتمدُ من أخيه ، فكاتَبَ أحمدَ بنَ طُولونَ ، واتَّفقا ، وقال المُعْتمدُ[1] :

أليسَ منَ العجائبِ أنَّ مثلي ... يَرىٰ ما قَلَّ مُمْتَنِعاً عليهِ
وتُؤكَلُ باسْمِهِ الدُّنيا جَميعاً ... وما مِنْ ذاكَ شيءٌ في يَدَيْهِ

فبلغَنا أنَّ ابنَ طُولُونَ جَمعَ العُلماءَ والأعْيانَ ، وقال : قد نَكثَ المُوَفَّقُ أبو أحمد بأميرِ المؤمنين ، فاخْلَعوه من العَهدِ فخَلَعوه ، إلاَّ بَكارَ ابنَ قُتَيْبَة ، وقال : أنتَ أَوْرَدْتَ عليَّ كتابَ المُعْتَمد بتَوَلِّيه العَهدَ ، فهاتِ كتاباً آخرَ منه بخَلعِه قال : إنَّه مَحْجورٌ عليه ومَقْهورٌ ؟ قال : لا أدْري فقال له : غرَّكَ النَّاسُ بقَولِهم : ما في الدُّنيا مثلُ بَكار ، أنتَ قد خَرِفْتَ ، وقيَّدَه وحَبسَه ، وأَخذَ منه جَميعَ عَطائِه من سِنينَ ، فكان عَشرَةَ آلافِ دينار ، فقيلَ : إنَّها وُجِدَت بخُتومِها وحالِها ، وبلَغَ ذلك المُوَفَّق ، فأمَرَ بلَعْنِ ابنِ طُولُونَ على المَنابِرِ[2] .

وقال أبو صَفْوان مُتحدثاً عن والدِهِ أحمدَ بنِ إسْحاق : وَهَبَ المَأمونُ لأبي ثلاثينَ ألفاً ، وعَشرةَ أفْراسٍ وجارِيَةً ، فلمْ يَقبَلْها[3] .

وعن أبي بكر بن جابر خادم أبي داود السِّجِسْتاني ـ رحمه الله ـ قال : كنتُ مع أبي داود ببَغْداد ، فصلَّيْنا المغرب ، فجاءَه الأميرُ أبو أحمدَ المُوَفَّق ـ يَعني وَليَّ العَهد ـ فدخل ، ثم أقبلَ عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هٰذا الوقت ؟ قال : خِلالٌ ثلاث قال : وما هي ؟ قال : تنتقلُ إلى البَصرة فتتَّخذَها وطناً ليرحلَ إليك طلبةُ العلم ، فتعمُر بك ، فإنها قد خَربَتْ ، وانقطَعَ عنها النَّاسُ ، لِمَا جَرىٰ عليها من مِحْنَةَ الزِّنج فقال : هٰذه واحدة قال : وتَرْوي لأولادي « السُّنَن » قال : نعم ، هاتِ الثالثة قال : وتُفْرِد لهم مَجْلساً ، فإن أولاد الخلفاء لا يَقعُدون مع العامَّة قال : أمَّا هٰذه فلا سبيلَ إليها ، لأنَّ النَّاسَ في العِلم سَواء .

---

(1) انظر السير : (بكّار بن قُتَيبَة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٩ .
(2) انظر السير : (بكّار بن قُتَيبَة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٩ .
(3) انظر السير : (أحمد بن إسحاق) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٠ .

قال ابنُ جابر : فكانوا يحضُرُون ويقعُدون في كمٍّ حِيرِي ، عليه سِتْر ويسمعون مع العامَّة[1] .

وقال ابنُ عَفيف : كان أبو إبْراهيمَ إسْحاقُ بنُ إبْراهيم التُّجيبي من أهلِ العِلمِ ، والفَهمِ ، والعَقلِ والدِّينِ المَتين ، والزُّهْدِ والبُعْدِ من السُّلْطان ، لا تأخُذُه في الله لَومَة لائم[2] .

وقال ابنُ الفَرْضي : كان أبو إبراهيم التُّجيبي حافِظاً للفِقْه ، صَدراً في الفُتْيا ، وَقُوراً ، مَهيباً ، لمْ يكُنْ له بالحَديثِ كبيرُ علم ، له كتاب « مَعالِمُ الطَّهارَة » وكان الحَكمُ أميرُ المؤمنين مُعَظِّماً له وكان صَليباً قَليلَ الهَيبَة للمُلوك ، اغْتابَ الحَكمُ رجلاً ، فسَكتَ أبو إبراهيم ونكَّسَ برأسِه فأقْصَرَ الحَكمُ وفَهِمَ ، وقد راوَدَه علىٰ أنْ يأتيَه بولَدِه أحمدَ وهو صَبيٌّ ، فقال : لا يَصلُحُ الآن لذلك .

تُوفِّي أبو إبراهيم سَنةَ اثنتَين وخَمسين وثلاثِ مئة[3] .

جاءَ في تَرجمَة ابنِ الدَّاعي ، قال الذهبيُّ : بَرعَ في الرَّأي على الإمام أبي الحَسنِ الكَرْخي ، وأخَذَ علمَ الكَلامِ عن حُسَينِ بنِ عليٍّ البَصْري ، وأفْتَىٰ ودَرَّسَ ، ووَلِيَ نقابة الطالبيِّين في دَولَة بني بُوَيه ، فعَدلَ وحُمدَ ، وكان مُعِزُّ الدَّولَة يُبالغ في تَعظيمِه ، وتَقبيلِ يدِه ، لعِبادَته وهَيبَتِه ، وكان فيه تَشَيُّعٌ بلا غُلُو[4] .

وقال أبو الثَّناء شُكْر العَضُدي : لمَّا دَخلَ عَضُد الدَّولة بغدادَ وقد هَلكَ أهلُها قَتلاً وخَوفاً وجُوعاً للفِتن التي اتَّصلَت بينَ السُّنَّة والشِّيعَة ، فقال : آفة هـٰؤلاء القُصَّاصُ ، فمَنعَهم ، قال : مَنْ خالَفَ أباحَ دَمَه ، فعَرفَ ابنُ سَمعونَ ، فجَلسَ علىٰ كُرسيِّه فأمَرَني مَولايَ ، فأحْضَرتُه ، فدَخلَ رجلٌ عليه نورٌ ، قال شُكْرُ : فجلسَ إلىٰ جَنبي غير مُكْترِث ، فقلتُ : إنَّ هـٰذا المَلك جَبَّارٌ عَظيمٌ ، ما أُوثِرُ لكَ مُخالَفتَه ، وإنِّي مُوصلُك

---

(١) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧١ .
(٢) انظر السير : (التُّجيبيّ) ١٦/ ٧٩ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٦٨ .
(٣) انظر السير : (التُّجَيبيّ) ١٦/ ٧٩ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٨ .
(٤) انظر السير : (ابن الدَّاعي) ١٦/ ١١٤ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧١ .

إليه ، فقَبِّل الأرضَ وتلَطَّف له واسْتعِن بالله عليه ، فقال : الخَلقُ والأمرُ لله فمَضيتُ به إلىٰ حُجرةٍ قد جَلسَ فيها المَلكُ وَحدَه ، فأوْقَفتُه ثم دَخلتُ أسْتأذِنُ ، فإذا هو إلىٰ جانبي ، وحوَّلَ وَجهَه إلىٰ دار عِزِّ الدَّولَة ثم تَلا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾[1] ثم حوَّلَ وَجهَه وقَرأَ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[2] ثم أخذَ في وَعْظِه فأتي بالعَجَب ، فدَمِعَت عَينُ المَلك ، وما رَأيتُ ذلك منه قَطُّ وشرِكَ كُمَّه علىٰ وَجهِه ، فلمَّا خرجَ أبو الحُسَين رَحمَه الله ، قالَ المَلكُ : اذْهَبْ بثَلاثَة آلاف دِرْهَم وعَشرَة أثْوابٍ من الخزانَة فإنْ امْتَنعَ فقُلْ له : فَرِّقْها في أصْحابِك ، وإنْ قَبِلَها فجِئْني برأسِه ، ففَعَلتُ فقال : إنَّ ثيابي هـٰذه فُصِّلَت من نحو أربَعين سَنة ألْبَسُها يومَ خُروجي وأطْويها عند رُجُوعي ، وفيها مُتعَةٌ وبَقيَّةٌ ، ونَفَقَتي من أُجْرَةِ دارٍ خَلَّفَها أبي ، فما أصْنَعُ بهـٰذا ؟ قُلتُ : فَرِّقْها علىٰ أصْحابِك قال : ما في أصْحابي فَقيرٌ فعُدتُ فأخْبَرتُه ، فقال : الحَمدُ لله الذي سَلَّمَه منَّا وسَلَّمَنا منه[3] .

١٩ـ حَالُ العُلَماء مع طَلَبَة العِلم :

(أ) التَّلاميذُ الصَّالحون أفْضَلُ من الأبناءِ الطَّالحين :

قال جَعْفرُ بنُ سُليمان ، حدَّثنا مالكُ بنُ دينار قال : أتَينا أنَساً أنا وثابتٌ ويَزيدُ الرقاشي ، فنَظرَ إلينا ، فقال : ما أشْبَهَكُم بأصْحابِ محمَّد صلى الله عليه وسلم لأنْتم أحَبُّ إليَّ من عدّة وَلدي إلاَّ أنْ يَكونوا في الفَضْلِ مثلَكم ، إنِّي لأدْعُو لكم في الأسْحار[4] .

(ب) عَدمُ قَبول الهَدايا من الطَّلَبَة :

قال محمّدُ بنُ الحَجّاج : كان رجلٌ يَسمَعُ مَعنا عند حَمَّادِ بنِ سَلمَة فرَكبَ إلى الصِّين ، فلمَّا رَجعَ ، أهْدَىٰ إلىٰ حَمَّادٍ هَديّة ، فقال له حَمَّادٌ إنْ قَبلتُها ، لمْ أُحَدِّثْك

---

(١) سورة هود ، الآية : ١٠٢ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ١٤ .

(٣) انظر السير : (ابن سَمْعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ١٣١٠/ ٥ .

(٤) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٦٠٩/ ٩ .

بحَديثٍ ، وإنْ لمْ أقْبلْها ، حَدَّثْتُك قال : لا تَقبَلْها وحدِّثْني[1] .

(ج) تَخصيصُ العالِم بعضَ طلبَته بأوقات لتَحْصيل العِلم :

قال عبَّاسُ العَنْبري : كان يَحْيَى القَطَّان رُبّما قال : لا أُحدِّثُ شَهراً ولا أُحدِّثُ كذا ، فحُدِّثتُ أنَّه حدَّث ابنَ المَديني قبلَ انْقِضاء الشَّهر قال : فكلَّمتُ يَحْيَىٰ في ذلك ، فقال : إنِّي أَسْتثني عَلياً ، ونَحنُ نَستفيدُ منه أكثرَ ممَّا يَستفيدُ منَّا[2] .

(د) الطَّالبُ المَحْبوب والطَّالبُ البَغيض :

قال هشامُ بنُ مَنصور : سَمعتُ أحمدَ بنَ حَنْبل يقولُ : قال لي يَحْيَى ابنُ آدَم : يَجيئُني الرجلُ ممَّن أبْغَضُه ، وأكرَهُ مَجيئَه ، فأقرأُ عليه كل شيء معه ، لأسْتريحَ منه ولا أراه ، ويَجيءُ الرجلُ أوَدُّه ، فأُرَدِّدُه حتىٰ يرجعَ إليَّ[3] .

(هـ) عَدمُ الغَضب من طُلاَّبِهم إن تَتلْمَذوا على المُخالف لهم :

عن عبدِ اللهِ بنِ محمّد الوَرَّاق قال : كنتُ في مجلسِ أحمدَ ابنِ حَنبل ، فقال : من أين أقْبَلتُم ؟ قُلنا : من مَجلسِ أبي كريب ، فقال : اكْتُبوا عنه ، فإنَّه شَيخٌ صالحٌ ، فقُلنا : إنَّه يَطعنُ عليك قال : فأيُّ شيء حيلتي ، شَيخٌ صالحٌ قد بُلِيَ بي[4] .

٢٠ـ فَضْلُ العُلَماء العاملين :

(أ) سَببٌ لهدايَة النَّاس :

عن الأوْزاعيِّ ، قال : مَنْ كان مُقتَدياً ، فليَقْتدِ بمثل ابن مُحَيْريز ، إنَّ اللهَ لم يكن ليُضِلَّ أمَّةً فيها ابنُ مُحَيْريز[5] .

---

(١) انظر السير : (حمَّاد بن سَلمة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ١/٧١٦ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٣/٩٠٧ .
(٣) انظر السير : (يَحْيى بن آدم) ٩/ ٥٢٢ـ ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٣٨ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤٧ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٦/٥٣٩ .

(ب) يُسْتَشفَىٰ بحَديثِهم ، ويَنزلُ القَطرُ من السَّماء بذكرهم :

عن أحْمدَ بنِ حَنْبَل قال : صَفْوانُ بنُ سُليم ، من الثِّقات ، يُسْتَشْفَىٰ بحَديثِهِ ، ويَنْزِلُ القَطْرُ من السَّماء بذِكْرِه[1] .

(ج) سَببٌ لأمان النَّاس :

عن رَجاءَ بنِ حَيْوَة ، قال : بَقاءُ ابنُ مُحَيْريز ، أمانٌ للنَّاس ماتَ في دَوْلَة الوَليد[2] .

وقال أبو المَليح : قال رجلٌ لمَيْمونَ بنِ مِهْران : يا أبا أيوب! ما يَزالُ النَّاسُ بخَيرٍ ما أبقاك الله لهم ، قال : أَقْبِلْ علىٰ شأنِكَ ، ما يَزالُ النَّاسُ بخَير ما اتَّقَوا ربَّهُم[3] .

قال أبو عُثْمان سَعيدُ بنُ إسْماعيلَ الحِيَري : حدَّثَنا ابنُ خُزَيْمَة قال : كنتُ إذا أرَدتُ أن أُصَنِّفَ الشَّيءَ أدخلُ في الصَّلاة مُسْتَخيراً حتىٰ يُفتَح لي ، ثم أبْتَدىءُ التَّصْنيف ، ثم قال أبو عُثْمان : إنَّ اللهَ ليَدفَعُ البلاءَ عن أهلِ المَدينة لمَكان أبي بكر محمّد بنِ إسْحاق ـ يَعْني ابنَ خُزَيْمَة[4] .

(د) سَببٌ لصَلاح النَّاس :

قال هِلالُ بنُ خَبَّاب : قُلتُ لسَعيدِ بنِ جُبَير ما عَلامَة هَلاك النَّاس ؟ قال : إذا ذَهبَ عُلماؤُهم[5] .

وقال ابنُ أبي حاتم : سَمعتُ يُونُسَ بنَ عبدِ الأعْلىٰ يقولُ : أبو زُرْعَة وأبو حاتِم إماما خُراسَان ، ودَعَا لهما ، وقال : بَقاؤُهما صَلاحٌ للمُسْلمين[6] .

---

(١) انظر السير : (صَفْوان بن سُليم) ٥/ ٣٦٤ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦١٠ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٩/٥٣٩ .
(٣) انظر السير : (مَيْمونُ بن مِهْران) ٥/ ٧١ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٢ .
(٤) انظر السير : (ابن خُزَيْمَة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٠ .
(٥) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٦ .
(٦) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٧٥ .

(هـ) سَببٌ لنُزول نَصْر الله :

قال مَسْلمةُ بنُ عبد المَلك أميرُ السَّرايا : برَجاءِ بنِ حَيْوَة وبأمثالِه نُنْصَرُ مات رجاءُ سنة اثنَتي عشرة ومئة[1] .

(و) يُنَقُّون الدين ممَّا عَلق به :

يُرْوَىٰ أنَّ هارونَ الرَّشيد أخذَ زِنْديقاً ليَقتلَه ، فقال الرجلُ : أين أنتَ من ألفِ حَديثٍ وَضَعْتُها ؟ قال : فأينَ أنتَ يا عَدوَّ الله من أبي إسْحاقَ الفَزاري وابنِ المُبارَك يَتخلَّلانِها ، فيُخَرِّجانِها حَرفاً حَرفاً[2] .

(ز) يُصَحِّحون مَفاهيم العامَّة :

قال عُثمانُ بنُ صالح : كان أهلُ مصرَ يَنْتَقِصُونَ عثمانَ بنَ عَفَّان ، حتىٰ نَشأ فيهم اللَّيثُ بنُ سَعد فحَدَّثَهم بفَضائِله ، فكَفُّوا وكان أهلُ حمْص يَنْتَقِصُون عَليّاً حتىٰ نَشأ فيهم إسْماعيلُ بنُ عيَّاش ، فحدَّثَهم بفَضائلِ عليٍّ ، فكَفُّوا عن ذلك[3] .

(ح) يُجَدِّدون الدين :

قال الحاكمُ : سَمعتُ حسَّانَ بنَ محمَّد يقولُ : كنا في مجلس ابن سُرَيْج سنة ثلاث وثلاث مئة ، فقام إليه شيخٌ من أهل العلم فقال : أبشر أيها القاضي ، فإن اللهَ يَبعثُ علىٰ رأس كل مئة سنة من يجددُ ـ يَعني للأُمَّةِ ـ أمرَ دينِها ، وإن اللهَ تعالىٰ بَعثَ علىٰ رأس المئة عُمرَ بنَ عبد العزيز وبعث علىٰ رأس المئتين مُحمَّدَ بنَ إدْريسَ الشَّافعي ، وبعثَك علىٰ رأس الثلاث مئة ثم أنشأ يقول :

اثْنـانِ قـد ذَهَبَـا فبُـورك فيهمـا ... عُمَـرُ الخَليفَـةُ ثـمَّ حِلْـفُ السُّـؤْدَدِ
الشَّـافِعـيُّ الأَلْمَعِـيُّ مُحمَّـدُ ... إرثُ النُّبُـوَّةِ وابـنُ عـمٍّ مُحَمَّـدِ
أبْشِـرْ أبـا العَبَّـاسِ إنَّـكَ ثـالـثٌ ... مِـنْ بَعْـدِهِـم سُقْيـاً لتُـرْبَـةِ أحْمَـدِ

---

(١) انظر السير : (رجاء بن حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٥٩ .
(٢) انظر السير : (أبو إسْحاق الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٩٠ .
(٣) انظر السير : (اللَّيثُ بنُ سَعد) ٨/ ١٣٦ـ ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣٩ .

قال : فصاحَ أبو العَبَّاس ، وبَكَىٰ ، وقال : لقد نَعَىٰ إليَّ نَفسِي قال حسَّانُ الفَقيه فماتَ القاضي أبو العَبَّاس تلك السَّنة[1] .

قال الذهبيُّ : وقد كان علىٰ رأسِ الأربعِ مئة الشيخُ أبو حامد الإسْفراييني وعلىٰ رأسِ الخَمسِ مئة أبو حامد الغَزالي ، وعلىٰ رأسِ الستِّ مئة الحافظُ عبدُ الغَني ، وعلىٰ رأسِ السبعِ مئة شَيخُنا أبو الفَتح ابنُ دَقيق العِيد .

وإن جَعلتَ مَنْ يُجَدِّدُ لَفظاً يَصدُقُ علىٰ جماعة ـ وهو أقْوَىٰ ـ فيكونُ علىٰ رأس المئة عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز خَليفَةُ الوَقتِ ، والقاسِمُ بنُ محمّد والحَسنُ البَصْري ، ومحمَّدُ بنُ سِيرين ، وأبو قِلابَة ، وطائفةٌ ، وعلىٰ رأس المئتَينِ مع الشَّافعيِّ ، يَزيدُ بنُ هارُون ، وأبو داوُد الطَيالِسي ، وأشْهَبُ الفَقيهُ ، وعِدَّة وعلىٰ رأس الثلاثِ مئة مع ابنِ سُرَيْج ، أبو عبد الرَّحمَـٰن النَّسائي ، والحَسنُ بنُ سُفيان ، وطائفة[2] .

وقال الخَطيبُ : حدَّثونا عن أبي حامد الإسْفَراييني ، وكان ثقةً ، حَضرتُ تَدْريسَه في مَسجد ابنِ المُبارك ، وسَمعتُ مَنْ يَذكُرُ أنَّه يَحضُر دَرْسَه سَبع مئة فَقيه وكان النَّاسُ يقولون : لَوْ رَآهُ الشافعيُّ ، لفَرِحَ به .

قال ابنُ الصَّلاح : وعلى الشَّيخِ أبي حامِد تأوَّلَ بعضُ العُلماء حَديثَ : « إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لهَـٰذِهِ الأُمَّة علىٰ رَأْسِ كلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لها دِينَها » ، فكان الشَّافعيُّ علىٰ رأسِ المِئتَين، وابنُ سُرَيْج علىٰ رأسِ الثلاثِ مئة ، وأبو حامِد علىٰ رأس الأربعِ مئة[3] .

كان بعضُ العُلماء يَعُدُّ أبا الطَّيِّب الصُّعْلُوكي المُجَدِّد للأُمَّة دينَها علىٰ رأسِ الأربعِ مئة ، وبعضُهم عَدَّ ابنَ الباقِلاَّني وبعضُهم عَدَّ الشَّيخَ أبا حامِد الإسْفَراييني ، وهو أرجَحُ الثلاثة .

تُوفي الإمامُ أبو الطَّيِّب ، سَنةَ أربع وأربع مئة في عشرِ الثمانين رحمَه الله تعالىٰ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ سُرَيْجْ) ١٤/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٣ .
(٢) انظر السير : (ابنُ سُرَيْجْ) ١٤/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٣ .
(٣) انظر السير : (أبو حامد الإسْفَراييني) ١٧/ ١٩٣ـ ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٦ .
(٤) انظر السير : (الصُّعْلُوكيّ) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٣٧ .

٢١ـ من صفات العلماء :

(وهناك صفات أخرىٰ ستجدها مبثوثة في أماكنها) :

(أ) الدَّأبُ في طَلب العِلْم حتى الممَات :

عن ابنِ دُرُسْتُوَيْه ، صاحبِ سَهْلِ بنِ عبدِ الله ، قال : قال سَهْلٌ ، وقد رَأىٰ أصْحابَ الحَديث : اجْهَدوا أنْ لا تَلْقَوا اللهَ إلاَّ ومَعكم المَحابِر[١] .

وسُئلَ سَهلُ بنُ عبدِ الله : إلىٰ مَتىٰ يَكتبُ الرجلُ الحَديثَ ؟ قال : حتىٰ يَموتَ ، ويُصَبُّ باقي حِبْرِه في قَبْرِه .

وقال عليُّ بنُ الحَسن الدَّقِيق ، سَمعتُ سَهلَ بنَ عبد الله يقولُ : مَنْ أرادَ الدُّنيا والآخِرَةَ فليَكتُبْ الحَديثَ ، فإنَّ فيه مَنْفعَةَ الدُّنيا والآخِرَة[٢] .

وقال الذهبيُّ : بَلغَنا أنَّه قيلَ لأبي العَبَّاس السَّرَّاج ، وهو يَكتبُ في كُهولَتِه عن يَحْيَىٰ بنِ أبي طالب : إلىٰ كم هٰذا ؟ فقال : أمَا عَلمتَ أنَّ صاحبَ الحَديثِ لا يَصبِر ؟!

وقال أبو إسْحاق المُزكِّي : كان السَّرَّاجُ مُجابَ الدَّعْوة .

وقال محمّدُ بنُ أحمدَ الدَّقَّاق : رأيتُ السَّرَّاجَ يُضَحِّي كلَّ أُسْبوع أو أُسْبوعَين أُضْحِيَةً عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يَصيحُ بأصْحابِ الحَديث فيأكُلون[٣] .

(ب) الإنْفاق لتَحصيل العلم :

عن يَحْيَى الوحاظي : ما رأيتُ رجلاً كان أكبرَ نَفساً من إسْماعيلَ ابنِ عيَّاش ، كنَّا إذا أتَيناه إلىٰ مَزرَعةٍ لا يَرضَىٰ لنا إلاَّ بالخَروفِ والخَبيصِ ، سَمعتُه يقولُ : وَرِثْتُ من أبي أربعةَ آلافِ دينار ، فأنفَقتُها في طلبِ العلم[٤] .

---

(١) انظر السير : (سَهْل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٩٢ .

(٢) انظر السير : (سَهْل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٩٢ .

(٣) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٣ .

(٤) انظر السير : (إسْماعيل بن عيَّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/٧٦٠ .

وكان عبدُ الرحمَـٰن بنُ القاسِم ذا مالٍ ودُنيا ، فأنْفَقَها في العلمِ ، وقيلَ : كان يَمتنعُ من جَوائزِ السُّلطان وله قَدمٌ في الوَرَع والتَّألُّه[1] .

وقال حمدانُ بنُ هانىء المُقري : سَمعتُ خلفَ بنَ هشام يقولُ : أُشْكِلَ عليَّ بابٌ من النَّحْو فأنْفَقتُ ثمانينَ ألفَ دِرْهَم حتىٰ حَذَقتُه[2] .

(ج) الضَّبط والدِّقَّة :

عن أبي اليمان قال : كان مَنزلُ إسْماعيلَ بنِ عيَّاش إلىٰ جانب مَنزلي ، فكان يُحْيي اللَّيلَ وكان رُبَّما قرأ ، ثم يَقطعُ ، ثم رَجعَ ، فقرأ من المَوضِع الذي قَطعَ منه ، فلَقيتُه يوماً ، فقلتُ : يا عمُّ ، قد رأيتُ منك في القِراءَة كَيتَ وكَيتَ ، قال : يا بُني ، وما سُؤالُك ؟ قلتُ : أريدُ أنْ أعْلَمَ قال : يا بُني إنِّي أُصلِّي ، فأقرأُ ، فأذْكُرُ الحَديثَ في البابِ من الأبْوابِ التي أَخْرجتُها ، فأقْطَعُ الصَّلاةَ ، فأكتُبه فيه ، ثم أرْجِعُ إلىٰ صَلاتي ، فأبْتَدىءُ من المَوضِع الذي قَطعتُ منه[3] .

وقال إبْراهيمُ بنُ هاشِم : ما قال لنا جَريرُ بنُ عبد الحَميد الضَّبِّيُّ قَطُّ ببَغدادَ : حدَّثنا ، ولا في كَلمةٍ واحِدَة ، فقلتُ : تُراه لا يَغلطُ مرَّةً ، فكان رُبَّما نَعسَ ، فنامَ ، ثم يَنتَبهُ فيَقرأُ من المَوْضِع الذي انْتهَىٰ إليه[4] .

وقال يَحيَىٰ بنُ مَعِين : أَخْرَجَ غُنْدَرٌ إلينا ذاتَ يوم جِراباً فيه كُتُبٌ ، فقال : اجْهَدُوا أنْ تُخرِجوا فيها خَطَأً ، قال : فما وجدْنا فيه شيئاً ، وكان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً منذُ خَمسينَ سَنَةً[5] .

وكان ابنُ الحَدَّاد : يقولُ : دَليلُ الضَّبْطِ الإقْلالُ ، ودَليلُ التَّقْصيرِ الإكثارُ وكان من رُؤوُسِ السُّنَّة[6] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/٨٠٥ .
(٢) انظر السير : (خلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٥ .
(٣) انظر السير : (إسْماعيلُ بن عيَّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٦٠ .
(٤) انظر السير : (جرير بن عبد الحميد) ٩/ ٩ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٩٥ .
(٥) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٨٠٢ .
(٦) انظر السير : (ابن الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٤/ ١١٤٤ .

(د) التَّرفُّع عن أمْوال النَّاس والزُّهْد فيها :

عن أبي سِنان : سَمعتُ وَهبَ بنَ مُنبِّه يقولُ لعَطاءِ الخُرَاسانيّ ، كان العُلماءُ قَبلَنا قد اسْتَغنوا بعلمِهم عن دُنيا غَيرِهم ، فكانوا لا يَلتفتُون إليها وكان أهلُ الدُّنيا يَبذُلون دُنياهم في عِلمِهم ، فأصْبَحَ أهلُ العِلمِ يَبذُلون لأهْلِ الدُّنيا عِلمَهم رَغبَةً في دُنياهم وأصْبَحَ أهلُ الدُّنيا قد زَهِدوا في عِلمِهم لِمَا رَأوا من سُوءِ مَوْضِعِه عندَهم[1] .

وعن أبي حازمٍ قال : لا تَكونُ عالماً حتىٰ يَكونَ فيك ثلاثُ خِصال : لا تَبْغِ علىٰ مَنْ فَوقَك ، ولا تَحْقِرْ مَنْ دُونَك ، ولا تأخُذْ علىٰ عِلمكَ دُنيا[2] .

وقال مِسْعَر : مَنْ صَبرَ على الخَلِّ والبَقْلِ ، لَمْ يُسْتَعبَد[3] .

وعن شَيخٍ أنَّه كان عنده كتابٌ بخَطِّ أحمَدَ بنِ حَنْبل ، فقال : كُنَّا عندَ ابنِ عُيَيْنَة سَنةً ، ففَقدتُ أحمدَ بنَ حَنْبل أيّاماً ، فدُلِلتُ علىٰ مَوضِعِه ، فجئتُ فإذا هو في شَبيه بكَهْف في جِياد[4] ، فقلتُ : سَلامٌ عليكم ، أدْخُل ؟ فقال : لا ثم قال : ادْخُلْ ، فدَخلتُ ، وإذا عَليه قِطعَةُ لِبْدٍ خَلِقٍ ، فقلتُ : لِمَ حَجَبْتَني ؟ فقال حتى استَتَرتُ فقلتُ : ما شَأنُك ؟ قال : سُرِقَت ثيابي قال : فبادَرتُ إلىٰ مَنزلي فجئتُه بمئة دِرهم ، فعَرضتُها عليه ، فامْتَنعَ ، فقلتُ : قَرْضاً ، فأبَىٰ ، حتىٰ بلغَت عشرين درهماً ، ويأبىٰ ، فقُمتُ ، وقلتُ : ما يَحِلُّ لك أن تَقتُلَ نفسَك قال : ارْجِع فرَجَعتُ ، فقال : أليسَ قد سَمعتَ معي ابنَ عُيَيْنَة ؟ قلتُ : بلىٰ قال : تُحِبُّ أنْ أنْسَخَهُ لك ؟ قلتُ : نعم قال : اشْترِ لي وَرَقاً قال : فكتَبَ بدَراهم اكْتَسَىٰ منها ثَوبَين[5] .

وعن أبي إسْماعيلَ التِّرْمِذيِّ ، قال : جاءَ رجلٌ بعَشرةِ آلافٍ من رِبْحِ تِجارَتِه إلىٰ أحمدَ بنِ حَنْبَل فردَّها وقيلَ : إنَّ صَيْرَفياً بذَلَ لأحمدَ خَمسَ مئةَ دينار ، فلمْ يَقْبلْ[6] .

---

(١) انظر السير : (وَهْب بن مُنبّه) ٤/ ٥٤٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٨/٥٥٣ .

(٢) انظر السير : (أبو حازِم) ٦/ ٩٦ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٣٦ .

(٣) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦٨٩ .

(٤) موضع بمكّة يَلي الصَّفا .

(٥) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٢٤ .

(٦) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ٩٢٨ .

وكان يَحْيَىٰ بنُ عَمَّار من كبار المذكِّرين ، لكن ما أقبحَ بالعَالِم الدَّاعي إلى الله الحِرْصَ وجَمْعَ المال!!

تُوفِّي يَحْيَىٰ بنُ عَمَّار بهَرَاة ، سنةَ اثنتَين وعشرين وأربَع مئة ، وكانت جنازتُه مَشْهودَة[1] .

(هـ) التَّقْويم لا التَّعيير :

قال الدُّوريُّ : قال لي الكِسائيُّ : كنت أقرأ علىٰ حَمْزَةَ ، فجاءَ سُلَيمُ ابنُ عِيسَىٰ فتلكَّأْتُ ، فقالَ حَمْزَةُ : تَهابُهُ ولا تهابُني ؟ قلتُ : أيُّها الأسْتاذُ ، أنتَ إنْ أخْطأْتُ ، قَوَّمْتَني ، وهٰذا إنْ أخْطأتُ عَيَّرَني[2] .

(و) الثِّقةُ في أمثالِهم من العُلماء :

قال العُقيليُّ : حدَّثنا أحمدُ بنُ محمّد : سَمعتُ أبا صالح محمَّدَ ابنَ إسْماعيلَ الضِّراريَّ يقولُ : بَلغَنا ونَحنُ بصَنْعاءَ عند عبدِ الرَّزَّاق أنَّ أصْحابَنا ، يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، وأحمدَ بنَ حَنْبَل وغَيرَهما ، تَركوا حَديثَ عبدِ الرَّزَّاق وكَرهُوه ، فدَخَلَنا من ذلك غَمٌّ شَديد ، وقُلنا : قد أنْفَقْنا ، ورَحَلْنا وتَعِبْنا ، فلمْ أزَلْ في غَمٍّ من ذلك إلىٰ وَقتِ الحَجِّ ، فخَرجتُ إلىٰ مَكة فلَقيتُ بها يَحْيَىٰ بنَ مَعين ، فقُلتُ له : يا أبا زَكريا ، ما نَزلَ بنا من شيء بَلغَنا عَنكم في عبدِ الرَّزَّاق ؟ قال : ما هو ؟ قُلنا : بَلغنا أنَّكُم تَركتُم حَديثَه ورَغبتُم عنه ، قال : يا أبا صالح ، لو ارْتَدَّ عبدُ الرَّزَّاق عن الإسْلام ما تَرَكْنا حَديثَه[3] .

٢٢ـ من صفات طالب العلم :

(وهناك صفات أخرىٰ ستجدها مبثوثة في أماكنها) :

(أ) الحرصُ علىٰ طَلب العِلم :

قال ابنُ طاهِر : كُنتُ يَوماً أقرأُ علىٰ أبي إسْحاقَ الحَبَّال جُزءاً فجاءَني رجلٌ من أهْلِ بَلدي ، وأسَرَّ إليَّ كلاماً قال فيه : إنَّ أخاكَ قد وَصلَ من الشَّام ، وذلكَ بعدَ دُخُولِ

---

(١) انظر السير : (يَحْيى بن عمَّار) ١٧/ ٤٨١ـ ٤٨٣ ، وانظر النزهة : ١٣٥١/ ٤ .
(٢) انظر السير : (سُلَيم بن عيسىٰ) ٩/ ٣٧٥ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٨٣٠/ ٥ .
(٣) انظر السير : (عبد الرَّزَّاق بن هَمَّام) ٩/ ٥٦٣ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٨٤٠/ ٣ .

التُّرْكِ بيتَ المَقْدِس ، وقَتلِ النَّاسِ بها ، فأخَذتُ في القِراءَة ، فاخْتلطَت عليَّ السُّطُورُ ، ولمْ يُمكِنِّي أقرأُ ، فقال أبو إسْحاقَ : ما لَكَ ؟ قلتُ : خَيرٌ ، قال : لا بُدَّ أنْ تُخْبرَني ، فأخْبرتُه ، فقال : وكَمْ لكَ لمْ ترَ أخاكَ ؟ قلتُ : سِنين ، قال : ولِمَ لا تَذهبُ إليه ؟ قلتُ : حتىٰ أُتِمَّ الجُزءَ ، قال : ما أعْظَمَ حِرْصَكم يا أهلَ الحَديثِ ، قد تَمَّ المَجلِسُ ، وصَلَّى اللهُ علىٰ محمَّدٍ ، وانْصَرَف[1] .

(ب) تَحمُّل المَشاقّ في طَلب العِلم :

قال إبراهيمُ الحَربي : حدثنا المَرْوذي : قلت لأحمدَ بنِ حَنْبل : أكان أُغمي عليك ، أو غُشي عليك عند ابن عُيَيْنَة ؟ قال : نعم ، في دِهْلِيزه زَحمَني النَّاسُ ، فأُغْمي عليَّ .

ورُوِيَ أنَّ سُفْيانَ قال يومئذ : كيف أُحَدِّثُ وقد مات خَيرُ النَّاس ؟![2] .

وقال محمَّدُ بنُ طاهِر : أقَمتُ بتَنِّيسَ مُدَّة علىٰ أبي محمّدِ بنِ الحَدَّاد ونُظَرائه ، فضاق بي فلمْ يَبقَ معي غَيرُ دِرهم ، وكنتُ أحتاجُ إلىٰ حِبْرٍ وكاغَد ، فتَردَّدْتُ في صَرفِه في الحِبْرِ أو الكاغَدِ أوالخُبزِ ، ومضىٰ علىٰ هـٰذا ثلاثَةُ أيّام لمْ أطْعَم فيها فلمَّا كان بُكْرةَ اليوم الرابع ، قلتُ في نفسي : لو كان لي اليوم كاغَد لم يُمكنِّي أنْ أكتبَ من الجُوعِ ، فجَعلتُ الدِّرهَمَ في فَمي وخَرجتُ لأشْتري خُبزاً ، فبَلَعْتُه ، ووَقعَ عليَّ الضَّحِكُ ، فلَقيَني صَديقٌ وأنا أضْحَكُ ، فقال : ما أضْحَكَك ؟ قلتُ : خَيرٌ ، فألَحَّ عليَّ ، وأبيتُ أنْ أُخبِرَه ، فحَلفَ بالطَّلاقِ لتَصْدُقَنِّي ، فأخْبرتُه ، فأدْخَلَني مَنزِلَه ، وتَكلَّف أطْعِمَةً ، فلمَّا خَرجْنا لصَلاةِ الظُّهْر ، اجْتمعَ به بَعضُ وُكلاءِ عامِل تَنِّيس ابنِ قادُوس ، فسألَه عنِّي فقال : هو هـٰذا ، قال : إنَّ صاحبي منذُ شَهرٍ أمرَ بي أنْ أُوصِلَ إليه كُلَّ يومٍ عشرةَ دَراهم قيمتُها ربعُ دينار ، وسَهوتُ عنه ، فأخذَ منه ثلاثَ مئة وجاء بها مات ابنُ طاهِر عند قُدومِه من الحَجِّ سَنةَ سَبعٍ وخَمسِ مئة[3] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١٤٨٧/ ٥ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٤/ ٣ .

(٣) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١٤٨٨/ ١ .

(ج) الصَّبرُ علىٰ شدَّة المَشايخ :

عن سُحْنُونَ قال : كَبِرْنا وساءَت أخلاقُنا ، ويَعلمُ الله ما أَصيحُ عليكم إلاَّ لأُؤَدِّبَكم[1] .

(د) التَّرَحُّم علىٰ شَيخه والدُّعاء له :

قال أبو عليٍّ الصَّدَفيُّ : قَرأتُ علىٰ رزْقِ الله التَّميميِّ بِروايَة قالُون خَتمةً ، وكان كبيرَ بَغداد وجَليلَها ، وكان يقولُ : كلُّ الطَّوائفِ تَدَّعيني ، وسَمعتُه يقولُ : يَقبحُ بكم أنْ تَستَفيدوا منَّا ، ثم تَذكُرونا فلا تَتَرَحَّموا علينا ، رَحمه الله[2] .

(هـ) عَدمُ مُعارَضة آراء شَيخه بآراء شُيوخ آخَرين أمامَه :

قال عليُّ بنُ جَعْفَر : أخْبرَنا إسْماعيلُ بنُ بنتِ السُّدِّي ، قال : كنتُ في مَجلسِ مالِك ، فسُئلَ عن فَريضَةٍ ، فأجابَ بقَولِ زَيْد ، فقُلتُ ما قال فيها عليٌّ وابنُ مَسْعودٍ ، رَضيَ اللهُ عنهما ، فأوْمأَ إلى الحَجَبَة ، فلمَّا هَمُّوا بي عَدَوتُ وأعْجَزْتُهم ، فقالوا : ما نَصنَعُ بكُتبه ومِحْبَرَتِه ؟ فقال : اطلُبُوه برِفْقٍ ، فجاؤوا إليَّ فجِئتُ معهم فقالَ مالِكٌ : من أين أنتَ ؟ قلتُ : من الكُوفَة ، قال : فأين خلَّفْتَ الأدَب ؟ فقُلتُ : إنَّما ذاكَرتُك لأسْتَفيدَ فقال : إنَّ عليّاً وعبدَ الله لا يُنكَرُ فَضلُهما ، وأهلُ بَلَدِنا علىٰ قَولِ زَيدِ بنِ ثابِت ، وإذا كنتَ بين قَومٍ ، فلا تَبدأهم بما لا يَعرفون فيَبدأك منهم ما تَكره .

تُوفِّي إسْماعيلُ الفَزاري في خَمس وأربَعين ومئتين وكان من أبناء التِّسْعين ، سامَحَه الله[3] .

(و) الأدب مع الشَّيخ :

(وسَتجد المَزيد في فهرس الأدَب)

قال حمدانُ بنُ الأصْبَهاني : كنتُ عند شَريك ، فأتاه بعضُ وَلدِ المَهْدي ، فاسْتَنَد ، فسألَه عن حَديثٍ ، فلمْ يَلتَفتْ إليه ، وأقبلَ علينا ، ثم أعادَ ، فعادَ بمثلِ ذلك

---

(١) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٦/٩٨٣ .

(٢) انظر السير : (رزْق الله) ١٨/ ٦٠٩ـ ٦١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٧ .

(٣) انظر السير : (ابنُ بنت السُّدِّي) ١١/ ١٧٦ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٣ .

فقال : كأنَّك تَسْتَخِفُّ بأوْلادِ الخَليفَة قال : لا ، ولكنَّ العِلمَ أزْينُ عند أهلِه من أن تُضَيِّعوه ، قال : فجَثا علىٰ رُكبَتَيه ، ثم سأله ، فقال شَريكٌ : هٰكذا يُطلَبُ العِلمُ .

قال شَريك ، عن أشْعَثَ ، عن محمَّدِ بنِ سِيرين ، قال : أدْرَكتُ بالكُوفَة أربَعَةَ آلاف شابٍّ يَطلُبون العِلمَ[1] .

(ز) العَقْلُ والدِّين :

عن عيسَى الحَنَّاط قال : قال الشَّعبيُّ : إنَّما كان يَطلبُ هٰذا العلمَ مَنْ اجتمعَت فيه خَصْلتان : العَقلُ والنُّسُك ، فإنْ كان عاقلاً ولمْ يكنْ ناسِكاً قال : هٰذا أمرٌ لا يَنالُه إلاَّ النُّسَّاك فلنْ أطلُبَه ، وإن كان ناسِكاً ولم يكنْ عاقِلاً قال : هٰذا أمرٌ لا يَنالُه إلاَّ العُقَلاء ، فلن أطلُبَه يقولُ الشَّعبيُّ : فلقد رَهِبتُ أنْ يكونَ يَطلُبه اليوم مَنْ ليسَ فيه واحدةٌ منهما لا عَقْلَ ولا نُسُك .

قال الذهبيُّ : أظُنُّه أرادَ بالعَقلِ الفَهم والذَّكاء[2] .

(ح) الأَناة وعَدم العَجَلة :

قال جَعفرُ بنُ أبي عُثْمان : كنَّا عندَ يَحْيَى بن مَعين ، فجاءه رجلٌ مُسْتَعجلٌ ، فقال : يا أبا زَكَريّا ، حَدِّثْني بشيء أَذْكُرك به ، فقال يَحيَىٰ : اذكُرني أنَّك سألتَني أنْ أُحدِّثك فلمْ أفعلْ[3] .

(ط) عَدمُ السُّؤال عن أشياء لمْ تُوجَد بعد :

قال مَسْروقٌ : سألتُ أُبيّاً عن شيءٍ ، فقال : أكانَ بَعدُ ؟ قلتُ : لا قال : فاحْمِنا حتىٰ يكون ، فإذا كان ، اجْتَهدنا لك رَأيَنا[4] .

وعن الزُّهْريِّ ، بلغَنا أنَّ زَيدَ بنَ ثابت كان يقولُ إذا سُئل عن الأمر : أكانَ هٰذا ؟

---

(١) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٧/٧٤٣ .
(٢) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٣ .
(٣) انظر السير : (يَحْيَى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩١١ .
(٤) انظر السير : (أُبَيُّ بنُ كعْب) ١/ ٣٨٩ـ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/١٨١ .

فإنْ قالوا : نَعَم حَدَّثَ فيه بالذي يَعلم وإنْ قالوا : لمْ يَكنْ قال : فذَرُوه حتىٰ يَكون[١] .

٢٣ـ عدَّةُ العَالِم « لا أدْري » :

عن الشَّعْبيِّ ، قال : لا أَدْري : نِصفُ العِلم[٢] .

وعن حَنْظلَة بنِ أبي سُفْيان قال : ما رأيتُ عالماً قطُّ يَقولُ : لا أَدري أكثرَ من طاوُوس[٣] .

وقال مالكُ بنُ سُليمان : كان لإبراهيمَ بنِ طَهْمان جِرايَةٌ من بَيت المال فاخرة ، يأخذُ في كلِّ وَقت ، وكان يَسْخو به ، فسُئل مرَّةً في مَجلس الخَليفة ، فقال : لا أدْري ، قالوا له : تَأخذُ كلَّ شَهرٍ كَذا وكَذا ولا تُحْسنُ مَسألَة ؟

فقال : إنَّما آخُذُ علىٰ ما أُحْسِنُ ، ولو أخَذتُ علىٰ ما لا أُحْسِنُ ، لفَنيَ بَيتُ المال عليَّ ، ولا يَفنىٰ ما لا أُحْسِن فأعْجبَ أميرَ المؤمنين جَوابُه ، وأمرَ له بجائزة فاخرة ، وزاد في جِرايَتِه .

مات إبراهيمُ بنُ طَهْمان سنة ثلاث وستين ومئة[٤] .

وقال أبو مُسْهر : سَمعت سَعيدَ بنَ عبد العَزيز يقولُ : « لا أدري » لما لا أَدْري نصفُ العِلم وسَمعتُه يقولُ : ما كُنتُ قَدَريًّا قطُّ وسَمعتُ رَجلاً يقولُ لسَعيدٍ : أطالَ الله بقاءَك ، فقال : بل عَجَّلَ اللهُ بي إلىٰ رَحمَتِه[٥] .

وعن مالك قال : جُنَّةَ العالم : « لا أدري » فإذا أغْفَلَها أُصيبَتْ مَقاتِلُه[٦] .

وعن مالكٍ أنَّه سَمع عبدَ الله بن يزيد بن هُرْمُز يقول : يَنبَغي للعالم أن يُورث

---

(١) انظر السير : (زَيْد بن ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٥/٢٨٧ .
(٢) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٩/٥٠٤ .
(٣) انظر السير : (طاوُوس بن كيْسان) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٧٨ .
(٤) انظر السير : (إبْراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٠٦ .
(٥) انظر السير : (سَعيد بن عبد العَزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ١/٧٢٤ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٩ .

جُلَسَاءَه قولَ : « لا أدري » حتىٰ يكون ذلك أصْلاً يَفزَعون إليه[١] .

قال ابنُ عبدِ البَرِّ : صَحَّ عن أبي الدَّرْداء أنَّ : « لا أدري » نصف العلم[٢] .

هل يَستطيعُ العالمُ أنْ يَقولَ « لا أدْري » فيما يَدْري ؟ :

وسُئِلَ سُحْنونُ : أيَسَعُ العالمَ أنْ يقولَ : (لا أَدري) فيما يَدري ؟ قال : أمَّا ما فيه كتابٌ أو سُنةٌ ثابتة فلا ، وأمَّا ما كان من هـٰذا الرَّأي ، فإنه يَسَعُه ذلك ، لأنَّه لا يَدري أمُصيبٌ هو أم مُخْطِىء[٣] .

٢٤ـ مَنْ علِمَ علماً وقصر في آخَر :

قال الذهبيُّ في تَرجَمة أبي بَكر بنِ عيَّاش : قال غَيرُ واحدٍ : إنَّه صَدوقٌ ، وله أَوْهام[٤] .

وقال الذهبيُّ : فأمَّا حالُه في القِراءَة ، فقَيِّمٌ بحَرفِ عاصِم ، وقد خالَفه حَفصٌ في أزْيَد من خَمسِ مئة حَرف ، وحَفصٌ أيضاً حُجَّةٌ في القراءة ، لَيِّنٌ في الحَديث[٥] .

وقال الحاكِمُ : قال الدَّارَقُطنيُّ : أبو عُمَر الدُّوري ، يُقالُ له : الضَّرير ، وهو ضَعيفٌ وقِيلَ : هو من الدُّور ـ مَحِلَّةٌ بالجانب الشَّرقي من بَغداد .

وتُوفِّي الدُّوريُّ سنةَ ستٍّ وأربَعين ومئتَين[٦] .

قال الذهبيُّ : وقولُ الدَّارَقُطنيِّ : « ضَعيفٌ » ، يُريدُ في ضَبطِ الآثار أمَّا في القِراءاتِ فثَبتٌ إمامٌ وكذلك جَماعَةٌ من القُرَّاء أَثْباتٌ في القِراءَة دُون الحَديثِ كنافعٍ ، والكِسائيِّ ، وحَفصٍ ، فإنَّهم نَهضوا بأعْباء الحُروف وحرَّرُوها ، ولمْ يَصْنعوا ذلك في

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٢٩ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٢٩ .
(٣) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٨/٩٨٢ .
(٤) انظر السير : (أبو بكر بن عيَّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ١/٧٨٦ .
(٥) انظر السير : (أبو بكر بن عيَّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٧٨٦ .
(٦) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٨٦ .

الحَديثِ ، كما أنَّ طائفةً من الحُفَّاظ أتْقَنُوا الحَديثَ ، ولم يُحْكِموا القِراءَةَ وكذا شأنُ كُلِّ مَنْ برَزَ في فَنٍّ ، ولمْ يَعتنِ بما عَداه ، والله أعلم[١] .

وقال الذهبيُّ في ترجَمة الأَهْوازيِّ : كان رَأساً في القِراءاتِ ، مُعَمَّراً ، بَعيدَ الصِّيتِ ، صاحبَ حَديث ورِحْلَة وإكثار ، وليس بالمُتقِنِ له ، ولا المُجَوِّد ، بل هو حاطِبُ ليلٍ ومع إمامَتِه في القِراءاتِ فقد تُكُلِّمَ فيه وفي دَعاويه تلك الأسانيدَ العالية .

وهو الشيخُ الإمامُ العَلاَّمةُ ، مُقرىء الآفاق ، أبو علي ، الحَسنُ ابنُ عليّ بنِ إبراهيم الأَهْوازيّ ، نَزيلُ دِمَشْقَ وُلدَ سَنةَ اثنتَين وستِّين وثلاث مئة .

وزَعمَ أنَّه تَلا علىٰ عليِّ بن الحُسينِ الغَضَائِرِيِّ ـ مَجْهولٌ لا يُوثَقُ به[٢] .

جَمعَ سيرةً لمُعاويَة ، و« مُسْنداً » في بضعة عشر جزءاً ، حَشاه بالأباطيل السَّمجَة[٣] .

وألف كتاباً طويلاً في الصِّفات ، فيه كَذبٌ ، وممَّا فيه حَديثُ عَرَقِ الخَيْلِ[٤] وتلك الفَضائح ، فسَبَّه عُلماء الكَلام وغيرُهم[٥] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة إمامِ الحَرَمَين ، أبي المَعالي الجُويني : كان هٰذا الإمامُ مع فَرطِ ذَكائه وإمامَتِه في الفُروع وأصُول المَذهب وقوَّة مُناظَرتِه لا يَدري الحَديث كما يَليقُ به لا مَتْناً ولا إسْناداً ذَكر في كتاب « البُرهان » حَديثَ مُعاذٍ في القياس فقال : هو مُدَوَّنٌ في الصِّحاح ، مُتفَّقٌ علىٰ صِحتِه .

قلتُ (والكلامُ للذهبيِّ) : بل مَدارُه على الحارِثِ بنِ عَمرو ، وفيه جَهالَةٌ ، عن رجالٍ من أهلِ حمص ، عن مُعاذٍ فإسْنادُه صالح[٦] .

---

(١) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٦ .
(٢) انظر السير : (الأهْوَازيّ) ١٨/ ١٣ـ١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٣٧٧ .
(٣) انظر السير : (الأهْوَازيّ) ١٨/ ١٣ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٧ .
(٤) انظر « اللآلىء المصنوعة » : ١/ ٣ ، و« تَنزيه الشَّريعة » : ١/ ١٣٤ .
(٥) انظر السير : (الأهْوَازيّ) ١٨/ ١٣ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٧٧ .
(٦) انظر السير : (إمام الحَرمَين) ١٨/ ٤٦٨ـ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٣ .

٢٥ـ ضَابطٌ في إطْلاق التَّضْعيف لعالم بسَبب ضَعفه في علم أو أكثر :

قال الذهبيُّ في ترجمة عاصِمِ بنِ أبي النَّجود : كان عاصمٌ ثَبتاً في القِراءَةِ صَدوقاً في الحَديثِ ، وقد وَثَّقه أبو زُرْعَة وجَماعةٌ ، وقال أبو حاتم : مَحلُّه الصِّدقُ ، وقال الدَّارَقُطْنيُّ : في حِفظِه شيءٌ ، يَعني : للحَديثِ لا للحُروفِ ، وما زالَ في كُلِّ وَقتٍ يكونُ العالمُ إماماً في فَنٍّ مُقصِّراً في فُنونٍ وكذلك كان صاحِبُه حَفصُ بنُ سُليْمان ثَبتاً في القِراءَةِ واهياً في الحَديثِ ، وكان الأعْمَشُ بخِلافِه كان ثَبتاً في الحَديث لَيِّناً في الحُروف ، فإنَّ للأعْمَشِ قراءةٌ مَنقولَةٌ في كتاب « المنهج » وغيره لا تَرتَقي إلىٰ رُتبَةِ القِراءاتِ السَّبع ، ولا إلىٰ قِراءةِ يَعقُوب وأبي جَعْفَر والله أعلم .

تُوفِّي عاصمٌ في آخر سنةِ سبعٍ وعشرين ومئة[1] .

وقال الحاكِمُ : قال الدَّارَقُطْنيُّ : أبو عُمَر الدُّوري ، يُقالُ له : الضَّرير ، وهو ضَعيفٌ وقِيلَ : هو من الدُّور ـ مَحِلَّةٌ بالجانب الشَّرقي من بَغداد

وتُوفِّي الدُّوريُّ سنةَ ستٍّ وأربَعين ومئتَين[2] .

قال الذهبيُّ : وقولُ الدَّارَقُطنيِّ : « ضَعيفٌ » ، يُريدُ في ضَبطِ الآثار أمَّا في القِراءاتِ فثَبتٌ إمامٌ وكذلك جَماعَةٌ من القُرَّاء أثْباتٌ في القِراءَة دُون الحَديثِ كنافعٍ ، والكِسائيِّ ، وحَفصٍ ، فإنَّهم نَهضوا بأعْباء الحُروف وحرَّرُوها ، ولمْ يَصْنعوا ذلك في الحَديثِ ، كما أنَّ طائفةً من الحُفَّاظ أتْقنُوا الحَديثَ ، ولم يُحْكِموا القِراءَةَ وكذا شأنُ كُلِّ مَنْ برَزَ في فَنٍّ ، ولمْ يَعتنِ بما عَداه ، والله أعلم[3] .

٢٦ـ العُلَماء صِغار السن :

قال يَحيَىٰ بنُ أيُّوبَ العابدُ : حدَّثنا أبو المُثَنَّىٰ قال : سَمعتُهم بمَرْوَ يَقولون : قد جاءَ الثوريُّ ، فخَرجتُ أنظرُ إليه ، فإذا هو غُلامٌ قد بَقَلَ[4] وَجْهُه[5] .

---

(١) انظر السير : (عاصم بن أبي النَّجود) ٥/ ٢٥٦ـ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٥٩٩/ ٨ .

(٢) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٧٨٦/ ٢ .

(٣) انظر السير : (الدُّوري) ١١/ ٥٤١ـ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٧٨٦/ ٣ .

(٤) بَقَلَ وَجْهه ، وأبْقَل : خَرجَ شَعرُه .

(٥) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٥/ ٢ .

وقال ابنُ مَهْدي : رأىٰ أبو إسْحاق سُفيانَ الثَّوريَّ مُقبلاً : فقالَ : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[1] .

وعن ابنِ عُيَيْنَة قال : ما رأيتُ رجلاً أعْلمَ بالحَلالِ والحَرام من سُفْيان الثَّوْري[2] .

وطلبَ مالكٌ العلمَ ، وهو ابنُ بضعَ عَشرةَ سنةً ، وتأهَّلَ للفُتيا ، وجلسَ للإفادَة ، وله إحْدَىٰ وعِشرونَ سَنةً ، وحدَّثَ عنه جماعةٌ وهو حيٌّ شابٌّ طَريٌّ ، وقَصدَه طلبَةُ العلمِ من الآفاقِ في آخرِ دَولَةِ أبي جَعْفَر المَنصُور وما بعدَ ذلكَ ، وازْدَحموا عليه في خِلافَة الرَّشيد ، وإلىٰ أنْ مات[3] .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمَة الإمام الشَّافعيِّ : وارتَحلَ ـ وهو ابنُ نَيِّفٍ وعِشرينَ سَنةً ، وقد أفْتَىٰ وتأهَّلَ للإمامَة ـ إلى المَدينة فحمَلَ عن مالكِ ابنِ أنَس « المُوَطَّأ » عَرَضَه من حِفْظِه[4] .

وقال محمّدُ بنُ أبي حاتم : قلتُ لأبي عبد الله البُخاري : كيف كان بَدءُ أمرِك ؟ قال : أُلْهِمتُ حِفظَ الحَديثِ وأنا في الكُتَّاب فقلتُ : كم كان سِنُّك ؟ فقال : عَشرُ سِنينَ ، أو أقَلّ ، ثم خَرجتُ من الكُتَّابِ بعد العَشرِ فجعلتُ أختلفُ إلى الدَّاخِليِّ وغيرِه ، فقال يوماً فيما كان يقرأُ للنَّاسِ : سُفيانُ ، عن أبي الزُّبَيرِ ، عن إبراهيمَ ، فقلتُ له : إنَّ أبا الزُّبَير لم يَروِ عن إبراهيمَ ، فانْتَهَرَني ، فقلتُ له : ارجعْ إلى الأصْلِ ، فدخلَ فنَظرَ فيه ، ثم خَرجَ ، فقال لي : كيفَ هو يا غُلامُ ؟ قلتُ : هو الزُّبَيْرُ ابنُ عَدي : عن إبراهيمَ ، فأخذَ القَلمَ منِّي ، وأحْكَمَ كتابَه ، وقال : صَدقْتَ فقيلَ للبُخاري : ابنُ كم كُنتَ حينَ رَدَدتَ عليه ؟ قال : ابنُ إحْدَىٰ عَشرةَ سَنةً[5] .

وقال محمَّدُ بنُ أبي حاتم البُخاري : سَمعتُ أبا عبد الله محمَّدَ بنَ إسْماعيل يقولُ : حَجَجْتُ ورَجعَ أخي بأمِّي وتَخلَّفتُ في طَلبِ الحَديثِ فلمَّا طَعنتُ في ثمانِ عَشرةَ ،

(١) سورة مريم ، الآية : ١٢ .

(٢) انظر السير : (سُفْيان الثَّوْري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٦٩٥ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٢٦ .

(٤) انظر السير : (الإمام الشَّافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/ ٨٤٥ .

(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٠١٠ .

جعلتُ أُصَنِّفُ قَضايا الصَّحَابَة والتَّابعينَ وأقاويلَهم[1] .

وقال محمَّدُ بنُ أبي حاتم البُخاري : سَمعتُ حاشِدَ بنَ إسْماعيل وآخرَ يَقولان : كان أهلُ المَعْرِفَة من البَصْريِّين يَعْدُونَ خَلفَ أبي عبد الله البُخاري في طَلبِ الحَديث وهو شابٌّ حتىٰ يَغلِبُوه علىٰ نفسِه ، ويُجلِسُوه في بَعضِ الطَّريقِ ، فيَجتمعُ عليه ألوفٌ ، أكثرُهم ممَّن يَكتبُ عنه ، وكان شاباً لمْ يَخرجْ وَجهُه[2] .

وقال أبو محمّد بنُ حَزْم : كان محمَّدُ بنُ داوُد من أجملِ النَّاسِ ، وأكرَمِهم خُلُقاً ، وأبلَغِهم لساناً ، وأنْظَفِهم هَيئةً ، مع الدِّينِ والوَرَع ، وكلِّ خلَّة مَحْمودة ، مُحبَّباً إلى النَّاسِ ، حَفظَ القُرآنَ وله سَبعُ سنين ، وذاكَرَ الرجالَ بالآدابِ والشِّعْرِ وله عَشرُ سنين ، وكان يُشاهَد في مَجلسِه أربعُ مئة صاحبِ محْبَرَة عاشَ ثلاثاً وأربعين سنةً قال : وماتَ ابنُ داوُد سنةَ سَبعٍ وتسعينَ ومئتَين[3] .

وقيلَ : إنَّ ابنَ أبي زَيد صَنعَ « رسالتَه » المَشْهورَة وله سَبعَ عشرةَ سنةً ، وكان مع عَظمَته في العلمِ والعَملِ ذا بِرٍّ وإيثارٍ وإنْفاقٍ على الطَّلَبة وإحْسان[4] .

ورُوي عن سُليم الرَّازي قال : كان أبو حامد الإسْفَراييني في أوَّلِ أمرِه يَحرُسُ في دَربٍ ، وكان يُطالِعُ علىٰ زَيتِ الحَرَس ، وإنَّه أفْتَىٰ وهو ابنُ سَبع عشرةَ سنة .

قال الخَطيبُ : ماتَ أبو حامد في سَنةِ ستٍّ وأربعِ مئة ، كان يَوماً مَشْهوداً ، ودُفنَ في دارِه ، ثم نُقِلَ بعد أرْبعِ سِنينَ ، ودُفنَ ببابِ حَربٍ ، رَحمَه الله[5] .

وجاء في تَرجمةِ السِّلَفِيِّ ، أبي طاهِر أحمدِ بنِ محمَّدِ الجَروانيِّ ، قال الذهبيُّ : وُلِدَ في سَنةِ خَمسٍ وسَبعين ، أو قَبلَها بسَنة قال : أنا أذْكُرُ قَتلَ نظامِ المُلك ـ يَعني الوَزيرَ الذي وَقفَ المدرسَةَ النِّظاميَّةَ ببَغْداد ـ وكان عُمري نَحوَ عَشر سِنين ، قُتلَ نظامُ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١١/ ٢ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٢/ ٥ .
(٣) انظر السير : (محمد بن داوُد) ١٣/ ١٠٩ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ١٠٦١/ ١ .
(٤) انظر السير : (ابن أبي زَيْد) ١٧/ ١٠ـ ١٣ ، وانظر النزهة : ١٣١٩/ ٢ .
(٥) انظر السير : (أبو حامد الإسْفراييني) ١٧/ ١٩٣ـ ١٩٧ ، وانظر النزهة : ١٣٣٦/ ٣ .

المُلْك سَنةَ خَمسٍ وثَمانين وأربع مئة ، وقد كُتب عنّي بأَصْبَهان أَوّلَ سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة ، وأنا ابنُ سبعَ عَشرةَ سَنةً أو أكثر ، أو أقلَّ بقليل ، وما في وَجهي شَعرةٌ ، كالبُخاريِّ ـ رَحمَه الله ـ يَعني لمَّا كتبوا عنه .

وقال الإمامُ أبو شَامَة : سَمعتُ شَيخَنا عَلمَ الدِّين السَّخاويَّ يَقولُ : سَمعتُ يَوماً أبا طاهِر السِّلَفِيَّ يُنشِدُ لنَفسِه ما قالَه قَديماً :

أنـــا مِـــنْ أهْـــلِ الحَـــديـ ـــــثِ وهُـــم خَيـــرُ فِئَـــة
جُـــــزْتُ تِسْعيـــــــنَ وأَرْ جُـــو أنْ أجُـــوزَنَّ المِئَـــة

قال : فقِيلَ له : قد حَقَّقَ اللهُ رَجاءَك ، فعَلمتُ أنَّه جازَ المِئَة .

وارْتَحلَ وله أقَلُّ من عِشرينَ سَنةً ، ونَسخَ من الأجْزاءِ ما لا يُحْصَىٰ كَثرةً فكان يَنسَخُ الجُزءَ الضَّخْمَ في لَيلةٍ[1] .

٢٧ـ الحَثُّ على التَّعَلُّم في الصِّغَر :

عن هشام بنِ عُرْوَة ، عن أبيه ، أنَّه كان يَقولُ لنا ونَحنُ شَبابٌ : ما لكم لا تَعَلَّمون ، إنْ تَكونوا صِغارَ قَوْمٍ يُوشِكُ أنْ تكونوا كِبارَ قَوْمٍ ، وما خيرُ الشَّيخِ أنْ يَكونَ شَيخاً وهو جاهلٌ ، لقد رَأيتُني قبلَ مَوتِ عائشَةَ بأرْبَعِ حِجَجٍ وأنا أقولُ لو ماتَت اليومَ ما نَدمْتُ علىٰ حَديثٍ عندَها إلاَّ وقد وَعَيتُه ، ولقد كان يَبلُغُني عن الصَّحابيِّ الحَديثُ فآتيه فأجدُه قد قالَ ، فأجلسُ علىٰ بابِه ، ثم أسْألُ عنه[2] .

٢٨ـ العُلَماء الذين تَعلَّموا علىٰ كبَر :

عن الفَرَّاءِ قالَ : إنَّما تَعلَّم الكسائيُّ النَّحْوَ علىٰ كبَرٍ[3] .

قال الامام الذهبي : كان الكسائيُّ ذا مَنزِلَة رَفيعة عند الرَّشيد ، وأدَّبَ ولدَه

(١) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩١ .
(٢) انظر السير : (عُرْوَة بن الزُّبَيْر) ٤/ ٤٢١ـ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٦ .
(٣) وكان سبب تعلمه أنه جاء يوماً وقد مشىٰ حتىٰ أعيىٰ ، فجلس إلىٰ قوم فيهم فضل ، وكان يُجالسهم كثيراً ، فقال : قد عَيَّيْتُ ، فقالوا له تجالسنا وأنت تلحن ، فقال : كيف لحنتُ ؟ فقالوا : إن كنتَ=

الأمينَ ، ونالَ جاهاً وأمْوالاً ، وقد ترجمتُه في أماكن .

سارَ مع الرَّشيد ، فمات بالرَّيِّ بقَريَة أرَنْبُويَة سنةَ تسعٍ وثَمانين ومئة عن سَبعين سنة[1] .

وجاء في ترجمة القَفَّالِ ، أبي بكر عبد الله بن أحمد المَرْوَزيّ ، قال الذهبيُّ : حَذقَ في صنعَة الأقْفَال حتىٰ عَملَ قُفلاً بآلاته ومِفتاحِه زِنَةَ أربَع حَبَّات ، فلمَّا صارَ ابن ثلاثين سَنة ، آنَسَ من نفسِه ذكاءً مُفرطاً ، وأحَبَّ الفِقْهَ فأقبلَ علىٰ قِراءَتِه حتىٰ بَرعَ فيه ، وصار يُضرَب به المَثلُ ، وهو صاحبُ طَريقة الخُراسانيِّين في الفِقْه .

قال الفَقيهُ ناصرٌ العُمري : لمْ يكنْ في زمانِ أبي بكر القَفَّال أفْقَهُ منه ، ولا يَكونُ بعدَه مثلُه ، وكنَّا نقولُ : إنَّه مَلَكٌ في صُورةِ الإنْسان حدَّث وأمْلىٰ ، وكان رأساً في الفِقْه ، قُدوَةً في الزُّهْد[2] .

وقال أبو بَكْر محمَّدُ بنُ طرخان التُّرْكي : قال لي الإمامُ أبو محمَّد عبدُ الله بنُ محمَّد ـ يَعني والدَ أبي بَكْر بنِ العَربي ـ : أخبَرني أبو محمَّد بنُ حَزْم أنَّ سَبب تَعلُّمه الفِقْهَ أنَّه شَهِدَ جنازَةً ، فدَخلَ المَسجدَ ، فجَلسَ ولمْ يَركَعْ ، فقال له رجلٌ : قُمْ فَصَلِّ تَحيَّةَ المَسجدِ وكانَ قد بلغَ سِتّاً وعشرينَ سنةً قالَ : فقُمتُ ورَكَعتُ ، فلمَّا رَجعنا من الصَّلاة على الجِنازَة ، دَخلتُ المَسجدَ ، فبادَرتُ بالرُّكوع ، فقِيلَ لي : اجْلِسْ اجْلِسْ ، ليسَ ذا وَقتُ صَلاة ـ وكان بعدَ العَصْر ـ قال : فانْصَرفْتُ وقد حَزِنْتُ ، وقُلتُ للأُستاذِ الذي رَبَّاني : دُلَّني علىٰ دارِ الفَقيهِ أبي عبد الله بنِ دحُّون قال : فقَصَدتُه ، وأعْلَمتُه بما جَرىٰ ، فدَلَّني علىٰ « مُوَطَّأ » مالكٍ ، فبَدأتُ به عليه ، وتتابَعَت قراءَتي عليه وعلىٰ غَيرِه نحواً من ثلاثةِ أعْوام ، وبَدأتُ بالمُناظَرة .

= أردتَ من التَّعَب فقُل : « أعييتُ » ، وإن كنت أردتَ من انقطاع الحيلة والتَّحَيُّر في الأمر ، فقُل : « عَييتُ » مُخفَّفَة ، فأنفَ من هـٰذه الكلمة ، وقام من فَوْره فسألَ عمَّن يعلم النَّحْوَ ، فأُرْشِدَ إلىٰ مُعاذ الهرَّاء ، فلزِمَه حتىٰ أنفذَ ما عندَه .

(١) انظر السير : (الكسائيّ) ٩/ ١٣١ـ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٥/٨٠٧ .

(٢) انظر السير : (القفَّال) ١٧/ ٤٠٥ـ٤٠٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٧ .

قال أبو مَرْوانَ بنُ حَيَّان : كان ابنُ حَزْم ـ رَحِمَه الله ـ حاملَ فُنونٍ من حَديثٍ وجَدَلٍ ونَسَبٍ ، وما يَتعلَّقُ بأذْيالِ الأدَب ، مع المُشارَكَة في أنْواعِ التَّعاليم القَديمَة من المَنْطِق والفَلْسَفة ، وله كُتُبٌ كَثيرة لَمْ يَخلُ فيها من غَلَطٍ لجَراءَتِه في التَّسَوُّرِ على الفُنون لا سيَّما المَنْطِق فإنَّهم زَعَموا أنَّه زَلَّ هناك ، وضَلَّ في سُلوكِ المَسالِكِ ، وخالَفَ أرِسْطاطاليسَ واضِعَ الفَنِّ مخالفةَ مَنْ لَمْ يَفهَمْ غَرضَه ، ولا ارْتاضَ ، ومالَ أولاً إلى النَّظرِ علىٰ رأي الشَّافعيِّ ، وناضَلَ عن مَذهَبِه حتىٰ وُسِمَ به ، فاسْتُهْدِف بذلك لكَثيرٍ من الفُقَهاء ، وعِيبَ بالشُّذوذ ، ثم عَدَلَ إلىٰ قَولِ أصْحابِ الظَّاهِر فنَقَّحَه ، وجادَلَ عنه ، وثَبتَ عليه إلىٰ أنْ ماتَ ، وكان يَحملُ عَلمَه هـٰذا ، ويُجادِلُ عنه مَنْ خالَفَه ، على اسْتِرْسالٍ في طِباعِه ومَذْلٍ[1] بأسْرارِه ، واسْتنادٍ إلى العَهدِ الذي أخَذَه اللهُ على العُلماء ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾[2] ،[3] .

٢٩ـ من أسباب عَدم الاستفادَة من العُلَماء :

(أ) كثرَة مُخالَفته :

قال الزُّهْريُّ : أرْبَعةٌ من قُريشٍ وَجدتُهم بُحوراً ، عُرْوَةُ ، وابنُ المُسَيِّبِ ، وأبو سَلَمَةَ ، وعُبَيْدُ اللهِ بنُ عَبدِ الله ، قالَ : وكانَ أبو سَلَمَةَ كثيراً ما يُخالِفُ ابنَ عَبَّاس فحُرِمَ لذَلكَ منه عِلماً كَثيراً قالَه الزُّهريُّ[4] .

(ب) كون العالِم في غُربَة وهو لا يُعْرَف :

عن عُمرُ بنِ حَبيب قال : كانَ سَعيدُ بنُ جُبَير بأصْبَهانَ لا يُحدِّث ، ثم رَجعَ إلى الكُوفَة فجَعلَ يُحدِّثُ ، فقُلنا له في ذلك فقال : انْشُرْ بَزَّكَ حَيثُ تُعْرَف[5] .

---

(١) مذل بسره ، كنصر وعلم وكرم : أفشاه ومذلت نفسه بالشيء مذلاً : طابت وسمحت .

(٢) في قوله تعالىٰ ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ (آل عمران ، الآية : ١٨٧) وقوله تعالىٰ : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيب فيهما ، والباقون بتاء الخطاب .

(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٠١ .

(٤) انظر السير : (أبو سَلَمَة بن عبد الرحمـٰن) ٤/ ٢٨٧ـ ٢٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/٤٩٩ .

(٥) انظر السير : (سعيد بن جُبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/٥٠٥ .

(ج) عَدم الأمَان :

قال الخَطيبُ : كان دَعْلَجُ من ذَوي اليَسار ، له وُقوفٌ علىٰ أهْلِ الحَديث .

وقال الخَطيبُ : حَكَىٰ لي أبو العَلاء الواسِطيُّ ، أنَّ دَعْلَجاً سُئل عن مُفارَقتِه مَكة ، فقال: خَرجتُ لَيلةً من المَسجدِ، فتَقدَّم ثلاثةٌ من الأعْرابِ ، فقالوا: أخٌ لك من خُراسان قَتلَ أخَانا ، فنَحنُ نَقتُلك به ، فقُلتُ : اتَّقوا الله ، فإنَّ خُراسانَ لَيست بمَدينةٍ واحِدَة ، ولمْ أزَلْ بهم إلىٰ أنْ اجْتَمعَ النَّاسُ وخَلُّوا عَنِّي فهـٰذا كان سَببُ انْتِقالي إلىٰ بَغْداد وكان يقولُ : ليسَ في الدُّنيا مثلُ داري ، وذلكَ لأنَّه ليسَ في الدُّنيا مثلُ بَغْدادَ ، ولا ببَغْدادَ مثلُ مَحِلَّة القَطيعة ، ولا في القَطيعة مثلُ دَرْب أبي خَلَف ، وليسَ في الدَّرْب مثلُ داري[1] .

(د) الكِبْر والتِّيه على العالِم :

قال عُثمانُ بنُ خُرَّزاذ : سَمعتُ الشَّاذَكُونيَّ يقولُ : جاءَني محمَّدُ ابنُ مُسْلم فقَعدَ يَتَقعَّرُ[2] في كَلامِه ، فقلتُ له : مِنْ أيِّ بلدٍ أنتَ ؟ قال : مِنْ أهْلِ الرَّيِّ ، ألَمْ يأتِكَ خَبري ؟ ألَمْ تَسمَعْ بنبَئِي ؟ أنا ذُو الرِّحْلَتين قُلتُ : مَنْ رَوَىٰ عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكمَةً » فقالَ : حدَّثني بعضُ أصْحابِنا قلتُ : مَنْ ؟ قال : أبو نُعَيم وقَبيْصَة قلتُ : يا غُلامُ! ائتِنِي بالدِّرَّة ، فأتاني بها ، فأمَرتُه ، فضَربَه بها خَمسينَ ، قلتُ : أنتَ تَخرُجُ من عِندي ، ما آمَنُ أن تقولَ : حَدَّثني بَعضُ غِلْمانِنا[3] .

قال زَكريّا السَّاجي : جاءَ ابنُ وَارَة إلىٰ كُرَيْب ، وكان في ابنِ وَارَة بأوٌ[4] فقال لأبي كُرَيْب : ألَمْ يَبْلُغْك خَبري ؟ ألَمْ يأتِكَ نَبَئي ، أنا ذو الرِّحْلَتين ، أنا محمَّدُ بنُ مُسْلم بنِ وَارَة فقال : وَارَة ؟!! وما أدْراكَ ما وَارَة ؟ قُمْ ، فواللهِ لا حَدَّثْتُك ، ولا حَدَّثْتُ قَوماً أنت فيهم[5] .

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٦ .
(٢) التقعير : أن يتكلم بأقصىٰ قعر فمه .
(٣) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٨ .
(٤) البأوُ : الكِبرُ والتِّيه .
(٥) انظر السير : (ابن وارَة) ١٣/ ٢٨ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٨ .

(هـ) التَّعَصُّب المَذْهَبيّ :

كان بَقيُّ بنُ مَخْلَد أَوَّلَ مَنْ كَثَّرَ الحَديثَ بالأَنْدَلُس ونَشَره ، وهاجَمَ به شُيوخَ الأَنْدَلُس ، فثارُوا عليه ، لأَنَّهم كان عِلْمُهم بالمَسائِلِ ومَذهَب مالِك ، وكان بَقيٌّ يُفْتي بالأَثَر ، فشَذَّ عنهم شُذوذاً عَظيماً ، فعَقَدوا عليه الشَّهادات ، وبَدَّعوه ، ونَسَبوا إليه الزَّنْدَقَة ، وأَشْياءَ نَزَّهَه اللهُ منها وكان بَقيٌّ يقولُ : لقد غَرَسْتُ لهم بالأَنْدَلُس غَرْساً لا يُقْلَعُ إلاَّ بخُروجِ الدَّجَّال[1] .

(و) أَزْهَدُ النَّاس في عالمٍ أَهْلُه :

عن هشامِ بنِ عُرْوَة ، عن أبيه قال : كان يُقالُ : أَزْهَدُ النَّاسِ في عالِمٍ أهلُه[2] .

وقال سُليمانُ الأَحْوَل : لَقيتُ عِكرِمَةَ ومعه ابنٌ له ، قُلتُ : أَيَحْفَظُ هـٰذا من حَديثِك شَيئاً ؟ قال : إنَّه يُقالُ : أَزْهَدُ النَّاسِ في عالِمٍ أهلُه[3] .

٣٠ـ من أَسْباب عَدم انتشار علم بَعض العُلَماء :

(أ) كثرَة العبادَة :

قال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة : سَمعتُ عَطاءَ بنَ السَّائِب يقولُ : رأيتُ مُصَلَّىٰ مُرَّةَ الهمذانيّ مثل مَبرِك البَعير ، ونقل عَطاءٌ أو غَيرُه أَنَّ مُرَّةَ كان يُصَلي في اليوم والليلة سِتَّ مئة قال الذهبيُّ : ما كان هـٰذا الوَلِيُّ يَكادُ يَتفرَّغُ لنَشْرِ العِلم ، ولهـٰذا لم تَكثُر رِوايتُه ، وهل يُرادُ من العِلم إلاَّ ثَمَرَتُه .

ماتَ مُرَّةُ سنةَ نيِّف وثمانينَ ـ رَحمَه الله ـ بالكُوفَة[4] .

(ب) الشذوذ وكثرَة المُخالَفة :

جاء في تَرجمَة الإمامِ مالِك ، قال الذهبيُّ : وللزَّيْديَّة مَذهبٌ في الفُروع بالحِجازِ

---

(١) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٦ .

(٢) انظر السير : (عُروَة) ٤/ ٤٢١ـ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/٥٢٦ .

(٣) انظر السير : (عِكرمَة) ٥/ ١٢ـ٣٦ ، وانظر النزهة : ٦/٥٧٦ .

(٤) انظر السير : (مُرَّة الطَّيب) ٤/ ٧٤ـ٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٧ .

واليَمَنِ ، لكنَّه مَعدُودٌ في أقْوالِ أهْلِ البِدَع ، كالإماميَّة ، ولا بأسَ بمَذهَبِ داوُد ، وفيه أقْوالٌ حَسَنةٌ ، ومُتابَعَةٌ للنُّصوصِ ، مع أنَّ جَماعَةً من العُلمَاء لا يَعْتدُّون بخِلافِه ، وله شُذوذٌ في مَسائل شانَت مَذْهَبَه .

ولكن هـٰذا الإمام الذي هو النَّجْمُ الهادي قد أنْصَفَ ، وقال قَولاً فَصْلاً ، حَيثُ يقولُ : كُلُّ أحَدٍ يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَكُ ، إلاَّ صاحِبُ هـٰذا القَبر صلى الله عليه وسلم[1] .

(ج) **قَسوةُ عبارة العالِم ، وشَتمه وسبّه غيرَه :**

جاء في تَرجَمة ابنِ حَزْم ، قال الذهبيُّ : قيل إنه تَفَقَّه أولاً للشَّافِعيِّ ، ثم أدَّاهُ اجْتهادُه إلى القَولِ بنَفْيِ القِياسِ كُلِّه جَليِّه وخَفيِّه ، والأخْذِ بظاهِرِ النَّص وعُمومِ الكِتاب والحَديث ، والقَولِ بالبَراءَة الأصْليَّة ، واسْتصْحابِ الحَال ، وصَنَّفَ في ذلك كُتباً كثيرة ، وناظَرَ عليه ، وبَسَط لسانَه وقَلَمَه ، ولَمْ يَتأدَّبْ مع الأئِمَّة في الخِطاب ، بلْ فجَّجَ[2] العِبارَة وسَبَّ وجدَّع[3] ، فكان جَزاؤُه من جِنْسِ فعلِه ، بحَيثُ إنَّه أعْرَضَ عن تَصانيفِه جَماعَةٌ من الأئمَّة ، وهَجَروهُا ونفَروا منها ، وأُحْرِقَتْ في وَقتٍ ، واعْتَنىٰ بها آخَرونَ من العُلماء وفتَّشُوها انْتِقاداً واسْتفادَةً ، وأخْذاً ومُؤاخَذةً ، ورَأوا فيها الدُّرَّ الثَّمينَ مَمْزُوجاً في الرَّصْفِ بالخَرَزِ المَهين ، فتارَةً يَطْرَبون ، ومرَّةً يُعْجَبون ، ومن تَفرُّدِه يَهزَؤُون .

وفي الجُملَة فالكَمالُ عَزيزٌ ، وكلُّ أحَد يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يَنهَضُ بعُلوم جمَّة ، ويُجيدُ النَّقْلَ ، ويُحسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ وفيه دينٌ وخَيرٌ ومَقاصِدُهُ جَميلةٌ ، ومُصنَّفاته مُفيدَةٌ ، وقد زَهدَ في الرِّئاسَة ، ولَزِمَ مَنزلَه مُكبَّاً على

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٣٣ .

(٢) المعنىٰ أنه ساق العبارة فجَّة قاسية .

(٣) الجدع في الأصل : القطع ، وهو هنا كناية عن الذَّم والشَّتْم .

العِلمِ ، فلا نَغْلو فيه ، ولا نَجْفو عنه ، وقد أثنىٰ عليه قبلَنا الِكبارُ :

قال أبو حامد الغَزاليّ : وَجدتُ في أسْماءِ اللهِ تَعالَىٰ كتاباً أَلَّفَه أبو محمَّد بنُ حَزْم الأنْدَلُسيّ يَدلُّ علىٰ حفظِه وسَيلانِ ذِهْنه .

وقال أبو عبد الله الحُمَيديّ : كان ابنُ حَزْم حافظاً للحَديثِ وفِقهِه ، مُستنبطاً للأحْكامِ من الكتابِ والسنُّة ، مُتفنِّناً في عُلوم جمَّة عاملاً بعلمِه ، ما رأينا مثلَه فيما اجْتمعَ له من الذَّكاء وسُرعةِ الحِفظِ وكرمِ النَّفس والتَّديُّن ، وكان له في الأدَبِ والشِّعْر نَفَسٌ واسعٌ وباعٌ طَويلٌ وما رأيتُ مَنْ يَقولُ الشِّعرَ على البَديهِ أَسْرعَ منه وشِعرُه كثيرٌ جَمعتُه علىٰ حُروفِ المُعْجَم .

وقد حَطَّ أبو بَكْر بنُ العَربيِّ علىٰ أبي محمَّد في كتابِ « القَواصِم والعَواصِم » وعلى الظَّاهِريَّة ، فقال : هي أُمَّةٌ سَخيفَةٌ ، تَسوَّرت علىٰ مَرتَبةٍ ليست لها ، وتَكلَّمت بكلامٍ لم نَفْهَمْه ، تَلقَّوْه من إخْوانِهمُ الخَوارج حين حكَّم عليٌّ ، رضي الله عنه ، يوم صفين ، فقالت : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وكان أوَّلُ بدْعَةٍ لَقيتُ في رِحْلتي القَولَ بالباطِن ، فلمَّا عُدتُ وجَدتُ القَولَ بالظَّاهر قد مَلأ به المَغربَ سَخيفٌ كان من بادِيَة إشْبيليَّة يُعرفُ بابنِ حَزْم ، نَشأ وتَعلَّق بمَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم انتَسبَ إلىٰ داوُد ، ثم خَلعَ الكُلَّ ، واسْتقلَّ بنفسِه ، وزَعمَ أنَّه إمامُ الأُمَّة يَضعُ ويَرفَع ، ويَحكمُ ويشرعُ ، يَنْسبُ إلىٰ دين الله ما ليس فيه ، ويقولُ عن العُلماءِ ما لم يَقولوا تَنْفيراً للقُلوبِ منهم ، وخَرجَ عن طَريق المُشَبِّهَة في ذاتِ الله وصِفاتِه ، فجاءَ فيه بطَوامَّ ، واتَّفقَ كونُه بين قَومٍ لا بَصَرَ لهم إلاَّ بالمَسائل فإذا طالبَهم بالدَّليلِ كاعوا[1] فيَتضاحَكُ مع أصحابه منهم ، وعَضَدَتْهُ الرِّئاسَةُ بما كان عنده من أدَبٍ ، وبشُبَهٍ كان يُوردُها على الملوك فكانوا يَحملُونَه ، ويَحمونَه ، بما كان يُلقي إليهم من شُبَهِ البِدَعِ والشِّرْك ، وفي حين عَودي من الرِّحْلة أَلْفَيتُ حَضْرتي منهم طافِحَة ، ونارَ ضلالِهم لافِحَة ، فقاسَيتُهم مع غَير أقْران وفي عَدَم أنْصار إلىٰ حُسَّاد يَطؤون عَقبي ، تارَةً تذهبُ لهم نفسي ، وأخْرىٰ يَنْكَشِرُ لهم ضِرْسي ، وأنا بين إعْراضٍ

(١) أي : جَبُنوا .

عنهم أو تَشَغْبُبٍ بهم ، وقد جاءَني رجلٌ بجُزْء لابنِ حَزْم سمَّاه « نكتُ الإسْلام » فيه دَواهي ، فجَرَّدتُ عليه نَواهي ، وجاءَني آخَرُ برسالة في الاعْتقاد فنَقضتُها برسالة « الغُرَّة » والأمرُ أفْحَشُ من أنْ يُنقض[1] .

وقال أبو مَرْوانَ بنُ حَيَّان : لَمْ يكُ يُلطِّفُ صَدْعَه بما عنده بتَعريض ولا بتَدريج بل يَصكُّ به مَنْ عارَضَه الجَندلَ[2] ويُنشِقُه إنْشاقَ الخَرْدَل ، فتَنفرُ عنه القُلوب وتُوقعُ به النُّدوب ، حتى استُهدفَ لفُقهاءِ وَقتِه ، فتمالَؤوا عليه ، وأجْمَعُوا علىٰ تَضليلِه ، وشَنَّعوا عليه وحَذَّروا سَلاطينَهم من فِتنَتِه ونَهوا عَوامَّهم من الدُّنوِّ منه فطَفِقَ المُلوكُ يُقصونَه عن قُربِهم ، ويُسيِّرونَه عن بلادِهم إلىٰ أنِ انتَهَوا به مُنقَطع أثرُه ببلدَةٍ من باديَة لَبْلَة ، وهو في ذلك غيرُ مُرْتَدِع ولا راجِع ، يَبُثُّ علمَه فيمن يَنتابُه من باديَة بلدِه من عامَّة المُقتَبسين من أصاغرِ الطَّلبَة ، الذين لا يَخشَونَ فيه المَلامَةَ يُحدِّثهم ، ويُفقِّههم ، ويُدارِسُهم ، حتىٰ كَمَل من مُصنَّفاتِه وِقْرُ بَعير ، لمْ يَعُدْ أكثرُها باديتَه لزُهْدِ الفُقَهاء فيها ، حتىٰ لأُحْرِقَ بَعضُها بإشْبيليَّة ومُزِّقت عَلانيَةً .

وكان ممَّا يَزيدُ في شَنآنِه تَشيُّعه لأُمَراءِ بني أُميَّة ماضيهِم وباقيهِم واعتقادُه لصِحَّة إمامَتهم ، حتىٰ لنُسبَ إلى النَّصْبِ .

قال الذهبيُّ : قد أخَذَ المَنطِقَ ـ أبْعدَه اللهُ من عِلمٍ ـ عن : محمّدِ ابنِ الحَسَن المَذْحِجيِّ ، وأمْعَنَ فيه ، فزَلزَلَه في أشياءَ ، ولي أنا مَيْلٌ إلىٰ أبي محمّد لمَحبَّته في الحَديثِ الصَّحيح ، ومَعرفتِه به وإنْ كُنتُ لا أُوافِقُه في كَثير ممَّا يَقولُه في الرِّجال والعِلَل ، والمَسائلِ البَشِعَة في الأُصولِ والفُروع ، وأقْطَعُ بخَطئِه في غَير ما مَسْألة ، ولكن لا أُكفِّرُه ، ولا أُضَلِّلُه وأرجُو له العَفوَ والمُسامَحَة ، وللمُسلمين ، وأخْضَعُ لفَرطِ ذَكائِه وسِعَة عُلومِه[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٧ .
(٢) الجندل : ما يُقِلُّه الرجل من الحجارة .
(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٢ .

٣١ـ من أسباب بُروز بَعض العُلَماء :

(أ) مجموعة صفات تجدها في العالِم :

قيلَ للشَّعْبيِّ : من أين لك كلُّ هـٰذا العِلم ؟ قال : بنَفْي الاغْتمام ، والسَّيرِ في البلادِ ، وصَبرٍ كصَبرِ الحَمام ، وبُكور كبُكُورِ الغُراب[١] .

وعن مالكٍ ، قالَ : كان عُبَيْدُ الله بنُ عبد الله من العُلماء ، وكان إذا دَخلَ في صَلاتِه ، فقَعدَ إليه إنْسانٌ ، لمْ يُقبلْ عليه حتىٰ يَفرَغَ ، وإنَّ عليَّ بنَ الحُسين كان من أهْلِ الفَضلِ ، وكان يأتيه فيَجلسُ إليه ، فيُطَوِّلُ عُبَيْدُ الله في صَلاته ولا يَلتفتُ إليه ، فقيلَ له : عليٌّ وهو مِمَّنْ هو منه فقال : لا بُدَّ لمَنْ طَلبَ هـٰذا الأمْرَ أنْ يُعَنَّىٰ به[٢] .

(ب) الحِرْص :

عن سَعيدِ بنِ جُبَير قال : رُبَّما أتَيتُ ابنَ عَبَّاس ، فكَتبتُ في صَحيفَتي حتىٰ أملأها ، وكَتبتُ في نَعْلي حتىٰ أملأها ، وكَتبتُ في كَفِّي[٣] .

(ج) قَناعَة النَّاس بهم :

قال بَقيَّة : حدَّثني ثَورٌ ، قال : أهْلُ حِمْصَ يأخُذون كُتبَ ابنَ عائذ ، فما وَجدوا فيها من الأحْكامِ عَمدوا بها علىٰ باب المَسْجد ، قَناعَةً بها ورِضاً بحَديثِه[٤] .

وقال بَقيَّة : حدَّثني أرْطاةُ بنُ المُنْذِر ، قال : اقْتَسَم رجالٌ من الجُندِ كُتبَ ابنِ عائذ بينهم بالمِيزانِ لقَناعَته فيهم[٥] .

(د) تَمَيّز العالِم :

عن الزُّهْريِّ ، قال : ما جالَستُ أحداً من العُلماء إلاَّ أنِّي قد أَتيتُ علىٰ ما عندَه ، وقد كنتُ أخْتلفُ إلىٰ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَير حتىٰ ما كنتُ أسْمعُ منه إلاَّ مُعاداً ما خَلا

---

(١) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/٥٠١ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بن الحُسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٥١٧ .
(٣) انظر السير : (سعيد بن جُبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ١/٥٠٧ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/٥٣٨ .
(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٣٨ .

عُبَيدُ الله بنُ عبد الله بن عُتْبة ، فإنَّه لمْ آتِه إلاَّ وَجدتُ عندَه عِلماً طَريفاً[1] .

وعن الرَّبيعِ بنِ أَنَس ، قال : أخْتلفُ إلى الحَسَنِ البَصْريِّ عَشرَ سِنينَ أو ما شاءَ الله ، فلَيسَ من يَومٍ إلاَّ أسْمعُ منه ما لم أسْمعْ قبلَ ذلك .

وقال عَوفٌ : ما رَأيتُ رجلاً أعْلمَ بطَريقِ الجَنَّة من الحَسَنِ[2] .

واجْتمعَ جَماعَةٌ مثلُ الفَضْلِ بنِ مُوسَىٰ ، ومَخْلَدُ بنُ الحُسَين ، فقالوا : تَعالَوا نَعدُّ خِصالَ ابنِ المُبارَك من أبواب الخَير ، فقالوا : العِلمُ ، والفِقْهُ ، والأدَبُ ، والنَّحوُ ، واللُّغةُ ، والزُّهدُ ، والفَصاحَةُ ، والشِّعرُ ، وقيامُ اللَّيلِ ، والعِبادةُ ، والحَجُّ ، والغَزْوُ ، والشَّجاعَةُ ، والفُروسيَّةُ ، والقُوَّةُ ، وتَركُ الكَلامِ فيما لا يَعنيه ، والإنْصافُ ، وقِلَّةُ الخِلافِ علىٰ أصْحابه[3] .

٣٢ـ مُتفرِّقات :

(أ) أمثلة على الخُلَفاء والأُمَراء والعُلَماء :

عبد الملك بن مَروان :

عن نافِعٍ ، قال : لقد رَأيتُ المَدينةَ وما بها شابٌّ أشَدُّ تَشميراً ولا أَفْقَهُ ولا أنْسَكُ ولا أقْرأُ لكتاب الله من عبدِ المَلك[4] .

وقال أبو الزِّناد : فُقَهاءُ المَدينةِ : سَعيدُ بنُ المُسَيِّب ، وعبدُ المَلك ، وعُروَةُ وقبيصةُ بنُ ذُؤيب[5] .

عبد الله بن محمّد بن عبد الرحمَـٰن « المَرْواني » :

قال محمَّدُ بنُ وَضَّاح : كان عبدُ الله بنُ محمّد المَرْوَانيُّ الأميرُ من الصَّالحين المُتَّقين العالِمين ، رَوى العلمَ كثيراً ، وطالَعَ الرَّأيَ ، وأبْصرَ الحَديثَ ، وحَفظَ

---

(١) انظر السير : (عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة) ٤/ ٤٧٥ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٣٥ .

(٢) انظر السير : (الحَسن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥٦٠ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٦٨ .

(٤) انظر السير : (عبد المَلك بن مَرْوان) ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٧/٤٨٩ .

(٥) انظر السير : (عبد المَلك بن مَرْوان) ٤/ ٢٤٦ـ ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٩٠ .

القُرآن ، وتَفقَّه ، وأكثرَ الصَّومَ ، كان يَلتزمُ الصَّلواتِ في الجامعِ ، فيَمرُّ بالصَّفِ ، فيقومُ النَّاسُ له ، فكَتبَ إليه سَعيدُ ابنُ حُمير : أيُّها الإمامُ أنتَ من المُتَّقين ، وإنَّما يَقومُ النَّاسُ لرَبِّ العالَمين ، فلا تَرضَ من رَعيَّتك بغير الصَّواب ، فإنَّ العِزَّةَ لله جَميعاً ، فأمَرَ العامَّةَ بتَركِ ذلك فلمْ يَنتهوا ، فحينئذٍ ابْتَنى السَّاباطَ طَريقاً مَشْهوراً من قَصرِه إلى المَقصُورة .

قال اليَسعُ بنُ حَزْم : اسْتُضعِفت دولةُ بني أميَّة ، وقام بها ابنُ حَفصونَ ، وكان نَصرانيَّ الأصْلِ ، فأسْلم وتَنصَّح[1] وألَّب وحَشدَ ، وصارت الأنْدلسُ شُعلَةً تُضرَم ، ولمْ يَبْقَ لبَني أميَّة مِنبرٌ يُخطَب فيه إلاَّ مِنبَرُ قُرطُبَة ، والغاراتُ تُشنُّ عليها حتىٰ قام عبدُ الرَّحمَـٰن النَّاصِرُ ، فتَراجَعَ الأمرُ .

مات عبدُ الله في سَنة ثلاثِ مئة ، وله اثْنتان وسَبعون سَنةً[2] .

المُسْتَنْصِر بالله المَرْوانيّ :

قال الذهبي في ترجمة المُسْتَنصِر بالله « الحَكم بنِ عبدِ الرَّحمَـٰن ابنِ محمّد » : كان حَسنَ السِّيرَة ، جامعاً للعِلم ، مُكرماً للأفاضِل ، كبيرَ القَدرِ ، ذا نَهْمَة مُفرِطَة في العِلم والفَضائل ، عاكفاً على المُطالَعَة[3] .

جَمعَ من الكُتبِ ما لمْ يَجمَعْه أحدٌ من المُلوك ، لا قَبلَه ولا بَعدَه ، وتَطلَّبَها ، وبَذلَ في أثْمانِها الأمْوالَ ، واشْتُريت له من البلادِ البَعيدة بأغْلَى الأثْمان ، مع صَفاءِ السَّريرَة والعَقلِ والكَرَم ، وتَقريبِ العُلماء[4] .

ولقد ضَاقَت خَزائنُه بالكُتب إلىٰ أنْ صارَت إليه ، وآثَرَها علىٰ لَذَّاتِ المُلوك ، فغَزُرَ علمُه ، ودَقَّ نَظرُه ، وكان له يَدٌ بَيضاء في مَعْرفَةِ الرِّجال والأنْسابِ ، والأخْبارِ ، وقَلَّما

---

(١) تنصَّح : أي تشبَّه بالنُّصَحاء والتَّنصُّح : كثرة النصح ، ومنه قول أكثم بن صيفي : إياكم والتنصُّح فإنه يورث التهمة .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمَـٰن) ٨/ ٢٦٤ـ ٢٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٥ .

(٣) انظر السير : (الحكم بن عبد الرحمـٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٥٧ .

(٤) انظر السير : (الحكم بن عبد الرحمـٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ١/٧٥٨ .

تَجدُ له كتاباً إلاَّ وله فيه قِراءَةٌ أو نَظرٌ ، من أيِّ فَنٍّ كان ويَكتبُ فيه نَسَبَ المُؤلِّف ، ومَولِدَه ووَفاتَه ، ويأتي من ذلك بغَرائبَ لا تَكادُ تُوجَد[1] .

وقال الذهبي في موضع آخر : كان المُسْتَنْصِرُ بالله عالماً أخبارياً ، وَقوراً ، نَسيجَ وَحْدِه[2] .

وكان الحَكمُ مُوثَّقاً في نَقلِه ، قَلَّ أنْ تَجدَ له كتاباً إلاَّ وله فيه نَظَرٌ وفائدَة ، ويَكتُبُ اسمَ مُؤلِّفِه ونَسَبَه ومَولِدَه ، ويُغرب ويُفيد[3] .

(ب) الأُمَراء مُحِبُّوا العِلم :

جاء في تَرجَمة محمَّدِ بنِ عبد الرَّحمَـٰن بنِ الحَكم بنِ هِشام « صاحب الأنْدلُس » ، قال الذَّهبيُّ : كان مُحبَّاً للعلم ، مُؤثراً لأصْحابِ الحَديث ، مُكْرِماً لهم ، حَسنَ السِّيرَة ، وهو الذي نَصرَ بَقيَّ بنَ مَخْلد الحافظَ علىٰ أهْلِ الرَّأي[4] .

قال بقيُّ بنُ مَخْلَد : ما كلَّمتُ أحداً من المُلوك أكمَلَ عَقلاً ، ولا أبْلغَ لَفظاً من الأميرِ محمّد ، ولقد دَخلتُ عليه يَوماً في مَجلسِ خِلافَته ، فافْتَتَح الكلامَ بحَمدِ الله ، والصَّلاة علىٰ نَبيِّه ، ثم الخُلفاء ، فحَلَّىٰ كلَّ واحد بحِليَته وصِفَته ، وذكرَ مآثرَه بأفْصَحِ لسان حتى انتَهىٰ إلىٰ نفسِه ، فحَمِدَ اللهَ علىٰ ما قَدَّره ، ثم سَكت .

قال الذهبيُّ : رأىٰ مُصنَّفَ أبي بكر بن أبي شَيبة ، إذ نازَعَ أهلُ الرَّأيِ بَقيَ بنَ مَخْلَد فأمرَ بنَسخِه ، وقال : لا تَسْتغني خِزانَتُنا عن هـٰذا .

وكان ذَا رَأيٍ وحَزمٍ وشَجاعةٍ وإقْدام .

بُويع عند مَوت والده في سنة ثمان وثلاثين ، وله إحْدىٰ وثلاثون سنة ، وذلك بعَهْدٍ من والده ، وأمُّه أمُّ وَلد .

---

(١) انظر السير : (الحكم بن عبد الرحمـٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥٨ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَنصر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٩٠ .
(٣) انظر السير : (المُسْتَنصر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٩٠ .
(٤) انظر السير : (محمد بن عبد الرحمـٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥٤ .

وامتدت دَولَتُه ، وقيلَ : إنَّه كان يَتوغَّلُ في بلاد الرُّوم ، ويَبقىٰ في الغَزو السَّنةَ وأكثر[1] .

(ج) أغْنياء العُلَماء :

قال الذهبيُّ في ترجَمة الإمامِ مالِك : قال ابنُ أبي أوَيس : بيعَ ما في منزلِ خالي مالِك من بُسُط ومِنصَّات ، ومَخادَّ ، وغير ذلك ، بما يُنيف علىٰ خمس مئة دينار[2] .

وقال محمَّدُ بنُ عيسىٰ بنُ خَلف : خلَّف مالِكٌ خَمسَ مئة زَوجٍ من النِّعال ، ولقد اشْتَهىٰ يوماً كساءً قُوصيّاً ، فما مات إلاَّ وعنده منها سَبعة ، بُعثت إليه[3] .

وقال أبو عَمرو : تركَ من الناضِّ[4] ألفَي دينار وستَّ مئة دينار ، وسَبعة وعشرين ديناراً ، ومن الدَّراهم ألفَ درهم[5] .

قال الذهبيُّ : قد كان هـٰذا الإمامُ من الكُبَراء السُّعَداء ، والسَّادَة العُلماء ، ذا حِشْمَة وتَجمُّل ، وعَبيدٍ ، ودارٍ فاخِرَة ، ونِعْمَةٍ ظاهِرَة ، ورِفْعَة في الدُّنيا والآخرة كان يَقبلُ الهَدية ، ويأكلُ طيِّباً ويَعملُ صالحاً[6] .

وقال قُتَيْبَةُ : كان اللَّيثُ بنُ سَعد يَسْتغِلُّ عشرينَ ألفَ دينار في كلِّ سنة ، وقال : ما وَجَبت عليَّ زكاةٌ قطُّ وأعْطَى اللَّيثُ ابنَ لَهيعَة ألفَ دينار ، وأعْطَىٰ مالِكاً ألفَ دينار وأعْطَىٰ مَنصورَ بنَ عمَّار الوَاعِظَ ألفَ دينار وجاريةً تَسوىٰ ثلاثة مئة دينار[7] .

وجاءت امرأةٌ إلى اللَّيث ، فقالت : يا أبا الحارِث ، إنَّ ابناً لي عَليلٌ ، واشْتَهىٰ عَسلاً ، فقالَ : يا غُلام ، اعْطِها مِرطاً من عَسل ، والمِرْطُ : عِشرون ومئة رَطل[8] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن عبد الرحمـٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٢ـ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٧٥٤/ ٣ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٨/ ٢ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٨/ ٣ .
(٤) الناضّ : النقد من الدنانير والدراهم .
(٥) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٨/ ٤ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٨/ ٥ .
(٧) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٧٣٩/ ٣ .
(٨) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٧٣٩/ ٤ .

وقال عبدُ الله بنُ صالح : صَحِبتُ اللَّيثَ عشرينَ سَنةً ، لا يَتغدَّىٰ ولا يَتعَشَّىٰ إلاَّ مع النَّاسِ وكان لا يأكلُ إلاَّ بلَحْمٍ إلاَّ أنْ يَمْرَضَ[١] .

وكان اللَّيثُ له كلَّ يومٍ أربَعَةُ مَجالس يَجلسُ فيها : أمَّا أوَّلُها ، فيَجلسُ لنائبَة السُّلطان في نوائبِه وحَوائجِه ، وكان اللَّيثُ يَغشاهُ السُّلطانُ ، فإذا أنْكَرَ من القاضي أمْراً أو من السُّلطان ، كتبَ إلىٰ أميرِ المؤمنين ، فيأتيه العَزلُ ، ويَجلسُ لأصحابِ الحَديثِ ، وكان يقولُ : نَجِّحُوا أصْحابَ الحَوانيت[٢] ، فإنَّ قُلوبَهم مُعَلَّقَةٌ بأسْواقِهم ، ويَجلسُ للمَسائل ، يَغشاهُ النَّاسُ ، فيَسألُونَه ، ويَجلسُ لحَوائجِ النَّاس ، لا يَسألُه أحَدٌ فيَردُّه ، كَبُرَت حاجَتُه أو صَغُرَت وكان يُطعِمُ النَّاسَ في الشِّتاءِ الهَرائسَ بعَسَل النَّحْلِ وسَمْنِ البَقَر ، وفي الصَّيفِ سَويقَ اللَّوْزِ في السُّكَّر[٣] .

وقال محمَّدُ بنُ عليِّ بنِ الحَسن بنِ شَقيق ، سَمعتُ أبي قال : كان ابنُ المُبارَك إذا كان وَقتُ الحَجِّ ، اجتمعَ إليه إخْوانُه من أهْلِ مَرْو ، فيقولون : نَصحبُك ، فيقولُ : هاتوا نَفَقاتِكم ، فيأخُذُ نَفقاتِهم ، فيَجعلُها في صُندوقٍ ، ويُقفِلُ عليها ، ثم يَكتري له ، ويُخرجُهم من مَرْوَ إلىٰ بَغدادَ ، فلا يَزالُ يُنفِقُ عليهم ويُطعِمُهم أطْيَبَ الطَّعامِ ، وأطْيَبَ الحَلوَىٰ ، ثم يُخرجُهم من بَغدادَ بأحْسنِ زِيٍّ وأكْملِ مُروءَة ، حتىٰ يَصلوا إلىٰ مَدينةِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ، فيقولُ لكُلِّ واحدٍ : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من المَدينَةِ من طُرَفِها ؟ فيقولُ : كذا وكذا فيَشتري لهم ، ثم يُخرجُهم إلىٰ مكة ، فإذا قَضوا حَجَّهم ، قال لكلِّ واحدٍ منهم : ما أمَرَكَ عيالُك أنْ تَشتري لهم من مَتاع مكة ؟ فيقولُ : كذا وكذا ، فيَشتري لهم ، ثم يُخْرجُهم من مكةَ ، فلا يَزالُ يُنفقُ عليهم إلىٰ أنْ يَصيرُوا إلىٰ مَرْوَ ، فيُجَصِّصُ بُيوتَهم وأبْوابَهم ، فإذا كان بعد ثلاثة أيَّام ، عَملَ لهم وَليمَةً وكَساهم ، فإذا أكَلوا وسُرُّوا ، دَعا بالصُّندوقِ ، ففَتحَه ودَفعَ إلىٰ كُلِّ رجلٍ منهم صُرَّتَه ، عليها اسْمُه .

---

(١) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٧٣٩/ ٥ .
(٢) أي ابدؤوا بهم .
(٣) انظر السير : (اللَّيث بن سَعد) ٨/ ١٣٦ـ١٦٣ ، وانظر النزهة : ٧٣٩/ ٦ .

وقال محمَّدُ بنُ المُثَنَّىٰ : سَمعتُ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ مَهْدي يقولُ : ما رأتْ عَينايَ مثلَ أرْبَعة : ما رأيتُ أحْفَظَ للحَديثِ من الثَّوْريِّ ، ولا أشدَّ تقشُّفاً من شُعبَة ، ولا أعْقَلَ من مالِك ، ولا أنْصَحَ للأمَّة من ابنِ المُبارَك[1] .

وقال الذهبيُّ : كان عبدُ الله بنُ المُبارَك غَنياً شَاكراً ، رأسُ مالِه نَحوَ الأرْبع مئة ألف[2] .

وقال بِشْرُ الحافي : كان المُعافَىٰ صاحبَ دُنيا واسِعَةٍ وضِياعٍ كثيرة[3] .

وقال أبو نُعَيمُ الحافظُ : كان أحمدُ بنُ مَهْدي صاحبَ ضِياعٍ وثَرْوَةٍ ، أنْفَقَ علىٰ أهلِ العِلمِ ثلاثَ مئةِ ألفِ دِرْهم .

وقال ابنُ النَّجَّار : كان أحمدُ بنُ مَهْدي من الأئمَّة الثِّقات وذَوي المَروءاتِ ، رَحلَ إلى الشَّامِ ومِصْرَ والعِراق[4] .

وجاء في ترجمة دَعْلَج قال الذهبيُّ : هو دَعْلَجُ بنُ أحمد بنِ دَعْلَج المُحَدِّثُ ، الحُجَّةُ الفَقيهُ الإمامُ ، أبو محمَّد السِّجِسْتانيُّ ، ثم البَغداديُّ التَّاجِرُ ، ذُو الأمْوالِ العَظيمة .

وُلدَ سنةَ تسعٍ وخَمسينَ أو قَبلَها بقليل وسَمعَ بعد الثَّمانين ما لا يُوصَفُ كَثرةً بالحَرمَينِ ، والعِراقِ ، وخُراسانَ ، والنَّواحي حالَ جَولانِه في التِّجارَة[5] .

قال الخَطيبُ : كان دَعْلَجٌ من ذَوي اليَسار ، له وُقوفٌ علىٰ أهْلِ الحَديث .

وقال الخَطيبُ : حَكَىٰ لي أبو العَلاء الواسِطيُّ ، أنَّ دَعْلَجاً سُئل عن مُفارَقتِه مَكة ، فقال : خَرجتُ لَيلةً من المَسجدِ ، فتَقدَّم ثلاثةٌ من الأعْرابِ ، فقالوا : أخٌ لك من خُراسان قَتلَ أخَانا ، فنَحنُ نَقتُلك به ، فقُلتُ : اتَّقوا اللهَ ، فإنَّ خُراسانَ لَيست بمَدينَةٍ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٦٦/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٧٠/ ٢ .
(٣) انظر السير : (المُعافَىٰ) ٩/ ٨٠ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٨٠٠/ ٥ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن مَهْدي) ١٢/ ٥٩٧ـ ٥٩٨ ، وانظر النزهة : ١٠٣٨/ ٢ .
(٥) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ١٢٦٦/ ١ .

واحِدَة ، ولمْ أزَلْ بهم إلىٰ أنْ اجْتَمعَ النَّاسُ وخَلُّوا عَنِّي فهـٰذا كان سَببُ انْتِقالي إلىٰ بَغْداد وكان يقولُ : ليسَ في الدُّنيا مثلُ داري ، وذلكَ لأنَّه ليسَ في الدُّنيا مثلُ بَغْدادَ ، ولا ببَغْدادَ مثلُ مَحِلَّة القَطيعة ، ولا في القَطيعة مثلُ دَرْب أبي خَلَف ، وليسَ في الدَّرْب مثلُ داري[1] .

ونقلَ أبو بَكْر الخَطيبُ حكايةً مُقتَضاها أنَّ رجُلاً صلَّى الجُمعَةَ فرأىٰ رجُلاً مُتَنسِّكاً لمْ يُصلِّ ، فكلَّمَه ، فقال : اسْتُرْ عليَّ ، لدَعْلَج عليَّ خَمسَةُ آلافٍ ، فلمَّا رأيتُه أحْدَثتُ ، فبلغَ ذلك دَعْلَجاً ، فطَلَبَه إلىٰ مَنزِله ، وحلَّله من المال ، ووَصلَه بمثلِها لكَوْنه رَوَّعَه[2] .

وقال أحمدُ بنُ الحُسَين الوَاعِظُ ، قالَ : أَوْدَعَ أبو عبد الله بنُ أبي مُوسَى الهاشِميُّ عَشرةَ آلافِ دينارٍ ليتيم ، فضاقَت يَدُه فأنْفَقَها وكَبُرَ الصَّبيُّ ، وأُذنَ له في قَبضِ مالِه ، قال ابنُ أبي موسىٰ : فضاقَت عليَّ الأرضُ ، وتَحيَّرتُ ، فبَكرتُ علىٰ بَغْلَتي ، وقَصدتُ الكَرْخَ فانتُهتْ بي البَغْلةُ إلىٰ دَرْبِ السلولي ووَقفَتْ بي علىٰ بابِ مَسجِدِ دَعْلَج ، فدَخلتُ فصَلَّيتُ خلفَه الفَجرَ ، فلمَّا انْفتَلَ رَحَّبَ بي ، وقُمنا فدَخلنا دَارَه ، فقُدِّمَت لنا هَريسَةٌ ، فأكَلتُ وقَصَّرتُ ، فقالَ : أراكَ مُنقَبضاً ، فأخْبَرتُه ، فقالَ : كُلْ فإنَّ حاجَتَك تُقْضَىٰ ، فلمَّا فَرَغْنا ، اسْتَدعَىٰ بالذَّهَبِ والمِيزانِ ، فوَزَنَ لي عَشرةَ آلافِ دينارٍ وقُمتُ أطيرُ فَرحاً ، ثم سَلَّمتُ المالَ إلى الصَّبيِّ بحَضرةِ قاضي القُضاة ، وعَظُمَ الثَّناءُ عليَّ ، فلمَّا عُدتُ إلىٰ مَنزِلي استدعاني أميرٌ من أولادِ الخَليفَة فقال : قد رَغبتُ في مُعامَلَتِك وتَضْمِينك أمْلاكي ، فضَمنتُها فربحتُ في سَنَتي رِبحاً عَظيماً وكَسبتُ في ثلاث سنين ثلاثينَ ألفَ دينار ، وحَملتُ لدَعْلَج المالَ ، فقالَ : سُبحانَ الله ، والله ما نَويتُ أخْذَها ، حَلٌّ بها الصِّبْيانَ ، فقلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، أيشْ أصْلُ هـٰذا المال حتىٰ تَهبَ لي عشرةَ آلافِ دينار ؟ فقال : نَشأتُ ، وحَفظتُ القُرآنَ ، وطَلبتُ الحَديثَ ، وكُنتُ أتبَزَّزُ ، فوافاني تاجرٌ من البَحْرِ فقال : أنْتَ دَعْلَج ؟ قلتُ : نَعَم قال : قد رَغبتُ

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٦٦ .

(٢) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٦ .

في تَسليمِ مالي إليك مُضارَبةً ، فسلَّمَ إليَّ برنامجات بألفِ درهم ، وقال لي : ابْسُطْ يَدكَ فيه ولا تَعلمْ مَكاناً يُنفَقُ فيه المَتاعُ إلاَّ حَملْتَه ، ولمْ يَزلْ يَتردَّدُ إليَّ سَنةً بعدَ سَنةٍ يَحملُ إليَّ مثلُ هـٰذا والبضاعَةُ تَنمَىٰ ثم قال : أنا كثيرُ الأسْفارِ في البَحرِ ، فإنْ هَلكتُ فهـٰذا المالُ لكَ علىٰ أنْ تَصدَّقَ منه ، وتَبني المَساجدَ ، فأنا أفعلُ مثل هـٰذا ، وقد ثمَّرَ اللهُ تعالى المالَ في يَدي ، فاكْتُم عليَّ ما عِشتُ .

قال الحاكمُ : كان السُّلطانُ لا يَتعرَّضُ لتَركَةٍ ، ثم لمْ يَصْبرْ عن أموالِ دَعْلَج ، وقيلَ : لمْ يكنْ في الدُّنيا أيْسَرُ منه من التُّجَّار ، وتَركوا أوْقافَه ، رَحمَه الله .

ماتَ سنةَ إحْدَىٰ وخَمسينَ وثلاثِ ومئة[1] .

(د) أحْوالُ بَعض العُلماء والمُتَعلِّمين في عَصر الذَّهبيّ :

وجاء في تَرجَمة عبدِ الحَميدِ بنِ جَعْفر ، قال ابنُ مَعين : كان عبدُ الحَميد ثقةً يُرْمَىٰ بالقَدر .

قال الذهبيُّ : قد لُطِخَ بالقَدرِ جماعةٌ وحَديثُهم في « الصَّحيحَين » أو أحَدِهما لأنَّهم مَوْصُوفون بالصِّدقِ والإتْقانِ .

ماتَ عبدُ الحَميد في سنةِ ثلاثٍ وخَمسِ مئة[2] .

قال أبو أسامة : سَمعتُ مِسْعَراً يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصُدُّكم عن ذِكرِ الله وعن الصَّلاة ، فهلْ أنتُم مُنتَهون ؟[3]

قال الإمامُ الذهبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه مَسألةٌ مُختلَفٌ فيها : هل طَلبُ العِلم أفْضَل ، أو صَلاةُ النَّافلَة والتِّلاوَة والذِّكْر ؟ فأمَّا مَنْ كانَ مُخلصاً لله في طَلبِ العِلم ، وذِهنُه جَيدٌ ، فالعِلمُ أوْلَىٰ ، ولكن مع حَظٍّ من صَلاةٍ وتَعبُّد ، فإنْ رأيتَه مُجداً في طَلبِ العِلم لا حَظَّ له في القُرُبات ، فهـٰذا كَسْلانٌ مَهين ، وليسَ هو بصادقٍ في حُسن نيَّتِه ، وأمَّا مَنْ كانَ

---

(١) انظر السير : (دَعْلَج) ١٦/ ٣٠ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ١٢٦٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الحميد بن جعفر) ٧/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٦٧٢/ ٤ .

(٣) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٨٩/ ١ .

طَلبُه الحَديثَ والفِقهَ غِيَّةً ومَحبَّةً نَفسانيَّة فالعِبادَةُ في حقِّه أفْضَل ، بل ما بَينها أفْعَلُ تَفْضيل ، وهـٰذا تَقسيمٌ في الجُملَة ، فقَلَّ ـ والله ـ مَنْ رَأيتُه مُخلِصاً في طَلبِ العِلم ، دَعْنا من هـٰذا كُلِّه فليسَ طَلبُ الحَديثِ اليومَ على الوَضع المُتعارَف من حيِّز طَلبِ العِلم ، بلْ اصْطلاحٌ وطَلبُ أسانيدَ عاليَة وأخْذٌ عن شَيخٍ لا يَعي ، وتَسميعٌ لطِفْل يَلعَب ولا يَفْهَم ، أو لرَضيعٍ يَبْكىٰ أو لفَقيهٍ يَتحدَّثُ مع حَدَثٍ ، أو لآخَر يَنسَخ وفاضلُهم مَشغولٌ عن الحَديثِ بكتابَة الأسْماء أو بالنُّعاس ، والقارىءُ إنْ كانَ له مُشارَكةٌ فلَيسَ عندَه من الفَضيلَة أكثَرُ من قِراءَة ما في الجُزْءِ ، سواءٌ تَصَحَّفَ عليه الاسمُ ، أو اخْتبطَ المَتْنُ ، أو كان من المَوْضوعاتِ فالعِلمُ عن هـٰؤلاء بمعْزِلٍ ، والعَملُ لا أكادُ أراهُ بلْ أرَىٰ أمُوراً سَيئةً ، نَسألُ الله العَفْوَ[1] .

وقال محمَّدُ بنُ يُوسُف الفِرْيابي : كنتُ أمشي مع ابنِ عُيَيْنَة ، فقال لي : يا محمَّدُ ، ما يُزَهِّدني فيكَ إلاَّ طَلبُ الحَديث قلتُ : فأنتَ يا أبا محمَّد ، أيَّ شيءٍ كنتَ تَعمَلُ إلاَّ طَلبَ الحَديثِ ؟ فقالَ : كُنتُ إذْ ذاكَ صَبيّاً لا أعْقِل[2] .

قال الذهبيُّ : إذا كان مثلُ هـٰذا الإمام يقولُ هـٰذه المَقالَةَ في زَمنِ التَّابعينَ ، أو بَعدَهم بيَسير ، وطَلبُ الحَديثِ مَضبوطٌ بالاتِّفاقِ ، والأخْذِ عن الأثْباتِ الأئمَّة ، فكيفَ لوْ رأىٰ سُفيانُ رَحمَه الله طلبَةَ الحَديثِ في وَقتِنا ، وما هم عليه من الهَنات والتَّخْبيطِ ، والأخْذِ عن جَهلَةِ بَني آدم ، وتَسميع ابنِ شَهر .

أمَّـا الخِيَـامُ فـإنَّهـا كَخِيَـامِهِـم ... وأرَىٰ نسـاءَ الحَـيِّ غيـرَ نِسـائِهـا[3]

وقال الذهبيُّ في تَرجمَة هُدبَة بنِ خالد الثَّوْبانيِّ : رافَقَ أخاه في الطَّلبِ ، وتَشارَكا في ضَبطِ الكُتب ، فساغ له أنْ يَروي من كُتبِ أخيه ، فكيفَ بالماضينَ لوْ رَأوْنا اليومَ نَسمعُ من أي صَحيفَةٍ مُصحَّفَة علىٰ أجْهَلِ شَيخٍ له إجازَة ، ونَروي من نُسخَةٍ أخرىٰ

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٩٠ .

(٢) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٤ .

(٣) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنَة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨٤ .

بَينهما من الاخْتلافِ والغَلطِ ألْوانٌ ، ففاضِلُنا يُصحِّحُ ما تَيسَّرَ من حِفظِه ، وطالِبُنا يَتشاغَلُ بكتابَةِ أسماءِ الأطْفال ، وعالِمُنا يَنسَخُ ، وشَيخُنا يَنامُ ، وطائفةٌ من الشَّبيبَة في وادٍ آخَر من المُشارَكة والمحادَثة لقد اشْتَفىٰ بنا كلُّ مُبتَدِع ومَجَّنا كُلُّ مُؤمنٍ أفهـٰؤلاء الغُثاء هم الذين يَحفَظون على الأُمَّة دينَها!! ؟ كلاَّ والله فرَحِمَ اللهُ هُدبةَ ، وأينَ مثلُ هُدبة ؟ نعم ما هو في الحِفْظِ كَشُعبَة[1] .

وجاء في تَرجمَة القَطَّان ، قالَ ابنُ فارس : سَمعتُ القَطَّانَ يَقولُ : أُصِبتُ ببَصري ، وأظنُّ أنِّي عُوقِبتُ بكَثرَةِ كَلامي أيَّامَ الرِّحْلَة[2] .

قال الذهبيُّ : صَدقَ والله ، فقد كانوا مع حُسْنِ القَصْد ، وصِحَّة النِّيَّة ـ غالباً ـ يَخافونَ من الكَلام ، وإظْهارِ المَعرِفَة والفَضيلَة ، واليومَ يُكثرون الكَلامَ مع نَقْصِ العِلمِ ، وسُوءِ القَصْدِ ، ثمَّ إنَّ اللهَ يَفضَحُهم ويَلُوحُ جَهلُهم وهَواهُم واضْطرابُهم فيما عَلِمُوه فنَسألُ اللهَ التَّوفيقَ والإخْلاصَ .

تُوفِّيَ هـٰذا الإمامُ في سنةِ خَمس وأربعينَ وثلاثِ مئة[3] .

(هـ) عُلماء فقِدوا أو ماتوا فَجأة :

قال الحاكمُ : قال الدَّغُوليُّ : في العُلماء جَماعةٌ فُقدوا فَجأة فلمْ يُوجَدوا ، منهم : عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ أبي لَيلىٰ ، فُقدَ يومَ الجَماجم ، ومنهم : مَعْمَرُ بنُ راشِد ، ولـمْ تُعرَف له تُربَةٌ قَطُّ ، وبَدَلُ بنُ المُحبَّر افتُقدَ ولا يُدرَىٰ أين ذهبَ ، ثم سَمَّىٰ جماعَةً ماتوا فَجأة كالشَّعبيِّ ، وحُميدِ الطَّويلِ ، والأوْزاعيِّ .

قال الحاكمُ : سألتُ محمَّدَ بنَ عبد الرَّحمَـٰن بنَ الدَّغُولي عن وَفاة جَدِّه فقال : في سَنَةِ خمسٍ وعشرينَ وثلاثِ مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (هُدبَة بن خالد) ١١/٩٧ـ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٤ .
(٢) انظر السير : (القَطان) ١٥/٤٦٣ـ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٠ .
(٣) انظر السير : (القَطان) ١٥/٤٦٣ـ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٠ .
(٤) انظر السير : (الدَّغُولي) ١٤/٥٥٧ـ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧٣ .

(و) مَنْ أنْقذَه العِلمُ من الأسر :

قال الذهبيُّ في تَرجمَة أبي المُظفَّر السَّمْعانيِّ : حَجَّ على البَرِّيَّة أيّامَ انْقطَعَ الرَّكبُ ، فأُخِذَ هو وجَماعةٌ ، فصَبرَ إلىٰ أنْ خلَّصَه اللهُ من الأعْرابِ ، وحَجَّ وصَحِبَ الزَّنْجانيَّ كان يقولُ : أسَرونا فكنتُ أرْعَىٰ جِمالَهم ، فاتَّفقَ أنَّ أميرَهم أرادَ أنْ يُزوِّجَ بنتَه ، فقالوا : نَحتاجُ أنْ نَرحَلَ إلى الحَضَرِ لأجْلِ مَنْ يَعقِدُ لنا فقال رجلٌ منَّا : هٰذا الذي يَرعَىٰ جِمالَكم فَقيهُ خُراسان ، فسَألوني عن أشياءَ ، فأجَبتُهم وكلَّمتُهم بالعَربيَّة ، فخَجِلُوا واعْتذَروا ، فعَقدتُ لهم العَقدَ ، وقلتُ الخُطبَةَ ففَرحوا وسَألوني أنْ أقبلَ منهم شَيئاً ، فامْتنعتُ ، فحَملُوني إلىٰ مَكة وسَط العام .

قال عبدُ الغافِر في « تاريخِه » هو وَحيدُ عَصرِه في وَقتِه فَضلاً وطَريقَةً وزُهداً ووَرَعاً ، من بيتِ العِلمِ والزُّهدِ ، تَفقَّهَ بأبيه ، وصارَ من فُحولِ أهلِ النَّظَر وأخذَ يُطالِعُ كتبَ الحَديثِ ، وحَجَّ ورَجعَ وتَركَ طَريقَته التي ناظَر عليها ثلاثينَ سَنةً وتَحوَّلَ شافِعيَّاً ، وأظْهرَ ذلك في سنة ثمانٍ وستِّين ، فاضْطَربَ أهلُ مَرْو ، وتَشوَّشَ العَوامُّ ، حتىٰ وَردَت الكُتُبُ من الأميرِ ببَلْخ ، في شأنِه والتَّشْديدِ عليه فخَرجَ من مَرْوَ وفي خدمته عدَّة من الفُقهاء ، فصارَ إلىٰ طُوسَ ، وقَصدَ نيسابُورَ فاسْتقبَله الأصْحابُ اسْتقبالاً عَظيماً أيَّام نِظامِ المُلك ، وعَميدِ الحَضرة أبي سَعد ، فأكْرَموه ، وأُنزِلَ في عِزٍّ وحِشْمَة وعُقدَ له مَجلسُ التَّذكيرِ في مَدرسة الشَّافعيَّة ، وكان بَحْراً في الوَعْظِ ، حافِظاً فظَهرَ له القَبولُ ، واسْتحكَمَ أمرُه في مَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم عادَ إلىٰ مَرْوَ ، ودرَّسَ بها في مدرسة الشَّافعيَّة ، وقدَّمه النِّظامُ علىٰ أقْرانِه ، وظَهرَ له الأصْحابُ ، وخَرجَ إلىٰ أصْبَهانَ ، وهو في ارْتِقاء .

تُوفِّيَ سنةَ تسعٍ وثَمانين وأربعِ مئة عاشَ ثلاثاً وستِّينَ سنةً رَحمَه اللهُ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو مُظَفَّر السَّمْعاني) ١٩/ ١١٤ـ١١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦٧ .

الكتابةُ والكتُب

١ـ الكتابةُ قَيدٌ للمَعْلومات :

قال عبدُ الرزَّاق : أنبأنا مَعْمَرُ بنُ راشِد قال : حَدَّثتُ يَحْيَىٰ بنَ أبي كثير بأحاديث فقال : اكتُبْ حَديثَ كذا وكذا فقلتُ : أما تَكْرَهُ أنْ تَكتُبَ العلمَ يا أبا نَصْر ؟ فقال : اكتُبْه لي فإنْ لمْ تَكنْ كتبتَ فقد ضيَّعتَ أو قال : عَجزتَ[١] .

٢ـ نَشأةُ الكتابة العَربيّة :

قال ابنُ خلِّكان : رَوى الكلبيُّ والهَيثمُ بنُ عَديّ أنَّ النَّاقِلَ للكتابة العَربيَّة من الحِيرَةِ إلى الحِجازِ هو حَرْبُ بنُ أُمَيَّة فقيل لأبي سُفيانَ : مِمَّنْ أخذَ أبُوكَ الكتابَةَ ؟ قال : من ابنِ سدْرة ، وأخبرَه أنَّه أخذَها من واضِعِها مرامر بنِ مُرَّة ، قال : وكانت لحِمْيَر كتابةٌ تُسمَّى المُسْنَد ، حُروفُها مُنفَصِلَةٌ ، غيرُ مُتَّصلَة ، وكانوا يَمْنعونَ العامَّةَ من تَعلُّمِها ، فلمَّا جاءَ الإسْلامُ ، لمْ يكُنْ بجَميعِ اليَمنِ مَنْ يَقرأُ ويَكتبُ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا فيه نَظرٌ ، فقد كان بها خَلقٌ من أحْبارِ اليَهود يَكتُبون بالعِبْراني ، إلىٰ أنْ قالَ : فجَميعُ كتاباتِ الأُمَم اثنَتا عشرةَ كتابةً ، وهي : العَرَبيَّة ، والحِمْيَريَّة ، واليُونانيَّة ، والفارِسيَّة ، والرُّوميَّة والسُّرْيانيَّة ، والقِبْطيَّة ، والبَرْبَريَّة ، والأنْدَلُسيَّة ، والهِنْديَّة ، والصِّينيَّة ، والعِبْرانيَّة فخَمسٌ منها ذَهبَت : الحِمْيَريَّة ، واليُونانيَّة ، والقِبْطيَّة ، والبَرْبَريَّة ، والأنْدَلُسيَّة وثلاثٌ لا تُعرَف ببلادِ الإسْلام : الرُّوميَّة والصِّينيَّة ، والهِنْديَّة[٢] .

---

(١) انظر السير : (مَعْمَر بن راشد) ٧/ ٥ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٤/٦٧١ .

(٢) انظر السير : (عليُّ بنُ هلال بنُ البوَّاب) ١٧/ ٣١٥ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٣ .

٣ـ كيف كتب النبيُّ صلى الله عليه وسلم اسْمَه يوم الحُدَيْبِيَة مع كونه صلى الله عليه وسلم أُميّاً :

قال محمدُ بنُ يَحْيَىٰ بنُ مَنْدة : حدَّثنا أبو بَكر بنُ أبي النَّضْر ، حدَّثنا أبو عَقيل الثَّقفي ، حدَّثنا مُجالِدٌ ، حدَّثنا عَونُ بنُ عبدِ الله ابنُ عُتْبَة ، عن أبيه قال : « مَا مَاتَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حَتّىٰ قَرأَ وكتَب »[١] ، [٢] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يَردْ أنَّه صلى الله عليه وسلم ، كَتَبَ شَيئاً ، إلاَّ ما في « صَحيح البُخاريّ » من أنَّه يومَ صُلحِ الحُدَيْبِيَة كتبَ اسْمَه « مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله » واحْتجَّ بذلك القاضي أبو الوَليد الباجي ، وقام عليه طائفةٌ من فُقَهاء الأنْدَلُس بالإنْكار ، وبَدَّعُوه حتىٰ كفَّره بعضُهم ، والخَطبُ يَسير ، فما خَرجَ عن كَونه أمّياً بكتابة اسْمِه الكَريم ، فجماعَةٌ من المُلوك ما عَلموا من الكتابة سِوىَ مجرد العَلامَة ، وما عدَّهم الناسُ بذلك كاتبين ، بل هم أميُّون فلا عِبرَة بالنَّادِر ، وإنَّما الحُكمُ للغالب ، والله تَعالَىٰ فمن حِكمته لم يُلهِم نَبيَّه تَعلُّم الكتابة ، ولا قراءة الكُتب حَسماً لمادَّة المُبطِلين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[٣] .

ومع هـٰذا فقد افْتروا وقالوا : ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾[٤] .

فانظر إلىٰ قِحَة المُعانِد ، فمَنِ الذي كان بمكة وقت المَبْعَث يَدري أخبارَ الرُّسُل والأمم الخالية ؟ ما كان بمكة أحدٌ بهـٰذه الصِّفَة أَصْلاً ، ثم ما المانع من تَعلُّم النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، كتابَة اسمِه واسمِ أبيه مع فَرْطِ ذَكائه وقوَّة فَهمه ، ودَوام مُجالَسته لمن يَكتُب بين يديه الوَحْي والكُتبَ إلىٰ مُلوك الطَّوائف ، ثم هـٰذا خاتَمُه في يده

---

(١) إسناده ضعيف لضعف مجالد ـ وهو ابن سعيد الهمداني الكوفي ، وأورده الحافظ في « الفتح » (٧/ ٣٨٦ـ٣٨٧) ، وقد تحرف في مجالد إلىٰ مجاهد ونسبه لابن أبي شيبة ، وضعَّفه .

(٢) انظر السير : (ابن مَنْدَة) ١٤/ ١٨٨ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١١٤٠/٢ .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية : ٥ .

ونَقْشُه : محمَّدٌ رسُولُ الله فلا يَظُنُّ عاقلٌ أنَّه عليه السلام ما تَعقَّل ذلك ، فهـٰذا كلُّه يَقتضي أنَّه عرف كتابة اسمِه واسمِ أبيه ، وقد أَخْبرَ اللهُ بأنَّه ـ صَلواتُ الله عليه ـ ما كان يَدري ما الكتابُ ؟ ثم علَّمَه اللهُ تعالىٰ ما لم يكنْ يَعلم ، ثم الكتابة صِفَةُ مَدْح ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

فلمَّا بلَّغَ الرسالَة ، ودخلَ النَّاسُ في دين الله أفْواجاً ، شاءَ اللهُ لنبيِّه أنْ يَتعلَّمَ الكتابَة النادِرَة التي لا يخرج بمثلها عن أنْ يكونَ أُمياً ثم هو القائل « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكتُبُ ولا نَحْسِبُ » ، فصدَق إخبارُه بذلك ، إذِ الحكمُ للغالب ، فنَفىٰ عنه وعن أمَّتِه الكتابَة والحِسابَ لنُدرَة ذلك فيهم وقلَّته ، وإلاَّ فقد كان فيهم كُتَّاب الوَحْي وغير ذلك ، وكان فيهم مَنْ يَحْسِبُ وقال تعالىٰ : ﴿ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾[2] .

ومن علَّمَهم الفَرائضَ وهي تَحْتاجُ إلىٰ حساب وعَوْل ، وهو عليه السلام فنَفىٰ عن الأمَّة الحسابَ ، فعَلِمْنا أنَّ المَنفيَّ كَمالُ علم ذلك ودَقائقه التي يقومُ بها القِبطُ والأوائل ، فإنَّ ذلك ما لَمْ يَحْتَجْ إليه دينُ الإسْلام ولله الحَمدُ ، فإنَّ القِبطَ عَمقوا في الحساب والجَبْر ، وأشياء تُضيِّعُ الزَّمان وأرْبابُ الهَيئة تكلَّموا في سَيرِ النُّجوم والشَّمسِ والقَمرِ ، والكُسوف والقِران[3] بأمور طَويلة لمْ يأتِ الشَّرعُ بها ، فلمَّا ذكر صلى الله عليه وسلم الشُّهورَ ومَعرفتَها ، بيَّنَ أنَّ مَعرفتَها ليسَت بالطُّرقِ التي يَفعلُها المُنجِّم وأصْحابُ التَّقويم ، وأنَّ ذلكَ لا نَعبأُ به في دِينِنا ، ولا نَحسِبُ الشَّهرَ بذلك أبداً ثم بيَّنَ أنَّ الشَّهرَ بالرُّؤيَة فقط ، فيكونُ تسعاً وعشرين ، أو بتَكملَة ثلاثين فلا نَحتاجُ مع الثلاثين إلىٰ تكلُّفِ رُؤية .

وأمَّا الشِّعرُ : فنزَّهه اللهُ تَعالَىٰ عن الشِّعرِ ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾[4] .

---

(١) سورة العلق ، الآيتين : (٤ ـ ٥) .
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٢ .
(٣) يعني قِرانَ الكَواكب .
(٤) سورة يس ، الآية : ٦٩ .

فما قال صلى الله عليه وسلم الشِّعرَ مع كثرَته وجَودَته في قُريش وجَريانِ قَرائحِهم به ، وقد يَقعُ شيءٌ نادِرٌ في كَلامِه ـ عليه السلام ـ مَوْزوناً فما صارَ بذلك شاعراً قَطّ .

كقوله صلى الله عليه وسلم :

أنــــا النَّبــــيُّ لا كَـــــذِبْ　　　أنـــا ابـــنُ عبـــدِ المُطَّلِـــبْ

وقوله صلى الله عليه وسلم :

هَـــلْ أَنْـــتِ إلاَّ إِصْبَـــعٌ دَميـــتِ　　　وفـــي سَبيـــلِ اللهِ مـــا لَقيـــتِ

ومثلُ هـٰذا قد يَقعُ في كُتبِ الفِقْه والطِّبِّ وغير ذلك ممَّا يقعُ اتِّفاقاً ولا يَقصِدُه المؤلِّفُ ولا يَشعرُ به ، أفيَقولُ مُسْلمٌ قَطُّ : إنَّ قولَه تَعالَىٰ : ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾[1] هو بَيتٌ ؟! مَعاذَ الله! وإنَّما صادَفَ وَزْناً في الجُملَة ، واللهُ أعْلم[2] .

وقال القاضي عِياض : ولمَّا تَكلَّمَ أبو الوَليد ، سُليمانُ الباجيُّ ، في حَديثِ الكتابَة يَومَ الحُدَيبيَة الذي في « صَحيح البُخاري » ، قال بظاهِرِ لفظِه ، فأنْكرَ عليه الفَقيهُ أبو بَكر بنُ الصَّائغ وكفَّره بإجازَتِه الكَتْبَ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم النَّبيُّ الأُميُّ وأنَّه تَكذيبٌ للقُرآن ، فتكلَّمَ في ذلك مَنْ لمْ يَفهَمِ الكَلامَ ، حتىٰ أطلَقوا عليه الفِتنةَ ، وقبَّحوا عند العامَّة ما أتىٰ به ، وتكلَّمَ به خُطباؤُهم في الجُمَع ، وقال شاعرُهم :

بَـرِئْـتُ ممَّـنْ شَـرَىٰ دُنْيـا بـآخِـرَةٍ　　　وقـالَ : إنَّ رسْـولَ اللهِ قَـدْ كَتَبـا

فصنَّفَ القاضي أبو الوَليد رسالةً بيَّن فيها أنَّ ذلكَ غَيرُ قادِحٍ في المُعْجِزَة ، فرَجعَ بها جَماعَةٌ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : يَجوزُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَكتبَ اسْمَه ليسَ إلاَّ ، ولا يَخرجُ بذلك عن كونِه أُميّاً ، وقد قال عليه السلام : « إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكتُبُ

---

(١) سورة سبأ ، الآية : ١٣ .

(٢) انظر السير : (ابن مَنْدَة) ١٤/١٨٨ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٠ .

ولا نَحْسِبُ » أي لأنَّ أكْثَرَهم كذلك ، وقد كان فيهم الكَتَبَةُ قليلاً وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ ﴾[1] فقوله عليه السلام: « لا نَحْسِبُ » حَقٌّ ، ومع هـٰذا فكان يَعرفُ السِّنينَ والحِسَابَ وقَسْمَ الفَيْء ، وقِسْمَةَ المَواريثِ بالحِسَابِ العَربيِّ الفِطْريِّ لا بحسَابِ القِبْطِ ولا الجَبْرِ والمُقابَلة ، بأبي هو ونفسي صلى الله عليه وسلم ، وقد كان سَيِّدَ الأذْكياء ، ويَبعُدُ في العادَة أنَّ الذَّكيَّ يُمْلي الوَحيَ وكُتبَ المُلوك وغيرَ ذلك علىٰ كُتَّابه ، ويَرى اسْمَه الشَّريفَ في خاتَمِه ، ولا يَعرفُ هَيئةَ ذلك مع الطُّولِ ، ولا يَخرجُ بذلك عن أُميَّته ، وبَعضُ العُلماء عَدَّ ما كَتبَه يومَ الحُدَيبيَة من مُعْجزاتِه ، لكَونِه لا يَعرفُ الكتابَةَ وكَتَبَ[2] .

٤ـ المُصَنِّفُ يَعرضُ عَقلَه على النَّاس :

قال المُؤتَمَنُ : كان الخَطيبُ البَغدادي يَقولُ : مَنْ صَنَّفَ فقد جَعلَ عَقلَه علىٰ طَبَقٍ يَعرِضُه على النَّاس[3] .

٥ـ عَدمُ المُراجَعة بعد الكتابَة والتَّصْنيف خَطأ :

كان أبو الفَرج ابنُ الجَوْزي كَثيرَ الغَلطِ فيما يُصنِّفُه فإنَّه كان يَفرغُ من الكتابِ ولا يَعتبرُه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰكذا هو له أوْهامٌ وألْوانٌ من تَركِ المُراجَعَة ، وأخذِ العِلمِ من صُحفٍ وصَنَّفَ شَيئاً لوْ عاشَ عُمراً ثانياً ، لما لَحِقَ أنْ يُحرِّرَه ويُتْقِنَه[4] .

٦ـ الأُنْس بكتُبِ العِلم :

رُويَ أنَّ أبا عبدِ الرحمـٰن عبدَ الله العُمَري كان يَلزَمُ المَقْبَرَة كَثيراً ، ومعه كتابٌ يُطالِعُه ، ويقولُ : لا أَوْعَظَ من قَبْرٍ ، ولا آنَسَ من كتابٍ ، ولا أسْلمَ من وَحْدة[5] .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢) انظر السير : (أبو الوَليد الباجي) ١٨/ ٥٣٥ـ٥٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣٩ .

(٣) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٣ .

(٤) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٦ .

(٥) انظر السير : (العُمَريّ) ٨/ ٣٧٣ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/٧٦٥ .

وعن نُعيمِ بنِ حمَّاد قال : كان عبدُ الله ابنُ المُبارَك يُكثِرُ الجُلوسَ في بَيتِه ، فقيل له : ألا تَسْتوْحِش ؟ فقال : كيف أَسْتَوْحِشُ وأنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأَصْحابِه ؟ ![1]

٧ـ اعْتناء بعض العامَّة بكتُب العِلم :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمة أبي إبراهيم إسماعيلَ بنِ يَحْيى المُزَنِيِّ : وامْتلأتِ البلادُ بـ « مُخْتصَرِه » في الفِقْه ، شَرحَه عدَّةٌ من الكبارِ بحيثُ يُقالُ : كانت البِكْرُ يكونُ في جَهازِها نُسخَةٌ بـ « مُخْتصَر » المُزَنيِّ .

قال الشَّافعيُّ : المُزَنيُّ ناصِرُ مَذْهَبي[2] .

٨ـ أخْذُ كتب في السَّفر يُسْتعان بها :

قال ابنُ أبي ذُهل : سَمعتُ أبا العبَّاس محمدَ بنَ عبد الرحمَـٰن الدَّغُولي يقولُ : أرْبَعُ مُجلَّداتٍ لا تُفارِقُني في السَّفَر ، والحَضَر ، وإذا خَرجتُ من البلدِ : كتابُ المُزَنيِّ ، وكتابُ « العَين » ، و« تاريخُ البُخاريِّ » وكتابُ « كليلَة ودِمْنَة »[3] .

٩ـ مَكتبَة عَظيمَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي عبدِ الله محمّدِ بنِ عبدِ الله المُرْسي : قرأتُ بخَطِّ الكنْديِّ في تَذكرَته أنَّ كتبَ المُرْسي كانت مُودَعَةً بدِمَشْقَ ، فرسَمَ السُّلطانُ ببَيْعِها ، فكانوا في كلِّ ثُلاثاءَ يَحملون منها جُملةً إلىٰ دار السَّعادة ، ويَحضُرُ العُلماءُ ، وبيعَت في نحوٍ من سَنة ، وكان فيها نَفائس ، وأحْرَزت ثمناً عَظيماً ، وصنَّف تَفسيراً كبيراً لمْ يُتمَّه .

تُوفِّي المُرسيُّ سنة خمس وخمسين وستِّ مئة بالعَريش وهو مُتوجِّه إلىٰ دِمَشقَ[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٦٦ .
(٢) انظر السير : (المُزَنيّ) ١٢/ ٤٩٢ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٢٣ .
(٣) انظر السير : (الدَّغوليّ) ١٤/ ٥٥٧ـ ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٧٣ .
(٤) انظر السير : (المُرْسي) ٢٣/ ٣١٢ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٨ .

١٠ـ مَكتبَةٌ تعفَّنَت بسَبب الرُّطوبة والتَّرك :

قال الحافظُ زَكيُّ الدِّين عبدُ العَظيم : كان السِّلَفيُّ مُغْرىً بجَمع الكُتب والاسْتكثارِ منها وما كان يَصلُ إليه من المال كان يُخرِجُه في شِرائها ، وكان عندَه خَزائنُ كُتبٍ ، ولا يَتفرَّغُ للنَّظرِ فيها ، فلمَّا ماتَ وَجدوا مُعظَم الكتب في الخَزائن قد عَفنتْ ، والتَصقَ بعضُها ببعض لنَداوَة الإسْكندَريَّة ، فكانوا يَستخلِصُونَها بالفأسِ ، فتَلفَ أكثَرُها[١] .

١١ـ بَعضُ مَنْ اعتَنىٰ بالكتُبِ وتَحْصيلِها :

وكان المُسْتنصِرُ بالله جيِّدَ السِّيرة ، وافِرَ الفَضيلة ، مُكرماً للوافدين عليه ، ذا غَرام بالمُطالَعة وتَحصيلِ الكُتب النَّفيسَة الكثيرة حقِّها وباطِلِها بحيثُ أنَّها قارَبت نحواً من مئتَي ألف سِفْر ، وكان يَنْطَوي علىٰ دين وخَير[٢] .

وكان باذِلاً للذَّهبِ في اسْتجلابِ الكُتب ، ويُعطي مَنْ يتَّجِرُ فيها ما شاء حتىٰ ضاقَت بها خَزائنُه ، لا لذَّة في غير ذلك[٣] .

وقال محمدُ بنُ عبد المَلك : مَلكَ من الكتب ما لم يملكْهُ أحدٌ قيلَ : ابتاعَها من مِصْرَ بالخُبزِ وقتَ القَحْطِ ، وحدَّثني عبدُ المحسن بنُ محمد أنَّه ابتاعَها بالأثْمان الغاليَة ، كان يَبتاعُ من كتب السيرافيِّ وكانت أزيدَ من أربعين ألف مُجلَّد ، فكان أبو يوسف يَشتري في كل أسبوع بمئة دينار ، ويقول : قد بعتُ رَحْلي وما في بيتي وكان الرُّؤساء يَصِلونَه[٤] .

١٢ـ مَنْ وَصىٰ بكتبُه :

قال سَلمَةُ بنُ واصِل : مات أبو قِلابَة رَحمَه الله بالشَّام ، فأوْصَىٰ بكُتبِه لأيُّوبَ السِّخْتياني فحُملت إليه[٥] .

---

(١) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٩٣ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٠ .
(٣) انظر السير : (المُسْتَنصِر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٠ .
(٤) انظر السير : (أبو يوسف القَزْوينيّ) ١٨/٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٤٤٩ .
(٥) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٧/٥٣٤ .

١٣ـ التعريف ببعض الكتب :

(أ) « الأسديّة » :

قيلَ : إنَّ أسَدَ بنَ الفُرات رَجعَ من العِراق ، فدَخلَ على ابنِ وَهْب ، فقال : هـٰذه كُتبُ أبي حَنيفة ، وسألَه أنْ يُجيبَ فيها علىٰ مَذْهَب مالك ، فأبىٰ ، وتَورَّع ، فذَهبَ بها إلى ابنِ القاسِم ، فأجابَه بما حَفظَ عن مالك ، وبما يَعلَمُ من قَواعِدِ مالك ، وتُسمَّىٰ هـٰذه المَسائل الأسَديَّة .

وحَصلت بإفريقية له رياسَة وإمْرَة ، وأخَذوا عنه ، وتَفقَّهوا به[1] .

وحَملَ عنه سُحنونٌ بنُ سَعيد ، ثم ارْتَحلَ سُحْنونٌ بالأسَديَّة إلى ابنِ القاسِم ، وعَرضَها عليه ، فقال ابنُ القاسِم : فيها أشياءُ لا بُدَّ أنْ تُغيَّر ، وأجابَ عن أماكن ، ثم كتب إلىٰ أسَدِ بنِ الفُرات : أنْ عارِضْ كُتبَك بكتب سُحْنون ، فلمْ يَفعَلْ ، وعَزَّ عليه ، فبَلغَ ذلك ابنَ القاسِم ، فتألَّم ، وقال : اللَّهُمَّ لا تُبارِكْ في الأسَديَّة ، فهي مَرفُوضَة عند المالِكيَّة[2] .

(ب) « الفُنون » لابن عَقيل :

كان ابنُ عَقيل يَتوقَّدُ ذَكاءً ، وكان بَحرَ مَعارِف ، وكَنزَ فَضائل ، لمْ يكُنْ له في زَمانه نَظيرٌ علىٰ بِدعَته ، وعلَّق كتابَ « الفُنون » وهو أزْيدُ من أربع مئة مُجلَّد ، حَشدَ فيه كل ما كان يَجري له مع الفُضلاء والتلامِذَة ، وما يَسْنَحُ له من الدَّقائق والغَوامِض ، وما يَسمَعُه من العَجائب والحَوادث .

عن حمَّاد الحرَّاني ، سَمعَ السِّلَفيَّ يقولُ : ما رأتْ عَيني مثلَ أبي الوَفاء بنِ عَقيل الفَقيه ، ما كان أحدٌ يَقدرُ أنْ يَتكلَّمَ معه لغَزارَة عِلمِه وحُسْنِ إيرادِه ، وبَلاغَة كَلامِه ، وقُوّة حُجَّته ، تَكلَّمَ يوماً مع شَيخِنا إلْكيا أبي الحَسَن ، فقال له إلْكيا : هـٰذا ليس مَذْهبُك ، فقال : أكونُ مثلَ أبي عليّ الجُبَّائي ، وفُلان وفُلان لا أعلمُ شيئاً ؟! أنا لي

---

(١) انظر السير : (أسدُ بن الفُرات) ١٠/ ٢٢٥ـ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨٧٠ .

(٢) انظر السير : (أسدُ بن الفُرات) ١٠/ ٢٢٥ـ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٧٠ .

اجْتهادٌ متىٰ ما طالبني خَصمٌ بالحُجَّة ، كان عندي ما أَدْفَعُ به عن نفسي وأقومُ له بحُجَّتي ، فقال إلْكيا : كذاك الظنُّ بك[1] .

(ج) « المُدوَنَّة » :

أَصْلُ « المُدوَّنَة » أسئلةٌ سألَها ابنُ الفُرات لابنِ القاسِم ، فلمَّا ارْتَحلَ سُحْنونٌ بها عَرَضَها على ابنِ القاسِم ، فأَصْلحَ فيها كثيراً ، وأَسْقطَ ثم رتَّبَها سُحْنونٌ ، وبوَّبَها ، واحْتجَّ لكثير من مَسائِلها بالآثار من مَرْوياتِه مع أنَّ فيها أشْياء لا يَنهَضُ دَليلُها ، بل رأيٌ مَحْض ، وحَكوا أنَّ سُحْنوناً في أواخر الأمْر علَّم عليها ، وهمَّ بإسقاطها وتَهذيب « المُدَوَّنَة » فأدْرَكتْه المَنيَّة رَحمَه الله فكُبراءُ المالكيَّة ، يَعرفون تلك المَسائل ، ويُقرِّرُون منها ما قَدروا عليه ، ويُوَهِّنون ما ضَعُفَ دَليلُه فهي لها أُسْوَةٌ بغيرها من دَواوين الفِقْه وكلُّ أحدٍ فيُؤخَذُ من قَولِه ويُترَك إلاَّ صاحبَ ذاك القبر صلى الله عليه وسلم فالعلمُ بَحرٌ بلا ساحل ، وهو مُفرَّقٌ في الأمَّة مَوجودٌ لمَنْ التَمسَه .

وتفسير (سُحْنون) بأنه اسم طائر بالمغرب ، يُوصَف بالفِطْنَة والتَّحرُّز ، وهو بفَتْح السِّين وبضَمِّها .

تُوفِّي الإمامُ سُحْنونٌ في سنة أربعين ومئتين ، وله ثمانون سنة[2] .

(د) مَعاجم الطَّبَراني :

من تَواليف الإمامِ الطَّبَرانيّ « المُعْجَمُ الصَّغير » في مُجلَّد عن كلِّ شَيخٍ حَديث ، و« المُعْجَمُ الكبير » وهو مُعْجَم أسماء الصَّحابَة وتَراجمهم وما رَوَوْه ، لكن ليس فيه مُسْندُ أبي هُرَيْرة ، ولا اسْتوعَب حَديثَ الصَّحابَة المُكْثرين ، في ثمانِ مُجلَّدات ، و« المُعْجَمُ الأوْسَط » علىٰ مَشايخِه المُكْثرين ، وغَرائبِ ما عندَه عن كل واحد ، يكونُ خَمسَ مُجلَّدات ، وكان الطَّبرانيُّ ـ فيما بلَغَنا ـ يقولُ عن « الأوْسَط » : هـٰذا الكتابُ رُوحي[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن عَقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٧ .

(٢) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٧/٩٨٣ .

(٣) انظر السير : (الطَّبَرانيّ) ١٦/ ١١٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٢ .

١٤ـ نَقْدُ بعض الكتُب :

(أ) « إحياء عُلوم الدين » للغَزالي :

قال محمَّدُ بنُ الوَليد الطُّرْطُوشيُّ في رسالة له إلى ابنِ مُظفَّر : فأمَّا ما ذَكرتَ من أبي حامد ، فقد رَأيتُه ، وكلَّمتُه ، فرأيتُه جَليلاً من أهلِ العِلمِ ، واجْتمَعَ فيه من العَقلِ والفَهمِ ، ومارَسَ العُلومَ طوُل عُمرِه ، وكان علىٰ ذلك معظم زمانه ، ثم بدا له عن طريق العلماء ودخل في غُمار العُمَّال ، ثم تَصوَّف ، وهَجرَ العُلومَ وأهلَها ، ودَخلَ في عُلومِ الخَواطِر وأرْبابِ القُلوبِ ، ووَسَاوس الشَّيطان ، ثم شَابَها بآراء الفَلاسِفَة ، ورُموزِ الحَلاَّج ، وجَعلَ يَطْعَنُ على الفُقَهاء والمُتكلِّمين ، ولقد كادَ أنْ يَنسَلخَ من الدِّين ، فلمَّا عَملَ « الإحْياءَ » عَمدَ يَتكلَّم في عُلومِ الأحْوال ، ومَرامِز الصُّوفيَّة ، وكان غَيرَ أنيسٍ بها ، ولا خَبير بمَعْرفَتِها ، فسَقَطَ علىٰ أُمِّ رأسِه وشَحنَ كتابَه بالمَوْضوعات[١] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : أمَّا « الإحْياءُ » ففيه من الأحاديث الباطِلَة جُملَةٌ ، وفيه خَيرٌ كَثير لولا ما فيه من آداب ورُسوم وزُهْد من طَرائق الحُكَماء ومُنْحَرِفي الصُّوفيَّة ، نَسألُ اللهَ عِلماً نافعاً[٢] .

وقال أبو الفَرج ابنُ الجَوْزي : صَنَّف أبو حامد « الإحْياءَ » وملأَه بالأحاديث الباطِلَة ، ولمْ يَعْلمْ بُطْلانَها ، وتَكلَّمَ على الكَشْف وخَرجَ عن قانون الفِقْه ، وقال : إنَّ المُرادَ بالكَواكِبِ والقَمرِ والشَّمسِ اللَّوَاتي رآهُن إبراهيمُ ، أنْوارٌ هي حُجُبُ الله عَزَّ وجَلَّ ، ولمْ يُرِد هٰذه المَعْروفات وهٰذا من جِنْسِ كَلام الباطِنيَّة ، وقد رَدَّ ابنُ الجَوْزي علىٰ أبي حامد في كتاب « الإحْياء » وبيَّن خَطأَه في مُجلَّدات ، سمَّاه كتاب « الأحْياء »[٣] .

---

(١) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٨٤ .

(٢) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٥ .

(٣) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٨٥ .

(ب) « الشفا » للقاضي عِياض :

جاء في تَرجمة القاضي عِياض ، قال الذهبيُّ : تَواليفُه نَفيسَةٌ ، وأجَلُّها وأشْرفُها كتابُ « الشِّفا » لولا ما قد حَشاهُ بالأحاديث المُفْتَعلَة ، عَمَلَ إمامٍ لا نَقْدَ له في فنِّ الحَديث ولا ذَوْق ، والله يُثيبُه علىٰ حُسنِ قَصْدِه ، ويَنفَعُ بـ« شِفائِه » وقد فَعل ، وكذا فيه من التأويلات البَعيدَة ألْوان ، ونَبيُّنا صَلواتُ الله عليه وسَلامُه غَنيٌّ بِمدحَةِ التَّنْزيل عن الأحاديث ، وبما تَواتَرَ من الأخْبار عن الآحاد ، وبالآحادِ النَّظيفَة الأسَانيد عن الواهيات ، فلماذا يا قَوم نَتَشبَّعُ بالمَوْضُوعات ، فيَتطرَّقُ إلينا مَقالُ ذَوي الغِلِّ والحَسَد ، ولكن مَنْ لا يَعلمْ مَعذورٌ ، فعَليك يا أخي بكتاب « دَلائل النُّبوَّة » للبَيْهَقيِّ ، فإنَّه شِفاءٌ لما في الصُّدور وهُدىً ونور[1] .

قال القاضي ابنُ خلِّكان : شُيوخُ القاضي يُقاربون المئة ، تُوفِّيَ في سنة أربعٍ وأربَعين وخَمس مئة[2] .

(ج) « مِرْآةُ الزَّمان » لسِبطِ ابن الجَوْزي :

جاء في ترجمة ابن الجَوْزيِّ ، قال الذهبيُّ : قال سِبْطُه أبو المُظفَّر : تُوفِّيَ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي ليلة الثالث عَشرَ من رَمضانَ سنة سَبعٍ وتسعين وخَمسٍ مئة ، وغُلِّقَت الأسْواقُ ، وجاءَ الخَلقُ ، وصَلَّىٰ عليه ابنُه أبو القاسم عليٌّ اتِّفاقاً ، لأنَّ الأعْيانَ لمْ يَقدِروا من الوُصولِ إليه ، ثم ذَهبوا به إلىٰ جامع المَنْصُور ، فصلُّوا عليه ، وضاقَ بالنأس ، وكان يوماً مَشهوداً ، فلمْ يَصلْ إلىٰ حُفْرَتِه بمَقْبَرَةِ أحمَدَ إلىٰ وَقتِ صَلاةِ الجُمُعَة ، وكان في تمُّوز ، وأفْطَرَ الخَلقُ ، ورَمَوا نُفوسَهم في الماء إلىٰ أن قال : وما وَصلَ إلىٰ حُفْرتِه من الكَفَنِ إلاَّ قَليلٌ ، كذا قال ، والعُهْدةُ عليه[3] ، وأُنزِلَ في الحُفرَةِ ، والمُؤذِّنُ يقولُ : اللهُ أكبَر ، وحَزنَ عليه الخَلقُ ، وباتوا عند قَبرِه طُولَ شَهرِ

---

(١) قال صاحب النُّزهة : هو أيضاً فيه أحاديث واهية وعذره فيها أنه ساقها بأسانيد .

(٢) انظر السير : (القاضي عِياض) ٢٠/ ٢١٢ـ٢١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٣ .

(٣) وقال في « تاريخ الإسلام » : (وهـٰذا من مجازفة أبي المظفر) ، وقد وصف الذهبيُّ السبط بالمجازفة في غير موضع من كتبه .

رَمضانَ يَختِمونَ الخَتَمات ، بالشَّمْع والقَناديلَ ، ورآهُ في تلك اللَّيلَةَ المُحَدِّثُ أحمدُ بنُ سَلمان السُّكّر في النَّوم ، وهو علىٰ مِنبَرٍ من ياقُوت ، وهو جالسٌ في مِقْعَد صِدْقٍ والمَلائكَةُ بين يَديْه[1] وأصْبَحنا يومَ السَّبت عملنا العزاء ، وتكلَّمْتُ فيه ، وحَضرَ خَلقٌ عَظيمٌ ، وعُمِلَتْ فيه المَراثي[2] .

وذَكَرَ أبُو المُظَفَّر الواعِظُ في « مِرْآةِ الزَّمانِ » : وفي ذِي القِعْدَة سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ وخَمسِ مِئَة كان ما اشْتُهِرَ من أمْرِ الحافظِ عبد الغَنيّ وإصْرارِه علىٰ ما ظَهَرَ من اعْتِقادِه وإجْمَاعِ الفُقَهاءِ على الفُتْيَا بتَكْفِيره ، وأنَّه مُبْتَدِعٌ لا يَجُوزُ أنْ يُتْرَكَ بينَ المُسلمينَ ، فسَأَلَ أنْ يُمْهَلَ ثلاثَةَ أيّامٍ لِيَنْفَصِلَ عن البَلَدِ فأُجيب[3] .

قال الذهبيُّ : قد بَلَوْتُ علىٰ أبي المُظَفَّر المُجازَفَةَ وقِلَّةَ الوَرَعِ فيما يُؤَرِّخُه واللهُ المُوعِدُ ، وكان يَتَرَفَّضُ ، رأيتُ له مُصَنَّفاً في ذلكَ فيه دَواهٍ ، ولَوْ أجْمَعَتِ الفُقَهاءُ علىٰ تَكْفيرِه كما زَعَمَ لمَا وَسِعَهُم إبْقَاؤهُ حيّاً ، فقَد كان علىٰ مَقالَتِه بدِمَشْقَ أخُوهُ الشَّيخُ العِمَادُ والشَّيخُ مُوَفَّقُ الدّين ، وأخُوهُ القُدوَةُ الشَّيخُ أبُو عُمَرَ ، والعَلاَّمَة شَمسُ الدّين البُخاريّ ، وسائِرُ الحَنابلَة ، وعِدّةٌ من أهْلِ الأثَر ، وكان بالبَلَدِ أيْضاً خَلْقٌ من العُلَمَاء لا يُكَفِّرُونَه ، نَعَمْ ولا يُصَرِّحُون بمَا أطْلَقَهُ من العِبارَةِ لمَّا ضايَقُوهُ ، ولَوْ كَفَّ عن تِلكَ العِبَاراتِ ، وقال بمَا وَرَدَتْ به النُّصُوصُ لأجادَ ولَسَلِمَ ، فهُو الأوْلَىٰ ، فما في تَوْسِيعِ العِباراتِ المُوهِمَةِ خيرٌ ، وأسْوأُ شَيءٍ قالَه أنْ ضَلَّلَ العُلَماءَ الحاضِرين ، وأنَّه على الحَقِّ ، فقَالَ كَلمَةً فيها شَرٌّ وفَسادٌ وإثارَةٌ للبَلاءِ ، رَحِمَ اللهُ الجَميعَ وغَفَرَ لهُم ، فمَا قَصْدُهُم إلاَّ تَعْظيمَ البَارِي عَزَّ وجَلَّ من الطَّرَفَيْن ، ولكنَّ الأكْمَلَ في التَّعْظيمِ والتَّنْزيه الوُقُوفُ معَ ألْفاظِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وهَـٰذا هو مَذْهَبُ السَّلَفِ رَضي اللهُ عنهم .

وبكُلِّ حالٍ فالحَافِظُ عبدُ الغَنيّ من أهْلِ الدّينِ والعِلْمِ والتَّألُّهِ والصَّدْعِ بالحَقِّ ،

---

(١) تمام الخبر : والحقُّ سبحانه وتعالىٰ حاضرٌ يسمع .

(٢) انظر السير : (أبو الفَرج ابن الجَوْزي) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٦ .

(٣) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٠ .

ومَحَاسِنُهُ كَثيرةٌ ، فنعُوذُ باللهِ من الهَوَىٰ والمِراءِ والعَصَبيّةِ والافْتِراءِ ، ونَبْرأُ من كُلِّ مُجَسِّمٍ ومُعَطِّلٍ[1] .

١٥ـ كتاب « نَهـجُ البَلاغَة » مَوضُوعٌ ونِسْبَتُه إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه غيرُ صحيحة :

جاء في تَرجمة المُرْتَضَىٰ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو جامعُ كتاب « نَهْجُ البَلاغَة » ، المَنسُوبَة ألفاظُه إلى الإمام عليٍّ رضي الله عنه ، ولا أسانيدَ لذلك ، وبعضُها باطلٌ ، وفيه حَقٌّ ولكن فيه مَوضُوعات حاشا الإمامَ من النُّطقِ بها ، ولكن أين المُنْصِفُ ؟! وقيل : بلْ جَمْعُ أخيه الشَّريف الرِّضَا .

وديوانُ المُرْتَضَىٰ كبيرٌ وتَواليفُه كَثيرَةٌ ، وكان صاحبَ فُنون .

وكان من الأذْكياء والأوْلياء ، المُتَبَحِّرين في الكلام والاعْتزال ، والأدَب والشِّعر ، لكنَّه إماميٌّ جَلْدٌ نَسألُ اللهَ العفوَ[2] .

١٦ـ كتابٌ مَنسُوبٌ إلى الإمام أحمَد :

قال أبو الحُسَين أحمدُ بنُ جَعْفَر بنِ المُنادي : لمْ يكنْ في الدُّنيا أحدٌ أرْوَىٰ عن أبيه من عبدِ الله بنِ أحمَدَ ، لأنَّه سَمعَ منه « المُسْنَدَ » ، وهو ثَلاثُون ألفاً ، و« التَّفْسيرَ » ، وهو مئةُ ألفٍ وعِشرون ألفاً ، وغيرَ ذلك من التَّصانيف .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ما زِلْنا نَسْمَعُ بهـٰذا « التَّفْسيرِ » الكبيرِ لأحمَدَ علىٰ ألْسِنَة الطَّلَبَة ، وعُمْدَتُهم حكايَةُ ابنِ المُنادي هـٰذه ، ولكن ما رَأينا أحداً أخْبَرنا عن وُجود هـٰذا « التَّفْسير » ، ولا بَعضه ولا كُرَّاسَة منه ، ولو كان له وُجودٌ ، أو لشيء منه لنَسَخُوه ، ولاعْتَنَىٰ بذلك طَلَبَةُ العِلمِ ، وَلحَصَّلوا ذلك ، ولنُقِلَ إلينا ، ولاشْتُهِر ، ولتَنافَسَ أعْيانُ البَغداديين في تَحصيلِه ، ولنَقلَ منه ابنُ جَرير فمَنْ بَعدَه في تَفاسِيرِهم ، وهـٰذا « التَّفْسيرُ » لا وُجودَ له ، وأنا أعْتقِدُ أنَّه لمْ يَكُنْ ، فبَغدادُ لمْ تَزَلْ دارَ الخُلفاءِ ، وقُبَّةَ الإسْلامِ ، ودَارَ الحَديثِ ، ومَحِلَّةَ السُّنَن ، ولمْ يَزَلْ أحمدُ فيها مُعَظَّماً في سائر

---

(١) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٠ .

(٢) انظر السير : (المُرْتَضىٰ) ١٧/ ٥٨٨ـ ٥٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٦ .

الأعْصارِ ، وله تَلامِذَةٌ كبارٌ ، وأصْحابُ أصْحاب ، وهَلُمَّ جَراً إلىٰ بالأمْسِ ، حين اسْتَباحَها جَيشُ المَغُولِ ، وجَرَت بها من الدِّماءِ سُيولٌ ، وقد اشْتُهِرَ ببَغْدادَ « تَفسيرُ ابنِ جَرير » ، وتَزاحَمَ علىٰ تَحْصِيلِه العُلماءُ ، وسارَتْ به الرُّكْبانُ ، ولمْ نَعْرِفْ مثلَه في مَعناه ، ولا أُلِّفَ قَبلَه أكْبرُ منه ، وهو في عِشرينَ مُجلَّدَة ، وما يَحْتمِلُ أنْ يَكُونَ عِشْرينَ ألْفَ حَديثٍ ، بلْ لَعلَّه خَمسَةَ عَشَرَ ألفَ إسْناد ، فخُذْه ، فعُدَّه إنْ شِئْتَ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : عاشَ في عُمرِ أبيه سَبعاً وسَبعينَ سَنةً .

ماتَ ودُفِنَ في مَقابِرِ بابِ التِّبْنِ[١] ، وكان الجَمعُ كَثيراً فوقَ المِقْدار[٢] .

١٧ـ تَمنِّي الذَّهبيّ أن يُقيِّض الله عَالماً يَخدم « المُسنَد » (وقد حقَّق الله بعضَ أمنيَّته) :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمة عبدِ الله بنِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل : كان صَيِّناً دَيِّناً صادِقاً ، صاحبَ حَديثٍ واتِّباعٍ وبَصَرٍ بالرِّجال ، ولمْ يَدخُلْ في غَيرِ الحَديثِ ، وله زياداتٌ كَثيرةٌ في « مُسْنَدِ » والِدِه واضِحَةٌ عن عَوالي شُيوخِه ولمْ يُحَرِّرْ تَرْتيبَ « المُسْنَد » ولا سَهَّلَه ، فهو مُحْتاجٌ إلىٰ عَملٍ وتَرتيب .

فلَعلَّ الله يُقيِّضْ لهٰذا الدِّيوانِ العَظيمِ مَنْ يُرتِّبُه ويُهَذِّبُه ، ويَحْذفُ ما كُرِّرَ فيه ، ويُصْلحُ ما تَصَحَّفَ ، ويُوَضِّحُ حالَ كَثيرٍ من رجاله ، ويُنبِّه علىٰ مُرْسَلِه ، ويُوَهِّنُ ما يَنْبَغي من مَناكِيرِه ، ويُرَتِّبُ الصَّحابَةَ على المُعْجَم ، وكذلك أصْحابَهم على المُعْجَم ، ويَرمِزُ علىٰ رُؤوسِ الحَديثِ بأسْماءِ الكُتبِ السِّتَّة ، وإنْ رَتَّبَه على الأبْوابِ فحَسَنٌ جَميلٌ ، ولَوْلا أنِّي قد عَجزتُ عن ذلك لِضَعْفِ البَصَر ، وعَدمِ النِّيَّة ، وقُرْبِ الرَّحيلِ ، لَعَملتُ في ذلك[٣] .

١٨ـ رُؤىٰ فيها تَزكيَة لكتُب :

قال خالدُ بنُ عبدِ الله المَرْوَزِيُّ ، سَمعتُ أبا سَهْل محمَّدَ بنَ أحمَدَ المَرْوِزِيَّ ، سَمعتُ أبا زَيْد المَرْوِزِيَّ الفَقيهَ يقولُ : كُنتُ نائماً بين الرُّكنِ والمَقَام فرَأيتُ النبيَّ

---

(١) باب التبن : محلة كبيرة ببغداد على الخندق بإزاء قطيعة أم جعفر .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن أحمد) ١٣/٥١٦ـ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٣ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن أحمد) ١٣/٥١٦ـ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٤ .

صلى الله عليه وسلم ، فقال لي : يا أبا زَيْد ، إلىٰ مَتىٰ تَدْرُسُ كتابَ الشَّافعي ، ولا تَدرُسُ كتابي ؟ فقُلتُ : يا رسُولَ الله ، وما كتابُك ؟ قال : « جامِعُ » مُحمَّد بن إسْماعيل[1] .

وقال شَيخُ القُضاةِ أبو عليٍّ إسْماعيلُ بنُ البَيْهَقيّ : حدَّثنا أبي قال : حين ابْتدأتُ بتَصنيفِ هـٰذا الكتاب ـ يَعني كتابَ « المَعْرِفَة في السُّنَن والآثار » ـ وفَرغْتُ من تَهْذيبِ أجْزاءٍ منه ، سَمعتُ الفَقيهَ محمّدَ ابنَ أحمد ـ وهو من صالِحي أصْحابي وأكثرِهم تِلاوَةً وأصْدَقِهم لَهْجَةً ـ يقولُ : رأيتُ الشَّافعيَّ ـ رَحمَه اللهُ ـ في النَّوم ، وبيَدِهِ أجْزاءٌ من هـٰذا الكتابِ وهو يقولُ : قد كَتبتُ اليومَ من كتابِ الفَقيه أحمدَ سَبعةَ أجْزاء ـ أو قال : قَرأتُها ـ ورآه يَعْتدُّ بذلك قال : وفي صَباح ذلك اليوم رأىٰ فَقيهٌ آخَر من إخْواني الشَّافعيَّ قاعداً في الجامع علىٰ سَرير وهو يَقولُ : قد اسْتَفدتُ اليومَ من كتابِ الفَقيه حَديثَ كذا وكذا[2] .

وأخْبَرنا أبي قال : سَمعتُ الفَقيهَ أبا محمّد الحَسَنَ بنَ أحمد السَّمَرْقَنديَّ الحافِظَ يقولُ : سَمعتُ الفَقيهَ محمّدَ بنَ عبد العَزيز المَرْوَزِيَّ يقولُ : رَأيتُ في المَنام كأنَّ تابُوتاً عَلا في السَّماء يَعْلُوه نورٌ ، فقُلتُ : ما هـٰذا ؟ قال : هَـٰذه تَصانيفُ أحمَدَ البَيْهَقيّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذه رُؤيا حَقٌّ ، فتَصانيفُ البَيْهَقيِّ عَظيمةُ القَدْرِ ، غَزيرةُ الفَوائد ، قَلَّ من جَوَّدَ تَواليفَهُ مثلُ الإمام أبي بَكر ، فيَنْبَغي للعالِمِ أنْ يَعْتَني بهَؤلاء سيَّما « سُنَنَه الكبير » .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : وبَلَغَنا عن إمام الحَرَمَينِ أبي المَعالي الجُوينيّ قال : ما من فَقيهٍ شَافعيٍّ إلاَّ وللشَّافعيِّ عليه مِنَّةٌ إلاَّ أَبا بَكر البَيْهَقيِّ ، فإنَّ المِنَّةَ له على الشَّافعيِّ لتَصانيفِه في نُصْرَة مَذْهَبه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أصابَ أبو المَعالي ؛ هـٰكذا هو ، ولوْ شاءَ البَيْهَقيُّ أنْ يَعمَلَ لنفسِه مَذهَباً يَجتهدُ فيه ، لكان قادراً علىٰ ذلك ، لسِعَة عُلومِه ، ومَعرفَتِه بالاخْتلافِ ،

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٥ .

(٢) انظر السير : (البَيْهَقيّ) ١٨/ ١٦٣ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٤ .

ولهـذا تَراهُ يُلوِّحُ بنَصر مَسائلَ ممَّا صَحَّ فيها الحَديثُ ولمَّا سَمعوا منه ما أحَبُّوا في قَدْمَتِه الأخيرة ، مَرِضَ ، وحَضرت المَنيَّةُ ، فتُوفِّي سَنة ثمانٍ وخَمسينَ وأرْبع مئة ، فغُسِّلَ وكُفِنَ وعُملَ له تابُوتٌ ، فنُقِلَ ودُفِنَ ببَيْهَق عاشَ أربعاً وسَبعينَ سنةً[1] .

* * *

(١) انظر السير : (البَيْهَقيّ) ١٨/ ١٦٣ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٩٤ .

من عُلوم الإسْلام

(١) القُرآنُ والقِراءاتُ والتَّجْويد

أولاً : القُرآن :

١ ـ فَضلُ القُرآن :

قال إسماعيل بن عياش : أنبأنا عقيلُ بن مُدْرك ، يَرفعُه إلىٰ أبي سَعيد الخُدْريِّ قال : عَليكَ بتَقْوى الله فإنَّه رأسُ كلِّ شيء وعَليكَ بالجِهادِ فإنَّه رَهْبانيَّةُ الإسْلام ، وعَليكَ بذِكْر الله وتِلاوَة القُرآنِ ، فإنَّه رُوحُك في أهْلِ السَّماء وذِكْرُك في أهْلِ الأرْض ، وعَليكَ بالصَّمْتِ إلاَّ في حَقٍّ ، فإنَّك تَغلِبُ الشَّيْطان[١] ،[٢] .

عن يُونُس بنِ جُبَير ، قال : شَيَّعْنا جُندُباً البَجَليَّ ـ صاحبَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ـ فقُلتُ له : أوْصِنا ، قال : أُوصِيكُم بتَقْوى الله ، وأُوصِيكُم بالقُرآنِ ، فإنَّه نُورٌ باللَّيلِ المُظْلِم ، وهُدىٰ بالنَّهارِ ، فاعْمَلوا به علىٰ ما كان من جَهْد وفاقَة ، فإنْ عَرضَ بلاءٌ ، فقدِّمْ مالَكَ دُونَ دِينِك ، فإنْ تَجاوَزَ البَلاءُ ، فقَدِّمْ مالَكَ ونَفسَكَ دُونَ دِينِك ، فإنَّ المَخْروبَ مَنْ خَرُبَ دينُه ، والمَسْلوبَ مَنْ سُلِبَ دينُه ، واعْلمْ أنَّه لا فاقَةَ بعد الجَنَّة ولا غِنَىٰ بعد النَّار[٣] .

وجاء في ترجمة عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ أبزى الخُزاعي قال الذهبيُّ : هو مَوْلىٰ نافِعِ بنِ عبدِ الحارِث ، كان نافعٌ مَوْلاه اسْتنابَه علىٰ مكة حين تلقَّىٰ عُمرَ بنَ الخَطَّابِ إلىٰ عُسفان ، فقال له : مَنِ اسْتخلَفْتَ علىٰ أهْلِ الوَادي ؟ يَعني مَكة ، قال : ابنُ أبْزَىٰ ، قال : ومَنْ ابنُ أبْزَى ؟ قال : إنَّه عالمٌ بالفَرائِض قارِىءٌ لكتاب الله قال : أما إنَّ نَبيَّكم

---

(١) فيه انقطاع بين عقيل بن مدرك وأبي سعيد .

(٢) انظر السير : (أبو سعيد الخُدْريّ) ٣/ ١٦٨ ـ ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣٦١ .

(٣) انظر السير : (جُندُب) ٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/٣٦١ .

صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ هـٰذا القُرآنَ يَرْفعُ اللهُ به أقْوَاماً ، ويَضَعُ به آخَرين » .

ويُروَىٰ عن عُمرَ بنِ الخَطَّاب أنَّه قالَ : ابنُ أبزَىٰ ممَّن رَفعَه اللهُ بالقُرآن[1] .

وعن أبي عبد الرحمَـٰن السُّلميِّ ، عن عُثمانَ بنِ عَفَّان ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « خَيْرُكمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَه »

قال أبو عبد الرحمَـٰن : فذلك الذي أقْعَدَني هـٰذا المَقْعَد[2] .

وقال يَعقُوبُ الفَسويُّ : سَمعتُ أحمدَ بنَ يُونُس ، وذَكروا له حَديثاً أنْكَروه من حَديثِ أبي بَكْر ، عن الأعْمَش فقال : كان الأعْمَشُ يَضربُ هَؤلاء ويَشْتمُهم ويَطردُهم ، وكان يأخذُ بيَدِ أبي بَكْر ، فيَجلِسُ معَه في زَاويَة لحال القُرآن .

وقال أبو هشام الرِّفاعيُّ : قال أبو بَكْر بنُ عَيَّاش للحَسَنِ بنِ الحَسَن بالمَدينَة : ما أبْقَت الفِتْنَةُ منكَ ؟ فقال : وأي فِتْنَة رَأيتَني فيها ؟ قال : رَأيتُهم يُقبِّلون يَدَكَ ولا تَمْنَعُهم[3] .

وقال الحُسَينُ بنُ فهم : ما رَأيتُ أنبلَ من خَلَفِ بنِ هِشَام ، كان يَبدَأُ بأهْلِ القُرآن ، ثم يَأذَنُ لأصْحَابِ الحَديثِ[4] .

٢ـ تَدَبُّرُ القُرآنِ :

قال السُّلميُّ : سَمعتُ الإمامَ أبا عُثْمانَ المَغْربيَّ : يَقولُ : ليَكن تَدَبُّرُكَ في الخَلقِ تَدبُّرَ عِبْرَة ، وتَدَبُّرُكَ في نَفسك تَدبُّرَ مَوْعظَة ، وتَدَبُّرُكَ في القُرآن تَدبُّرَ حَقيقَة قال اللهُ تَعالىٰ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[5] جَرَّأكَ به علىٰ تِلاوَتِه ، ولولا ذلك لَكلَّت الألْسُن عن تِلاوَته[6] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن أبزى الخُزاعي) ٣/ ٢٠١ـ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٣٦٥/ ٢ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الرحمَـٰن السُّلميّ) ٤/ ٢٦٢ـ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٤٩٥/ ٥ .
(٣) انظر السير : (أبو بكر بن عيَّاش) ٨/ ٤٩٥ـ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٨٦ .
(٤) انظر السير : (خَلف بن هشام) ١٠/ ٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/٨٩٦ .
(٥) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .
(٦) انظر السير : (أبو عثمان المَغْربيّ) ١٦/ ٣٢٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٧ .

٣ـ تَدبُّر السَّلَف لكتاب الله :

(أ) صُورٌ من تَدبُّر السَّلَف لكتاب الله :

عن أبي العَاليَة ، قالَ : إنَّ اللهَ قَضَىٰ علىٰ نفسه أنَّ مَنْ آمَنَ به هَدَاه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله : ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[1] ، ومَنْ توَكلَ عليه كفاه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[2] ومَنْ أقْرَضَه جازاه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[3] ومَنْ اسْتَجارَ مِنْ عَذابِه أجارَه وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾[4] .

والاعْتِصامُ الثِّقَةُ بالله ومَنْ دَعاه أجابَه ، وتَصْديقُ ذلك في كتاب الله ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾[5] ،[6] .

وعن عَطاء بنِ السَّائب ، أنَّ أبا عبد الرحمَـٰنِ السُّلميَّ قالَ : أخَذْنا القُرآنَ عن قَومٍ أخْبَرونا أنَّهم كانوا إذا تَعلَّموا عَشرَ آياتٍ لمْ يُجاوزُوهنَّ إلى العَشْرِ الأُخَر حتىٰ يَعلَموا ما فيهنَّ ، فكُنَّا نَتعلَّمُ القُرآنَ والعَملَ به ، وسَيرِثُ القُرآنَ بعدَنا قَومٌ يَشْرَبُونَه شُرْبَ الماء لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُم[7] .

وعن الحَسَن البَصْري قال : يا ابنَ آدَم ، والله إنْ قَرأتَ القُرآنَ ثم آمَنتَ به ليَطولَنَّ في الدُّنيا حُزنُك ، ولَيَشْتَدَّنَّ في الدُّنيا خَوفُك ، ولَيَكثُرَنَّ في الدُّنيا بُكاؤُك[8] .

وعن الضَّحْاكِ بنِ مُزاحِم ، قال : حَقٌّ علىٰ كُلِّ مَنْ تَعلَّمَ القُرآنَ أنْ يَكونَ فَقيهاً وتَلا

---

(١) سورة التغابن ، الآية : ١١ .

(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٤٥ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .

(٦) انظر السير : (أبو العالية) ٤/٢٠٧ـ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٠ .

(٧) انظر السير : (أبو عبد الرحمـٰن السُّلمي) ٤/ ٢٦٧ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/٤٩٥ .

(٨) انظر السير : (الحَسن البَصْري) ٤/٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٠ .

قَولَ الله ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَـٰبَ ﴾[1] ،[2] .

وقال إبراهيمُ بنُ بَشَّار ، حدَّثنا ابنُ عُيَيْنَة قال : كان عُمرُ بنُ ذَرٍّ إذا قرأَ : ﴿ مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾[3] قال : يا لَكَ من يومٍ ما أملأَ ذِكْرَكَ لقُلُوبِ الصَّادِقين[4] !

وجاء في ترجمة ابنِ عَطاء الأدميّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : كان له في كلِّ يوم خَتْمَة ، وفي رَمَضانَ تِسْعُونَ خَتْمَة ، وبَقِيَ في خَتْمَةٍ مُفْرَدَة بضعَ عَشرَةَ سَنَةً يَتفهَّمُ ويَتدَبَّر[5] .

(ب) التَّأثُّرُ عندَ قِراءَتِه :

عن الحَسنِ قال : كان عُمَرُ بنُ الخطَّاب يمرُّ بالآيَة من وِرْدِه فيَسْقُطُ حتىٰ يُعادَ منها أيّاماً[6] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسْعود رضي الله عنه قال : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اقْرَأْ عَليَّ القُرآنَ » قلتُ : يا رسُولَ الله أقرأُ عليكَ وعَليكَ أُنْزل ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي » فقرأتُ عليه سُورَةَ النِّسَاء حتىٰ بلغتُ : ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾[7] فغَمَزَني برِجْلِه ، فإذا عَيناهُ تَذْرِفان[8] .

وقال إبراهيمُ بنُ الأشْعَث : ما رَأيتُ أحَداً كان اللهُ في صَدرِه أعظَمَ من الفُضَيل ، كان إذا ذُكِرَ اللهُ ، أو ذُكرَ عندَه ، أو سَمعَ القُرآنَ ، ظَهرَ به من الخَوفِ والحُزْن ، وفاضَت عَيناهُ ، وبَكىٰ حتىٰ يَرحمَه من يَحضُرُه ، وكان دائمَ الحُزْن ، شَديدَ الفِكرَة ، ما رَأيتُ رجلاً يريدُ اللهَ بعِلمِهِ وعَملِه ، وأخْذِهِ وعَطائِه ، ومَنْعِه وبَذْلِه ، وبُغْضِه وحُبِّه ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩

(٢) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٦ .

(٣) سورة الفاتحة ، الآية : ٤ .

(٤) انظر السير : (عُمرُ بن ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٧/٦٦٠.

(٥) انظر السير : (ابن عطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٩.

(٦) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٩ .

(٧) سورة النساء ، الآية : ٤١ .

(٨) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٩٥ .

وخِصَالِه كلِّها ، غَيرَه كنَّا إذا خَرجْنا معه في جِنازَة لا يَزالُ يَعظُ ، ويُذَكِّرُ ويَبكي كأنَّه مُودِّعٌ أصْحابَه ، ذاهبٌ إلى الآخِرَة ، حتىٰ يَبلُغَ المَقابرَ ، فيَجلِسُ مَكانَه بينَ المَوْتَىٰ من الحُزنِ والبُكاء حتىٰ يقومَ وكأنَّه رَجعَ من الآخِرَة يُخبرُ عنها[1] .

(ج) الصَّعْقُ عندَ سَماعِه :

قال إبراهيمُ بنُ الحارث العُبّادي : حدَّثنا عبدُ الرحمَـٰن بنُ عفَّان ، حدَّثنا أبو بَكْر بن عيّاش قال : صلَّيتُ خَلفَ فُضَيل بنِ عِياض المغربَ وابنُه عليٌّ إلىٰ جانبي فقرأ : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[2] فلمَّا قالَ : ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾[3] سَقطَ عليٌّ علىٰ وَجهِه مَغْشيّاً عليه[4] .

وعن محمدِ بنِ ناجية قال : صلَّيتُ خَلفَ الفُضَيل بنِ عِياض ، فقرأ : ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾[5] في الصبح فلما بلغ إلىٰ قوله : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾[6] . غلبه البكاء فسقط ابنه علي مغشياً عليه[7] .

وقال عليُّ بنُ المَديني : كنَّا عندَ يَحْيَىٰ بنِ سَعيد ، فقرأ رجلٌ سورَةَ الدُّخَان ، فصَعِقَ يَحْيَىٰ ، وغُشيَ عليه

قال أحمدُ بنُ حَنْبل : لو قَدِرَ أحدٌ أنْ يَدفَعَ هـٰذا عن نفسِه ، لَدَفَعَه يَحْيَىٰ - يَعْني الصَّعْقَ[8] .

وقال أحمدُ بنُ سَعيد الهَمَذاني : دَخلَ عبدُ الله بنُ وَهْب الحمَّامَ ، فسَمعَ قارئاً

---

(١) انظر السير : (الفُضَيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/٧٧٣ .
(٢) سورة التكاثر ، الآية : ١ .
(٣) سورة التكاثر ، الآية : ٦ .
(٤) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٠ .
(٥) سورة الحاقّة ، الآية : ١ .
(٦) سورة الحاقّة ، الآية : ٣٠ .
(٧) انظر السير : (عليُّ بنُ الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٨٠ .
(٨) انظر السير : (يَحْيى القطّان) ٩/ ١٧٥ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨١٥

يقرأُ : ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾[1] فغُشيَ عليه[2] .

(د) المَوْتُ عندَ سَماعِه :

يُقالُ : ماتَ جَماعةٌ سَمعوا قراءَةَ صالحِ المُرِّي (وَاعظِ البَصْرة)[3] .

وقال عليُّ بنُ محمّد المِصْري ، سَمعتُ أبا سَعيد الخَرّاز ، سَمعتُ إبراهيمَ بنَ بشّار يقولُ : الآيةُ التي ماتَ فيها عليُّ بنُ الفُضَيل ، في الأنْعام : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾[4] . مع هـٰذا المَوْضع ماتَ وكنتُ فيمَن صلَّىٰ عليه ، رحمَه الله[5] .

(هـ) الشُّعورُ بالحَلاوَة حالَ قراءَتِه :

قال أحمدُ بنُ ثَعلبَة : سَمعتُ سَلْمَ بنَ مَيْمون الخوَّاص قال : قلتُ لنفسي : يا نفسُ ، اقْرَئي القُرآنَ كأنَّك سَمعتِيه من الله حينَ تكلَّمَ به ، فجاءَت الحَلاوَة .

وقد بَقي سَلْمُ إلىٰ ما بعدَ سنةَ ثلاثَ عَشرَة ومئتين[6] .

٤ـ الصَّحابَة المُتميِّزونَ في القُرآنِ :

قال أنسُ بنُ مالك : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، لأُبَيِّ بنِ كَعْب : « إنَّ اللهَ أَمَرَني أَنْ أَقْرَأَ عليكَ القُرآنَ » وفي لَفْظ : « أمَرَني أنْ أُقْرِئَكَ القُرآنَ » .

قال : الله سَمَّاني لك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نَعَم » قال : وذُكِرْتُ عندَ ربِّ العَالَمين ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نَعَم » فذَرفَت عَيناه ولمّا سألَ النبيُّ ، صلى الله

---

(١) سورة غافر (المؤمن) ، الآية : ٤٧ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن وَهْب) ٩/ ٢٢٣ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٤/٨١٩ .
(٣) انظر السير : (صالح المُرّي) ٨/ ٤٦ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٢٥ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ٢٧ .
(٥) انظر السير : (عليُّ بن الفُضَيل) ٨/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٧/٧٨١ .
(٦) انظر السير : (سَلْم بن مَيْمون) ٨/ ١٧٩ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٨/٧٥٢ .

عليه وسلم ، أُبَيّا عن أيِّ آيةٍ في القُرآن أعْظَم ، فقال أُبَيٌّ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾[1] ضَربَ النبيُّ ، صلى الله عليه وسلم ، في صَدرِه وقال : « لِيَهْنَكَ العِلْم أبا المُنْذِر »[2] .

وعن عبد الله بنِ عَمرو ، قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ : مِنْ ابنِ مَسْعُودٍ ، وأُبَيٍّ ، ومُعَاذِ بنِ جَبَل ، وسالمٍ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة »[3] .

وعن مَسْروقٍ قالَ عبدُ الله بنُ مَسْعود : والذي لا إلَـٰهَ غَيرُه لقَد قَرأتُ من فيِّ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بضْعاً وسَبعينَ سُورَةً ، ولوْ أعْلَمُ أحَداً أعْلَمُ بكتابِ الله منِّي تُبلِغُنيه الإبْلُ لأتَيْتُه[4] .

٥ـ هِمَّةُ السَّلف في تَعلُّمِه :

قال ابنُ عُمَر : تعلَّمَ عُمَرُ البقَرَةَ في اثنَتي عشرَةَ سَنةً ، فلمَّا تعلَّمَها نَحرَ جَزوراً

قال مُعاويَةُ : أمَّا أبو بَكر فلمْ يُرِدِ الدُّنيا ولمْ تُرِدْه ، وأمَّا عُمرُ فأرادَتْه الدُّنيا ولم يُرِدْها ، وأمَّا نَحْنُ فتَمرَّغْنا فيها ظَهْراً لِبَطن[5] .

وقال محمّدُ بنُ عليّ السُّلَميُّ : قُمتُ ليلةً سَحراً لآخُذَ النَّوْبَة على ابنِ الأخْرَم ، فوَجدتُ قد سَبقَني ثلاثونَ قارئاً ، وقال : لمْ تُدْركْني النَّوبَةُ إلى العَصْر .

تُوفِّي ابنُ الأخْرَم في سنة إحدىٰ وأربعين وثلاث مئة وعاش إحدىٰ وثمانين سنة[6] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .
(٢) انظر السير : (أُبيّ بن كعب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٨٠ .
(٣) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٩٠ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن مَسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٩٤ .
(٥) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/ ٤٧ .
(٦) انظر السير : (ابنُ الأخْرَم) ١٥/ ٥٦٤ـ ٥٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٩ .

٦ـ القُرآنُ شغُلُ العُلَماء :

قال ابنُ وَهبٍ : قيلَ لأُخْتِ مالِك : ما كانَ شُغلُ مالكٍ في بيتِه ؟ قالت : المُصْحَفُ ، التِّلاوَة[١] .

٧ـ التنبيه علىٰ عَدم تَرْك القُرآنِ اشتغالاً بعُلوم أخرىٰ :

قال سلمُ بنُ قُتَيبَة : رُبَّما سَمعتُ شُعبةَ يقولُ لأصْحابِ الحَديثِ : يا قَوم! إنَّكم كلَّما تقدَّمتُم في الحَديثِ تأخَّرْتم في القُرآن[٢] .

٨ـ استحْضارُ القُرآن :

جاء في ترجمة زَيْدِ بنِ ثابِت ، قال الذهبيُّ : ومن جَلالَة زَيْد أنَّ الصِّدِّيقَ اعْتمدَ عليه في كتابَة القُرآنِ العَظيم في صُحُف ، وجَمْعِه من أفْواهِ الرِّجال ، ومن الأكْتاف والرِّقاع ، واحْتَفَظوا بتلك الصُّحُف مدَّة فكانت عند الصِّدِّيق ، ثم تَسلَّمَها الفارُوقُ ، ثم كانت عند أمِّ المؤمنين حَفْصَة ، إلىٰ أنْ نَدَبَ عُثمانُ زَيدَ بنَ ثابت ونَفَراً من قُريش إلىٰ كتابَة هـٰذا المُصْحَف العُثْماني الذي به الآن في الأرضِ أزْيَدُ من ألفَيْ ألفِ نُسْخَة ، ولم يَبْقَ بأيدي الأُمَّة قُرآنٌ سِواه ، ولله الحَمدُ .

ماتَ زيدُ بنُ ثابت سنة خَمس وأربعين ، عن ستٍّ وخَمسينَ سنةً[٣] .

قال أبو عبد الله بِشْرُ القَطَّان : ما رَأيتُ أحسَنَ انْتِزاعاً لما أرادَ من آي القُرآن من أبي سَهْل بنِ زِياد ، وكان جارَنا ، وكان يُديمُ صَلاةَ اللَّيل ، والتِّلاوَة ، فلِكَثْرَةِ دَرْسِه ، صارَ القُرآنُ كأنَّه بينَ عَيْنَيه[٤] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٣٦ .
(٢) انظر السير : (شُعْبَة) ٧/٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/٦٩٤ .
(٣) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٨ .
(٤) انظر السير : (أبو سَهْل القطَّان) ١٥/٥٢١ـ ٥٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٧ .

٩ـ جَمْعُ القُرآن :

قال أنسٌ : إنَّ حُذَيفَة قَدمَ علىٰ عُثمان ، وكان يَغزُو مع أهلِ العِراق قبل أرْمينية ، فاجتمع في ذلك الغَزو أهلُ الشَّام ، وأهلُ العِراق ، فتَنازَعوا في القُرآن حتىٰ سَمعَ حذيفة من اخْتِلافِهم ما يكره ، فرَكبَ حتىٰ أتىٰ عُثمانَ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين أدرِكْ هـٰذه الأمَّة قبل أنْ يَختلفوا في القرآن اخْتلافَ اليَهودِ والنَّصارىٰ في الكتُب ، ففَزِعَ لذلك عُثمانُ ، فأرسَل إلىٰ حفصة أم المؤمنين : أنْ أرسِلي إليَّ بالصُّحُف التي جُمعَ فيها القُرآنُ ، فأرسَلت إليه بها ، فأمرَ زَيدَ بنَ ثابت ، وسَعيدَ ابنَ العاص ، وعبدَ الله بن الزُّبَيْر ، وعبدَ الرَّحْمَـٰن بن الحارث بن هِشام ، أنْ يَنْسَخوها في المَصاحِف ، وقال : « إذا اختلفتُم أنتُم وزَيدٌ في عَربيَّة فاكتُبوها بلسَان قُريش ، فإنَّ القُرآنَ إنَّما نزَلَ بلِسانِهم » .

ففعَلوا حتىٰ كتبت المَصاحف ، ثم ردَّ عُثمان الصُّحُفَ إلىٰ حَفْصَة ، وأرسَل إلىٰ كلِّ جُنْد من أجْناد المُسْلمين بمصْحَف ، وأمرَهم أن يَحْرِقوا كلَّ مُصْحَف يُخالفُ المُصْحَفَ الذي أرْسلَ إليهم به ، فذلك زَمانٌ حُرِقَت فيه المَصاحِفُ بالنَّار[١] .

وقال عُبيدُ بنُ السَّبَّاق ، حدَّثني زَيدُ بنُ ثابت ، أنَّ أبا بَكْر قال له : إنَّك رجلٌ شابٌّ عاقِلٌ لا نتَّهِمُك ، قد كُنتَ تَكتُبُ الوَحْيَ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فتَتبَّع القُرآنَ فاجْمَعْه .

فقُلتُ : كَيفَ تَفعَلُون شيئاً لمْ يَفْعَلْه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

قال : هو والله خَيرٌ .

فلمْ يَزَلْ أبو بَكْر يُراجِعُني ، حتىٰ شَرحَ اللهُ صَدري للذي شَرَحَ له صَدرَ أبي بَكْر وعُمَر ، فكُنتُ أَتتبَّعُ القُرآنَ أَجْمَعُه من الرِّقاع والأكْتاف والعُسُبِ وصُدُورِ الرِّجال[٢] .

قال الذهبيُّ : ومن جَلالَة زَيْد أنَّ الصِّدِّيقَ اعْتمدَ عليه في كتابَة القُرآنِ العَظيم في

---

(١) انظر السير : (عثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٤/٧٩ .

(٢) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٨٦ .

صُحُف ، وجَمْعِه من أفْواهِ الرِّجال ، ومن الأكْتاف والرِّقاع ، واحْتَفَظوا بتلك الصُّحُف مدَّة فكانت عند الصِّدِّيق ، ثم تَسلَّمَها الفارُوقُ ، ثم كانت عند أمِّ المؤمنين حَفْصَة ، إلىٰ أنْ نَدَبَ عُثمانُ زَيدَ بنَ ثابت ونَفَراً من قُريش إلىٰ كتابَة هٰذا المُصْحَف العُثْماني الذي به الآن في الأرضِ أزْيَدُ من ألفَيْ ألفِ نُسْخَة ، ولم يَبْقَ بأيدي الأُمَّة قُرآنٌ سِواه ، ولله الحَمدُ .

ماتَ زيدُ بنُ ثابت سنة خَمس وأربعين ، عن ستٍّ وخَمسينَ سنةً[1] .

١٠ـ وُجُوبِ التَّفَقُّه لمُتَعَلِّمِ القُرآن :

وعن الضَّحْاكِ بنِ مُزاحِم ، قال : حَقٌّ علىٰ كُلِّ مَنْ تَعلَّمَ القُرآنَ أنْ يَكونَ فَقيهاً وتَلا قَولَ الله ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[2] ،[3] .

١١ـ عَدمُ أخْذِ الأجْر علىٰ تَعليمِه :

عن أبي عبد الرحمَٰن السُّلَمي أنَّه جاءَ وفي الدَّارِ جِلالٌ وجُزُر ، فقالوا : بَعَثَ بها عَمرُو بنُ حُرَيث لأنَّك علَّمتَ ابنه القُرآنَ .

فقال : رُدَّ ، إنَّا لا نَأخُذُ علىٰ كتابِ الله أجْراً[4] .

وعن محمدِ بنِ جَعْفَر بنِ النجَّار قال : كان أحمدُ بنُ محمّد بنِ سَعيد ابنِ عُقْدَة : يؤدب ابنَ هشام الخَزَّاز ، فلمَّا حذَقَ الصَّبيُّ وتعلَّمَ وجَّهَ إليه أبوهُ بدَنانير صالحَة ، فردَّها فظَنَّ ابنُ هشام أنَّها اسْتُقِلَّت فأضْعَفَها له ، فقال : ما رَدَدْتُها اسْتقلالاً ، ولكن سألَني الصَّبيُّ أنْ أُعلِّمَه القُرآنَ ، فاخْتلَطَ تَعليمُ النَّحْوِ بتَعليمِ القُرآن ، ولا أسْتَحِلُّ أنْ آخُذَ منه شَيئاً ، ولو دَفَعَ إليَّ الدُّنيا .

ثم قال ابنُ النجَّار : وكان عُقدَةُ زَيْديّاً ، وكان وَرِعاً ناسِكاً ، سُمِّي عُقْدَةَ لأجل

(١) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ٤٤١ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٨ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .
(٣) انظر السير : (الضَّحَّاك بن مُزاحم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٦ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الرحمَٰن السُّلَمي) ٤/ ٢٦٧ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/٤٩٥ .

تَعقيدِه في التَّصْريف ، وكان ورَّاقاً جيِّد الخَطِّ ، وكان ابنُه أحفَظَ مَنْ كان في عَصْرنا للحَديث[1] .

١٢ـ اسْتماعُ القُرآنِ من حَسَنِ الصَّوْت :

عن عائشةَ قالت : اسْتبطَأني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلَة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما حَبسَك ؟ » قلتُ : إنَّ في المَسْجد لأحْسَنُ مَنْ سَمعتُ صَوتاً بالقُرآن ، فأخَذَ رداءَه ، وخَرجَ يَسْمَعُه ، فإذا هو سالم مولىٰ أبي حذيفة فقال صلى الله عليه وسلم : « الحَمْدُ للهِ الذي جعَلَ في أُمَّتِي مِثْلَك »[2] .

وقال سَعيدُ بنُ عبد العَزيز : حدَّثني أبو يوسُف ، حاجِبُ مُعاويَة : أنَّ أبا موسَى الأشْعَري قَدِمَ علىٰ مُعاويَة ، فنزَلَ في بعضِ الدُّورِ بدِمَشْق ، فخَرجَ مُعاويَةُ في اللَّيل ليَسْتمِعَ قراءَتَه[3] .

وعن أنَسٍ : أنَّ أبا موسَى الأشْعَري قَرأَ ليلةً ، فقُمنَ أزواجُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يَستمِعْنَ لقراءَتِه فلمَّا أصْبَحَ ، أُخْبِرَ بذلك فقالَ : لوْ عَلمتُ ، لحَبَّرتُ تَحْبيراً ، ولشَوَّقتُ تَشويقاً[4] .

وعن أبي سَلمَة : كان عُمرُ إذا جلسَ عنده أبو موسىٰ ، رُبَّما قال له ، ذكِّرْنا يا أبا موسىٰ فيَقرأ[5] .

وقال أبو عُثمان النَّهْدي : ما سَمعتُ مِزْماراً ولا طُنْبوراً ولا صنجاً أحسنَ من صَوتِ أبي موسَى الأشْعَري ، إنْ كان ليُصلِّي بنا فنَوَدُّ أنَّه قرأ البَقرةَ من حُسن صَوتِه[6] .

وعن مَسروقٍ قال : خَرَجنا مع أبي موسىٰ في غَزاةٍ ، فَجَنَّنا الليلُ في بُستانٍ خَرِبٍ ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ عَقْدَة) ١٥/ ٣٤٠ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٤ .
(٢) انظر السير : (سالم مَوْلَىٰ أبي حُذَيفَة) ١/ ١٦٧ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣ .
(٣) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٢٧٧.
(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٠ .
(٥) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٨٠.
(٦) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٧/٢٨٠ .

فقام أبو موسىٰ يُصلي ، وقَرَأَ قِراءةً حَسَنَة ، وقال : اللَّهُمَّ أنتَ المُؤمنُ تُحِبُّ المُؤمنَ ، وأنتَ المُهيمنُ تُحِبُّ المُهيمنَ ، وأنتَ السَّلامُ تُحِبَّ السَّلام[1] .

وعن أبي نَضْرَة : قال عُمرُ لأبي موسىٰ : شَوِّقْنا إلىٰ رَبِّنا فقرأ فقالوا : الصَّلاة فقالَ : أوَلَسْنا في صَلاة[2] .

وعن عَلقَمةَ ، قال : كُنتُ رجلاً قد أعطاني اللهُ حُسْنَ الصَّوتِ بالقُرآن ، وكان ابنُ مَسْعود يُرسلُ إليَّ ، فأقرأُ عليه ، فإذا فَرَغْتُ من قراءَتي قال : زِدْنا فِداكَ أبي وأمي[3] .

وعن الأعْمَش قال : كان يَحْيى بن وثَّاب من أحْسَن النَّاس قراءَةً ، ربَّما اشتَهيتُ أن أُقبِّلَ رأسَه من حُسْنِ قراءتِه ، وكان إذا قرأ لا تُسْمَعُ في المسْجِدِ حَركَةٌ ، كأنْ ليسَ في المسْجِدِ أحدٌ[4] .

وكان عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر مَوصُوفاً بطيبِ الصَّوتِ قال مَكيُّ بنُ عَبْدان : كان عبدُ الله بنُ طاهِر الأميرُ يَحضُرُ باللَّيل مُتنكِّراً إلىٰ مَسْجدِ عبدِ الرحمَـٰن ليَسمعَ قراءَتَه .

قال عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر : أقامَني يَحْيى القَطَّان في مَجلسِه ، فقال : ما حدَّثكم عَنِّي هـٰذا الصبيُّ فصَدِّقوه ، فإنَّه كَيِّس .

قال أبو حامد بنُ الشَّرقي : سَمعتُ عبدَ الرحمَـٰن يقولُ : احْتلَمتُ فدعا أبي عبدَ الرزَّاق وأصْحابَ الحَديثِ الغُرَباء فلمَّا فرَغوا من الطَّعام قال : اشْهَدوا أنَّ ابني قد احْتَلمَ وهو ذا يَسمَعُ من عبدِ الرزَّاق ، وقد سَمعَ من سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الإعْلامُ إيلامٌ للصَّبيِّ ، وتَخجيلٌ له[5] .

وقال ابنُ النجَّار : أكثَرتُ عن حَمزَة بنِ عليٍّ ولازَمتُه ، وسَمعتُ منه من كُتُبِ القِراءاتِ والأدَب ، وكان ثقةً حُجَّةً نَبيلاً مَوصُوفاً بحُسْنِ الأداء وطيبِ النَّغمَة ، يَقصِدُه

---

(١) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/٢٨٠ .
(٢) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٨١ .
(٣) انظر السير : (علقمَة) ٤/٥٣ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٤ .
(٤) انظر السير : (يَحْيى بن وَثّاب) ٤/٣٧٩ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥١٤.
(٥) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن بشْر) ١٢/ ٣٤٠ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٠٦ .

النَّاسُ في التَّراويح ، ما رَأيتُ قارئاً أحْلَىٰ نَغمَةً منه ، ولا أحْسَنَ تَجْويداً ، مع عُلُو سِنِّه ، وانْقِلاعِ ثَنيَّتِه ، وكان تامَّ المَعرفَة بوُجُوه القِراءاتِ وعِلَلِها وحِفْظِ أسانيدَها وطُرقَها ، وكانت له مَعرفَةٌ حَسنةٌ بالحَديث ، وكان دَمثاً لَطيفاً مُتودِّداً ، وكان في صِباهُ من أحْسنِ أهلِ زَمانِه وأظْرَفِهم ، مع صِيانَة ونَزاهَة ، وكان من أحْسَنِ الشُّيوخِ صُورَةً ، وقد أكثرَ الشُّعَراءُ في وَصْفِه .

تُوفِّي في سنة اثنتين وستِّ مئة[1] .

١٣ـ مَنْ وُصفَ من السَّلف بطِيبِ صَوْته :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة طَلْقِ بنِ حَبيب العَنزيّ : بَصْريٌّ ، زاهدٌ ، كبيرٌ ، من العلماء العاملين

وكان طَيِّبَ الصَّوْتِ بالقُرآن ، بَرّاً بوالديه[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة عاصِمِ بنِ أبي النُّجُود : وانتهت إليه رئاسَةُ الإقْراء بعد أبي عبد الرحمَـٰن السُّلمي شَيخِه ، قال أبو بَكْر ابنُ عياش : لَمَّا هَلكَ أبو عبد الرحمَـٰن ، جَلسَ عاصمٌ يُقرِىءُ النَّاسَ وكان أحْسَنَ النَّاسِ صَوْتاً بالقُرآن حتىٰ كأنَّ في حَنْجَرته جَلاجِلَ[3] .

وقال يونُسُ : كان وَرْشٌ جَيِّدَ القِراءَة ، حَسَنَ الصَّوْت ، إذا قَرأ يَهْمِزُ ، وَيمُدُّ ، ويُشَدِّدُ ، ويُبيِّنُ الإعْرابَ لا يَمَلُّهُ سامِعُه[4] .

وكان عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر مَوصُوفاً بطيبِ الصَّوتِ قال مَكيُّ بنُ عَبْدان : كان عبدُ الله بنُ طاهِر الأميرُ يَحضُرُ باللَّيل مُتنكِّراً إلىٰ مَسْجدِ عبدِ الرحمَـٰن ليَسمعَ قراءَتَه .

قال عبدُ الرحمَـٰن بنُ بِشْر : أقامَني يَحْيى القَطَّان في مَجلسِه ، فقال : ما حدَّثكم عَنِّي هـٰذا الصبيُّ فصَدِّقوه ، فإنَّه كَيِّس .

---

(١) انظر السير : (حَمزَة بن عليّ) ٢١/ ٤٤١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٢ .
(٢) انظر السير : (طَلْق بن حَبيب) ٤/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٨/٢٦٦ .
(٣) انظر السير : (عاصم بن أبي النُّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٩ .
(٤) انظر السير : (وَرْش) ٩/ ٢٩٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/٨٢٣ .

قال أبو حامد بنُ الشَّرقي : سَمعتُ عبدَ الرحمَـٰن يقولُ : احْتلَمتُ فدعا أبي عبدَ الرزَّاق وأصْحابَ الحَديثِ الغُرَباء فلمَّا فَرَغوا من الطَّعام قال : اشْهَدوا أنَّ ابني قد احْتَلمَ وهو ذا يَسمَعُ من عبدِ الرزَّاق ، وقد سَمعَ من سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الإعْلامُ إيلامٌ للصَّبيِّ ، وتَخجيلٌ له[1] .

وجاء في ترجَمة أبي محمّد بنِ عبدِ الله بنِ عليٍّ بنِ أحمدَ سِبْطِ أبي مَنصُور الخيَّاط ، قال الإمامُ الذهبيُّ: وتَصدَّر للإقْراء ، وصَنَّف الكُتبَ الشَّهيرة كـ: « المُبهِجْ »، و« الإيجَاز » ، و« الكفايَة » وأَمَّ بمسجد ابن جَردةَ بضْعاً وخَمسينَ سنةً ، وكان من أطْيَبِ النَّاسِ صَوْتاً بالقُرآن ، وخَتمَ عليه خَلقٌ كَثير وقَرأَ عليه النَّحْوَ جَماعةٌ[2] .

قال ابنُ الجَوْزيِّ : لمْ أسْمَعْ قارئاً قَطُّ أطْيبَ صَوْتاً منه ، ولا أحْسَنَ أداءً علىٰ كِبَرِ سِنِّه ، وكان لَطيفَ الأخْلاقِ ، ظاهِرَ الكياسَة والظَّرافَة حَسَنَ المُعاشَرَة للعَوامِّ والخَواصِّ[3] .

وقال السَّمْعانيُّ : كان مُتَواضِعاً مُتوَدِّداً ، حَسنَ القِراءَة في المِحْرابِ ، خُصُوصاً لَياليَ رَمضانَ ، وقد تَخرَّجَ عليه خَلقٌ ، وخَتَموا عليه ، وله تَصانيفُ في القِراءاتِ وخُولِفَ في بَعضِها ، وشَنَّعوا عليه ثم سَمعتُ أنَّه رَجعَ عن ذلك .

وقال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي : ما رَأيتُ أكثرَ جَمعاً من جَمعِ جِنازَته .

تُوفِّي سَنةَ إحْدىٰ وأربَعين وخَمسِ مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن بشْر) ١٢/ ٣٤٠ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١٠٠٦/٥ .

(٢) انظر السير : (أبو محمد ، عبد الله بن عليّ بن أحمد ، أخو سبط الخيّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٧ .

(٣) انظر السير : (أبو محمد ، عبد الله بن عليّ بن أحمد ، أخو سبط الخيّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٧ .

(٤) انظر السير : (أبو محمد ، عبد الله بن عليّ بن أحمد ، أخو سبط الخيّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٧ .

١٤ـ كيفيّة تَعَلُّم القُرآن :

عن عبدِ الله بنِ مَسْعود قال : كنَّا إذا تَعلَّمْنا من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، عَشْرَ آياتٍ لمْ نَتعلَّمْ من العَشْرِ التي نَزلَت بعدَها حتىٰ نَعلَم ما فيها ، يَعني من العِلم[١] .

وعن جُنْدُبِ بنِ عبدِ الله البَجَلي ، قال : كنَّا غِلْماناً حَزاوِرَةً[٢] مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فتَعلَّمْنا الإيمانَ قبلَ أنْ نَتعلَّمَ القُرآنَ ، ثم تَعلَّمنا القُرآنَ ، فازْدَدْنا به إيْماناً .

بَقِيَ إلىٰ حُدود سَنة سَبعين[٣] .

وعن حَفْصَةَ بنتِ سِيرينَ ، قالت : قال لي أبو العَاليَة : قَرأتُ القُرآنَ علىٰ عُمرَ رضي الله عنه ثلاثَ مِرَار[٤] .

وعن عَطاء بنِ السَّائب ، أنَّ أبا عبد الرحمَـٰنِ السُّلميَّ قالَ : أَخَذْنا القُرآنَ عن قَومٍ أخْبَرونا أنَّهم كانوا إذا تَعلَّموا عَشرَ آياتٍ لمْ يُجاوزُوهنَّ إلى العَشْرِ الأُخَر حتىٰ يَعلَموا ما فيهنَّ ، فكُنَّا نَتعلَّمُ القُرآنَ والعَملَ به ، وسَيرثُ القُرآنَ بعدَنا قَومٌ يَشْرَبُونَه شُرْبَ الماء لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُم[٥] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : قرأ يَحيَى بن وثَّاب القُرآنَ كُلَّه علىٰ عُبَيْدِ ابنِ نُضَيْلَة صاحبِ علقَمة فتَحفَّظَ عليه كلَّ يومٍ آيَةً[٦] .

ورَوىٰ مُجاهدُ بنُ جَبْر عن ابنِ عبَّاس ، فأكثرَ وأطابَ ، وعنه أَخَذَ القُرآنَ ، والتَّفْسيرَ ، والفِقْهَ .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن مَسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٩٦ .
(٢) الحزاورة : جمع حزور ، وحَزوَّر : وهو الغُلام إذا قارب البلوغ ، والتاء لتأنيث الجمع .
(٣) انظر السير : (جُندُب) ١/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٣٦١.
(٤) انظر السير : (أبو العالية) ٤/٢٠٧ـ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٧/٤٧٨ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الرحمـٰن السُّلميّ) ٤/ ٢٦٧ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٣/٤٩٥ .
(٦) انظر السير : (يَحْيى بن وَثَّاب) ٤/ ٣٧٩ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ١/٥١٤ .

عن مُجاهِدٍ ، قالَ : عَرَضتُ القُرآنَ ثَلاثَ عَرَضاتٍ على ابنِ عبَّاس ، أَقِفُه عند كلِّ آيةٍ ، أَسْأَلُه فيمَ نَزلَت ، وكَيفَ كانَت[١] .

وقال يَحْيىٰ بنُ آدَم ، عن أبي بَكْر بنِ عَيَّاش قال : تَعلَّمتُ القُرآنَ من عاصِم خَمْساً خَمْساً ، ولمْ أتعلَّمْ من غَيرِه ، ولا قَرأتُ علىٰ غَيرِه[٢] .

وعن أبي بَكْر قال : اخْتلَفتُ إلىٰ عاصِم نَحْواً من ثلاث سنين ، في الحَرِّ والشِّتاءِ والمَطَر ، حتىٰ رُبَّما اسْتَحْيَيتُ من أَهْلِ مَسْجدِ بَني كاهِل .

وعن أبي بَكْر بنِ عَيَّاش قال : الدُّخُولُ في العلمِ سَهلٌ ، لكنَّ الخُروجَ منه إلى الله شَديد[٣] .

ويُقالُ إنَّ وَرْشاً تَلا علىٰ نافع أَرْبَعَ خَتماتٍ في شَهرٍ واحِد .

مات ورْشٌ بمِصْرَ في سنة سَبع وتسْعين ومئة[٤] .

وقيلَ : إنَّ سُلَيمَ بنَ عيسَىٰ تَلا علىٰ حَمْزَةَ بنِ حَبيب عَشْرَ ختم .

ماتَ سُلَيمٌ سنةَ ثَمانٍ وثَمانين ومئة[٥] .

١٥ـ كيفيّة تَعليم القُرآن :

عن محمّدِ بنِ كَعْب ، قالَ : جَمَعَ القُرآنَ خَمسةٌ : مُعَاذٌ ، وعُبَادَةُ بنُ الصَّامِت ، وأبو الدَّرْداء ، وأُبَيٌّ ، وأبو أيُّوبَ فلمَّا كانَ زَمنَ عُمَر ، كَتبَ إليه يَزيدُ بنُ أبي سُفْيانَ : إنَّ أَهْلَ الشَّامِ قد كثُروا ، ومَلَؤوا المَدائنَ ، واحْتاجُوا إلىٰ مَنْ يُعلِّمُهم القُرآنَ ويُفَقِّهُهم فأعِنِّي برجالٍ يُعَلِّمونَهم .

فدَعا عُمَرُ الخَمسَةَ ، فقال : إنَّ إخْوانَكُم قد اسْتعانُوني مَنْ يُعَلِّمُهم القُرآن ،

---

(١) انظر السير : (مُجاهِد بن جَبر) ٤/ ٤٤٩ـ٤٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٣٠ .
(٢) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٧٨٧ .
(٣) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/٧٨٧ .
(٤) انظر السير : (ورش) ٩/ ٢٩٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/٨٢٣ .
(٥) انظر السير : (سُليم بن عيسىٰ) ٩/ ٣٧٥ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٣٠ .

ويُفَقِّهُهم في الدِّين ، فأعينُوني يَرحَمْكُم الله بثلاثَة مِنكُم إنْ أحْبَبْتُم ، وإنِ انتُدِبَ ثَلاثةٌ منكم فلْيَخرُجوا .

فقالوا : ما كُنَّا لنتَساهم ، هـٰذا شَيخٌ كَبير - لأبي أيُّوبَ - وأمَّا هـٰذا فسَقيمٌ - لأُبَيٍّ - فخَرجَ مُعاذٌ وعُبَادَةُ ، وأبو الدَّرْداء .

فقال عمر : ابدَؤوا بحِمْصَ ، فإنَّكم سَتجدون النَّاسَ علىٰ وُجُوهٍ مُخْتلِفَة ، منهم مَنْ يُلَقَّن ، فإذا رَأيتُم ذلك ، فوَجِّهُوا إليه طائفةً من النَّاس ، فإذا رَضيتُم منهم ، فليُقِمْ بها واحدٌ ، وليَخْرُج واحدٌ إلىٰ دِمَشْقَ ، والآخَرُ إلىٰ فِلَسْطينَ قال : فقَدِموا حِمْصَ فكانوا بها ، حتىٰ إذا رَضُوا من النَّاسِ ، أقامَ بها عُبادَةُ بنُ الصَّامِت ، وخَرجَ أبو الدَّرْداء إلىٰ دِمَشْقَ ، ومُعاذٌ إلىٰ فِلَسْطينَ ، فماتَ في طاعُونِ عَمْواس ثم سارَ عُبادةُ بَعدُ إلىٰ فِلَسْطينَ وبها مات ولَمْ يَزلْ أبو الدَّرْداء بدِمَشْقَ حتىٰ مات[1] .

وعن مُسلمِ بنِ مِشْكم : قال لي أبو الدَّرْداء : اعْدُدْ مَنْ في مَجلِسنا قال : فجاءوا ألفاً وستَّ مئة ونَيِّفاً ، فكانوا يَقْرَؤون ويَتَسابَقون عشرةً عَشرة ، فإذا صَلَّى الصُّبْحَ انْفتَلَ وقَرأَ جُزءاً ، فيُحْدِقُون به يَسمَعون ألفَاظَه وكان ابنُ عامرٍ مُقدَّماً فيهم .

وقال هشامُ بنُ عَمَّار : حدثنا يَزيدُ بنُ أبي مالك ، عن أبيه ، قال : كان أبو الدَّرْداء يُصَلِّي ، ثم يُقْرىءُ ويَقْرأ ، حتىٰ إذا أرادَ القيامَ ، قال لأصْحابِه : هل من وَليمَةٍ أو عَقيقَةٍ نَشْهَدُها ؟ فإنْ قالوا : نَعَم ، وإلاَّ قال : اللَّهُمَّ إنِّي أُشْهِدُكَ أنِّي صائِم وهو الذي سَنَّ هـٰذه الحِلَقَ للقِراءَة[2] .

وقيلَ : الذين في حَلقَة إقْراء أبي الدَّرْداء كانوا أزْيَدَ من ألفِ رَجلٍ ، ولكلِّ عَشرة منهم مُلَقِّن وكان أبو الدَّرْداء يَطُوفُ عليهم قائماً ، فإذا أحْكَمَ الرجُلُ منهم ، تَحوَّلَ إلىٰ أبي الدَّرْداء - يَعني يَعْرِضُ عليه[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥-٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧٠/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥-٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧١/ ٣.
(٣) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥-٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧٣/ ٥ .

١٦ـ زَمنٌ قياسي لتَعَلُّم القُرآن :

وعن محمَّدِ بنِ فُضَيل : عن أبيه ، عن أبي وَائل ، أنَّه تعلَّمَ القُرآنَ في شَهْرين[١] .

١٧ـ زَمنُ قراءَة خَتْمَة :

عن أُبَيِّ بنِ كَعْب قال : إنا لنَقْرَؤه في ثمانِ ليالٍ ، يَعني القُرآنَ[٢] .

وعن أبي المهلَّب : كان تَميمٌ الدَّاري يختم القرآن في سبع[٣] .

وقال أبو خلدَة خالدُ بنُ دينار : سَمعتُ أبا العاليَة يقولُ : كُنَّا عَبيداً مَمْلوكين ، مِنَّا مَنْ يُؤدِّي الضَّرائِبَ ، ومِنَّا مَنْ يَخْدمُ أهلَه ، فكُنَّا نَخْتِمُ كلَّ لَيلَة ، فشَقَّ عَلينا حتىٰ شَكا بَعْضُنا إلىٰ بَعضٍ فلَقينا أصحابَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فعَلَّمونا أنْ نَخْتمَ كلَّ جُمُعَة فصَلَّينا ونِمْنَا ولَمْ يَشُقَّ عَلينا[٤] .

وقال عَمرو بن عبد الرحمـٰن بن مُحَيْريز : كان جدِّي عبد الله ابن مُحيريز يَختمُ في كُلِّ جُمُعة ، ورُبَّما فَرَشنا له فلمْ يَنَمْ عليه[٥] .

وعن ابنِ فُضَيل، عن أبيه قال: كان أبو إسْحاقَ السَّبيعي يَقرأُ القُرآن في كلِّ ثلاثٍ[٦].

١٨ـ كثْرَةُ قراءتِه :

عن إبراهيمَ ، قالَ : كان الأسْوَدُ بنُ يَزيد يَخْتمُ القُرآنَ في رَمضانَ في كلِّ لَيلتَين ، وكان يَنامُ بين المَغربِ والعِشاءِ ، وكان يَخْتمُ القُرآنَ في غير رَمضانَ في كلِّ ستِّ ليالٍ[٧] .

---

(١) انظر السير : (شَقيق بن سَلَمة) ٤/ ١٦١ـ ١٦٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٦٩ .
(٢) انظر السير : (أُبَيّ بن كَعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٨١ .
(٣) انظر السير : (تَميمُ الدَّاري) ٢/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٢٨٨ .
(٤) انظر السير : (أبو العاليَة) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ١/٤٧٩ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن مُحيْريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٣٩ .
(٦) انظر السير : (أبو إسْحاق السَّبيعي) ٥/ ٣٩٢ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٧/٦١٥ .
(٧) انظر السير : (الأسْود بن يزيد) ٤/ ٥٠ـ ٥٣ ، وانظر النزهة : ٦/٤٤١ .

وعن ابنِ شَوْذَب ، قال : كان عُرْوَةُ يَقرأُ رُبعَ القُرآن كلَّ يوم في المُصْحَف نَظراً ، ويَقومُ به اللَّيلَ ، فما تركَه إلاَّ ليلةَ قُطِعَت رجلُه ، وكان وَقَعَ فيها الآكِلَة فنُشِرَت ، وكان إذا كان أيّامَ الرُّطَب يَثلِمُ حائطَه ، ثم يأذَنُ للنَّاسِ فيه فيَدخُلون يَأكُلونَ ويَحْمِلُون[1] .

وقال سَلامُ بنُ أبي مُطيع : كان قَتادَةُ يَخْتمُ القُرآنَ في سَبع ، وإذا جاء رَمضانُ خَتمَ في كلِّ ثلاث ، فإذا جاءَ العَشرُ خَتمَ كلَّ ليلةٍ[2] .

وقال ابنُ المَديني : حَفرَ بِشْرُ بنُ مَنْصورَ قَبرَه ، وخَتمَ فيه القُرآنَ ، وكان وِرْدُه ثُلث القُرآن[3] .

وقد رُويَ من وُجوه مُتعدِّدَة ، أنَّ أبا بَكْر بنَ عيَّاش مَكثَ نَحواً من أرْبَعينَ سَنةً يَختمُ القُرآنَ في كلِّ يومٍ ولَيلَة مرَّة .

وهـٰذه عِبادةٌ يُخضَعُ لها ، ولكن مُتابَعة السُّنَّة أَوْلَىٰ فقد صَحَّ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَىٰ عبدَ الله بنَ عَمرو أنْ يَقرأَ القُرآنَ في أقَلِّ من ثلاث وقال عليه السلام : « لَمْ يَفْقَهْ مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلاثٍ »[4] .

قال أبو العبَّاس بنُ مَسْروق : حدَّثنا يَحْيى الحماني ، قال : لَمَّا حَضرَتْ أبا بَكْر الوَفاةُ ، بَكتْ أخْتُه ، فقالَ لها : ما يُبْكيكِ ؟ انْظُري إلىٰ تلكَ الزَّاويَة ، فقد خَتمَ أخُوك فيها ثَمانيةَ عَشرَ ألفَ خَتمَة[5] .

وعن حُسَينِ العَنْقَزيِّ قال : لَمَّا نَزلَ بابنِ إدْريسَ المَوتُ ، بَكَتْ بنتُه ، فقالَ : لا تَبكي يا بُنيَّة ، فقد خَتمتُ القُرآنَ في هـٰذا البيت أرْبَعةَ آلافِ خَتمَة[6] .

وعن المأمُونِ : أنَّه تَلا في رَمضانَ ثلاثاً وثلاثين ختمَة[7] .

---

(١) انظر السير : (عُرْوة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٥٢٦/ ٤ .
(٢) انظر السير : (الخطيب) قَتادَة/ ٥ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٨/٦٠٢ .
(٣) انظر السير : (بشْر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/٧٦٤.
(٤) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٨٧ .
(٥) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٩٥ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٨٧ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن إدريس) ٩/ ٤٢ـ ٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧٩٦ .
(٧) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/٨٧٦ .

قال البَغَويُّ : حدَّثَني محمَّدُ بنُ زُهَير ، قال : كانَ أبي يَجمَعُنا في وَقتِ خَتمِه للقُرآنِ في شَهرِ رَمضان في كلِّ يومٍ ولَيلَة ثَلاثَ مرَّات يَختمُ تسعينَ خَتمَةً في رَمضانَ .

مات رَحمهُ اللهُ في آخر سنة سَبع وخَمسينَ ومِئتين .

قال الذَّهبيُّ : مات عن بضْعٍ وسَبعين سَنة .

يَـا حَبَّـذَا مَـرُو وَمَـا أَخـرجَـت　　　مِـن سـادة العلـم والـديـن[1] .

وعن مُسبِّحِ بنِ سَعيد قال : كان محمّدُ بنُ إسْماعيلَ يَختِمُ في رَمضانَ في النَّهار كلَّ يوم خَتمةً ويَقومُ بعدَ التَّراويحِ كلَّ ثلاثِ ليالٍ بخَتمَة[2] .

وكان لأبي العبَّاس بنِ عَطاء البَغْداديّ في كلِّ يَومٍ خَتْمَة ، وفي رَمَضانَ تِسْعُونَ خَتْمَة ، وبَقيَ في خَتْمَةٍ مُفْرَدَة بضعَ عَشرَةَ سَنةً يَتَفهَّمُ ويَتدَبَّر[3] .

ويُقالُ : خَتمَ الكَتَّانيُّ في الطَّواف اثني عشرَ ألفَ ختمَة ، وكان من الأوْلياء تُوفِّي سنةَ اثنتَين وعشرين وثلاثِ مئة[4] .

وقال أبو عبد الرحمٰن السُّلميّ : سَمعتُ الدَّارَقُطنيَّ ، سَمعتُ أبا إسْحاق إبراهيمَ بن محمّد النَّسْوي المعدل بمِصْرَ ، يقولُ : سَمعتُ أبا بَكْر بنَ الحَدَّاد ، يقولُ : أخَذتُ نفسي بما رَواه الرَّبيعُ عن الشَّافعيِّ ، أنَّه كان يَختمُ في رَمضانَ ستِّين خَتمةً ، سِوَىٰ ما يَقرأُ في الصَّلاة ، فأكثرُ ما قَدرتُ عليه تسْعاً وخَمسين خَتمةً ، وأتَيتُ في غير رَمضانَ بثلاثين خَتمةً .

قال : ومات وصُلِّيَ عليه يومَ الأرْبعاء ، ودُفِنَ بسَفْح المُقَطَّم عند قَبرِ وَالدَتِه ، وحَضرَ جنازَتَه الملكُ أبو القاسم بنُ الإخْشِيذ ، وأبو المسك كافُور ، والأعْيانُ ، وكان نَسيجَ وحدِه في حِفْظِ القُرآن واللُّغَة ، والتَّوسُّع في عِلمِ الفِقْه وكانت له حلقةٌ من سنين كثيرة يَغشاها المُسلمونَ وكان جداً كلَّه ، رَحمَه الله فما خلَّف بمصرَ بعدَه مثله .

---

(١) انظر السير : (زُهَيرُ بن محمّد بن قُمَير) ١٢/ ٣٦٠ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٠٧ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٥ .
(٣) انظر السير : (ابن عَطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٩ .
(٤) انظر السير : (الكتَّانيّ) ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧٢ .

وفي ابنِ الحدَّاد يقولُ أحمدُ بنُ محمَّد الكَحَّال :

الشَّـافِعِـيَّ تَفَقُّهـاً وَالأَصمَعِـيَّ تَفَنُّنـاً وَالتَّـابِعيـنَ تَـزَهُّـداً[1]

وقال المؤتَمَنُ : سَمعتُ عبد المحسن الشِّيحيَّ يقول : كنتُ عَديلَ[2] أبي بَكْر الخَطيب من دِمَشْقَ إلىٰ بَغْدادَ ، فكان له في كلِّ يومٍ وليلةٍ خَتمَة[3] .

١٩ـ مَسَائِلُ متفرِّقة :

(أ) مَنْ قرأَ القُرآنَ في رَكعَة :

جاء في ترجَمَة أميرِ المؤمنينَ ، عُثْمانَ بنِ عَفَّانَ رضي الله عنه ، قال الإمامُ الذهبيُّ : صَحَّ من وُجوهٍ أنَّ عُثْمانَ قَرأ القُرآنَ كُلَّه في رَكْعَة[4] .

وعن هلالِ بنِ يساف ، قال : دَخلَ سَعيدُ بنُ جُبَير الكعبَةَ فقرأَ القُرآنَ في رَكعَة .

عن عَمرو بنِ مَيْمون ، عن أبيه ، قال : ماتَ سَعيدُ بنُ جُبَير وما علىٰ ظَهْر الأرض أحدٌ إلاَّ وهو مُحْتاجٌ إلىٰ عِلْمِه[5] .

وقد رُويَ من وَجْهَين : أنَّ أبا حَنيفَة قَرأَ القُرآنَ كلَّه في رَكْعَة .

وعن أبي يوسُف قال : كان أبو حَنيفَة رَبْعَةً ، من أحْسَنِ الناسِ صورة ، وأبلغِهم نطقاً ، وأعذبِهم نغمة ، وأبينِهم عمَّا في نفسِه[6] .

ويُحكَىٰ أنَّ العَسَّال ما كان يَجلسُ لإمْلاءِ الحَديث ، ولا يَمَسُّ جُزءاً إلاَّ علىٰ طَهارَة ، وأنَّه كان مرّةً مع صِهْره ، فدَخلَ مَسجداً ، وشَرعَ في الصَّلاة فخَتمَ القُرآنَ في رَكْعَة[7] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٧ .

(٢) أي مُعادِلَه في الرُّكوب في المَحمل .

(٣) انظر السير : (الخَطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٢ .

(٤) انظر السير : (عثمان بن عفان) ، وانظر النزهة : ٣/٧٩ .

(٥) انظر السير : (سَعيدُ بن جُبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/٥٠٥ .

(٦) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٨/٦٦٢ .

(٧) انظر السير : (العَسَّال) ١٦/٦ـ ١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٦٥ .

وقال ابنُ باكُويَه : سمعتُ ابنَ خَفيف يقول : كنتُ في بدايتي رُبَّما أقرأُ في ركعةٍ واحدة عشرةَ آلاف (قل هو الله أحد) ورُبَّما كنتُ أقرأُ في ركعةٍ القرآنَ كُلَّه[١] .

(ب) التَّحْزينُ في قِراءتِه :

قال ابنُ الأعْرابيِّ : كان الغالِبُ علىٰ صالح المُرِّيّ كثرةُ الذِّكر ، والقِراءَة بالتَّحْزين ويُقالُ : هو أوَّلُ مَنْ قرأَ بالبَصْرَة بالتَّحْزين[٢] .

(ج) القراءةُ بالألْحانِ بدْعَة :

سُئلَ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبل عن القِراءَة بالألْحانِ ، فقالَ : هٰذه بِدْعَةٌ لا تُسْمَع[٣] .

وقال الأثْرَمُ : سألتُ أبا عبد الله عن التَّعْريفِ في الأمْصارِ ، يَجْتَمعُونَ في المَساجدِ يومَ عَرَفَة ، فقالَ : أرْجُو أنْ لا يكونَ به بأسٌ ، فعَلَه غَيرُ واحدٍ : الحَسنُ ، وبَكرُ بن عبدِ الله ، وثابتٌ ، ومحمَّدُ ابنُ واسعِ ، كانوا يَشْهَدون المَسْجدَ يومَ عَرَفَة ، وسَألْتُه عن القِراءَة بالألْحان ، فقال : كلُّ شيء مُحدَثٌ فإنَّه لا يُعجِبُني ، إلاَّ أنْ يَكونَ صَوتَ الرجل لا يَتكلَّفُه[٤] .

قال الحافظ عبدُ القادِر : وكان السِّلَفيُّ آمِراً بالمَعْروفِ ، ناهياً عن المُنْكر حتىٰ إنَّه قد أزَالَ من جِوارِه مُنْكراتٍ كثيرة ورأيتُه يوماً ، وقد جاءَ جَماعَةٌ من المُقْرئين بالألْحانِ ، فأرادُوا أنْ يَقْرؤوا فمَنعَهم من ذلك ، وقال : هٰذه القِراءَةُ بدْعَة ، بل اقْرؤوا تَرْتيلاً ، فقَرؤوا كما أمَرَهم[٥] .

(د) قِراءةُ اثنينِ علىٰ واحدٍ في الوقتِ نفسِه من سُورتينِ مُخْتلِفتين :

كان الإمامُ السَّخاويُّ مع سِعَة عُلومِه وفَضائِله دَيِّناً ، حَسنَ الأخْلاق ، مُحبَّباً إلى

---

(١) انظر السير : (ابنُ خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٨ .

(٢) انظر السير : (صالح المُرِّي) ٨/ ٤٦ـ٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٢٥ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٧/٩٢٩

(٤) انظر السير : (الأثرَم) ١٢/ ٦٢٣ـ٦٢٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٤٠ .

(٥) انظر السير : (السِّلَفيّ) ٢١/ ٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٩٣ .

النَّاسِ ، وافِرَ الحُرْمَة ، مُطرحاً للتَّكلُّف ، ليسَ له شغلٌ إلاَّ العِلم ونَشْره ، شَرحَ « الشَّاطِبيَّة » و« الرَّائيَّة » وله كتابُ « جَمال القُرَّاء » ، وله النَّظْمُ والنَّثْر وكانَ يَترَّخصُ في إقْراء اثْنَين فأكثر كلّ واحدٍ في سُورَة ، وفي هـٰذا خِلافُ السُّنَّة ، لأنَّنا أُمِرْنا بالإنْصَات إلىٰ قارىء لنَفهَمَ ونَعْقلَ ونَتدبَّرَ .

وقد وَفِدَ على السُّلطانِ صَلاح الدِّين عَكا في سنة سِتٍّ وثَمانين زَمَنَ المُحاصَرَة فامْتدَحَه بقَصيدَة طَويلة ، واتَّفقَ أنَّه امْتدح أيضاً الرَّشِيدَ الفارقيَّ ، وبينَ المَمْدوحَين في المَوْت أزْيدُ من مئة عام .

قال الإمامُ أبو شامة : وفي سنة ثلاث وأربعين وسِتِّ مئة تُوفِّي شَيخُنا عَلمُ الدِّين عَلاَّمَةُ زَمانِه وشَيخُ أوانِه بمَنزِله بالتربة الصَّالحيَّة[1] .

(هـ) مُتَشابِه القُرآن :

عن خالدِ بنِ خِدَاش قال : شَهِدْتُ حَمَّادَ بنَ زَيْد في آخِرِ يومٍ ماتَ فيه ، فقالَ : أُحدِّثكم بحَديث لمْ أحدِّث به قَطُّ ، إنِّي أكْرَهُ أنْ ألْقَى الله لمْ أُحدِّثْ به ، سَمعتُ أيُّوبَ يُحدِّثُ عن عِكْرِمةَ قال : إنَّما أنْزَلَ اللهُ مُتَشابِهَ القُرآنِ ليُضِلَّ به .

وقال الذهبيُّ : هـٰذه عِبارَةٌ رَديئَةٌ ، بلْ إنَّما أنْزَلَه الله تعالىٰ لِيَهدِيَ به المؤمنينَ ، وما يُضلُّ به إلاَّ الفاسِقينَ ، كما أخْبرَنا عزَّ وجَلَّ في سُورة البَقَرَة .

ماتَ عِكرِمَةُ بالمَدينة سَنةَ خَمس ومئة .

خرَّجَ له مُسلمٌ مَقْروناً بطاوُوس في الحَجِّ ، فالذين أهْدروه كبارٌ ، والذين احْتجُّوا به كبارٌ واللهُ أعلَمُ بالصَّواب[2] .

(د) دُعَاء خَتْم القُرآن في السُّجود :

عن عبد الكَريم السُّكَّري قال : كان عبدُ الله بن المبارك يُعجُبه إذا خَتمَ القُرآنَ أنْ يَكونَ دُعاؤُه في السُّجود[3] .

---

(١) انظر السير : (السَّخاويّ) ٢٣/ ١٢٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٦ .

(٢) انظر السير : (عِكرِمَة) ٥/ ١٢ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٥٧٧ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧/٧٦٩ .

(ز) رُؤىٰ تَحثُّ على الاعْتِناء بالقُرآن :

وعن نَوْفَل قال : رَأيتُ ابنَ المُبارَك في النَّوم ، فقلتُ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قال : غَفرَ لي برِحْلَتي في الحَديث عَليكَ بالقُرآنِ عَليكَ بالقُرآن .

ماتَ سنةَ إحْدىٰ وثمانينَ ومئة[1] .

وعن عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، سَمعتُ أبي ، يقولُ : رَأيتُ رَبَّ العِزَّة في المَنام ، فقُلتُ : يا رَبِّ ، ما أفْضَل ما تَقرَّبَ به إليكَ المُتقَرِّبون ؟ قال : بكَلامي يا أحمَد قلتُ : يا رَبِّ ، بفَهْمٍ ، أوْ بِغَير فَهْم ؟ قال : بفَهْم وبغَير فَهْم[2] .

قال السَّمْعانيُّ : رُؤيَ أبو مَنْصور الخيَّاط بعدَ مَوْتِه ، فقال : غَفرَ الله لي بتَعْليمي الصِّبْيانَ الفاتِحَة ماتَ سنةَ تسع وتسعين وأربع مئة[3] .

(ح) الدُّعابَةُ والمَزْحُ فيما يَتعلَّقُ بالقُرآن لا يَجوز :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة عُثمانَ بنِ أبي شَيْبَة : وهو مع ثقَتِه صاحبُ دُعابَة حتىٰ فيما يَتصحَّفُ من القُرآن العَظيم ، سامَحَه الله[4] .

وقال الدارَقُطنيُّ : أخْبرَنا أحمدُ بنُ كامل ، حَدَّثني الحَسنُ بنُ الحباب أنَّ عُثمانَ ابنَ أبي شَيْبة ، قَرأ عَليهم في التَّفْسير : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[5] .

فقالَها : ألفْ لام ميم .

قال الذهبيُّ : هو : إمَّا سَبقُ لِسان ، أو انْبساطٌ مُحرَّم[6] .

وقال القاضي عليُّ بنُ محمّد بنِ كاس ، حدَّثنا إبراهيمُ الخصَّاف قال : قَرأ عَلينا

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ١/٧٧٢ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٥١ .
(٣) انظر السير : (الخيَّاط) ١٩/ ٢٢٢ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٧٣ .
(٤) انظر السير : (عثمان بن أبي شيبة) ١١/ ١٥١ـ ١٥٤ ، وانظر النزهة : ١/٩١٧ .
(٥) سورة الفيل ، الآية : ١ .
(٦) انظر السير : (عثمان بن أبي شيبة) ١١/ ١٥١ـ ١٥٤ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٧ .

عُثمانُ بنُ أبي شَيْبَة في التَّفْسير : ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ﴾ السَّفِينَة ، فنادَوا ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾[1] .

فقال : أنا وأخي لا نَقرأُ لعَاصِم .

وقد أكثرَ عنه البُخاريُّ في « صَحيحِه » .

وقال مُطَيَّن : ماتَ عُثمانُ بنُ أبي شَيْبَة في سَنةِ تِسْع وثَلاثين ومئتين[2] .

ثانياً : القِراءاتُ والتَّجْويد :

١ـ مَنْ قَرأَ القُرآنَ بالقِراءاتِ العَشْرِ وعُمْرُه عَشرُ سَنوات :

جاء في تَرجمَة أبي اليُمن زَيدِ بنِ الحَسنِ بنِ زَيدِ الكِنْديِّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : حَفظَ القُرآنَ وهو صَغيرٌ مُمَيَّز ، وقَرأَه بالرِّوَايات العَشْر ، وله أعْوام ، وهـٰذا شَيءٌ ما تَهيَّأَ لأحَدٍ قَبلَه ، ثم عاشَ حتى انتَهىٰ إليه عُلوُّ الإسْناد في القِراءاتِ والحَديث .

كان حَنْبَليَّاً ، فانتُقلَ حَنفيّاً ، وبَرعَ في الفِقْه ، وفي النَّحْو ، وأفْتَىٰ ودَرَّس وصَنَّف ، وله النَّظْمُ والنَّثر ، وثِقَةٌ في نَقْلِه ، ظَريفاً كَيِّساً ، ذا دُعابَة وانْطِباع .

قال ابنُ النجّار : وكان الملكُ المُعظَّم يَقرأُ عليه الأدَبَ ، ويَقصدُه في مَنزِلِه ويُعظِّمُه .

وكان بَهيّاً وَقُوراً ، أشْبَهَ بالوُزراء من العُلماء لجَلالَته وعُلوِّ مَنزِلَتِه ، وكان أعلمَ أهلِ زَمانِه بالنَّحْو ، أظُنُّه يَحفَظُ « كتابَ سيبَوَيْه » ما دَخلتُ عليه قطُّ إلاَّ وهو في يدِه يُطالِعُه ، وكان في مُجلَّد واحد رَفيع يَقرؤُه بلا كلفَة وقد بلغَ التسْعين ، وكان قد مُتِّعَ بسَمعِه وبَصرِه وقوَّتِه[3] .

٢ـ رُؤيا فيها حَثٌّ علىٰ قِراءاتٍ بعَيْنِها :

عن أبي عُثمانَ المازِنيِّ قالَ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فقَرأتُ

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٧٠ .

(٢) انظر السير : (عثمان بن أبي شيبة) ١١/١٥١ـ١٥٤ ، وانظر النزهة : ٤/٩١٧ .

(٣) انظر السير : (الكِنْديّ) ٢٢/٣٤ـ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٦٣ .

عليه سُورةَ طَهَ فقُلتُ : ﴿مكاناً سِوى﴾[1] ، فقالَ : اقرأ ﴿سُوى﴾ قِراءَةَ يَعْقوبَ ، (يَعني الحَضْرَميَّ)[2] .

٣ـ قِراءاةُ حَمْزَة بن حَبيب وما دارَ حَوْلها :

قال الثوريُّ : ما قَرأَ حَمزَةُ حَرفاً بأثَر (يَعني حَمْزَةَ بنَ حَبيب)[3] .

قال أسودُ بنُ سَالم : سَألتُ الكسائيَّ عن الهَمْزِ والإدْغامِ ، ألَكُمْ فيه إمامٌ ؟ قال : نعَم حَمْزةُ كان يَهْمز ويَكسِر ، وهو إمامٌ ، لوْ رَأيتَه لقرَّتْ عَينُكَ من نُسُكِه[4] .

قال الذهبيُّ : كَره طائفةٌ من العُلماء قِراءةَ حَمْزَة لما فيها من السَّكتِ ، وفَرْطِ المَدِّ واتِّباعِ الرَّسْم والاضْجاع[5] ، وأشياءَ ، ثم اسْتقرَّ اليومَ الاتِّفاقُ علىٰ قَبولِها وبَعضٌ كان حَمْزَةَ لا يَراهُ[6] .

وبلَغَنا أنَّ رَجلاً قالَ له : يا أبا عمَارَة! رأيتُ رَجلاً من أصْحابِك ، هَمَزَ حتى انْقَطَعَ زِرُّه فقالَ : لَمْ آمُرْهم بهـٰذا كلِّه[7] .

وعن حَمْزَة قال : إنَّ لهـٰذا التَّحْقيق حدّاً يَنتَهي إليه ثم يَكونُ قَبيحاً[8] .

وعن حَمْزَة : إنَّما الهَمزَةُ رياضَة فإذا حَسَّنَها سَلَّها .

وفاتُه في سَنة ستٍّ وخَمسين ومئة ، رَحمَه الله ، ظَهرَ له نحوٌ من ثمانين حَديثاً ، وكان من الأئمَّة العَاملين[9] .

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٨.
(٢) انظر السير : (يَعْقوب) ١٠/١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٨٦٣ .
(٣) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٥/٦٧٩ .
(٤) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٦/٦٧٩ .
(٥) الاضطجاع : الإمالة .
(٦) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٨/٦٧٩ .
(٧) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٩/٦٧٩ .
(٨) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١٠/٦٧٩ .
(٩) انظر السير : (حَمْزَة بن حَبيب) ٧/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٨٠ .

وقال يَعْقوبُ بنُ شَيْبَة : سَمعتُ عليَّ بنَ المَديني ، وجَعلَ يَذمُّ قِراءةَ حَمْزَة ، وقال : إنَّما نَزلَ القُرآنُ بلُغَة قُريش وهي التَّفْخيم ، فقالَ له بِشْرُ بنُ موسَىٰ : حدَّثنا نَوْفَلُ ، فقالَ ابنُ المَديني : نَوْفَلُ ثِقةٌ ، قال : سَمعتُ عبدَ الله بنَ إدْريسَ يَقولُ لحَمْزَةَ : اتَّقِ اللهَ ، فإنَّك رجلٌ تَتألَّه ، وهٰذه القِراءَةُ لَيسَت قِراءَةَ عبدِ الله ، ولا قِراءَة غَيره ، فقالَ حَمْزَةُ : أما إنِّي أتَحرَّجُ أنْ أقْرأ بها في المِحْراب قُلتُ : لم ؟ قال : لأنَّها لمْ تَكنْ قراءَةَ القَوْم قُلتُ : فما تَصنَعُ بها إذاً ؟ قال : إنْ رَجَعتُ من سَفري لأتْرُكنَّها ثم قال ابنُ إدْريس : ما أسْتجيزُ أنْ أقولَ لمَنْ يَقرأُ لحَمْزَة : إنَّه صاحبُ سُنَّة قُلتُ : اشْتُهرَ تَحذيرُ ابنِ إدْريس من ذلك واللهُ يَغفرُ له ، وقد تَلَقَّى المُسلمونَ حُروفه بالقَبولِ وأجْمَعوا اليومَ عَليها[1] .

وقال أبو عُبيد الآجُرِّيْ : سَمعتُ أبا داودَ يقولُ : قال أحمدُ بنُ سنان : سَمعتُ عبدَ الرحمَٰن بنَ مَهْدي يقولُ : لوْ كان لي عليه سُلطانٌ ـ علىٰ مَنْ يَقرأُ قِراءَةَ حَمْزَة ـ لأوْجَعتُ ظَهرَه وبَطْنَه .

قال الإمامُ الذهبي : جاء نَحوُ هٰذا عن جَماعَةٍ[2] وإنَّما ذلك عائدٌ إلىٰ ما فيها من قَبيل الأداء ، واللهُ أعلَم ، وقد اسْتقرَّ اليومَ الإجْماعُ علىٰ تَلقِّي قِراءَةِ حَمْزَة بالقَبولِ[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن إدْريس) ٩/ ٤٢ـ٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٩٦ .

(٢) قال ابن قُدامة في « المُغْني » (١/ ٤٩٢) ولم يكره أحد قراءة أحد من العشرة إلاَّ قراءة حمزة والكسائي ، لما فيهما من الكسر والإدغام والتكلُّف وزيادة المدِّ وقال ابن الجزري في « غاية النهاية » (١/ ٢٦٣) : وأمّا ما ذكر عن عبد الله ابن إدريس وأحمد ابن حنبل من كراهة قراءة حمزة ، فإن ذلك محمول علىٰ قراءة من سمعا منه ناقلاً عن حمزة ، وما آفة الأخبار إلاّ رُواتُها وقال ابنُ مجاهد : قال محمد بن الهيثم : والسبب في ذلك أن رجلاً ممّن قرأ علىٰ سُلَيم حضر مجلس ابن إدريس ، فقرأ ، فسمع ابنُ إدريس ألفاظاً فيها إفراطٌ في المَدِّ والهَمزْ وغير ذلك من التكلُّف ، فكره ذلك ابنُ إدريس ، وطعن فيه قال محمد بن الهيثم : وقد كان يكره هٰذا وينهَىٰ عنه ، قلتُ : أما كراهته الإفراط من ذلك ، فقد روينا عنه من طرق أنه كان يقول لمن يفرط عليه في المدِّ والهَمز : لا تفعل أما علمت أن ما كان فوق البياض ، فهو برَص ، وما كان فوق الجُعودَة ، فهو قطط ، وما كان فوقَ القراءة ، فليس بقراءة .

(٣) انظر السير : (عبد الرحمٰن بن مَهدي) ٩/ ١٩٢ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨١٨ .

٤ـ مَسائلُ مَتفرِّقَة :

عن نافعٍ قالَ : أدْرَكتُ عِدَّة من التابعين ، فنَظرتُ إلىٰ ما اجتمعَ عليه اثنانِ منهم فأخَذتُه ، وما شَذَّ فيه واحدٌ تَركتُه ، حتىٰ أَلَّفْتُ هـٰذه القِراءَة[١] .

واختارَ الكسائيُّ قراءَةً اشْتُهرَت ، وصارَت إحْدَى السَّبع .

قال الشافعيُّ : مَنْ أرادَ أنْ يَتبَحَّرَ في النَّحْو ، فهو عيالٌ على الكسائيِّ .

قال ابنُ الأنْباري : اجتمعَ فيه أنَّه كانَ أعلَمَ النَّاسِ بالنَّحْو ، وأوْحَدَهم في الغَريب وأوْحدَ في عِلمِ القُرآن ، كانوا يُكثِرون عليه حتىٰ لا يَضبط عليهم ، فكان يَجمَعُهم ، ويَجلسُ علىٰ كُرسيٍّ ، ويَتلو وهم يَضْبِطون عنه حتى الوُقوفَ[٢] .

قال إسْحاقُ بن إبْراهيمَ : سَمعتُ الكسائيَّ يَقرأُ القُرآنَ على النَّاسِ مرَّتَين[٣] .

وعن خلفٍ ، قالَ : كنتُ أحضُرُ بين يَدي الكسائي وهو يَتلُو ، ويُنَقِّطُونَ علىٰ قِراءَتِه مَصَاحفَهم[٤] .

وكان يَعْقوبُ الحَضْرميّ يُقرِئُ النَّاسَ عَلانيَةً بحَرْفِه بالبَصْرة في أيّامَ ابنِ عُيَيْنَةَ ، وابنِ المُبارَك ، ويَحْيى القَطَّان ، وابنِ مَهْدي ، والقاضي أبي يوسُف ، ومحمدِ بنِ الحَسَن ، ويَحْيى اليَزيدي ، وسُليم ، والشَّافعيِّ ، ويَزيدِ بنِ هارُون ، وعَددٍ كثير من أئمَّة الدِّين ، فما بَلغَنا بعدَ الفَحْص والتَّنْقيبِ أنَّ أحَداً من القُرَّاءِ ولا الفُقَهاءِ ولا الصُّلَحاءِ ولا النُّحاةِ ولا الخُلَفاءِ كالرَّشيدِ والأمينِ والمَأمُونِ أنْكَروا قراءَتَه ، ولا مَنَعوه منها أصْلاً ، ولوْ أنْكرَ أحدٌ عليه لنُقِلَ ولاشْتهَر ، بل مَدَحَها غيرُ واحدٍ ، وأقْرأَ بها أصْحابَه بالعِراقِ ، واسْتمرَّ إمامُ جامع البَصْرة بقراءَتِها في المِحْرابِ سَنين مُتطاوِلَة ، فما أنكرَ عليه مُسلمٌ ، بلْ تَلقَّاها النَّاسُ بالقَبولِ ، ولقد عُومِلَ حَمْزَة مع جَلالَته بالإنْكارِ عليه في قراءَتِه من جَماعةٍ من الكبار ، ولمْ يَجرِ مثلُ ذلك للحَضْرَميِّ

---

(١) انظر السير : (نافع) ٧/ ٣٣٦ـ٣٣٨ ، وانظر النزهة : ٧٠١/ ٣ .

(٢) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٨٠٦/ ٣ .

(٣) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٨٠٧/ ١ .

(٤) انظر السير : (الكسائي) ٩/ ١٣١ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٨٠٧/ ٢ .

أبداً ، حتىٰ نَشأ طائفةٌ مُتأخِّرون لمْ يألَفُوها ، ولا عَرفُوها ، فأنكَروها ، ومَنْ جَهلَ شيئاً عاداه ، قالوا : لمْ تتَّصِلْ بنا مُتواترةً ، قُلنا : اتَّصلَت بخَلقٍ كثيرٍ متواتَرة ، وليسَ من شَرْط التَّواتُر أنْ يصلَ إلىٰ كلِّ الأمَّة فعندَ القُرَّاء أشياءُ مُتواتِرَة دُون غَيرهم ، وعندُ الفُقَهاءِ مَسائلُ مُتواتِرَة عن أئمَّتِهم لا يَدْريها القُرَّاءُ ، وعند المُحدِّثين أحاديثُ مُتواتِرَة قد لا يكونُ سَمعَها الفُقَهاءُ ، أو أفادَتهم ظَنّاً فقط ، وعند النُّحاةِ مَسائلُ قَطعيَّة ، وكذلك اللُّغَويُّون ، وليس مَنْ جَهلَ علماً حُجَّةً علىٰ مَنْ عَلِمَه ، وإنَّما يُقالُ للجاهِلِ : تَعلَّم ، وسَلْ أهلَ العِلمِ ، إنْ كنتَ لا تَعلم ، لا يُقالُ للعالِمِ : اجْهَل ما تَعْلَم ، رَزقَنا اللهُ وإيَّاكم الإنْصافَ ، فكثيرٌ من القِراءاتِ تدَّعون تواتُرها ، وبالجَهْد أنْ تَقْدِروا علىٰ غَيرِ الآحادِ فيها ، ونحنُ نَقولُ : نَتلُو بها وإنْ كانَت لا تُعرَف إلاَّ عن واحدٍ ، لكَونِها تُلقِّيَت بالقَبولِ ، فأفادَت العِلمَ ، وهـٰذا واقعٌ في حُروفٍ كَثيرة ، وقِراءاتٍ عَديدَة ، ومَنِ ادَّعَىٰ تَواتُرَها فقد كابرَ الحِسَّ ، أمَّا القُرآنُ العَظيمُ سُورُه وآياتُه فمُتَواتِرٌ ، ولله الحَمدُ ، مَحْفوظٌ من الله تَعالَىٰ ، لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يُبدِّلَه ولا يَزيدَ فيه آيةً ولا جُملةً مُستقلَّة ، ولوْ فَعلَ ذلكَ أحدٌ عَمْداً لانسَلخَ من الدِّينِ ، قالَ اللهُ تَعالَىٰ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١] .

وأوَّلُ مَنِ ادَّعَىٰ أنَّ حَرْفَ يَعقوبَ من الشَّاذِّ أبو عَمرو الدَّاني ، وخالَفَه في ذلك أئمَّةٌ ، وصارَ في الجُملَة في المَسْألَةِ خِلافٌ حادِثٌ واللهُ أعلَم .

قال العلاَّمَةُ أبو حاتم السِّجِسْتاني : يَعْقوبُ أعْلمُ مَنْ رَأيْنا بالحُروفِ والاخْتلافِ في القُرآنِ وعِلَلِه ومَذاهِبه ومَذاهبِ النَّحْو[٢] .

وجاء في ترجمة خَلفِ بنِ هِشام ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وله اخْتيارٌ في الحُروف صَحيحٌ ثابتٌ ليس بشاذٍّ أصْلاً ، ولا يَكادُ يَخْرجُ فيه عن القِراءاتِ السَّبْعِ ، وأخذَ عنه خَلقٌ لا يُحْصَون[٣] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ .

(٢) انظر السير : (يَعْقوب) ١٠/١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٨٦٢ .

(٣) انظر السير : (خَلفُ بن هشام) ١٠/٥٧٦ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/٨٩٥ .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمَة ابنِ شَنَبُوذ : اعْتمَدَه أبو عَمرٍو الدَّاني ، والكبارُ ، وَثُوقاً بنَقلِه وإتْقانِه لكنَّه كانَ له رأيٌ في القِراءَةِ بالشَّواذِّ التي تُخالِفُ رَسْمَ الإمام ، فنَقموا عليه لذلك ، وبالَغوا وعَزَّروه والمسألةُ مُختلَفٌ فيها في الجُملَة وما عارَضُوه أصْلاً فيما أقرأ به ليَعْقوبَ[1] ، ولا لأبي جَعْفَر[2] ، بلْ فيما خَرجَ عن المُصحَف العُثماني وقد ذَكرتُ ذلكَ مُطوَّلاً في طَبقَاتِ القُرَّاء[3] .

قال أبو شامَة : كان الرِّفْقُ بابن شَنَبُوذ أولىٰ ، وكان اعتقالُه وإغْلاظُ القَولِ له كافياً وليسَ كان بمُصيب فيما ذَهبَ إليه ، لكن أخْطاؤُه في واقِعَةٍ لا تُسقِطُ حَقَّه من حُرمَة أهلِ القُرآنِ والعِلْم .

مات ابنُ شَنَبوذ سَنةَ ثمان وعشرين وثلاث مئة ، وهو في عَشْر الثمانين أو جاوَزَه[4] .

وقال السَّمْعانيُّ : كان أبو محمَّد عبدُ الله بنُ سبْطِ الخَيَّاط مُتَواضِعاً مُتوَدِّداً ، حَسنَ القِراءَة في المِحْرابِ ، خُصُوصاً لَيالِيَ رَمضانَ ، وقد تَخرَّجَ عليه خَلقٌ ، وخَتَموا عليه ، وله تَصانيفُ في القِراءاتِ وخُولِفَ في بَعضِها ، وشَنَّعوا عليه ثم سَمعتُ أنَّه رَجعَ عن ذلك .

وقال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزي : ما رَأيتُ أكثرَ جَمعاً من جَمعِ جِنازَتِه .

تُوفِّي سَنةَ إحْدىٰ وأربَعين وخَمسِ مئة[5] .

وأقْرأ السَّخاويُّ النَّاسَ دَهْراً ، وما أسْندَ القِراءاتِ عن الغَزْنَويِّ والكِنْديِّ ، وكان

---

(١) يعقوب بن إسحاق ، أحد القرَّاء العشرة ، تُوفِّي سنة ٢٠٥هـ .

(٢) أبو جَعْفر المَخْزومي ، يزيدُ بن القَعْقاع ، أحدُ القُرَّاء العشرة ، تابعيٌّ مَشهور كبير القدر ، تُوفِّي سنة ١٣٠هـ .

(٣) انظر السير : (ابنُ شَنَبوذ) ١٥/ ٢٦٤ـ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٢٥ .

(٤) انظر السير : (ابنُ شَنَبوذ) ١٥/ ٢٦٤ـ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٥ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن عليّ بن أحمد ، سبطُ الخيَّاط) ٢٠/ ١٣٠ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٧ .

أعْلَىٰ إسْناداً من الآخَرين ، امْتَنعَ من ذلك لأنَّه تَلا عليهما بـ « المُبْهِج » ولمْ يكُنْ بأَخَرَة يَرى الإقْراءَ به ولا بما زادَ على السَّبْعِ ، فقيلَ : إنَّه اجْتَنبَ ذلكَ لمَنامٍ رَآه .

وكان إمَاماً في العَربيَّة ، بَصيراً باللُّغَة ، فَقيهاً ، مُفْتياً ، عَالِماً بالقِراءاتِ وعِلَلِها ، مُجوِّداً لها ، بارِعاً في التَّفْسيرِ صَنَّفَ وأقْرأ وأفادَ ، ورَوى الكثيرَ ، وبَعُدَ صيتُه وتَكاثَرَ عليه القُرَّاءُ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (السَّخاويّ) ٢٣/ ١٢٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٦ .

(٢) التَّفْسِير

تَفْسيرُ آيات :

عن خالدٍ الحذَّاء ، قال : سألَ الرجلُ الحَسَنَ البَصْريَّ فقال : ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾[1] قال : أهلُ رَحمَتِه لا يَخْتلِفون ، ولذلكَ خَلقَهم ، خَلقَ هؤلاءِ لجنَّتِه ، وخَلقَ هـٰؤلاء لناره ، فقُلتُ يا أبا سَعيد آدَمُ خُلِقَ للسَّماءِ أمْ للأرْضِ ؟ قال : للأرضِ خُلِقَ ، قُلتُ : رَأيتَ لوِ اعْتصَمَ فلمْ يأكُلْ من الشَّجرَةِ ؟ قال : لمْ يكنْ بُدٌّ من أنْ يأكلَ منها إنَّه خُلقَ للأرضِ ، فقُلتُ : ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾[2] قال : نَعَم ، الشَّياطينُ لا يُضلُّون إلاَّ مَنْ أحبَّ اللهُ له أنْ يَصْلَى الجَحيم[3] .

وعن سُفيانَ الثَّوري : ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾[4] ،[5] قال : نُسْبِغُ عليهم النِّعَم ونَمْنَعُهُم الشُّكْرَ[6] .

وعنه ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[7] قال : اسْتِئذانُ المَلائكَةِ عَليهم[8] .

قال معدانُ ـ الذي يَقولُ فيه عبدُ الله بنُ المُبارَك : هُوَ من الأبْدال[9] سَألتُ الثَّوْريَّ

---

(١) سورة هود ، الآيتين : ١١٨ ، ١١٩ .
(٢) سوة الصافات ، الآيتين : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٣) انظر السير : (الحَسن البَصْريّ) ٤/ ٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٦٢ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٢ .
(٥) سورة القلم ، الآية : ٤٤ .
(٦) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/٦٩٧ .
(٧) سورة الإنسان ، الآية : ٢٠ .
(٨) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٦٩٩ .
(٩) قوم من عباد الله الصالحين ، يهتدون بكتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، ويتصفون بحسن الخلق ، وصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر ، يستجيب الله دعاءهم ، ولا يخيب رجاءهم ، ورد في حقهم أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أوردها السخاوي في « المقاصد الحسنة » ص ٨ ـ ١٠ ، وتكلم عليها فراجعه .

عن قَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[1] ، فقال : عِلْمُهُ[2] .

تَفْسيرُ آيةٍ في ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ مَجْلِساً :

قيلَ : إنَّ شَيخَ الإسلام عبد الله الهَرَوي عَقدَ علىٰ تَفسيرِ قولِه تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾[3] ثلاثَ مئة وسِتِّينَ مَجْلساً .

تُوفِّيَ شَيخُ الإسلام الهَرَويُّ سنةَ إحدىٰ وثمانين وأربع مئة عن أربَع وثَمانين سَنَةً وأشْهُر[4] .

تَفْسيرُ آيةٍ في مُجلَّد :

وقال ابنُ عقيل في « فُنونه » : قدِمَ علينا من مِصْرَ القاضي أبو يوسُف القَزْويني ، وكان يَفتخرُ بالاعْتزال ، ويتوسَّعُ في قَدْح العُلماء ، وله جُرْأَةٌ ، وكان إذا قَصدَ بابَ نظام المُلك ، يقولُ : استأذنوا لأبي يوسُف المُعْتَزليِّ ، وكان طَويلَ اللِّسان بعلمٍ تارة ، وبسَفَهٍ تارةً ، لم يكن مُحَقِّقاً إلاَّ في التفسير ، فإنَّه لَهجَ بذلك حتىٰ جَمعَ كتاباً بلغ خمسَ مئة مُجلَّد ، فيه العَجائبُ ، رأيتُ منه مُجلَّدَةً في آيةٍ واحدة ، وهي ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾[5] ، فذكرَ السِّحْرَ والملوك الذين نفَق عليهم السِّحْرُ ، وتأثيراتِه وأنْواعِه[6] .

أسْبابُ نُزُول :

عن قَتادَة : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾[7] قال : تَصدَّقَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ عَوْف بشَطرِ مالِه أرْبَعةِ آلافِ دينار فقال أُناسٌ من المُنافقين : إنَّ عبدَ الرحمَـٰن لعَظيمُ الرِّياء[8] .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٤ .
(٢) انظر السير : (سفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٩/٩٩٦ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠١ .
(٤) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام) ١٨/ ٥٠٣ـ٥١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٨ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .
(٦) انظر السير : (أبو يوسف القَزْويني) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٨ .
(٧) سورة التوبة ، الآية : ٧٩ .
(٨) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عَوْف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٠ .

وعن أبي عُثمانَ أنَّ سعدَ بنَ أبي وَقَّاص قال : نَزلَتْ هـٰذه الآيةُ فيَّ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ ﴾[1] قالَ : كُنتُ بَراً بأمِّي ، فلمَّا أسْلَمتُ ، قالت : يا سَعدُ! ما هَـٰذا الدِّينُ الذي قد أحْدَثْتَ!! ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَك هـٰذا ، أوْ لا آكُلُ ، ولا أشْربُ حتىٰ أمُوتَ ، فتُعَيَّرَ بي ، فيُقالُ : يا قَاتِلَ أمِّهِ ، قُلتُ : لا تَفْعَلي يا أُمَّه ، إنِّي لا أدَعُ دِيني هـٰذا لشيء ، فمَكَثَتْ يوماً لا تأكُلُ ولا تَشرَبُ ولَيلةً ، وأصْبَحَتْ وقد جُهِدَت ، فلمَّا رَأيتُ ذلكَ ، قُلتُ : يا أُمَّه! تَعْلَمينَ والله لوْ كانَ لك مِئَةُ نَفْسٍ ، فخَرجَت نَفْساً نَفْساً ، ما تَركتُ ديني إنْ شِئتِ فكُلِي أو لا تأكُلي فلمَّا رَأتْ ذلكَ أكَلَتْ[2] .

عن أسلم ، عن أبيه قال : ما كنَّا نَدعو زَيدَ بنَ حارثة إلاَّ زَيْدَ ابن محمّد ، فنزلت : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[3] .

وعن أبي عَمرو الشَّيْباني قال : أخْبرَني جَبَلَةُ بنُ حَارِثَة قال : قَدمتُ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقُلتُ : يا رسُولَ الله! ابْعَثْ معي أخي زَيْداً قال صلى الله عليه وسلم : « هُوَ ذَا فإنِ انْطَلَقَ ، لَمْ أَمْنَعْهُ » ، فقال زيدٌ : لا والله! لا أخْتارُ عليكَ أحداً أبداً قال : فرَأيتُ رَأيَ أخِي أفْضَلَ من رَأيي[4] .

واستُشهد عبدُ الله بنُ عبدِ الله بن أُبَيِّ بن سَلول يَومَ اليَمامَة ، وقد ماتَ أبُوه سَنَةَ تسْع ، فألْبَسَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَميصَه وصَلَّىٰ عليه ، واسْتَغفرَ له إكراماً لولَدِه ، حتىٰ نَزلَت ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ ﴾ الآية[5] ، [6] .

وعن طَلْحَة بنِ خِرَاش ، سَمِعَ جابِراً يقولُ : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخبِرُكَ أنَّ الله كلمَ أبَاكَ كفَاحاً ، فقَالَ : يا عَبدِي! سَلْني أُعطِكَ ، قَالَ :

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٨ .
(٢) انظر السير : (سعد بن أبي وَقَّاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٤ .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٥ .
(٤) انظر السير : (زَيد بن حارثة) ١/ ٢٢٠ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢ .
(٥) سورة التوبة ، الآية : ٨٤.
(٦) انظر السير : (عبد الله بن عبد الله بن أُبَيّ) ١/ ٣٢١ـ ٣٢٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٠ .

أَسْأَلُكَ أنْ تَرُدَّنِي إلى الدُّنْيا فأُقتَلُ فِيْكَ ثانِياً ، فقَالَ : إنَّه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أنَّهُم إلَيْهَا لا يُرْجَعونَ قَالَ : يا رَبِّ! فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي ، فأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1] ،[2] .

وعن سَعدٍ قال : كُنا مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم سِتَّة نفر ، فقال المشركون : اطْرُدْ هَؤلاء عَنكَ فَلا يَجْتَرؤُونَ عَلينا ، وكُنتُ أنا وابنُ مَسْعود وبِلالٌ ورَجلٌ من هُذَيْل وآخَران ، فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ الآيَتين[3] ،[4] .

وقال عُرْوَةُ : كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم مع رِجالٍ من قُرَيش منهم عُتْبَة بن رَبيعَة ، فجاء ابنُ أُمِّ مَكتومٍ يَسألُ عن شَيء ، فأعْرضَ عنه ، فأُنْزِلَت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾[5] ،[6] .

عن البَراءِ قالَ : لمَّا نَزلَت : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ دَعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم زَيْداً ، وأمَرَه ، فجاءَ بكَتف وكَتبَها ، فجاءَ ابنُ أُمِّ مَكتوم ، فشَكا ضَرارَتَه ، فنَزلَت : ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾[7] ،[8] .

وعن أبي عُبَيْدَة بنِ محمَّدِ بنِ عَمَّارَ بنِ ياسِر قالَ : أَخَذَ المشركون عَمَّاراً ، فلَمْ يَترُكوهُ حتىٰ نالَ من رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، وذَكَرَ آلِهَتَهم بخَير ، فلمَّا أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال : ما وَراءَك ؟ قال : شَرٌّ يا رسُولَ الله والله ما تُركْتُ حتىٰ نِلْتُ منكَ ، وذَكرتُ آلِهَتَهم بخيرٍ ، قال صلى الله عليه وسلم : « فَكيْفَ تَجد قَلْبَكَ ؟ » قال : مُطْمَئنٌ بالإيمان قال صلى الله عليه وسلم : « فَإنْ عَادُوا فَعُدْ »

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عَمرو بن حِرام) ١/ ٣٢٤ـ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢ .
(٣) سورة الأنعام ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) انظر السير : (بلال بن رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٥ .
(٥) سورة عبس ، الآيتان : ١ ، ٢ .
(٦) انظر السير : (ابن أمِّ مَكتوم) ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٧ .
(٧) سورة النساء ، الآية : ٩٥ .
(٨) انظر السير : (ابن أمِّ مَكتوم) ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٧ .

وعن قَتادَة : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾[1] نزلت في عمار[2] .

وعن أبي وَائِلٍ ، قال لنا الأشْعَثُ بنُ قَيْس ، فيَّ نَزلَت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾[3] ، خاصَمتُ رجلاً إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالَ : « أَلَكَ بَيِّنَةٌ ؟ » قلتُ : لا قالَ صلى الله عليه وسلم : « فَيَحْلِفُ ؟ » قُلتُ : إذاً يَحلفُ فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ حَلَفَ علىٰ يَمِين فَاجِرَةٍ لِيَقْتَطِعَ بها مَالاً ، لَقِيَ اللهَ وهُوَ عَليْهِ غَضْبانٌ »[4] .

عن عامِرِ بنِ سَعْد ، عن أبيه : قال : ما سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقولُ لأحَدٍ : أنَّه مِنْ أهْلِ الجَنَّة إلاَّ لعَبدِ الله بنِ سَلام ، وفيه نَزلَت : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾[5] ،[6] .

وعن عبدِ الله بنِ سَلام ، قال : قَعَدْنا نفَرٌ من أصْحَابِ رسُولِ الله ، فتَذاكرْنا ، فقُلنا : لَوْ نعلَمُ أيَّ الأعْمَالِ أحبُّ إلى الله ، لعَمِلْنَا فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[7] حتىٰ خَتمَها[8] ، قال : فقرَأها عَلينا رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ خَتَمَهَا[9] .

وخرَّج التِّرمِذيُّ من حَديثِ ابنِ عُمَرَ ، قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يَومَ أُحُدٍ : « اللَّهُمَّ الْعَنْ أبا سُفْيانَ! اللَّهُمَّ الْعَنِ الحارِثَ بنَ هِشام! اللَّهُمَّ الْعَنْ صَفْوانَ بنَ أُمَيَّة » .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٠٦ .
(٢) انظر السير : (عمّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦-٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٨٤ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٧٧ .
(٤) انظر السير : (الأشْعَث بن قَيْس) ٢/ ٣٧-٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢١٥ .
(٥) سورة الأحقاف ، الآية : ١٠ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن سَلام) ٢/ ٤١٣-٤٢٦ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٥ .
(٧) سورة الصَّف ، الآيتين : ١ ، ٢ .
(٨) أي قرأها ابنُ سَلام رضي الله عنه حتىٰ خَتمها.
(٩) انظر السير : (عبد الله بن سَلام) ٢/ ٤١٣-٤٢٦ ، وانظر النزهة : ٥/٢٨٥ .

فنَزَلَت : ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[1] فتاب عَليهِم ، فأسْلَموا ، فحَسُنَ إسْلامُهم .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أَحسَنُهم إسْلاماً الحَارِثُ[2] .

وعَن زَيْدِ بنِ أرْقَم : كُنتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في غَزاة ، فسَمعتُ عبدَ الله ابنَ أُبَيِّ بنِ سَلول يَقولُ : لا تُنْفِقُوا علىٰ مَنْ عند رسُولِ الله حَتّىٰ يَنفَضُّوا من عِندِه ولَئِنْ رَجَعْنا إلى المَدينَة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منْهَا الأذَلَّ ، فحَدَّثتُ به عَمِّي فأتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخْبَرَه ، فدَعاني رسُولُ الله ، فأخْبَرتُه ، فبَعثَ إلىٰ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ وأصْحابِه ، فجَاؤُوا ، فحَلَفوا بالله ما قالوا ، فصَدَّقه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وكذَّبني ، فدَخلَني من ذلك هَمٌّ ، وقال لي عَمِّي : ما أَرَدْتَ إلىٰ أنْ كذَّبَكَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ومَقتَك ، فأنْزَلَ اللهُ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ ﴾[3] فدَعاهُم رسُولُ الله فقَرأَهَا عَليهِم ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ قَدْ صَدَّقَكَ يا زَيْدُ » .

توفي زَيدُ بنُ أرْقَم سنةَ ستٍّ وسِتِّين[4] .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٢٨ .

(٢) انظر السير : (صَفْوان بن أميّة) ٢/ ٥٦٢ـ٥٦٧ ، وانظر النزهة : ١/٣٠٥ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية : ١ .

(٤) انظر السير : (زَيْد بن أرْقَم) ٣/ ١٦٥ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/٣٥٩ .

(٣) الحديث

١ـ تَفْسيرُ أحاديث :

عن أبي هُريرة ، يبلغ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « لَيَضْرِبَنَّ النَّاسُ أكبَادَ الإبِلِ في طَلَبِ العِلْمِ ، فَلا يَجِدُونَ عَالِماً أَعْلمَ مِنْ عَالِمِ المدِينَة » .

وذَكرَ أبو المُغِيرَة المَخْزومي أنَّ مَعْناه : ما دَامَ المُسلمونَ يَطلُبونَ العِلمَ لا يَجدون أعلَمَ من علم بالمَدينة فيكون علىٰ هـٰذا : سَعيدُ بنُ المُسيِّب ، ثم بعدَه مَنْ هو من شُيوخ مالِك ، ثم مالِك ، ثم مَنْ قام بعدَه بعلمِه ، وكان أعلمَ أصحابِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان عالمَ المَدينَة في زَمانِه بعدَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحِبه ، زَيدُ بنُ ثابت ، وعائشةُ ، ثم ابنُ عُمَر ، ثم سَعيدُ بنُ المُسيِّب ، ثم الزُّهْري ، ثم عُبَيدُ الله بنُ عُمَر ثم مالِك .

وعن ابنِ عُيَيْنَة قال : مالكٌ عالمُ أهلِ الحِجَاز ، وهو حُجَّةُ زَمانِه .

وقال الشَّافعيُّ ـ وصَدقَ وبَرَّ ـ : إذا ذُكرَ العُلماءُ فمالكٌ النَّجْمُ .

ولم يكنْ بالمدينَة عالم من بعد التَّابعين يُشْبِهُ مالكاً في العلمِ ، والفِقْه ، والجَلالَة ، والحِفْظ ، فقد كان بها بعد الصَّحابة مثلُ سَعيدِ بنِ المُسيِّب ، والفُقَهاء السَّبعَة[١] والقاسِمُ ، وسالِم ، وعِكرمَة ، ونافِع ، وطَبقَتهم ، ثم زَيد بن أسْلَم ، وابن شِهاب ، وأبي الزِّناد ، ويَحْيى بن سَعيد ، وصَفْوان بن سليم ، ورَبيعَة بن أبي عبد الرحْمَـٰن ، وطَبقَتهم ، فلمّا تَفانوا ، اشْتهرَ ذكرُ مالك بها ، وابنِ أبي ذِئْب ، وعبدِ العَزيز بنِ

---

(١) الفقهاء السبعة نظم أسماءهم بعضهم بهـٰذين البيتين :

إذَا قِيلَ مَنْ فِي الفِقْهِ سَبعةُ أبْحُرٍ ... فقُلْ هُم : عُبَيدُ الله ، عروةُ قاسِم
رِوَايَتُهُم لَيسَت عَنِ العلمِ خَارِجَة ... سَعيدٌ ، أبُو بكْرٍ ، سليمانُ ، خَارِجَة

الماجشُون ، وسُليمان بن بلال ، وفُلَيْح بن سُليمان ، والدَّراوردِيِّ ، وأقْرانهم ، فكان مالكٌ المُقدَّمَ فيهم على الإطْلاق ، والذي تُضرَبُ إليه آباطُ الإبل من الآفاق ، رَحمَه اللهُ تَعالىٰ[١] .

وقال عبَّاسٌ الدُّوريُّ ، سَمعتُ يَحْيىٰ بنَ مَعين يقولُ في قولِه صلى الله عليه وسلم : « لا تَمْنَعْهُ نَفْسَهَا وَلَوْ كانَتْ عَلىٰ قَتَبٍ » قال : كانت المرأةُ في الجاهليّة إذا أرادَت أنْ تَلدَ تقعدُ علىٰ قَتْب ليكونَ أسْرعَ لولادَتِها[٢] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ الحَسنَ بنِ أحمدَ بنِ موسَىٰ ، سَمعتُ أبا عبد الله البُوْشَنجي يقولُ في مَعْنىٰ قولِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كانَ القُرْآنُ في إهَابٍ مَا مَسَّتْهُ النَّارُ » ، قال : مَعْناهُ : أنَّ مَنْ حَملَ القُرآنَ وقَرأَه ، لَمْ تَمسَّهُ النَّارُ[٣] .

وقال أبو سَعيد النقَّاش : كان ابنُ سَمعون يرجِعُ إلىٰ عِلمِ القُرآن وعِلمِ الظَّاهِر مُتَمسِّكاً بالكِتابِ والسُّنَّة ، لَقيتُه وحَضرْتُ مَجلِسَه ، سَمعتهُ يُسألُ عن قولِه : « أنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكرَنِي » قال : أنا صائنُه عن المَعْصيَة ، أنا مَعَه حيثُ يَذكُرُني ، أنا مُعينُه .

تُوفِّي ابن سَمعون سَنةَ سَبع وثمانين وثلاث مئة[٤] .

٢ـ تَصْحيحُ عِبارَة رَديئة جاءَت عن واحدٍ من السَّلف في نَقْدِ حَديثٍ من الأحاديث :

قال أبو أحمَد بنُ عَدي : سَمعتُ عَليَّ بنَ عبدِ الله الدَّاهريَّ يقولُ : سَألتُ ابنَ أبي داود عن حَديثِ الطَّيْر[٥] ، فقال : إن صح حديث الطير فنبوَّةُ النبيِّ صلى الله عليه

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢٦ .

(٢) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٣ .

(٣) انظر السير : (البُوْشَنْجيّ) ١٣/ ٥٨١ـ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٨ .

(٤) انظر السير : (ابنُ سَمْعون) ١٦/ ٥٠٥ـ٥١١ ، وانظر النزهة : ١/١٣١١ .

(٥) وأخرجه الحاكم من طريق سليمان بن بلال ، عن يحْيى بن سعيد ، عن أنس قال : كنتُ أخدمُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم له فرخ مشوي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ ائتني بأحبِّ خلقكَ إليك يأكلُ معي هـٰذا الطير ، فقلتُ اجْعَلْه رجلاً من أهلي الأنصار ، فجاء عليٌّ ، فقلتُ إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ حاجة ، ثم جاء فقلتُ ذلك ، فقال : اللَّهُمَّ ائتني كذلك ، فقلتُ ذلك ، فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « افتح ، فدخل فقال صلى الله عليه وسلم : =

وسلم باطلٌ ، لأنَّه حَكَىٰ عن حاجبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم خِيانةً ـ يَعْنِىٰ أنَساً ـ وحَاجِبُ النبيِّ لا يَكونُ خائناً .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذه عبارةٌ رديئةٌ ، وكلامٌ نحْسٌ ، بل نُبوَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم حَقٌّ قَطْعيٌّ ، إنْ صَحَّ خَبَرُ الطَّيْرِ ، وإنْ لَمْ يَصِحَّ ، وما وَجْهُ الارْتِباطِ ؟! هـٰذا أنَسٌ قد خَدمَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَبلَ أنْ يَحْتلِمَ ، وقَبلَ جَرَيان القَلَم ، فيَجُوزُ أنْ تَكونَ قِصَّةُ الطَّائر في تِلكَ المُدَّة فَرْضَنا أنَّه كان مُحْتَلِماً ، ما هو بمَعْصُوم من الخِيانَة ، بلْ فَعَلَ هـٰذه الجِنايَةَ الخَفيفَة مُتأوِّلاً ، ثمَّ إنَّه حَبَسَ عَليّاً من الدُّخولِ كما قِيلَ ، فكان ماذَا ؟ والدَّعْوَةُ النَّبويَّة قد نَفَذَت واسْتُجيبَت ، فلَوْ حَبَسَه ، أو رَدَّه مَرَّات ، ما بَقِيَ يُتَصوَّرُ أنْ يَدخُلَ ويَأكلَ مع المُصطفَىٰ سِواهُ ، اللَّهُمَّ إلاَّ أنْ يَكونَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قَصدَ بقَولِه : « إيتِنِي بِأَحَبِّ خَلْقِكَ إلَيْكَ ، يَأْكلُ مَعِي » عَدداً من الخِيَارِ ، يَصدُقُ علىٰ مَجمُوعِهِم أنَّهُم أحَبُّ النَّاسِ إلى الله ، كمَا يَصحُّ قَوْلُنا : أحَبُّ الخَلْقِ إلى الله الصَّالحُونَ ، فيُقالُ : فمَنْ أحَبُّهُم إلى الله ؟ فنَقُولُ : الصِّدِّيقُونَ والأنْبياءُ فيُقالُ : فمَنْ أحَبُّهُم إلى الله ؟ فنَقُولُ : مُحمَّدٌ وإبْراهِيمُ ومُوسَىٰ ، والخَطْبُ في ذلك يَسيرٌ وأبو لُبابَة ـ مع جَلالتهِ ـ بدَتْ منه خِيانَةٌ ، حَيثُ أشارَ لبَني قُرَيْظَة إلىٰ حَلْقِه ، وتابَ اللهُ عَليه وحاطِبٌ بدَت منه خِيانَةٌ ، فكاتَبَ قُرَيشاً بأمْرٍ تَخفَّىٰ به نَبيُّ الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوِهِم ، وغَفرَ اللهُ لحاطِب مع عِظَمِ فِعْلِهِ رضي الله عنه وحَديثُ الطَّيرِ ـ علىٰ ضَعْفِه ـ فلَه طُرقٌ جَمَّة ، وقد أفْرَدتُها في جُزء ، ولَمْ يَثْبُتْ ، ولا أنا بالمُعْتَقِدِ بُطْلانَه[1] .

وقد أخطأ ابنُ أبي داوُد في عِبارَته وقولِه ، وله علىٰ خَطئِهِ أجْرٌ واحدٌ ، ولَيسَ من

= ما حبسكَ يا عليُّ ؟ فقال : إنَّه هـٰذه آخر ثلاث كرَّات يردُّني أنس ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما حَملَكَ علىٰ ما صَنعتَ ؟ قلتُ : أحْبَبْتُ أن يكونَ رجلاً من قومي ، فقال صلى الله عليه وسلم : إن الرجلَ محبٌّ قومَه » ، وانظر أجوبة الحافظ ابن حجر علىٰ أحاديث وقعت في المصباح ٣/ ٣١٣ ، ٣١٤ و(الفوائد المجموعة) ص ٣٨٢ ، وسيذكر المصنِّفُ رأيَه بعد قليل .

(١) انظر السير : (أبو بَكر السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٧٣ .

شَرط الثِّقَةِ أنْ لا يُخْطِىءَ ولا يَغْلَطَ ولا يَسْهوَ ، والرجلُ فَمِنْ كِبَارِ عُلماء الإسْلام ، ومن أَوْثَق الحُفَّاظ ، رحمَه الله تَعالىٰ[1] .

٣ـ حَديثيَّات :

قال أبو عَمرُو بنُ الصَّلاح : رُوِّينا عن عَمروِ بنِ عليٍّ الفلاَّس ، أنه قال : أَصَحُّ الأسانيد ابن سِيرينَ عن عَبيدَةَ بنِ عَمرو عن عليّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لا تَفوُّقَ لهٰذا الإسناد مع قُوَّته علىٰ إبراهيم ، عن علقَمة ، عن عبدِ الله ، ولا على الزُّهْريِّ ، عن سالمٍ ، عن أبيه ، ثم إنَّ هٰذين الإسْنادَين رُوي بهما أحاديثُ جمَّة في الصِّحاح وليس كذلك الأوَّلُ ، فما في « الصَّحيحَين » لعَبيدَة عن عليٍّ سِوَىٰ حديثٍ واحد[2] .

قال أبُو داود : لَيسَ في أهْلِ الأهْواءِ أَصَحُّ حَديثاً من الخَوارِجِ ثُمَّ ذَكَرَ عِمْرانَ بنَ حِطَّان ، وأبا حَسَّانَ الأعْرَج[3] .

وعن عليِّ بنِ زَيْد ، حدَّثني سَعيدُ بنُ المُسيَّب بنُ حَزْن أن جَدَّه حَزْناً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ما اسْمُك ؟ » قال : حَزْن ، قال صلى الله عليه وسلم : « بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ » قال : يا رسولَ الله ، اسمٌ سمَّاني به أبَواي وعُرفْتُ به في الناس ، فسَكتَ عنه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، قال سَعيدُ : فما زلْنا تُعرَفُ الحُزونَة فينا أهلَ البَيْت[4] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هٰذا حَديثٌ مُرسَل ، ومَراسيلُ سَعيد مُحتَجٌّ بها لكن عليُّ بنُ زَيْد لَيسَ بالحُجَّة وأمَّا الحَديثُ فمَرْويٌّ بإسْناد صَحيح ، مُتَّصل ، ولفْظُه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، قال له : « ما اسْمُك ؟ » قال : حَزْن قال : « أنْتَ سَهْلٌ »

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر السِّجِسْتانيّ) ١٣/ ٢٢١ـ ٢٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٥ .
(٢) انظر السير : (عَبيدَة بن عَمرو) ٤/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/٤٣٩ .
(٣) انظر السير : (عِمران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٨١ .
(٤) انظر السير : (سَعيد بن المُسَيَّب) ٤/٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٢ .

فقال : لا أُغيِّرُ اسْماً سمَّانيه أبي ، قال سَعيدٌ : فما زالت تلك الحُزُونَة فينا بَعدُ[1]، [2] .

عن ابن عَوْن ، قال : كان إبراهيمُ والشّعْبيُّ والحَسَنُ ، يأتونَ بالحَديثِ على المَعاني ، وكان القاسِمُ وابنُ سيرين ورجاءُ يُعيدونَ الحَديثَ علىٰ حُروفِه[3] .

وقال الذهبيُّ : مَراسيلُ الحَسَن البَصْري لَيسَت بذاك ، ولَمْ يَطلُب الحَديثَ في صِباه ، وكان كَثيرَ الجِهَاد ، وصَارَ كاتباً لأميرِ خُراسَان الرَّبيعِ بنِ زِيَاد .

وقال سُليمانُ التَّيْميّ : كان الحَسَنُ يَغْزُو ، كان مُفْتي البَصْرَة جابرُ بنُ زَيْد أبو الشَّعْثاء ، ثم جاءَ الحَسَنُ فكان يُفْتي .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان رجلاً تامَّ الشَّكْل ، مَليحَ الصُّورَة ، بَهـيّاً ، وكان من الشُّجْعانِ المَوْصُوفين .

وعن أبي بُرْدَة ، قال : ما رَأيتُ أحداً أشْبَه بأصْحابِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم منه ـ يَعْني الحَسَنَ البَصْري[4] .

وعن ابنِ سِيرينَ ، قالَ : لقد أتىٰ على النَّاسِ زَمانٌ وما يُسألُ عن إسْنادِ الحَديثِ ، فلمَّا وَقعَت الفِتْنةُ سُئِلَ عن إسْنادِ الحَديث ، فيُنظَر مَنْ كانَ من أهْلِ البِدَعِ ، تُرِكَ حَديثُه[5] .

وقال البُخاريُّ : أصَحُّ الأسَانيدِ : مَالكٌ ، عن نافِع ، عن ابنِ عُمَر[6] .

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة قَتَادَةَ بن دعامة قُدوة المُفَسِّرين : هُوَ حُجَّةٌ بالإجْماعِ إذا بَيَّنَ السَّماعَ ، فإنَّه مُدَلِّسٌ مَعْروفٌ بذَلكَ ، وكان يَرَى القَدَرَ ، نَسْألُ اللهَ العَفْوَ ، ومع هـٰذا فما تَوَقَّفَ أحَدٌ في صِدْقِهِ ، وعَدالَتِه ، وحِفْظِهِ ، ولَعَلَّ اللهَ يَعْذُرُ أمْثالَه مِمَّن تَلَبَّسَ بِبدْعَة

---

(١) والحَزْنُ : ما غَلظ من الأرض ، وهو ضد السهل ، واستعمل في الخُلُق ، يقال : فلانٌ حَزون ، أي في خُلقه غِلظَة .

(٢) انظر السير : (سَعيد بن المُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨٢ .

(٣) انظر السير : (رَجاء بن حَيْوَة) ٤/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٣/٥٥٨ .

(٤) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٦٠ .

(٥) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٦/٥٦٨ .

(٦) انظر السير : (نافع) ٥/ ٩٥ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٧/٥٨٤ .

يُرِيدُ بها تَعْظيمَ البَاري وتَنْزيهَه ، وبَذَلَ وُسْعَه ، والله حَكَمٌ عَدْلٌ لَطيفٌ بِعِبادِهِ ، ولا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، ثُمَّ إنَّ الكَبيرَ من أئِمَّةِ العِلْم إذا كَثُرَ صَوابُه ، وعُلِمَ تَحَرِّيهِ للحَقِّ ، واتَّسَعَ عِلمُه ، وظَهَرَ ذَكاؤُهُ ، وعُرِفَ صَلاحُه ووَرَعُه واتِّباعُه ، يُغْفَرُ له زَلَلُه ، ولا نُضَلِّلُهُ ونَطْرَحُه ، ونَنْسَىٰ مَحاسِنَه ، نَعَم ولا نَقْتَدي به في بِدْعَتِه وخَطَئِه ونَرْجُو له التَّوبَةَ من ذلك[1] .

وجاء في تَرجمَة الأعْمَش ، قال الذهبيُّ : قد رَأَىٰ أنسَ بنَ مالك وحَكَىٰ عنه ، ورَوَىٰ عَنه ، وعن عبدِ الله بنِ أبي أوْفَىٰ علىٰ مَعْنَى التَّدْليس ، فإنَّ الرجلَ مع إمامته كان مُدَلِّساً[2] .

وعليُّ بنُ المَديني قال : قُلتُ ليَحْيَى القَطَّان : إنَّ عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ ذَرٍّ قال : أنا أتْرُكُ من أهْلِ الحَديثِ كلَّ رأسٍ في بِدْعَة ، فضَحكَ يَحيىٰ وقال : كَيفَ تَصنعُ بقَتادَة ؟ كَيفَ تَصنعُ بعُمَر بنِ ذَرٍّ كَيفَ تَصنعُ بابنِ رَوَّاد ؟! وعدَّ يَحْيىٰ قَوماً أمْسَكتُ عن ذِكْرِهم ثم قال يَحْيىٰ : إنْ تَرَكَ هـٰذا الضَّرْبَ تَرَكَ حَديثاً كثيراً[3] .

وجاء في ترجمة ابنِ إسْحاق ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد أمْسَكَ عن الاحْتجاجِ برِواياتِ ابنِ إسْحاق غيرُ واحدٍ من العُلماء لأشْياءَ منها : تَشَيُّعه ، ونُسِبَ إلى القَدَر ، ويُدلِّسُ في حَديثِه ، فأمَّا الصِّدْقُ فليسَ بمَدفُوعٍ عَنه[4] .

وذكر البُخاريُّ هنا فَصلاً حَسَناً عن رجالِه ، وإبْراهيمِ بنِ سَعد ، وصالحِ بنِ كيسَان فقد أكْثَرَ عن ابنِ إسْحاق قال البخاريُّ : ولَوْ صحَّ عن مالك تَناوُلُه من ابنِ إسْحاق فلَرُبَّما تكلَّمَ الإنْسانُ فيَرمِي صاحبَه بشيءٍ واحد ولا يَتَّهِمُه في الأمُورِ كلِّها قال : وقال إبراهيمُ بنُ المُنْذِر عن محمدِ بنِ فُلَيْح : نَهاني مالكٌ عن شَيخَينِ من قُرَيش وقد أكْثَرَ عنهما في « المُوَطَّأ » وهما ممَّن يُحْتَجُّ بهما ، ولمْ ينجُ كثيرٌ من النَّاسِ من كلامِ بَعضِ

---

(١) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/٦٠١ .
(٢) انظر السير : (الأعْمَش) ٦/ ٢٢٦ـ ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٣ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن ذَرّ) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٠ .
(٤) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٤/٦٧٤ .

النَّاسِ فيهم نَحْو ما يُذكَر عن إبراهيمَ من كلامِه في الشَّعْبيِّ وكلامِ الشَّعْبيِّ في عِكْرِمَة وفيمَن كان قبلَهم وتناوُل بعضِهم في العِرْض والنَّفْس ولمْ يَلتَفِتْ أهلُ العلم في هـٰذا النَّحْو إلاَّ ببَيان وحُجَّة ولمْ تَسْقُط عَدالَتُهم إلاَّ ببُرْهانٍ ثابتٍ وحُجَّة ، والكَلامُ في هـٰذا كَثير[١] .

وذَكرَ بعضُ الحُفَّاظ أنَّ حَديثَ الأوْزَاعيِّ نَحْو من الألفِ ـ يَعني المُسْنَد ـ أمَّا المُرْسَل والمَوْقُوف ، فألُوفٌ وهو في الشَّاميِّين نَظيرُ مَعْمَر لليَمانيِّين ، ونَظيرُ الثَّوْريِّ للكُوفيِّين ، ونَظيرُ مالِك للمَدَنيِّين ، ونَظيرُ اللَّيْث للمِصْريِّين ، ونَظيرُ حَمَّادِ بنِ سَلمَة للبَصْريِّين[٢] .

وقال العجليُّ : هشامُ الدُّسْتوائي بَصْريٌّ ثقَةٌ ، ثَبْت في الحَديث ، كان أرْوَى النَّاسِ عن ثَلاثَة : قَتادَة ، وحمَّادِ بنِ أبي سُليم ، ويَحْيى ابن أبي كَثير ، وكان يَقولُ بالقَدَر ولَمْ يَكنْ يَدعُو إليه[٣] .

قال أبو أسامة : سَمعتُ مِسْعَراً يقولُ : إنَّ هـٰذا الحَديثَ يَصُدُّكم عن ذِكرِ الله وعن الصَّلاة ، فهلْ أنتُم مُنتَهون ؟[٤] .

قال الإمامُ الذهبيُّ مُعقِّباً : هـٰذه مَسألةٌ مُختلَفٌ فيها : هل طَلبُ العِلم أفْضَل ، أو صَلاةُ النَّافلَة والتِّلاوَة والذِّكْر ؟ فأمَّا مَنْ كانَ مُخلصاً لله في طَلبِ العِلم ، وذِهنُه جَيدٌ ، فالعِلمُ أوْلَىٰ ، ولكن مع حَظٍّ من صَلاةٍ وتَعبُّد ، فإنْ رأيتَه مُجداً في طَلبِ العِلم لا حَظَّ له في القُرُبات ، فهـٰذا كَسْلانٌ مَهين ، وليسَ هو بصادقٍ في حُسن نيَّتِه ، وأمَّا مَنْ كانَ طَلبُه الحَديثَ والفِقهَ غِيَّةً ومَحبَّةً نَفسانيَّة فالعِبادَةُ في حقِّه أفْضَل ، بل ما بَينها أفْعَلُ تَفْضيل ، وهـٰذا تَقسيمٌ في الجُملَة ، فقَلَّ ـ والله ـ مَنْ رَأيتُه مُخلِصاً في طَلبِ العِلم ، دَعْنا من هـٰذا كُلِّه فليسَ طَلبُ الحَديثِ اليومَ على الوَضع المُتعارَف من حيِّز طَلبِ العِلم ، بلْ اصْطلاحٌ وطَلبُ أسانيدَ عاليَة وأخْذٌ عن شَيخٍ لا يَعي ، وتَسميعٌ لِطفْل يَلعَب

(١) انظر السير : (ابن إسْحاق) ٧/ ٣٣ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ٦٧٤/ ٥ .
(٢) انظر السير : (الأوْزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٦٨٥/ ٣ .
(٣) انظر السير : (هشام الدَّسْتوائي) ٧/ ١٤٩ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٦٨٧/ ٣ .
(٤) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٨٩/ ٧ . .

ولا يَفْهَم ، أو لرَضيعٍ يَبْكي أو لفَقيهٍ يَتحدَّثُ مع حَدَثٍ ، أو لآخَر يَنسَخ وفاضلُهم مَشغولٌ عن الحَديثِ بكتابَة الأسْماء أو بالنُّعاس ، والقارئُ إنْ كانَ له مُشارَكةٌ فلَيسَ عندَه من الفَضيلَة أكثَرُ من قِراءَة ما في الجُزْءِ ، سواءٌ تَصحَّفَ عليه الاسمُ ، أو اخْتبطَ المَتْنُ ، أو كان من المَوْضوعاتِ فالعِلمُ عن هـٰؤلاء بمعْزِلٍ ، والعَملُ لا أكادُ أراهُ بلْ أرَىٰ أمُوراً سَيئةً ، نَسألُ الله العَفْوَ[1] .

وقال عبدُ الصَّمَدِ بنِ حسَّان : سَمعتُ سُفيانَ الثَّوريَّ يَقولُ : الإسْنادُ سِلاحُ المؤمن فمَنْ لمْ يَكنْ له سِلاحٌ ، فبأي شَيء يُقاتِل ؟[2] .

وقال الذهبيُّ : وبَعضُ الحُفَّاظ يَروي حَديثَ عبدِ الله بنِ لَهيعَة ، ويَذكُرُه في الشَّواهِد[3] ، والاعْتِبارات[4] ، والزُّهْدِ ، والمَلاحِم[5] ، لا في الأصُول[6] ،[7] .

وبَعضُهم يُبالِغُ في وَهَنه ، ولا يَنْبَغي إهْدارُه ، وتُتَجنَّبُ تلكَ المَناكِير ، فإنَّه عَدلٌ في نفسِه .

أعْرضَ أصْحابُ الصِّحاحِ عن رِواياتِه ، وأخْرجَ له أبو داوُد ، والتِّرْمذيُّ ، والقَزوينيُّ ، وما رَواه عنه ابنُ وَهْب ، والمُقْرىء ، والقُدَماءُ فهو أجْوَد[8] .

قال أبو داوُد عن أحمَدَ : ما كانَ مُحدِّثَ مِصْرَ إلاَّ ابنُ لَهيعَة .

---

(١) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٩٠ .

(٢) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٨/٦٩٩.

(٣) الشَّواهد : أحاديث رُوِيَت بمعناها من طريق آخر عن صحابيٍّ آخر ، يُقالُ : رَوى الحديثَ الفُلاني ، وله شاهدٌ من رواية فلان .

(٤) الاعتبارات : أن يعمد الباحث إلىٰ حديث ، فيُعْنَىٰ به ، يبحث عن طرقه ، فينظر : هل رواه راوٍ آخر بلفظه أو معناه .

(٥) الملاحم : الأحاديث التي وُضعت في المَغازي .

(٦) قال الحافظ ابن كثير في « الباعث الحَثيث » ٦٣ ، ٦٤ ويُغتَفر في باب « الشواهد والمتابعات من الرواية الضعيف القريب الضعف ما لا يُغتفَر في الأصول كما يقع في « الصَّحيحَين » وغيرهما مثل ذلك ولهـٰذا يقول الدَّارَقُطنيُّ في بعض الضُّعَفاء : يَصْلحُ للاعتبار ، أو لا يصْلح أن يعتبر به .

(٧) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٢١ .

(٨) وقال عبد الغني بن سعيد الأزدي : إذا روي العبادلة عن ابن لَهيعَة ، فهو صحيح : عبد الله ابن المبارك ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الله بن يزيد المقرىء .

وقال البخاريُّ عن يَحْيى بن بُكَير : احْتَرقَ مَنزلُ ابنِ لَهيعَة وكُتبُه في سنة سَبعين .

قال الذهبيُّ : الظَّاهرُ أنَّه لـمْ يَحترق إلاَّ بَعضُ أصُولِه[1] .

وعن يَحْيىٰ بنِ مَعين قال : يُكتَب عن عبدِ الله بنِ لَهيعَة ما كان قبل احْتراقِ كُتبِه .

قال الذهبيُّ : عاش ثَمانياً وسَبعين سَنةً .

تُوفِّيَ سَنةَ أرْبع وسَبعين ومئة .

وكان من أوْعِيةِ العِلم ، ومن رُؤَساء أهلِ مِصْرَ ، ومُحْتَشميهِم ، أطْلَقَ المَنْصورُ ابنُ عمَّار الوَاعظُ أراضيَ لَه[2] .

وقال يَعْقُوبُ بنُ شَيْبَة : إسْمَاعيلُ بنُ عَيَّاش ثِقَةٌ عند يَحْيَىٰ بنِ مَعين وأصْحابِنا ، فيمَا رَوىٰ عن الشَّاميِّين خاصَّةً ، وفي رِوايَتِه عن أهْلِ العِراقِ وأهْلِ المَدينَة اضْطرابٌ كثير ، وكان عالماً بناحيته[3] .

وقالَ البُخاريُّ : إذا حَدَّثَ عن أهلِ بَلدِه فصَحيحٌ ، وإذا حَدَّثَ عن غَيرِهم ففيه نَظرٌ

وُلدَ سَنةَ سِتٍّ ومئة .

وأمَّا وَفاةُ إسْماعيل ، فَفي سَنة إحْدىٰ وثَمانين ومئة[4] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ المُبارَك قال : في صَحيحِ الحَديثِ شُغلٌ عن سَقيمِه[5] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَة سُفيانِ بنِ عُيَيْنَة : قد كان سُفيانُ مَشهوراً بالتَّدْليسِ ، إلاَّ أنَّه لا يُدَلِّسُ إلاَّ عن ثِقَة عندَه وسُفيانُ حُجَّةٌ مُطلَقاً ، وحَديثُه في جَميعِ دَواوين الإسْلام وكان سُفيانُ رَحمَه اللهُ صاحِبَ سُنَّة واتِّباع[6] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٧٢١/ ٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/ ١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ٧٢٢/ ٢ .

(٣) انظر السير : (إسْماعيل بن عيّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٧٦١/ ١ .

(٤) انظر السير : (إسْماعيل بن عيّاش) ٨/ ٣١٢ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٧٦١/ ٢ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/ ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٦٩/ ٢ .

(٦) انظر السير : (سُفْيان بن عُيَيْنة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٧٨٤/ ٦ .

وقال أبو حاتم الرَّازي : كان غُنْدَر صَدوقاً مُؤدِّياً ، وفي حَديث شُعْبَة ثقةٌ ، وأمَّا في غَير شُعْبَة ، فيُكْتَبُ حَديثُه ، ولا يُحْتَجُّ به[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : أَصَحُّ إسْنادٍ بالعِراقِ وغَيرِها ، أحمَدُ بنُ حَنْبَل ، عن وَكيعٍ ، عن سُفْيانَ ، عن مَنْصُورٍ ، عن إبْراهيمَ ، عن عَلْقَمَة ، عن عبدِ الله ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي « المُسْند » بهـٰذا السَّند عِدَّة مُتون .

وقال عليُّ بنُ خَشْرَم سَمعتُ وَكيعاً يقول : لا يَكمُلُ الرَّجلُ حتىٰ يَكتبَ عَمَّنْ هو فَوقَه وعَمَّن هو مثلَه ، وعَمَّن هو دُونَه[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : كان يَحْيىٰ بنُ سَعيد مُتَعنِّتاً في نَقْدِ الرِّجالِ ، فإذا رَأيتَه قد وَثَّق شَيخاً فاعْتمد عليه ، أمَّا إذا لَيَّن أحداً ، فتأنَّ في أمرِه حتىٰ ترىٰ قَولَ غَيرِه فيه ، فقد لَيَّنَ مثل : إسْرائيلَ ، وهمَّام ، وجَماعةً احْتجَّ بهمُ الشَّيخان[3] .

وقال نُعيمُ بن حمّاد : قلتُ لعبدِ الرَّحمـٰن بنِ مَهْدي : كيفَ تَعرفُ الكذَّابَ ؟ قال : كما يَعرفُ الطَّبيبُ المَجْنونَ[4] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : لا شَيءَ للوَاقِديِّ في الكُتبِ السِتَّة إلاَّ حَديثٌ ، عند ابنِ ماجَه ، حدَّثنا ابنُ أبي شَيْبَة ، حدَّثنا شَيخٌ لنا ، فما جسَرَ ابنُ ماجَه أن يُفصِحَ به ، وما ذاكَ إلاَّ لوَهَنِ الواقِديِّ عند العُلمَاء ، ويقولون : إنَّ ما رَواه عنه كاتبُه في « الطَّبقاتِ » هو أمثلُ قَليلاً من رِوايَة الغَيرِ عنه .

قال عباسٌ الدُّوريُّ : ماتَ الواقِديُّ وهو على القَضاء ، ولَيسَ له كَفنٌ ، فبَعثَ المأمونُ بأكْفانِه[5] .

---

(١) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٨٠٢/ ٥ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٨١١/ ١٠ .
(٣) انظر السير : (يَحْيى القطَّان) ٩/ ١٧٥ـ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٨١٦/ ٣ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن مَهْدي) ٩/ ١٩٢ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٨١٧/ ٥ .
(٥) انظر السير : (الواقديُّ) ٩/ ٤٥٤ـ٤٦٩ ، وانظر النزهة : ٨٣٥/ ٣ .

وقد تقرَّر أنَّ الواقِديَّ ضَعيفٌ ، يُحتاجُ إليه في الغَزَوات ، والتَّاريخِ ونُورِدُ آثارَه من غَير احْتجاج ، أمَّا في الفَرائضِ ، فلا يَنبَغي أنْ يُذكَر ، فهٰذه الكُتبُ السِّتَّة ، ومُسْنَدُ أحمَد ، وعامَّةُ مَنْ جَمَعَ في الأحْكامِ ، نَراهُم يَترَخَّصُون في إخْراجِ أحاديثَ أناسٍ ضُعفاء ، بل ومَتْروكين ، ومع هٰذا لا يُخرِّجون لمحمَّدِ بنِ عُمَر شَيئاً ، مع أنَّ وَزنَهُ عندي أنَّه مع ضَعفِه يُكْتَبُ حَديثُه ويُروَىٰ لأنِّي لا أتَّهِمُه بالوَضْع ، وقَولُ مَنْ أهْدَرَه فيه مُجازَفَةٌ من بَعضِ الوُجُوه كما أنَّه لا عِبْرةَ بتَوْثيقِ مَنْ وَثَّقَه ، كيَزيدٍ ، وأبي عُبَيد ، والصَّاغاني ، والحَرْبي ، ومَعْن ، وتَمَامُ عَشرَة مُحدِّثين ، إذ قد انْعَقدَ الإجْماعُ اليومَ علىٰ أنَّه ليسَ بحُجَّة ، وأنَّ حَديثَه في عِداد الوَاهي ، رَحمَه الله[١] .

ورَغبَ النَّاسُ في سَماعِ كتُبِ أحمَدَ بنِ حَرْب بنِ فَيْروز ، ثم إنَّ أمَّه ماتَت سنةَ عشرين ومئتين فحَجَّ ، وعاوَدَ الغَزْوَ ، وخرَجَ إلىٰ بلادِ التُّرْك ، وافْتَتحَ فَتْحاً عظيماً ، غُبطَ به فسَعىٰ به الأعداءُ إلى ابنِ طاهِر ، فأحْضَرَه ، ولمْ يأذَنْ له في الجُلوسِ وقالَ : أتَخْرُجُ وتَجمَعُ إلىٰ نفسِك هٰذا الجَمْع ، وتُخالِفُ أعْوانَ السُّلطانِ ؟ ثمَّ إنَّ ابنَ طاهِرٍ عَرَفَ صِدقَه ، فتَركَه ، فسَارَ ، وجاوَرَ بمَكة وكان تَنتَحِلُه الكرَّاميَّةُ ، وتُعظِّمُه لأنَّه أسْتاذُ محمَّدِ بن كرَّام ، ولكنَّه سَليمُ الاعْتِقادِ بحَمدِ الله[٢] .

وقال ابنُ السَّمَّاك : حدَّثنا حَنْبلٌ ، قالَ : جَمعَنا أحمدُ بنُ حَنْبَل ، أنا وصالحٌ وعبدُ الله ، وقَرأَ عَلينا « المُسْنَد » ، وما سَمعَه غَيرُنا وقال : هٰذا الكتابُ جَمعتُه وانْتَقَيتُه من أكثرِ من سَبع مِئَة ألفٍ وخَمسينَ ألفاً فما اخْتلفَ المسلمونَ فيه من حَديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فارْجِعُوا إليه فإنْ وجَدتمُوه فيه ، وإلاَّ فلَيسَ بحُجَّة[٣] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : في « الصَّحيحَين » أحاديثُ قَليلَةٌ ، لَيسَت في « المُسْنَد » ، لكن قد يُقالُ : لا تَرِدُ علىٰ قَولِه؛ فإنَّ المسلمينَ ما اخْتلَفوا فيها ، ثُمَّ ما يَلزَمُ من هٰذا القَولِ : أنَّ ما وُجِدَ فيه أنْ يكون حُجَّة ، ففيه جُملةٌ من الأحاديث الضَّعيفَة ممَّا يَسوغُ

(١) انظر السير : (الواقديّ) ٩/ ٤٥٤ـ ٤٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٣٥ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَرْب) ١١/ ٣٢ـ ٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩٠٦ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤٨ .

نَقْلُها ، ولا يَجِب الاحْتجاجُ بها وفيه أحاديثُ مَعدُودَة شِبه مَوْضُوعَة ، ولكنَّها قَطرَةٌ في بَحْر وفي غُضون « المُسْنَد » زياداتٌ جَمَّة لعبدِ الله بنِ أحمَد .

قال ابنُ الجَوْزي : وله ـ يَعْني : أبا عبدِ الله ـ من المُصنَّفات كتابُ « نَفْي التَّشْبيه » مُجَلَّدة ، وكتابُ « الإمامَة » مُجَلَّدة صَغيرة ، وكتابُ « الرَّدِّ على الزَّنادِقَة » ثلاثةُ أجْزاء ، وكتابُ « الزُّهْد » مُجَلَّد كَبير وكتابُ « الرِّسالَة في الصَّلاة » ، وكتابُ « فَضائلِ الصَّحابَة » مُجَلَّدة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كتابُ « الرِّسالَة في الصَّلاة » مَوْضوعٌ على الإمامِ أحمَدَ بنِ حَنْبَل ، وكتابُ « فَضائلِ الصَّحابَة » فيه زياداتٌ لعبدِ الله ابنِه ، ولأبي بَكر القَطيعي صاحِبه[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمة « الجاحِظِ » : يَظهَرُ من شَمائلِ الجاحِظِ أنَّه يَخْتَلِقُ[2] .

قال إسماعيلُ الصَّفار : حدَّثنا أبو العَيْناء ، قالَ : أنا والجاحِظُ وضَعْنَا حَديثَ فَدَك[3] ، فأدْخلناه على الشُّيوخِ ببَغْدادَ ، فقَبلوه إلاَّ ابنَ شَيْبَة العَلَوي ، فإنَّه قالَ : لا يُشبِهُ آخرُ هٰذا الحَديثِ أوَّلَه ثم قالَ الصَّفار : كان أبو العَيْناء يُحدِّثُ بهٰذا بعدما تابَ .

قيل للجاحِظِ : كيفَ حالُك ؟ قال : يَتكلَّمُ الوَزيرُ برَأيي ، وصِلاتُ الخَليفَة مُتواتِرَةٌ إليَّ ، وآكُلُ من الطَّيرِ أسْمنَها ، وألْبَسُ من الثِّيابِ ألْيَنَها وأنا صابرٌ حتىٰ يأتيَ اللهُ بالفَرَج قيلَ : بل الفَرَجُ ما أنتَ فيه قال : بل أُحبُّ أنْ أَلِيَ الخِلافَةَ ، ويَختلِفُ إليَّ محمَّدُ بنُ عبدِ المَلِك ـ يَعني الوزيرَ ـ وهو القائلُ :

سَقامُ الحِرصِ لَيْسَ لَه دَواءٌ   وداءُ الجَهْلِ لَيْسَ لَه طَبيبُ

وقد رَوىَ عنه ابنُ أبي داوُد حَديثاً واحداً .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٤٨ .
(٢) انظر السير : (الجَاحظ) ١١/٥٢٦ـ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٦ .
(٣) قال ابنُ حَجَر : ما علمتُ ما أراد بحَديثِ فَدَك

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : كفانا الجاحِظُ المؤونَةَ ، فما رَوَىٰ من الحَديثِ إلاَّ النَّزْرَ اليَسير ، ولا هُو بمُتَّهم في الحَديثِ ، بلىٰ في النَّفسِ من حكاياتِه ولَهْجَتِه فرُبَّما جازَفَ ، وتلطُّخُه بغَيرِ بِدْعَة أمرٌ واضِحٌ ، ولكنَّه أخْباريٌّ عَلاَّمَة صاحبُ فُنونٍ وأدَبٍ باهِر ، وذَكاءٍ بيِّن ، عَفا اللهُ عنه[1] .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمة الذُّهْليِّ : رَوىٰ عَنه خَلائقُ ، منهُم محمَّدُ ابنُ إسماعيلَ البُخاريّ ، ويُدَلِّسُه كثيراً ، لا يَقولُ : محمّدُ بنُ يَحيىٰ ، بل يقولُ : محمَّدٌ فقَط ، أو محمَّدُ بنُ خالِد أو محمَّدُ بنُ عبدِ الله يَنسِبُه إلى الجَدِّ ، ويُعمِّي اسمَه لمَكان الواقع بينهما ، غَفرَ اللهُ لهما .

وأكثرَ عَنه مُسلمٌ ، ثم فَسَدَ ما بينهما ، فامْتَنَعَ من الرِّوايَة عنه فما ضَرَّه ذلك عند الله

قال ابنُ أبي حاتم : كَتَبَ عنه أبي بالرَّيِّ ، وقال : ثِقةٌ ثم قالَ عبدُ الرَّحمَـٰن : هو إمامٌ من أئمَّةِ المسلمين .

وكان أحمَدُ بنُ حَنْبَل يُثني عليه ، ويَنشُرُ فَضلَه[2] .

وقال الحاكمُ : حدَّثنا أبو علي محمَّدُ بن عليِّ بنِ عُمرَ المُذَكر ، حدَّثنا أحمدُ بنُ الأزْهَر ، حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاق ، أخْبرَنا مَعمرٌ ، عن الزُّهْريِّ ، عن عُبيدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبَة ، عن ابنِ عبَّاس ، قال : نَظَرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ عَليِّ بنِ أبي طالبِ ، فقال : « أنْتَ سَيِّدٌ في الدُّنْيا ، سَيِّدٌ في الآخِرَة ، حَبيبُكَ حَبيبي ، وعَدُوُّك عَدُوِّي ، وَعَدُوِّي عَدُوُّ الله فالوَيلُ لِمَنْ أَبْغضَكَ بَعْدي » .

قال الحاكم : حدَّث به ابنُ الأزْهَر ببَغْدادَ في حياةِ أحمَدَ وابنِ المَديني وابنِ مَعين ، فأنْكَرَه مَنْ أنْكَرَه ، حتىٰ تَبيَّنَ للجماعَة أنَّ أبا الأزْهَر بَريءُ السَّاحَة منه ، فإنَّ مَحلَّه مَحلَّ الصَّادقين .

لمَّا حدَّثَ أبو الأزْهَر بحَديثِه عن عبدِ الرَّزَّاق في الفَضائلِ ، أُخْبرَ يَحْيىٰ بنُ مَعين

---

(١) انظر السير : (الجَاحظ) ١١/٥٢٦ـ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٦ .

(٢) انظر السير : (الذُّهْليُّ وابنُه) ١٢/٢٧٣ـ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٩ .

بذلك ، فبينَا هو عند يَحْيىٰ في جَماعَة أهْلِ الحَديث ، إذ قالَ يَحْيىٰ : مَنْ هـٰذا الكذَّابُ النِّيسَابُوريّ الذي حدَّثَ بهـٰذا عن عبدِ الرَّزَّاق ؟ فقامَ أبو الأزْهَر ، فقالَ : هو ذَا أنا فتبسَّمَ يَحْيى ابنُ مَعين ، قال : أمَا إنَّك لَسْتَ بكَذَّاب ، وتَعجَّبَ من سَلامَتِه ، وقالَ : الذَّنْبُ لغَيرِك فيه .

وسَمعتُ أبا أحمَدَ الحافِظَ يقولُ : سَمعتُ أبا حامِدَ بنَ الشَّرقي ، وسُئِلَ عن حَديثِ أبي الأزْهَر عن عبدِ الرَّزَّاق في فَضلِ عليٍّ ، فقالَ : هـٰذا حَديثٌ باطِلٌ ثم قالَ : والسَّببُ فيه أنَّ مَعْمَراً كانَ له ابنُ أخٍ رافِضيٌّ ، وكانَ مَعْمَرُ يُمَكِّنُه من كُتُبه ، فأدْخَلَ هـٰذا عليه ، وكانَ مَعْمَرُ رَجُلاً مَهيباً لا يَقدِرُ عليه أحدٌ في السُّؤال والمُراجَعَة ، فسَمِعَه عبدُ الرَّزَّاق في كتابِ ابنِ أخي مَعْمَر .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ولتَشيُّع عبد الرزاق سُرَّ بالحَديثِ ، وكتبه ، وما راجَع مَعْمَراً فيه ، ولكنَّه ما جَسرَ أنْ يُحَدِّثَ به لمثلِ أحمدَ وابنِ مَعين وعليٍّ ، بلْ ولا خَرَّجَه في تَصانيفِه وحدَّث به وهو خائفٌ يَتَرَقَّب .

قال الحاكمُ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ حامِد البزَّاز ، سَمعتُ مَكيَّ ابنَ عَبدان سَمعتُ أبا الأزْهَر يقولُ : خَرجَ عبدُ الرَّزَّاق إلىٰ قَريتِه ، فبكَّرتُ إليه يَوماً حتىٰ خَشيتُ علىٰ نَفسِي من البُكور قالَ : فوَصلتُ إليه قبلَ أنْ يَخرُجَ لصَلاةِ الصُّبحِ ، فلمَّا خَرجَ رآني ، فقال : كنتَ البارحَةَ ها هُنا ؟ قلتُ : لا ، ولكنِّي خَرجتُ في اللَّيلِ ، فأعْجَبَه ذلكَ ، فلمَّا فَرغَ من صَلاةِ الصُّبح دَعاني ، قَرأَ عليَّ هـٰذا الحَديثَ ، وخَصَّني به دُونَ أصْحابي .

مات أبو الأزْهَر سنةَ ثلاثٍ وستِّينَ ومِئتين(١) .

وقال محمَّدُ بنُ إسْماعيلَ البُخاريّ : ما وَضَعتُ في كتابي « الصَّحيح » حَديثاً إلاَّ اغْتسَلتُ قبلَ ذلكَ ، وصَلَّيتُ رَكعتَين(٢) .

وقالَ إبراهيمُ بنُ مَعْقِل ، سَمعتُ البُخاريَّ يقولُ : ما أدْخَلتُ في هـٰذا الكتابِ إلاَّ

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ الأزْهَر) ١٢/٣٦٣ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٠٨ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/٣٩١ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٠١١ .

ما صَحَّ ، وتَركتُ من الصِّحاحِ كَي لا يَطولَ الكتابُ[1] .

وجاءَ في تَرجمَة الإمام مُسْلمٍ ، قال الذهبيُّ : هو الإمامُ الكَبيرُ الحافظُ المُجَوِّدُ الحُجَّة الصَّادِقُ ، أبـو الحُسَيـن ، مُسْلـمُ بـنُ الحَجَّـاج ابنُ مُسْلـم بـنُ وَرْد كُـوشـاذ القُشَيْريُّ[2] . النِّيسابوريُّ ، صاحِبُ « الصَّحيح » فلعلَّه من مَوالي قُشَير .

لمْ يَروِ التِّرْمذيُّ في « جامِعِه » عن مُسْلمٍ سِوَىٰ حَديثٍ واحِدٍ .

قالَ أحمَدُ بنَ سَلمَة : رَأيتُ أبا زُرْعَة وأبا حاتم يُقَدِّمانِ مُسْلماً في مَعْرفَةِ الصَّحيح علىٰ مَشايخ عَصرِهما .

قال أبو عَمرو بن حَمدان : سألتُ الحافِظَ ابنَ عُقْدَة عن البُخاريِّ ومُسْلمٍ : أيُّهما أعْلَمُ ؟ فقالَ : كانَ محمَّدٌ عالماً ، ومُسْلمٌ عالمٌ ، فكرَّرتُ عليه مِراراً ، فقالَ : يا أبا عَمرٍو ، قد يَقعُ لمحمَّد الغَلطُ في أهل الشَّام وذلك أنَّه أخذَ كُتبَهم ، فنَظرَ فيها ، فرُبَّما ذَكرَ الواحدَ منهم بكُنيَته ويَذكُره في مَوْضِع آخرَ باسْمِه ، يَتوَهَّم أنهما اثنان ، وأمَّا مُسلمٌ فقلَّما يقعُ له من الغَلط في العِلل ، لأنَّه كَتبَ المَسانيد ، ولَمْ يَكتبْ المَقاطيعَ ولا المَراسيلَ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : عَنَىٰ بالمَقاطيعِ أقْوالَ الصَّحابَة والتَّابعينَ في الفِقْه والتَّفسير

قال أبو عبد الله محمدُ بن يَعقوب بن الأخْرَم الحافظُ : إنَّما أخْرَجَتْ نيسابُورُ ثلاثَةَ رجالٍ : محمدَ بنَ يَحْيىٰ ، ومُسلمَ بنَ الحجَّاج ، وإبراهيمَ بنَ أبي طالب .

وقال الحُسَينُ بن محمد الماسَرجِسِيُّ : سَمعتُ أبي يقولُ : سَمعتُ مُسلماً يقولُ : صَنَّفتُ هـٰذا « المُسْنَدَ الصَّحيحَ » من ثلاثةِ مئةِ ألفِ حَديثٍ مَسْموعَة .

قال الحاكمُ : سَمعتُ أبا عبد الرحمَـٰن السُّلَميَّ يقولُ : رأيتُ شَيخاً حَسنَ الوَجْه والثِّيابِ ، عليه رِداءٌ حَسنٌ ، وعَمامةٌ قد أرْخاها بين كَتفَيه فقيلَ : هـٰذا مُسلمٌ فتَقدَّمَ أصْحابُ السُّلطانِ ، فقالوا : قد أمَرَ أميرُ المؤمنينَ أنْ يَكونَ مُسلمُ بنُ الحجَّاج إمامَ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٦/١٠١١ .

(٢) القُشيري ، من بني قُشَير ، قبيلة من العرب معروفة.

المسلمينَ ، فقدَّموه في الجامعِ فكبَّرَ ، وصلَّىٰ بالناس .

قال الحافظُ ابنُ مَندَة : سَمعتُ أبا عليٍّ النيسابوريَّ الحافظَ يقولُ : ما تَحتَ أديمِ السَّماء كتابٌ أصَحّ من كتابِ مُسلم .

وقال مَكِّيُّ بنُ عَبدان : سَمعتُ مُسلماً يَقولُ : عَرضتُ كتابي هـٰذا « المُسْنَدَ » علىٰ أبي زُرعَة ، فكلُّ ما أشار عليَّ في هـٰذا الكتاب أنَّ له عِلَّةً وسَبباً تَركتُه ، وكلُّ ما قال : إنَّه صَحيحٌ ليس له عِلَّةٌ ، فهو الذي أخْرجْتُ ، ولوْ أنَّ أهلَ الحَديثِ يَكتُبون الحَديثَ مئتي سنة فمَدارُهم علىٰ هـٰذا « المُسْنَد » .

قال الدَّارَقُطنيُّ : لَوْلا البُخاريُّ ما راحَ مُسلمٌ ولا جاء .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : ثم إنَّ مُسْلماً ، لحِدَّةٍ في خُلقِه ، انْحرَفَ عن البُخاريِّ ولمْ يَذكُرْ له حَديثاً ، ولا سَمَّاهُ في « صَحيحِه » ، بل افْتَتحَ الكتابَ بالحَطِّ علىٰ مَنْ اشْترَطَ اللُّقِيَّ لمَنْ رَوىٰ عنه بصيغة « عنْ » ، وادَّعَى الإجْماعَ في أنَّ المُعاصَرَة كافيَة ، ولا يَتوَقَّفُ في ذلك على العِلمِ بالتِقائهما ، ووَبَّخَ مَنْ اشْترَطَ ذلك وإنَّما يقولُ ذلك أبو عبد الله البُخاريُّ ، وشَيخُه عَليُّ بنُ المَديني ، وهو الأصْوَبُ الأقْوَىٰ .

تُوفِّي مُسلمٌ سنةَ إحْدىٰ وستِّين ومئتَين بنيسَابُورَ ، عن بِضعٍ وخَمسينَ سَنةٍ ، وقَبرُه يُزارُ[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة « الرَّبيعِ بنِ سُليْمانَ » : قد كان من كبار العلماء ، ولكن ما بَلغَ رُتبَة المُزنيِّ ، كما أنَّ المُزَنيَّ لا يَبلُغُ رُتبَة الرَّبيعِ في الحَديث ، وقد رَوىٰ أبو عيسىٰ في « جامِعِه » عن الرَّبيع بالإجازَة ، وقد سَمعنا من طريقه « المُسْنَدَ » للشَّافعيِّ انتَقاهُ أبو العَبَّاس الأصَمُّ من كتابِ « الأُمّ » لينشَطَ لروايَتِه للرِّحالَة وإلاَّ فالشَّافعيُّ رَحمَه الله لَمْ يُؤلِّف مُسْنَداً[2] .

وجاء في تَرجَمة أبي دوادَ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو سُليمانُ ابنُ الأشْعَث الإمامُ ،

(١) انظر السير : (مُسْلِم) ١٢/٥٥٧ـ ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ١٠٣٥ ـ ١٠٣٦ .

(٢) انظر السير : (الرَّبيعُ بن سُليمان) ١٢/٥٨٧ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ١٠٣٧/١ .

شَيخُ السُّنَّة ، مُقدَّمُ الحُفَّاظ ، أبو داود ، الأَزْدي السِّجِسْتاني ، مُحدِّثُ البَصرَة .

وُلِدَ سَنةَ اثنتَين ومئتَين ، ورَحَلَ ، وجَمَعَ ، وصَنَّفَ ، وبَرَعَ في هٰـذا الشَّأن .

وسكن البَصْرَةَ بعدَ هَلاك الخَبيثِ طاغيَة الزِّنج ، فنشَرَ بها العِلمَ ، وكان يَتردَّدُ إلىٰ بَغدادَ[1] .

وقال أبو بكر بن دَاسَة : سَمعتُ أبا داود يقول : « كتبتُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم خَمسَ مئةِ ألفِ حَديثٍ ، انتَخَبتُ منها ما ضَمنتُه هٰـذا الكتاب ـ يَعني كتاب « السُّنَن » ـ جَمعتُ فيه أربعةَ آلافِ حَديث وثمانيَ مئةِ حَديث ، ذكرتُ الصَّحيحَ ، وما يُشبِهُه ويُقارِبُه ، ويَكْفي الإنسانَ لدينِه من ذلك أربعةُ أحاديث ، أحدُها : قولُه صلى الله عليه وسلم : « الأعْمَالُ بالنِّيَّات » ، والثاني : « مِنْ حُسْنِ إسْلام المَرْءِ تَرْكهُ مَالا يَعْنِيهِ » ، والثالثُ : قولُه : « لا يَكونُ المُؤْمِنُ مُؤْمِناً حَتّىَ يَرْضَىَ لأَخِيهِ مَا يَرْضَىَ لِنَفْسِهِ » ، والرابعُ : « الحَلالُ بَيِّنٌ » الحديث .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وقولُه : يَكْفي الإنسانَ لدينِه ، مَمْنوعٌ ، بل يَحتاجُ المُسلمُ إلىٰ عَددٍ كثير من السُّنَن الصَّحيحَة مع القُرآن .

قال أبو بكر الخَلاَّل : أبو دواود الإمام المقدَّم في زمانه ، رجل لم يسبقه إلىٰ معرفته بتخريج العلوم ، وبصرِه بمَواضِعه أحدٌ في زَمانِه ، رجلٌ وَرِعٌ مُقدَّم ، سَمعَ منه أحمدُ بن حَنبل حَديثا واحداً .

وقال أبو بكر محمدُ بن إسْحاق الصَّاغاني ، وإبراهيمُ الحَربي لمَّا صنَّف أبو داود كتاب « السُّنَن » أُلِينَ لأبي داودَ الحَديثَ ، كما أُلِينَ لدَاودَ عليه السلام الحديدُ[2] .

وقال الحافظُ موسَىٰ بنُ هارُون : خُلِقَ أبو داوُد في الدُّنيا للحَديث ، وفي الآخِرَة للجَنَّة[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٩ .

(٢) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٩ .

(٣) انظر السير : (أبو داوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٠ .

قال القاضي الخليلُ بنُ أحمد السِّجْزيُّ : سَمعتُ أحمدَ بنَ محمَّدِ ابنِ الليَّث قاضي بلدنا يقولُ : جاء سَهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريُّ إلىٰ أبي داوُد السَّجِسْتاني ، فقيلَ : يا أبا داوُد : هـٰذا سَهلُ بنُ عبد الله جاءَك زائراً فرَحَّبَ به ، وأجلسَه ، فقال سَهلٌ : يا أبا داوُد! لي إليك حاجَة قال : وما هي ؟ قال : حتَّىٰ تَقولَ : قد قَضيتُها مع الإمْكان قال : نَعَم قال : أخْرِجْ إلي لسَانَك الذي تُحدِّثُ به أحاديثَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ أُقَبِّلَه فأخْرَجَ إليه لِسانَه فقَبَّلَه .

قال ابنُ دَاسَة : سَمعتُ أبا داود يقول : ذكرت في « السُّنن » الصحيحَ وما يُقارِبُه ، فإن كان فيه وهن شديد بَيَّنْتُه

وقال الإمامُ الذهبيُّ : فقد وَفَّىٰ ـ رَحمَه الله ـ بذلك بحَسْبِ اجتهادِه ، وبيَّن ما ضَعفُه شَديدٌ ، ووَهْنُه غيرُ مُحْتَمل وكاسِر[1] عن ما ضَعفُه خَفيفٌ مُحْتَمل ، فلا يَلزَمُ من سُكوتِه ـ والحالةُ هـٰذه ـ عن الحَديث أنْ يَكونَ حَسناً عندَه ، ولا سيَّما إذا حَكمنا علىٰ حدِّ الحُسْن باصْطِلاحِنا المولدِ الحادِث ، الذي هو في عُرفِ السَّلَف يَعودُ إلىٰ قِسمٍ من أقْسامِ الصَّحيح ، والذي يَجبُ العَملُ به عند جُمهور العُلمَاء ، أو الذي يَرغَبُ عنه أبو عبد الله البُخاري ، ويُمشِّيه مُسْلمٌ ، وبالعَكس ، فهو داخلٌ في أدانىٰ مَراتب الصِّحَّة ، فإنَّه لو انْحَطَّ عن ذلك لخَرجَ عن الاحْتجاجِ ، ولبَقيَ مُتَجاذَباً بين الضَّعْف والحُسْن ، فكتابُ أبي داوُد أعلىٰ ما فيه من الثابت ما أَخْرَجَه الشَّيْخان ، وذلك نَحْواً من شَطر الكتاب ، ثم يَليهِ ما أخرَجَه أحدُ الشَّيْخَين ، ورَغِبَ عنه الآخَر ، ثم يَليه ما رَغِبا عنه ، وكان إسْنادُه جيداً ، سالماً من عِلَّة وشُذوذ ، ثم يَليه ما كان إسنادُه صالحاً ، وقَبِلَه العُلماء لِمَجيئِه من وَجهين لَيِّنَيْن فصاعداً ، يَعضُدُ كلُّ إسْنادٍ منهُما الآخَر ، ثم يَليه ما ضَعُفَ إسنادُه لنَقْص حِفْظِ رَاويه ، فمثلُ هـٰذا يُمشِّيه أبو داوُد ، ويَسكُتُ عنه غالباً ، ثم يَليه ما كان بَيِّنَ الضَّعفِ من جِهَة رَاويه ، فهـٰذا لا يَسْكُتُ عنه ، بل يُوهِّنُه غالباً ، وقد يَسكُتُ عنه بحَسْبِ شُهْرته ونَكارَته ، واللهُ أعْلم .

---

(١) كسر من طرفه : غضَّ .

قال الحافظُ زَكريّا السَّاجي: كتابُ الله أَصْلُ الإسْلام ، وكتابُ أبي داوُدَ عَهْدُ الإسْلام .

قال الذهبي : كان أبو داوُد مع إمامَتِه في الحديث وفُنونِه من كبار الفُقَهاء فكتابُه يَدلُّ علىٰ ذلك ، وهو من نُجَباء أصحابِ الإمامِ أحمَدَ ، لازَمَ مَجلِسَه مُدَّة ، وسأَلَه عن دِقاق المَسائل في الفُروع والأُصُول .

وكان علىٰ مَذهَبِ السَّلف في اتِّباعِ السُّنَّة والتَّسْليم لها ، وتَرْك الخَوْض في مَضائق الكَلام[1] .

عن عَلْقَمَةَ ، قال : كان عبدُ الله بن مسعود يُشَبَّه بالنبي صلى الله عليه وسلم في هَديه ودَلِّه .

وكان عَلْقَمَةُ يُشَبَّه بعبدِ الله في ذلك .

قال جَريرُ بنُ عبد الحَميد : وكان إبراهيمُ النَّخْعي يُشَبَّه بعَلْقَمَة في ذلك ، وكان مَنصُورٌ يُشَبَّه بإبراهيمَ .

وقيل : كان سُفْيانُ الثَّوريُّ يُشَبَّه بمَنْصور ، وكان وَكيعٌ يُشَبَّه بسُفْيان ، وكان أحمدُ يُشَبَّه بوَكيع ، وكان أبو دَاوُد يُشَبَّه بأحمدَ[2] .

وعن أبي بكر بن جابر خادم أبي داود السِّجِسْتاني ـ رحمه الله ـ قال : كنتُ مع أبي داود ببَغْداد ، فصلَّيْنا المغرب ، فجاءَه الأميرُ أبو أحمدَ المُوَفَّق ـ يَعني وَليَّ العَهد ـ فدخل ، ثم أقبلَ عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هـٰذا الوقت ؟ قال : خِلالٌ ثلاث قال : وما هي ؟ قال : تنتقلُ إلى البَصرة فتتَّخذَها وطناً ليرحلَ إليك طلبةُ العلم ، فتعمُر بك ، فإنها قد خَرِبَتْ ، وانقطَعَ عنها النَّاسُ ، لِمَا جَرَىٰ عليها من مِحْنَة الزِّنج فقال : هـٰذه واحدة قال : وتَرْوي لأولادي « السُّنَن » قال : نعم ، هاتِ الثالثة قال : وتُفْرِد لهم مَجْلساً ، فإن أولاد الخلفاء لا يَقعُدون مع العامَّة قال : أمَّا هـٰذه فلا سبيلَ إليها ، لأنَّ النَّاسَ في العِلم سَواء .

---

(١) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/٢٠٣ـ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧٠ .

(٢) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/٢٠٣ـ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧١ .

قال ابنُ جابر : فكانوا يحضُرُون ويقعُدون في كمٍّ حِيرِي ، عليه سِتْر ويسمعون مع العامَّة[1] .

وقال أبو داود في « سُنَنِه » : شَبَرْتُ قِثَّاءَةً بمصر ثلاثةَ عشرَ شِبراً ، ورأيتُ أُتْرُجَّةً علىٰ بَعير ، وقد قُطعَتْ قطعَتَين ، وعُملَتْ مثلَ عِدْلَين .

تُوفِّي أبو داودَ سَنةَ خَمسٍ وسَبعين ومئتَين[2] .

وجاء في ترجمة أبي حاتم الرَّازي ، قال الذهبيُّ : إذا وَثَّقَ أبو حاتم الرَّازي رَجُلاً فتَمسَّك بقوله ، فإنَّه لا يُوثِّقُ إلاَّ رجلاً صَحيحَ الحَديث ، وإذا ليَّنَ رَجلاً ، أو قال فيه : لا يُحتَجُّ به فتَوقَّف حتىٰ تَرىٰ ما قال غيرُه فيه ، فإن وَثَّقَه أحدٌ ، فلا تَبْنِ علىٰ تَجريح أبي حاتم ، فإنَّه مُتعنِّتٌ في الرِّجال ، قد قال في طائفة من رجال (الصِّحاح) : ليسَ بحُجَّة ، ليسَ بقَوي ، أو نحو ذلك .

مات الحافظُ أبو حاتم سنة سبعٍ وسَبعينَ ومئتين وقيلَ : عاشَ ثلاثاً وثمانين سنةً[3] .

ومن كلامِ عبدِ الرَّحمَـٰن بن أبي حاتم قال : وَجدتُ ألفاظَ التَّعْديل والجَرْح مَراتب : فإذا قِيلَ : ثقةٌ : أو : مُتقِنٌ احتُجَّ به ، وإنْ قيلَ : صَدوقٌ ، أو مَحلُّه الصِّدقُ ، أو لا بأسَ به ، فهو ممَّن يُكتَب حَديثُه ، ويُنظَرُ فيه وهي المَنزلَة الثانيَة ، وإذا قِيلَ : شَيخٌ فيُكتَبُ حَديثُه ، وهو دُونَ ما قَبلَه ، وإذا قِيلَ : صالحُ الحَديث ، فيُكتَبُ حَديثُه وهو دُون ذلك يُكتَب للاعْتبار ، وإذا قِيلَ : لَيِّنٌ ، فدُونَ ذلكَ ، وإذا قالوا : ضَعيفُ الحَديث ، فلا يُطرَحُ حَديثُه ، بل يُعتَبَرُ به ، فإذا قالوا : مَتْروكُ الحَديث ، أو : ذاهِبُ الحَديث ، أو كذَّاب ، فلا يُكتَبُ حديثُه[4] .

وقال أبو عيسَى التِّرْمذي عن كتابه « الجامع » : صنَّفْتُ هـٰذا الكتابَ ، وعَرضتُه

---

(١) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١٠٧١/ ٢ .
(٢) انظر السير : (أبو دَاوُد) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١٠٧٢/ ١ .
(٣) انظر السير : (أبو حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ١٠٧٧/ ٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١٠٧٩/ ٤ .

علىٰ عُلماء الحِجَاز ، والعِراق وخُراسَان ، فرَضُوا به ، ومَنْ كان هـٰذا الكتابُ في بَيتِه ، فكأنَّما في بيتِه نَبيٌّ يَتكلَّمُ[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : في « الجامع » علمٌ نافعٌ ، وفَوائدُه غَزيرة ، ورُؤوسُ المَسائل ، وهو أحدُ أُصول الإسْلام ، لولا ما كدَّره بأحاديث واهيَة ، بعضُها مَوضُوعٌ ، وكثيرٌ منها في الفَضائل[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : « جامعُه » قاضٍ له بإمامَتِه وحفظِه وفِقْهِه ، ولكن يَتَرخَّصُ في قَبولِ الأحاديث ، ولا يُشَدِّد ، ونَفَسُه في التَّضْعيفِ رَخْوٌ[3] .

وفي « المَنْثور » لابنِ أبي طاهر : سَمعتُ أبا إسْماعيلَ شيخَ الإسْلام يقولُ : « جامع » التِّرْمذِيِّ أنفَعُ من كتاب البُخاريِّ ومُسْلم ، لأنَّهما لا يَقِفُ منهما إلا المُتبَحِّرُ العالم ، و« الجامعُ » يَصلُ إلىٰ فائدَتِه كلُّ أحَدٍ .

ماتَ أبو عيسىٰ في سنةِ تِسْعٍ وسبعينَ ومِئتين بتِرْمِذ[4] .

وجاء في ترجمة ابنِ ماجَه ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو محمدُ ابنُ يَزيد ، الحافظُ ، الكَبيرُ ، الحُجَّة ، المُفَسِّرُ ، أبو عبد الله ابنُ ماجَه ، القَزْوينيُّ ، مُصَنِّفُ « السُّنَن » ، و« التَّاريخ » ، و« التَّفسير » ، وحافظُ قَزْوين في عَصرِه .

وُلدَ سنة تسعٍ ومِئتَين .

عن ابن ماجه ، قال : عَرضْتُ هـٰذه « السُّنَنَ » علىٰ أبي زُرعَة الرَّازي ، فنظرَ فيه ، وقال : أظنُّ إنْ وَقعَ هـٰذا في أيْدي النَّاسِ تَعطَّلت هـٰذه الجَوامعُ أو أكثَرُها ، ثم قال : لَعلَّ لا يكونُ فيه تَمامُ ثلاثين حَديثاً ، ممَّا في إسْنادِه ضَعفٌ ، أو نَحو ذا .

قال الإمامُ الذهبيُّ : قد كان ابنُ ماجَه حافظاً ناقِداً صادِقاً ، واسِعَ العلمِ ، وإنَّما غَضَّ من رُتبَة « سُنَنِه » ما في الكتابِ من المَناكير ، وقَليلٌ من المَوْضُوعات ، وقَولُ

---

(١) انظر السير : (التِّرمذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٨١/ ٣ .
(٢) انظر السير : (التِّرمذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٨١/ ٤ .
(٣) انظر السير : (التِّرمذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٨١/ ٥ .
(٤) انظر السير : (التِّرمذيّ) ١٣/ ٢٧٠ـ٢٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٨٢/ ١ .

أبي زُرعَة ـ إنْ صَحَّ ـ فإنَّما عَني بثلاثين حَديثاً ، الأحاديثَ المُطْرَحَة السَّاقِطَة ، وأمَّا الأحاديثُ التي لا تَقومُ بها حُجَّة ، فكثيرةٌ ، لعلَّها نَحوَ الألفِ .

وقال أبو يَعلى الخَليلي : هو ثقةٌ كبيرٌ ، مُتفَقٌ عليه ، مُحتَجٌّ به ، له مَعرِفَةٌ بالحَديثِ وحِفظٌ ، ارْتَحَلَ إلى العِراقَيْن ، ومَكةَ ، والشَّام ، ومِصْرَ والرّيِّ لكتُبِ الحَديثِ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ماتَ سنةَ ثلاثٍ وسَبعينَ ومئتين وعاشَ أربعاً وستِّين سنةً .

وقال أبو الحَسَن القطَّان : في « السُّنن » ألفٌ وخَمسُ مئة باب ، وجملةُ ما فيه أربعَةُ آلافِ حَديث[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « غُلام خَليل » : الشيخُ ، العالمُ ، الزَّاهِدُ ، الواعِظُ ، شَيخُ بَغدادَ ، أبو عبد الله ، أحمدُ بنُ محمّدُ ابنِ غالِب الباهِليُّ البَصْريُّ ، غُلامُ خَليل[2] .

سَكنَ بَغدادَ كان له جَلالةٌ عَجيبةٌ ، وصَوْلةٌ مَهيبةٌ ، وأمْرٌ بالمَعروفِ ، واتِّباعٌ كثيرٌ ، وصِحَّةُ مُعْتَقدٍ ، إلاَّ أنَّه يَروي الكَذِبَ الفَاحِشَ ، ويَرَىٰ وَضْعَ الحَديثِ نَسألُ اللهَ العافيَةَ وخَفِيَ حالُه على الكِبارِ أوَّلاً .

قال ابنُ أبي حاتم : سُئلَ أبي عنه ، فقال : رجلٌ صالحٌ ، لمْ يكنْ عندي ممَّن يَفتعلُ الحَديثَ .

ورُويَ عن أبي داوُد السِّجِسْتاني أنَّه قالَ : ذاكَ دَجَّالُ بَغدادَ ، نَظرتُ في أرْبعِ مئةِ حديثٍ له ، عُرِضَت عليَّ ، كلُّها كَذبٌ ، مُتونُها وأسانيدُها .

وقال ابن عَديّ : سَمعتُ أبا عبد الله النُّهاوَنْديّ يقولُ : كلَّمتُ غُلامَ خَليل في هـٰذه الأحاديث ، فقال : وَضَعْناها لتُرَقِّقَ القُلوبَ .

وفي « تاريخِ بَغدادَ » أنَّ أبا جَعْفَرَ الشَّعيري قال : قُلتُ لغُلامِ خَليل لَمَّا رَوىٰ عن بَكْرِ بنِ عيسىٰ ، عن أبي عَوانَة : يا أبا عبد الله! هـٰذا شَيخٌ قَديمُ الوَفاة ، لمْ تَلحَقْه ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ ماجَه) ١٣/ ٢٧٧ـ ٢٨١ ، وانظر النزهة : ١٠٨٢ .
(٢) انظر السير : (غُلامُ خَليل) ١٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٣ .

ففكَّر ، وخِفتُ أنا ، فقُلتُ : كأنَّكَ سَمعتَ من رجلٍ باسْمِه ؟ فسَكتَ ، فلمَّا كان من الغَد ، قال لي : إنِّي نَظرتُ البارحة فيمَنْ سَمعتُ منه بالبَصْرة ، ممَّن يُقالُ له : بَكْرُ بن عيسَىٰ ، فوجَدتُهم ستِّينَ رجلاً[1] .

وجاء في ترجمة بَقِيِّ بنِ مَخْلَد ، قال الإمامُ الذهبيُّ : قال ابنُ يَزيد : هو الإمامُ القُدوَة ، شَيخُ الإسْلام ، أبو عبد الرحمَـٰن الأنْدَلسيُّ القُرْطُبيُّ ، الحافِظُ ، صاحِبُ « التَّفسيرِ » و« المُسْنَد » اللَّذينِ لا نَظيرَ لهما .

وُلدَ في حُدود سَنة مئتين ، أو قَبلَها بقَليل .

وعُني بهـٰذا الشَّأنِ عِنايةً لا مَزيدَ عليها ، وأَدخَلَ جَزيرَةَ الأنْدَلسِ عِلْماً جَمّاً ، وبه ، وبمحمَّدِ بنِ وَضَّاح صارَت تلك الناحيَةُ دارَ حَديثٍ ، وعدَّةُ مَشيَختِه الذين حَملَ عنهم مئتان وأربَعةٌ وثَمانون رَجلاً .

وكان إماماً مُجتَهداً صالِحاً ، رَبَّانيّاً صادِقاً مُخلِصاً ، رَأساً في العِلمِ والعَملِ ، عَديمَ المِثْل ، مُنقَطعَ القَرين ، يُفْتي بالأثَرِ ، ولا يُقلِّدُ أَحداً .

ذَكرَه أحمدُ بنُ أبي خَيْثَمَة ، فقال : ما كُنَّا نُسمِّيه إلاَّ المِكْنَسَة ، وهل احتاجَ بلدٌ فيه بَقيٌّ إلىٰ ها هُنا منه أحَد ؟!

وقال أبو الوَليد بنُ الفَرَضي في « تاريخِه » : ملأ بَقيُّ بنُ مَخلَد الأنْدَلسَ حَديثاً ، فأنْكرَ عليه أصحابُه الأنْدَلسيُّون : أحمدُ بنُ خالد ، ومحمدُ بنُ الحارث ، وأبو زَيْد ، ما أدْخَلَه من كُتبِ الاخْتلاف ، وغَرائب الحَديث ، فأغْروا به السُّلطانَ وأخَافُوه به ، ثمَّ إنَّ اللهَ أظهَره عَليهم ، وعَصمَه منهم ، فنَشرَ حَديثَه وقَرأ للنَّاسِ روايتَه ثم تَلاهُ ابنُ وَضَّاح ، فصارَت الأنْدلسُ دارَ حَديثٍ وإسْناد وممَّا انْفَردَ به ولمْ يُدخِلْه سواه « مُصنَّفُ » أبي بَكْر بنِ أبي شَيبَة بتَمامِه ، و« كتابِ الفِقْه » للشَّافعيِّ بكَمالِه ـ يَعني « الأُمَّ » ـ ، و« تاريخ » خَليفة ، و« طَبقات » خليفة ، وكتاب « سِيرَة عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز » ، لأحمدَ بنِ إبراهيمَ الدَّوْرَقي ولَيسَ لأحدٍ مثلُ « مُسْندِه » وكان وَرِعَاً فاضِلاً زاهِداً قد ظَهرت له إجاباتُ الدَّعوَة في غير ما شيء .

---

(١) انظر السير : (غُلامُ خَليل) ١٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٣ .

قال الإمامُ أبو محمَّد بن حَزم الظَّاهري : أقْطعُ أنَّه لمْ يُؤلَّف في الإسْلام مثلُ « تفسير » بَقِيٍّ ، لا « تَفسير » محمد بن جَرير ، ولا غيره[١] .

قال : وكان محمَّدُ بنُ عبد الرحمَـٰن الأُمَوي صاحبُ الأنْدَلسِ مُحبّاً للعُلوم عارِفاً ، فلمَّا دخلَ بَقيٌّ الأنْدَلسَ « بمُصَنَّف » أبي بَكْر بنِ أبي شَيْبَة ، وقُرِىءَ عليه ، أنْكَرَ جَماعةٌ من أهلِ الرَّأي ما فيه من الخِلافِ واسْتَبْشَعوه ، ونَشَّطوا العامَّةَ عليه ، ومَنعُوه من قِراءَتِه ، فاسْتحضَرَه صاحبُ الأنْدَلس محمدُ وإيَّاهم ، وتَصفَّحَ الكتابَ كلَّه جُزءاً جُزءاً حتىٰ أتَىٰ علىٰ آخِره ، ثم قال لخازِن الكُتبِ : هـٰذا كتابٌ لا تَسْتَغني خِزانَتُنا عنه ، فانْظُر في نَسْخِه لنا ، ثم قال لبَقِيٍّ : انْشُر عِلمَك ، وارْوِ ما عِندَك ونَهاهُم أنْ يَتعرَّضوا له[٢] .

وذكر عبد الرحمـٰن بن أحمد عن أبيه : أن امرأةً جاءَت إلىٰ بَقِيٍّ فقالت : إنَّ ابْني في الأسْرِ ، ولا حِيلَةَ لي ، فلَوْ أشَرْتَ إلىٰ مَنْ يَفْديه ، فإنَّني والِهَةٌ قال : نعم ، انصَرفي حتىٰ أنظرَ في أمره ، ثم أَطْرَقَ ، وحرَّكَ شَفَتيه ، ثم بعد مُدَّةٍ جاءت المَرأةُ بابنها ، فقال : كنتُ في يَدِ مَلِكٍ ، فبَيْنا أنا في العَمَل ، سَقَطَ قَيدي قال : فذكرَ اليومَ والسَّاعَة ، فوافَقَ وقتَ دُعاءِ الشَّيخ قال : فصاحَ عليَّ المُرَسَّم بنا ، ثم نَظَرَ وتَحيَّرَ ، ثم أحضَرَ الحدَّادَ وقيَّدني ، فلمَّا فرغه ومَشَيتُ سَقطَ القَيدُ ، فبُهِتوا ، ودَعَوا رُهْبانَهم ، فقالوا : ألَكَ والدةٌ ؟ قلتُ : نَعم فقالوا : وافَقَ دُعاءَها الإجابة[٣] .

كان بَقيُّ بنُ مَخْلَد أوَّلَ مَنْ كَثَّرَ الحَديثَ بالأنْدلُس ونَشَره ، وهاجَمَ به شُيوخَ الأنْدَلُس ، فثارُوا عليه ، لأنَّهم كان عِلْمُهم بالمَسائِل ومَذهَب مالِك ، وكان بَقيٌّ يُفْتي بالأثَر ، فشَذَّ عنهم شُذوذاً عَظيماً ، فعَقَدوا عليه الشَّهادات ، وبَدَّعوه ، ونَسَبوا إليه الزَّنْدَقَة ، وأشْياءَ نَزَّهَه اللهُ منها وكان بَقيٌّ يقولُ : لقد غَرسْتُ لهم بالأنْدَلُس غَرْساً لا يُقلَعُ إلاَّ بخُروجِ الدَّجَّال[٤] .

---

(١) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٤ .
(٢) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٥ .
(٣) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٥ .
(٤) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٦ .

قال ابن حزم : و« مُسْنَدُ » بَقيٍّ رَوىٰ فيه عن ألفٍ وثلاثِ مئةِ صاحِبٍ ونيّف ورَتَّبَ حديثَ كلِّ صاحبٍ علىٰ أبْوابِ الفِقْه ، فهو مُسْندٌ ومُصنَّفٌ ، وما أعلمُ هـٰذه الرُّتبَة لأحد قبلَه ، مع ثقتِه وضَبطِه ، وإتْقانِه واحتفالِه في الحَديث ، وله مُصنَّفٌ في فَتاوَى الصَّحابَة والتَّابعِين فمَنْ دُونَهم ، الذئ قد أرْبَىٰ فيه علىٰ « مُصنَّف » ابنِ أبي شَيْبَة ، وعلىٰ « مُصنَّف » عبد الرَّزَّاق ، وعلىٰ « مُصنَّف » سَعيدِ بنِ مَنْصور ثمَّ إنَّه نوَّه بذكرِ « تَفْسيرِه » وقال : فصارَت تَصانيفُ هـٰذا الإمامِ الفاضِلِ قَواعدَ الإسْلام ، لا نَظيرَ لها ، وكان مُتخَيِّراً لا يُقلِّدُ أحداً ، وكان ذا خاصَّةٍ من أحمدَ بنِ حَنْبَل ، وجارياً في مِضْمارِ البُخاريِّ ومُسْلمٍ والنَّسائيِّ[(١)] .

وقال عثمانُ بنُ سَعيد : مَنْ لمْ يَجمع حَديثَ شُعبَة وسُفيان ومَالك ، وحمَّاد بن زَيد ، وسُفيان بن عُيَيْنة ، فهو مُفلِسٌ في الحَديثِ ـ يُريدُ أنَّه ما بَلغَ درجَةَ الحُفَّاظ .

وقال الإمامُ الذهبيُّ مُعلِّقاً : وبلا رَيب ، أنَّ مَنْ جَمعَ عِلمَ هـٰؤلاء الخَمسَة ، وأحاطَ بسائر حَديثِهم ، وكتبَه عالياً ونازِلاً ، وفَهمَ عِلله ، فقد أحاطَ بشَطْر السُّنَّة النبَويَّة ، بلْ بأكثرَ من ذلك ، وقد عُدمَ في زَمانِنا مَنْ يَنهَضُ بهـٰذا ، وببَعضِه ، فنَسألُ الله المغفرَة وأيضاً فلو أرادَ أحدٌ أنْ يَتتَبَّعَ حَديثَ الثَّوْريِّ وحْدَه ، ويكتُبَه بأسَانيدِ نفسِه علىٰ طُولِها ، ويُبيِّنَ صَحيحَه من سَقيمِه ، لكانَ يَجيءُ « مُسْنَدُه » في عَشرِ مُجلَّدات ، وإنَّما شَأنُ المُحدِّث اليومَ الاعْتِناءُ بالدَّواوين السِّتَّة ، و« مُسْنَد » أحمدَ بنِ حَنْبَل ، و« سُنَن » البَيْهَقي ، وضَبْط مُتونِها وأسَانيدِها ، ثم لا يَنتَفعُ بذلك حتىٰ يَتقيَ ربَّه ، ويَدينَ بالحَديث ، فعلَىٰ عِلمِ الحَديثِ وعُلمائِه لِيَبْكِ مَنْ كانَ باكياً ، فقد عادَ الإسْلامُ المَحْضُ غَريباً ، كما بَدأ ، فليَسعَ امرُؤٌ في فِكاكِ رَقبَتِه من النَّار ، فلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[(٢)] .

وكان ابنُ مَنْدَة إذا رَوى الحَديثَ وسَكتَ ، أجادَ ، وإذا بوَّبَ أو تَكلَّمَ من عندِه ،

---

(١) انظر السير : (بَقيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٦ .
(٢) انظر السير : (الدَّارميّ) ١٣/ ٣١٩ـ ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩١ .

انْحرَفَ وخَرْفَشَ[1] ، بلىٰ ذَنْبه وذَنْبُ أبي نُعَيم أنَّهما يَرْويانِ الأحاديثَ السَّاقِطَة والمَوْضُوعَة ، ولا يَهْتِكانِها ، فنَسألُ اللهَ العَفوَ[2] .

وقال ابنُ حَزْم في تَراجم أبْوابِ « صَحيحِ » البُخاريِّ : منها ما هو مَقصورٌ علىٰ آيَةٍ ، إذا لا يَصِحُّ في الباب شيءٌ غَيرُها ، ومنها ما يُنَبِّهُ بتَبْويبه علىٰ أنَّ في البابِ حَديثاً يَجبُ الوُقوفُ عليه ، لكنَّه ليسَ من شَرطِ ما ألَّفَ عليه كتابَه ، ومنها ما يُبوِّب عليه ، ويَذكُرُ نبذَةً من حَديثٍ قد سَطَّرَه في مَوضُوع آخَر ، ومنها أبْوابٌ تَقعُ بلَفظِ حَديثٍ لَيس من شَرطِه ويَذكُرُ في البابِ ما هو في مَعْناه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وكلامُ ابنِ حَزْم كثيرٌ ، ولوْ أخَذتُ في إيرادِ طُرَفِه وما شَذَّ به لطَالَ الأمرُ .

تُـوفِّيَ سنـةَ سـتٍّ وخَمسيـنَ وأربَـعِ مئـة عُمـرُه إحْـدَىٰ وسَبعيـنَ سنـةً وأشْهُـر ، رَحمَه الله[3] .

٤ـ ضابطٌ لأخذِ الأجْر على التَّحْديث :

قال ابنُ النَّجّار : سَمعتُ القاضي أبا القاسِم ابنَ العَديم يقولُ : سَمعتُ عبدَ العَزيز بنَ هِلالَة يَقولُ : وغالِبُ ظنِّي أنَّني سَمعتُه من ابنِ هِلالَة بخُراسَان ، قالَ : رَأيتُ عُمرَ بنَ طَبَرْزَذ في النَّومِ بعدَ مَوتِه وعَليه ثَوبٌ أزْرَق ، فقُلتُ له : سَألتُ بالله ما لَقيت بعدَ مَوْتِك ؟ فقالَ : أنا في بَيتٍ من نَّارٍ ، دَاخلَ بَيتٍ من نارٍ ، فقُلتُ : ولِمَ ؟ قالَ : لأخْذِ الذَّهَب علىٰ حَديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[4] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : الظَّاهِرُ أنَّهُ أخَذَ الذَّهبَ وكَنزَه ولـمْ يُزَكِّه ، فهَـٰذا أشَدُّ من مُجرَّد الأخْذِ[5] .

(١) أي خلَّط.
(٢) انظر السير : (ابن مَندَة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٢٢ .
(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٤ .
(٤) انظر السير : (ابن طَبَرْزَذ) ٢١/ ٥٠٧ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٥٧ .
(٥) انظر السير : (ابن طَبَرْزَذ) ٢١/ ٥٠٧ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٨ .

فمَنْ أخَذَ من الأُمَراء والكِبارِ بلا سُؤالٍ وهو مُحْتاجٌ فهٰذا مُغْتفَر له ، فإنْ أخذَ بسُؤالٍ رُخِّصَ له بقَدْرِ القُوتِ ، وما زادَ فلا ، ومَنْ سَألَ وأخَذَ فَوقَ الكِفايَة ذُمَّ ، ومَنْ سَألَ مع الغِنَىٰ والكِفايَة حَرُمَ عليه الأخْذُ ، فإنْ أخذَ المالَ والحالةُ هٰذه وكَنَزَه ولَمْ يُؤدِّ حَقَّ اللهِ فهُو من الظَّالمين الفَاسِقين ، فاسْتَفْتِ قلبَك ، وكُنْ خَصْماً لرَبِّكَ علىٰ نَفسِك .

قال عُمرُ بنُ المُبارَك بنِ سَهْلان : لَمْ يكُنْ أبو البَقاء بنُ طَبَرْزَد ثقةً ، كانَ كذَّاباً يَضعُ للنَّاسِ أسْماءَهم في الأجْزاءِ ثمَّ يَذهَبُ فيَقرأُ عَليهِم ، عَرَفَ بذلك شَيخُنا عبدُ الوَهَّاب ومُحمَّدُ بنُ ناصِر وغيرُهما .

تُوفِّي أبو حَفْص بنُ طَبَرْزَد في سنة سَبعٍ وستِّ مئة ، ودُفنَ بباب حَرْب ، واللهُ يُسامِحه ، فمَعَ ما أبْدَينا من ضَعْفِه قد تَكاثَرَ عليه الطَّلبَةُ ، وانْتشَرَ حَديثُه في الآفاقِ وفَرِحَ الحُفَّاظُ بعَواليه ، ثم في الزَّمَن الثاني تَزاحَموا علىٰ أصْحابِه ، وحَمَلوا عَنهم الكَثيرَ وأحْسَنُوا الظَنَّ ، والله الموعد ، ووَثَّقَه ابنُ نُقْطَة[1] .

٥ـ عَدمُ الإكثار من التَّحْديث :

قال أبو هلال : سَمعتُ قَتادَةَ يَقولُ : إنَّ الرَّجُلَ ليَشْبَعُ من الكَلامِ كَما يَشبَعُ من الطَّعام[2] .

٦ـ ضابطٌ في الإكثار من التَّحْديث بالأحاديث :

عن ابنِ عجْلان : أنَّ أبا هُرَيْرَةَ كان يقولُ : إني لأُحَدِّثُ أحاديثَ ، لوْ تَكلَّمتُ بها في زَمَنِ عُمَر لشُجَّ رأسي .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هٰكذا هو كان عُمرُ رضي الله عنه يقولُ : أقِلُّوا الحَديثَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وزَجرَ غَيرَ واحدٍ من الصَّحابَة عن بَثِّ الحَديثِ ، وهٰذا مَذهبٌ لعُمَرَ ولغَيرِه .

---

(١) انظر السير : (ابن طَبَرْزَد) ٢١/ ٥٠٧ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٨ .

(٢) انظر السير : (قَتادَة) ٥/ ٢٦٩ـ ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/٦٠٢ .

فبالله عليك ، إذا كان الإكْثارُ من الحَديثِ في دَولَة عُمَر ، كانوا يُمْنَعُون فيه ، مع صِدقِهم وعَدالَتِهم وعَدَم الأسَانيد ، بلْ هو غَضٌّ لَمْ يُشَبْ ، فما ظَنك بالإكْثارِ من رِوايَة الغَرائِبَ والمَنَاكير في زَمانِنا مع طُولِ الأسَانيد ، وكَثرَة الوَهْم والغَلَط ، فبالحَريِّ أنْ نَزجُرَ القَومَ عنه ، فيا لَيْتَهم يَقتصرُون علىٰ رِوايَة الغَريبِ والضَّعيفِ ، بلْ يَرْوُونَ ـ والله ـ المَوْضُوعات والأباطِيل ، والمُسْتحيل في الأصُول والفُروع والمَلاحِم ، والزُّهْدِ ، نَسألُ اللهَ العافية[1] .

فَمَنْ رَوَىٰ ذلك مع علمِه ببُطْلانِه ، وغرَّ المُؤمنينَ ، فهٰذا ظالمٌ لنفسِه ، جانٍ على السُّنَن والآثار ، يُسْتَتاب من ذلك ، فإنْ أنابَ وأقْصَر ، وإلاَّ فهو فاسِقٌ ، كفىٰ به إثْماً أنْ يُحدِّثَ بكلِّ ما سَمع وإنْ هو لمْ يَعْلمْ ، فليَتَوَرَّعْ ، وليَسْتَعِنْ بمَنْ يُعينُه علىٰ تَنْقيَةِ مَرْوِيّاتِه نَسألُ اللهَ العافية ، فلقَد عَمَّ البَلاءُ ، وشَملت الغَفلَةُ ، ودَخلَ الدَّاخِلُ على المُحَدِّثين الذين يَرْكَنُ إليهم المُسْلمونَ ، فلا عُتبَىٰ على الفُقَهاءِ وأهْلِ الكَلام[2] .

٧ـ شُبْهَة تَكذيب بعض مَنْ لا يَعْلم أبا هُرَيْرَة رضي الله عنه ورَدُّها :

عن أبي أنَس مالِكِ بنِ أبي عامِر ، قال : جاءَ رَجلٌ إلىٰ طَلْحَةَ ابنِ عُبَيد الله ، فقالَ : يا أبا مُحمَّد ، أرأيتَ هٰذا اليَماني ـ يَعني : أبا هُرَيْرَة ـ أهو أعْلمُ بحَديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم منكُم ؟ نَسمَعُ منهُ أشْياءَ لا نَسْمَعُها منكُم ، أمْ هو يَقولُ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ما لَمْ يَقُلْ ؟ قالَ : أمَا أنْ يَكُونَ سَمعَ ما لَمْ نَسْمَع ، فلا أشُكُّ ، سأحَدِّثُك عن ذلك : إنَّا كُنَّا أهلَ بُيُوتاتٍ وغَنَمٍ وعَمَلٍ ، كُنَّا نأتي رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم طَرَفَيْ النهار ، وكان مِسْكيناً ، ضَيفاً علىٰ بابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، يَدُه مع يَدِه ، فلا نَشكُّ أنَّه سَمِعَ ما لَمْ نَسْمَع ، ولا تَجِدُ أحَداً فيه خَيرٌ يَقولُ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ما لَمْ يَقُلْ[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣١٠ .
(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٣١١ .
(٣) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣١١ .

عن إبراهيمَ ، قالَ : ما كانوا يَأخُذون من حَديثِ أبي هُرَيْرَة إلاَّ ما كانَ حَديثَ جَنَّةٍ أو نَارٍ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هٰذا لا شَيء ، بل احْتجَّ المسلمونَ قَديماً وحَديثاً بحَديثِه ، لحِفْظِه وجَلالَتِه وإتْقانِه وفِقْهِهِ ، وناهِيكَ أنَّ مثلَ ابنِ عبَّاس يَتأدَّبُ مَعَه ، ويَقولُ : أفْتِ يا أبا هُرَيْرَة .

وأصَحُّ الأحَاديثِ ما جَاءَ عن الزُّهْرِيِّ ، عن سَعيدِ بنِ المُسَيَّب ، عن أبي هُرَيْرَة .

وما جاءَ عن أبي الزِّنادِ ، عن الأعْرَجِ ، عن أبي هُرَيْرَة

وما جاءَ عن ابنِ عَوْن ، وأيُّوبَ ، عن محمَّدِ بنِ سِيرينَ ، عن أبي هُرَيْرَة وأين مثلُ أبي هُرَيْرَة في حِفْظِه وسِعَةِ عِلْمِه[١] .

وقال يوسُفُ بنُ علي الزنْجانيُّ الفَقيه : سَمعتُ الفَقيهَ أبا إسْحاقَ الفَيْروزابادي : سَمعتُ القاضي أبا الطيب يقولُ : كنَّا في مَجلِسِ النَّظَر بجامِع المَنْصُور ، فجاءَ شابٌّ خُراسانيٌّ ، فسَألَ عن مَسْألَةِ المُصرَّاة[٢] ، فطالَبَ بالدَّليلِ ، حتَّى اسْتدَلَّ بحَديثِ أبي هُرَيْرَة الوَارِدِ فيها .

فقالَ ـ وكان حَنفيّاً ـ : أبو هُرَيْرَة غيرُ مَقْبولِ الحَديثِ .

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/٥٧٨ـ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣١١ .

(٢) المُصَرَّاة : الناقة أو البقرة أو الشاة يُصَرَّى اللَّبنُ في ضَرعها ، أي : يُجْمَع ويُحبَس ، ثم تُباع فيظنُّها المشتري كثيرة اللبن ، فيزيد في ثمنها ، فإذا حلبَها مرتين أو ثلاثاً وقف على التصرية والغرور ، وحديث أبي هريرة الوارد فيها هو في « المُوطَّأ » (٢/٦٨٣ ، ٦٨٤) في البيوع : باب ما ينهىٰ عنه من المساومَة والمُبايَعَة أخرجه البُخاريُّ عن عبد الله بن يوسف ، ومسلمٌ (١٥١٥) ، (١١) عن يَحْيَى بن يَحْيَىٰ ، كلاهما عن مالك ، عن أبي الزِّناد ، عن عبد الله بن ذَكْوان ، عن الأعْرج ، عن أبي هُرَيْرَة ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تصرُّوا الإبلَ والغَنمَ ، فمَن ابتاعها بعد ذلك ، فهو بخير النظرين بعد أن يحلبهما ، إن رضيها أمسكها ، وإن سخطها ردَّها وصاعاً من تمر » أي : يردها بعيب التصرية ، ويرد معها صاعاً من تمر مكان ما حلب من اللبن ، وهو قول مالك والشافعي والليث بن سعد وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثور .

فما اسْتَتَمَّ كَلامَه ، حتىٰ سَقَطَت عليه حيَّةٌ عَظيمَةٌ من سَقْف الجامِع ، فوَثب النَّاسُ من أجْلِها ، وهَربَ الشَّابُّ منها ، وهيٰ تَتبَعُه .

فقِيلَ له : تُبْ ، تُبْ فقال : تُبتُ فغَابَت الحيّةُ ، فلمْ يُرَ لها أثَرٌ .

إسنادها أئمة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ : قد كان أبو هُرَيْرَة وَثيقَ الحِفْظِ ، ما عَلمْنَا أنَّه أخْطأَ في حَديثٍ[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو هُريْرَة) ٢/٥٧٨-٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/٣١٣ .

(٢) انظر السير : (أبو هُريْرَة) ٢/٥٧٨-٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٣١٥ .

(٤) الفِقه

١ـ الفُقَهاءُ العاملون أوْلياءُ الله :

قالَ الرَّبيعُ : قالَ ليَ الشَّافعيُّ : إنْ لَمْ يَكنْ الفُقهاءُ العاملُونَ أوْلياءُ الله فما لله وَليٌّ[١] .

٢ـ الفِقْهُ الحَقيقي :

عن عِمْرانَ القَصير ، قالَ : سَألتُ الحَسَنَ البَصْريَّ عن شَيءٍ فقُلتُ : إنَّ الفُقهاءَ يَقولونَ كَذا وكَذا ، فقالَ : وهل رَأيت فَقيهاً بعَيْنِكَ إنَّما الفَقيهُ : الزَّاهِدُ في الدُّنيا ، البَصيرُ بدِينِه ، المُداوِمُ علىٰ عبادَةِ رَبِّه[٢] .

٣ـ قَواعِدُ في الاجْتهاد والتَّقْليد :

قال مالكيٌّ : قد نَدُرَ الاجْتهادُ اليومَ ، وتَعذَّرَ ، فمالِكٌ أفْضَلُ مَنْ يُقلِّد ، فرَجَحَ تَقليدُه[٣] .

وقال شَيخٌ : إنَّ الإمامَ لِمَنِ الْتَزَمَ بتَقليدِه ، كالنَّبيِّ مع أُمَّتِه ، لا تَحِلُّ مُخالَفَتُه[٤] .

قال الذهبيُّ : قولُه لا تَحِلُّ مُخالَفَتُه : مُجرَّدُ دَعوَىٰ ، واجْتهادٌ بلا مَعرِفَة ، بل له مُخالَفَةُ إمامِه إلىٰ إمامٍ آخَرَ ، حُجَّتُه في تلك المَسْألة أقْوَىٰ ، لا بَلْ عيه اتِّباعُ الدَّليلِ فيما تَبَرْهَنَ له ، لا كَمَنْ تَمَذْهَبَ لإمامٍ ، فإذا لاحَ له ما يُوافِقُ هَواه ، عَمِلَ به من أي مَذْهَب كان ، ومَنْ تَتَبَّعَ رُخَصَ المَذاهِبِ ، وزَلاَّتِ المُجْتَهدين ، فقد رَقَّ دينُه ، كما قالَ الأَوْزاعيُّ أو غيرُه : مَنْ أخَذَ بقَولِ المَكيِّينَ في المُتْعَةِ ، والكُوفيِّينَ في النَّبيذِ ،

---

(١) انظر السير : (الإمام الشّافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٥٠ .
(٢) انظر السير : (الحَسَن البَصْري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٨/٦٥٠ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٣١ .
(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣١ .

والمَدَنيِّينَ في الغِناءِ والشَّاميِّينَ في عِصْمَة الخُلَفاء ، فقد جَمعَ الشَّرَّ وكذا مَن أخَذَ في البُيُوعِ الرِّبَوِيَّة بمَنْ يتحيَّلُ عليها ، وفي الطَّلاقِ ونِكَاحِ التَّحْليلِ بمَنْ تَوَسَّعَ فيه ، وشِبْهُ ذلكَ ، فقد تَعرَّضَ للانْحِلالِ ، فنَسألُ اللهَ العافيَةَ والتَّوفيقَ[1] .

فالمُقلَّدونَ صَحابةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، بشَرطِ ثُبوتِ الإسْنادِ إليهم ، ثم أئمَّةِ التَّابعين كعلْقَمةَ ، ومَسْروق ، وعُبَيدَة السلماني ، وسَعيدِ بنِ المُسَيَّب ، وأبي الشعثاء ، وسَعيدِ بنِ جُبَير ، وعُبَيدِ الله بن عَبد الله ، وعُرْوَةَ ، والقاسِمِ ، والشَّعْبي ، والحَسَن ، وابنِ سيرينَ وإبْراهيمَ النَّخْعي .

ثم كالزُّهْريِّ ، وأبي الزِّنادِ ، وأيُّوبَ السِّخْتيانيِّ ، ورَبيعَةَ وطَبقَتِهم .

ثم كأبي حَنيفَةَ ، ومالِكٍ ، والأوْزاعيِّ ، وابنِ جُرَيْجٍ ، ومَعْمَرٍ ، وابنِ أبي عروبَة ، وسُفيانَ الثَّوْريِّ ، والحمَّادَين ، وشُعْبَة ، واللَّيْثِ ، وابنِ الماجشُّون ، وابنِ أبي ذِئْب .

ثم كابنِ المُبارَك ، ومُسْلمِ الزَّنجيِّ ، والقاضي أبي يوسُف ، والهِقل ابنِ زياد ، ووَكيعٍ ، والوَليدِ بنِ مُسْلمٍ ، وطَبقَتِهم .

ثم كالشَّافعيِّ ، وأبي عُبَيْدٍ ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، وأبي ثَوْرٍ ، والبُويطي ، وأبي بَكْرِ بنِ أبي شَيْبَة .

ثم كالمُزَنيِّ ، وأبي بَكْرٍ الأثْرَم ، والبُخاريِّ ، ودَاوُدَ بنِ عليٍّ ، ومحمَّدِ ابنِ نَصْرٍ المَرْوزيِّ ، وإبْراهيمَ الحَربيِّ ، وإسْماعيلَ القاضي .

ثم كمُحمَّدِ بنِ جَرير الطَّبريِّ ، وأبي بَكْرِ بنِ خُزَيْمَة ، وأبي عبَّاس بنِ سُرَيْج ، وأبي بَكْرِ بنِ المُنْذِر ، وأبي جَعْفَرَ الطَّحاويِّ ، وأبي بَكْرٍ الخَلاَّل[2] .

ثم من بعد هـٰذا النَّمَط تَناقَصَ الاجْتهادُ ، ووُضِعَت المُخْتَصَراتُ ، وأخْلدَ الفُقهاءُ إلى التَّقْليدِ ، من غَيرِ نَظَرٍ في الأعْلَم ، بل بحَسبِ الاتِّفاقِ ، والتَّشَهِّي ، والتَّعْظيمِ ،

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣١/ ٣ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣١/ ٥ .

والعادَةِ ، والبَلَدِ فلَوْ أرادَ الطَّالبُ اليومَ أنْ يتمذهَبَ في المَغْربِ لأبي حَنيفَة ، لعَسُرَ عليه ، كما لَوْ أرادَ أنْ يتَمَذهَبَ لابنِ حَنْبل بُخاريٌّ ، وسَمَرقَنْديٌّ ، لصَعُبَ عليه ، فلا يجيءُ منه حَنْبَليٌّ ، ولا من المَغْربيِّ حَنفيٌّ ، ولا من الهِنْديِّ مَالِكيٌّ ، وبكلِّ حال : فإلىٰ فِقْه مالك المُنْتَهىٰ فعامَّة آرائه مُسدَّدة ، ولوْ لَمْ يَكنْ له إلاَّ حَسْمُ مادة الحِيَل ، ومُراعاةُ المَقاصِدِ لكَفاهُ ، ومَذهَبُه قد مَلأ المَغربَ ، والأنْدَلُسَ ، وكثيراً من بلادِ مِصْرَ ، وبَعضَ الشَّامِ ، واليَمنِ ، والسُّودانِ ، وبالبَصْرَة ، وبَغْدادَ ، والكُوفَة ، وبَعض خُراسان ، وكذلكَ اشْتَهرَ مَذهَبُ الأوْزاعيِّ مُدَّة ، وتَلاشَىٰ أصْحابُه ، وتَفانوا وكذلك مَذهَبُ سُفْيانَ وغَيرُه مِمَّن سَمَّيْنا ، ولَمْ يَبْقَ اليومَ إلاَّ هـٰذه المَذاهبُ الأرْبَعَة وقلَّ مَنْ يَنهَضُ بمَعرِفَتِها كما يَنبغي ، فَضلاً عن أنْ يَكونَ مُجتهداً[1] .

وانْقَطعَ أتْباعُ أبي ثَوْر بعد الثَّلاثِ مِئَة ، وأصْحابُ داوُدَ إلاَّ القَليلُ ، وبَقِيَ مَذهَبُ ابنِ جَرير إلىٰ ما بَعدَ الأرْبَعِ مِئَة[2] .

وقالَ الذهبيُّ أيضاً : ولا رَيبَ أنَّ كلَّ مَنْ أنسَ من نفسه فِقْهاً ، وسِعَةَ علمٍ ، وحُسْنَ قَصْد فلا يَسَعُه الالتزامُ بمَذهَب واحدٍ في كُلِّ أقوالِه ، لأنَّه قد تَبرْهَن له مَذهَبُ الغَير في مَسائلَ ، ولاحَ له الدَّليلُ ، وقامَتْ عليه الحُجَّةُ ، فلا يُقلِّد فيها إمامَه ، بَلْ يَعمَلُ بما تَبرْهَنَ ، ويُقلِّدُ الإمامَ الآخَرَ بالبُرْهانِ ، لا بالتَّشَهِّي والغَرَضِ ، لكنَّه لا يُفْتي العامَّةَ إلاَّ بمَذهَبِ إمامِه ، أوْ ليَصْمُت فيما خَفي عليه دَليلُه .

وذَكرَ أحمدُ بنُ حَنْبل مالكاً ، فقَدَّمَه على الأوْزاعيِّ ، والثَّوريِّ ، واللَّيثِ ، وحمَّاد والحَكَم ، في العلم وقال : هو إمامٌ في الحَديثِ ، وفي الفِقْه .

وقال أسَدُ بنُ الفُرات : إذا أرَدْتَ اللهَ والدَّارَ الآخِرَةَ فعَليكَ بمَالِكٍ .

وقد ذَكرَهُ أبو عَمرٍو الدَّاني في « طَبقَاتِ القُرَّاء » وأنَّه تَلا علىٰ نافع ابن أبي نُعيم[3] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٣٢ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣٢ .

(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣٣ .

وقال الشَّافعيُّ : كلُّ ما قُلتُه فكانَ من رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خِلافُ قَولِي ممَّا صَحَّ ، فهو أوْلَىٰ ، ولا تُقلِّدُوني[١] .

وقال ابنُ خلِّكان : كان أبو القاسم الدَّارَكي يُتهَم بالاعْتِزالِ ، وكان ربَّما يَختارُ في الفَتْوَىٰ ، فيُقالُ له في ذلك ، فيَقولُ : وَيْحَكم! حَدَّثَ فُلانٌ عَن فُلانٍ ، عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بكَذا وكَذا والأخْذُ بالحَديثِ أوْلَىٰ من الأخْذِ بقَولِ الشَّافعيِّ وأبي حَنيفَة .

قال الذهبيُّ : هٰذا جيدٌ ، لكن بشَرطِ أنْ يَكونَ قَد قالَ بذلكَ الحَديثِ إمامٌ من نُظَراءِ هَٰذَين الإمامَين مثلُ مالكٍ ، أو سُفْيان ، أو الأوْزاعيّ وبأنْ يَكونَ الحَديثُ ثابتاً سالِماً من عِلَّة ، وبأن لا يَكونَ حُجَّةُ أبي حَنيفَة والشَّافعيِّ حَديثاً صَحيحاً مُعارِضاً للآخَر .

أمَّا مَنْ أخَذَ بحَديثٍ صَحيحٍ وقد تَنكَّبَه سائرُ أئمَّة الاجْتهادِ فلا ، كخَبَر : « فإنْ شَرِبَ في الرَّابِعَةِ فَاقْتُلُوهُ » ، وكحَديثِ « لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ ، يَسْرِقُ البَيْضَةَ ، فَتُقْطَعُ يَدُهُ » .

تُوفِّيَ الدَّارَكيُّ ببَغْدادَ سَنةِ خَمسٍ وسَبعينَ وثَلاثِ مِئَة وهو في عَشْر الثَّمانينَ وكانَ ثِقةً صَدوقاً .

ودَارَك : من أعْمال أصْبَهان[٢] .

جاء في تَرجَمة ابنِ حَزْم ، قال الذهبيُّ : قيل إنه تَفَقَّه أولاً للشَّافِعيِّ ، ثم أدَّاهُ اجْتهادُه إلى القَولِ بنَفْيِ القِياسِ كُلّه جَليّه وخَفيّه ، والأخْذِ بظاهِرِ النَّص وعُمومِ الكِتاب والحَديث ، والقَولِ بالبَراءَة الأصْليّة ، واسْتصْحابِ الحَال ، وصَنَّفَ في ذلك كُتباً كثيرة ، وناظَرَ عليه ، وبَسَط لسانَه وقَلمَه ، ولمْ يَتأدَّبْ مع الأئِمَّة في الخِطاب ، بلْ فجَّجَ[٣] العِبارَة وسَبَّ وجدَّع[٤] ، فكان جَزاؤُه من جِنْسِ فعلِه ، بحَيثُ إنَّه أعْرَضَ عن

---

(١) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥-٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٤٨ .

(٢) انظر السير : (الدَّارَكيّ) ١٦/ ٤٠٤-٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٠١ .

(٣) المعنىٰ أنه ساق العبارة فجّةً قاسية .

(٤) الجَدْع في الأصل : القَطْع ، وهو كناية عن الذَّم والشَّتْم .

تَصانيفِه جَماعَةٌ من الأئمَّة ، وهَجَروهُا ونَفَروا منها ، وأُحرِقَتْ في وَقتٍ ، واعْتَنَىٰ بها آخَرونَ من العُلماء وفتَّشُوها انْتِقاداً واسْتفادَةً ، وأَخْذاً ومُؤاخَذَةً ، ورَأوا فيها الدُّرَّ الثَّمينَ مَمْزُوجاً في الرَّصْفِ بالخَرَزِ المَهين ، فتارَةً يَطْرَبون ، ومرَّةً يُعْجَبون ، ومن تَفرُّدِه يَهزَؤُون .

وفي الجُملَة فالكَمالُ عَزيزٌ ، وكلُّ أَحَد يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يَنهَضُ بعُلوم جَمَّة ، ويُجيدُ النَّقْلَ ، ويُحسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ وفيه دينٌ وخَيرٌ ومَقاصِدُهُ جَميلةٌ ، ومُصنَّفاتُه مُفيدَةٌ ، وقد زَهدَ في الرِّئاسَة ، ولَزِمَ مَنزلَه مُكبَّاً على العِلمِ ، فلا نَغْلو فيه ، ولا نَجْفو عنه ، وقد أَثْنىٰ عليه قبلَنا الِكبارُ :

قال أبو حامد الغَزاليّ : وَجدتُ في أَسْماءِ اللهِ تَعالَىٰ كتاباً أَلَّفَه أبو محمَّد بنُ حَزْم الأنْدَلُسيّ يَدلُّ علىٰ حفظِه وسَيلانِ ذِهْنه .

وقال أبو عبد الله الحُمَيديّ : كان ابنُ حَزْم حافظاً للحَديثِ وفِقهِه ، مُستنبطاً للأحْكامِ من الكتابِ والسنَّة ، مُتفنِّناً في عُلوم جمَّة عاملاً بعلمِه ، ما رأينا مثلَه فيما اجْتمعَ له من الذَّكاء وسُرعةِ الحِفظِ وكرمِ النَّفس والتَّديُّن ، وكان له في الأدَبِ والشِّعْر نَفسٌ واسعٌ وباعٌ طَويلٌ وما رأيتُ مَنْ يقولُ الشِّعرَ على البَديهِ أَسْرعَ منه وشِعرُه كثيرٌ جَمعتُه علىٰ حُروفِ المُعْجَم .

وقد حَطَّ أبو بَكْر بنُ العَربيِّ علىٰ أبي محمَّد في كتابِ « القَواصِم والعَواصِم » وعلى الظَّاهِريَّة ، فقال : هي أُمَّةٌ سَخيفَةٌ ، تَسوَّرت علىٰ مَرتَبةٍ ليست لها ، وتَكلَّمت بكلامٍ لمْ نَفْهَمْه ، تلَقَّوْه من إخْوانِهمُ الخَوارج حين حكَّم عليٌّ ، رضي الله عنه ، يوم صفين ، فقالت : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وكان أوَّلُ بدْعَةٍ لَقيتُ في رِحْلتي القَولَ بالباطِن ، فلمَّا عُدتُ وجَدتُ القَولَ بالظَّاهر قد مَلأَ به المَغربَ سَخيفٌ كان من بادِيَة إشْبيليَّة يُعرفُ بابنِ حَزْم ، نَشأ وتَعلَّق بمَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم انتُسبَ إلىٰ داوُد ، ثم خَلعَ الكُلَّ ، واسْتقَلَّ بنفسِه ، وزَعمَ أنَّه إمامُ الأُمَّة يَضعُ ويَرفَع ، ويَحكمُ ويشرعُ ، يَنْسبُ إلىٰ دين الله ما ليس فيه ، ويقولُ عن العُلماءِ ما لم يَقولوا تَنْفيراً للقُلوبِ منهم ، وخَرجَ عن طَريق المُشبِّهَة

في ذاتِ الله وصِفاتِه ، فجاءَ فيه بطَوامَّ ، واتَّفقَ كونُه بين قَومٍ لا بَصَرَ لهم إلاَّ بالمَسائل فإذا طالبَهم بالدَّليلِ كاعوا[1] فيَتضاحَكُ مع أصحابه منهم ، وعَضَدَتْهُ الرِّئاسَةُ بما كان عنده من أدَبٍ ، وبشُبَهٍ كان يُوردُها على الملوك فكانوا يَحملُونَه ، ويَحمونَه ، بما كان يُلقي إليهم من شُبَهِ البِدَعِ والشِّرْك ، وفي حين عَودي من الرِّحْلة ألفيتُ حَضْرتي منهم طافِحَة ، ونارَ ضلالِهم لافِحَة ، فقاسَيتُهم مع غَير أقْران وفي عَدَم أنْصار إلىٰ حُسَّاد يَطؤون عَقبي ، تارَةً تذهبُ لهم نفسي ، وأخْرىٰ يَنْكَشِرُ بهم ضِرْسي ، وأنا بين إعْراضٍ عنهم أو تَشَغْبُبٍ بهم ، وقد جاءَني رجلٌ بجُزْء لابنِ حَزْم سمَّاه « نُكَتُ الإسْلام » فيه دَواهي ، فجَرَّدتُ عليه نَواهي ، وجاءَني آخَرُ برسالة في الاعْتقاد فنَقضتُها برسالة « الغُرَّة » والأمرُ أفْحَشُ من أنْ يُنقَض[2] .

يقُولون : لا قَولَ إلاَّ ما قالَ اللهُ ، ولا نَتَّبعُ إلاَّ رسُولَ الله ، فإنَّ اللهَ لَمْ يأمُرْ بالاقْتِداء بأحَد ولا بالاهْتداء بهَدْي بشَر ، فيَجبُ أنْ يَتحققَّوا أنَّهم ليسَ لهم دَليلٌ وإنَّما هي سَخافَةٌ في تَهْويل ، فأوصيكم بوَصيَّتين : أنْ لا تَسْتدلُّوا عليهم ، وأنْ تُطالبُوهم بالدَّليلِ ، فإنَّ المُبتَدعَ إذا اسْتدلَلْتَ عليه شَغبَ عليك ، وإذا طالَبتَه بالدَّليل لمْ يَجدْ إليه سَبيلاً فأمَّا قَولُهم : لا قَولَ إلاَّ ما قالَ اللهُ ، فحَقٌّ ، ولكنْ أرِني ما قالَ وأمَّا قَولُهم : لا حكمَ إلاَّ لله فغَيرُ مُسَلَّم على الإطْلاقِ ، بلْ مِنْ حُكْمِ اللهِ أنْ يَجعلَ الحُكْمَ لغَيرِه فيما قالَه وأخْبَرَ به .

صَحَّ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ : « وَإذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَلا تُنْزِلْهُم عَلَىٰ حُكمِ اللهِ ، فإنَّكَ لا تَدْري مَا حُكمُ اللهِ ، وَلَكنْ أَنْزِلْهُم عَلَىٰ حُكْمِكَ » وصَحَّ أنَّه قال : « عَلَيْكمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ » الحديث .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يُنصِفْ القاضي أبو بَكْر ـ رَحمَه الله ـ شَيخَ أبيه في العِلمِ ، ولا تَكلَّمَ فيه بالقِسْط ، وبالَغَ في الاسْتخفافِ به ، وأبو بَكْر عَلىٰ عَظمَته في العِلم لا يَبلُغُ رُتبَةَ أبي محمَّد ، ولا يَكادُ ، فرَحمَهما اللهُ وغَفرَ لهما .

---

(١) أي : جَبُنوا .

(٢) انظر السير : (ابن حَزم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٧ .

قال اليَسَعُ بنُ حَزْم الغافِقيُّ وذَكرَ أبا محمَّد فقالَ : حدَّثني عنه عُمرُ بنُ واجب قال : بَينما نحنُ عندَ أبي ببَلَنْسِيَةَ وهو يُدرِّسُ المَذهَبَ إذا بأبي محمَّد بن حَزْم يَسْمَعُنا ، ويَتعَجَّبُ ، ثم سأَلَ الحاضرينَ مَسْأَلَةً من الفِقْه ، جُووب فيها ، فاعْترَضَ في ذلك ، فقالَ له بَعضُ الحُضَّار : هٰذا العلمُ ليسَ من مُنتَحَلاتك ، فقامَ وقَعدَ ، ودَخلَ مَنزِلَه فعَكفَ ، ووَكَفَ[1] منه وابلٌ فما كَفَّ ، وما كانَ بعد أشْهُر قَريبَة حتىٰ قَصَدْنا إلىٰ ذلك المَوْضِع فناظَرَ أحسَنَ مُناظَرَةً ، وقال فيها : أنا أتَّبِعُ الحَقَّ ، وأجْتَهدُ ولا أتَقَيَّدُ بمَذهَبٍ[2] .

قال الذهبي : نعم ، مَنْ بَلغَ رُتْبَةَ الاجْتهادِ ، وشَهدَ له بذلكَ عدَّة من الأئمَّة ، لم يَسُغْ له أنْ يُقَلِّدَ ، كما أنَّ الفَقيهَ المُبْتدىءَ والعامِّيَّ الذي يَحفَظُ القُرآنَ أوْ كثيراً منه لا يَسُوغُ له الاجْتهادُ أبَداً ، فكَيفَ يَجْتهدُ وما الذي يَقولُ ؟ وعَلامَ يَبني ؟ وكَيفَ يَطيرُ ولمَّا يُرَيِّش ؟ والقِسْمُ الثالثُ : الفَقيهُ المُنْتَهي اليَقِظُ الفَهِمُ الْمُحَدِّثُ ، والذي قد حَفظَ مُختصَراً في الفُروع ، وكتاباً في قَواعِدِ الأصُول ، وقَرأ النَّحوَ ، وشارَك في الفَضائل مع حِفظِه لكتابِ اللهِ وتَشاغُلِه بتَفسيرِه ، وقُوَّة مُناظَرَتِه ، فهٰذه رُتبَةُ مَنْ بَلغَ الاجْتهادَ المُقيَّد ، وتأهَّلَ للنَّظَرِ في دَلائِل الأئمَّة ، فمَتىٰ وَضُحَ له الحَقُّ في مَسألَة ، وثَبَتَ فيها النصُّ ، وعَملَ بها أحدُ الأئمَّةِ الأعْلام كأبي حَنيفَة مَثلاً ، أو كمَالِك ، أو الثَّوْريِّ ، أو الأوْزاعيِّ ، أو الشَّافعيِّ وأبي عُبَيد ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، فليَتَّبعْ فيها الحَقَّ ولا يَسلُكِ الرُّخَص وليَتورَّع ، ولا يَسعُه فيها بَعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه تَقْليدٌ[3] .

٤ـ الفُقَهاءُ السَّبْعَة :

رَوَى الواقِديُّ عن عبدِ الرحمَٰن بنِ أبي الزِّنادِ ، عن أبيه ، قالَ : كانَ الفُقَهاءُ السَّبعَةُ الذينَ يُسألُونَ بالمَدينَةِ ويُنْتَهىٰ إلىٰ قَولِهم : سَعيدُ ابنُ المُسَيِّب ، وأبو بَكْر بنُ

---

(١) وَكَفَ : قطر .

(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٩ .

(٣) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٠ .

عبدِ الرحمَـٰن ، وعُرْوَةُ ، والقاسِمُ ، وعُبَيْدُ اللهِ ابنُ عَبدِ الله ، وخارِجَةُ بنُ زَيْد ، وسُلَيمانُ بنُ يَسار[1] .

٥ـ مَذاهِبُ فقهيّة غير المَذاهب الأربعَة :

جاء في تَرجمَة الإمام مالِك ، قال الذهبيُّ : وللزَّيْديَّة مَذهبٌ في الفُروع بالحِجازِ واليَمَنِ ، لكنَّه مَعدُودٌ في أقْوالِ أهْلِ البِدَع ، كالإماميّة ، ولا بأسَ بمَذهَبِ داوُد ، وفيه أقْوالٌ حَسَنةٌ ، ومُتابَعَةٌ للنُّصوصِ ، مع أنَّ جَماعَةً من العُلَمَاء لا يَعْتدُّون بخِلافِه ، وله شُذوذٌ في مَسائل شانَت مَذْهَبَه .

ولكن هـٰذا الإمامُ الذي هو النَّجْمُ الهادي قد أنْصَفَ ، وقال قَولاً فَصْلاً ، حَيثُ يقولُ : كُلُّ أحَدٍ يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ صاحِبُ هـٰذا القَبر صلى الله عليه وسلم[2] .

٦ـ مَذاهِبُ فقهيّة فَنِيَت :

جاء في تَرجمَة الإمامِ الأوْزاعيِّ قالَ الذهبيُّ : وله مَسائلُ كَثيرةٌ حَسَنةٌ يَنفَرِدُ بها ، وهي مَوْجودَةٌ في الكُتبِ الكِبار ، وكان له مَذْهَبٌ مُسْتقلٌّ مَشْهُورٌ ، عَملَ به فُقَهاءُ الشَّامِ مُدَّة ، وفُقَهاء الأنْدَلُس ثم فَنِيَ[3] .

وقالَ الذهبيُّ رَحِمَهُ الله بَعدمَا ذَكَرَ المُقَلَّدينَ مُرَتَّبين من الصَّحابَة ثم التَّابِعينَ ثم من بَعدِ هـٰذا النَّمَط تَناقَصَ الاجْتِهادُ ، ووُضِعَت المُخْتَصَراتُ ، وأخْلدَ الفُقهاءُ إلى التَّقْليدِ ، من غَيرِ نَظَرٍ في الأعْلَم ، بل بحَسبِ الاتِّفاقِ ، والتَّشَهِّي ، والتَّعْظيمِ ، والعادَةِ ، والبَلَدِ فلَوْ أرادَ الطَّالبُ اليومَ أنْ يتَمذهَبَ في المَغْربِ لأبي حَنيفَة ، لعَسُرَ عليه ، كما لَوْ أرادَ أنْ يتَمَذهَبَ لابنِ حَنْبل بُخارِيٍّ ، وسَمَرقَنْديٍّ ، لصَعُبَ عليه ، فلا

---

(١) انظر السير : (خارجة بن زَيد) ٤/ ٤٣٧ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٩ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٣٣ .
(٣) انظر السير : (الأوْزاعيُّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٦٨٢ .

يجيءُ منه حَنْبَليٌّ ، ولا من المَغْربيِّ حَنفيٌّ ، ولا من الهِنْديِّ مَالِكيٌّ ، وبكلِّ حال : فإلىٰ فِقْه مالك المُنْتَهىٰ فعامَّة آرائِه مُسدَّدة ، ولوْ لَمْ يَكنْ له إلاَّ حَسْمُ مادة الحِيَل ، ومُراعاةُ المَقاصِدِ لكَفاهُ ، ومَذهَبُه قد مَلأَ المَغربَ ، والأنْدَلُسَ ، وكثيراً من بلادِ مِصْرَ ، وبَعضَ الشَّامِ ، واليَمنِ ، والسُّودانِ ، وبالبَصْرَة ، وبَغْدادَ ، والكُوفَة ، وبَعضَ خُراسان ، وكذلكَ اشْتَهرَ مَذهَبُ الأوْزاعيِّ مُدَّة ، وتَلاشَىٰ أصْحابُه ، وتَفانوا وكذلك مَذهَبُ سُفْيانَ وغَيرُه مِمَّن سَمَّيْنا ، ولَمْ يَبْقَ اليومَ إلاَّ هـٰذه المَذاهبُ الأرْبَعَة وقلَّ مَنْ يَنهَضُ بمَعرِفَتِها كما يَنبغي ، فَضلاً عن أنْ يَكونَ مُجتهداً[1] .

وانْقَطعَ أتْباعُ أبي ثَوْر بعد الثَّلاثِ مِئَة ، وأصْحابُ داوُدَ إلاَّ القَليلُ ، وبَقِيَ مَذهَبُ ابنِ جَريرِ إلىٰ ما بَعدَ الأرْبَعِ مِئَة[2] .

٧ـ العُلَماءُ المُقَلَّدون :

فالمُقلَّدونَ صَحابةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، بشَرطِ ثُبوتِ الإسْنادِ إليهم ، ثم أئمَّةِ التَّابِعين كعلْقَمةَ ، ومَسْروق ، وعُبَيدَة السلماني ، وسَعيدِ بنِ المُسَيَّب ، وأبي الشعثاء ، وسَعيدِ بنِ جُبَير ، وعُبَيدِ الله بنِ عَبد الله ، وعُرْوَةَ ، والقاسِمِ ، والشَّعْبي ، والحَسَن ، وابنِ سيرينَ وإبْراهيمَ النَّخْعي .

ثم كالزُّهْريِّ ، وأبي الزِّنادِ ، وأيُّوبَ السِّخْتيانيِّ ، ورَبيعَةَ وطَبقَتِهم .

ثم كأبي حَنيفَةَ ، ومالِكٍ ، والأوْزاعيِّ ، وابنِ جُرَيْجٍ ، ومَعْمَرٍ ، وابنِ أبي عروبَة ، وسُفْيانَ الثَّوْريِّ ، والحمَّادَين ، وشُعْبَة ، واللَّيْثِ ، وابنِ الماجشُّون ، وابنِ أبي ذِئْب .

ثم كابنِ المُبارَك ، ومُسْلمِ الزَّنجيِّ ، والقاضي أبي يوسُف ، والهِقل ابنِ زياد ، ووَكيعِ ، والوَليدِ بنِ مُسْلمٍ ، وطَبقَتِهم .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٢/ ١ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٢/ ٢ .

ثم كالشَّافعيِّ ، وأبي عُبَيْدٍ ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، وأبي ثَوْرٍ ، والبُويطي ، وأبي بَكْرِ بنِ أبي شَيْبَة .

ثم كالمُزَنيِّ ، وأبي بَكْرِ الأثْرَم ، والبُخاريِّ ، ودَاوُدَ بنِ عليٍّ ، ومحمَّدِ ابنِ نَصْرٍ المَرْوزيِّ ، وإبْراهيمَ الحَربيِّ ، وإسْماعيلَ القاضي .

ثم كمُحمَّدِ بنِ جَرير الطَّبريِّ ، وأبي بَكْرِ بنِ خُزَيْمَة ، وأبي عبَّاس بنِ سُرَيْج ، وأبي بَكْرِ بنِ المُنْذِر ، وأبي جَعْفَرَ الطَّحاويِّ ، وأبي بَكْرِ الخَلاَّل[1] .

٨ـ تَتبُّع الرُّخَص فِسقٌ :

قال سُليمانُ التَّيميُّ : لَوْ أخَذتَ برُخْصَة كُلِّ عالِم اجْتَمَعَ فيكَ الشَّرُّ كلُّه[2] .

وجاءَ في تَرجمَة المُعْتَضدِ بالله ، قال إسْماعيلُ القاضِي : ودَخَلتُ مرَّةً ، فدَفَع إليَّ كتاباً ، فنَظَرتُ فيه ، فإذا قد جُمعَ له فيه الرُّخَصُ من زَلَلِ العُلماءِ ، فقُلتُ : مُصنِّفُ هـٰذا زِنْديقٌ قالَ : ألمْ تَصِحَّ هـٰذه الأحاديثُ ؟ قلتُ : بلَىٰ ، لكن مَنْ أباحَ المُسْكِرَ لَمْ يُبِحْ المُتْعَةَ ، ومَنْ أباحَ المُتْعَةَ لَمْ يُبِحْ الغِناءَ ، وما مِنْ عالمٍ إلاَّ ولَه زَلَّة ، ومَنْ أخَذَ بكُلِّ زَلَلِ العُلماءِ ذَهبَ دِينُه ، فأمَرَ بالكتابِ فأُحْرِق[3] .

٩ـ ماذا يَعمل مَنْ أرادَ التَّفَقُّه :

قال الإمامُ الذهبيُّ : شأنُ الطَّالِبِ أنْ يَدرُسَ أوَّلاً مُصَنَّفاً في الفِقْه ، فإذا حَفظَه ، بَحثَه ، وطالَعَ الشُّروحَ ، فإنْ كانَ ذَكياً ، فَقيهَ النَّفسِ ، ورأىٰ حُجَجَ الأئمة ، فليُراقِبِ اللهَ ، وليَحْتَطْ لدِينِه ، فإنَّ خَيرَ الدِّينِ الوَرَعُ ، ومَنْ تَركَ الشُّبهات ، فقَد اسْتبرأ لدِينِه وعِرْضِه ، والمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ[4] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٣١ .
(٢) انظر السير : (سُليمانُ بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/٦٤١ .
(٣) انظر السير : (المُعْتَضِد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٣ .
(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٣١ .

١٠ـ التحذير من الرأي والقِياس بالهَوىٰ :

قال أبو زُرعَة الدِّمَشقيُّ : حدَّثنا يَزيدُ بنُ عبد ربِّه يقولُ : سَمعتُ وَكيعاً يقولُ ليَحْيَى الوحاظيِّ : اجْتَنبِ الرأيَ ، فإنِّي سَمعتُ أبا حَنيفَة رَحمَه اللهُ يقولُ : البَوْلُ في المَسْجدِ أحْسَنُ من بَعضِ قِياسِهم .

وقد ماتَ الوحاظيُّ سنةَ اثنَتين وعشْرينَ ومئتَين[١] .

١١ـ فَضْلُ الإجْماع :

قال الزَّنْجانيُّ في قَصيدتِه[٢] :

ومـا أجْمَعـتْ فيـه الصَّحـابَـةُ حُجَّـةٌ	وتِلْـكَ سبيـلُ المُـؤمنيـنَ لِمَـن سَبَـرْ
فَفِي الأَخذِ بالإجمَاعِ ـ فاعْلَم ـ سعادَةٌ	كما في شُذوذِ القَوْلِ نَوعٌ من الخَطَر

١٢ـ الفِقْهُ الظَّاهِري :

قال الإمامُ الذهبيُّ : للعُلماءِ قَولانِ في الاعْتِدادِ بخِلافِ داوُد وأتبَاعِه : فمَن اعْتدَّ بخِلافِهم ، قالَ : ما اعْتدادُنا بخِلافِهم لأنَّ مُفْرَداتِهم حُجَّة ، بل لتُحْكَىٰ في الجُملَة ، وبَعضُها سائغٌ ، وبَعضُها قَويٌّ وبَعضُها ساقطٌ ، ثم ما تَفرَّدوا به هو شَيءٌ من قَبيلِ مُخالَفَة الإجْماعِ الظنِّي ، وتَندُرُ مُخالَفَتُهم لإجْماعٍ قَطْعيٍّ ومَنْ أهْدَرَهم ، ولَمْ يَعْتَد بهم ، لمْ يَعدَّهم في مَسائلِهم المُفردَة خارجين بها من الدِّين ، ولا كَفَّرهم بها ، بلْ يقولُ : هـٰؤلاء في حَيِّز العَوامِّ ، أو هم كالشِّيعَة في الفُروع ، ولا نَلتَفتُ إلىٰ أقْوالِهم ، ولا نَنْصبُ معهم الخِلافَ ، ولا يُعتَنىٰ بتَحْصيلِ كُتبِهم ، ولا نَدلُّ مُسْتفْتياً من العامَّة عليهم وإذا تَظاهَروا بمَسْألَة مَعْلومَة البُطْلان ، كمَسْحِ الرِّجْلَين ، أدَّبْناهم ، وعَزَّرْناهم ، وألْزَمْناهم بالغُسْلِ جَزْماً .

قال الأستاذُ أبو إسْحاقَ الإسْفَرَاييني : قال الجُمهورُ : إنَّهم ـ يَعني نُفاةُ القِياسِ ـ

---

(١) انظر السير : (الوُحاظِيّ) ١٠/ ٤٥٣ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ١/٨٨٣ .

(٢) انظر السير : (الزَّنْجاني) ١٨/ ٣٨٥ـ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢٤ .

لا يَبْلغونَ رُتْبةَ الاجْتهادِ ، ولا يَجوزُ تَقليدُهم القَضاءَ .

وقال إمامُ الحَرمَين أبو المَعالي : الذي ذَهبَ إليه التَّحْقيقُ : أنَّ مُنْكري القياسِ لا يُعدُّون مِنْ عُلماءِ الأُمَّة ، ولا مِنْ حَملَة الشَّريعَة ، لأنَّهم مُعانِدون ، مُباهِتُون فيما ثَبتَ اسْتفاضَةً وتَواتُراً ، لأنَّ مُعْظمَ الشَّريعةِ صادِرٌ عن الاجْتهادِ ، ولا تَفي النُّصوصُ بعُشْرِ مِعْشارِها ، وهـٰؤلاء مُلتَحِقونَ بالعَوامِّ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا القَولُ من أبي المَعالي أدَّاهُ إليه اجْتهادُه ، وهم فأدَّاهم اجْتهادُهم إلىٰ نَفي القَولِ بالقياسِ ، فكَيف يُرَدُّ الاجْتهادُ بمِثلِه ، ونَدْري بالضَّرورَة أنَّ داوُد كانَ يُقْرِىءُ مَذهَبَه ، ويُناظِرُ عليه ، ويُفْتي به في مثل بَغْدادَ ، وكثرةُ الأئمَّة بها وبغَيرِها ، فلَمْ نَرَهُم قامُوا عليه ، ولا أنْكَرُوا فَتاويه ولا تَدريسَه ، ولا سَعَوا في مَنعِه من بَثِّه ، وبالحَضْرةِ مثلُ إسْماعيلَ القاضي ، شَيخِ المالكيَّة ، وعُثمانِ بنِ بَشَّار الأنْمـاطـيِّ ، شَيـخِ الشَّـافعيَّـة ، والمَـرْوذيِّ شَيـخِ الحَنْبَليَّـة ، وابنَـيْ الإمـام أحمَـدَ ، وأبي العبَّاس أحمَدَ بنِ محمّد البِرْتي ، شَيخِ الحَنفيَّة ، وأحمَدَ ابنِ أبي عِمْرانَ القاضي ، ومثلُ عالِمِ بَغْدادَ إبْراهيمَ الحَرْبيِّ بلْ سَكتُوا له ، حتىٰ لقد قالَ قاسمُ بنُ أصْبَغ : ذاكَرتُ الطَّبريَّ ـ يَعني ابنَ جَرير ـ وابنَ سُرَيْج ، فقُلتُ لهما : كتابُ ابنِ قُتَيْبَة في الفِقْه أينَ هو عندَكُما ؟ قالا : ليسَ بشيءٍ ولا كتابِ أبي عُبَيد ، فإذا أرَدتَ الفِقْهَ فكُتبَ الشَّافعيِّ ، وداوُدَ ونُظَرائِهما .

ثم كانَ بعدَه ابنُه أبو بَكر ، وابنُ المُغَلّس ، وعدَّة من تلامِذَة داوُد وعلىٰ أكْتافِهم مثلُ : ابنِ سُرَيْج ، شَيخِ الشَّافعيَّة ، وأبي بَكْر الخَلاَّل ، شَيخِ الحَنْبَليَّة ، وأبي الحَسَن الكَرْخي شَيخِ الحَنفيَّة ، وكان أبو جَعْفَر الطَّحاويُّ بمِصْرَ بل كانوا يَتجالَسُون ويَتناظَرون ، ويَبرُزُ كلٌّ منهم بحُجَجِه ، ولا يَسْعَون بالداوُديَّة إلى السُّلطانِ بلْ أبلغُ من ذلك ، يَنصِبُون معهم الخِلافَ ، في تَصانيفِهم قَديماً وحَديثاً ، وبكلِّ الحالِ ، فلَهم أشْياءُ أحْسَنوا فيها ، ولهم مَسائلُ مُسْتَهْجنَة ، يُشْغَبُ عليهم بها ، وإلىٰ ذلك يُشيرُ الإمامُ أبو عَمرِو بنُ الصَّلاح ، حيثُ يقولُ : الذي اخْتارَه الأستاذُ أبو مَنْصور ، وذَكرَ أنَّه الصَّحيحُ من المَذْهَب ، أنَّه يُعْتَبَرُ خِلافُ داوُد ثمَّ قالَ ابنُ الصَّلاح : وهـٰذا الذي اسْتقرَّ

عليه الأمرُ آخراً ، كما هو الأغْلَبُ الأعْرَفُ من صَفْوِ الأئمَّة المتأخرين ، الذين أوْرَدوا مَذهَبَ داوُد في مُصنَّفاتِهم المَشْهورَة ، كالشَّيخِ أبي حامد الإسْفَرايِيني ، والماوَرْديِّ ، والقاضي أبي الطَّيِّب فلَوْلا اعْتدادُهم به لما ذَكروا مَذهَبَه في مُصنَّفاتِهم المَشْهورَة .

قالَ : وأرَىٰ أن يُعْتَبَر قولُه إلاَّ فيما خالَفَ فيه القياسَ الجَليَّ ، وما أجْمَعَ عليه القياسيُّون من أنواعِه ، أو بَناهُ علىٰ أصُولِه التي قامَ الدَّليلُ القاطعُ علىٰ بُطْلانِها ، فاتِّفاقُ مَنْ سِواهُ إجْماعٌ مُنْعَقدٌ ، كقَولِه في التَّغَوُّطِ في الماءِ الرَّاكِد[1] وتلكَ المَسائلُ الشَّنيعَة ، وقولِه : لا رِبَا إلاَّ في السِّتَّة المَنْصُوصِ عليها ، فخِلافُه في هـٰذا أو نَحوَه غيرُ مُعْتدٍّ به ، لأنَّه مبنيٌّ علىٰ ما يُقطَعُ ببُطْلانِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لا رَيبَ أنَّ كُلَّ مَسألَةٍ انفَرَدَ بها ، وقُطِعَ ببُطْلانِ قَولِه فيها ، فإنَّها هَدرٌ ، وإنَّما نَحكيها للتَّعجُّبِ ، وكُلَّ مَسألَةٍ له عَضَدَها نَصٌّ ، وسَبَقَه إليها صاحبٌ أو تابعٌ ، فهي من مَسائلِ الخِلافِ ، فلا تُهْدَر .

وفي الجُملَةِ ، فداوُد بنُ عليّ بَصيرٌ بالفِقْه ، عالمٌ بالقُرآنِ ، حافِظٌ للأثَرِ ، رأسٌ في مَعرِفَةِ الخِلافِ ، من أوْعيَةِ العِلمِ ، له ذَكاءٌ خارِقٌ ، وفيه دينٌ مَتينٌ وكذلكَ في فُقَهاءِ الظَّاهِريَّة جَماعَةٌ لهم عِلمٌ باهِرٌ ، وذَكاءٌ قَويٌّ ، فالكَمالُ عَزيزٌ ، واللهُ المُوَفِّق .

ونحن : فنحكي قولَ ابنَ عبَّاس في المتعة ، وفي الصَّرْف[2] ، وفي إنْكارِ العَوْل ، وقَولَ طائِفَةٍ من الصَّحابَة في تَرك الغُسْلِ من الإيْلاجِ[3] ، وأشْباهَ ذلك ، ولا نُجَوِّزُ لأحَد تَقليدَهم في ذلك .

---

(١) وهو قول ابن حَزْم ، ونَصُّ كلامه في « المُحلَّىٰ » (١/ ١٣٥) : (إلاَّ أن البائل في الماء الراكد الذي لا يجري حرامٌ عليه الوضوء بذلك الماء والاغتسالُ به لغرض أو لغيره ، وحكمه التيمم إن لم يجد غيره فلو أحدَثَ في الماء أو بال خارجاً منه ثم جرى البولُ فيه فهو طاهرٌ يَجوزُ الوضوء منه والغسل له ولغيره إلاَّ أن يغير ذلك البول أو الحدث شيئاً من أوصاف الماء ، فلا يُجزىء حينئذ استعماله أصلاً لا له ولا لغيره .

(٢) انظر صَحيح مسلم رقم : (٥٩٦) ، (١٠٢) ، وشرح السُّنَّة : (٨/ ٦٠ـ ٦١) .

(٣) انظر شَرح السُّنَّة : (٢/ ٥ـ ٧).

مات داوُدُ في شَهرِ رَمضانَ سَنةَ سَبعينَ ومِئتين[1] .

جاء في تَرجَمة ابنِ حَزْم ، قال الذهبيُّ : قيل إنه تَفَقَّه أولاً للشَّافِعيِّ ، ثم أدَّاهُ اجْتهادُه إلى القَولِ بنَفْي القِياسِ كُلِّه جَليِّه وخَفيِّه ، والأخْذِ بظاهِر النَّص وعُمومِ الكِتاب والحَديث ، والقَولِ بالبَراءَة الأصْليَّة ، واسْتصْحابِ الحَال ، وصَنَّفَ في ذلك كُتباً كثيرة ، وناظَرَ عليه ، وبَسَط لسانَه وقَلَمه ، ولمْ يَتأدَّبْ مع الأئمَّة في الخِطاب ، بلْ فجَّجَ[2] العِبارَة وسَبَّ وجدَّع[3] ، فكان جَزاؤُه من جِنْسِ فعلِه ، بحَيثُ إنَّه أعْرَضَ عن تَصانيفِه جَماعَةٌ من الأئمَّة ، وهَجَروهُا ونَفَروا منها ، وأُحْرِقَتْ في وَقتٍ ، واعْتَنَىٰ بها آخَرونَ من العُلماء وفَتَّشُوها انْتِقاداً واسْتفادَةً ، وأخْذاً ومُؤاخَذَةً ، ورَأَوا فيها الدُّرَّ الثَّمينَ مَمْزُوجاً في الرَّصْفِ بالخَرَزِ المَهين ، فتارَةً يَطْرَبون ، ومرَّةً يُعْجَبون ، ومن تَفرُّدِه يَهزَؤُون .

وفي الجُملَة فالكَمالُ عَزيزٌ ، وكلُّ أحَد يُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يَنهَضُ بعُلوم جَمَّة ، ويُجيدُ النَّقْلَ ، ويُحسِنُ النَّظْمَ والنَّثْرَ وفيه دينٌ وخَيرٌ ومَقاصِدُهُ جَميلةٌ ، ومُصنَّفاتُه مُفيدَةٌ ، وقد زَهدَ في الرِّئاسَة ، ولَزِمَ مَنزلَه مُكبّاً على العِلمِ ، فلا نَغْلو فيه ، ولا نَجْفو عنه ، وقد أثْنىٰ عليه قبلَنا الكِبارُ :

قال أبو حامد الغَزاليّ : وَجدتُ في أَسْماءِ اللهِ تَعالَىٰ كتاباً أَلَّفَه أبو محمَّد بنُ حَزْم الأنْدَلُسيّ يَدلُّ علىٰ حفظِه وسَيلانِ ذِهْنه .

وقال أبو عبد الله الحُمَيديّ : كان ابنُ حَزْم حافظاً للحَديثِ وفِقهِه ، مُستنبطاً للأحْكامِ من الكتابِ والسنَّة ، مُتفنِّناً في عُلوم جمَّة عاملاً بعلمِه ، ما رأينا مثلَه فيما اجْتمعَ له من الذَّكاء وسُرعةِ الحِفظِ وكرمِ النَّفس والتَّديُّن ، وكان له في الأدَبِ والشِّعْر نَفسٌ واسعٌ وباعٌ طَويلٌ وما رأيتُ مَنْ يقولُ الشِّعرَ على البَديهِ أَسْرعَ منه وشِعرُه كثيرٌ جَمعتُه علىٰ حُروفِ المُعْجَم .

---

(١) انظر السير : (داوُد بن عَليّ) ١٣/ ٩٧ـ١٠٨ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٥٨ـ١٠٦٠ .

(٢) المعنىٰ أنه ساق العبارة فجّةً قاسية .

(٣) الجَدْع في الأصل : القَطْع ، وهو كناية عن الذَّم والشَّتْم .

وقد حَطَّ أبو بَكْر بنُ العَربيِّ علىٰ أبي محمَّد في كتابِ « القَواصِم والعَواصِم » وعلى الظَّاهِريَّة ، فقال : هي أُمَّةٌ سَخيفَةٌ ، تَسوَّرت علىٰ مَرتَبَةٍ ليست لها ، وتَكلَّمت بكلامٍ لمْ نَفْهَمْه ، تَلقَّوْه من إخْوانِهمُ الخَوارج حين حكَّم عليٌّ ، رضي الله عنه ، يوم صفين ، فقالت : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وكان أوَّلُ بدْعَةٍ لَقيتُ في رِحْلتي القَولَ بالباطِن ، فلمَّا عُدتُ وجَدتُ القَولَ بالظَّاهر قد مَلأ به المَغربَ سَخيفٌ كان من بادِيَة إشْبيليَّة يُعرفُ بابنِ حَزْم ، نَشأ وتَعلَّق بمَذهَبِ الشَّافعيِّ ، ثم انتُسبَ إلىٰ داوُد ، ثم خَلعَ الكُلَّ ، واسْتَقلَّ بنفسِه ، وزَعمَ أنَّه إمامُ الأُمَّة يَضعُ ويَرفَع ، ويَحكمُ ويشرعُ ، يَنْسبُ إلىٰ دين الله ما ليس فيه ، ويقولُ عن العُلماءِ ما لم يَقولوا تَنْفيراً للقُلوبِ منهم ، وخَرجَ عن طَريق المُشَبِّهَة في ذاتِ الله وصِفاتِه ، فجاءَ فيه بطَوامَّ ، واتَّفقَ كونُه بين قَومٍ لا بَصَرَ لهم إلاَّ بالمَسائل فإذا طالبَهم بالدَّليلِ كاعوا[1] فيَتضاحَكُ مع أصحابه منهم ، وعَضَدَتْهُ الرِّئاسَةُ بما كان عنده من أدَبٍ ، وبشُبَهٍ كان يُوردُها على الملوك فكانوا يَحملُونَه ، ويَحمونَه ، بما كان يُلقي إليهم من شُبَهِ البِدَعِ والشِّرْك ، وفي حين عَودي من الرِّحْلة ألفَيتُ حَضْرتي منهم طافِحَة ، ونارَ ضَلالِهم لافِحَة ، فقاسَيتُهم مع غَير أقْران وفي عَدَم أنْصار إلىٰ حُسَّاد يَطؤون عَقبي ، تارَةً تذهبُ لهم نفسي ، وأخْرىٰ يَنْكَشِرُ بهم ضِرْسي ، وأنا بين إعْراضٍ عنهم أو تَشَغْبُبٍ بهم ، وقد جاءَني رجلٌ بجُزْء لابنِ حَزْم سمَّاه « نكتُ الإسْلام » فيه دَواهي ، فجَرَّدتُ عليه نَواهي ، وجاءَني آخَرُ برسالة في الاعْتقاد فنَقَضتُها برسالة « الغُرَّة » والأمرُ أفْحَشُ من أنْ يُنقَض[2] .

١٣ـ فِقْهُ الإمَاميّة :

عن رَبيعِ بنِ مُنْذِر ، عن أبيه قال : كُنَّا مع ابنِ الحَنفيَّة ، فأرادَ أنْ يَتوضَّأَ ، فنَزعَ خُفيْه ، ومَسحَ علىٰ قَدمَيْه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : هـٰذا قد يَتعلَّقُ به الإمَاميَّة وبظَاهِرِ الآيَة ، لَكنَّ غَسْلَ الرِّجْلَينِ شَرعٌ لازِمٌ بيَّنه لنا الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم وقالَ : « وَيْلٌ لِلأعْقَابِ مِنَ

---

(١) أي : جَبُنوا .

(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٩٧ .

النَّارِ » وعَليه عَمَلُ الأُمَّة ولا اعْتِبَارَ بمَنْ شَذَّ ، قالَ رَافِضِيٌّ : فأنتُم تَرَوْنَ مَسحَ مَوْضِعِ ثَلاثِ شَعراتٍ بَلْ شَعرَةٌ من الرَّأسِ يُجزِىءُ ، والنَّصُّ فلا يَحتَمِلُ هـٰذا ، ولا يُسَمَّىٰ مَنِ اقْتَصرَ عَليه مَاسِحاً لِرَأسِهِ عُرْفاً ، ولا رَأيْنَا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا أحَداً من أصْحابِه اجْتَزأ بذَلكَ ولا جَوَّزَه فالجَوابُ : أنَّ البَاءَ لِلتَّبْعِيضِ في قَولِه ﴿ بِرُءُوسِكُمْ ﴾[1] ولَيسَ هـٰذا الْمَوضِعُ يَحتَمِلُ تَقْريرَ هـٰذه الْمَسْألَة[2] .

وقالَ أبو عليٍّ التَّنوخيُّ : رَأيتُ في مَجلسِ أبي عبدِ الله ابنِ الدَّاعي ، وقد جاءَه رَجلٌ بفَتْوَىٰ فيمَنْ حَلفَ فطلَّق امرأتَه ثَلاثاً مَعاً ، فقال له : تُريدُ أنْ أفْتيكَ بما عندي وعندِ أهْلِ البَيتِ أو بما يَحكيه غَيرُنا عن أهْلِ البَيْتِ ؟ فقال : أريدُ الجَميعَ ، قال : أمَّا عندي وعندَهم فقد بانَت ، ولا تَحلُّ لكَ حتىٰ تَنكِحَ زَوْجاً غَيرَك .

قال الذهبيُّ : كان يَمتَنعُ من التَّرحُّمِ علىٰ مُعاويَة رضي الله عنه ، ولا يَشْتمُ الصَّحابَة[3] .

١٤ـ فِقْهُ الجِهَاد :

قالَ علقمَةُ : كُنَّا بالرُّومِ وعَلينا الوَليدُ بنُ عُقْبَة ، فشَرِبَ ، فأرَدْنا أنْ نَحُدَّه فقالَ حُذيفَةُ بنُ اليَمانِ : أتَحُدُّونَ أميرَكم ، وقد دَنوتُم من عَدوِّكم ، فيَطمَعون فيكُم[4] .

١٥ـ أُرْجُوزَةٌ فِقْهيَّة في الحَثِّ على اتِّباع مَذْهَب مالك :

قال أبو عَمرو الدَّاني[5] :

تَـدْري أَخِـي أيـنَ طَـريـقُ الجنَّـة ... طَـريقُهـا القُـرآنُ ثُـمَّ السُّنَّـة

كـلاهُمـا ببَلَـدِ الـرَّسُـولِ ... ومَـوطِـنِ الأصْحـابِ خَيـرِ جِيـلِ

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦ .
(٢) انظر السير : (ابن الحَنَفيَّة) ٤/ ١١٠ـ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٦١ .
(٣) انظر السير : (ابنُ الدَّاعي) ١٦/ ١١٤ـ١١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٧١ .
(٤) انظر السير : (الوَليد بن عُقْبَة) ٣/ ٤١٢ـ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٠٣ .
(٥) انظر السير : (أبو عَمرو الدَّاني) ١٨/ ٧٧ـ٨٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٨٧ .

فـاتَّبعَـنْ جَمـاعَـةَ المـدينَـةْ	فَـالعِلْـمُ عَـنْ نَبيِّهـم يَـروُونَـه
وهُـمْ مَحجَّـةٌ عَلَـىٰ سِـواهُـم	فـي النَّقـلِ والقَـولِ وفـي فَتْـواهُـم
واعْتَمـدنْ عَلَـى الإمَـامِ مَـالِـكْ	إذ قَـد حَـوَىٰ عَلَـىٰ جَميـعِ ذَلِـكْ
فـي الفِقْـهِ والفَتْـوَىٰ إليـه المُنْتَهـى	وصِحَّـةِ النَّقْـلِ وعِلْـمِ مَـنْ مَضَـى

١٦ـ مُناظَرةٌ فِقْهيّة :

قالَ الشَّاذَكونيُّ : سَمعتُ ابنَ عُيَينَةَ يقولُ : كانَ الأوْزاعيُّ والثَّوْريُّ بمِنَىٰ ، فقالَ الأوْزاعيُّ للثَّوْريِّ : لمَ لا تَرفَعُ يَديْك في خَفْضِ الرُّكوعِ ورَفْعِه ؟ فقالَ : حدَّثنا يَزيدُ بنُ أبي زيادٍ[١] ، فقال الأوْزاعيُّ : رَوَىٰ لك الزُّهْريُّ ، عن سالِم ، عن أبيه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وتُعارِضُني بيَزيدَ رَجلٍ ضَعيفِ الحَديثِ ، وحَديثُه مُخالِفٌ للسُّنَّة ، فاحْمرَّ وَجهُ سُفيانَ فقالَ الأوْزاعيُّ : كأنَّك كَرهْتَ ما قُلتُ ؟ قالَ : نَعمَ فقالَ : قُمْ بنا إلى المَقامِ نَلْتَعِنُ أيُّنا على الحَقِّ قالَ : فتَبسَّمَ سُفيانُ لَمَّا رآهُ قد احْتدَّ[٢] .

١٧ـ التَّعَصُّب المَذْهَبي :

(أ) قصّة مالك في طَلبه من المَنْصور عَدم حَمل النَّاس علىٰ مَذْهَب واحد :

قال محمَّدُ بنُ عُمَر : سَمعتُ مَالكاً يَقولُ : لمَّا حَجَّ المَنصُورُ دَعاني ، فَدخَلتُ عليه ، فحادَثْتُه ، وسَألَني فأجَبْتُه ، فقال : عَزَمتُ أن آمُرَ بكُتُبك هـٰذه ـ يَعْني المُوَطَّأ ـ فتُنْسَخ نُسَخاً ، ثم أبْعَثُ إلىٰ كُلِّ مِصْرٍ من أمْصار المُسْلمين بنُسْخَة ، وآمُرُهم أنْ يَعْمَلوا بما فيها ويَدَعوا ما سِوَىٰ ذلك من العِلْم المُحْدَث ، فإنِّي رأيتُ أصْلَ العِلْمِ رِوايَةُ أهْل المَدينَة وعِلْمَهم ، قلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، لا تَفْعَلْ ، فإنَّ النَّاسَ قد سِيقَت إليهم أقاويلُ وسَمعوا أحاديثَ ، ورَوَوْا رِواياتٍ ، وأخذَ كلُّ قومٍ بما سِيقَ إليهم ، وعَملوا به ، ودانوا به ، من اخْتِلافِ أصْحابِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم وغَيرِهم ، وإنَّ

---

(١) تَمامُه : عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ ، عن البراء ، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا افْتَتَحَ الصَّلاةَ رَفعَ يَدَيْهِ إلىٰ قَريبٍ مَنْ أُذُنَيْه ثُمَّ لا يَعُود » .

(٢) انظر السير : (الأوْزاعيّ) ٧/١٠٧ـ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٦٨١ .

رَدَّهُم عمَّا اعْتَقَدوه شَديدٌ ، فدَعِ النَّاسَ وما هُم عليه ، وما اخْتارَ أهلُ كلِّ بلَدٍ لأنفُسِهِم فقال : لَعَمْري لَوْ طَاوَعْتَني لأمَرْتُ بذلك[1] .

(ب) حَوادِثُ تدُلُّ على التَّعَصُّب المَذْهَبي :

رَوَىٰ أبو الشَّيخِ الحافظُ وغَيرُه من غَيرِ وَجهٍ : أنَّ الشَّافعيَّ لَمَّا دَخلَ مِصْرَ أتاهُ جُلَّةُ أصْحابِ مَالِك ، وأقبَلوا عليه ، فلمَّا رَأوْهُ يُخالِفُ مالكاً ، ويَنقُضُ عليه ، جَفَوْهُ وتَنكَّروا له ، فأنْشأَ يَقولُ[2] :

أَأَنْثُـرُ دُرًّاً بيـنَ سـارِحَـةِ النَّعَـم	وأَنْظِـمُ مَنْثُـوراً لـراعِيَـةِ الغَنَـم
لَعَمْري لَئِنْ ضُيِّعتُ في شَرِّ بَلدَةٍ	فَلَستُ مُضِيعاً بَينَهم غُرَرَ الحِكَم
فـإنْ فـرَّجَ الله اللَّطيـفُ بِلُطفِـه	وصَـادَفْـتُ أهْـلاً للعُلـومِ وللحِكَـم
بَثَثْـتُ مُفيـداً واسْتَفَـدتُ ودادَهـم	وإلاَّ فمحـزُونٌ لَـدَيَّ ومُكْتَتَـم
ومَـنْ منَـحَ الجُهَّـالَ عِلْمـاً أضَـاعَـه	وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوجبينَ فَقَد ظَلَم
وكَـاتِـمُ عِلْـمِ الـدِّيـنِ عمَّـنْ يُـريـدُهُ	يُبُـوءُ بـإِثْـمٍ زَادَ وآثِـمٍ إذَا كَتَـم

قال أبو عبد الله بنُ مَنْدَة : حُدِّثتُ عن الرَّبيع قال : رَأيتُ أشْهَبَ بنَ عبدِ العَزيزِ ساجِداً يَقولُ في سُجودِه : اللَّهُمَّ أَمِتْ الشَّافِعيَّ لا يَذهَبُ عِلمُ مالك ، فبَلغَ الشَّافِعيَّ ، فأنْشَأ يَقولُ[3] :

تَمنَّىٰ رِجَـالٌ أنْ أَمُـوتَ وإنْ أَمُـتْ	فتِلْـكَ سَبيـلٌ لَسْـتُ فيهـا بـأَوحَـدِ
فَقُل للَّذي يَبْغِي خِلافَ الَّذي مَضَى	تَهيَّـأْ لأُخْـرَىٰ مِثْلِهـا فكَـأَنْ قَـدِ
وَقَدْ عَلِمُوا لَو يُنفَقُ العِلْمُ عِندَهم	لَئِـنْ مِـتُّ مـالـدَّاعِـي عَلَـيَّ بمُخَلَّـدِ

قال الإمام محمد بنُ حَزْم الظاهري : وكان محمَّدُ بنُ عبد الرحمَـٰن الأُمَوي صاحبُ الأنْدَلسِ مُحبَّاً للعُلومِ عارِفاً ، فلمَّا دخلَ بَقيٌّ الأنْدَلسَ بـ« مُصَنَّف أبي بَكْر بنِ

---

(1) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧/٧٢٩ .

(2) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٥١/ ٣ .

(3) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨٥١/ ٤ .

أبي شَيْبَة » ، وقُرِئَ عليه ، أنكرَ جَماعةٌ من أهلِ الرَّأي ما فيه من الخِلافِ واسْتبْشَعوه ، ونَشَّطوا العامَّةَ عليه ، ومَنعُوه من قِراءَتِه ، فاسْتحضَرَه صاحبُ الأنْدَلس محمدٌ وإيَّاهم ، وتَصفَّحَ الكتابَ كلَّه جُزءاً جُزءاً حتىٰ أتَىٰ علىٰ آخِرِه ، ثم قال لخازِنِ الكُتبِ : هـٰذا كتابٌ لا تَسْتَغني خِزانَتُنا عنه ، فانْظُر في نَسْخِه لنا ، ثم قال لبَقِيٍّ : انْشُر عِلمَك ، وارْوِ ما عِندَك ونَهاهُم أنْ يَتعرَّضوا له[1] .

كان بَقيُّ بنُ مَخْلَد أوَّلَ مَنْ كَثَّرَ الحَديثَ بالأنْدلُس ونَشَره ، وهاجَمَ به شُيوخَ الأنْدلُس ، فثارُوا عليه ، لأنَّهم كان عِلْمُهم بالمَسائِلِ ومَذهَب مالِك ، وكان بَقيٌّ يُفْتي بالأثَر ، فشَذَّ عنهم شُذوذاً عَظيماً ، فعَقَدوا عليه الشَّهادات ، وبَدَّعوه ، ونَسَبوا إليه الزَّنْدَقَة ، وأشْياءَ نَزَّهَه اللهُ منها وكان بَقيٌّ يقولُ : لقد غَرسْتُ لهم بالأنْدَلُس غَرْساً لا يُقْلَعُ إلاَّ بخُروجِ الدَّجَّال[2] .

وقال السُّلَميُّ في « مِحَنِ الصُّوفِيَّةِ » : لمَّا تَكلَّمَ مُحمَّدُ بنُ الفَضْلِ ببَلخ في فَهْمِ القُرآنِ وأحْوالِ الأئمَّةِ ، أنْكَرَ عليه فُقَهاءُ بَلْخ ، وقالوا : مُبْتَدعٌ وإنَّما ذاكَ بِسَببِ اعْتِقادِهِ مَذْهَبَ أهلِ الحَديثِ ، فقال : لا أخْرُجُ حتىٰ تُخْرِجُوني وتَطُوفُوا بِي في الأسْواقِ ففَعَلوا بهِ ذلكَ ، فقال : نَزَعَ اللهُ من قُلُوبِكُم مَحَبَّتَه ومَعْرِفَتَه فقِيلَ : لَمْ يَخْرُجْ منها صُوفِيٌّ من أهلِها فأتَىٰ سَمَرْقَنْدَ ، فبالَغُوا في إكْرامِه[3] .

وذكرَ إمامُ الحَرمَين أنَّ مَحمودَ بنَ سُبُكْتكينَ كانَ حَنفياً يُحبُّ الحَديثَ ، فوَجدَ كثيراً منه يُخالفُ مَذهبَه ، فجَمعَ الفُقهاءَ بمَرْوَ ، وأمَرَ بالبَحثِ في أيِّما أقْوَىٰ مَذهَبُ أبي حَنيفَة أو الشَّافعيِّ قالَ : فوَقعَ الاتِّفاقُ علىٰ أنْ يُصلُّوا رَكْعَتين بينَ يدَيه على المَذْهَبَين ، فصَلَّىٰ أبو بَكْر القَفَّالُ بوُضُوءٍ مُسْبَغ وسُتْرَةٍ وطَهارَةٍ وقِبْلَة وتَمامِ أرْكان لا يُجَوِّزُ الشَّافعيُّ دُونَها ، ثم صَلَّىٰ صَلاة علىٰ ما يُجَوِّزُه أبو حَنيفَة ، فلَبِسَ جِلدَ كلبٍ

---

(١) انظر السير : (بَقِيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٥ .
(٢) انظر السير : (بَقِيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٦ .
(٣) انظر السير : (وَاعِظُ بَلْخ) ١٤/ ٥٢٣ـ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧١ .

مَدْبوغاً قد لُطِّخَ رُبعهُ بنَجاسَة ، وتَوضَّأ بنَبيذٍ ، فاجْتَمعَ عليه الذبَّانُ ، وكان وُضُوءاً مُنَكَّساً ، ثم كبَّرَ بالفَارِسيَّة وقَرأَ بالفَارِسيَّة : دَوْبَرْكك سَبْز[1] ، ونَقرَ ولَمْ يَطمَئنَّ ولا رَفَعَ من الرُّكوعِ ، وتَشهَّدَ ، وضَرَطَ بلا سَلام فقالَ له : إنْ لَمْ تَكُنْ هٰذه الصَّلاةُ يُجيزُها الإمامُ ، قَتَلتُك فأنْكَرتِ الحَنيَفيَّةُ الصَّلاةَ ، فأمَرَ القَفَّالُ بإحْضارِ كُتُبهم ، فوُجدَ كذلك ، فتَحوَّلَ مَحمُودٌ شافعيّاً. هكَذا ذَكرَه الإمامُ أبو المَعالي بأطْوَلَ من هٰذا[2] ،[3] .

(ج) شِعْرٌ في التَّعَصُّب المَذْهَبي :

رَوَىٰ أبو الشَّيخِ الحافظُ وغَيرُه من غَيرِ وَجهٍ : أنَّ الشَّافعيَّ لَمَّا دَخلَ مِصْرَ أتاهُ جُلَّةُ أصْحابِ مَالِك ، وأقبَلوا عليه ، فلمَّا رَأوْهُ يُخالِفُ مالكاً ، ويَنقُضُ عليه ، جَفَوْهُ وتَنكَّروا له ، فأنْشأَ يَقولُ[4] :

أَأَنْثُـرُ دُرّاً بيـنَ سـارِحَـة النَّعَـم	وأَنْظِـمُ مَنْثُـوراً لـراعِيَـةِ الغَنَـم
لَعَمْري لَئِنْ ضُيِّعتُ في شَرِّ بَلدَةٍ	فَلَستُ مُضِيعاً بَينَهم غُرَرَ الحِكَم
فـإنْ فـرَّجَ الله اللَّطيـفُ بِلُطفِـه	وصَـادَفْـتُ أهْـلاً للعُلـومِ وللحِكَـم
بَثَثْـتُ مُفيـداً واسْتَفَـدتُ ودادَهـم	وإلاَّ فمحـزُونٌ لَـدَيَّ ومُكْتَتَـم
ومَـنْ منَـحَ الجُهَّـالَ عِلْمـاً أضَـاعَـه	وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَوجِبينَ فَقَد ظلَم
وكَـاتِـمُ عِلْـمِ الـدِّيـنِ عمَّـنْ يُـريـدُهُ	يُبُـوءُ بـإثْـمٍ زادَ وآثِـمٍ إذَا كتَـم

---

(١) والمعنىٰ : ورقتان خضراوان ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ في سورة الرحمـٰن : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ ، انظر « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٢) ، و« المعجم الذهبي » فارسي/ عربي .

(٢) في « مُغيث الخَلق في اختيار الأحق » ، ونقله عنه ابن خلكان في « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٠ ، ١٨١) وهـٰذه الحكاية التي يغلب على الظن أنها ملفقَّة مُفتَراة تُنبىء عن ذميم التعصُّب الذي يفعل أفاعيله في النفوس ، فيحملها على الكراهية ، وعرض رأي المخالف عرضاً مُشوَّهاً مَبْتوراً ، والإغضاء عن فَضائله الكثيرة ، ومحاسنه الجَمَّة ، وكان علىٰ إمام الحرمين أن يسلُك مع مخالفيه سبيل أهل العلم والعرفان ، ويناقشهم بالحُجَّة والبُرهان ، ويصون كتابه عن مثل هـٰذا الهُراء والهَذَيان .

(٣) انظر السير : (السُّلْطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٢ .

(٤) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٨٥١ .

قال أبو عبد الله بنُ مَنْدَة : حُدِّثتُ عن الرَّبيع قال : رَأيتُ أشْهَبَ بنَ عبدِ العَزيزِ ساجِداً يَقولُ في سُجودِه : اللَّهُمَّ أَمِتْ الشَّافِعيَّ لا يَذهَبُ عِلمُ مالك ، فبَلَغَ الشَّافِعيَّ ، فأنْشَأ يَقولُ[1] :

تَمنَّىٰ رِجَالٌ أنْ أَمُوتَ وإنْ أَمُتْ ... فتِلْكَ سَبيلٌ لَسْتُ فيها بأَوحَدِ
فَقُل للَّذي يَبْغِي خِلافَ الَّذي مَضَى ... تَهيَّأْ لأُخْرَىٰ مِثْلِها فكَأَنْ قَدِ
وَقَدْ عَلِمُوا لَو يُنفَعُ العِلْمُ عِندَهم ... لَئِنْ مِتُّ مالدَّاعِي عَلَيَّ بمُخَلَدِ

وقال محَمَّدُ بنُ طاهِر : وسَمعتُ شَيخَ الإسْلام أبا إسْماعيلَ الهَرَوِيَّ يُنْشِدُ علىٰ مِنْبرِه[2] :

أَنَا حَنْبليٌّ مَا حَييتُ وإنْ أَمُتْ ... فَوَصِيَّتي للنَّاسِ أنْ يَتَحنْبلُوا

قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد قالَ في قَصيدَتِه النُّونيَّة :

أَنَا حَنْبليٌّ مَا حَييتُ وإنْ أَمُتْ ... فَوَصِيَّتي للنَّاسِ أنْ يَتَحنْبلُوا
إذْ دِينُهُ دِيني وَديني دِينُهُ ... ما كُنْتُ إمَّعَةً لَهُ دِينَانِ

ولقد بالَغَ أبو إسْماعيل في « ذَمِّ الكَلامِ » على الاتِّباع فأجادَ ولكنَّه له نَفَسٌ عَجيبٌ لا يُشبهُ نَفَسَ أئمَّة السَّلف في كتابِه « مَنازِل السَّائرين »[3] ففيه أشْياءُ مُطْرِبَة ، وفيه أشْياءُ مُشْكلَة ومَنْ تأمَّلَه لاحَ له ما أشَرتُ إليه ، والسُّنَّة المحمَّديَّة صلفَةٌ ولا يَنهَضُ الذَّوْقُ والوَجْدُ إلاَّ علىٰ تأسيسِ الكتابِ والسُّنَّة وقد كانَ هـٰذا الرَّجلُ سَيفاً مَسْلُولاً على المُتكلِّمينَ ، له صَوْلةٌ وهَيْبَةٌ واسْتيلاءٌ على النُّفوسِ ببَلدِه ، يُعظِّمونَه ، ويَتغالونَ فيه ، ويَبذُلونَ أرْواحَهم فيما يأمُرُ به كانَ عندَهم أطْوَعَ وأرْفَعَ من السُّلطانِ بكَثير وكانَ طَوْداً راسياً في السُّنَّة لا يَتزَلْزَلُ ولا يَلينُ ، لوْلا ما كَدَّر كتابَه « الفَارُوق في الصِّفات » بذِكرِ أحادَيثَ باطِلَة يَجبُ بَيانُها وهَتْكُها ، واللهُ يَغفرُ له بحُسْنِ قَصْدِه[4] .

---

(١) انظر السير : (الإمام الشَّافِعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٥١ .
(٢) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام) ١٨/ ٥٠٣ـ٥١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٧ .
(٣) طُبع كتاب « منازل السائرين » مع شرحه « مدارج السالكين » للعلاَّمَة ابن القيِّم ، وقد تعقَّبَه الإمامُ ابنُ القيِّم رحمه الله في شرحه هـٰذه الأشياء المشكلة وانتقدها انتقاداً جيداً .
(٤) انظر السير : (شَيخُ الإسْلام) ١٨/ ٥٠٣ـ٥١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣٧ .

١٨ـ مَنْ كان يَرومُ القَضاء على المَذاهِب بالقُوَّة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمة صاحِب المَغْرب أبي يوسُف يَعقُوبَ ابنِ يوسُف : قال عبدُ الواحدِ بنِ عليٍّ : كنتُ بفاسَ ، فشَهدتُ الأحْمالَ يُؤتَىٰ بها ، فتُحْرَق ، وتَهدَّدَ على الاشْتغالِ بالفُروعِ ، وأمَرَ الحُفَّاظَ بجَمعِ كتابٍ في الصَّلاةِ من (الكُتُبِ الخَمسَة) ، و« المُوَطَّأ » ، و« مُسْنَدِ ابنِ أبي شَيْبَة » ، و« مُسْندِ البَزَّار » ، و« سُنَنِ الدَّارَقُطني » ، و« سُنَنِ البَيْهَقيِّ » كما جَمعَ ابنُ تُومَرت في الطَّهارَة ثم كان يملي ذلك بنَفسِه علىٰ كبارِ دَولَتِه ، وحَفِظَ ذلك خَلقٌ ، فكانَ لمَنْ يَحفَظُه عَطاءٌ وخِلْعَةٌ إلىٰ أنْ قالَ : وكانَ قَصْدُه مَحْوَ مَذهَب مالك من البلادِ ، وحَمْلَ النَّاسِ على الظَّاهِرِ ، وهـٰذا المَقْصِد بعَينِه كان مَقْصِدَ أبيه وجدِّه ، فلَمْ يُظْهِراهُ ، فأخْبَرني غيرُ واحد أنَّ ابنَ الجَدِّ أخْبَرَهم قالَ : دَخلتُ علىٰ أميرِ المُؤمنينَ يوسُفَ ، فوَجدتُ بينَ يدَيه كتابَ ابنِ يُونُس ، فقالَ : أنا أنْظُرُ في هـٰذه الآراء التي أُحْدِثَت في الدِّين ، أرَأيتَ المَسْألَةَ فيها أقْوالٌ ، ففي أيِّها الحَقُّ ؟ وأيُّها يَجبُ أنْ يَأخُذَ به المُقلِّد ؟ فافْتَتَحتُ أُبَيِّنُ له ، فقَطعَ كَلامي ، وقالَ : لَيسَ إلا هـٰذا ، وأشَارَ إلى المُصْحَفِ ، أوْ هـٰذا وأشارَ إلىٰ « سُنَنِ أبي داوُدَ » ، أو هـٰذا ، وأشارَ إلى السَّيفِ .

قالَ يَعقوبُ : يا مَعْشرَ المُوَحِّدينَ ، أنتُم قَبائلُ ، فمَنْ نابَه أمرٌ ، فَزِعَ إلىٰ قَبيلَتِه ، وهـٰؤلاء ـ يَعني طَلبَةَ العِلمِ ـ لا قَبيلَ لهم إلاَّ أنا ، قالَ : فعَظُمُوا عند المُوَحِّدينَ[١] .

١٩ـ شِعْرٌ في التَّقَلُّب بين المَذاهِب (ولا يُوافَقُ عليه قائلُه) :

قال الإمامُ الذهبيُّ : قال المؤيدُ ابنُ التَّكْريتي في وَجيهِ الدين أبي بَكْر المُبارَك الوَاسِطيِّ ، المَعْروف بابنِ الدهَّان[٢] :

وَمَـنْ مُبْلـغٌ عَنِّـي الـوَجيـهَ رِسَـالـةً	وإنْ كَانَ لاَ تُجْدِي لَدَيْهِ الرَّسَائِلُ
تَمَذْهَبْتَ لِلنُّعْمَانِ بَعْدَ ابنِ حَنْبَلٍ	وَذَلِـكَ لَمَّـا أَعْـوَزَتْـكَ المَـآكِـلُ

---

(١) انظر السير : (صاحب المَغْرب) ٢١/٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١٦٢٦/٢ .

(٢) انظر السير : (ابن الدهَّان) ٢٢/٨٦ـ٨٩ ، وانظر النزهة : ١٦٦٨/١ .

وَمَا اخْتَـرْتَ رَأْيَ الشَّـافِعِـيِّ دِيَـانَـةً   وَلَكِنَّمـا تَهْـوَى الـذي هُـوَ حـاصِـلُ
وَعَمَّـا قَليـلٍ أَنْـتَ لاَ شَـكَّ صَـائِـرٌ   إِلَىٰ مَالِكٍ فَافْطَنْ لِمَا أَنَا قَائِلُ

٢٠ـ مُتفرِّقاتٌ في الفِقْه :

(أ) الردُّ علىٰ مَنْ يَزْعُمُ أنَّ أحمدَ ليسَ فَقيهاً :

قالَ ابنُ عَقيل : مِنْ عَجيبِ ما سَمعتُهُ عن هَؤلاءِ الأحْداثِ الجُهَّال ، أَنَّهم يَقولُونَ : أَحمَدُ بنُ حَنْبل لَيسَ بفَقيه ، لكنَّه مُحدِّث قالَ : وهـٰذا غايَةُ الجْهلِ لأنَّ له اختياراتٍ بَنَاهَا على الأحاديثِ بناءً لا يَعرِفُهُ أكثرُهم ورُبَّما زادَ علىٰ كِبارِهم[(١)] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ : أَحْسَبُهم يَظنُّونَه كانَ مُحدِّثاً وبَسْ ، بلْ يَتخَيَّلونَه من بابةِ مُحدِّثي زَمانِنا واللهِ لَقدْ بَلغَ في الفِقْه خاصَّةً رُتبَةَ اللَّيثِ ، ومالِكٍ ، والشَّافعيِّ ، وأبي يوسُف ، وفي الزُّهْدِ والوَرَعِ رُتبَةَ الفُضَيلِ ، وإبْراهيمَ بنِ أدْهَم ، وفي الحِفْظِ رُتبَةَ شُعْبَة ، ويَحْيَى القَطَّان ، وابنِ المَديني ولكنَّ الجاهِلَ لا يَعلَمُ رُتبَةَ غَيرِه ؟!![(٢)] .

(ب) الردُّ علىٰ مَنْ حرَّمَ الذَّهَبَ المُحَلَّق :

عن ثَوْبانَ رضي الله عنه ، قال : دَخلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ فاطِمَةَ وأنا مَعه ، وقد أخذتْ من عُنُقِها سِلْسِلةً من ذَهَب فقالَت : هـٰذه أهْداهَا لي أبو حَسَن فقالَ صلى الله عليه وسلم : « يا فَاطِمَةُ أَيَسُرُّكِ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ : هَـٰذِه فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ وفي يَدِها سِلْسِلَةٌ مِنْ نَارٍ »!! ثم خَرجَ فاشْتَرَت بالسِّلْسلَةِ غُلاماً ، فأعْتَقَتْه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « الحَمْدُ للهِ الذِي نَجَّى فَاطِمَةَ مِنَ النَّارِ » رواه أبو داود[(٣)] .

قال صاحبُ النُّزْهَة : وأبو داوُد ، هو الطَّيالِسيُّ ، صاحبُ « المُسْنَد » ، وهو فيه (٢/ ٣٥٤) ، وكان على المُصنِّف رَحمَه الله أنْ يُقيِّدَه حتىٰ لا يلتَبِسَ بأبي داوُد

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٨/٩٤٧ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنْبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٨ .

(٣) انظر السير : (فاطمَةُ بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ١١٨ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٧/٢٢٩ .

السِّجِسْتانيِّ صاحبِ السُّنَنِ ، فإنَّه المُتبادَرُ عند الإطْلاقِ ، وما ذَهبَ إليه الشَّيخُ ناصِرُ الدِّين الألْبانيُّ بالاسْتِنادِ إلىٰ هٰذا الحَديثِ وغَيرِه ممَّا أوْرَدَه في (آدابِ الزِّفاف) من تَحْريمِ تَحَلِّي النِّساءِ بالذَّهبِ المُحلَّقِ ، وإباحَة غَيرِ المُحلَّقِ لَهُنَّ ، فقد خالَفَ بذلك إجْماعَ المُسلمينَ سَلَفاً وخَلَفاً علىٰ إباحَة تَحَلِّي النِّساءِ بالذَّهبِ مُحلَّقاً وغَيرِ مُحلَّق كالطَّوْقِ والخاتَمِ والسِّوارِ ، والخُلْخالِ والقَلائِدَ ، وقد نَقَلَ الإجْماعَ غَيرُ واحدٍ من العُلماءِ المُحقِّقينَ كالجَصَّاصِ الرَّازي في « أحْكام القُرْآن » (٤/ ٤٧٧) ، والقُرطُبيِّ في تَفسيـرِه (١٦/ ٧١ ، ٧٢) ، والنَّـوَويِّ فـي « المَجْمـوعِ » (٤/ ٤٤٢ ، ٦/ ٤٠) ، والحافِظِ ابنِ حَجَرَ في « فَتْحِ البَاري » (١٠/ ٣١٧) .

ولا يَتَّسعُ هٰذا التَّعْليقُ لبَيانِ وَهاءِ رَأيِه هٰذا الذي انْفَرَدَ به والشُّبهاتِ التي أثارَها حَولَ هٰذه المَسْألَة ، ونُحيلُ القارئَ الكَريمَ علىٰ كتابِ « إباحَةِ التَّحَلِّي بالذَّهَبِ المُحلَّق للنِّساءِ » للشَّيخِ الفاضِلِ إسْماعيلَ بنِ محمَّدِ الأنْصاريِّ ، فقد تكفَّلَ بالرَّد عليه ، وتَوهينِ ما اسْتندَ إليه من الأحاديث التي يَظنُّ أنَّها تَدلُّ علىٰ مَدَّعاهُ ، ونَقَلَ عن العُلماءِ أنَّ المُرادَ منها ـ علىٰ فَرْضِ صِحَّتها ـ غَيرُ ما ذَهبَ إليه ، وأوْرَدَ نُصوصاً من الكتابِ والسُّنَّة تَدلُّ علىٰ صِحَّة ما ذَهبَ إليه جَماهِيرُ السَّلفِ والخَلَفِ من العُلماءِ ، وقد أجادَ في كُلِّ ذلك وأفادَ ، فجَزاهُ الله عنَّا خَيرَ الجَزاء[1] .

(ج) اسْتعمالُ السُّبْحَة :

قال ابنُ مَعين : وكان يَحْيَى القَطَّان يَجيءُ معه بمِسْباحٍ ، فيُدخِلُ يدَه في ثيابِه ، فيُسَبِّحُ[2] .

(د) تَعْليلٌ لانْتشَار مَذْهَب مالك في الأنْدَلُس :

قالَ أبو القاسِم بنُ بشكُوال الحافظُ : كانَ يَحْيَىٰ بنُ يَحْيىٰ بنُ كثير مُجابَ الدَّعْوَة ، قد أخَذَ نفسَه في هَيئَتِه ومِقْعَدِه هَيئَةَ مالِكِ الإمام بالأنْدَلُس ، فإنَّه عُرِضَ عليه قَضاءُ

(١) انظر النزهَة : (فاطمَةُ بنتُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم) : ٢٣٠/ هامش (١) .
(٢) انظر السير : (يَحْيى القطَّان) ٩/ ١٧٥ـ١٨٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٨١٦ .

الجَماعَة ، فامْتَنَع ، فكانَ أميرُ الأنْدَلُس لا يُولِّي أحَداً القَضاءَ بمَدائِنِ إقلِيمِ الأنْدَلُس ، إلاَّ مَنْ يُشيرُ به يَحْيَىٰ بنُ يَحْيىٰ ، فكَثُرَ لذلكَ تَلامِذَةُ يَحْيَىٰ بنِ يَحْيىٰ وأقْبَلوا علىٰ فِقْهِ مالِك ، ونَبَذُوا ما سِواهُ .

وفاةُ يَحْيى بن يَحْيىٰ في سنة أرْبَع وثلاثينَ ومئتين[1] .

(هـ) أحْكامٌ فِقْهِيَّةٌ مُتفرِّقَة :

١ـ في الطَّهارَة :

رَوَىٰ إبْراهيمُ النَّخْعيُّ عن هَمَّامَ : أنَّه رَأىٰ جَريرَ بنَ عبدِ الله القَسْريَّ بالَ ، ثم تَوضَّأ ، ومَسحَ علىٰ خُفَّيهِ فسألتُه فقالَ : رَأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَفعَلُه .

ثم قالَ إبْراهيمُ : فكانَ يُعجِبُهم هـٰذا ، لأنَّ جَريراً من آخِرِ مَنْ أسْلمَ[2] .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : أنا أُوتِرُ بثَلاث ، ولا أقْنُتُ إلاَّ في النِّصْفِ الأخيرِ من رَمضانَ ، وأرْفَعُ يَديَّ إذا قَنتُّ ، ولا أرَى المَسحَ على العِمامَة ، ولا أرَى الصَّلاةَ علىٰ رَجلٍ يَموتُ بغَيرِ البَلَد ـ كان يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذا الحَديثَ ـ ولا أرَىٰ أنْ يَهبَ الرجُلُ بِنتَه بلا مَهْرٍ ، ولا أنْ يُزَوِّجَها علىٰ سُورَةٍ رَأيتُ يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هـٰذه الأحاديثَ[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : من وُجوه أبي الطيِّبِ في المَذهَبِ أنَّ خُروجَ المَنيِّ يَنْقُضُ الوُضوءَ ومنها أنَّ الكافِرَ إذا صَلَّىٰ في دارِ الحَرْبِ ، فصَلاتُه إسْلام[4] .

مات أبو الطيِّب الطَبَريّ صَحيحَ العَقْل ، ثابتَ الفَهْم ، سنةَ خَمسينَ وأربعمِئَة ، وله مئةٌ وسَنتان رَحمَه الله[5] .

---

(١) انظر السير : (يَحْيَى بن يَحْيى بن كَثير) ١٠/٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ٥/٨٩١ .
(٢) انظر السير : (جَرير بن عبد الله) ٢/ ٥٣٠ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ١/٣٠٣ .
(٣) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/٩١٣ .
(٤) انظر « تَهذيب الأسماء واللغات » (٢/١٢٤٨) ، وقال النوويُّ في المسألة الأولىٰ : والصحيح الذي قاله جمهور أصحابنا : لا ينقضه ، بل يوجب الغسل فقط ، وقال في المسألة الثانية : والصحيح المنصوص للشافعي وجمهور الأصحاب أنها ليست بإسلام إلاَّ أن تُسمَع منه الشهادتان .
(٥) انظر السير : (أبو الطيِّب الطَبريّ) ١٧/٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٧٣ .

٢ـ في الصَّلاة :

أخرجَ أبو داوُد من حَديثِ ابنِ عُمرَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم صَلَّىٰ صَلاةً ، فلُبِّسَ عليه ، فلمَّا انصرفَ ، قال لأُبَيٍّ : « أصَليْتَ مَعَنَا ؟ » قالَ : نَعمَ قال : « فمَا مَنعَكَ؟ »[١]، [٢].

وعن قَيسِ بنِ عُباد ، قالَ : أتَيتُ المَدينَةَ للقَاءِ أصْحابِ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، ولـمْ يَكُنْ فيهم رَجلٌ ألْقاهُ أحبَّ إليَّ من أُبَيّ ، فأقيمَت الصَّلاةُ ، وخَرجَ فقُمتُ في الصَّفِّ الأوَّلِ فجاءَ رَجلٌ فنظرَ في وُجُوه القَوم ، فعَرَفَهم غَيري ، فنَحَّاني ، وقامَ مَقامي فما عَقلْتُ صَلاتي فلمَّا صَلَّىٰ ، قالَ : يا بُنيَّ!! لا يَسُوؤُك الله ، فإنِّي لمْ آتِ الذي أتَيتُ بجَهالَة ، ولكنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قالَ لنا : « كونُوا في الصَّفِّ الذي يَلِينِي » وإنِّي نَظَرتُ في وُجُوه القَوم ، فعَرفْتُهم غيرَك ، وإذا هو أُبَيٌّ رضي الله عنه[٣] .

وعن الحَسَنِ أنَّ عُمرَ بنَ الخطَّابِ جَمعَ النَّاسَ علىٰ أُبَيِّ بنِ كَعْب في قِيامِ رَمضانَ ، فكانَ يُصلِّي بهم عِشْرينَ رَكعةً[٤] .

وعن أنَسٍ ، قالَ : دَخلَ عَلينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ما هو إلاَّ أنا وأُمِّي وخالَتي أمُّ حِرَام فقال : « قُومُوا فَلأُصَلِّ بِكم » فصَلَّىٰ بنا في غَيرِ وَقْتِ صلاةٍ[٥] .

وعن الأرْقَم بنِ أبي الأرْقَم : أنَّه تَجهَّزَ يُريدُ بَيتَ المَقْدِسِ ، فلمَّا فَرَغَ من جَهازِه ، جاءَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم يُودِّعُه فقالَ : « مَا يُخْرِجُكَ ؟ حَاجَةٌ أَوْ تِجارَةٌ » ؟

---

(١) قال الخطابيُ : أراد : ما مَنعَك أن تفتح عليَّ إذ رأيتَني قد لُبِّسَ عليَّ ؟ وفيه دليل علىٰ جواز تلقين الإمام .

(٢) انظر السير : (أُبَيّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١٨١/ ٢ .

(٣) انظر السير : (أُبَيّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١٨١/ ٣ .

(٤) انظر السير : (أُبَيّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١٨٢/ ٣ .

(٥) انظر السير : (أمُّ حِرام) ٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٢٦٧/ ٣ .

قالَ : لا واللهِ يا نَبيَّ اللهِ ، ولكن أَرَدْتُ الصَّلاةَ في بَيتِ المَقْدِسِ فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « الصَّلاةُ فِي مَسْجِدِي خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ ، إلاَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ » فجَلسَ الأرْقَمُ ، ولَمْ يَخرُجْ .

قِيلَ : الأرْقَمُ عاشَ بِضْعاً وثمانينَ سَنةً .

تُوفِّيَ بالمَدينَة وصلَّىٰ عليه سَعدُ بنُ أبي وَقَّاص بوَصيَّته إليه[١] .

وعن الوَليدِ بنِ مَزْيَد قال : سُئلَ الأوْزاعيُّ عن إمامٍ تَركَ سَجدةً ساهياً حتىٰ قامَ وتفرَّق النَّاسُ قال : يَسجُدُ كُلُّ إنْسانٍ منهُم سَجدةً وهم مُتَفرِّقون[٢] .

وقالَ يَحْيىٰ بنُ مَعين : أنا أُوتِرُ بثَلاث ، ولا أَقْنُتُ إلاَّ في النِّصْفِ الأخيرِ من رَمضانَ ، وأرْفَعُ يَديَّ إذا قَنتُّ ، ولا أرَى المَسحَ على العِمامَة ، ولا أرَى الصَّلاةَ علىٰ رَجلٍ يَموتُ بغَيرِ البَلَد ـ كان يَحْيىٰ يُوَهِّنُ هٰذا الحَديثَ ـ ولا أرىٰ أنْ يَهبَ الرجُلُ بِنتَه بلا مَهْرٍ ، ولا أنْ يُزَوِّجَها علىٰ سُورَةٍ رَأيتُ يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هٰذه الأحاديثَ[٣] .

ومِنْ أغْرَبِ ما أتَىٰ به أبو الوَليدِ الفَقيهُ أنَّه قالَ : مَنْ كَررَّ الفاتحَةَ مَرَّتين بطُلَت صَلاتُه ، وهٰذا خِلافُ نَصِّ الإمامِ[٤] .

وقالَ الحاكمُ : وَردَ كتابٌ من مِصْرَ بأنْ يَحُجَّ أبو محمَّد المُغَفَّلِيُّ بالنَّاسِ ، ويَخطُبَ بعَرفَة ومِنَىٰ ، فصَلَّىٰ بعَرفَة وأتَمَّ الصَّلاةَ ، فعَجَّ النَّاسُ ، فصَعَدَ المِنْبَرَ ، فقالَ : أيُّها النَّاسُ ، أنا مُقيمٌ وأنتُم علىٰ سَفَرٍ ، فلذلك أتْمَمتُ[٥] .

---

(١) انظر السير : (الأرْقَم بن أبي الأرْقَم) ٢/ ٤٧٩ـ ٤٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩٣ .

(٢) انظر السير : (الأوْزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٨٢ .

(٣) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/٩١٣ .

(٤) انظر السير : (أبو الوَليد الفَقيه) ١٥/ ٤٩٢ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٣ .

(٥) انظر السير : (المُغَفَّليّ) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٢ .

٣ـ في الصِّيام :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة أبي طَلْحَة الأنصاريِّ : وهو الذي لا يَرىٰ بابْتِلاعِ البَرَد للصَّائم بأساً ويقولُ : ليسَ بطَعامٍ ولا شَراب[١] ،[٢] .

وعن أمِّ المؤمنين جُوَيْرِيَة بنتِ الحارِث : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ عليها يومَ جُمعَة ، وهي صائمةٌ ، فقال لها : « أَصُمْتِ أَمْسِ ؟ » قالت : لا قال : « أَتُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدَاً ؟ » قالت : لا قال : « فَأَفْطِرِي » .

وعنها ، قالت : أتَىٰ عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غَدوةً وأنا أُسَبِّحُ ، ثم انْطَلَقَ لحاجَتِه ، ثمَّ رَجعَ قَريباً من نصْفِ النَّهارِ ، فقال : « أَمَا زِلْتِ قَاعِدَةً ؟ » قلتُ : نَعم قال : « أَلا أُعَلِّمكِ كلِمَاتٍ لَوْ عُدِلْنَ بِهِنَّ عَدَلَتْهُنَّ ، أَوْ وُزِنَّ بِهِنَّ وَزَنَتْهُنَّ (يَعْني جَميعَ ما سَبَّحْتِ) : سُبْحانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِهِ ، ثَلاثَ مَرَّات ، سُبْحانَ اللهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، ثَلاثَ مَرَّات، سُبْحانَ اللهِ رِضَا نَفْسِهِ، ثَلاثَ مَرَّات ، سُبْحانَ اللهِ مِدادَ كلِمَاتِهِ ، ثَلاثَ مَرَّات »[٣] .

وقال أبو الوَليد الفَقيهُ : الحِجَامَةُ تُفَطِّرُ الحاجِمَ والمَحْجومَ ، والتَزمَ أنَّه هو المَذْهَب لصِحَّة الأحاديثِ فيه وهٰذا فيه نَظرٌ، لأنَّ الإمامَ[٤] ما ضعَّفَ الأحاديثَ، بل ادَّعىٰ نَسْخَها[٥] .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٧٩) من طريق عبد الله بن معاذ ، حدثنا أبي ، عن شعبة ، عن قتادة وحميد ، عن أنس قال : مطرنا برداً ، وأبو طلحَة صائم ، فجعل يأكلُ منه ، قيل له : تأكل وأنت صائم!! فقال : إنما هٰذه بركة هٰذا إسنادٌ صحيح ، وهٰذا اجتهاد أبي طلحة ، والجمهور علىٰ خلافه ، فقد قال البزّارُ عقب إخراجه للحديث برقم (١٠٢٢) لا نعلم هٰذا الفعل إلاَّ عن أبي طلحَة .

(٢) انظر السير : (أبو طلحَة الأنْصاري) ٢/ ٢٧ـ ٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٢١٣ .

(٣) انظر السير : (جُوَيْرِيَة أمُّ المؤمنين) ٢/ ٢٦١ـ ٢٦٥ ، وانظر النزهة : ٣/٢٥٥ .

(٤) أي الشافعيّ رحمَه الله .

(٥) انظر السير : (أبو الوَليد الفَقيه) ١٥/ ٤٩٢ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٣ .

٤ـ في الحَجِّ والعُمْرَة :

عن عَمرِو بنِ أبي عَمرٍو : سَمعَ القاسِمَ يقولُ : كانت عائشةُ تَلبَسُ الأحمَرَين : الذَّهبَ والمُعَصْفَرَ ، وهي مُحْرِمَة(١) .

وقالت عائشةُ : استأذَنَتْ سَوْدَةُ لَيلَةَ المُزْدَلِفَة ، أنْ تَدفَعَ قبلَ حَطْمَةِ النَّاسِ ـ كانت امرأةً ثَبِطَة ـ أي ثَقيلَة فأُذِنَ لها(٢) .

وقال مُطَرِّفُ بنُ عبد الله : قال لي عِمْرانُ بنُ حُصَين : أحدِّثُكَ حَديثاً عَسى الله أنْ يَنفعَكَ به : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جَمعَ بين الحَجِّ والعُمرة ، ولمْ يَنْهَ عنه حتىٰ مات ، ولمْ يَنزِلْ فيه قُرآنٌ يُحرِّمُه ، وأنَّه كان يُسلَّمُ عليَّ ـ يَعني المَلائكَة ـ قال : فلمَّا اكْتَويْتُ ، أمسَكَ ذلك ، فلمَّا تركتُه ، عاد إليَّ(٣) .

وعن سالمٍ : سَمعَ أبا هُرَيرَةَ يقولُ : سَألَني قومٌ مُحْرِمون عن مُحِلِّينَ أهْدُوا لهم صَيداً فأمَرْتُهم بأكْلِه ثم لَقيتُ عُمرَ بنَ الخطَّاب ، فأخْبرتُه ، فقال : لو أفْتَيْتَهم بغير هٰذا ، لأوْجَعْتُك(٤) .

وقال كعبُ بنُ عُجْرَة : كنتُ مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، بالحُدَيْبيَة ونحنُ مُحْرمون ، وقد صدَّه المشركون ، فكانت لي وَفْرَةٌ فجَعلَت الهَوامُّ تسَّاقَطُ علىٰ وَجْهي ، فمَرَّ بي النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال : « أتُوْذِيكَ هَوَامُّ رَأْسِكِ ؟ » قلتُ : نعَم فأمَرَ أنْ يُحْلَقَ ونَزلَت فيَّ آيةُ الفِدْيَة(٥) ، (٦) .

وقالَ الحاكمُ : وَردَ كتابٌ من مِصْرَ بأنْ يَحُجَّ أبو محمَّد المُغَفَّلِيُّ بالنَّاسِ ، ويَخطُبَ

---

(١) انظر السير : (عائشة أمّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٥/٢٤٤ .
(٢) انظر السير : (سَوْدَة أمُّ المؤمنين) ٢/ ٢٦٥ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٢٥٧ .
(٣) انظر السير : (عِمْران بن حُصَين) ٢/ ٥٠٨ـ ٥١٢ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩٨ .
(٤) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣١٥ .
(٥) وآية الفدية هي : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ سورة البقرة ، الآية : ١٩٦ .
(٦) انظر السير : (كعب بن عُجْرة) ٣/ ٥٢ـ ٥٤ ، وانظر النزهة : ٦/٣٣١ .

بعَرفَة ومِنَىٰ ، فصَلَّىٰ بعَرفَة وأتَمَّ الصَّلاةَ ، فعَجَّ النأسُ ، فصَعَدَ المِنْبَرَ ، فقالَ : أيُّها النَّاسُ ، أنا مُقيمٌ وأنتُم علىٰ سَفَر ، فلذلك أتْمَمتُ[1] .

٥ـ أحْكامُ الكفار :

عن مَكْحولٍ : أنَّ عُبادَةَ بنَ الصَّامِت دَعا نَبَطيّاً يُمسِكُ دابَّتَه عند بَيتِ المَقْدِس ، فأبَىٰ ، فضَربَه فشَجَّه فاسْتَعْدَىٰ عليه عُمرَ فقالَ : ما دَعاكَ إلىٰ ما صَنعتَ بهٰذا ؟ قال : أمَرتُه ، فأبَىٰ ، وأنا في حِدَّة ، فضَربتُه فقال : اجْلِسْ للقَصَاص فقال زَيدُ بنُ ثابت : أتُقِيدُ لعَبدِكَ من أخِيكَ ؟ فترَكَ عُمرُ القِوَدَ ، وقَضىٰ عليه بالدِّيَة[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : من وُجوه أبي الطَّيِّبِ الطَّبَري في المَذْهَب أن خُروجَ المَنيِّ يَنقُضُ الوُضوءَ ومنها أنَّ الكافرَ إذا صَلَّىٰ في دارِ الحَرْب ، فصَلاتُه إسْلام[3] .

وقد ماتَ الطبريُّ صَحيحَ العَقل ، ثابت الفهم ، سنة خمسين وأرْبَعمئة ، له مئة وسَنتانِ رَحمَهُ الله[4] .

٦ـ في العِتْق :

عن عائشةَ ، قالَت : قامَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في شَأن بَرِيْرَة حينَ أعْتَقها ، واشْتَرَطَ أهلُها الوَلاءَ ، فقالَ : « مَا بَالُ أقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطاً لَيْسَتْ في كتَابِ اللهِ ! ! مَنْ اشْتَرَطَ شَرْطاً لَيسَ في كتَابِ اللهِ ، فَهُوَ بَاطِلٌ ، وإنِ اشْتَرَطَ مِئَةَ مَرَّةٍ ، فَشَرْطُ اللهِ أَحَقُّ وَأَوْثَقُ » .

عن ابنِ عبَّاس : أنَّ زَوْجَ بَريرة كان عَبداً أسْوَدَ ، يُسمَّىٰ : مُغيثاً ، فقَضى النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيها أرْبَع قَضيات : أنَّ مَواليها اشْتَرطُوا الوَلاءَ ، فقَضىٰ أنَّ الوَلاءَ

---

(١) انظر السير : (المغفّلي) ١٦/ ١٨١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٢ .

(٢) انظر السير : (زَيدُ بن ثابت) ٢/ ٤٢٦ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٩/٢٨٧ .

(٣) انظر « تهذيب الأسماء واللغات » (٢/ ١٢٤٨) وقال النووي في المسألة الأولىٰ : والصحيح الذي قاله جمهور أصحابنا : لا ينقضه ، بل يوجب الغسل فقط ، وقال في المسألة الثانية : والصحيح المنصوص للشافعي وجمهور الأصحاب أنها ليست بإسلام إلاَّ أن تُسمع منه الشهادتان .

(٤) انظر السير : (أبو الطيّب الطبري) ١٧/ ٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٣٧٣ .

لِمَنْ أعْتَقَ ، وخُيِّرَتْ فاخْتارَت نفسَها ، فأمَرَ النبيُّ أنْ تَعْتدَّ فكُنتُ أراهُ يَتْبَعُها في سِكَكِ المَدينَة ، يَعْصِرُ عَينَيه عليها .

قالَ : وتُصُدِّقَ عليها بصَدقَة ، فأهْدَت منها إلىٰ عائشَةَ ، فذُكرَ ذلك للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ »[1] .

٧ـ في الكراء (الإجارة) :

قال أبو عُمَر بنُ عبد البَرِّ كان يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ يَرىٰ جَوازَ كراءِ الأرْضِ بجُزءٍ ممَّا يَخرُجُ منها ، علىٰ مَذْهَب اللَّيثِ ، ويَقولُ : هي سُنَّةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في خَيْبَر[2] .

٨ـ في اللُّقَطَة :

جاءَ في ترجَمة أُبَيِّ بن كعْب ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وقد كان أُبيٌّ التَقَطَ صُرَّةً فيها مئة دينار ، فعرَّفَها حَوْلاً وتَملَّكَها[3] .

٩ـ في النَّبيذ :

رُويَ أنَّ القاضي بَكَّارَ بنَ قُتَيْبَة قَدِمَ علىٰ قَضاءِ مِصْرَ ، وكان حَنفياً فاجْتَمَع مرَّةً بإسْماعيلَ بنِ يَحْيَى المُزَنيِّ ـ وهو من تَلاميذ الشَّافعيِّ ـ فسَألَه رَجلٌ من أصْحابِ بكَّار ، فقالَ : قد جاءَ في الأحاديثِ تَحريمُ النَّبيذِ ، وجاءَ تَحليلُه ، فلِمَ قدَّمْتُم التَّحْريمَ ؟ فقال المُزَنيُّ : لَمْ يَذهَبْ أحدٌ إلىٰ تَحْريمِ النَّبيذِ في الجاهليَّة ثم حُلِّلَ لنا ، ووَقعَ الاتِّفاقُ علىٰ أنَّه كان حَلالاً ، فحَرُم ، فهـٰذا يَعضُدُ أحاديثَ التَّحْريمِ ، فاسْتَحْسنَ بكَّارٌ ذلك منه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وأيضاً فأحاديثُ التَّحْريمِ كثيرةٌ صِحاحٌ ، وليسَ كذلكَ أحاديثُ الإباحَة .

---

(١) انظر السير : (بَرِيْرَة مَوْلاة أمِّ المؤمنين عائشَة) ٢/ ٢٩٧ـ ٣٠٤ ، وانظر النزهة : ١/٢٦٣ .
(٢) انظر السير : (يَحْيى بن يَحْيى بن كثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩١ .
(٣) انظر السير : (أُبيُّ بن كعْب) ١/ ٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٨٢ .

وقالَ محمَّدُ بنُ علي الكتَّاني ، سَمعتُ عَمرَو بنَ عُثْمانَ المَكيَّ يقولُ : ما رَأيتُ أحداً من المُتَعبِّدينَ في كثْرَة مَنْ لَقيتُ منهم أشَدَّ اجْتهاداً من المُزَنيِّ ولا أدْوَمُ على العِبادَة منه وما رَأيتُ أحداً أشَدَّ تَعْظيماً للعِلمِ وأهلِهِ منه[1] .

١٠ـ في السِّحْر :

عن جُنْدُبِ الخَيرِ ، قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حَدُّ السَّاحر ضَربُه بالسَّيف[2] .

١١ـ في القَصَاص :

عن خارِجَةَ بنِ زَيْد ، قالَ : قَتلَ رَجلٌ من الأنْصارِ وهُو سَكْرانٌ أنْصاريّاً في عَهْد مُعاويَة ، ولَمْ يَكنْ علىٰ ذلك شَهادَةٌ إلاَّ لَطْخٌ وشُبْهَةٌ ، فاجْتمَعَ رأيُ النَّاسِ علىٰ أنْ يَحْلِفَ وُلاةُ المَقْتولِ ، ثم يُسلَّمُ فيَقتُلُوه ، فرَكبْنا إلىٰ مُعاويَةَ ، فقَصَصْنا عليه القِصَّةَ ، فكتبَ إلىٰ سَعيدِ بنِ العاصِ : إنْ كان ما ذَكرْنا له حَقّاً أن يُحلِّفَنا على القاتِلِ ، ثم يُسْلِمَه إلينا ، فجِئنا بكتابِ مُعاويَةَ إلىٰ سَعيدٍ ، فقالَ : أنا مُنفِذٌ كتابَ أميرِ المؤمنينَ فاغْدُوا علىٰ بَركَة الله ، فغَدَوْنا عليه ، فأسْلَمَه إلينَا بعدَ أنْ حَلفْنا خَمسينَ يَميناً[3] .

١٢ـ في الهَيْئَة :

عن عبدِ الرحمَـٰن ابنِ مولىٰ أم برثن ، قال : قَدِمَ أبو موسى الأشْعَريُّ وزيادٌ علىٰ عُمرَ رضي الله عنه فرأىٰ في يدِ زيادٍ خاتَماً من ذَهَب ، فقال : اتَّخذْتم حِلَقَ الذَّهب ، فقال أبو موسىٰ ، أمَّا أنا فخاتَمي من حَديد فقال عُمرُ : ذاك أنْتَنُ ، أوْ أخْبَثُ ، مَنْ كان مُتخَتِّماً فليَتَختَّم بخَاتم من فِضَّة[4] .

---

(١) انظر السير : (المُزَنيُّ) ١٢/ ٤٩٢ـ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٤ .
(٢) انظر السير : (جُندُب الأزدي) ٣/ ١٧٥ـ١٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٣٦٢ .
(٣) انظر السير : (خارجَة بن زَيد) ٤/ ٤٣٧ـ ٤٤١ ، وانظر النزهة : ٧/٥٢٩ .
(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/٢٨٢ .

وعن عُثمانَ بنِ عُبَيدِ الله بنِ أبي رافع ، قال : رَأيتُ أبا سَعيد الخُدْري يُحفي شارِبَه كأخي الحَلْق[1] ، [2] .

وعن نافع : أنَّ ابنَ عُمرَ كان يُصفِّرُ لحيَتَه .

عن زيدِ بنِ أسْلَم : أنَّ ابنَ عُمرَ كان يُصَفِّرُ حتىٰ يَملأ ثيابَه منها ، فقيلَ له : تَصبغُ بالصُّفْرَة ؟ فقالَ إنِّي رَأيتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَصبغُ بها .

وعن شريكٍ : عن محمدِ بنِ زَيْد ، رَأى ابنَ عُمرَ يُصَفِّرُ لحيَتَه بالخلُوق والزَّعْفَران[3] .

وعن نافعٍ : كان ابنُ عُمرَ يَعْفي لحيَتَه إلاَّ في حَجٍّ أو عُمْرَة[4] .

وعن أيُّوبَ : سُئلَ سَعيدُ بنُ جُبَير عن الخِضَابِ بالوَسِمَة[5] فكَرِهَه ، وقالَ : يَكْسُو اللهُ العَبدَ النُّورَ في وَجْهِه ، ثم يُطفِئُه بالسَّواد[6] .

١٣ـ في الزَّوَاج والطَّلاق :

قال الشَّعْبيُّ : أسْلمَتْ زَينَبُ بنتُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهاجَرَتْ ، ثم أسْلمَ زَوجُها أبو العاص بنُ الرَّبيع بعدَ ذلك ، وما فرَّقَ بينهما .

وكذا قال قَتادَة ، وقالَ : ثم أُنْزِلَتْ (براءة)[7] بعدُ ، فإذا أسْلمَتْ امرأةٌ قبلَ زَوْجِها ، فلا سَبيلَ له عليها ، إلاَّ بخِطْبَة[8] .

قال الذهبيُّ : وأبو هُرَيْرَةَ إليه المُنْتَهىٰ في حِفْظِ ما سَمعَه من الرسولِ عليه السلام ،

---

(١) الإحفاء : المبالغة في القَصّ .
(٢) انظر السير : (أبو سَعيد الخُدري) ٣/١٦٨ـ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٣٦٠/٤ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/٢٠٣ـ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٦/٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/٢٠٣ـ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٦/٣ .
(٥) الوسمة : شجر له ورق يُختَضَبُ به .
(٦) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥٠٧/٤ .
(٧) سورة التوبة .
(٨) انظر السير : (زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢/٢٤٦ـ٢٥٠ ، وانظر النزهة : ٢٥٣/٥ .

وأدائِه بحُروفِه وقد أدَّىٰ حَديثَ المُصَرَّاة بألفَاظِه ، فوَجَبَ علينا العَملُ به ، وهو أصلٌ برأسِه .

وقد وَلِيَ أبو هُرَيْرَة البَحْرَين لعُمَرَ ، وأفتَىٰ بها في مَسألَةِ المُطلَّقَة طَلقَةً ثم يَتزَوَّجُ بها آخَر ، ثم بعدَ الدُّخول فارَقَها ، فتزوَّجَها الأوَّلُ هلْ تبقَىٰ عندَه علىٰ طَلقَتَين ـ كما هو قَولُ عُمرَ وغَيرِه من الصَّحابَة ومالكٍ والشَّافعيِّ وأحمدَ في المَشْهور عنه ـ أوْ تُلغَىٰ تلك التَّطْليقَة وتكونُ عندَه على الثَّلاثِ ، كما هو قَولُ ابنِ عبَّاس وابنِ عُمَر وأبي حَنيفَة ، وروايَة عن عُمَر ، بناءً علىٰ أنَّ إصابَة الزَّوْج تَهدِمُ ما دُون الثَّلاث ، كما هَدمَت إصابَتُه لها الثَّلاثَ فالأوَّلُ مَبنيٌّ علىٰ أنَّ إصابَة الزَّوْج الثاني ، إنَّما هي غايَةُ التَّحْريم الثابت بالطَّلاقِ الثلاث ، فهو الذي يَرتَفعُ ، والمُطلَّقةُ دُونَ الثَّلاث لَمْ تَحْرُمْ ، فلا تَرفَعُ الإصابَةُ منها شيئاً وبهـٰذا أفتَىٰ أبو هُرَيْرَة فقالَ له عُمرُ : لوْ أفْتَيتَ بغيره ، لأوْجَعتُك ضَرباً .

وكذلك أفتَىٰ أبو هُرَيْرَة في دَقائق المَسائل مع مثلِ ابنِ عبَّاس ، وقد عملَ الصَّحابَةُ فمَنْ بَعدَهم بحَديثِ أبي هُرَيْرَة في مَسائلَ كثيرة تُخالِفُ القياسَ ، كما عَملوا كلُّهم بحَديثِه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قالَ : « لا تُنْكحُ المَرْأَةُ علىٰ عَمَّتِهَا ، ولا خَالَتِهَا » .

وعَملَ أبو حَنيفَة والشَّافعيُّ وغَيرُهما بحَديثِه : « أنَّ مَنْ أكلَ نَاسِياً ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَه » مَعَ أنَّ القياسَ عندَ أبي حَنيفَة : أنَّه يُفْطِرُ ، فتَرَكَ القياسَ لخَبرِ أبي هُرَيْرَة .

وهـٰذا مالكُ عَملَ بحَديثِ أبي هُرَيْرَة في غَسْلِ الإناءِ سَبعاً من وُلُوغِ الكَلبِ مع أنَّ القياسَ عندَه : أنَّه لا يُغْسَلُ لطَهَارَته عنده .

بلْ قد تَرَكَ أبو حَنيفَة القياسَ لِمَا هو دُون حَديثِ أبي هُرَيْرَة في مَسألَة القَهْقَهَةِ ، لذلك الخَبَر المُرْسَل[1] .

وقَضىَ يَحْيىٰ بنُ يَحْيىٰ بنُ كَثير برأي أمينَينِ إذا لمْ يُوجَد في أهل الزَّوْجَين حَكمان يَصْلُحان لذلك[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٣١٤ .

(٢) انظر السير : (يَحْيى بن يَحْيى بن كثير) ١٠/ ٥١٩ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩١ .

وقالَ يَحْيَىٰ بنُ مَعين : أنا أُوتِرُ بثَلاث ، ولا أَقْنُتُ إلاَّ في النِّصْفِ الأخيرِ من رَمضانَ ، وأرْفَعُ يَديَّ إذا قَنتُّ ، ولا أرَى المَسحَ على العِمامَة ، ولا أرَى الصَّلاةَ علىٰ رَجلٍ يَموتُ بغَيرِ البَلَد ـ كان يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هٰذا الحَديثَ ـ ولا أرَىٰ أنْ يَهبَ الرجُلُ بِنتَه بلا مَهْرٍ ، ولا أنْ يُزَوِّجَها علىٰ سُورَةٍ رَأيتُ يَحْيَىٰ يُوَهِّنُ هٰذه الأحاديثَ[1] .

١٤ـ في الظِّهَار :

عن إبراهيمَ أنَّ عائشةَ بنت طَلْحَة قالت : إنْ تَزوَّجَتْ مصعباً ، فهو عليها كظَهْرِ أمِّها ، فتَزوَّجَتْه ، فسَألَت عن ذلك ، فأُمِرَتْ أن تُكَفِّر ، فأعْتَقَتْ غُلاماً لها ثمنَ ألفَين .

بَقيتْ عائشةُ بنُ طَلْحَة إلىٰ قَريبٍ من سَنة عشر ومئة بالمَدينَة[2] .

١٥ـ في الرَّضَاعَة :

عن القاسِم بنِ محمّد أنَّ سَهْلَةَ بنتَ سُهَيل أتَتْ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وهي امرأةُ أبي حُذَيْفَة فقالَت : يا رسُولَ الله! إنَّ سالِماً معي ، وقد أدْرَكَ ما يُدْرِكُ الرِّجالُ ، فقالَ : أرْضِعيه ، فإذا أرْضَعْتِهِ فقَدْ حَرُمَ عليك ما يَحْرُمُ من ذي المَحْرم قالت أمُّ سَلمَة : أبَىٰ أزْواجُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَدخُلَ أحدٌ عَليهنَّ بهَٰذا الرَّضَاع ، وقُلنَ : إنَّما هي رُخْصَةٌ لسالِم خاصَّةً[3] .

١٦ـ العَقيقَة :

عن عُبَيدِ الله بنِ أبي رافع ، عن أبيه : أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أذَّنَ في أُذُنِ الحَسَن بالصَّلاةِ حين وُلِدَ[4] .

وعن عليِّ بنِ الحَسَن ، عن أبي رافع ، قال : لَمَّا وَلدَتْ فاطِمَةُ حَسَناً قالت :

---

(١) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/٩١٣ .
(٢) انظر السير : (عائشة بنت طَلحة) ٤/ ٣٦٩ـ ٣٧٠ ، وانظر النزهة : ١/٥١٢ .
(٣) انظر السير : (سالم مَوْلىٰ أبي حُذَيْفَة) ١/ ١٦٧ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٧/١٤٢ .
(٤) انظر السير : (الحَسن بن عَليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٧٨ .

يا رسُولَ الله! ألا أَعُقُّ عن ابني بدَمٍ ؟ قال : « لا ، ولَكنْ احْلِقِي رَأسَهُ ، وَتَصَدَّقِي بِوَزْنِ شَعْرِهِ فِضَّةً عَلَى المَسَاكِينِ » ففَعَلَت[1] .

١٧ـ فَرائِض :

عن جابرِ بنِ عَبدِ الله قال : جاءَتِ امْرأةُ سَعْدِ بنِ الرَّبيع بابْنَتَيْها من سَعْد فقالت : يا رسُولَ الله! هاتان بِنْتَا سَعْد ، قُتِلَ أبُوهُما مَعَك يومَ أُحُد ، وإنَّ عَمَّهُما أخَذَ مَالَهُما ، لَمْ يَدَعْ لَهُمَا مَالاً ، وَلا تُنْكحَانِ إلاَّ وَلَهُما مَالٌ ، قال : « يَقْضِي اللهُ فِي ذَلِكَ » فأُنْزِلَت آيةُ المَواريث ، فبعثَ إلىٰ عَمِّهِمَا فقال : « أَعْطِ بِنْتَيْ سَعْدٍ الثُّلُثَيْنِ ، وَأَعْطِ أُمَّهُمَا الثُّمُنَ وَمَا بَقِيَ فَهُوَ لَكَ »[2] .

عن الشعبي : أُتِيَ زيادُ بنُ أبيه في مَيِّتٍ تَركَ عَمَّةً وخَالَةً ، فقال : قَضَىٰ فيها عُمرُ أنْ جَعَلَ الخَالَةَ بمَنْزِلَة الأُخْتِ ، والعَمَّةَ بمَنْزِلَة الأَخِ ، فأعْطاهُما المَالَ[3] .

١٨ـ مَواريث :

لمَّا تُوُفِّيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَعَلَّقَتْ آمالُ فَاطِمَةَ الزَّهْراءِ بِميراثِه ، وجاءَتْ تَطْلُبُ ذلكَ من أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فَحَدَّثَها أنَّه سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لا نُورَثُ ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ » فَوَجَدَتْ عَلَيْه ، ثُمَّ تَعَلَّلَتْ[4] ،[5] .

١٩ـ تَجْهيزُ المَيِّت :

عن أمِّ عَطيَّة ، قالت : لمَّا ماتَت زَيْنَبُ بنتُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « اغْسِلْنَهَا وِتْرَاً ، ثَلاثاً ، أوْ خَمْسَاً ، واجْعَلْنَ فِي الآخِرَةِ كافُوراً أوْ شَيْئاً مِنْ كافُورٍ ،

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن عَليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٧٨ .
(٢) انظر السير : (سعد بن الرَّبيع) ١/ ٣١٨ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٩ .
(٣) انظر السير : (زياد بن أبيه) ٣/ ٤٩٤ـ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/٤١٥ .
(٤) تعلَّلَت : أي تلهَّتْ عنه وتَشاغَلَت .
(٥) انظر السير : (فاطِمَة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢/ ١١٨ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/٢٢٩ .

فإذَا غَسلْتُنَّهَا فَأعْلِمْنَنِي » فلمَّا غسَّلْناها ، أعْطانا حَقْوَهُ[1] ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَشْعِرْنَهَا إيَّاه »[2] .

٢٠ـ الفُتْيا والمُفْتون :

(أ) الصَّحَابَة المُفْتون :

وعن محمَّدِ بنِ سَهْل بنِ أبي حَثْمَة : عن أبيه قال : كان الذين يُفْتونَ علىٰ عَهْد رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاثةٌ من المُهَاجِرينَ : عُمَرُ ، وعُثمانُ ، وعَليٌّ وثلاثةٌ من الأنْصارِ : أُبَيُّ بنُ كعْب ، ومُعاذٌ ، وزَيْدٌ[3] .

وعن نافع : كان ابنُ عُمَر وابنُ عَبَّاس يَجْلِسان للنَّاسِ عندَ مَقْدم الحاجِّ فكُنتُ أجلسُ إلىٰ هـٰذا يَوماً ، وإلىٰ هـٰذا يَوماً ، فكانَ ابنُ عَبَّاس يُجيبُ ويُفْتي في كل ما سُئِلَ عنه ، وكان ابنُ عُمَرَ يَرُدُّ أكثرَ ممَّا يُفْتي[4] .

وقال ابنُ حَزْم في كتاب « الإحْكام » في الباب الثامن والعشرين : المُكْثِرون من الفُتْيا من الصَّحابَة ، عُمَرُ وابنُه عبدُ الله ، وعليٌّ ، وعائشَةُ ، وابنُ مَسْعود ، وابنُ عَبَّاس ، وزَيْدُ بنُ ثابت ، فهم سَبعَةٌ فَقَط يمكن أنْ يُجْمَعَ من فُتْيا كلِّ واحد منهم سفرٌ ضَخمٌ وقد جَمَعَ أبو بَكر محمَّدُ بنُ موسَىٰ بنِ يَعقُوب بنِ أميرِ المؤمنين المَأمون فُتْيا ابنِ عَبَّاس في عشرين كتاباً وأبو بَكْرٍ هـٰذا أحدُ أئمَّة الإسْلام[5] .

(ب) المُفْتي في نَظَرِ الإمام أحمد :

قال محمدُ بنُ المُسَيِّب ، سَمعتُ زَكريّا بنَ يَحْيَى الضَّرير ، يقولُ : قلتُ لأحمَدَ بنِ

---

(١) والحقو : الإزار ، وجمعها : حِقيٌّ وأَحْقٍ وأحْقاء ، والأصل في الحقو : معقد الإزار ، وسُمي الإزار حقواً لأنه يُشَدُّ على الحقو ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أشْعِرْنها إيّاه » يريد اجعلنه شعاراً لها ، وهو الثوب الذي يلي جسدها ، فالشعار الثوب الذي يلي الجسد ، والدثارُ فوق الشعار .

(٢) انظر السير : (زَينَب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٢/٢٤٦ـ ٢٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/٢٥٣ .

(٣) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٥/١٩١ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٧٠ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ١/٣٧٤ .

حَنْبَل : كمْ يَكْفي الرَّجلَ من الحَديث حتىٰ يَكونَ مُفْتياً ؟ يَكفيه مِئةُ ألفٍ ؟ فقالَ : لا إلىٰ أنْ قالَ : فيَكْيفه خَمسُ مئة ألف حَديثٍ ؟ قال : أَرْجُو[1] .

(ج) الجُرْأة على الفُتْيا غَيرُ مَحْمودَة :

عن عبدِ الرحمَـٰن بنِ أبي لَيْلىٰ قال : أدْرَكتُ عِشْرينَ ومئةً من أصْحابِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم من الأنْصَارِ ، إذا سُئلَ أحدُهم عن شيء ، وَدَّ أنَّ أخَاهُ كَفاه[2] .

وكان عبدُ السَّلام التَّنوخي المُلقَّبُ « سُحْنُون » إذا أعْجَبَه الصَّمتُ تَكلَّمَ ، ويقولُ : أجْرأُ النَّاسِ على الفُتْيَا أقلُّهم علماً[3] .

وكان عمادُ الدِّينِ المَقْدسيّ إذا أفْتىٰ في مَسْألة يَحْترزُ فيها احْترازاً كثيراً[4] .

(د) مَنْصِبُ المُفْتي مَنْصِبٌ خَطير :

وعن سُحْنون قال : ما وَجدتُ مَنْ باعَ آخِرَتَه بدُنيا غَيرِه إلاَّ المُفْتي[5] .

(هـ) كان السَّلفُ لا يُفْتون حتىٰ يأخُذوا الإذْنَ من عُلماء عَصْرِهم :

قال المُفضَّلُ الجَنَدي ، سَمعتُ أبا مُصْعَب ، سَمعتُ مالكاً ، يقولُ : ما أفْتَيتُ حتىٰ شَهِدَ لي سَبعُونَ أنِّي أهْلٌ لذلك[6] .

(و) مَنْ أفْتَىٰ زيادَة علىٰ نِصْفِ قَرْن ولمْ يُؤْخَذْ عليه في فَتْوَىٰ :

قال الحاكمُ : بَقيَ الإمامُ أبو بَكْر الصِّبْغي يُفتي بنِيسَابُور نَيِّفاً وخَمسينَ سَنةً ولمْ يُؤخَذ عليه في فَتاويه مَسْألة وَهمَ فيها .

وقالَ : سَمعتُ أبا الفَضْلِ بنِ إبْرهيم يَقولُ : كان أبُو بَكْر بنُ إسْحاقَ يَخلفُ إمامَ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٩٣١ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي ليلىٰ) ٤/ ٢٦٢ـ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٤/٤٩٤ .
(٣) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٨٣ .
(٤) انظر السير : (العِماد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٦٥ .
(٥) انظر السير : (سُحْنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩٨٣ .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٣٣ .

الأئمَّة ابنَ خُزَيْمَة في الفَتْوَىٰ بضع عشرة سَنةً في الجامع وغيرِه[1] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ أحمدَ بنَ مَنْصور الحافظَ يقولُ : أبو النَّضْر الطُّوسيُّ يُفْتي النَّاسَ من سَبعينَ سَنة أو نَحْوَها ، ما أُخِذَ عليه في فَتوَىٰ قَطّ .

ثم قال الحاكمُ : دَخلتُ طُوسَ ، وأبو أحمد الحافظُ علىٰ قَضائِها فقالَ لي : ما رَأيتُ قَطُّ في بلدٍ من بلاد الإسْلام مثلَ أبي النَّضْر ، رَحمَه الله .

مات أبو النَّضْر الطُّوسيُّ سَنةَ أرْبع وأرْبَعين وثلاثِ مئة ، وقال الذهبيُّ : جاوزَ التِّسْعينَ ، رحمَه الله[2] .

(ز) من آداب الفُتْيا طَلبُ العَوْن من الله عليها :

قال إسْماعيلُ بنُ أبي أُوَيْس : سألتُ خالي مالِكاً عن مَسْألة ، فقال لي : قِرَّ ثم تَوضَّأ ، ثم جَلسَ على السَّريرِ ، ثم قالَ : لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله وكان لا يُفْتي حتىٰ يَقولَها[3] .

(ح) فَتاوَىٰ مُتفرِّقَة :

١ـ في الصَّلاة :

قالَ يَحيَىٰ بنُ مَعين في مَنْ صَلَّىٰ خَلفَ الصَّفِّ وَحْدَه ، قالَ : يُعيدُ[4] .

وقالَ أيضاً في مَنْ صَلَّىٰ بقَوْمٍ علىٰ غَيرِ وُضوء ، قالَ : لا يُعيدُونَ ويعُيدُ[5] .

وقال مُحمَّدُ بنُ عبد الوَهَّاب ، سَمعتُ إسْحاقَ بنَ إبْراهيمَ ، وسُئلَ عن رَجلٍ تَركَ ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[6] فقالَ : مَنْ تَرَكَ « ب » أو « س » أو « م » منها ، فصَلاتُه فاسِدَة لأنَّ الحَمدَ سَبعَ آياتٍ .

---

(١) انظر السير : (الصِّبْغي) ١٥/ ٤٨٣ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ١٢٥٠/٥ .
(٢) انظر السير : (الطُّوسيّ) ١٥/ ٤٩٠ـ٤٩٢ ، وانظر النزهة : ١٢٥٢/٤ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٢٨/٣ .
(٤) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٩١٣/٥ .
(٥) انظر السير : (يَحْيى بن مَعين) ١١/ ٧١ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٩١٣/٦ .
(٦) سورة الفاتحة ، الآية : ١ .

وقالَ ابنُ المُبارَك : مَنْ تَركَها ، فقد تَركَ مئةً وثلاثَ عَشْرَةَ آيةً من كتابِ الله تعالىٰ[1] .

٢ـ في الحَجِّ والعُمْرَة :

قِيلَ : سُئِلَ أحمدُ بنُ حَنْبَل عن رَجلٍ نَذرَ أنْ يَطُوفَ علىٰ أرْبَع ، فقالَ : يَطوفُ طَوافَين ولا يَطُفْ علىٰ أرْبَع[2] .

٣ـ أحْكامُ الكفَّار :

قالَ إبْراهيمُ الحَرْبيُّ : سُئِلَ أحمدُ عن المُسْلمِ يَقولُ للنَّصْرانيِّ : أكْرَمَكَ اللهُ قال : نَعَم ، يَنْوي بها الإسْلامَ[3] .

٤ـ في الطَّلاق :

قدَ حَكَىٰ أبو عليّ التَّنُوخي في « النشوار » له ، عن عُثمانَ بنِ محمَّد السُّلميَّ قال : حدَّثني ابنُ منجو القائد قال : حدثني غلام لابن المزوّق قال : اشترىٰ مولاي جاريةً ، فزوَّجَنيها ، فأحببتُها وأبغَضَتْني حتىٰ ضجرت ، فقُلتُ لها : أنت طالِق ثلاثاً ، لا تُخاطِبيني بشيء إلاَّ قلتُ لك مثلَه ، فكَمْ أحْتَملُك ؟ فقالت في الحالِ : أنتَ طالقٌ ثلاثاً فأُبْلِسْتُ ، فدُلِلْتُ علىٰ محمدَ بنِ جَرير فقال لي : أقِمْ معها بعدَ أنْ تَقولَ لها : أنتِ طالقٌ ثلاثاً إنْ طَلَّقْتُك فاسْتحسَنَ هـٰذا الجَوابَ وذَكرَه شَيخُ الحَنابلَة ابنُ عَقيل ، وقال : وله جَوابٌ آخر : أنْ يقولَ كقَوْلِها سَواء : أنتَ طالقٌ ثلاثاً ـ بفَتح التَّاء ـ فلا يَحْنَث وقال أبو الفَرَج بنُ الجَوْزي : وما كان يَلزَمُه أنْ يقولَ لها ذاكَ على الفَوْر ، فلَه التَّمادي إلىٰ قبلِ المَوْت .

قال الإمامُ الذَّهبيُّ : ولوْ قالَ : أنتِ طالقٌ ثلاثاً ، وقَصدَ الاسْتفهامَ أو عَنىٰ أنَّها طالقٌ من وَثاق ، أو عَنى الطَّلْقَ لمْ يَقَعْ طَلاقٌ في باطِن الأمر .

---

(١) انظر السير : (إسْحاق بن راهَوَيْه) ١١/٣٥٨ـ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٣/٩٥٢ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٧/٩٤٧ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/٩٤٧ .

وله جوابٌ آخَر علىٰ قاعدَة مُراعاة سَبب اليَمين ونِيَّة الحالِف ، فما كانَ عليه أنْ يَقُولَ لها ما قالَتْه ، إذْ من المَعْلوم بقَرينَة الحالِ اسْتِثْناءُ ذلكَ قَطْعاً ، لأنَّه ما قَصدَ إلاَّ أنَّها إذا قالَت له ما يؤذيه أنْ يُؤذِيَها بمثله ولو جاوَبَها بالطَّلاقِ لسُرَّت هي ، ولَتأذَّىٰ هو ، كما استُثْنيَ من عُمومِ قَولِه تَعالىٰ : ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾[1] بقَرينَة الحال أنَّها لمْ تُؤْتَ لحيَةً ولا إحْليلاً ومن المعلوم استثْناؤُه بالضَّرورَة التي لم يَقْصِدْها الحالِفُ قَطُّ لوْ حَلفَ : لا تَقولي لي شَيئاً إلاَّ قُلتُ لكِ مثلَه ، أنَّها لوْ كَفرَت وسَبَّت الأنْبياءَ فلَمْ يُجاوِبْها بمثلِ ذلكَ لأحْسَن .

وذهبَ إمامٌ[2] في زَمانِنا إلىٰ أنَّ مَنْ حَلَفَ علىٰ حَضٍّ أوْ مَنْعٍ بالطَّلاق أوْ العِتاق أوْ الحَجّ ونَحْوَ ذلك فكَفَّارَتُه كَفَّارَةُ يَمين ، ولا طَلاقَ عليه[3] .

٢٢ـ القَضَاء :

(أ) القَضَاءُ علىٰ عَهْد الصَّحَابَة :

قال مَسْروقٌ : كان القَضاءُ في الصَّحابَة إلىٰ سِتَّة : عُمَرَ ، وعَليّ ، وابنِ مَسْعود ، وأُبيٍّ ، وزَيْد ، وأبي موسَىٰ .

وعن صَفْوانَ بنِ سليم ، قالَ : لمْ يكُنْ يُفْتي في المَسْجدِ زَمنَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم غَيرُ هَؤلاء : عُمَر ، وعَليّ ، ومُعاذ ، وأبي موسَىٰ[4] .

(ب) الأُصُولُ الشَّرعيّة التي يَقْضي بها القاضي :

عن الحارثِ بنِ عَمرو الثَّقفي قالَ : أخْبَرنا أصَحابُنا ، عن مُعَاذ قال : لَمَّا بَعثَني النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى اليَمَن ، قال لي : « كيفَ تَقْضي إنْ عَرضَ قَضاءٌ ؟ »

---

(١) سورة النمل ، الآية : ٢٣ .

(٢) هو شيخُ الإسْلام ابنُ تَيْميَة ، وقد جاء في هامش الأصل ما نَصُّه : « أخْطأَ هـٰذا الإمام فيما ذهب إليه ، وبُدِّع بذلك ، وحُجرَ عليه ، واعْتُقِلَ غيرَ مرّة إلىٰ أنْ مات ، وقد نَقلَ الإجْماعَ في المَسْألة ـ علىٰ خِلاف قَوله ـ جماعةٌ من الأئمَّة ، وردَّ عليه غيرُ واحد من المُحَقِّقين ، والله المُسْتعان » .

(٣) انظر السير : (محمد بن جَرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٣ .

(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٢٨٠ .

قالَ : قُلتُ : أقْضي بما في كتابِ الله ، فإنْ لَمْ يَكُنْ ، فبما قَضَىٰ به رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قالَ صلى الله عليه وسلم : « فإنْ لَمْ يَكنْ بمَا قَضَىٰ به الرَّسُولُ ؟ » قالَ : أجْتَهِدُ رَأيي ولا آلُو ، فضَرَبَ صَدْري ، وقالَ : « الحَمْدُ لله الذي وَفَّقَ رَسولَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لما يُرْضِي رَسُولَ الله »[1] .

وعن الشَّعْبيِّ قالَ : كتبَ عُمرُ إلىٰ شُرَيح القاضي : إذا أتاك أمْرٌ في كتابِ الله ، فاقْضِ به ، فإنْ لمْ يَكُنْ في كتابِ الله وكان في سُنَّة رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فاقْضِ به ، فإنْ لمْ يَكُنْ فيهما ، فاقْضِ بما قَضَىٰ به أئمَّةُ الهُدَىٰ ، فإنْ لمْ يَكُنْ فأنت بالخيار ، إنْ شِئتَ تَجْتَهِدُ رَأيَك ، وإنْ شِئتَ تُؤَامِرُني ، ولا أرَىٰ مُؤَامَرَتَك إيّايَ إلاَّ أسْلمَ لك[2] .

(ج) كرْه السَّلَف لمَنْصب القاضي :

قال حمَّادٌ : سَمعتُ أيوبَ ذكرَ أبا قِلابَة ، فقال : كان والله من الفُقَهاء ذَوي الألْباب إنِّي وَجَدتُ أعْلمَ النَّاس بالقَضاء أشَدَّهم منه فِراراً ، وأشَدَّهم منه فَرقاً ، وما أدْرَكتُ بهـٰذا المِصْر أعْلمَ بالقَضاء من أبي قِلابَة[3] .

وعن أيُّوبَ ، قال : لمَّا ماتَ عبدُ الرحمَـٰن بنُ أذَينة ـ يَعني قاضي البَصْرَة ـ زَمنَ شُرَيح ذُكِرَ أبو قِلابَة للقَضاء ، فهَربَ حتىٰ أتى اليَمامَةَ ، قال : فلَقيتُه بعد ذلك فقُلتُ له في ذلك ، فقال : ما وَجَدتُ مثلَ القاضي العالم إلاَّ مثلَ رَجُلٍ وَقعَ في بَحْر ، فما عَسَىٰ أنْ يَسْبَحَ حتىٰ يَغْرقَ[4] .

وعن غَالبٍ القَطَّان ، عن بَكْرِ بنِ عبدِ الله أنَّه لمَّا ذُهِبَ به للقَضاء قال : إنِّي سأُخْبِرُكَ عنِّي : إنِّي لا عِلمَ لي والله بالقَضاء ، فإنْ كنتُ صادِقاً ، فما يَنْبَغي لك أنْ تَستَعمِلَني ، وإنْ كنتُ كاذباً فلا تُوَلِّ كاذِباً[5] .

---

(١) انظر السير : (مُعاذُ بن جَبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ١٩٠/ ٤ .
(٢) انظر السير : (شُرَيْح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٤٥٦/ ٢ .
(٣) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٥٣٣/ ٧ .
(٤) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٥٣٣/ ٨ .
(٥) انظر السير : (بَكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٥٥٠/ ٣ .

وعن مُفضَّل قال : حَبسَ ابنُ هُبَيْرَة مَنصوراً شَهْراً على القَضاء يُريدُه عليه ، فأبَىٰ ، وقيلَ : إنَّه أحْضَرَ قَيداً ليُقيِّدَه به ، ثم خَلاَّه[1] .

وقال محمَّدُ بنُ سَعْد العُوفي : سَمعتُ يَحْيىٰ بنَ مَعين يقولُ : كان أبو حَنيفة ثقةً لا يُحدِّثُ بالحَديث إلاَّ بما يَحفَظُه ، ولا يُحدِّثُ بما لا يَحفَظ ولقد ضَربَه ابنُ هُبَيْرَة على القَضاء ، فأبَىٰ أنْ يَكونَ قاضياً[2] .

وعن مُغيثِ بنِ بديل قال : دَعا المَنصورُ أبا حَنيفة إلى القَضاء فامْتَنَع ، فقال : أترغَبُ عمَّا نحنُ فيه ؟ فقال : لا أصْلُحُ قال : كَذبتَ قال : فقد حَكمَ أميرُ المؤمنين عليَّ أنِّي لا أصْلُح ، فإنْ كنتُ كاذباً ، فلا أصْلُحُ وإنْ كنتُ صادقاً فقد أخْبَرتُكم أنِّي لا أصْلُحُ ، فحبَسَه[3] .

وقالَ يَعقوبُ بنُ شَيْبَة : دَعا المَنْصورُ شَريكاً ، فقال : إنِّي أريدُ أنْ أُوَلِّيَكَ القَضاء ، فقالَ : اعْفِني يا أميرَ المؤمنين قالَ : لَسْتُ أُعْفيكَ قالَ : فأنْصَرفُ يَومي هـٰذا ، وأعُودُ ، فيَرىٰ أميرُ المؤمنين رَأيَه قال : تُريد أنْ تتغَيَّب ؟ ولَئن فَعلتَ لأقْدِمَنَّ علىٰ خَمسينَ من قَومِكَ بما تكرَه ، فوَلاَّه القَضاءَ إلىٰ أيَّام المَهْدي ، فأقرَّه المَهْديُّ ، ثم عَزلَه ، قالَ : وكانَ شَريكٌ ثقةً مَأمُوناً ، كثيرَ الحَديث ، أُنْكِرَ عليه الغَلطُ والخَطأ[4] .

وقال محمدُ بنُ عامر المِصِّيصي : سألت أحمد : وكيعٌ أَحَبُّ إليك أو يَحْيَىٰ بنُ سَعيد ؟ فقال : وَكيعٌ قلتُ : كيفَ فضَّلتَه علىٰ يَحْيىٰ ، ويَحْيَىٰ ومكانه من العلم ، والحفظ والإتقان ما قد علمت ؟ قال : وكيع كان صديقاً لحَفْصِ بنِ غِياث ، فلمَّا وَلِيَ القَضاءَ هَجَرَه ، وإنَّ يَحْيَىٰ كان صَديقاً لمُعاذِ بنِ مُعاذ ، فلمَّا وَلِيَ القَضاءَ لَمْ يهْجُرْهُ يَحْيَىٰ .

---

(١) انظر السير : (مَنْصور بن المُعْتمِر) ٥/ ٤٠٢ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٦/٦١٧ .
(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٦٢ .
(٣) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٧/٦٦٣ .
(٤) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٤ .

وقال محمد بن علي الوَرَّاق : عُرِضَ القَضاءُ علىٰ وكيع ، فامتنع[1] .

وقال ابنُ عَبدَ كَوَيه : سَمعتُ عاتكةَ بنتَ أحمد بنِ أبي عاصِم تقولُ : سَمعتُ أبي يقولُ : جاءَ أخي عُثمانَ عهدُه بالقَضاء علىٰ سامَرَّاءَ ، فقال : أقعُدُ بين يدَيْ الله تعالىٰ قاضيا!! ؟ ، فانشقَّت مَرارتُه ، فماتَ[2] .

(د) من السَّلَف مَنْ كان لا يأخذُ أجراً على القَضاء :

عن إبراهيمَ بنِ محمّد بنِ المنتِشر ، عن أبيه ، أنَّ مَسْروقاً كان لا يأخذُ على القَضاءِ أجْراً ، ويَتأوَّلُ هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ الآية[3] ،[4] .

وقال أبو الشيخ : سَمعتُ ابني عبدَ الرزَّاق يَحكي عن أحمدَ ابنِ محمدِ بن عاصِم : سَمعتُ ابنَ أبي عاصِم يقولُ : وصَلَ إليَّ منذُ دَخلتُ إلىٰ أصْبَهانَ من دَراهِم القَضاءِ زِيادَة علىٰ أربع مئة ألفِ دِرْهَم ، لا يُحاسبُني اللهُ يومَ القيامة أنِّي شَربْتُ منها شَرْبَةَ ماء ، أو أكَلتُ منها ، أو لَبِسْتُ[5] .

(هـ) من السَّلَف مَنْ كان يَنهَىٰ عن أخذ أجرٍ على القَضاء :

قال سليمانُ بنُ أبي شَيخ : قال شَريك لبعض إخْوانِه : أُكْرِهتُ على القَضاءِ ، قال : فأُكْرِهْتُ علىٰ أخْذِ الرِّزْق[6] .

(و) قُضاةٌ صالحون :

وَلي أبو عبد الله محمدُ بنُ عليّ المَرْوزي المَعْروف بـ « الخَيَّاط » قضاءَ القُضاةِ بنيسابُورَ في سنة ثمان وثلاث مئة إلىٰ أن استعفَىٰ سنة إحدىٰ عشرة ، وردَّ خَريطَةَ الحُكْم

---

(١) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠-١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨٠٩ .
(٢) انظر السير : (ابن أبي عاصم) ١٣/ ٤٣٠-٤٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩٨ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ١١١
(٤) انظر السير : (مَسْروق) ٤/ ٦٣-٦٩ ، وانظر النزهة : ٨/٤٤٥ .
(٥) انظر السير : (ابن أبي عاصم) ١٣/ ٤٣٠-٤٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٩٨ .
(٦) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠-٢١٦ ، وانظر النزهة : ٥/٧٤٣ .

إلى الرَّئيس أبي الفضل البَلْعَميِّ ، فما شَربَ لأحدٍ ماءً ، ولا ظُفِرَ له بزَلَّة ، وكان لا يَدعُ سَماعَ الحَديث أيّام قَضائه ، ويحضر مجلس أبي العبَّاس السَّرَّاج[١] .

وقال ابنُ عبد البَرّ : كان أحمدُ بنُ بَقيّ وَقوراً حَليماً كَثيرَ التِّلاوَة لَيلاً ونَهاراً ، قَويَّ المَعْرِفَة باخْتلافِ العُلماء ، وَلِيَ القَضاءَ عَشرةَ أعْوام ما ضَربَ فيها فيما قِيلَ سِوَىٰ واحدٍ مُجْمعٍ علىٰ فِسْقه ، وكان يَتوَقَّفُ ويَتثبَّتُ ويقولُ : التَّأنِّي أخْلَصُ ، إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لمَّا أُشْكلَ عليه أمرُ حَديث حُوَيِّصَة ومُحَيِّصَة[٢] وَدَى القَتيلَ من عِندِه .

وكان النَّاصِرُ لدين الله يَحترمُه ويُبَجِّله تُوفِّي على القَضاء سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي ذُرِّيته أئمَّةٌ وفُضَلاء ، آخِرُهم أبو القاسِم أحمدُ بنُ بَقيّ[٣] .

ومن مَحاسِن المنْصُور أنَّه ولَّىٰ محمدَ بنَ أبي المَنْظورِ الأنْصاري قَضاءَ القَيْروان وكان من كبار أصْحابِ الحَديث، وقد لَقيَ إسْماعيلَ القاضي ، والحارثَ بنَ أبي أسامَة، فقال : بشَرْطِ أنْ لا آخُذَ رِزْقاً ولا أرْكَبَ دابَّةً، فوَلاَّه ليتألَّفَ الرَّعيَّة، فأُحْضِرَ إليه يَهوديٌّ قد سَبَّ[٤]

---

(١) انظر السير : (القاضي الخيَّاط) ١٤/ ٥٦٤ـ ٥٦٥ ، وانظر النزهة : ٦/١١٧٣ .

(٢) أخرجه البخاري (٣١٧٣) في الجهاد ، و(٦١٤٣) في الأدب ، و(٦٨٩٨) في الدِّيات : باب القسامة ، و(٧١٩٢) في الأحكام ، ومسلم (١٦٦٩) من حديث سهل بن أبي حثمة ورافع ابن خديج أنهما قالا : خرج عبد الله بن زيد ، ومُحيِّصَة بن مسعود بن زيد ، حتىٰ إذا كانا بخير تفرّقا في بعض ما هُنالك ، ثم إذا مُحيِّصَة يجدُ عبد الله بن سهل قَتيلاً ، فدفنه ، ثم أقبلَ إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وحُويِّصَة بن مسعود وعبد الرحمٰن بن سهل ، وكان أصْغَرَ القوم ـ فذهب عبد الرحمٰن ليتكلَّم قبل صاحبيه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كبِّرْ الكبْرَ في السِّن » ، فصمت ، فتكلَّم صاحباه ، وتكلَّم معي ، فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مقتل عبد الله بن سهل ، فقال لهم : « أتَحْلِفُونَ خَمْسينَ يَميناً فَتَسْتَحِقُّونَ صَاحِبَكم أوْ قَاتِلَكم » ، قالوا : فكيف نَحلفُ ولم نَشْهَد ، قال صلى الله عليه وسلم : « فَتُبَرِّئُكم يَهُودُ بِخَمْسِينَ يَميناً » ، قالوا : وكيف نقبلُ أيْمان قومٍ كُفَّار ، فلما رأىٰ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطىٰ عقله .

(٣) انظر السير : (أحمدُ بن بَقيّ) ١٥/ ٨٣ـ ٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٣ .

(٤) أي : النبيَّ صلى الله عليه وسلم .

فبَطحَه ، وضَربَه إلىٰ أنْ ماتَ تحتَ الضَّرْبِ ، خافَ أنْ يُحكَمَ بقَتلِه فتحلّ عليه الدَّوْلة[1] .

وأَتىٰ يوماً بيته فوجَدَ سُلافَ دايةَ السُّلطانِ تَشفَعُ في امرأةٍ نائحَةٍ فاسِقَةٍ ليُطْلِقَها من حَبْسِه ، فقالَ : ما لَكِ ؟ قالت : قَضيب[2] مَحْبوبة المنصور ، تطلب منك أن تُطْلِقَها ، فقال : يا مُنْتِنَةُ لولا شيءٌ لضَربتُك لَعَنَكِ اللهُ ، ولَعنَ مَنْ أرْسَلَك فوَلْوَلَت ، وشقَّت ثيابَها ثم ذَكرَت أمرَها للمَنْصور ، فقالَ : ما أصْنَعُ به ؟ ما أخَذَ منَّا صِلَةً ، ولا نَقدِرُ علىٰ عَزْلِه نحنُ نحبُّ إصْلاحَ البَلد .

وخَرجَ في رَمضانَ سنة إحْدَىٰ وأربعين وثلاث مئة إلىٰ مكانٍ يَتنزَّه فأصابَه بَردٌ وريحٌ عَظيمة ، فأثَّرَ ذلك فيه ، ومَرِضَ ، وماتَ عددٌ كثيرٌ ممَّنْ مَعه ثم ماتَ من السَّنَة وله تسعٌ وثَلاثونَ سنةً[3] .

وقيلَ : إنَّ القاضي محمَّدَ بنِ أحمدَ بن إبْراهيم المَعْروف بـ« العَسَّال » كان لا يغلقُ بابَه عن أحَدٍ ، وكان إذا تَوجَّه على الخَصْم يَمينٌ لا يُحَلِّفْه ما أمْكَنَه ، بل يَغرمُ عنه مالم يَبلُغ مئةَ دينار ، فإذا بَلغَ المئة أو جاوَزَها ، كان يَتثبَّتُ ويُدافعُ ويُمهلُ إلى المجْلِس الثاني ، ويُحذِّرُ المدَّعَىٰ عليه وبالَ اليَمين ، ويُخوِّفُه يومَ الدِّين ، ويُذَكِّرُه الوُقُوفَ بين يَدَي ربِّ العالَمين ، ثم يُحلِّفُه علىٰ كُرْه[4] .

وقال السَّمْعانيُّ : أبو بكر الحَمَوي أحدُ المتْقِنين للمَذْهب ، وله اطِّلاعٌ علىٰ أسْرار الفِقْه ، وكان وَرِعاً ، زاهِداً ، مُتَّقياً ، سَديدَ الأحْكام ، وَليَ قَضاءَ القُضاة بعد أبي عبد الله الدَّامَغانيّ مُدّة إلىٰ أنْ تَغيَّر عليه أميرُ المؤمنين « المُقْتَدِي » فمَنعَ الشُّهودَ من حُضورِ مَجْلِسه مُدّة ، فكان يقولُ : ما أَنْعَزِلُ ما لَمْ يَتحَقَّق عليَّ فسقٌ ، ثم إنَّ « المُقْتَدِي » رَضِيَ وخَلعَ عليه[5] .

---

(١) انظر السير : (المَنْصُور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/٤ .

(٢) جارية أخرىٰ للسلطان ، ليس عنده أعزّ منها .

(٣) انظر السير : (المَنْصُور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/٥٤ .

(٤) انظر السير : (العَسَّال) ١٦/٦ـ١٥ ، وانظر النزهة : ١٢٦٥/٢ .

(٥) انظر السير : (الحَمَويّ) ١٩/٨٥ـ٨٨ ، وانظر النزهة : ١٤٦٣/٢ .

وشَهدَ عنده المشطّبُ الفَرْغانيُّ[1] ، فلَمْ يَقبلْه ، لكَونِه يَلبَسُ الحَرير فقال : تَردُّني ، والسُّلطانُ ووَزيرُه نِظامُ المُلك يَلبَسانِه ؟! فقال : لَوْ شَهدا ، لما قَبلتُهما[2] .

قال ابنُ النجَّار : تَفقَّه على القاضي أبي الطيب ، ولمْ يأخُذْ على القَضاء رِزْقاً ، ولا غَيَّرَ مأكلَه ولا مَلبَسَه ، وكان يُسَوِّي بينَ النَّاسِ فانقلبَ عليه الكُبراءُ ، وكان نَزِهاً وَرِعاً علىٰ طريقَة السَّلَف ، له كارك[3] يُؤجرُه كل شهرٍ بدينارٍ ونصْف ، كان يَقتاتُ منه ، فلمَّا وَليَ القَضاءَ جاء إنسانٌ ، فدَفعَ أرْبعَة دَنانير ، فأبىٰ ، وقال : لا أُغَيِّرُ ساكِني ، وقد ارْتَبتُ بك ، هلاَّ كانت الزِّيادَةُ من قَبلِ القَضاء .

قال أبو عليّ الصَّدَفيُّ : هو وَرِعٌ زاهدٌ وأمَّا الفِقْهُ ، فكان يُقالُ : لوْ رُفِعَ مَذهَبُ الشَّافعيِّ ، لأمْكَنَه أنْ يُمْليه من صَدرِه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان قُدومُه بَغْدادَ في سنةِ عشرين وأربعِ مئة ، وكان من أوْعيَة الفِقْه ، وقد صنَّف « البَيان في أصُول الدِّين » يَنْحو فيه إلىٰ مَذهَب السَّلَف .

مات سنةَ ثمانٍ وثمانين وأرْبع مئة ، وقد قارَبَ التِّسْعينَ ، ودُفِنَ في تربةٍ له عند أبي العبَّاس بنِ سُرَيج[4] .

وكان ابنُ العَربي ثاقِبَ الذِّهْن ، عَذْبَ المَنْطِق ، كَريمَ الشَّمائل ، كامِلَ السُّؤْدُد ، وَليَ قَضاءَ إشْبيليَة ، فحُمدَت سياسَتُه ، وكان ذا شِدَّة وسَطْوَة فعُزِلَ ، وأقْبلَ علىٰ نَشرِ العِلمِ وتَدوينِه .

كان القاضي أبو بكر ممَّن يُقالُ : إنَّه بَلغَ رُتبَةَ الاجْتهاد[5] .

---

(١) هو أبو المُظَفَّر المشطّب بن محمد بن أسامة الفرغاني ، من فرغانة ما وراء نهر جيجون ، كان من فُحول المُناظرين ، وكانت له يدٌ باسطة في النظر والجدل ، وكان مُختلطاً بالعَسكَر ، وكان لا يُفارقهم .

(٢) انظر السير : (الحَمَويّ) ١٩/ ٨٥ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١٤٦٣/٣ .

(٣) الكلمة فارسيّة ، ومعناها : البيت كما يُفهَم من السِّياق .

(٤) انظر السير : (الحَمَويّ) ١٩/ ٨٥ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١٤٦٣/٤ .

(٥) انظر السير : (ابنُ العَربي) ٢٠/ ١٩٧ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ١٥٤١/١ .

(ز) خَوفُ قاضٍ من الله :

قال الحاكمُ : سَمعتُ محمَّدَ بنَ عَبْدان خادمَ الجامع يقولُ : كان محمَّدُ بنُ عليّ الحاكم يَجيءُ في كل أسْبُوع ليلةً إلى الجامع ، فيَتعبَّد إلى الصباح من حيث لا يَعرفُ غَيري، فصادَفتُه ليلةً يَتلو : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ الآيات[1] وكلَّما تَلا آية منها ، ضَربَ بيده علىٰ صَدرِه أسْمعُ صَوتَها من شِدَّته ، رحمَه الله تعالىٰ .

تُوفِّي رحمَه الله بعدَ العشرين وثلاث مئة ، وله بضعٌ وثَمانون سنة[2] .

(ح) تَحْذيرُ القاضي الشُّهودَ من شَهادة الزُّور :

قال ابنُ سيرين : كان شُرَيحٌ القاضي يقولُ للشَّاهِدَين : إنَّما يَقضي علىٰ هـٰذا الرَّجُلِ أنتُما ، وإنِّي لَمُتَّقٍ بكُما فاتَّقِيا[3] .

(ط) قاضٍ فَطِنٌ :

قال إبراهيمُ بنُ هِشام الغَسَّانيُّ : حدَّثني أبي ، عن جَدِّي ، قال : وَقَعَتْ من رجلٍ مئةُ دينارٍ فنادَىٰ : مَنْ وَجدَها ، فله عِشْرونَ ديناراً ، فأقبَلَ الذي وَجدَها فقال : هـٰذا مالُك ، فأعْطِني الذي جَعلتَ لي فقال : كان مالي عشرينَ ومئةَ دينار ، فاخْتَصَما إلىٰ فَضَالَةَ بنِ عُبَيد ، فقال لصاحبِ المال : ألَيْسَ كان مالُك مئة وعشرين ديناراً كما تذكر ؟ قال : بَلىٰ وقال للآخر : أنتَ وَجدْتَ مئة ؟ قال : نَعَم ، قال : فاحْبِسْها ولا تُعْطِه ، فليس هو بمالِه حتىٰ يَجيءَ صاحبُه[4] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤٤ .

(٢) انظر السير : (القاضي الخيَّاط) ١٤/ ٥٦٤ـ ٥٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٧٤ .

(٣) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٦/٤٥٦ .

(٤) انظر السير : (فَضالَة بن عُبَيد) ٣/ ١١٣ـ ١١٧ ، وانظر النزهة : ٤/٣٤٦ .

(ي) قُضاةٌ مُرْتَشُون خَرِبوا الذِّمَّة :

وعن الحَسَنِ بنِ زياد اللؤلؤيِّ قال : قال أبو حَنيفَة : إذا ارْتَشَى القاضي ، فهو مَعْزول وإنْ لم يُعزَل .

قال وَكيعٌ : سَمعتُ أبا حَنيفَةَ يقولُ : البَوْلُ في المَسْجد أحسنُ من بعضِ القِياس .

وعن أبي مُعاويَة الضَّرير قال : حُبُّ أبي حَنيفة من السُّنَّة[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمَة « رَفيع الدين » : ولمَّا غَلبَ إسماعيلُ علىٰ دمشْقَ ولاَّهُ قضاءَها ، فكان مَذمومَ السِّيرة خَبيثَ السَّريرة ، وواطَأهُ أمينُ الدولة علىٰ أذيَّة الناس ، واستعملَ شُهودَ زُورٍ ووُكلاءَ ، فكان يَطلبُ ذا المالِ إلىٰ مَجْلسِه فيَبَثُّ مُدَّعٍ عليه بألفِ دينار ويُحضِرُ شُهودَه ، فيَتحيَّرُ الرجلُ ويُبهَت ، فيقولُ الرَّفيعُ : صالِحْ غَريمَك ، فيُصالِح على النِّصْف ، فاستُبيحت أموالُ المسلمين ، وعَظُمَ الخطبُ ، وتَعثَّر خَلقٌ ، وعَظُمت الشَّناعات ، واسْتغاثوا إلى الصَّالح ، فطَلَبَ وَزيرَه ، وقالَ : ما هـٰذا ؟ فخافَ ، وكان أُسُّ البَلاء المُوَفَّقُ الواسطيُّ فَتحَ أبوابَ الظلم ، فبادَر الوزيرُ وأهْلَكَهما لئلا يُقِرَّا عليه وليُرْضِيَ النَّاسَ .

ويقالُ : كان الصَّالحُ يَدري أيضاً[2] .

(ك) حَرِصَ نورُ الدِّين عَلىٰ مُساواة نفسِه بخَصْم في مَجْلِس القَضاء :

وقال مَجْدُ الدِّين ابنُ الأثير : جاءَ رجلٌ يَطْلُبُ نورَ الدين زِنكي إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزوريِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُك مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه حَقٌّ ، وكان مِلْكاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البِرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ

---

(١) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٦/٦٦٣ .

(٢) انظر السير : (الرَّفيع) ٢٣/ ١٠٩ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٥ .

المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجزْيَةَ والخَرَاجَ والعُشْرَ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من ألْفِ مَنْشُورٍ[1] .

٢٣ـ مُتفرِّقاتٌ في القَضاء :

عن نافع قال : كتب عُمَرُ إلىٰ أبي عبيدة ومعاذ : انظروا رجالاً صالحين ، فاستعملوهم على القضاء وارْزُقوهم[2] .

وعن هُبيرة بن يَريم ، أن عَليّاً جمع الناس في الرَّحْبَة ، وقال : إني مفارقكم ، فاجتمعوا في الرَّحْبَة ، فجعلوا يسألونه حتىٰ نفد ما عندهم ولم يبق إلاَّ شُريح ، فجثا علىٰ ركبتيه ، وجعل يسأله فقال له عليٌّ : اذهبْ فأنت أقْضَى العَرب[3] .

وعن عامر ، قال : جاءت امرأة إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه تخاصم زوجها طلَّقها فقالت : قد حِضْتُ في شهرين ثلاث حِيَضٍ فقال عليٌّ لشُرَيح : اقض بينهما قال : يا أمير المؤمنين ، وأنت ها هنا ؟ قال : اقض بينهما قال : إن جاءت من بطانة أهلها من يُرضىٰ دينُه وأمانتُه يَزْعُمُ أنَّها حاضَت ثلاثَ حِيَض تَطهُر عند كل قرء ، وتُصلِّي ، جازَ لها ، وإلاَّ فلا، قال عليٌّ : قالُون. وقالُون بلسان الروم : أحسنتَ[4] .

وعن إبراهيم ، قال : أقرَّ رجلٌ عند شُرَيح ، ثم ذهب يُنْكِر ، فقال : قد شهد عليك ابن أخت خالتك[5] .

وعن عبد الصَّمد بنِ مَعقل ، قيل لوَهْب بنِ مُنَبِّه : إنَّك يا أبا عبدِ الله كُنْتَ تَرى الرُّؤيا فتُحدِّثُنا بها فتَكونُ حقاً قال : هَيْهات ذَهبَ ذلك عنِّي منذ وُلِّيتُ القَضاء[6] .

وقالَ سليْمانُ بنُ أبي شَيخ : حَكَىٰ لي عبدُ الله بنُ صالِح بنِ مُسلِم ، قالَ : كانَ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٢ .
(٢) انظر السير : (مُعاذ بن جَبَل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ١/١٩٢ .
(٣) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٤/٤٥٦ .
(٤) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٥/٤٥٦ .
(٥) انظر السير : (شُرَيح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ١/٤٥٧ .
(٦) انظر السير : (وَهْب بن مُنبِّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/٥٥٣ .

شَريكٌ علىٰ قَضاءِ الكُوفَة ، فخَرجَ يَتلقَّى الخَيزُرانَ ، فبَلَغَ شاهي[1] ، وأبْطَأت الخَيْزُران ، فأقامَ يَنتَظرُها ثَلاثاً ، ويَبِسَ خُبزُه ، فجَعلَ يَبلُّه بالْمَاءِ ويَأكُله ، فقالَ العَلاءُ بنُ الْمِنْهَال الغَنَويُّ[2] .

فإنْ كَانَ الذِي قُلتَ حقَّاً ... بأَنْ قد أكرَهوكَ عَلى القَضاءِ

فما لكَ مُوضِعاً في كلِّ يوم ... تلَقَّىٰ مَنْ يَحُجُّ مِن النِّساء ؟

مُقيماً في قُرَىٰ شاهِي ثلاثاً ... بِلا زادٍ سِوَىٰ كِسَرٍ وَمَاءِ

* * *

---

(١) مَوضع قُرب القادسيّة .

(٢) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٦/٧٤٣ .

(٥) اللُّغَةُ والأدَب

١ـ فَضْلُ عُلَماء اللُّغَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة أبي زَكريّا يَحْيىٰ بنِ زياد « الفَرّاء » : ورَدَ عن ثَعلبَة أنَّه قالَ : لَوْلا الفَرّاء لما كانت عَربيّة ، ولَسَقطَت ، لأنَّه خَلَّصَها ، ولأنَّها كانت تُنازَعُ ويَدَّعيها كلُّ أحَد[١] .

ونقل أبو بُديل الوَضّاحي أنَّ المأمونَ أمرَ الفَرّاء أنْ يؤلِّفَ ما يُجمع به أصول النحو ، وأفرد في حجرة ، وقرر له خدماً ، وجواري ، ووراقين فكان يملي في ذلك سنين قال ولما أملىٰ كتاب « مَعاني القُرآن » اجتمع له الخلقُ ، فكان من جُملَتهم ثَمانونَ قاضياً ، وأملَّ « الحمد » في مئة ورقة[٢] .

٢ـ مَنْ كان من العُلماء لُحَنَة :

قال عليُّ بنُ المَديني : كان وَكيعٌ يَلْحَنُ ، ولو حَدثتُ عنه بألفاظِه ، لكانَت عَجباً ، كان يقولُ : حدَّثنا مسْعَر عن « عيشة » .

وقال إبراهيمُ الحَربيُّ : سَمعتُ أحمدَ يقولُ : ما رَأتْ عَينايَ مثل وكيع قَطُّ ، يَحفظُ الحَديثَ جيداً ، ويُذاكرُ الفِقْهَ ، فيُحسِنُ مع وَرَع واجْتهاد ، ولا يَتكلَّمُ في أحَد[٣] .

وقالَ ابنُ ناصِر : كان محمّدُ بنُ طاهِر لُحَنَةً ويُصحِّف ، قَرأَ مرَّة : وإنَّ جَبينَه ليَتَفَصَّدُ[٤] عَرَقاً ـ بالقاف ـ فقُلتُ : بالفَاء ، فكابَرَني[٥] .

وقال السِّلفيُّ : كان محمَّدُ بنُ طاهِر فاضِلاً يَعرفُ ، لكنه لُحَنَةٌ ، قال لي المؤتَمنُ

---

(١) انظر السير : (الفَرّاء) ١٠/١١٨ـ١٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٨٥٧ .
(٢) انظر السير : (الفَرّاء) ١٠/١١٨ـ١٢١ ، وانظر النزهة : ٣/٨٥٧ .
(٣) انظر السير : (وَكيع) ٩/١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/٨١١ .
(٤) أي : يسسل من التَّفصُّد وهو السَيلان ، وهو قطعة من حديث .
(٥) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/٣٦١ـ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٨٧ .

الساجي : كان يَقرأُ ، ويلحنُ عند شَيخ الإسلام بهَراة ، فكان الشَّيخُ يُحرِّكُ رأسَه ، ويقولُ : لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

٣ـ مَنْ كان يَقفُ علىٰ أواخِرِ الكلم خَوفاً من اللَّحْن :

كان ابنُ فَضْلان ظَريفَ المناظَرَة ، ذا نَغَمات مَوْزونَة ، ويُشيرُ بيَدِهِ بوَزْن مطربٍ أنيق ، يقفُ علىٰ أواخر الكَلِم خَوفاً من اللحن قاله الموفَّق عبدُ اللَّطيف ، ثم قال : كان يُداعِبُني كثيراً ، ثم رُمي بالفالجِ في أواخر عُمرِه رَحمَه الله .

ماتَ سَنةَ خَمسٍ وتسعينَ وخَمسِ مئة[2] .

٤ـ مُناظَرَةٌ لُغَويَّة :

جَمعَ يَحْيَى البَرْمَكي ببغدادَ بين سِيبَوَيْه وبين الكِسائي للمُناظَرَة ، بحضور سَعيد الأخْفَش ، والفَرّاء ، وجَرت مَسألةُ الزُّنْبُور ، وهي كذب : أظن الزُّنْبُورَ أشدَّ لَسْعاً من النَّحْلة فإذا هو إيَّاها فقالَ سِيبَوَيْه : ليس المثلُ كذا ، بلْ : فإذا هو هي ، وتَشاجَرا طويلاً ، وتَعصَّبوا للكِسائي دُونَه ، ثم وَصلَه يَحْيَىٰ بعَشرة آلاف ، فسارَ إلىٰ بلادِ فارِس ، فاتَّفقَ مَوْتُه بشيرازَ فيما قيل .

وقيلَ : كان فيه مع فَرْطِ ذَكائِه حُبْسَةٌ في عِبارَتِه ، وانطلاقٌ في قَلَمِه .

قال إبراهيمُ الحَرْبيُّ : سُمِّيَ سِيبَوَيْه لأنَّ وَجْنَتَيه كانَتا كالتُّفَّاحَتين ، بَديعَ الحُسْن .

وقال العَيشيُّ : كنَّا نَجلسُ مع سِيبَوَيْه في المسجد ، وكان شابّاً جَميلاً نَظيفاً ، قد تَعلَّق من كل علمٍ بسَبب ، وضَربَ بسَهْمٍ في كلِّ أدَب مع حَداثَةِ سنِّه .

وقيلَ : عاشَ اثْنتَين وثَلاثينَ سنةً ، وقيل : نَحْوَ الأرْبَعين ، وقيل : مات سنةَ ثَمانين ومئة[3] .

---

(١) انظر السير : (محمد بن طاهر) ١٩/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٤٨٧ .
(٢) انظر السير : (ابنُ فَضْلان) ٢١/ ٢٥٧ـ ٢٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦١٧ .
(٣) انظر السير : (سِيبَوَيْه) ٨/ ٣٥١ـ ٣٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/ ٧٦٢ .

٥ـ مَسَائلُ لُغَويَّة :

عن أبي عثمان المازني قال : قلتُ لابنِ السِّكِّيت : ما وَزْنُ « نَكتَل » قال : « نَفْعَل » قلتُ : اتَّئِد ، ففكَّر ، وقال : « نَفْتَعِل » قلتُ : فهٰذه خَمسة أحْرُف ، فسكت فقال المتوكلُ : ما وَزْنُها ؟ قلتُ : وَزْنُها في الأصْلِ « نَفْتَعِل » ، لأنَّها « نَكتَيِل » فتَحرَّك حرفُ العلَّة ، وانْفَتَح ما قبلَه فقُلبَ ألفاً ، فصار « نَكتَال » ، فحُذفَت ألفُه للجَزْم ، فبَقِيَ « نَكتَل » .

مات المازِنيُّ رحمه الله سنة سبع أو ثمان وأربعين ومئتين[١] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة أبي زُرْعَة الرَّازي : الإمامُ ، سَيِّدُ الحُفَّاظ ، عُبَيدُ الله بنُ عبدِ الكريم بن يَزيد ، مُحدِّثُ الرَّي ودُخول « الزَّاي » في نِسْبتِه غير مَقيس ، كالمَرْوَزِي[٢] .

وكان نِفْطَويه مُتضَلِّعاً من العُلوم ، يُنكِرُ الاشْتقاقَ ويُحيلُه . خلطَ نَحوَ الكُوفيِّينَ بنَحْوِ البَصْريِّين ، وصارَ رَأساً في رَأيِ أهْلِ الظَّاهِر .

وكان ذا سُنَّة ودين وفُتوَّة ومُرُوءَة ، وحُسْنِ خُلُق ، وكَيْسٍ وله نَظْمٌ ونَثْرٌ[٣] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة أبي حامد الغَزَّاليّ : تَوفِّيَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسِ مئة ، وله خَمسٌ وخَمسونَ سَنةً ، ودُفِنَ بمَقبرَةِ الطابَران قصبة بلادِ طُوس ، وقولُهم : الغَزَّاليُّ ، والعطَّاريُّ ، والخبَّازيُّ ، نِسْبة إلى الصَّنائع بلسان العَجَم بجَمْع ياء النِّسْبَة والصِّيغَة .

وللغَزَّاليِّ أخٌ واعظ مَشْهور ، وهو أبو الفُتوح أحمدُ ، له قَبولٌ عَظيمٌ في الوَعْظ يُزَنُّ[٤] برِقَّة الدِّينِ وبالإباحَة ، بَقيَ إلىٰ حُدود العشْرين وخَمس مئة ، وقد نابَ عن أخيه في تَدْريس النِّظاميَّة ببَغدادَ لمَّا حَجَّ مُدَيْدَة .

---

(١) انظر السير : (المازِنيّ) ١٢/ ٢٧٠ـ ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٨ .
(٢) انظر السير : (أبو زُرْعَة الرَّازي) ١٣/ ٦٥ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٥١ .
(٣) انظر السير : (نِفطَويْه) ١٥/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٢ .
(٤) أي : يُتَّهَم ويُرمَىٰ .

قال أبو الثناء مَحمودُ الفَرضي : حَدَّثنا تاجُ الإسْلام ابنُ خَميس قال لي الغَزَّاليُّ : الناسُ يَقولون لي الغَزَّاليُّ ، ولستُ الغَزَّاليَّ ، وإنَّما أنا الغَزَالي مَنسوبٌ إلىٰ قَريَة يُقالُ لها : غَزالة ، أو كما قال .

رَحمَ الله الإمامَ أبا حامد ، فأينَ مثلُه في عُلومِه وفَضائِله ، لكن لا نَدَّعي عِصْمَته من الغَلطِ والخَطأ ، ولا تَقليدَ في الأصُول[1] .

٦ـ نادِرَةٌ لُغَويّة تدلُّ علىٰ سِعَة الحِفْظ والدِّرايَة :

قالَ الخَطيبُ : حكىٰ لي رئيسُ الرُّؤساء أبو القاسم عليُّ بنُ الحَسَن عمَّن حدَّثه ، أنَّ أبا عُمرَ الزَّاهِدَ ، كان يُؤدِّبُ وَلدَ أبي عُمرَ محمَّدَ ابنَ يوسُف القاضي ، فأمْلىٰ يوماً على الغُلام ثلاثينَ مَسألَة في اللُّغَة ، وخَتمَها ببَيْتين قال : فحَضرَ ابنُ دُرَيد ، وابنُ الأنْباري ، وأبو بَكر بنُ مِقْسَم عند القاضي ، فعَرضَ عليهم المسائل فما عَرفوا منها شيئاً ، وأنْكَروا الشِّعْر فقالَ لهم القاضي : ما تَقولُونَ فيها ؟ فقال ابنُ الأنْباري : أنا مَشْغولٌ بتَصنيفِ « مُشْكل القُرآن » وقال ابنُ مِقْسَم : وذكرَ اشْتِغالَه بالقِراءاتِ ، وقالَ ابنُ دُرَيْد : هي من وَضْع أبي عُمرَ ، ولا أصْلَ لشيء منها في اللُّغَة ، فبَلغَ أبا عُمرَ ، فسَألَ مِنَ القاضي إحْضارَ دَواوين جَماعَة عيَّنَهم له ففَتحَ خَزائنَه ، وأخْرجَ تلكَ الدَّواوين ، فلَمْ يَزلْ أبو عُمرَ يَعمِدُ إلىٰ كل مَسألة ، ويُخرجُ لها شاهداً ، ويَعرضُه على القاضي حتىٰ تمَّمَها ، ثم قال : والبَيْتان أنْشَدَناهُما ثَعلبُ بحضرة القاضي ، وكتَبَهما القاضي علىٰ ظَهْر الكتابِ الفُلاني ، فأحْضَرَ القاضي الكتابَ ، فوَجدَهما ، وانتَهى الخَبرُ إلى ابنِ دُرَيد ، فما ذَكرَ أبا عُمرَ الزَّاهدَ بلَفْظَةٍ حتىٰ مات[2] .

٧ـ الأدَبُ والأُدَباء :

قال أبو الحُسَين بنُ المُحامِلي : أخْبَرَنا عليُّ بنُ أحمد بنِ أبي خَليفة : سَمعتُ أبي يقولُ : حَضَرْنا يوماً عند خَليل أميرِ البَصْرة ، فجَرىٰ بينَه وبين أبي خَليفَة كَلامٌ فقالَ

---

(١) انظر السير : (الغزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ١٤٨٥/ ٥ .

(٢) انظر السير : (أبو عُمر الزَّاهِد) ١٥/ ٥٠٨ـ٥١٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٦ .

له : مَنْ أنتَ أيها المتَكلمُ ؟ فقالَ : أيها الأمير : ما مثلُك مَنْ جَهل مثلي : أنا أبو خَليفة الفَضلُ بنُ الحُباب أفَهل يَخْفى القَمرُ ؟ فاعْتَذرَ إليه ، وقَضىٰ حاجَته ، ولمَّا خَرجَ ، سألوه ، فقال : ما كانَ إلاَّ خَيراً ، أحْضَرني مأدُبتَه ، فأبَطَّ ، وأدَجَّ ، وأفْرَخَ ، وفَوْلَجَ لَوْذَج ، ثم أتاني بالشَّرابِ ، فقُلتُ : مَعاذَ الله ، فعاهَدني أنْ آتي مأدُبتَه كلَّ يوم ، فكانَ إنسانٌ يأتي كلَّ يوم ، فيَحملُه إلى الأمير[1] .

قال الصُّوليُّ : كنتُ أقرأُ علىٰ أبي خَليفة كتابَ : « طَبَقات الشُّعَراء » وغيرَ ذلك ، قال : فوَاعَدَنا يوماً وقال : لا تُخْلِفوني فإنِّي أتَّخِذُ لكم خَبيصةً فتأخَّرْتُ لشُغلٍ عَرضَ لي ، ثم جئتُ والهاشِميُّون عندَه ، فلمْ يَعرفْني الغُلامُ ، وحَجَبَني ، فكَتبتُ إليه :

أبـا خَليفَـةَ تَجْفُـوا مَـنْ لَـهُ أَدَبٌ ... وَتُـؤثِـرُ الغُـرَّ مِـنْ أَوْلَادِ عَبَّـاسِ
وَأَنْتَ رَأْسُ الوَرَىٰ في كُلِّ مَكرُمَةٍ ... وَفِي العُلُومِ ، وَمَا الأَذْنَابُ كَالرَّاسِ
مَا كَانَ قدرُ خَبِيصٍ لَوْ أَذِنْتَ لَنَا ... فِيـهِ فَيَخْتَلِـطُ الأَشْـرَافُ بـالنَّـاسِ

فلمَّا قَرأها صاحَ على الغُلام ، ثم دَخلتُ ، فقالَ : أسَأتَ إلينا بتَغَيُّبكَ ، فظلَمْتَنا في تَعَتُّبك ، وإنَّما عُقدَ المجلسُ بك ، ونَحنُ فيما فاتَنا بتأخيرك كما أنْشَدني التوزيُّ لِمَنْ طلَّق امرأتَه ثم نَدِمَ فتَزَوَّجَت رجلاً ، فماتَ حين دَخلَ بها ، فتَزَوَّجَها الأولُ فقال :

فعَادَتْ لنا كالشَّمْسِ بَعدَ ظَلامِها ... علىٰ خَيـر أحـوالٍ كـأنْ لَـمْ تُطَلَّـقِ

ثم صَاحَ : يا غُلام! أعدَّ لنا مثلَ طَعامِنا ، فأقَمْنا عندَه يومَنا[2] .

الفَصَاحَةُ والبَلاغَة :

١ـ ضَوابط الكلام الحَسَن الجَميل :

قال خالدُ بنُ صَفْوان : أحْسنُ الكَلام مالم يَكُنْ بالبَدَويِّ المُغْرب ولا بالقَرَويِّ المُخدَّج ، ولكن ما شَرُفَت مَنابتُه ، وطَرُفَت مَعانيه ، ولَذَّ على الأفْواه وحَسُنَ في

---

(١) انظر السير : (أبو خَليفَة) ١٤/ ٧ـ ١١ ، وانظر النزهة : ١١٢٢/ ١ .

(٢) انظر السير : (أبو خَليفَة) ١٤/ ٧ـ ١١ ، وانظر النزهة : ١١٢٢/ ٢ .

الأسْماع ، وازْدادَ حُسناً علىٰ مرِّ السِّنين ، تُحنحنُهُ الدَّواةُ وتَقْتَنيه السَّرَاةُ[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وكان مَشْهوراً بالبُخْل ، رَحمَه الله[2] .

٢ـ كلامٌ جَميل حَولَ الفَصاحَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة الخَليفة المُقْتدي بأمْرِ الله : وكان مُحبّاً للعلوم ، مُكْرِماً لأهْلِها ، لمْ يَزلْ في دَولةٍ قاهِرةٍ وصَوْلَةٍ باهِرَةٍ ، وكانَ غَزيرَ الفَضْلِ ، كاملَ العَقْلِ ، بَليغَ النَّثْرِ ، فمنه :

وَعْدُ الكُرَماء أَلْزَمُ من دُيون الغُرَماء، الألْسُن الفَصيحَة أنْفَعُ من الوُجُوه الصَّبيحَة ، والضَّمائرُ الصَّحيحَة أبْلَغُ من الألْسُن الفَصيحَة، حَقُّ الرَّعيَّة لازمٌ للرُّعاة ، ويَقبحُ بالوُلاة الإقْبالُ على السُّعاة .

وفي أول سنة سبع وثمانين تُوفِّي المُقْتدي فَجْأة وهو ابنُ تسع وثلاثين سنة ، وكانت خِلافَتُه عشرين سنة كان هو خَليفَةُ الإسْلام في زَمانِه ، لكنْ يُزاحِمُه صاحبُ مِصْرَ المُسْتَنصِرُ ، فكان العُبَيْدِيُّ والعبَّاسِيُّ مَقْهورَين من وُجوه وكان حُكْمُ العِراق والمَشْرق إلى السُّلْجوقيَّة ، وحكمُ المَغرب إلىٰ تاشْفِين وابنِه ، وحكمُ اليَمَن إلىٰ طائفة ، والأمرُ كلُّه لله[3] .

٣ـ أمْثِلةٌ على الفَصاحَة والبَلاغَة :

عن الشَّعْبي قال : وَفَدَ أبو موسىٰ وَفداً من البصرة إلىٰ عُمر ، منهم الأحْنَفُ بنُ قَيْس ، فتكلَّمَ كلُّ رجل في خاصَّة نفسِه وكان الأحْنَفُ في آخر القَوم ، فحَمدَ اللهَ ، وأثنىٰ عليه ، ثم قال : أمَّا بعدُ يا أميرَ المؤمنين ، فإنَّ أهلَ مِصْرَ نَزلوا مَنازِلَ فِرْعَون وأصْحابه ، وإنَّ أهْلَ الشَّام نَزلوا مَنازِلَ قَيْصَر وأصْحابه ، وإنَّ أهْلَ الكُوفة نَزلَوا مَنازِلَ

---

(١) ومن كلامه ، وقد سُئل : أيُّ إخْوانك أحبُّ إليك ؟ قال : الذي يغفر زللي ، ويقبل عللي ، ويسد خللي ، قال المؤلف مُعلِّقاً علىٰ ذلك : إنما ذاك هو الله تعالىٰ ، أجوَدُ الأجْوَدين .

(٢) انظر السير : (خالد بن صَفْوان) ٦/ ٢٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٣ ٤ .

(٣) انظر السير : (المُقْتَدي) ١٨/ ٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ١٤١٨/ ٥ .

كِسْرَىٰ ومَصانِعَه في الأنْهار والجِنان ، تأتيهم ثمارُهم قبلَ أنْ تبلُغ ، وإنَّ أهْلَ البَصْرَة نَزلوا في أرض سَبخَة لا يِجفُّ تُرابُها ، ولا يَنبُتُ مَرْعاها ، طَرفُها في بَحْر أُجاج ، وطَرفٌ في فَلاة ، لا يَأتينا شيءٌ إلاَّ في مثل مَريء[1] النَّعامَة ، فارْفَعْ خَسيسَتَنا وانْعشْ وَكيسَتنا وزِدْ في عيالنا عيالاً ، وفي رجالنا رجالاً ، وصَغِّر دِرْهَمَنا وكبِّر قَفيزَنا ، ومُرْ لنا بنَهْر نَستعذبُ منه فقال عُمرُ : عَجَزْتُم أنْ تَكونوا مثلَ هـٰذا ، هـٰذا والله السَّيدُ قال فما زلتُ أسْمَعُها بعدُ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في نهايَة تَراجِم بَني عُبَيْد الله الرَّافِضيّ : ومن كتابٍ من إنشاء القاضي الفاضل شَمسِ الدين ابنِ خَلِّكان إلىٰ بَغْدادَ : (وقَد تَوالَت الفُتُوحُ غَرباً ويَمَناً وشاماً وصارت البلادُ بل الدُّنيا والشهرُ ، بل والدَّهْرُ حَرماً حَراماً وأضْحَى الدينُ واحداً بعدَ أنْ كان أدْياناً ، والخِلافَةُ إذا ذُكِّرَ بها أهلُ الخِلافِ لَمْ يَخِرُّوا عليها صُمَّا وعُمْياناً ، والبِدْعَةُ خَاشِعَةً ، والجُمُعَةُ جامِعَةً ، والمَذَلَّةُ في شِيَعِ الضَّلالِ شائعَةً ، ذلكَ بأنَّهم اتَّخَذوا عبادَ الله من دُونه أوْلياءَ ، وسَمُّوا أعْداءَ اللهِ أصْفياءَ وتَقطَّعُوا أمرَهم بينَهم شِيَعاً ، وفرَّقُوا أمرَ الأُمَّة وكانَ مُجْتمعاً ، وقُطعَ دَابرُهم ، ورَغِمَت أنُوفُهم ومَنابِرُهم ، وحَقَّت عَليهم الكلمَةُ تَشْريداً وقَتْلاً ، وتَمَّتْ كلماتُ ربِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً ، وليسَ السَّيفُ عَمَّنْ سِواهم من الفِرَنْج بصائمٍ ، ولا اللَّيلُ عن السَّيرِ إليهم بنائمٍ) .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أعْجَبَني سَرْدُ هولاء العُبَيْديَّة على التَّوالي ، ليَتأمَّله النَّاظرُ مُجْتَمعاً فلْنَرجِعْ الآن إلىٰ تَرْتيبِ الطِّباق في حُدُود العشرين وثلاث مئة وما بَعدَها[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة « مُنْذِر بنِ سَعيد البَلُّوطيِّ » : كان فَقيها مُحَقِّقا ، وخَطيباً بَليغاً مُفوَّهاً ، له اليومُ المَشْهورُ الذي مَلأَ فيه الآذان ، وبَهرَ العُقولَ ، وذلك أنَّ المُسْتَنصِرَ بالله كان مَشْغوفاً بأبي عليٍّ القالي ، يُؤَهِّلِه لكلِّ مُهمٍّ ، فلمَّا وَرَدَ رَسُولُ الرُّومِ أمَرَه أنْ يَقُومَ خَطيباً علي العادَة الجارِيَة ، فلمَّا شاهَد أبو عليٍّ الجمعَ العَظيمَ جَبُنَ فلمْ

---

(١) المريء : مَجْرى الطعام ، وإنَّما خَصَّ النعام لدقَّة عُنقه .

(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٥٠ .

(٣) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢١ .

تَحْمِلْهُ رِجْلاهُ ، ولا ساعَدَه لِسانُه ، وفَطِنَ له مُنْذِر بنِ سَعيد ، فوَثَبَ في الحال ، وقامَ مَقامَه وارْتَجلَ خُطبَةً بَديعَةً ، فأَبْهتَ الخَلقَ وأَنْشَدَ في آخِرها لنفسِه :

هٰـذا المَقَـالُ الـذِي مـا عَـابَه فَنَدُ ... لكِـنَّ صـاحِبَـه أَزْدَىٰ بِـه البَلَـدُ

لوْ كُنتَ فِيهم غَرِيباً كُنتَ مُطرفاً ... لَكِنَّنِـي منهـم فـاغْتـالَنِي النَّكَـدُ

لَـوْلا الخِـلافَـةُ أَبْقَـى اللهُ بَهْجَتَهَـا ... ما كُنتُ أَبْقَىٰ بأَرْضٍ ما بِهَا أَحَدُ

فاسْتَحْسَنوا ذلك[1] .

وقال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيّ : يَفْتَخرُ فِرْعَونُ مِصْرَ بنَهْرٍ ما أَجْراهُ ، ما أَجْرَاه!! .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وهٰذا بابٌ يَطولُ ، ففي كُتُبِه النَّفائسُ من هٰذا وأمثالِه[2] .

وكان في المَجْلسِ رجلٌ يحسِّنُ كلامَه ، ويُزَهْزِه له ، فسَكتَ يَوماً ، فالْتَفتَ إليه أبو الفَرَج ، وقال : هارونُ لفْظِكَ مُعينٌ لموسَىٰ نُطْقِي ، فأرْسِلْه مَعيَ رِدْءاً[3] .

وكان ياقُوتُ الحَموي شاعراً مُتفَنِّناً جَيِّدَ الإنشاء ، يقولُ في خُراسَان :

وكانت لعَمْرُ اللهِ ذاتَ رياضٍ أَريضَة ، وأَهْوِيَةٍ صَحيحَة مَريضَة ، غَنَّتْ أَطْيارُها ، وتَمايَلَت أَشْجارُها ، وبَكَت أَنْهارُها ، وضَحِكَت أَزْهارُها ، وطابَ نَسيمُها فصَحَّ مِزاجُ إقليمِها ، أَطْفالُهم رجالٌ ، وشَبابُهم أَبْطالٌ ، وشُيوخُهم أَبْدالٌ ، فهانَ علىٰ ملكهم تَركُ تلك المَمالك[4] .

وقال : يا نفسُ الهَوا لَكِ ، وإلاَّ فأنتِ في الهَوَالِكِ .

إلىٰ أنْ قال : فمَرَرْتُ بين سُيوفٍ مَسْلولَة ، وعَساكِرَ مَغْلولَة ، ونِظامِ عُقودٍ مَحْلولة ، ودِماءٍ مَسْكوبَة مَطْلولة ، ولَوْلا الأَجَلُ لأُلْحِقتُ بالألف ألف أو يَزيدُون .

تُوفِّيَ ياقوتُ في سنة ستٍّ وعشرين وستِّ مئة ، عن نَيِّف وخمسين سنة ، ووَقَفَ

---

(١) انظر السير : (مُنْذِر بن سَعيد البلُّوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٧ .

(٢) انظر السير : (أبو الفرج ابن الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٦٣٤ .

(٣) انظر السير : (أبو الفرج ابن الجَوْزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٩/١٦٣٤ .

(٤) انظر السير : (ياقُوت) ٢٢/ ٣١٢ـ ٣١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٢ .

كُتبَه ببغدادَ علىٰ مَشْهَد الزَّبيدي ، وتَواليفُه حاكمةٌ له بالبَلاغَة ، والتَّبحُّر في العلم ، اسْتوفى ابنُ خلِّكان ترجمته وفَضائلَه[1] .

٤ـ أهْلُ الفَصاحَة والبَلاغَة :

عن عبدِ الملك بنِ عُمَيْر ، قال : قَدِمَ عَلينا الأحْنفُ بنُ قَيس الكُوفَة مع مُصْعَب ، فمَا رَأيتُ صِفةً تُذَمُّ إلاَّ رَأيتُها فيه كان ضَئيلاً ، صَعْل الرأسِ ، مُتراكِبَ الأسْنان ، مائلَ الذَّقْن ، ناتِيءَ الوَجْنَة ، باخِق العَين ، خَفيفَ العَارِضَين ، أحْنَفَ الرِّجْلَين فكان إذا تكلَّمَ جَلا عن نفسِه[2] .

الصَّعَلُ : صِغَرُ الرأس ، والبخَقُ : انْخِسافُ العينِ ، والحَنَفُ : أنْ تُفْتَل كُلُّ رِجل علىٰ صاحِبَتِها[3] .

وعن إسْماعيلَ بنِ أُمَيَّة قالَ : كانَ عَطاءُ بنُ أبي رَباح يُطيلُ الصَّمْتَ ، فإذا تكلَّم يُخيَّلُ لنا أنَّه يُؤيَّد[4] .

وحدَّثنا الحَسنُ بنُ صالح ، قالَ : ما رَأيتُ أحداً قَطُّ أفْصَحَ من عاصِمِ بنِ أبي النُّجود ، إذا تكلَّم كادَ يَدخُلُه خُيَلاء[5] .

وجاء في تَرجمَة عبدِ الله بنِ المُقَفَّع قال الذهبيُّ : هو أحَدُ البُلَغاء والفُصَحاء ، ورَأسُ الكُتَّاب ، وأُولي الإنْشاء من نُظَراء عبدِ الحَميد الكاتب وكان من مَجُوسِ فارِس فأسْلمَ علىٰ يدِ الأميرِ عيسىٰ عمِّ السَّفَّاح وكَتبَ له واختُصَّ به قال الهَيْثَمُ بنُ عَديّ : قالَ له : أريدُ أنْ أُسْلمَ علىٰ يَدكَ بمَحْضر الأعْيان ثم قَعدَ يأكُلُ ويُزَمْزِمُ بالمَجُوسيَّة فقالَ : ما هـٰذا ؟ قال : أكْرَهُ أنْ أبيتَ علىٰ غَير دينٍ وكان ابنُ المُقَفَّع يُتَّهَم بالزَّنْدقَة وهو الذي عَرَّبَ كليلَة ودِمْنَة[6] .

---

(١) انظر السير : (ياقوت) ٢٢/ ٣١٢ـ٣١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٢ .
(٢) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٤/٤٥٣ .
(٣) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٥/٤٥٣ .
(٤) انظر السير : (عَطاء بن أبي رَباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٩/٥٨٢ .
(٥) انظر السير : (عاصم بن أبي النَّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٩ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/ ٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٢ .

ورُوي عن المَهْديِّ قال : ما وَجدتُ كتابَ زَنْدَقَة إلاَّ وأصْله ابنُ المُقفَّع وغَضبَ المَنْصورُ منه ، لأنَّه كتب في تَوَثُّقِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ من المَنْصُور يقولُ : ومَتىٰ غَدَرَ بعَمِّه ، فنِساؤُه طَوالِقُ ، وعَبيدُه أحْرارٌ ، ودَوابُّه حَبسٌ ، والنَّاسُ في حِلٍّ من بَيْعَتِه فكَتبَ إلىٰ عامِلِه سُفْيانَ المُهَلَّبيِّ يأمُرُه بقَتلِ ابنِ المُقفَّع[١] .

وكان ابنُ المُقَفَّع مع سِعَة فَضْلِه ، وفَرْطِ ذَكائه فيه طَيشٌ فكان يقولُ عن سُفْيانَ المُهَلَّبيِّ : ابنُ المُغْتَلمَة فأمَرَ له بتَنُّورٍ فسُجِر ثم قَطَع أرْبَعتَه ورَماهَا في التَّنُّور وهو يَنظُر وعاشَ ستاً وثلاثين سنةً وأهْلَكَ في سنة خمس وأربعين ومائة وقيلَ بعدَ الأرْبَعين واسمُ أبيه ذادوَيْه ، قد وَلِيَ خَراجَ فارِس للحَجَّاج ، فخانَ ، فعَذَّبه الحَجَّاجُ : فتَقفَّعَت يدُه وقيلَ : بل كانَ يَعملُ قِفَاعَ الخُوص وهي كالقُفَّة[٢] .

قيل لابنِ المُقفَّع : مَنْ أدَّبَك ؟ قال : نَفسي إذا رَأيتُ من أحَدٍ حَسناً أتَيتُه ، وإنْ رَأيتُ قَبيحاً أبَيْتُه[٣] .

وقيلَ : اجتمَعَ بالخَليلِ ، فلمَّا تفرَّقا قيلَ للخَليلِ : كيفَ رَأيتَه ؟ قالَ : عِلْمُه أكثرُ من عَقلِه وسُئلَ هو كيفَ رَأيتَ الخَليلَ ؟ قال : عَقلُه أكثرُ من عِلْمِه[٤] .

وقيلَ : إنَّ والي البَصْرة سُفْيانَ بنَ مُعاويَة بنِ يَزيد بنِ المُهَلَّب قال يوماً : ما نَدمتُ علىٰ سُكوتٍ قَطُّ فقالَ ابنُ المُقفَّع : فالخَرَسُ زَينٌ لك وقالَ له مرَّة : ما تَقولُ في رَجلٍ ماتَ عن زَوْجٍ وزَوْجتِه ؟ فأحْنَقَه .

قال الأصْمَعيُّ : صنَّفَ ابنُ المُقَفَّع « الدُّرَّةَ اليَتيمَة » التي ما صُنِّفَ مثلُها[٥] .

وكان الشافعيُّ يقولُ : كتبتُ عن محمَّدِ بنِ الحَسَن وقْرَ بُخْتيٍّ[٦] ، وما ناظَرتُ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤٢ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤٢ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٦٤٢ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٢ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن المُقفَّع) ٦/٢٠٨ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٤٣ .
(٦) البُخْتيّ : واحد البُخْت ، وهي الإبل .

سَميناً أذْكَىٰ منه ، ولَوْ أشاءُ أنْ أقولَ : نَزَلَ القُرآنُ بلُغَة محمَّدِ بنِ الحَسَن ، لقُلتُ لفَصاحَتِه .

قالَ إبراهيمُ الحَرْبيُّ : قلتُ للإمامِ أحمدَ : مِنْ أين لكَ هـٰذه المَسائل الدِّقاق ؟ قال : من كُتبِ مُحمَّد بنِ الحَسَن[1] .

وعن يُونُس بنِ عبدِ الأعلىٰ ، قالَ : ما كانَ الشَّافعيُّ إلاَّ ساحراً ما كُنَّا نَدري ما يَقولُ إذا قَعَدْنا حولَه ، كأنَّ ألفاظَه سُكرٌ ، وكان قد أُوتي عُذوبَةَ مَنْطِق ، وحُسنَ بَلاغَة ، وفَرْطَ ذَكاء ، وسَيَلانَ ذِهْن ، وكمالَ فَصاحَة ، وحُضورَ حُجَّة[2] .

فعن عبدِ المَلكِ بنِ هِشام اللُّغَوي ، قالَ : طالَت مُجالَسَتُنا للشَّافعيِّ ، فما سَمعتُ منه لُحَنَةً قَطُّ[3] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : أنَّىٰ يكونُ ذلك ، وبمثلِه في الفَصاحَة يُضرَبُ المثَل ، كان أفْصَحَ قُرَيش في زَمانِه ، وكان مِمَّا يُوخَذ عنه اللُّغَة[4] .

وقال المبرد : دَخلَ رجلٌ على الشَّافعيِّ ، فقالَ : إنَّ أصْحابَ أبي حَنيفَة لفُصَحاءُ فأنْشأَ يقولُ[5] :

فَلَـوْلاَ الشِّعْـرُ بِـالعُلَمَـاءِ يُـزْرِي ... لكُنـتُ اليـومَ أشْعَـرَ مـن لَبِيـدِ
وأشْجَعَ في الوَغَىٰ مِنْ كُلِّ لَيْثٍ ... وآلِ مُهَلَّـبٍ وَأَبِـي يَـزِيـدِ
ولَـوْلاَ خَشْيَـةُ الـرَّحْمـٰنِ رَبِّـي ... حَسِبْـتُ النَّـاسَ كَلَّهُـمُ عَبِيـدِي

قال أبو نعيم بنُ عَديّ الحافظُ : سَمعتُ الرَّبيعَ مراراً يقولُ : لوْ رأيتَ الشافعيَّ وحُسْنَ بَيانِه وفَصاحَته ، لعَجبتَ ، ولوْ أنَّه ألَّفَ هـٰذه الكُتبَ علىٰ عَربيَّتِه التي كان يَتكلَّمُ

---

(١) انظر السير : (محمد بن الحَسَن) ٩/ ١٣٤ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/٨٠٨ .
(٢) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٧/٨٤٩ .
(٣) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٨/٨٤٩ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٩/٨٤٩ .
(٥) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٥٢ .

بها مَعَنا في المُناظَرَة ، لمْ نَقْدرْ علىٰ قراءَة كُتبِه لفَصاحَتِه ، وغَرائبِ ألْفاظِه ، غَيرَ أنَّه كان في تأليفِه يُوضِحُ للعَوام[1] .

وجاء في تَرجمة ابنِ العَميد قالَ الذهبيُّ : الوَزيرُ الكَبيرُ ، أبو الفَضْل ، محمَّدُ بنُ الحُسَين بنِ محمَّدٍ الكاتب وزيرُ المَلك ركنِ الدَّولَة الحَسَنِ بنِ بُوَيْه الدَّيْلَمي .

كان عَجَباً في التَّرَسُّل والإنْشَاء والبَلاغَة ، يُضرَبُ به المثَلُ ، ويُقالُ له : الجاحِظُ الثاني وقيلَ : بُدئَت الكتابَةُ بعَبدِ الحَميدِ ، وخُتِمَت بابنِ العَميد .

وقد مدَحَه المُتَنَبي ، فأجازَه بثلاثة آلاف دينار .

وكان مع سِعَة فُنونِه لا يَدْري ما الشَّرْعُ ، وكان مُتَفلْسِفاً ، مُتَّهَماً بمَذْهَب الأوائل .

وكان إذا تكلَّمَ فَقيهٌ بحَضْرتِه شَقَّ عليه ويَسكُتُ ، ثم يأخُذُ في شيء آخَر .

وكان ابنُ عباد يَصحَبُه ويَلزَمُه ، ومِنْ ثمَّ لُقِّبَ الصَّاحِب .

مات سنة ستين وثلاث مئة فوَزَرَ بعدَه ابنُه أبو الفَتْح عليٌّ وعمرُه اثْنَتان وعشرون سَنةً ، وكان ذَكيّاً ، غَزيرَ الأدَبِ ، تيَّاهاً ، ولُقِّبَ ذا الكفايَتَين ، وله نَظْمٌ رائق ، ثم عُذِّبَ وقُتِلَ في سنة ستٍّ وستينَ وثلاث مئة بعد أن سَمَلَ عَضُدُ الدَّولة عينه الواحدة وقَطعَ أنْفَه ، وله نَظمٌ جَيِّد[2] .

وقالَ أبُو مُحمّد البافي : لو أوْصَىٰ رَجلٌ بثُلثِ مالِه لأفْصَحِ النَّاسِ لوَجَبَ أنْ يُدْفَعَ إلىٰ أبي بَكْر الأشْعَريّ[3] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَة القاضي الفَاضل مُحيي الدِّين : المَوْلى الإمامُ العَلاَّمَةُ البَليغُ ، القاضي الفاضل ، مُحْيي الدِّين ، يَمينُ المملكَة ، سَيِّد الفُصَحاء ، أبو عليٍّ عبدُ الرَّحيم بنُ عليِّ بنِ الحَسَن اللَّخْميُّ ، الشَّاميُّ ، العَسْقَلانيُّ المولد ، المِصْريُّ الدَّار ، الكاتبُ ، صاحبُ ديوان الإنْشاء الصَّلاحيِّ .

---

(١) انظر السير : (الإمام الشَّافعيّ) ١٠/ ٥-٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٥٢ .
(٢) انظر السير : (ابن العَميد) ١٦/١٣٧-١٣٨ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٤ .
(٣) انظر السير : (ابن الباقلاني) ١٧/ ١٩٠-١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٥ .

وُلِدَ سنةَ تسع وعشرين وخَمس مئة[1] .

وانتهَتْ إلى القاضي الفَاضل بَراعَةُ الترسل وبَلاغَةُ الإنْشاء ، وله في ذلك الفَنِّ اليَدُ البَيْضاءُ ، والمَعاني المُبْتكَرَة ، والباعُ الأطْوَل ، لا يُدْرِكُ شأوُه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه ، مع الكَثْرَة[2] .

٥ـ نادِرَةٌ في الفَصاحَة :

قال محمد بن سلام الجُمَحِيُّ : كان عُمَرُ رضي الله عنه إذا رأى الرجلَ يَتَلَجْلَجُ في كَلامِه ، قال : خالقُ هـٰذا وخالقُ عَمرِو بن العاص واحد[3] .

الشِّعْرُ والشُّعَراء :

١ـ كثيرٌ من الشُّعَراء عابِثُون لا يَقْصِدون ما يقُولونَه : قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾[4] .

كانت عُلَيَّةُ بنتُ المَهْدي ـ أختُ الرَّشيدِ ، الهاشميَّة العبَّاسيَّة ـ تقولُ : لا غُفِرَ لي فاحِشَةٌ ارْتَكبتُها قَطُّ ، وما أَقُولُ في شِعْري إلاَّ عَبثاً ، وجاءَ أنَّها قالت : ما كَذَبتُ قَطُّ .

وكان أخُوها لا يَصْبرُ عن غِيابِها ، وأخذَها مَعه إلى الرَّيِّ .

قيلَ ماتَتْ سنةَ عشرٍ ومِئَتين ، ولها خَمسونَ سَنةً[5] .

وجاء في تَرجمَة ابنِ الحَجَّاج ، قال الإمامُ الذهبيُّ : ورأيتُ له أنَّه قال : كُلُّ ما قُلتُهُ من المُجُون فاللهُ يَشْهَدُ أنَّني ما قَصَدتُ به إلاَّ بَسْطَ النَّفسِ ، أنا أَسْتغفِرُ اللهَ من هـٰذه العَثْرَة .

ماتَ سنةَ إحْدىٰ وتِسْعينَ وثَلاثِ مئة وقد شاخ[6] .

---

(١) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٠ .
(٣) انظر السير : (عَمرُو بن العَاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/٣٣٣ .
(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢٦ .
(٥) انظر السير : (عُلَيَّة بنتُ المَهْدي) ١٠/ ١٨٧ـ ١٨٨ ، وانظر النزهة : ٩/٨٦٥ .
(٦) انظر السير : (ابنُ الحجَّاج) ١٧/ ٥٩ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٣ .

٢ـ الشُّعَراءُ المُتَّهَمون في دِينِهم :

ابنُ هَانىء :

وجاء في ترجَمة ابنِ هاني قال الإمامُ الذهبيُّ : شاعرُ العَصْر أبو الحَسَن ، محمَّدُ بنُ هاني الأزْديُّ المُهَلَّبيُّ الأنْدَلُسيُّ يُقالُ : إنَّه من ذُرِّية المُهَلَّب وكان أبوه شاعراً أيضاً ، ويُكنَّىٰ محمدٌ أبا القاسم أيضاً .

مَولدُه بإشْبيليَّة وكان ذا حُظوَة عند صاحب إشْبيليَّة ، ونَظمُه بَديعٌ في الذُّروَة ، وكان حافظاً لأشْعارِ العَرَب وأيَّامِها ، لكنَّه فاسقٌ خمِّير يُتَّهَمُ بدين الفَلاسِفَة ، فهَربَ لمَّا هَمُّوا به إلى العُدْوَة فاتَّصلَ بالمُعِزِّ العُبَيْديِّ ، فأنْعَمَ عليه ، وشَرب عندَ قَومٍ ، فخنق في سنة اثنتين وستين وثلاث مئة ، وهو في عشر الخمسين .

وديوانُه كبيرٌ وفيه مَدائحُ تُفْضي به إلى الكُفْر[١] وهو مِنْ نُظَراء المُتَنبِّي[٢] .

أبو العَلاء المَعَرِّي :

وجاء في ترجَمة أبي العَلاء قال الإمامُ الذهبيُّ : هو الشَّيخُ العَلاَّمَة ، شَيخُ الآداب ، أبو العَلاء ، أحمَدُ بنُ عبدِ الله بنِ سُلَيمان ، القَحْطانيُّ ، ثم التَّنُوخيُّ المعَرِّيُّ الأعْمَىٰ ، اللُّغَويُّ ، الشَّاعِرُ صاحبُ التَّصانيفِ السَّائرَة ، والمُتَّهَم في نِحْلَتِه .

وُلدَ في سنة ثلاث وستِّين وثلاث مئة .

وأضرَّ بالجُدَري وله أربَعُ سنين وشَهْر ، سالَت واحدَةٌ ، وابْيَضَّت اليُمْنَىٰ فكان لا يَذكُرُ من الألْوان إلاَّ الأحمرَ ، لثوبِ أحمَرَ ألْبَسُوه إيَّاه وقد جُدِّر ، وبَقيَ خَمساً وأربَعين سنةً لا يأكُلُ اللَّحْمَ تَزَهُّداً فَلسَفياً .

وكان قَنوعاً مُتعفِّفاً ، له وَقْفٌ يقومُ بأمْرِه ، ولا يَقبَلُ من أحَدٍ شَيئاً ، لَوْ تَكسَّبَ

---

(١) من ذلك قوله ـ قبَّحه الله ـ في مدح المُعِزِّ :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهَّار

ومثل هٰذا كثير في ديوانه ، وانظر « حُسن المُحاضَرة » (١/ ٥٩٩) .

(٢) انظر السير : (ابن هاني) ١٦/ ١٣١ـ ١٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٣ .

بالمَديحِ ، لحَصَّلَ مَالاً ودُنْيا ، فإنَّ نَظْمَه في الذُّرْوَة يُعَدُّ مع المُتنبِّي والبُحْتُري وكان يَتوَقَّدُ ذَكاءً .

ومن أرْدَأ تَواليفِه « رسالَةُ الغُفْران » في مجلَّد قد احْتوَت علىٰ مَزْدكَةٍ وفراغ ، و« رسالَة المَلائكَة » ، ورسالَة « الطَّيْر » علىٰ ذلك الأُنْموذَج ، وديوانُه « سَقْطُ الزَّنْد » مَشهُورٌ ، وله « لُزوم ما لا يَلْزَم » من نَظْمِه ، وكان إليه المُنْتَهىٰ في حِفظِ اللُّغات[1] .

ارْتَحَلَ في حُدودِ الأرْبَع مِئَة إلىٰ طَرابُلسَ وبها كُتُبٌ كَثيرةٌ ، واجْتازَ باللاَّذِقيَّة ، فنزَلَ ديراً به راهِبٌ مُتَفَلسِفٌ ، فدَخَلَ كَلامُه في مَسامِعِ أبي العَلاءِ ، وحَصَلتْ له شُكوكٌ لَمْ يَكُنْ له نُورٌ يَدْفَعُها ، فحَصلَ له نَوْعُ انْحِلالٍ دَلَّ عليه ما يَنظُمُه ويَلْهَجُ به ويُقالُ : تَابَ من ذَلكَ وارْعَوَىٰ .

وقد سَارَت الفُضَلاءُ إلىٰ بابِه ، وأخَذُوا عنه .

وكان غِذاؤُه العَدَسَ ونَحْوَه ، وحَلوَاه التيِّن ، وثِيابُه القُطْن .

يُقالُ : كان يَحفظُ كلَّ ما مَرَّ بسَمعِه ، ويُلازِمُ بَيتَه ، وسَمَّىٰ نفسَه رَهينَ المَحْبسَين ، للزُومِه مَنزلَه وللعَمَىٰ ، وقال الشِّعْرَ في حَداثتِه ، وكان يُملي تَصانيفَه على الطَّلبَة من صَدْرِه .

خَرجَ صالحُ بنُ مِرْداس مَلكُ حَلَب فنَازَلَ المَعَرَّة يُحاصرُها ، ورَماها بالمَجانيق ، فخَرجَ إليه أبو العَلاء يتَشفَّعُ ، فأكْرَمه ، وقالَ ألَكَ حاجَة ؟ قال : الأميرُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَه ـ كالسَّيفِ القاطع ، لانَ مَسُّه وخَشُنَ حَدُّه ، وكالنَّهارِ الماتع[2] قاظٍ[3] . وسَطُه ، وطابَ أبرداهُ[4] ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[5] فقال : قد وَهبتُك المَعرَّة ، فأنْشِدنا من شِعرِك ، فأنْشَدَه على البَديهَة أبياتًا وتَرحَّل صالح .

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/٢٣ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٣٧٩ .

(٢) الماتع : المرتفع ، قال في « القاموس » : متع النهار : ارتفع قبل الزوال .

(٣) قاظٍ : من القيظ ، وهو شدة الحرِّ.

(٤) أبرداه : أي طرفاه ، وهما الغَداة والعَشي .

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .

وكان لأبي العَلاء خلوَة يَدخُلها للأكل ، ويَقولُ : الأعْمَىٰ عَوْرَة والواجبُ اسْتتارُه ، فأكلَ مرَّة دبْساً ، فنَقطَ علىٰ صَدرِه منه ، فلمَّا خرجَ للإفادَة قيلَ له : أكَلتُم دبْساً ؟ فأسْرعَ بيدِه إلىٰ صَدره ، فمَسَحه وقالَ : نعم لعَنَ اللهُ النَّهَم فعَجبوا من ذَكائه ، وكان يَعتذرُ إلىٰ مَنْ يَرحل ويَتأوه لعَدم صِلَتِه .

قال الباخَرزي : أبو العَلاء ضَريرٌ ما له ضَريب ، ومَكْفوفٌ في قَميص الفَضْل مَلفوف ، ومَحجُوبٌ خَصمُه الألَدُّ مَحْجوج ، قد طالَ في ظلِّ الإسْلامِ آناؤُه ، ورَشَحَ بالإلْحَاد إناؤُه ، وعنْدَنا خَبرُ بَصرِه ، واللهُ العالمُ ببَصيرَتِه والمُطَّلعُ علىٰ سَريرَتِه ، وإنَّما تَحدَّثت الألسُن بكتابِه الذي عارَضَ به القُرآنَ ، وعَنوَنَه بـ « الفُصُول والغَايات في مُحاذاة السّوَر والآيات » .

وقال غَرسُ النِّعْمَة محمَّدُ بنُ هلال بنُ المُحَسِّن : له شِعْرٌ كَثيرٌ ، وأدَبٌ غَزيرٌ ، ويُرمَىٰ بالإلْحادِ ، وأشْعارُه دالَّةٌ علىٰ ما يُزَنُّ[1] به ، ولمْ يأكُل لَحْماً ولا بَيْضاً ولا لَبَناً ، بل يَقتصِرُ على النَّباتِ ، ويُحَرِّمُ إيلامَ الحَيوان ويُظهِرُ الصَّومَ دائماً ، قال : ونَحنُ نَذكرُ ممَّا رُمي به فمنه :

صَـرْفُ الـزَّمَـانِ مُفَـرِّقُ الإلْفَيْـنِ ... فـاحْكُـمْ إلَـهي بَيْـنَ ذَاكَ وَبَيْنِـي
أنَهَيْـتَ عَـنْ قَتْـلِ النُّفُـوسِ تَعَمُّـداً ... وَبَعَثْـتَ أَنْـتَ لِقَبْضِهَـا مَلَكَيْـنِ
وَزَعَمْـتَ أَنَّ لَهَـا مَعَـاداً ثَـانِيـاً ... مَـا كَـانَ أَغْنَـاهَـا عَـنِ الْحَـالَيْـنِ

ومنه :

قُلْتُـمْ لَنَـا خَـالِـقٌ قَـدِيـمُ ... صَـدَقْتُـمْ هكَـذَا نَقُـولُ
زَعَمْتُمُـوهُ بِـلاَ زَمَـانٍ ... وَلاَ مَكَـانٍ ألاَ فَقُـولُـوا
هَكَـذَا كَـلاَمٌ لَـهُ خَبِـيءٌ ... مَعْنَـاهُ لَيْسَـتْ لَكُـمْ عُقُـولُ

ومنه :

ديـنٌ وَكُفْـرٌ وأَنْبَـاءٌ تقـال وفُـرْ ... قَـانٌ يُنَـصُّ وتَـوْرَاةٌ وإنْجِيـلُ

---

(١) أي : يُتهَمُ .

فِـي كُـلِّ جِيـلٍ أَبَـاطِيـلٌ يُـدَانُ بِهَـا ... فَهَـلْ تَفَـرَّدَ يَـومـاً بـالْهُـدَىٰ جِيـلُ

فأجبته :

نَعَـمْ أبـو القَـاسِـمِ الهَـادِي وأُمَّتُـه ... فـــزَادَكَ اللهُ ذُلاًّ يـــا دُجَيْجيـــلُ

ومنه ، لُعِنَ :

فَـلاَ تَحْسَـبْ مَقَـالَ الـرُّسْـلِ حَقّـاً ... ولكِــــنْ قَـــوْلُ زُورٍ سَطَّـــرُوهُ

وَكَـانَ النَّـاسُ فـي عَيْـشٍ رَغِيـدٍ ... فجَـــاؤُوا بـــالمُحَـــالِ فكَـــدَّرُوهُ

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : لمَّا قَرأتُ علىٰ أبي العَلاءِ بالمَعَرَّةِ قَولَه :

تَنـاقُـضٌ مـا لَنَـا إلاَّ السُّكُـوتُ لَـهُ ... وأنْ نَعـوذَ بِمَـوْلانـا مِـنَ النَّـارِ

يَدٌ لِخَمْسِ[1] مِيءٍ مِنْ عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... ما بَالُهَا قُطِعَتْ في رُبْعِ دِينَارِ ؟

سَألتُه ، فقال : هـٰذا كقول الفُقَهاء : عِبادَةٌ لا يُعقَلُ مَعْناها .

قال كاتِبُه : لَوْ أرادَ ذَلكَ ، لقالَ : تَعَبُّدٌ ، ولَمَا قال : تَناقضٌ ، ولَمَا أرْدَفَه ببَيْتٍ آخرَ يَعْتَرضُ علىٰ ربِّه .

وبإسْنادي ، قال السِّلَفيُّ : إنْ كان قالَه مُعْتَقِداً مَعْناه ، فالنَّارُ مأوَاهُ ، ولَيسَ له في الإسْلامِ نَصيبٌ هـٰذا إلىٰ ما يُحْكَىٰ عنه في كتاب « الفصول والغايات » فقيلَ له : أينَ هـٰذا من القُرْآنِ ؟ فقال : لم تُصْقِلْهُ المَحاريبُ أرْبَع مئة سنة[2] .

قال السِّلَفيُّ : ومِمَّا يَدلُّ علىٰ صِحَّةِ عَقيدَتِه ما سَمعتُ الخَطيبَ حامدَ ابنَ بخْتيار ، سَمعتُ أبا المَهْدي بنَ عبدِ المُنْعِم بنِ أحمدَ السَّروجيّ ، سَمعتُ أخي أبا الفَتْح القاضي يقولُ : دَخلتُ علىٰ أبي العَلاء التَّنوخيِّ بالمَعَرَّةِ بَغْتَةً ، فسَمعتُه يُنْشِد :

كَـــمْ غُـــودِرَتْ غَـــادَةٌ كَعَـــابٌ ... وعُمِّـــــرَتْ أُمُّهَـــــا العَجُـــــوزُ

---

(١) في « اللزوم » (١/ ٥٤٤) : بخَمْس مئين عسجد ، ومِيء بميم مكسورة وهَمزة مُنوَّنة : من جُموع المئة .

(٢) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٩ .

أحـــرَزَهَــا الـــوَالِــدَانِ خَـوْفـاً   والقَبْــرُ حِــرْزٌ لَهَــا حَــرِيــزُ
يَجُــوزُ أنْ تُخْطِــىءُ المَنَــايَــا   والخُلْــدُ فــي الــدَّهْــرِ لا يَجُــوزُ

ثم تأوَّهَ مرَّاتٍ ، وتلا قولَه تعالَىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[1] . ثم صاحَ وبَكىٰ ، وطَرحَ وَجهَه على الأرضِ زَماناً ، ثم مَسَحَ وجهَه ، وقالَ : سُبحانَ مَنْ تكلَّم بهـٰذا في القِدَم! سُبحانَ مَنْ هـٰذا كَلامُه! فصَبرتُ ساعةً ثم سَلَّمتُ ، ثم قُلتُ : أرىٰ في وَجهِك أثرَ غَيظٍ ؟ قال : لا ، بلْ أنْشَدتُ شَيئاً من كَلامِ المَخْلوقِ ، وتَلَوتُ شَيئاً من كَلامِ الخَالِق ، فلَحِقَني ما تَرىٰ فتَحقَّقت صِحَّة دينِه .

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : أفْضلُ مَنْ قَرأتُ عليه أبو العَلاء وسَمعتُ أبا المَكارِم ـ وكان من أفْرادِ الزَّمان ـ يَقولُ : لمَّا تُوفِّيَ أبو العَلاء اجْتَمَعَ علىٰ قَبرِه ثَمانون شَاعراً وخُتمَ في أسْبوع واحدٍ مئتَا خَتمة إلىٰ أنْ قالَ السِّلَفيُّ : وفي الجُملَة فكان من أهْلِ الفَضْل الوافِر ، والأدَب الباهِر ، والمَعْرفَة بالنَّسَب وأيَّام العَرَب ، قَرأَ القُرآنَ بروايات ، وسَمعَ الحَديثَ علىٰ ثِقات ، وله في التَّوحيدِ وإثْباتِ النُّبوَّات ، وما يَحضُّ على الزُّهْدِ وإحْياءِ طُرق الفُتوَّة والمَروءَة شِعرٌ كَثيرٌ ، والمشْكل منه ، فلَه علىٰ زَعمِه تَفسير .

قيل : إنه أوْصَىٰ أنْ يُكتبَ علىٰ قَبرِه :

هَـٰــذَا جَنَــاهُ أَبِــي عَلَــيَّ   وَمَــا جَنَيْــتُ عَلَــىٰ أَحَــد

قال الذهبيُّ : الفَلاسِفَة يَعدُّون اتِّخاذَ الوَلَد وإخْراجه إلى الدُّنيا جِنايَةً عليه ، ويَظهَرُ لي من حال هـٰذا المَخْذول أنَّه مُتَحيِّر لمْ يَجْزِمْ بِنِحْلَة اللَّهُم فاحْفَظْ عَلينا إيمانَنَا .

وقال الذهبيُّ : قبرُه داخلَ المعرَّة في مكان داثر ، وقد حدَّثَ عنه أبو طاهر بنُ أبي الصَّقر الأنْباري ، وطائفةٌ ، وقد طالَ المَقَالُ ، وما على الرَّجل أُنْسُ زُهَّاد المؤمنين ، والله ُأعْلمُ بما خُتِمَ له ومن خَبيثِ قَولِه :

---

(١) سورة هود ، الآيات : ١٠٣ ـ ١٠٥ .

أتَىٰ عِيسَىٰ فبطَّلَ شَرْعَ مُوسَى وجَاءَ مُحَمَّدٌ بِصَلاَةِ خَمْسِ
وقالُوا لا نَبِيَّ بَعْدَ هَـٰذَا فَضَلَّ القَوْمُ بَيْنَ غَدٍ وأَمْسِ
مَهْمَا عِشْتَ دُنْيَاكَ هَـٰذِي فَمَا تُخْلِيكَ مِنْ قَمَرٍ وَشَمْسِ
إذَا قُلْتُ المُحَالَ رَفَعْتُ صَوْتِي وَإنْ قُلْتُ الصَّحِيحَ أَطَلْتُ هَمْسِي

وكانت علتُه ثلاثَةَ أيّام ، وماتَ سَنةَ تسع وأرْبع مئة وعاشَ ستاً وثمانينَ سنةً[1] .

٣ـ أبْياتٌ في الشِّعْر تُعْتبَرُ كفراً والعِياذُ بالله :

من ذلك قَولُ ابنِ هَاني ـ قبَّحه الله ـ في مَدْح المُعِزِّ[2] :

مَا شِئْتَ لاَ مَا شَاءَتِ الأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الوَاحِدُ القَهَّارُ

وكان عَضُدُ الدَّولَه يقولُ الشِّعرَ ، فقالَ أبياتاً كفرية[3] :

لَيسَ شُربُ الرَّاح إلاَّ في المَطَر وغِنَاءٍ مِنْ جَوارٍ في السَّحَر
مُبرزاتِ الكَأسَ من مَطْلَعِهَا سَاقياتِ الرَّاح مَنْ فاق البَشَر
عَضُدَ الدَّوْلَةِ وابنَ رُكْنِها مَلِكَ الأمْلاكِ غَلاَّبَ القَدَر

وقال غَرسُ النِّعْمَة محمَّدُ بنُ هلال بنِ المُحسِّن : له شِعْرٌ كَثيرٌ ، وأدَبٌ غَزيرٌ ، ويُرمَىٰ بالإلْحادِ ، وأشْعارُه دالَّةٌ علىٰ ما يُزَنُّ[4] به ، ولمْ يأكل لَحْماً ولا بَيْضاً ولا لَبَناً ، بل يَقتصِرُ على النَّباتِ ، ويُحَرِّمُ إيلامَ الحَيوان ويُظهِرُ الصَّومَ دائماً ، قال : ونَحنُ نَذكُرُ ممَّا رُمي به فمنه :

صَرْفُ الزَّمَانِ مُفَرِّقُ الإلْفَيْنِ فَاحْكُم إلَـٰهِي بَينَ ذَاكَ وَبَيْنِي
أَنَهَيْتَ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ تَعَمُّداً وَبَعَثْتَ أَنْتَ لِقَبْضِهَا مَلَكَيْنِ
وَزَعَمْتَ أَنَّ لَهَا مَعَاداً ثَانِياً مَا كَانَ أَغْنَاهَا عَنِ الحَالَيْنِ

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٣٨٢ .
(٢) انظر السير : (ابنُ هاني) ١٦/ ١٣١ـ ١٣٢ ، وانظر النزهة : ١٢٧٤/ هامش (١) .
(٣) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٢ .
(٤) أي : يُتهَمُ .

ومنه :

قُلْتُـــمْ لنَـــا خَـــالِـــقٌ قَـــديـــمٌ ... صَـــدَقْتُـــم هَكَـــذا نَقُـــولُ

زَعَمْتُمـــوهُ بِـــلا زَمـــانٍ ... ولا مكـــان إلا فقـــولـــوا

هَكَـــذَا كَـــلامٌ لَـــهُ خَبِـــيءٌ ... مَعْنَـــاهُ لَيْسَـــتْ لَكُـــمْ عُقُـــولُ

ومنه :

ديـــنٌ وكُفْـــرٌ وأنْبـــاءٌ تُقَـــالُ وفُـــرْ ... قَـــانٌ يُنَـــصُّ وتَـــوْراةٌ وإِنْجِيـــلُ

فـي كـلِّ جِيـلٍ أبَـاطيـلٌ يُـدانُ بهـا ... فهَلْ تَفرَّدَ يوماً بالهُدَىٰ جِيلُ!! ؟

فأجبتُه :

نَعَـمْ أَبُـو القَـاسِـمِ الهَـادِي وأُمَّتُـهُ ... فَـــزَادَكَ اللهُ ذُلاًّ يـــا دُجَيْجِيـــلُ

ومنه ، لُعِنَ :

فـلا تَحْسَـبْ مَقَـالَ الـرُّسْـلِ حَقّـاً ... ولكِـــنْ قَـــوْلُ زُورٍ سَطَّـــرُوهُ

وكَـانَ النَّـاسُ فـي عَيْـشٍ رَغِيـدٍ ... فجَـاؤُوا بـالمُحَـالِ فكَـدَّرُوهُ

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : لمَّا قَرأتُ علىٰ أبي العَلاءِ بالمَعَرَّةِ قَولَه :

تَنَـاقُـضٌ مَـا لَنَـا إلاَّ السُّكُـوتُ لَـهُ ... وأنْ نَعُـوذَ بِمَـوْلاَنَـا مِـنَ النَّـارِ

يَدٌ بِخَمْسِ مِيءٍ[1] مِن عَسْجَدٍ وُدِيَتْ ... مـا بَـالُهَـا قُطِعَـتْ فـي رُبْـعِ دِينـارِ

سَألتُه ، فقال : هـٰذا كقول الفُقَهاء : عِبادَةٌ لا يُعقَلُ مَعْناها .

قال كاتِبُه : لَوْ أرادَ ذَلكَ ، لقالَ : تَعَبُّدٌ ، ولَمَا قال : تَناقضٌ ، ولَمَا أرْدَفَه ببَيْتٍ آخَرَ يَعْتَرِضُ علىٰ ربِّه .

وبإسْنادي ، قال السِّلَفيُّ : إنْ كان قالَه مُعْتَقِداً مَعْناه ، فالنَّارُ مأوَاهُ ، ولَيسَ له في

---

(١) في « اللزوم » (١/ ٥٤٤) : بخَمْس مئين عسجد ، ومِيء بميم مكسورة وهَمزة مُنوَّنة : من جُموع المئة .

الإسْلامِ نَصيبٌ هٰذا إلىٰ ما يُحْكَىٰ عنه في كتاب « الفصول والغايات » فقيلَ له : أينَ هٰذا من القُرْآنِ ؟ فقال : لم تُصْقِلْهُ المَحاريبُ أرْبَع مئة سنة[1] .

قال السِّلَفيُّ : ومِمَّا يَدلُّ علىٰ صِحَّةِ عَقيدَتِه ما سَمعتُ الخَطيبَ حامدَ ابنَ بخْتيار ، سَمعتُ أبا المَهْدي بنَ عبدِ المُنْعِم بنِ أحمدَ السَّروجيّ ، سَمعتُ أخي أبا الفَتْح القاضي يقولُ : دَخلتُ علىٰ أبي العَلاء التَّنوخيِّ بالمَعَرَّةِ بَغْتَةً ، فسَمعتُه يُنْشِد :

كَـمْ غُـودِرَتْ غَـادَةٌ كَعَـابٌ ... وعُمِّـرَتْ أُمُّهَـا العَجُـوزُ
أحْـرَزَهَـا الـوَالِـدَانِ خَـوْفـاً ... والقَبْـرُ حِـرْزٌ لَهَـا حَـرِيـزُ
يَجُـوزُ أن تُخْطِـىءَ المَنَـايَـا ... والخُلْـدُ فـي الـدَّهْـرِ لا يَجُـوزُ

ثم تأوَّهَ مرَّاتٍ ، وتَلا قولَه تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾[2] . ثم صاحَ وبَكىٰ ، وطَرحَ وَجهَه على الأرضِ زَماناً ، ثم مَسَحَ وجهَه ، وقالَ : سُبحانَ مَنْ تكلَّم بهٰذا في القِدَم! سُبحانَ مَنْ هٰذا كَلامُه! فصَبرتُ ساعَةً ثم سَلَّمتُ ، ثم قُلتُ : أرَىٰ في وَجهِك أثرَ غَيظٍ ؟ قال : لا ، بلْ أنْشَدتُ شَيئاً من كَلامِ المَخْلوقِ ، وتَلَوتُ شَيئاً من كَلامِ الخَالِق ، فلَحِقَني ما تَرىٰ فتَحقَّقت صِحَّة دينِه .

قال السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا زَكريّا التَّبْريزيَّ يقولُ : أفْضلُ مَنْ قَرأتُ عليه أبو العَلاء وسَمعتُ أبا المَكارِمِ ـ وكان من أفْرادِ الزَّمان ـ يَقولُ لمَّا تُوفِّيَ أبو العَلاء اجْتمَعَ علىٰ قَبره ثَمانون شَاعراً وخُتمَ في أسْبوع واحدٍ مئتَا خَتمة إلىٰ أنْ قالَ السِّلَفيُّ : وفي الجُملَة فكان من أهْلِ الفَضْل الوافِر ، والأدَب الباهِر ، والمَعْرفَة بالنَّسَب وأيَّام العَرَب ، قَرأَ القُرآنَ بروايات ، وسَمعَ الحَديثَ علىٰ ثِقات ، وله في التَّوحيدِ وإثْباتِ النُّبوَّات ، وما يَحضُّ على الزُّهْدِ وإحْياءِ طُرق الفُتوَّة والمَروءَة شِعرٌ كَثيرٌ ، والمشْكل منه ، فلَه علىٰ زَعمِه تَفسير .

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٩ .
(٢) سورة هود ، الآيات : ١٠٣ ـ ١٠٥ .

قيل : إنه أوْصَىٰ أنْ يُكتبَ علىٰ قَبرِه :

هَـٰـذَا جَنَـاهُ أَبِـي عَلَـيَّ ... وَمَـا جَنَيْـتُ عَلَـىٰ أَحَـد

قال الذهبيُّ : الفَلاسِفَة يَعدُّون اتِّخاذَ الوَلَد وإخْراجِه إلى الدُّنيا جِنايَةً عليه ، ويَظهَرُ لي من حال هٰذا المَخْذول أنَّه مُتحيِّر لمْ يَجْزِمْ بِنِحْلَة اللَّهُم فاحْفَظْ علينا إيمانَنا .

وقال الذهبيُّ : قبرُه داخلَ المعَرَّة في مكان دائر ، وقد حدَّثَ عنه أبو طاهر بنُ أبي الصَّقر الأنْباري ، وطائفةٌ ، وقد طالَ المَقَالُ ، وما على الرَّجل أُنْسُ زُهَّاد المؤمنين ، واللهُ أعْلَمُ بما خُتِمَ له ومن خَبيثِ قَولِه :

أَتَـىٰ عِيسَـىٰ فَبَطَّـلَ شَـرْعَ مُـوسَـى ... وجَـاءَ مُحمَّـدٌ بِصَـلاَةِ خَمْـسِ

وقَـالُـوا لاَ نَبِـيَّ بَعْـدَ هَـٰذَا ... فَضَـلَّ القَـوْمُ بَيْـنَ غَـدٍ وَأَمْـسِ

مَهْمَـا عِشْـتَ دُنْيَـاكَ هَـٰذِي ... فَمَـا تُخْلِيـكَ مِـنْ قَمَـرٍ وشَمْـسِ

إِذَا قُلْـتُ المُحَـالَ رَفعْـتُ صَـوْتِـي ... وإنْ قُلْتُ الصَّحِيحَ أَطَلْتُ هَمْسِي

وكانت علتُه ثلاثَةَ أيّام ، وماتَ سَنةَ تسع وأرْبع مئة وعاشَ ستاً وثمانينَ سنةً[1] .

٤ـ الشُّعَراءُ الماجِنون :

ابنُ الحَجَّاج :

وجاء في تَرجمَة ابنِ الحجّاج قال الذهبيُّ : شاعرُ العَصْر ، وسَفيهُ الأُدَباء ، وأميرُ الفُحْش ، وديوانُه مَشْهورٌ في خَمس مُجَلَّدات ، وهو أبو عبد الله ، الحُسَينُ بنُ أحْمَد بنِ الحَجّاج البَغْداديُّ المُحْتَسِبُ ، الكاتِبُ .

ولقد هَجا المُتَنبِّي ، ومَدَحَ المُلوكَ ، مثل عَضُد الدَّولة وبَنيه والوُزَراء وله باعٌ أطْوَل في الغزَل ، وأمَّا الرَّطاطَةُ والتَّفَحُّشُ ، فهو حاملُ لِوائِها والقائمُ بأعْبائِها .

وخَدمَ بالكتابَة في جِهاتٍ ، وأخَذَ الجَوائزَ ، ووَلي حِسْبَة بَغْدادَ مُدّة وعُزِل ، وله مَعانٍ مُبْتكَرَة ما سُبقَ إليها[2] .

---

(١) انظر السير : (أبو العَلاء) ١٨/ ٢٣ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٣٨٢ .

(٢) انظر فنون شعره في « يتيمة الدهر » (٣/ ٣١ـ٩٩) ، وفي « الوافي بالوفيات » (١٢/ ٣٣٤ـ٣٣٧) .

وكان شِيعيّاً رَقيعاً ، ماجِناً ، مَزّاحاً ، هَجّاءاً ، أُمّةً وَحْدَه في نَظْم القَبائح ، وخِفَّة الرُّوح ، وله مَعْرِفَة بفُنون من التاريخ والأخْبار واللُّغات[1] .

ورأيتُ له أنَّه قال : كُلُّ ما قُلتُهُ من المُجُون فاللهُ يَشْهَدُ أنَّني ما قَصَدتُ به إلاَّ بَسْطَ النَّفسِ ، أنا أسْتغفِرُ اللهَ من هذه العَثْرَة .

ماتَ سنةَ إحْدىٰ وتِسْعينَ وثَلاثِ مئة وقد شاخ[2] .

٥ـ الشَّاعرُ الزَّاهِدُ أبو العَتاهِيَة :

جاء في تَرجمَة أبي العَتاهيَة قال الذهبيُّ : رأسُ الشُّعَراء ، الأديبُ الصَّالحُ الأَوْحَد ، أبو إسْحاق إسْماعيلُ بنُ قاسِم بنِ سُوَيد العَنزي مَولاهم الكُوفيُّ ، نَزيلُ بَغْداد .

لُقِّبَ بأبي العَتاهيَة لا ضْطرابٍ فيه .

سارَ شِعْرُه لجَودَته وحُسْنِه وعَدمِ تَقعُّرِه[3] .

وقد جَمعَ أبو عُمَر بنُ عبد البَرِّ شِعرَه وأخْبارَه ، تَنسَّكَ بأخرَةٍ ، وقال في المَواعِظِ والزُّهْدِ فأجادَ[4] .

وكان أبو نُواس يُعَظِّمُه ، ويَتأدَّبُ مَعَه لدِينِه ، ويقولُ : ما رَأيتُه إلاَّ تَوهَّمْتُ أنَّه سَماويٌّ ، وأنِّي أَرْضيٌّ[5] .

مَدحَ أبو العَتاهيَة المَهْديَّ ، والخُلفاءَ بعدِه ، والوُزَراء ، وما أصْدَق قوله :

إنَّ الشَّبابَ والفَراغَ والجِدَة ... مَفْسَدَةٌ للمَرْء أيُّ مَفْسَدَة

حَسْبُكَ ممَّا تَبْتَغِيه القُوتُ ... ما أكْثَرَ القُوتَ لِمَنْ يَمُوتُ

---

(١) انظر السير : (ابن الحَجّاج) ١٧/ ٥٩ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٣ .
(٢) انظر السير : (ابن الحَجّاج) ١٧/ ٥٩ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٣ .
(٣) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨٦٦ .
(٤) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/٨٦٦ .
(٥) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨٦٦ .

هـي المَقَـاديـرُ فلُمْنِـي أوْ فَـذَرْ إنْ كُنْتُ أخْطأتُ فمَا أخْطا القَدَرْ

تُوفِّي أبو العَتاهيَة في سنة إحْدَىٰ ومئتين ، وله ثلاثٌ وثَمانونَ سَنةً ، أو نَحْوَها ، ببَغْداد .

وتَحْتَملُ سيرةُ أبي العَتاهيَة أنْ تُعمَلَ في كَراريسَ[1] .

٦ـ من شُعَراء العَرَب :

الأخْطَل :

جاء في ترجَمَة الأخْطَل قال الذهبيُّ : شاعرُ زَمانِه ، واسْمُه غِياثُ ابنُ غَوْث التَّغْلبيّ النَّصْرانيّ[2] .

قِيلَ للفَرَزْدَقِ : مَنْ أشْعَرُ النَّاسِ ؟ قال : كَفاكَ بي إذا افْتَخَرتُ ، وبجَرير إذا هَجَا ، وبابنِ النَّصْرانيَّة إذا امْتَدَح .

وكان عبدُ المَلك بنُ مَرْوان يُجْزِلُ عَطاءَ الأخْطَل ، ويُفَضلُه في الشِّعْر علىٰ غَيرِه ، وللأخْطَل[3] :

والنَّـاسُ هَمُّهُـمُ الحَيـاةُ ولا أرَى طُـولَ الحَيـاةِ يَـزيـدُ غَيـرَ خَبـالِ
وإذا افْتَقرْتَ إلى الذَّخائِر لَمْ تَجدْ ذُخْـراً يَكُـونُ كَصَـالِـحِ الأعْمَـالِ

وقيلَ : إنَّ الأخْطَلَ قَيَّدَه الأُسْقُفُ وأهانَه ، فلِيمَ في صَبرِه له ، فقالَ : إنَّه الدِّينُ ، إنَّه الدِّينُ .

وقد حصَّلَ أمْوالاً جَزيلَة من بَني أُمَيَّة ، وماتَ قبلَ الفَرَزْدق بسَنَوات[4] .

جَرير :

وجاء في تَرجمَة جَرير قال الذهبيُّ : شاعرُ زَمانِه ، أبو حزْرَة ، جَريرُ بنُ عَطيَّة بنِ

---

(١) انظر السير : (أبو العَتاهيَة) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨٦٦ .
(٢) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٦٤ .
(٣) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/٥٦٤ .
(٤) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦٤ .

الخَطَفي التَّميميُّ البَصْريُّ ، مَدحَ يَزيدَ بنَ مُعاويَة ، وخُلفاءَ بَني أُمَيَّة ، وشعرُه مُدَوَّن(١) .

عن عُثمانَ التَّيْميِّ ، قالَ : رَأيتُ جَريراً وما تُضَمُّ شَفتاهُ من التَّسْبيح ، قُلتُ : هٰذا حالُك وتَقذفُ المُحْصَنات فقالَ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾(٢) وَعدٌ من الله حَقٌّ(٣) .

وعن بَشَّار الأعْمَىٰ ، قالَ أهْلُ الشَّام أجْمَعوا علىٰ جَرير ، والفَرَزْدَق ، والأخْطَل النَّصْراني .

قال الذهبيُّ : فَضَّلَ جَريراً على الفَرَزْدَق جَماعةٌ(٤) .

ورَوَىٰ يُونُس بنُ حَبيب أنَّ الفَرَزْدَق قالَ لامْرأتِه نَوار : أنا أَشْعَرُ أم ابنُ المَراغَة ؟ قالت : غَلبَك علىٰ حُلْوِه ، وشَرِكَك في مُرِّه .

وقال مَرْوانُ بنُ أبي حَفْصَة :

ذَهَبَ الفَرَزْدَقُ بِالفَخَارِ وإنَّما ... حُلْوُ القَريضِ ومُرُّهُ لجَريرِ

وقيلَ : كان جَريرٌ عَفيفاً مُنيباً ، تُوفِّيَ سَنةَ عَشر بعدَ الفَرَزْدَق بشهر(٥) .

أبو تَمَّام :

وجاء في تَرجَمة أبي تَمَّام قال الذهبيُّ : شاعرُ العَصْر أبو تَمَّام ، حَبيبُ بنُ أَوْس بنِ الحارث الطَّائيُّ ، أَسْلَمَ وكانَ نَصْرانياً مَدحَ الخُلفاءَ والكُبراءَ وشعْرُه في الذِّرْوَة .

وكانَ أَسْمَرَ طِوالاً فَصيحاً ، عَذْبَ العِبارَة مع تَمْتَمَةٍ قَليلَة .

وُلدَ في أيّامِ الرَّشيدِ ، وكانَ أوّلاً حَدثاً يَسقي الماءَ بِمِصْرَ ، ثم جالَسَ الأُدباءَ وأخذَ

---

(١) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ١/٥٦٥ .
(٢) سورة هود ، الآية : ١١٤ .
(٣) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٦٥ .
(٤) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٣/٥٦٥ .
(٥) انظر السير : (جَرير) ٤/ ٥٩٠ـ ٥٩١ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦٥ .

عنهم ، وكان يَتوَقَّدُ ذَكاءً ، وسَحَّت قَريحَتُه بالنَّظْمِ البَديع فسَمعَ به المُعْتَصِمُ ، فطَلَبَه ، وقدَّمه على الشُّعَراء وله فيه قَصائدُ وكان يُوصَفُ بطِيبِ الأَخْلاقِ والظُّرْفِ والسَّماحَة .

وقيلَ : قَدمَ في زِيِّ الأعْرابِ ، فجَلسَ إلىٰ حَلقَة من الشُّعَراء ، وطلبَ منهُم أنْ يَسمَعوا من نَظْمِه ، فشاعَ وذاعَ وخَضَعوا له وصارَ من أمْرِه ما صارَ .

وقد كان البُحْتُريُّ يَرفعُ من أبي تَمَّام ، ويُقدِّمُه علىٰ نَفسِه ، ويَقولُ : ما أَكَلتُ الخُبزَ إلاَّ به ، وإني تابعٌ له[1] .

وهو القائل[2] :

وَلَوْ كَانَتِ الأَرْزَاقُ تَجْرِي عَلَى الحِجَا ... هَلَكْـنَ إذاً مِـنْ جَهْلِهِـنَّ البَهَـائِـمُ

وَلَمْ يَجْتَمِعْ شَرْقٌ وَغَرْبٌ لِقَاصِدٍ ... وَلاَ المَجْدُ في كَفِّ امْرِىءٍ وَالدَّرَاهِمُ

ودِيوانُ أبي تَمَّام كبيرٌ سائرٌ ، ولَمَّا ماتَ ، رَثاهُ مُحمَّدُ بنُ عبدِ المَلِك الوَزير ، فقال :

نَبَـأٌ أَلَـمَّ مُقَلْقِـلَ الأَحْشَـاءِ ... لمَّـا أَتَـىٰ مِـن أَعْظَـمِ الأَنْبَـاءِ

قَـالُـوا حَبِيـبٌ قَـدْ ثَـوَىٰ فـأَجَبْتُهُـم ... نَـاشَـدْتُكُـم لا تَجْعَلُـوهُ الطَّـائـي

مات سنة اثنتين وثلاثين ومئتين[3] .

وله في المُعْتَصِم أو ابنِه :

إقْدَامُ عَمـرو فـي سَمـاحَـةِ حـاتِـمٍ ... في حِلْمِ أَحْنَف في ذَكَاءِ إياسِ[4]

فقالَ الوَزيرُ : شَبَّهتَ أميرَ المُؤمنينَ بأجْلافِ العَرب ، فأطْرَقَ ثم زادَها :

لا تُنْكِـرُوا ضَـرْبِـي لَـه مَـنْ دُونَـهُ ... مَثَـلاً شَـرُوداً فِـي النَّـدَىٰ والْبَـاسِ

فَـاللهُ قَـدْ ضَـرَبَ الأَقَـلَّ لِنُـورِهِ ... مَثَـلاً مِـنَ الْمِشْكَـاةِ والنِّبْـرَاسِ[5]

---

(١) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٩ .

(٢) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩٠٩

(٣) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٠٩ .

(٤) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩٠٩ .

(٥) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩١٠ .

٧ـ بَعضُ مَنْ وُصِلَ على الشِّعْر :

أنشدَ إسحاقُ النَّديمُ (الْمَوْصِلِيُّ) الرَّشيدَ أبياتا يقولُ فيها :

عَطَائِي عَطاءُ المُكْثِرينَ تَكَرُّماً   ومَالي كَمَا قَد تَعْلَمينَ قَليلُ
وكَيفَ أخَافُ الفَقْرَ أوْ أُحْرَمَ الغِنَى   ورأيُ أميرِ المؤمنينَ جَليلُ

فأمَرَ له بمئَة ألْفِ دِرْهَم ماتَ سَنَةَ خَمس وثَلاثين ومئتَين[١] .

وذَكَرَ محرزٌ الكاتبُ أنَّ عُبَيْدَ اللهِ بنَ خاقَان مَرِضَ ، فعادَه عَمُّه الفَتحُ ، وقالَ : إنَّ أميرَ المؤمنينَ يَسألُ عن عِلَّتِك فقالَ :

عَليلٌ مِنَ مَكَانَيْنِ   مِنَ الأَسْقَامِ والدَّيْنِ
وفي هَٰذَيْنِ شُغْلٌ   وحَسْبِي شُغْلُ هَٰذَيْنِ

فوَصلَه المُتوكلُ بألفِ ألفٍ[٢] .

ويُقالُ : ما اجْتَمَعَ ببابِ مَلِكٍ من الشُّعَراءِ ما اجْتَمَعَ ببابِ سَيفِ الدَّوْلَة ، وكان يَقولُ : عَطاءُ الشُّعَراءِ من فَرائِضِ الأُمَراءِ .

وقد جُمِعَ له من المَدائِحِ مُجلَّدان[٣] .

٨ـ شعْرٌ في الهجاء :

قال القاضي ابنُ خلِّكان : كانَ خالدٌ القَسْري يُتَّهمُ في دينِه ، بنَىٰ لأُمِّه كَنيسَةً ، تَتعَبَّدُ فيها وفيه يقولُ الفَرَزْدَقُ[٤] :

ألا قَبَّحَ الرَّحْمَٰنُ ظَهْرَ مَطِيَّةٍ   أتَتْنَا تَهادَىٰ مِنْ دِمَشْقَ بخَالِدِ
وكَيفَ يَؤمُّ النَّاسَ مَنْ كانَ أُمُّهُ   تَدينُ بأنَّ اللهَ لَيْسَ بِواحِدِ

---

(١) انظر السير : (إسْحاق النَّديم) ١١/١١٨ـ١٢١ ، وانظر النزهة : ٦/٩١٥ .
(٢) انظر السير : (ابنُ خَاقَان) ١٣/٩ـ١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٦ .
(٣) انظر السير : (سَيفُ الدولَة) ١٦/١٨٧ـ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٨٢ .
(٤) انظر السير : (القَسْري) ٥/٤٢٥ـ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٢/٦١٩ .

بَنَىٰ بَيْعَةً فيها الصَّلِيبُ لأُمِّهِ ... ويَهْدِمُ مِنْ بُغْضٍ مَنَارَ الْمَسَاجِدِ

وكان محمَّدُ بنُ زَيْد الوَاسِطيُّ المُتكلِّمُ يُؤذِي نِفطَوَيْه ، وهَجاهُ ، فقالَ :

مَنْ سَرَّهُ أَنْ لا يَرَىٰ فاسِقاً ... فَلْيَجْتَنِبْ مِنْ أَنْ يَرَىٰ نِفْطَوَيْهِ

أَحْرَقَهُ اللهُ بِنِصْفِ اسْمِهِ ... وَصيَّرَ الباقي صُراخاً عَلَيْهِ

وقال أيضاً : مَنْ أرادَ أنْ يَتناهَىٰ في الجَهْل ، فليَعْرِفِ الكَلامَ علىٰ مَذْهَبِ النَّاشِىء[1] ، والفِقْهَ علىٰ مَذْهَبِ داوُدَ ، والنَّحْوَ علىٰ مَذْهَب سِيبَوَيْه ثم يقولُ : وقد جَمَعَ هٰذه المَذاهِبَ نِفْطَوَيْه ، فإليه المُنْتَهَىٰ[2] .

وأقامَ المُتَنبِّي عند كافُورَ الأَخْشيذيِّ أرْبَعَ سِنينَ ، نالَه مالٌ جَزيلٌ ، ثمَّ هَجاهُ لآمةً وكُفْراً لِنِعْمَتِه وهَربَ على البَرِيَّة يقولُ :

مَنْ عَلَّمَ الأَسْوَدَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً ... أَقْوَامُهُ البِيضُ أَمْ آباؤُه الصِّيدُ

وذَاكَ أَنَّ الفُحُولَ البِيضَ عاجِزَةٌ ... عَن الجَمِيلِ فَكَيْفَ الخِصيَّةُ السُّودُ

ودُعِيَ لكافُورَ علىٰ مَنابِرِ الشَّامِ ومِصْرَ والحَرَمَين والثُّغُورِ .

وكان مُلازِماً لمَصالح الرَّعيَّة .

وكان يَتعَبَّدُ ويَتهجَّدُ ، ويُمرِّغُ وَجْهَه ، ويقولُ : اللَّهُمَّ لا تُسَلِّطْ عليَّ مَخْلوقاً .

وكان يُقرأُ عندَه السِّيَرُ والدُّوَل .

وله نُدَماء وجَوارٍ مُغنِّياتٍ ، ومن المَماليك ألوفٌ مُؤلَّفة ، وكان فَطِناً ، يَقِظاً ، ذَكيّاً ، يُهادي المُعِزَّ إلى الغَرْب ، ويُداري ويَخضَعُ للمُطيعِ ، ويَخدَعُ هَؤلاء وهَؤلاء .

وله نَظرٌ في الفِقْه والنَّحْو .

تُوفِّي سنةَ سَبعٍ وخَمسينَ وثلاثِ مئة ، وماتَ عَشْرَ السَّبعين .

---

(١) هو عبد الله بن محمد ، أبو العبَّاس ، المعروف بابن شرشير الناشىء ، شاعرٌ متكلِّمٌ يُعَدُّ في طبقة ابن الرُّومي والبُحْتري ، أصله من الأنبار ، وأقام ببغداد مدة طويلة ، وخرج إلىٰ مصر فسكنها ، وتُوفِّيَ بها سنة ٢٩٣ هـ .

(٢) انظر السير : (نِفْطَوَيْه) ١٥/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٢ .

وقيلَ : مُشْتَرَاهُ على الإخْشيذِ ثمانيَةَ عَشرَ ديناراً .

وللمُتَنبِّي يَهجُوهُ ويَهْجُو ابنَ حنْزابَة الوَزيرَ[1] :

ومَـاذَا بِمِصْـر مـن المُضْحِكَـاتِ	ولكِنَّـه ضَحِـكٌ كَـالبُكَـا
بهَـا نَبَطِـيٌّ مِـنْ أَهْـلِ السَّـوادِ	يُـدرِّسُ أنْسَـابَ أهْـلِ الفَـلا
وأسْـوَدُ مِشْفَـرُهُ نِصْفُـه	يُقَـالُ لـه أنْـتَ بَـدرُ الـدُّجَـا
وشِعـرٍ مَـدحـتُ بـه الكَـرْكَـدنَّ	بيـنَ القَـريـضِ وبَيـنَ الـرُّقـا
فمـا كـانَ ذلـكَ مـدحـاً لـه	ولكنَّـه كـانَ هَجْـوَ الـوَرَى

وقد كان في كافُورَ حِلْمٌ زائدٌ ، وَكفٌّ عن الدِّماءِ ، وجَوْدَةٌ وتَدْبير[2] .

ولابنِ عُنين في ابنِ دِحْيَة :

دِحْيَـةُ لَـمْ يُعْقِـب فَلِـمْ تَعْتَـزِي	إليـه بـالبُهْتَـانِ والإفْـكِ
مـا صَـحَّ عنـدَ النَّـاسِ شـيءٌ	سِـوَىٰ أنَّـكَ مـن كَلْـبٍ بِـلا شَـكِّ

وقال الإمامُ الذهبيُّ : كان هٰذا الرَّجُلُ صاحِبَ فُنونٍ وتَوسُّع ويدٍ في اللُّغَة ، وفي الحَديثِ علىٰ ضَعفٍ فيه .

قال الضِّياءُ : لقيتُه بأصْبَهَانَ ، ولمْ أسْمَعْ منه ، ولمْ يُعْجِبْني حالُه ، كانَ كَثيرَ الوَقيعَة في الأئمَّة[3] .

٩ـ أشْعَار في مَواضِيع مُتفرِّقَة :

قالَ ثَعلبٌ إنَّه لمْ يَكُنْ أحدٌ بَعدَ ابنِ الأعْرابيّ أعْلمُ باللُّغَة من ابنِ السِّكِّيت ، وكانَ المُتوَكلُ قَد ألْزَمَه تَأديبَ وَلِده المُعْتَزِّ ، فلمَّا حَضَرَ ، قالَ له ابنُ السِّكِّيت : بِمَ تُحِبُّ أنْ تَبدَأ ؟ قالَ : بالانْصِراف قالَ : فأقُومُ قال المُعْتَزُّ : فأنا أخَفُّ منْكَ ، وبادَر ، فعَثُر ، فَسَقطَ وخَجِلَ فقالَ يَعقُوبُ :

---

(١) انظر السير : (كافُور) ١٦/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨٤ .

(٢) انظر السير : (كافُور) ١٦/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٥ .

(٣) انظر السير : (ابن دِحْيَة) ٢٢/ ٣٨٩ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٦ .

يَمُوتُ الفَتَىٰ مِن عَثْرَةٍ بِلِسانِهِ ... ولَيْسَ يَمُوتُ المَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ الرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ بالقَوْلِ تُذْهِبُ رَأْسَهُ ... وعثْرَتُهُ بالرِّجْلِ تبْرَا علَىٰ مَهْلِ

قال أبو سَهْل بنُ زياد : سَمعتُ ثعلباً يَقولُ : عَديُّ بنُ زَيد العِبَادي أميرُ المؤمنين في اللُّغَة وكانَ يَقولُ قَريباً من ذلكَ في ابنِ السِّكِّيت .

قال الإمامُ الذهبيُّ : « إصْلاحُ المَنْطِق » كتابٌ نَفيسٌ مَشْكورٌ في اللُّغَة[١] .

وقال الذهبيُّ : كان وَليُّ العَهدِ المُوفَّقُ قد اسْتبدَّ بالأمور ، وضَيَّقَ علىٰ أخيه الخَلفية المُعْتمد : قال الصُّوليُّ : تَخيَّل المُعْتمدُ من أخيه ، فكاتَبَ أحمدَ بنَ طُولونَ ، واتَّفقا ، وقال المُعْتمدُ :[٢] .

أليسَ مِنَ العَجَائِب أنَّ مِثلي ... يَرىٰ ما قَلَّ مُمْتَنِعاً عَلَيهِ

وتُؤْكَلُ بِاسْمِهِ الدُّنيا جَميعاً ... وما مِنْ ذاكَ شَيءٌ في يَدَيْهِ

فبلغَنا أنَّ ابنَ طُولُونَ جَمعَ العُلماءَ والأعْيانَ ، وقال : قد نَكثَ المُوَفَّقُ أبو أحمد بأميرِ المؤمنين ، فاخْلَعوه من العَهدِ فخَلَعوه ، إلاَّ بَكارَ ابنَ قُتَيْبَة ، وقال : أنتَ أَوْرَدْتَ عليَّ كتابَ المُعْتَمد بتَوَلِّيه العَهدَ ، فهاتِ كتاباً آخرَ منه بخَلعِه قال : إنَّه مَحجورٌ عليه ومَقْهورٌ ؟ قال : لا أدْري فقال له : غرَّكَ النَّاسُ بقَولِهم : ما في الدُّنيا مثلُ بَكار ، أنتَ قد خَرِفْتَ ، وقيَّدَه وحَبسَه ، وأَخذَ منه جَميعَ عَطائِه من سِنينَ ، فكان عَشرَةَ آلافِ دينار ، فقيلَ : إنَّها وُجِدَت بخُتومِها وحالِها ، وبلَغَ ذلك المُوَفَّق ، فأمَرَ بلَعْنِ ابنِ طُولُونَ على المَنابِر[٣] .

للوَزيرِ العَادلِ أبي الحَسَن عليِّ بنِ عِيسَىٰ في نَكْبَتِه :

وَمَنْ يَكُ عَنِّي سَائِلاً لِشَمَاتَةٍ ... لِمَا نَابَنِي أو شَامِتاً غَيرَ سَائِلِ

---

(١) انظر السير : (ابنُ السِّكِّيت) ١٢/١٦ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٤/٩٧٥ .
(٢) انظر السير : (بَكار بن قُتَيبَة) ١٢/٥٩٩ـ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٩ .
(٣) انظر السير : (بَكار بن قُتَيبَة) ١٢/٥٩٩ـ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٩ .

فَقَدْ أَبْرَزَتْ مِنِّي الخُطُوبُ ابنَ حُرَّةٍ ... صَبُوراً عَلَىٰ أَحْوَالِ تِلْكَ الزَّلَازِلِ
إِذَا سُرَّ لَمْ يَبْطَرْ وَلَيْسَ لِنَكْبَةٍ ... إِذَا نَزَلَتْ بِالخَاشِعِ المُتَضَائِلِ

وقد أشَارَ على المُقْتَدِرِ ، فأَفْلَحَ ، فوَقَفَ ما مَغَلُّه في العام تِسْعونَ ألفَ دينارٍ على الحَرَمَين والثُّغورِ ، وأفْرَدَ لهَـٰذه الوُقوفِ دِيوَاناً سَمَّاه دِيوَانَ البِرِّ[1] .

ومن نَظْمِ ابنِ مَاكُولا[2] :

فالمندل[3] .

قَوِّضْ خِيَامَكَ عَنْ دَارٍ أُهِنْتَ بِها ... وَجَانِبِ الذُّلَّ إِنَّ الذُّلَّ مُجْتَنَبُ
وارْحَلْ إِذَا كانَتِ الأَوْطَانُ مَضْيَعَةً ... فالمندَلُ الرَّطبُ في أوطَانِهِ حَطَبُ

وقِيلَ : إنَّ بَناتِ المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد أَتَيْنَهُ في عيدٍ ، وكُنَّ يَغْزِلْنَ بالأُجْرَة في أغْماتَ[4] ، فرآهُنَّ في أطْمارٍ رَثَّة ، فصدَّعْنَ قَلبَه ، فقالَ :

فِيمَا مَضىٰ كُنْتَ بالأَعْيَادِ مَسْروراً ... فسَاءَكَ العيدُ في أغمات مَأْسُودا
تَرَىٰ بَناتِك في الأَطْمَارِ جائِعَةً ... يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ ما يَمْلِكْنَ قِطْمِيرَا
بَرَزْنَ نَحْوكَ للتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً ... أبْصَارُهُنَّ حَسِيراتٍ مَكاسِيرَا
يَطَأْنَ في الطِّينِ والأقْدامُ حافِيَةٌ ... كَأنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكاً وكَافُورَا

قال الذهبيُّ : كانَ مَوْلِدُه سَنَةَ إحْدَىٰ وثلاثينَ وأَرْبَع مئة وماتَ سَنَةَ ثمانٍ وثمانينَ وأرْبَع مئَة .

وقد سَمَّى ابنُ اللبَّانَة بَني المُعْتَمِد بأسْمائِهِم وألْقَابِهِم ، فعَدَّ نَحْواً من ثَلاثينَ نَفْساً ، وعَدَّ له أرْبَعاً وثَلاثين بِنْتاً .

---

(١) انظر السير : (الوَزير) ١٥/٢٩٨ـ٣٠١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٩ .
(٢) انظر السير : (ابن مَاكولا) ١٨/٥٦٩ـ٥٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٣ .
(٣) العود الرطب يتبخّر به .
(٤) أغْمات : ناحية في بلاد البربر المصامدة من أرض المغرب قرب مراكش

قال الذهبيُّ : افْتَقَرُوا بالمرَّة ، وتَعلَّموا صَنائعَ ، كذلكَ الدَّهْرُ ، نَسأَلُ اللهَ المَغْفرةَ[1] .

وللمُسْتَنجِدِ باللهِ[2] .

عَيَّرَتْني بالشَّيبِ وهُوَ وَقَارُ ... لَيْتَهَا عَيَّرَتْ بمَا هُوَ عَارُ
إن تَكُنْ شَابَتِ الذَّوائِبُ مِنِّي ... فَاللَّيالِي تَزينُهَا الأقْمَارُ

* * *

(١) انظر السير : (المُعْتَمد بن عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٠ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَنْجِدُ بالله) ٢٠/٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٥٦٩/ .

(٦) التاريخ

(تَرتيبُ الدُّول فيه حَسب تَرتيبها الزَّمَني غالباً)

١ـ ضابطٌ لحَديث « فحَدَّثَنا بمَا هو كائِنٌ إلىٰ قِيامِ السَّاعة » :

عن حُذَيْفَة ، قالَ : قامَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَقاماً ، فحَدَّثنا بما هو كائنٌ إلىٰ قيام السَّاعَة ، حَفِظَه مَنْ حَفِظَه ونَسِيَه مَنْ نَسِيَه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : قد كانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُرَتِّلُ كلامَه ويُفَسِّرُه ، فلعَلَّه قالَ في مَجْلِسه ذلك ما يُكتَبُ في جُزء ، فذَكرَ أكْبَرَ الكَوائن ، ولَوْ ذَكَرَ ما هو كائنٌ في الوُجُودِ ، لما تَهيَّأَ أنْ يقُوَله في سَنَةٍ ، بلْ ولا في أعْوامٍ ، ففَكِّرْ في هَـٰذا .

وقد ماتَ حُذَيْفَةُ بالمَدائنِ سَنَةَ سِتٍّ وثَلاثينَ ، وقد شَاخَ[1] .

٢ـ ضابطٌ لقَبول الأخْبار :

قد أنْكَرَ بَعضُهُم لَيْلَىٰ والمَجْنونَ ، وهـٰذا دَفعٌ بالصَّدر ، فما مَنْ لمْ يَعْلَمْ حُجَّة علىٰ مَنْ عِندَه عِلمٌ ، ولا المُثْبِتِ كالنَّافي ، لكنْ إذا كان المُثْبتُ لشَيءٍ شِبْهَ خُرافَة ، والنَّافي لَيسَ غَرضُه دَفعُ الحَقِّ ، فهُنا النَّافي مُقدَّمٌ ، وهُنا تَقَعُ المُكابَرَة وتُسْكَبُ العَبْرةُ ، فقيلَ : إنَّ المَجنونَ عَلِقَ لَيْلَىٰ عَلاقَةَ الصِّبَا وكانا يَرْعَيان البَهْمَ[2] .[3]

٣ـ تكوُّن دَولَة بَني أُمَيَّة :

وقال الواقِديُّ : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ بَعَثَتْ نائِلَةُ بنتُ الفَرافِصَة امْرأتُه إلىٰ مُعاوِيَةَ كِتاباً بما جَرَىٰ ، وبَعَثَتْ بقَميصِهِ بالدَّمِ ، فقَرَأَ مُعاوِيَةُ الكِتابَ ، وطَيَّفَ بالقَميصِ في أجْنادِ

---

(١) انظر السير : (حُذَيفَة بنُ اليَمَان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٢٧٦ .
(٢) البَهْم : جَمع بهمة ، وهو الصغير من الضأن ، والذَّكَرُ ، والأنثىٰ فيه سَواء .
(٣) انظر السير : (المَجْنون) ٤/ ٥ـ ٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٢٩ .

الشَّامِ ، وحَرَّضَهُم على الطَّلَبِ بدَمِه ، وأَجْمَعَ على المَسِيرِ إلىٰ صِفِّينَ ، وقَصَدَ كُلٌّ منهُما الآخَرَ ، فالْتَقَوْا لِسَبعٍ بَقِينَ من المُحَرَّمِ سَنَةَ سَبْعٍ وثلاثين .

وفي أوَّلِ صَفَرٍ شَبَّتِ الحَربُ وقُتِلَ خَلْقٌ ، وضَجِرُوا ، فرَفَعَ أهْلُ الشَّامِ المَصاحِفَ ، وقالُوا : نَدْعُوكُم إلىٰ كِتابِ الله والحُكْمِ بما فيه ، وكان ذلك مَكِيدَةٌ من عَمْرِو بنِ العاصِ ، فاصْطَلَحُوا وكَتَبُوا بَينَهُم كَتاباً علىٰ أنْ يُوافُوا أذْرُح[1] ويُحَكِّمُوا حَكَمَيْنِ[2] .

قال : فلَمْ يَقَع اتِّفاقٌ ورَجَعَ عَليٌّ إلى الكُوفَةِ بالدَّغَلِ[3] . من أصْحابِه والاخْتِلافِ فخَرَجَ منهُم الخَوارِجُ ، وأنْكَرُوا تَحْكِيمَه ، وقالوا : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، ورَجَعَ مُعاوِيَةُ بالأُلْفَةِ والاجْتِماعِ ، وبَايَعَهُ أهْلُ الشَّامِ بالخِلافَةِ في ذي القِعْدَةِ سَنَةَ ثَمانٍ وثلاثين .

ثمَّ اسْتُشْهِدَ عَليٌّ في رَمَضانَ سَنَةَ أرْبَعِينَ وصَالَحَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ مُعاوِيَةَ ، وبَايَعَهُ ، وسُمِّيَ عامَ الجَماعَةِ وحَجَّ بالنَّاسِ سَنَةَ خَمسينَ .

ثمَّ اعْتَمَرَ سَنَةَ سِتٍّ وخَمسِينَ في رَجَبَ ، وكان بَينَه وبَينَ الحُسَيْنِ وابنِ عُمَرَ ، وابنِ الزُّبَيْرِ ، وابنِ أبي بَكْرٍ ، كَلامٌ في بَيْعَةِ العَهْدِ لِيَزيدَ ، ثمَّ قال : إنِّي مُتَكَلِّمٌ بكَلامٍ ، فلا تَرُدُّوا عَليَّ أَقْتُلْكُم ، فخَطَبَ ، وأظْهَرَ أنَّهم قد بَايَعُوا ، وسَكَتُوا ولَمْ يُنْكِروا ، ورَحَلَ علىٰ هٰذا وادَّعَىٰ زِيادٌ أنَّه أخُوهُ فوَلاَّه الكُوفَةَ بعدَ المُغِيرَة ، فكَتَبَ إليه في حُجْرِ بنِ عَديّ وأصْحابِه ، وحَمَلَهم إليه فقَتَلَهم بمَرْجِ عَذْراء ، ثمَّ ضَمَّ الكُوفَةَ والبَصْرَة إلىٰ زِيادٍ ، فمَاتَ ، فوَلاهُما ابنَه عُبَيْدَ الله بنَ زِياد[4] .

وقال ابنُ شَوْذَب : سَارَ الحَسَنُ يَطْلُبُ الشَّامَ ، وأقْبَلَ مُعاوِيَةُ في أهْلِ الشَّامِ فالْتَقَوا ، فكَرِهَ الحَسَنُ القِتالَ ، وبايَعَ علىٰ أنْ جَعَلَ له العَهْدَ بالخِلافَةِ مِنْ بَعدِه ، فكان أصْحابُ الحَسَنِ يقُولونَ له : يا عَارَ المُؤمِنينَ ، فيقُولُ : العَارُ خَيرٌ من النَّارِ .

---

(١) أَذْرُح : اسم بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز .
(٢) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥٠/ ٤ .
(٣) الدغل : الفساد.
(٤) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفْيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥١/ ١ .

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحَسَنِ : « إنَّ ابْني هـٰذا سَيِّدٌ وسَيُصْلِحُ اللهُ به بَينَ فِئَتَيْنِ عَظيمَتَيْنِ من المُسلمينَ » ، ثمَّ إنَّ مُعاويَةَ أجابَ إلى الصُّلْحِ ، وسُرَّ بذٰلِكَ ودَخَلَ هُوَ والحَسَنُ الكُوفَةَ راكِبَيْنِ ، وتَسَلَّمَ مُعاويَةُ الخِلافَةَ في آخِرِ ربيعٍ وسُمِّيَ عامَ الجَماعَةِ لاجْتِماعِهِم علىٰ إمامٍ ، وهو عامُ أحَدَ وأرْبَعينَ[1] .

قال الزُّبَيْرُ بن بَكَّار : كان الضَّحَّاكُ بنُ قَيْس مع مُعاويَة ، فوَلاَّهُ الكُوفَة ، وهو الذي صَلَّىٰ علىٰ مُعاويَة ، وقام بِخِلافَته حتىٰ قَدِمَ يَزيدُ ، ثم بعدَه دَعا إلى ابنِ الزُّبَيْر ، وبايَعَ له ، ثم دَعا إلىٰ نَفسِه[2] .

وعن خالدِ بنِ يَزيد ، عن أبيه ، وعن مَسْلَمَة بنِ مُحارِب ، عن حَرْبِ ابنِ خالِد وغَيرِه ، أنَّ مُعاويَةَ بنَ يَزيد لَمَّا ماتَ ، دَعا النُّعْمانُ بنُ بَشير بحمْص إلى ابنِ الزُّبَيْر ، ودَعَا إليه بِدِمَشْقَ الضَّحَّاكُ سِراً لِمَكانِ بَني أُمَيَّة وبَني كَلب ودَعا زُفَرُ بنُ الحارِث أميرُ قِنَّسْرين إلى ابنِ الزُّبَيْر ، وبلَغَ حَسَّانُ بنُ بحْدل وهو بفلسْطينَ وكان هَواهُ في يد خالِدِ بن يَزيد فكَتَبَ إلى الضَّحَّاكِ يُعَظِّمُ حَقَّ بَني أُمَيَّة ، ويَذُمُّ ابنَ الزُّبَيْر ، وقالَ للرسولِ : إنْ قرأَ الكتابَ ، وإلاَّ فاقرأْهُ على النَّاس ، وكتبَ إلىٰ بَني أُمَيَّة فلمْ يَقرأ الضحَّاكُ كتابَه ، فكان في ذلك اخْتلافٌ ، فسكَّتَهم خالدُ ابنُ يزيد ، ودَخلَ الضحَّاكُ دارَه أيّاماً ، ثم صلَّىٰ بالنَّاسِ ، وذَكرَ يَزيدَ فشَتَمَه ، فقامَ رجلٌ من كَلب فضَربَه بعصًا فاقْتتَلَ النَّاسُ بالسُّيوفِ ، ودَخلَ الضحَّاكُ دارَ الإمارَة فلمْ يَخرجْ وتَفرَّقَ النَّاسُ ففِرْقَةٌ زُبَيْريّة وأخْرىٰ بَحْدَلِيّة ، وفِرْقةٌ لا يُبالُونَ ثمَّ أرادوا أنْ يُبايعوا الوَليدَ بنَ عُتْبَة ابنَ أبي سُفْيان ، فأبَىٰ ، ثم تُوفِّي وطَلَبَ الضحَّاكَ مَرْوانُ ، فأتاهُ هو وعَمُّه والأشْدَقُ ، وخالدُ بنُ يَزيد ، وأخُوه ، فاعْتَذرَ إليهم ، وقال : اكتُبوا إلى ابنِ بَحْدَل حتىٰ ينزلَ الجابيَة ، ونَسيرُ إليه ، ويَسْتخلفُ أحدَكم ، فقدمَ ابنُ بَحْدَل ، وسارَ الضحَّاكُ وبَنو أُمَيَّة يُريدونَ الجابيَة فلمَّا اسْتقلَّت الرَّاياتُ مُوجهة ، قالَ مَعنُ بنُ ثَوْر والقَيْسيَّة للضحَّاك : دَعَوتَ إلىٰ بَيْعَة رَجلٍ أحْزَمِ النَّاسِ رَأياً وفَضْلاً وبأساً ، فلمَّا أجَبْناكَ سِرْتَ إلىٰ هـٰذا الأعْرابيِّ تُبايعُ لابنِ أُخْتِه! قالَ :

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣٥٢ .

(٢) انظر السير : (الضَّحَّاك بن قيس) ٣/ ٢٤١ـ ٢٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/٣٧٥ .

فمَا العَملُ ؟ قالوا : تَصرفُ الرَّاياتِ ، وتَنْزِلُ فتُظْهِرُ البَيْعَةَ لابنِ الزُّبَيْر ، ففَعل ، وتَبِعَهُ النَّاسُ فكتبَ ابنُ الزُّبَيْر إليه بمْرَةِ الشَّام ، وطرَدَ الأُمَويَّة من الحِجَاز .

وخافَ مَرْوانُ ، فسارَ إلى ابنِ الزُّبَيْر ليُبايعَ ، فلَقيَهُ بأذْرعات عُبَيْدُ الله بنُ زِياد مُقْبلاً من العِراقِ ، فقالَ : أنْتَ شَيخُ بَني عَبدِ مَناف ، سُبحانَ الله ، أرَضيتَ أنْ تُبايعَ أبا خُبَيب ولأنْتَ أَوْلَىٰ قالَ : فما تَرَى ؟ قالَ : أُدعُ إلىٰ نفسِك ، وأنا أكْفيكَ قُرَيْشاً ومَواليها فرَجَعَ ، ونزَلَ ببابِ الفَراديس[1] وبَقي يَركبُ إلى الضحَّاك كلَّ يوم ، فيُسلِّم عليه ، ويَرجعُ إلىٰ مَنزِله فطَعنَه رَجلٌ بحَرْبة في ظهرِه ، وعليه دِرْعٌ ، فأثْبَتَ الحَرْبَة ، فرُدَّ إلىٰ مَنزلِه ، وعادَه الضحَّاكُ ، وأتاه بالرَّجُلِ ، فعَفا عَنهُ ثم قالَ للضحَّاك : يا أبا أُنَيس! العَجبُ لك وأنتَ شَيخُ قُرَيش ، تَدْعُو لابنِ الزُّبَير ، وأنتَ أرْضَىٰ منهُ! لأنَّكَ لمْ تَزَلْ مُتمَسِّكاً بالطَّاعَة ، وهو فارَقَ الجَماعَة فأصْغَىٰ إليه ، ودَعا إلىٰ نَفسِه ثلاثَةَ أيَّام ، فقالوا : أخَذْتَ عُهودَنا وبَيْعَتَنا لرجُلٍ ، ثم تَدعُو إلىٰ خَلعِه من غَيرِ حَدَث! وأَبَوْا فعاوَدَ الدُّعاءَ لابنِ الزُّبَيْر ، فأفْسَدَه ذلكَ عندَ النَّاسِ فقالَ له ابنُ زِياد : مَنْ أرادَ ما تُريدُ لَمْ يَنزِلْ المَدائنَ والحُصونَ ، بلْ يَبرزُ ويَجْمعُ إليه الخَيلَ ، فاخْرُجْ ، وضُمَّ الأَجْنادَ ، ففَعلَ ، ونزلَ المَرْجَ فانْضَمَّ إلىٰ مَرْوانَ وابنِ زِياد جَمعٌ .

وانْضَمَّ إليهم عبادُ بنُ زِياد في مَواليه ، وانْضمَّ إلى الضحَّاك زُفرُ ابنُ الحارثِ الكلابيُّ أميرُ قنَّسْرين ، وشُرَحْبيلُ بنُ ذي الكلاع ، فصارَ في ثلاثينَ ألْفاً ، ومَرْوانُ في ثلاثَة عَشرَ ألفاً أكثرُهم رجَّالَة ، وقيلَ : لمْ يكُنْ مع مَرْوانَ سِوَىٰ ثَمانينَ فَرَساً ، فالْتَقوا بالمَرْجِ أيَّاماً ، فقالَ ابنُ زِياد : لا تَنالُ من هـٰذا إلاَّ بمَكيدَة ، فادْعُ إلى المُوادَعَة ، فإذا أَمِنَ ، فكُرَّ عليهِم .

فراسَلَه فأمْسَكوا عن الحَرْب ثم شَدَّ مَرْوانُ بجَمْعِه على الضحَّاك ونادَى النَّاسُ : يا أبا أُنَيس! أعَجزاً بعدَ كيس ؟ فقالَ الضحَّاكُ : نعَم لعَمْري ، والْتَحمَ الحَربُ ، وقُتلَ الضحَّاكُ ، وصَبرتْ قَيْسٌ ، ثم انْهَزَمُوا ، فنادَىٰ مُنادي مَرْوانَ : لا تَتْبِعوا مُوَلِّياً

---

(١) باب الفراديس : من أبواب دمشق القديمة ، ويقال له اليوم : باب العمارة ، ويقع في شمال الجامع الأموي .

قالَ الوَاقديُّ : قُتلَتْ قَيسٌ بمَرْج راهِط مَقْتلَةً لمْ تُقْتَلْها قَطُّ في نِصْفِ ذي الحِجَّة سَنَة أربع وستين .

وقيلَ : إنَّ مَرْوانَ لَمَّا أُتِيَ برأسِ الضحَّاك ، كَرِهَ قَتلَه ، وقالَ : الآنَ حين كَبُرَت سِنِّي ، واقْتَرَبَ أجَلي ، أقْبلْتُ بالكَتائبِ أضْربُ بَعضَها ببَعضٍ[1] .

وبُويعَ عبدُ الله بنُ الزُّبَيْر بالخِلافَة عندَ مَوْتِ يَزيد سنةَ أرْبَع وسِتِّين ، وحَكَمَ على الحِجازِ واليَمنِ ، ومِصْرَ ، والعِراقِ ، وخُراسانَ ، وبَعضِ الشَّام ، ولمْ يَسْتَوسِقْ له الأمرُ ومِنْ ثَمَّ لَمْ يَعُدَّه بعضُ العُلماء في أُمَراء المؤمنين ، وعَدَّ دَولَتَه زَمنَ فُرْقَة فإنَّ مَرْوانَ غَلَبَ على الشَّام ثم مِصْرَ ، وقامَ عندَ مَصْرَعِه ابنُه عبدُ المَلكِ بنُ مَرْوانَ ، وحارَبَ ابنَ الزُّبَيْر ، وقُتِلَ ابنُ الزُّبَيْر رَحمَه اللهُ فاسْتقلَّ بالخِلافَة عبدُ المَلكِ وآلُه ، واسْتَوْسقَ لهم الأمرُ إلىٰ أنْ قَهَرَهم بَنُو العَبَّاس بعدَ مُلكِ سِتِّينَ عاماً[2] .

قال ابنُ سَعْد : أخْبَرَنا مُحمَّدُ بنُ عُمَر ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ جَعْفَر ، عن عَمَّتِه أمِّ بَكْر ، وقالَ وحدَّثني شُرَحْبيلُ بنُ أبي عَوْن ، عن أبيه وحدَّثنا ابنُ أبي الزِّنادِ وغَيرُهم ، قالوا : خَرجَ ابنُ الزُّبَيْر إلىٰ مَكَّة ، ولَزِمَ الحِجْرَ ، ولَبسَ المَعَافِريَّ ، وجَعلَ يُحرِّضُ علىٰ بَني أُمَيَّة ، ومَشَىٰ إلىٰ يَحْيَىٰ بنِ حَكيم الجُمَحيِّ وإلىٰ مكَّة فبايَعهُ ليَزيدَ ، فلَمْ يَرْضَ يَزيدُ حتىٰ يُؤتَىٰ به في جامعةٍ ووثاق .

وامْتنعَ ابنُ الزُّبَير أنْ يُذِلَّ نَفسَه ، وقالَ : اللَّهُمَّ إنِّي عائذٌ ببَيْتِك ، فقيل له : عَائذُ البَيْت ، وبَقيَ لا يعْرِضُ له أحَدٌ .

ثم دَعا إلىٰ نَفسِه وبايَعوهُ ، فوَلَّىٰ على المَدينَة أخاه مُصْعَباً وعلى البَصْرَة الحارثَ بنَ عبدِ الله بنِ أبي رَبيعَة ، وعلى الكُوفَة عبدَ الله ابنَ مُطيع ، وعلىٰ مِصْرَ عبدَ الرَّحْمَـٰن بنَ جَحْدَم الفِهْريّ ، وعلى اليَمَن ، وعلىٰ خُراسَان ، وأمَّرَ على الشَّام الضحَّاكَ بنَ قَيْس ، فبايَع له عامَّةُ أهْلِ الشَّام وأبَت طائفةٌ ، والْتفَّتْ علىٰ مَرْوانَ بنِ الحَكَم ، وجَرَت أمُورٌ

---

(١) انظر السير : (الضَّحَّاك بن قَيس) ٣/ ٢٤١ـ ٢٤٥ ، وانظر النزهة : ٤/٣٧٥ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩٤ .

طَويلةٌ ، وحُروبٌ مُزْعِجَة ، وجَرَت وَقعَةُ مَرْج راهِط وقُتلَ أُلوفٌ من العَرَب ، وقُتلَ الضحَّاكُ ، واسْتَفحَلَ أمرُ مَرْوانَ إلىٰ أنْ غَلبَ على الشَّام ، وسارَ في جَيشٍ عَرَمْرَم ، فأخَذَ مِصْرَ واستعمَلَ عليها ولدَه عبدَ العَزيز ، ثم دَهمَهُ المَوْتُ ، فقامَ بعدَه ولدُه الخَليفَةُ عبدُ المَلِك ، فلَمْ يَزَلْ يُحاربُ ابنَ الزُّبَيْر حتىٰ ظَفرَ به بعدَ أنْ سارَ إلى العِراقِ وقَتلَ مُصْعَبَ بنَ الزُّبَيْر .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ثم جهَّزَ يَزيدُ جَيشاً ستَّة آلاف ، إذْ بَلغَه أنَّ أهْلَ المدينَة خَلعُوه ، فجَرتْ الحَرَّة ، وقُتلَ نَحوَ ألفٍ من أهْلِ المَدينَة ، ثم سارَ الجَيشُ عليهم حُصَين بنُ نُمَيْر ، فحاصَروا الكَعبَةَ ، وبها ابنُ الزُّبَيْر ، وجَرتْ أمورٌ عَظيمَة فقَلعَ اللهُ يَزيدَ ، وبايَعَ حُصَيْنٌ وعَسْكرُه ابنَ الزُّبَيْر بالخِلافَة ، ورَجَعوا إلى الشَّام .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : عِيب ابنُ الزُّبَيْر رضي الله عنه بشُحٍّ .

وعن المُنْذِرِ بنِ جَهْم قال : رَأيتُ ابنَ الزُّبَيْر يومَ قُتلَ وقَد خَذَلَه مَنْ كان مَعه خِذْلاناً ، وجَعلوا يَتسلَّلونَ إلى الحَجَّاجِ ، وجَعلَ الحَجَّاجُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ! عَلامَ تَقتُلونَ أنفُسَكم ؟ مَنْ خَرجَ إلينا ، فهو آمِنٌ ، لكم عَهْدُ اللهِ ومِيثاقُه ورَبِّ هٰذه البَنِيَّة لا أغْدِرُ بكم ، ولا لنا حاجَةٌ في دِمائِكم .

قال : فتَسلَّلَ إليه نَحْو من عَشرةِ آلاف ، فلَقدْ رَأيتُ ابنَ الزُّبَيْر وما مَعه أحَدٌ .

وعن إسْحاقَ بنِ أبي إسْحاقَ قالَ : حَضَرتُ قَتْلَ ابنِ الزُّبَيْرِ ، جَعلَتِ الجُيوشُ تَدخُلُ عليه من أبْوابِ المَسْجِد ، فكُلَّما دَخلَ قَومٌ من بابٍ ، حَملَ عَليهم وَحْدَه ، حتىٰ يُخْرِجَهُم ، فبَيْنا هو علىٰ تِلكَ الحَالِ ، إذْ وَقعَت شُرْفَةٌ من شُرُفاتِ المَسْجدِ علىٰ رَأسِه ، فصَرَعَتْهُ وهو يَتمَثَّلُ :

أسْمـاءُ يـا أسْمـاءُ لا تبْكِـي ... لَـمْ يَبْـقَ إلاَّ حَسَبِـي ودِينِـي

وصَارِمٌ لانَتْ به يَمينِي

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ما إخالُ أولـٰئك العَسْكرُ إلاَّ لَو شاؤوا ، لأتْلَفوهُ بسِهامِهم ولكنْ حَرصوا علىٰ أنْ يُمْسِكوه عَنْوَة ، فما تَهيَّأ لهم ، فلَيْتَه كَفَّ عن القِتالِ لَمَّا رَأى

الغَلبَة ، بلْ لَيْتَه لا الْتَجأ إلى البيْتِ ، ولا أَحْوَجَ أولئكَ الظَّلمَة والحَجّاجَ لا بَارَكَ اللهُ فيه إلى انْتِهاكِ حُرْمَةِ بيتِ اللهِ وأَمْنِهِ ، فنَعُوذُ باللهِ من الفِتْنَة الصَّمَّاء .

قُتل في جُمادَى الآخِرَة سنةَ ثَلاث وسَبعين .

عاشَ نَيفاً وسَبعين سَنة رضي الله عنه[1] .

٤ـ تَعْليلٌ لِقيامِ دَوْلَة بَني العَباس :

قالَ محمدُ بنُ جَرير في « تاريخِه » كان بُدوُّ أمرِ بَني العَبَّاس أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قيلَ ، أعْلمَ العبَّاسَ أنَّ الخِلافَةَ تؤولُ إلىٰ وَلَدِه ، فلَمْ يَزَلْ وَلدُه يتوَقَّعون ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يَصِحَّ هـٰذا الخَبرُ ، ولكنَّ آلَ العبَّاسِ ، كانَ النَّاسُ يُحبُّونَهم ، ويُحبُّونَ آلَ عليٍّ ، يَوَدُّونَ أنَّ الأمْرَ يَؤول إليهم ، حُبَّاً لآلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وبُغْضاً في آلِ مَرْوانَ بنِ الحَكَم فبَقُوا يَعمَلون علىٰ ذلك زَماناً حتىٰ تَهيَّأت لهم الأسْبابُ ، وأقْبَلت دَولتُهم وظَهرَت من خُراسان[2] .

٥ـ تكوُّن دَوْلَة بَني العَباس :

أبو مُسْلم الخُراساني :

جاءَ في تَرجمَة أبي مُسْلم الخُراساني ، قال الإمامُ الذهبيُّ : اسْمُه عبدُ الرَّحمَـٰن ابنُ مُسْلم الخُراساني ، الأميرُ ، صاحبُ الدَّعْوَة ، وهازِمُ جُيوشِ الدَّوْلَة الأُمَويَّة ، والقائمُ بإنْشاءِ الدَّولَة العبَّاسيَّة[3] .

كان من أكْبرِ الملوك في الإسْلام ، وكان ذَا شأن ونَبأ غَريب من رجل يَذهبُ علىٰ حمار بإكافٍ من الشَّام حتىٰ يَدخُلَ خُراسان ، ثم يَملكُ خُراسانَ بعدَ تسعة أعْوام ، ويَعودُ بكَتائب أمْثالِ الجِبالِ ، ويَقلِبُ دَولَةً ، ويُقيمُ دَولَةً أخرَى!

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/ ٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ١/٣٩٦ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٩ .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦/٦٢٧ .

تأتيه الفُتوحاتُ العِظامُ ، فلا يَظهَرُ عليه أثرُ السُّرور ، وتَنزلُ به الفادِحَةُ الشَّديدَةُ ، فلا يُرَىٰ مُكتئباً وكان إذا غَضبَ لَمْ يَسْتفزَّه الغَضبُ .

قيلَ : مَولدُه في سنة مئة ، وأوّلُ ظُهورِه كان بمَرْوَ في شهر رَمضانَ يوم الجُمُعَة من سنة تسعٍ وعشْرينَ ومئة ، ومُتَولِّي خُراسان إذْ ذاكَ الأميرُ نَصْرُ بنُ سيار اللَّيثيُّ ، نائبُ مَرْوانَ بنِ محمَّد ، الحِمارُ ، خاتِمَةِ خُلفاءِ بَني مَرْوانَ ، فكان ظُهورُه يَومئذٍ في خَمسينَ رَجُلاً ، وآلَ أمرُه إلىٰ أنْ هَربَ منه نَصْرُ بنُ سيار قاصداً العِراقَ فنزَلَ به الموتُ بناحيَةِ ساوَة ، وصَفا إقْليمُ خُراسان لأبي مُسْلم ، صاحبِ الدَّعْوَة ، في ثَمانيَة وعشْرينَ شَهْراً[(١)] .

وقال مُصْعَبُ بنُ بِشْر : سَمعتُ أبي يقولُ : قامَ رجلٌ إلىٰ أبي مُسْلم وهو يَخْطبُ ، فقال : ما هٰذا السَّوادُ عَليكَ ؟ فقالَ : حدَّثني أبو الزُّبَيْر عن جابر بن عبدِ الله ، « أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ مَكةَ يَومَ الفَتْحِ ، وعَليهِ عَمامَةٌ سَوْدَاءٌ » وهٰذه ثيابُ الهَيْبَة ، وثيابُ الدَّوْلة ، يا غُلامُ اضْرِبْ عُنُقَه!

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان أبو مُسْلم سَفَّاكاً للدِّماءِ ، يَزيدُ على الحَجَّاجِ في ذلك وهو أوَّلُ مَنْ سَنَّ للدَّوْلة لبَاسَ السَّوادِ ، وكانَ بلاءً عَظيماً علىٰ عَرَبِ خُراسان ، فإنَّه أبادَهم بحَدِّ السَّيْف[(٢)] .

وفي سنة اثنتَين وثَلاثينَ في ثالثِ يَومٍ من رَبيع الأوّل ، بُويعَ السَّفَّاحُ بالخِلافَة بالكُوفَة في دار مَوْلاه الوَليدِ بنِ سَعْد وسارَ الخَليفَةُ مَروانُ في مئةِ ألفِ فارسٍ حتىٰ نَزلَ الزَّابَيْن[(٣)] .دُون المُوصِل ، يَقصِدُ العِراقَ فجَهَّزَ السَّفَّاحُ له عَمَّه عبدَ الله بنَ عَليّ ، فكانَت الوَقْعَةُ علىٰ كُشاف ، في جُمادَى الآخِرَة فانْكَسَرَ مَروانُ وتَقَهْقَرَ ، وعَدى الفُراتَ ، وقَطعَ وراءَهَ الجِسْرَ وقَصدَ الشَّامَ ليَتقَوَّىٰ ، ويَلتَقي ثانياً .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٢٨/١ .
(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٢٨/٢ .
(٣) الزابان : الزاب الأعلىٰ ، والزاب الأسفل ، وهما نهران بين بغداد والموصل ، ونزول مروان بن محمد كان على الزاب الصغير .

فجدَّ في طَلبه عبدُ الله بنُ عَليّ حتىٰ طَردَه عن دِمَشْقَ ، ونازَلَها وأخَذَها بعدَ أيَّام ، وبذَل السَّيفَ ، وقَتلَ بها في ثلاثِ ساعَات نَحْواً من خَمسينَ ألفاً غَالِبُهم من جُنْدِ بَني أُمَيَّة .

وانْقَضَتْ أيامُهم ، وهَربَ مَرْوانُ إلىٰ مِصْرَ في عَسْكرٍ قَليلٍ ، فجَدُّوا في طَلبه إلىٰ أن بيَّتوهُ بقَرْيَة بُوصِير ، فقَاتلَ حتىٰ قُتلَ ، وطِيفَ برَأسِه في البُلْدانِ ، وهَربَ ابناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة[1] .

قالَ محمدُ بنُ جَرير في « تاريخِه » كان بُدوُّ أمرِ بَني العَبَّاس أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قيلَ ، أعْلمَ العبَّاسَ أنَّ الخِلافَةَ تؤولُ إلىٰ وَلَدِه ، فلَمْ يَزَلْ وَلدُه يتوَقَّعون ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يَصِحَّ هـٰذا الخَبرُ ، ولكنَّ آلَ العبَّاسِ ، كانَ النَّاسُ يُحبُّونَهم ، ويُحبُّونَ آلَ عليٍّ ، يَوَدُّونَ أنَّ الأمْرَ يَؤول إليهم ، حُبّاً لآلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وبُغْضاً في آلِ مَرْوانَ بنِ الحَكَم فبَقُوا يَعمَلون علىٰ ذلك زَماناً حتىٰ تَهيَّأت لهم الأسْبابُ ، وأقْبلت دَولتُهم وظَهرَت من خُراسان[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فَرِحْنا بمَصيرِ الأمْرِ إليهِم لكنْ والله ساءَنا ما جَرَىٰ من سُيولِ الدِّماءِ ، والسَّبْي ، والنَّهْب ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعُون ، فالدَّولةَ الظَّالِمَة مع الأمْنِ وحَقْنِ الدِّماءِ ، ولا دَولَة عادِلَة تُنتَهك دُونَها المَحارمُ ، وأنَّىٰ لها العَدلُ ؟ بلْ أتَتْ دَولةٌ أعْجَميَّة ، خُراسانيَّة ، جَبَّارَةٌ ، ما أشْبَهَ اللَّيلَة بالبَارِحَة[3] .

وفي سنةِ ثلاثٍ وثَلاثينَ ومئَة سارَ أبو جَعْفَر المَنْصُور إلىٰ خُراسانَ إلىٰ أبي مُسْلم ، ليَأخُذَ رَأيَه في قَتل أبي سَلمَة ، حَفْصِ بنِ سُلَيْمانَ الخَلاَّل وَزيرَهم وذلكَ أنَّه لَمَّا نزَلَ به السَّفَّاحُ وأقارِبُه ، حدَّثَتهُ نفسُه بأنْ يُبايعَ عَلَوياً ، ويَدعَ هَولاء وشَرعَ يُعمِّي أمْرَهم ، علىٰ

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٢٨/ ٣ .
(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٢٩/ ١ .
(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٢٩/ ٢ .

قُوَّادِ شِيعَتِهم ، فبادَرَ كبارُهم ، وبايَعوا السَّفَّاحَ وأخْرَجُوه ، فخَطَبَ النَّاسَ فما وَسِعَهُ ـ أعْني أبا سَلمَة ـ إلاَّ المُبايَعَة ، فاتَّهَمُوه .

فعنْ أبي جَعْفَر قالَ : انْتَدَبَني أخي السَّفَّاحُ للذَّهابِ إلىٰ أبي مُسْلم ، فسِرتُ علىٰ وَجَل ، فقَدمتُ الريَّ ثم شَرُفْتُ عنها فَرْسَخين ، فلمَّا صارَ بَيني وبَينَ مَرْوَ فَرْسَخين تَلقَّاني أبو مُسْلم في الجُنودِ ، فلمَّا دَنا منِّي تَرجَّل ماشياً ، فقبَّلَ يدي ، ثم نَزلتُ ، فمَكثتُ ثَلاثةَ أيَّام لا يَسْألُني عن شيء ثم سَألَني فأخْبَرتُه ، فقالَ : فَعلَها أبو سَلمَة ؟ أنا أكْفيكُمُوه فدَعا مِرارَ بنَ أنَس الضَّبيَّ ، فقالَ : انْطَلِقْ إلى الكُوفَة ، فاقْتُل أبا سَلمَة حَيثُ لَقيتَه ، قالَ : فقَتلَهُ بعدَ العِشاء ، وكان يُقالُ له : وَزيرُ آلِ مُحمَّد .

ولَمَّا رَأىٰ أبو جَعْفَر عَظمَةَ أبي مُسْلم ، وسَفْكَه للدِّماءِ رَجعَ من عندِه وقالَ للسَّفَّاحِ : لَسْتَ بخَليفَة إنْ أبقَيْتَ أبا مُسْلم قالَ : وكَيفَ ؟ قال : ما يَصْنَعُ إلاَّ ما يُريدُ قالَ : فاسْكُتْ واكْتُمْهَا .

وكانَ أبو جَعْفَر يَقولُ للسَّفَّاحِ : يا أميرَ المؤمنين ، أطِعْني واقْتُلْ أبا مُسْلم فوالله إنَّ في رأسِهِ لغَدْرَة ، فقالَ : يا أخي قد عَرفْتَ بَلاءَه ، وما كانَ منه ، وأبو جَعْفَر يُراجِعُه .

ثم حَجَّ أبو جَعْفَر وأبو مُسْلم ، فلمَّا قَفَلا تلقَّاهما مَوْتُ السَّفَّاح بالجُدَريِّ ، فوَلِيَ الخِلافَةَ أبو جَعْفَر .

وخَرجَ عليه عَمُّه عبدُ الله بنُ عَليّ بالشَّام ، ودَعا إلىٰ نَفسه وأقامَ شُهوداً بأنَّه وَليُّ عَهْدِ السَّفَّاح ، وأنَّه علىٰ ذلك سارَ لحَرْبِ مَرْوانَ وهَزمَه ، واسْتأصَلَه .

فخَلا المَنْصُورُ بأبي مُسْلم وقالَ : إنَّما هو أنا وأنْتَ ، فَسِرْ إلىٰ عبدِ الله عَمِّي ، فسارَ بجُيوشِهِ من الأنْبارِ ، وسَارَ لحَرْبِهِ عبدُ الله فانْهَزَموا وتَركوا الذَّخائرَ والخَزائنَ ، والمُعَسْكَرَ ، فاحْتَوىٰ أبو مُسْلم على الكلِّ وكَتَبَ النَّصْرِ إلى المَنْصور .

واخْتفَىٰ عبدُ الله ، وأرْسلَ المَنصورُ مَوْلاهُ ليُحْصيَ ما حَواهُ أبو مُسْلم ، فغَضِبَ من ذلك أبو مُسْلم ، وهمَّ بقَتْلِ ذَلك المَوْلَىٰ ، وقالَ : إنَّما للخَليفَةِ من هـٰذا الخُمْسُ .

ولَمَّا عَلمَ المَنْصُورُ أنَّ أبا مُسْلم قد تَغيَّر كَتبَ إليه يُلاطِفُه : وأنِّي قد وَلَّيتُك مِصْرَ

والشَّامَ ، فانْزِلْ بالشَّامِ واسْتَنِبْ عنكَ بمِصْرَ ، فلمَّا جاءَه الكتابُ ، أظْهَرَ الغَضبَ وقالَ : يُوَلِّيني هـٰذا وخُراسانُ كلُّها لي ؟! وشَرعَ في المُضِيِّ إلىٰ خُراسَانَ .

فأمَرَ المَنْصورُ مَنْ حَضَرَه من بَني هاشِم يَكتبُونَ إلىٰ أبي مُسْلم يُعظِّمونَ شأنَه ، وأنْ يُتمَّ على الطَّاعَة ، ويُحَسِّنونَ له القُدومَ على المَنْصُورِ .

ثم إنَّ المَنْصورَ سَيَّرَ أُمراءَ لتَلقِّي أبي مُسْلم ، ولا يُظهِرُون أنَّه بَعثَهم ليُطَمْئنَه ، ويَذْكرونَ حُسْنَ نيَّة المَنْصُورِ له ، فلمَّا سَمعَ ذلكَ ، انْخَدَعَ المَغْرورُ وفَرِحَ ، فلمَّا دَخلَ عَليه ، سلَّم عَليه قائماً ، فقالَ : انْصَرفْ يا أبا مُسْلم فاسْتَرِحْ ، وادْخُل الحمَّامَ ثم اغْدُ فانْصَرفَ ، وكان من نيَّةِ المَنْصُورِ أنْ يَقتُلَه تلكَ اللَّيلَة ، فمَنعَه وَزيرُه أبو أيُّوبَ المُورياني .

قال أبو أيُّوب : فقالَ ليَ المَنْصُورُ : دَخلَ عليَّ أبو مُسْلم فعَاتَبتُه ثمَّ شَتمتُه ، وضَربَه عُثمانُ بنُ نَهيك فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، وخَرجَ شَبيبُ بنُ وَاج ، فضَربُوهُ ، فسَقطَ ، فقالَ وهُم يَضرِبُونَه : العَفْوُ ، قُلتُ : يا بنَ اللَّخْناءِ ، العَفْوُ ؟ والسُّيوفُ تَعْتَورُك ؟ وقُلتُ : اذْبَحُوهُ فذَبَحُوهُ .

ثم همَّ المَنْصُورُ بقَتلِ الأمير أبي إسْحاقَ صاحبِ حَرَس أبي مُسْلم وبقَتلِ نَصْرِ بنِ مَالِك الخُزاعيِّ ، فكلَّمَه فيهما أبو الجَهْم ، وقالَ : يا أميرَ المُؤمنينَ إنَّما جُندُه جُندُك ، أمَرْتَهم بطاعَتِه فأطاعُوهُ .

ثم إنَّه أعْطاهُما مالاً جَزيلاً ، وفرَّقَ عَساكرَ أبي مُسْلم وكَتبَ بعَهدٍ للأميرِ أبي دَاوُدَ خالدَ بنِ إبْراهيمَ علىٰ خُراسان ، ثم بَعثَ إلىٰ عِيسَى ابن موسَىٰ وَليِّ العَهْد ، فأعْلَمَه ، وأعْطاهُ الرَّأسَ والمالَ فخَرجَ به ، فألْقاهُ إليهم ونثَرَ الذَّهبَ ، فتَشاغَلوا بأخْذِه .

قُتلَ في سنة سَبعٍ وثَلاثينَ ومئَة .

ولَمَّا قُتلَ ، خَرجَ بخُراسانَ سُنباذُ للطَّلبِ بثَأرِ أبي مُسْلم ، وكانَ سُنباذُ مَجوسياً ، فغلَبَ علىٰ نيسابُورَ والرَّيِّ ، وظَفرَ بخَزائنَ أبي مُسْلم واسْتَفحَلَ أمرُه ، فجَهَّزَ المَنْصُورُ لحَرْبِه جُمهورَ بنَ مَرَّار العجليَّ في عَشرة آلاف ، وكان المَصافُّ بينَ الريِّ وهَمذانَ ،

فانْهَزَمَ سُنْباذُ وقُتلَ من عَسْكرِه نحواً من ستينَ ألفاً ، وعامَّتُهُم كانوا من أهْلِ الجِبالِ ، فسُبِيَتْ ذَراريهِم ، ثم قُتلَ سُنْباذُ بأرضِ طَبَرِسْتان[1] .

عبد الله بن عَليّ :

وجاء في ترجمة عبدِ الله بن عَليٍّ قال الإمامُ الذهبيُّ : ابنُ الحَبْر عبدِ الله بنِ عَبَّاس ، عَمُّ السَّفَّاحِ والمَنْصُورِ ، من رِجالِ العالَمِ ودُهاةِ قُرَيش[2] .

كان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، جَبَّاراً ، عَسُوفاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ وبه قامت الدَّولَةُ العبَّاسيَّة سارَ في أرْبَعينَ ألفاً أو أكْثرَ فالْتَقى الخَليفةَ مَرْوانَ بقُرْبِ المُوصِلِ فهَزمَه ومَزَّقَ جُيوشَه ، ولَجَّ في طَلبِه ، وطَوَى البلادَ حتىٰ نازَلَ دارَ المُلْك دِمَشْقَ ، فحاصَرَها أيّاماً وأخَذَها بالسَّيفِ[3] .

وقَتلَ بها إلى الظُّهْر نَحواً من خَمسينَ ألفَ مُسْلم من الجُنْدِ وغَيرِهم ولَمْ يَرْقُبْ فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة ، ولا رَعَىٰ رَحِماً ، ولا نَسَباً ثم جَهَّزَ في الحالِ أخَاهُ داوُدَ بنَ عليّ في طَلبِ مَرْوانَ ، إلىٰ أنْ أدْرَكَه بقَرْيَة بُوصِيرَ من بلادِ مِصْرَ ، فبيَّتَه ، فقَاتَلَ المِسْكينُ حتّىٰ قُتلَ وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة ، وانْتُهَت الدَّولَةُ الأُمَويَّة[4] .

ولَمَّا ماتَ السَّفَّاحُ ، زَعمَ عبدُ الله أنَّه وَليُّ عَهْدِه ، وبايَعهُ أُمَراءُ الشَّام ، وبُويعَ المَنْصُورُ بالعِراقِ ، ونَدبَ لحَرْبِ عَمِّه صاحِبَ الدَّعْوَة أبا مُسْلم الخُراساني ، فالْتَقَى الجَمْعان بنَصِيبَين ، فاشْتدَّ القِتالُ وقُتلَت الأبْطالُ ، وعَظُمَ الخَطْبُ ، ثم انْهزَمَ عبدُ الله في خَواصِّه ، وقَصَدَ البَصْرَةَ فأخْفاهُ أخُوهُ سُليْمانُ مُدَّة ، ثمَّ ما زَالَ المَنْصُورُ يُلحُّ حتىٰ أسْلَمَه ، فسَجَنه سَنوات ، فيُقالُ : حَفَرَ أسَاسَ الحَبْسِ وأرْسَلَ عليه الماء فوَقعَ علىٰ عبدِ الله في سَنة سَبعٍ وأرْبَعينَ ومِئَة فالأمْرُ لله[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٣٩ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/٦٣٩ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٩ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/٦٣٩ .

دَوْلَة بَني العَبَّاس في العَصْر الأول (عَصْر القُوّة) :

كان أبو جَعْفَر المَنْصُورُ حاكماً علىٰ مَمالِك الإسْلامِ بأسْرِها سِوَىٰ جَزيرَة الأنْدَلُس[1] .

الخِلافَة العَبَّاسِيَّة بمِصْر « المُسْتَنصِر » :

جاءَ في تَرجمَة المُسْتَنْصِر قال الإمامُ الذهبيُّ : الخَليفَةُ الإمامُ أبو القَاسِم أحمَدُ بنُ الظَّاهر بأمْرِ الله أبي نَصْر مُحمدِ بنِ النَّاصِرِ لدينِ الله أحمَد المُسْتَضيءُ الهَاشِميُّ العَبَّاسيُّ البَغْداديُّ أخُو الخَليفَة المُسْتَنْصِرِ بالله مَنْصُورٍ وَاقِفِ المُسْتَنْصِريَّةِ بُويعَ بالخِلافَة أحمَدُ بعدَ خُلوِّ الوَقْت من خَليفَة عَبَّاسيّ ثلاثَ سِنينَ ونِصْفِ سَنَة ، وكانَ هـٰذا مُعْتَقَلاً ببَغْدادَ مع غَيره من أوْلادِ الخُلفاءِ فلمَّا اسْتَولَىٰ هُولاكُو علىٰ بَغْدادَ نَجا هـٰذا وانْضَمَّ إلىٰ عَرَبِ العِراقِ ، فلمَّا سَمعَ بسَلْطَنَة المَلك الظَّاهِر[2] وفَدَ عليه في رَجبَ سَنَةَ تِسْع وخَمسينَ في عَشْرة من آل مهارش فرَكبَ السُّلطانُ للقائِه والقُضاةُ والدَّوْلَة ، وشَقَّ قَصَبَةَ القاهِرَة ، أُثبتَ نَسَبُه على القُضاة وبُويعَ فرَكبَ يومَ الجُمُعَة من القَلعَة في السَّوادِ حتّىٰ أتىٰ جامِعَ القَلعَة فصَعدَ المِنبَرَ وخَطبَ ولَوَّحَ بشَرَفِ آلِ العبَّاسِ ودَعا للسُّلطانِ وللرَّعيَّة وصلَّىٰ بالنَّاسِ .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : وهـٰذا هو الخَليفَةُ الثّامن والثَّلاثُونَ من بَني العَبَّاس ، وبُويعَ بقَلعَةِ الجَبلِ في سَنة تِسْع[3] . وكان أسْمَرَ آدَمَ شُجاعاً ، مَهيباً ، عَاليَ الهِمَّة ورَتَّبَ له السُّلطانُ أتابكاً وأسْتاذ دار ، وشرابياً وخَزْنَداراً وحاجباً وكاتباً ، وعَيَّنَ له خزانَة وعدَّة مَمالكَ ، ومئة فَرَس ، وعَشرَ قَطارات جمال ، وعَشرَ قطارات بِغَال إلىٰ أمثال ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ثم عَزمَ المُسْتَنْصِرُ على التوجُّه إلىٰ بَغْدادَ بإشارَة السُّلطانِ وإعانَتِه .

---

(١) انظر السير : (المنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٧٩ .

(٢) بيبرس البندقداري .

(٣) يعني : وخمسين وستِّ مئة.

وصلَ إلى الحُدَيِّثَة ففتحَها أهلُها له ، فلمَّا اتَّصَل الخَبرُ بمُقدَّم المَغُولِ بالعِراقِ ، وبشحنة بغداد ساروا في خَمسَة آلاف ، وعَسْكَروا بالأنبارِ ونَهَبوا أهْلَها وقَتلُوا ، وسارَ الخَليفَةُ إلىٰ هيت فحاصرَها ، ثم دَخلَها في آخر ذي الحِجَّة ونَهبَ ذِمَّتَها ، ثم نَزلَ الدُّورَ ، وبَعثَ طلائعَه فأتوا الأنْبارَ في ثالث المُحَرَّم سنةَ ستِّين ، فعَبرَت التَّتارُ في اللَّيلِ في المَراكِبِ وفي المَخائضِ ، والْتَقَىٰ من الغَد الجَمْعان ، فانْكَسَر أوَّلا الشحنة ، ووَقعَ مُعظَمُ أصْحابِه في الفُراتِ ، ثم خَرجَ كَمينٌ لهم ، فهَرَبَت الأعْرابُ والتُّرْكُمانُ ، فأحاطَ الكَمينُ بعَسْكَر الخَليفَة ، فحَملَ الخَليفَةُ بهم ، فأفْرَجَ لهم التَّتارُ ، ونَجا جَماعَةٌ ، وقُتلَ عدَّة ، والظَّاهرُ أنَّ الخَليفَةَ قُتلَ .

وبعدَ سَنتين بُويعَ الحاكِمُ بأمْرِ الله أحمَدُ[1] .

٦ـ تكوُّن دَوْلَة بَني أُمَيَّة في الأنْدَلُس :

جاء في تَرجمَة « عبدِ الرَّحْمَـٰن بن مُعاويَة بنِ هِشام » ، قال الإمامُ الذهبيُّ : هو ابنُ عبدِ المَلك بنِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ بنِ أبي العَاصِ ابنِ أُمَيَّة بنِ عَبدِ شَمْسٍ بن عَبدِ مَناف ، أميرُ الأنْدَلُس وسُلطانُها ، أبو المُطَرِّف الأُمَويُّ ، المَرْوانيُّ ، المَشْهُور بالدَّاخلِ ، لأنَّه حينَ انْقَرضَت خِلافَةُ بَني أُمَيَّة من الدُّنْيا ، وقُتلَ مَرْوانُ الحِمارُ ، وقامَت دَولةُ بَني العَبَّاس ، وهَربَ هـٰذا ، فنَجا ودَخلَ إلى الأنْدَلُسِ فتملَّكَها[2] .

وذلك أنَّه فَرَّ من مِصْرَ في آخرِ سَنةِ اثْنَتين وثَلاثينَ إلىٰ أرْضِ بَرْقَة ، فبَقيَ بها خَمسَ سِنين ، ثم دَخلَ المَغْربَ ، فنَفَّذَ مَوْلاهُ بَدْراً يَتجَسَّسُ له ، فقالَ للمُضَريَّة : لَوْ وَجدْتُم رَجلاً من بَيتِ الخِلافَة ، أكُنْتُم تُبايعُونَه ؟ قالوا : كَيفَ لنا بذلك ؟

فقالَ : هـٰذا عبدُ الرَّحْمـٰنِ بنُ مُعاويَة ، فأتَوه فبايَعوه ، فتملَّكَ الأنْدَلُسَ ثَلاثاً وثَلاثينَ سَنةً ، وبَقيَ المُلكُ في عَقِبه إلىٰ سَنةِ أرْبَع مئة ولَمْ يَتلقَّب بالخِلافَة ، لا هو ولا أكْثرُ ذُرِّيتِه ، إنَّما كان يُقالُ : الأميرُ فُلان .

---

(١) انظر السير : (المُسْتَنْصِرُ) ٢٣/١٦٨ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ١٧٢١/ الْمُسْتَنْصِر .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن مُعاويَة بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٤٨ .

وأوّلُ مَنْ تلقَّبَ بأميرِ المُؤمنين منهُم : النَّاصرُ لدينِ الله ، في حُدود العِشْرينَ وثَلاثِ مِئَة ، عندَما بَلغَه ضَعفُ خُلفاءِ العَصْر ، فقالَ : أنا أوْلَىٰ بإمْرَةِ المؤمنين .

دَخلَ عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ مُعاويَة الأنْدَلُسَ في سَنة ثَمانٍ وثَلاثين ومَوْلِدُه بأرْضِ تَدْمُر سَنةَ ثَلاث عَشْرة ومئَة ، في خِلافَة جَدِّه[١] .

ولَمَّا صَفا الأمرُ لعَبدِ الرَّحْمَـٰن بعدَ مَقْتلِ عُثْمانَ بن حَمْزَة ، من وَلدِ عُمرَ بنِ الخَطَّاب ، ذلكَ بعدَ سَبعَةِ أعْوامٍ من تَمَنُّعِه بطُلَيْطِلَة ، عَظُمَ سُلطانُه ، وامْتدَّتْ أيَّامُه وعاشَ ستِّينَ سَنةً ، ثم تُوفِّيَ سَنةَ اثنتين وسَبعينَ ومِئَة ، وأيْسَت بَنُو العَبَّاس من مَمْلَكَةِ الأنْدَلُسِ لبُعْدِ الشُّقَّة[٢] .

٧ـ الدَوْلَة الزِّياديَّة في اليَمَن :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَة « ابنِ زياد » مُتوَلِّي اليَمَن : الأميرُ ابنُ عبدِ الله بنِ زِياد .

غَلبَ على اليَمَن ، وحَارَبَ وتَمكَّنَ في أيَّامِ المَأمُونِ ، واخْتطَّ مَدينَةَ زَبيد في سَنة أرْبَع ومِئَتين نفَّذَ إلى المَأمُونِ بتُحَفٍ ، فأمَدَّه بجَيشٍ وعَظُمَ أمْرُه ، ودَامَتْ دَولتُه إلىٰ أنْ ماتَ سَنةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ ومِئَتَين .

فقامَ بعدَه ابنُه إبْراهيمُ ، فوَلِيَ اليَمنَ مُدَّة أرْبَع وأرْبَعينَ سَنةً ثمَّ ماتَ وتَملَّكَ بعدَه وَلدُه زِياد ثم إسْحاق ودامَت دَولتُهم إلىٰ بَعدِ الأرْبَع مئة ، ثم صارَت في مَواليهِم مُدَّة إلىٰ أنْ ظَهرَ الصُلَيْحيُّ[٣] .

من أخْبار أُمراء اليَمَن :

(أ) الصُلَيْحيّ :

جاءَ في تَرجَمَةِ صاحبِ اليَمَنِ الصُّلَيْحيُّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : صاحبُ اليَمَن ،

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن مُعاويَة بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/٧٤٨ .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمَـٰن بن مُعاويَة بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٤٨ .

(٣) انظر السير : (ابنُ زِياد) ١١/ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٩ .

وكان أبوه من قُضاةِ اليَمَن ، وهو المَلكُ أبو الحَسَن عَليٌّ ابنُ القاضي مُحمَّدُ بنُ عَليّ[1] .

دَارَ به دَاعي البَاطِنيّة عَامِرُ الزَّواخيُّ[2] حتىٰ أجابَه وهو حَدَثٌ ، فتَفَرَّسَ به عَامِرٌ النَّجابَةَ ، وشَوَّقه ، وأسَرَّ إليهِ أمُوراً ثم لَمْ يَنْشَبْ عَامِرٌ أنْ هَلَكَ ، فأَوْصَىٰ بكُتُبهِ لعَليٍّ ، فعكَفَ على الدَّرْسِ والمُطالَعَةِ ، وفَقُهَ وتَميَّزَ في رَأي العُبَيْديَّة ، ومَهَرَ في تَأويلاتِهم ، وقَلْبِهم للحَقائق .

ثم صَارَ يَحُجُّ بالنَّاسِ علىٰ طريقِ السَّراةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنةً ، وكان النَّاسُ يَقولُونَ له : سَتَملكُ اليَمنَ بأسْرهِ فيُنْكِرُ على القَائلِ ، فلمَّا كان في سَنةِ تِسْعٍ وعِشْرينَ وأرْبعِ مِئَة ، ثَارَ بجَبلِ مَسَار في سِتينَ رَجُلاً فأَوَوا إلىٰ ذِرْوَةٍ شَاهِقٍ ، فما أمسوا حتىٰ أحاطَ بهم عِشْرُونَ ألفاً وقالوا : انْزِلْ وإلاَّ قَتَلناكُم جُوعاً وعَطَشاً ، قال : ما فَعَلتُ هـٰذا إلاَّ خَوفاً أنْ يَملِكَه غيرُنا ، وإنْ تَرَكْتُمونا نَحْرُسُه ، وإلاَّ نَزَلْنا إلَيكُم ، وخَدَعَهُم ، فانْصَرَفُوا فَلَمْ يَمْضِ عليهِ أشْهرٌ حتىٰ بَنَاهُ وحَصَّنَه ، ولَحِقَ به كلُّ طَمَّاع وذِي جَلادَةٍ ، وكَثُرُوا فاسْتَفْحَلَ أمرُه وأظْهَرَ الدَّعْوَةَ لصاحِبِ مِصْرَ المُسْتَنْصِر ، وكان يَخافُ من نَجَاحٍ صاحب تِهَامَة ، ويُلاطِفُه ويَتَحَيَّل عليه ، حتىٰ سَقاهُ مع جَارِيَةٍ مَليحَةٍ أهْداها له ، واسْتَولَىٰ على المَمَالِكِ اليَمَنيَّة في سَنة خَمسٍ وخَمسينَ وأرْبعِ مِئَة ، وخَطَبَ علىٰ مِنبَرِ الجَنَد[3] ، فقالَ : وفي مثل هـٰذا اليَوم نَخْطُبُ علىٰ مِنْبَرِ عَدَنْ ، فقال رجلٌ : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، يَسْتَهْزِىءُ بقَولِه ، فأمَرَ بأَخْذه فاتَّفَقَ أنَّه أخَذَ عَدَنَ ، وخَطَبَ ، وصَيَّرها دَارَ مُلْكِه ، وأنْشَأ عِدَّةَ قُصُورٍ أنيقَة ، وأَسَرَ مُلوكاً ، وامْتَدَّتْ أيّامُه ثمَّ حَجَّ ، وأحْسَنَ إلىٰ أهْلِ مَكَّة .

وكان أشْقَرَ أزْرَقَ ، يُسَلِّمُ علىٰ مَنْ مَرَّ عليهم ، وكان ذا ذَكاءٍ ودَهاءٍ ، كَسَا الكَعْبَةَ البَيَاضَ ، وخُطِبَ لزَوْجَتِه أيضاً معه على المَنابِر ، ثم إنَّه حَجَّ في سَنةِ ثَلاثٍ وسَبعينَ

---

(١) انظر السير : (الصُّلَيحيُّ) ١٨/٣٥٩ـ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢١ .

(٢) قرية باليمن وإليها يُنسب عامر بن عبد الله الزواخي صاحب الدعوة عن الصُّليحيّ .

(٣) مدينة باليمن بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً .

واسْتَخْلفَ على اليَمَنِ ابنَهُ أحمَدَ المَلِكَ المُكَرَّم فلمَّا نَزَلَ بالمَهْجَم[1] ، وَثَبَ عليه جَيَّاشُ بنُ نَجَاح وأخُوهُ سَعيدُ الأحْوَل ، فقَتَلاهُ بأبيهِما ، والتَفَّ أكْثَرُ العَسْكَرِ على ابنِ نَجاحٍ وتَمَلَّك .

ودام مُلكُ ولَدِه المُكَرَّم علىٰ شَطْرِ اليَمَن مُدّة ، وحارَبَ ابنَ نَجاح غَيرَ مرّة إلىٰ أنْ ماتَ سَنةَ أربَعٍ وثَمانينَ فتَمَلَّك بعدَه ابنُ عمِّه سَبأ بنُ أحمَد إلىٰ سَنةِ خَمسٍ وتِسْعين ، وصارَ المُلكُ إلىٰ آل نَجاحٍ مُدّة[2] .

(ب) عَليُّ بنُ مَهدي :

جاءَ في تَرجَمَة عليِّ بنِ مَهْديّ ، قالَ الذهبيُّ : كانَ أبُوهُ من قَريةٍ بزَبيد من الصُّلَحاءِ ، فنَشَأ عليٌّ في تزَهُّد ، وحَجَّ ولَقِيَ العُلماءَ وحَصَّلَ ، ثمّ وَعَظَ ، وذَمَّ الجُندَ .

وكانَ فَصيحاً صَبيحاً طَويلاً ، أخْضَرَ اللَّونِ ، طَيِّبَ الصَّوتِ ، غَزيرَ المَحْفوظِ ، مُتَصَوِّفاً ، خَبيثَ السَريرَة ، دَاهيةً ، يَتكلَّمُ على الخَواطِرِ فرَبَطَ الخَلقَ ، وكانَ يَعِظُ ويَنْتَحِبُ .

قال عُمارَةُ اليَمَنيُّ : لازَمْتُه سَنةً ، وتَرَكتُ التَّفَقُّهَ ، ونَسَكْتُ فأعادَني أبي إلى المَدرسَةِ ، فكُنتُ أزُورُه في الشَّهرِ ، فلمَّا اسْتَفْحَلَ أمْرُهُ تَرَكتُه .

ولَمْ يَزَلْ من سَنةِ خَمسمائة وثلاثين يَعِظُ ويُخَوِّفُ في القُرىٰ ، ويَحُجُّ علىٰ نَجيب ، وأطْلَقَتْ له السَّيدَةُ أمُّ فاتِك ولأقارِبِه خَراجَ أمْلاكِهم ، فتَمَوَّلُوا إلىٰ أنْ صارَ جَمْعُهُ نَحوَ أرْبَعينَ ألفَ مُقاتِل ، وحارَبَ ، وكان يَقُولُ : دَنا الوَقتُ ، أزِفَ الأمْرُ ، كأنَّكُم بما أقُولُ لكُم عَياناً ، ثُمّ ثارَ ببلادِ خَولان ، وعاثَ وسَبَىٰ ، وأَهْلَكَ النَّاسَ ، ثُمّ لَقيتُه عند الدَّاعي بجبْلة سَنةَ تسْعٍ وأرْبَعينَ يَسْتَنجِدُ به ، فأبَىٰ ، ثُمّ دبَّرَ علىٰ قَتلِ وَزيرِ آلِ فاتِك ، ثُمّ زَحَفَ إلىٰ زَبيد ، فقاتَلَه أهْلُها نيِّفاً وسَبعينَ زَحْفاً ، وقُتِلَ خَلائِقُ من الفَريقَينِ ، ثُمّ قُتِلَ فاتِكُ مُتَوَلِّي زَبيد ، وأخَذَها ابنُ مَهْديّ في رَجبَ سَنةَ أرْبعٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، فمَا

---

(١) بلد من أعمال زبيد باليمن .

(٢) انظر السير : (الصُّلَيحيُّ) ١٨/ ٣٥٩ـ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢١ .

مُتِّع ، وهَلَكَ بعدَ ثَلاثةِ أشْهُر ، وقامَ بعدَه ابنُه عبدُ النَّبيِّ ، وعَظُمَ ، حتّى اسْتَولَىٰ علىٰ سائِرِ اليَمَنِ ، وجَمَعَ أمْوالاً لا تُحْصَىٰ ، وكانَ ـ أَعْنِي الأبَ ـ يَرَى التَّكْفيرَ بالمَعَاصي ، ويَسْتحِلُّ وَطْءَ سَبايا مَنْ خالَفَه ، ويَعْتَقِدُ فيه قَومُهُ فَوقَ اعْتِقادِ الخَلْقِ في نَبيِّهم .

قال : وحُكِيَ لي عَنهُ أنَّهُ لَمْ يَثِقْ بيَمينِ مَنْ يَصْحَبُه حتّىٰ يَذْبَحَ وَلدَهُ أوْ أخاهُ ، وكانَ يَقتُلُ بالتَّعذيبِ في الشَّمسِ ، ولا يَشْفَعُ أحَدٌ عِندَه ، ولَيسَ لأحَدٍ من عَسْكَرِه فَرَسٌ يَمْلِكُه ولا سِلاحٌ ، بَلْ الكُلُّ عِندَهُ إلىٰ وَقتِ الحَربِ ، والمُنْهَزِمُ منهُم يُقْتَلُ جَزْماً ، والسَّكْرانُ يُقْتَلُ ، ومَنْ زَنَىٰ أوْ سَمِعَ غِناءً يُقتَلُ ، ومَنْ تَأخَّرَ عن صَلاةِ الجَماعَةِ قُتِلَ[1] .

(ج) عبدُ النَّبيّ (ابنُ المَهْدي عَليُّ بنُ مَهْدي) :

جاء في ترجمة « عبد النبيِّ » ، قال الذهبيُّ : هو ابنُ المَهديِّ عليِّ ابنِ مَهْدي ، كان أبوهُ قد وعظَ ، واشتغلَ ، ودعا إلىٰ نفسه ، وجرت له أمور وغلبَ على اليمنِ ، وعسَفَ وظلمَ ، وفَجَرَ ، وشقَّق بُطونَ الحبالىٰ ، وتمرَّدَ على الله ، وكان من دُعاة الباطنية فقَصَمَه الله سنةَ نيِّفَ وخمسينَ .

فقام بعده عبدُ النبيِّ هـٰذا ، ففعل كأبيه ، وسَبى الحريم ، وتَزَنْدقَ وبنىٰ علىٰ قبرِ أبيه المَهْديِّ قُبَّةً عظيمة ، وزَخرَفَها ، وعمل أستارَ الحَرير عليها ، وقَناديل الذَّهب ، وأمرَ الناسَ بالحجِّ إليها ، وأن يَحملَ كلُّ أحدٍ إليها مالاً ، ولمْ يَدَعْ أحدٌ زيارتها إلاَّ وقتله ، ومَنعَهم من حَجِّ بيتِ الله ، فتجمَّع بها أموالٌ لا تُحصَىٰ ، وانْهَمكَ في الفَواحِشِ إلىٰ أنْ أخَذَه الله ُعلىٰ يَدِ شَمسِ الدَّولَة ، أخي السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين ، عذَّبَهُ ، ثم قتلَه ، وأخذ خزائنَه ، فللَّه الحَمدُ علىٰ مَصْرع هـٰذا الزِّنْديق ، وكان ذلك في قُرب سَنة سَبعين وخَمسِ مئة ، فإنَّ مُضيَّ شَمسِ الدولة تُوران شاه إلى اليَمَن وأخْذِها كان في سَنةِ تسْع وستين ، فأسرَ هـٰذا المُجْرمَ وشَنَقَه وتملَّكَ زَبيدَ وعَدَنَ وصَنْعاءَ ولعبدِ النبيِّ أخْبارٌ في الجَبَروتِ والعُتُوِّ ، فلا رَحمَه الله[2] .

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن مَهْدي) ٢٠/ ٣٢١ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٥٥ .

(٢) انظر السير : (عبد النبيّ) ٢٠/ ٥٨٢ـ ٥٨٣ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٦ .

٨ـ الدَوْلَة الصّفاريّة :

الصَّفَّار :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « الصَفَّار » : الملك ، أبو يوسُف ، يعَقوبُ ابنُ اللَّيث ، السِّجسْتاني ، المستولي علىٰ خُراسان[١] .

قيلَ : كان هو وأخُوهُ عَمرو بنُ الليث يَعمَلان في النُّحاس ، فتزَهَّدا وجاهَدا مع صالح المُطَّوعي المحارب للخَوارج .

قال ابنُ الأثير : غَلَبَ صالحٌ علىٰ سِجِسْتان ، ثم استنقَذَها منه طاهرُ ابنُ عبد الله بنِ طاهِر ، فظَهرَ بها دِرْهَمُ بنُ حُسَين المُطَوِّعي ، فاسْتولىٰ أيضاً عليها ، وجَعلَ يَعقوبَ بنَ اللَّيث قائدَ عَسْكَره ، ثم رأىٰ أصْحابُ دِرْهَم عَجْزَه ، فمَلَّكُوا يَعقُوبَ لحُسْن سِياسَتِه ، فاذْعَنَ لهم دِرْهَمٌ واشْتهرت صَوْلةُ يَعقوبَ وغَلبَه علىٰ هراة وبُوشَنْج ، وحارَب التُّرْكَ ، وظَفرَ برُتْبيل ، فقَتلَه وقَتلَ ثلاثة مُلوك ورَجعَ معه أُلُوفٌ من الرُّؤوس ، فهابَتْه المُلوكُ ، وكان بوجْهه ضَرْبَةُ سَيف مُخَيَّطة .

وكان يَحملُ إلى المعْتمدِ في العامِ خَمسَةَ آلافِ ألفِ دِرْهَم ، وقَنعَ المعتمدُ بمُداراتِه .

ثم أخَذَ بَلْخَ ونيسابُورَ ، وأسَرَ مُتولِّيها ابنَ طاهر في ستِّينَ نَفْساً من آله ، وقَصَد جُرْجانَ ، فهَزم المُتغلِّبَ عليها الحَسَنَ بنَ زَيْد العَلوي ، وغَنمَ منه ثلاثَ مئة حِمل مال ثم دَخلَ جُرْجانَ ، فظَلمَ وعَسفَ ، فجاءَت زَلْزَلَةٌ قَتلَت من جُندِه ألفَين .

واستغاثَ جَماعةٌ جُرْجانيُّونَ ببَغْدادَ من يَعْقوبَ ، فعَزمَ المُعتمدُ علىٰ حَرْبه ونفَّذَ كُتباً إلىٰ أعْيانِ خُراسَانَ بذَمِّ يَعقُوبَ ، وبأنْ يَهْتمُّوا لاسْتئصالِه فكاتَبَ المُعتمدَ يَخْضَعُ ويُراوِغُ ، ويطلبُ التَّقليدَ بتَوليه المشرقَ ، ففَعَلَ المُعتمدُ ذاكَ وأخُوهُ المُوَفَّقُ لاشْتغالِهم بحَرْبِ الزِّنج .

---

(١) انظر السير : (الصَّفار) ١٢/٥١٣ـ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٦ .

وأقبلَ يَعقوبُ ليَملكَ العراقَ ، وبَرزَ المُعتمدُ ، فالْتَقَى الجَمْعان بديرِ العَاقُول[1] ، وكَثُرت القَتلىٰ ، فانْهزَمَ يَعقوبُ ، وجُرحَ أُمراؤُه ، وذَهبَت خَزائنُه ، وغَرقَ منهم خَلقٌ في نَهْر .

وكان المَصافُّ في رَجبَ سَنة ٢٦٢هـ فذَهبَ يَعقوبُ إلىٰ وَاسِط ، ثم إلىٰ تُسْتَر فأخَذَها ، وتراجَعَ جَيشُه ، وعَظُمَت وَطأتُه ، وكادَ أنْ يَملكَ الدُّنيا ، ثم كانَ مَوتُه بالقُولَنج ، ووُصِفَت له حُقْنَة ، فأبَىٰ ، وتَلِفَ بعد أسبوعين .

وقَلَّ أن رُئي متبسِّماً ، مات بجنديسابور في سنة خمس وستين ومئتين[2] .

عَمرُو بنُ اللَّيْثِ الصفَّار .

قيل : كان ضرَّاباً في الصُّفْر ، وقيل : بل مكاريَّ حَمير ، فآل به الحال إلى السلطنة .

تَملَّكَ بعدَ أخيه ، وأحْسَنَ السِّياسَة ، وعَدل ، وعَظُمَت دُوَلُه ، وأطَاعَ الخَليفَةَ .

وقيلَ : كان في خدمَة زَوجتِه ألفٌ وسَبعِ مئة جارِيَة .

ثم بَغَىٰ عَمرٌو علىٰ وَالي سَمَرْقَند إسْماعيلَ بنِ أحمَد بنِ أسَد .

وأقْبلَ إسْماعيلُ ، فأخَذَ أصحابُ عَمرو بنِ اللَّيث في الهَزيمَة ، فرَكبَت عَساكرُ إسْماعيلَ ظُهورَهم ، وتَوحَّلت بعَمرو دابَّتُه ، فأُسِر ، فأُتي به إسْماعيلُ ، فاعْتَنقَه وخَدمَه ، وقالَ : ما أحْببَتُ أنْ يَجْري هـٰذا ، ثمَّ بالَغَ في احْترامِه ، فقالَ : احْلِفْ لي ولا تُسْلمني ، فحَلفَ له ، لكن جاءَ رسُولُ المُعْتضِدِ بالخَلْع والتَّقْليدِ لإسْماعيلَ ، ويَطلبُ عَمراً فأُدْخِل بَغدادَ علىٰ بُخْتيٍّ عليه جُبَّةُ ديباج ، وبُرنُس السُّخْط ثم قالَ له المُعْتضِدُ : هـٰذا بَيْعَتُك يا عَمرو! ثم اعْتَقلَه ، فقتَلَه القاسمُ بنُ عُبَيد الله الوَزيرُ يومَ مَوْت المُعْتضِد سَنَةَ تسعٍ وثَمانينَ ومِئتَين وكان دَولتُه نيِّفاً وعشرينَ سَنة[3] .

---

(١) وهو بين مدائن كسرىٰ والنعمانية ، علىٰ شاطىء دجلة .

(٢) انظر السير : (الصَّفار) ١٢/٥١٣ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٦ .

(٣) انظر السير : (عَمرو بن اللَّيْث الصَّفار) ١٢/ ٥١٦ـ ٥١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٧ .

حَكَى القُشَيْرِيُّ أَنَّ عَمرو بنَ اللَّيث رُئي ، فقيلَ : ما فَعلَ اللهُ بك ؟ قالَ : أَشْرَفْتُ يوماً من جَبلٍ علىٰ جُيوشي ، فأَعْجَبَتْني كَثرَتُهم ، فتَمَنَّيتُ أَنَّني كُنتُ حَضرْتُ مع رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فنَصَرتُه وأَعَنْتُه ، فشَكرَ اللهُ لي ، وغَفَرَ لي[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَضِد باللهِ قالَ الذهبيُّ : ولمَّا قُتِلَ المُتوَكِّلُ غِيلَةً ، ثم قُتلَ المُعْتَزُّ ، ثُمّ المُسْتَعينُ والمُهْتَدي وضَعُفَ شَأنُ الخِلافَةِ تَوَثَّبَ ابْنا الصَّفَّارِ إلىٰ أَنْ أَخَذَا خُراسَانَ بعدَ أَنْ كانا يَعْمَلانِ النُّحاسَ ، وأَقْبَلا لأَخْذِ العِراقِ وقَلْعِ المُعْتَمِد .

وتَوَثَّبَ طُرُقِيٌّ داهيةٌ بالزِّنج على البَصْرَة ، وأَبادَ العِباد ومزَّقَ الجُيوشَ ، وحارَبوه بِضْعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ أَنْ قُتلَ وكان مارِقاً ، بلغَ جُنْدُه مئة أَلف[2] .

وجاء في ترجَمَةِ أَبي عَمرِو الخَفَّاف ، قال الحاكِمُ : سَمعتُ محمّدَ ابنَ المُؤَمَّل بنَ الحَسَن الماسَرْجسيَّ ، سَمعتُ أَبا عَمرِو الخَفَّاف يقولُ : كان عَمرُو بنُ اللَّيْثِ الصَّفَّار ـ يَعْني السُّلطانَ ـ يَقولُ لي : يا عَمُّ! مَتَىٰ عَلِمْتَ شَيئاً لا يُوافِقُكَ فاضْرِبْ رَقَبَتي ، إلىٰ أَنْ أَرْجِعَ إلىٰ هَواكَ[3] .

قال الإمام الذهبي : كذا فليَكُنْ السُّلطانُ مع الشَّيخِ ، وقد كان عَمرُو بنُ اللَّيث صانعاً في الصُّفر فتنَقَّلت به الأَحْوالُ الىٰ أَنْ تَملَّك خُراسَان وتَملَّك بعدَه أَخُوهُ يَعقوبُ ، فانْظُر في تاريخ الإسْلام تَسْمَعْ العَجَبَ من سيرتهِما .

وكان الرئيسُ أبو عَمرِو عَظيمَ القَدْرِ ، سَيِّداً مُطاعاً ببَلَدِه ، نالَ رئاسَةَ الدِّينِ والدُّنْيا ، وكانوا يُلقِّبُونَه بزَينِ الأَشْرَف .

وكانت وَفاتُه سنةَ تسْعٍ وتسْعينَ ومِئتين ، من أَبْناء الثّمانين[4] .

---

(١) انظر السير : (عَمرو بن اللَّيْث الصَّفار) ١٢/٥١٦ـ٥١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٨ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَضدُ بالله) ١٣/٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٦ .

(٣) انظر السير : (أبو عَمرِو الخَفَّاف) ١٣/٥٦٠ـ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١١١٧ .

(٤) انظر السير : (أبو عَمرِو الخَفَّاف) ١٣/٥٦٠ـ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٧ .

٩ـ الدَوْلَة الطُّولُونيّة :

أحمدُ بنُ طُولُون :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَته : التُّرْكيُّ ، صاحبُ مِصْرَ أبو العَبَّاس .

وُلدَ بسامَرَّاء ، وقيلَ : بلْ تَبنَّاه الأميرُ طُولونُ وطُولونُ قدَّمَه صاحبُ ما وَراء النَّهْر إلى المأمون ، في عِدَّة مَماليك ، سنة مئتين فعاشَ طُولونُ إلىٰ سَنة أربَعين ومئتَين ، فأجادَ ابنُه أحمدُ حِفْظَ القُرآنِ ، وطلبَ العِلمَ ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ ، وتأمَّرَ ووَليَ ثُغورَ الشَّام ، ثم إمْرَةَ دِمَشْق ، ثم وَلي الدِّيارَ المِصْريَّة في سَنة أربَع وخَمسين ، ولَه إذْ ذاكَ أربَعون سنة .

وكان بَطلاً شُجاعاً ، مِقْداماً ، مَهيباً ، سائساً ، جَواداً ، مُمَدَّحاً من دُهاة الملوك[١] .

قيل : كانت مُؤنتُه في اليوم ألفَ دينار ، وكان يَرجعُ إلىٰ عَدْل وبَذْل لكنَّه جبَّارٌ ، سَفَّاكٌ للدِّماء[٢] .

قال القُضاعيُّ : أُحْصيَ مَنْ قَتَله صَبْراً ، أو ماتَ في سِجْنه ، فبَلغوا ثَمانيةَ عشرَ ألفاً .

وأنْشأ بظَاهر مِصْرَ جَامعاً ، غَرِمَ عليه مئةَ ألفِ دينار ، وكان جَيِّد الإسْلام مُعَظِّماً للشَّعائر[٣] .

عن مُحمَّد بنِ عليٍّ المادَرائي قالَ : كُنتُ أجْتازُ بقَبْر ابنِ طُولونَ فأرَىٰ شَيخاً مُلازماً له ، ثمَّ لمْ أرَه مُدَّة ، ثم رَأيتُه فسَألتُه ، فقالَ : كان له عليَّ أيادٍ ، فأحْبَبتُ أنْ أصِلَه بالتِّلاوَة قالَ : فرَأيتُه في النَّومِ يقولُ : أحبُّ أنْ لا تَقرأَ عندي ، فما تَمرُّ بي آية إلاَّ قُرِّعْتُ بها ، ويُقالُ لي : أما سَمعتَ هـٰذه ؟

---

(١) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ أحمد بن طُولون .

(٢) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/١ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/٢ .

تُوفِّي أحمدُ بمِصْرَ سَنةَ سَبعينَ ومِئتَين .

وقامَ بعدَه ابنُه خُمارَوَيْه ، ثمَّ جَيْشُ بنُ خُمارَوَيْه ، ثم أخُوهُ هارُون[1] .

وفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين قَتلَ خُمارَوَيْه صاحبَ مِصْر والشَّام غِلْمانُه ، لأنَّه راوَدَهم ، ثم أُخِذُوا ، وصُلِبوا ، وتَملَّك ابنُه جَيْش ، فقَتلُوه بعد يَسير ، ومَلَّكوا أخاه هارُون ، وقَرَّر علىٰ نفسه أنْ يَحمِلَ إلى المُعْتَضِد في العام ألفَ دينار ، وخَمسَ مئةِ ألفِ دينار .

وفي سنة ثلاث وثمانين ومئتين : سار المُعْتَضِدُ إلى المُوصِل ، لأجل هارون الشَّاري ، وكان قد عاثَ وأفْسَدَ ، وامتدَّت أيامُه ، فقالَ الحُسَينُ ابنُ حمدان للمعتضد : إنْ جئتُكَ به فليَ ثلاثُ حَوائج قال : سَمِّها قالَ : تُطْلِق أبي ، والحاجَتان أذْكُرهُما إذا أتيتُ به قال : لكَ ذلك ، قال : وأريدُ أنْ أنْتقيَ ثَلاثَ مِئةِ بَطَلٍ قالَ : نَعَم ثم خَرَجَ الحُسَينُ في طلَب هارون ، فضايَقَه في مَخاضَة ، والْتَقوا ، فانْهَزَمَ أصْحابُ هارُون ، واخْتفَىٰ هو ، ثم دَلَّ عليه أعْرابٌ ، فأسَرَه الحُسَينُ وقَدمَ به ، وخَلعَ المُعْتَضِدُ على الحُسَينِ ، وطوَّقَه وسَوَّرَه ، وعُملَت الزِّينَةُ ، وأُرْكِبَ هارُونُ فيلاً ، وازْدَحمَ الخَلقُ ، حتىٰ سَقطَ كُرسيُّ جِسْرِ بَغْدادَ ، وغَرقَ خَلقٌ[2] .

١٠ـ دَوْلَة ابن الأغْلب :

ابن الأغلب :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : صاحبُ المَغْرب ، أبو إسْحاقَ إبرهيمُ ابنُ أحمد بنُ الأغْلب التَّميميُّ الأغْلبيُّ القَيْروانيُّ ، ابنُ أُمَراء القَيْروَان .

وَليَ سَنةَ إحْدَىٰ وستِّين ومئتَين[3] .

(١) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥٦ .
(٢) انظر السير : (المُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٠٧ .
(٣) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٠ .

وكان مَلكاً حازِماً صارِماً مَهيباً ، كانت التجَّارُ تَسيرُ في الأمْنِ من مِصْرَ إلىٰ سَبْتة ، لا تُعارَض ، ولا تُرَوَّع .

ابْتَنى الحُصونَ والمَحارسَ ، بحيثُ كانت تُوقَدُ النَّارُ ، فتَتَّصلُ في ليلة إذا حَدثَ أمرٌ من سَبْتَة إلى الإسْكَنْدَريَّة ، بحيثُ إنَّه يُقالُ : قد أنْشىءَ في البلاد من بنائِه وبناءِ آبائِه ثَلاثُونَ ألفَ مَعْقِل ، وهو الذي مَصَّرَ مَدينَةَ سُوسَة[1] .

وقد دُوِّنَت أيَّامُه وعَدلُه وجُودُه ، وكان سَديدَ السِّيرَة ، شَهْماً ، ظَفرَ بامْرأةٍ مُتعَبِّدَةٍ قادَتْ قودَة ، فدَفَنَها حيَّةً ، وشَنقَ سَبعةَ أجْنادٍ أخَذوا لتاجر ثَلاثةَ آلاف دينار ، بعدَ أنْ قرَّرَهم ، وأخَذَ الذَّهبَ لمْ يَنقُصْ سِوَىٰ سَبعَةَ دَنانير ، فوَزَنَها من عنده[2] .

وقيلَ : جاءَه رجلٌ ، فقالَ : قد عَشِقتُ جاريَةً ، وثَمنُها خَمسونَ ديناراً ، وما مَعي إلاَّ ثلاثون فوَهَبَه مئةَ دينار ، فسَمعَ به آخَرُ ، فجاءَه وقال : إنِّي عاشقٌ قال : فما تَجدُ ؟ قال : لَهيباً قال : اغْمِسُوهُ في الماء ، فغَمَسوهُ مَرَّات ، وهو يَصيحُ : ذَهبَ العِشْقُ فضَحكَ ، وأمَرَ له بثَلاثينَ ديناراً .

ثم إنَّه تَسَوْدَنَ ، وقَتلَ إخْوتَه ، ثم عُوفِيَ ، وتابَ ، وتَصدَّق .

ثم ظَهرَ عليه الشِّيعيُّ داعي عُبَيدِ الله المَهْدي ، وحارَبه ، وجَرَتْ أمُورٌ طويلة ، بَعضُها في « تاريخ الإسلام »[3] .

تُوُفِّيَ غَازِياً بصِقِلِّيَة سَنةَ تِسْعٍ وثَمانِينَ ومِئَتَين ، وتَمَلَّك ابنُه عبدُ الله ، فكان دَيِّناً ، عَالِماً ، بَطَلاً ، شُجَاعَاً ، شَاعِراً ، فقتَلَه غِلْمَانُه غِيلةً بعدَ عامٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١١١٠/ ٣ .
(٢) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١١١٠/ ٤ .
(٣) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١١١١/ ١ .
(٤) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١١١١/ ٢ .

١١ـ الدَّوْلَة الفَاطِميَّة :

(أ) الدَّوْلَة العُبَيْدِيَّة الفاطِميَّة الفاسِدة العَقيدَة والنَّسَب والعَمل :

الشِّيعِيّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجمته : الدَّاعي الخَبيثُ ، أبو عبد الله ، الحُسَينُ بنُ أحمَد بنِ محمَّد الصَّنْعاني ، من دُهاة الرِّجال الخَبيرينَ بالجَدَل ، والحِيَل وإغْواءِ بَني آدَم .

قامَ بالدَّعْوَة العُبَيْدِيَّة ، وحَجَّ ، وصَحِبَ قَوماً من كُتامة[١] ، ورَبَطَهم وتَألَّه وتَزهَّدَ وشَوَّقَ إلىٰ إمامِ الوَقْت ، فاسْتجابَ له خَلقٌ من البَرْبَرِ ، وعَسْكَرَ وحارَب أميرَ المَغْرِب ابنَ الأغْلب ، وهَزمَه غَيرَ مَرَّة ، وإلىٰ أنْ جاءَ عُبَيْدُ الله المَهْدي فتَسلَّم المُلكَ ، ولَمْ يَجْعَل لهـٰذا الدَّاعي ولا لأخيه أبي العَبَّاس كَبيرَ وِلايَة ، فغَضِبَا ، وأفْسَدا عليه القُلوبَ وحارَباه ، وجَرَت أمُورٌ إلىٰ أنْ ظَفرَ بهما المَهْديُّ فقَتلَهما في ساعة ، سَنةَ ثَمانٍ وتسعينَ ومئتَين[٢] .

المَهْدي وذُرِّيَّته :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المَهْديِّ : عُبَيْدُ الله أبو مُحمّد ، أوَّلُ مَنْ قامَ من الخُلَفَاءِ الخَوارِجِ العُبَيْدِيَّة الباطِنيَّة الذين قَلَبوا الإسْلامَ ، وأَعْلَنوا بالرَّفْضِ ، وأبْطَنُوا مَذْهَبَ الإسْماعِيليَّةِ ، وبَثُّوا الدُّعاةَ ، يَسْتَغْوونَ الجَبَليَّةَ والجَهلَةَ .

وادَّعَىٰ هـٰذا المُدَبَّرُ ، أنَّه فاطِميٌّ من ذُرِّيَّةِ جَعْفَرٍ الصَّادِق .

وقِيلَ : كانَ أبُوهُ يَهُودِيّاً[٣] .

والمُحَقِّقُونَ علىٰ أنَّه دَعِيٌّ بحَيثُ إنَّ المُعِزَّ منهُم لمَّا سَأَلَهُ السَّيدُ ابنُ طَباطَبا عن

---

(١) قبيلة من البربر ببلاد المغرب .

(٢) انظر السير : (الشِّيعي) ١٤/٥٨ـ٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٩ .

(٣) انظر السير : (المَهْدي وذُرِيَّته) ١٥/١٤١ـ١٥١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٧ .

سَبه ، قال : غداً أُخرِجُهُ لَكَ ، ثمَّ أصْبَحَ وقد أَلْقَىٰ عَرَمَةً[1] من الذَّهَبِ ، ثمَّ جذَبَ نِصْفَ سَيْفِه من غِمْدِه ، فقالَ : هـٰذا نَسَبِي ، وأمَرَهُم بنَهْبِ الذَّهَبِ ، وقالَ : هـٰذا حَسَبِي .

وقد صَنَّفَ ابنُ الباقِلاَّنيِّ وغيرُه من الأئِمَّة في هَتْكِ مَقالاتِ العُبَيْديَّة وبُطْلانِ نَسَبِهم ، فهَـٰذا نَسَبُهُم ، وهَـٰذِه نِحْلَتُهُم ، وقد سُقْتُ في حَوادِثِ « تاريخِنا » من أحْوالِ هَؤلاءِ وأخْبارِهِم في تَفارِيقِ السِّنين عَجائِبَ .

فرأىٰ عُبيدُ الله أنَّ ما يَرومَه من المُلك ، لا يَنبَغي أنْ يَكونَ ظُهورُه بالعِراق ولا بالشَّام ، فبعثَ أولاً له داعيَيْن شَيطانَيْن داهيَتَيْن ، وهما الأخَوان أبو عبد الله الشِّيعيِّ ، وأخُوه العَبَّاس ، فظَهَرَ أحدُهما باليَمَن والآخَرُ بأفْريقية ، وأظْهرَ كلٌّ منهما الزُّهْدَ والتَّألُّهَ وأدَّبا أولادَ النَّاسِ ، وشَوَّقا إلى الإمامِ المَهْديِّ[2] .

ولهم[3] البَلاغَات السَّبْعة : فالأوَّلُ للعَوَام وهو الرَّفْضُ ، ثم البَلاغُ الثاني للخَواص ، ثم البَلاغُ الثالث لمَنْ تَمكَّنَ ، ثم الرابعُ لمَنْ اسْتمرَّ سَنتَين ، ثم الخامسُ لمَنْ ثَبتَ في المَذْهَب ثلاثَ سنين ، ثم السادسُ لمَنْ أقامَ أرْبَعَةَ أعْوام ، ثم الخِطابُ بالبَلاغِ السَّابع وهو النَّامُوسُ الأعْظَم .

قال محمدُ بنُ إسْحاقَ النَّديمُ : قَرأتُه[4] فرَأيتُ فيه أمْراً عَظيماً من إباحَة المَحْظُورات ، والوَضْع من الشَّرائعِ وأصْحابِها ، وكان في أيَّامِ مُعِزِّ الدَّوْلة ظاهراً شائعاً ، والدُّعَاةُ مُنْبَثُّون في النَّوَاحِي ، ثم تَناقَص .

قال الإمامُ الذهبيُّ : ثم اسْتحكَمَ أمرُ أبي عبد الله بالمَغْرب ، وتَبعَه خَلقٌ من البَرْبَر ، ثم لَحقَ به أخُوهُ ، وعَظُمَ جَمعُه ، حتىٰ حارَبَ مُتولِّي المَغْرب وقَهَرَه ، وجَرَت له أمُورٌ طَويلَةٌ في أزْيَد من عَشْرة أعْوام .

---

(١) العرمة (بالتحريك) : مجمّع رمل وقد استعمله هنا بمعنىٰ كومة من الذهب .
(٢) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٧ .
(٣) أي : للفاطميين .
(٤) أي: البلاغ السابع .

فلمَّا سَمعَ عُبَيْدُ الله بظُهورِ داعيهِ ، سارَ بوَلدِه في زِيِّ تُجَّار والعُيونُ عليهما ، فدَخَلا المَغْربَ ، فظَفرَ بهما أميرُ المَغْربِ فسَجنَهما ، ولـمْ يُقِرَّا له بشيء ، ثم الْتَقىٰ هو وأبو عبد الله الشِّيعيُّ ، فانتُصرَ أبو عبد الله ، وتَملَّكَ البلادَ ، وأخْرجَ المَهْديَّ من السِّجْنِ ، وقبَّل يدَه وقالَ لقُوَّادِه : هـٰذا إمامُنا فبايَعَه المَلأُ .

ووَقعَ بعدُ بَينَه وبَينَ داعيَيْه لكَوْنِه ما أنْصَفَهُما ، ولا جَعلَ لهما كَبيرَ مَنْصِب ، فشَكَّكا فيه خَواصَّهُما ، وتفرَّقَت كَلمةُ الجُنودِ ، وَوقَعَ بينهم مَصافٌّ فانتُصرَ عُبَيْدُ الله ، وذَبحَ الأخَوَيْن ودانَت له الأُمَمُ وأنْشأَ مَدينَةَ المَهْديَّة ، ولَـمْ يتوجَّه لحَرْبه جَيشٌ لبُعْدِ الشُّقَّة ولِوَهنِ شَأنِ الخِلافَة بإمارَةِ المُقْتَدِر وجَهَّزَ من المَغْربِ وَلدَه ليَأخُذَ مِصْرَ فلَمْ يتِمَّ له ذلكَ[1] .

قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ ، صاحبُ الملخَّص : إنَّ الذين قَتلَهم عُبَيدُ الله وبَنُوه أربَعَةَ آلافِ في دارِ النَّحْر في العَذابِ من عالمٍ وعابد ليَرُدَّهم عن التَّرَضِّي عن الصَّحابَة ، فاخْتارُوا المَوتَ .

وفي أيَّامِ المَهْدي ، عاثَت القَرامِطَةُ بالبَحْرَين ، وأخَذُوا الحَجيجَ وقَتلُوا وسَبوا ، واسْتَباحُوا حَرَمَ الله ، وقَلَعُوا الحَجَرَ الأسْوَدَ ، وكان عُبَيدُ الله يُكاتِبُهم ، يُحرِّضُهم قاتَلَه الله .

وكان مَوتُه ، سَنةَ اثْنَتين وعشرينَ وثلاثِ مئَة وله اثْنَتانِ وسِتُّونَ سَنةً ، وكانت دَولَتُه خَمْساً وعشرينَ سَنةً وأشْهُراً[2] .

نَقلَ القاضي عِياض في ترْجَمة أبي محمَّد الكستراتي ، أنَّه سُئلَ عمَّن أكْرَهَه بَنو عُبَيد على الدُّخُولِ في دَعْوَتهم أوْ يُقتَلِ ؟ فقالَ : يَخْتارُ القَتلَ ولا يُعْذَر ، ويَجبُ الفِرارُ ، لأنَّ المُقامَ في مَوْضِعِ يُطلَبُ من أهْلِه تَعطيلُ الشَّرائعَ ، لا يَجوزُ .

---

(١) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١١٩٨/ ١ .
(٢) انظر السير : (المَهْدي وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١١٩٨/ ٢ .

قالَ القاضي عِياض : أَجْمَعَ العُلماءُ بالقَيْرَوانِ ، أنَّ حَالَ بَني عُبَيْد حالُ المُرْتَدِّينَ والزَّنادِقَة[1] .

القائم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَته : صاحبُ المَغْرب ، أبو القَاسِم محمَّدُ ابنُ المَهْدي عُبَيْد الله .

مَوْلدُه سنةَ ثَمان وسَبعينَ ومئتَين ودَخلَ المَغْربَ مع أبيه ، فبُويعَ هـٰذا عندَ مَوْتِ أبيهِ في سَنةِ اثنتَين وعشرينَ وثلاثِ مئَة .

وكان مَهيباً شُجاعاً ، قَليلَ الخَيرِ ، فاسِدَ العَقيدَة[2] .

خَرَجَ عليه في سَنةِ اثْنتَينِ وثلاثين وثلاثِ مِئَة ، أَبُو يَزيدِ مَخْلَدُ ابنُ كَيْدادَ البَرْبَريُّ وجَرَتْ بَينَهُما مَلاحِمُ ، وحَصَرَه مَخْلَدُ بالمَهْديَّة ، وضَيَّقَ عليه ، واسْتَولَىٰ علىٰ بِلادِه ، ثمَّ وُسْوِسَ القائِمُ ، واخْتَلَطَ وزالَ عَقلُه وكانَ شَيْطاناً مَريداً يَتَزَنْدَقُ[3] .

ذَكرَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُتكلِّمُ ، أنَّ القائِمَ أَظْهرَ سَبَّ الأنْبياءِ وكان مُنادِيهِ يَصِيحُ : الْعَنوا الغَارَ وما حَوَىٰ وأَبادَ عِدَّةً من العُلَماءِ وكان يُراسِلُ قَرامِطَةَ البَحْرَيْنِ ، ويأمُرُهم بإحْراقِ المَساجِدِ والمَصاحِفِ فتَجمَّعتْ الإباضِيَّةُ[4] والبَرْبَرُ علىٰ مَخْلَد ، وأَقْبَلَ ، وكانَ ناسِكاً قَصيرَ الدَّلقِ[5] يَركَبُ حِماراً ، لَكنَّهُم خَوارِج ، وقامَ معه خَلقٌ من السُّنَّةِ والصُّلَحاءِ ، وكادَ أنْ يَتَملَّكَ العالَمَ ، ورُكِّزَتْ بُنودُهُم عند جامِعِ القَيْرَوانِ فيها : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وبَنْدانِ أَصْفَرانِ فيهِما : نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قَريبٌ وبَنْدٌ لمَخْلَد فيه : اللهُمَّ انْصُرْ وَليَّكَ علىٰ مَنْ سَبَّ نَبيَّكَ وخَطَبَهُم أَحْمدُ بنُ أبي الوَليد ، فحَضَّ على

---

(١) انظر السير : (المَهْدي وذُرِّيَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١١٩٩/ ١ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١١٩٩/ ٢ .

(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١١٩٩/ ٣ .

(٤) من أكبر فرق الخوارج ، وهم أصحاب عبد الله بن يحيى بن إباض الملقب بـ« طالب الحق » ، من أهل اليمن ، خلع طاعة مروان بن محمد وبويع له بالخلافة ، واستولىٰ علىٰ صنعاء ومكة ، قُتل سنة ١٣٠هـ .

(٥) الدلق : ثوب متسع الأكمام طويلها (صبح الأعشىٰ) ٤/ ٤٢ .

الجِهادِ ، ثمَّ سارُوا ، ونازَلُوا المَهْديَّةَ ولمَّا الْتقَوا وأيْقَنَ مَخْلدٌ بالنَّصْرِ ، تَحرَّكَتْ نَفسُه الخارِجيَّةُ ، وقال لأصْحابِه : انْكَشِفُوا عَن أهْلِ القَيْرَوانِ حتىٰ يَنالَ منهُم عَدُّوُهم ، ففَعلوا ذلكَ فاسْتُشْهِدَ خَمسَةٌ وثَمانونَ نَفْساً من العُلَماءِ ، والزُّهادِ .

وخَوارِجُ المَغْربِ إبَاضيَّةٌ مَنسوبُونَ إلىٰ عبدِ الله بنِ يَحْيَىٰ بنِ إبَاض الذي خَرَجَ في أيّامِ مَرْوانَ الحِمار ، وانتَشرَ أتْباعُه بالمَغْربِ ، يَقولُ : أفْعالُنا مَخْلوقَةٌ لنا ويُكَفِّرُ بالكَبائِرِ ، ويَقولُ : لَيسَ في القُرآنِ خُصوصٌ ، ومَنْ خالَفَه حَلَّ دَمُه .

وكانَ مَوتُ القائِمِ سَنَةَ أرْبعٍ وثَلاثينَ مَحْصوراً بالمَهْديَّةِ ، لَكنْ قامَ بَعدَه ابنُه المَنْصُورُ[١] .

وقد أجْمَعَ عُلماءُ المَغْربِ علىٰ مُحارَبَة آلِ عُبَيْد لما شَهرُوه من الكُفْر الصّراح الذي لا حيلَةَ فيه[٢] .

وعُوتِبَ بَعضُ العُلماءِ في الخُروجِ مع أبي يَزيد الخارجيِّ ، فقالَ : وكَيفَ لا أخْرُجُ وقد سَمعتُ الكُفرَ بأُذُني ؟!! حَضَرتُ عَقداً فيه جَمعٌ من سُنَّةٍ ومَشارِقَة ، وفيهِم أبو قُضاعَة الدَّاعِي ، فجاءَ رَئيسٌ ، فقالَ كَبيرٌ منهُم : إلىٰ هنا يا سَيِّدي ارْتَفِعْ إلىٰ جانِبِ رسُولِ اللهِ ، يَعْني أبا قُضاعَة ، فما نَطَقَ أحَدٌ .

ووُجِدَ بخَطِّ فَقيهٍ ، قال : في رَجَبَ سَنةَ ٣٣١ هـ ، قامَ المُكَوكب يَقْذِفُ الصَّحابَةَ ، ويَطْعَنُ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعُلِّقَتْ رُؤوسُ حَميرٍ وكِباشٍ على الحَوانيتِ ، كُتِبَ عليها أنَّها رُؤوسُ صَحابَةٍ[٣] .

وخَرَجَ أبو إسْحاقَ الفَقيهُ مع أبي يَزيد ، وقال : هُمْ أهْلُ القِبْلَةِ وأولئِكَ لَيْسوا أهْلَ قِبْلَةٍ ، وهُم بَنُو عَدُوِّ الله ، فإنْ ظَفِرْنا بهم ، لَمْ نَدخُلْ تَحتَ طاعَةِ أبي يَزيدَ ، لأنَّه خارِجيٌّ[٤] .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٩٩ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٠ .

(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٠ .

(٤) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠١ .

قالَ أبو مَيْسَرَة الضَّريرُ : أدْخَلَني اللهُ في شَفاعَةِ أسْوَد رَمَىٰ هـٰؤلاء القَوْمَ بحَجَر[1] .

وقالَ السَّبَائيُّ : أي واللهِ نَجدُّ في قَتلِ المُبَدِّلِ للدِّين[2] .

وتَسارَعَ الفُقَهاءُ والعُبَّادُ في أُهْبَةٍ كاملة بالطُّبولِ والبُنُودِ وخَطبَهم في الجُمُعَة أحمَدُ بنُ أبي الوَليد ، وحَرَّضَهم وقالَ : جاهِدُوا مَنْ كَفَرَ بالله وزَعَمَ أنّه رَبٌّ من دُونِ الله ، وغَيَّرَ أحْكامَ الله ، وسَبَّ نَبيَّه وأصْحابَ نَبيِّه فبكَى النَّاسُ بُكاءً شَديداً وقالَ : اللَّهـمَّ إنَّ هـٰذا القِرْمِطيَّ الكافرَ المَعْروفَ بابنِ عُبَيد الله ، المُدَّعِي الرُّبُوبيَّة ، جاحِدٌ لِنِعْمَتِك ، كافِرٌ برُبُوبيَّتِك ، طاعِنٌ علىٰ رُسُلِك ، مُكذِّبٌ بمُحمَّد نَبيِّك سافِكٌ للدِّماءِ فالْعَنْهُ لَعْناً وَبيلاً ، واخْزِهِ خِزْياً طَويلاً ، واغْضَبْ عَليه بُكْرَةً وأصيلاً ثم نَزَلَ فصَلَّىٰ بهم الجُمُعَة[3] .

ورَكبَ رَبيعُ القَطَّان[4] فرَسَه مُلبساً ، وفي عُنُقِه المصْحَف ، وحَوله جَمعٌ كَبيرٌ ، وهو يَتلُو آياتِ جِهَادِ الكَفَرَة فاسْتُشهِدَ رَبيعٌ في خَلقٍ من النَّاسِ يَومَ المَصافِّ في صَفَر سَنَة أرْبَع وثَلاثينَ وكان غَرَضُ هـٰؤلاء المَجُوسَ بَني عُبَيْد أخْذَه حيّاً ليُعذِّبُوه قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ : اسْتُشهِدَ معَه فُضَلاءُ ، وأئمَّةٌ ، وعُبَّاد .

وقالَ بعضُ الشُّعَراء في بَني عُبَيْد[5] :

المَـاكِـرُ الغَـادِرُ الغَـاوي لِشيعَتِـهِ	شَـرُّ الـزَّنَـادِقِ مِـن صَعْـبٍ وتُبَّـاعِ
العَـابـديـنَ إذَا عِجْـلاً يُخَـاطِبُهُـمْ	بِسِحْـرِ هَـارُوتَ مِـنْ كُفْـرٍ وَإِبْـدَاعِ
لَـوْ قِيـلَ للـرُّومِ أَنْتُـمْ مِثْلُهُـم لَبَكَـوْا	أَوْ لليَهُـودِ لسَـدُّوا صَمْـخَ أسْمَـاعِ

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/ ٢ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/ ٣ .
(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/ ٤ .
(٤) ربيع بن سليمان بن عطاء الله ، القطَّان ، كان لسان إفريقية في وقته في الزُّهْد والرقائق ، وكان جعل علىٰ نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتىٰ يقطع الله دولة بني عُبَيْد انظر ترجمته في : « ترتيب المدارك » ٣/ ٣٢٣ـ٣٣٢ .
(٥) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/ ٤ .

المَنْصور :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَته : هو أبو طاهِر إسْماعيلُ بنُ القائِم بنِ المَهْديِّ ، العُبَيْديُّ ، الباطِنيُّ[1] .

وَلِيَ بعدَ أبيهِ ، وحارَبَ رَأسَ الإبَاضيَّة أبا يَزيد مَخْلدَ بنَ كَيْدادَ الزَّاهِد ، والْتَقى الجَمْعان مَرَّاتٍ ، وظَهَرَ مَخْلدُ علىٰ أكْثَرِ المَغرِب ، ولَمْ يَبْقَ لِبَني عُبَيْد سِوَى المَهْديَّة[2] .

فنَهَضَ المَنْصورُ ، وأخْفَىٰ مَوتَ أبيهِ ، وصَابَرَ الإبَاضيَّةَ حتىٰ تَرَحَّلوا عنه ، ونازَلُوا مَدينَةَ سُوسَة ، فبَرَزَ المَنصُورُ من المَهْديَّة ، والْتَقَوا فانْكَسَرَ جَيشُ مَخْلد علىٰ كَثْرَتِهم ، وأُسِرَ هو في سَنَةِ ٣٣٦ هـ ، فماتَ بعدَ الأسْرِ بأرْبَعةِ أيّامٍ من الجِراحِ ، فسُلِخَ وحُشِيَ قُطْناً ، وصُلِبَ .

وبَنَوْا مَدينَةَ المَنْصوريَّةَ مكانَ الوَقْعَةِ ، فنَزَلَها المَنْصورُ .

وكان بَطَلاً شُجاعاً ، رابِطَ الجأشِ ، فَصيحاً مُفَوَّهاً يَرْتَجِلُ الخُطَبَ وفيه إسْلامٌ في الجُمْلَة وعَقلٌ بخِلافِ أبيهِ الزِّنْديقِ[3] .

ومن مَحاسِنه أنَّه ولَّىٰ محمدَ بنَ أبي المَنْظور الأنْصاري قَضاءَ القَيْروان وكان من كبار أصْحابِ الحَديث ، وقد لَقِيَ إسْماعيلَ القاضي ، والحارثَ ابنَ أبي أسامَة ، فقال : بشَرْطِ أنْ لا آخُذَ رِزْقاً ولا أرْكَبَ دابّةً ، فوَلَّاه ليتألَّفَ الرَّعيَّة ، فأُحْضِرَ إليه يَهوديٌّ قد سَبَّ[4] فبَطحَه ، وضَربَه إلىٰ أنْ ماتَ تحتَ الضَّرْبِ ، خافَ أنْ يُحكَمَ بقَتلِه فتحلّ عليه الدَّوْلة[5] .

وأَتىٰ يوماً بيته فوجَدَ سُلافَ دايةَ السُّلطانِ تَشفَعُ في امرأةٍ نائحَةٍ فاسِقَةٍ ليُطْلِقَها من

---

(١) انظر السير : (المنْصور) ١٥/ ١٥٦ـ ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/ ١ .
(٢) انظر السير : (المنْصور) ١٥/ ١٥٦ـ ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/ ٢ .
(٣) انظر السير : (المنْصور) ١٥/ ١٥٦ـ ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/ ٣ .
(٤) أي: النبيَّ صلى الله عليه وسلم .
(٥) انظر السير : (المنْصور) ١٥/ ١٥٦ـ ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/ ٤ .

حَبْسِه ، فقالَ : ما لَكِ ؟ قالت : قَضيب[1] مَحْبوبة المنصور ، تطلب منك أن تُطْلِقَها ، فقال : يا مُنْتِنَةُ لولا شيءٌ لضَربتُك لَعَنَكِ اللهُ ، ولَعنَ مَنْ أرْسَلَك فوَلْوَلَت ، وشقَّت ثيابَها ثم ذَكرَت أمرَها للمَنْصور ، فقالَ : ما أَصْنَعُ به ؟ ما أَخَذَ منَّا صِلَةً ، ولا نَقدِرُ علىٰ عَزْلِه نحنُ نحبُّ إصْلاحَ البَلد .

وخَرجَ في رَمضانَ سنة إحْدَىٰ وأربعين وثلاث مئة إلىٰ مكانٍ يَتنزَّه فأصابَه بَرْدٌ وريحٌ عَظيمة ، فأثَّرَ ذلك فيه ، ومَرِضَ ، وماتَ عددٌ كثيرٌ ممَّنْ مَعه ثم ماتَ من السَّنَة وله تسعٌ وثَلاثونَ سنةً[2] .

وقد كان في سَنَةِ أرْبَعِينَ جهَّزَ أبو الطَّاهِر إسْماعِيلُ بنُ القَائِم ابنِ المَهْدِيِّ جَيْشَه في البَحْرِ إلىٰ صِقِلِّيَةَ ، فهَزَمُوا النَّصارَىٰ وكانت مَلْحَمَةً عُظْمَىٰ ، قُتِلَ فيها من العَدُوِّ ثلاثُونَ ألفاً وأُسِرَ منهم أُلُوفٌ ، وغَنِمَ الجُندُ ما لا يُعبَّر عنه .

وقِيلَ : إنَّه افْتَتَحَ مدينةَ جَنْوَةَ .

وحَكَمَ علىٰ مَمْلَكَةِ صِقِلِّيَة وافْتَتَحَ له نائِبُه عليها فُتُوحاتٍ ، وانْتَصَرَ على العَدُوِّ وفَرِحَ بذَلك المُسلمونَ ، وتَوَطَّدَ سُلطَانُه .

وكان المَنْصُورُ مُحَبَّباً إلى الرَّعِيَّة مُقْتَصِراً علىٰ إظْهَارِ التَّشَيُّع وقام بعدَه المُعِزُّ وَلَدُه[3] .

المُعِزّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَته : هو المُعِزُّ لدين الله أبو تَميم مَعَدُّ بنُ المَنْصُور العُبَيْديُّ المَهْدَويُّ المَغْربيُّ الذي بُنِيَت القَاهرَةُ المُعِزِّيَّةُ له .

وَلِيَ سَنَةَ إحْدىٰ وأرْبَعين وثَلاث مئة ، وسارَ في نَواحِي إفْريقَية يُمهِّدُ مُلْكَه ، فذَلَّلَ

---

(١) جارية أخرىٰ للسلطان ، ليس عنده أعزّ منها .

(٢) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/٥ .

(٣) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٣/١ .

الخَارجينَ عَليه ، واسْتعمَلَ مَماليكَه على المُدنِ واسْتخدمَ الجُنْدَ ، وأنْفقَ الأمْوالَ ، وجهَّزَ مَمْلوكَه جَوْهَرَ القائدَ في الجُيوشِ[1] .

قالَ القِفْطيُّ : عَزمَ المُعِزُّ علىٰ بَعْث جَيشِه إلىٰ مِصْرَ ، فسألَتْهُ أُمُّهُ أنْ يُؤخِّرَ ذلكَ لتَحُجَّ خُفْيَةً فأجابَها ، وحَجَّتْ ، فأحَسَّ بقُدومِها الأسْتاذُ كافُورُ ـ يَعْني صاحِبَ مِصْرَ ـ فحَضَرَ إليها وخَدمَها ، وحَملَ إليها تُحَفاً ، وبَعثَ في خِدْمتِها أجْناداً ، فلمَّا رَجَعَت ، مَنعَت ابنَها من قَصْدِ مِصْرَ ، فلمَّا ماتَ كافُورٌ بَعثَ المُعِزُّ جَيْشَه ، فأخَذوا مِصْرَ .

وكانت مِصْرُ في القَحْط ، فأخَذَها جَوْهَرٌ ، وأخَذَ الشَّامَ والحِجازَ ونفَّذَ يُعرِّفُ مَولاهُ بانْتظامِ الأمْرِ .

وضُربَت السِّكةُ على الدِّينارِ بمِصْرَ (وهي : لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ محمَّدٌ رَسُولُ الله ، عَليٌّ خَيْرُ الوَصِيَّيْن) والوَجهُ الآخَر اسْم المُعِزِّ والتاريخ ، وأُعْلِنَ الأذانُ بـ « حَيَّ علىٰ خيرِ العَملَ » ، ونُوديَ : مَنْ مَاتَ عن بنْت وأخٍ أو أُخْت فالمَالُ كلُّه للبنْت فهَـٰذا رَأيُ هـٰؤلاء[2] .

فتَهيَّأ المُعِزُّ ، وسارَ بخَزائنِه ، وتَوابيتِ آبائِه وكان دُخُولُه إلى الإسْكَنْدَريَّة في شَعْبانَ سَنةَ اثنتين وستِّينَ وثلاث مئَة وتَلقَّاهُ قاضي مِصْرَ الذُّهْليُّ وأعيانُها ، فأكْرَمَهُم وطال حَديثُه مَعَهم وعَرَّفهم أنَّ قَصْدَه الحَقُّ والجهَادُ ، وأنْ يَختمَ عُمرَه بالأعْمال الصَّالِحَة ، وأنْ يُقيمَ أوامرَ جَدِّه رَسول الله صلى الله عليه وسلم ووَعَظَ وذَكَّر حتىٰ أعْجَبَهم ، وبَكىٰ بَعضُهم ثم خَلعَ عليهم ، وقال للقاضي أبي الطَّاهِر الذُّهْليِّ : مَنْ رَأيتَ من الخُلَفاء ؟ فقالَ : واحداً ، قالَ : مَنْ هو ؟ قال : مَوْلانا ، فأعْجَبَه ذلك .

ثم إنَّه سارَ حتىٰ خَيَّم بالجِيزَة فأخَذَ عَسْكرُه في التَّعْديَة إلى الفُسْطاطِ ، ثم دَخَلَ القاهِرَةَ ، وقد بُنِيَ له بها قَصرُ الإمارَة ، وزُيِّنَت مِصْرُ ، فاسْتَوىٰ علىٰ سَرير مُلْكِه ، وصَلَّىٰ رَكعَتين .

---

(١) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/ ١٥٩ـ ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٣ .
(٢) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/ ١٥٩ـ ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٣ .

وكان عَاقلاً لَبيباً حَازِماً ذا أدَبٍ وعِلمٍ ومَعْرفَةٍ وجَلالَةٍ وكَرَمٍ يَرجعُ في الجُملَة إلىٰ عَدْلٍ وإنْصافٍ ، ولَوْلا بدْعَتُه ورَفْضُه ، لكان من خِيارِ المُلوك[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ظَهرَ هـٰذا الوَقتُ الرَّفضُ ، وأبْدَىٰ صَفحَتَه ، وشَمَخَ بأنفِه في مِصْرَ والشَّام ، والحِجازِ والغَربِ بالدَّولة العُبَيْديَّة ، وبالعِراقِ والجَزيرَة والعَجَم بَني بُوَيه ، وكانَ الخَليفةُ المطيعُ ضَعيفَ الدَّسْتِ والرُّتبَة مع بَني بُوَيه ثم ضَعُفَ بَدَنُه ، وأصَابَه فالِجٌ ، وخَرَسٌ فعَزَلوهُ ، وأقاموا ابنَه الطَّائعَ لله ، وله السِّكةُ والخُطْبَةُ ، وقَليلٌ من الأمُور ، فكانت مَمْلكةُ هـٰذا المُعزِّ أعظَمَ وأمْكَن .

وأُعلنَ الأذانُ بالشَّامِ ومِصْرَ بـ « حَيِّ علىٰ خَيرِ العَملَ » ، فللَّه الأمرُ كلُّه .

قِيلَ : ما عُرفَ عن المُعزِّ غيرُ التَّشَيُّع ، وكان يُطيلُ الصَّلاةَ .

وثارَت عليه القَرامِطَةُ ، واسْتولوا علىٰ كَثيرٍ من الشَّامِ ، وسارُوا حتىٰ أتَوا مِصْرَ ، فحارَبهم جَوْهَرٌ ، وجَرَت أمورٌ مَهُولَة .

وصلَّىٰ بالنَّاسِ المُعزُّ يَومَي العِيد صَلاةً طويلةً ، بحَيثُ إنَّه سَبَّح في السُّجودِ نَحوَ ثلاثين ، ثم خَطبَهم فأبْلَغ وأحَبَّتْه الرَّعيَّةُ .

وصَنَعَ شَمسيَّةً لتُعمَلَ على الكَعْبَة ثَمانيَة أشْبارٍ في مثلِها من حَريرٍ أحْمَر ، وفيها اثْنا عَشرَ هِلالاً من ذَهَب ، وفي الهِلال تُرُنْجَةٌ[2] قد رُصِّعَت بجَواهِرَ وياقُوتٍ وزُمُرُّدٍ ، لم يُشاهِد أحَدٌ مثلَها .

ماتَ المُعزُّ سنةَ خَمسٍ وستِّين وثلاثِ مئة بالقاهِرَة المُعزِّيَّة ، وكان مَولدُه بالمَهْديَّة ، التي بَناها جَدُّهُم ، وعاشَ سِتاً وأربعينَ سنةً وكانت دولتُه أربعاً وعشرين سنةً .

وقد جَرىٰ علىٰ دِمَشْقَ وغيرِها من عَساكِر المَغاربة كلُّ قَبيحٍ من القَتلِ والنَّهْبِ وفعَلوا ما لا يَفعَلُه الفِرَنجُ ، ولولا خَوفُ الإطالَة لسُقتُ ما يُبْكي الأعْيُن[3] .

---

(١) انظر السير : (المُعزُّ) ١٥/ ١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ١٢٠٤/١ .
(٢) ثمرة كالليمون ، ذهبية اللون ، زكية الرائحة ، ذات طعم حامض .
(٣) انظر السير : (المُعزُّ) ١٥/ ١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ١٢٠٤/٢ .

العَزيزُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحِبُ مِصْرَ أبو مَنْصُور نِزارُ ابنُ المُعِزِّ العُبَيْديُّ .

وُلِدَ سَنةَ أرْبَع وأرْبَعين وثلاث مئَة قامَ بعدَ أَبيهِ سنةَ خَمسٍ وستِّين[١] .

وقال أبو مَنصور الثَّعالبي في « اليَتيمَة » : سَمعتُ الشيخَ أبا الطيِّب يَحْكي أنَّ الأمَويَّ صاحبَ الأنْدَلس كَتبَ إليه نِزارٌ صاحبُ مِصْرَ كتاباً سَبَّه فيه وهَجاهُ فكَتبَ إليه الأمَويُّ : « أمَّا بَعدُ : فإنَّكَ عَرَفْتَنا فهَجَوتنا ولو عَرفْناكَ لأجَبْناك » فاشْتدَّ هٰذا على العَزيز بالله ، وأفْحَمَه عن الجَواب ، يُشيرُ أنَّكَ دَعيٌّ لا نَعرفُ قَبيلَتك[٢] .

قالَ أبو الفَرَج بنُ الجَوْزيِّ : كان العَزيزُ قد وَلَّىٰ عيسَىٰ بنَ نسْطورس النَّصْرانيَّ أمْرَ مِصْرَ ، واسْتَنابَ مُنشَّا اليَهوديَّ بالشَّامِ فكَتَبَت إليه امْرأَةٌ : بالذي أعَزَّ اليَهودَ والنَّصارَىٰ بمُنشَّا وابنَ نسْطورس ، وأذَلَّ المسلمينَ بك ، إلاَّ ما نَظَرتَ في أمْري .

فقَبَضَ على الاثنين وأخذَ من عيسَىٰ ثلاثَ مئَة ألفِ دينار[٣] .

قالَ ابنُ خَلِّكانَ وغيرُه : أكثرُ أهْلِ العلم لا يُصَحِّحُونَ نَسَبَ المَهْديِّ عُبَيْد الله جَدِّ خُلَفاء مِصْرَ ، حتىٰ إنَّ العَزيزَ في أوَّلِ وِلايَتِه صَعدَ المِنْبَرَ يومَ جُمُعَة ، فوجَدَ هناك رُقْعَةً فيها :

إذَا سَمِعْنَا نَسَباً مُنْكَراً ... نَبْكي عَلى المِنْبَرِ والجَامِعِ

إنْ كُنْتَ فيمَا تَدَّعِي صَادِقاً ... فَاذْكُرْ أباً بَعْدَ الأبِ الرَّابِعِ

وإنْ تُرِدْ تَحْقِيقَ مَا قُلْتَه ... فَانْسُبْ لَنَا نَفْسَكَ كَالطَّائِعِ

أوْ لا دَعِ الأنْسَابَ مَسْتُورَةً ... وادْخُلْ بِنَا في النَّسَبِ الوَاسِعِ

فَإنَّ أنْسَابَ بَني هَاشِمٍ ... يَقْصُرُ عَنْهَا طَمَعُ الطَّامِعِ

---

(١) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٥ .

(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٥ .

(٣) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٦ .

وصَعَدَ مرَّةً أخْرَىٰ ، فرأىٰ وَرَقةً فيها :

بـالظُّلْـمِ والجَـوْرِ قَـدْ رَضِينَـا	وَلَيْـسَ بِـالكُفْـرِ والحَمَـاقَـةْ
إنْ كُنْـتَ أُعْطِيـتَ عِلْـمَ غَيْـبٍ	فقُـلْ لَنَـا كَـاتِـبَ البَطَـاقَـةْ

ثم قالَ ابنُ خلِّكانَ : وذلك لأنَّهم ادَّعَوْا عِلمَ المُغَيَّبات ولهم في ذلك أخْبارٌ مَشْهُورَة .

وفُتحت للعَزيز حَلَبُ وحَماةُ وحِمْصُ وخَطَبَ أبو الذَّوَّاد محمدُ ابنُ المُسَيِّبِ بالمَوصِلِ له ورَقَمَ اسْمَه على الأعْلامِ والسِّكَّة سنةَ ٣٨٣ هـ ، وخُطبَ له أيضاً باليَمَنِ وبالشَّامِ ومَدائنِ المَغْربِ .

وكانت دَولةُ هٰذا الرَّافضيِّ أعْظَمَ بكَثير من دَولةِ أميرِ المؤمنينَ الطَّائعِ ابنِ المُطيعِ العبَّاسيِّ .

وفي أيَّامه أُظْهِرَ سَبُّ الصَّحابَة جِهاراً[١] .

وفي سَنة ٣٦٦ هـ حَجَّت جَميلةُ بنتُ ناصِرِ الدَّولَة ، صاحِبِ المَوْصِل فممَّا كانَ مَعَها أرْبَعُ مئَة مَحْمَل فكانت لا يُدْرَىٰ في أي مَحْمَل هي وأعْتَقَت خَمسَ مئة نَفْس ونثَرَت على الكَعْبَة عَشرَةَ آلاف مِثْقال وسَقَت جَميعَ الوَفْدِ سَويقَ السُّكَّر والثَّلْج ، كذا قالَ الثَّعالبيُّ ، وخَلعَت وكَسَت خَمسينَ ألفاً ولقد خَطبَها السُّلْطانُ عَضُد الدَّولَة فأبَتْ فحَنقَ لذلك ، ثم تمَكَّنَ منها فأفْقَرَها وعَذَّبَها ، ثم ألْزَمَها أنْ تعقدَ في الحانَة لتحصلَ من الفاحشَة ما تُؤدِّي ، فمَرَّتْ معَ الأعْوانِ ، فقَذَفَتْ نَفْسَها في دِجْلَةَ ، فغَرقَت ، عَفَا اللهُ عَنها .

وفي سنة سِتٍّ وثَمانينَ في رَمضَانَ ماتَ العَزيزُ ببَلْبيسَ في حمَّام من القُولَنج ، وعُمرُه اثنَتان وأرْبَعون سَنةً وأشْهُر وقامَ ابنُه الحاكِمُ الزِّنْديقُ[٢] .

---

(١) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٦ .

(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٧ .

الحَاكم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحِبُ مِصْرَ الحَاكِمُ بأمْرِ الله ، أبو عليٍّ مَنْصُورُ بنُ العَزيزِ نِزَارِ العُبَيْديِّ المِصْريُّ الرَّافِضيُّ ، بلِ الإسْماعيليُّ الزِّنْديقُ المُدَّعي الرُّبُوبيَّةَ .

مولده في سنة خمس وسبعين وثلاث مئة[١] .

وأقامُوهُ في المُلْك بعدَ أبيه وله إحْدَىٰ عَشرةَ سَنةً ، فحَكَىٰ هو قالَ : ضَمَّني أبي وقَبَّلَني وهو عُريانٌ ، وقالَ : امْضِ فالْعَبْ فأنا في عافيَة قالَ : ثم تُوفِّيَ ، فأتاني بَرْجَوَانُ[٢] وأنا علىٰ جُمَّيْزَة في الدَّار فقالَ : انْزِلْ وَيْحَكَ ، اللهَ اللهَ فينا ، فنَزلتُ ، فوَضَعَ العِمامَةَ بالجَوْهَر علىٰ رأسي ، وقَبَّلَ الأرْضَ ثم قالَ : السَّلامُ عَليكَ يا أميرَ المؤمنين وخَرجَ بي إلى النَّاسِ ، فقَبَّلُوا الأرضَ ، وسَلَّمُوا عليَّ بالخِلافَة[٣] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكان شَيْطاناً مَريداً جَبَّاراً عَنيداً ، كَثيرَ التَّلوُّن ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، خَبيثَ النِّحْلَةِ ، عَظيمَ المَكْرِ ، جَواداً مُمَدَّحاً ، له شَأنٌ عَجيبٌ ونبأٌ غَريبٌ ، كانَ فِرْعَونَ زَمانِه ، يَخْترعُ كُلَّ وَقْت أحْكَاماً يُلْزِمُ الرَّعيَّةَ بها ، أمَرَ بسَبِّ الصَّحابَة رَضِيَ اللهُ عَنهم ، وبكتَابَة ذلكَ علىٰ أبْوابِ المَسَاجِدِ والشَّوارِع وأمَرَ عُمَّالَه بالسَّبِّ ، وبقَتْلِ الكِلابِ في سَنةِ خَمسٍ وتسْعينَ وثلاث مئَة وأبْطَلَ الفُقَّاع[٤] والمُلوخيا ، وحرَّمَ السَّمكَ الذي لا فُلُوسَ عليه[٥] ، ووَقَعَ ببائعٍ لشيءٍ من ذلكَ فقتَلَهم[٦] .

وفي سَنة اثنتَين وأربَع مئَة ، حرَّمَ بَيعَ الرُّطَبِ ، وجَمعَ منه شَيئاً عَظيماً ، فأحْرَقَه ، ومَنعَ من بَيْع العنب ، وأبادَ الكُرومَ ، وأمَرَ النَّصارىٰ بتَعْليقِ صَليبٍ في رِقابِهم زِنَتُه رَطلٌ

---

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٧ .

(٢) هو أبو الفتوح ، بَرْجوان ، كان من خُدام العزيز ومدبري دولته ، نافذ الأمر ، مطاعاً ، نظر في أيام الحاكم ديار مصر والحجاز والمغرب ، وذلك في سنة ٣٨٨ هـ ، وقُتلَ بأمر الحاكم سنة ٣٩٠ هـ .

(٣) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٧ .

(٤) شراب يُتخذ من الشعير .

(٥) الفلس : القشرة علىٰ ظهر السمكة .

(٦) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٨ .

ورُبْع بالدِّمَشْقيِّ وألْزَمَ اليَهودَ أنْ يُعَلِّقوا في أعْناقِهم قُرميّة في زِنَة الصَّليبِ إشارَةً إلىٰ رَأسِ العِجْلِ الذي عَبدُوه ، وأنْ تَكونَ عَمائمُهم سُوداً ، وأنْ يَدخُلُوا الحَمَّامَ بالصَّليبِ وبالقُرْميَّة ثم أفْرَدَ لهم حَمَّاماتٍ وأمَرَ في العَام بهَدْمِ كَنيسةِ قُمامة[1] ، وبهَدم كَنائس مِصْرَ ، فأسلمَ عدَّةٌ ، ثم إنَّه نَهَىٰ عن تَقبيلِ الأرْضِ ، وعن الدُّعاءِ له في الخُطَب وفي الكُتُب وجَعلَ بدَله السَّلامَ عَليه[2] .

وقيلَ : إنَّ ابنَ باديسَ أميرَ المَغْرب بَعثَ يَنْقمُ عليه أمُوراً ، فأرادَ أنْ يَستميلَه ، فأظْهَرَ التَّفقُّه ، وحَملَ في كُمِّه الدَّفاترَ ، وطَلَبَ إلىٰ عندِه فَقيهَين ، وأمَرَهما بتَدْريسِ فِقْهِ مالِك في الجامعِ ، ثم تَغيرَّ فقتَلَهما صَبْراً[3] .

وأذِنَ للنَّصارَى الذين أكْرَهَهُم في العَوْدِ إلى الكُفْر[4] .

ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من البُيوتِ ، فأحْسَنَ ، وأبْطَلَ عَملَ الخِفافِ لهُنَّ جُملَة ، وما زِلْنَ مَمْنوعاتٍ من الخُروجِ سَبعَ سِنينَ وسَبعَةَ أشْهُر[5] .

ثم بعد مُدَّة أمَرَ بإنْشاءِ ما هُدِّمَ من الكَنائسِ ، وبتَنَصُّرِ مَنْ أسْلَمَ[6] .

قد حُبِّبَ في الآخرِ إلىٰ صاحبِ مِصْرَ الحاكمِ بأمْرِ الله العُزْلَةُ ، وبَقِيَ يَرْكَبُ وَحْدَه في الأسْواقِ علىٰ حِمارٍ ، ويُقيمُ الحِسْبَةَ بنفسِه ، وبَيْنَ يدَيْه عبدٌ ضَخْمٌ فاجرٌ ، فمَنْ وَجبَ عليه تأدِيبٌ ، أَمَرَ العَبدَ أنْ يُولِجَ فيه ، والمَفعُولُ به يَصِيحُ .

وقِيلَ : إنَّه أَرَادَ ادِّعاءَ الإلَهِيَةِ ، وشَرَعَ في ذلك ، فَكَلَّمَهُ الكُبَرَاءُ وخَوَّفُوهُ من وُثُوبِ النَّاسِ ، فتَوَقَّفَ .

وفي الأربع مئة وبعدَها كانت الأنْدَلُس تَغْلي بالحُروبِ والقِتالِ على المُلْك[7] .

---

(١) في بيت المقدس .
(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٨/ ٢ .
(٣) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٨/ ٣ .
(٤) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٨/ ٤ .
(٥) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٨/ ٥ .
(٦) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٨/ ٦ .
(٧) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٨/ ٧ .

وأنْشأ داراً كبيرةً ملأها قُيوداً وأغْلالاً ، وجَعَلَ لها سَبْعَةَ أبْوابٍ ، وسمَّاها جَهَنَّمَ ، فكان مَنْ سَخِطَ عليه أسْكنَه فيها .

ولمَّا أمرَ بحَريقِ مِصْرَ ، واسْتَباحَها ، بَعَثَ خادمَه ليُشاهِدَ الحالَ ، فلمَّا رَجعَ قال : كَيفَ رأيتَ ؟ قال : لوْ اسْتَباحَها طاغيةُ الرُّوم ما زاد علىٰ ما رأيتُ ، فضَرَب عُنُقَه .

وفي سَنة ثَلاث وأربع مئة ، أُخِذَ الوفْدُ العراقيُّ ، وغُوِّرَت المياهُ وهَلكَ بضعة عَشرَ ألف مُسْلم ، ثم أُخِذَ من العَرَب ببَعْض الثَّأرِ ، وقُتلَ عِدَّةٌ .

وبَعثَ الملكُ مَحمُودُ بنُ سُبُكْتكينَ كتاباً إلى الخَليفَة بأنَّه ورَدَ إليه من الحاكمِ كتابٌ يَدعُوهُ فيه إلىٰ بَيْعَتِه ، وقد خَرَّقَ الكتاب ، وبَصَقَ عَليه[1] .

وفي سَنةِ خَمسٍ ظَفرَ الحاكمُ بنساءٍ علىٰ فَسادٍ ، فغرَّقَهُنَّ ، وكانت الغاسِلَةُ لا تَخرُجُ إلى المَرأةِ إلاَّ مع عَدْلين ، ومَرَّ القاضي مَالكُ بنُ سَعيد الفارقيُّ ، فنادَتْه صَبيَّةٌ من رَوْزَنَةٍ : أقسَمتُ عليكَ بالحاكمِ أنْ تَقفَ ، فوَقَفَ ، فبكَتْ ، وقالَت : لي أخٌ يَموتُ ، فبالله إلاَّ ما حَمَلتَني إليه لأراهُ ، فرَقَّ لها وبَعثَ معها عَدْلَين ، فأتَتْ بَيْتاً ، فدَخلَت ، والبيتُ لعاشِقِها ، فجاءَ الزَّوْجُ ، فسألَ الجيرانَ ، فحدَّثوه ، فجاءَ إلى القاضي وصاحَ ، وقالَ : لا أخَ لها ، وما أفارقُكَ حتىٰ تَرُدَّها إليَّ ، فحارَ القاضي وطلع بالرجُل إلى الحاكم ، ونادَى العَفْوَ ، فأمرَه أنْ يَركَبَ مع الشَّاهِدين ، فوجدوا المرأةَ والشَّابَّ في إزارٍ واحد علىٰ خُمار ، فحُمِلا علىٰ هَيْئتِهِما فسألها الحاكمُ فأحالَت على الشَّابِّ ، وقالَ : بلْ هَجمَتْ عليَّ ، وزَعَمت أنَّها بلا زَوْجٍ ، فلُفَّت في باريَّةٍ ، وأُحْرِقَت ، وضُربَ الشَّابُّ ألفَ سَوْطٍ .

ووَليَ دِمَشْقَ للحاكم عدَّةُ أُمَراء ما كان يَدَعُ النَّائبَ يَسْتقرُّ حتىٰ يَعزلَه[2] .

وذَكرْنا في تَرجَمته[3] ، أنَّه خَرجَ من القَصْرِ فطَافَ لَيلَته ، ثم أصْبَحَ فتوَجَّه إلىٰ شَرقيِّ حُلوانَ مَعَه ركابيَّان ، فرَدَّ أحدَهما مع تسْعَة من العَرَب ثم أمَرَ الآخَرَ بالانْصِرافِ

---

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٩/١ .

(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/ ١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٢٠٩/٢ .

(٣) يُشيرُ الذهبيُّ هنا إلىٰ كتابه « تاريخُ الإسْلام » .

فزَعمَ أنَّه فارَقهَ عند المَقْصَبَة ، فكانَ آخرَ العَهْدِ به وخَرجَ النَّاسُ علىٰ رَسْمهم يَلْتمِسون رُجوعَه ، مَعهم الجَنائبُ ففَعلوا ذلكَ جُمعَة ثمَّ خَرجَ في ثاني ذي القِعْدَة مُظفَّرٌ صاحبُ المِظلَّة ونَسيمٌ وعِدَّة فبَلغوا دَيْرَ القُصَير ، وأمْعَنوا في الدُّخولِ في الجَبَل فبَصُروا بحِماره الأشْهَب المُسَمَّىٰ بقَمر ، وقد ضُربَت يَداه ، فأثَّر فيهما الضَّربُ وعَليه سَرْجُه ولجامُه ، فتتبَّعوا أثَرَ الحِمارِ فإذا أثرُ راجلٍ خلفَه وراجلٌ قُدَّامَه ، فقَصُّوا الأثرَ إلىٰ برْكَة بشَرقيِّ حُلْوانَ ، فنَزلَ رجلٌ إليها فيَجدُ فيهما ثيابَه وهي سَبعُ جِبابٍ ، فوُجدَت مُزَرَّرَة ، وفيها آثارُ السَّكاكينِ فمَا شَكُّوا في قَتلِه[1] .

وثَمَّ اليوم طائفةٌ من طَغام الإسْماعيليَّة الذين يَحلِفُونَ بغَيْبَة الحاكمِ ، ما يَعتقدُونَ إلاَّ أنَّه باقٍ ، وأنَّه سَيظْهَر نَعوذُ بالله من الجَهْل .

وقد قَتلَ الحاكمُ جَماعَةً من الأُمَراء بلا ذَنْبٍ ، وذَبحَ قاضيَيْن له .

وسِيرَةُ الحَاكِمِ ، وعَسْفِه تَحْتملُ كَراريسَ[2] .

الظاهِر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ الظَّاهِرُ لإعْزازِ دِينِ الله ، أبو الحَسَن ، عَليُّ بنُ الحاكِمِ مَنْصُورِ بنِ العَزيز نِزارِ بنِ المُعِزِّ ، العُبَيْدِيُّ المِصْريُّ ولا أسْتَحلُّ أنْ أقُولَ العَلَويُّ الفَاطِميُّ ، لِمَا وَقَرَ في نَفْسِي من أنَّه دَعِيٌّ .

بُويعَ وهو صَبيٌّ لَمَّا قُتلَ أبُوهُ سَنةَ إحْدَىٰ عَشرَةَ وأرْبَع مئَة .

وكانت دَولتُه علىٰ مِصْرَ والشَّامِ والمَغْربِ ولكنْ طَمِعَ في أطْرافِ بلاده طَوائفُ ،

---

(١) « وَفيَاتُ الأعْيان » : ٥/٢٨٧ـ ٢٩٨ وقد نقل المقريزي عن المسبحي رواية أخرىٰ لمقتله ، قال : « وفي المحرَّم سنة خمس عشرة وأربع مئة قبض علىٰ رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلىٰ ، فأقرَّ بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه ، فقيل له : « لمَ قَتلتَه ؟ » قال : غَيرةً لله وللإسْلام » ، فقيلَ له : « كيف قَتلتَه ؟ » فأخرج سكيناً ضرب بها فؤادَه ، فقَتلَ نفسَه ، وقال : « هكذا قَتلتُه » فقطع رأسه ، وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه هـٰذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم ، لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أن أختَه قَتلته انظر « اتِّعاظ الحُنفا » ، ٣١٤ .

(٢) انظر السير : (الحاكم) ١٥/١٧٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٠ .

فتَغلَّبَ حسَّانُ بنُ مُفرِّج الطائيُّ صاحبُ الرَّمْلَة علىٰ كثير من الشَّامِ وضَعُفَت الإمارَةُ العُبَيْديَّة قَليلاً .

وماتَ الظَّاهرُ في سَنة سَبعٍ وعشرينَ وأرْبَع مئَة ولمْ يَبلُغني كَبيرُ شيءٍ من أخْبارِه وقامَ ابنُه المُسْتَنصِرُ وقيلَ كانَ غارِقاً في اللَّهْوِ والمُسْكِرِ والسَّراري[1] .

المُسْتَنْصِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ المُسْتَنصِرُ بالله ، أبو تَميم مَعَدُّ بنُ الظَّاهِر ، وَلِيَ الأمْرَ بعدَ أبيهِ ، ولَه سَبعُ سِنينَ ، فامْتدَّتْ أيامُه ستِّينَ سَنةً وأرْبَعَةَ أشْهُر .

وفي وَسَط دَولتِه خُطِبَ له بإمْرةِ المؤمنينَ علىٰ مَنابِرِ العِراقِ في سَنةِ إحْدَىٰ وخَمسينَ وأرْبعِ مئَة والْتَجأَ القائِمُ بأمْرِ الله الخَليفَةُ إلىٰ أميرِ العَرَب فأجارَه ، ثم بعدَ عامٍ عَادَ إلىٰ خِلافَتِه[2] .

وفي سَنةِ أرْبَعِينَ وأربع مئة غَزَتْ الغُزُّ مع إبراهِيمَ يَنَال السَّلْجُوقِيّ ، وقِيلَ : ما كانَ مَعَهُم ، فغزَوْا إلىٰ قَريبِ القُسْطَنْطِينيَّة ، وغَنِمُوا وسَبُوا أزْيَدَ من مِئَةِ ألفٍ ، وقِيلَ : جُرَّت المَكَاسِبُ علىٰ عَشْرةِ آلافِ عَجَلةً ، وكان فَتْحاً عَظِيماً وكان الرَّفْضُ أيْضاً قَويّاً بالعِراقِ[3] .

وفي سَنة ثَمانٍ وأرْبَعينَ وأرْبَعِ مئَة كانَ بالأنْدَلُسِ القَحْطُ ما سُمعَ بمثلِه ، ويُسمُّونَه الجُوعَ الكَبير ، وكان بمِصْرَ القَحْطُ والفَناءُ[4] .

وكان غَلاءٌ مُفرِطٌ ببَغْدادَ وفَناءٌ ، وأمَّا بما وَراءَ النَّهْرِ فتَجاوَزَ الوَصْفَ .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وستِّينَ وأرْبَع مئَة كان حَريقُ جامع دِمَشْقَ ، ودُثِرَت مَحاسِنُه واحْترقَتْ الخَضْراءُ مَعَه ـ وكانَت دَارَ المُلْك ـ من حَربٍ وَقعَ بينَ عَسْكَرِ العِراقِ ، وعَسْكَرِ مِصْرَ .

---

(١) انظر السير : (الظَّاهر) ١٥/ ١٨٤ـ ١٨٦ ، وانظر النزهة : ١٢١١/ الظَّاهِر .

(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٢١١/ ١ .

(٣) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٢١١/ ٢ .

(٤) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٢١٢/ ١ .

وفي سَنة اثنتَين وستِّينَ وأربَع مئَة ، قُطِعَت من مَكَّة الدَّعْوَة المُسْتَنصِريَّة وخُطِبَ للقَائم بأمْرِ الله ، وتُركَ الأذَانُ بـ « حَيِّ عَلي خَيْرِ العَمَل » وذلكَ لذِلَّة المِصْريِّينَ بالقَحْطِ الأكْبَر وفَنَائِهم وأكَلَ بَعضُهم بَعضاً وتَمزَّقُوا في البلادِ من الجُوعِ ، وتَمَحَّقَتْ خَزائنُ المُسْتَنصِر ، وافْتَقَرَ ، وتَعثَّرَ[1] .

وفي هٰذه النَّوْبَة نَقلَ صاحبُ « المِرْآة » أنَّ امْرأةً خَرجَتْ وبيَدِها مُدُّ لؤلؤ لتَشْتَري به مُدَّ قَمْح ، فلَمْ يَلتَفِتْ إليها أحد ، فرَمَتْهُ فما كانَ له مَنْ يَلتَقطُه ، فكادَ الخَرابُ أنْ يَسْتَولي علىٰ سائِر الأقَاليمِ ، حتىٰ لأُبيعَ الكلبُ بسِتَّة دَنانيرَ والقِطُّ بثَلاثة دَنانيرَ ، حتىٰ أُبيعَ الإرْدَبُّ بمئَة دينار[2] .

قال ابنُ الأثير : اشْتدَّ الغَلاءُ حتىٰ حُكيَ أنَّ امْرأةً أكَلَت رَغيفاً بألفِ دِينار ، باعَت عَروضاً تُساوي ألفَ دِينار بثَلاثِ مئَة دِينَار ، فاشْتَرَت به جُوالِقَ[3] .قَمْح ، فانْتَهَبَهُ النَّاسُ ، فنَهَبَت هيَ منه فحَصَلَ لهَا ما خُبِزَ رَغيفاً[4] .

وفي دَولة المُسْتَنصِر وَقعَ القَحْطُ المَذْكورُ لاحْتراقِ النِّيلِ الذي ما عُهِدَ مثله بمِصْرَ من زَمَنِ يُوسُفَ عليه السلام ، ودامَ سَنواتٍ بحَيثُ إنَّ والدَةَ المُسْتَنصِر وبنَاتِه سَافَرْنَ من مِصْرَ خَوفاً من الجُوعِ ، وآلَ أمْرُهُ إلىٰ عَدمِ كُلِّ الدَّوابِّ ببلادِ مِصْرَ ، بحَيثُ بَقيَ له فَرسٌ يَركَبُها ، واحْتاجَ إلىٰ دابَّة يَركَبُها حَاملُ الجِتْر[5] يومَ العِيدِ وَراءَهم ، فمَا وَجَدوا سِوَىٰ بَغْلَة ابنِ هِبَة كاتبِ السِّرِّ فوَقَفَتْ علىٰ بابِ القَصْر ، فازْدَحَمَ عَليهَا الحَراشِفَةُ[6] وذَبَحُوها وأكَلُوها في الحَالِ ، فأخَذَهُم الأعْوَانُ وشُنِقُوا ، فأصْبَحَتْ عِظامُهم على الجُذُوعِ قَد أُكِلُوا تَحْتَ اللَّيلِ .

ماتَ المُسْتَنصِرُ سَنةَ سَبع وثَمانين وأرْبَع مئَة ، وقد قَارَبَ السَّبْعِينَ ، وكانَ سَبُّ

---

(١) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦-١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٢ .

(٢) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦-١٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٢ .

(٣) وعاء من صوف أو غيره ، جمعُه : جَوالق - بفتح الجيم ، وهو عند العامَّة (شِوال). .

(٤) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦-١٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢١٢ .

(٥) الجِتْر : بكسر الجيم ، المظلَّة .

(٦) كالشُّطار والعيارين في بغداد .

الصَّحابَة فاشِياً في أيَّامِه ، والسُّنَّةُ غَريبَةٌ مَكتومَةٌ ، حتىٰ إنَّهم مَنَعوا الحَافظَ أبا إسْحاقَ الحبَّالَ من رِوايَة الحَديث ، وهَدَّدُوه فامْتَنَعَ ، ثم قامَ بعدَ المُسْتَنصِرِ ابنُه أحمَدُ[1] .

المُسْتَعْلي بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مَصْرَ أبو القَاسِم أحمدُ ابنُ المُسْتَنصِر العُبَيْديُّ المِصْريُّ ، وفي أيّامه وَهَت الدولَةُ العُبَيْديَّة ، واخْتلَّت قَواعدُها ، وانْقَطَعَت الدَّعْوَةُ لهم من أكثر مُدُنِ الشَّامِ ، واسْتَولَىٰ عليها الفِرَنْجُ وغيرُهم من الغُزِّ[2] .

فأخَذَت الفِرَنْجُ أنْطَاكيَة من المسلمينَ في سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، وكان لها في يَد المسلمينَ نَحْوَ عشرينَ سَنةً ، وأخَذوا بَيتَ المَقْدِسِ ، واسْتَباحُوهُ ، وأخَذُوا أيضاً المَعَرَّةَ في سَنةِ اثْنَتَين وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، ثم اسْتَولوا علىٰ مَدائنَ وقِلاعٍ[3] .

وفي دولته كَثُرَت الباطِنيَّةُ الملاحِدَةُ الذين هم الإسْماعيليَّةُ ، وأخَذوا القُفُول[4] ، وتَمَلَّكوا قلعة أصْبَهان ، وفتَكُوا بعَدد كَثيرٍ من الكِبارِ والعُلَماء ، وشَرعُوا في شُغلِ السِّكِّين ، وجَرَت لهم خُطُوبٌ وعَجائبُ .

وفي سَنة خَمسٍ وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ماتَ المُسْتَعلي وأقامُوا وَلَدَه الآمِرَ بأحْكَامِ الله مَنْصُوراً ، وله خَمسُ سِنينَ ، وأَزِمَّةُ المُلك إلى الأفْضَلِ أميرِ الجُيوشِ ، ويُقالُ إنَّه سُمَّ وقُتلَ سِرَّاً[5] .

الآمِرُ بأحْكامِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ أبو علي مَنصُورُ ابنُ المُسْتَعْلي ، العُبَيْديُّ الرافِضيُّ الظَّلومُ كان مُتظاهراً بالمَكْرِ واللَّهْوِ والجَبروتِ .

وَليَ وهو صَغيرٌ ، فلمَّا كَبرُ قَتلَ الأفْضلَ أميرَ الجُيوشِ ، واصْطَفَىٰ أمْوالَه ، وكانت

---

(١) انظر السير : (المُسْتَنصِر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٢١٢ .
(٢) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/ ١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٣ .
(٣) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/ ١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٣ .
(٤) جمع قافلة .
(٥) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/ ١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٣ .

تَفوتُ الإحْصَاءَ ، ويُضربُ بها المَثَلُ ، فاسْتَوْزَرَ بعدَه المَأمُونَ محمَّدَ بنَ مُخْتار البَطائحيَّ ، فعَسَفَ الرَّعيَّة ، وتَمرَّدَ فاسْتأصَلَه الآمرُ بعدَ أرْبَع سنينَ ، ثمَّ صَلبَه ، وقَتلَ مَعه خَمسةً من إخْوَتِه[1] .

وفي دَولَتِه أخَذَت الفِرَنْجُ طَرابُلُسَ الشَّامِ وصَيْدا ، ثم قَصدَ المَلكُ بَرْدَويلُ الفِرَنجيُّ ديارَ مِصْرَ ، وأخَذَ الفَرَمَا وهي قَريبةٌ من العَريش ، فأحْرقَ جامِعَها ، ومَساجِدَها ، وقَتلَ وأسَرَ ، ثم رَجعَ فهَلكَ في سَبخَة بَرْدَويل فشَقُّوه ورَموا حُشوَتَه وصَبَّروه ، فحِشْوَتُه تُرجَم هناك إلى اليومِ ، ودَفَنوه بقُمامَة وكان قد أخَذَ القُدسَ وعَكَّا والحُصونَ .

وفي أيَّامه ظَهرَ ابنُ تُوْمَرْت بالمَغْربِ وكَثُرت أتباعُه ، وعَسْكَروا وقَاتَلوا ، ومَلَكُوا البلادَ[2] .

وبَقيَ الآمرُ في المُلكِ تسعاً وعشرينَ سَنةً وتسعَةَ أشْهُر إلىٰ أنْ خَرجَ يَوماً إلىٰ ظاهرِ القاهِرَة ، وعَدَّىٰ على الجِسْرِ إلى الجِيزَة ، فكَمنَ له رجالٌ في السِّلاح ، ثم نَزلُوا عليه بأسْيافِهم ، وكان في طائفةٍ لَيسَت بكَثيرَة ، فرُدَّ إلى القَصْرِ مُثْخَناً بالجِراحِ وهَلكَ من غَيرِ عَقِب .

وكان العاشرَ من الخُلفَاءِ الباطنيَّة فبايَعوا ابنَ عَمٍ له ، وهو الحافِظُ لدين الله .

وكان حَسَنَ الحَظِّ ، جَيِّدَ العَقْلِ والمَعْرفَة ، لكنَّه خَبيثُ المُعْتَقَد سَفَّاكاً للدِّماء ، مُتَمرِّداً جَبَّاراً فاحِشاً فاسِقاً ، صادرَ الخَلقَ عاشَ خَمساً وثلاثين سَنةً .

وانْقَلعَ سَنةَ أرْبَع وعِشْرينَ وخَمسِ مئَة[3] .

الحَافِظُ لدين الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ أبو المَيْمُون عبدُ المَجيدِ ابنُ الأميرِ محمَّدِ بنِ المُسْتَنْصِر بالله مَعَدّ ، العُبَيْديُّ الإسْمَاعيليُّ المِصْريُّ .

---

(١) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ ١٩٩ ، وانظر النزهة : ١٢١٤/ ١ .

(٢) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ ١٩٩ ، وانظر النزهة : ١٢١٤/ ٢ .

(٣) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ ١٩٩ ، وانظر النزهة : ١٢١٤/ ٣ .

بايَعوهُ يَومَ مَصْرَعِ ابنِ عَمِّه الآمرِ ليُدبِّرَ المَمْلَكَةَ إلي أن يُولَد حَملٌ للآمرِ إنْ وُلِدَ[1] .

وغَلبَ على الأمُورِ أميرُ الجُيوشِ أبو عَليٍّ بنُ الأفْضَل بن بَدْر الجمَالي فأخْرَجَت الأُمَراء أبا عَليٍّ ، وقدَّموهُ عَليهم ، فأتىٰ إلى القَصْر ، وأمَرَ ونَهىٰ ، وبَقيَ الحافِظُ معه مُنْقَهراً ، فقامَ أبو عَليّ بالمُلكِ أتَمَّ قيامٍ وعَدَلَ في الرَّعيَّة ، وردَّ أمْوالاً كَثيرَة على المُصادَرين ، ووَقفَ عند مَذْهَبِ الشِّيعَة ، وتَمسَّكَ بالإثْنَىٰ عشر ، وتَركَ ما تَقولُه الإسْماعيليَّةُ ، وأعْرَضَ عن الحافِظ وآلِ بَيتِه ، ودَعَا علىٰ مَنابِرِ مِصْرَ للمُنْتَظَرِ صاحبِ السِّرْدابِ علىٰ زَعمِهم ، وكَتبَ اسْمَه على السِّكَّة ، واسْتَمرَّ علىٰ ذلك ، وقَلِقَت الدَّوْلةُ إلىٰ أنْ شَدَّ عليه فارسٌ من الخاصَّة ، فقتَلَه بظاهِرِ القاهِرَة في المُحرَّم سَنةَ سِتٍّ وعشرينَ وخَمسِ مِئَة ، وذلكَ بتَدبيرِ الحافِظِ ، فبادَرَت الأُمَراءُ إلىٰ خِدمَةِ الحافِظِ ، وأخْرَجُوهُ من الضِّيقِ والاعْتِقالِ ، وجَدَّدوا بَيْعَتَه واسْتقَلَّ بالمُلكِ .

وعندَما ماتَ الآمِرُ قَبلَه ، قالَ الجُهَّالُ : هـٰذا بَيتٌ لا يَموتُ إمامٌ منهُم حتىٰ يخلِّفَ ابناً يَنُصُّ علىٰ إمامَتِه ، فخَلَّفَ الآمِرُ حَمْلاً فكانَ بِنْتاً .

وكان الحافِظُ كُلَّما أقامَ وَزيراً تَمكَّنَ ، وحَكمَ عليه ، فيَتَألَّمُ ويَتحيَّلُ عليه ، ويعَملُ علىٰ هَلاكِه وبَقيَ الحافِظُ بلا وَزيرٍ عَشْرَ سِنين .

وماتَ سَنة أرْبَع وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة ، فكانَتْ دَولتُه عِشرينَ سَنةً سِوَىٰ خَمسَةِ أشْهُر وعاشَ سَبعاً وسَبعينَ سَنةً فما بَلغَ أحدٌ هـٰذا السنَّ من العُبَيْديَّة ، وقامَ بعدَه وَلدُه الظَّافِرُ[2] .

الظَّافِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ الظَّافِرُ بالله أبو مَنصُور إسْماعيلُ بنُ الحافِظِ لدين الله .

---

(١) انظر السير : (الحافِظُ لدين الله) ١٥/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٥ .

(٢) انظر السير : (الحافِظُ لدين الله) ١٥/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٥ .

وَلِيَ الأمرَ بعدَ أبيه خَمسَةَ أعْوامٍ ، وكان شاباً جَميلاً وَسيماً لَعَّاباً عَاكِفاً على الأغَانِي والسَّرارىٰ .

اسْتَوْزَرَ الأفْضَلَ سليمَ بنَ مصال فسَاسَ الإقْليمَ .

وانْقَطَعَتْ دَعْوَتُه ، ودَعوَةُ أبيه من سائرِ الشَّامِ والمَغْربِ والحَرَمَينِ ، وبَقيَ لهم إقْليمُ مِصْرَ .

ثم خَرجَ على ابنِ مصال العَادلُ ابنُ السلاَّر ، وحارَبَه وظَفرَ به واسْتأصَلَه واسْتبَدَّ بالأمرِ[1] .

وقَدِمَ من إفْريقية عبَّاسُ بنُ أبي الفُتوح بنُ المَلكِ يَحْيَىٰ بنِ تَميم ابنِ المُعِزِّ بنِ باديس مع أُمِّه صَبياً فتَزوَّجَ العادِلُ بها قبلَ الوِزارَة فتَزوَّجَ عباَّسٌ ، ووُلدَ له نَصْرٌ ، فأحبَّه العادلُ ، ثم جهَّزَ أباهُ للغَزْو فلمَّا نَزلَ ببِلْبيسَ ، ذاكَرَه ابنُ مُنْقِذ[2] ، فاتَّفَقا علىٰ قَتلِ العادِلِ ، وأنْ يأخُذَ عبَّاسٌ مَنْصِبَه فذَبَحَ نَصرٌ العادِلَ علىٰ فِراشِه في المُحَرَّم سنة ثَمانٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مئَة ، وتَملَّكَ عبَّاسٌ وتَمكَّنَ[3] .

وكان ابنُه نَصْرٌ من المِلاحِ فمَالَ إليه الظَّافِرُ وأحَبَّه فاتَّفقَ هو وأبُوه عبَّاسٌ على الفَتْكِ بالظَّافِرِ[4] ، فدَعاهُ نَصرٌ إلىٰ دارِهم ليَأتيَ مُتخَفِّياً ، فجاءَ إلى الدَّارِ التي هي اليَومَ المَدرَسةُ السُّيوفيَّة فشَدَّ نَصرٌ عليه فقتلَه وطَمرَهُ في الدَّارِ وذلكَ في سَنةِ تسْعٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة وعاشَ الظَّافِرُ اثْنَتَينِ وعِشرينَ سَنةً .

ثم رَكبَ عَباسٌ من الغَدِ وأتَى القَصرَ وقالَ : أينَ مَوْلانا ؟ فطَلبُوهُ ففَقَدُوه وخَرجَ

---

(١) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/٢٠٢ـ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٦ .

(٢) أسامة بن منقذ الكناني ، أمير من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (قُرب حماة) ومن العلماء الشجعان ، له تصانيف في الأدب والتاريخ ، ومن أمتع كتبه « الاعتبار » نحا فيه مَنحى السيرة الذاتية تُوفِّي بدمشقَ سنة ٥٨٤ هـ .

(٣) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/٢٠٢ـ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٦ .

(٤) يذكر أسامة بن مُنقذ أن الظافر حمل نصراً علىٰ قتل أبيه ، فاطَّلع والدُه على الأمر فلاطَفه واستماله وقرَّر معه قتل الظافر ، انظر « الاعتبار » ١٩ ـ ٢٠ .

جبريلُ ويوسُفُ أخَوا الظَّافِر ، فقالَ : أين مَوْلانا ؟ قالا : سَلْ ابْنَك ، فغَضِبَ وقالَ : أنتُما قَتلتُماه ، وضَربَ رِقابَهُما في الحَالِ[1] .

الفَائزُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ أبو القَاسِمِ عيسَى ابنُ الظَّافِرِ إسْماعيلَ العُبَيْديُّ[2] .

لما اغْتالَ عَبَّاسٌ الوَزيرُ الظَّافِرَ ، أظْهَرَ القَلقَ ، ولمْ يَكنْ عَلِمَ أهْلُ القَصْر بمَقْتَلِه فطَلَبُوهُ في دُورِ الحُرَم فمَا وَجدُوه وفتَّشُوا عليه وأيِسُوا منه وقالَ عَباسٌ لأخَوَيْه : أنتُما الذين قَتلتُما خَليفتَنا فأصرَّا على الإنْكارِ ، فقَتلَهما نَفْياً للتُّهْمَةِ عَنه واسْتَدعَىٰ في الحالِ عِيسَىٰ هـٰذا ، وهوطِفْلٌ له خَمسُ سِنينَ وقِيلَ : بلْ سَنتَان فحَمَلَه علىٰ كَتفَيْه ، ووَقَفَ باكياً كَئيباً ، وأمَرَ بأنْ تَدخُلَ الأُمَراءُ ، فدَخَلوا فقالَ : هـٰذا وَلدُ مَوْلاكُم ، وقد قَتلَ عَمَّاهُ مَوْلاكُم ، فقَتلتُهما به كَما تَرَوْنَ والوَاجِبُ إخْلاصُ النِّيَّة والطَّاعَة لهـٰذا الوَلَد فقالُوا كُلُّهم : سَمْعاً وطاعَةً ، وضَجُّوا ضَجَّةً قَوِيَةً بذلك ففَزِعَ الطِّفلُ ، وبالَ علىٰ كَتفِ المَلِكِ عَبَّاس ولَقَّبُوهُ الفائزَ ، وبَعثُوهُ إلىٰ أُمِّه ، واخْتَلَّ عَقلُه من حينَئذٍ وصَارَ يَتحرَّكُ ويُصْرَع ، ودَانَت المَمالكُ لعَبَّاسٍ .

وأمَّا أهْلُ القَصْر ، فاطَّلَعُوا علىٰ باطِنِ القَضيَّة ، وأقامُوا المآتِمَ على الثَّلاثَة ، وَتحيَّلوا ، وكاتَبوا طَلائعَ بنَ رُزِّيك الأرْمنيَّ الرَّافِضيَّ[3] وَالي المُنْيَة[4] ، وكان ذَا شَهامَةٍ وإقْدام فسَألوهُ الغوثَ ، وقَطَعوا شُعورَ النِّساءِ والأوْلادِ ، وسَيَّروها في طَيِّ الكتابِ وسَخَّمُوه ، فلمَّا تأمَّلَه اطَّلعَ مَنْ حَوْلَه من الجُنْدِ عَليه ، وبَكَوا ولَبسَ الحِدادَ ، واسْتَمالَ عَربَ الصَّعيدِ ، وجَمعَ وحَشَدَ ، وكاتَبَ أُمَراءَ القاهِرَة ، وهَيَّجَهم علىٰ طَلبِ الثَّأرِ فأجابُوهُ فسَارَ إلى القاهِرَةِ ، فبادَرَ إلىٰ رِكابه جُمهُورُ الجَيشِ ، وبَقيَ عَبَّاسٌ في

---

(١) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٦ .

(٢) انظر السير : (الفائز بالله) ١٥/ ٢٠٥ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٧ .

(٣) لُقِّبَ بالملك الصالح ، كان شُجاعاً حازماً مُدبِّراً ، أصله من الشيعة الإمامية في العراق ، مات غِيلة سنة ٥٥٦ هـ .

(٤) مُنْيَة بني خصيب ، من أعمال صعيد مصر .

عَسْكرٍ قَليلٍ فخَارَت قُواهُ وهَربَ هو وابنُه نَصرٌ ومَماليكُه والأميرُ ابنُ مُنقِذ .

ثم قَصَدَ عَبَّاسٌ الشَّامَ علىٰ ناحيَة أيْلَة في رَبيعِ الأول ، فمَا كانَت أيَّامُه بعدَ قَتلِ الظَّافِرِ إلاَّ يَسيرَةٌ ، واسْتولَى الصَّالحُ طَلائعُ بنُ رُزِّيك علىٰ دِيارِ مِصْرَ بلا ضَربَةٍ ولا طَعنَةٍ ، فنزلَ إلىٰ دارِ عَبَّاس ، وطَلبَ الخَادِمَ الصَّغيرَ الذي كانَ مع الظَّافِرِ ، وسَألَه عن المَكانِ الذي دُفنَ فيه أُسْتاذُه ، فأعْلَمَه فقَلعَ بَلاطَه ، وأخْرَجَ الظَّافِرَ ومَنْ مَعَه من القَتْلَىٰ وحُملُوا وناحُوا عَليهِم وتَكفَّلَ طَلائعُ بالفائزِ ، ودَبَّرَ الدَّولَة .

وجَهَّزَت أُختُ الظَّافرِ رَسُولاً إلى الفِرَنْجِ بعَسْقَلانَ ، وبذَلَت لهم مالاً عَظيماً إنْ أَسَروا لها عَبَّاساً وابنَه ، فخَرجُوا عَليه ، فالْتَقاهُم ، فقُتلَ في الوَقْعَةِ ، وأُخِذَت خَزائِنُه ، وأَسَروا ابنَه نَصْراً ، وبعَثُوهُ إليها في قَفَصٍ حَديدٍ ، فلمَّا وَصَلَ ، قَبضَ رَسُولُهم المَالَ ، وذلكَ في رَبيع الأول سَنةَ خَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، فقُطِعَت يَدُ نَصْر ، وضُربَ بالمَقَارِعِ كَثيراً ، وقُصَّ لَحْمُه ثم صُلِبَ فمَاتَ ، فبَقيَ مُعلَّقاً شُهوراً ، ثم أُحْرِقَ .

ماتَ الفَائزُ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، وله نَحْو من عَشْر سِنينَ ، وبايَعوا العَاضِدَ[1] .

العَاضِدُ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمَتِه : صاحبُ مِصْرَ العاضِدُ لدينِ الله خَاتَمُ الدولَةِ العُبَيْديَّة أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ الأميرِ يُوسُفَ بنِ الحافِظِ لدين اللهِ عبدِ المَجيدِ ، العُبَيْديُّ الحَاكِميُّ المِصْريُّ الإسْماعيليُّ المُدَّعِي هو وأجّدادُه ، أنَّهُم فاطِميُّونَ .

مَوْلدُه سَنةَ سِتٍّ وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة .

أقامَه طَلائعُ بنُ رُزِّيك بعدَ الفائزِ ، فكانَ مِنْ تَحْتِ حِجْرِهِ ، لا حَلَّ لدَيْه ولا رَبْطَ وكان العاضِدُ سَبَّاباً خَبيثاً مُتَخلِّفاً .

قالَ القاضي شَمسُ الدِّينِ بنُ خَلِّكان : كانَ إذا رَأىٰ سُنِّيّاً اسْتحَلَّ دَمَه وسارَ وَزيرُه

---

(١) انظر السير : (الفائز بالله) ١٥/ ٢٠٥ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٧ .

المَلكُ الصَّالحُ طَلائعُ سِيرةً مَذْمُومَة ، واحْتكرَ الغلاَّتِ ، وقَتلَ عِدَّةَ أُمَراء ، وأضْعَفَ أحْوالَ الدَّولَة بقَتلِ ذَوِي الرَّأي والبَأسِ ، وصَادَرَ وعَسَفَ[1] .

وأخذَ طَلائعُ في قَطعِ أخْبارِ العَسْكرِ والأُمَراء ، فتَعاقَدوا بمُوافَقَةِ العاضِد لهم علىٰ قَتلِه ، فكَمَن له عدَّة في القَصْرِ ، فجَرَحُوهُ ، فدَخلَ مَماليكُه ، فقتَلوا أولئكَ ، وحَملوهُ ، فمَا أمْسَىٰ وذلكَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة .

ووَلِيَ مَكانَه ولدُه الملكُ العادلُ رُزِّيك وكان مَليحَ النَّظْمِ ، قَويَّ الرَّفْضِ ، جَواداً شُجاعاً ، يناظِرُ على الإمامَة والقَدَر ، وعَمِلَ قَبلَ مَوْتِه بثَلاثِ لَيالٍ :[2] .

نَحْــنُ فــي غفْلَــةٍ ونَــوْمٍ وللمَــوْ ... تِ عُيــونٌ يَقْظَــانَــةٌ لا تَنَــامُ

قــد رَحَلْنَــا إلــى الحِمَــامِ سِنِينــاً ... لَيـتَ شِعْـري مَتَـىٰ يَكُـونُ الحِمَـامُ

نعَم ، ووَزَرَ للعاضِدِ المَلكُ أبو شُجاع شَاوَرُ السَّعْديُّ ، وكانَ علىٰ نِيابَة الصَّعيدِ من جِهَة طَلائعَ ، فقَويَ ، ونَدِمَ طَلائعُ علىٰ تَوْليَتِه لفُروسيَّتِه وشَهامَتِه ، فأوْصَىٰ طَلائعُ وهو يَموتُ إلى ابنِه أنْ لا يُهيِّجَ شَاوَرَ .

ثم إنَّ شَاوَرَ حَشَدَ وجَمعَ ، واختَرقَ البَرِيَّةَ إلىٰ أنْ خَرجَ من عندِ تَرْوَجَة[3] ، وقَصدَ القاهِرَةَ ، فدَخلَها من غيرِ مُمانعَة ، ثم فَتكَ برُزِّيك وتَمكَّنَ[4] .

ثمَّ قَدِمَ دِمَشْقَ جريدَةً إلىٰ نُورِ الدِّينِ مُسْتَنْجِداً به ، فجَهَّزَ مَعهُ شِيرْكُوه ، بَلْ بَعْدَه بِسَنَة ، فاسْتَردَّ له الوَزارَةَ ، وتَمَكَّنَ ، ولَمْ يُجازِ شِيرْكُوهَ بما يَليقُ به ، فأضْمَرَ له الشَّرَّ ، واسْتَعانَ شَاوَرُ بالفِرَنْجِ ، وتَحَصَّنَ منهم شِيرْكُوهُ ببِلْبِيسَ ، فحَصَرُوهُ مُدَّةً ، حتّىٰ مَلُّوا .

واغْتَنمَ نورُ الدين خُلوَّ الساحلِ منهُم فعَملَ المَصَافَّ علىٰ حارِمٍ وأَسَرَ مُلوكاً في سَنَة تِسْع وخَمسينَ وخمسِ مئَة .

---

(١) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١٢١٨ .

(٢) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٩ .

(٣) قرية بالقُرب من الإسكندرية .

(٤) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٩ .

ورجعَ شِيرْكُوه بعد أمور طويلة الشرح[١] .

ثم سَيَّرَ العاضِدُ يَستَنْجدُ بشيركُوه على الفِرَنْجِ ، فسارَ وهزَمَ الفِرَنْجَ بعد أنْ كادُوا يَأخُذونَ البلادَ ، وهَمَّ شَاوَرُ باغْتيالِ شيركُوه وكِبارِ عَسْكَرِه فناَجَزُوه وقَتلُوه في رَبيع الآخر سَنة أرْبَع وسِتِّينَ قَتلَه جُرْديك النُّوريُّ وصَلاحُ الدِّين[٢] .

فاسْتَوزَرَ العاضِدُ شيركُوه ، فلَمْ يُطَوِّلْ ، وماتَ بالخَانُوقِ بعدَ شَهرَين وأيَّام ، وقامَ بعدَه ابنُ أخيه صَلاحُ الدِّين وكان يُضرَبُ بشَجاعَة أسَد الدِّين شيركُوه المَثَلُ ، ويَخافُه الفِرَنْجُ[٣] .

قال الإمامُ الذهَبيُّ : تَلاشَىٰ أمْرُ العاضِدِ مع صَلاحِ الدِّين إلىٰ أنْ خَلعَهُ ، وخُطبَ لبَني العَبَّاس واسْتأصَلَ شَأفَةَ بَني عُبَيْد ومَحَقَ دَولَةَ الرَّفْضِ وكانُوا أرْبَعةَ عَشرَ مُتَخلِّفاً لا خَليفَة ، والعاضِدُ في اللُّغَة أيضاً القاطِعُ ، فكانَ هـٰذا عاضِداً لدَولَة أهْلِ بَيتِه[٤] .

قالَ ابنُ خَلِّكان : أخْبرَني عالِمٌ أنَّ العاضِدَ رَأىٰ في نَومِه كأنَّ عَقْرَباً خَرجَت إليه من مَسْجدٍ عُرِفَ بها فلَدَغَتْه ، فلمَّا اسْتَيقَظَ طَلبَ مُعبِّراً ، فقالَ : يَنالُك مَكرُوهٌ من رَجلٍ مُقيمٍ بالمَسْجدِ ، فسَألَ عن المَسْجِدِ ، وقالَ للوَالي عنه ، فأُتي بفَقيرٍ ، فسَألَه من أينَ هُو ؟ وفيمَ قَدِمَ ، فرَأىٰ منه صِدْقاً وديناً فقالَ : ادْعُ لنا يا شَيخُ ، وخَلَّىٰ سَبيلَه ، ورَجعَ إلى المَسْجدِ ، فلمَّا غَلبَ صَلاحُ الدِّين علىٰ مِصْرَ ، عَزمَ علىٰ خَلعِ العاضِدِ ، فقالَ ابنُ خَلِّكان : اسْتَفْتِي الفُقَهاءَ ، فأفْتُوا بجَوازِ خَلعِه لما هو من انْحِلالِ العَقيدَة والاسْتهتارِ ، فكانَ أكثَرُهم مُبالَغةً في الفُتيا ذاكَ ، وهو الشَّيخُ نَجْمُ الدِّينِ الخُبُوشانيُّ ، فإنَّه عَدَّد مَساوِىءَ هَؤلاءِ ، وسَلبَ عَنهم الإيمَانَ[٥] .

قالَ أبو شَامَة : كان منهم ثَلاثَةٌ بإفْريقية : المَهْدِي ، والقَائِمُ والمَنْصُورُ ، وأحَدَ

---

(١) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٩ .
(٢) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٠ .
(٣) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٢٠ .
(٤) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٠ .
(٥) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٢٠ .

عَشرَ بِمِصْرَ آخِرُهم العاضِدُ ، ثم قالَ : يَدَّعُون الشَّرفَ ونِسْبَتُهم إلىٰ مَجُوسيٍّ أو يَهوديٍّ ، حتى اشْتَهَر لهم ذلكَ ، وقيلَ : الدَّولَةُ العَلَويَّة ، والدَّولَةُ الفاطِميّة ، إنَّما هي الدَّولَةُ اليَهوديَّةُ أو المَجُوسيَّةُ المُلْحِدَةُ الباطِنيَّةُ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانت دَولتُهم مئتي سَنةٍ وثَمانياً وستِّينَ سَنةً ، وقد صَنَّفَ القاضي أبو بَكْر بنُ الباقِلاَّني كتابَ « كشْفِ أسْرارِ الباطِنيّة » فافْتَتَحه ببُطلانِ انْتِسابِهِم إلى الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وكذلكَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُعْتَزليُّ .

هَلكَ العاضِدُ يَومَ عَاشُوراءَ سَنةَ سَبعٍ وستِّينَ وخَمسِ مِئَة بذَرَبٍ مُفْرِط وقِيلَ مَاتَ غَمَّا لَمَّا سَمعَ بقَطْعِ خُطبَتِه وإقامَةِ الدَّعْوَةِ للمُسْتَضيءِ .

وتَسلَّمَ صَلاحُ الدِّينِ القَصْرَ بما حَوَىٰ من النَّفائسِ ، والأَموالِ ، وقَبضَ أيضاً علىٰ أوْلادِ العاضِدِ وآلِه ، فسَجَنَهم في بَيتٍ من القَصْر ، وقَمَعَ غِلْمانَهم وأنْصارَهم ، وعَفَىٰ آثارَهم .

قالَ العِمادُ الكَاتِبُ : وهم الآن مَحْصُورونَ مَحْسُورونَ لَمْ يَظْهَروا وقد نَقَصوا وتَقلَّصُوا ، وانْتَقَىٰ صَلاحُ الدِّينِ ما أحَبَّ من الذَّخائرِ ، وأطْلَقَ البَيعَ بعدُ في ما بَقي ، فاسْتَمرَّ البَيعُ فيها مُدَّةَ عَشْرِ سِنينَ[1] .

ومن كتاب من إنشاء القاضي الفاضل شَمسِ الدين ابنِ خَلِّكان إلىٰ بَغْدادَ : (وقَد تَوالَت الفُتُوحُ غَرباً ويَمَناً وشاماً وصارت البلادُ بل الدُّنيا والشهرُ ، بل والدَّهْرُ حَرماً حَراماً وأضْحَى الدينُ واحداً بعدَ أنْ كان أدْياناً ، والخِلافَةُ إذا ذُكِّرَ بها أهلُ الخِلافِ لمْ يَخِرُّوا عليها صُمَّا وعُمْياناً ، والبدْعَةُ خَاشِعَةً ، والجُمُعَةُ جامِعَةً ، والمَذَلَّةُ في شِيَعِ الضَّلالِ ، شائعَةً ذلكَ بأنَّهم اتَّخذوا عبادَ الله من دُونه أوْلياءَ ، وسَمُّوا أعْداءَ اللهِ أصْفياءَ وتَقطَّعُوا أمرَهم بينَهم شِيَعاً ، وفرَّقُوا أمرَ الأُمَّة وكانَ مُجْتمعاً ، وقُطعَ دَابرُهم ، ورَغِمَت أنُوفُهم ومَنابرُهم ، وحَقَّت عَليهم الكلمَةُ تَشْريداً وقَتْلاً ، وتَمَّتْ كلماتُ ربِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً ، وليسَ السَّيفُ عَمَّنْ سِواهم من الفِرَنْج بصائمٍ ، ولا اللَّيلُ عن السَّيرِ إليهم بنائمٍ) .

---

(١) انظر السير : (العاضِد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١٢٢٠/٥ .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في نهايَة تَراجِم بَني عُبَيْد الله الرَّافِضيّ : أَعْجَبَني سَرْدُ هـٰؤلاء العُبَيْديَّة على التَّوالي ، ليَتَأمَّله النَّاظرُ مُجْتَمعاً فلْنَرجِعْ الآن إلىٰ تَرْتيبِ الطِّباق في حُدُود العشرين وثلاث مئة وما بَعدَها[1] .

وقال عليُّ بنُ عُمر الحَرَّانِيّ سَمعتُ حَمزَةَ بنَ محمد الحَافِظ ، وجاءَه غَريبٌ فقال : إنَّ عَسْكَرَ أبي تَميمٍ ـ يَعني المَغَارِبة ـ قد وصَلُوا إلى الإسْكندرية فقالَ : اللَّهُمَّ لا تُحْيِيني حتىٰ تُرِيني الرَّايَاتِ الصُّفْر ، فمَاتَ حَمزةُ ودَخَلَ عَسْكَرُهم بعد مَوْتِه بثلاثة أيام[2] .

قال الذهبيُّ : هـٰؤلاء عَسكرُ المُعزِّ العُبَيديّ الإسماعيليَّة ، تَملَّكوا مصرَ في هـٰذا الوقت ، وبنوا في الحال مدينةَ القاهرة المُعِزِّيَّة ، فأماتوا السُّنَّة ، وأظْهَروا الرَّفضَ ، ودامت دولتُهم أزيَدَ من مئتي عام ، حتىٰ أبادَهم السلطانُ صلاحُ الدين ، ونَسَبُهم إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه غيرُ صحيح[3] .

وقَدمَ الأميرُ جَوْهَرُ الرُّوميُّ من جهَة مَوْلاهُ المُعِزِّ في جَيشٍ عَظيمٍ في سَنةِ ثَمان وخَمسينَ وثَلاثِ مئَة ، فاسْتَولَىٰ علىٰ إقْليمِ مِصْرَ وأكْثرِ الشَّام ، واخْتطَّ القاهِرَةَ وبَنىٰ بها دَارَ المُلكِ ، وكان عَاليَ الهِمَّة ، نافِذَ الأمْرِ ، وتَهيَّأ له أخْذُ البلادِ بمُكاتَبةٍ من أُمَراءِ مِصْرَ ، قَلَّت عليهم الأمْوالُ ، ولَمَّا وَصلَت كتائبُ العُبَيْديَّة ـ وكانوا نَحْواً من مئَة ألفٍ ـ بَعثَ إلىٰ جَوْهرَ وُجوهُ المِصْرِيِّينَ يَطلُبونَ الأمانَ وتَقريرَ أمْلاكِهم ، فأجابَهم ، وكَتبَ بذلكَ عَهْداً ، واختلفَتْ كَلمَةُ الإخْشِيذيَّة ، ووَقَعَ حَربٌ يَسيرٌ .

وقِيلَ : بَلْ قُتلَ خَلقٌ من الإخْشِيذيَّة ، وانْهزَمَ الباقون ، ثم نفَذوا يَطلُبون أماناً ، فأمَّنَهم جَوهَرُ ، ومَنعَ جَيشَه من نَهْبِ الرَّعيَّة وفُتحَت أسْواقُ مِصْرَ ، ثم دَخلَ في هَيئَة المُلوكِ وعَليه قَباءُ ديباج فحَفَر للَيلَتِه أساسَ قَصْر الخِلافَة ، وبَعثَ إلى المُعِزِّ برُؤوسِ القَتلَىٰ وقُطِعَت الخُطبَةُ العَبَّاسيَّة ، وأُلْبِسَ الخُطَباءُ البَياضَ ، وأذَّنوا بـ « حَيِّ عَلىٰ خَيرِ العَمَلِ »[4] .

---

(١) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢١ .

(٢) انظر السير : (حَمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨١ .

(٣) انظر السير : (حَمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨١ .

(٤) انظر السير : (جَوْهَر) ١٦/ ٤٦٧ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٦ .

وجاءَ في تَرجمةِ الأميرِ جَوْهَر قائد الجُيوش الرُّوميّ المَغْربيّ ، قال الذهبيُّ : كان جَوْهَرُ هـٰذا حَسَنَ السِّيرَة في الرَّعايَا ، عاقِلاً أدِيباً شُجاعاً ، مَهيباً ، لَكنَّه علىٰ نِحْلَةِ بَني عُبَيْد التي ظاهِرُها الرَّفْضُ وباطِنُها الانْحِلالُ ، وعُمُومُ جُيُوشِهم بَرْبَرٌ وأهْلُ زعارة وشَرٍّ ، لا سِيَّما مَنْ تَزَنْدَقَ منهُم ، فكانُوا في مَعْنَى الكَفَرَة ، فيَا ما ذَاقَ المُسلِمُونَ منهم من القَتلِ ، والنَّهبِ ، وسَبْي الحَريمِ ، ولا سِيَّما في أوائِل دَوْلَتِهم حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ قامُوا عَليْهم وقَتَلُوا فيهم ، فهَرَبُوا حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ اسْتَنْجَدُوا بنصَارَى الرُّوم فجاؤُوا في المَرَاكِبِ وكان أهلُ صُورٍ قد لَحِقَهُم من المَغَارِبَة من الظُّلْمِ والجَورِ وأخْذِ الحَريمِ من الحَمَّاماتِ والطُّرُقِ أمْرٌ كَبيرٌ .

ولقد كانَ المُعِزُّ في زَمانِه أعْظَمَ بكَثير من خُلفَاءِ بَني العَبَّاس[1] .

وكانت الدَّولَةُ الباطِنيَّةُ قد مَنَعو الإمامَ أبا إسْحاقَ إبْراهيمَ الحَبَّالَ من التَّحْديثِ ، وأخَافُوهُ ، وهَدَّدوهُ فامْتَنعَ من الرِّوايَة ، ولَمْ يَنْتَشِرْ له كَبيرُ شَيء[2] .

قالَ القاضي أبو عَلي الصَّدَفيُّ : مُنعْتُ من الدُّخُولِ إلى الإمامِ أبي إسْحاقَ الحَبَّال إلاَّ بشَرطِ أنْ لا يُسمعني ، ولا يَكتبَ إجازةً ، فأوَّلُ ما فاتَحْتُه الكَلامَ خَلَّط في كَلامِه وأجَابَني علىٰ غيرِ سُؤالِي حَذَراً من أنْ أكُونَ مَدْسُوساً عليه ، حَتىٰ بَسَطتُه ، وأعْلَمتُه أنِّي أنْدَلُسي أُريدُ الحَجَّ ، فأجَازَ لي لَفْظاً وامْتَنَعَ من غَيرِ ذلكَ[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قَبَّح اللهُ دَولَةً أماتَت السُّنَّة وروايَةَ الأثارةِ النَّبَويَّة وأَحْيَت الرَّفْضَ والضَّلالَ ، وبَثَّت دُعاتِها في النَّواحِي تُغْوي النَّاسَ ويَدعُونَهم إلىٰ نِحْلةِ الإسْماعيليَّة ، فبهم ضَلَّت جَبليَّة الشَّامِ وتَعثَّرُوا ، فنَحمَدُ اللهَ على السَّلامَة في الدِّين[4] .

---

(١) انظر السير : (جَوْهَر) ١٦/ ٤٦٧ـ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٦ .
(٢) انظر السير : (الحَبَّال) ١٨/ ٤٩٥ـ٥٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣٥ .
(٣) انظر السير : (الحَبَّال) ١٨/ ٤٩٥ـ٥٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٣٥ .
(٤) انظر السير : (الحَبَّال) ١٨/ ٤٩٥ـ٥٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٣٥ .

(ب) الدَّوْلَة الفاطِميَّة تدَّعي زُوراً النَّسَبَ الشَريف :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمَة المَهْدي ، أوَّل مَنْ قامَ من الخُلفَاءِ الخَوارج العُبَيْديَّة الباطِنيَّة : والمُحقِّقُونَ علىٰ أنَّه دَعِيٌّ بحَيث إنَّ المُعِزَّ منهُم لمَّا سَألَهُ السَّيدُ ابنُ طَباطَبا عن نَسَبه ، قال : غداً أُخرِجُهُ لَكَ ، ثمَّ أصْبَحَ وقد أَلْقَىٰ عَرَمَةً[1] من الذَّهَبِ ، ثمَّ جَذَبَ نِصْفَ سَيْفِه من غِمْدِه ، فقالَ : هـٰذا نَسَبِي ، وأمَرَهُم بنَهْبِ الذَّهَبِ ، وقالَ : هـٰذا حَسَبِي .

وقد صَنَّفَ ابنُ الباقِلاَّنيِّ وغَيرُه من الأئِمَّة في هَتْكِ مَقالاتِ العُبَيْديَّة وبُطْلانِ نَسَبهِم ، فهَـٰذا نَسَبُهُم ، وهَـٰذِه نِحْلَتُهُم ، وقد سُقْتُ في حَوادِثِ « تاريخِنا » من أحْوالِ هؤلاءِ وأخْبارِهِم في تَفارِيقِ السِّنينِ عَجائِبَ .

فرأىٰ عُبيدُ الله أنَّ ما يَرومُه من المُلك ، لا يَنبَغي أنْ يَكونَ ظُهورُه بالعِراق ولا بالشَّام ، فبعثَ أولاً له داعِيَيْن شَيطانَيْن داهيَتَيْن ، وهما الأخَوان أبو عبد الله الشِّيعيِّ ، وأخُوه العبَّاس ، فظَهَرَ أحدُهما باليَمَن والآخَرُ بإفْريقية ، وأظْهَرَ كلٌّ منهما الزُّهْدَ والتَّألُّهَ وأدَّبا أولادَ النَّاسِ ، وشَوَّقا إلى الإمامِ المَهْديِّ[2] .

قالَ ابنُ خَلِّكانَ وغَيرُه : أكثرُ أهْلِ العلم لا يُصَحِّحُونَ نَسَبَ المَهْديِّ عُبَيْد الله جَدِّ خُلَفاء مِصْرَ ، حتىٰ إنَّ العَزيزَ في أوَّلِ وِلايَتِه صَعدَ المِنْبَرَ يومَ جُمُعَة ، فوجَدَ هناك رُقْعَةً فيها :

إذَا سَمِعْنَـا نَسَبـاً مُنْكَـراً ... نَبْكـي عَلـى المِنْبَـرِ والجَـامـعِ
إنْ كُنْـتَ فيمَـا تَـدَّعِـي صَـادِقـاً ... فَـاذْكـر أبـاً بَعْـدَ الأب الـرَّابـعِ
وإنْ تُـرِدْ تَحْقِيـقَ مَـا قُلْتَـه ... فَـانْسُـبْ لَنَـا نَفْسَـكَ كَـالطَّـائـعِ
أوْ لا دَع الأَنْسَـابَ مَسْتُـورَةً ... وادْخُـل بِنَـا فـي النَّسَـبِ الـوَاسـعِ
فـإنَّ أَنْسَـابَ بَنِـي هَـاشِـمٍ ... يَقْصُـرُ عَنْهَـا طَمَـعُ الطَّـامـعِ

---

(١) العَرَمة : بالتحريك : مجمع رمل ، وقد استعمله هنا بمعنىٰ كومة من الذهب .

(٢) انظر السير : (المَهْديّ وذُريَّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٧ .

وصَعَدَ مرَّةً أخْرَىٰ ، فرأىٰ وَرَقةً فيها :

بــالظُّلْــمِ والجَــوْرِ قَــدْ رَضِينَــا	وَلَيْــسَ بــالكُفْــرِ والحَمَــاقَــة
إنْ كُنْــتَ أُعْطِيــتَ عِلْــمَ غَيْــبٍ	فقُــلْ لَنَــا كَــاتِــبَ البِطَــاقَــة

ثم قالَ ابنُ خَلِّكانَ : وذلك لأنَّهم ادَّعَوْا عِلمَ المُغَيَّبات ولهم في ذلك أخْبارٌ مَشْهُورَة .

وفُتحت للعَزيز حَلَبُ وحَماةُ وحِمْصُ وخَطَبَ أبو الذَّوَّاد محمدُ ابنُ المُسَيِّبِ بالمُوصِلِ له ورَقَمَ اسْمَه على الأعْلامِ والسِّكَّة سنةَ ٣٨٣ هـ ، وخُطبَ له أيضاً باليَمَنِ وبالشَّامِ ومَدائنِ المَغْربِ .

وكانت دَولةُ هـٰذا الرَّافضيِّ أعْظَمَ بكَثير من دَولةِ أميرِ المؤمنينَ الطَّائعِ ابنِ المُطيعِ العبَّاسيِّ .

وفي أيَّامه أُظْهِرَ سَبُّ الصَّحابَة جِهاراً[1] .

قالَ أبو شَامَة : كان منهم ثَلاثَةٌ بإفْريقية : المَهْدِي ، والقَائِمُ والمَنْصُورُ ، وأحَدَ عَشرَ بمِصْرَ آخِرُهم العاضِدُ ، ثم قالَ : يَدَّعُون الشَّرفَ ونِسْبَتُهم إلىٰ مَجُوسيٍّ أو يَهوديٍّ ، حتى اشْتَهَر لهم ذلكَ ، وقيلَ : الدَّولَةُ العَلَويَّة ، والدَّولَةُ الفاطِميَّة ، إنَّما هي الدَّولَةُ اليَهوديَّةُ أو المَجُوسيَّةُ المُلْحِدَةُ الباطِنيَّةُ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانت دَولتُهم مئتي سَنةٍ وثَمانياً وسِتِّينَ سَنةً ، وقد صَنَّفَ القاضي أبو بَكْر بنُ الباقِلاَّني كتابَ « كشْفِ أسْرارِ الباطِنيّة » فافْتَتَحه ببُطلانِ انْتِسابِهِم إلى الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وكذلكَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُعْتَزليُّ .

هَلكَ العاضِدُ يَومَ عَاشُوراءَ سَنةَ سَبعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مِئَة بذَرَبٍ مُفْرِط وقِيلَ : مَاتَ غَمًّا لَمَّا سَمعَ بقَطْعِ خُطبَتِه وإقامَةِ الدَّعْوَةِ للمُسْتَضيءِ .

وتَسلَّمَ صَلاحُ الدِّينِ القَصْرَ بما حَوَىٰ من النَّفائسِ ، والأَموالِ ، وقَبضَ أيضاً علىٰ

---

(١) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٦ .

أوْلادِ العاضِدِ وآلِه ، فسَجَنَهم في بَيتٍ من القَصْر ، وقَمَعَ غِلْمانَهم وأنْصارَهم ، وعَفَىٰ آثارَهم .

قالَ العِمادُ الكَاتِبُ : وهم الآن مَحْصُورونَ مَحْسُورونَ لَمْ يَظْهَروا وقد نَقَصوا وتَقَلَّصُوا ، وانُتَقَىٰ صَلاحُ الدِّينِ ما أَحَبَّ من الذَّخائرِ ، وأطْلَقَ البَيعَ بعدُ في ما بَقي ، فاسْتَمَرَّ البَيعُ فيها مُدَّةَ عَشْرِ سِنينَ[1] .

(ج) مَوْقِف العُلَماء والصَّالحين منها :

قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ ، صاحبُ الملخَّص : إنَّ الذين قَتلَهم عُبَيدُ الله وبَنُوه أربَعَةَ آلافٍ في دارِ النَّحْر في العَذابِ من عالمٍ وعابد ليَرُدَّهم عن التَّرَضِّي عن الصَّحابَة ، فاخْتارُوا المَوتَ .

وفي أيَّامِ المَهْدي ، عاثَت القَرامِطَةُ بالبَحْرَين ، وأخَذُوا الحَجيجَ وقَتلُوا وسَبوا ، واسْتَباحُوا حَرَمَ الله ، وقَلَعُوا الحَجَرَ الأسْوَدَ ، وكان عُبَيدُ الله يُكاتِبُهم ، يُحرِّضُهم قاتَلَه الله .

وكان مَوتُه ، سَنَةَ اثْنَتَين وعشرينَ وثلاثِ مئَة وله اثْنَتَانِ وستُّونَ سَنَةً ، وكانت دَولَتُه خَمْساً وعشرينَ سَنةً وأشْهُراً[2] .

نَقلَ القاضي عِياض في ترْجَمة أبي محمَّد الكستراتي ، أنَّه سُئلَ عمَّن أكْرَهَه بَنو عُبَيد على الدُّخُولِ في دَعْوَتهم أوْ يُقتَل ؟ فقالَ : يَخْتارُ القَتلَ ولا يُعْذَر ، ويَجبُ الفِرارُ ، لأنَّ المُقامَ في مَوْضِع يُطلَبُ من أهْلِه تعطيلُ الشَّرائعَ ، لا يَجوزُ .

قالَ القاضي عِياض : أجْمَعَ العُلماءُ بالقَيْرَوانِ ، أنَّ حَالَ بَني عُبَيْد حالُ المُرْتَدِّينَ والزَّنادِقَة[3] .

وجاءَ في تَرْجَمَة القائِمِ أبي القاسِم مُحمَّدِ بنِ المَهْديِّ عُبَيْدِ الله ، صاحِبِ المَغْرِب ،

---

(١) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١٢٢٠/ ٥ .

(٢) انظر السير : (المَهْدي وذُريّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١١٩٨/ ٢ .

(٣) انظر السير : (المَهْدي وذُريّته) ١٥/ ١٤١ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١١٩٩/ ١ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : خَرَجَ عليه في سَنَةِ اثْنَتَينِ وثلاثين وثلاثِ مِئَة ، أبُو يَزيدَ مَخْلَدٌ بنُ كَيْدادَ البَرْبَريُّ وجَرَتْ بَينَهُما مَلاحِمُ ، وحَصَرَه مَخْلَدٌ بالمَهْديَّة ، وضَيَّقَ عليه ، واسْتَولَىٰ علىٰ بِلادِه ، ثمَّ وُسْوِسَ القائِمُ ، واخْتَلَطَ وزالَ عَقلُه وكانَ شَيْطاناً مَريداً يَتزَنْدَقُ[١] .

ذَكرَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُتكلِّمُ ، أنَّ القائِمَ أظْهَرَ سَبَّ الأنْبياءِ وكان مُنادِيهِ يَصِيحُ : الْعَنوا الغَارَ وما حَوَىٰ وأَبادَ عِدَّةً من العُلَماءِ وكان يُراسِلُ قَرامِطَةَ البَحْرَيْنِ ، ويأمُرُهم بإحْراقِ المَساجِدِ والمَصاحِفِ فتَجَمَّعتْ الإباضِيَّةُ[٢] والبَرْبَرُ علىٰ مَخْلَد ، وأَقْبَلَ ، وكانَ ناسِكاً قَصيرَ الدَّلقِ[٣] يَركَبُ حِماراً ، لَكنَّهُم خَوارِج ، وقامَ معه خَلقٌ من السُّنَّةِ والصُّلَحاءِ ، وكادَ أنْ يَتملَّكَ العالَمَ ، ورُكِّزَتْ بُنودُهُم عند جامِعِ القَيْرَوانِ فيها : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، لا حُكْمَ إلاَّ لله ، وبَنْدانِ أصْفَرانِ فيهِما : نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قَريبٌ وبَنْدٌ لمَخْلَد فيه : اللهُمَّ انْصُرْ وَليَّكَ علىٰ مَنْ سَبَّ نَبيَّكَ وخَطَبَهُم أحْمدُ بنُ أبي الوَليد ، فحَضَّ على الجِهادِ ، ثمَّ سارُوا ، ونازَلُوا المَهْديَّةَ ولمَّا الْتَقَوا وأيْقَنَ مَخْلدٌ بالنَّصْرِ ، تَحرَّكَتْ نَفسُه الخارِجيَّةُ ، وقال لأصْحابِه : انْكَشِفُوا عَن أهْلِ القَيْرَوانِ حتىٰ يَنالَ منهُم عَدُّوهم ، ففَعلوا ذلكَ فاسْتُشْهِدَ خَمسَةٌ وثَمانونَ نَفْساً من العُلَماءِ ، والزُّهادِ .

وخَوارِجُ المَغْربِ إبَاضيَّةٌ مَنْسوبُونَ إلىٰ عبدِ الله بنِ يَحْيَىٰ بنِ إباض الذي خَرَجَ في أيّامِ مَرْوانَ الحِمار ، وانْتَشَرَ أتْباعُه بالمَغْربِ ، يَقولُ : أفْعالُنا مَخْلوقَةٌ لنا ويُكَفِّرُ بالكَبائِرِ ، ويَقولُ : لَيسَ في القُرآنِ خُصوصٌ ، ومَنْ خالَفَه حَلَّ دَمَه .

وكانَ مَوتُ القائِمِ سَنةَ أرْبعٍ وثَلاثينَ مَحْصوراً بالمَهْديَّةِ ، لَكنْ قامَ بَعدَه ابنُه المَنْصُورُ[٤] .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٩ .

(٢) من أكبر فرق الخوارج ، وهم أصحاب عبد الله بن يحيى بن إباض الملقب بـ « طالب الحق » ، من أهل اليمن ، خلع طاعة مروان بن محمد وبويع له بالخلافة ، واستولىٰ علىٰ صنعاء ومكة ، قُتل سنة ١٣٠هـ .

(٣) الدلق : ثوب متسع الأكمام طويلها (صبح الأعشىٰ) ٤/ ٤٢ .

(٤) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٩٩ .

وقد أجْمَعَ عُلماءُ المَغْربِ علىٰ مُحارَبَة آلِ عُبَيْد لما شَهرُوه من الكُفْر الصّراح الذي لا حيلَةَ فيه[1] .

وعُوتِبَ بَعضُ العُلماءِ في الخُروجِ مع أبي يَزيد الخارِجيِّ ، فقالَ : وكَيفَ لا أخْرُجُ وقد سَمعتُ الكُفرَ بأُذُني ؟!! حَضَرتُ عَقداً فيه جَمعٌ من سُنَّةٍ ومَشارِقَة ، وفيهم أبو قُضاعَة الدَّاعِي ، فجاءَ رَئيسٌ ، فقالَ كَبيرٌ منهُم : إلىٰ هنا ياسَيِّدي ارْتَفعْ إلىٰ جانِبِ رسُولِ اللهِ ، يَعْني أبا قُضاعَة ، فما نَطَقَ أحَدٌ .

ووُجِدَ بخَطِّ فَقيهٍ ، قال : في رَجَبَ سَنَةَ ٣٣١ هـ ، قامَ المُكَوكب يَقْذِفُ الصَّحابَةَ ، ويَطْعَنُ علـى النَّبـيِّ صلـى الله عليـه وسلـم ، وعُلِّقَـتْ رُؤوسُ حَميـرٍ وكِبـاشٍ علـى الحَوانيتِ ، كُتِبَ عليها أنَّها رُؤوسُ صَحابَةٍ[2] .

وخَرَجَ أبو إسْحاقَ الفَقيهُ مع أبي يَزيد ، وقال : هُمْ أهْلُ القِبْلَةِ وأولئِكَ لَيْسوا أهْلَ قِبْلَةٍ ، وهُم بَنُو عَدُوِّ الله ، فإنْ ظَفِرْنا بهم ، لَمْ نَدخُلْ تَحتَ طاعَةِ أبي يَزيدَ ، لأنَّه خارِجيٌّ[3] .

قالَ أبو مَيْسَرَة الضَّريرُ : أدْخَلَني اللهُ في شَفاعَةِ أسْوَد رَمَىٰ هٰؤلاء القَوْمَ بحَجَر[4] .

وقالَ السَّبَائيُّ : أي والله نَجدُّ في قَتلِ المُبَدِّلِ للدِّين[5] .

وتَسارَعَ الفُقَهاءُ والعُبَّادُ في أُهْبَةٍ كاملة بالطُّبولِ والبُنُودِ وخَطبَهم في الجُمُعَة أحمَدُ بنُ أبي الوَليد ، وحَرَّضَهم وقالَ : جاهِدُوا مَنْ كَفَرَ بالله وزَعَمَ أنَّه رَبٌّ من دُونِ الله ، وغَيَّرَ أحْكامَ الله ، وسَبَّ نَبيَّه وأصْحابَ نَبيِّه فبَكَى النَّاسُ بُكاءً شَديداً وقالَ : اللَّهُمَّ إنَّ هٰذا القِرمِطيَّ الكافرَ المَعْروفَ بابنِ عُبَيد الله ، المُدَّعِي الرُّبُوبيَّة ، جاحِدٌ لنِعْمَتِك ، كافِرٌ برُبُوبيَّتِك ، طاعِنٌ علىٰ رُسُلِك ، مُكَذِّبٌ بمُحمَّد نَبيِّك سافِكٌ للدِّماءِ

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠٠/١ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠٠/٢ .

(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/١ .

(٤) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/٢ .

(٥) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/٣ .

فالْعَنْهُ لَعْناً وَبيلاً ، واخْزِهِ خِزْياً طَويلاً ، واغْضَبْ عَليه بُكْرةً وأصيلاً ثم نَزَلَ فصَلَّىٰ بهم الجُمُعَة[1] .

ورَكبَ رَبيعُ القَطَّان[2] فرَسَه مُلبساً ، وفي عُنُقِه المصْحَف ، وحَولَه جَمعٌ كَبيرٌ ، وهو يَتلُو آياتِ جِهَادِ الكَفَرَة فاسْتُشهِدَ رَبيعٌ في خَلقٍ من النَّاسِ يَومَ المَصافِّ في صَفَر سَنَة أرْبَع وثَلاثينَ وكان غَرَضُ هـٰؤلاء المَجُوسَ بَني عُبَيْد أخْذَه حيّاً ليُعذِّبُوه قالَ أبو الحَسَن القابسيُّ : اسْتُشهِدَ معه فُضَلاءُ ، وأئمَّةٌ ، وعُبَّاد .

وقالَ بعضُ الشُّعَراء في بَني عُبَيْد[3] :

المَـاكِـرُ الغَـادِرُ الغَـاوي لشِيعَتِـهِ ... شَـرُّ الـزَّنَـادِقِ مِـنْ صَحْـبٍ وتُبَّـاعِ
العَـابـديـنَ إذَا عِجْـلاً يُخَـاطِبُهُـم ... بسِحْـرِ هَـارُوتَ مِـنْ كُفْـر وإبْـداعِ
لَـوْ قِيـلَ للـرُّومِ أنْتُـمْ مِثْلُهُـم لَبَكَـوْا ... أوْ لليَهُـودِ لَسَـدُّوا صَمْـخَ أسْمَـاعِ

وذكرَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمَة المَنْصُور قال : وَلِيَ بعدَ أبيهِ ، وحارَبَ رَأسَ الإبَاضيَّة أبا يَزيد مَخْلدَ بنَ كَيْدادَ الزَّاهِد ، والْتَقي الجَمْعان مَرَّاتٍ ، وظَهَرَ مَخْلدُ علىٰ أكْثَرِ المَغْرِب ، ولَمْ يَبْقَ لِبَني عُبَيْد سِوَى المَهْديَّة[4] .

فنَهَضَ المَنْصورُ ، وأخْفَىٰ مَوتَ أبيهِ ، وصَابَرَ الإبَاضيَّةَ حتىٰ تَرَحَّلوا عنه ، ونازَلُوا مَدينَةَ سُوسَة ، فبَرَزَ المَنصُورُ من المَهْديَّة ، والْتَقَوا فانْكَسَرَ جَيشُ مَخْلد علىٰ كَثْرَتِهم ، وأُسِرَ هو في سَنَةِ ٣٣٦ هـ ، فماتَ بعدَ الأسْرِ بأرْبَعةِ أيّامٍ من الجِراحِ ، فسُلِخَ وحُشِيَ قُطْناً ، وصُلِبَ .

وبَنَوْا مَدينَةَ المَنْصوريَّةَ مكانَ الوَقْعَةِ ، فنَزَلَها المَنْصورُ .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/٤ .
(٢) ربيع بن سليمان بن عطاء الله ، القطَّان ، كان لسان إفريقية في وقته في الزُّهْد والرقائق ، وكان جعل علىٰ نفسه ألا يشبع من طعام ولا نوم حتىٰ يقطع الله دولة بني عُبَيْد انظر ترجمته في : « ترتيب المدارك » ٣/ ٣٢٣ـ ٣٣٢ .
(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١٢٠١/٤ .
(٤) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/٢ .

وكان بَطَلاً شُجاعاً ، رابطَ الجأشِ ، فَصيحاً مُفَوَّهاً يَرْتَجِلُ الخُطَبَ وفيه إسْلامٌ في الجُمْلَة وعَقلٌ بخِلافِ أبيهِ الزِّنْدِيقِ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ المُعِزِّ بنِ المَنْصُورِ العُبَيْديِّ حينما اسْتَولَىٰ علىٰ مِصْرَ : فتَهيَّأَ المُعِزُّ ، وسارَ بخَزائنِه ، وتَوابيتِ آبائِه وكان دُخُولُه إلى الإسْكَنْدَريَّة في شَعْبانَ سَنةَ اثنتين وستِّينَ وثلاث مئَة وتَلقَّاهُ قاضي مِصْرَ الذُّهْليُّ وأعيانُها ، فأكْرَمَهُم وطال حَديثُه مَعَهم وعرَّفهم أنَّ قَصْدَه الحَقُّ والجِهَادُ ، وأنْ يَختمَ عُمرَه بالأعْمال الصَّالِحَة ، وأنْ يُقيمَ أوامرَ جَدِّه رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ووَعَظَ وذَكَّر حتىٰ أعْجَبَهم ، وبَكىٰ بَعضُهم ثم خَلعَ عليهم ، وقال للقاضي أبي الطَّاهِر الذُّهْليِّ : مَنْ رَأيتَ من الخُلَفاء ؟ فقالَ : واحداً ، قالَ : مَنْ هو ؟ قال : مَوْلانا ، فأعْجَبَه ذلك .

ثم إنَّه سارَ حتىٰ خَيَّم بالجِيزَة فأخَذَ عَسْكرُه في التَّعْديَة إلى الفُسْطاطِ ، ثم دَخَلَ القاهِرَةَ ، وقد بُنِيَ له بها قَصرُ الإمارَة ، وزُيِّنَت مِصْرُ ، فاسْتَوىٰ علىٰ سَرير مُلْكِه ، وصَلَّىٰ رَكعَتين .

وكان عَاقلاً لَبيباً حَازِماً ذا أدَبٍ وعِلمٍ ومَعْرفَةٍ وجَلالَةٍ وكَرَمٍ يَرجعُ في الجُملَة إلىٰ عَدْلٍ وإنْصافٍ ، ولَوْلا بِدْعَتُه ورَفْضُه ، لكان من خِيارِ المُلوك[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الحُبُليِّ : الإمامُ الشَّهيدُ قاضي مَدينَة بَرْقَة ، محَمَّد بنُ الحُبُلي .

أتاهُ أميرُ بَرْقَة ، فقالَ : غَداً العيدُ ، قالَ : حَتىٰ نَرى الهِلالَ ولا أُفَطِّرُ النَّاسَ ، وأتَقلَّدُ إثمَهم ، فقالَ : بهٰذا جاءَ كتابُ المَنْصُورِ ـ وكانَ هٰذا من رَأي العُبَيْديَّة يُفْطِرونَ بالحِسابِ ، ولا يَعتَبرونَ رُؤيَةً ـ فلمْ يُرَ هِلالٌ ، فأصْبَحَ الأميرُ بالطُّبُولِ والبُنُودِ وأُهْبَةِ العِيدِ فقالَ القاضي : لا أخْرُجُ ولا أُصَلِّي ، فأمَرَ الأميرُ رَجُلاً خَطَبَ وكَتبَ بما جَرَىٰ إلى المَنْصُورِ فطَلَبَ القاضي إليه ، فأُحْضِرَ ، فقالَ له : تَنَصَّلْ ، وأَعْفُو عَنكَ ، فامْتَنعَ

---

(١) انظر السير : (المنْصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٠٢ .

(٢) انظر السير : (المُعِزُّ) ١٥/١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٤ .

فأمَرَ ، فعُلِّقَ في الشَّمسِ إلىٰ أنْ ماتَ ، وكانَ يَستَغيثُ العَطَشَ ، فلَمْ يُسْقَ ثم صَلبُوه علىٰ خَشَبةٍ فلَعْنةُ الله على الظَّالمينَ[1] .

الشهيد :

جاءَ في تَرْجَمَة الشَّهيد : الإمامُ القُدوَةُ الشَّهِيدُ أبو بَكْر مُحمَّدُ ابنُ أحمَدَ بنِ سَهْل الرَّمليّ ، ويُعْرفُ بابنِ النَّابُلسيّ[2] .

وقال أبو ذَرٍ الحافِظُ : سَجَنَه بنُو عُبَيْد وصَلَبُوه على السنَّة ، سَمعتُ الدَّارَقُطنِيّ يَذْكُرُه ويَبْكِي ، ويقولُ : كان يقولُ ، وهو يُسْلَخ : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[3] .

وقال أبو الفَرج بنُ الجَوْزيّ : أقامَ جَوْهَرٌ القائِدُ لأبي تَميمٍ صاحِبِ مِصْرَ أبا بَكر النَّابُلسي ، وكان يَنزِلُ الأكْواخَ فقال له : بَلَغَنا أنَّكَ قُلتَ : إذا كان مع الرَّجُلِ عَشْرةُ أَسْهُم ، وجَبَ أن يَرْمِيَ في الرُّوم سَهْمَاً وفِينَا تِسْعَةً ، قال : ما قُلتُ هٰذا ، بَلْ قُلتُ : إذا كان معه عَشْرةُ أَسْهُمٍ وَجَبَ أَن يَرمِيَكم بتِسعَةً وأن يَرمِيَ العاشِرَ فيكم أيضاً ، فإنَّكم غَيَّرتُم المِلَّة ، وقَتَلتُم الصَّالِحين ، وادَّعَيْتُم نُورَ الإلهِيَّة ، فشَهَره ثُمَّ ضَرَبَه ، ثُمَّ أَمَرَ يَهُودِيّاً فسَلَخَه وحُشِيَ تِبْناً ، وصُلِبَ .

وقال مُعمَّرُ بنِ أحمَد بنِ زِياد الصُّوفيّ : أخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّ أبا بَكر سُلِخَ من مَفْرِقِ رَأسِه حتّىٰ بَلَغَ الوَجْه ، فكان يَذْكُرُ اللهَ ويَصْبر حتّىٰ بَلَغَ الصَّدْرَ ، فرَحِمَه السَّلاَّخُ ، فوَكَزَه بالسِّكِّينِ مَوْضِعَ قَلْبِه فقَضَىٰ عليه ، وأَخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّه كان إماماً في الحَدِيثِ والفِقْه ، صائِمَ الدَّهرِ ، كبيرَ الصَوْلَة عند العامَّة والخاصَّة ، ولمَّا سُلِخَ كان يُسْمَعُ من جَسَدِه قِراءَةُ القُرآن[4] .

قال الذَّهبيُّ : لا يُوصَفُ ما قَلَبَ هٰؤلاء العُبَيْدِيَّة الدِّينَ ظَهْراً لبَطْن ، واسْتَوْلَوا على

---

(١) انظر السير : (الحُبُلي) ١٥/ ٣٧٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٨ .

(٢) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٦ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٥٨ .

(٤) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٦ .

المَغْرِب ، ثم علىٰ مصرَ والشَّامَ ، وسَبُّوا الصَّحابةَ[1] .

وحَكى ابنُ السَّعْساع المِصْريّ ، أنَّه رأَىَ في النَّومِ أبا بَكْر بن النَّابُلسي بعدما صُلِبَ وهو في أَحْسَنِ هَيْئَة ، فقال : ما فَعَلَ اللهُ بك ؟ فقال :[2] .

حَبـانـي مـالِكـي بـدَوامِ عِـزٍّ ووَاعَـدَنـي بقُـرْبِ الإِنْتِصـارِ
وقـرَّبَنـي وأدْنـانـي إليـه وقـالَ انْعَـمْ بعَيْـشٍ فـي جِـواري

وذَكرَ الإمام الذهبي في تَرجَمَة الفَقيه الخَبُوْشانيُّ ، وقالَ المُوَفَّقُ عبدُ اللطيف سَكَنَ السُّمَيْساطيَّة ، وعَرف الأميرَ نَجْمَ الدِّينِ أيُّوبَ ، وأخَاهُ ، وكان قَشَفاً في العَيشِ ، يابساً في الدِّينِ ، وكان يَقولُ : أصْعَدُ إلىٰ مِصْرَ ، وأُزيلُ مُلكَ بَني عُبَيْد اليَهوديِّ. . . ، إلىٰ أنْ قالَ : فنَزلَ بالقاهِرَة ، وصَرَّحَ بثَلبِ أهْلِ القَصْرِ ، وجَعلَ سَبَّهم تَسْبيحَه ، فحارُوا فيه ، فنَفَذوا إليه بمَالٍ عَظيم قِيلَ : أَرْبَعة آلافِ دِينار ، فقالَ للرَّسُولِ : وَيْلَك ، ما هٰذه البِدْعَةُ ؟! فأعْجَلَه ، فرَمَى الذَّهبَ بينَ يَديه ، فضَربَه وأنْزَلَه من السُّلَّم[3] .

وماتَ العاضِدُ ، وتَهيَّئُوا الخُطْبَةَ لبَني العبَّاس ، فوَقَفَ الخَبُوْشانيُّ بعَصَاهُ قُدَّام المِنْبَرِ ، وأمَرَ الخَطيبَ بذلكَ ، ففَعَل ، ولمْ يَكُن إلاَّ الخَيرَ ، وزُيِّنَت بَغدادُ ولَمَّا بَنىٰ مَكانَ الشَّافِعيِّ ، نبش عظام ابن الكِيْزانيِّ ، وقالَ : لا يَكونُ صِدِّيقٌ وزِنْديقٌ معاً ، فشَدَّ الحَنابِلَةُ عليه ، وتَألَّبُوا ، وصارَ بَينَهُم حَمَلاتٌ حَربيَّة وغَلبَهم[4] .

(د) مَوْقِفُ العُلماء الضَّالين منها :

النُّعْمان :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : العَلاَّمَةُ المَارِقُ ، قاضي الدَّولَةِ العُبَيْديَّة ، أبو حَنيفَة النُّعْمانُ بنُ محمَّد بنِ مَنْصُور المَغْربيُّ .

---

(١) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/ ١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١٢٧٦/ ٣ .
(٢) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/ ١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١٢٧٦/ ٤ .
(٣) انظر السير : (الخَبُوْشانيّ) ٢١/ ٢٠٤ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١٦١٢/ ٢ .
(٤) انظر السير : (الخَبُوْشانيّ) ٢١/ ٢٠٤ـ ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ١٦١٢/ ٣ .

كانَ مَالكيَّاً ، فارْتَدَّ إلىٰ مَذهَبِ الباطِنيَّة ، وصَنَّفَ لهم أُسَّ الدَّعْوَة ، ونَبَذَ الدِّينَ وَراءَ ظَهْرِه ، وألَّفَ في المَناقِبِ والمَثالِبِ ، ورَدَّ علىٰ أئمَّةِ الدِّينِ ، وانْسَلخَ من الإسْلامِ ، فسُحْقاً له وبُعْداً .

ونافَقَ الدَّولَةَ ، لا بلْ وافَقَهم وكانَ مُلازِماً للمُعِزِّ أبي تَميم مُنْشِىء القاهِرَة .

وله يَدٌ طُولَىٰ في فُنونِ العُلومِ والفِقْهِ والاخْتلافِ ، ونَفَسٌ طَويلٌ في البَحْثِ ، فكَانَ عِلْمُه وَبالاً عليه .

وصَنَّفَ في الرَّدِّ علىٰ أبي حَنيفَة في الفِقْهِ ، وعلىٰ مالكٍ والشَّافِعيِّ ، وانْتَصرَ لفِقْهِ أهْلِ البيَتِ ، وله كِتابٌ في اخْتِلافِ العُلماءِ ، وكُتبُه كِبارٌ مُطوَّلة .

وكانَ وَافِرَ الحِشْمَة ، عَظيمَ الحُرْمَة ، في أولادِه قُضَاةٌ وكُبَراءُ وانتُقلَ إلىٰ غيرِ رِضْوانِ الله ، بالقاهِرَة سَنةَ ثلاثٍ وستِّينَ وثَلاثِ مِئَة[1] .

(هـ) انْتِهاؤُها علىٰ يَدِ صَلاحِ الدِّين :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمَة العَاضِدِ : تَلاشَىٰ أمْرُ العاضِدِ مع صَلاحِ الدِّين إلىٰ أنْ خَلعَهُ ، وخُطبَ لبَني العَبَّاس واسْتأصَلَ شَأفَةَ بَني عُبَيْد ومَحَقَ دَولَةَ الرَّفْضِ وكانُوا أرْبَعَةَ عَشرَ مُتَخلِّفاً لا خَليفَة ، والعاضِدُ في اللُّغَة أيضاً القاطِعُ ، فكانَ هَـٰذا عاضِداً لدَولَة أهْلِ بَيتِه[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمة صلاحِ الدِّين : وكان نُورُ الدِّينِ قد أمَّرَه ، وبَعَثَه في عَسْكَرِه مع عَمِّه أَسَدِ الدِّين شِيركُوه ، فحَكَمَ شِيركُوه مِصْرَ ، فما لَبِثَ أنْ تُوُفِّيَ ، فقَامَ بَعْدَه صَلاحُ الدِّين ، ودَانَتْ له العَساكِرُ ، وقَهَرَ بني عُبَيْدٍ ، ومَحَا دَوْلَتَهُم واسْتَولَىٰ علىٰ قَصْرِ القَاهِرَة بما حَوَىٰ من الأَمْتِعَةِ والنَّفَائِس ، منها الجبلُ الياقُوتُ الذي وزْنُه سَبْعةَ عَشَرَ دِرْهَماً ، قال مُؤَلِّفُ « الكَامِلْ » ، ابنُ الأَثِير : أنا رَأيْتُه ووَزَنْتُه .

وخَلا القَصْرُ من أهْلِه وذَخَائِره ، وأقَامَ الدَّعْوَةَ العَبَّاسيَّة .

---

(١) انظر السير : (النُّعْمان) ١٦/ ١٥٠ـ ١٥١ ، وانظر النزهة : ١٢٧٧/ النُّعْمان .

(٢) انظر السير : (العاضد) ١٥/ ٢٠٧ـ ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١٢٢٠/٣ .

وكان خَلِيقاً للإمَارَةِ ، مَهِيباً ، شُجَاعَاً حَازِمَاً ، مُجَاهِداً كَثِيرَ الغَزْوِ ، عَالِيَ الهِمَّة ، كانت دَوْلَتُه نَيِّفاً وعِشْرينَ سنةً .

وتَمَلَّكَ بعدَ نُورِ الدِّين ، واتَّسَعَتْ بلادُه .

ومنذُ تَسَلْطَنَ ، طَلَّقَ الخَمْرَ واللَّذاتِ ، وأنْشَأَ سُوراً على القاهِرةِ ومِصْرَ[1] وبَعَثَ أخَاه شَمْسَ الدِّين في سَنَةِ ثمانٍ وسِتينَ ، فافْتَتَحَ بَرْقَةَ ، ثمَّ افْتَتَحَ اليَمَنَ وسَارَ صَلاحُ الدِّين ، فأخَذَ دِمَشْقَ من ابنِ نُورِ الدِّين[2] .

١٢ـ الدَّوْلَة السَّامانيّة :

صَاحِبُ خراسان :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة صَاحبِ خُراسان : هو الأميرُ أبو إبراهيمَ ، إسماعيلُ بنُ الملكِ أحمَد بنِ أسَدِ بنِ سامان بن نوح .

كان مَلكاً فاضِلاً ، عالِماً ، فارِساً ، شُجاعاً ، مَيْمونَ النَّقيبَة ، مُعَظِّماً للعُلماءِ ، يُلقَّبُ بالأميرِ الماضي .

أخَذَ عنه ابنُ خُزَيْمَة وغيرُه[3] .

قال ابنُ قانِع : سَمعتُ عيسىٰ بنَ محمّد الطَّهمانيّ ، سَمعتُ الأميرَ إسْماعيلَ يقولُ : جاءَنا أبُونا بمؤدِّبٍ ، فعلَّمنا الرَّفْضَ ، فنِمتُ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومَعه أبو بَكر وعُمر ، رَضي الله عَنهما ، فقال لي : « لِمَ تَسُبُّ صَاحِبَيَّ ؟ » فوقَفتُ ، فقال لي بيَدِه فنَفَضَها في وَجْهي فانتُبَهتُ فَزِعاً أرْتَعدُ من الحُمَّىٰ ، فكُنتُ على الفِراشِ سَبعَة أشْهُر ، وسَقطَ شَعْري ، فدخَلَ أخي ، فقال : أيش قِصَّتُك ؟ فأخْبَرتُه ، فقال : إعْتَذِرْ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذَرتُ وتُبتُ ، فما مَرَّ لي إلاَّ جُمُعَة حتىٰ نَبَتَ شَعْري .

---

(١) يعني فسطاط مصر ، وكانت لفظة (مصر) وحتى اليوم تُطلَق على الفسطاط .

(٢) انظر السير : (صلاحُ الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٩ .

(٣) انظر السير : (صاحب خُراسان) ١٤/ ١٥٤ـ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٩ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان هو وآباؤُه مُلوكَ بُخارَىٰ وسَمَرْقَند ، وله غَزَواتٌ في التُّرْك ، وهو الذي ظَفِرَ بعَمرو بنِ اللَّيثِ وأسَره ، فجاءَه من المُعْتضِد التَّقليدُ بولاية خُراسان وما يَليها ، وكانت سَلطَنتُه مدّة سَبع سِنين .

تُوفِّيَ ببُخارَىٰ سنة خمس وتسعين ومئتين ، فتملَّكَ بعدَه ابنُه أحمد .

وماتَ ابنُه السُّلطانُ أبو نَصْر أحمدُ سنةَ إحْدىٰ وثلاثِ مئَة ، قَتَلَه مَماليكُه ، ثم مَلَّكُوا وَلدَه نصراً ، فدامَ ثلاثينَ عاماً ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَظُمَتْ هيبَتُه[1] .

١٣ـ دَوْلَة بَني بُوَيْه :

عِمَادُ الدَّولَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمَتِه : هو السُّلطَانُ الكَبيرُ ، عِمادُ الدَّولَة ، أبو الحَسَن ، عليُّ بن بُوَيْه بنِ فَنَّاخسْرُو الدَّيْلَمي .

صاحبُ مَمالِك فارس ، وأخُو المَلكَين : مُعِزِّ الدَّولَة أحَمدَ ، ورُكْنِ الدَّولَة الحَسَن ، فكانَ عِمادُ الدَّولَة أوَّلَ مَنْ تَملَّكَ البلادَ بعدَ أنْ كانَ قائداً كَبيراً من قُوَّاد الدَّيْلَم .

وكانَ أبُوهُم بُوَيْه يَصْطادُ السَّمَكَ ، ثم آلَ بأوْلادِهِ الأمْرُ إلىٰ مُلْكِ البلادِ ثم تَملَّكَ من بَعْدُ العِمَادُ وَلَدُ أخيه عَضُد الدَّولَة بنُ رُكْن الدَّولَة .

وكانت دَولَةُ العِمادِ سِتَّ عَشرَةَ سَنةً ، وعاشَ بِضْعاً وخَمسينَ سَنةً .

تُوفِّيَ سَنةَ ثَمانٍ وثَلاثينَ[2] .

ولَمَّا تَملَّكَ شِيرازَ ، طالَبَه قُوَّادُه بالأمْوالِ ، وثارُوا عَليه ، فاغْتَمَّ لذلك ، واسْتَلقَىٰ ، فرَأىٰ حَيَّةً في السَّقْفِ ، ففَزِعَ ودَعا الفرَّاشينَ فنَصَبُوا سُلَّماً ، فوَجَدوا غُرفَةً

---

(١) انظر السير : (صاحب خُراسان) ١٤/ ١٥٤ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٩ .

(٢) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١٢٤١/ عِمادُ الدولة .

يُدخَلُ إليها ، فأمَرَهُم بفَتْحِها ففُتِحَت ، فوَجَدوا فيها صَناديقَ فيها قَدرُ خَمسِ مِئَة ألفِ دِينارٍ ، فأُنْزِلَت ، ففَرِحَ ، وأنْفَقَ في الجَيشِ[1] .

ثم إنَّه طَلَبَ خَيَّاطاً ليُفَصِّلَ له ، وكان أُطْرُوشاً ، ففَزِعَ وجاوَبَه عمَّا لم يُسأَلْ عنه ، وحَلفَ أنَّه لَيسَ عندَه سِوَى اثنَيْ عشرَ صُندوقاً وَديعَة فتعجَّبَ عِمَادُ الدَّولَة ، وأُحْضِرَت إليه ، فإذا فيها أمْوالٌ وثيابٌ وديباجٌ فكانَ ذلكَ من سَعادَتِه المقْبِلَة ، ولا عَقِبَ له[2] .

مُعِزُّ الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهَبِيُّ في ترجَمتِه : هو السُّلطانُ ، أبو الحُسَين ، أحمدُ ابنُ بُوَيْه بنُ فَنَّاخسْرُو الدَّيْلَميُّ الفَارِسيُّ ، قد ساقَ نَسَبَه ابنُ خَلِّكان إلىٰ كِسْرَىٰ بَهْرام جُور فاللهُ أعْلم[3] .

كان أبوهُ سَمَّاكاً ، وهٰذا رُبَّما احْتَطبَ ، تَملَّكَ العِراقَ نَيفاً وعِشرينَ سَنةً ، وكان الخَليفَةُ مَقْهوراً معه ، وماتَ مَبْطوناً فعَهِدَ إلى ابنِه عِزِّ الدَّولَة بَخْتِيار ، وكان يَتشيَّع ، فقيلَ : تابَ في مَرضِه ، وتَرضَّىٰ عن الصَّحابَة ، وتَصدَّقَ ، وأعْتقَ ، وأراقَ الخُمورَ ونَدِمَ علىٰ ما ظَلمَ ، ورَدَّ المَواريثَ إلىٰ ذَوي الأرْحام وكان يُقالُ له : الأقْطَع طارَت يَسارُه في حَربٍ ، وطارَت بَعضُ اليُمْنَىٰ ، وسَقطَ بين القَتلَىٰ ثم نَجا ، وتَملَّكَ بَغدادَ بلا كُلفَة ودانَت له الأُمَمُ ، وكان في الابْتداءِ تَبعاً لأخيه المَلكِ عِمادِ الدَّولَة .

ماتَ سنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وثَلاثِ مِئَة ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً .

وقد أنْشأ داراً غَرم عليها أرْبَعين ألفَ ألفِ دِرْهم فبَقيَت إلىٰ بعدِ الأرْبَع مئة ونُقِضَت ، فاشْتروا جَرْدَ ما في سُقوفِها من الذَّهَب بثَمانيَةِ آلافِ دِينار[4] .

---

(١) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢-٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٢ .
(٢) انظر السير : (عِمادُ الدَّولة) ١٥/ ٤٠٢-٤٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٢ .
(٣) انظر السير : (مُعزُّ الدَّولَة) ١٦/ ١٨٩-١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨٣ .
(٤) انظر السير : (مُعزُّ الدَّولَة) ١٦/ ١٨٩-١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٣ .

عَضُد الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَتِه : هو السُّلطانُ ، عَضُد الدَّولَة ، أبو شُجاع ، فَنَّاخسْرُو ، صاحبُ العِراقِ وفَارِسَ ، ابنُ السُّلطانِ رُكنِ الدَّولَة حَسَنِ بنِ بُوَيْه الدَّيْلَميُّ .

تَملَّك بفارِسَ بعدَ عَمِّه عِمادِ الدَّولَة ثم كثُرت بلادُه واتَّسعَت مَمالكُه وسارَ إليه المُتَنبِّي ومَدحَه ، وأخَذَ صِلاتَه .

قَصَدَ عَضُدُ الدَّولَة العِراقَ ، والْتَقَى ابنَ عَمِّه عِزَّ الدَّولَة وقَتلَه وتَملَّك ، ودانَت له الأُمَمُ .

وكانَ بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، نَحْويّاً ، أديباً ، عَالِماً ، جَبَّاراً عَسُوفاً ، شَديدَ الوَطْأة[1] .

وكانَ يَقولُ الشِّعْرَ ، فقالَ أبْياتاً كُفْريَّة[2] :

لَيسَ شُربُ الرَّاح إلاَّ في المَطَر ... وغِناءٍ مِن جَوارٍ في السَّحَرْ
مُبْرزات الكَأسَ من مَطْلَعِهَا ... سَاقياتِ الرَّاحِ مَنْ فاق البَشَرْ
عَضُدَ الدَّوْلَة وابنَ رُكْنِها ... مَلِكَ الأَمْلاكِ غَلاَّبَ القَدَرْ

نُقلَ أنَّه لَمَّا احْتُضِرَ ما انْطَلَقَ لسَانُه إلاَّ بقَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾[3] وماتَ بعِلَّة الصَّرَعِ ، وكان شِيعيّاً جَلْداً أظْهَرَ بالنَّجَفِ قَبْراً زَعَمَ أنَّه قَبرُ الإمامِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وبَنَىٰ عليه المَشْهَدَ ، وأقامَ شِعارَ الرَّفْضِ ، ومأتَمَ عَاشُوراءَ ، والاعْتِزالَ .

تَملَّكَ العِراقَ خَمسَةَ أعْوامٍ ونِصْفاً ، وما تلقىٰ خليفة ملكاً من قُدومِه قَبلَه .

ماتَ سَنةَ اثْنَتَين وسَبعينَ وثَلاثِ مئَة ببَغْدادَ وعُملَ في تابُوت ، ونُقِلَ فدُفنَ بمَشْهَدِ

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٢/ ٣٢ .

(٢) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٢/ ٣ .

(٣) سورة الحاقة ، الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

النَّجَفِ ، وعاشَ ثَمانياً وأرْبَعينَ سَنةً وقامَ بعدَه ابنُه صَمْصَامُ الدَّولَة وحَلفُوا له . وقلَّدَه الطَّائعُ[1] .

قالَ عبدُ الله بنُ الوَليد : سَمعتُ أبا محمّد بنَ أبي زَيْد يَسألُ ابنَ سَعْدي لَمَّا جاءَ من الشَّرقِ : أحَضَرْتَ مَجالسَ الكَلام ؟ قالَ : مرَّتَينِ ولَمْ أعُدْ ، فأوَّلُ مَجْلس جَمعوا الفِرَقَ من السُّنَّة والمُبْتَدعَة واليَهودِ والنَّصارىٰ والمَجُوسِ والدَّهْريَّة ولكُلِّ فِرْقَة رَئيسٌ يَتكلَّمُ ويَنصُرُ مَذهَبَه ، فإذا جاءَ رَئيسٌ قامَ الكلُّ له فيَقولُ واحدٌ : تَناظَروا ولا يَحْتجَّ أحدٌ بكتابِه ، ولا بنَبيِّه ، فإنَّا لا نُصدِّقُ بذلك ولا نُقرُّ به ، بلْ هاتوا العَقلَ والقِياسَ ، فلمَّا سَمعتُ هـٰذا لمْ أعُدْ ، ثم قِيلَ لي : ها هُنا مَجلسٌ آخَرُ للكَلامِ ، فذَهبتُ فوَجَدتُّهم علىٰ مثلِ سِيرَةِ أصْحابِهم سَواء ، فجَعلَ ابنُ أبي زَيْد يَتعجَّبُ وقالَ : ذَهبتِ العُلماءُ ، وذَهبَتْ حُرْمَةُ الدِّين[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فنَحْمدُ اللهَ على العافيَة ، فلقد جَرىٰ على الإسْلام في المئة الرابعَة بَلاءٌ شَديدٌ بالدولَة العُبَيديَّة بالمَغرب ، وبالدولَة البُوَيْهيَّة بالمَشْرق ، وبالأعْرابِ القَرامِطَة ، فالأمر لله تعالىٰ[3] .

وكانَ مُلكُ بَني بُوَيْه في خِلافَة القائم ضَعيفاً بحَيثُ إنَّ جَلالَ الدَّولَة باعَ من ثيابه المَلبُوسَة ببَغْدادَ ، وقلَّ ما بيَدِه ، وخَلت دارُه من حاجِبٍ وفَرَّاش ، وقُطِعَت النَّوْبَةُ علىٰ بابِه لذَهابِ الطَّبَّالين ، وثارَ عليه جُندُه ثم كاشروا له رَحمةً ، ثم جَرت فِتنةُ البَساسيريِّ ، ثم بدَت الدَّولَةُ السُّلْجوقيَّة ، وأوَّلُ ما مَلكوا خُراسانَ ، ثمَّ الجَبلَ ، وعَسَفوا ونَهَبوا وقَتلُوا ، وفَعلُوا القَبائحَ ـ وهم تُركُمان .

وفي سنة أربعين غَزا يَنال السُّلْجوقيُّ أخو طُغْرُلْبَك بجُيوشِه ، ووَغلَ في بلادِ الرُّومِ وغَنمَ ما لا يُعَبَّر عنه ، وكانت غَزوَةً مَشْهودَةً وفَتْحاً مُبيناً فهـٰذا هو أوَّلُ اسْتيلاءِ آلِ سُلْجُوق مُلوكِ الرُّومِ على الرُّومِ ، وفي هـٰذا الحين خَطب مُتولِّي القَيْروان المُعِزُّ بنُ

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٣/ ١ .
(٢) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٣/ ٢ .
(٣) انظر السير : (عَضُد الدَّولَة) ١٦/ ٢٤٩ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ١٢٩٣/ ٣ .

باديس للقائمِ بأمرِ الله وقَطَعَ خُطبَة العُبَيْديَّة ، فبَعثوا من حارَبه ، فتَمَّت فُصولٌ طَويلَة[1] .

وفي سَنة سَبعٍ وأرْبَعين وأرْبَعمائة قَبضَ طُغْرُلْبَك على المَلكِ الرَّحيمِ ، وانْقَضَت أيامُ بَني بُوَيْه ، وكانَ فيها دُخولُ طُغرلبك بَغْدادَ ، وكانَ يوماً مَشهوداً ، بين يدَيه ثَمانيةَ عَشرَ فيلاً مُظْهِراً أنَّه يَحُجُّ ، ويَغْزو الشَّامَ ومِصْرَ ، ويُزيلُ الدَّولَةَ العُبَيديَّة[2] .

١٤ـ الدَّوْلَة الغَزْنَويَّة :

المَلِكُ سُبُكتِكين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : صاحب بَلْخ وغَزْنَة وغير ذلك مات سنةَ سَبع وثمانين وثلاثِ مئة .

كانت دَولتُه نَحواً من عشرين سنة ، وكان فيه عَدلٌ وشَجاعَة ونُبْلٌ مع عَسْف ، وكَونُه كرَّامياً ، ولَمَّا أخذَ طُوسَ أخْرَبَ مَشْهَدَ الرِّضا ، وقَتلَ مَنْ يَزورُه ، فلمَّا تَملَّكَ ابنُه مَحْمودٌ ، رَأىَ في النَّومِ عَلياً رضي الله عنه وهو يَقولُ : إلىٰ كَمْ هـٰذا ؟ فبَنَى المَشْهدَ ورَدَّ أوقافَه إليه ، عَهدَ بالمملَكَة بعدَه إلى ابنِه إسْماعيلَ ، ولَمْ يُقدِّمْ مَحْموداً وهو كان الأسَنُّ فتَحارَبَ الأخَوان ، وإنْهزَمَ إسْماعيلُ ، فتَحصَّنَ بقَلعَةِ غَزْنَة ، ثم إنَّه نَزَلَ بالأمَانِ إلىٰ أخيه بعد أشْهُرٍ ، فأمَّنَه وتمَكَّنَ مَحمودٌ السلطانُ[3] .

مَحْمودُ بنُ سُبكتِكين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : الملكُ يَمينُ الدوْلَة ، فاتِحُ الهِنْدِ ، أبو القاسِم ، مَحْمودُ بنُ سَيِّد الأُمَراءِ ، ناصِرُ الدولَة سُبُكْتِكين ، التُّرْكيُّ ، صاحبُ خُراسان والهِنْد وغير ذلك .

فَرضَ علىٰ نفسِه كلَّ سَنةٍ غَزْوَ الهِندَ ، فافْتَتحَ بلاداً شاسِعَةً .

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٨/ ٣٠٧ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ١٤١٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٨/ ٣٠٧ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ١٤١٧/ ٤ .

(٣) انظر السير : (الملك سُبكتِكين) ١٦/ ٤٩٩ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١٣٠٨/ الملك سُبكتِكين .

وكان السُّلطانُ مائلاً إلى الأثرِ إلاَّ أنَّه من الكَرَّاميَّة[1] .

قال أبو النَّضرِ القاميُّ : لمَّا قدمَ التَّاهَرْتيُّ الدَّاعي من مصرَ على السلطان يَدعوهُ سراً إلىٰ مَذهَب الباطنيَّة ، وكان التَّاهَرْتيُّ يركبُ بَغْلاً ، يتلوَّن كل ساعة من كل لون ، ففهم السلطان سرَّ دَعوتهم ، فغَضبَ ، وقتَلَ التَّاهَرْتيَّ الخَبيث ، وأهْدىٰ بَغْلَه إلى القاضي أبي منصور محمد ابن محمد الأزدي ، شَيخ هراة ، وقال : كان يَركَبُه رأسُ المُلْحِدين ، فليَرْكبْه رأسُ المُوَحدِّين[2] .

وذكرَ إمامُ الحَرمَين أنَّ مَحمودَ بنَ سُبكْتكينَ ، كانَ حَنفياً يُحبُّ الحَديثَ فوَجدَ كثيراً منه يُخالفُ مَذهبَه ، فجَمعَ الفُقهاءَ بمَرْوَ ، وأمَرَ بالبَحثِ في أيُّما أقْوىٰ مَذهَبُ أبي حَنيفَة أو الشَّافعيِّ قالَ : فوَقعَ الاتِّفاقُ علىٰ أنْ يُصلُّوا رَكْعَتين بينَ يدَيه على المَذْهَبَين ، فصَلَّىٰ أبو بَكْر القَفَّالُ بوُضُوءٍ مُسْبَغ وسُتْرَةٍ وطَهارَةٍ وقِبْلَة وتَمام أرْكان لا يُجَوِّزُ الشَّافعيُّ دُونَها ، ثم صَلَّىٰ صَلاة علىٰ ما يُجَوِّزُه أبو حَنيفَة ، فلَبسَ جِلدَ كلبٍ مَدْبوغاً قد لُطِّخَ رُبعهُ بنَجاسَة ، وتَوضَّأ بنَبيذٍ ، فاجْتَمعَ عليه الذبَّانُ ، وكان وُضُوءاً مُنكساً ، ثم كبَّرَ بالفَارِسيَّة وقرَأ بالفَارِسيَّة : دَوْبَرْكك سَبْز[3] ، ونَقرَ ولَمْ يَطمَئنَّ ولا رَفَعَ من الرُّكوعِ ، وتَشهَّدَ ، وضَرطَ بلا سَلام فقالَ له : إنْ لَمْ تَكُنْ هـٰذه الصَّلاةُ يُجيزُها الإمامُ ، قَتَلتُك فأنكرَتِ الحَنيَفةُ الصَّلاةَ ، فأمَرَ القَفَّالُ بإحْضارِ كتُبهم ، فوُجدَ كذلك ، فتَحوَّلَ مَحمُودٌ شافعياً هكَذا ذكَره الإمامُ أبو المَعالي بأطْوَلَ من هـٰذا[4] ،[5] .

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٢ .

(٢) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٢ .

(٣) والمعنىٰ : ورقتان خضراوان ، وهو معنىٰ قوله تعالىٰ في سورة الرحمـٰن : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ ، انظر « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٢) ، و« المعجم الذهبي » فارسي/عربي .

(٤) في « مُغيث الخَلق في اختيار الأحق » ، ونقله عنه ابن خلكان في « وفيَّات الأعيان » (٥/ ١٨٠ ، ١٨١) ، وهـٰذه الحكاية التي يغلب على الظن أنها ملفقَّة مُفتَراة تُنبىء عن ذميم التعصُّب الذي يفعل أفاعيله في النفوس ، فيحملها على الكراهية ، وعرض رأي المخالف عرضاً مُشوَّهاً مَبْتوراً ، والإغضاء عن فَضائله الكثيرة ، ومحاسنه الجَمَّة ، وكان علىٰ إمام الحرمين أن يسلُك مع مخالفيه سبيل أهل العلم والعرفان ، ويناقشهم بالحُجَّة والبُرهان ، ويصون كتابه عن مثل هـٰذا الهُراء والهَذَيان .

(٥) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٢ .

وقالَ عبدُ الغافِرِ الفارسيُّ في تَرجَمَة مَحْمود : كانَ صَادِقَ النِّيَّة في إعْلاءِ الدِّين مُظفَّراً كَثِيرَ الغَزْوِ ، وكانَ ذَكياً بَعيدَ الغورِ ، صائبَ الرَّأيِ ، وكان مَجلِسُه مَوْرِدَ العُلماءِ وقَبرُه بغَزْنَة يُزارُ .

مَوْلدُ مَحْمود في سَنةِ إحْدَىٰ وعِشْرينَ وأرْبَع مِئَة .

وماتَ بغَزْنَةَ ، سَنةَ إحْدَىٰ وعِشْرينَ وأرْبَع مِئَة[1] .

وكانت غَزَواتُ السُّلطان مَحْمود مَشْهورَةً عَديدةً وفُتُوحاتُه المُبْتكَرَة عَظيمةً[2] .

وبَلَغَ السُّلطانَ أنَّ الهُنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكثرَ بلادِ الهِنْدِ غَضَبُ الصَّنَم الكبيرِ سُومَنات علىٰ سائِرِ الأصْنام ومَنْ حَوْلَها ، فعَزَمَ علىٰ غَزْوِ هـٰذا الوَثَنَ ، وسَارَ يَطوِي القِفَارَ في جَيشِه إليه ، وكانوا يقُولونَ : إنَّه يَرْزُقُ ويُحْيِي ويُميتُ ويَسْمَعُ ويَعِي ، يَحُجُّون إليه ويُتْحِفُونَه بالنَّفائِس ، ويَتَغازَلُون فيه كثيراً ، فتَجَمَّعَ عند هـٰذا مالٌ يَتَجاوَزُ الوَصْفَ ، وكانوا يَغسِلُونَه كلَّ يوم بماءٍ وعَسَلٍ ولَبَن ، ويَنْقُلُونَ إليه الماءَ من نَهْرِ حيل مَسيرَةَ شَهرٍ ، وثلاثِ مِئَةٍ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَ حُجَّاجِه ولِحَاهُم ، وثلاثُ مِئَةٍ يُغَنُّونَ فسَارَ الجَيشُ من غَزْنة ، وقَطَعُوا مَفَازَةً صَعبَةً وكانوا ثلاثينَ ألفَ فارسٍ وخَلْقاً من الرَّجَّالَةِ والمُطوِّعَة ، وقَوَّى المُطوِّعَةَ بخَمْسِينَ ألفَ دينارٍ ، وأَنْفَقَ في الجَيْشِ فَوقَ الكِفَايةِ ، وارْتَحَلَ من المُليا ثانِيَ يوم الفِطْرِ سنةَ أرْبَعمائة وستَّةَ عَشَر ، وقاسُوا مَشَاقَّ وبَقُوا لا يَجِدُونَ الماءَ إلاَّ بعدَ ثلاثٍ ، غَطَّاهُم في يومٍ ضَبَابٌ عظيمٌ ، فقالت الكَفَرَةُ : هـٰذا من فِعْلِ الإلَٰهِ سُومَنات .

ثمَّ نازَلَ مدينةَ أَنْهَلْوَارَة ، وهَرَبَ مِلكُها إلىٰ جَزيرَةٍ ، فأخْرَبَ المُسلمُونَ بلَدَه ، ودَكُّوها ، وبينَها وبَيْنَ الصَّنَمِ مَسيرَةَ شَهرٍ في مَفَاوِزَ ، فسَارُوا حتىٰ نَازَلُوا مدينةَ دَبُولوارة ، وهي قَبْلَ الصَّنَم بيَوْمَيْن ، فأُخِذَت عُنْوَةً ، وكُسِرَتْ أصْنَامُهَا ، وهي كثيرةُ الفَوَاكِه ، ثمَّ نَازَلُوا سُومَنات في رابِعِ عَشَرَ ذي القِعدَة ، ولها قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ على البحرِ ، فوَقَعَ الحِصَارُ فنُصِبَت السَّلالِمُ عليها ، فهَرَبَ المُقاتِلَةُ إلى الصَّنَمِ وتَضَرَّعُوا له ، واشْتَدَّ

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٣ .

(٢) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٣ .

الحالُ وهم يَظُنُّون أنَّ الصَّنَمَ قد غَضِبَ عليهم ، وكان في بيتٍ عظِيمٍ مَنِيعٍ علىٰ أبْوَابه السُّتُورُ الدِّيبَاجُ وعلى الصَّنَمِ من الحُليِّ والجَوَاهِرِ ما لا يُوصَف والقَنَادِيلُ تُضِيءُ ليلاً ونهاراً ، علىٰ رَأسِه تاجٌ لا يُقَوَّمُ ، يَنْدَهِشُ منه النَّاظِرُ ويَجْتَمِعُ عندَه في عِيدِهم نَحْوَ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهو علىٰ عَرْشٍ بَدِيعِ الزَّخْرَفَةِ عُلُوَّ خمسةِ أَذْرُعٍ ، وطُولُ الصَّنَمِ عَشرَةَ أذْرُعٍ ، وله بَيْتُ مالٍ فيه من النَّفَائِسِ والذَّهَبِ ما لا يُحْصَىٰ ، فَفَرَّقَ مَحمُودٌ في الجُنْدِ مُعْظَمَ ذلك ، وزَعْزَعَ الصَّنَمَ بالمَعَاوِلِ ، فخَرَّ صَرِيعاً ، وكانت فِرقَةٌ تَعْتَقِدُ أنَّه مَنَاتَ ، وأنَّه تَحَوَّلَ بنفسِه في أيَّامِ النُّبُوَّةِ من سَاحِلِ جُدَّة ، وحَصَلَ بهـٰذا المَكَان ليُقْصَدَ ويُحَجَّ إليه مُعَارَضَةً للكَعْبَةِ ، فلمَّا رَآهُ الكُفَّارُ صَرِيعاً مَهِيناً ، تَحَسَّرُوا وسُقِطَ في أيدِيهِم ، ثمَّ أُحْرِقَ حتىٰ صَارَ كلساً ، وأُلقِيَت النِّيرَانُ في قُصُورِ القَلْعَة ، وقُتِلَ بها خَمسُونَ ألفاً ، ثمَّ سارَ مَحمُودٌ لأَسْرِ المَلِكِ بهيم ، ودَخَلُوا بالمَرَاكِبِ ، فهَرَبَ ، وافْتَتَحَ مَحمُودٌ عِدَّةَ حُصُونٍ ومَدَائِنَ ، وعادَ إلىٰ غَزْنَة فدَخَلَها في ثامِنِ صَفَر سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، ودَانَتْ له المُلُوكُ ، فكانت مُدَّةُ الغَيْبَةِ مِئَةً وثلاثَةً وستِّينَ يوماً .

وقد خُطِبَ له بالغُورِ وبخُرَاسَان والسِّنْدِ والهِنْدِ وناحِيَةِ خَوَارِزْم وبَلْخ ، وهي من خُرَاسَان ، وبجُرجان وطَبَرِستان والرَّيِّ والجِبَال ، وأصْبَهَان وأذْرَبِيجان وهَمَذَان وأرْمِينِيَة .

وكان مُكْرِماً لأُمَرَائِه وأصْحابِه ، وإذا نَقَمَ عَاجَل ، وكان لا يَفْتُرُ ولا يَكَادُ يَقِرُّ وكان يَعْتَقِدُ في الخَلِيفَةِ ، ويَخْضَعُ لجَلالِه ، ويَحْمِلُ إليه قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وكان إلْباً على القَرَامِطَة والإسْمَاعيليَّة وعلى المُتَكلِّمين ، علىٰ بِدْعَةٍ فيه فيما قَبْل ، ويَغْضَبُ للكرّاميّة ، وتَصَرُّفه على الأخْلاقِ الزَّكِيَّة ، وكان فيه شِدَّةٌ وَطْأَةٍ على الرَّعِيَّة ، ولكن كانوا في أَمْنٍ وإقامَة سِياسَة .

وقال مَحمُودُ يوماً للأميرِ أبي طاهِرِ السَّامانيّ : كَمْ جَمعَ آباؤُك من الجَوْهَرِ ؟ قال : سَمعتُ أنَّه كان عند الأميرِ الرَّضي سَبْعَةُ أرْطالٍ فسَجَدَ شُكراً وقال : أنا في خِزَانَتِي سَبْعُون رَطْلاً[١] .

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٣ .

أُحضر إلىٰ محمودٍ بغزنَةَ شَخصان من النَّسْناس من بادية بلاصيغون وهي مَملكة قدرخان ، وعَدْوُ النَّسْناسِ في شِدَّةِ عَدْوِ الفرَس ، وهو في صُورة آدَميّ ، لكنَّه بدنه مُلبَّس بالشَّعْر ، وكلامُه صَفيرٌ ، ويأكُلُ حَشيشاً ، وأهلُ تلكَ البلادِ يَصطادُونَهم ، ويَأكُلونَهم فسَألَ مَحْمودُ الفُقَهاءَ عن أكل لحْمِهم ، فنَهَوا عنه[1] .

صَاحبُ غزنة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السلطان فرُّخْزاد بنُ السُّلطان مَسْعود بنِ السُّلطان الكَبير مَحْمودُ بنِ سُبُكْتِكِين .

كان مَلكاً سَائساً ، مَهيباً شُجاعاً ، مُتَّسعَ المَمالك ، هَجمَ عليه مَماليكُه الحَمَّامَ ، فكان عنده سَيفُه ، فشَدَّ عليهم ، وسَلِمَ وأدْرَكَه الحَرسُ ، وقَتلوا أولئكَ ، ثم صارَ بعدُ يُكثرُ من ذِكرِ المَوْتِ ويَزْهَدُ في الدنيا فأخَذَه قَوْلَنْجٌ في سَنة إحْدَىٰ وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، فماتَ وتَملَّك أخوهُ إبراهيمُ فجاهَدَ ، ونَشَرَ العَدْلَ ، وفَتحَ قِلاعاً من الهِنْد[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٥ .

(٢) انظر السير : (صاحبُ غَزْنَة) ١٨/ ١٣٣ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١٣٩١ ـ ١٣٩٢/ صاحبُ غَزْنَة .

١٥ـ الدَّوْلَةَ الإِخْشِيذيَّة

الإِخْشِيذ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : صاحبُ مِصْرَ الملك ، أبو بكر مُحمَّدُ بنُ طُغْج بنِ جُفٍّ بنِ خَاقَانَ الفَرْغَانيُّ التُّرْكيُّ وَلِيَ مِصْرَ سنة إحدىٰ وعشرين[١] ، ثم دمَشْقَ مُضافاً إلىٰ مِصْرَ من قِبَل الرَّاضي .

والإخْشِيذُ بالتُّركيِّ مَلكُ المُلوك .

صار طُغْج من كبار قُوَّاد خُمَارَوَيْه ، ثم سارَ إلىٰ بَغْدادَ فعَظَّمُوه فبدا منه كِبْرٌ وتِيهٌ في حَقِّ الوَزير ، فسُجنَ هو وابنُه هـٰذا ، فماتَ في السِّجْنِ ثم أُطْلِقَ محمدٌ وجَرَت له أمُورٌ طَويلة إلىٰ أن تَملَّك .

وكان بَطلاً ، شُجاعاً ، حَازماً ، يَقِظاً ، مَهيباً ، سَعيداً في حُروبِه ، مُكْرِماً لأجْنادِه ، شَديد الأيْد[٢] ، لا يَكادُ أن يَجُرَّ أحَدٌ قَوْسَه .

بَلغَ عدَّة مَماليكِه ثَمانيَة آلاف وله جَماعَةُ أوْلادٍ تَملَّكُوا بعدَه .

تُوفِّيَ بدِمَشْقَ ، سنةَ أرْبع وثلاثين وثلاث مئة عن سِتٍّ وستِّينَ سَنة ثم نُقِلَ ، فدُفِنَ ببَيْتِ المَقْدِسِ غَفرَ اللهُ له .

وقد حارَبَه ابنُ رائق فهَزَمَه الإخْشيذُ ، ثم سار أخو الإخْشيذِ ، فالْتَقَى ابنَ رائق فقُتلَ فنَدِمَ ابنُ رائق ، وبعَثَ ابنَه مُزاحماً إلى الإخْشِيذِ ليَقْتُلَه بأخيه ، فعَفَا ، وخَلعَ علىٰ مُزاحِم ، ورَدَّه إلىٰ أبيه[٣] .

---

(١) هـٰذه ولايته الأولىٰ ، ودامت اثنين وثلاثين يوماً ولم يدخل مصر فيها ، أما ولايته الثانية والتي دامت إلىٰ أن مات فكانت سنة ٣٢٢هـ .

(٢) الأيد : القوَّة .

(٣) انظر السير : (الإخْشِيذ) ١٥/ ٣٦٥ـ٣٦٦ ، وانظر النزهة : ١٢٣٦/ الإخْشِيذ .

(١٦) دَوْلَةُ الطَّوائف

دَوْلَةُ الطَّوَائف وتَأثِيرُها في غَلَبَة الصَّليبيِّين علىٰ بلاد الأنْدَلُس :

(أ) القَاسِمُ بنُ حَمُّود بن مَيْمون :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمتِهِ : الإدْريسيُّ ، والي إمْرَة الأنْدَلُسِ بعد مَقْتلِ أخيه عليِّ بنِ حَمُّود سنة ثمانٍ وأرْبَع مئَة .

وكان هادئاً سَاكناً ، أمِنَ النَّاسُ مَعَه ، وكان يَتشيَّعُ قَليلاً ، فبَقِيَ في المُلْك إلىٰ سَنة اثنتي عَشْرة وأرْبَع مئة ، في رَبيع الأوَّل ، فخَرجَ عليه ابنُ أخيه يَحْيَىٰ بنُ عَليٍّ بنِ حَمُّود المُعْتَلي ، فهَربَ القَاسمُ من غَير قِتال إلىٰ إشْبيليَّة ، فاسْتمالَ البَرْبَرَ ، وجَمعَ وحَشَدَ ، وجاءَ إلىٰ قُرْطُبَة فهَربَ منه المُعْتَلي ثم اضْطَربَ أمرُ القاسم بعد قَليل ، وخَذَلَه البَرْبَرُ ، وتَفوَّقُوا في سنة أرْبَع عشرَة وأرْبَع مئة ، وتَغَلَّبَت كُلُّ فِرْقَة علىٰ بَلَدٍ من الأنْدَلُسِ ، وجَرَت خُطوبٌ وأمُورٌ يَطولُ شَرحُها وتَفرَّقَت الكَلمَةُ ، وصَارَ في الأنْدَلُسِ عِدَّةُ مُلوك .

وصارَ الأمْرُ في غايَة الأُخْلُوقَة ، اجْتمَعَ في الوقْت أربعة يُدْعَوْنَ بأمير المؤمنين في رُقْعَةٍ من الأنْدَلُسِ ، مِقْدارُ ما بَينهم ثَلاثُون فَرْسَخاً في مثْلِها وغَلبَ علىٰ كُلِّ قُطْرٍ مُتغَلِّبٌ تَسَمَّىٰ بالمَأمونِ ، ومنهم مَنْ تَسَمَّىٰ بالمُعْتَصِم ، وآخَرُ بالمُتوكِّل ، حتىٰ قال الحَسنُ بنُ رَشيق :(١) .

مِمَّا يُزَهِّدُني في أرْضِ أَنْدَلُسٍ   سَمَاعُ مُعْتَصِمٍ فيها ومُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِهَا   كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

وقال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة ابنِ عَبَّاد : قالَ ابنُ حَزْم : فَضيحَةٌ! أرْبَعةُ رجال في مَسافَة ثَلاثَة أيَّام يُسَمَّوْنَ أمير المؤمنين في وَقْت ، أحَدُهم خَلَفُ الحصريُّ بإشْبيليَّة علىٰ

---

(١) انظر السير : (القاسمُ بن حَمُّود بن مَيْمون) ١٣٦/١٧ ، وانظر النزهة : ١٣٣٠/ القاسم ابن حَمُّود بن ميمون .

أنَّه المؤيَّدُ بالله ، والثاني مُحمَّدُ بنُ القاسِم الإدْريسيُّ بالجَزيرَةِ الخَضْراء ، والثالثُ محمَّدُ بنُ إدْريس بن عَليّ بن حَمُّود بمَالِقَة ، والرابعُ إدْريسُ بنُ يَحْيَىٰ بن عَليّ بن حَمُّود بشَنْتَرين فهٰذه أُخْلوقَةٌ لمْ يُسْمَع بمِثلِها!![1] .

(ب) المَأْمُون :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمَة المَأمُون مَلِكِ طُلَيْطِلَة ، أبو زكريّا ، يَحْيَىٰ بنُ صاحبِ طُلَيْطِلَةَ الأميرِ إسْماعيلَ بنَ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ عامِرْ الهَوَّاريُّ ، الأنْدلُسيّ .

اسْتَوْلَىٰ أبُوهُ على البَلَدِ بعدَ العِشْرينَ وأرْبَع مِئَة ، ونَزَعُوا طاعَةَ المَرْوانيّة ، وتَملَّكَ المَأمُونُ بعدَ أبِيه سَنَةَ خَمسٍ وثَلاثينَ ، فامْتدَّتْ أيامُه خَمساً وعِشرينَ سَنَةً ، عَاكِفاً على اللّذَّاتِ والخَلاعَة ، وصَادَرَ الرَّعِيَّة وهادَنَ العَدُوَّ ، وقَدِمَ الأطْراف ، فطَمِعَتْ فيه الفِرَنْجُ ، بَلْ في الأنْدلُسِ وأُخِذَتْ عِدَّةُ حُصُونٍ إلىٰ أنْ أخَذُوا منهم طَلَيْطِلَةَ في سَنَةِ ثَمانٍ وسَبعين وأربَع مِئَة ، وجَعَلُوها دارَ مُلْكِهِم ـ فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُون ـ وكان المَأمُونُ أرادَ أنْ يَسْتَنْجِدَ بالفِرَنْج علىٰ تَملُّكِ مَدائنِ الأنْدلُسِ ، فكاتَبَ طاغِيَتَهم : أنْ تَعَالَ في مِئَةِ فارسٍ ، والمُلْتَقَىٰ في مكانِ كَذَا ، فسَارَ في مِئَتَينِ ، وأقْبَلَ الطَّاغِيَةُ في سِتَّةِ آلافٍ ، وجَعَلَهم كَميناً له ، وقالَ : إذا رَأَيْتُمُونا قد اجْتَمَعْنا ، فأحِيطُوا بنَا فلمَّا اجْتَمَعَ المَلِكَانِ أحَاطَ بِهم الجَيشُ ، فنَدِمَ المَأمُونُ ، وحَارَ ، فقالَ الفِرَنْجيُّ : يا يَحْيَىٰ ، وحَقِّ الإنْجيلِ كُنتُ أظُنكَ عاقِلاً ، وأنْتَ أحْمَقُ!! جِئْتَ إليَّ ، وسَلَّمْتَ مُهْجَتَكَ بِلا عَهْدٍ ولا عَقْدٍ ، فلا نَجَوْتَ منِّي حتّىٰ تُعطِيَني ما أطْلُبُ قالَ : فاقْتَصِدْ فسَمَّىٰ له حُصُوناً ، وقَرَّرَ عليه مالاً في كُلِّ سَنَةٍ ، ورَجَعَ ذَليلاً مَخْذُولاً ، وذَلكَ بمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ تُوفِّي سَنَةَ ستّينَ وأربَعِ مِئَة[2] .

(ج) المُعْتَمِد بن عَبَّاد وابنُه المُعْتَضِد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : صاحبُ الأنْدَلُسِ ، المُعْتَمدُ على الله أبو القاسِم مُحمَّدُ بنُ المَلكِ المُعْتَضدِ بالله أبي عَمرو ، عبادِ ابنِ الظَّافِرِ بالله أبي القاسم ، قاضي

---

(١) انظر السير : (ابنُ عبَّاد) ١٧/ ٥٢٧ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٧ .
(٢) انظر السير : (الْمَأمُون) ١٨/ ٢٢٠ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١٤٠٤/ الْمَأمون .

إشْبيليَّة ، ثم مَلكُها ، محمدُ بنُ إسماعيلُ بنِ قُرَيش اللَّخْميُّ .

حكَم المعتمد على المدينَتين قرطبة وإشبيلية ، وأصلهم من الشام من بلدِ العَريش فدَخلَ أبو الوَليد إسْماعيلُ بن قُريش إلى الأنْدَلُسِ ، ثم برَعَ في الفِقْه ، ووَلِيَ القَضاءَ ، ثم تَملَّكَ مُدَّة ، وقامَ من بعد ابنُه المُعْتَضِدُ ، فسَاسَ المَمْلكةَ بإشْبيليَّة ، وبايَعوهُ بالمُلْكِ في سنة ثَلاث وثلاثين وأرْبع مئة .

وكان شَهْماً ، صارِماً ، داهِيَةً ، ذَبَحَ جماعَةً من أعْوانِ أبيه وصادَرَهم ، وعَلا شَأنُه ، ودانَت له الأُمَمُ .

غَرزَ خَشباً فِي قَصْره ، وعَمَّمَها برُؤوس كِبارٍ ومُلوكٍ ، وكانوا يُشَبِّهونَه بالمَنْصُورِ العَبَّاسيِّ ورامَ ابنُه إسْماعيلُ اغْتيالَه ، فأخَذَه ، وضَرَبَ عُنقَه ، وعَهِدَ إلى ابنِه المُعْتَمِد .

قيلَ : سَمَّه طاغِيَةُ الفِرَنْج في ثوبٍ فاخِرٍ ، أهْداهُ له(١) .

ومن جَبَروتِه وعُتوِّه أنَّه أخَذَ مالاً لأعْمَىٰ ، فحَجَّ وجَاوَرَ بمَكَّةَ ، فبَلَغَ المُعْتَضدَ أنَّه يَدعُو عليه ، فنَدبَ رَجلاً أعْطاهُ جُملةَ دَنانيرَ مَطْليَّة بسُمٍّ فسَارَ إلىٰ مَكَّة ، وأَوْصَلَه الذَّهَبَ ، فقالَ : يَظْلِمُني بإشْبيليَّة ، ويَصلُني هُنا ؟! ثم وَضَعَ منها دِيناراً في فَمِه ، كعَادَة الأضِرَّاء ، فمَاتَ من الغَدْ(٢) .

وقد سَكِرَ لَيلَةً ، وخَرجَ في اللَّيلِ مَعه غُلامٌ ، وسَارَ مَخْموراً ، حتىٰ وَافَىٰ قَرْمُونَه(٣) ، وصَاحبُها إسْحاقُ البِرْزال ، وبيَنَهما حُروبٌ ، وكانَ يَشْرَبُ أيْضاً في جَماعَة ، فاسْتأذَنَ المُعْتَضدُ ، ودَخلَ ، فزادَ تَعجُّبهُم فسلَّمَ وأكَلَ وألَّ(٤) من سُكْره وسُقطَ في يدِه ، لكنَّه تَجلَّدَ ، ثم قال : أُريدُ أنْ أنامَ ففَرَشُوا له ، فتَناوَمَ ، فقَالَ بَعضُهم : هٰذا كَبشٌ سَمينٌ ، والله لو أنْفقتُم مُلكَ الأنْدَلُسِ عليه ما قَدِرْتُم فقالَ مُعَاذُ بنُ أبي قُرَّة : كلاَّ ، رَجلٌ قَصدَنا ونزَلَ بنا مُستأمِناً ، لا تَتَحدَّثُ عنَّا القَبائلُ أنَّا قَتَلنا ضَيفَنا

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٧ .
(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٧ .
(٣) غربي قرطبة وشرقي إشبيلية ، قديمة البنيان .
(٤) في اللسان آلَّ في سَيره ومَشيِه ، إذا أسْرَعَ واهتز واضطرب

ثم انتُبَه وقامَ ، فقَبَّلُوا رَأسَه ، وقال للحَاجِبِ : أيْنَ نَحْنُ ؟ قالَ : بَين أهْلِك وإخْوانِك قالَ : هَاتوا دوَاةً ، فكَتبَ لكُلّ منهم بخِلْعَة ومالٍ وأفْراسٍ وخَدَم وأخَذَ مَعَه غِلْمَانَهم لقَبْضِ ذلك ، ورَكبَ ، فمَشَوا في خِدْمتِه لكنْ أساءَ كُلَّ الإساءَة ، طَلبَهم بعدَ أشْهُر لوَليمَة ، فأتاهُ سِتُّون منهم فأكْرَمَهم وأنْزَلَهم حَمَّاماً ، وطيَّنَه عليهم سِوَىٰ مُعَاذ ، وقال لمُعَاذ : لم تُرَعْ ، حَضَرَتْ آجَالُهم ، ولَوْلاكَ ، لقَتلُوني ، فإنْ أرَدْتَ أنْ أُقاسِمَكَ مُلْكِي ، فعَلتُ ، قال : بل أُقيمُ عِندَكَ ، وإلاَّ بأي وَجْه أرْجعُ ، وقد قَتلتَ سَاداتَ بَني بِرْزال ، فصَيَّرَه من كِبارِ قُوَّادِه ، وكانَ من كِبارِ قُوَّاد المُعْتَمِد .

هَلكَ المُعْتَضِدُ سَنةَ أرْبع وسِتِّينَ وأرْبَع مِئَة .

قال أبو بَكْر مُحمدُ بنُ اللبانَة الشَّاعِرُ : مَلكَ المُعْتَمِدُ من مُسَوَّراتِ البلادِ مِئتَيْ مُسَوَّر ، ووُلِدَ له مئةٌ وثلاثَةٌ وسَبْعُونَ وَلداً ، وكانَ لمَطْبَخه في اليوم ثَمانيَةَ قَناطِير لحْم ، وكُتَّابُه ثَمانيَة عَشَر[1] .

قال ابنُ خَلِّكان : كان الأذْفونشُ قد قَوِيَ أمْرهُ ، وكانت المُلُوكُ بالأَنْدَلُسِ يُصالِحُونَه ، ويَحْمِلُون إليه ضَرائِبَ ، وأخَذَ طُلَيْطِلَةَ في سَنةِ ثمَانٍ وسَبعِين بعد حِصارٍ شَديدٍ من القَادِرِ بنِ ذي النُّونِ ، فكانَ ذلكَ أوَّلَ وَهْنٍ دَخلَ من الفِرَنْج على المُسلِمين ، وكان المُعْتَمِدُ بنُ عَبَّاد يُؤَدِّي إليه ، فلمَّا تَمكَّنَ لَمْ يَقْبَل الضَّريبَةَ وتَهَدَّدَه ، وطَلَبَ منه أنْ يُسَلِّمَ حُصُوناً ، فضَرَبَ الرسُولَ وقَتَلَ مَنْ معَه ، فتَحَرَّكَ اللَّعِينُ ، واجْتَمَعَ العُلَمَاءُ واتَّفَقُوا علىٰ أنْ يُكاتِبُوا الأميرَ أبا يَعْقُوبَ بنَ تاشِفينَ صاحِبِ مَرَّاكُش ليُنْجِدَهم ، فعَبَرَ ابنُ تاشِفين بجُيُوشِه إلى الجَزيرَة ، ثمَّ اجْتَمَعَ بالمُعْتَمِدِ ، وأقْبَلَتِ المُطَّوِّعَةُ من النَّواحِي ، ورَكِبَ الأذْفونشُ في أرْبَعِينَ ألفَ فارسٍ ، وكَتَبَ إلى ابنِ تاشِفين يَتَهَدَّدُه ، فكَتَبَ في ظَهْرِ كِتَابه : « الذي يكُونُ سَتَراه » ثمَّ الْتَقى الجَمْعَانِ واصْطَدَمَ الجَبَلانِ بالزَّلاَّقَةِ من أرْضِ بَطَلْيَوْس[2] فانْهَزَمَ الكَلْبُ ، واسْتُؤْصِلَ جَمْعُه ، وقَلَّ مَنْ نَجا في

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨_٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٥٧ .

(٢) مدينة كبيرة بالأندلس ، تقع على الحدود الشرقية للبرتغال ، كانت عاصمة بني الأفطس التجيبيين في عهد ملوك الطوائف .

رَمَضَانَ سَنة تِسْعٍ وسَبعِين ، وجُرِحَ المُعْتَمِدُ في بَدَنِه ووَجْهِه ، وشُهِدَ له بالشَّجَاعَةِ والإِقْدَامِ ، وغَنِمَ المُسْلِمون ما لا يُوصَفُ ، وغَدَا[1] ابنُ تاشِفين[2] .

ثم عَبرَ في العامِ الآتي ، وتَلقَّاه المُعْتَمِدُ ، وحاصَرا حِصْناً للفِرَنْج وتَرجَّلَ ابنُ تاشفين ، فمَرَّ بغَرْناطَةَ ، فأَخْرَجَ إليه صاحبُها ابنُ بُلُكِّين تَقادِمَ وهَدايا وتَلقَّاهُ ، فغَدَرَ به ، واسْتوْلَىٰ علىٰ قَصْرِه ، ورَجعَ إلىٰ مَرَّاكِش وقد بَهَرَه حُسْنُ الأَنْدَلُس وبَساتينُها ، وحَسَّنَ له أُمَراؤُه أَخْذَها ، ووَحَّشوا قَلبَه على المُعْتَمِد[3] .

قالَ عبدُ الواحد بنُ عَليّ : غَلبَ المُعْتَمِدُ علىٰ قُرْطُبَة في سَنة إحْدَىٰ وسَبعينَ وأَرْبَع مئة ، فأَخْرَجَ منها ابنَ عُكَّاشَة ، إلىٰ أنْ قالَ : وجَالَ ابنُ تاشفين في الأَنْدَلُسِ يَتفرَّجُ ، مُضْمِراً أَشْياءَ ، مُعَظِّماً للمُعْتَمِدِ ، ويَقولُ : نَحْنُ أَضْيافُه وتَحت أَمْرِه ، ثم قَرَّر ابنُ تاشفين خَلْقاً من المُرابطين يُقيمونَ بالأَنْدَلُسِ ، وأَحَبَّ الأَنْدَلُسيُّونَ ابنَ تاشفين ، ودَعُوا له ، وجَعلَ عندَهم بُلُّجين قَرابَته ، وقَرَّر معه أموراً ، فهاجَت الفِتْنَةُ بالأَنْدَلُس في سَنة ثلاثٍ وثَمانين وأَرْبَع مئة ، وزَحَفَ المُرابِطُون ، فحاصَروا حُصُوناً للمُعْتَمِد ، وأَخَذوا بَعضَها ، وقَتلُوا وَلدَه المَأمُونَ في سَنَةِ أَرْبَع ، فاسْتَحْكَمَت الإِحْنَةُ ، وغَلَت مَراجِلُ الفِتْنَة ، ثم حاصَروا إشْبيليَّة أَشَدَّ حِصَار ، وظَهَر من بأسِ المُعْتَمِد وتَراميه على الاسْتِشْهاد ما لَمْ يُسْمَعْ بمثلِه ، وفي رَجَب سَنة أَرْبع وثَمانين وأَرْبَع مئَة ، هَجَمَ المرُابِطُون على البَلدِ وشَنُّوا الغَارَاتِ ، وخَرجَ النَّاسُ عَرايَا ، وأَسَروا المُعْتَمِدَ[4] .

قالَ عبدُ الواحِد : بَرَزَ المُعْتَمِدُ من قَصْرِه في غِلالَة ، بلا دِرْعٍ ولا دَرَقَةٍ وبيدِه سَيفُه ، فرَمَاهُ فارسٌ بحَرْبة أصابَ الغِلالَةَ ، وضَربَ الفارسَ فقَتلَه فوَلَّتِ المُرابِطُون ، ثم وَقْت العَصْر ، كَرَّت البَرْبَرُ ، وظَهَروا على البَلدِ من وَادِيه ، ورَمَوْا فيه النَّارَ ، فانْقَطعَ العَملُ ، واتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ بقُدوم ابنِ أخي السُّلطان ، ولَمْ يَترُكِ البَرْبَرُ لأَهْلِ البَلَدِ شَيئاً ، ونُهِبَت قُصورُ المُعْتَمِد ، وأُكْرِهَ علىٰ أنْ كَتبَ إلىٰ وَلَدَيْه أنْ يُسلِّما الحِصْنَيْن

---

(١) أي رجع إلىٰ بلاده .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٥٨/١ .

(٣) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٥٩/١ .

(٤) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٥٩/٢ .

وإلاَّ قُتلتُ ، فدَمِي رَهْنٌ علىٰ ذلك، وهُما الْمُعْتَدُّ والرَّاضِي، وكانا في رُنْدَة ومارْتله فنزلا بأمانٍ ومَواثيقَ كاذبَةٍ فقتَلوا الْمُعْتَدَّ وقتَلوا الرَّاضِي غِيلَةً ، ومَضَوْا بالمُعْتَمِدِ وآله إلىٰ طَنْجَةَ بعد أنْ أفْقَرُوهم ، ثم سُجِنَ بأغْماتَ[1] عامَين وزيادَة ، في قِلَّةٍ وذِلَّةٍ[2] .

وقِيلِ : إنَّ بَناتِ المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد أتيْنَهُ في عيدٍ ، وكُنَّ يَغزلْنَ بالأُجْرَة في أغْماتَ ، فرآهُنَّ في أطْمارٍ رَثَّة ، فصدَّعْنَ قَلبَه ، فقالَ :

فيمَا مَضَىٰ كُنْتَ بالأعْيادِ مَسْرورا ... تَرَىٰ بنَاتِكَ في الأَطْمَارِ جَائعَةً
بَرَزْنَ نَحْوَكَ للتَّسْليمِ خَاشِعَةً ... يَطَأْنَ في الطِّينِ والأقْدامُ حافِيَةً
فَسَاءَكَ العيدُ في أغماتَ مَأسُورا ... يَغْزِلنَ للنَّاسِ ما يَمْلِكْنَ قِطْمِيرا
أبْصَارُهُنَّ حِسيراتٍ مَكَاسِيرَا ... كَأنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكاً وَكَافُورَا

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ مَوْلدُه سَنةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ وأرْبَع مئة وماتَ سَنةَ ثَمانٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئَة .

وقد سَمَّى ابنُ اللبَّانَة بَني المُعْتَمِد بأسْمائِهِم وألْقَابِهِم ، فعَدَّ نَحْواً من ثَلاثينَ نَفْساً ، وعَدَّ له أرْبَعاً وثَلاثينَ بِنْتاً .

قال الإمامُ الذهبيُّ : افْتَقَرُوا بالمرَّة ، وتَعلَّموا صَنائعَ ، كذلكَ الدَّهْرُ ، نَسأَلُ اللهَ المَغْفرةَ[3] .

عِماد الدَّولَة بن هُود :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجمتِه : كان أحدَ مُلوك الأنْدَلُس في حُدود الخَمس مئة ، وهو من بَيتِ مَمْلكَة تَملَّكوا شَرقَ الأنْدَلُسِ ، فلمَّا استولى الْمُلثَّمونَ على الأنْدَلُسِ ، أبْقَىٰ يوسُفُ بنُ تاشفينَ على ابنِ هُود ، فلمَّا تَملَّك عليُّ بنُ يوسُف بعدَ أبيه كان فيه سَلامَةُ باطِنٍ ، فحَسَّنَ له وُزَراؤُه أخْذَ المُلكِ من ابنِ هُود ، حتىٰ قالوا له : إنَّ أمْوالَ

---

(١) أغْمات : ناحية من بلاد البَرْبَر المصامدَة من أرض المغرب قُربَ مَرَّاكِش .
(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨_٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٦٠/١ .
(٣) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨_٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٦٠/٢ .

الْمُسْتَنْصِرِ العُبَيْدِيِّ صارَت في غَلاءِ مِصْرَ المُفْرِطِ تَحوَّلت كلُّها إلىٰ بَني هُود ، وقالوا : الشَّرْعُ يَأْمُرُكَ أنْ تَسْعَىٰ في خَلعِهم لكَوْنِهم مُسالِمين الرُّومَ ، فجَهَّز لهم الأميرَ أبا بكر بنَ تيفلوت فتحصَّنَ عمادُ الدَّولَة برُوْطَة[1] ، وكتبَ إلىٰ عليِّ بنِ تاشْفينَ يَسْتَعْطفُه في المُسالَمَة ، ويقولُ : « لَكُم فيمَا فَعلَه أبُوكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وسَيَعْلَمُ مُبرِمُ هـٰذا الرَّأي عندَكم سُوءَ مَغبَّتِه ، واللهُ حَسيبُ مَنْ معي وحَسْبُنَا اللهُ وكَفَىٰ » ، فأمَرَ عليُّ بنُ يوسُف بالكَفِّ وأنَّىٰ ذلك وقد أدْخَلتْه الرَّعيَّةُ سَرَقُسْطَة ، وكان ابنُ رُذْميرَ اللَّعينُ صاحبُ مَمْلكَةِ أَرَغُونَة من شرق الأندلس قِسِّيساً مُجرباً داهيَةً مُترَهِّباً ، فقَويَ علىٰ بلادِ ابنِ هُود ، وطَواهَا وقَنعَ عِمادُ الدَّولَة بنُ هُود بدَارِ سُكْناهُ ، وكانَ ابنُ رُذْميرُ لا يَتجَهَّزُ إلاَّ في عَسْكرٍ قَليلٍ كاملَ العُدَّة ، فيَلْقَىٰ بالألفِ آلافاً[2] .

قال اليسعُ بنُ حَزْم : حدَّثني عنه أبو القاسم هِلالٌ أحَدُ وُجُوه العَرب قالَ : كان بَيني وبَينَ الْمُرابِطينَ أمر أَلْجَأني إلى الوُفودِ على ابنِ رُذْمير ، فرحَّب بي ، وأمَرَ لي براتبٍ كَبير فحَضرتُ معه حَرْباً طُعِنَ عنه حِصانُه ، فوقَفتُ عليه ذابَّاً عن حَوْزَته فلمَّا انْصَرفنا إلىٰ رشْقَة أمرَ الصَّوَّاغينَ بعَملِ كأسٍ من ذَهَبٍ رَصَّعَه بالدُّرِّ ، وكتبَ عليه : « لا يَشْربُ منْه إلاَّ مَنْ وَقَفَ علىٰ سُلْطانِه » فحضَرتُ يوماً فأخْرَجَ الكأسَ ، وملأه شَراباً ، وناوَلَني بحُضْرَة ألفِ فارس ، ورَأيتُ أعْناقَهم قد اسْوَدَّت من صَدأ الدُّروع قال : فنادَيتُ ، وقُلتُ : غَيري أحَقُّ به ، فقالَ : لا يَشْرَبُ هـٰذا إلاَّ مَنْ عَملَ عَمَلَكَ وكان هِلالٌ هـٰذا من قَريَة هِلالِ بنِ عامِر ، تابَ بعدُ وغَزا مَعَنا ، فكانَ إذا حَضرَ في الصَّفِّ جَبَلاً راسياً يَمْنَعُ تَهائمَ الجُيوشِ أنْ تَميدَ ، وقَلْباً في البَسَالَة قَاسياً ، يَقولُ في مُقارَعَةِ الأبْطَالِ : هَلْ مِنْ مَزيد ؟ أبْصَرتُه ـ رَحمَهُ اللهُ ـ أُمَّةً وَحْدَه ، يَتحامَاهُ الفَوارِسُ[3] .

فحدَّثني عن ابنِ رُذْمير وإنْصَافِه قالَ : كنتُ معه بظاهر رُوْطَة وقد وجَّه إليه عِمادُ الدولة وَزيرَه أبا محمَّد عبدِ الله بن هَمُشْك الأميرَ رَسولاً ، فطَلبَ فارسٌ من ابنِ رُذْمير

---

(١) رُوطة : حصن من أعمال سَرَقُسْطَة ، حَصين جداً .
(٢) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٤ .
(٣) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٢٤ .

أنْ يُمكَّنَ من مُبارَزَة ابنِ هَمُشْك ، فقالَ : لا ، هو عِنْدنا ضَيفٌ ، فسَمعَ بذلك ابنُ هَمُشْك ، وأمْضَى ابنُ رُذْميرُ حاجَتَه ، وصَرفَه فقالَ : لا بد لي من مُبارَزَة هـٰذا فأمَرَ الملكُ ذاكَ الفارِسَ بالمُبارَزَة وقالَ : هـٰذا أشْجَعُ الرُّومِ في زَمانِه ، فانْصَرفَ عبدُ الله يُريدُ رُوْطَة وخَرجَ وَراءَه الرُّوميُّ شاكّاً في سِلاحِه ، وما مع ابنِ هَمُشْك دِرْعٌ ولا بَيْضَةٌ فأخَذَ رُمْحَه وطارِقَتَه من غُلامِه ، وقَصَدَ الرُّوميَّ ، فحَملَ كلٌّ منهما على الآخَرِ حَمَلاتٍ ، ثم ضَربَه ابنُ هَمُشْك في الطَّارِقَة فأعانَه اللهُ فانْقَطَعَ حِزامُ الفارِسِ ، فوَقَعَ بسَرْجِه إلى الأرض ، فطَعنَه ابنُ هَمُشْك فقَتَلَه والمَلِكُ يُشاهِدُه علىٰ بُعْد ، فهَمَّت الرُّومُ بالحَمْلَة على ابنِ هَمُشْك فمَنعَهم المَلكُ ، ونزَلَ غُلامُ ابنِ هَمُشْك ، فجرَّدَ الفارِسَ ، وسَلبَه ، وأخَذَ فَرسَه ، وذَهبَ لم يَلتفِتْ إلىٰ ناحِيَتِنا فما أدْري مِمَّ أعْجَبُ ، من إنْصافِ المَلِك ، أو من ابنِ هَمُشْك كيفَ مَضَىٰ ولمْ يُعَرِّجْ إلينا ؟! .

وأقام ابنُ رُذْمير محاصراً سَرَقُسْطَة زماناً ، وأخذ كثيراً من حُصُونِها فلمَّا رَأي أبو عبدُ الله محمدُ بنُ غَلْبُون القائدُ ما حَلَّ بتلك البلادِ من الرُّومِ ، ثارَ بدورقة وقَلعَة أيُّوب وملينَة ، وجَمعَ وحَشدَ ، وكافَحَ ابنَ رُذْميرَ واسْتولَىٰ أبو بكر بنُ تيفلوت علىٰ سَرَقُسْطَة ، وأقامَ بقصرها في لذَّاتِه ، وأمَّا ابنُ غَلْبُون ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَدلَ ، وجاهَدَ ورُزِقَ الجُنْدَ ، رأيتُه رَجلاً طُوالاً جداً ، واجتمعتُ به ، أقامَ مُثاغراً لا بن رُذْمير شجىً في حَلْقه ، الْتَقَىٰ مرَّة في ألفِ فارسٍ لا بنِ رُذْمير ، والآخَرُ في ألفٍ ، فاشْتدَّ بينهما القِتالُ ، وطالَ ، ثم حَملَ ابنُ غَلْبُون على ابنِ رُذْمير ، فصَرعَه عن حِصانِه ، فدَفَعَ عنه أصْحابُه فسَلِمَ ، ثم انْهَزَموا ، ونَجا اللَّعينُ في نَحْو المئتَين فقط ، وأمَّا ابنُ تيفلوت فإنَّه راسَلَ ابنَ غَلْبُونَ ، وخَدعَه ، حتىٰ حَسَّنَ له زيارة أمير المسلمين عليِّ ابنِ يوسُف ، فاسْتَخلَفَ علىٰ بلادِه وَلَدَه أبا الْمُطرف ، وكان من الأبْطالِ المَوْصُوفين أيضاً ، فقَدمَ محمدٌ مَرَّاكش ، فأُمْسِكَ ، وأُلْزِمَ بأنْ يُخاطِبَ بَنيهِ في إخْلاء بلادِه للمُرابطين ، فأخْلُوها طاعَةً لأبيهم ، وترَحَّلوا إلىٰ غَربِ الأنْدَلُس ، ففَرِحَ بذلك ابنُ رُذْمير وحَصرَ سَرَقُسْطَة ، وصَنعَ عليها بُرْجَين عَظيمَين من خَشَب ، وإنَّ أهلَها لَمَّا يَئِسُوا من الغِياثِ ، خَرجوا وأحْرَقوا البُرْجَين ، واقْتَتلوا أشَدَّ قِتالٍ ، وكَتبوا إلى ابنِ تاشِفين يَسْتَصْرِخُون به ، وماتَ ابنُ تيفلوت ، وذلكَ في سنة إحْدَىٰ عَشرَة وخَمس مئة ،

فأنْجَدَهم بأخِيه تَميمِ ابنِ يوسُف ، فقَدمَ في جَيشٍ كَبير ، وعَنّى ابنُ رُذْمير جُيوشَه ، ففَرِحَ أهْلُ سَرَقُسْطَة بتَميم ، فكانَ عليهم لا لَهُم .

جاء مُواجِهَ المدينة ، ثم نكَّبَ عنها ، وكان طائفةٌ من خَيلِها ورَجِلِها قد تلقَّوه ، فحَملَ عليهم حَمْلةً قَتلَ منهم جَماعَةً كَثيرة ، ثم نكبَ عن لقاءِ العَدوِّ ، وانْصَرفَ إلىٰ جهاتِ الموالة ، واشْتدَّ البَلاءُ على البَلدِ ثم سَلَّموهُ بالأمَان ، علىٰ أنَّ مَنْ شاءَ أقَامَ به[1] .

وكان ابنُ رُذمير مَعروفاً بالوفاء ، حدَّثني مَنْ أثقُ به أنَّ رجلاً كانت له بنتٌ من أجْمل النساء ففقَدَها ، فأُخْبرَ أنَّ كَبيراً من رؤوس الرُّوم خَرجَ بها إلىٰ سَرَقُسْطَة ، فتبعَه أبَواها وأقاربُها ، فشَكَوه إلى ابنِ رُذْمير ، فأحضرَه ، وقال : عليَّ بالنارَ ، كيف تَفعَلُ هٰذا بمَنْ هو في جِواري ؟ فقالَ الرُّوميُّ : لا تَعْجَل عليَّ ، فإنَّها فَرَّت إلىٰ ديننا ، فجيء بها ، فأنكَرَت أبَوَيْها ، وارتَدَّت ولمّا دخلَ سَرَقُسْطَة ، أقرَّهم على الصلاة في جامِعِها سبعةَ أعوام ، وبعد ذلك يعمل ما يَرىٰ ، وحاصَر قُتُنْدَة[2] بعد سَرَقُسْطَة سَنتَين ، فلمّا كان في آخر سنة أربع عشرة ، قصَدَه عبد الله ابنُ حيونة في جَيشٍ فيهم قاضي المَريّة ، أبو عبد الله بنُ الفراء ، وأبو علي ابنُ سُكَّرة ، فبرزَ لهمُ اللَّعينُ ، فقَتلَ خَلْقاً ، وأُسرَ آخرون ، واستُشْهدَ المَذْكوران ، فبنىٰ عليهم ابنُ رُذْمير قُبوراً ، ثم سُلِّمَ البلدُ إليه ، وأخذَ في تلك المدة دورقة ، وقلعة أيُّوب ، وطَرَسُونة ، وأكثر من مئتي مسَوَر ، ولم يَبْقَ أكثرُ من ثلاثة مدائن لم يأخذها ، وبقي من أعمال بَني هود لاردةُ وإفراغة ، وطُرْطُوشَة ، وغير ذلك معاملة عشرة أيام لم يَظْفَرْ اللَّعينُ بها ، فقام بِلاردةَ الهُمامُ البَطَلُ أبو محمد ، وقام بإفراغةَ الزاهدُ المُجاهدُ محمد مَردنيش الجُذامي جَدُّ الأمير محمد بن سَعْد[3] .

أحْمد بن عبد المَلك بن هُود :

قال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : المُلقَّبُ بالمُسْتَنْصِر بالله الأنْدلُسيّ ، مَنْ بَيتِ مَمْلَكَةٍ

---

(١) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٥ .
(٢) وهي ثَغر سَرَقُسْطَة من قُرىٰ مرسيه .
(٣) انظر السير : (عِمادُ الدولَة بن هُود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٦ .

وحِشْمَةٍ ، وأمْوالٍ عَظيمَةٍ ، وكانَ بِيَدِه قِطعَةٌ من الأندُلُسِ ، فاسْتَعَانَ بالفِرَنْجِ علىٰ إقامَةِ دَولَتِه[1] .

ذَكرَهُ اليَسَعُ بنُ حَزْم ، فقالَ : انعَقَدَ الصُّلْح بينَ المُسْتَنْصِرِ بنِ هُودٍ وبينَ السُّليطِينِ مَلكِ الرُّوم وهو ابنُ بِنتِ أذْفُونْش إلىٰ مُدَّةِ عِشرِينَ سَنة علىٰ أنْ يَدْفَعَ للفِرَنْج رُوطَة ، ويَدْفعُوا إلَيْهِ حُصُوناً عِوَضاً عنها ، ويُعِينُوهُ بخَمْسينَ ألْفاً من الرُّوم ، يَخْرُجُ بها إلىٰ بِلادِ المُسلمينَ لِيُمَلَّكَ فجعَلَ اللهُ تَدْميرَهُ في تَدْبيرِه ، وكُنَّا نَجِدُ في الآثَارِ عنِ السَّلَفِ فَسَادَ الأنْدلُسِ علىٰ يَدَيْ بَنِي هُودٍ وصَلاحُها بَعدُ عَلىٰ أيْدِيهِم ، فخَرَجَ اللَّعينُ السُّليطِينُ وابنُ هُودٍ في نَحْوٍ من أرْبَعينَ ألْفَ فارسٍ ، وتاشْفينُ بالزَّهْراءِ ، فقَصَدَ ابنُ هُودٍ جِهَةَ إشْبيليَّة ، وبَقِيَ يُنْفِقُ علىٰ جُيُوشِ السُّليطِينِ نَحوَ ثَمانيَةَ أشْهُر ، وشَرطَ عليهِم أنَّهم لا يَأسِرُونَ أحَداً ، فحَدَّثَني المُسْتَنْصِرُ ـ وقَد نَدِمَ علىٰ فِعْلِه من شَيْطَنَة الشَّبيبَة وطَلَبِ مُلكِ آبائِه ـ فقالَ لي : الذي أنْفَقتُ في تِلكَ السَّفْرَةِ من الذَّهَبِ الخالِصِ ثلاثَةُ آلافِ ألْفِ دينارٍ ، والذي دَفَعتُ إلَيهِم من مَخَازِنِ رُوطَة من الدُّروع أرْبَعُونَ ألْفَ دِرْعٍ ، ومن البيضِ مِثلَها ، ومن الطَّوارِقِ ثَلاثُونَ ألْفاً ، وذَكرَ لي جَماعَةٌ أنَّه دَفَعَ إلى السُّليطِينِ خَيْمَةً كان يَحْمِلُها أرْبَعُونَ بَغْلاً ، وذَكَرَ لي مُحمّدُ بنُ مَالكٍ الشَّاعِرُ أنَّه أبْصَرَ تِلكَ الخَيْمَةَ ، قال : فمَا سُمِعَ بأكْبَرَ منها قَطُّ ، ولمَّا طالَتْ إقامَتُه على البلادِ ، ولَمْ يَخْرُجْ إلى ابنِ هُودٍ أحَدٌ ، رَجَعَ ومَعهُ ابنُ هُودٍ ، ولَمْ يَكنْ معَ ابنِ هُودٍ إلاَّ نَحواً من مِئتَيْ فارِسٍ ، فأقَامَ ابنُ هُودٍ بطُلَيْطِلَة ليَذْهَبَ منها إلىٰ حُصُونِه التي عُوِّضَ بها ـ وبِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً ـ ثُمَّ إنَّ قُرْطُبَةَ اضْطَرَبَ أمْرُها ، واشْتَغَلَ أميرُ المسلمين بما دَهَمَهُ من خُرُوجِ التُّومَرْتيَّة[2] فجَاءَ المُسْتَنْصِرُ باللهِ أحمَدُ من مَدينَةِ غرليطش وقَصَدَ قُرطُبَةَ ، وكان مُحَبَّباً إلى النَّاسِ بالصِّيتِ ، فبَرَزَ إليهِ ابنُ حَمْدين زَعيمُ قُرْطُبَة بِعَسْكَرِها ، فقَصَدَ عَسْكَرُها نَحوَ ابنِ هُودٍ طائِعينَ فَفرَّ حِينَئذٍ ابنُ حَمْدين إلىٰ بُلَيْدَة ، ودَخَلَ ابنُ هُودٍ قُرْطُبَةَ بِلا كُلْفَةٍ ولا ضَرْبَةٍ ولا طَعْنَةٍ ، فاسْتَوْزَرَ أبا سَعيدٍ المَعْرُوف بِفَرَجِ الدَّليل ، وكاتَبَ نُوَّابَ البِلادِ ، ففَرِحُوا به

---

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٧ .

(٢) هم جماعةُ مُحمّد ابن عبد الله ابن تومرت ـ مَهْديُّ المَغرب ـ زَعيمُ الموَحِّدين .

لأصالَتِه في المُلْكِ ، ثم خَرَجَ فَرَجُ الدَّليلِ إلىٰ حِصْنِ المُدَوَّر ، فقِيلَ لابنِ هُودٍ : قد نَافَقَ وفَارَقَ ، فخَرَجَ بنفْسِه واستَنْزَلَه من الحِصْنِ ، فنَزَلَ غَيرَ مُظْهِرٍ خِلافاً ، وكان رَجُلاً صَالِحاً فقتَلَه صَبْراً ، فسَاءَ ذَاكَ أهْلَ قُرْطُبَة ، وثارَتْ نُفُوسُهم ، وعَظُمَ عَليهِم قَتْلُ أَسَدٍ من أُسْدِ الله ، فزَحَفُوا إلى القَصْرِ ، فَفَرَّ ابنُ هُودٍ من قُرْطُبَة فقَصَدَها ابنُ حَمْدين ، فأدْخَلَهُ أهْلُهُ ، وكَثُرَ الهيجُ ، واشْتَدَّ البَلاءُ بالأنْدَلُسِ ، وغَلَتْ مَرَاجِلُ الفِتْنَة ، وأمَّا أَبُو مُحمّد ابنُ عِياضٍ ، فكَانَ علىٰ مَمْلَكَةِ لارِدَة ، فخَرَجَ في خَمْسِ مِئَةِ فارسٍ لِيَسْعَىٰ في إصْلاحِ أمْرِ الأُمَّة وقَصَدَهُ أهلُ مَرْسِيّة وبَلَنْسِيّة لِيُمَلِّكُوهُ عليهِم ، فامْتَنَعَ ، ثمَّ بايَعَ أهلُ بَلَنْسِيّة عن الخَليفَةِ عبدِ الله العَبَّاسيّ ، ثمَّ اتَّفَقَ ابنُ عِياضٍ وابنُ هُودٍ على اسْمَ الخِلافَة لأميرِ المُؤمِنينَ العَبَّاسيّ ، وأنَّ النَّظَرَ في الجُيُوشِ والأمْوالِ لابنِ عِياضٍ رَحِمَهُ الله ، وأنَّ السَّلْطَنَةَ لابنِ هُودٍ[١] .

(د) اسْتعانَةُ أُمَرائِها بالصَّليبيِّين على المُسْلمين :

جاءَ في تَرجَمَةِ أحمدِ بنِ عبدِ المَلِكِ ابنِ هُود ، قالَ الإمامُ الذهبيُّ : المُلَقَّبُ بالمُسْتَنْصِر بالله الأنْدلُسيّ ، مَنْ بَيتِ مَمْلَكَةٍ وحِشْمَةٍ ، وأمْوالٍ عَظيمَةٍ ، وكانَ بِيَدِه قِطْعَةٌ من الأنْدلُسِ ، فاسْتَعَانَ بالفِرَنْجِ علىٰ إقامَةِ دَولَتِه[٢] .

ذَكرَهُ اليَسَعُ بنُ حَزْم ، فقالَ : انْعَقَدَ الصُّلْح بينَ المُسْتَنْصِرِ بنِ هُودٍ وبينَ السُّليطَينِ مَلِكِ الرُّوم وهو ابنُ بِنتِ أذْفُونْش إلىٰ مُدَّةِ عِشرينَ سَنة علىٰ أنْ يَدْفَعَ للفِرَنْجِ رُوطَة ، ويَدْفعُوا إلَيْهِ حُصُوناً عِوَضاً عنها ، ويُعِينُوهُ بخَمْسينَ ألْفاً من الرُّوم ، يَخْرُجُ بها إلىٰ بلادِ المُسلمينَ لِيُمَلَّكَ فجَعَلَ اللهُ تَدْميرَهُ في تَدْبيرِهِ ، وكُنَّا نَجِدُ في الآثَارِ عن السَّلَفِ فَسَادَ الأنْدلُسِ علىٰ يَدَيْ بَنِي هُودٍ وصَلاحُها بَعدُ عَلىٰ أيْدِيهِم ، فخَرَجَ اللَّعينُ السُّليطينُ وابنُ هُودٍ في نَحْوٍ من أرْبَعينَ ألْفَ فارسٍ ، وتاشْفينُ بالزَّهْراءِ ، فقَصَدَ ابنُ هُودٍ جِهَةَ إشْبيليّة ، وبَقِيَ يُنْفِقُ علىٰ جُيُوشِ السُّليطينِ نَحوَ ثَمانيَةَ أشْهُر ، وشَرطَ عليهِم أنَّهم لا يَأسِرُونَ أحداً ، فحَدَّثَني المُسْتَنْصِرُ ـ وقَد نَدِمَ علىٰ فِعْلِه من شَيْطَنَة الشَّبيبَة وطَلَبِ

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٧ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٧ .

مُلكِ آبائِه ـ فقالَ لي : الذي أنْفَقتُ في تِلكَ السَّفْرَةِ من الذَّهَبِ الخالصِ ثلاثةُ آلافِ ألْفِ دينارٍ ، والذي دَفَعتُ إليهِم من مَخَازِنِ رُوطَة من الدُّروع أرْبَعُونَ ألْفَ دِرْعٍ ، ومن البِيضِ مِثلَها ، ومن الطَّوارِقِ ثلاثُونَ ألْفاً ، وذَكَرَ لي جَماعَةٌ أنَّه دفَعَ إلى السُّليطِينِ خَيْمَةً كان يَحْمِلُها أرْبَعُونَ بَغْلاً ، وذَكَرَ لي مُحمّدُ بنُ مَالكٍ الشَّاعِرُ أنَّه أبْصَرَ تِلكَ الخَيْمَةَ ، قال : فمَا سُمِعَ بأكْبَرَ منها قَطُّ ، ولمَّا طالَتْ إقامَتُه على البِلادِ ، ولَمْ يَخْرُجْ إلى ابنِ هُودٍ أحَدٌ ، رَجَعَ ومَعَهُ ابنُ هُودٍ ، ولَمْ يَكنْ معَ ابنِ هُودٍ إلاَّ نَحواً من مِئَتَيْ فارِسٍ ، فأقَامَ ابنُ هُودٍ بطُلَيْطِلَة ليَذْهَبَ منها إلىٰ حُصُونِه التي عُوِّضَ بها ـ وبِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً ـ ثمَّ إنَّ قُرْطُبَةَ اضْطَرَبَ أمْرُها ، واشْتَغَلَ أميرُ المسلمين بما دَهَمَهُ من خُرُوجِ التُّومَرْتيَّة[1] فجَاءَ المُسْتَنْصِرُ باللهِ أحمَدُ من مَدينَةِ غرليطش وقَصَدَ قُرطُبَةَ ، وكان مُحَبَّباً إلى النَّاسِ بالصِّيتِ ، فبَرَزَ إليهِ ابنُ حَمْدين زَعيمُ قُرْطُبَة بِعَسْكَرِها ، فقَصَدَ عَسْكَرُها نَحوَ ابنِ هُودٍ طائِعينَ ففَرَّ حِينَئذٍ ابنُ حَمْدين إلىٰ بُلَيْدَة ، ودَخَلَ ابنُ هُودٍ قُرْطُبَةَ بِلا كُلْفَةٍ ولا ضَرْبَةٍ ولا طَعْنَةٍ ، فاسْتَوْزَرَ أبا سَعيدٍ المَعْرُوف بِفَرَجِ الدَّليل ، وكاتَبَ نُوَّابَ البِلادِ ، ففَرِحُوا به لأصالَتِه في المُلْكِ ، ثم خَرَجَ فَرَجُ الدَّليلِ إلىٰ حِصْنِ المُدَوَّر ، فقِيلَ لابنِ هُودٍ : قد نَافَقَ وفَارَقَ ، فخَرَجَ بنَفْسه واستَنْزَلَه من الحِصْنِ ، فنَزَلَ غيرَ مُظْهِرٍ خِلافاً ، وكان رَجُلاً صَالِحاً فقتَلَه صَبْراً ، فسَاءَ ذَاكَ أهْلَ قُرْطُبَة ، وثارَتْ نُفُوسُهم ، وعَظُمَ عليهِم قَتْلُ أَسَدٍ من أُسْدِ الله ، فزَحَفُوا إلى القَصْرِ ، فَفَرَّ ابنُ هُودٍ من قُرْطُبَة فقَصَدَها ابنُ حَمْدين ، فأدْخَلَهُ أهْلُهُ ، وكَثُرَ الهيجُ ، واشْتَدَّ البَلاءُ بالأنْدَلُسِ ، وغَلَتْ مَرَاجِلُ الفِتْنَة ، وأمَّا أبُو مُحمّد ابنُ عِياضٍ ، فكَانَ علىٰ مَمْلَكَةِ لارِدَة ، فخَرَجَ في خَمْسِ مِئَةِ فارِسٍ ليَسْعَىٰ في إصْلاحِ أمْرِ الأُمَّة وقَصَدَهُ أهلُ مَرْسِيّة وبَلَنْسيّة ليُمَلِّكُوهُ عليهِم ، فامْتَنَعَ ، ثمَّ بايَعَ أهلُ بَلَنْسيّة عن الخَليفَةِ عبدِ الله العَبَّاسيّ ، ثمَّ اتَّفَقَ ابنُ عِياضٍ وابنُ هُودٍ على اسْمَ الخِلافَة لأميرِ المُؤمِنينَ العَبَّاسيّ ، وأنَّ النَّظَرَ في الجُيُوشِ والأمْوالِ لابنِ عِياضٍ رَحِمَهُ الله ، وأنَّ السَّلْطَنَةَ لابنِ هُودٍ[2] .

---

(١) هم جماعةُ مُحمّد ابن عبد الله ابن تومرت ـ مَهْديُّ المَغرب ـ زَعيمُ الموحِّدين .

(٢) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هُود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٧ .

(١٧) الدَّوْلَةُ السَّلْجُوقية

(أ) طُغْرُلبَك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : محمدُ بنُ ميكائيلَ ، السُّلطانُ الكَبيرُ ، رُكنُ الدِّينِ أبو طالِب .

أصلُ السلجوقية ، من بَرِّ بُخارَىٰ ، لهم عَددٌ وقوَّة وإقْدام ، وشَجاعَة وشَهامَة وزِعارَة ، فلا يدخلون تحت طاعة ، وإذا قَصدَهم مَلكٌ ، دَخلُوا البَريَّة علىٰ قاعِدَةِ الأعْراب ، ولَمَّا عَبرَ السُّلطانُ مَحمودُ بنُ سُبُكْتِكين إلىٰ بلادِ ما وَراءَ النَّهْر وجدَ رأسَ السُّلجوقية قَويَّ الشَّوْكَة ، فاستمالَه ، وخَدعَه حتىٰ جاءَ إليه ، فقَبضَ عليه ، واستشارَ الأُمَراءَ فأشارَ بعضُهم بتَغْريقِ كِبارِهم ، وأشارَ آخَرون بقَطعِ إبْهاماتِهم ليُبْطِلَ رَمْيَهم ، ثم اتَّفقَ الرأيُ علىٰ تفريقِهم في النَّواحي ، ووَضْعِ الخَراجِ عليهم فتَهذَّبوا ، وذَلُّوا فانْفَصلَ منهم ألفا خَركاه[١] ، ومَضوا إلىٰ كَرْمَانَ[٢] ، ومَلِكُه يومئذ ابنُ بَهاء الدولَة بنُ عَضُد الدولَة بنُ بُوَيْه ، فأَحْسَنَ إليهم ، ولمْ يلبَثْ أنْ ماتَ بعدَ الأرْبَع مئة ، فقَصَدوا أَصْبَهَانَ ، ونزَلوا بظاهِرِها ، وكان صاحِبُها عَلاءَ الدولَة ابنَ كاكَويه ، فرَغِبَ في اسْتِخْدامِهم ، فكَتبَ إليه السُّلطانُ مَحمودٌ يأمُرُه بحَرْبِهم ، فوَقَعَ بَينَهم مَصافٌّ ، ثم تَرحَّلوا إلىٰ أَذْربيجانَ ، وانْحازَ إخْوانُهم الذين بخُراسَانَ إلىٰ خُوارَزْم وجبالِها ، فجَهَّزَ السُّلطانُ جَيشاً ضايَقُوهم نحو سَنتَين ، ثم قَصدَهم مَحمودٌ بنفسِه ، ومَزَّقَهم وشَتَّتَهم ، فماتَ وتَسلْطَنَ ابنُه مَسْعود ، فتألَّفَ الذين نزَلوا بأذْربيجانَ فأتاهُ ألفُ فارس ، فاسْتَخدمَهم ، ثم لاطَفَ الآخَرين ، فأجابُوا إلىٰ طاعَتِه ثم اشْتَغَلَ بحَربِ الهِنْد ، فإنَّهم خَرجُوا عَليه ، فخَلَت البلادُ للسُّلجُوقيَّة فهاجُوا وأفْسَدوا .

---

(١) كلمة فارسية معناها الخيمة الكبيرة ، وفي « وفيّات الأعيان » : فانفصل منهم ألفا بيت .

(٢) قال ياقوت : هي ولاية مشهورة ذات بلاد وقرىٰ ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ، إلىٰ أن قال : وكرمان أيضاً مدينة بين غَزْنَة وبلاد الهند ، وهي من أعمال غَزْنَة .

هـٰذا كلُّه ، والأخَوان طُغْرُلْبَك وجَغْريبَك في أرضِهم بأطْرافِ بُخارَىٰ ثم جَرَت مَلْحمَةٌ بينَ السُّلجُوقيَّة وبين مُتَوَلِّي بُخارَىٰ ، قُتلَ فيها خَلقٌ من الفِئَتَين ، ثم نَفَّذوا رَسُولاً إلى السُّلطانِ ، فحَبَسَه ، وجَهَّزَ جَيشَه لحَرْبِهم فالْتَقُوا ، فانْكَسرَ آلُ سُلْجوق ، وذَلُّوا ، وبَذَلوا الطَّاعَةَ لِمَسْعود ، وضَمنوا له أخْذَ خُوارَزْم ، فطَيَّبَ قُلوبَهم ، وانْخَدَعَ لهم ، ثم حَشَدَ الأخَوان وعَبَروا إلىٰ خُراسانَ ، وانْضَمَّ الآخَرون إليه وكثُروا ، وجَرَتْ لهم أمُورٌ يَطولُ شَرحُها إلىٰ أن اسْتولوا على الْمَمالِك ، فأخَذُوا الرَّيَّ في سَنة تِسْع وعِشْرينَ وأرْبَع مئة ، وأخَذُوا نِيسَابُورَ في سنة ثلاثين وأخَذوا بَلْخَ وغيرَ ذلك ، وضَعُفَ عنهم مَسْعود ، وتَحيَّزَ إلىٰ غَزْنَة ، وبَقُوا في أوائل الأمْرِ يَخْطُبونَ له حتىٰ تمكَّنوا ، فراسَلَهم القائمُ بأمْرِ الله بقاضي القُضاة أبي الحَسَن الماوَرْديِّ ، ثم إنَّ طُغْرُلْبَك الْمَذْكورَ عَظُمَ سُلطانُه ، وطَوَى الْمَمالِكَ ، واسْتولَىٰ على العِراقِ في سنةِ سَبْع وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة ، وتَحبَّبَ إلى الرَّعيَّة بعَدلٍ مَشُوبٍ بجُورٍ ، وكان في نفسِه يَنْطَوي علىٰ حِلْم وكَرَمٍ ، وقيلَ : كانَ يُحافِظُ على الجَماعَة ، ويَصُومُ الخَميسَ والإثْنَينَ ، ويَبني المَساجِدَ ويَتصدَّقُ ، وقد جَهَّزَ رَسُولَه ناصِرَ بنَ إسْماعيلَ العَلَويَّ إلىٰ مَلِكَةِ النَّصارَىٰ فاسْتأذَنَها ناصِرٌ في الصَّلاةِ بجامِع قُسْطَنْطِينيَّة جَماعَةً يَومَ جُمعَة ، فأذنَتْ له ، فخَطَبَ للخَليفَةِ القائم ، وكان هناك رَسُولُ خَليفَةِ مِصْرَ الْمُسْتَنْصِر فأنْكَرَ ذلك .

وذَكرَ الْمُؤيَّد في « تاريخِه » أنَّ في سَنة إحْدَىٰ وأرْبَعين وأرْبَع مئة بَعثَ مَلكُ الرُّوم إلىٰ طُغْرُلْبَك هَدايا وتُحَفاً ، والْتَمسَ الهُدنَة ، فأجَابَه وعَمَّرَ مَسْجدَ القُسْطَنْطِينيَّة ، وأقامَ فيها الخُطبَةَ لطُغْرُلْبَك ، وتَمكَّنَ مُلكُه[1] .

ولما تَمهَّدت البلادُ لطُغْرُلْبَك خَطبَ بنتَ الخَليفَة القَائِم ، فتَألَّمَ القائمُ ، واسْتَعْفَىٰ فلَمْ يُعْفَ ، فزَوجَّه بها ، ثم قدِمَ طُغْرُلْبَك بغدادَ للعُرْس .

وكانت له يَدٌ عَظيمَةٌ على القَائِم في إعادَة الخِلافَة إليه ، وقَطْع خُطبَة المِصْريِّين التي أقامَها البَساسيريُّ[2] .

---

(١) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩/ طُغْرُلْبَك .

(٢) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ١٣٨٩/١ .

ثم نفَّذ طُغْرُلْبَك مئة ألف دينار برَسْم نَقْل الجَهاز ، فعُملَ العُرسُ في صَفَر سَنَةَ خَمسَة وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، وأُجلسَت علىٰ سَرير مُذَهَّب ، ودَخلَ السُّلطانُ إلىٰ بَينِ يَدَيْها ، فقَبَّلَ الأرْضَ ، ولـمْ يَكْشِفْ المنْديلَ عن وَجْهها ، وقدَّم تُحَفاً سَنيَّة ، وخَدَمَ وانصرف ، ثُم بَعثَ إليها عِقْدَينِ مُجَوْهَرَين ، وقِطَعَةَ ياقُوتٍ عَظيمَة ، ثم دَخلَ من الغدِ ، فقَبَّل الأرْضَ ، وجلسَ علىٰ سَريرٍ إلىٰ جانِبها ساعَةً ، وخَرَجَ وبَعثَ لها فَرَجيَّةَ نَسيجٍ مُكَلَّلَةً بالجَوْهَر ومِخْنَقَةً ـ أي قِلادَة ـ مُثَمَّنَةً ، وسُرَّ بها هـٰذا والخَليفَةُ في ألمٍ وحُزْنٍ وكَظْمٍ ، فأمَّا غيرُه من الخُلفاء الضُّعَفاء فَودُّه لو زَوَّجَ بنتَه بأمير عُتَقاءِ السُّلطان ، ثم إنَّ طُغْرُلْبَك خَلا بها ، ولم يُمَتَّع بنَعيم الدنيا ، بلْ ماتَ في رَمضانَ من السَّنة بالريِّ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وأرْبَع مئة ، وحُملَ إلىٰ مَرْوَ ، فدُفِنَ عند أخيه وقِيلَ : بلْ دُفِنَ بالريِّ ، وعاشَت الزَّوْجَة الخَليفَتيَّة إلىٰ سَنةِ سِتٍّ وتسْعينَ وأرْبَع مئة ، وصارَ مُلكُه من بعده إلى ابنِ أخيه السُّلطانُ ألْب آرْسلان[1] .

ولَـمْ يُرْزَق طُغْرُلْبَك ولَداً ، وعاشَ سَبعينَ عاماً ، وكان بيَدِه خُوارَزْم ونيسابُور وبَغْداد والريّ وأصْبَهان ، وكان أخُوهُ إبراهيم يَنال قد حارَبَه ، وجَرَتْ أمُور ، وحصل في يدِه مَلِكٌ كَبيرٌ للرُّومِ ، فبَذَلَ في نَفَسه أمْوالاً عَظيمَةً ، فأبَىٰ عليه فبَعَثَ نَصْرُ الدَّولَة صاحِبُ الجَزيرَة وميَّافارِقين يَشْفَعُ في فِكاكِه ، فبَعَثَه طُغْرُلْبَك إلىٰ نَصرِ الدَّولَة بِلا فِداءٍ فانْتُخَىٰ مَلِكُ الرُّوم ، وأهْدَىٰ إلىٰ طُغْرُلْبَك مِئَتَيْ ألفِ دينارٍ ، وخَمسَ مِئَةِ أسير ، وألْفاً وخَمسَ مِئَةَ ثَوْبٍ ، ومِئَةَ لَبِنَةٍ فِضَّة ، وألْفَ عَنْزٍ أبيض وثلاثِ مِئَة شِهْرِي[2] ، وبَعثَ إلىٰ نَصرِ الدَّولَة تُحَفاً ومِسْكاً كَثيراً[3] .

(ب) ألب آرْسَلان :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ ، المَلِكُ العَادِلُ ، عَضُدُ الدَّولَة ، أبو شُجاع ألْبَ آرْسَلان محمدُ بنُ السُّلطانِ جَغْريبَك داوُدَ بنِ ميكائيلَ بنِ

(١) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/ ١٠٧ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ١٣٩٠/ ١ .
(٢) قال في « الأساس » : والبرذَون الشِّهْري : بين الرَّمَكَة والفَرس العَتيق .
(٣) انظر السير : (طُغْرُلْبَك) ١٨/ ١٠٧ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ١٣٩٠/ ٢ .

سَلْجوق التُّرْكُمانيُّ ، الغُزِّيُّ من عُظَماء مُلوكِ الإسْلامِ وأبْطالِهم[1] .

عَظُمَ أمْرُ السلطانِ ألْب آرسَلان ، وخُطِبَ له علىٰ مَنابِرِ العِراقِ والعَجَم وخُراسَان ، ودانَتْ له الأُمَمُ ، وأحَبتْه الرَّعَايَا ، ولا سِيَّمَا لمَّا هَزَمَ العَدُوَّ فإنَّ الطَّاغِيَةَ عَظِيمَ الرُّومِ أَرْمانُوس حَشَدَ ، وأقْبَلَ في جَمْعٍ ما سُمِعَ بمِثْلِه في نَحوٍ من مِئَتَيّ ألفِ مُقاتِلٍ من الرُّومِ والفِرَنْج والكَرْج وغيرِ ذلك ، ووَصَلَ إلىٰ مَنازْكِرْد[2] وكان السُّلطانُ بخُوَيّ[3] قد رَجَعَ من الشَّامِ في خَمسَةَ عشرَ ألف فارسٍ ، وباقي جُيُوشِه في الأطْرافِ ، فصَمَّمَ على المَصافِّ ، وقال : أنا أَلْتَقِيهم ـ وحَسْبِيَ اللهُ ـ فإنْ سَلِمْتُ ، وإلاَّ فابْنِي مَلِكْشاه وَلِيُّ عَهْدِي ، وسَارَ ، فالْتَقىٰ يَزكُة[4] ، ويَزَكُ القومِ فكَسَرَهم يَزَكُه ، وأَسَروا مُقَدَّمَهم ، فقطَعَ السُّلطانُ أنْفَه ، ولمَّا الْتَقَى الجَمْعانِ وتَراءَى الكُفْرُ والإيمانُ ، واصْطَدَمَ الجَبلانِ ، طَلَبَ السُّلطانُ الهُدْنَةَ ، قال أرْمَانُوسُ : لا هُدنَةَ إلاَّ ببَذْلِ الرَّيّ ، فحَمِيَ السُّلطانُ وشَاطَ ، فقال إمامُه : إنَّكَ تُقاتِلُ عن دينٍ وَعَدَ اللهُ بنَصْرِه ، ولَعَلَّ هٰذا الفَتْحُ باسْمِك ، فالتَقِهم وقْتَ الزَّوَالِ ـ وكان يومَ جُمُعَة ـ قال : فإنَّه يكونُ الخُطَبَاءُ على المَنَابِرِ ، وإنَّهم يَدْعُونَ للمُجَاهِدينَ ، فَصَلَّوْا ، وبَكَى السُّلطانُ ، ودَعَا وأَمَّنُوا ، وسَجَدَ ، وعَفَّرَ وجْهَهُ وقال : يا أُمَرَاءُ! مَنْ شَاءَ فلْيَنْصَرِفْ ، فمَا ها هُنَا سُلطانٌ ، وعَقَدَ ذَنَبَ حصانِه بيَدِه ، ولَبِسَ البَيَاضَ وتَحَنَّطَ ، وحَمَلَ بجَيْشِه حَمْلَةً صادِقَةً ، فوَقَعُوا في وَسَطِ العَدُوِّ يَقْتُلُونَ كيفَ شَاؤُوا ، وثَبُتَ العَسْكَرُ ، ونزَلَ النَّصْرُ ، ووَلَّتِ الرُّومُ ، واسْتَحَرَّ بهم القَتْلُ ، وأُسِرَ طاغِيَتُهم أرْمانُوس ، أَسَرَهُ مَمْلُوكٌ وهَمَّ بقَتْلِه ، فقال إفْرِنْجِيٌّ : لا لا ، فهٰذا المَلِكُ وقرَأْتُ بخَطِّ القِفْطِيِّ أنَّ ألْبَ آرسَلان بالَغَ في التَّضَرُّعِ والتَّذَلُّلِ ، وأخْلَصَ للهِ وكَيْفِيَّة أَسْرِ الطَّاغُوتِ أنَّ مَمْلُوكاً وَجَدَ فَرَساً بلِجَامٍ مُجَوهَرٍ وسِرْجٍ مُذَهَّب مع رَجُلٍ ، بينَ يَدَيْه مِغْفَرٌ من الذَّهَبِ ، ودِرْعٌ من الذَّهَبِ ، فهَمَّ الغُلامُ فأتىٰ به بينَ يَدَيّ السُّلطانِ ، فقَنَّعَه بالمِقْرَعَةِ ، وقال : ويْلَكَ! ألَمْ أبْعَثْ أطلُبُ منكَ الهُدنَةَ ؟

---

(١) انظر السير : (ألْبَ آرْسَلان) ١٨/ ٤١٤ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٤٢٦/ ٤ .

(٢) مَنازْكِرْد : بلد في أرمينية ، وأهله أرمن وروم .

(٣) خُوَيّ : بلد بأذربيجان .

(٤) اليَزَك : كلمة فارسية معناها : مقدمة الجيش .

فقال : دَعْنِي من التَّوبيخ ، قال : ما كان عَزْمُك لو ظَفِرْتَ بِي ؟ قال : كُلُّ قَبيحٍ قال : فما تُؤَمِّلُ وتَظُنُّ بِي ؟ قال : القَتْلُ أو تُشَهِّرُني في بلادِك والثالثةُ بَعِيدَةٌ : العَفْوُ وقَبُولُ الفِداءِ قال : ما عَزَمْتُ علىٰ غَيرِها فاشْتَرَىٰ نفسَه بألفِ ألفِ دينارٍ وخَمسِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وإطْلاقِ كُلِّ أسيرٍ في بلادِه ، فخَلَعَ عليهِ ، وبَعَثَ معَه عُدَّةً وأعْطَاهُ نَفَقَةً تُوصِّلُه ، وأمَّا الرُّومُ فبَادَرُوا ، ومَلَّكُوا آخَرَ ، فلمَّا قَرُبَ أرْمانُوسُ ، شَعَرَ بزَوالِ مُلْكِه ، فلَبِسَ الصُّوفَ وتَرَهَّبَ ، ثمَّ جَمَعَ ما وَصَلَتْ يدُه إليهِ نَحوَ ثلاثِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وبَعَثَ بها ، واعْتَذَرَ وكانت المَلْحَمَةُ في سَنَةِ ثلاثٍ وستين .

وقد غزَا بلادَ الرُّومِ مرَّتَيْن وافْتَتَحَ قِلاعاً ، وأَرْعَبَ المُلُوكَ ، ثمَّ سَارَ إلىٰ أَصْبَهَانَ وذَهبَ إلىٰ شِيرازَ ، ثمَّ عادَ إلىٰ خُراسَانَ ، وكادَ أنْ يَتَمَلَّكَ مِصْرَ .

ثمَّ في سَنَةِ خَمسٍ عَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه نَهْرَ جَيْحُونَ ، وكانوا مِئَتَيّ ألفَ فارسٍ فأُتِيَ بِعِلْجٍ يُقالُ له : يُوسُف الخَوارِزْميّ كانت بيَدِهِ قَلعَةٌ ، فأَمَرَ أنْ يُشْبَحَ في أرْبَعَةِ أوْتادٍ ، فصَاحَ : يا مُخَنَّثُ : مِثْلِي يُقتَلُ هٰكذا ؟!! ، فاحْتَدَّ السُّلطانُ ، وأخَذَ القَوْسَ ، وقال : دَعُوهُ ورَمَاهُ فأخْطَأَهُ ، فظَفَرَ[1] يُوسُفُ إلى السَّريرِ ، فقامَ السُّلطانُ فعَثَرَ علىٰ وجْهِهِ ، فبَرَكَ العِلْجُ على السُّلطانِ ، وضَرَبَه بسَكِّينٍ ، وتَكاثَرَ المَماليكُ فهَبَّرُوهُ ، وماتَ منها السُّلطانُ ، وذلكَ سَنَةَ خَمسٍ وسِتينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، وله أرْبَعُونَ سَنَةً[2] .

(ج) مَلِكشَاه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَتِه : السلطانُ الكَبيرُ جَلالُ الدولَة أبو الفَتْح مَلِكْشاه بنُ السلطانِ آلْب أرْسِلان مُحمدِ بنِ جَغْريبَك السَّلْجُوقيُّ التركيُّ .

تَملَّك بعد أبيه ودَبَّرَ دولَتَه النِّظامُ الوَزيرُ بوَصيَّةٍ من ألْب آرْسلان إليه في سنة خَمسٍ وسِتِّينَ[3] .

---

(١) ظَفَرَ : أي وثبَ في ارتفاع .

(٢) انظر السير : (أَلْبَ آرْسَلان) ١٨/ ٤١٤ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٤٢٦/٥ .

(٣) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ١٤٥٥/١ .

تَملَّكَ من المَدائن ما لَمْ يَملِكْه سُلطانٌ ، فمن ذلك مَدائنُ ما وَراء النَّهْر وبلادُ الهَيَاطِلَة[١] ، وبلادُ الرُّوم والجَزيرةُ ، وكَثيرٌ من الشَّام ، فتَملَّكَ من كاشْغَرَ[٢] إلى القُدْس طُولاً ، ومن أطْرافِ قُسْطَنْطِينيَّة إلىٰ بلادِ الخَزَر[٣] وبَحْرِ الهِنْد عَرْضاً ، وكان حَسنَ السِّيرَة لَهِجاً بالصَّيدِ واللَّهْوِ مُغْرَىٰ بالعَمائر ، وحَفْر الأنْهار ، وتَشْييد القَناطِر ، والأسْوار ، وعَمَّرَ ببَغْدادَ جامِعاً كَبيراً ، وأبْطَلَ الْمُكوسَ والخفاراتِ في جَميع بِلادِه[٤] .

يُقالُ : إنَّه ضَبطَ ما اصْطادَه بيَدِه فبَلَغَ عَشرَةَ آلافِ وَحْشٍ ، فتَصَدَّقَ بعَشْرَةِ آلاف دِينار ، وقالَ : إنِّي خائفٌ من إزْهاقِ الأرْوَاحِ لغَيْرِ مَأكَلَة[٥] .

شَيَّعَ مرةً رَكبَ العراق إلى العُذَيْب[٦] فصادَ شيئاً كثيراً ، فبنىٰ هناك منارةَ القُرون من حَوافِرِ الوُحُوش وقُرونِها ، ووقفَ يتأملُ الحُجَّاجَ ، فَرَقَّ ونزلَ وسَجَد ، وعَفَّرَ وجهَه وبكىٰ ، وقال بالعجمية : بَلِّغوا سَلامي إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقولوا : العبدُ العَاصي الآبق أبو الفتح بنُ آرسلان يَخدِمُ ويقول : يا نبيَّ الله ، لو كنتُ ممّن يَصلُح لتلكَ الحضرةِ المقدَّسَة ، كنتُ في الصُّحبَة ، فَضَجَّ النَّاسُ وبَكَوا ودَعَوا له[٧] .

أَمِنَت الطُّرقُ في دَولتِه ، وانْحلَّت الأسْعارُ ، وتَزَوَّجَ الخَليفَةُ الْمُقْتَدِي بابْنَتِه بِسفَارَة شَيخ الشَّافِعيَّة أبي إسْحاقَ[٨] ، وكان عُرسُها في سَنة ثَمانينَ وأرْبَع مئة وعُملَت دَعوَةٌ

---

(١) قال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » : هَيْطَل : اسم لبلاد ما وراء النهر ، وهي بُخارَىٰ ، وسَمَرْقَنْد ، وخُجَند سُمِّيَ بهطيل ابن عالم بن سام بن نوح عليه السلام .

(٢) قال ياقوت الحموي : هي مدينة وقُرىٰ ورساتيق يسافر إليها من سمرقند وتلك النواحي ، وهي في وسط بلاد الترك .

(٣) قال ياقوت الحموي : هي بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند ، وقيل سُمِّيَ بالخزر بن يافث بن نوح عليه السلام .

(٤) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ١٤٥٥/ ٢ .

(٥) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ١٤٥٥/ ٣ .

(٦) ماء بين القادسية والمُغيثة ، بينه وبين القادسية أربعة أميال .

(٧) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ١٤٥٥/ ٤ .

(٨) هو أبو إسحاق الشيرازي صاحب « المهذَّب » ، و« التنبيه » .

لجَيْش السُّلطانِ ما سُمعَ بمِثْلِها أبداً ، فمِمَّا دَخلَ فيها أرْبَعُونَ أَلْفَ مَنٍّ سُكَّر فوَلَدَت له جَعْفَراً[1] .

وقَدِم مَلِكْشاهُ بَغْدادَ مَرَّتين وقَدِمَ إلىٰ حَلَبَ ، ولمْ يَكُنْ للمُقْتَدي معه غَيرُ الاسْم ، ثم قَدِمَها ثالثاً عَليلاً وكان الْمُقْتَدي قد فَوَّض العَهْدَ إلى ابنِه الْمُسْتَظْهِر ، فألْزَمَه مَلِكْشاهُ بعَزْلِه ، وأنْ يُوَلِّي ابنَ بِنْتِه جَعْفَراً ، وأنْ يُسَلِّمَ بَغْدادَ إليه ، ويَتَحوَّلَ إلى البَصْرَة ، فشَقَّ على الْمقْتَدي ، وحارَ ثم طَلَبَ الْمُهْلَة عَشرةَ أيّام ليَتَجهَّزَ ، فصَامَ وطَوَىٰ ، وجَلسَ على التُّرابِ وتَضَرَّعَ إلىٰ ربِّه ، فقَوِيَ بالسُّلطانِ المَرَضُ ، وماتَ في شَوَّال سَنة خَمسَة وثَمانينَ عن تسع وثلاثين سنة فقيل : سُمَّ في خِلالٍ تَخلَّلَ به ، وكان وَزيرُه النِّظامُ قد قُتِلَ من أيام ، ولَمْ يَشْهَدْ السلطان كَبيرُ أحَد ، ولا عُمِلَ له عَزاءٌ ونُقِلَ تابُوتُه إلىٰ أصْبَهَان ، فدُفن في مَدرسَةٍ عَظيمةٍ .

وقد تَزوَّجَ الْمُسْتَظْهِرُ بالله بخَاتُونَ بنتِه الأخرىٰ ، وتَنازَعَ في الملك أوْلادُه من بعده زَماناً ، وكان آخِرُهم مَوْتاً ابنُه سَنْجَر صاحبُ خُراسَان ، عاشَ بعد أبيه أقَلَّ من سَبعينَ سَنةً[2] .

(د) تُتُش :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمتِه : الْمَلكُ تاجُ الدولة تُتُش بنُ السُّلطانِ أبي شُجاع ألْب آرْسلان .

كانَ شُجاعاً مَهيباً جَبَّاراً ، ذا سَطْوَة ، وله فُتُوحاتٌ ومَصَافَّاتٌ ، وتَملَّكَ عِدَّةَ مَدائنَ ، وخُطِبَ له ببَغْدادَ ، وصَارَ من كِبارِ مُلوكِ الزَّمانِ .

وكانَ يَتَغالَىٰ في حُبِّ الشَّيخِ أبي الفَرَجْ الحَنْبَليِّ .

وكانَ عَسُوفاً للرَّعيَّة ، تَملَّكَ دِمَشْقَ بعدَه ابنُه شَمْسُ الْمُلوكِ دُقاق وغَيرُه ، ثم

---

(١) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٦ .

(٢) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٦ .

مَمْلوكه طُغْتِكِينَ وأوْلادُه ، إلىٰ أنْ تَملَّكَها العَادِلُ نُورُ الدِّينِ السَّلْجُوقِيُّ ، ثم صَلاحُ الدِّينِ وابنُه ، ثم أخُوهُ ، وأهْلُ بَيْتِه ، ثم مَوالِيهِم وإلى اليومَ[1] .

(هـ) السُّلْطَان مَحْمود بن مُحَمَّد بن مَلِكشَاه :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : صَاحبُ العِراقِ ، مُغيثُ الدِّينِ مَحْمودُ بنُ السُّلطانِ مُحمَّدِ بنِ مَلِكْشَاه بنِ ألْب آرْسلان السَّلْجُوقيّ .

تَملَّكَ بعدَ أبيه وهو حَدَثٌ أمْرَدٌ في أوَّلِ سَنةِ اثْنَتَي عَشرَة ، وخُطِبَ له علىٰ مَنابِر بَغْدادَ ، وكانَ ذَكيّاً فَطِناً ، له مَعرِفَةٌ بالنَّحْو ، ومَيلٌ إلى العِلمِ ، ونَظَرٌ في التَّاريخِ ، وضَعُفَت دَولَةُ بَني سُلْجُوق في أواخِرِ أيَّامِه وكانَ عَمُّه السُّلطانُ سَنْجر أعْلَىٰ رُتبَةً منه .

ماتَ بِهَمَذَانَ في شوَّالَ سَنةَ خَمسٍ وعِشْرينَ وخَمسِ مئة[2] .

(و) سنْجَر :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : السُّلطانُ ، مَلكُ خُراسانَ ، مُعِزُّ الدِّين ، سَنْجَر بنُ السُّلطانِ مَلِكْشاه بنِ ألْب آرْسلان بنِ جَغْريبَك بنِ مِيكَائيلَ بنِ سَلْجُوق الغُزِّيُّ التُّرْكيُّ السَّلْجوقيُّ صاحبُ خُراسان وغَزْنَة وبعض ما وَراء النَّهْر .

خُطِبَ له بالعِراقِ وأذرَبيجان والشَّامِ والجَزيرَة وديارِ بَكْر وأرَّان والحَرمَين .

وُلدَ بسِنْجار من الجَزيرَة سَنةَ تسع وسَبعينَ وأرْبَع مئة إذْ تَوجَّه أبُوه لغَزْوِ الرُّوم ، ونَشأَ ببلادِ الخُوز ثم سَكنَ خُراسان ، وتديَّر مَرْوَ .

وكانَ وَقوراً حَيِيّاً ، كَريماً سَخياً ، ناصِحاً لرَعيَّته كَثيرَ الصَّفْح جَلسَ علىٰ سَريرِ المُلكِ قَريباً من سِتِّينَ سَنةً .

قال ابنُ خَلِّكان : كانَ من أعْظَم المُلوك هِمَّةً ، وأكْثرهم عَطاءً .

وقالَ ابنُ خَلِّكان : لَمْ يَزَلْ في ازْدِيادٍ إلىٰ أنْ ظَهَرت عليه الغُزُّ في سَنةِ ثَمانٍ وأرْبَعين

---

(١) انظر السير : (تُتُش) ١٩/ ٨٣ـ ٨٥ ، وانظر النزهة : ١٤٦٢/ تُتُش .
(٢) انظر السير : (السُّلطان) ١٩/ ٥٢٤ـ ٥٢٥ ، وانظر النزهة : ١٥٠٧/ السُّلطان .

وخَمسٍ مئة ، وهي وَقْعَةٌ مَشْهورَةٌ اسْتُشْهِدَ فيها الفَقيهُ محمدُ بنُ يَحْيَىٰ ، فكَسَروه ، وانْحلَّ نظامُ مُلْكِه ، ومَلكوا نيسابورَ ، وقَتلوا خَلقاً كثيراً وأخَذوا السُّلطانَ ، فبَقِيَ في أسْرِهم ثلاثَ سنين وأرْبعَةَ أشْهُر ، ثم أفْلَتَ منهم ، وعادَ إلىٰ خُراسان ، وزَالَ بمَوْته مُلكُ بني سَلْجوق عن خُراسان واسْتولَىٰ علىٰ أكثر مَمْلكتِه خُوارزم شاه أُتسِزْ بنُ محمدِ بنِ نوشتكين ، ومات أُتسِزُ قبل سَنْجَر .

ماتَ سَنةَ اثنتَين وخَمسينَ وخَمسٍ مئة .

قالَ ابنُ الجَوْزي : لَمَّا جاءَ خَبرُ مَوْته إلىٰ بَغْدادَ ، قُطِعَت خُطْبَتُه ولَمْ يُعْقَدْ له عَزاءٌ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (سَنْجَر) ٢٠/٣٦٢ـ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ١٥٦١/سَنْجَر .

(١٨) دَوْلَةُ الْمُرابِطِين

(أ) صاحِبُ الغَرْب :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِهِ : أميرُ المسلمين ، السُّلطانُ أبو يَعْقوب يُوسُفُ بنُ تاشفين ، اللَّمتونيُّ البَرْبَريُّ المُلَثَّم ، ويُعرفُ أيضاً بأمير الْمُرابِطين ، وهو الذي بَنىٰ مَرَّاكش وصَيَّرها دارَ مُلْكِه .

وأوَّلُ ظُهورِ هَؤلاء المُلَثَّمين[1] مع أبي بكر بن عمر اللَّمتونيّ ، فاسْتولىٰ على البلاد من تِلِمسانَ إلىٰ طَرَف الدنيا الغربي ، واستناب ابنَ تاشفين فطَلَعَ بَطلاً شُجاعاً شَهْمَاً عادلاً مَهيباً ، فاخْتَطَّ مَرَّاكش في سنةِ خَمسٍ وسِتِّينَ وأرْبع مئة ، اشْتَرىٰ أرْضاً بماله الذي خَرجَ به من صَحْراء السُّودان ، وكثرت جيوشه وخافته الملوكُ ، وكان بَرْبَريّاً قُحّاً ، وثَارت الفِرَنْجُ بالأنْدَلُسِ فعَبَرَ ابنُ تاشفين يُنْجدُ الإسْلامَ ، فطَحَنَ العَدُوَّ[2] ، ثم أعْجَبَتهُ الأنْدَلُسُ فاسْتوْلَىٰ عليها ، وأخَذَ ابنَ عَبَّاد وسَجَنَه وأساءَ العِشْرةَ .

وقيل : كانَ ابنُ تاشفين كَثيرَ العَفو ، مُقرِّباً للعُلَماء ، وكان أسْمرَ نَحيفاً ، خَفيفَ اللِّحْيَة ، دَقيقَ الصَّوْتِ ، سائساً ، حازِماً ، يَخطبُ لخَليفَة العِراقِ ، وفيه بُخْلُ البَرْبَر ، تَملَّكَ بِضْعاً وثَلاثينَ سَنةً ، وهو وجَيشُه مُلازِمون للِّثامِ الضيِّق ، وفيهم شَجاعَةٌ وعُتُوٌّ وعَسْفٌ ، جاءَتْهُ الخِلَعُ من المُسْتَظهِر ، ووَلِيَ بعدَه وَلدُه عليّ .

---

(١) لُقبوا بذلك لأنهم كانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم ، وتلك سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف ، وقيل في سبب ذلك : إن حمير كانت تتلثم لشدة الحر والبرد ، يفعله الخواص منهم ، فكثر ذلك حتىٰ صار يفعله عامتهم ، وأصل هٰؤلاء القوم من حمير بن سبأ ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاء ، ويسكنون الصحارى الجنوبية من بلاد البربر وبلاد السودان ، وينتقلون من ماء إلىٰ ماء كالعرب ، وبيوتهم من الشعر والوبر ، وأول من جمعهم وحرَّضهم على القتال وأطمعهم في تملك البلاد « عبد الله بن ياسين الفقيه » ، وقتل في حرب جرت مع برغواطة ، وقام مقامه أبو بكر بن عمر الصنهاجي ابن عم يوسف بن تاشفين ، الذي ولاَّه إمارة الملثمين ، فكان من أمره ما كان .

(٢) كان ذلك في وقعة الزلاَّقَة سنة (٤٧٩ هـ) .

ماتَ في أوَّل سنة خَمْس مئة ، وله بِضْعٌ وثَمانونَ سَنةً ، وتَملَّكَ مَدائنَ كِباراً بالأندَلُسِ ، وبالعُدْوَة[1] ، ولَوْ سارَ لَتَمَلَّكَ مِصْرَ والشَّامَ[2] .

(ب) ابنُ تاشِفين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : السُّلطانُ ، صاحبُ المَغْربِ ، أمير المسلمين ، أبو الحسن عليُّ بنُ صاحبِ الغَرْب يُوسُفَ بنِ تاشفين ، البَرْبَريُّ ، مَلكُ الْمُرابطين .

تَولَّىٰ بعدَ أبيه سَنةَ خَمسِ مئة[3] .

وكان شُجاعاً مُجاهداً عَادلاً دَيِّناً ، وَرِعاً ، صَالِحاً ، مُعَظِّماً للعُلَماءِ مُشاوِراً لهم ، نَفقَ في زَمانِه الفِقْهُ والكُتُبُ والفُروعُ ، حتىٰ تَكاسَلوا عن الحَديثِ والآثار ، وأُهينَت الفَلسَفةُ ، ومُجَّ الكَلامُ ، ومُقِتَ ، واسْتحْكَمَ في ذِهْنِ عَليٍّ أنَّ الكلامَ بِدْعَةٌ ما عَرفه السَّلفُ ، فأسْرَفَ في ذلك ، وكَتبَ يَتهَّدُد ، ويأمُرُ بإحْراقِ الكُتب ، وكَتبَ يأمر بإحْراقِ تَواليفِ الشَّيخِ أبي حامد ، وتَوعَّدَ بالقَتْلِ مَنْ كتَمَها .

ولما الْتَقَىٰ عَسْكرُه العَدوَّ انْهَزَمُوا ، واخْتلَّت الأنْدَلسُ ، وظَهرَ بها المُنْكَرُ ، وقُتلَ خَلقٌ من المرابِطين ، وأخَذَ يَتهاوَنُ ، ويَقْنَع بالاسم ، وأقْبلَ على العِبادَةِ وأهْمَلَ الرَّعايا ، وعَجَزَ ، حتىٰ قيلَ : إنَّه رَفَعَ يَديه ودَعا ، فقالَ : « اللَّهُمَّ قَيِّضْ لهـٰذا الأمْرِ مَنْ يَقْوَىٰ عَليه » .

وابتُلِيَ بنُوَّابِ ظَلَمَة ، ثم خَرجَ عليه ابنُ تُومَرْت ، وحارَبَه عبدُ المؤمن ، وقَوِيَ عليه ، وأخَذَ البلادَ ، ووَلَّتْ أيَّامُ المُلَثَّمَة[4] ، فماتَ إلىٰ رَحْمَة الله في سَنةِ سَبْع وثَلاثينَ وخَمسِ مِئَة[5] .

---

(١) وقد شمل سلطانه المغربَيْن الأقصَىٰ والأوسَط ، وجَزيرة الأندَلُس .

(٢) انظر السير : (صاحب الغَرْب) ١٩/ ٢٥٢ـ ٢٥٤ ، وانظر النزهة : ١٤٧٥/ صاحب الغرب .

(٣) انظر السير : (ابنُ تاشفين) ٢٠/ ١٢٤ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٥ .

(٤) وهم المرابطون ، وسُمّوا الملثمين لأنهم كانوا يتلثَّمون ولا يكشفون وجوههم ، وذلك سُنَّة لهم يتوارَثونها خَلفاً عن سلف ، ذلك أن أصلَ هـٰؤلاء القوم من حمير بن سبأ ، وكانت حمير تتلثَّم لشدَّة الحر والبرد .

(٥) انظر السير : (ابنُ تاشفين) ٢٠/ ١٢٤ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٥ .

(ج) دَوْلَة المُرابِطين في الأنْدَلُس :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الْمُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد صَاحِبِ الأنْدَلُسِ : ثم عَبرَ ابنُ تاشفين في العامِ الآتي ، وتَلقَّاه المُعْتَمدُ ، وحاصَرا حِصْناً للفِرَنْج وتَرجَّلَ ابنُ تاشفين ، فمَرَّ بغَرْناطَةَ ، فأَخْرَجَ إليه صاحبُها ابنُ بُلُكِّين تَقادِمَ وهَدايا وتَلقَّاهُ ، فغَدَرَ به ، واسْتوْلَىٰ علىٰ قَصْرِه ، ورَجعَ إلىٰ مَرَّاكِشَ وقد بَهَرَه حُسْنُ الأنْدَلُس وبَساتينُها ، وحَسَّنَ له أُمَراؤُه أخْذَها ، ووَحَّشوا قَلبَه على المُعْتَمِد[1] .

قالَ عبدُ الواحد بنُ عَليّ : غَلبَ المُعْتَمِدُ علىٰ قُرْطُبَة في سَنة إحْدَىٰ وسَبعينَ وأرْبَع مئة ، فأَخْرَجَ منها ابنَ عُكَّاشَة ، إلىٰ أنْ قالَ : وجَالَ ابنُ تاشفين في الأنْدَلُسِ يَتَفرَّجُ ، مُضْمِراً أشْياءَ ، مُعَظِّماً للمُعْتَمِدِ ، ويَقولُ : نَحْنُ أضْيافُه وتَحْت أمْرِه ، ثم قَرَّر ابنُ تاشفين خَلْقاً من المُرابطين يُقيمونَ بالأنْدَلُسِ ، وأحَبَّ الأنْدَلُسيُّونَ ابنَ تاشفين ، ودَعُوا له ، وجَعلَ عندَهم بُلَّجين قَرابَته ، وقَرَّر معه أموراً ، فهاجَت الفِتْنَةُ بالأنْدَلُس في سَنة ثلاثٍ وثَمانين وأرْبَع مئة ، وزَحَفَ المُرابطُون ، فحاصَروا حُصُوناً للمُعْتَمِد ، وأخَذوا بَعضَها ، وقَتلُوا وَلدَه المَأمُونَ في سَنةِ أرْبَع ، فاسْتَحْكَمَت الإحْنَةُ ، وغَلَت مَراجِلُ الفِتْنَة ، ثم حاصَروا إشْبيليَّة أشَدَّ حِصَار ، وظَهَر من بأسِ المُعْتَمِد وتَرامِيه على الاسْتِشْهاد ما لَمْ يُسْمَعْ بمثلِه ، وفي رَجَب سَنة أرْبع وثَمانين وأرْبَع مئة ، هَجَمَ المرُابِطُون على البَلَدِ وشَنُّوا الغَارَاتِ ، وخَرجَ النَّاسُ عَرايَا ، وأسَروا المُعْتَمِدَ[2] .

قالَ عبدُ الواحِد : بَرَزَ المُعْتَمِدُ من قَصْرِه في غِلالَة ، بلا دِرْع ولا دَرَقَةٍ وبيدِه سَيفُه ، فرَمَاهُ فارسٌ بحَرْب أصابَ الغِلالَةَ ، وضَربَ الفارسَ فقتلَه فوَلَّتِ المُرابِطُون ، ثم وَقْت العَصْر ، كَرَّت البَرْبَرُ ، وظَهَروا على البَلدِ من وَادِيه ، ورَمَوْا فيه النَّارَ ، فانْقَطعَ العَملُ ، واتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِع بقُدوم ابنِ أخي السُّلطان ، ولَمْ يَترُكْ البَرْبَرُ لأهْلِ البَلَدِ شَيئاً ، ونُهبَت قُصورُ المُعْتَمِد ، وأُكْرَهَ علىٰ أنْ كَتبَ إلىٰ وَلَدَيْه أنْ يُسلِّما الحِصْنَيْنِ

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بن عبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٩ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بن عبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٩ .

وإلاَّ قُتلتُ ، فدَمِي رَهْنٌ علىٰ ذلك وهُما الْمُعْتَدُّ ، والرَّاضِي وكانا في رُنْدَة ومارْتله فنزلا بأمانٍ ومَواثيقَ كاذبَةٍ فقتَلوا الْمُعْتَدَّ وقتَلوا الرَّاضِي غِيلَةً ، ومَضَوْا بالمُعْتَمِدِ وآله إلىٰ طَنْجَةَ بعد أنْ أفقَرُوهم ، ثم سُجِنَ بأغْماتٍ[1] عامَين وزيادَة ، في قِلَّةٍ وذِلَّةٍ[2] .

عِمادُ الدَّولَة بن هُود :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : كان أحدَ مُلوك الأنْدَلُس في حُدود الخَمس مئة ، وهو من بَيتِ مَمْلكَة تَملَّكوا شَرقَ الأنْدَلُسِ ، فلمَّا استولى الْمُلثَّمونَ على الأنْدَلُسِ ، أبْقَىٰ يوسُفُ بنُ تاشفينَ على ابنِ هُود ، فلمَّا تَملَّك عليُّ بنُ يوسُف بعدَ أبيه كان فيه سَلامَةُ باطِنٍ ، فحَسَّنَ له وُزَراؤُه أخْذَ المُلكِ من ابنِ هُود ، حتىٰ قالوا له : إنَّ أمْوالَ الْمُسْتَنْصِرِ العُبَيْدِيِّ صارَت في غَلاءِ مِصْرَ المُفْرِطِ تَحوَّلَت كلُّها إلىٰ بَني هُود ، وقالوا : الشَّرْعُ يَأمُرُكَ أنْ تَسْعَىٰ في خَلعِهم لكَوْنِهم مُسالِمين الرُّومَ ، فجَهَّز لهم الأميرَ أبا بكر بنَ تيفلوت فتحصَّنَ عمادُ الدَّولَة برُوْطَة[3] ، وكتبَ إلىٰ عليٍّ بنِ تاشْفينَ يَسْتعْطفُه في المُسالَمَة ، ويقولُ : « لَكُم فيمَا فَعلَه أبُوكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وسَيَعْلَمُ مُبرِمُ هـٰذا الرَّأي عندَكم سُوءَ مَغبَّتِه ، واللهُ حَسيبُ مَنْ معي وحَسْبُنَا اللهُ وكَفَىٰ » ، فأمَرَ عليُّ بنُ يوسُف بالكَفِّ وأنَّىٰ ذلك وقد أدْخَلتْه الرَّعيَّةُ سَرَقُسْطَة ، وكان ابنُ رُذْميرَ اللَّعينُ صاحبُ مَمْلكَةِ أَرَغُونَة من شرق الأندلس قِسِّيساً مُجرباً داهيَةً مُترَهِّباً ، فقَويَ علىٰ بلادِ ابنِ هُود ، وطَواهَا وقَنعَ عِمادُ الدَّولَة بنُ هُود بدَارِ سُكْناهُ ، وكانَ ابنُ رُذْميرُ لا يَتجَهَّزُ إلاَّ في عَسْكرٍ قَليلٍ كاملَ العُدَّة ، فيَلْقَىٰ بالألفِ آلافاً[4] .

* * *

---

(١) أغمات : ناحية في بلاد البَرْبَر المصامدة من أرض المغرب قرب مرَّاكش .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمدُ بن عبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٦٠ .

(٣) روطة : حصن من أعمال سَرَقُسْطَة حصين جداً .

(٤) انظر السير : (عماد الدولة بن هود) ٢٠/٣٧ـ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٤ .

١٩ـ الدَّوْلَة الزَّنْكيّة

(أ) قَسيمُ الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمتِه : الأميرُ الكبير ، قَسيمُ الدولة أبو الفتح آقْسُنْقُر التركي الحاجبُ مَمْلوكُ السلطان مَلِكْشاه السلجوقي ، وهو جَدُّ نُورِ الدِّين الشَّهيد ، وقيلَ : لا بلْ هو لَصيقٌ بمَلِكْشاه كان رَفيعَ الرُّتْبَة عند السُّلطانِ ، وقَدِمَ مع السُّلطانِ حَلبَ حينَ حَاربَ أخَاه تاجَ الدَّوْلَة ، ففرَّ ، وتَملَّكَها مَلِكْشاه سَنةَ تِسْع وسَبعينَ وأرْبَع مئَة ، فقرَّرَ نيابَتَها لآقْسُنْقُر ، فأحْسَنَ السِّياسَة ، وأبادَ الدُّعَّارَ[١] وعُمِّرَت حَلبُ ، وقَصَدَها التُّجَّارُ ، وأنْشأَ مَنارَةَ جامِعِها ، فاسمُه مَنْقُوشٌ عليها وصارَ دَخلُ البلدِ في اليَوم ألفاً وخَمسَ مِئةَ دينار .

وأمَّا تاجُ الدَّوْلَة ، فاسْتَولَىٰ علىٰ دِمَشْقَ ، فلمَّا كانَ في سَنةِ سَبع وثَمانينَ وأرْبَع مئة ، تَحارَبَ هو وآقْسُنْقُر ، وعَرضَ آقْسُنْقُر عشرينَ ألفَ فارسٍ ، والْتَقى الجَمْعان ، فبَرزَ آقْسُنْقُر بنفسِه ، وحَمِيَ الوَطيسُ ، ثم تَفلَّلَ جَمعُه ، وثَبتَ آقْسُنْقُر فأُسِرَ في طائفَةٍ في فُرسانِه ، فأمَرَ تاجُ الدَّوْلَة بضَرْبِ عُنقه وأعْناقِ أصْحابِه ، وذلكَ في جُمادَى الأولَىٰ من السَّنةِ رَحِمَه الله ، ثم دُفنَ بالمَدرَسَة الزجاجية بحَلَب ولَمَّا قُتلَ كان وَلدُه زَنْكي صَبيّاً ، وتَنقَّلت به الأيامُ ثم صار مَلِكاً[٢] .

(ب) الأتابَك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : الملكُ عمادُ الدين الأَتَابَكُ زَنْكيُّ ابنُ الحاجب قَسيمُ الدولَة آقْسُنْقُر بنُ عبدِ الله التركيُّ ، صاحبُ حَلَب[٣] .

فوَّضَ إليه السُّلطانُ مَحمُودُ بنُ مَلِكْشاه شِحْنَكيَّةَ[٤] بَغْدادَ في سَنةِ إحْدَىٰ عَشْرة

---

(١) هم المفسدون والخُبثاء وقُطَّاع الطُرق ، والواحدُ : « داعر » .

(٢) انظر السير : (قَسيمُ الدولَة) ١٩/ ١٢٩ـ ١٣٠ ، وانظر النزهة : ١٤٧٠/ قَسيمُ الدولَة .

(٣) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٩ .

(٤) يُقصَدُ بها رئاسة أو إدارة الشحنة ، والشحنة : من فيهم الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان ،=

وخَمسٍ مِئة[1] ، في العامِ الذي وُلِدَ له فيه ابنُه الملكُ العادلُ نُورُ الدِّين الشَّهيدُ ، ثم إنه حوَّلَه إلىٰ مَدينة الْمَوْصِل ، فجعلَه أَتَابَكاً لولدِه الْمُلقَّب بالخَفَاجيِّ في سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة[2] .

ثم اسْتولَىٰ على البلاد وعَظُمَ أمرُه وافتَتَحَ الرُّها ، وتمَلَّك حَلَبَ والْمَوْصِلَ وحَماةَ وحِمْصَ وبَعْلَبَكَّ وبَانياسَ ، وحاصَرَ دِمَشْقَ ، وصالَحَهم علىٰ أن خَطَبوا له بها بعد حُروب يَطُولُ شَرْحُها[3] .

وكان بَطلاً شُجاعاً مِقْداماً كأبيه ، عَظيم الهَيْبَة ، مَليحَ الصُّورَة أَسْمَرَ جَميلاً ، قد وَخَطَه الشَّيبُ ، وكان يُضرَبُ بشَجاعَتِه المَثَلُ ، لا يَقرُّ ولا يَنامُ ، فيه غَيْرَةٌ حتىٰ علىٰ نِساءِ جُندِهِ ، عَمَرَ البلادَ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : نازل زَنْكي قَلعَةَ « جَعْبَرَ » وحاصَرَ مَلِكَها عَليَّ ابنَ مالك وأشْرَفَ علىٰ أَخْذِهَا ، فأَصْبَحَ مَقْتولاً ، وفَرَّ قاتلُه خادِمُه إلىٰ جَعْبَرَ ، وذلك في سنة إحدىٰ وأربعين وخمس مئة ، فتَملَّكَ ابنُه نُورُ الدِّين بالشَّامِ ، وابنُه غَازي بالْمَوْصِل .

زاد عُمرُ زَنْكي رَحمَه الله على السِّتِّين[5] .

(ج) نور الدِّين مَحْمُود :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : صاحبُ الشَّام ، المَلكُ العَادِلُ ، نُورُ الدِّين ، ناصِرُ أمير المؤمنين تَقِيُّ المُلوكِ ، لَيْثُ الإسْلام ، أبو القاسِم ، مَحْمُودُ بنُ الأتابَكِ قَسيمِ الدَّولَة أبي سَعيد زَنْكي بنِ الأميرِ الكَبير آقْسُنْقُر ، التُّرْكيُّ السُّلطانيُّ الْمَلِكْشاهيّ .

= ويسمون في وقتنا الشرطة .

(١) كذا ذكر المؤلف ، وذكر ابن خلكان وابن الأثير وابن كثير أنه وَلي شِحْنَكِيَّةَ بغداد سنة إحدىٰ وعشرين وخمس مئة انظر « وفيات الأعيان » ٢/ ٣٢٧ ، و« الكامل » ١٠/ ٦٤١ ، و« البداية والنهاية » ١٢/ ١٩٦ ، وانظر « الروضتين » ١/ ٢٩ .

(٢) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ١٥٣٩/ ٢ .

(٣) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ١٥٣٩/ ٣ .

(٤) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ١٥٣٩/ ٤ .

(٥) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ ١٩١ ، وانظر النزهة : ١٥٣٩/ ٥ .

مَوْلدُه سَنةَ إحْدَىٰ عَشْرَة وخَمسِ مئَة[1] .

وكانَ نورُ الدِّين حامِلَ رايَتي العَدْلِ والجِهادِ ، قَلَّ أنْ تَرَى العُيونُ مثلَه ، حاصَرَ دِمَشْقَ ، ثم تَملَّكَها ، وبَقِيَ بها عِشْرينَ سَنةً .

وبَنَى المَدارِسَ بحَلَبَ وحمْصَ وبَعْلَبَك والجَوامِعَ والْمَساجِدَ وسُلِّمَت إليه دِمَشْقُ للغَلاءِ والخَوْفِ ، فحَصَّنها ، ووَسَّعَ أسْواقَها ، وأنْشأَ المارِسْتانَ ودارَ الحَديثِ والمَدارِسَ ومَساجِدَ عِدَّة ، وأبْطَلَ المُكُوسَ ، ثم أخَذَ من العَدُوِّ بانِيَاسَ والْمُنَيْطِرَةَ[2] ، وكَسرَ الفِرَنْجَ مَرَّاتٍ ، ودوَّخَهم وأذلَّهم[3] .

وكان نُورُ الدِّين زِنْكِي بَطَلاً شُجاعاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَع ، وكان يَتعرَّضُ للشَّهادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباع وحَواصِلِ الطيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبَويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحُمْصَ وحمَاة وصَرْخَد وبَعْلبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجَا ، وعلىٰ بانياسَ[4] .

وكانت الفِرنْجُ قد استضَرَّتْ علىٰ دِمَشقَ ، وجعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجُيُوشِ شَاوَرُ مُستَجيراً به ، فأكْرَمَه ، وبَعَثَ معه جَيشاً ليُرَدَّ إلىٰ مَنصِبه ، فانتَصَرَ ، لكنَّه تَخَابَثَ وتَلائَمَ ، ثم استنجَدَ بالفِرنْجِ ، ثم جَهَّزَ نورُ الدين رحِمَه الله جَيشاً لَجِباً مع نائِبِه أسَدُ الدين شِيركُوه ، فافتَتَحَ مِصرَ ، وقَهَرَ دولتَها الرَّافِضيَّة ، وهَرَبَتْ منه الفِرنْجُ ،

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٩ .

(٢) حصنٌ بالشام قَريبٌ من طرابُلُس .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٩ .

(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

وقُتِلَ شَاوَرُ وصَفَتِ الدِّيارُ المِصْرِيَّة لشيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصَلاحِ الدين ، فأبَادَ العُبَيْدِيينَ واسْتَأْصَلَهم ، وأقَامَ الدَّعوةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان نورُ الدِّين مَلِيحَ الخَطِّ ، كثيرَ المُطالَعَةِ ، يُصَلِّي في جَماعَةٍ ويَصُومُ ويَتْلُو ويُسَبِّحُ ، ويَتَحَرَّىٰ في القُوتِ ويَتَجَنَّبُ الكِبرَ ، ويَتَشَبَّه بالعُلَماءِ والأخْيَارِ ، ذَكَرَ هٰذا ونَحْوَه الحافِظُ بنُ عَساكِر ، ثم قال : رَوَىٰ الحَدِيثَ ، وأسْمَعَه بالإجازَةِ ، وكان مَنْ رَآهُ شَاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وهَيْبَةِ المُلْكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فَاوَضَهُ ، رَأىٰ من لَطَافَتِه وتَوَاضُعِهِ ما يُحَيِّرُه ، حَكَىٰ مَنْ صَحِبَهُ حَضَراً وسَفَراً أنَّه ما سُمِعَ منه كَلِمَةُ فُحْشٍ في رِضَاهُ ، ولا في ضَجَرِه ، وكان يُواخِي الصَّالِحِين ، ويَزُورُهم ، وإذا احْتَلَمَ مَمَالِيكُهُ أعْتَقَهُم ، وزَوَّجَهُم بجَوَارِيهِ ، ومتىٰ تشكَّوْا من وُلاتِهِ عَزَلَهُم ، وغَالِبُ ما تَمَلَّكَهُ من البُلْدَانِ تَسَلَّمَهُ بالأمانِ ، وكان كُلَّما أخَذَ مدينةً ، أسْقَطَ عن رَعِيَّتِه قِسْطاً[1] .

وقال أبو الفَرَجْ بنُ الجَوْزِيّ : جاهَدَ نورُ الدِّين وانْتَزَعَ من الكُفَّارِ نَيِّفاً وخَمْسِين مدينةً وحِصْناً ، وبَنَىٰ بالمَوْصِلِ جامِعاً غَرِمَ عليه سَبْعِينَ ألفَ دِينَار ، وتَرَكَ المُكُوسَ قبلَ مَوْتِه ، وبَعَثَ جُنُوداً فَتَحُوا مِصْرَ ، وكان يَمِيلُ إلى التَّواضُع وحُبِّ العُلَماءِ ، والصُلَحاءِ ، وكاتَبَنِي مِراراً ، وعَزَمَ علىٰ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فتُوُفِّيَ سَنَةَ تسعٍ وسِتِّين وخَمْسِ مِئَة[2] .

وقال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيفِ : كان نورُ الدِّين لَمْ يَنْشَفْ له لِبدٌ من الجِهَادِ ، وكان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِه ، يَنْسِجُ تارةً ، ويَعْمَلُ أغْلافاً تارةً ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السِّجادَةَ والمُصْحَفَ ، وكان حَنَفِيّاً يُراعِي مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ ومَالِك وكان ابنُهُ الصَّالِحُ إسْماعِيلُ أحْسَنَ أهْلِ زَمانِه[3] .

وقالَ ابنُ الأثير : طَالَعتُ السِّيرَ ، فلَمْ أرَ فيها بعد الخُلفاء الرَّاشِدين وعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أحْسَنَ من سِيرَتِه ، ولا أكْثَرَ تَحَرِّياً منه للعَدْلِ ، وكانَ لا يَأكُلُ ولا يلبَسُ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٠ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨١ .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨١ .

ولا يَتصرَّفُ إلاَّ من مُلكٍ له قد اشْتراه من سَهْمِه من الغَنيمَة ، لقَدْ طَلَبَتْ زَوجَتُه منه ، فأعْطاهَا ثَلاثةَ دَكاكين فاسْتَقلَّتها ، فقالَ : ليسَ لي إلاَّ هـٰذا ، وجَميعُ ما بيَدي أنا فيه خازنٌ للمُسلمينَ ، وكان يتهجَّدُ كثيراً ، وكان عارفاً بمَذْهَب أبي حَنيفَة[1] .

قال له القُطبُ النيسابوريُّ : بالله لا تُخاطِرْ بنفسِكَ ، فإنْ أُصِبْتَ في مَعْركَة لا يَبْقَىٰ للمُسلمينَ أحدٌ إلاَّ أخذَه السَّيفُ ، فقالَ : ومَنْ مَحْمودٌ حتىٰ يُقالَ هـٰذا ؟!! حَفِظَ اللهُ البِلادَ قَبْلي ، لا إلـٰهَ إلاَّ هُو[2] .

وقال مَجدُ الدِّين بنُ الأثير في نقل سبطِ الجَوْزِيِّ عن نُورِ الدِّين زِنْكِي : لَمْ يَلْبَسْ نُورُ الدِّين حَرِيراً ولا ذَهَباً ، ومَنَعَ بَيعَ الخَمرِ في بلادِه ، قال : وكان كَثيرَ الصَّومِ ، وله أَوْرَادٌ كثيرةٌ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، ويُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرَةِ ، فأنْكَرَ عليه فقيرٌ فكَتَبَ إليه : والله ما أقْصِدُ اللَّعِبَ ، وإنَّما نَحنُ في ثَغْرٍ ، فربَّما وَقَعَ الصَّوتُ ، فتكونُ الخَيلُ قد أدمَنَت على الانْعِطافِ والكَرِّ والفَرِّ .

وأُهْدِيَتْ له عَمَامَة من مِصْرَ مُذَهَّبَة ، فأعطَاهَا لابنِ حَمُّويه شَيخِ الصُّوفِيَّة فبِيعَتْ بألفِ دينار[3] .

وقال ابنُ الأثير : جاءَ نورَ الدين زِنكي رجلٌ يَطْلُبُه إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزورِيِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُك مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضَرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحَاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه حَقٌّ ، وكان مِلْكاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البِرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجِزْيَةِ والخَرَاجِ والعُشْرِ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من أَلْفِ مَنْشُورٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨١ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨١ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٢ .
(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٢ .

قالَ سبطُ الجَوْزي : كان له عَجائزُ ، فكان يَخيطُ الكَوافي ، ويَعمَلُ السَّكاكِرَ فيَبِعْنَها له سِراً ، ويُفْطِرُ علىٰ ثَمَنِها[1] .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نورُ الدِّين من أَقْوَى النَّاسِ قَلْباً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهْرِ فَرَسٍ أَحَدٌ أَشَدَّ منهُ ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتَحَرَّكُ ، وكان يقولُ : طالَمَا تعَرَّضْتُ للشَّهادَةِ ، فلَمْ أُدْرِكْها .

قال الذَّهبيُّ : قد أدْرَكَها علىٰ فِراشِه ، وعلىٰ أَلْسِنَةِ النَّاسِ : نُورُ الدِّينِ شَهيدٌ[2] .

قال سِبطُ الجُوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نَزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُنِي قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يوم حارِمٍ وانْتَبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرُسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قولِه بعَلامَةِ يوم حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلامِ ، فانْفَرَدْتُ ونزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلْتُ : يا سَيِّدِي مَنْ مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكَ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبَها تِسْعَ سِنين وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[3] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٢ .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٨٢ .

(٢٠) دَوْلَةُ الْمُوَحدين

(أ) ابنُ تُومَرْت :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : **الشَّيخُ الإمامُ ، الفَقيهُ الأُصُوليُّ الزَّاهدُ ، أبو عبد الله محمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ تُومَرْت ، البَرْبَريُّ الْمَصْمُوديُّ الهرْغيُّ ، الخارج** بالمغرب المدَّعي أنَّه عَلويٌّ حَسَنيٌّ ، **وأنَّه الإمامُ الْمَعْصُومُ الْمَهْدي ، وأنَّه محمَّدُ بنُ** عبد الله بنِ عبدِ الرحمَـٰن ابنِ هُود بنِ خَالد بنِ تَمَّام بنِ **عَدْنان بنِ صَفْوان بنِ جابِر بنِ** يَحْيَىٰ بنِ رَباح بنِ يَسار بنِ العَبَّاس بنِ مُحمَّد بنِ الحَسَن بنِ الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالب .

رَحلَ من السُّوسِ الأقْصَىٰ شاباً إلى الْمَشْرِقِ ، فحَجَّ وتَفقَّه ، وحصَّل أطْرافاً من العلم ، وكان أمَّاراً بالمعروف ، نهَّاءً عن المنكر ، قوي النفس ، زَعِراً شُجاعاً ، مَهيباً قَوَّالاً بالحق ، عَمَّالاً على الْمُلكِ ، غَوياً في الرِّياسَة والظُّهور ، ذا هَيبةٍ ووَقارٍ ، وجَلالة ومُعامَلَة وتألهٍ ، انتُفَع به خَلقٌ ، واهْتَدوا في الجُملَة ، ومَلكُوا المَدائنَ ، وقَهَروا المُلوكَ .

وأخذ عن إلْكِيا الهَرَّاسيِّ وأبي حامد الغَزَّاليِّ ، وأبي بَكْر الطُّرْطُوشيِّ وجاوَرَ سنةً .

وكان لَهِجاً بعلمِ الكَلام ، خائضاً في مَزالِّ الأقْدام ، ألَّفَ عَقيدَةً لقَّبَها بالْمُرْشِدَة ، فيها تَوحيدٌ وخَيرٌ بانْحرافٍ ، فحَملَ عليها أتْباعَه وسَمَّاهم الْمُوَحِّدينَ ، ونبَزَ مَنْ خَالَفَ الْمُرْشِدَةَ بالتَّجْسيمِ ، وأباحَ دَمَه ، نَعوذُ بالله من الغَيِّ والهَوَىٰ .

وكان خَشِنَ العَيشِ ، فَقيراً ، قانِعاً باليَسيرِ ، مُقْتَصِراً علىٰ زِيِّ الفَقْرِ ، لا لذَّةَ له في مَأكَلٍ ولا مَنْكَحٍ ، ولا مالٍ ، ولا في شيءٍ غَيرَ رِياسَةِ الأمْرِ حتىٰ لَقِيَ اللهَ تعالَىٰ .

لكنَّه دَخَلَ ـ واللهِ ـ في الدِّماءِ لنَيْلِ الرِّياسَة الْمُرْدِيَة .

وكانَ غَرامُه في إزالَة الْمُنْكَرِ ، والصَّدْعِ بالحَقِّ ، وكانَ يَتبسَّمُ إلىٰ مَنْ لَقيَه .

وله فَصاحَةٌ في العَربيَّة والبَرْبَريَّة ، وكان يُؤذَىٰ ويُضرَبُ ويَصْبِرُ أُوذيَ بمَكةَ ، فراحَ

إلىٰ مِصْرَ، وبالَغَ في الإنْكارِ ، فطَرَدُوهُ ، وآذَوْهُ وكان إذا خَافَ من البَطْشِ به خلَّطَ وتباله .

ثم سَكنَ الثَّغْرَ مُدَّة ، ثم رَكبَ إلى المَغرِبِ ، وقد رَأىٰ أنَّه شَرِبَ ماءَ البَحْر مَرَّتَين ، وأخَذَ يُنكِرُ في المَرْكبِ على النَّاسِ ، وألْزَمَهم بالصَّلاةِ ، فآذَوْهُ ، فقَدِمَ الْمَهْدِيَّة[1] ، وعليها ابنُ باديس ، فنَزلَ بمَسْجدٍ مُعلَّق ، فمَتىٰ رَأىٰ مُنكراً أو خَمْراً ، كَسَرَ وبَدَّد ، فالتَفَّ عليه جَماعَةٌ واشْتَغلُوا عليه فطَلَبَه ابنُ باديس ، فلمَّا رَأىٰ حالَه ، وسَمعَ كَلامَه سألَه الدُّعاءَ ، فقال : أصْلَحَكَ اللهُ لرَعيَّتِك .

وسارَ إلىٰ بجايَة ، فبَقِي يُنكِرُ كعادَتِه ، فنُفِيَ فذَهَبَ إلىٰ قَريَةِ ملاَّلَة ، فوقَعَ بها بعبد الْمُؤمِن الذي تَسلْطَنَ ، وكان أمْرَدَ عاقلاً ، فقالَ : يا شابُّ ، ما اسْمُك ؟ قال : عبدُ الْمُؤمِن ، قال : اللهُ أكْبَر ، أنْتَ طِلْبَتي ، فأيْنَ مَقْصِدُكَ ؟ قال : طَلَبُ العِلمِ ، قال : قد وَجَدْتَ العلمَ والشَّرفَ ، اصْحَبْني .

فربَطَ الشَّابَ ، وشَوَّقَه إلىٰ أُمورٍ عَشِقَها ، وأفْضَىٰ إليه بسِرِّه وكانَ في صُحبَتِه الفَقيهُ عبدُ الله الوَنْشَريسيُّ ، وكان جَميلاً نَحْوياً ، فاتَّفَقا علىٰ أن يُخْفي عِلْمَه وفَصاحَته ، ويَتظاهَرَ بالجَهْلِ واللَّكَنِ مدَّة ، ثم يَجعَلَ إظْهارَ نَفَسِه مُعْجزَةً ، ففعلَ ذلك .

وسار ابنُ تُومَرْت إلىٰ أغْمات ، فنَزلوا على الفَقيهِ عبدِ الحَقِّ الْمَصْمُوديِّ ، فأكْرَمَهم ، فاسْتَشارُوه ، فقالَ : هُنا لا يَحْميكُم هـٰذا الْمَوْضعُ فعَليكم بتِيْنَمَلَّ فهي يَومٌ عَنَّا ، وهو أحْصَنُ الأمَاكنِ ، فأقِيمُوا به بُرْهَةً كي يُنسَىٰ ذِكْرُكمُ فلمَّا رَآهُم أهْلُ الجَبلِ علىٰ تلكَ الصُّورَة ، عَلموا أنَّهم طَلبَةُ عِلمٍ ، فأنْزَلُوهُم ، وأقْبَلوا عليهم ، ثم تَسامَعَ به أهْلُ الجَبلِ فتَسارَعوا إليهم ، فكان ابنُ تُومَرْت مَنْ رَأىٰ فيه جَلادَةً ، عَرضَ عليه ما في نَفسِه ، فإنْ أسْرَعَ إليه ، أضَافَه إلىٰ خَواصِّه ، وإنْ سَكتَ ، أعْرَضَ عنه ، وكانَ كُهولُهم يَنْهَونَ شُبَّانَهم ويُحذِّرُونَهم ، وطَالَت الْمُدَّة ، ثم كَثُرَ أتْباعُه من جِبال درَن ، وهو جَبلُ الثَّلجِ ، وطَريقُه وَعِرٌ ضَيِّقٌ .

---

(١) مدينة محدثة بساحل إفريقية بينها وبين القيروان ستون ميلاً ، والبحر محيط بها من جهاتها الثلاثة ، بناها عُبيدُ الله الشِّيعيُّ الخارجيُّ علىٰ بَني الأغْلب ، وهو سمَّاها « الْمَهْديَّة » ، وكان ابتداءُ بنيانها سنة ثلاث مئة .

قال اليَسَعُ في « تاريخِه » : لا أعْلَمُ مَكاناً أحْصَنَ من تِيْنَمَلَّ لأنَّها بين جبلَين ، ولا يَصلُ إليهما إلاَّ الفارسُ ، ورُبَّما نزَلَ عن فرَسِه في أمَاكِنَ صَعْبَة ، وفي مَواضِعَ يَعبُرُ علىٰ خَشبَة ، فإذا أُزيلَت الخَشبَةُ ، انْقَطَعَ الدَّرْبُ ، وهي مَسافَة يوم ، فشَرعَ أتْباعُه يُغيرُونَ ويَقتُلونَ ، وكثُروا وقَوُوا ثم غدَرَ بأهْلِ تِيْنَمَلَّ الذين آوَوْه ، وأمَرَ خَواصَّه ، فوَضَعوا فيهم السَّيفَ فقالَ له الفَقيهُ الإفْريقيُّ أحَدُ العَشْرَة من خَواصِّه : ما هٰذا ؟! قَومٌ أكْرَمُونا وأنْزَلونا نَقْتلُهم !! فقالَ لأصْحابِه : هٰذا شَكٌّ في عِصْمَتي ، فاقْتلُوه ، فقُتِلَ .

قال اليَسَعُ : وكُلُّ ما أذكُرُه من حالِ الْمَصَامِدَة ، فقَد شاهَدتُه أو أخَذتُه مُتواتِراً ، وكان في وَصيَّتِه إلىٰ قَومِه إذا ظَفِروا بمُرابِطٍ أو تِلِمسَانيٍّ أنْ يَحْرِقُوهُ .

فلمَّا كانَ عامُ تِسْعَة عَشَر وخَمسِ مئة ، خَرجَ يوماً ، فقالَ : تَعلَمون أنَّ البَشيرَ ـ يُريدُ الوَنْشَريسيَّ ـ رَجلٌ أُمِّيٌّ ، ولا يَثبُتُ علىٰ دَابَّة ، فقد جَعلَه اللهُ مُبشِّراً لكم ، مُطَّلِعاً علىٰ أسْرارِكُم ، وهو آيَةٌ لكُم ، قد حَفِظَ القُرآنَ ، وتَعلَّمَ الرُّكوبَ ، وقالَ : أقْرأ ، فقَرأ الخَتْمَة في أرْبَعَةِ أيَّام ورَكِبَ حِصاناً وساقَه ، فبُهِتُوا ، وعَدُّوها آيةً لغَباوَتِهم ، فقامَ خَطيباً وتَلا ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1] ، وتلا ﴿ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[2] فهٰذا البَشيرُ مُطَّلعٌ على الأنفُسِ ، مُلْهَمٌ ، ونَبيُّكم صلى الله عليه وسلم يَقولُ : « إنَّ فِي هَـٰذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثِينَ وإنَّ عُمَرَ مِنْهُم » وقد صَحِبَنا أقْوامٌ أطْلَعَه اللهُ علىٰ سِرِّهم ، ولا بُدَّ من النَّظَرِ في أمْرِهم ، وتَيَمُّم العَدْل فيهم ، ثم نُوديَ في جِبالِ الْمَصَامِدَة : مَنْ كان مُطيعاً للإمَامِ ، فلْيَأتِ ، فأقْبَلوا يَهْرَعُونَ ، فكانوا يُعْرَضُونَ على البَشيرِ ، فيُخْرِجُ قَوماً علىٰ يَمينِه ، ويَعُدُّهُم من أهْلِ الجَنَّة ، وقَوماً علىٰ يَساره ، فيَقولُ : هٰذا تائبٌ رُدُّوه على اليَمينِ تابَ البَارِحَةَ ، فيَعترفُ بما قال ، واتَّفقَت له فيهم عَجائبُ ، حتىٰ كان يُطلقُ أهلَ اليَسار ، وهم يَعلَمون أنَّ مَآلَهم إلى القَتلِ فلا يَفرُّ منهم أحدٌ ، وإذا تَجمَّعَ منهم عدَّةٌ ، قَتلَهم قَراباتُهم حتىٰ يَقْتُلَ الأخُ أخَاهُ .

قال اليَسَعُ : فالذي صَحَّ عندي أنَّهم قُتِلَ منهم سَبعونَ ألفاً علىٰ هٰذه الصِّفَة

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .

ويُسَمُّونَه التَّمْييزَ ، فلمَّا كَمُلَ التَّمْييزُ ، وَجَّه جُموعَه مع البَشيرِ نَحْوَ أغْمَات ، فالْتَقاهُم الْمُرابِطُونَ ، فهَزمَهم الْمُرابِطُون ، وثَبتَ خَلقٌ من الْمَصامِدَة ، فقُتِلُوا ، وجُرِحَ عُمَرُ الهِنْتاتيُّ عِدَّة جِراحاتٍ ، فحُملَ علىٰ أعْناقِهم مُثْخَناً ، فقالَ لهم البَشيرُ : إنَّ لا يَموتُ حتىٰ تُفْتَحَ البِلادُ ، ثم بعدَ مُدَّة ، فَتحَ عَينيْه ، وسَلَّمَ ، فلمَّا أتَوا ، عَزَّاهم ابنُ تُومَرت ، وقال : يَومٌ بيَومٍ ، وكذلك حَربُ الرُّسُل .

وكان ابنُ تُومَرت طَويلَ الصَّمْتِ ، دائمَ الانْقِباضِ ، له هَيبَةٌ في النُّفوسِ وكان فيه تَشيُّع[1] ، ورتَّبَ أصْحابَه ، فمنهم العَشْرَة ، فهم أوَّلُ مَنْ لبَّاه ثم الخَمسينَ ، وكان يُسمِّيهم الْمُؤمنينَ ، ويَقولُ : ما في الأرضِ مَنْ يؤمن إيمانَكم ، وأنتُم العِصابَةُ الذين عَنَى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقولِه : « لا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ »[2] ، وأنتم تَفتَحونَ الرُّومَ ، وتَقتلُونَ الدَّجَّالَ ، ومنكُم الذي يَؤمُّ بعيسَىٰ ، وحَدَّثَهم بجُزئياتٍ اتَّفقَ وُقوعُ أكْثرها ، فعَظُمت فِتنَةُ القَومِ به حتىٰ قَتلوا أبْناءَهم وإخوتَهم لقَسْوَتِهم وغِلظِ طِباعِهم ، وإقْدامِهم على الدِّماءِ ، فبَعثَ جَيشاً ، وقالَ : اقْصُدوا هٰؤلاء المَارقِين المُبَدِّلينَ الدين ، فادْعُوهُم إلىٰ إماتَةِ الْمُنْكَر وإزالَةِ البِدَع ، والإقْرارِ بالْمَهْديِّ الْمَعصُومِ ، فإنْ أجابُوا فهم إخْوانُكم ، وإلاَّ فالسُّنَّةُ قد أباحَت لكم قِتالَهم ، فسَارَ بهم عبدُ المؤمن يَقصِدُ مَرَّاكِشَ ، فالْتَقاهُ الزُّبَيرُ بنُ أميرِ الْمُسلمينَ ، فكلَّموهم بالدَّعْوَة ، فرَدُّوا أقْبَحَ رَدٍّ ، ثم انْهَزَمَت الْمَصامِدَةُ ، وقُتلَ منهم مَلحَمَةٌ فلمَّا بَلغَ الخَبرُ ابنَ تُومَرت ، قالَ : أنَجَىٰ عبدُ الْمُؤمِن ؟ قيلَ : نَعمَ قال : لَمْ يُفْقَد أحَدٌ ، وهوَّنَ عَليهم ، وقالَ : قَتلاكُم شُهَداءٌ .

وقالَ الأميرُ عَزيزٌ في « أخْبَارِ القَيْرَوان » : سَمَّى ابنَ تُومَرت أصْحابَه بالْمُوَحِّدينَ ، ومَنْ خَالفَه بالْمُجَسِّمينَ ، واشْتُهرَ سَنةَ خَمسَ عَشرَةَ وخَمسِ مئة ، وبايَعتْه هَرْغَة علىٰ أنَّه الْمَهْديُّ ، فقَصدَه الْمُلثَّمونَ ، فكَسَروا الْمُلثَّمينَ ، وحَازُوا الغَنائمَ ، ووَثقَت نُفوسُهم ،

---

(١) قال ابنُ خَلدون : وكان من رأيه القول بعصمة الإمام علىٰ رأي الإمامية من الشيعة .

(٢) وتمامه : « عَلَى الحَقِّ حَتَىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ » ، والمراد بأهل الغرب في هٰذا الحديث أهل الشام ، لأنهم بالنسبة للمدينة المنورة من الجهة الشمالية الغربية ، وانظر فتح الباري : ١٣/ ٢٩٥ ، الطبعة السلفية .

وأَتَتْهُم أمدادُ القَبائلِ ، ووُحدَتْ هنتاتَه وهي من أقْوَى القَبائلِ .

ثم قالَ عَزيزٌ : لهم تَودُّد وأدَبٌ وبَشاشَةٌ ، ويَلبَسُونَ الثِّيابَ القَصيرَة الرَّخيصَة ، ولا يُخلون يوماً من طِرادٍ ومثاقَفة ونِضالٍ ، وكانَ في القَبائل مُفسِدونَ ، فطَلَبَ ابنُ تُومَرْت مَشايخَ القَبائل ووَعَظَهم ، وقالَ : لا يَصْلُحُ دينُكم إلاَّ بالنَّهْي عن الْمُنْكَر ، فابْحَثوا عن كُلِّ مُفْسدٍ ، فانهَوْهُ ، فإنْ لَمْ يَنْتَهِ ، فاكْتُبوا إليَّ أسْماءَهم ، ففَعلوا ، ثم هَدَّد ثانياً ، فأخَذَ ما تَكرَّرَ من الأسْماءِ ، فأفْرَدَها ، ثم جَمَعَ القَبائلَ وحَضَّهم علىٰ أنْ لا يَغيبَ منهم أحَدٌ ، ودَفَع تلكَ الأسْماءَ إلى البَشيرِ ، فتَأمَّلها ، ثم عَرضَهم رَجُلاً رَجُلاً ، فمَنْ وَجَدَ اسْمَه رَدَّه إلى الشِّمالِ ، ومَنْ لَمْ يَجِدْهُ ، بَعثَه على اليَمينِ ، ثم أمَرَ بتكْتيفِ أهْلِ الشِّمالِ ، وقالَ لقَراباتِهم : هَؤلاءِ أشْقياءٌ من أهْلِ النَّارِ ، فلتَقتُل كلُّ قَبيلَة أشْقياءَها ، فقتَلوهم ، فكانَت واقِعَةً عَجيبَة ، وقالَ : بهَـٰذا الفِعْلِ صَحَّ دينُكم ، وقَويَ أمْرُكم .

وفي أوَّلَ سَنةِ أرْبَع وعِشْرينَ وخَمسِ مئة ، جَهَّزَ عِشْرينَ ألفَ مُقاتِل عَليهم البَشيرُ وعبدُ الْمُؤمِن بعدَ أمُورٍ يَطولُ شَرحُها ، فالْتَقَى الجَمْعانِ واسْتَحرَّ القَتلُ بالْمُوَحِّدينَ ، وقُتلَ البَشيرُ ، ودَامَ الحَربُ إلى اللَّيلِ فصَلَّىٰ بهم عبدُ الْمُؤْمِن صَلاةَ الخَوْفِ ، ثم تَحيَّز بمَنْ بَقِيَ إلىٰ بُسْتانٍ يُعرَفُ بالبُحَيْرَة ، فراحَ منهم تحت السَّيفِ ثلاثَةَ عَشَر ألفاً ، وكان ابنُ تُومَرْت مَريضاً ، فأوْصَىٰ باتِّباع عبدِ الْمُؤْمِن ، وعَقَدَ له ، ولقَّبَه أميرَ المؤمنين ، وقال : هو الذي يَفتَحُ البلادَ ، فاعْضُدوه بأنْفُسِكم وأمْوالِكم ثم ماتَ في آخِرِ سَنةِ أرْبَع وعشرين وخَمسِ مئة .

قال اليَسَعُ بنُ حَزْم : سَمَّى ابنُ تُومَرْت الْمُرابِطينَ بالْمُجَسِّمين ، وما كان أهلُ الْمَغْربِ يَدينُون إلاَّ بتنزيه الله تعالىٰ عمَّا لا يَجبُ وَصْفُه بما يَجبُ له ، مع تَرْك خَوْضِهم عمَّا تَقْصُرُ العُقُولُ عن فَهْمِه .

إلىٰ أن قال : فكفَّرَهم ابنُ تُومَرت لجَهْلِهم العَرَضَ والجَوْهَر ، وأنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ ذلك ، لَمْ يَعْرِفْ الْمَخْلُوقَ من الخَالِق ، وبأنَّ مَنْ لَمْ يُهاجِرْ إليه ويُقاتِلْ معه ، فإنَّه حَلالُ الدَّمِ والحَريم ، وذَكرَ أنَّ غَضبَه لله وقيامُه حِسْبَة .

قال ابنُ خَلِّكان : قَبرُه بالجَبلِ مُعظَّمٌ ، ماتَ كَهْلاً وكان قُوتُه من غَزْلِ أُخْتِه رَغيفاً بزَيْت ، أو قَليلَ سَمْنٍ ، لمْ يَنْتَقِلْ عن ذلك حينَ كَثُرَت عليه الدُّنيا رَأىٰ أصْحابَه يوماً ، وقد مالت نُفوسُهم إلىٰ كَثْرَة ما غَنِمُوه ، فأمَرَ بإحْراقِ جَميعِه ، وقالَ : مَنْ أرادَ الدُّنيا فهٰذا له عندي ، ومَنْ كان يَبْغِي الآخِرَةَ ، فجَزاؤُه عندَ الله ، وكان يَتمثَّلُ كثيراً :

تَجَـرَّدْ مِـن الـدُّنْيـا فـإنَّـك إنَّمـا خَرَجْتَ إلى الدُّنْيا وأنْتَ مُجرَّدُ

ولَمْ يَفْتتِح شَيئاً من الْمَدائن ، وإنَّما قَرَّرَ القَواعِدَ ، ومَهَّدَ ، وبَغَتَهُ الْمَوتُ ، وافْتَتَحَ بعدَه البِلادَ عبدُ الْمُؤمِن .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وقد بَلَغَني ـ فيما يُقالُ ـ أنَّ ابنَ تُومَرت أخْفَىٰ رِجالاً في قُبور دَوَارِسَ ، وجاءَ في جَماعَة ليُرِيَهم آيَةً يَعني فصَاحَ : أيُّها الْمَوْتَىٰ أجيبُوا ، فأجابُوه : أنْتَ الْمَهْديُّ الْمَعْصُومُ ، وأنْتَ وأنْتَ ، ثمَّ إنَّه خافَ من انْتِشارِ الحِيلَةَ فخَسَفَ فَوْقَهم القَبْوَ فماتُوا .

وبكُلِّ حالٍ فالرَّجُلُ من فُحُولِ العالَم ، رَامَ أمْراً ، فتَمَّ له ، ورَبطَ البَرْبَرَ بادِّعاءِ العِصْمَة ، وأقْدَمَ على الدِّماءِ إقْدامَ الخَوارِجِ ، ووَجدَ ما قَدَّم[1] .

(ب) عبد المُؤْمن بنُ عَليّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : ابنُ عَلَوي ، سلطان المغرب الذي يلقَّبُ بأمير المؤمنين ، الكُوفيُّ القَيْسيُّ الْمَغْربيُّ .

مَولدُه بأعْمالِ تِلِمْسانَ ، وكانَ أبُوهُ يَصنَعُ الفَخَّارَ .

وكانَ الخُطباءُ إذا دَعوا له بعدَ ابنِ تُومَرْت ، قالوا : قَسيمُه في النَّسَبِ الكَريمِ مَولِدُه سَنَةَ سَبْعٍ وثَمانِينَ وأرْبَع مِئَة .

وقالَ « الْمُعجبُ » عبدُ الواحد الْمَرَّاكِشيُّ : اسْتدْعَى ابنُ تُومَرْت قبلَ مَوتِه الرِّجالَ الْمُسَمَّين بالجَماعَة وأهْلَ الخَمسينَ ، والثَّلاثةَ عُمرَ أرْتاجَ ، وعُمرَ إيْنْتي ، وعبدَ الله بنَ

(١) انظر السير : (ابن تُومَرْت) ١٩/٥٣٩ـ٥٥٢ ، وانظر النزهة : ١٥٠٧ ـ ١٥١٣ .

سُلَيْمانَ ، فحَمِدَ اللهَ ثم قالَ : إنَّ اللهَ ـ سُبحانَه ، ولَهُ الحَمْدُ ـ مَنَّ عَليكم أَيَّتُها الطائفةُ بتأييدِه ، وخَصَّكم بحَقيقَةِ تَوْحيدِه ، وقَيَّضَ لكم مَنْ أَلْفاكُم ضُلاَّلاً لاتَهْتَدون وعُمياً لاتُبْصِرُونَ ، قد فَشَت فيكُم البِدَعُ ، واسْتهْوَتْكُم الأباطيلُ فهَداكم اللهُ به ، ونَصَرَكم ، وجَمَعَكم بعد الفُرقَة ، ورَفعَ عنكم سُلطانَ هَؤلاء المارِقينَ ، وسَيُورِثُكُم أرْضَهم ودِيارَهم ، ذلكَ بما كَسَبَتْ أيديهم ، فجَدِّدُوا لله خالِصَ نيَّاتِكُم ، وأَرُوهُ من الشُّكْرِ قَوْلاً وفعْلاً ممَّا يُزكِّي به سَعيَكم ، واحْذَروا الفُرقَة ، وكُونوا يَداً واحِدَةً علىٰ عَدوِّكم ، فإنَّكم إنْ فَعلتُم ذلك هابَكم النَّاسُ وأَسْرَعوا إلىٰ طاعتِكُم ، وإنْ لا تَفْعَلوا شَمِلَكم الذُّلُّ ، واحْتَقرتْكُم العامَّةُ ، وعَليكُم بمَزْجِ الرَّأفَةِ بالغِلْظَة ، واللِّينَ بالعُنْفِ وقد اخْتَرْنا لكُم رَجُلاً منكُم ، وجَعلنَاهُ أميراً بعدَ أنْ بَلَوْناهُ ، فرَأيناهُ ثَبْتاً في دينِه مُتبصِّراً في أَمْرِه ، وهو هـٰذا ـ وأشارَ إلىٰ عبدِ الْمُؤْمِنِ ـ فاسْتمعُوا له وأطيعُوا ما أطاعَ رَبَّه ، فإنْ بَدَّلَ ففي الْمُوَحِّدينَ بَرَكَةٌ وخَيْرٌ ، والأمْرُ أمْرُ الله يقلِّدُه مَنْ يشاءُ فبايَعَ القَومُ عبدَ الْمُؤْمِن ، ودَعا لهم ابنُ تُومَرْت .

وقال ابنُ خَلِّكان : ما اسْتخلَفَه بلْ أشارَ به قال : فأَوَّلُ ما أخذَهُ من البلادِ هَورانَ ، ثم تِلِمْسانَ ، ثم فاسَ ، ثم سَلا ، ثم سَبْتَة ، ثم حاصَرَ مَرَّاكشَ أحدَ عَشرَ شَهْراً فأخذَها في سَنَةِ اثْنَتَينِ وأرْبَعين وخَمسِ مئة ، وامْتدَّ مُلكُه ، وافْتتحَ كَثيراً من الأنْدلُس ، وقَصَدتْهُ الشُّعَراءُ ولَمَّا قالَ فيه التِّيفاشيُّ قَصيدَتَه :

ماهَزَّ عِطْفَيْهِ بَيْنَ البِيض والأَسَلِ　　　مِثْلُ الخَليفَةِ عَبْدِ المُؤْمِنِ بن عَلي

أشارَ إليه أنْ يَقْتَصرَ علىٰ هـٰذا المَطْلَع ، وأمرَ له بألفِ دينارٍ ، وانْقَطَعَتِ الدعْوَةُ العَبَّاسية بمَوْتِ أميرِ المسلمين عليِّ بنِ تاشِفين وولَدِهِ تاشفينَ ، وكانت دَولَةُ تاشفينَ ثلاثَ سِنين .

قال ابنُ الجَوزي في « المرآة » : اسْتولَىٰ عبدُ الْمُؤْمِنِ علىٰ مَرَّاكشَ فقَتلَ الْمُقاتِلَةَ وكفَّ عن الرعيَّة وأحْضَرَ اليَهُودَ والنَّصارَىٰ وقالَ : إنَّ الْمَهْديَّ أمَرَني أنْ لا أُقِرَّ النَّاسَ إلاَّ علىٰ مِلَّةِ الإسْلام ، وأنا مُخَيِّرُكم بينَ ثَلاث ، إمَّا أن تُسْلموا ، وإمَّا أن تَلْحَقُوا بدارِ الحَرْب ، وإمَّا القَتلُ فأسْلمَ طائفَةٌ ولَحِقَتْ أُخْرَىٰ بدارِ الحَرْب ، وخرَّبَ كَنائسَهم ،

وعَمِلَها مَساجِدَ وألغى الجِزْيَةَ ، فَعلَ ذلك في جَميعِ مَدائِنِه ، وأنْفَقَ بُيوتَ الأمْوالِ وصَلَّىٰ فيها اقْتِداءً بعَليٍّ ، وليُريَ النَّاسَ أنَّه لا يَكْنِزُ الْمَالَ ، وأقامَ كَثيراً من مَعالِمِ الإسْلامِ مع سِياسَةٍ كامِلَةٍ .

ونادَىٰ : مَنْ ترك الصَّلاةَ ثَلاثاً فاقْتُلوهُ ، وأزَالَ الْمُنْكَرَ ، وكانَ يَؤمُّ بالنَّاسِ ، ويَتلُو في اليَومِ سَبعاً ، ويَلبَسُ الصُّوفَ الفاخِرَ ، ويَصومُ الإثْنينِ والخَميسَ ، ويُقَسِّمُ الفَيْءَ بالشَّرعِ فأحَبُّوهُ .

قالَ عَزيزٌ في كتاب « الجمع » : كانَ عبدُ الْمُؤْمِنِ يأخُذُ الحَقَّ إذا وَجَبَ علىٰ وَلَدِه ، ولَمْ يَدَعْ مُشْرِكاً في بِلادِه لا يَهُودياً ولا نَصْرانياً فجَميعُ رَعيَّته مُسلمونَ .

وكانَ عبدُ الْمُؤْمِنِ مُؤثِراً لأهْلِ العلم ، مُحبّاً لهم ، ويَجزِلُ صِلاتَهم وسُمِّيَت الْمَصامِدَةُ بالْمُوَحِّدينَ لأجْلِ خَوْضِ الْمَهْديِّ بهم في عِلمِ الاعْتقادِ والكَلامِ .

وكان عبدُ الْمُؤْمِنِ رَزيناً وَقُوراً ، كاملَ السُّؤدد ، سَرياً ، عالي الهِمَّة ، خَليقاً للإمَارَة ، واختلَّت أحْوالُ الأنْدَلُسِ ، وتَخاذَلَ المُرابِطونَ وآثَروا الرَّاحَةَ ، واجْتَرأَ عليهم الفِرَنْجُ ، وانْفَردَ كلُّ قائدٍ بمَدينَة وهاجَت عليهم الفِرَنْجُ ، وطَمِعُوا ، فجَهَّزَ عبدُ الْمُؤْمِنِ عُمَرَ إيْنتي فدَخَلَ إلى الأنْدَلُسِ ، فأخَذَ الجَزيرَةَ الخَضْراءَ ، ثم رُنْدَة ، ثم إشْبيلِيَة ، وقُرْطُبَةَ ، وغَرْناطَةَ ، ثم سارَ عبدُ الْمُؤْمِنِ بجيوشه ، وعدَّى البحرَ من زُقاقِ سَبْتَة ، فنزلَ جَبلَ طَارق ، وسَمَّاهُ جَبلَ الفَتْح ، فأقامَ أشْهُراً ، وبَنىٰ هناك قُصوراً ومَدينَة ، ووَفِدَ إليه كُبَراءُ الأنْدَلُسِ ، وقامَ بَعضُ الشُّعَراءِ مُنْشِداً :

ما للعِدَىٰ جُنَّةٌ أَوْقَىٰ مِنَ الهَرَبِ ... أيْنَ المَفَرُّ وخَيْلُ اللهِ في الطَّلَبِ
وأيْنَ يَذْهَبُ مَنْ في رَأسِ شَاهِقَةٍ ... وقَدْ رَمَتْهُ سِهَامُ اللهِ بالشُّهُبِ
حَدِّثْ عن الرُّومِ في أقْطَارِ أنْدَلُسٍ ... والبَحْرُ قَدْ مَلأَ البَرَّيْنِ بالعَرَبِ

فأُعْجِبَ بها عبدُ الْمُؤْمِنِ ، وقال : بمثل هٰذا يُمدَحُ الخُلَفاءُ ، ثم أمَّرَ علىٰ إشبيلية ولده يُوسُفَ ، وعلىٰ قُرْطُبَةَ أبا حَفْصٍ عُمَرَ إيْنتي ، وعلىٰ غَرْناطَةَ عُثْمانَ وَلَدَه ، وقَرَّر بالأنْدَلُس جَيشاً كَثيفاً من الْمَصامِدَة والعَرَبِ وقَبائلِ بَني هِلال ، وكان قد حارَبَهم مُدَّة ،

وظَفِرَ بهم ، وأذلَّهم ، ثم كاتبَهم ولاطَفَهم ، فخَدَموا معه ، وخَلعَ عَليهم ، وكانَ دُخولُه إلى الأنْدَلُسِ في سَنَةِ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وخَمْسِ مئة .

قالَ عبدُ الوَاحِد الْمَرَّاكِشيُّ : حدَّثني غَيرُ واحِدٍ أنَّ عبدَ الْمُؤْمِنِ لَمَّا نَزَلَ سَلا ـ وهي على البَحرِ المُحيطِ يَنصَبُّ إليها نَهرٌ عَظيمٌ ويَمُرُّ في البَحْرِ ـ عَبَرَ النَّهْرَ ، وضُربَت له خَيمةٌ ، وجَعلَت جُيوشُه تَعبُرُ قَبيلةً قَبيلةً فَخَرَّ ساجِداً ، ثم رَفَعَ وقد بَلَّ الدَّمْعُ لِحْيَتَه ، فقالَ : أعْرِفُ ثَلاثَةً ورَدُوا هٰذه المَدينَةَ ، لا شَيءَ لهم إلاَّ رَغيفٌ واحِدٌ ، فرامُوا عُبُورَ هٰذا النَّهْرِ ، فبَذَلوا الرَّغيفَ لصاحِبِ القَارِبِ علىٰ أنْ يُعدِّي بهم ، فقالَ : لا آخُذُه إلاَّ عن اثْنَين ، فقالَ أحَدُهم وكانَ شَابّاً : تأخُذُ ثيابي وأنا أسْبَحُ ، ففعَلَ ، فكان الشَّابُّ كلما أعْيا ، دَنا من القارِبِ ، ووَضَعَ يدَه عليه يَستريحُ ، فيَضْرِبُه بالْمِجْدافِ فما عدَّىٰ إلاَّ بعدَ جَهْدٍ فما شَكَّ السَّامِعُونَ أنَّه هو السَّابحُ ، والآخَرانِ ابنُ تُومَرْت ، وعبدُ الواحِد الشَّرقي .

وقالَ ابنُ الأثير : نازَلَ عبدُ الْمُؤْمِنِ الْمَهْديَّةَ ، فبرَزَ شُجْعانُ الفِرَنْج ، فنالوا من عَسْكرِه ، فأمَرَ ببناءِ سُورٍ عَليهم ، وصَابَرَهم وأخَذَ سَفَاقِسَ وطَرابُلْسَ وقابِسَ ، وجَرَت أمُورٌ وحُروبٌ يَطُولُ شَرْحُها ، وجَهَّزَ مَن افْتَتحَ تَوزَرَ وبلادَ الجَريدِ وطَرَدَ عنها الفِرَنْجَ ، وطَهَّرَ إفْريقيَّةَ من الكُفْرِ ، وتَكمَّلَ له مُلكُ الْمَغْرِبِ من طَرابُلْسَ إلى السُّوسِ الأقْصَىٰ وأكْثرُ مَمْلكَةِ الأنْدَلُسِ ، ولو قَصَدَ مِصْرَ لأخَذَهَا ، ولَمَا صَعُبَت عَليه .

وَلَّما دَخلَت سَنَةُ ثَمانٍ وخَمسين وخَمسِ مئة أمَرَ الجَيشَ بالجهازِ لجِهَادِ الرُّومِ واسْتَنفَرَ النَّاسَ عاماً ، ثم سارَ حتىٰ نَزَلَ بسَلا ، فمَرِضَ ، وجاءَه الأجَلُ بها في السَّابِعِ والعِشْرينَ من جُمادَى الآخِرَة ، وارْتَجَّت الْمَغْرِبُ لِمَوْتِه وكانَ قد جَعَلَ وَليَّ عَهدِهِ ابنَه مُحمَّداً ، وكانَ لا يَصلُحُ لطَيْشِه وجُذام به ولشُرْبِه الخَمْرَ ، فتَملَّكَ أيّاماً ، وخَلَعوه ، واتَّفَقوا علىٰ تَوْليَةِ أخيه يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ ، فبَقيَ في المُلكِ اثنَتَينِ وعشرين سَنةً ، وخلَّفَ عبدُ الْمُؤْمِنِ ستَّةَ عَشرَ وَلداً ذَكراً .

قالَ صاحبُ كتابِ « الجمع » : وَقَفتُ علىٰ كتابٍ كَتبَه عن عبدِ الْمُؤْمِنِ بعضُ

كُتَّابه : من الخَليفَة الْمَعْصُومِ الرَّضيِّ الزَّكيِّ ، والذي بَشَّرَ به النَّبيُّ العَربيُّ ، القامعُ لكُلِّ مُجَسِّمٍ غَويٍّ ، النَّاصِرُ لدين اللهِ العَليّ أميرِ المؤمنينَ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عَليّ[1] .

(ج) يُوسُف بن عبد المُؤْمن :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ ، أبو يَعْقُوبَ يُوسُفُ ابنُ السُّلطانِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عَلّي ، صاحبُ الْمَغْرِبِ .

تَملَّكَ بعد أخيه الْمَخْلوع مُحمَّد لطَيشه ، وشُربه الخَمْرَ ، فخُلِعَ بعدَ شَهرٍ ونِصْف ، وبُويعَ أبو يَعْقُوب ، وكانَ شَيخاً مَليحاً ، أبْيَضَ بحُمْرَة ، مُسْتَديرَ الوَجْه ، أفْوَهَ ، أعْيَنَ ، تَامَّ القَامَةِ ، حُلْوَ الكَلام فَصيحاً ، حُلْوَ الْمُفَاكَهَة ، عارِفاً باللُّغَة والأخْبارِ والفِقْهِ ، مُتَفَنِّناً ، عالِيَ الهِمَّة ، جَواداً ، مَهيباً ، شُجاعاً ، خَليقاً للمُلكِ .

قالَ عبدُ الواحِد بنُ عليّ التَّميمي : صَحَّ عندي أنَّه كان يَحْفَظُ أحدَ الصَّحيحَين ، أظُنُّه البُخاريَّ .

قالَ : وكان سَديدَ الْمُلوكيَّة ، بَعيدَ الهِمَّة ، جَواداً ، اسْتَغنى النَّاسُ في أيّامه ، ثم إنَّه نَظَرَ في الطِّبِّ والفَلْسَفَةِ ، وحَفِظَ أكثرَ كتابِ « الملكي » وجَمعَ كُتبَ الفَلاسِفَة ، وتَطلَّبَها من الأقْطارِ ، وكانَ يَصْحَبُه أبو بَكْر مُحمَّدُ بنُ طُفَيْل الفَيْلَسوفُ فكان لا يَصبرُ عنه .

وفي وَسَط أيّامه خَرجَ عليه سَبْعُ بنُ حيَّان ومَزْدَغْ في غُمارَة[2] ، فحارَبَهما ، وأسَرَهما ، ودَخلَ الأنْدَلُسَ في سَنَةِ سَبع وسِتِّينَ وخَمسِ مئة للجِهادِ ، ويُضْمِرُ الاسْتيلاءَ علىٰ باقي الجَزيرَة ، فجَهَّزَ الجَيشَ إلىٰ مُحمَّدِ بنِ سَعْد بن مَرْدَنيش ، فالْتَقوا بقُربِ مُرْسَيَةَ ، فانْكَسَرَ مُحمدٌ ، ثم ضايَقَه الْمُوَحِّدونَ بمُرْسَيَة مُدَّة ، فماتَ ، وأخَذَ أبو يَعْقوب بلادَه ، ثم سارَ ، فنازَلَ مَدينَةَ وَبْذَىٰ فحاصَرَها أشْهُراً ، وكادُوا أنْ يُسْلِموها

---

(١) انظر السير : (عبد المؤمن بن عليّ) ٢٠/٣٦٦ـ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ١٥٦٢ عبد المؤمن بن عليّ .

(٢) اسم القبيلة التي ثار فيها سَبْعُ بن حيّان ، وقال عبد الواحد : والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها ولا يحدّها حزر لكثرتها .

من العَطَشِ ، ثم اسْتَسْقوا ـ لَعَنهم الله ـ فسُقوا ، وامتلأت صَهاريجُهم ، فرَحَلَ ، وهادَنَ الفُنْشَ ، وأقامَ بإشْبيليَة سَنتَين ونِصْفاً ، ودانَت له الأنْدَلُسُ ، ثم رَجعَ إلى السُّوسِ سَنةَ إحْدَىٰ وسَبعينَ وخَمسِ مئة لتَسكنَ فِتنٌ وَقعَت بينَ البَرْبَر .

وكانَ فَقيهاً يَتكلَّمُ في المَذاهِبِ ويَقولُ : قَولُ فُلانٍ صَوابٌ ، ودَليلُه من الكتاب والسُّنَّة كَذا وكَذا[1] .

قال عبدُ الواحد : لمَّا تَجهـزَ لغَزْوِ الرُّوم ، أَمَرَ العُلَماءَ أن يَجْمَعوا أحَادِيثَ في الجِهَاد تُملَىٰ على الجُند ، وكان هو يُملِي بنفسِه ، وكِبارُ المُوَحِّدِين يَكتُبُون في أَلْوَاحِهم وكان يُسَهِّلُ عليه بَذْلَ الأموَالِ سِعَةُ الخَرَاجِ ، كان يأتِيه من إفريقيةَ في العامِ مئةٌ وخمسونَ وَقْرَ بغْلٍ واسْتَنْفَرَ في سنةِ تِسْعٍ وسَبعينَ أهلَ السَّهْلِ والجَبَلِ والعَرَبِ ، فعَبَرَ إلى الأنْدلُسِ ، وقَصَدَ شَنْتُرِيْنَ بِيَدِ[2] ابنِ الرِّيقِ ، لعَنَه الله ، فحَاصَرَها مُدَّةً ، وجَاءَ البَرْدُ فقال : غداً نتَرَحَّلُ ، فكان أولَ مَنْ قَوَّضَ مُخَيَّمَه عليُّ بنُ القاضِي الخَطِيب ، فلمَّا رَآه النَّاسُ ، قَوَّضُوا أخْبيَتَهم ، فكَثُر ذلك ، وعَبَرَ لَيْلَئِذٍ العَسْكَرُ النَّهرَ ، وتَقَدَّموا خَوفَ الازْدِحامِ ، ولَمْ يَدْرِ بذلك أبو يَعقُوب ، وعَرَفَتِ الرُّوم ، فانْتَهَزُوا الفُرْصَةَ ، وبَرَزُوا ، فحَمَلُوا على النَّاسِ ، فكَشَفُوهم ، ووَصَلوا إلىٰ مُخَيَّمِ السُّلطانِ ، فقُتِلَ علىٰ بابِه خَلقٌ من الأبطال ، وخُلِصَ إلى السُّلطانِ ، فطُعِنَ تحتَ سُرَّتِه طَعْنةً مات بعدَ أيامٍ منْها ، وتَدارَكَ النَّاسُ ، فهَزَموا الرُّومَ إلى البلدِ وهَرَبَ الخَطيبُ ، ودَخَلَ إلىٰ صاحِبِ شَنْتَرِينَ ، فأكْرَمَه ، واحْتَرَمَه ، ثم أخَذَ يُكاتِبُ المُسلمينَ ، ويَدُلُّ علىٰ عَوْرَةِ العَدُوِّ فأحْرَقُوه ، ولَمْ يَسِيرُوا بأبي يَعقُوبَ إلاَّ لَيْلَتَيْن وتُوفِّي ، وصَلَّىٰ عليْه وصُبِّر في تابوتٍ ، وبُعِثَ إلىٰ تِيْنَمَلَّ[3] ، فدُفِنَ مع أبيه وابنِ تومرت مات سنةَ ثمانين وخَمس مئة ، وبايَعُوا ابنَه يَعقُوبَ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ عبد المؤمن) ٢١/٩٨ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١٦٠٢/ ابنُ عبد المؤمن .

(٢) يعني التي بيد .

(٣) جبال بالمغرب بينها وبين مرّاكش ثلاثة فَراسخ .

(٤) انظر السير : (ابنُ عبد المؤمن) ٢١/٩٨ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٣ .

(د) يَعْقوبُ بن يُوسُف (صاحِبُ الْمَغْرِب) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ ، الْمُلَقَّبُ بأميرِ المؤمنينَ الْمَنْصُورُ ، أبو يُوسُف ، يَعقُوبُ ابنُ السُّلطانِ يُوسُف ابنِ السُّلطانِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عِليٍّ ، الْمَغْربيُّ ، الْمَرَّاكشيُّ ، الظَّاهِريُّ ، وأُمُّه رُوميَّة اسْمُها سَحَر عَقَدوا له بالأمْرِ سَنَةَ ثَمانينَ وخَمسِ مئة عندَ مَهْلكِ أبيه ، فكانَ سِنُّه يَومئذٍ ثِنْتَين وثَلاثينَ سَنةً عَمِلَ الوَزارَةَ لأبيه ، وخَبَرَ الخَيْرَ والشَّرَّ .

ولَمَّا تَملَّكَ ، كانَ حَولَه مُنافسونَ له من عُمومَتِه وإخْوَتِه ، ثم تَحَوَّلَ إلىٰ سَلا ، وبها تَمَّت بَيعتُه ، وأرْضَىٰ آلَه بالعَطاءِ ، وبَنَىٰ مَدينةً تَلي مَرَّاكِشَ على البَحرِ ، فما عَتمَ أنْ خَرجَ عليه عَليُّ بنُ غانيَة الْمُلَثَّم ، فأخَذَ بِجايَةَ ، وخَطبَ للنَّاصِرِالعَبَّاسِيِّ ، فكانَ الخَطيبُ بذلك عبدُ الحَقِّ مُصنِّفُ « الأحْكامَ » ، ولَوْلا حُضورُ أجَلِه ، لأهْلَكَه الْمَنْصُورُ .

ثم تَملَّكَ ابنُ غانيَة قَلعَةَ حمَّاد ، فسارَ الْمَنْصُورُ ، واسْتردَّ بجَايَةَ ، وجَهَّزَ جَيشَه ، فالْتَقاهم ابنُ غانيَة فمَزَّقَهم ، فسارَ الْمَنْصُورُ بنفسِه ، فكَسَرَ ابنَ غانيَة ، وذَهبَ مُثْخَناً بالجِراحِ ، فماتَ في خَيمَةِ أعْرابيَّةٍ ، وقَدَّم جَيشُه عليهم أخاه يَحْيَىٰ فانْحازَ بهم إلى الصَّحْراءِ مع العَرَبِ ، وجَرَتْ له حُروبٌ طَويلَةٌ واسْتردَّ الْمَنْصُورُ قَفْصَةَ ، وقَتلَ في أهْلِها ، فأسْرَفَ ثم قَتلَ عَمَّيْه سُليمانَ وعُمَرَ صبراً ، ثم نَدم ، وتَزهَّدَ وتَقشَّفَ ، وجالَسَ الصُّلَحاءَ والْمُحَدِّثينَ ، ومالَ إلى الظَّاهِرِ ، وأعْرَضَ عن الْمَالِكيَّة ، وأحْرَقَ مالا يُحْصَىٰ من كتُبِ الفُروعِ[1] .

قال عبدُ الواحِدِ بنِ عليٍّ : كنتُ بفاسَ ، فشَهدتُ الأحْمالَ يُؤتَىٰ بها ، فتُحْرَق ، وتَهدَّدَ على الاشْتغالِ بالفُروعِ ، وأمَرَ الحُفَّاظَ بجَمعِ كتابٍ في الصَّلاةِ من (الكُتُبِ الخَمسَة) ، و« الْمُوَطَّأ » ، و« مُسْنَدِ ابنِ أبي شَيْبَة » ، و« مُسْنَدِ البَزَّار » ، و« سُنَنِ الدَّارَقُطني » ، و« سُنَنِ البَيْهَقيِّ » كما جَمعَ ابنُ تُومَرت في الطَّهارَة ثم كان يملي ذلك

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٦ .

بنَفسِه علىٰ كبارِ دَولَتِه ، وحَفِظَ ذلك خَلقٌ ، فكانَ لمَنْ يَحفَظُه عَطاءٌ وخِلْعَةٌ إلىٰ أنْ قالَ : وكانَ قَصْدَه مَحْوُ مَذهَب مالك من البلادِ ، وحَمْلُ النَّاسِ على الظَّاهِرِ ، وهـٰذا المَقْصِد بعَينِه كان مَقْصِدَ أبيه وجدِّه ، فلَمْ يُظْهِراهُ ، فأخْبَرَني غَيرُ واحد أنَّ ابنَ الجَدِّ أخْبَرَهم قالَ : دَخلتُ علىٰ أميرِ المُؤمنينَ يوسُفَ ، فوَجدتُ بينَ يدَيه كتابَ ابنِ يُونُس ، فقالَ : أنا أنْظُرُ في هـٰذه الآراء التي أُحْدِثَت في الدِّين ، أرأَيتَ المَسْأَلَةَ فيها أقْوالٌ ، ففي أيِّها الحَقُّ ؟ وأيُّها يَجبُ أنْ يَأخُذَ به المُقلِّد ؟ فافْتَتَحتُ أُبيِّنُ له ، فقَطعَ كَلامي ، وقالَ : لَيسَ إلا هـٰذا ، وأشَارَ إلى المُصْحَفِ ، أوْ هـٰذا وأشارَ إلىٰ « سُنَنِ أبي داوُدَ » ، أو هـٰذا ، وأشارَ إلى السَّيفِ .

قالَ يَعقوبُ : يا مَعْشرَ المُوَحِّدينَ ، أنتُم قَبائلُ ، فمَنْ نابَه أمرٌ ، فَزِعَ إلىٰ قَبيلَتِه ، وهـٰؤلاء ـ يَعني طَلبَةَ العِلمِ ـ لا قَبيلَ لهم إلاَّ أنا ، قالَ : فعَظُمُوا عند المُوَحِّدينَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وفي سَنَةِ خَمسٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مئة غَزَا صاحِبُ المَغرِبِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُفَ الفِرَنْجَ ، ثمَّ رَجعَ ، فمَرِضَ ، وتَكَلَّمَ أخُوهُ أبو يَحْيَىٰ في المُلكِ ، فلمَّا عُوفِيَ قَتَلَهُ ، وتَهَدَّدَ القَرَابَةَ[2] .

وفي سَنَةِ تسْعِينَ انتَقَضَتْ الهُدنَةُ ، فتَجهَّزَ ، وعَرَضَ جُيوشَه بإشْبيليَةَ ، وأنْفَقَ الأموالَ ، فقَصَدَهُ الفُنْشُ فالْتَقَوْا ، وكان النَّصرُ عَزيزاً ، ما نَجَا الفُنْشُ إلاَّ في شُرَيْذِمَةٍ ، واسْتُشْهِدَ من الكِبارِ جَماعَةٌ ، واسْتَوْلَىٰ يَعْقُوبُ علىٰ قِلاعٍ ، ونَازَلَ طُلَيْطِلَةَ ، ثمَّ رَجعَ ، ثمَّ غزَا ووَغَّلَ ، بحيثُ انتَهىٰ إلىٰ أرْضٍ ما وَصَلَتْ إليها المُلوكُ ، فطَلَبَ الفُنْشُ المُهَادَنَةَ ، فعُقِدَتْ عَشْراً ، ثمَّ رَدَّ السُّلطانُ إلىٰ مرّاكُش بعد سَنتَينِ ، وصَرَّحَ بقَصْدِ مِصْرَ .

وكان يَتَوَلَّى الصَّلاةَ بنفسِه أشْهُراً ، فتَعَوَّقَ يوماً ، ثمَّ خَرَجَ ، وهم يَنْتَظِرُونَه ، فلامَهُم ، وقال : قد قَدَّمَ الصَّحابَةُ عبد الرَّحمـٰنِ ابنَ عَوْفٍ للعُذرِ ، ثمَّ قَرَّرَ إماماً عنه ،

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٦ .
(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٧ .

وكان يَجْلِسُ للحُكْمِ ، حتى اخْتَصَمَ إليه اثنانِ في نِصْفٍ[1] ، فقَضَىٰ ، ثمَّ أدَّبَهُما ، وقال : أمَا كان في البَلَدِ حُكَّامٌ .

وكان يَجْمَعُ الأيْتَامَ في العَامِ ، فيَأمُرُ للصَّبيِّ بدينارٍ وثَوبٍ ورَغِيفٍ ورُمَّانةٍ[2] .

وبَنَىٰ صَاحبُ المَغربِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُف مارستاناً ما أظنُّ مثله ، غَرسَ فيه من جَميعِ الأشْجَارِ ، وزَخْرَفَه وأجْرَىٰ فيه المِيَاهَ ، ورَتَّبَ له كُلَّ يومٍ ثَلاثينَ ديناراً للأدويةِ ، وكان يَعُودُ المَرضَىٰ في الجُمُعَة .

وكان لا يقُولُ بالعِصْمَةِ في ابنِ تُومَرْت .

وسَألَ فَقِيهاً : ما قَرأتَ ؟ قال : تَوالِيفَ الإمَامِ ، قال : فَزَوَّرَني ، وقال : ما كذا يقُولُ الطالِبُ! حُكمكَ أنْ تقولَ : قَرأتُ كتَابَ اللهِ ، وقَرأتُ من السُّنَّةِ ، ثمَّ بعدَ ذا قُلْ ما شِئْتَ .

وكانت مَجَالسُه مُزَيَّنَةً بحُضُورِ العُلمَاءِ والفُضَلاءِ ، تُفْتَتَحُ بالتِّلاوَة ثمّ بالحَديثِ ، ثمّ يَدعُو هوَ ، وكان يُجيدُ حِفْظَ القُرآنِ ، ويَحفَظُ الحَديثَ ، ويَتكلَّمُ في الفِقْهِ ، ويُنَاظِرُ ، ويَنْسبُونَه إلىٰ مَذْهبِ الظَّاهِر ، وكان فَصيحاً ، مَهيباً ، حَسَنَ الصُّورَة ، تَامَّ الخِلْقَة ، لا يُرَىٰ منه اكْفِهْرارٌ ، ولا عن مُجالِسه إعْراضٌ ، بِزيِّ الزُّهَّادِ والعُلماء ، وعَليه جَلالَةُ المُلُوكِ ، صَنَّفَ في العِبادات ، وله (فَتَاوٍ) ، وبَلَغَني أنَّ السُّودانَ قَدَّموا له فِيلاً فوَصَلَهم ، ورَدَّه ، وقال : لا نُريدُ أن نكونَ أصْحَابَ الفيلِ ، وكان يَجْمَعُ الزَّكاةَ ، ويُفرِّقُها بنَفْسه ، وعَمِلَ مَكْتَباً للأيْتام ، فيه نَحْوَ ألفِ صَبيٍ ، وعَشْرَةُ مُعَلِّمُونَ ، حَكَىٰ لي بَعضُ عُمَّالِه : أنَّه فَرَّقَ في عيدٍ نَيِّفاً وسَبعينَ ألْفَ شاةٍ .

وقال عبدُ الواحد : كان مُهْتَمّاً بالبناءِ ، كُلَّ وَقتٍ يُجَدِّدُ قَصراً أو مَدينةً ، وأنَّ الذين أسْلَمُوا كُرهاً أمَرَهُم بِلِبْسِ كُحْليٍّ وأكْمَامٍ مُفْرِطَةِ الطُّولِ ، وكلوتاتٍ ضخمةٍ بَشِعَةٍ ، ثمَّ ألْبَسَهم ابنُهُ العَمَائِمَ الصُّفْر ، حَمَلَ يَعقُوبَ علىٰ ذلكَ شَكُّهُ في إسْلامِهم ، ولَمْ تَنْعَقِد

---

(١) يعني في نصف درهم .

(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/٣١١-٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٧ .

عندنا ذِمَّةٌ ليَهُوديٍّ ولا نَصْرانيّ مُنذُ قَامَ أَمْرُ المَصَامِدَة ، ولا في جَميعِ المَغْربِ كَنيسَةٌ ، وإنَّمَا اليَهُودُ عندنا يُظْهِرونَ الإسْلامَ ، ويُصَلُّونَ ، ويُقْرِئُونَ أَوْلادَهُم القُرآنَ جارينَ علىٰ مِلَّتِنَا .

وكان ابنُ رُشْد الحفيدُ قد هَذَّبَ له كتابَ « الحَيَوان » ، وقال : الزُّرافة رأيتُها عند مَلِكِ البَرْبَر ، كذا قال غيرَ مُهتبل ، فأَحْنَقَهُم هٰذا ، ثمَّ سَعَىٰ فيه مَنْ يُناوِئُه عند يَعقُوبَ فَأَرَوْهُ بخَطِّهِ حاكياً عن الفَلاسِفَة أنَّ الزُّهْرةَ أَحَدُ الآلِهَة ، فطَلَبَه ، فقال : أهٰذا خَطُّك ؟ فأنْكَرَ ، فقال : لَعَنَ اللهُ مَنْ كَتَبَه ، وأمَرَ الحاضِرينَ بلَعْنِه ، ثمَّ أَقَامَه مُهَاناً ، وأَحْرَقَ كُتُبَ الفَلْسَفَةِ سِوَى الطِّبِّ والهَنْدَسَة[1] .

وقد كَتَبَ صَلاحُ الدِّين إلىٰ يَعْقُوبَ يَسْتَنجِدُ به في حِصَارِ عَكَّا ، ونفَّذ إليه تَقدمةً ، وخَضعَ له ، فما رَضيَ لكَوْنِه ما لَقَّبَه بأميرِ المؤمنينَ[2] .

وقيلَ : إنَّ يَعقُوبَ أبْطلَ الخَمرَ في مَمالِكِه ، وتَوعَّدَ عَليها فعُدِمَت ، ثم قالَ لأبي جَعْفَرٍ الطَّبيبِ : رَكِّبْ لنا تِرْياقاً ، فأعْوَزَهُ خَمرٌ ، فأخْبرَه بذلك ، فقال : تَلطَّفْ في تَحْصيلِه سِرّاً ، فحَرِصَ ، فعَجَزَ فقالَ الْمَلِكُ : ما كانَ لي بالتِّرْياقِ حاجَةً ، لكنْ أَرَدتُ اخْتِبارَ بِلادي .

ماتَ سنةَ خَمسٍ وتِسْعينَ وخَمْسِ مئة[3] .

(هـ) مُحمَّد بن يَعْقوب (صاحِبُ الغَرْبِ) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ أبو عبدِ الله الملكُ النَّاصِرُ مُحمَّدُ ابنُ السُّلطانِ يَعْقُوبَ ابنِ السُّلطانِ يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بن عَليٍّ القَيْسيِّ ، وأُمه رُوميّة اسْمُها زَهْر .

تَملَّكَ البلادَ بعَهْد من أبيه مُتقدِّم وكانَ أشْقَرَ أشْهَلَ ، أَسْيَلَ الخَدِّ مَليحَ الشَّكلِ ، كَثيرَ

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٨ .
(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٩ .
(٣) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٩ .

الصَّمْتِ والإطْراقِ ، شُجاعاً مَهيباً ، بَعيدَ الغَوْرِ حَليماً ، عَفيفاً عن الدِّماءِ ، وفي لِسانِه لَثْغَة ، وكان يُبخَّل[1] .

فَرَغَتْ هُدنَةُ الفِرَنْجِ ، فعَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه إلىٰ إشْبيلِيَّةَ ، ثمَّ تَحرَّكَ في سَنةِ ثمانٍ وستِ مِئَةٍ لجِهَادِ العَدُوِّ ، فنَازَلَ حِصْناً لهم فأخَذَهُ فسَارَ ألْفُنُشُ في أقاصِي المَمَالك يَسْتَنْفِرُ عُبَّادَ الصَّلِيبِ ، فاجْتَمَعَتْ له جُيوشٌ ما سُمِعَ بمثلِها ، ونَجَدَتْه فِرَنْجُ الشَّامِ ، وعَساكِرُ القُسْطَنْطِينيَّة ، ومَلِكُ أرْغُن البَرْشلونيّ ، واسْتَنْفَرَ السُّلطانُ أيضاً النَّاسَ ، والْتَقَى الجمعَانِ ، وتُعْرَفُ بوَقْعَةِ العِقابِ ، فتَحَمَّلَ الْفُنشُ حَمْلةً شَديدةً ، فهَزَمَ المُسلمِينَ ، واسْتُشْهِدَ خَلْقٌ كثيرٌ ، وكان أكْبَرَ أسْبابِ الكَسْرَةِ غَضَبُ الجُندِ من تَأَخُّرِ عَطَائِهم ، وثَبَتَ السُّلطانُ ثَبَاتاً كُلّياً ، لَوْلاهُ لاسْتُئْصِلَ جَيشُه ، وكانت المَلْحَمَةُ في صَفَرَ ، سَنةَ تِسعٍ وستِّ مِئَةٍ ، ورَجَعَ العَدُوُّ بغَنَائِمَ لا تُوصَفُ ، وأخَذُوا بيّاسة عُنْوةً ، فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ .

مَرِضَ السُّلطانُ أيَّاماً ، ومَاتَ سَنةَ عَشْرٍ وستِّ مِئَةٍ وكانت أيَّامُه خَمْسَةَ عَشرَ عاماً ، وقَامَ بعدَه ابنُه المُسْتَنْصِرُ يُوسُف عَشْرَةَ أعْوَامٍ[2] .

(و) يُوسُف بن مُحمَّد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمُسْتَنصِرُ بالله أبو يَعقُوبُ يُوسُفَ بنِ مُحمَّد بنِ يَعقُوبَ الْمُؤْمِنيُّ .

تَملَّكَ الْمَغْربَ سَنةَ عَشرٍ وستِّ مئة ، وكان بَديعَ الحُسنِ ، بَليغَ الْمَنْطِقِ غارِقاً في وادي اللَّهْوِ والبَطالَة .

وُلدَ سَنة أرْبَع وتِسْعينَ وخَمسِ مئة ، فملَّكوهُ وله ستَّ عَشرةَ سَنةٍ فضَيَّعُوا أمْرَ الأُمَّة .

مات الْمُسْتَنْصِرُ في سَنةِ عِشرينَ وستِّ مئة ولَمْ يُخلِّفْ وَلداً ، فمَلَّكت الْمُوَحِّدونَ بعدَه عَمَّ أبيه عبدَ الوَاحِد[3] .

---

(١) انظر السير : (صاحب الغرب) ٢٢/ ٣٣٧ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٨/ ١ .

(٢) انظر السير : (صاحب الغرب) ٢٢/ ٣٣٧ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٨/ ٢ .

(٣) انظر السير : (ابنه) ٢٢/ ٣٣٩ـ ٣٤٠ ، وانظر النزهة : ١٦٩٩/ ابنه .

(ز) عبد الواحد بن يُوسُف بن عبد المُؤمن :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : ابنُ السُّلطانِ يوسُف ابنِ السُّلطانِ عبدِ الْمُؤْمِنِ صاحِبِ الْمَغْرِبِ .

كان شَيخاً عاقِلاً لكنَّه لم يُدارِ القُوَّادَ ، فقاموا عليه وخَلعُوه وخَنَقُوه في سَنةِ إحْدَىٰ وعِشْرينَ ، فكانت دَولتُه تِسْعَةَ أشْهُر[١] .

(ح) عبد الله بن يَعْقوب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : ابنُ السُّلطانِ يَعقُوبَ بنِ يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ القَيْسِيُّ الْمُلَقَّبُ بالْمَلِكِ العَادِلِ .

كان نائباً على الأنْدَلُسِ ، فلمَّا خُنق عمُّه عبدُ الواحِد ثارَت الفِرَنْجُ بالأنْدَلُسِ ، فالْتَقاهُم العَادِلُ ، فانْهزَمَ جَيشُه وفرَّ هو إلىٰ مَرَّاكش في حالِ نَحْسِهِ فقَبضَ الْمُوَحِّدونَ عليه ثم بايَعوا بالسَّلطَنةِ يَحْيَى ابنَ السُّلطانِ مُحمَّد بنَ يُوسُفَ لَمَّا بَقَلَ وَجهُه ، فجاءَت الأخْبارُ بأنَّ إدْريسَ ابنَ السُّلطانِ يَعقُوبَ قد ادَّعَى الخِلافَةَ بإشْبيليَّة ، فآلَ الأمرُ بيَحْيَىٰ إلىٰ أنْ طَمِعَت فيه الأعْرابُ وحاصَرَتْه بمَرَّاكِشَ ، وضَجِرَ منه أهْلُها ، وأخْرَجُوه فهَربَ الْمِسْكينُ إلىٰ جَبَلِ درن ، ثم نَهضَ معه طائفَةٌ ، وأقْبَلَ وتَمكَّنَ ، وطرَدَ نُوَّابَ إدْريسَ ، وقَتَلَ منهم ، وتَوثَّبَ بالأنْدَلُسِ ابنُ هُود الجُذاميُّ ، ودَعا إلىٰ بَني العَبَّاسِ ، فمالَ إليه النَّاسُ ، فهَربَ إدْريسُ ، وعَبرَ إلىٰ مَرَّاكِشَ ، فالْتَقَىٰ هو ويَحْيَىٰ فهُزِمَ يَحْيَىٰ ، ففَرَّ يَحْيَىٰ إلى الجَبلِ ، وكانت وِلايَةُ العادِلِ في سَنةِ عِشرينَ ، وفي دَولَتِه كانت الْمَلْحَمَةُ عند طُلَيْطِلَةَ ، فانْدَكَّ فيها الْمُسْلِمُونَ ، ثم في الآخِر خُنِقَ العادِلُ ، ونُهِبَ قَصرُه بمَرَّاكِشَ ، وتَملَّكَ يَحْيَىٰ بنُ مُحمَّد بنُ يَعقُوبَ ، فحارَبَه عَمُّه ، ثم قُتلَ[٢] .

---

(١) انظر السير : (عبد الواحد) ٢٢/ ٣٤١ ، وانظر النزهة : ١٦٩٩/ عبد الواحد .

(٢) انظر السير : (عبد الله) ٢٢/ ٣٤١ـ٣٤٢ ، وانظر النزهة : ١٦٩٩/ عبد الله .

(ط) إدْريس بن يَعْقوب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الْمَأمُونُ ، أميرُ المؤمنينَ ـ كما زَعمَ ـ أبو العُلا إدْريسُ ابنُ السُّلطانِ الْمَنْصُورِ يَعقُوبَ بنِ يُوسُفَ بنِ عبدِ الْمُؤْمِنِ بنِ عَليٍّ القَيْسيّ .

كان بَطلاً شُجاعاً ، مَهيباً ، دَاهيَةً ، فَقيهاً ، عَلاَّمَةً ، أُصُولياً ناظِماً ناثِراً ، وافِرَ الجَلالَةِ كان بالأنْدَلُسِ مع أخيه العادِلِ عبدِ اللهِ فلمَّا ثارَت الفِرَنْجُ عليه تَركَ الأنْدَلُسَ العادِلُ ، واسْتَخلَفَ علىٰ إشْبيليَّةَ إدْريسَ هـٰذا ، وجَرَت له أمُورٌ طَويلَةٌ ، ثم خُطِبَ له بالخِلافَةِ بالأنْدَلُسِ ، ثم عَدَّىٰ وغَلبَ علىٰ مَرَّاكِشَ وانتُزِعَ الْمُلكَ من يَحْيَىٰ بنِ مُحمَّد ابنِ عَمِّه ، والْتَقوا غَيرَ مرَّة ، ثم ضَعُفَ أمْرُ يَحْيَىٰ ، واسْتَجارَ بقَومٍ في حِصْنٍ من عَمَلِ تِلِمْسانَ فقُتلَ غِيلَةً ، وتَمكَّنَ إدْريسُ ، وكان جَبَّاراً جَرِيئاً على الدِّماءِ ، وأزالَ ذِكْرَ ابنِ تُومَرْت من الخُطْبَة .

ماتَ في الغَزْوِ في سَنةِ ثَلاثينَ وسِتِّ مئة ، فمَلَّكوا بعدَه ابنَه الرَّشيدَ فبَقيَ عَشرَ سِنينَ .

ولإدْريسَ رِسالَةٌ طَويلَةٌ أفْصَحَ فيها بتَكْذيبِ مَهْديِّهِم وضَلالِه ، نَقَلَ ذلك الْمُؤَيِّدُ في تاريخِه[1] .

(ي) عبد الواحد بن إدْريس :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمُلقَّبُ بالرَّشيدِ عبدِ الوَاحِدِ ابنِ الْمَأمُونِ إدْريس الْمُؤمنيّ .

تَملَّكَ وتَمكَّنَ ، ثم أعادَ الخُطبَةَ بذِكْرِ الْمَهْديِّ الْمَعْصُوم ابنِ تُومَرْت يَستَميلُ بذلك قُلوبَ الْمُوَحِّدينَ ، وكانت أيّامُه عَشرَةَ أعْوامٍ تُوفِّيَ غَريقاً في صِهْريجِ بُسْتانٍ له بمَرَّاكِشَ ، وكَتَموا مَوْتَه شَهراً ثم ملَّكوا أخاه السَّعيدَ عَليَّ بنَ إدْريسَ الذي قُتلَ .

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢٢/ ٣٤٢ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ١٧٠٠/ صاحب المغرب .

غَرقَ الرَّشيدُ في سَنةِ أرْبَعينَ وسِتٍّ مئة[١] .

(ك) قُتِلَ القاضي عِياض من أجْل أنَّه أنكرَ عِصْمَةَ ابنِ تُومَرت :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : بَلغَني أنَّه قُتلَ بالرِّماحِ لكَوْنِه أنْكرَ عِصْمَةَ ابنِ تُومَرْت[٢] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنه) ٢٢/٣٤٣ ، وانظر النزهة : ١٧٠١/ ابنه .

(٢) انظر السير : (القاضي عِياض) ٢٠/٢١٢ـ٢١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤٣ .

(٢١) الدَّوْلَة الصَّلاحيَّة الأيُّوبيَّة

صَلاحُ الدِّين وبَنُوه

(أ) صَلاحُ الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطَانُ الكَبيرُ ، المَلِكُ النَّاصِرُ ، صَلاحُ الدِّينِ ، أبو المُظَفَّر ، يُوسُفُ بنُ الأميرِ نَجْمِ الدِّينِ أيُّوبَ بنِ شَاذِي التَّكْرِيتِيّ المَوْلِد .

وُلِدَ في سَنَةِ اثنتَينِ وثلاثين وخَمْسِ مِئَة إذْ أبُوهُ نَجْمُ الدِّينِ مُتَوَلِّي تِكْريتَ نِيَابَةً[1] .

وكان نُورُ الدِّينِ قد أمَّرَه ، وبَعَثَه في عَسْكَرِه مع عَمِّه أَسَدِ الدِّين شِيركُوه ، فحَكَمَ شِيركُوه مِصْرَ ، فما لَبِثَ أنْ تُوُفِّيَ ، فقَامَ بَعْدَه صَلاحُ الدِّين ، ودَانَتْ له العَسَاكِرُ ، وقَهَرَ بني عُبَيْدٍ ، ومَحَا دَوْلَتَهُم واسْتَولَىٰ علىٰ قَصْرِ القَاهِرَة بما حَوَىٰ من الأَمْتِعَةِ والنَّفَائِس ، منها الجبلُ الياقُوتُ الذي وزْنُه سَبْعةَ عَشَرَ دِرْهَماً ، قال مُؤَلِّفُ « الكَامِلْ » ، ابنُ الأَثِير : أنا رَأَيْتُه ووَزَنْتُه .

وخَلا القَصْرُ من أهْلِه وذَخَائِرِه ، وأقَامَ الدَّعْوَةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان خَلِيقاً للإمَارَةِ ، مَهِيباً ، شُجَاعَاً حَازِمَاً ، مُجَاهِداً كَثِيرَ الغَزْوِ ، عَالِيَ الهِمَّة ، كانت دَوْلَتُه نَيِّفاً وعِشْرينَ سنةً .

وتَمَلَّكَ بعد نُورِ الدِّين ، واتَّسَعَتْ بلادُه .

ومنذُ تَسَلْطَنَ ، طَلَّقَ الخَمْرَ واللَّذاتِ ، وأنْشَأَ سُوراً على القاهِرةِ ومِصْرَ[2] وبَعَثَ أخاه شَمْسَ الدِّينِ في سَنَةِ ثمانٍ وسِتينَ ، فافْتَتَحَ بَرْقَةَ ، ثمَّ افْتَتَحَ اليَمَنَ وسَارَ صَلاحُ الدِّين ، فأخَذَ دِمَشْقَ من ابنِ نُورِ الدِّين[3] .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١٦١٩/١ .

(٢) يعني فسطاط مصر ، وكانت لفظة « مصر » وحتى اليوم تُطلق على الفسطاط .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١٦١٩/٢ .

وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعينَ وخَمسٍ مئة وثَبَتْ عليه البَاطِنيَّةُ فجَرَحُوه .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وسَبْعينَ وخَمْس مئة كَسَرَتْه الفِرنْجُ على الرَّمْلَةِ ، وفَرَّ في جَمَاعَةٍ ونجا ، وفي سَنَةَ خَمْسٍ الْتَقاهُم وكَسَرَهُم .

وفي سَنَةِ ثمانٍ وسَبْعين وخَمْس مئة عَدَّى الفُرَاتَ ، وأَخَذَ حَرَّانَ ، وسَرُوجَ ، والرَّقَّةَ ، والرُّهَا ، وسِنْجَار ، والبِيْرَةَ ، وآمِدَ ، ونَصِيْبِينَ ، وحَاصَرَ المَوْصِلَ ، ثمَّ تَمَلَّكَ حَلَبَ ، وعَوَّضَ عنها صاحِبَها زِنْكِي بسِنْجَار ، ثم إنه حاصَر المَوْصِلَ ثانياً وثالثاً ، ثمَّ صَالَحَه صاحِبُها عِزُّ الدِّين مَسْعُود[1] .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ وخَمْس مئة فتَحَ طَبَرِيَّةَ ، ونَازَلَ عَسْقَلانَ ، ثمَّ كانت وَقْعَةُ « حِطِّيْنَ » بَيْنَه وبَيْنَ الفِرَنْج ، وكانوا أرْبَعِينَ ألفاً ، فحَالَ بيْنَهُم وبينَ المَاءِ علىٰ تَلٍّ ، وسَلَّمُوا نُفُوسَهُم ، وأُسِرَتْ مُلُوكُهم ، وبَادَرَ ، فأَخَذَ عَكَّا وبَيْرُوتَ وكَوْكَبَ ، وسَارَ فحَاصَرَ القُدْسَ ، وجَدَّ في ذلك فأخَذَها بالأَمَانِ[2] .

ثمَّ إنَّ الفِرَنْجَ قامَتْ قِيامَتُهُم علىٰ بَيْتِ المَقْدِس ، وأَقْبَلُوا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم بَرّاً وبَحْراً ، وأَحَاطُوا بعكَّا ليَسْتَرِدُّوها ، وطَالَ حِصَارُهم لها ، وبَنَوا علىٰ نفُوسِهِم خَنْدَقاً ، فأَحَاطَ بهم السُّلطَانُ ، ودَامَ الحِصَارُ لهم وعلَيْهِم نَيْفاً وعِشْرينَ شَهْراً ، وجَرَىٰ في غُضُونِ ذلك مَلاحِمُ وحُرُوبٌ تُشَيِّبُ النَّوَاصِي ، وما فُكُّوا حتّىٰ أَخَذُوها ، وجَرَتْ لهُم وللسُّلطَانِ حُرُوبٌ وسِيَرٌ وعِنْدَما ضَرِسَ الفَريقَان ، وكَلَّ الحِزْبَان ، تَهَادَنَ المِلَّتان[3] .

وكانت له هِمَّةٌ في إقامَةِ الجِهَادِ ، وإبادَةِ الأَضْدَادِ ، ما سُمِعَ بمثلِها في دَهْرٍ[4] .

قال ابنُ واصِل في حِصَارِ عزاز : كانت خَيْمَةٌ كان السُّلطانُ يَحْضُرُ فيها ، ويَحُضُّ الرِّجَالَ ، فحَضَرَ باطِنيَّةٌ في زِيِّ الأَجْنَادِ ، فقَفَزَ عليه واحدٌ ضَرَبَه بسِكِّينٍ لَوْلا المِغْفَرُ

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١٩ .
(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٠ .
(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٠ .
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٠ .

الزَّرْدُ[1] الذي تحتَ القَلَنْسُوة لقتلَه ، فأمْسَكَ السُّلطَانُ يَدَ الباطِنيِّ بيدَيْه ، فبَقِي يَضْرِبُ في عُنُقِ السُّلطَانِ ضَرْباً ضَعِيفاً ، والزَّرْدُ تَمْنَع ، وبادَرَ الأميرُ بازكوج ، فأمْسَكَ السِّكِّينَ ، فجَرَحَتْه ، وما سَيَّبَها الباطِنيُّ حتّىٰ بَضَّعُوه ، ووَثَبَ آخَرُ ، فوَثَبَ عليه ابنُ منكلان ، فجَرَحَه الباطِنيُّ في جَنْبه ، فمَاتَ ، وقُتِلَ الباطِنيُّ ، وقَفَزَ ثالثٌ ، فأمْسَكَه الأميرُ عليُّ بنُ أبي الفَوَارِس ، فضَمَّه تحتَ إبطِه ، فطَعَنَهُ صاحِبُ حمص ، فقتَلَهُ ، وركَبَ السُّلطانُ إلىٰ مُخَيَّمِه ، ودَمُه يَسِيلُ علىٰ خَدِّه ، واحْتَجَبَ في بَيْتِ خَشَبٍ ، وعَرَضَ جُنْدَهُ ، فمَنْ أنْكَرَهُ أبْعَدَهُ[2] .

قال المُوفَّقُ عبدُ اللَّطيف : أتَيْتُ ، وصَلاحُ الدِّين بالقُدْسِ ، فرَأيْتُ مَلِكاً يَمْلأُ العُيُونَ رَوعَةً ، والقُلُوبَ مَحَبَّةً ، قريباً بَعِيداً ، سَهْلاً مُحَبَّباً ، وأصْحَابُه يَتَشَبَّهُون به يَتَسَابَقُون إلى المَعْرُوف كما قال تعالَىٰ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[3] وأولُ ليلةٍ حَضَرْتُه وَجَدْتُ مَجْلِسَه حَفْلاً بأهْلِ العِلْمِ يَتَذاكَرُون ، وهو يُحْسِنُ الاسْتِمَاعَ والمُشَارَكَةَ ، ويأخُذُ في كَيْفِيَّةِ بناءِ الأَسْوارِ ، وحَفْرِ الخَنَادِق ، ويأتي بكُلِّ مَعْنىً بَدِيع ، وكان مُهْتَمّاً في بِنَاءِ سُورِ بَيْتِ المَقْدِسِ وحَفْرِ خَنْدَقِه ، ويَتولَّىٰ ذلك بنَفْسه ، ويَنْقُلُ الحِجَارَةَ علىٰ عاتِقِه ويَتَأسَّىٰ به الخَلْقُ حتّى القاضِي الفَاضِل ، والعِمَادُ إلىٰ وَقْتِ الظُّهْر ، فيَمُدُّ السماطَ ويَسْتَرِيحُ ، ويَرْكَبُ العَصْرَ ، ثمَّ يَرْجِعُ في ضَوْءِ المَشَاعِل ، قال له صَانِعٌ : هٰذه الحِجَارَةَ التي تُقَطَّعُ من أسْفَلِ الخَنْدَقِ رِخْوَةٌ ، قال : كذا تَكُونُ الحِجَارَةُ التي تَلِي القَرَارَ والنَّدَاوَةَ ، فإذا ضَرَبَتْها الشَّمسُ ، صَلُبَتْ وكان يَحْفَظُ « الحَمَاسَة » ، ويَظُنُّ أنَّ كُلَّ فَقِيهٍ يَحْفَظُها ، فإذا أَنْشَدَ وتَوَقَّفَ ، اسْتَطْعَمَ فلا يُطْعَمُ ، وجَرَىٰ له ذلك مع القاضِي الفَاضِل ، ولَمْ يَكُنْ يَحْفَظُها ، وخَرَجَ ، فما زَالَ حتّىٰ حَفِظَها .

وكانت وَقْعَتُهُ بِمِصْرَ مع السُّودان ، وكانوا نَحْوَ مِئَتَيْ ألفٍ ، فنُصِرَ عليهم ، وقَتَلَ أكثَرَهم .

---

(١) زرد يُنسَج من الدروع علىٰ قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٢٠ .

(٣) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

حُمَّ صَلاحُ الدِّين ، ففَصَدَه مَنْ لا خِبْرَةَ له ، فخَارَتْ القُوَةُ ، وماتَ ، فوَجَدَ النَّاسُ عليه شَبيهاً بما يَجِدُونَه على الأنْبِيَاءِ ، وما رَأيْتُ مَلِكاً حَزِنَ النَّاسُ لمَوْته سِواهُ ، لأنَّه كان مُحَبَّباً ، يُحِبُّه البَرُّ والفَاجِرُ ، والمُسْلِمُ والكَافِرُ ، ثمَّ تَفَرَّقَ أوْلادُه وأصْحَابُه أيَادِيَ سَبَأٍ ، وتَمَزَّقُوا ولقَدْ صَدَقَ العِمَادُ في مَدْحِهِ حَيْثُ يقولُ :[1] .

وللنَّاسِ بالمَلِكِ النَّاصِرِ الصَّلا	حِ صَلاحٌ ونَصْرٌ كَبيرْ
هوَ الشَّمسُ أَفْلاكُهُ فِي البِلا	دِ ومَطْلِعُهُ سَرْجُهُ والسَّرِيرْ
إذا مَا سَطَا أوْ حَبَا واحْتَبَى	فمَا اللَّيْثُ مَنْ حَاتِمٌ ما ثَبِيرْ[2]

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ وخَمسٍ مئة افْتَتَحَ صَلاحُ الدِّينِ بلادَ الفِرَنْجَ ، وقَهَرَهم ، وأبَادَ خَضْراءَهم ، وأَسَرَ مُلُوكَهم علىٰ « حِطِّينَ » وكان قد نَذَرَ أنْ يَقْتُلَ أرْناطَ صاحِبَ الكَرَكِ ، فأُسِرَ يومَئذٍ ، كان قد مَرَّ به قومٌ من مِصْرَ في حَالِ الهُدنَةِ ، فغَدَرَ بهم ، فناشَدُوهُ الصُّلْحَ ، فقال ما فيه اسْتِخْفافٌ بالنَبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقَتَلَهم ، فاسْتَحْضَرَ صلاحُ الدِّين المُلُوكَ ، ثمَّ ناوَلَ المَلِكَ جِفْرِي شَرْبَةَ جلابِ ثلج فشَرِبَ ، فناوَلَ أرْناطَ فشَرِبَ ، فقال السُّلطانُ للتُّرجُمَانِ ، قُلْ لجِفْري : أنْتَ الذي سَقَيْتَه ، وإلاَّ أنا فمَا سَقَيْتُه ، ثمَّ اسْتَحْضَرَ البرنْسَ أرْنَاطَ في مَجْلِسٍ آخَرَ ، وقال : أنا أنْتَصِرُ لمُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْكَ ، ثمَّ عَرَضَ علَيه الإسْلامَ ، فأبَىٰ فحَلَّ كَتِفَه بالنَّيمجاه[3] وافْتَتَحَ عامَهُ ما لَمْ يَفْتَحْهُ مَلِكٌ ، وطارَ صِيتُه في الدُّنيا ، وهَابَتْهُ المُلُوكُ .

تُوفِّيَ بقَلعَةِ دِمَشْقَ سَنَةَ تِسْعٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مِئَة .

مَحاسِنُ صلاحُ الدِّين جَمَّةٌ ، لا سِيَّمَا الجِهَادُ ، فلَه فيه اليَدُ البَيْضاءُ ببَذْلِ الأمْوالِ والخَيْلِ المُثَمَّنَةِ لجُنْدِه ، وله عَقلٌ جَيِّدٌ ، وفَهمٌ وحَزمٌ وعَزمٌ[4] .

قال العِمادُ : لا يَلْبَسُ إلاَّ ما يَحِلُّ لُبْسُهُ كالكِتَّانِ والقُطْنِ ، نَزَّهَ المجالِسَ من الهَزَلِ ،

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢١ .
(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٢ .
(٣) النيمجاة : خنجر مقوس يشبه السيف القصير .
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٢ .

ومَحافلُه آهِلةٌ بالفُضَلاءِ ، ويُؤْثِرُ سَمَاعَ الحَدِيثِ بالأسَانيدِ ، حَلِيماً ، مُقِيلاً للعَثْرةِ ، تَقِيّاً نَقِيّاً وَفِيّاً صَفِيّاً ، يُغْضي ولا يَغْضَبُ ، ما رَدَّ سائِلاً ، ولا خَجَّلَ قائلاً ، كَثيرَ البِرِّ والصَّدَقاتِ ، أنْكَرَ عليَّ تَحْلِيَةَ دَواتِي بِفِضَةٍ فقُلْتُ : في جَوازِهِ وَجْهٌ ذَكَرَه أبو مُحمَّد الجُوَيْنيُّ ، وما رَأيتُه صلَّىٰ إلاَّ في جَماعَةٍ .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : وحَضَرَ وفَاتَه القاضي الفَاضِلُ[1] .

وذَكرَ أبو جَعفَر القُرطُبيُّ إمامُ الكلاَّسةِ[2] : إنَّني انتَهَيتُ في القراءةِ إلىٰ قولِه تعَالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾[3] ، فَسَمعتُ صَلاحَ الدِّين وهو يقول : صَحِيح وكان ذِهْنُه قبلَ ذلك غَائِباً[4] ، ثمَّ ماتَ ، وارْتَفَعَتِ الأصْواتُ بالبُكَاءِ ، وعَظُمَ الضَّجِيجُ ، حتىٰ إنَّ العاقِلَ ليُخَيَّلُ له أنَّ الدُّنْيا كُلَّها تَصِيحُ صَوْتاً واحداً ، وغَشِيَ النَّاسَ ما شَغَلَهم عن الصَّلاةِ عليه ، وتَأَسَّفَ النَّاسُ عليه حتى الفِرَنْجُ لما كان من صِدْقِ وَفائِه[5] .

وفي «الرَّوضَتَين» لأبي شامَة : أنَّ السُّلطانَ لَمْ يُخَلِّفْ في خِزَانَتِه من الذَّهبِ والفِضَّةِ إلاَّ سَبعَةً وأربَعينَ درهماً ، وديناراً صُورِيّاً ، ولَمْ يُخَلِّفْ مِلْكاً ولا عَقَاراً رحمه الله ، ولَمْ يَخْتلِفْ عليه في أيَّامِه أحدٌ من أصْحَابِه وكان النَّاسُ يَأمَنُون ظُلمَه ، ويَرجُونَ رِفدَه ، وأكثرُ ما كان يَصِلُ عَطَاؤُه إلى الشُّجْعانِ ، وإلى العُلَماءُ وأرْبَابِ البُيُوتاتِ ، ولَمْ يكُنْ لمُبطِلٍ ولا لمَزَّاحٍ عنده نَصِيبٌ .

قال المُوَفَّقُ : وكان إذا نَازَلَ بَلَداً ، وأشْرَفَ علىٰ أخْذِه ، ثمَّ طَلَبُوا منه الأمَانَ ، آمَنَهُم ، فيَتَألَّمُ لذلك جَيشُه ، لفَوَاتِ حَظِّهم[6] .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٢ .

(٢) كان الشيخ أبو جعفر قد استُدعي ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة عند حضور الوفاة ، وتوفي أبو جعفر هـٰذا سنة ٥٩٦ .

(٣) سورة الحشر ، الآية : ٢٢ .

(٤) وتمام الخبر أن القاضي الفاضل جاءه عند أذان الصبح ، وكان في آخر رمق ، فلما قرأ القارىء ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ تبسَّم ، وتهلَّل وجهُه وأسلمَ روحَه لربِّه سبحانه .

(٥) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٣ .

(٦) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٣ .

وكتَبَ القاضِي الفاضِلُ تَعْزِيَةً إلىٰ صاحِبِ حَلَبْ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] ، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[2] ، كتَبْتُ إلىٰ مَولانا المَلِكِ الظَّاهِرِ أحْسَنَ اللهُ عَزاءَه ، وجَبَرَ مُصابَه وجَعَلَ فيه الخَلَفَ من السَّلَفِ في السَّاعةِ المَذْكُورة ، ولقَدْ زُلْزِلَ المُسْلِمُونَ زَلْزالاً شَدِيداً ، وقد حَضَرَت الدُّموعُ المَحَاجِرَ وبَلَغَت القُلوبُ الحَنَاجِرَ ، وقد ودَّعتُ أبَاكَ ومَخْدُومي وَدَاعاً لا تَلاقِيَ بعدَه ، وقَبَّلْتُ وجهَه عنِّي وعَنْكَ ، وأسْلَمْتُه إلى اللهِ وَحْدَه مَغْلُوبَ الحِيلَةِ ضَعِيفَ القُوَّةِ راضِياً عن اللهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ وبالبابِ من الجُنُودِ المُجَنَّدَةِ والأسْلِحَةِ المُعَمَّدَةِ ما لَمْ يَدْفَعِ البَلاءَ ولا ما يَرُدُّ القَضَاءَ ، تَدْمَعُ العَينُ ويَخْشَعُ القَلبَ ، ولا نقولُ إلاَّ ما يُرضِي الرَّبَّ ، وإنَّا بك يا يُوسُفُ لمَحْزُونُون .

ولِلْعَلَمِ الشَّاتانيِّ فيه قَصِيدةٌ مَطلَعُها :

أَرَى النَّصْرَ مَقْرُوناً برَايَتِكَ الصَّفْرَا فسِرْ وٱمْلُكِ الدُّنيا فأنْتَ بها أحْرَىٰ[3]

(ب) العَزيز :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ ، المَلكُ العَزيزُ ، أبو الفَتح ، عِمادُ الدِّين ، عُثمانُ ابنُ السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين يُوسُفَ بنِ أيُّوب ، صاحبُ مِصْرَ .

وُلدَ سَنةَ سَبعٍ وسِتِّينَ وخَمسِ مئة .

وتَملَّكَ بعد أبيه ، وكان لا بأسَ بسيرَتِه ، قَدِمَ دِمَشْقَ ، وحاصَرَ أخاهُ الأفْضَلَ[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : نَقلتُ من خَطِّ الضِّياءِ الحافِظِ ، قالَ : خَرجَ إلى الصَّيدِ ، فجاءَته كُتبٌ من دِمَشْقَ في أذيَّة أصْحابِنا الحَنابِلَة ـ يَعني في فِتْنَة الحافِظِ عبدِ الغَنيّ ـ ، فقالَ : إذا رَجَعنا من هٰذه السَّفْرَة ، كلُّ مَنْ كانَ يَقولُ بمَقالَتِهم أخْرَجْناهُ من بَلدِنا ،

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١ .
(٢) سورة الحج ، الآية : ١ .
(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٣ .
(٤) انظر السير : (العَزيز) ٢١/٢٩١ـ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٤ .

قالَ : فرَماهُ فَرَسٌ ، ووَقَعَ عليه ، فخَسَفَ صَدرَه ، كذا حدَّثني يُوسُفُ بنُ الطُّفَيْل ، وهو الذي غَسَّلَه .

وقالَ الْمُنْذِرِيُّ : عاشَ ثَمانياً وعِشْرينَ سَنةً ماتَ سَنةَ خَمسٍ وتِسْعينَ وخَمسِ مئه[١] .

وقالَ الْمُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : كانَ العَزيزُ شاباً ، حَسَنَ الصُّورَة ، ظَريفَ الشَّمائلِ ، قَوياً ، ذا بَطْش ، وأَيْد ، وخِفَّة حَرَكة ، حَيياً ، كَريماً ، عَفيفاً عن الأمْوالِ والفُروجِ ، بلَغَ من كَرِمه أنَّه لمْ يَبْقَ له خِزانة ، ولا خَاص ، ولا فرس وبُيوتُ أُمَرائِه تَفيضُ بالخَيْراتِ ، وكانَ شُجاعاً مِقْداماً ، بلغَ من عِفَّتِه أنَّه كانَ له غُلامٌ تُرْكيٌّ بألفِ دينارٍ يُقالُ له : أبو شامَة ، فوَقَفَ ، فرَاعَه حُسْنُه ، فأمْرَه أنْ يَنْزِعَ ثيابَه ، وجَلسَ منه مَجْلِسَ الخَنا ، فأدْرَكَه تَوْفيقٌ ، فأسْرَعَ إلىٰ سَريَّة له ، فقَضَىٰ وَطَرَه[٢] .

قال ابنُ واصِل : وحُكيَ عنه أنَّ عبدَ الكَريمِ ابنَ البيسانيِّ أخا القاضي الفاضِل كان يَتولَّى البحيرَةَ مُدّةً ، ووَقعَ بينَه وبينَ أخيه ، فعُزِلَ ، وكان مُزوَّجاً ببنْتِ ابن ميَسَّر ، فأساءَ عِشْرَتَها لسُوءِ خُلقِه ، فتَوجَّه أبوها ، وأثْبَتَ عند قاضي الإسْكَنْدَريَّة ضَررَها ، وأنَّه قد حَصَرَها في بَيتٍ ، فمَضَى القاضي بنفسِه ، ورامَ أنْ يَفْتَحَ عَنها ، فلَمْ يَقْدرْ ، فأحْضَرَ نَقَّاباً ، فنَقبَ البيتَ ، وأخْرَجَها ، ثم سَدَّ النَّقْبَ ، فهَاجَ عبدُ الكَريمِ ، وقَصدَ الأميرَ جهاركسَ بمِصْرَ ، وقالَ : هٰذه خَمسَةُ آلاف دينار لك ، وأرْبَعُونَ أَلْفَ دينارٍ للسُّلطانِ ، وأُوَلَّىٰ قَضاءَ الإسْكَنْدَريَّة فأتى العَزيزَ لَيلاً ، وأحْضَرَ الذَّهَبَ ، فسَكتَ ، ثم قالَ : رُدَّ عليه مالَه ، وقُلْ له : إيَّاكَ والعَودَ إلىٰ مثلِها ، فمَا كلُّ مَلكٍ يَكونُ عادِلاً ، أنا ما أبيعُ أهلَ الإسْكَنْدَريَّة بهٰذا الْمالِ قال جهاركسُ : فوَجَمتُ ، وظَهرَ عليَّ ، فقالَ : أراكَ أَخَذْتَ شَيئاً ، قُلتُ : نعَم خَمسةَ آلافِ دينارٍ ، قال : أعْطَاكَ مالاً يَنفَعُ مرَّةً ، وأنا أُعْطيكَ ما تَنْتَفِعُ به مَرَّاتٍ ، ثم وَقَّعَ لي بإطْلاقِ طُنبذة[٣] كنتُ أستغلُّها سَبعةَ آلافِ دينار[٤] .

---

(١) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٤ .

(٢) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٥ .

(٣) اسم مكان .

(٤) انظر السير : (العَزيز) ٢١/ ٢٩١ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٥ .

(ج) العَادِلُ وبَنُوه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ الْمَلكُ العَادِلُ سَيفُ الدِّينِ أبو الْمُلوكِ وأخُو الْمُلوكِ أبو بَكْر مُحمَّدُ ابنُ الأميرِ نَجْمِ الدِّينِ أيُّوبَ بنِ شاذي التَّكْريتيُّ ثم البَعْلَبَكيُّ الْمَوْلد كانَ أصْغَرَ من أخيه صَلاح الدِّين بعامَين .

نَشأ في خِدمَةِ الْمَلِكِ نُورِ الدِّينِ ، ثم شَهِدَ الْمَغازيَ مع أخيه ، وكانَ ذا عَقْلٍ ودَهاءٍ وشَجاعَةٍ وتُؤدَةٍ وخِبرَةٍ بالأمُورِ ، وكان أخوه يَعتَمِدُ عليه ويَحْتَرمُه[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكانَ سَائساً ، صائبَ الرَّأي ، سَعيداً ، اسْتَولَىٰ على البلادِ وامْتدَّتْ أيامُه ، وحَكمَ على الحِجازِ ، ومِصْرَ ، والشَّامِ ، واليَمَنِ ، وكَثيرٍ من الجَزيرَة ، وديارِ بَكْر ، وأرْمينيَة وكانَ خَليقاً للمُلْكِ ، حَسَنَ الشَّكلِ مَهيباً ، حَليماً ، دَيِّناً فيه عِفَّةٌ وصَفْحٌ وإيثارٌ في الجُملَة أزالَ الخُمورَ والفاحِشَةَ في بَعضِ أيَّام دَولَتِه ، وتَصدَّقَ بذَهَبٍ في قَحْطِ مِصْرَ .

وسيرَتُه مع أولادِ أخيه مَشْهورَة ، ثم لَمْ يَزلْ يُراوِغُهم ويُلقي بينهم حتىٰ دَحاهُم ، وتَمكَّنَ واسْتولَىٰ علىٰ مَمالِكِ أخيه ، وأبْعَدَ الأفْضَلَ إلىٰ سُمَيْساطَ ، ووَدَعَ[2] الظَّاهِرَ وكَسرَ عنه لكَونِ بنتِه زَوجتَه ، وبَعثَ على اليَمَنِ حَفيدَه الْمَسْعودَ أطسِزَ بنَ الكامِلِ ، ونابَ عنه بمَيَّافارقينَ ابنُه الأوْحَد ، فاسْتولَىٰ علىٰ أرْمينيَة ، ثم إنَّه قَسَّمَ الممَالِكَ بينَ أولادِه ، وكان يُصَيِّفُ بالشَّامِ غالباً ويَشْتو بمِصْرَ[3] .

وخافَ من الفِرَنْجِ فصَالَحَهم وهادَنَهم وأعْطاهُم مَغَلّ الرَّملَة ولُدّ ، وسَلَّمَ إليهم يَافَا ، فقَويَتْ نُفوسُهم ، فالأمْرُ لله .

قال الْمُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : كانَ أعْمَقَ إخْوَتِه فِكْراً ، وأطْوَلَهم عُمْراً وأنْظَرَهُم في العَوَاقِبِ ، وأحَبَّهُم للدِّرْهَم ، وكان فيه حِلمٌ وأَناةٌ وصَبْرٌ على الشَّدائِدِ ، سَعيدَ

---

(١) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٠ .

(٢) أي : تركَ .

(٣) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧١ .

الجدِّ[1] ، عاليَ الكَعْبِ ، مُظفَّراً ، أَكُولاً ، نَهِماً ، يَأكُلُ من الحَلْواءِ السُّكريَّةِ رَطْلاً بالدِّمَشْقيِّ وكان كَثيرَ الصَّلاةِ ، ويَصُومُ الخَميسَ ، يُكْثِرُ الصَّدَقَةِ عندَ نُزُولِ الآفاتِ ، وكان قَليلَ المَرَضِ ، لقد أُحْضِرَ إليه أرْبَعُونَ حِمْلاً من البَطِّيخِ فكَسَرَ الجَميعَ وبَالَغَ في الأكْلِ فحُمَّ يوماً وكان كَثيرَ التَّمَتُّعِ بالجَواري ، ولا يُدْخِلُ عَليْهِنَّ خادِماً إلاَّ دُونَ البُلُوغِ .

نجبَ له عِدَّةُ أوْلادٍ سَلْطَنَهُم ، وزَوَّجَ بنَاتِهِ بمُلُوكِ الأطْرافِ .

وقد احْتيلَ على الفَتكِ به مرَّات ، ويُسلِّمُه الله[2] .

وكان شَديدَ المُلازَمَةِ لخِدمَةِ أخيه صَلاحِ الدِّين ، وما زالَ يَتحيَّلُ حتىٰ أعْطاهُ العَزيزُ دِمَشْقَ ، فكانت السَّببَ في أنْ تَملَّكَ البلادَ ، ولَمَّا جاءَه بمَنْشُورِها ابنُ أبي الحَجَّاج أعْطاهُ ألفَ دينارٍ ، ثمَّ جَرَتْ أمُورٌ يَطولُ شَرْحُها وقِتالٌ على المُلكِ ، ولَوْ كانَ ذلكَ التَّعبُ والحَربُ جِهاداً للفِرَنْجِ لأفْلَحَ .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسَ عَشرَةَ وستٍّ مئة[3] .

(د) المُعَظَّم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ المَلكُ المُعظَّمُ ابنُ العَادِلِ المَذكورِ هو شَرفُ الدِّين عيسىٰ بنُ محمَّد الحَنفيُّ الفَقيهُ صاحِبُ دِمَشْقَ .

مَولُده بالقَصْرِ من القاهِرَة في سَنةِ ستٍّ وسَبْعينَ وخَمسِ مئة .

ونَشأَ بدِمَشْقَ ، وحَفِظَ القُرآنَ ، وبَرَعَ في المَذهَبِ .

وحَجَّ في سَنةِ إحْدَىٰ عَشرَةَ ، وأنْشأَ البرَك ، وعَملَ بمُعانٍ دارَ مَضيفٍ وحمَّاماً .

وكان يَبحَثُ ويُناظِرُ ، وفيه دَهاءٌ وحَزْمٌ ، وكان يُوصَفُ بالشَّجاعَةِ والكَرمِ والتَّواضُعِ .

---

(١) الجد : أي الحظ أو البخت .

(٢) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧١ .

(٣) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٢ .

قَرأتُ[1] بخَطِّ الضِّياءِ الحافِظِ : كان الْمُعظَّمُ شُجاعاً فَقيهاً يَشْربُ الْمُسْكِرَ وأَسَّسَ ظُلماً كثيراً ، وخَرَّبَ بَيتَ الْمَقْدِسِ .

وقالَ ابنُ الأثير : وكانَ عالماً بعِدَّة عُلوم نَفقَ سُوقُ العِلمِ في أيَّامِه وقَصَدَهُ الفُقَهاءُ ، فأكْرَمَهم ، وأعْطاهُم ، ولَمْ يُسْمَعْ منه كَلِمَةٌ نَزِقَة ويقُولُ : اعْتِقادِي في الأُصُولِ ما سَطَّرَه الطَّحاويُّ وأوْصَىٰ أنْ لا يُبنَىٰ علىٰ قَبرِه[2] .

ولَمَّا مَرِضَ قالَ : لي في قَضيَّةِ دِمْياطَ ما أرْجُو به الرَّحْمَةَ[3] .

تُوفِّيَ سَنةَ أرْبَع وعِشْرينَ وسِتٍّ مئة وكانَ له دِمَشْقُ والكَرْكُ وغَيرُ ذلكَ وحَلفوا بعدَه لابنِه النَّاصِرِ داوُدَ[4] .

(هـ) الأشْرَف :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : صاحِبُ دِمَشْقَ السُّلطانُ الْمَلكُ الأشْرَفُ مُظَفَّرُ الدِّين أبو الفَتْح مُوسَىٰ شَاه أرْمَن ابنُ العَادِلِ .

تَملَّكَ القُدسَ أوَّلاً ، ثم أعْطاهُ أبوهُ حرَّانَ والرُّها وغيرَ ذلك ، ثم تَملَّكَ خِلاطَ ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ ، ثم تَملَّكَ دِمَشْقَ بعد حِصارِ النَّاصِرِ بها ، فعَدَلَ وخَفَّفَ الجَوْرَ ، وأحَبَّتْهُ الرَّعيَّةُ وكان فيه دينٌ وخَوفٌ من الله علىٰ لَعِبه وكان جَواداً ، سَمْحاً ، فارِساً شُجاعاً ، لَدَيْه فَضيلَةٌ .

وكان مَليحَ الهَيئَة ، حُلوَ الشَّمائلِ قِيلَ : ما هُزِمَت له رايَةٌ وكان له عُكوفٌ على المَلاهي والْمُسْكِرِ عَفا اللهُ عَنه ، ويُبالِغُ في الخُضوعِ للفُقَراءِ ويَزورُهم ويُعطيهم ، ويُجيزُ على الشِّعْرِ ، ويَبعَثُ في رَمضانَ بالحَلاواتِ إلىٰ أماكِنِ الفَقْرِ ، ويُشارِكُ في

---

(١) الكلام للإمام الذهَبي ، رحمَه الله .

(٢) انظر السير : (المُعظَّم) ٢٢/ ١٢٠ـ ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٢ .

(٣) أبلى المُعظَّم بلاءاً حسناً وجاهد الصليبيين جهاداً عظيماً في نوبة دمياط التي كانت من أشد الحملات خطراً على الأمة ، فنسأل الله سبحانه أن يتجاوز عنه بعض ما أخطأ ، وهو مُحقٌّ في مقالته هـٰذه .

(٤) انظر السير : (المُعظَّم) ٢٢/ ١٢٠ـ ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٢ .

صَنائع ، وله فَهْمٌ وذَكاءٌ وسياسَةٌ أخْرَبَ خَانَ العقيبَةِ وعَملَه جامِعاً[١] .

قالَ سِبطُ الجَوْزيُّ : فجَلستُ فيه ، وحَضَرَ الأشْرَفُ وبَكَىٰ وأعْتَقَ جماعَةً[٢] .

قالَ سِبطُ الجَوْزيُّ : كانَ الأشْرَفُ يَحضُرُ مَجالِسي بحرَّانَ ، وبخِلاطَ ، ودِمَشْقَ وكان مَلكاً عَفيفاً ، قالَ لي : ما مَددتُ عَينيَّ إلىٰ حَريمِ أحَد ولا ذَكَر ولا أنثَىٰ جاءَتني عَجوزٌ من عندِ بنتِ صاحِبِ خِلاط شَاه أرْمَن بأنَّ الحاجبَ عَليّاً أخَذَ لها ضَيْعَةً فكَتبتُ بإطْلاقِها ، فقالَت العَجوزُ : تُريدُ أنْ تَحضُرَ بينَ يَدك ، فقُلتُ : باسْمِ الله ، فجاءَت بها فلَمْ أرَ أحْسَنَ من قَوامِها ولا أحْسَنَ من شَكْلِها ، فقُمتُ لها ، وقُلتُ : أنْتِ في هـٰذا البَلَدِ وأنا لا أدْري ؟ فسَفرَت عن وَجْهٍ أضاءَت منه الغُرفَة ، وقُلتُ : لا ، اسْتَتِري فقالَت : ماتَ أبي واسْتَولَىٰ على المَدينَة بكتمر ، ثم أخَذَ الحاجِبُ قَرْيَتي وبَقيتُ أعيشُ من عَمَلِ النَّقْش وفي دارٍ بالكِراء فبَكيتُ لها ، وأمَرْتُ لها بدارٍ وقماشٍ ، فقالَت العَجوزُ : ياخَوَنْد ألا تَحْظَى الليلةَ بك ؟ فوَقَعَ في قَلْبي تَغيُّرُ الزَّمانِ وأنَّ خِلاطَ يَملِكُها غَيري ، وتَحْتاجُ بنتي أنْ تَقْعُدَ هـٰذه القَعْدَة ، فقُلتُ : مَعاذَ الله ، ما هـٰذا من شِيمَتي فقامَت الشَّابَّةُ باكيَةً تَقولُ : صَانَ اللهُ عَواقِبَك[٣] .

وكان للأشْرَف مَيلٌ إلى المُحَدِّثينَ والحَنابِلَة ، قالَ ابنُ واصِل : وَقَعَت فِتنةٌ بين الشَّافعيَّة والحَنابِلَة بسَببِ العَقائدِ قالَ : وتَعصَّبَ الشَّيخُ عِزُّ الدِّينِ بنِ عبدِ السَّلامِ على الحَنابِلَة ، وجَرت خَبْطَةٌ ، حتىٰ كَتبَ عِزُّ الدِّينِ رَحمَهُ الله إلى الأشْرفِ يَقعُ فيهم ، وأنَّ النَّاصِحَ ساعَدَ علىٰ فَتح بابِ السَّلامَة لعَسْكرِ الظَّاهِر والأفْضَلِ عندما حاصَروا العادِلَ ، فكَتبَ الأشْرَفُ : يا عِزَّ الدِّينِ الفِتْنَةُ سَاكِنَةٌ لَعَنَ اللهُ مُثيرَها .

وقد تابَ الأشْرَفُ في مَرضِه وابْتَهَلَ ، وأكثَرَ الذِّكرَ والاسْتِغفارَ .

ولما احْتُضِرَ قال لابنِ موسك : هاتِ وَديعَتي ، فجاء بمِئْزَر صُوف فيه خِرقٌ من آثار

---

(١) قال شعيبُ الأرنؤوط : ولا يزال عامراً إلىٰ يومنا هـٰذا ، ويسمَّىٰ جامع التوبة ، ويقع شمال الجامع الأموي ، والمحلة التي فيها المسجد تسمَّى العقيبة .

(٢) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٣/ ١ .

(٣) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٣/ ٢ .

المَشايخ ، وإزارٌ عَتيق ، فقالَ : يَكونُ هـٰذا علىٰ بَدَني أتَّقي به النَّارَ ، وهَبَنيه إنْسانٌ حَبَشيٌّ من الأبْدالِ كان بالرُّها[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان يُبالِغُ في تَعظيمِ الشَّيخ الفَقيهِ[2] ، تَوضَّأ الفَقيهُ يَوماً فوَثَبَ الأشْرَفُ ، وحَلَّ من تَخْفيفَتِه ورَماها علىٰ يَدَي الشَّيخِ ليُنَشِّفَ بها ، رَأىٰ ذلك شَيخَنا أبو الحُسَين ، وحَكاه لي .

ماتَ سَنةَ خَمسٍ وثَلاثينَ وسِتِّ مئة ، وكانَ آخِرُ كَلامِه « لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ » فيما قِيلَ[3] .

(و) الكامِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : وُلِدَ في سَنةِ سِتٍّ وسَبعينَ وخَمسِ مئة ، فهو من أقْرانِ أخَوَيْه الْمُعَظَّم والأشْرَف ، وكان أجَلَّ الثَّلاثَة وأرْفَعَهم رُتْبَةً .

وتَملَّك الديارَ المِصْريَّة أرْبَعينَ سَنةً شَطْرُها في أيّامِ وَالِدِه وكان عاقِلاً مَهيباً ، كَبيرَ القَدْرِ[4] .

وقال المُنْذِريُّ : أنْشَأَ الكامِلُ دارَ الحَديثِ بالقاهِرةِ ووَقَفَ الوُقُوفَ علىٰ أنواعِ البِرِّ ، وله المَواقِفُ المَشْهُورَةُ في الجِهَادِ بدِمْياطَ المُدَّةَ الطويلة ، وأنفَقَ الأموالَ وكافَحَ الفِرنْجَ بَرًّا وبَحْراً يَعْرِفُ ذلكَ مَنْ شَاهَدَهُ ، ولَمْ يَزَلْ علىٰ ذلكَ حتىٰ أعَزَّ اللهُ الإسْلامَ ، وخَذَلَ الكُفْرَ ، وكان مُعَظِّماً للسُّنَّةِ وأهْلِها ، رَاغِباً في نَشْرِها والتَّمَسُّكِ بها ، مُؤثِراً للاجْتِمَاعِ بالعُلَمَاءِ والكَلامِ مَعَهُم حَضَراً وسَفَراً[5] .

ومِن هِمَّتِه أنَّ الفِرنْجَ لَمَّا أَخَذُوا دِمْياطَ أنشأَ علىٰ بَريدٍ منها مَدينَةَ المَنْصُورَةَ واسْتَوطَنَهَا مُرابِطاً حتىٰ نَصَرَهُ اللهُ فإنَّ الفِرنْجَ طَمِعُوا في أخْذِ مِصْرَ ، وعَسْكَرُوا بقُربِ

---

(١) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٤/ ١ .
(٢) يعني : اليونيني .
(٣) انظر السير : (الأشْرَف) ٢٢/ ١٢٢ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٤/ ٢ .
(٤) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ١٦٧٥/ ١ .
(٥) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ١٦٧٥/ ٢ .

المَنصُورَة ، والْتَحَمَ القِتَالُ أيّاماً وألَحَّ الكَامِلُ علىٰ إخْوَتِه بالمَجِيء ، فجاءَهُ أَخَوَاهُ الأشْرَفُ والمُعَظَّمُ في جَيْشٍ لَجِبٍ ، وهَيْئَةٍ تامَّةٍ فقَوِيَ الإسْلامُ ، وضَعُفَتْ نُفُوسُ الفِرنْجِ ورُسُلُهُم تتَرَدَّدُ ، وبَذَلَ لهم الكَامِلُ قبلَ مَجِيء النَّجدَةِ القُدسَ وطَبَرِيَّة وعَسْقَلانَ وجَبَلَة واللاَّذِقِيَّة وأشياءَ علىٰ أن يَرُدُّوا له دِمْياطَ فأبَوا ، وطَلَبُوا مع ذلك ثلاث مِئَةِ ألفِ دينار ليُعَمِّرُوا بها أسْوارَ القُدسِ ، وطَلَبُوا الكَرَكَ ، فاتَّفَقَ أنَّ جماعَةً من المُسلمِين فَجَّرُوا من النِّيلِ ثَلْمَةً علىٰ مَنْزِلَةِ العَدُوِّ ، فأحَاطَ بهم النِّيلُ في هَيَجَانِه ، ولا خِبْرَةَ لهم بالنِّيلِ ، فحَالَ بينهم وبين دِمْياطَ ، وانقَطَعتْ المِيرَةُ عنهُم ، وجاعُوا وذَلُّوا ، فأرسَلُوا في طلَبِ الأمَانِ علىٰ تَسْلِيمِ دِمْياطَ ، وعَقْدِ هُدنَة ، فأُجِيبُوا فسَلَّمُوا دِمْياطَ بعد اسْتِقرارِهم بها ثلاثَ سِنينَ ، فللَّه الحَمْدُ[1] .

وكان عَدلُه مَشوباً بعَسْفٍ ، شَنقَ جَماعَةً من الجُنْدِ في بَطِيخَة شَعير[2] .

ونازَلَ دِمَشْقَ فبَعثَ صاحِبُ حِمْصَ لها نَجْدَةً خَمسينَ نَفْساً فظَفِرَ بهم وشَنقَهم بأسْرِهم .

ماتَ بدِمَشْقَ سَنَةَ خَمسٍ وثَلاثينَ وستٍّ مئة[3] .

(ز) الصَّالح :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الصَّالحُ عِمادُ الدِّينِ أبو الخَيْش إسْماعيلُ ابنُ الْمَلك العَادِلِ مُحمدِ بنِ أيُّوبَ بنِ شاذي صاحب دِمَشْقَ .

تَملَّكَ بُصْرَىٰ وبَعْلَبَك ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ واسْتَولَىٰ علىٰ دِمَشْقَ أعْواماً فحارَبَه صاحِبُ مِصْرَ ابنُ أخيه ، وجَرت له أمُورٌ طَويلةٌ ، ما بَين ارْتفاعٍ وانْخِفاض[4] .

وكان قَليلَ البَخْتِ ، بَطَلاً ، شُجاعاً ، مَهِيباً ، شَديدَ البَطْشِ ، مَليحَ الشَّكلِ ، كان في خِدمَةِ أخيه الأشْرَف ، فلمَّا ماتَ الأشْرَفُ تَوَثَّبَ علىٰ دِمَشْقَ ، وتَمَلَّكَ ، فجَاءَ أخُوهُ

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٢/١٢٧ـ١٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٥ .
(٢) انظر السير : (الكامل) ٢٢/١٢٧ـ١٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٦ .
(٣) انظر السير : (الكامل) ٢٢/١٢٧ـ١٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٦ .
(٤) انظر السير : (الصَّالح) ٢٢/١٣٤ـ١٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٦ .

السُّلطانُ المَلكُ الكامل ، وحَاصَرَه ، وأخَذَ منه دِمَشْقَ ، ورَدَّهُ إلىٰ بَعْلَبَك ، فلمَّا ماتَ الكاملُ وتَمَلَّكَ الجَوَادُ ثمّ الصَّالِحُ نَجْمُ الدين ، وسارَ نَجْمُ الدين يَقْصِدُ مِصْرَ ، هَجَمَ الصَّالِحُ إسماعيلُ بإعانَةِ صاحِبِ حَمْصَ المُجَاهد فتَمَلَّكَ دِمَشْقَ ثانياً في سَنَةِ سَبْعٍ وثلاثين ، فبَقِيَ بها إلىٰ سَنَةِ اثْنَتَينِ وأرْبَعِينَ وحَارَبَه الصَّالِحُ بالخُوارِزْمِيّة ، واسْتَعانَ هو بالفِرَنْجِ ، وبَذَلَ لهم الشَّقِيفَ وغَيرَها فمُقِتَ لذلك وكان فيه جُورٌ واسْتَقصَىٰ على النَّاسِ الرَّفيعَ الجيليَّ ، وتَضَرَّرَ الرَّعِيَّةُ بدمَشْقَ في حِصارِ الخُوارزميّة حتىٰ أُبيعَ الخُبزُ رِطلٌ بستة دَراهم ، والجُبْنُ واللَّحمُ بِنِسْبَةِ ذلك ، وأكَلُوا المَيْتَةَ ووَقَعَ فيهم وَباءٌ شَديدٌ[1] .

وفي « مُعْجَم » القُوصيِّ في تَرجَمَة الأشْرَف : فأخُوه إسْماعيلُ نَصَرَ الكافرينَ وسلَّمَ إليهم القِلاعَ ، واسْتولَىٰ علىٰ دِمَشْقَ سَرِقةً ، وحَنثَ في يَمينِه وقَتلَ من الملوك والأمَراء مَنْ كان يَنفَعُ في الجهادِ ، وصَادَرَ علىٰ يَد قُضاتِه العِبادَ ، وخَرَّبَ الأمْلاكَ ، وطَوَّلَ ذَيلَ الظُّلمِ ، وقَصَّرَ ذَيلَ العَدْلِ وظَنَّ أنَّ الفَلَك له مُسْتَمر ، فسَقطَ الدَّهْرُ لغَفلتِه ، وأراه بَلايا .

ثم ذَهبَت منه بَعْلَبَك وبُصْرَىٰ ، وتَلاشَىٰ أمرُه ، فمَضَىٰ إلىٰ حَلبَ ، وافِداً على ابنِ أُختِه ، وصارَ من أُمَرائه ، وأتَىٰ به فتَملَّكوا دِمَشْقَ ، فلمَّا سارُوا ليَأخُذوا مِصرَ غُلِبَ الشَّاميُّونَ ، وأُسِرَ جَماعَةٌ ، منهم الْمَلكُ الصَّالحُ في سَنَةِ ثَمانٍ وأرْبَعين وسِتِّ مئة ، فسُجِنَ بالقاهِرَة .

وفي سَلْخِ ذي القعدة من سَنةِ ثَمانٍ أخْرَجوا الصَّالحَ لَيلاً ومَضَوا به إلى الجَبلِ فقَتلُوه وعُفِيَ أثرُه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كفِّرَ عنه بالقَتْل[2] .

(ح) صَاحبُ حَمْص :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : الْمَلكُ الْمُجاهِدُ أسَدُ الدِّين أبو الحارث شِيرْكُوه ابنُ صاحبِ حِمْصَ ناصِرِ الدِّينِ بنِ الْمَلكِ أسَدِ الدِّين شِيرْكُوه بنِ شاذي .

---

(١) انظر السير : (الصَّالح) ٢٢/ ١٣٤ـ١٣٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الصَّالح) ٢٢/ ١٣٤ـ١٣٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٦/ ٣ .

وُلدَ سَنةَ تسعٍ وستِّينَ وخَمسٍ مئة بمِصْرَ .

وملَّكه السُّلطانُ صَلاحُ الدين حِمْصَ بعد أبيه ، فتَملَّكها سِتّاً وخَمسينَ سَنةً ، سَمعَ بدِمَشْقَ من الفَضْلِ بنِ البانياسي ، وأجازَ له ابنُ بَرّيّ ، وحدَّث[1] .

وكان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، وكانت بلادُه نَظيفَةً من الخُمورِ ، ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من أبْوابِ حِمْصَ جُملةً ، ودامَ ذلك خَوفاً من أن يَنزِحَ بهنَّ رجالُهن لعَسْفِه ، وكان يُديمُ الصَّلَواتِ ، ولا يُحبُّ لهواً ، وكان ذا رَأيٍ ودَهاءٍ ، وشَكْلٍ مَليحٍ وجَلالَةٍ ، كانت الْمُلوكُ تُداريه ويَخافونَه[2] .

استوحَشَ منه الكامِلُ ، وظَنَّ أنَّه أوْقَعَ بين الأشْرَفِ وبينَه ، فصادَرَه وطلَبَ منه أمْوالاً ، فنفَّذَ نِساءَه يَشْفَعْنَ فيه ، فما أفادَ ، فهيَّأَ الأمْوالَ فبَغتَه مَوْتُ الكامِلِ ، فجاءَ وجَلسَ عندَ قَبرِ الكامِلِ وتَصرَّفَ ، وهو الذي جاءَ مع الصَّالحِ إسْماعيلَ وأعانَه علىٰ أخْذِ دِمَشْقَ وكان الْمُظَفَّرُ صاحِبُ حماة قد شَعرَ بسَعْيهما ، فجَهَّزَ عَسكَره نَجْدةً لحمايَة دِمَشْقَ مع نائبه سيفِ الدِّين بنِ أبي عليٍّ في أهْبَةٍ وسِلاحٍ مُظْهِرينَ أنَّ ابنَ أبي عَليٍّ قد غَضِبَ من الْمُظَفَّرِ ، وفارَقَ حمَاةَ لكَونِ صاحِبها يُريدُ أنْ يُسلِّمَها إلى الفِرَنْجِ ، فما نَفَقَ هـٰذا علىٰ شيرْكُوه ، فنَزلوا بظاهِرِ حِمْصَ ثم اسْتدْعَىٰ بقيَّةَ الكِبارِ من جُندِه فدَخَلوا البَلَدَ فقَبضَ على الجَماعَة ، وعَذَّبَهم ، وأخَذَ أمْوالَهم ، وهَربَ باقي العَسْكَر إلىٰ حماة ، وتَضَعْضَعَ لذلك الْمُظَفَّرُ ، وماتَ نائبُه ابنُ أبي عَليّ في الحَبْسِ .

تُوفِّيَ بحِمْصَ سَنةَ سَبعٍ وثَلاثينَ وسِتٍّ مئة .

وشيرْكُوه ، بالعَربيِّ : أسَدُ الجَبَل .

وتَملَّكَ حِمْصَ بعدَه الْمَنْصُورُ إبْراهيمُ وَلدُه سَبعَ سِنينَ[3] .

---

(١) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١٧١٣/ ١ .
(٢) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١٧١٣/ ٢ .
(٣) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١٧١٣/ ٣ .

(ط) الجَوَاد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الجوادُ مُظَفَّرُ الدِّين يُونُسُ بنُ مَمْدودِ ابنِ السُّلطانِ الْمَلكِ العادِلِ أبي بَكْر بنِ أيُّوبَ الأيُّوبيُّ نَشأ في خِدمَةِ عَمِّه الكامِلِ ، فوَقعَ بينَهما ، فتألَّم ، وجاءَ إلىٰ عَمِّه المُعظَّم ، فأكْرَمَه ، ثم عادَ إلىٰ مِصْرَ ، واصْطَلحَ هو والكامِلُ ولَمَّا تُوفِّيَ الأشْرفُ جاءَ الكامِلُ ومعه هٰذا ، ثم ماتَ الكامِلُ ، فملَّكوا الجَوادَ دِمَشْقَ[1] .

وكان جَواداً مُبَذِّراً للخَزائِنِ ، قَليلَ الحَزْمِ ، وفيه مَحَبَّةٌ للصَّالحين ، والْتَفَّ حَولَه ظَلَمَةٌ ثم تَزَلْزَلَ أمْرُهُ ، فكَاتَبَ المَلكَ الصَّالحَ أيُّوبَ بنَ الكامل صَاحِبَ سِنْجار وغَيْرَها ، فبَادَرَ إليه وأعْطَاهُ دِمَشْقَ وعَوَّضَه بسِنْجارَ وعَانَةَ فخابَ البَيعُ ، فذَهَبَ إلى الجَزيرَةِ ، فلَمْ يَتمَّ له أمرٌ ، وأُخِذَتْ منه سِنْجارُ ، وبَقِيَ في عَانَة حَزيناً ، فتَرَكَها ومَضَى إلىٰ بَغْدادَ فبَاعَ عَانَةَ للمُسْتَنصِر بمالٍ ، ثمّ قَدِمَ على المَلكِ الصَّالح أيُّوبَ فما أقْبَلَ عليه ، وهَمَّ باعْتِقالِه ففَرَّ إلى الكَرْكِ ، فقَبَضَ عليه النَّاصِرُ ، ثمَّ هَرَبَ من مَخاليبه ، فقَدِمَ علىٰ صاحِبِ دِمَشْقَ يومَئذٍ الصَّالح إسْماعِيلَ عَمِّه ، فمَا بشَّرَ به ، وتَراجَمَتْهُ الأحْوالُ ، فقَصَدَ الفِرَنْجيَّ مَلكَ بَيْرُوتَ ، فأكْرَمُوهُ وحَضَرَ مَعهُم وَقْعَةَ قلنسوةَ من عَملِ نابلس قَتَلُوا بها ألْفَ مُسلمٍ ، نَعُوذُ باللهِ من المَكْرِ والخِزْيِ ، ثم تَحَيَّلَ عَمُّه الصَّالحُ فسَجَنَه بعزّتا ، ثم إنَّ الفِرَنْجَ ألَحُّوا على الصَّالحِ ، وكان مُصافِياً لهم ، في إطْلاقِ الجَوَادِ ، وقالوا : لا بُدَّ لنَا مِنهُ ، وكانت أمُّه إفْرَنْجيّة فيما قِيلَ ، فأظْهَرَ لهم أنَّه قد تُوُفيَ فقِيلَ : خَنَقَهُ في سَنَةِ إحْدَىٰ وأرْبعينَ وستِّ مِئَة ، وحُمِلَ فدُفِنَ عند المُعظَّمِ بسَفْحِ قاسيُونَ ، سَامَحه اللهُ تَعالَىٰ[2] .

(ي) المُعَظَّم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الْمَلكُ الْمُعَظَّمُ غياثُ الدِّين تُورانْشاه ابنُ السُّلطانِ الْمَلكِ الصَّالحِ أيُّوبَ ابنِ الكامِلِ ابنِ العادِلِ .

---

(١) انظر السير : (الجَواد) ٢٣/ ١٨٤ـ ١٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٦ .

(٢) انظر السير : (الجَواد) ٢٣/ ١٨٤ـ ١٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٦ .

وُلدَ بِمِصْرَ ، وعَملَ نيابَةَ أبيه ثم تَملَّكَ بحصْنِ كيفا ، وآمِد ، وتلك البلاد ، وكان أبوه لا يَختارُ أنْ يجيءَ لَمَّا مَلكَ مِصْرَ ، كان لا يُعجِبُه هَوَجُه ولا طَيْشُه سارَ لإقْدامِه الأميرُ الفارِسُ أقْطاي ، وسافَرَ به يتَحايَدُ مُلوكَ الأطْرافِ في نَحوٍ من خَمسينَ فارِساً على الفُرات وعانَةَ ، ثم علىٰ أطْرافِ السَّماوَة ، فدَخلَ دِمَشْقَ ، وزُيِّنَت له ثم سارَ منها بعد شَهر ، فاتَّفقَت كسْرةُ الفِرَنْجِ عند وُصولِه وتَيمَّنَ النَّاسُ به ، فبدا منه حَركاتٌ مُنَفِّرَة .

وكان السُّلطانُ يَقولُ : تُوارنْشاه ما يَصلحُ للمُلك .

قالَ ابنُ حمويه سَعدُ الدِّين : لَمَّا قَدِمَ ، طالَ لِسانُ كُلِّ خامِلٍ ، ووجَدُوه خَفيفَ العَقْلِ سَيء التَّدْبيرِ ، وتَطلَّعَ الأُمَراءُ إلىٰ أنْ يُنفِقَ فيهم كما فَعلَ بدِمَشْقَ ، فما أعْطاهُم شَيئاً ، وكان مَتىٰ سَكِرَ ضَربَ الشُّمُوعَ بالسَّيفِ ، ويَقولُ : هٰكذا أفْعَلُ بمَماليكِ أبي ، ويَتهدَّدُ الأُمَراءَ بالقَتْلِ ، فتَنكَّروا له ، وكانَ ذَكياً قَويَّ الْمُشارَكَة يَبحَثُ ويَنقلُ .

قالَ سبطُ الجَوْزيُّ : كانَ يَكونُ على السُّماطِ بدِمَشْقَ ، فإذا سَمِعَ فَقيهاً يَنقلُ مَسْألَةً صَاحَ : لا نسلِّم واحْتجبَ عن أُمورِ النَّاسِ وانْهَمَكَ في الفَسادِ بالغِلْمانِ وما كانَ أبُوه كذلك ، ويُقالُ : تعرَّضَ لسَراريِّ أبيه ، وقدَّم أرْذالَ ، ووَعَدَ أقْطايَ بالإمْرَة فما أمَّرَه فغَضِبَ .

ولَمَّا كانَ في الْمُحَرَّم سَنةَ ثَمانٍ وأرْبَعينَ وَثَبَ عليه بَعضُ البَحَريَّة على السماطِ فضَربَه علىٰ يَدِه ، قَطعَ أصابعَه ، فقامَ إلى البُرجِ الخَشَبِ ، وصَاحَ : مَنْ فَعلَ هٰذا ؟ قالوا : إسْماعيليٌّ ، قالَ : لا واللهِ بلْ من البَحَريَّة ، واللهِ لأُفْنِيَنَّهم ، وخَاطَ المُزَيِّنُ يَدَه فقالوا : بُتُّوه وإلاَّ رُحْنا ، فشَدُّوا عَليه فطَلعَ إلىٰ أعْلَى البُرجِ ، فرَمَوا البُرجَ بالنِّفْطِ وبالنُّشَّابِ فرَمَى المِسْكينُ بنفسِه وعَدا إلى النِّيلِ وهو يَصيحُ : ما أُريدُ الْمُلكَ خَلُّوني أرْجِعُ إلى الحِصْنِ يا مُسلمينَ أمَا فيكُم من يَصْطَنِعُني! ؟ فلَمْ يُجبْه أحَدٌ ، وتعَلَّق بذَيْلِ أقْطايَ فمَا أجارَه وعَجزَ فنزَلَ في الماءِ إلىٰ حَلْقِه فقُتلَ في الماءِ[1] .

---

(١) انظر السير : (المُعَظَّم) ٢٣/ ١٩٣ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ١٧٢٧ ـ ١٧٢٨/ المُعَظَّم .

(ك) الكامِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : الْمَلكُ الكامِلُ الشَّهيدُ ناصِرُ الدِّينِ مُحمَّدُ ابنُ الْمَلكِ الْمُظَفَّرِ شِهَابِ الدِّينِ غَازِي ابنِ السُّلطانِ الْمَلكِ العادِلِ أبي بَكْر مُحمَّد بنِ أيُّوب[1] .

تَملَّك ميَّافارقينَ وغَيرَها بعدَ أبيه سَنَةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ وستِّ مئة ، وكان شاباً ، عاقِلاً شُجاعاً ، مَهيباً مُحْسناً إلىٰ رَعيَّتِه ، مُجاهداً ، غَازياً ، دَيِّناً تَقيّاً ، حَميدَ الطَّريقَة ، حاصَرَه عَسكَرُ هُولاكُو نَحْواً من عِشرينَ شَهراً حتىٰ فَنِيَ النَّاسُ جُوعاً ووَباءً ، حتىٰ لَمْ يَبْقَ بالبَلَدِ سِوَىٰ سَبعينَ رَجُلاً فيما قِيلَ ، فحَدَّثني الشَّيْخُ مَحْمودُ بنُ عبدَ الكَريمِ الفارِقيُّ قالَ : سارَ الكَامِلُ إلىٰ قِلاعٍ بنَواحي آمِد فأخَذَها ، ثم نَقلَ إليها أهْلَه ، وكان أبي في خِدمَتِه ، فرَحلَ بنا إلىٰ قَلعَةٍ منها ، فعبَرَت التَّتارُ عَلينا ، فاسْتَنزَلُوا أهْلَ الْمَلكِ الكامِلِ بالأمَانِ من قَلعَةٍ أُخرىٰ ، وَرَدُوا بهم عَلينا ، وأنا صَبيٌّ مُمَيِّزٌ ، وحاصَروا ميّافارقينَ أشْهُراً ، فنزلَ عَليهم الثَّلجُ ، وهَلكَ بَعضُهم ، وكانَ الكامِلُ يَبرُزُ إليهم ويُقاتِلُهم ، ويُنْكي فيهم فهابُوهُ ، ثم بَنَوا عَليهم سُوراً بإزاءِ البَلَد ، بأبْرجَة ، ونَفدَت الأقْواتُ ، حتىٰ كانَ الرَّجُلُ يَموتُ فيُؤكَل ، ووَقعَ فيهم الْموتُ ، وفتَرَ عنهم التَّتارُ وصَابَروهم ، فخَرجَ إليهم غُلامٌ أو أكْثَر وجَلَوْا للتَّتارِ أمْرَ البَلدِ ، فما صَدَّقوا ، ثم قَرُبوا من السُّورِ وبَقوا أيَّاماً لا يَجْسرُونَ على الهُجومِ ، فدَلَّىٰ إليهم مَمْلُوكٌ للكامِلِ حِبالاً فطَلَعُوا إلى السُّورِ فبَقوا أُسْبوعاً لا يَجسُرون ، وبَقي بالبَلدِ نَحْو التِّسْعينَ بعدَ ألُوفٍ من النَّاسِ ، فدَخَلت التَّتارُ دارَ الكامِلِ وأمَّنوه ، وأتَوْا به هُولاكُو بالرُّها فإذا هو يَشْرَبُ الخَمْرَ ، فناوَلَ الكامِلَ كَأساً فأبَىٰ ، وقالَ : هـٰذا حَرامٌ ، فقالَ لامْرأتِه : ناوِليهِ أنتِ ، فناوَلَته فأبَىٰ ، وشَتمَ وبَصَقَ ـ فيما قِيلَ ـ في وَجْه هُولاكُو وكانَ الكامِلُ مِمَّنْ سارَ قَبلَ ذلك ورَأى القانَ الكَبيرَ ، وفي اصْطِلاحِهم مَنْ رَأىٰ وَجْهَ القانِ لا يُقْتَل ، فلمَّا وَاجَه هُولاكُو بهـٰذا اسْتَشاطَ غَضَباً وقتَلَه .

ثم قالَ : وكانَ الكامِلُ شَديدَ البَأسِ ، قَويَّ النَّفْسِ ، لَمْ يَنْقَهِر للتَّتارِ بحيثُ إنَّهم

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٣/ ٢٠١ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٠ .

أخَذُوا أوْلادَه من حِصْنِهم ، وأتَوه بهم إلىٰ تَحتِ سُورِ ميّافارقينَ ، وكلَّموهُ أنْ يُسلِّمَ البَلَدَ بالأمَانِ فقالَ : ما لَكُم عندي إلاَّ السَّيفَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : طِيفَ برأسِه بدِمَشْقَ بالطُّبولِ ، وعُلِّقَ علىٰ بابِ الفَراديسِ ، فلَمَّا انْقَلَعوا ، وجاءَ الْمُظَفَّرُ دُفِنَ الرَّأسُ وكانَ في سَنةِ ستٍّ وخَمسينَ وستٍّ مئة قَدِمَ دِمَشْقَ مُسْتَنجداً بالنَّاصِرِ فبالَغَ في إكْرامِه واحْترامِه ، ووَعَدَه بالإنْجادِ ، ورَجَعَ إلىٰ ميّافارقينَ وقُتلَ في سَنةِ ثَمانٍ وخَمسينَ وستٍّ مئة رَحمَه الله[1] .

* * *

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٣/ ٢٠١-٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٠ .

(٢٢) دَوْلَةُ خُوارِزْم شَاه

١ـ أَخْبَارُها :

خُوارِزْم شاه (علاء الدين) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ عَلاءُ الدِّينِ خُوارِزْم شَاه مُحمَّدُ ابنُ السُّلطانُ خُوارِزْم شَاه إيل رَسلان خُوارِزْم شاه أتسِز الخُوارِزْميُّ[١] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : أبادَ مُلوكاً ، واسْتولَىٰ علىٰ عِدَّة أقاليم ، وخَضعَت له الرِّقابُ وقد حارَبَ الخطَا غيرَ مرَّة ، فانْهَزَم جَيشُه في نَوْبَة وثبَتَ هو ، فأُسِرَ هو وأميرٌ ، أسَرَهما خَطائيٌّ ، فصيَّر نَفسَه مَمْلوكاً لذلك الأميرِ ، وبَقيَ يَقِفُ في خِدمَتِه ، فقالَ الأميرُ للخَطَائيِّ : ابْعَثْ رَسُولَك مع غُلامي هـٰذا إلىٰ أهْلي ليُرْسِلوا مَالاً في فِكاكي ، ففَعلَ وتَمَّت الحِيلَةُ ، وعادَ خُوارِزْم شَاه إلىٰ مُلكِه .

قالَ عِزُّ الدِّينِ عَليُّ ابنُ الأثير : كانَ صَبوراً على التَّعبِ وإدْمانِ السَّيْرِ غيرَ مُتنعِّمٍ ولا مُتلَذِّذٍ إنَّما نِهْمتُه الْمُلكُ وكانَ فاضِلاً ، عَالِماً بالفِقْه والأصُولِ ، مُكْرِماً للْعلمَاء يُحبُّ مُناظَرَتهم ، ويَتبرَّك بأهْلِ الدِّين ، قالَ لي خادِمُ الحُجْرَة النَّبويَّة : أتيتُه فاعْتَنَقني ، ومَشَىٰ لي وقالَ : أنْتَ تَخدِمُ حُجرَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ؟ قُلتُ : نَعم ، فأخَذَ يَديَّ وأمَرَّها علىٰ وَجْهِه ، وأعْطاني جُملةً .

كانت بلادُ ما وَراءَ النَّهْر في طاعَةِ الخَطَا ، ومُلوك بُخارَىٰ وسَمَرْقَنْد يُؤدُّون الأتَاوَةَ إلى الخَطَا ، وكانت هـٰذه الأُمَمُ سَداً بينَ تُرْكِ الصِّينِ وبَينَنا ففتَحَ هـٰذا السدَّ الوَثيقَ وظَنَّ أنَّه لَمْ يَبْقَ مَنْ يُقاوِمُه ، فانْتَقلَ إلىٰ كِرْمانَ ثم العِراقِ ، ثم أذْرَبيجانَ ، وطَمعَ في الشَّامِ ومِصْرَ ، وكان عَليه سَهْلاً لَوْ قَدِرَ باتَ صاحبُ حلبَ لَيلَه مَهْموماً لِما اتَّصلَ به من أخْبار هـٰذا وطَمَعِه في الشَّامِ ، وقِيلَ عنه : إنَّه يَبْقَىٰ أرْبَعةَ أيَّام علىٰ ظَهْرِ فَرَسِه لا يَنزِلُ إنَّما

---

(١) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ١٣٩ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٧ .

يَنتقِلُ من فَرسٍ إلىٰ فَرسٍ ويَطْوي البلادَ ويَهجِمُ المدينَةَ في نفرٍ يَسيرٍ ثم يُصَبِّحُه من عَسْكره عَشرةُ آلاف ويُمَسِّيه عِشْرونَ ألفاً قَتلَ عِدَّةَ مُلوكٍ وإنَّما أخْذُه البلادَ بالرُّعْبِ والهَيْبَة وبعدَ مَوتِ الظَّاهِر غازي جاءَ رَسُولُه إلىٰ حَلبَ ، فقالَ : سُلطانُ السَّلاطينِ يُسلِّمُ عَليكم ويَعْتِبُ إذْ لَمْ تُهَنِّئوهُ بفَتْحِ العِراقِ وأذْرَبيجانَ ، وإنَّ عَددَ جَيشِه سَبعُ مئة ألفٍ ، ثم تَوجَّه رَسُولُه إلى العادِلِ بدِمَشْقَ يَقولُ : تَعالَ إلى الخِدْمَة فقد ارْتَضَيْناكَ أنْ تكونَ مُقدَّمَ الركاب! ، فبَقيَ النَّاسُ يَهْزَؤون منه وسَمِعنا أنَّه جَعلَ صاحِبَ الرُّوم أميرَ عَلَم له والخَليفَةَ خَطيباً! ، وأمَّا المُلوكُ الذين كانوا في خِدمَته فكان يُذِلُّهم ويُهينُهم ، وجَعلَهم يَضْربُونَ له طُبولَ الذَّهَب ولَمَّا أباد أُمَّتَي الخَطَا والتَّتَر وهُم أصْحابُ تُرْكِسْتانَ وجَنْدَ وتَنْكُت ظَهرَت أُمَّةٌ يُسَمَّونَ التَّتَر أيضاً ، وهم صِنْفانِ وطَمِعوا في البلادِ فجَمعَ وعَزمَ علىٰ لِقائِهم فوَقَعَ جِنْكيزخان رأسُ الطمغاجية علىٰ كَمينِه فطَحَنُوه ، وانْهَزمَ جَلالُ الدِّينِ ابنه إليه ، وخُيِّلَ إليه تَعِسُ الجَدِّ[1] أن في أُمَرائه مُخامِرين فمَسَّكهم وضَربَ مع التَّتارِ مَصافاً بعدَ آخَر فتَطَحْطَحَ ، ورُدَّ إلىٰ بُخارَىٰ مُنْهَزِماً ثم جاءَ من بُخارَىٰ ليَجْمعَ العَساكِرَ بنيسابُورَ فأخَذَت التَّتارُ بُخارَىٰ وهَجَموا خُراسان ففَرَّ ، فما وَصَلَ إلى الرَّيِّ إلاَّ وطلائعُهم علىٰ رأسِه ، فانْهزَمَ إلىٰ قَلعَة بَرَجِيْن ، ومعه ثلاثُ مئة فارسٍ عُراةً مَضَّهم الجُوعُ فاسْتَطْعَموا من أكْرادٍ فلَمْ يَحتَفلوا بهم ، ثم أعْطُوهُم شَاتَين وقَصْعَتي لَبن ، ثم رَجعَ إلىٰ نَهاوَنْدَ ، ثم إلىٰ مازندران وقَعْقَعَةُ سِلاحِهم قد مَلأت سَمعَه وبَصرَه ، فنَزلَ ببُحَيرَة هناك فانْسَهَلَ وطلَبَ دَواءً فأعْوَزَه الخُبزُ وماتَ .

وقيلَ : كانَ عِدَّةُ جَيشِه في الدِّيوان ثَلاثَ مئة ألفِ فارسٍ ، وقيلَ : إنَّه اسْتولىٰ علىٰ نَحْو أرْبَع مئة مَدينَة ، وكانت أُمُّه تُركان في عَظمَةٍ ما سُمِعَ قَطُّ بمِثْلِها ، وفي جَبَروت ، فأسَرَها جنكيزخان ، وذَاقَت ذُلاًّ وجُوعاً .

ماتَ في الجَزيرَة سَنة سَبعَ عَشرَةَ وسِتِّ مئة وكُفِّنَ في عَمامَةٍ لفَرَّاشِه[2] .

---

(١) أي : سيِّء الحظ .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ١٣٩ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٧ .

خُوارِزْم شاه (جلال الدين) :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمتِه : السُّلطانُ الكَبيرُ جَلالُ الدِّين منكوبري ابنُ السُّلطانِ الكَبير عَلاءِ الدِّين مُحمَّد ابنِ السُّلطانِ خُوارِزْم شاه تكُش .

تَملَّك البلادَ ، ودَانَت له الأُمَمُ ، وجَرَت له عَجائبُ ، ولَمَّا دَهمَت التَّتارُ البلادَ الْمَاوَراء النَّهْريَّة بادَرَ والدُه عَلاءُ الدِّين وجَعلَ جَالِيشَه[1] ولدَه جَلالَ الدِّين في خَمسَة عَشرَ ألفاً ، فتوغَّل في البلادِ وأحاطَت به الْمَغُولُ فالْتَقاهم ، فانْكَسرَ ، وتَخلَّصَ بعد الْجَهْد ، وتَوصَّلَ وأمَّا أبُوهُ فما زالَ مُتَقَهْقِراً بين يَدَي العَدوِّ حتىٰ ماتَ غَريباً سَنَةَ سَبعَ عَشرَةَ وسِتِّ مئة في جَزيرَةٍ من البَحْر[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكان عَسكَرُه أَوْباشاً فيهم شَرٌّ وفِسْقٌ وعُتُوٌّ[3] .

وقال الموفق : الزِّنَا فيهم فاشٍ ، واللِّوَاطُ غَيرُ مَعْذُوقٍ بكِبَرٍ ولا صِغَر[4] ، والغَدرُ خُلُقٌ لهم ، أخذوا تفليس بالأمان ، ثم غدروا وقتلوا وسَبَوا[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان يُضرَبُ بهم المَثَل في النَّهْب والقَتْل ، وعَملوا كُلَّ قَبيح ، وهم جِياعٌ مُجَمَّعَة ، ضِعافُ العَددِ والخَيلِ الْتَقىٰ جَلالُ الدِّين التَّتارَ ، فهَزَمَهم وهَلكَ مقدمُهم ابنُ جنْكيزخان ، ثم خَرجَ له كَمينٌ فتَفَلَّلَ جَمعُ جَلالِ الدِّين وفَرَّ إلىٰ ناحيَة غَزْنَة في حالٍ واهية ، ومعه أرْبَعةُ آلافٍ في غايَة الضَّعْف فتوجَّه نحو كِرْمَانَ فأحْسَنَ إليه مَلكُها ، فلمَّا تَقَوّىٰ غَدرَ به وقتلَه ، وسار إلىٰ شِيرازَ وعَسْكَرُه علىٰ بَقَر وحَمير ومُشاة ففَرَّ منه صاحبُها ، وجَرَت له أمُور يَطولُ شَرْحُها ما بَينَ ارْتقاءٍ وانْخِفاضٍ ، وهابَتْهُ التَّتارُ ، ولَوْلاه لدَاسُوا الدُّنْيا ، وقد ذَهبَ إليه مُحْيي الدِّين ابنُ الجَوْزي رَسُولاً فوَجدَه

---

(١) كلمة فارسية يريد بها : مقدم الجيش .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٤ .

(٣) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٤ .

(٤) أصل العبارة في تاريخ الإسلام : « واللِّواط ليس بقبيح ولا معذوقاً بشَرط الكِبَر والصِّغَر » ، فمعذوق هنا معناه : مُعلّق ، أخذه من العِذْق ، وهو عِذْق النخلة ويشمل العرجون بما فيه من الشماريخ .

(٥) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٤ .

يَقرأُ في مُصْحَفٍ ويَبْكي ، ثم اعْتذَرَ عَمَّا يَفْعلُه جُندُه بكَثرَتِهم ، وعَدمِ طاعَتِهم ، وقد تَقاذَفَت به البلادُ إلى الهِنْدِ ثم إلىٰ كِرْمانَ ثم إلىٰ أعْمالِ العِراقِ[١] .

وساقَ إلىٰ أذْرَبيجانَ فاسْتولَىٰ علىٰ كَثيرٍ منها ، وغَدرَ بأتابك أُزبك ، وأخْرجَه من بلادِه ، وأخَذَ زَوجَه ابنَة السُّلطانِ طُغرل ، فتَزوَّجَها ثم عَملَ مصافّاً مع الكَرْج فطَحَنَهم ، وقَتَلَ مُلوكَهم ، وقَويَ مُلكُه ، وكَثُرت جُموعُه ، ثم في الآخِرِ تَلاشَىٰ أمرُه لَمَّا كَسَرَه الْمَلكُ الأشْرَفُ مُوسَىٰ وصاحبُ الرُّوم بناحيَة أرْمينيَة ، ثم كَبَسَتْه التَّتارُ لَيلةً ، فنَجا في نَحوٍ من مئة فارس ثم تَفرَّقوا عنه إلىٰ أنْ بَقيَ وَحدَه ، فألَحَّ في طلبه خَمسةَ عَشرَ من التَّتارِ فثَبَتَ لهم وقَتَلَ اثنين فأحْجَمُوا عنه ، وصَعدَ في جَبَل بناحيَة آمَد يَنزلُه أكْرادٌ فأجارَه كَبيرٌ منهم ، وعَرَفَ أنَّه السُّلطانُ ، فوَعدَه بكل خَيرٍ ، ففَرَح الكُرْدِيُّ ، وذَهبَ ليُحْضِرَ خَيلاً له ويُعلِمَ بَني عَمِّه ، وتَركَه عندَ أُمِّه ، فجاءَ كُرْديٌّ فيه جُرأةٌ فقال : ليش[٢] تخلُّوا هـٰذا الخُوارِزْميَّ عندَكم ؟ قيل : اسْكُت هـٰذا هو السُّلطانُ ، فقالَ : لأقْتُلَنَّه فقد قَتلَ أخي بخِلاطَ ، ثم شَدَّ عليه بحَرْبَة ، قَتلَه في الحالِ في سَنةِ ثَمانٍ وعَشْرينَ وستِّ مئة[٣] .

٢ـ جُيوشُ جَلالِ الدِّين خُوارِزْم شاه يَكثُر فيها الفِسْقُ والزِّنَا واللِّواط :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكان عَسكَرُه أوْباشاً فيهم شَرٌّ وفِسْقٌ وعُتُوٌّ[٤] .

وقال الموفق : الزِّنَا فيهم فاشٍ ، واللِّوَاطُ غَيرُ مَعْذُوقٍ بكِبَرٍ ولا صِغَر[٥] ، والغَدرُ خُلُقٌ لهم ، أخذوا تفليس بالأمان ، ثم غدروا وقتلوا وسَبَوا[٦] .

---

(١) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٤/٤ .

(٢) لفظة عامية معناها لأي شيء .

(٣) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٥/١ .

(٤) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٤/٢ .

(٥) أصل العبارة في تاريخ الإسلام : « واللِّواط ليس بقبيح ولا معذوقاً بشرط الكِبَر والصِّغَر » ، فمعذوق هنا معناه : مُعلَّق ، أخذه من العِذْق ، وهو عِذْق النخلة ويشمل العرجون بما فيه من الشماريخ .

(٦) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١٦٩٤/٣ .

٣ـ كانَ الغَدْرُ طَبيعَةً له ولجَيْشِه :

وقال الموفق : الزِّنَا فيهم فاشٍ ، واللِّوَاطُ غيرُ مَعْذُوقٍ بكِبَرٍ ولا صِغَر[١] ، والغَدرُ خُلُقٌ لهم ، أخذوا تفليس بالأمان ، ثم غدروا وقتلوا وسَبَوا[٢] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كان يُضرَبُ بهم المَثَل في النَّهْب والقَتْل ، وعَملوا كُلَّ قَبيح ، وهم جِياعٌ مُجَمَّعَة ، ضِعافُ العَددِ والخَيلِ الْتقىٰ جَلالُ الدِّين التَّتارَ ، فهَزَمَهم وهَلَكَ مقدمُهم ابنُ جنْكيزخان ، ثم خَرجَ له كَمينٌ فتَفَلَّلَ جَمعُ جَلالِ الدِّين وفَرَّ إلىٰ ناحيَة غَزْنَة في حالٍ واهية ، ومعه أرْبَعةُ آلافٍ في غايَة الضَّعْف فتوجَّه نحو كِرْمَانَ فأحْسَنَ إليه مَلكُها ، فلمَّا تَقَوَّىٰ غدرَ به وقتلَه ، وسار إلىٰ شِيرازَ وعَسْكَرُه علىٰ بَقَر وحَمير ومُشاة ففَرَّ منه صاحبُها ، وجَرَت له أمُور يَطولُ شَرْحُها ما بَينَ ارْتقاءٍ وانْخِفاضٍ ، وهابَتْهُ التَّتارُ ، ولَوْلاه لدَاسُوا الدُّنْيا ، وقد ذَهبَ إليه مُحْيي الدِّين ابنُ الجَوْزي رَسُولاً فوَجدَه يَقْرأُ في مُصْحَفٍ ويَبْكي ، ثم اعْتذَرَ عَمَّا يَفْعلُه جُندُه بكَثرَتِهم ، وعَدمِ طاعَتِهم ، وقد تَقاذَفَت به البلادُ إلى الهِنْدِ ثم إلىٰ كِرْمانَ ثم إلىٰ أعْمالِ العِراقِ[٣] .

وساقَ إلىٰ أذْربيجانَ فاسْتولَىٰ علىٰ كَثيرٍ منها ، وغَدرَ بأتابِك أُزبك ، وأخْرجَه من بلادِه ، وأخَذَ زَوجَه ابنَةَ السُّلطانِ طُغرل ، فتَزوَّجَها ثم عَملَ مصافّاً مع الكَرْج فطَحَنَهم ، وقَتَلَ مُلوكَهم ، وقَويَ مُلكُه ، وكَثُرت جُموعُه ، ثم في الآخِر تَلاشَىٰ أمرُه لَمَّا كَسَرَه المَلكُ الأشْرَفُ مُوسَىٰ وصاحبُ الرُّوم بناحيَة أرْمينيَة ، ثم كَبَسَتْه التَّتارُ لَيلةً ، فنَجا في نَحوٍ من مئة فارس ثم تَفرَّقوا عنه إلىٰ أنْ بَقيَ وَحدَه ، فألَحَّ في طلبه خَمسةَ عَشرَ من التَّتارِ فثَبَتَ لهم وقَتلَ اثنَين فأحْجَمُوا عنه ، وصَعدَ في جَبَل بناحيَة آمَد يَنزلُه أكْرادٌ فأجارَه كَبيرٌ منهم ، وعَرَفَ أنَّه السُّلطانُ ، فوَعدَه بكل خَيرٍ ، ففَرِح الكُرْدِيُّ ، وذَهبَ

---

(١) أصل العبارة في تاريخ الإسلام : « واللِّواط ليس بقبيح ولا معذوقاً بشرط الكِبَر والصِّغَر » ، فمعذوق هنا معناه : مُعلَّق ، أخذه من العِذْق ، وهو عِذْق النخلة ويشمل العرجون بما فيه من الشماريخ .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٤ .

(٣) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٩٤ .

ليُحْضِرَ خَيلاً له ويُعلِمَ بَني عَمِّه ، وتَركَه عندَ أُمِّه ، فجاءَ كُرْديٌّ فيه جُرأةٌ فقال : ليش[1] تخلُّوا هـٰذا الخُوارِزْميَّ عندَكم ؟ قيل : اسْكُت هـٰذا هو السُّلطانُ ، فقالَ : لأقْتُلَنَّه فقد قَتلَ أخي بخِلاطَ ، ثم شَدَّ عليه بحَرْبَة ، قَتلَه في الحالِ في سَنةِ ثَمانٍ وعَشْرينَ وسِتِّ مئة[2] .

* * *

---

(١) لفظة عامية معناها لأي شيء .

(٢) انظر السير : (خُوارزْم شاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٥ .

(٢٣) التَّتَار

١ـ أخْبارُهُم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ النَّاصِرِ لدينِ الله : في سنة ستٍّ وستِّ مئة أوَّلُ ما سُمعَ بذِكرِ التَّتارِ ، فخَرجُوا من أراضِيهم بادِيَةِ الصِّين ، وَراءَ بلادِ تُرْكِسْتانَ ، فحَارَبوا الخَطَا مرَّاتٍ وقَوُوا بكَسْرَةِ خُوارِزْم شاه للخَطا ، وعاثُوا ، وكان رَأْسُهم يُدْعَىٰ كشلُوخان .

ثم خَرجَ علىٰ كشلُوخان الطاغيَةُ جنْكيزخان ، فتَحارَبوا مُدَّة ، وظَفَرَ جنْكيزخان ، وطَغَىٰ وتَمرَّدَ ، وأبادَ البلادَ والعِبادَ ، وأخَذَ أقاليمَ الخَطَا وجَعلَ خانَ بالق دارَ مُلْكِه ، وأفْنَى الأُممَ بإقليمِ التُّرْك وما وَراءَ النَّهْر وخُراسانَ ، وهَزمَ الجُيوشَ ، وما جَرىَ له فسيرَةٌ مُفْردَةٌ ، وقد جوَّدَ وَصفَهم الْمُوفَّقُ البَغْداديُّ ، فقالَ[1] :

حَديثُهم حَديثٌ يأكُلُ الأحاديثَ ، وخَبرٌ يُنسِي التَّواريخَ ، ونازِلَةٌ تُطبقُ الأرضَ ، هـٰذه أُمَّةٌ لُغَتُها مَشوبَةٌ بلُغَة الهِنْد لِمُجاوَرَتِهم ، عِرَاضُ الوُجُوه واسِعُوا الصُّدورِ ، خِفافُ الأعْجازِ ، وصِغَارُ الأطْرافِ ، سُمْرٌ ، سَريعوا الحَركَة ، وقلَّما يَقدِرُ جاسُوسٌ أنْ يَتمكَّنَ منهم ، لأنَّ الغَريبَ لا يُشْبِهُهم ، وإذا أرادوا وِجْهَةً كَتَموا أمْرَهم ونَهَضُوا دَفْعةً ، فتَنْسَدُّ لهـٰذا على النَّاسِ وُجوهُ الحِيَل ، وتَضيقُ طُرُقُ الهَرَبْ ، ويَسبقون التَّأهُّب ، نِساؤُهم يُقاتِلْنَ ، يَقتُلُونَ النِّساءَ والوِلْدانَ بغَيرِ اسْتثناءٍ ، ورُبَّما أبْقُوا ذَا صَنعَةٍ أو ذَا قُوَّة ، وغالِبُ سِلاحِهم النُّشَّاب ويَطعَنون بالسُّيوفِ أكثرَ ممَّا يَضربون بها ، وخَيْلُهُم تأكُلُ الكَلأ وما تَجدُ من وَرَقٍ وخَشَبٍ ، وسُروجُهم صِغارٌ ليسَ لها قيمة ، وأكْلُهم أيُّ حَيوان وُجد وتَمسُّه النَّارُ تَحِلَّةَ القَسَم ، ليسَ في قَتلِهم اسْتثناءٌ ، كان قَصْدَهم إفْناءُ النَّوْع ، ما سَلِمَ منهم إلاَّ غَزْنَةُ وأصْبَهانَ .

---

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٩ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ثم اسْتباحوا أصْبَهانَ سَنَةَ اثنتَينِ وثَلاثينَ وسِتِّ مئة[1] .

وفي سنة سَبعَةَ عَشرَ وسَتِّ مئة أخذت التَّتارُ بُخارَىٰ وسَمَرْقَنْدَ بالسَّيفِ ، وعَدُّوا جيحُونَ ، قال ابنُ الأثير : لَوْ قِيلَ : إنَّ العَالَمَ منذ خُلقَ إلى الآنَ لَمْ يُبْتَلوا بمثلِ كائنة التَّتارِ لكانَ صادِقاً ، فإنَّ التَّواريخَ لَمْ تَتضمَّنْ ما يُقارِبُها ، قَومٌ خَرجُوا من أطْرافِ الصِّينِ فقَصَدوا بلادَ تُرْكِسْتانَ ، ثم إلىٰ بُخارَىٰ وسَمَرْقَنْدَ فتملَّكوها ، ثم تَعبُرُ طائفةٌ منهم إلىٰ خُراسانَ فيَفْرَغُونَ منها تَخْريباً وقَتلاً إلى الرَّيِّ وهَمَذانَ ، ثم يَقصِدُون أذَرْبيجانَ ونَواحيها ويَسْتَبيحونها في أقلَّ من سَنَة ، أمْرٌ لَمْ نَسْمَع بمثلِه ، ثم سارُوا إلىٰ دَرْبَند شروينَ ، فمَلكوا مُدُنَه ، وعَبروا إلىٰ بلادِ اللانِ واللَّكزِ قَتلاً وأسْراً ، ثم قَصَدوا بلادَ قَفْجاقَ فقَتلوا مَنْ وَقفَ وهَربَ مَنْ بَقيَ إلى الشعراءِ والجبالِ ، واسْتوْلَت التَّتارُ علىٰ بلادِهم ، ومَضت فرقَةٌ أخْرَىٰ إلىٰ غَزْنة وسِجِسْتان وكِرْمانَ ، ففَعلوا كذلك وأشَدَّ هـٰذا ما لَمْ يَطْرُق الأسْماعَ مثلُه ، فإنَّ الإسْكَندَرَ ما مَلكَ الدُّنيا بهـٰذه السُّرعَة ، بل في نَحْو عَشرِ سنينَ ولمْ يَقتُلْ أحَداً[2] .

وفي سنة أرْبَع وخَمسينَ وسِتِّ مئة سارَ الطاغيةُ هُولاكُو بنُ تولي ابنِ جنْكيزخان في مئة ألف ، وافْتَتحَ حِصْنَ الألَموتَ ، وأبادَ الإسْماعيليَّةَ ، وبَعثَ جَيشاً عليهم باجونَوينَ ، فأخَذوا مَدائنَ الرُّومِ ، وذَلَّ لهم صاحبُها ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ وفيها كانَ حَريقُ مَسْجِدِ النبي صلى الله عليه وسلم جَميعُه في أوَّلِ رَمضانَ من مِسْرَجَة القَيِّم ، فللَّه الأمرُ كُلُّه .

وفي سَنة خَمسٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة : ماتَ صاحِبُ مِصْرَ الْمَلكُ الْمُعِزُّ أَيْبَك التُّرْكُمانيُّ ، قَتلَته زَوجَتُه شَجَرَةُ الدُّرِّ في الغِيرَة ، فوُسِّطَت[3] .

٢ـ وَصْفٌ لهم ولأَحْوالِهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَليفَةِ العَبَّاسي النَّاصِر لدينِ الله : قال المُوَفَّقُ البَغْداديُّ : حَديثُهم حَديثٌ يأكُلُ الأحاديثَ ، وخَبرٌ يُنسِي التَّواريخَ ، ونازِلَةٌ تُطبقُ

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٩ .

(٢) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٨٩ .

(٣) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٤ .

الأرضَ ، هـٰذه أُمَّةٌ لُغَتُها مَشوبَةٌ بلُغَة الهِنْد لِمُجاوَرَتِهم ، عِرَاضُ الوُجُوه واسِعُوا الصُّدورِ ، خِفافُ الأعْجَازِ ، وصِغَارُ الأطْرافِ ، سُمْرٌ ، سَريعوا الحَرَكَة ، وقلَّما يَقدِرُ جاسُوسٌ أنْ يَتمكَّنَ منهم ، لأنَّ الغَريبَ لا يُشْبِهُهم ، وإذا أرادوا وِجْهَةً كَتَموا أمْرَهم ونَهَضُوا دَفْعةً ، فتَنْسَدُّ لهـٰذا على النَّاسِ وُجوهُ الحِيَلِ ، وتَضيقُ طُرُقُ الهَرَبْ ، ويَسبقون التَّأهُّب ، نِساؤُهم يُقاتِلْنَ ، يَقتُلُونَ النِّساءَ والوِلْدانَ بغَيرِ اسْتثناءٍ ، ورُبَّما أبْقَوا ذَا صَنعَةٍ أو ذَا قُوَّة ، وغالِبُ سِلاحِهم النُّشَّاب ويَطعَنون بالسُّيوفِ أكثرَ ممَّا يَضربون بها ، وخَيْلُهُم تأكُلُ الكَلأ وما تَجدُ من وَرَقٍ وخَشَبٍ ، وسُروجُهم صِغارٌ ليسَ لها قيمة ، وأكْلُهم أيُّ حَيوان وُجد وتَمسُّه النَّارُ تَحِلَّةَ القَسَم ، ليسَ في قَتلِهم اسْتثناءٌ ، كان قَصْدَهم إفْناءُ النَّوْع ، ما سَلِمَ منهم إلاَّ غَزْنَةُ وأصْبَهانَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : ثم اسْتباحوا أصْبَهانَ سَنةَ اثنتَينِ وثَلاثينَ وستِّ مئة[1] .

وقال : خَيلُهم لا تَعرفُ الشَّعيرَ ، إنَّما تَحْفرُ بحَوافِرِها وتأكلُ عُروقَ النَّبات ، وهم يَسجُدونَ للشَّمْسِ ، ولا يُحَرِّمونَ شَيئاً ، ويَأكُلونَ الحَيواناتِ ، ولا يَعرفُونَ زَواجاً ، وهم صنفٌ من التُّرْك .

وأمَّا الخَليفَةُ فإنَّه جَمعَ الجُموعَ وجَيَّشَ الجُيوشَ ، وحَشرَ فنادَىٰ ، وأتَتْهُ البُعوثُ من كل حَدَبٍ يَنْسِلون ، ولمَّا جاءَ رَسولُ التَّتار احتفلَ الجَيشُ وبالَغوا ، حتى امتلأَ قَلْبُه رُعْباً ، ودِماغُه خَيالاً ، فرَجَعَ مُخَبِّراً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هـٰذا كلُّه وجَيشُ مِصْرَ والشَّامِ في مُصابَرَة الفِرَنْج بدِمْياطَ والأمْرُ شَديدٌ .

وفي سَنةِ اثنَتَين وعِشرينَ وستِّ مئة تُوفِّيَ أميرُ المؤمنينَ ، فبُويعَ ابنُه الظَّاهِرُ أبو نَصْر مُحمَّدُ كَهْلاً ، فكانت دَولَةُ النَّاصِرِ سَبْعاً وأرْبعينَ سَنةً[2] .

---

(١) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٩ .
(٢) انظر السير : (النَّاصِرُ لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٠ .

٣ـ مُصَانَعةُ بَعض مُلُوك المُسْلمين لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ السُّلْطان بَدْرِ الدِّين أبي الفَضائلِ لُؤلُؤ الأرْمَنيِّ النُّوريِّ الأتَابكيِّ : قيلَ : إنَّه سارَ إلىٰ خِدمَةِ هُولاكُو ، وتَلطَّفَ به وقدَّمَ تُحَفاً جَليلة ، منها جَوْهَرةٌ يَتيمَةٌ ، وطَلبَ أنْ يَضعَها في أُذُنِ هُولاكُو فاتَّكأ ففرَكَ أُذُنَه ، وأدْخَلَ الحَلقةَ في أُذُنِه ثم رَجعَ إلىٰ بلادِه مُتوليِّاً من قبلِه ، وقرَّر عليه مالاً يَحملُه ، ثم ماتَ بالْمُوصِلِ سَنَةَ سَبعٍ وخَمسينَ وستِّ مئة .

فلمَّا ماتَ تَملَّك وَلدُه الْمَلكُ الصَّالحُ إسْماعيلُ وتَزوَّجَ بابنَةِ هُولاكُو فأغْضَبَها وأغارَها ، ونازَلَت التَّتارُ الْمُوصِلَ ، واسْتمرَّ الحِصارُ عَشرَةَ أشْهُر ، ثم أُخِذَت ، وخَرجَ إليهم الصَّالحُ بالأمان فغَدَورا به ، واسْتباحوا الْمُوصِلَ ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون[1] .

٤ـ مِنْ أسْباب غَلَبَتِهم على العِراق :

(أ) خِيانَةُ الوَزيرِ ابنِ العَلْقَمي الرَّافِضِيِّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُسْتَعْصِمِ بالله : ثم إنَّه اسْتَوْزَرَ المُؤيّدَ ابنَ العَلْقَمي الرَّافضيَّ ، فأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وحَسَّنَ له جَمعَ الأمْوالِ ، وأنْ يَقْتَصِرَ علىٰ بَعضِ العَساكِر ، فقَطعَ أكْثرَهم ، وكانَ يَلعَبُ بالحَمَامِ ، وفيه حِرْصٌ وتَوَانٍ .

وفي سَنةِ أرْبَع وأرْبَعين وستِّ مئة : عاثَت الخُوارزميَّة وتَخرَّبَت القُرىٰ ، فالْتَقاهُم عَسْكَرُ حَلَب وحِمْصَ فكَسروا شَرَّ كَسْرَة علىٰ بُحَيْرة حِمْصَ ، وقُتلَ مُقَدِّمُهم بَرَكَة خان .

وفيها خِتانُ أحمَدَ وعبدِ الرَّحْمَـٰن وَلَدَي الخَليفَة وأخيه علي ، فمِن الوَليمَة ألْفٌ وخَمسُ مِئَة رَأسِ شِواء[2] ، وقَدِمَ رَسُولانِ من التَّتارِ أحَدُهما من بَركة ، والآخَرُ من بايجُو ، فاجْتَمَعوا بابنِ العَلْقَميِّ وتَعَمَّتِ الأخْبارُ .

---

(١) انظر السير : (المَلكُ الرَّحيم) ٢٣/٣٥٦ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٤٠ .

(٢) هـٰذا غَير ما أخرج من الخُبز ، والدجاج ، والبيض ، والسكر ، والحلوىٰ ، وغيرها .

وفيها أَخَذَتِ الفِرَنْجُ شاطِبَة[1] .

وجَرَت فَتنةٌ مَهولَة ببَغدادَ بينَ النَّاسِ وبينَ الرَّافِضَة ، وقُتلَ عِدّةٌ من الفَريقين ، وعَظُم البلاءُ ، ونُهِبَ الكَرْخُ ، فحَنقَ ابنُ العَلْقَميّ ، الوَزيرُ الرَّافِضيُّ ، وكَاتبَ هُولاكُو ، وطمَّعَه في العِراق ، فجاءَت رُسُلُ هُولاكُو إلىٰ بَغدادَ ، وفي الباطِنِ مَعهُم فَرَماناتٍ لغَيرِ واحدٍ ، والخَليفةُ لا يَدْري ما يَتمُّ ، وأيامُه قد وَلَّتْ ، وصاحبُ دِمَشْقَ شابٌّ غِرٌّ جَبانٌ ، فبَعثَ وَلدَه الطِّفلَ مع الحافظيِّ بتقادم وُتَحَف إلىٰ هُولاكُو فخَضَعَ له ، ومِصْرُ في اضْطِرابٍ بعدَ قَتْلِ المُعزِّ ، وصاحبُ الرُّومِ قد هَربَ إلىٰ بلاد الأشْكُري ، فتمرَّدَ هُولاكُو وتَجبَّر ، واسْتولَىٰ على المَمالك وعاثَ جُنْدُه الكَفَرَةُ يَقْتلُون ويَأسِرُون ويَحْرِقُون .

ودخلت سنةُ سِتٍّ وسِتِّينَ وسِتِّ مئة فسَارَ عَسْكَرُ النَّاصِرِ ، وعَليهم المُغيثُ ابنُ صاحبِ الكَرْك ، ليأخُذوا مِصْرَ فالتَقاهُم المُظفَّرُ قُطُز ، وهو نائبٌ للمَنصور عليٍّ وَلدِ المُعزِّ ، بالرَّمْلِ فكَسَرَهم ، وأسَرَ جَماعَةَ أُمَراء فضَرَبَ أعْناقَهم[2] .

وأمَّا هُولاكُو فقَصَدَ بَغْدادَ فخَرجَ عَسْكرُها إليه فانْكَسَروا ، وكاتبَ لُؤلُؤَ صاحبَ المُوصِلِ وابنَ صَلايا مُتولِّي إرْبلْ الخَليفَةَ سِراً يَنْصَحانِه فما أفادَ ، وقُضيَ الأمْرُ وأقْبلَ هُولاكُو في المَغُولِ والتُّرْكِ والكُرْجِ ، فأشارَ الوَزيرُ على الخَليفَةِ بالمُدارَاة وقال : أخْرُجُ إليه أنا ، فخَرجَ واسْتَوْثَقَ لنَفْسِه ورُدَّ فقالَ : القانُ راغِبٌ في أنْ يُزوِّجَ بنتَه بابنِكَ أبي بَكْر ويُبْقِي لكَ مَنْصِبَك كما أبْقىٰ صاحِبَ الرُّومِ في مَمْلكَتِه من تَحتِ أوامِرِ القَانِ ، فاخْرُجْ إليه ، فخَرجَ في كُبَراء دَولَتِه للنِّكاحِ يَعني ، فضُرِبَ أعْناقُ الكُلِّ بهَـٰذه الخَديعَة ورُفِسَ المُسْتَعصِمُ حتىٰ تَلَفَ ، وبَقيَ السَّيفُ في بَغْدادَ بِضْعَة وثَلاثين يَوماً ، فأقَلُّ ما قِيلَ : قُتلَ بها ثَمانِ مِئة ألْف نَفْس ، وأكثرُ ما قِيلَ بَلغُوا ألْفَ ألْفٍ وثَمانِ مِئَة ألْفٍ ، وجَرت السُّيولُ من الدِّماء فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون .

ثم بعد ذَهابِ البَلدِ ومَنْ فيه إلاَّ اليَسير نُودِيَ بالأمَان ، وانْعكسَ على الوَزيرِ مُرامُه وذاق ذُلاً ووَيْلاً وما أمْهلَه الله .

---

(١) انظرد السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٢ .

(٢) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٤ .

وعَملَ ابنُ العَلْقَمِيِّ علىٰ تَرْك الجُمُعات وأنْ يَبنيَ مَدرسَةً علىٰ مَذْهَب الرَّافِضَة ، فما بَلغَ أمَلَه وأُقيمَت الجُمُعات[1] .

وكان قد مشىٰ حالُ الخَليفَة بأنْ يَكونَ للتَّتار نِصْفُ دَخْل العِراقِ ، فقالَ ابنُ العَلْقَمِيِّ : بلْ المَصْلحَةُ قَتلُه ، وإلاَّ فما يَتمُّ لكم مُلكُ العِراق[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وله[3] ذُرِّيَةٌ إلى اليوم بأذربيجانَ ، وانْقَطَعَتِ الإمامَةُ العَبَّاسيَّة ثَلاثَ سِنينَ وأشْهُراً بمَوْتِ المُسْتَعصِم ، فكانت دَولَتُهم من سَنةِ أثنتَين وثلاثين ومئة إلىٰ سَنة سِتٍّ وخَمسينَ وسِتِّ مئة فذلك خَمسُ مئة وأرْبعٌ وعِشْرونَ سَنةً ، ولله الأمْرُ[4] .

(ب) ضَعْفُ الخَليفَة المُسْتَعْصِم ولَهْوُه ولَعِبُه :

قال قُطبُ الدين اليُونيني : كان المُسْتَعصِمُ بالله مُتديِّناً مُتمَسِّكاً بالسُّنَّة كأبيه وجَدِّه ، ولكنَّه لَمْ يَكُنْ في حَزْمِ أبيه ، وتَيقُّظِه وعُلوِّ هِمَّتِه ، وإقْدامِه ، وإنَّما قَدَّموهُ علىٰ عَمِّهِ الخفاجيِّ لِمَا يَعلَمونَ من لِينِه وانْقيادِه وضَعْفِ رَأيه ليَسْتَبدُّوا بالأمُور[5] .

ثم إنَّه اسْتَوْزَرَ المُؤيّدَ ابنَ العَلْقَمي الرَّافضيَّ ، فأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وحَسَّنَ له جَمعَ الأمْوالِ ، وأنْ يَقْتَصِرَ علىٰ بَعضِ العَساكِر ، فقَطعَ أكْثرَهم ، وكانَ يَلعَبُ بالحَمَامِ ، وفيه حِرْصٌ وتَوَانٍ .

وفي سَنةِ أربَع وأرْبَعين وسِتِّ مئة : عاثَت الخُوارزميَّة وتَخرَّبَت القُرَىٰ ، فالْتَقاهُم عَسْكَرُ حَلَب وحِمْصَ فكُسِروا شَرَّ كَسْرَة علىٰ بُحَيْرة حِمْصَ ، وقُتلَ مُقَدِّمُهم بَرْكَة خان .

وفيها خِتانُ أحمَدَ وعبدِ الرَّحمَـٰن وَلَدَي الخَليفَة وأخيه علي ، فمِن الوَليمَة ألْفُ

---

(١) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٥ .

(٢) أعمَى الحقدُ والتعصُّب هـٰذا الخائن وقُتل النَّاسُ ودُمرَت بلاد الإسْلام بسبب حقْدِه وتعصُّبه واعتقادِه الفاسد .

(٣) أي للخَليفة المُستَعْصم .

(٤) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٥ .

(٥) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٢ .

وخَمسُ مِئَة رَأسِ شِواء[١] ، وقَدِمَ رَسُولانِ من التَّتارِ أَحَدُهما من بَركة ، والآخَرُ من بايجُو ، فاجْتَمَعوا بابنِ العَلْقَميِّ وتَعَمَّتِ الأخْبارُ .

وفيها أَخَذَتِ الفِرَنْجُ شاطِبَة[٢] .

(ج) تَسْريحُ أكثرِ جُنْدِ الخِلافَة بإشارَةِ ابنِ العَلْقَمي :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُستعصِمِ بالله : ثم إنَّه اسْتَوْزَرَ المُؤَيِّدَ ابنَ العَلْقَمي الرَّافضيَّ ، فأَهْلَكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وحَسَّنَ له جَمعَ الأَمْوالِ ، وأَنْ يَقْتَصِرَ علىٰ بَعضِ العَساكِر ، فقَطعَ أَكْثَرَهم ، وكانَ يَلعَبُ بالحَمَامِ ، وفيه حِرْصٌ وتَوَانٍ .

وفي سَنةِ أَرْبَع وأَرْبَعين وستِّ مئة : عاثَت الخُوارزميَّة وتَخرَّبَت القُرىٰ ، فالْتَقاهُم عَسْكَرُ حَلَب وحِمْصَ فكُسِروا شَرَّ كَسْرَة علىٰ بُحَيْرة حِمْصَ ، وقُتلَ مُقَدَّمُهم بَرْكَة خان .

وفيها خِتانُ أَحمَدَ وعبدِ الرَّحمَـٰنِ وَلدَي الخَليفَة وأخيه علي ، فمِن الوَليمَة أَلْفٌ وخَمسِ مِئَة رَأسِ شِواء[٣] ، وقَدِمَ رَسُولانِ من التَّتارِ أَحَدُهما من بَركة ، والآخَرُ من بايجُو ، فاجْتَمَعوا بابنِ العَلْقَميِّ وتَعَمَّتِ الأخْبارُ .

وفيها أَخَذَتِ الفِرَنْجُ شاطِبَة[٤] .

(د) اضْطِرابُ مِصْرَ والشَّام وعَدَمُ اجْتِماعِ الكلِمَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُستعصِمِ بالله : وجَرَت فَتنةٌ مَهولَة ببَغدادَ بينَ النَّاسِ وبينَ الرَّافِضَة ، وقُتلَ عِدّةٌ من الفَريقين ، وعَظُم البلاءُ ، ونُهِبَ الكَرْخُ ، فحَنقَ ابنُ العَلْقَميّ ، الوَزيرُ الرَّافِضيُّ ، وكَاتبَ هُولاكُو ، وطَمَّعَه في العِراق ، فجاءَت رُسُلُ هُولاكُو إلىٰ بَغدادَ ، وفي الباطِنِ مَعهُم فَرَمانات لغَيرِ واحِدٍ ،

---

(١) هـٰذا غَير ما أخرج من الخُبز ، والدجاج ، والبيض ، والسكر ، والحلوىٰ ، وغيرها .

(٢) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٢ .

(٣) هـٰذا غَير ما أخرج من الخُبز ، والدجاج ، والبيض ، والسكر ، والحلوىٰ ، وغيرها .

(٤) انظر السير : (المُسْتَعصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٢ .

والخَليفةُ لا يَدْري ما يَتمُّ ، وأيامُه قد وَلَّتْ ، وصاحبُ دِمَشْق شابٌّ غرٌّ جَبانٌ ، فبَعثَ وَلدَه الطِّفلَ مع الحافظيِّ بتقادم وُتَحف إلىٰ هُولاكُو فخَضَعَ له ، ومِصْرُ في اضْطِرابٍ بعدَ قَتْلِ المُعزِّ ، وصاحبُ الرُّوم قد هَربَ إلىٰ بلاد الأشْكُري ، فتمرَّدَ هُولاكُو وتَجبَّر ، واسْتولَىٰ على المَمالك وعاثَ جُندُه الكَفَرَةُ يَقْتلُون ويَأسِرُون ويَحْرِقُون .

ودخلت سنةُ ستٍّ فسَارَ عَسْكَرُ الناصر ، وعَليهم المُغيثُ ابنُ صاحبِ الكَرْك ، ليأخُذوا مِصْرَ فالتَقاهُم المُظفَّرُ قُطُز ، وهو نائبٌ للمَنصور عليٍّ وَلدِ المُعزِّ ، بالرَّمْلِ فكَسَرَهم ، وأسَرَ جَماعَةَ أُمَراء فضَرَبَ أعْناقَهم[1] .

٥ـ مُقاوَمَةُ المِصْريِّين لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ المُظَفَّرِ قُطُزْ : كان أنبلَ مَماليك المُعِزِّ أيْبَك التُّرْكُمانيِّ ، ثم صارَ نائبَ السَّلطَنَة لولَدِه المَنْصُورِ وكانَ فارِساً شُجاعاً ، سَائِساً ، دَيِّناً ، مُحَبَّباً إلى الرَّعيَّة هَزَمَ التَّتارَ وطَهَّرَ الشَّامَ منهم يومَ عَيْن جالُوتَ ، وهو الذي كان قَتلَ الفارِسَ أقْطايَ فقُتلَ به ، ويَسْلَمُ له إنْ شاءَ اللهُ جهادُه[2] .

ويُذْكرُ عنه أنَّه يَومَ عَينِ جالُوتَ لَمَّا أنْ رَأى انْكِشافاً في المسلمينَ رَمَىٰ علىٰ رأسِه الخُوذَةَ وحَمَلَ ، ونَزَلَ النَّصْرُ .

وكان شاباً أشقر ، وَافِرَ اللِّحْيَة ، تامَّ الشَّكْلِ ، وثَبَ عليه بَعضُ الأُمَراء وهو راجِعٌ إلىٰ مِصْرَ فقُتلَ سَنةَ ثَمانٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة ، ولَمْ يُكمِلْ سَنةً في السَّلطَنةِ ، رَحمَهُ اللهُ[3] .

٦ـ مُقاوَمَةُ الشَّاميِّينَ لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمة الْمَلكِ الكامِلِ ، مُحمَّدِ بنِ الْمُظَفَّرِ : تَملَّك ميَّافارقينَ وغَيرَها بعدَ أبيه سَنةَ خَمسٍ وأرْبَعينَ وسِتِّ مئة ، وكان شاباً ، عاقِلاً شُجاعاً ، مَهيباً

---

(١) انظر السير : (المُسْتَعصم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٤ .
(٢) انظر السير : (الْمُظَفَّر) ٢٣/ ٢٠٠ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٢٩ .
(٣) انظر السير : (الْمُظَفَّر) ٢٣/ ٢٠٠ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٠ .

مُحْسِناً إلىٰ رَعيَّتِه ، مُجاهداً ، غازياً ، دَيِّناً تقيّاً ، حَميدَ الطَّريقَة ، حاصَرَه عَسكرُ هُولاكُو نَحْواً من عِشرينَ شَهراً حتىٰ فَنيَ النَّاسُ جُوعاً ووَباءً ، حتىٰ لَمْ يَبْقَ بالبَلَدِ سِوَىٰ سَبعينَ رَجُلاً فيما قِيلَ ، فحَدَّثني الشَّيخُ مَحْمودُ بنُ عبدَ الكَريمِ الفارقيُّ قالَ : سارَ الكَامِلُ إلىٰ قِلاعٍ بنَواحي آمِد فأخَذَها ، ثم نَقلَ إليها أهْلَه ، وكان أبي في خِدمَتِه ، فرَحلَ بنا إلىٰ قَلعَةٍ منها ، فعبَرَت التَّتارُ عَلينا ، فاسْتَنزَلُوا أهْلَ الْمَلكِ الكامِلِ بالأمَانِ من قَلعَةٍ أُخْرىٰ ، ورَدُوا بهم عَلينا ، وأنا صَبيٌّ مُمَيِّزٌ ، وحاصَروا ميّافارقينَ أشْهُراً ، فنَزلَ عَليهم الثَّلجُ ، وهَلكَ بَعضُهم ، وكانَ الكامِلُ يَبرُزُ إليهم ويُقاتِلُهم ، ويُنْكي فيهم فهابُوهُ ، ثم بَنَوا عَليهم سُوراً بإزاءِ البَلَد ، بأبْرجَة ، ونَفدَت الأقْواتُ ، حتىٰ كانَ الرَّجُلُ يَموتُ فيُؤكَل ، ووَقعَ فيهم الْمَوتُ ، وفتَرَ عنهم التَّتارُ وصَابَروهم ، فخَرجَ إليهم غُلامٌ أو أكْثَر وجَلَوْا للتَّتارِ أمْرَ البَلدِ ، فما صَدَّقوا ، ثم قَرُبوا من السُّورِ وبَقوا أيّاماً لا يَجْسرُونَ على الهُجومِ ، فدَلَّىٰ إليهم مَمْلُوكٌ للكامِلِ حِبالاً فطَلعُوا إلى السُّورِ فبَقوا أُسْبوعاً لا يَجسُرون ، وبَقي بالبَلدِ نَحْو التِّسْعينَ بعدَ أُلوفٍ من النَّاسِ ، فدَخلت التَّتارُ دارَ الكامِلِ وأمَّنوه ، وأتَوْا به هُولاكُو بالرُّها فإذا هو يَشْرَبُ الخَمْرَ ، فناوَلَ الكامِلَ كَأساً فأبَىٰ ، وقالَ : هـٰذا حَرامٌ ، فقالَ لامْرأتِه : ناوِليهِ أنتِ ، فناوَلَتْه فأبَىٰ ، وشَتمَ وبَصَقَ ـ فيما قِيلَ ـ في وَجْه هُولاكُو وكانَ الكامِلُ مِمَّنْ سارَ قَبلَ ذلك ورَأى القانَ الكَبيرَ ، وفي اصْطِلاحِهم مَنْ رَأىٰ وَجْهَ القانِ لا يُقْتَل ، فلمَّا وَاجَه هُولاكُو بهـٰذا اسْتَشاطَ غَضَباً وقتَله .

ثم قالَ : وكانَ الكامِلُ شَديدَ البَأسِ ، قَويَّ النَّفْسِ ، لَمْ يَنْقَهِر للتَّتارِ بحيثُ إنَّهم أخَذُوا أوْلادَه من حِصْنِهم ، وأتَوه بهم إلىٰ تَحتِ سُورِ ميّافارقينَ ، وكلَّموهُ أنْ يُسلِّمَ البَلدَ بالأمَانِ فقالَ : ما لَكُم عندي إلاَّ السَّيفَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : طِيفَ برأسِه بدِمَشْقَ بالطُّبولِ ، وعُلِّقَ علىٰ بابِ الفَراديسِ ، فلَمَّا انْقَلَعوا ، وجاءَ الْمُظَفَّرُ دُفِنَ الرَّأسُ وكانَ في سَنةِ سِتٍّ وخَمسينَ وسِتِّ مئة قَدِمَ دِمَشْقَ مُسْتَنجداً بالنَّاصِرِ فبالَغَ في إكْرامِه واحْترامِه ، ووَعَدَه بالإنْجادِ ، ورَجَعَ إلىٰ ميّافارقينَ وقُتلَ في سَنةِ ثَمانٍ وخَمسينَ وسِتِّ مئة رَحمَه اللهُ[1] .

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٣/ ٢٠١ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٠ .

(٢٤) الصَّليبيُّون

١ـ الحُروبُ الصَّليبيَّة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمة الإمامِ البَيْروتيِّ : الإمامُ الحُجَّةُ المُقرىءُ أبو الفَضْل العَبَّاسُ بنِ الوَليد بنِ مَزْيَد ، العُذْريُّ البَيْروتيُّ[١] .

وبَيْروتُ مَدينَةٌ على البَحْرِ من ساحِلِ دِمَشْقَ ، ما زالَت بلادَ إسْلام منذُ الفُتوحِ إلىٰ أنْ اسْتولَىٰ عليها الفِرَنْجُ ، فدامَت داراً لهم إلىٰ أنْ افْتَتَحَها السُّلطانُ الْمَلكُ الأشْرَفُ خَليل في سَنةِ تِسْعينَ وسِتِّ مئة عندَ أخْذِ عَكا ، وبها تُوفِّيَ الأوْزاعيُّ ، وتلميذُه الوَليدُ بنُ مَزْيَد ، وابنُه هـٰذا .

وُلدَ سنة تِسْعٍ وسِتِّينَ ومئَة ، فكان مِمَّن عُمِّر أكثرَ من مئة عامٍ بيَقين .

وكان مُقْرئاً حاذِقاً بحَرْفِ ابنِ عامِر ، تَلا علىٰ أبيه .

وقالَ النَّسائيُّ : ليسَ به بأسٌ وكان صاحِبَ لَيْلٍ .

ماتَ سَنةَ سَبعينَ ومِئتَين ، وكان مُمَتَّعاً بقُواه[٢] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمةِ الْمُسْتَعلي باللهِ العُبَيْديِّ : فأخَذَت الفِرَنْجُ أنْطَاكيَة من المسلمينَ في سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، وكان لها في يَد المسلمينَ نَحْوَ عشرينَ سَنةً ، وأخَذوا بَيتَ المَقْدِسِ ، واسْتَباحُوهُ ، وأخَذُوا أيضاً المَعَرَّةَ في سَنةِ اثْنَتَين وتِسْعينَ وأرْبَع مئَة ، ثم اسْتَولوا علىٰ مَدائنَ وقِلاعٍ[٣] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجمةِ صاحِبِ مِصْرَ الآمرِ بأحْكام اللهِ العُبَيْديِّ : وفي دَولَتِه أخَذَت الفِرَنْجُ طَرابُلْسَ الشَّامِ وصَيْدا ، ثم قَصدَ المَلكُ بَرْدَويلُ الفِرَنجيُّ ديارَ مِصْرَ ،

---

(١) انظر السير : (البَيْروتيّ) ١٢/ ٤٧١ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٢ .

(٢) انظر السير : (البَيْروتيّ) ١٢/ ٤٧١ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٢ .

(٣) انظر السير : (المُسْتعلي بالله) ١٥/١٩٦ـ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٣ .

وأخَذَ الفرَمَا وهي قَريبةٌ من العَريش ، فأحْرقَ جامِعَها ، ومَساجِدَها ، وقَتلَ وأسَرَ ، ثم رَجعَ فهَلكَ في سَبخَة بَرْدَويل فشَقُّوه ورَموا حَشوَتَه وصَبَّروه ، فحَشْوَتُه تُرجَم هناك إلى اليومِ ، ودَفَنوه بقُمامَة وكان قد أخَذَ القُدسَ وعَكَّا والحُصونَ .

وفي أيَّامه ظَهرَ ابنُ تُومَرْت بالمَغربِ وكَثُرت أتباعُه ، وعَسْكَروا وقَاتَلوا ، ومَلَكُوا البلادَ[1] .

فَخْرُ المُلْك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : ابنُ عمَّار صاحبُ طَرابُلْسَ ، كان من دُهاة الرِّجالِ وأفْرادِ الزَّمان شَجاعَةً وإقْداماً ورَأياً وحَزْماً ، ابتُلي بلدُه بحِصارِ الفِرَنْج خَسمةَ أعْوامٍ وهو يُقاوِمُهم ، ويُنْكِي في العَدوِّ ، ويَسْتَظهِرُ عليهم ، ويُراسِلُ مُلوكَ الأطْرافِ ، ويُتْحِفُهم بالهَدايا ، وهم حائرُونَ في أنفُسِهم ، ولَمْ يُنْجِدْهُ أحَدٌ وقد راسَلَ صاحِبَ الرُّوم مَرَّاتٍ ، وكان حَسَنَ التَّدْبيرِ في الحِصَارِ ، جَيِّدَ الْمَكيدَة والْمُخادَعَة ، براً وبَحْراً ، شِتاءً وصَيفاً ، حتىٰ تَفانَت رِجالُه ، وكلَّت أبطالُه ، فرَكبَ في البَحْر ، وطلَعَ حتىٰ قَدِمَ دِمَشْقَ ، وأُخِذَت طَرابُلسُ منه سَنةَ اثنَتين وخَمسِ مئة ، فأقْطَعَه طُغْتِكينُ قَريَةَ الزَّبَدانيّ ، وكان لشِدَّة ما نَزلَ به يُصادِرُ الرَّعيَّةَ ويَعْسِفُهم ، وجَرَت له تَنقُّلاتٌ وأحْوالٌ ، إلىٰ أنْ أدْبَرَت أيَّامُه ، ووَافاهُ حِمامُه ، والله يَسْمَحُ له[2] .

قال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ رِضْوان صاحبِ حَلَب : وقَصَدت النَّصارىٰ أنْطَاكيَة ونازَلوا بَيتَ الْمَقدِس سَنةَ اثنَتينِ وخَمسِ مئة ، وقُتلَ به سَبعونَ ألفَ مُسْلم ، ونقَلَ ابنُ مُنقِذ ظُهورَ الفِرَنْجِ في هـٰذا الوَقْت من بَحْر قُسْطَنْطِينيَّة ، وجَرَت لهم مع طاغيَة الرُّومِ حُروبٌ وعَجَزَ عنهم ، ثم قالوا : ما نَفْتَحُه من بلاد الرُّومِ فهو لك ، ومَهْما نَفْتَحُه من بلادِ الشَّامِ ، فهو لنا[3] .

وقِيلَ : كانوا في أرْبَعِ مئةِ ألفٍ ، ثم أخَذوا بَعضَ بلادِ الْمَلِك قلج رسْلان بالسَّيفِ ،

---

(١) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/ ١٩٧ـ١٩٩ ، وانظر النزهة : ١٢١٤/ ٢ .

(٢) انظر السير : (فَخْرُ المُلك) ١٩/ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١٤٧٨/ فَخْرُ المُلك .

(٣) انظر السير : (رضوان) ١٩/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ١٤٧٩/ ٣ .

فجَمعَ حينئذ عَساكرَه ، والْتَقاهُم في سَنةِ تِسْعينَ وأرْبَع مئة ، وأشْرَفَ على النَّصرِ ، ثم كَسَرتْه الفِرَنْجُ ، وقُتِلَ من جُندِه خَلقٌ ، وهَربَ واستغاثَ بمُلوك النَّواحي علىٰ ما دَهَمَ الإسْلامَ ، فوَصَلَتْ كُتبُه إلىٰ حَلَبَ مُسخَمَة مُشقَّقَة فيها بَعضُ شَعْرِ النِّساء ، وانْزَعجَ الخَلقُ ، ثم تَوجَّهَت الفِرَنْجُ إلى الشَّام فكانوا أزْيَدَ من ثَلاثِ مئةِ ألفِ نَفْسٍ فعَاثُوا وأخْرَبُوا البلادَ ، وتفرَّقُوا ، وكَبَسَهم الْمُسلِمونَ ، وجَرَت فِتنٌ وحُروبٌ لا يُعبَّر عنها ، وأُخِذَت أنْطاكيَةُ بالسَّيفِ سَنةَ إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة ، وقُتلَ صاحِبُها وقُتلَ أيْضاً من كبار الفِرَنْجِ عَددٌ كَثيرٌ ، وكان الأمْرُ إلىٰ كندفري ، ثم إلىٰ أخيه بغدوينَ وبيمَنْت ، وابنِ أخيه طنكل وصنجيل هـٰؤلاء مُلوكُهم ، ثم جاءَ الْمُسلمونَ نَجْدَةً لأنْطاكيَة وقد أُخِذَت ، فحارَبوا العَدوَّ أيّاماً ، وانْتَصَروا وهَلكَ خَلقٌ من العَدوِّ ، وجاعُوا ، وجَرَىٰ غَيرُ مَصافٍّ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الْمُسْتَظهِرِ بالله أبي العَبَّاس الهاشِميِّ العَبَّاسيِّ : وفي سَنةِ تِسْعٍ وخَمسٍ مئة كان أوَّلُ ظُهورِ الفِرَنْجِ بالشَّام قَدِموا في بَحْر القُسْطَنْطينيَّة في جَمعٍ كَثيرٍ ، وانْزَعَجَت الْمُلوكُ ، وعَظُم الخَطبُ ، لا سيَّما ابنُ قُتلمش صاحِبُ الرُّومِ ، فالْتَقاهم ، فطَحَنُوهُ[2] .

وأمَّا ابنُ الأثيرِ ، فقالَ : ابْتداءُ دَولَتِهم في سَنةِ ثَمانٍ وسَبعينَ وأرْبَع مئة ، فأخَذوا طُلَيْطِلَةَ وغَيرَها ، ثم صقلية ، وأخَذوا بَعضَ إفْريقيَة ، وجَمَعَ مَلكُهم بَغْدَوين جَمْعاً ، وبَعثَ يَقولُ لرُجَّارَ صاحِبِ صِقليَة : أنا واصِلٌ إليكَ لنَفْتَحَ أفْريقيَةَ فبَعثَ يَقولُ : الأوْلَىٰ فَتحُ القُدْسِ ، فقَصَدوا الشَّامَ[3] .

وقِيلَ : إنَّ صاحِبَ مِصْرَ العُبَيْديَّ لَمَّا رأىٰ قُوَّةَ آلِ سُلْجُوقَ واسْتيلاءَهم على الْمَمَالِك كاتَبَ الفِرَنْجَ[4] .

---

(١) انظر السير : (رضوان) ١٩/ ٣١٥ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٧٩ .

(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٠ .

(٣) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٠ .

(٤) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٠ .

فمَرُّوا بسيسَ ، ونازَلُوا أنْطَاكيَةَ ، فخافَ صاحِبُها ياغي بَسان ، فأخْرجَ النَّصارَىٰ إلى الخَنْدَقِ وحَبَسَهم به ، فدامَ حِصارُها تِسْعَةَ أشْهُر ، وفَنِيَ الفِرَنْجُ قَتْلاً ومَوْتاً ، ثم إنَّهم عاملُوا الزَّرَّادَ المُقدَّمَ ، وبَذلوا له مَالاً ، فكاشَرَ لهم عن بَدنِه[1] ، ففَتحوا شُبَّاكاً ، وطَلعوا منه خَمسُ مئة في اللَّيلِ ، ففُتحَ ياغي بَسان ، وهَربَ ، واسْتُبيحَ البَلَدُ ـ فإنَّا لله ـ في سَنة إحْدَىٰ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة وسَقطَت قُوَّة ياغي بَسان أسَفاً ، وانْهَزَمَ غِلمانُه ، فذبَحَه حَطَّابٌ أرْمَنيٌّ ثم أخَذوا المَعَرَّة ، فقَتلوا وسَبوا ، وتَجمَّعَت عَساكِرُ الْمَوصِلِ وغَيرِها فالْتَقوا ، فانْهَزَمَ الْمُسلمونَ واسْتُشْهِدَ أُلُوفٌ وصالَحَهم صاحِبُ حِمْصَ ، وأقْبلَ ابنُ أميرِ الجُيوش ، فأخَذَ القُدْسَ من ابنِ أرْتُق ، وانْتَشرَت الباطنيَّةُ بأصْبَهانَ وتمَّتْ حُروبٌ مُزْعِجَة بين مُلوكِ العَجَمِ ، وأَخذت الفِرَنْجُ بَيتَ الْمَقْدِسِ ، نَصبوا عليه أرْبَعينَ مَنْجَنيقاً ، وهَدُّوا سُورَه وجَدُّوا في الحِصارِ شَهْراً ونِصْفاً ، ثم مَلكُوه من شَماليِّه سَنةَ اثنَتين وتِسْعينَ ، وقَتلوا به نَحْواً من سَبعينَ ألفاً[2] .

وفي سَنةِ خَمسٍ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة كانت حُروبٌ بين الأخَوَين بَرْكْيا رُوق ومحمد ، وبلاءٌ وحِصار ، ونازَلت الفِرَنجُ طَرابُلُسَ ، فسارَ للكَشفِ عنها جُندُ دِمَشْقَ وحمْصَ ، فانكسَروا ، ثم التقى العسكرُ ، وبغدوين ، فهزَمُوه وقلَّ مَنْ نَجا من أبطالِه ، وظَفِرَ ثلاثةٌ من الباطنيَّة علىٰ جَناح الدولة صاحِبِ حمْصَ ، فقَتلوه في الجامِع ، فنازَلتْها الفِرَنْجُ ، فصُولِحوا علىٰ مال ، وتَسلَّمها شَمسُ المُلوك ، وقَتلت الباطنيَّةُ الأعزَّ ، وزيرَ بَرْكْيا رُوق[3] .

وفي سنة سِتٍّ وتِسْعينَ وأرْبَع مئة سارَ شَمسُ الْمُلوك ، فحاصَرَ الرَّحْبَة وأخَذَها ، وجاء عَسكَرُ مِصْرَ ، فالْتَقوا الفِرَنْجَ بيافَا ، وخُذِلَت الفِرَنْجُ ، وتَصالَح بَرْكَيَا رُوق وأخُوه ، ومَلُّوا من الحَربِ ، وتَحالَفوا ، وطالَ حِصارُ الفِرَنْجِ لطَرابُلُسَ ، وأخَذوا

---

(١) في كامل ابن الأثير : (١٠/ ٢٧٤) : فلمَّا طال الحصار راسلوا أحد المستحفظين للأبراج ، وهو زرَّاد يُعرف بروزبه ، وبذلوا له مالاً وأقطاعاً ، وكان يتولىٰ حفظ برج يلي الوادي ، وهو مبني علىٰ شباك في الوادي ، فلما تقرر الأمر بينهم وبين هـٰذا الملعون الزرَّاد جاؤوا إلى الشباك ففتحوه .

(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٠/ ٤ .

(٣) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٢/ ٢ .

جُبَيلَ ، وأخَذوا عَكّا ، ونازَلُوا حَرّان ، فجاءَ العَسْكَرُ ، ووَقَعَ الْمَصافُّ ، ونَزَلَ النَّصْرُ ، وأُبيدَتِ الْمَلاعينُ ، وبَلَغَت قَتْلاهم اثنَي عَشرَ ألفاً وماتَ شَمسُ المُلوك دُقاق ، وتَملَّكَ ولدُه بدِمَشْقَ وأتابكُه طُغْتِكينُ[1] .

وفي سَنَةِ سِتٍّ وتِسْعينَ وأربَع مئة كَبسَ الأتَابكُ طُغْتِكِينَ الفِرَنْجَ بالأُرْدُنِّ ، فقَتَلَ وأسَرَ وزُيِّنَت دِمَشْقُ وأُخِذَ من الفِرَنْجِ حِصْنَين .

وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وخَمسٍ مئة ماتَ صاحِبُ الحِلَّة سَيفُ الدَّولَة صَدَقَةُ بنُ مَنْصورِ بنُ دُبَيْس الأسَديُّ مَلكُ العَربِ الذي أنْشَأ الحِلَّة على الرَّفْضِ ، قُتلَ في وَقْعَة بينَه وبينَ السُّلطانِ مُحمدِ بنِ مَلِكْشاه[2] .

وفيها[3] سارَ طُغْتِكينَ في جُندِ دِمَشْقَ ، فهَزمَ الفِرَنْجَ ، وأسَرَ صاحِبَ طَبَرِيَّة جرماسَ ، وحاصَرَ بغدوينُ الكلبُ صُورَ ، وبَنىٰ بإزائها حِصْناً ، ثم بَذَلَ له أهْلُها سَبعةَ آلافِ دينار ، فترحَّلَ عنهُم[4] .

وفي سَنَةِ اثنَتين وخَمسٍ مئة سارَ طُغْتكينُ في ألفين ، فالْتَقى الفِرَنْجَ ، فانْهَزمَ جَمعُه ، وثَبتَ هو ، ثم تَراجَعوا إليه ، ونُصِروا ، وأسَروا قومصاً ، بَذلَ في نفسِه جُملةً ، فأبَىٰ طُغْتِكينُ وذبَحَه ، ثم هادَنَ بغدوينَ أربعةَ أعْوام[5] .

وفي سَنَةِ ثَلاثٍ وخَمسٍ مئة أُخذَت طَرابُلسُ في آخرِ السَّنَة بعدَ حِصارِ سِتِّ سِنينَ أخَذوها بأبْراجِ خَشَبٍ صُنعَت وأُلصِقَت بسُورِها ، وأخَذوا بانياسَ ، وجُبَيلَ بالأمانِ ثم طَرَسُوسَ ، وحِصْنَ الأكْرادِ[6] .

وفي سنة خَمسٍ وخَمسٍ مئة تَناحَبَ[7] عَساكِرُ العِراقِ والجَزيرَة ، وأقْبَلوا لغَزْوِ

---

(١) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٢/ ٣ .
(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٢/ ٤ .
(٣) أي في سنة إحْدىٰ وخَمسٍ مئة .
(٤) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٣/ ١ .
(٥) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٣/ ٢ .
(٦) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٣/ ٣ .
(٧) يُقالُ : تَناحَبَ القومُ ، إذا تَواعَدوا للقتال أيَّ وقت .

الفِرَنْجِ ، وعَدُّوا الفُراتَ ، فقَلَّ ما نَفَعوا ، ثم رَجَعوا والأعْداءُ تَجُولُ في الشَّامِ[1] .

وفي أوَّلِ سَنةِ سَبعٍ وخَمسٍ مئة أقْبلَ عَسْكَرُ الجَزيرَة نَجْدةً لطُغْتِكين ، فالْتَقوا الفِرَنْجَ بالأرْدُن ، وصَبرَ الفَريقانِ ، ثم اسْتحرَّ القَتْلُ بالفِرَنْجِ ، وأُسِرَ طاغيَتُهم بغدوينُ ، لكنْ أساءَ الذي أسَرَه ، فشَلَّحه ، وأطْلَقَه جَريحاً ، ثم تَراجَعَ العَدوُّ ، وجاءَتهم نَجْدةٌ ، فعَملوا الْمَصافَّ من الغَدِ ، وحَمِيَ القِتالُ وطابَ الْموتُ ، وتَحصَّنَ الكِلابُ بجَبَلٍ ، فرَابَطَ الجَيشُ بإزائهم يَترامَوْنَ بالنُّشابِ ويَقْتَتلون ، فدامَ ذلك كذلك سِتَّةً وعِشْرينَ صَباحاً حتىٰ عُدِمَت الأقْواتُ وتَحاجَزَ الجَمْعانِ[2] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمة طُغْتِكِين : لولا أن اللهَ أقامَ طُغْتِكِين للإسْلام بإزاء الفِرَنْجِ ، وإلاَّ كانوا غَلَبوا علىٰ دِمَشْقَ فقد هَزَمَهم غَيرَ مَرَّة ، وأنجَدَهُ عَسْكَرُ الْمَوصِل ، مع مَوْدُودٍ ، ومع البُرسُقيِّ .

قال ابنُ الأثير : تَملَّكَ بعدَه ابنُه الكَبيرُ تاجُ الْمُلوكِ بُوري بعَهْدٍ منه .

وقالَ ابنُ الجَوْزي : حَكمَ على الشَّامِ خَمساً وثَلاثينَ سَنةً ، وسارَ ابنُه بسِيرَتِه مُدَيْدَة ثم تَغيَّرَ وظَلمَ[3] .

وفي سَنةِ عِشرينَ وخَمسٍ مئة أقْبَلت جُموعُ الفِرَنْجِ لأخْذِ دِمَشْقَ ، ونَزَلُوا بشَقْحَب فجَمعَ طُغْتِكِينُ التُّرْكُمانيِّينَ وشُطَّارَ دِمَشْقَ ، والْتَقاهُم في آخِرِ العامِ وحَمِيَ القِتالُ ، ثم فَرَّ طُغْتِكِين وفُرْسانُه عَجْزاً ، فعَطَفَت الرَّجَّالَةُ علىٰ خِيامِ العَدوِّ ، وقتَلُوا في الفِرَنْجِ ، وحَازُوا الأمْوالَ والغَنائمَ ، فوَقَعت الهَزيمَةُ على الفِرَنْجِ ، ونَزَلَ النَّصْرُ[4] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « شَمسِ الْمُلوك » : استنقذَ بانياسَ من الفِرَنْجِ في يَومَين ، وكانت الإسْماعيليَّةُ باعُوها لهم من سَبعِ سِنينَ ، وسَعَّرَ بلادَهم ، وأوْطانَهم ذُلاًّ ، ثم سارَ فحاصَرَ أخاهُ ببَعْلَبَك ، ونازَلَ حماةَ ، وهي للأتابك زِنْكي ، وأخَذَها ثم

---

(١) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٣/٤ .
(٢) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩٣/٥ .
(٣) انظر السير : (طُغْتِكِين) ١٩/٥١٩ـ٥٢١ ، وانظر النزهة : ١٥٠٥/٢ .
(٤) انظر السير : (طُغْتِكِين) ١٩/٥١٩ـ٥٢١ ، وانظر النزهة : ١٥٠٦/٤ .

بدا له ، فكاتَبَ الأتابكَ زِنْكي ليُسَلِّمَ إليه دِمَشْقَ ، فخافَته أُمُّه زُمُرُّدُ والأَمراءُ ، فهَيّأت أُمُّه مَنْ قتلَه ، لأنَّه تهدَّدَها ـ لَمَّا نَصحَتهُ ـ بالقَتلِ ، وكانَت الفِرنْجُ تَخافُه لَمَّا هَزَمَهم ، وبيَّتَهم ، وشنَّ الغارَةَ علىٰ بلادِهم وعثَّرَهم .

قال ابنُ القلانسيّ : بالَغَ في الظُّلمِ ، وصادَرَ وعَذَّبَ ، ولَمَّا علم بأنَّ زِنْكي علىٰ قَصدِ دِمَشْقَ بَعثَ يَستَحِثُّه ليُعطِيَه إيّاها لهَذَيانٍ تَخيَّله ، ويقولُ : إنْ لَمْ تَجِىءْ سَلَّمتُها إلى الفِرَنْجِ ، كتبَ هـٰذا بيدِه ، فأشْفَقَ النَّاسُ ، فحمَلَ صَفْوةَ الْمُلكِ دِينُها علىٰ حَسْمِ الدَّاءِ ، فأهْلَكَته ، وكَثُرَ الدُّعاءُ لها .

قُتلَ سَنةَ تِسْعٍ وعِشْرينَ وخَمسٍ مئة ، وله ثَلاثٌ وعِشْرون ، وتَملَّكَ بعدَه أخُوهُ مَحْمودُ ، ثم تَزوَّجَت أمُّه بصاحِبِ حَلَبْ زِنْكي[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمُقْتَفي لأمْر الله : وفي سَنةِ ثلاثٍ وأرْبَعِينَ وخَمْسِ مِئَة جاءَتْ ثَلاثَةُ مُلُوكٍ من الفِرَنْجِ إلى القُدْسِ ، منهُم طَاغِيَةُ الأَلْمانِ ، وصَلَّوْا صَلاة المَوتِ ، وفرَّقُوا علىٰ جُندِهم سَبعَ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، فلَمْ يَشْعُرْ بهم أهلُ دِمَشْقَ إلاَّ وقد صَبَّحُوهم في عَشْرَةِ آلافِ فارسٍ وسِتينَ ألفِ رَجُلٍ ، فخَرَجَ المُسلِمُونَ فارِسُهُم وراجِلُهُم والْتَقَوا ، فاسْتُشْهِدَ نَحوُ المِئَتَيْن ، منهُم الفَنْدَلاوِيُّ ، وعبدُ الرَّحمَـٰنِ الحَلْحُولِيّ ، ثمَّ اقْتَتَلُوا من الغَدِ ، وقُتِلَ خَلْقٌ من الفِرَنْجِ ، فلمَّا كان خامِسُ يومٍ وَصَلَ من الجَزيرَةِ غَازِي ابنُ زِنْكِي في عِشْرينَ ألفاً ، وتَبِعَهُ أَخُوهُ نُورُ الدِّينِ وكان الضَّجيجُ والدُّعاءُ والتَّضرُّعِ بدِمَشْقَ لا يُعَبَّرُ عنه ، ووَضَعُوا المُصْحَفَ العُثْمَانِيَّ في صَحْنِ الجَامِعِ ، وكان قِسِّيسُ العَدُوِّ قال : وعَدَنِي المَسيحُ بأخْذِ دِمَشْقَ ، فحَفُّوا به ورَكِبَ حِمارَه وفي يدِه الصَّلِيبُ ، فشَدَّ عليه الدَّماشِقَةُ ، فقَتَلُوهُ ، وقَتَلُوا حِمارَه ، وجاءَتِ النَّجدَاتُ ، فانْهَزَمَ الفِرَنْجُ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الْمُسْتَنْجِدِ بالله : وفي سَنة ستٍّ وخَمسين وخَمسٍ مئة قُتلَ بمِصْرَ الصَّالحُ وَزيرُها ، واسْتَوْلَىٰ شَاوَرُ ، وسافَرَ للصَّيدِ الْمُسْتَنْجِدُ مرَّاتٍ ، وفيها

---

(١) انظر السير : (شَمس الملوك) ١٩/ ٥٧٥ـ ٥٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٨ .

(٢) انظر السير : (المُقْتفي لأمر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٦٨ .

كَسَرت الفِرَنْجُ نورَ الدين تحتَ حِصْنِ الأكْرادِ ، ونَجا هو بالجَهْد ، ونَزلَ علىٰ بُحَيرةِ حِمْصَ ، وحَلفَ لا يَستَظِلُّ بسَقْفٍ حتىٰ يأخُذَ بالثَّأرِ ، ثم الْتَقاهُم في سَنَةَ تِسعٍ وخَمسينَ وخَمسٍ مئة فطحَنَهم ، وأسَرَ مُلوكَهم ، وقَتلَ منهم عَشْرَةَ آلافٍ بحارِمٍ[١] .

وفي سَنة ستِّين وخَمس مئة وَلَدَت ببغداد بنتُ أبي العِزِّ الأهْوَازيِّ أرْبَعَ بَناتٍ جُملَة ، وفيها هاجَت فِتنةٌ صَمَّاء بسَببِ العَقائد بأصْبَهان ، ودامَ القِتالُ بين العُلماء أيّاماً ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ قالَه ابنُ الأثير .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وستِّين وخَمسٍ مئة عَمِلَت الرَّافِضَةُ مأتَمَ عاشُوراءَ ، وبالَغوا ، وسَبُّوا الصَّحابَة ، وخَرَجَت الكَرْجُ ، وبدَّعوا في الإسْلام ، وغَزا نُورُ الدِّين مرَّات[٢] .

وفي سَنةِ أربع وستِّين وخَمسٍ مئة غَزْوُ شِيركُوه مِصْرَ ثالثَ مرَّة ، وملكت الفرنج بَلْبيسَ ونالُوا القاهِرَةَ ، فذَلَّ لهم شَاوَرُ ، وطَلَبَ الصُّلْحَ علىٰ قَطيعَةِ ألفِ ألفِ دينارٍ في العام ، فأجابه الطاغية مَرِّي إلىٰ ذلك ، فعجل له مئة ألف دينار ، واستنجد بنُورِ الدِّين ، وسَوَّدَ كتابه ، وجَعلَ في طَيِّهِ ذَوائبَ النِّساءِ ، ووَاصَلَ كُتُبَه يَحُثُّه ، وكان في حَلَبَ ، فجَهَّزَ عَسكرَه ، واستخدم أسَدَ الدين حتىٰ قيل : كان في سَبعينَ ألْفاً من بين فارس وراجل ، فتقهقر الفِرَنْجُ لقُدومِه وذَلُّوا ، ودَخَلَ القاهِرَةَ وجَلسَ في دَسْتِ الْمَمْلَكَة .

تُوفِّيَ الْمُسْتَنْجِدُ باللهِ سَنَةَ سِتٍّ وستِّينَ وخَمسٍ مئة ، وقامَ بعدَه ابنُه الْمُسْتَضِيءُ[٣] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة شِيركُوه : وجهَّزَ وَلدَ أخيه صَلاحَ الدين إلى الإسْكَنْدَريَّة ، وجَرَت له أمُورٌ يَطولُ شَرحُها وحُروبٌ وحِصارٌ ، وأقْبَلت الفِرَنْجُ ، وأحاطوا ببَلْبِيسَ واسْتَباحُوها في سَنةِ أرْبَع وستِّينَ وخَمْسٍ مئة ، فاسْتغاثَ الْمِصْريُّونَ بنُورِ الدِّين فبَعثَ إليهم أسَدَ الدِّين ، فطَردَ عنهم العَدوَّ ، ودَخلَ القاهِرةَ وتَمكَّنَ ، فعَزَمَ شاوَرُ وَزيرُ مِصْرَ على الفَتْكِ به ، فبادَرَ وبتَّه ، واسْتقلَّ بوَزارَةِ العاضِدِ ، ودانَ له

---

(١) حارِم بكسر الرَّاء : هي اليوم بلدة شمال سورية من محافظة إدلب .

(٢) انظر السير : (الْمُستَنْجد بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٠ .

(٣) انظر السير : (الْمُستَنْجِد بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٠ .

الإقْليمُ ، فبقيَ شَهْرين ، وبغَتَه الأجَلُ بالخَوانيقِ شَهيداً سَنةَ أرْبَعٍ وسِتِّينَ فقامَ في الدَّسْتِ بعدَه صَلاحُ الدِّين[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة صَلاحِ الدِّينِ الأيُّوبيِّ : وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ وخَمْسِ مئة فَتَحَ طَبَرِيَّةَ ، ونَازَلَ عَسْقَلانَ ، ثمَّ كانت وَقْعَةُ « حِطِّيْنَ » بَيْنَه وبَيْنَ الفِرَنْج ، وكانوا أرْبَعِينَ ألفاً ، فحَالَ بيْنَهُم وبينَ المَاءِ علىٰ تَلٍّ ، وسَلَّمُوا نُفُوسَهُم ، وأُسِرَتْ مُلُوكُهم ، وبَادَرَ ، فأَخَذَ عَكَّا وبَيْرُوتَ وكَوْكَبَ ، وسَارَ فحَاصَرَ القُدْسَ ، وجَدَّ في ذلك فأخَذَها بالأمَانِ[2] .

ثمَّ إنَّ الفِرَنْجَ قامَتْ قِيامَتُهُم علىٰ بَيْتِ المَقْدِس ، وأَقْبَلُوا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم بَرّاً وبَحْراً ، وأَحَاطُوا بعَكَّا ليَسْتَرِدُّوها ، وطَالَ حِصَارُهم لها ، وبَنَوا علىٰ نفُوسِهِم خَنْدَقاً ، فأَحَاطَ بهم السُّلطَانُ ، ودَامَ الحِصَارُ لهم وعلَيْهِم نَيِّفاً وعِشْرينَ شَهْراً ، وجَرَىٰ في غُضُونِ ذلك مَلاحِمُ وحُرُوبٌ تُشَيِّبُ النَّوَاصِي ، وما فُكُّوا حتّىٰ أخَذُوها ، وجرَتْ لهُم وللسُّلطَانِ حُرُوبٌ وسِيَرٌ وعِنْدَما ضَرِسَ الفَريقَان ، وكَلَّ الحِزْبَان ، تَهَادَنَ المِلَّتان[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الكامِلِ : ومن هِمَّتِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا أَخَذُوا دِمْياطَ أنشأَ علىٰ بَريدٍ منها مَدينَةَ المَنْصُورَةَ واسْتوطَنَهَا مُرابطاً حتىٰ نَصَرَهُ الله فإنَّ الفِرنْجَ طَمِعُوا في أخْذِ مِصْرَ ، وعَسْكَرُوا بقُربِ المَنصُورَة ، والْتَحَمَ القِتالُ أيّاماً وأَلَحَّ الكَامِلُ علىٰ إخْوَتِه بالمَجِيء ، فجاءَهُ أَخَوَاهُ الأشْرَفُ والمُعَظَّمُ في جَيْشٍ لَجِبٍ ، وهَيْئَةٍ تامَّةٍ فقَوِيَ الإسْلامُ ، وضَعُفَتْ نُفُوسُ الفِرنْجِ ورُسُلُهُم تَتَرَدَّدُ ، وبَذَلَ لهم الكَامِلُ قبلَ مَجِيء النَّجدَةِ القُدسَ وطَبَرِيَّة وعَسْقَلانَ وجَبْلَة واللاَّذِقيَّة وأشياءَ علىٰ أن يَرُدُّوا له دِمْياطَ فأَبَوا ، وطلَبُوا مع ذلك ثلاثَ مِئَةِ ألفِ دينار ليُعَمِّرُوا بها أَسْوارَ القُدسِ ، وطَلَبُوا الكَرَكَ ، فاتَّفَقَ أنَّ جماعَةً من المُسلِمين فَجَّرُوا من النِّيلِ ثَلْمَةً علىٰ مَنْزِلَةِ العَدُوِّ ، فأَحَاطَ بهم النِّيلُ في هَيَجَانِه ، ولا خِبْرَةَ لهم بالنِّيلِ ، فحَالَ بينهم وبين دِمْياطَ ، وانقَطَعتْ المِيرَةُ عنهُم ،

---

(١) انظر السير : (شيركُوه) ٢٠/٥٨٧ـ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٧ .

(٢) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٠ .

(٣) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٠ .

وجاعُوا وذَلُّوا ، فأرسَلُوا في طلَبِ الأمَانِ علىٰ تَسْلِيمِ دِمْياطَ ، وعَقْدِ هُدنَة ، فأُجِيبُوا فسَلَّمُوا دِمْياطَ بعد اسْتِقرارِهم بها ثلاثَ سِنينَ ، فَلِلَّهِ الحَمْدُ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة النَّاصِرِ لدينِ اللهِ العَبَّاسيِّ : وفي سَنَةِ خَمسٍ وثَمانينَ وخَمسٍ مئة وفي الْمُقْبِلَة : كان الحِصارُ الذي لم يُسمَعْ بمثلِه أبداً علىٰ عَكَّا ، كان السُّلطانُ صَلاحُ الدين قد افْتَتَحَها وأسْكَنَها الْمُسلمينَ فأقْبَلَتِ الفِرَنْجُ بَراً وبَحْراً من كلِّ فَجٍّ عَميقٍ فأحَاطُوا بها ، وسارَ صَلاحُ الدِّين فيَدْفَعُهم فما تَزَعْزَعوا ولا فَكَّروا بَلْ أنْشَأوا سُوراً وخَنْدقاً علىٰ مُعَسْكَرِهم وجَرَت غيرُ وَقْعَة ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ يَحْتاجُ بَسْطُ ذلك إلىٰ جُزْء ، وامْتدَّت الْمُنازَلَةُ والْمُطاوَلَةُ والْمُقاتَلَةُ نَيِّفاً وعِشرينَ شَهْراً ، وكانت الأمْدادُ تأتي العَدوَّ من أقْصَى البِحارِ ، واسْتَنجَدَ صَلاحُ الدِّين بالخَليفَة وغَيرِه حتىٰ أنَّه نفَذَ رَسُولاً إلىٰ صاحِبِ الْمَغْرِبِ يَعْقُوبَ الْمُؤْمِنيِّ يَسْتَجيشُه فما نَفَعَ ، وكُلُّ بَلاءِ النَّصارَىٰ ذَهابُ بَيتِ الْمَقْدِس منهم[2] .

قالَ ابنُ الأثير : لَبِسَ القُسُوسُ السَّوادَ حُزْناً على القُدْسِ ، وأخَذَهم بُتْرُك[3] القُدْسِ ورَكِبَ بهم البَحْرَ يَسْتَنفِرُونَ الفِرَنْجَ ، وصَوَّروا المَسيحَ وقد ضَربَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجَرحَه ، فعَظُم هـٰذا الْمَنْظَرُ على النَّصارَىٰ فخَرجوا على الصَّعْبِ والذَّلولِ بَراً وبَحْراً ، ولَوْلا لُطفُ الله بإهْلاكِ مَلِكِ الألْمَانِ وإلاَّ لكانَ يُقالُ : إنَّ الشَّامَ ومِصْرَ كانَتا للمُسْلِمينَ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانت عَساكِرُ العَدوِّ فَوقَ المِئَتَي ألفٍ ، ولكنْ هَلَكُوا جُوعاً ووَباءً وهَلَكَت دَوابُّهم ، وجافَت الأرْضُ بهم[4] .

ومن إنْشاءِ الفاضِلِ إلى الدِّيوانِ وهم علىٰ عَكَّا « يَمُدُّهم البَحْرُ بمَراكِبَ أكثرَ من أمْواجِه ، ويُخرِجُ لنا أمَرَّ من أُجاجِه ، وأصْحابُنا قد أثَّرت فيهم المُدَّة الطَويلة في

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٥ .
(٢) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٦ .
(٣) هو البطريق .
(٤) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨٦ .

اسْتِطاعَتِهم لا في طاعَتِهم ، وفي أحْوالِهم لا في شَجاعَتِهم فنَقولُ : اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِك هـٰذه العِصابَةُ ، ونَرْجُو علىٰ يدِ أميرِ المؤمنينَ الإجابَةَ ، وقد حرَّمَ باباهم لَعنَه اللهُ كُلَّ مُباحٍ واسْتَخرجَ منهم كُلَّ مَذْخُورٍ وأغْلَقَ دُونَهم الكَنائسَ ، ولَبِسُوا الحِدادَ ، وحَكَمَ أنْ لا يَزالُوا كَذلك أو يَسْتَخلِصُوا الْمَقْبَرَةَ ، فيا عَصَبَةَ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم اخْلُفْهُ في أُمَّتِه بما تَطْمئنُّ به مَضاجِعُه ، ووَفِّه الحَقَّ فينا ، فها نَحنُ عندَكَ وَدائعُه ، ولَوْلا أنَّ في التَّصْريحِ ما يَعودُ على العَدالَةِ بالتَّجْريحِ لقالَ الخادِمُ ما يُبْكي العُيونَ ويُنْكي القُلوبَ ، ولكنَّه صابِرٌ مُحْتسِبٌ وللنَّصْرِ مُرْتقِبٌ ، ربِّ لا أمْلِكُ إلاَّ نَفسي وها هي في سَبيلِكَ مَبْذولةٌ ، وأخي وقد هاجَرَ هِجْرةً نَرْجُوها مَقْبُولَةً ، ووُلْد وقد بَذلتُ للعَدوِّ صَفَحاتِ وُجوهِهم ، ونَقِفُ عندَ هـٰذا الحَدِّ وللهِ الأمْرُ من قَبلُ ومن بَعْد »[1] .

ومن كتابٍ إلى الدِّيوانِ : « قد بُلِيَ الإسْلامُ منهم بقَومٍ اسْتَطابوا الْمَوتَ ، وفارَقوا الأهْلَ طاعَةً لقِسِّيسِهم ، وغَيرةً لِمَعْبَدِهم ، وتَهالُكاً علىٰ قُمامَتِهم[2] ، حتىٰ لَسارَت مَلِكَةٌ منهم بخَمسِ مئة مُقاتِلٍ الْتَزمَت بنَفَقاتِهم فأخَذَها المُسلمونَ برِجالِها بقُربِ الإسْكَنْدَرِيَّة ، فذَواتِ المَقانِعِ مُقَنَّعاتٍ دارِعاتٍ تَحمِلُ الطَّوارِقَ والقَبْطارياتِ ، ووَجَدْنا منهم عِدَّة بين القَتلَىٰ ، وبابا رُوميَّة حَكمَ بأنَّ مَنْ لا يَتوجَّه إلى القُدْسِ فهو مُحَرَّم لا مَنْكِحَ له ولا مَطْعَم فلهـٰذا يتَهافَتون على الوُرودِ ويَتهالَكون علىٰ يَومِهم الْمَوْعُودِ ، وقالَ لهم : إنَّني واصِلٌ في الرَّبيعِ جامِعٌ على اسْتِنْفارِ الجَميعِ ، وإذا نَهَضَ فلا يَقعُد عنه أحَدٌ ، ويُقبِلُ معه كُلُّ مَنْ قالَ : لله وَلَد »[3] .

وفي سَنةِ سَبعٍ وثَمانينَ وخَمْسِ مئة اشْتدَّت مُضايَقَةُ العَدوِّ عَكا وأمْدادُهم مُتَواتِرَة ، فوَصلَ مَلكُ الإنْكيتَر[4] ، وقد مَرَّ بقُبرُصَ وغَدَرَ بصاحِبها ، وتَملَّكَها كُلَّها ، ثم سارَ إلىٰ عَكا في خَمسٍ وعِشرينَ قِطعَةً ، وكانَ ماكِراً داهِيَةً شُجاعاً ، فخارَت قُوىٰ مَنْ بها من المُسلمينَ وضَعُفوا وقَلِقوا ، فبَعثَ إليهم السُّلطانُ صَلاحُ الدين : أنِ اخْرُجوا كلُّكم

---

(١) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٧ .

(٢) يعني كنيسة القيامة .

(٣) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٧ .

(٤) وتُكتب : « الإنكلتير » ، وهو ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد .

من البَلدِ علىٰ حَمِيَّة وسيروا مع البَحْرِ واحْمِلُوا عليهم وأنا أجيئُهم من وَرائِهم وأكْشِفُ عَنكُم ، فشَرَعوا في هـٰذا فما تَهيَّأ ، ثم خَرجَ أميرُ عكا ابنُ الْمَشْطُوبِ إلىٰ مَلِكِ الفِرَنْجِ وطَلَبَ الأمانَ فأبَىٰ ، قالَ : نَحنُ لا نُسَلِّمُ عَكا حتىٰ نُقتَلَ جَميعاً ورَجعَ ، فزَحفَ العَدوُّ عليها ، وأشْرَفوا علىٰ أخْذِها فطَلَبَ المُسلمونَ الأمانَ علىٰ أن يُسَلِّموا عَكا ومِئتي ألفِ دينار وخَمسِ مئة أسير وصَليبِ الصَّلَبُوتِ فأُجِيبوا ، ثم سارَت الفِرَنْجُ تَقصِدُ عَسْقَلانَ ، فسارَ السُّلطانُ في عِراضِهم ، ثم كانت وَقْعَةُ نَهْر القصب ، ثم وقعة أرسوف فانتصر المسلمون وأتىٰ صلاح الدين عَسْقَلانَ فأخْلاها ، وشَرعَ في هَدْمِها ، وهَدمِ الرمْلة ولُدَّ وشَرَعَت الفِرَنْجُ في عِمارَة يافا ، وطَلبوا الهُدْنَة ، ثم جَرَت وَقَعاتٌ صِغارٌ وقَصَدت الْمَلاعينُ بَيتَ الْمَقْدِسِ وبها السُّلطانُ ، فبالَغَ في تَحْصينِها[1] .

وفي سَنةِ سَبعَة عَشَرَ وسِتٍّ مئة وقعة البَرَلُّس بين الكامِلِ والفِرَنْجِ ، فنَصرَ اللهُ وقُتِلَ من الفِرَنْجِ عَشرَةُ آلاف وانْهَزَموا ، فاجْتَمعوا بدِمْياطَ[2] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في ترجمة الْمُسْتَنصِر بالله : وفي سَنةِ خَمسٍ وعِشرينَ وستمائة اسْتَوْلَى الفِرَنجُ علىٰ صَيْدا وقَوِيَتْ نُفوسُهم وجاءَهم مَلكُ الألْمانِ الأنبرُور وقد اسْتَولَىٰ علىٰ قُبرُصَ فكاتَبَه الكاملُ ليُعينَه على النَّاصِرِ ، وخافَتْهُ مُلوكُ السَّواحِلِ والمُسلِمونَ فكاتَبَ مُلوكُ الفِرَنْجِ الكاملَ بأنَّهم يُمْسِكُونَ الأنبرور فبَعَثَ وأوْقَفَهم علىٰ عَزْمِهم فعَرَفَها الكاملُ[3] وأجابَه إلىٰ هَواهُ وتَرَدَّدت المُراسَلاتُ وخَضَعَ الأنبرور وقالَ : أنا عَتيقُكَ وإنْ أنا رَجَعتُ خائِباً انْكَسَرَتْ حُرْمَتي ، وهَـٰذِهِ القُدْسُ أصْلُ دِينِنَا وهي خَرابَةٌ ولا دَخْلَ لهَا ، فتَصَدَّقْ عليَّ بقَصَبَةِ البَلدِ وأنا أحْمِلُ مَحْصُولَها إلىٰ خَزانَتِكَ ، فَلانَ لِذلك[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُسْتَعْصِم بالله العَبَّاسيِّ : وفي سَنةِ سَبعٍ وأرْبَعين

---

(١) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢-٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٨ .

(٢) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢-٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٩ .

(٣) العبارة ملبسة بسبب الاختصار المخل وسرعة الصياغة ، والأصل في « تاريخ الإسلام » : (فكاتبوا الكامل : إذا حصل مصاف نمسك الأنبرور فسيّر إلى الأنبرور كتبهم ، وأوقفه عليها فعرف الأنبرور ذلك للكامل وأجابه إلىٰ كل ما يريد) .

(٤) انظر السير : (الْمُسْتَنصِر بالله) ٢٣/ ١٥٥-١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٩ .

وستٍّ مئة هجمت الفرنج دِمْياطَ في رَبيع الأوّل فهَرَبَ النَّاسُ من البابِ الآخَر ، وتَملكَّها الفِرَنْجُ صَفْواً عَفْواً نَعوذُ بالله من الخُذْلان ، وكان السُّلطانُ بالْمَنْصُورَة فغَضِبَ علىٰ أهْلِها وشَنَقَ سِتِّينَ من أعْيانِ أهْلِها ، وذَاقوا ذُلاًّ وجُوعاً ، واسْتَوْحَشَ العَسكرُ من السُّلطانِ وقِيلَ : هَمَّ مَماليكُه بقَتلِه ، فقالَ نائبُه فَخْرُ الدِّين ابنُ الشَّيخ : اصْبروا فهو علىٰ شَفا ، فماتَ في نِصْفِ شَعْبانَ ، وأُخْفِيَ موتُه إلىٰ أنْ حَضرَ ابنُه الْمُعَظَّمُ تُورانْشَاه من حِصْن كيفا ، فلَمْ يَبْقَ إلاَّ قليلاً وقَتلوه ، وكانت وَقْعةُ الْمَنْصُورَة في ذي القعدة ، فساقَت الفِرَنْجُ إلى الدِّهْليزِ ، فخَرَجَ نائبُ السَّلطنَة فَخْرُ الدِّين ابنُ الشَّيخِ وقاتَلَ فقُتلَ ، وانْهَزَمَ المسلمونَ وعَظُمَ الخَطبُ ثم تَناخى العَسكرُ وكَرُّوا على العَدوِّ فطَحَنُوهم ، وقَتلوا خَلقاً ونزَلَ النَّصرُ[1] .

واسْتهلَّت سَنةُ ثمانٍ وأرْبَعين وسِتِّ مئة ، والفِرَنْجُ على الْمَنْصُورَةِ بإزاء المسلمين ، ولكنَّهم في ضَعْفٍ وجُوعٍ وماتَت خَيلُهم ، فعَزَمَ الفِرَنْسيسُ[2] على الرُّكوبِ ليلاً إلىٰ دِمْياطَ ، فعَلِمَ المسلمونَ وكانَت الفِرَنْجُ قد عَملوا جِسْراً عَظيماً على النِّيلِ ، فذَهلوا عن قَطْعِه ، فدَخلَ منه المسلمونَ فكَبَسُوهم ، فالْتَجأت الفِرَنْجُ إلىٰ مُنْية أبي عبد الله ، فأحاطَ بهم الجَيشُ ، وظَفرَ أُسْطُولُ المسلمينَ بأُسْطولِهم وغَنِموا مَراكِبَهم ، وبقي الفِرَنْسيسُ في خَمسِ مئة فارسٍ وخُذلَ ، فطَلَبَ الطواشي رَشيدَ وسَيفَ الدِّين القيمرىٰ ، فأتَوه فطَلَبَ أماناً فأمَّناه علىٰ أنْ لا يَمُرُّوا به بينَ النَّاسِ وهَرَبَ جُمهورُ الفِرَنْجِ ، وتَبعَهم العَسكرُ وبَقوا جُملةً وجُملةً حتىٰ أُبيدَت خَضْراؤُهم وغَنِمَ المسلمونَ ما لا يُعبَّرُ عنه[3] .

فأُحْصيَ الأسْرىٰ فكانوا نَيِّفاً وعِشرينَ ألفاً ، وغَرِقَ وقُتلَ سَبعةُ آلافٍ ، وكان يَوماً ما سَمِعَ المسلمونَ بمثلِه ، وما قُتلَ من المسلمينَ نَحوَ المئة ، واشْتَرى الفِرَنْسيسُ نفسَه برَدِّ دِمْياطَ وبخَمسِ مئة ألفِ دينار[4] .

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَعْصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٧٢٣/ ١ .

(٢) هو ملك فرنسا « لويس التاسع » لعنه الله .

(٣) انظر السير : (الْمُسْتَعْصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٧٢٣/ ٢ .

(٤) انظر السير : (الْمُسْتَعْصِم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١٧٢٤/ ١ .

٢ـ وَقْعَةٌ مَشْهورةٌ مع الصَّلبيِّين الذين أرادُوا احْتلالَ المَدينَةَ المُنوَّرَة :

لؤلؤ العادلي :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمة لُؤلُؤ العَادِليّ : الحاجبُ من أبْطالِ الإسْلام ، وهو كان الْمَندُوبَ لحَرْبِ فِرَنْجِ الكَرْكِ الذين ساروا لأخْذِ طَيْبَةَ ، أوْ فِرَنْجٍ سِواهُم سارُوا في البَحْرِ الْمَالِحِ ، فلَمْ يَسِرْ لُؤْلُؤٌ إلاَّ ومَعه قُيودٌ بعَدَدِهم ، فأدْرَكَهم عند الفَحْلَتينِ ، فأحاطَ بهم ، فسَلَّمُوا نفُوسَهم ، فقَيَّدَهم ، وكانوا أكْثَرَ من ثلاثِ مئة مُقاتِل ، وأقْبَلَ بهم إلى القاهِرَة ، فكانَ يَوماً مَشْهوداً .

وكان شَيْخاً أرْمنيّاً من غِلْمانِ العاضِدِ ، فخَدَمَ مع صَلاحِ الدِّين ، وعُرِفَ بالشَّجاعَة والإقْدامِ ، وفي آخِرِ أيّامِه أقْبَلَ على الخَيرِ والإنْفاقِ في زَمَنِ قَحْطِ مِصْرَ ، وكان يَتصَدَّقُ في كُلِّ يومٍ باثْنَي عَشرَ ألفَ رَغيفٍ مع عِدَّة قُدورٍ من الطَّعام وقِيلَ : إنَّ الْمَلاعِينَ[1] الْتَجَؤوا منه إلىٰ جَبلٍ ، وصَعدَ إليهم في تِسْعَة أجْنادٍ ، فأُلْقِيَ في قُلوبِهم الرُّعْبُ ، وطَلبُوا منه الأمَانَ ، وقُتلوا بمِصْرَ ، تَولَّىٰ قَتلَهم العُلَماءُ والصَّالِحُونَ .

تُوفِّيَ لُؤلُؤٌ رَحمَه اللهُ بمِصْرَ سَنةَ ثَمانٍ وتِسْعينَ وخَمسِ مئة[2] .

٣ـ وَصْفٌ جَميلٌ للصَّلبيِّين وَصَفَهم به القاضي الفَاضِلُ :

ومن إنْشاءِ الفاضِلِ إلى الدِّيوانِ وهم علىٰ عَكَّا « يَمُدُّهم البَحْرُ بمَراكِبَ أكثرَ من أمْواجِه ، ويُخرِجُ لنا أمَرَّ من أُجاجِه ، وأصْحابُنا قد أثَّرت فيهم المُدَّة الطَويلة في اسْتِطاعَتِهم لا في طاعَتِهم ، وفي أحْوالِهم لا في شَجاعَتِهم فنَقولُ : اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِك هـٰذه العِصابَةُ ، ونَرْجُو علىٰ يدِ أميرِ المؤمنينَ الإجابَةَ ، وقد حرَّمَ باباهم لَعنَه اللهُ كُلَّ مُباحٍ واسْتَخرجَ منهم كُلَّ مَذْخُورٍ وأغْلَقَ دُونَهم الكَنائسَ ، ولَبسُوا الحِدادَ ، وحَكَمَ أنْ لا يَزالُوا كَذلك أو يَسْتَخلِصُوا الْمَقْبَرَةَ ، فيا عَصَبَةَ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم اخْلُفْهُ في أُمَّتِه بما تَطْمئنُّ به مَضاجِعُه ، ووَفِّه الحَقَّ فينا ، فها نَحنُ عندَك وَدائعُه ، ولَوْلا أنَّ في

---

(١) هنا عاد الإمامُ الذهَبيُّ إلى الكلام على الصليبيين الذين أرادوا احتلال المدينة المنورة .

(٢) انظر السير : (لُؤلُؤ العَادِلي) ٢١/ ٣٨٤ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٣٧ .

التَّصْريحِ ما يَعودُ على العَدالَةِ بالتَّجْريحِ لقالَ الخادِمُ ما يُبْكي العُيونَ ويُنْكي القُلوبَ ، ولكنَّه صابِرٌ مُحْتسِبٌ وللنَّصْرِ مُرْتقِبٌ ، ربِّ لا أمْلِكُ إلاَّ نَفسي وها هي في سَبيلِكَ مَبْذولَةٌ ، وأخي وقد هاجَرَ هِجْرةً نَرْجُوها مَقْبُولَةً ، ووُلْد وقد بَذلتُ للعَدوِّ صَفَحاتِ وُجوهِهم ، ونَقِفُ عندَ هذا الحَدِّ وللهِ الأمْرُ من قَبلُ ومن بَعْد »[1] .

ومن كتابٍ إلى الدِّيوانِ : « قد بُلِيَ الإسْلامُ منهم بقَومٍ اسْتَطابوا الْمَوتَ ، وفارَقوا الأهْلَ طاعَةً لقِسِّيسِهم ، وغَيرَةً لِمَعْبَدِهم ، وتَهالُكاً علىٰ قُمامَتِهم[2] ، حتىٰ لَسارَت مَلِكَةٌ منهم بخَمسِ مئة مُقاتِلٍ الْتَزمَت بنَفَقاتِهم فأخَذَها المُسلمونَ برِجالِها بقُرب الإسْكَنْدَريَّة ، فذَواتِ المَقانِعِ مُقَنَّعاتٍ دارِعاتٍ تَحمِلُ الطَّوارِقَ والقِبْطارياتِ ، ووَجَدْنا منهم عِدَّة بين القَتلَىٰ ، وبابا رُوميَّة حَكمَ بأنَّ مَنْ لا يَتوَجَّه إلى القُدْسِ فهو مُحَرَّم لا مَنْكِحَ له ولا مَطْعَم فلهٰذا يتَهافَتون على الوُرود ويَتهالَكون علىٰ يَومِهم الْمَوْعُودِ ، وقالَ لهم : إنَّني واصِلٌ في الرَّبيعِ جامِعٌ على اسْتِنْفارِ الجَميعِ ، وإذا نَهَضَ فلا يَقعُد عنه أحَدٌ ، ويُقبِلُ معه كُلُّ مَنْ قالَ : لله وَلَد »[3] .

٤ـ مِنْ أسْبابِ ضَعْف المُسلمين عن هَزيمة الصَّليبيِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة المَلكِ الأفْضَل أبو القاسم شاهِنشاه : قالَ ابنُ خلِّكانَ في « تاريخِه » : قال صاحبُ الدُّوَلِ الْمُنْقَطِعة : خلَّفَ الأفْضلُ سِتَّ مئةِ ألفِ ألفِ دينار ، ومئتَين وخَمسين إرْدَبّاً من الدَّراهِم ، وخَمسينَ ألفَ ثَوبٍ من ديباجٍ ، وعِشرينَ ألفَ ثَوبِ حَرير ، وثَلاثينَ راحِلَة كذا وكذا ودَواةً مُجَوْهَرةً باثْنَي عَشرَ ألفِ دينار ، وعَشرَةَ مَجالِسَ ، في الْمَجلِسِ مَضرُوب عَشرَة مَساميرَ من الذَّهَب ، على الْمِسْمارِ مِنْديلٌ مَشْدودٌ فيه بدلَة ثِيابٍ وخَمسَ مئة صُندوقٍ ، فيها كِسْوَةٌ ومَتاعٌ ، سِوَى الدَّوابِّ والْمَماليكِ والبَقَرِ والغَنَمِ ، ولَبَنُ مَواشيه يُباعُ في السَّنةِ بثَلاثينَ ألفِ دينار[4] .

---

(١) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٧ .
(٢) يعني كنيسة القيامة .
(٣) انظر السير : (النَّاصِر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٧ .
(٤) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هٰذه الأشياءُ مُمْكنَةٌ ، سِوَى الدَّنانيرُ والدَّراهمُ ، فلا أُجوِّزُ ذلك ، بَلْ أسْتبعِدُ عُشْرَه ، ولا رَيبَ أنَّ جَمْعَه لهٰذه الأمْوالِ مُوجِبٌ لضَعفِ جَيشِ مِصْرَ ، ففي أيّامِه اسْتولَت الفِرَنْجُ على القُدْسِ ، وعَكا ، وصُور ، وطَرابُلسَ ، والسَّواحِلِ فلَوْ أنْفَقَ رُبْعَ مالِه ، لَجَمَعَ جَيشاً يَملأُ الفَضاءَ ، ولأبَادَ الفِرَنْجَ ، ولكن ليَقضِيَ اللهُ أمْراً كان مَفْعولاً[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة تاجِ المُلوك : وقيل : كان عَجباً في الجِهادِ لا يَفْتُر من غَزْوِ الفِرَنْجِ ، ولَوْ كانَ له عَسكَرٌ كَثيرٌ لاسْتأصَلَ الفِرَنْجَ[2] .

٥ـ تَمنِّي الذهبيِّ لَوْ أنَّ القِتالَ على المُلكِ بين المُسلمينَ كان على الصَّليبيِّين :

قال الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة العادِلِ أخي السُّلطان صَلاح الدين : وكان شَديدَ الْمُلازَمَة لخِدمَة أخيه صَلاحِ الدِّين ، وما زالَ يَتحيَّلُ حتىٰ أعْطاهُ العَزيزُ دِمَشْقَ ، فكانت السَّببَ في أنْ تَملَّكَ البلادَ ، ولَمَّا جاءَه بمَنْشُورِها ابنُ أبي الحَجَّاج أعْطاهُ ألفَ دينارٍ ، ثمَّ جَرَتْ أمُورٌ يَطولُ شَرْحُها وقِتالٌ على الْمُلكِ ، ولَوْ كانَ ذلكَ التَّعبُ والحَرْبُ جِهاداً للفِرَنْجِ لأفْلحَ .

تُوفِّيَ سَنةَ خَمسَ عَشرَةَ وستٍّ مئة[3] .

٦ـ عَلاقَةُ الصَّليبيِّين بالعُبَيْديِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الخَليفَة العبَّاسيِّ الْمُسْتَظْهِر بالله : وقيلَ : إنَّ صاحب مِصْرَ العُبَيْديَّ لَمَّا رأىٰ قُوَّةَ آلِ سُلْجُوقَ واسْتيلاءَهم على الْمَمالِك كاتَبَ الفِرَنْجَ[4] .

٧ـ نِساءٌ صَليبيَّات يُحارِبْنَ المُسلمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الخَليفَة العبَّاسيِّ النَّاصِرِ لدِينِ الله : ومن كتابٍ إلى الدِّيوانِ : « قد بُليَ الإسْلامُ منهم بقَومٍ اسْتَطابوا الْمَوتَ ، وفارَقوا الأهْلَ طاعَةً

---

(١) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠٤ .

(٢) انظر السير : (تاج المُلوك) ١٩/٥٧٣ـ ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٥١٧ .

(٣) انظر السير : (العادل وبَنوه) ٢٢/١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٢ .

(٤) انظر السير : (المُستظهر بالله) ١٩/٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٠ .

لقِسِّيسِهم ، وغَيرَةً لِمَعْبَدِهم ، وتَهالُكاً علىٰ قُمامَتِهم[1] ، حتىٰ لَسارَت مَلِكَةٌ منهم بخَمسِ مئة مُقاتِلِ الْتَزمَت بنَفَقاتِهم فأخَذَها المُسلمونَ برِجالِها بقُرب الإسْكَنْدَريَّة ، فذَواتِ المَقانِعِ مُقَنَّعاتٍ دارِعاتٍ تَحمِلُ الطَّوارِقَ والقبْطارياتِ ، ووَجَدْنا منهم عِدَّة بين القَتلَىٰ ، وبابا رُوميَّة حَكمَ بأنَّ مَنْ لا يَتوَجَّه إلى القُدْسِ فهو مُحَرَّم لا مَنْكِحَ له ولا مَطْعَم فلهٰذا يتَهافَتون على الوُرود ويَتهالَكون علىٰ يَومِهم الْمَوْعُودِ ، وقالَ لهم : إنَّني واصِلٌ في الرَّبيعِ جامعٌ على اسْتِنْفارِ الجَميعِ ، وإذا نَهَضَ فلا يَقعُد عنه أَحَدٌ ، ويُقبلُ معه كُلُّ مَنْ قالَ : لله وَلَد »[2] .

* * *

---

(١) يعني كنيسة القيامة .

(٢) انظر السير : (النَّاصر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٧ .

أَسْبابُ ضَعْفِ بَعضِ الدُّوَل ثم خَرابُها

(١) الدَّوْلَةُ الأُمَوِيَّة في الأَنْدَلُس

(أ) اسْتعانَةُ المُسلمينَ علىٰ بَعضِهم بالفِرَنْج :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ هِشام المُؤيَّدِ بالله ابنِ صاحِبِ الأَنْدَلُسِ النَّاصِر عبدِ الرَّحمٰن أخُو المُظَفَّر : وكان شنشولُ قد اسْتَعانَ بِعَسْكَرِ الفِرَنْج لأنَّ أمَّه مِنهُم ، وقامَ مَعَهُ ابنُ غومِش ، فجاءَ إلىٰ قُرطُبَة ، فتَسَحَّبَ جُنْدُهُ ، فقالَ له ابنُ غومِش : ارْجِعْ بنا قَبلَ أنْ تُؤخَذَ فأبَىٰ ، ومَالَ إلىٰ دَيْرِ شربش جَوْعانَ سَهْرانَ ، فأنْزَلَ له راهِبٌ دَجاجَةً وخُبْزاً ، فأكَلَ وشَرِبَ وسَكِرَ ، وجَاءَ لِحَرْبِه ابنُ عَمِّ المَهْديّ وحاجِبُهُ مُحمّدُ ابنُ المُغيرَةِ الأُمويّ ، فقَبَضَ عليهِ ، فظَهَرَ منهُ الجزَعُ ، وقبَّلَ قَدمَ ابنِ المُغيرَةِ ، وقالَ : أنا في طَاعَةِ المَهْديّ ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه ، وطِيفَ برأسِهِ : هٰذا شنشولُ المَأبُونُ المَخْذُولُ فلمَّا اسْتَوثَقَ الأَمْرُ للمَهْديِّ أظْهَرَ من الخَلاعَةِ والفَسادِ أكْثَرَ مِمَّا عَمِلَهُ شنشولُ[١] .

قالَ الحُمَيْديُّ : فقَامَ على المَهْديِّ ابنُ عَمِّه هشامُ بنُ سُلَيْمانَ ابنِ النَّاصِرِ لدين الله ، في شَوَّال سَنَةَ تِسْعٍ وتِسْعينَ ، وقَامَ مَعهُ البَرْبَرُ ، وأُسِرَ هشامٌ هٰذا فقتَلَه المَهْديُّ وتَحيَّرَ جُلُّهم إلىٰ قَلعَةِ رَبَاحٍ ، فهَرَبَ مَعهُم سُلَيْمانُ بنِ الحَكَمِ بنِ سُلَيْمانَ بنِ النَّاصِرِ ، وهُو ابنُ أخِي هِشامٍ المَقْتُولِ ، فبَايَعُوهُ ، وسَمَّوْهُ : المُسْتَعِينَ بالله ، وجَمَعُوا لَه مالاً ، حتّىٰ صَارَ له نَحوٌ من مِئَةِ ألْفِ دينارٍ ، فتَوَجَّهَ بالبَرْبَرِ إلىٰ طُلَيْطِلَةَ ، فتَمَلَّكَها ، وقَتَلَ وَالِيَها ، فجَزِعَ المَهْديُّ ، واعْتَدَّ للحِصَارِ ، وتَجَرَّأتْ عليه العَامَّةُ ، ثم بَعَثَ عَسْكَراً ، فهَزَمَهُم سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ثمَّ سَارَ حتّىٰ شَارَفَ قُرْطُبَة ، فبَرَزَ لِحَرْبه عَسْكَرُ المَهْديِّ ، فنَاجَزَهُم سُلَيْمانُ ثمَّ خَرَجَ أهلُ قُرطُبَةَ إلى المُسْتَعِينِ ، سُلَيمانَ فأحْسَنَ مَلْقاهُم واخْتَفَىٰ مُحمّدُ

---

(١) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٨ .

المَهْديُّ واستَوْثَقَ أمْرُ المُسْتَعِينِ ، ودَخَلَ قَصْرَ الإمارَةِ ، ووَارَى النَّاسُ قَتْلاهُم فكانُوا نَحْواً من اثْنَيْ عَشَرَ ألْفاً ، ثمَّ تَسَحَّبَ المَهْديُّ إلىٰ طُلَيْطِلَة ، فقامُوا مَعَهُ ، وكَتَبَ إلى الفِرَنْجِ ، ووَعَدَهُم بالأمْوالِ ، فاجْتَمَعَ إليهِ خَلقٌ عَظيمٌ وهو أوّلُ مال انْتَقَلَ من بَيْتِ المَالِ بالأنْدلُسِ إلى الفِرَنْجِ ، وكانت الثُّغُورُ كُلُّها باقيةً علىٰ طاعَةِ المَهْديِّ ، فقَصَدَ قُرْطُبَة في جَحْفَلٍ عَظيمٍ ، فالْتَقَى الجَمعانِ علىٰ عَقبةِ البَقَرِ علىٰ بَريدٍ من قُرْطُبَة ، فاقْتَتَلوا أشَدَّ قِتالٍ فانْهَزمَ سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ، واسْتَوْلَى المَهديُّ علىٰ قُرْطُبَة ثانياً ، ثم خَرَجَ إلىٰ قِتالِ جَماهيرِ البَرْبَرِ ، فالْتَقاهُم بوادِي آرُهْ ، فهَزَموهُ أقْبَحَ هَزيمَةٍ ، وقُتِلَ من جُنده الفِرَنْجُ ثلاثةُ آلاف ، وغَرِقَ خَلقٌ ، فجاءَ إلىٰ قُرْطُبَة ، ثم وَثَبَ عليه العَبيدُ ، فضُرِبَتْ عُنُقُه ، وقُطِعَتْ أرْبَعَتُه ، وكَفَى اللهُ شَرَّهُ في ثامِنِ ذي الحِجَّة عام أربعِ مِئَة ، وعَاشَ أرْبَعاً وثلاثينَ سَنَةً[١] .

(ب) البَرْبَرُ وإفْسَادُهُم :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ هِشامِ المُؤيَّد بالله ابنِ صاحِبِ الأنْدَلُسِ النَّاصِر عبدِ الرَّحمَـٰن أخُو المُظَفَّر : وعاثَت البَرْبَرُ ، وعَمِلَت ما لا يَعمَله مُسلمٌ ، ونازَلوا قُرْطُبَةَ سَنة اثْنَتين وأرْبَع مئة ، واشْتدَّ القَحْطُ والبَلاءُ وفَنِيَ النَّاسُ ، ودَخلَ البَرْبَرُ بالسَّيفِ في سَنةِ ثلاثٍ وأرْبَع مئة ، فقَتلوا حتى الوِلْدانَ ، وهَربَ الخَلقُ ، وهَربَ المُؤيَّدُ بالله إلى المَشرِقِ ، فحَجَّ ، ولقد تَصرَّفَ في الدُّنيا عَزيزاً وذَليلاً ، والعِزَّةُ للهِ جَميعاً[٢] .

وبالجُملَة فالذي جَرَىٰ علىٰ أهْلِ الأنْدَلُسِ من جُندِها البَرْبَر لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ عَملوا ما يَصْنَعُه كُفَّارُ التُّرْكِ وأبْلَغ ، وحَرَّقُوا الزَّهْراءَ وجَامِعَها وقُصورَها ، وكانت أحْسَنَ مَدينَةٍ في الدُّنْيا وأطْراهَا ، قالَ ابنُ نبيط :

ثـلاثـة مـن طبعهـا الفسـاد   الفـأر والبـربـر والجـراد[٣]

(١) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٨ .
(٢) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٩ .
(٣) انظر السير : (هشام المؤيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٩ .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ سُلَيمَانَ الْمُسْتَعينِ بالله : جَالَ بالبَرْبَرِ يُفْسِدُ ويَنْهَبُ البلادَ ، ويَعمَلُ كُلَّ قَبيح ، ولا يُبْقي علىٰ أحَدٍ فكان من جُملَة جُندِه القاسِمُ وعليٌّ ابنا حَمُّودِ بنِ مَيْمُونِ العَلَويِّ الإدريسيِّ ، فجَعلَهما قائدَيْن على البَرْبَر ، وأمَّرَ عَليّاً علىٰ سَبْتَة وطَنْجَة وتلك العُدوَة وأمَّرَ القاسِمَ على الجَزيرَةِ الخَضْراءِ[1] .

وقالَ الحُمَيديُّ : لَمْ يَزَلْ الْمُسْتَعينُ يَجُولُ بالبَرْبَرِ يُفْسِدُ ويَنهَبُ ، ويُقْفِرُ الْمَدائنَ والقُرَىٰ بالسَّيف ، ولا يُبقي معه البَرْبَرُ علىٰ صَغيرٍ ولا كَبير ، إلىٰ أنْ غَلبَ علىٰ قُرْطُبَةَ[2] .

(ج) انْقِضَاضُ بَعضِ الأُمَراء على الخِلافَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ سُلَيمَانَ الْمُستَعينِ بالله : ثم إنَّ عليَّ ابنَ حَمُّودَ الإدْريسيَّ طَمِعَ في الخِلافَةِ وراسَلَ جَماعةً ، فاسْتجابَ له خَلقٌ ، وبايَعوه ، فعَدَّىٰ من سَبْتَةَ إلى الأنْدَلُسِ ، فبايَعَه مُتَولِّي مالِقَه واسْتحْوَذَ على الكِبارِ ، وزَحَفَ إلىٰ قُرْطُبَةَ ، فجَهَّزَ الْمُسْتَعينُ بالله لحَرْبِه وَلدَه مُحمَّدَ بنَ سُليمانَ ، فالْتَقوا ، فانْهَزَمَ مُحمَّدٌ ، وهَجمَ ابنُ حَمُّود ، فدَخَلَ قُرْطُبَةَ في الحالِ ، وظَفِرَ بالْمُسْتَعينِ ، فذَبَحَه بيدِه صَبْراً ، وذَبَحَ أباه الحَكَمَ وهو شَيخٌ في عَشْر الثَّمانينَ ، وذلكَ في الْمُحرَّم ، سَنةَ سَبعٍ وأرْبَع مئة وانْقَضَتْ دَولَةُ الْمَرْوانيَّة في جَميعِ الأنْدَلُس .

وكان الْمُسْتَعينُ أديباً شاعِراً ، عاشَ نَيِّفاً وخَمسينَ سَنةً[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٢٩ .
(٢) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٣٠ .
(٣) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٠ .

(٢) الدَّوْلَةُ العَبَّاسِيَّة

(أ) تَحَكُّمُ الأَتْراك بالخُلَفاءِ وخَلْعُهم وتَعْذيبُهم كما يَحْلو لهم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَوَكِّل على الله : وكان الْمُتَوَكِّلُ جَواداً مُمَدَّحاً لعَّاباً ، وأرادَ أنْ يَعزِلَ من العَهْد الْمُنْتَصِرَ ، ويقدِّمَ عليه الْمُعْتَزَّ لحُبِّه أُمَّهُ قَبيحَة ، فأبَى الْمُنْتَصِرُ ، فغَضِبَ أبوه وتَهدَّدَه ، وأغْرَىٰ به ، وانْحَرفَت الأَتْراكُ على الْمُتَوَكِّل لِمُصادَرَتِه وَصيفاً وبُغا حتى اغْتالُوه .

وبُويعَ الْمُنْتَصِرُ من الغَدِ بالقَصْرِ الجَعْفَريِّ سَنَةَ سبْعٍ وأرْبَعينَ ومِئَتَين[١] .

وكان الْمُنْتَصِرُ بالله وافِرَ العَقْل ، راغِباً في الخَيرِ ، قَليلَ الظُّلمِ ، باراً بالعَلويِّينَ ، ويَسُبُّ الأتْراكَ ويَقولُ : هَؤلاء قَتلَةُ الخُلَفاء ، فقالَ بُغا الصَّغيرُ للذين قَتلوا الْمُتَوَكِّلَ : ما لكم عند هـٰذا رِزْقٌ فعَملوا عليه وهَمُّوا ، فعَجَزوا عنه ، لأنَّه كانَ شُجاعاً مَهيباً يَقِظاً مُتَحرِّزاً لا كأبيه فتَحيَّلوا إلىٰ أنْ دَسُّوا إلىٰ طَبيبه ابنِ طَيْفُور ثَلاثينَ ألفَ دينار عند مَرَضِه فأشارَ بفَصْدِه ، ثم فَصَدَه بريشَةٍ مَسْمومَةٍ ، فماتَ منها[٢] .

وكان الْمُنْتَصِرُ بالله قد أبْعَدَ وَصيفاً في عَسْكر إلىٰ ثَغْرِ الرُّوم ، وكان قد أَلَحَّ عليه هو وبُغا وابنُ الخَصيب في خَلعِ إخْوَتِه خَوْفاً من أنْ يَلِيَ الْمُعْتَزُّ فيَسْتأصِلَهم ، فاعتُقلا ، وتَمنَّع أوَّلاً الْمُعْتَزُّ ، ثم خافَ ، وأشْهَدا علىٰ أنْفسِهما أنَّهما يَعْجَزان عن الإمامَة ، فقالَ الْمُنْتَصِرُ : أتَرَياني خَلَعْتُكما طَمَعاً في أنْ أعيشَ بَعدَكما حتىٰ يَكبُرَ ابني عبدُ الوَهَّاب ، وأعْهَدُ إليه ؟! والله ما طَمِعتُ في ذلك ولكنْ هـٰؤلاء ألَحُّوا عليَّ ، وخِفتُ عليكما من القَتلِ فقبَّلا يدَه ، وضَمَّهُما إليه[٣] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُسْتَعينِ بالله : وهاجَت الفِتنَةُ الكُبرىٰ بالعِراقِ ،

---

(١) انظر السير : (الْمُتَوَكِّل على الله) ١٢/ ٣٠ـ٤١ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٩ .

(٢) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٩ .

(٣) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ٤٦ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٠ .

فتنَكَّر التُّرْكُ للْمُسْتَعينِ بالله ، فخافَ وتَحوَّلَ إلىٰ بَغْدادَ ، فنزَلَ بالجانِبِ الغَربيِّ علىٰ نائبه ابنِ طاهِر ، فاتَّفقَ الأتْراكُ بسامَرَّاءَ ، وبعَثوا يَعتذِرُونَ ، ويَسألونَه الرُّجوعَ ، فأبَىٰ عليهم فغَضِبوا ، وقَصَدوا السِّجْنَ ، وأخْرَجوا الْمُعْتَزَّ باللهِ ، وبايَعوا له ، وخَلَعوا الْمُسْتَعينَ ، وبَنوا أمْرَهم علىٰ شُبْهَةٍ ، وهي أنَّ الْمُتَوَكِّلَ عَقدَ للْمُعْتَزِّ بعد الْمُنْتَصِرِ ، فجَهَّزَ الْمُعْتَزُّ أخاه أبا أحْمَدَ لِمُحارَبَة الْمُسْتَعينِ ، وتَهيَّأ الْمُسْتَعينُ وابنُ طاهِر للحِصارِ ، وإصْلاحِ السُّورِ ، وتَجرَّدَ أهْلُ بَغْدادَ للقَتلِ ونُصِبَت الْمَجانِقُ ، ووَقعَ الجِدُّ ، ودامَ البَلاءُ أشْهُراً ، وكَثُرت القَتلَىٰ ، واشْتدَّ القَحْطُ ، وتَمَّت بينهما عِدَّةُ وَقعاتٍ ، بحيثُ إنَّه قُتلَ في نَوْبَةٍ من جُندِ الْمُعْتَزِّ ألفانِ ، إلىٰ أنْ ضَعُفَ أهْلُ بَغدادَ وذَلُّوا وجاعُوا[1] .

فكاتبَ ابنُ طاهِرٍ في السِّرِّ الْمُعْتَزَّ ، وانحَلَّ نظامُ الْمُسْتَعين ، وإنَّما كان قَوامُ أمْرِه بابنِ طاهِر ، وكاشَفَه الناسُ ، فتَحوَّل إلى الرُّصافَة ، ثم سَعى النَّاسُ في الصُّلْحِ ، وخَلْعِ الْمُسْتَعين ، فأقامَ في ذلك إسْماعيلُ القاضي وغَيرُه بشُروطٍ وَثيقَة ، فأذْعَنَ بخَلع نَفسه في أوَّلِ سَنة اثنَتين وخَمسينَ ومئتَين ، وأشْهَد عليه ، ثم حُوِّل إلىٰ سامَرَّاء فقُتلَ بقادسيَّة سامَرَّاء في ثالثِ شَوَّال من السَّنَة ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون[2] .

وقال الصُّوليُّ : بَعثَ الْمُعْتَزُّ أحمدَ ابنَ طُولونَ إلىٰ واسِطَ لقَتلِ الْمُسْتَعينِ ، فقالَ : واللهِ لا أقْتُلُ أولادَ الخُلَفاء فبَعثَ سَعيداً الحاجِبَ ، فما مَتَعَ اللهُ الْمُعْتَزَّ ، بلْ عُوجِلَ بالخَلْعِ والقَتْلِ جَزاءً وِفاقاً[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمة الْمُعْتَزِّ بالله أبي عبد الله ، مُحمَّدِ ابنِ الْمُتَوَكِّلِ : وكانت دَولَةُ الْمُعْتَزِّ مُستَضْعَفَة مع الأتْراكِ ، فاتَّفقَ القُوَّادُ ، وقالوا : أعْطِنا أرْزاقَنا ، ويُقبلُ صالحُ بنُ وَصيف ، وكان الْمُعْتَزُّ يَخافُه ، فطَلَبَ من أُمِّه مالاً ليُنفِقَه فيهم ، فشَحَّت عليه ، فتَجمَّعَ الأتراكُ لخَلعِه ، واتَّفقَ مَعهم صالحُ وبابياك ، ومُحمَّدُ بنُ بُغا ، فتَسلَّحوا ، وأتَوا الدَّارَ ، وبَعثوا إلى الْمُعْتَزِّ ليَخرُجَ إليهم فقالَ : قد شَربتُ دَواءً ، وأنا ضَعيفٌ فهَجَمَ جَماعَةٌ ، جَرُّوهُ وضَربُوه ، وأقامُوه في الحَرِّ ، فبَقيَ المِسْكينُ يَتضوَّرُ

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/ ٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٩٨٠/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/ ٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٩٨١/ ١ .

(٣) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/ ٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٩٨١/ ٢ .

وهم يَلْطِمونَه ، ويَقولونَ : اخْلَعْ نَفْسَكَ ، ثم أَحْضَروا القاضيَ والعُدولَ ، وخَلعُوهُ وأَقْدَموا من بَغْدادَ مُحمَّدَ بنَ الوَاثِقِ ، وكان الْمُعْتَزُّ قد أَبْعدَه ، فسَلَّم الْمُعْتَزُّ إليه الخِلافَةَ ، وبايَعوه ، ولُقِّبَ الْمُهْتَدي بالله[1] .

ثم إنَّ رُؤوسَ الأتْراكِ ، أَخَذوا الْمُعْتَزَّ بعد خَمسةِ أيَّامٍ فأَدْخَلوه حَمَّاماً وأَكْرَبوه حتىٰ عَطشَ ، ومَنعوه الماءَ حتىٰ كادَ ، ثم سَقَوْه ماءَ ثَلجٍ ، فسَقطَ مَيِّتاً ، رَحمَه اللهُ وذلكَ في سَنةِ خَمسٍ وخَمسينَ ومِئتَين وعاشَ ثَلاثاً وعِشْرينَ سَنةً[2] .

ووَهَىٰ مَنصِبُ الخِلافَة ، فللّه الأمْرُ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الْمُهْتَدي بالله : وعاثَت الزِّنْجُ بالبَصْرَة ، ويَعقوبُ الصَّفَّار بخُراسانَ ، وقَتلَ الْمُهْتَدي الأميرَ باكيال ، فثار أَصحابُه ، وأَحاطُوا بدارِ الجَوْسَق ، فأُلقِيَ الرأسُ إليهم ، ورَكبَ أَعْوانُ الخَليفَة ، فتمَّت مَلحَمةٌ كبرَىٰ ، قُتلَ فيها من الأتْراكِ أُلوفٌ وقِيلَ بل أَلفٌ في رَجبَ سَنةَ سِتٍّ وخَمْسينَ ومِئتين ، ثم أَصْبَحوا على الحَرْب ، فرَكبَ الْمُهْتَدي وصالِحُ بنُ عليٍّ في عُنقِه الْمُصْحَفُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ ؛ انْصُروا إمامَكم فحَملَ عليه أَخُو باكيالَ في خَمسِ مئة ، وخامَرَ الأتْراكَ الذين مع الخَليفَة إليه ، وحَميَ الوَطيسُ ، وتفلَّلَ جَمْعُ الْمُهْتَدي واسْتحَرَّ بهم القَتلُ فولَّىٰ والسَّيفُ في يدِه يقولُ : أيُّها النَّاسُ : قاتِلوا عن خَليفَتِكم ، ثم دَخلَ دارَ صالحِ بنِ مُحمَّدِ بنِ يَزْدادَ ، ورَمَى السِّلاحَ ، ولَبسَ البَياضَ ليَهْربَ من السَّطحِ وجاءَ حاجِبُ باكيالَ ، فأُعْلِمَ به فهَربَ ، فرَماهُ واحدٌ بسَهْمٍ ، ونَفَخَهُ بالسَّيفِ ثم حُملَ إلى الحاجِب ، فأَرْكَبوه بَغْلاً وخَلفَه سائسٌ ، وضَربُوه وهم يَقولُون : أَينَ الذَّهبُ ؟ فأَقَرَّ لهم بسِتِّ مئة أَلفِ دينار مُودَعَةً ببَغْدادَ ، فأَخَذُوا خَطَّه بها ، وعَصَرَ تُرْكيٌّ علىٰ أُنْثيَيه فمات ، وقيلَ : أرادُوا منه أنْ يَخلَعَ نَفسَه فأَبَىٰ فقَتلوه رَحمَه اللهُ وبايَعوا الْمُعْتَمِدَ على الله وفي ذُرِّيَتِه عُلماءُ وخُطَباءُ[4] .

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَزُّ بالله) ١٢/ ٥٣٢ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٨ .

(٢) انظر السير : (الْمُعْتَزُّ بالله) ١٢/ ٥٣٢ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٢٨ .

(٣) انظر السير : (الْمُعْتَزُّ بالله) ١٢/ ٥٣٢ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٢٨ .

(٤) انظر السير : (الْمُهْتَدي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَّقِي : وتوجه الْمُتَّقِي لله من الرَّقَّة إلىٰ بَغْدادَ ، فأقامَ بهِيتَ ، وحَلَفَ له تَوْزُونُ ، فلمَّا الْتَقاه تَرجَّلَ له وقَبَّلَ الأرضَ ، ومَشَىٰ بين يدَيه إلىٰ مُخيَّمٍ ضَربَه للمُتَّقِي ، فلمَّا نزَلَ قَبضَ تَوْزُونُ عليه وسَمَلَه ، وأُدخِلَ بغدادَ أعْمَىٰ ، فللَّه الأمْرُ ، وأخَذَ منه البُرْدَ والقَضيبَ والخَاتَمَ ، وأحْضرَ عبدَ الله الْمُسْتَكْفي بالله ابنَ الْمُكْتَفي فبايَعه بالخِلافَة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُسْتَكْفي : ثم دَخلَ على الخَليفَةِ اثنانِ من الدَّيْلَمِ ، فطلبا منه الرِّزْقَ ، فمَدَّ يدَه للتَّقْبيلِ ، فجَبَذاه من سَريرِ الخِلافَة ، وجَرَّاه بعَمامَتِه ، ونُهِبَت دارُه وساقُوا الْمُسْتَكْفي ماشياً إلىٰ مَنزِل مُعِزِّ الدولة فخَلَعَ الْمُسْتَكْفي وسَمَلَه ، فكانَت خِلافتُه سِتَّةَ عَشرَ شَهْراً .

وضَعُفَ دَسْتُ الخِلافَة جدّاً ، وظَهرَ الرَّفْضُ والاعْتِزالُ ببَني بُوَيْه ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ .

وكان إكْحالُ الْمُسْتَكْفي بعد أنْ خَلعَ نفسَه ذَليلاً مَقْهُوراً في جُمادَى الآخرة سَنةَ أرْبَع وثَلاثينَ فعاشَ بعد العَزْلِ والكَحْلِ أرْبَعةَ أعْوامٍ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُطيع لله : وكانَ كالْمَقْهورِ مع نائبِ العِراقِ ابنِ بُوَيْه ، قَرَّرَ له في اليومِ مئةَ دينارٍ فقَط واشْتدَّ الغَلاءُ الْمُفْرِطُ ببَغْدادَ ، فذَكرَ ابنُ الجَوْزيِّ أنَّه اشْتَرىٰ لِمُعِزِّ الدَّولَة كُرَّ دَقيقٍ بعِشْرينَ ألفِ دِرْهَم[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الطَّائع لله : الخَليفَةُ أبو بكر عبدُ الكَريم بنُ الْمُطيعِ لله الفَضْلِ بنِ الْمُقْتَدِر وكان الحَلُّ والعَقْدُ للمَلكِ عِزِّ الدولَة وابنِ عَمِّه عَضُدِ الدولَة .

قال ابنُ الجَوْزيِّ : لَمَّا اسْتُخلِفَ رَكبَ وعليه البُرْدَةُ وبينَ يَدَيه سُبُكْتِكِينُ الحاجبُ وخَلَعَ من الغَدِ علىٰ سُبُكْتِكِينَ خِلَعَ السَّلْطَنَةِ ، وعَقدَ له اللِّواءَ ، ولقَّبَه نَصْرَ الدولةِ ولَمَّا

---

(١) انظر السير : (الْمُتَّقِي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ١١٨٩/ ٢ .

(٢) انظر السير : (الْمُسْتَكْفي) ١٥/ ١١١ـ ١١٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٩/ ٥ .

(٣) انظر السير : (الْمُطيعُ لله) ١٥/ ١١٣ـ ١١٨ ، وانظر النزهة : ١١٩٠/ ٢ .

كانَ عيدُ الأضْحَىٰ رَكِبَ الطَّائعُ إلى الْمُصلَّىٰ ، وعليه قُباءٌ وعِمامَةٌ ، فخَطبَ خُطبَةً خَفيفَةً بعدَ أنْ صَلَّىٰ بالنَّاسِ فتَعرَّضَ عِزُّ الدولَةَ لإقْطَاعِ سُبُكْتِكِينَ ، فجَمعَ سُبُكْتِكِينُ الأتْراكَ فالتَقَوا فانْتُصرَ سُبُكْتِكِينُ ، وقامَت مَعه العَامَّةُ ، وكَتَبَ عِزُّ الدولَة يَستَنْجِدُ بعَضُدِ الدَّولَةِ ، فتَوانَىٰ ، وصار النَّاسُ حِزْبَين ، فكانت السُّنَّةُ والدَّيْلَمُ يُنادُونَ بشِعارِ سُبُكْتِكِينَ ، والشِّيعَةُ يُنادُونَ بشعارِ عِزِّ الدَّولَةِ ووَقَعَ القتالُ ، وسُفكَت الدماءُ ، وأحْرِقَ الكَرْخُ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ القَائِم بأمْرِ الله : ولَمْ يَزلْ أمْرُه مُسْتَقيماً إلىٰ أن قُبضَ عليه في سَنةِ خَمسينَ وأرْبَع مئة ، لأنَّ أرْسلانَ التركيَّ البَسَاسيريَّ ، عَظُم شأنُه لعَدم نَظيرٍ له وتَهيَّبَتْهُ أُمَراءُ العَرَب والعَجَم ، ودُعيَ له على الْمَنابر وظَلمَ وخرَّبَ القُرَىٰ وانْقَهَر معه القَائِمُ ، ثم تُحدِّثَ بأنَّه يُريدُ نَهبَ دارَ الخِلافَة ، وعَزْلَ القَائِمِ فكاتبَ القَائِمُ طُغرلْبَكَ مَلكَ الغزِّ يَستنهضُه ، وكان بالريِّ ثم أُحْرِقَتْ دارُ البَسَاسيريِّ ، وهَربَ ، وقَدِمَ طُغْرلْبَك في سَنةِ سَبعٍ وأرْبَعين وأرْبَع مئة وذَهبَ البَسَاسيريُّ إلى الرَّحْبَةِ[2] ومَعه عَسكرٌ ، فكاتبَ الْمُسْتَنْصرَ العُبَيْديَّ فأمَدَّه من مِصْرَ بالأمْوَالِ ، ومَضَىٰ طُغْرلْبَك سَنةَ تِسْعٍ إلىٰ نَصيبينَ ومعه أخُوهُ يَنالُ ، فكاتَبَ البَسَاسيريُّ يَنالَ فأفْسدَه ، وطَمِعَ بمَنْصِبِ أخيه ، فسارَ بجَيشٍ ضَخْم إلى الرَّيِّ ، فسارَ أخُوه في أثَرِه ، وتَفرَّقَت الكَلمةُ والْتَقى الأخَوان بهَمَذانَ وظَهَرَ يَنالُ ، واضْطَربَ أمْرُ بَغْدادَ ، ووَقَعَ النَّهْبُ ، فوَصَلَ البَسَاسيريُّ في ذي القَعْدَة إلى الأنْبارِ وبُطِّلَت الجُمُعَةُ ، ثم دَخلَ هو بَغْدادَ في الرَّاياتِ الْمِصْريَّة ، وضَربَ سُرادِقَه علىٰ دِجْلَة ، ونَصَرَتهُ الشِّيعَةُ وكانَ قد جَمعَ العَيَّارينَ والفَلاَّحينَ ، وأطْمَعَهُم في النَّهْبِ وعَظُمَ القَحْطُ ، واقْتَتلوا في السُّفُنِ ثم في الجُمُعَة الْمُقبلَة دُعِيَ لصاحِبِ مِصْرَ بجامِعِ الْمَنصُورِ ، وأذَّنُوا بـ « حَيَّ عَلىٰ خَيرِ العَمَل » وخَندَقَ الخليفةُ حولَ داره ، ثم نَهضَ البَسَاسيريُّ في أهْلِ الكَرْخِ وغيرِهم إلىٰ حَربِ القَائِمِ ، فاقْتَتلوا يومَينِ ، وكَثُرت القَتلىٰ ، وأُحْرِقَت الأسْواقُ ودَخلوا الدَّارَ فانتَهَبوها وتَذَمَّمَ القَائِمُ إلى الأميرِ قُرَيش

---

(١) انظر السير : (الطَّائع لله) ١٥/١١٨ـ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١١٩١ .

(٢) تقع على الفرات بين الرّقة وبغداد .

العُقيليّ ـ وكان مِمَّنْ قامَ مع البَسَاسيريِّ ـ فأذَمَّه ، وقبَّلَ بين يَديه فخَرجَ القَائِمُ راكباً ، بين يَدَيه الرَّايَةُ ، والأتْراكُ بينَ يَدَيْه ، وأُنْزِلَ في خَيمَةٍ ثم قَبَضَ البَسَاسيريُّ على الوَزيرِ أبي القاسم عَليِّ بنِ الْمُسْلمَة ، والقاضي أبي عبد الله الدَّامَغَانيِّ ، وجَماعَةٍ ، فصُلِبَ الوَزيرُ فهَلكَ[1] .

(ب) تَحَكمُ السَّلاطين (بَنُو بُوَيْه والسَّلاجِقَة) بالخُلَفاءِ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ الطَّائِع لله : وتَمكَّنَ عَضُد الدَّولَة ، ولُقِّبَ أيضاً تَاجَ الْمِلَّة ، وضُربَتْ له النَّوْبَة في ثلاثَةِ أوْقاتٍ[2] ، وعَلا سُلطانُه عُلواً لا مَزيدَ عَليه ، ومع ذَلك الارْتِقاء فكانَ يَخْضَعُ للطَّائِع ، وجاءَه رسُولُ العَزيزِ العُبَيْديِّ صاحبِ مِصْرَ ، فراسَلَه بتَوَدُّد وطَلَبَ من الطَّائِع أنْ يزيدَ في ألقابِه ، فجَلسَ له الطَّائِعُ وحَوْلَه مئة بالسُّيوفِ والزِّينَة وبينَ يَدَيه الْمُصْحَفُ العُثْمانيُّ ، وعلىٰ كَتفِه البُرْدَة وبيدِه القَضيبُ ، وهو مُتقلِّدٌ السَّيفَ ، وأُسْبلَت السِّتارَةُ ودَخَلَ التُّرْكُ والدَّيْلَمُ بلا سِلاحٍ ، ثم أُذِنَ لعَضُد الدولَة ورُفعَت له السِّتارَةُ ، فقبَّلَ الأرضَ قالَ : فارْتاعَ زِيادٌ القائدُ ، وقال بالفارِسيَّة : أهَـٰذا هو اللهُ ، فقيلَ له : بَلْ خَليفَةُ الله في أرْضِه ومَشَىٰ عَضدُ الدولَة ، وقبَّل الأرضَ مرَّاتٍ سَبعاً فقالَ الطَّائعُ لخادِمه : اسْتَدْنِه فصَعدَ وقبَّلَ الأرضَ مرَّتين ، فقالَ : ادْنُ إليَّ ، فدَنا حتىٰ قبَّلَ رِجْلَه ، فثَنى الطائعُ يدَه عَليه ، وأمرَه فجَلسَ علىٰ كُرسيٍّ بعد الامْتِناعِ ، حتىٰ قالَ : أقْسمتُ لتَجلِسَنَّ ، ثم قالَ : ما كان أشْوَقَنا إليك وأتْوَقَنا إلىٰ مُفاوَضَتِك ، فقالَ : عُذْري مَعلومٌ قال : نيَّتُكَ مَوْثوقٌ بها ، فأوْمَأ برأسِه ، فقالَ : قد رَأيتُ أنْ أُفوِّضَ إليك ما وَكلَه الله إليَّ من أمُورِ الرَّعيَّة في شَرْقِ الأرض وغَرْبها سِوَىٰ خاصَّتي وأسْبابي ، فتَولَّ ذلك مُستَجيراً بالله ، قال : يُعينُني الله علىٰ طاعَةِ مَوْلانا أميرِ المؤمنينَ وخِدمَتِه ، وأريدُ كِبَارَ القُوَّادِ أنْ يَسْمَعوا لَفْظَكَ ، قال الطَّائعُ : هاتوا الحُسَيْنَ بنَ مُوسَىٰ ، وابنَ مَعْروف ، وابنَ أُمِّ شَيْبانَ فقدِمُوا ، فأعَادَ الطَّائعُ بالتَّفْويضِ ،

---

(١) انظر السير : (القَائِم بأمْرِ الله) ١٥/١٣٨ـ١٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٥ .

(٢) كان من العادة أن تُضرب الدبادب في أوقات الصلاة علىٰ باب الخليفة وقد أحب معز الدولة أن تضرب له الدبادب أيضاً علىٰ بابه وسأل المطيع ذلك ، فلم يأذن له .

ثم أُلْبِسَ الخِلَع والتَّاجَ ، فأوْمَأ ليُقَبِّلَ الأرضَ فلَمْ يُطِقْ فقال الطَّائِعُ : حَسْبُك وعَقَدَ له لِواءَين بيدِ ثم قال : يُقرأُ كتابُه فقُرِىءَ فقالَ الطَّائِعُ : خَارَ اللهُ لنا ولكَ وللمُسلمينَ ، آمُرُكَ بما أَمَرَكَ اللهُ به ، وأنْهَاكَ عمَّا نَهَاكَ اللهُ عنه وأبْرَأُ إلى اللهِ مِمَّا سِوَىٰ ذلك انْهَضْ على اسْمِ اللهِ ثم أعْطاهُ بيَده سَيفاً ثانياً غيرَ سَيفِ الخِلْعَة ، وخَرَجَ من بابِ الخاصَّة ، وشَقَّ البَلَدَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة مَلِكْشاه : وقَدِم مَلِكْشاهُ بَغْدادَ مَرَّتين وقَدِمَ إلىٰ حَلَبَ ، ولمْ يَكُنْ للمُقْتَدي معه غيرُ الاسْم ، ثم قَدِمَها ثالثاً عَليلاً وكان الْمُقْتَدي قد فَوَّض العَهْدَ إلى ابنِه الْمُسْتَظْهِر ، فألْزَمَه مَلِكْشاهُ بعَزْلِه ، وأنْ يُوَلِّي ابنَ بِنْتِه جَعْفَراً ، وأنْ يُسَلِّمَ بَغْدادَ إليه ، ويَتَحوَّلَ إلى البَصْرَة ، فشَقَّ على الْمقْتَدي ، وحارَ ثم طَلَبَ الْمُهْلَة عَشرةَ أيّام ليَتَجهَّزَ ، فصَامَ وطَوَىٰ ، وجَلسَ على التُّرابِ وتَضَرَّعَ إلىٰ رَبِّه ، فقَوِيَ بالسُّلطانِ المَرَضُ ، وماتَ في شَوَّال سَنة خَمسَة وثَمانينَ عن تسع وثلاثين سنة فقيل : سُمَّ في خِلالٍ تَخلَّلَ به ، وكان وَزيرُه النِّظامُ قد قُتلَ من أيام ، ولَمْ يَشْهَدْ السلطان كَبيرُ أحَد ، ولا عُمِلَ له عَزاءٌ ونُقِلَ تابُوتُه إلىٰ أصْبَهَان ، فدُفن في مَدرسَةٍ عَظيمةٍ .

وقد تَزوَّجَ الْمُسْتَظْهِرُ بالله بخَاتُونَ بنتِه الأخرىٰ ، وتَنازَعَ في الملك أوْلادُه من بعده زَماناً ، وكان آخِرُهم مَوْتاً ابنُه سَنْجَر صاحبُ خُراسَان ، عاشَ بعد أبيه أقَلَّ من سَبعينَ سَنةً[2] .

(ج) الإسْرافُ والتَّبْذِير :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ الْمُسْتَعينِ بالله : وكان مِتْلافاً للمَالِ ، مُبَذِّراً ، فرَّقَ الجَواهِرَ وفاخِرَ الثِّيابِ ، اخْتَلَّتِ الخِلافَةُ بوِلايَتِه ، واضْطرَبت الأمُورُ .

وسَجَنَ الْمُعْتَزَّ والْمُؤَيَّدَ ، وضَيَّقَ عليهما ، واشْتَرَىٰ أمْلاكَهُما كَرْهاً وقَرَّرَ لهما في العام نَيِّفاً وعِشْرينَ ألفَ دينارٍ ليسَ إلاَّ[3] .

---

(1) انظر السير : (الطَّائع لله) ١٥/١١٨ـ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٢ .

(2) انظر السير : (مَلِكْشاه) ١٩/٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٦ .

(3) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/٤٦ـ٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/٩٨٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمةِ الْمُقْتَدِر : وكان سمحاً مِتْلافاً للأموالِ ، مَحَقَ ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَىٰ[1] .

ويقالُ إنَّه أتْلفَ من المالِ ثَمانينَ ألفِ ألفِ دينارٍ ، عَثَّرَ نَفَسَه بيدِه[2] .

(د) الخُروجُ على الدَّوْلَة :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمة الرِّياشيِّ : فِتْنَةُ الزِّنجِ كانَت عَظيمَةٌ ، وذلكَ أنَّ بَعضَ الشَّياطِينِ الدُّهاةُ كانَ طُرقيّاً أوْ مُؤَدِّباً ، له نَظَرٌ في الشِّعْرِ والأخْبارِ ، ويَظْهَرُ من حَالِه الزَّنْدَقَةُ والمُروقُ ، ادَّعَىٰ أنَّه عَلَويّ ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فالْتَفَّ عليه قُطَّاعُ طَريقٍ ، والعَبيدُ السُّودُ من غِلْمانِ أهْلِ البَصْرَةِ ، حتىٰ صارَ في عِدَّةٍ وتَحَيَّلوا وحَصَّلوا سُيوفاً وعِصيّاً ، ثمّ ثارُوا علىٰ أطْرافِ البَلَدِ ، فبَدَّعوا وقَتَّلوا وقَوُوا ، وانْضَمَّ إليهم كُلُّ مُجرِمٍ ، واسْتَفْحَلَ الشَّرُّ بهم ، فسارَ جَيشٌ من العِراقِ لحَرْبِهم ، فكَسَروا الجَيشَ ، وأخَذُوا البَصْرَةَ ، واسْتَباحُوها ، واشْتَدَّ الخَطْبُ ، وصارَ قائِدُهم الخَبيثُ في جَيشٍ وأُهْبَة كاملة ، وعَزَمَ علىٰ أخْذِ بَغْدادَ ، وبَنَىٰ لنَفسِه مَدينَةً عَظيمَةً ، وحارَ الخَليفَةُ المُعْتَمدُ في نَفسِه ، ودامَ البَلاءُ بهٰذا الخَبيثِ المَارِقِ ثلاثَ عَشرةَ سَنةً ، وهابَتْهُ الجُيوشُ ، وجَرَتْ معه مَلاحِمُ ووَقَعاتٌ يَطُولُ شَرحُها ، قد ذَكَرَها المُؤرِّخُونَ إلىٰ أنْ قُتِلَ ، فالزِّنجُ هم عِبارَةٌ عن عَبيدِ البَصْرَةِ الذين ثارُوا مَعَه ، لا بارَكَ اللهُ فيهِم[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمة الْمُهْتَدي بالله : وعاثَت الزِّنْجُ بالبَصْرَة ، ويَعقوبُ الصَّفَّارِ بخُراسانَ ، وقَتلَ الْمُهْتَدي الأميرَ باكيال ، فثار أصحابُه ، وأحاطُوا بدارِ الجَوْسَق ، فأُلقِيَ الرأسُ إليهم ، ورَكبَ أعْوانُ الخَليفَة ، فتمَّت مَلحَمةٌ كبرَىٰ ، قُتلَ فيها من الأتْراكِ ألوفٌ وقِيلَ : بل ألفٌ في رَجبَ سَنةَ سِتٍّ وخَمْسينَ ومِئتين ، ثم أصْبَحوا على الحَرْب ، فرَكبَ الْمُهْتَدي وصالحُ بنُ عليٍّ في عُنقِه الْمُصْحَفُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ ؛ انْصُروا إمامَكم فحَملَ عليه أخُو باكيالَ في خَمسِ مئة ، وخامَرَ الأتْراكُ

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/ ٤٣ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ١١٨٠/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/ ٤٣ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ١١٨٠/ ٦ .

(٣) انظر السير : (الرِّياشيّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١٠١٠/ ١ .

الذين مع الخَليفَة إليه ، وحَميَ الوَطيسُ ، وتفلَّلَ جَمْعُ الْمُهْتَدي واسْتحَرَّ بهم القَتلُ فولَّىٰ والسَّيفُ في يدِه يقولُ : أيُّها النَّاسُ ؛ قاتِلوا عن خَليفَتِكم ، ثم دَخلَ دارَ صالِح بنِ مُحمَّدِ بنِ يَزْدادَ ، ورَمَى السِّلاحَ ، ولَبسَ البَياضَ ليَهْربَ من السَّطحِ وجاءَ حاجِبُ باكيالَ ، فأُعْلِمَ به فهَرَبَ ، فرَماهُ واحدٌ بسَهْمٍ ، ونَفَخَهُ بالسَّيفِ ثم حُملَ إلى الحاجِب ، فأرْكَبوه بَغْلاً وخَلفَه سائسٌ ، وضَربُوه وهم يَقولُون : أينَ الذَّهبُ ؟ فأقَرَّ لهم بسِتِّ مئة ألفِ دينار مُودَعَةً ببَغْدادَ ، فأخَذُوا خَطَّه بها ، وعَصَرَ تُرْكيٌّ علىٰ أُنْثيَيه فمات ، وقيلَ : أرادُوا منه أنْ يَخلَعَ نَفسَه فأبَىٰ فقَتلوه رَحمَه اللهُ وبايَعوا الْمُعْتَمِدَ على الله وفي ذُرِّيَتِه عُلماءُ وخُطَباءُ[1] .

المُعْتَمِدُ على الله :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمةِ « الْمُعْتَمِدِ على الله » : الخليفةُ ، أبو العبَّاس ، وقيل : أبو جَعْفر بنُ المُتوكِّل على الله جَعفرُ بنُ المُعْتَصم وُلدَ سنة تسع وعشرين ومئتين .

اسْتُخلِفَ بعدَ قتلِ المُهْتَدي بالله ، سنةَ ستٍّ وخَمسينَ ومئتين[2] .

وانْهَمَكَ في اللَّهْوِ واللَّعب ، واشْتَغَل عن الرَّعيَّة ، فكَرهُوه ، وأحبُّوا أخاه المُوفَّق[3] .

وفي رَجبَ أيضاً اسْتولَت الزِّنجُ على البَصْرَة والأُبُلَّة والأهْواز ، وقَتلوا وسَبوا ، وهم عَبيدُ العَوام ، وغَوغاءُ الأنْذال المُلتفِّين على الخَبيث وقام بالكوفة عليُّ بنُ زيد العلويّ ، واسْتفحَل أمْرُه ، وهَزمَ جَيشَ الخَليفَة ، وظَهرَ أخُوه حَسنُ بنُ زيد بالريِّ .

وقتلت الزِّنجُ بالأُبُلَّة نحوَ ثلاثين ألفاً فحارَبَهم سَعيدٌ الحاجب ثم قَووا عليه ، وقَتلوا خَلقاً من جُندِه ، وتمَّت بينهم وبين العَسكر وَقَعاتٌ .

---

(١) انظر السير : (الْمُهْتَدي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ١٠٣٠/ ٣ .
(٢) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١٠٣١/ ١ .
(٣) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١٠٣١/ ٢ .

وفي سنة ثمانٍ وخمسين ومئتين جرت وقعة بين الزَّنج وبين العَسْكَر ، فانهَزَمَ العَسْكَرُ وقُتلَ قائدُهم مَنصور ، ثم نَهضَ أبو أحمد المُوفَّق ومُفلح في عَسكرٍ عَظيم إلى الغاية لحرب الخبيث ، فانهزمَ جَيشُه ، ثم تهيأ وجمع الجيوش وأقبلَ فتمت ملحمةٌ لم يُسمعْ بمثلها ، وظهر المسلمون ، ثم قُتل مُقدَّمهم مُفلح فانهَزمَ الناسُ ، واسْتباحَهم الزَّنجُ ، وفرَّ المُوفَّقُ إلى الأُبُلَّة ، وتراجَعت إليه العَساكِرُ ، ثم التَقى الزَّنجُ فانتَصَر ، وأسَرَ طاغيتهم يَحْييٰ ، وبَعَثَ به إلىٰ سامرَّاء فذُبح ، ووَقَع الوَباءُ ، فمات خَلائقُ ، ثم التَقى المُوفَّقُ الزَّنجَ فانكَسرَ ، وقُتلَ خَلقٌ من جَيشِه ، وتَحيَّزَ هو في طائفةٍ ، وعَظُمَ البلاءُ وكادَ الخَبيثُ أن يَملِكَ الدنيا ، وكان كذَّاباً مُمَخْرِقاً ، مَاكراً ، شُجاعاً ، داهيَةً ، ادَّعَىٰ أنَّه بُعثَ إلى الخَلق ، فردَّ الرسالَة ، وكان يَدَّعي علمَ الغَيبِ ، لَعنَه الله .

ودَخلت سَنةُ تسع وخَمسينَ ومئتَين ، فعَرض المُوفَّقُ جَيشَه بواسِط ، وأمَّا الخبيثُ فدخلَ البَطائحَ ، وبَثَقَ حولَه الأنهارَ ، وتَحصَّنَ ، فهَجمَ عليه الموفَّقُ ، وأحْرقَ وقَتلَ فيهم ، واسْتنقَذَ من السَّبايا ، ورُدَّ إلىٰ بَغْدادَ ، فسارَ خَبيثُ الزَّنج إلى الأهواز ، فوَضعَ السَّيفَ ، وقتلَ نحواً من خَمسين ألفاً ، وسَبىٰ أرْبعينَ ألفاً ، فسارَ لحَرْبه مُوسَىٰ بنُ بُغا ، فتَحارَبا بضعَةَ عشرَ شَهْراً ، وذهب تحتَ السَّيفِ خَلائقُ من الفَريقين ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

وفي سنة ستٍ وستين ومئتين ، أقبلَت الرُّومُ إلىٰ ديار رَبيعَة ، وقَتلوا وسَبوا ، وهَربَ أهلُ الجَزيرة ، واستباحت الزَّنجُ رامَهُرْمُز .

وفي سنة سبع وستين ومئتين كَرُّوا علىٰ واسِط ، وعَثروا أهلَها ، فجهَّزَ المُوفَّقُ ولدَه العبَّاس الذي صارَ خليفَة ، فقَتلَ وأسَرَ ، وغرَّقَ سُفُنَهم ، ثم تجمَّعَ جَيشُ الخَبيثِ ، والتقوا بالعبَّاس فهَزَمهم ، ثم التقوا ثالثاً فهزمَهم ، ودام القِتالُ شَهْرين ، ورغبوا في أبي العبَّاس ، واستأمن إليه خلقٌ منهم ، ثم حارَبَهم حتىٰ دَوَّخَ فيهم ، ورَدَّ سالماً غانماً ، وبَقي له وَقعٌ في النُّفوس ، وسار إليهم المُوفَّقُ في جَيشٍ كَثيفٍ في الماء والبرِّ ، ولَقيَه ولدُه ، والْتَقوا الزِّنج فهَزموهم أيضاً ، وخارت قُوىٰ جَيش الخَبيث ، وألَحَّ المُوفَّقُ في حربهم ونازَلَ طِهْثِيَّا ، وكان عليها خمسةُ أسوار ، فأخَذَها ، واسْتخلَصَ من

أَسْرِ الخُبَثاء عَشرةَ آلافِ مُسْلِمَة ، وهَدَمَها ، وكان المُهَلَّبيُّ القائدُ مُقيماً بالأهْواز في ثلاثين ألفاً من الزَّنج ، فسار المُوفَّقُ لحَرْبه ، فانهَزَم ، وتفرَّق عسكرُه ، وطلَبَ خلقٌ منهم الأمان ، فأمنَّهم ، ورفَق بهم ، وخَلعَ عليهم ، ونزلَ المُوفَّقُ بتُسْتَر ، وأنفق في الجيش ، ومهَّدَ البلاد ، وجهَّزَ ابنَه المُعْتَضد أبا العبَّاس لحَرب الخَبيث ، فجهَّزَ له سُفناً فاقْتَتلوا ، وانتصر أبو العباس وكتبَ كتاباً إلى الخَبيث يُهدِّدُه ، ويَدعُوه إلى التَّوبَة ممَّا فعل ، فعَتا وتَمرَّدَ وقَتلَ الرسُولَ ، فسارَ المُوفَّقُ إلىٰ مَدينَة الخَبيث بنَهْر أبي الخَصيب ، ونَصَبَ السَّلالمَ ، ودَخلوها ، ومَلكُوا السُّورَ ، فانْهزَمَ الزَّنج ، ولمَّا رأى المُوفَّقُ حَصانَتَها اندهَشَ ، واسمُها المُخْتارَة ، وهالَه كثرةُ المقاتلة بها ، لكن استأمنَ إليه عدَّة فأكرَمَهم .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : ونَقلتُ تَفاصيلَ حُروب الزَّنج في « تاريخ الإسلام » ، فمِن ذلك لمَّا كان في شَعبان سنة سبع وستين ومئتين ، برزَ الخَبيثُ وعسكرُه فيما قِيلَ في ثلاث مئة ألفٍ ما بين فارسٍ وراجلٍ ، فركبَ المُوفَّقُ في خَمسين ألفاً ، وحَجزَ بينهم النهرُ ، ونادى المُوفَّقُ بالأمان ، فاسْتأمنَ إليه خَلقٌ ، ثم إنَّ المُوفَّقَ بَنىٰ بإزاءِ المُخْتارَة مَدينةً علىٰ دِجْلَة سَمَّاها المُوَفَّقيَّة ، وبَنىٰ بها الجامع والأسْواق ، وسَكنها الخَلقُ واستأمن إليه في شهرِ خَمسةُ آلاف ، وتَمَّت مَلحمةٌ في شَوَّال ونُصِرَ المُوفَّقُ .

وفي ذي الحِجَّة عَبرَ المُوفَّقُ بجَيشِه إلىٰ ناحيةِ المُخْتارَة ، وهَربَ الخَبيثُ ، لكنَّه رَجعَ وأزَالَ المُوفَّقَ عنها .

وفي ثمانٍ وستين ومئتين تتابع أجْنادُ الخَبيثِ في الخُروج إلى المُوفَّق ، وهو يُحسِنُ إليهم ، وأتاه جَعْفَرُ السَّجَّانُ صاحبُ سِرِّ الخَبيث ، فأعطاه ذَهباً كثيراً ، فرَكب في سَفينة حتىٰ حاذَىٰ قَصرَ الخَبيث ، فصاحَ إلىٰ متىٰ تَصْبرون على الخَبيث الكَذَّاب ؟ وحَدَّثَهم بما اطَّلَع عليه من كَذِبِه وكُفْرِه ، فاسْتأمن خَلقٌ ، ثم زَحفَ المُوفَّقُ على البَلد ، وهَدَّ من السُّور أماكن ، ودَخلَ العَسكرُ من أقْطارِها واغْترُّوا ، فكَرَّ عليهم الزَّنجُ ، فأصابوا منهم ، وغَرِقَ خَلقٌ ، ورَدَّ المُوفَّقُ إلىٰ بلَده حتىٰ رَمَّ شَعثَه ، وقَطع الجَلْبَ على الخَبيثِ ، حتىٰ أكَلَ أصحابُه الكِلابَ والمَيتَةَ ، وهَربَ خَلقٌ ، فسَألَهم المُوفَّقُ ،

فقالوا : لنا سَنة لمْ نَرَ الخُبزَ وقُتلَ بهبُودُ أكبرُ أمراءِ الخَبيث ، وقَتلَ الخَبيثُ ولَدَه لكونه هَمَّ أنْ يخرُجَ إلى المُوفَّقِ .

وفي سنة تسع وستين ومئتين ، دَخلَ المُوفَّقُ المُخْتارَة عَنوَةً ، ونادى الأمانَ ، وقاتَلَ حاشيةُ الخَبيث دُونَه أشَدَّ قتال ، وحازَ المُوفَّقُ خَزائنَ الخَبيث ، وألقى النارَ في جَوانب المَدينة ، وجُرحَ المُوفَّقُ بسَهمْ فأصْبحَ على الحَرب ، وآلمه جُرحُه ، وخافوا ، فخَرَجوا حتىٰ عُوفي ، ورَمَّ الخَبيثُ بلَدَه .

وفي شَوَّال كانت المَلْحَمةُ الكُبرىٰ بين الخَبيث والمُوفَّق ، ثم وَقَعَت الهَزيمةُ على الزَّنج ، وكانوا في جُوعٍ شَديد وبَلاءٍ ، لا خَفَّفَ اللهُ عَنهم ، التقى الخَبيثُ والمُوفَّقُ ، فانْهَزَمت الزَّنج أيضاً ، وأحاطَ الجَيشُ ، فحَصَروا الخَبيثَ في دار الإمارة ، فانملَسَ منها إلىٰ دار المُهَلَّبيِّ ، أحَدُ قُوَّادِه ، وأُسِرَت حُرَمه ، فكان النساءُ نحوَ مئة ، فأحسَنَ إليهنَّ المُوفَّقُ ، وأُحْرِقَت الدَّارُ ، ثم جَرت مَلحَمَةٌ بين المُوفَّق والخَبيث في أوَّل سنة سبعين ومئتين ، ثم وَقعةٌ أخرىٰ قُتلَ فيها الخَبيثُ ، لا رَحمَه اللهُ ، وكان قد اجْتَمعَ من الجُند ، ومن المُطَّوعَة مع المُوفَّق نحو ثلاث مئة ألف ، وفي آخر الأمر شَدَّ الخَبيثُ وفُرسانُه فأزالوا النَّاسَ عن مَواقِفِهم ، فحَملَ المُوفَّقُ فهَزَمَهم ، وساقَ وراءَهم إلىٰ آخر النَّهر ، فبَيْنا الحَربُ تَستعرُ إذ أتىٰ فارسٌ إلى المُوفَّق وبيده رأسُ الخَبيث فما صَدَّق ، وعَرَضَه علىٰ جماعة ، فقالوا : هو هو فترجَّلَ المُوفَّقُ والأُمراءُ وخَرُّوا ساجدين لله وضَجُّوا بالتَّكبير ، وبادَرَ أبو العبَّاس بنُ المُوفَّق في خَواصِّه ، ومَعه رأسُ الخَبيث علىٰ قَناةٍ إلىٰ بَغْدادَ ، وعُملت قِبابُ الزِّينَة ، وكان يوماً مشهوداً ، وشَرعَ الناسُ يَتراجعون إلى المَدائن التي أخذَها الخَبيثُ ، وكانت أيّامُه خَمسَ عَشرةَ سنة .

قال الصُّوليُّ : قد قَتلَ من المسلمين ألفَ ألفٍ وخَمسِ مئة .

قال الذهبيُّ : وكذا عَددُ قَتلَىٰ بابَك .

قال : وكان يصْعَدُ علىٰ مِنْبَرِه بمَدينتِه ، ويَسُبُّ عُثمانَ وعَلياً وطَلحَةَ وعائشةَ كمَذْهب الأزارِقَة ، وكان يُنادِي على المَسبيَّة العَلويَّة في عَسكره بدِرْهَمين ، وكان عند

الزَّنجي الواحد نحو عَشر عَلويَّات ، يَفتَرِشُهنَّ ويَخْدُمْنَ امرأته[1] .

وفي سَنةِ سَبعِين ومئتين نازلَتِ الرُّومُ في مِئَةِ ألفٍ طَرَسُوسَ ، فبيَّتَهم يازْمانُ الخادِمُ فقِيلَ : قُتِلَ منهُم سَبعُونَ ألفاً ، وقُتِلَ مَلِكُهُم ، وأُخِذَ منهم صَلِيبُ الصَّلَبُوت فالحَمدُ لله علىٰ هـٰذا النَّصْرِ العَزيزِ الذي لَمْ يُسْمَع بمِثْله ، مع تمَامِ المِنَّةِ على الإسْلامِ بمَصْرَعِ الخَبيث .

وعادَ المُوَفَّقُ إلىٰ بَغْدَادَ مَرِيضاً من نِقْرسٍ ، ثمَّ صَارَ داءَ الفِيلِ وقَاسَىٰ بلاءً ، فكان يقولُ : في دِيوانِي مِئَةُ ألفِ مُرْتَزَقٍ ، ما أَصْبحَ فيهِم أسْوَأُ حالاً منِّي ، ثمَّ ماتَ .

وفي سَنَةِ تَسعٍ وسَبعينَ خُلِعَ المُفَوَّضُ بنُ المُعْتَمِد من وِلايَةِ العَهْدِ ، وقُدِّمَ عليه أبو العَبَّاس المُعْتَضِدُ بنُ المُوَفَّق نَهَضَ بذَلِك الأُمَرَاءُ .

وفيها مَنَعَ أبو العَبَّاسِ القُصَّاصَ والمُنَجِّمينَ ، وأَلْزَمَ الكُتبيِّينَ أنْ لا يَبيعُوا كُتُبَ الفَلْسَفَةِ والجَدَلِ ، وضَعُفَ أمْرُ عَمِّه المُعْتَمِد معَه ، ثمَّ ماتَ فَجْأَةً لإحْدَىٰ عَشر ليلةً بَقِيَتْ من رَجَبَ سَنَةَ تِسْعٍ وسَبْعِينَ ومِئَتَينِ ببَغْدَادَ ونُقِلَ فدُفِنَ بسَامرَّاءَ ، فكانت خِلافَتُه ثلاثاً وعِشْرينَ سَنةً وثلاثةِ أيَّامٍ[2] .

مات الْمُعْتَمِدُ على الله بالقَصْرِ الحَسَنيِّ مع النُدَماء والْمُطْربينَ ، أكَلَ في ذلك اليوم رُؤوسَ الجِدَاء ، فيُقالُ : سُمَّ ، وماتَ مَعه مَنْ أكلَ منها ، وقِيلَ : نامَ فغَمُّوه ببُساطٍ وقِيلَ : سُمَّ في كأسٍ ، وأدْخَلوا إليه إسْماعيلَ القاضي والشُّهودَ ، فلمْ يَرَوا به أثراً ، واستُخلِفَ أبو العبَّاس المُعْتَضِدُ وكانت عُرَيبُ جاريةُ المُعتَمد ذاتَ أموالٍ جَزيلة ، ولها في المُعتَمد مَدائحُ ، وكان يَسكَرُ ويُعَرْبِدُ على النُّدَماء ، سامَحَه الله ، وكانت دَولَتُه بِهِمَّةِ أخيه المُوفَّق لا بأس بها[3] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرْجَمةِ « الخَبيث » : بعد مَصْرعِ المُتَوكِّل وابنِه ، وأولـٰئك الخُلفاء المُستضعَفين المَقتولين ، نَقصَ أمرُ الخِلافَة جداً ، وطمِعَ كلُّ شَيطان في

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣١ .
(٢) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٤ .
(٣) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٤ .

التوثُّب ، وخَرجَ الصَّفَّارُ بخُراسان ، واتَّسعت مَمالكُه ، وخرجَ هـٰذا الخَبيثُ بالبَصْرَة ، وفعلَ ما فعَل ، وهاجَت الرُّومُ ، وعَظُمَ الخَطبُ[1] .

ثمَّ بعدَ سَنوات ثارت القَرامطَةُ والأعْرابُ ، وظَهرَ بالمَغْربِ عُبَيْدُ الله ، المُلقَّبُ بالمَهْديِّ ، وتَملَّك ثم دامت الدولة في ذُريَّة الباطنيَّة إلىٰ نُورِ الدين ، رَحمَه الله[2] .

(هـ) انْهِمَاكُ بَعضِ الخُلَفَاء باللهوِ واللَّعِب :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « الْمُعْتَمِد على الله » : وانهمكَ في اللَّهْوِ واللَّعب ، واشْتَغَل عن الرَّعيَّة ، فكَرهُوه ، وأحبُّوا أخاه المُوفَّق[3] .

مات الْمُعْتَمِدُ على الله بالقَصْرِ الحَسَنيِّ مع النُدَماء والْمُطْربينَ ، أكَلَ في ذلك اليوم رُؤوسَ الجِدَاء ، فيُقالُ : سُمَّ ، وماتَ مَعه مَنْ أكلَ منها ، وقِيلَ : نامَ فغَمُّوه ببُساطٍ وقِيلَ : سُمَّ في كأسٍ ، وأدْخَلوا إليه إسْماعيلَ القاضي والشُّهودَ ، فلمْ يَرَوا به أثراً ، واستُخلِفَ أبو العبَّاس المُعْتَضِدُ وكانت عُرَيبُ جاريةُ المُعتَمد ذاتَ أموالٍ جَزيلة ، ولها في المُعتَمد مَدائحُ ، وكان يَسكَرُ ويُعَرْبِدُ على النُّدَماء ، سامَحَه الله ، وكانت دَولَتُه بِهِمَّةِ أخيه المُوفَّق لا بأس بها[4] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « الْمُقْتَدِر » : قال أبو عليٍّ التَّنوخيُّ : كان الْمُقْتَدِرُ جيِّدَ العَقْلِ ، صَحيحَ الرَّأيِّ ، ولكنَّه كان مُؤْثِراً للشَّهَواتِ ، لقَدْ سَمعتُ عليَّ بنَ عيسَى الوَزيرَ يقولُ : ما هُوَ إلاَّ أنْ يَترُكَ هَـٰذا الرَّجُلُ - يَعْني الْمُقْتَدِرَ - النَّبيذَ خَمْسَةَ أيّامٍ فكانَ رُبَّما يكونُ في أصالَةِ الرَّأي كالْمَأمُونِ والْمُعْتَضِد[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ مَنْهُوماً باللَّعِبِ ، والجَواري ، لا يَلْتَفِتُ إلىٰ أعْباء الأمُورِ ، فدَخَلَ عليه الدَّاخِلُ ، وَوَهَنَ دَسْتُه[6] .

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩-١٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٤ .
(٢) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩-١٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٤ .
(٣) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠-٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣١ .
(٤) انظر السير : (الْمُعْتَمِدُ على الله) ١٢/ ٥٤٠-٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٤ .
(٥) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/ ٤٣-٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٠ .
(٦) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/ ٤٣-٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٠ .

(و) تَسَلُّطُ الغَوْغاء والحَرامِيَّة علىٰ دارِ الخَلافَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « الْمُقْتَدِر » : وتجمَّع في سَنَةِ ثَمانٍ وثَلاثِ مئة من الغَوْغاء ببغْدادَ عَشْرَةُ آلافٍ ، وفتَحوا السُّجُونَ وقاتَلوا الوَزيرَ ووُلاةَ الأمُورِ ، ودامَ القِتالُ أيّاماً ، وقُتلَ عِدَّة ، ونُهِبَتْ أمْوالُ النَّاسِ ، واخْتَلَّت أحْوالُ الخِلافَة جداً ، ومُحِقَتْ بُيُوتُ الأمْوالِ ، وفي سَنَةِ سِتَّ عَشَر وثَلاث مئة دَخلَ أبو طاهِر القِرْمِطيُّ الرَّحْبَة بالسَّيْفِ ، ثمَّ قَصدَ الرَّقَّة ، وبدَّعَ ، وعَمِلَ العَظَائمَ ، وفي سَنَةِ سَبعَةَ عَشرَ وثَلاث مئة جَرَتْ خَبْطَةٌ ببَغْدادَ ، واقْتَتَلَ الجَيْشُ ، وتمَّ ما لا يُوصَف .

وأمَّا الرُّومُ فعَاثوا في الثُّغُورِ ، وفَعلوا العَظائمَ ، وبَذَلَ لَهم المسلمون الإتاوَة[1] .

(ز) سُوءُ سِيرَة بَعض خُلَفَائها :

القَاهِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الخَليفةِ العَبَّاسيِّ « القَاهِر بالله » : الخَليفَة أبو مَنْصور مُحمَّدُ بنُ الْمُعْتَضِدِ بالله أحمدَ بنِ الموفَّق طَلْحَةَ ابنِ الْمُتَوَكل .

اسْتُخلفَ سَنَةَ عِشرينَ وثَلاثِ مئة وَقْتَ مَصْرَع أخيه الْمُقْتَدِر فيه شَرٌّ وجَبرُوتٌ وطَيْشٌ[2] .

بايَعُوه بعدَ الْمُقْتَدِر ، فصادَرَ حاشِيَةَ أخيه وعذَّبَهم ، وضَربَ أُمَّ الْمُقْتَدِر بيدِه ، وهي عَليلَةٌ ثم ماتَت مُعلَّقةً بحَبْلٍ ، وعذَّبَ أُمَّ مُوسَى القَهْرمانَة ، وبالَغ في الإساءَةِ ، فنَفَرَت منه القُلوبُ[3] .

ولم يكن القَاهِرُ مُتَمَكِّناً من الأمُورِ ، وحَكمَ عليه عليُّ بنُ بُليق الرَّافِضيُّ الذي عَزَمَ علىٰ سَبِّ مُعاوِيَةَ رضي الله عنه على الْمَنابِر فارْتَجَّت العِراقُ ، وقُبضَ علىٰ شَيخ الحَنابلَة البَرْبَهاريّ ، ثم قَويَ القَاهِرُ ونَهَبَ دُورَ مُخالفيه ، وطَيَّن علىٰ وَلدِ أخيه الْمُكْتَفي بين

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَدِر) ١٥/٤٣ـ٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٠ .

(٢) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/٩٨ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ٤/١١٨٦ .

(٣) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/٩٨ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٧ .

حَيْطَين وضَربَ ابنَ بُلَيق وسَجنَه ، ثم أمَرَ بذَبْحِه ، وبذَبْحِ أبيه ، وذَبَحَ بعدَهما مُؤنِساً الكَبيرَ ويُمناً وابنَ زيرك وبَذلَ للجُند العَطاءَ وعَظُمَ شأنُه ونادَىٰ بتَحْريم الغِناءِ ، والخَمْرِ ، وكَسْرِ المَلاهي ، وهو مع ذلك يَشربُ المَطْبوخَ والسُّلافَ ، ويَسكَرُ ويَسْمَعُ القَيْناتِ واسْتَوزَرَ غير واحدٍ وقَتلَ أبا السَّرايا بنَ حمدانَ وإسْحاقَ النُّوبَخْتي ألقاهُما في بئْرٍ ، وطُمَّت لكَونِهما زَايَداه في جاريَة قَبلَ الخِلافَة وبَقيَ ابنُ مُقْلَة في اخْتِفائِه يُراسِلُ الجُندَ ويُشَغِّبُهم على القَاهِرِ ، ويَخرُجُ مُتنكِّراً في زِيِّ عَجميٍّ ، وفي زِيِّ شَحَّاذٍ ، وأعْطَىٰ مُنَجِّماً ذَهباً ليَقُولَ للقُوَّادِ : عَليكُم قطعٌ من القَاهِرِ ثم خُلعَ وأُكْحِلَ بمِسْمارٍ لسُوءِ سِيرَتِه وسَفْكِهِ الدِّماءَ وكانت خِلافَتُه سَنةً ونِصْفاً وأُسْبوعاً[1] .

قالَ الصُّولي : كانَ أهْوَجَ ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، كَثيرَ التَّلوُّنِ ، قَبيحَ السِّيرَةِ ، مُدْمِنَ الخَمْرِ ، ولَوْلا جَوْدَةُ حاجِبه سَلامَةَ لأهْلَكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وكانَ قد صَنعَ حَرْبَةً يَحْمِلُها فلا يَطْرَحُها حتىٰ يَقْتلَ إنْساناً[2] .

ثم أُخْرِجَ إلىٰ دارِ ابنِ طاهِرِ ، فكان تارَةً يُحبَسُ ، وتارَةً يُمْهَلُ ، فوقَفَ يوماً بالجَامِعِ بينَ الصُّفوفِ ، وعليه جُبَّةٌ بَيْضاءُ ، وقالَ : تَصَدَّقوا عليَّ ، فأنا مَنْ قد عَرَفْتم .

ثم ماتَ في سَنةِ تِسْعٍ وثَلاثينَ وثلاثِ مئة ، وله ثَلاثٌ وخَمْسونَ سَنةً[3] .

* * *

(١) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٧/ ٢ .
(٢) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٧/ ٣ .
(٣) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٧/ ٤ .

مُتَفَرِّقَاتٌ في المُلُوك والخُلَفَاء والأُمَراء

١ـ الخُلَفَاءُ الصَّالِحُون :

عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيز :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَتِه : ابنُ مَرْوانَ بنِ الحَكَم بنِ أبي العاص ، الإمامُ الحافِظُ العلاَّمَة الْمُجْتَهِدُ الزاهِدُ العابِدُ السيِّدُ أميرُ المؤمنينَ حقّاً أبو حَفْص ، القُرَشيُّ الأُمَويُّ الْمَدَنيُّ ثم الْمِصْريُّ ، الخَليفَةُ الزاهِدُ الراشِدُ أشَجُّ بَني أُمَيَّة(١) .

وكان من أئمَّة الاجتهادِ ، ومن الخُلفاءِ الرَّاشدينَ رَحْمَةُ الله عليه .

قال ابنُ سَعد في الطبَقَة الثالثَة من تابِعي أهْلِ المَدينة فقالَ : أمُّه هي أُمُّ عاصِم بنتُ عاصِم بنِ عُمرَ بنِ الخَطَّاب ، قالوا : وُلِدَ سَنَةَ ثلاثٍ وستِّين ، قالَ : وكانَ ثِقَةً مَأموناً ، له فِقْهٌ وعِلمٌ ووَرَعٌ ، ورَوىٰ حَديثاً كثيراً ، وكان إمامَ عَدلٍ رَحمَهُ الله ورَضيَ عنه(٢) .

ورَوىٰ ضِمَام بنُ إسْماعيلَ عن أبي قَبيل : أنَّ عُمَرَ بنَ عبدِ العَزيزِ بَكَىٰ وهو غُلامٌ صَغيرٌ فأرْسَلت إليه أُمُّه ، وقالت : ما يُبكيكَ ؟ قالَ : ذَكرتُ الْمَوْتَ .

قالَ : وكان يومئذٍ قد جَمعَ القُرآنَ ، فبَكَت أُمُّه حين بَلغَها ذلك(٣) .

وقالَ سَعيدُ بنُ عفير : حَدَّثنا يَعقوبُ ، عن أبيه أنَّ عبدَ العَزيزِ بنَ مَرْوانَ بَعثَ ابنَه عُمَرَ إلى الْمَدينَة يَتأَدَّبُ بها ، وكَتبَ إلىٰ صالِحِ ابنِ كَيْسانَ يَتعاهَدُه ، وكان يُلزِمُه الصَّلَوات ، فأبْطأَ يوماً عن الصَّلاةِ ، فقالَ : ما حَبسَك ؟ قالَ : كانت مُرَجِّلَتي تُسَكِّنُ شَعْري ، فقالَ : بَلغَ من تَسْكينِ شَعْرِكَ أنْ تُؤثِرَه على الصَّلاةِ ، وكَتبَ بذلك إلىٰ والِدِه ، فبَعثَ عبدُ العَزيزِ رَسُولاً إليه فما كَلَّمَه حتىٰ حَلقَ شَعْرَه .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٥/عمر بن عبد العزيز .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٨٦ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٦ .

وقال أبو مُسْهر : وَلِيَ عُمَرُ الْمَدينَةَ في إمْرَةِ الوَلِيدِ من سَنةِ سِتٍّ وثَمانينَ إلىٰ سَنةِ ثَلاثٍ وتِسْعين[1] .

وقالَ ابنُ سَعد : أخبرَنا مُحمدُ بنُ عُمَرَ ، حدَّثنا ابنُ أبي الزِّناد ، عن أبيه ، قال : لَمَّا قَدِمَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ المَدينَةَ والياً ، فصلَّى الظُّهْرَ دَعا بعَشْرَة : عُرْوَةَ ، وعُبَيدَ الله ، وسُلَيمانَ بنَ يَسار ، والقاسِم ، وسالِماً ، وخارِجَة ، وأبا بَكْر بنَ عبدِ الرحمٰن ، وأبا بَكْر بنَ سُليمان ابنَ أبي حثمَة ، وعبدَ الله بنَ عامِر بن رَبيعَة ، فحَمِدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم قالَ : إنّي دَعَوْتُكم لأمْرٍ تُؤجَرُون فيه ، ونكونُ فيه أعْواناً على الحَقِّ ، ما أُريدُ أنْ أقْطَعَ أمْراً إلاَّ برأيكم ، أو برأي مَنْ حَضرَ منكم ، فإنْ رأيتم أحَداً يَتعدَّىٰ ، أو بَلغَكم عن عامِلٍ ظُلامَة ، فأُحَرِّجُ بالله علىٰ مَنْ بَلغَه ذلك إلاَّ أبْلغَني فجَزَوْهُ خيراً ، وافْتَرَقوا[2] .

وعن أبي جَعْفَر الباقِر قالَ : لِكُلِّ قَومٍ نجيبَةٌ ، وإنَّ نَجيبَةَ بَني أُمَيَّة عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز ، إنَّه يُبعَثُ أُمَّةً وَحْدَه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ هٰذا الرَّجُلُ حَسَنَ الخَلْقِ والخُلُقِ ، كامِلَ العَقْلِ ، حَسَنَ السَّمْتِ ، جَيِّدَ السِّياسَة ، حَريصاً على العَدْلِ بكُلِّ مُمْكنٍ ، وافِرَ العِلمِ ، فَقيهَ النَّفْسِ ، ظاهِرَ الذَّكاءِ والفَهْم ، أوَّاهاً مُنيباً ، قانتاً لله ، حَنيفاً زاهِداً مع الخِلافَة ، ناطِقاً بالحَقِّ مع قِلَّة الْمُعينِ ، وكَثرَةِ الأُمَراء الظَّلَمَة الذينَ مَلُّوه وكَرِهوا مُحاقَقتَه لهم ، ونَقْصَه أُعْطياتِهم ، وأخْذَه كثيراً مِمَّا في أيديهم مِمَّا أخذوه بغَير حَقٍّ ، فما زالوا به حتىٰ سَقَوْه السُّمَّ ، فحَصُلت له الشَّهادَةُ والسَّعادَةُ ، وعُدَّ عند أهْلِ العِلمِ من الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ ، والعُلماءِ العامِلينَ[3] .

عن عبدِ العَزيزِ بنِ يَزيد الأيْلي قالَ : حَجَّ سُليمانُ بنُ عبد الْمَلِك ، ومعه عُمرُ بنُ عبد العَزيز ، فأصابَهم بَرْقٌ ورَعْدٌ حتىٰ كادَت تَنْخَلع قُلوبُهم ، فقالَ سُليمانُ : يا أبا

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٦ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٦ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٨٧ .

حَفْص! هلْ رَأيتَ مثلَ هـٰذه اللَّيلَة قطُّ ، أو سَمعتَ بها ؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنين! هـٰذا صَوْتُ رَحْمَةِ الله ، فكيف لَوْ سَمعتَ صَوتَ عَذابِ الله![1] .

عن نافعٍ قالَ : كانَ ابنُ عُمرَ يَقولُ : لَيتَ شِعْري! مَنْ هـٰذا الذي مِنْ وَلَدِ عُمرَ ، في وَجْهِهِ عَلامَةٌ ، يَملأُ الأرضَ عَدْلاً[2] .

عن عبدِ الرحمَـٰن بنِ حسَّان الكناني قالَ : لَمَّا مَرضَ سُليمانُ بدابِق قال : يا رَجاءُ! أَسْتخلِفُ ابني ؟ قالَ : ابنُك غائبٌ ، قالَ : فالآخَرُ ؟ قالَ : هو صَغير ، قالَ : فمَنْ تَرَى ؟ قال : عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز ، قالَ : أتَخوَّفُ بَني عبدِ الملِك أنْ لا يَرْضَوا ، قالَ : فوَلِّه ، ومن بَعدِه يَزيدُ بنُ عبدِ الملك ، وتكتُبُ كتاباً وتَختِمُه ، وتَدعُوهم إلىٰ بَيْعَةٍ مَخْتومٍ عَليها ، قالَ : فكتَبَ العَهْدَ وختَمَه ، فخَرجَ رَجاءُ وقالَ : إنَّ أميرَ المؤمنينَ يَأمُرُكم أنْ تُبايعوا لِمَنْ في هـٰذا الكتابِ ، قالوا : ومَنْ فيه ؟ قالَ : مَخْتومٌ ، ولا تُخْبَرون بمَنْ فيه حتىٰ يَموتَ ، فامْتَنَعوا ، فقالَ سُليمانُ : انْطَلِقْ إلىٰ أصْحابِ الشُّرَط ، ونادِ الصَّلاةُ جامِعَة ، ومُرْهُم بالبَيْعَة ، فمَنْ أبَىٰ ، فاضْرِبْ عُنقَه ، ففعلَ فبَايَعوا ، قالَ رَجاءُ : لَمَّا خَرجوا ، أتاني هِشامٌ في مَوْكبه ، فقالَ : قد عَلِمْتُ مَوْقِفَكَ مِنَّا ، وأنا أتَخوَّفُ أنْ يَكونَ أميرُ المؤمنينَ أزالَها عَنِّي ، فأَعْلِمْني ما دامَ في الأمْرِ نَفَسٌ ، قُلتُ : سُبحانَ الله! يَسْتَكْتِمُني أميرُ المؤمنينَ وأُطلِعُك ، لا يَكونُ ذلك أبداً ، فأدارَني وألاصَني[3] ، فأبيتُ عليه ، فانْصرفَ ، فبَينا أنا أسيرُ إذ سَمعتُ جَلبَةً خَلفي ، فإذا عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز ، فقالَ : يا رَجاءُ! قد وَقعَ في نَفْسي أمْرٌ كَبيرٌ من هـٰذا الرَّجُل ، أتَخوَّفُ أنْ يَكونَ جَعلَها إليَّ ولَستُ أقومُ بهـٰذا الشَّأنِ ، فأَعْلِمْني ما دام في الأمر نَفَسٌ لعَلِّي أتَخلَّصُ ، قُلتُ : سُبحانَ الله! يَسْتَكْتِمُني أمراً أُطلِعُك عليه![4] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٧/ ٢ .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٧/ ٣ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٧/ ٤ .

(٤) يُقالُ ألاصه علىٰ كذا : إذا أداره على الشيء الذي يريده ، وقال عمر لعثمان في معنىٰ كلمة الإخلاص : هي الكلمة التي ألاصَ عليها النبيُّ صلى الله عليه وسلم عمَّه ـ يعني أبا طالب ـ عند الموت : شهادة أن لا إلـٰه إلاَّ الله ، أي : أداره عليها وراوده فيها .

وقد كان سُليمانُ بنُ عبد الملك من أمْثَلِ الخُلفاءِ ، نَشَرَ عَلَمَ الجِهادِ ، وجَهَّزَ مئة ألفٍ بَرّاً وبَحْراً ، فنازَلوا القُسْطَنْطِينيَّةَ ، واشتدَّ القِتالُ والحِصارُ عليها أكثرَ من سَنة[1] .

قالَ سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز : وَلِيَ سُليمانُ ، فقالَ لِعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز : يا أبا حَفْص! إنّا وَلينا ما قد تَرَىٰ ، ولَمْ يَكُن لنا بتَدبيره عِلمٌ ، فما رَأيتَ من مَصْلَحَةِ العامَّة ، فمُرْ به ، فكانَ من ذلك عَزْلُ عُمّالِ الحَجّاجِ ، وأُقيمَت الصَّلواتُ في أوْقاتِها بعدما كانت أُميتَت عن وَقْتِها ، مع أُمورٍ جَليلَةٍ كانَ يَسْمَعُ من عُمَرَ فيها ، فقيلَ : إنَّ سُليمانَ حَجَّ ، فرأى الخَلائقَ بالْمَوْقِفِ ، فقالَ لِعُمَرَ : أما تَرَىٰ هٰذا الخَلقَ الذي لا يُحْصي عَددَهم إلاَّ اللهُ ؟ قالَ : هَؤلاءِ اليومَ رَعيَّتُك ، وهُم غَداً خُصَماؤك ، فبَكىَ بُكاءً شَديداً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ عُمرُ له وَزيرَ صِدْقٍ ، ومَرِضَ بدابِق أُسْبُوعاً ، وتُوفِّيَ ، وكان ابنُه داودُ غائباً في غَزْوَة القُسْطَنْطينيَّة[2] .

قال عُبَيْدُ الله بنُ عُمرَ : خَطبَهم عُمرُ ، فقالَ : لَسْتُ بخَيرِ أحدٍ منكم ، ولكنِّي أثقَلُكم حِمْلاً[3] .

قال مَيمونُ بنُ مِهْران : إنَّ اللهَ كان يَتعاهَدُ النَّاسَ بنَبيٍّ بعدَ نَبيٍّ ، وإنَّ اللهَ تَعاهَدَ النَّاسَ بعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز[4] .

قالَ الليثُ : بدأ عُمرُ بنُ عبد العَزيز بأهْلِ بَيتَه ، فأخذَ ما بأيْديهم ، وسَمَّىٰ أمْوالَهم مَظالِمَ ، ففَزعَت بَنو أُميَّة إلىٰ عَمَّتِه فاطِمَةَ بنتِ مَرْوان ، فأرْسَلت إليه : إنِّي قد عَناني أمْرٌ ، فأتَته ليلاً ، فأنْزلَها عن دابَّتِها ، فلمَّا أخذَت مَجْلِسَها قالَ : يا عَمَّة! أنتِ أوْلَىٰ بالكَلام ، قالَت : تَكلَّم يا أميرَ المؤمنين ، قالَ : إنَّ اللهَ بَعثَ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم رَحمَةً ، ولَمْ يَبْعَثْه عَذاباً ، واخْتارَ له ما عنده ، فتَركَ لهم نَهْراً ، شُرْبُهُم سَواء ، ثم قامَ أبو بَكْر فتركَ النَّهْرَ علىٰ حالِه ، ثم عُمَرُ ، فعَمِلَ عَملَ صاحِبَه ، ثم لَمْ يَزَلْ النَّهْرُ

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ١ .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٢ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٣ .

(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٤ .

يَشتقُّ منه يَزيدُ ومَرْوانُ وعبدُ الملكِ ، والوَليدُ ، وسُليمانُ حتىٰ أفْضَى الأمْرُ إليَّ ، وقد يَبُسَ النَّهرُ الأعْظَمُ ، ولَنْ يَرْويَ أهلَه حتىٰ يَعودَ إلىٰ ما كانَ عليه ، فقالَت : حَسْبُكَ ، فلَسْتُ بذاكِرَة لك شيئاً ، ورَجَعَت فأبْلَغتْهم كلامَه[1] .

عن عُمرَ بنِ أُسَيد ، قالَ : واللهِ ، ما ماتَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز حتىٰ جَعلَ الرَّجلُ يَأتينا بالمالِ العَظيم ، فيَقولُ : اجْعلوا هـٰذا حَيثُ تَرَونَ ، فما يَبْرَحُ حتىٰ يَرجعَ بمالِه كلِّه ، قد أغْنَىٰ عُمرُ النَّاسَ[2] .

وعن ضَمْرَة ، قالَ : كَتبَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إلىٰ بَعضِ عُمَّاله : أمَّا بعدُ ، فإذا دَعَتْكَ قُدْرتُك على النَّاسِ إلىٰ ظُلمِهم ، فاذْكُر قُدرَةَ اللهِ تَعالَىٰ عَليكَ ، ونَفادَ ما تأتي إليهم ، وبقاءَ ما يأتون إليك[3] .

وعن عطاءَ بنِ أبي رَباح ، قال : حَدَّثتني فاطِمَةُ امرأةُ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز أنَّها دَخلَت عليه ، فإذا هو في مُصَلاَّه يده علىٰ خَدِّه ، سائلَة دُموعُه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ألشَيء حَدَث ؟ قالَ : يا فاطِمَةُ! إنِّي تَقلَّدتُ أمْرَ أُمَّةِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتَفكَّرتُ في الفَقيرِ الجائعِ ، والمَريضِ الضَّائعِ ، والعَاري الْمَجْهودِ ، والمَظْلوم الْمَقْهورِ ، والغَريبِ الْمأسُورِ ، والكَبيرِ ، وذِي العِيالِ في أقْطارِ الأرْضِ ، فعَلمتُ أنَّ رَبِّي سَيسْألُني عنهم ، وأنَّ خَصْمَهم دُونَهم مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فخَشيتُ ألاَّ تثبُتَ لي حُجَّةٌ عند خُصومَتِه ، فرَحِمْتُ نَفسي فبَكيتُ[4] .

قالَ الفريابيُّ : حَدَّثنا الأوْزاعيُّ أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ جَلسَ في بَيتِه ، وعندَه أشْرافُ بَني أُمَيَّة ، فقالَ : أتحبون أن أُوَلِّي كلَّ رجل منكم جُنداً من هـٰذه الأجْنادِ ، فقالَ له رجلٌ منهم : لِمَ تَعرِضْ علينا ما لا تَفعَلُه ؟ قالَ : تَروْنَ بساطي هـٰذا ؟ إنِّي لأعلمُ أنَّه يَصيرُ إلىٰ بِلَى ، وإنِّي أكْرَهُ أنْ تُدنِّسوهُ عليَّ بأرجُلِكم ، فكيفَ أُوَلِّيكمُ ديني ؟

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٥ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/ ١ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/ ٢ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/ ٣ .

وأُوَلِّيكمْ أعْراضَ المسلمينَ وأبْشارَهم تَحكُمون فيهم ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، قالوا : لِمَ ، أمَا لنا قَرابَةٌ ؟ أمَا لنا حَقٌّ ؟ قالَ : ما أنتم وأقْصَىٰ رَجلٍ من المسلمين عندي في هـٰذا الأمْرِ إلاَّ سَواءٌ ، إلاَّ رجلٌ حبَسَه عنِّي طُولُ شُقَّة[1] ،[2] .

عن حَفصِ بنِ عُمرَ بنِ أبي الزُّبَيْر ، قالَ : كَتبَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إلىٰ أبي بَكْر بنِ حَزْم : أنْ أَدِقَّ قَلَمَكَ ، وقارِبْ بين أسْطُرِكَ ، فإنِّي أكْرَه أنْ أُخْرِجَ من أمْوالِ المسلمينَ ما لا يَنْتَفعونَ به[3] .

قالَ مَيمونُ بنُ مِهْران : أقَمتُ عندَ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز ستَّةَ أشْهُر ، ما رَأيتُه غيَّر رِداءَه ، كانَ يَغسِلُ من الجُمُعَةِ إلى الجُمُعَةِ ، ويُبيِّنُ بشَيء من زَعْفَران[4] .

وقالَ الأوْزاعيُّ : كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إذا أرادَ أنْ يُعاقِبَ رَجُلاً حَبسَه ثلاثاً ، ثم عاقَبَه كَراهيَةَ أنْ يَعْجَلَ في أوَّلِ غَضَبه[5] .

وعن مَسْلَمَةَ بنِ عبدِ المَلِك قالَ : دَخلتُ علىٰ عُمرَ وقَميصُه وَسخٌ ، فقُلتُ لامْرأتِه ـ وهي أخْتُ مَسْلَمَة : اغْسِلوهُ قالت : نَفعَلُ ، ثم عُدتُ فإذا القَميصُ علىٰ حالِه ، فقُلتُ لها ، فقالت : واللهِ ما لَه قَميصٌ غيرُه[6] .

عن عَوْنِ بنِ الْمُعْتَمِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ قالَ لامرأتِه : عندَكِ دِرْهَمٌ أشْتَري به عِنباً ؟ قالَت : لا ، قالَ : فعِندَكِ فُلوسٌ ؟ قالَت : كلاَّ ، أنتَ أميرُ المؤمنينَ ولا تَقدِرُ علىٰ دِرْهَم ، قالَ : هـٰذا أهْوَنُ من مُعالَجَة الأغْلالِ في جَهَنَّم[7] .

قالَ يَحْيَىٰ بنُ حَمْزَة : حدَّثنا عَمرُو بنُ مُهاجِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيز كان تُسْرَجُ عليه

---

(١) الشُّقَّة : السفر الطويل البعيد ، وفي حديث وفد عبد قيس : إنا نأتيك من شقة بعيدة ، أي مسافة بعيدة .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٩ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٠ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٠ .
(٥) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٠ .
(٦) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩٠ .
(٧) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩٠ .

الشَّمعَةُ ما كانَ في حَوائجِ المسلمينَ ، فإذا فَرغَ ، أطْفأها وأسْرَجَ سِراجَه[١] .

وقالَ مَالِكٌ : أُتيَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز بعَنبرَة ، فأمْسَك علىٰ أنفِه مَخافَةَ أنْ يَجدَ ريحَها ، وعَنه : أنَّه سَدَّ أنفَه ، وقد أُحْضِرَ مِسْكٌ من الخَزائن[٢] .

وعن عبدِ العَزيز بنِ عُمرَ : قالَ لي رَجاءُ بنُ حَيْوَة : ما أكْمَلَ مَروءَةَ أبيكَ! سَمرتُ عندَه ، فَعَشِيَ السِّراجُ ، وإلىٰ جانبِه وَصيفٌ نامَ ، قُلتُ : ألا أُنبِّهُه ؟ قالَ : لا ، دَعْهُ ، قُلتُ : أنا أقُومُ ، قالَ : لا لَيسَ من مَروءَةِ الرَّجُل اسْتخدامُه ضَيفَه ، فقامَ إلىٰ بَطَّة[٣] الزَّيْتِ وأصْلَحَ السِّراجَ ، ثم رَجعَ ، وقالَ : قُمتُ وأنا عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز ، ورَجَعتُ وأنا عُمرُ ابنُ عبدِ العَزيز[٤] .

عن مُغيرةَ بن حَكيم : قالت فاطمةُ بنتُ عبد الملك بنِ مَرْوان امرأةُ عُمرَ بنِ عبد العزيز : حَدَّثنا مُغيرةُ أنَّه يكونُ في النَّاسِ مَن هو أكثرُ صلاةً وصياماً من عُمرَ بنِ عبد العزيز ، وما رأيتُ أحداً أشَدَّ فَرَقاً من ربِّه منه ، كان إذا صَلَّى العِشاءَ قَعَدَ في مَسْجِدِه ، ثمَّ يَرفعُ يَدَيْه فلَم يَزَلْ يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عَينُه ، ثم يَنتبهُ ، فلا يزالُ يَدعُو رافعاً يديْه يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عينُه ، يفعلُ ذلك ليلَهُ أَجْمَع[٥] .

ومن شعره[٦] :

مَنْ كَانَ حِينَ تُصيبُ الشَّمْسُ جَبْهَتَهُ ... أو الغُبَارُ يَخافُ الشَّينَ والشَّعَثَا
ويَألَفُ الظِّلَّ كَيْ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ ... فَسَوفَ يَسْكُنُ يَوْماً رَاغِماً جَدَثَا
في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ غَبْراء مُوحِشَةٍ ... يُطيلُ في قَعْرِهَا تَحْتَ الثَّرَى اللَّبَثَا
تَجَهَّزِي بِجَهَازٍ تَبْلُغِينَ بِهِ ... يا نَفْسُ قَبْلَ الردَىٰ لَمْ تُخْلَقِي عَبَثَا

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٦/٥٩٠ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٧/٥٩٠ .
(٣) البطة : الدبة بلغة أهل مكّة ، لأنها تُعمل علىٰ شكل البطة من الحيوان ، وهي إناء كالقارورة .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٨/٥٩٠ .
(٥) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩١ .
(٦) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩١ .

ومما روي له[1] :

أَيَقْظَانُ أَنْتَ اليَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمُ ... وكَيْفَ يُطِيقُ النَّوْمَ حَيْرَانُ هَائِمُ
فَلَوْ كُنْتَ يَقْظَانَ الغَدَاةِ لَخَرَّقَتْ ... مَدامعَ عَيْنَيْكَ الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ
تُسَرُّ بمَا يَبْلَىٰ وتَفْرَحُ بالْمُنَى ... كَما اغْتَرَّ بِاللَّذَّاتِ في اليَوْمِ حَالِمُ
نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وغَفْلَةٌ ... ولَيْلُكَ نَوْمٌ والرَّدَىٰ لَكَ لاَزِمُ
وسَعْيُكَ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذلِكَ في الدُّنْيا تَعيشُ البَهَائِمُ

وعن مُجاهِد : قالَ لي عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز : ما يَقولُ فيَّ الناسُ ؟ قُلتُ : يَقولون مَسْحُور ، قالَ : ما أنا بمَسْحُور ، ثم دَعا غُلاماً له فقالَ : وَيْحَكَ! ما حَمَلَكَ علىٰ أنْ سَقَيْتَني السُّمَّ ؟ قالَ : ألفُ دينار أُعْطِيتُها ، وعلىٰ أنْ أُعْتَق ، قالَ : هاتِها ، فجاءَ بها ، فألقاها في بَيتِ المالِ ، وقالَ : اذْهَبْ حَيثُ لا يَراكَ أحَدٌ[2] .

وعن عَمرِو بنِ مُهاجر قالَ : اشْتَهَىٰ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز تُفَّاحاً ، فأَهْدَىٰ له رَجلٌ من أهْلِ بَيتِه تُفَّاحاً ، فقالَ : ما أطْيَبَ ريحَه وأحْسَنَه! وقالَ : ارْفَعهُ يا غُلامُ للذي أتَىٰ به ، وأقرِ مَوْلاكَ السَّلامَ ، وقُلْ له : إنَّ هَديَّتكَ وَقَعت عندنا بحيثُ تُحبُّ ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ابنُ عَمِّك ، ورَجلٌ من أهْلِ بَيتِك ، وقد بَلغَكَ أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يَأكُلُ الهَديَّةَ ، قالَ : وَيْحَكَ! إنَّ الهَديَّةَ كانت له هَديَّةً ، وهي اليومَ لنا رِشْوَةٌ[3] .

وعن أيُّوبَ قالَ : قيلَ لعُمرَ بنِ عبدِ العَزيز : يا أميرَ المؤمنين! لَوْ أتَيتَ المَدينَةَ ، فإنْ قَضَى اللهُ مَوْتاً في مَوْضِعِ القَبْرِ الرَّابِعِ مع رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، قالَ : واللهِ لأنْ يُعذِّبَني اللهُ بغَيرِ النَّارِ أَحبُّ إليَّ منْ أنْ يَعلمَ مِنْ قَلبي أنِّي أراني لذلك أهْلاً[4] .

وقالَ الْمُغيرَةُ بنُ حَكيم : قُلتُ لفاطِمَةَ بنتِ عبدِ الملك : كُنتُ أسْمَعُ عُمرَ بنِ عبدِ

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩١/ ٣ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩١/ ٤ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩١/ ٥ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٢/ ١ .

العَزيز في مَرَضِه يَقولُ : اللَّهُمَّ أخْفِ عليهم أمْري ولَوْ ساعَة ، قَالت : قُلتُ له : ألا أخْرُجُ عَنْكَ ، فإنَّكَ لَمْ تَنَمْ ، فخَرجتُ ، فجَعلتُ أسْمَعُه يَقولُ : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] مراراً ثم أطْرَقَ فلَبثْتُ طَويلاً لا يُسمَعُ له حِسٌّ ، فقُلتُ لوَصيفٍ : وَيْحَكَ انْظُرْ ، فلمَّا دَخلَ ، صَاحَ ، فدَخَلتُ فوَجَدتُه مَيّتاً ، وقد أقْبَلَ بوَجهِه على القِبلَة ، ووَضَعَ إحْدَىٰ يَديه علىٰ فيه ، والأُخْرَىٰ علىٰ عَينَيه[2] .

ولِكُثَيِّر عزَّة يَرثيه :

عَمَّـتْ صَنَـائِعُـهُ فَعَـمَّ هَـلاكُـهُ	فَـالنَّـاسُ فِيـهِ كُلُّهـم مَـأجُـورُ
والنَّـاسُ مَـأْتَمُهُـمْ عَلَيْـهِ وَاحِـدٌ	فِـي كُـلِّ دَار رَنَّـةٌ وَزَفِيـرُ
يُثْنِـي عَلَيْـكَ لِسَـانُ مَنْ لَـمْ تُـوَلِّـهِ	خَيْـراً لأنَّـكَ بـالثَّنَـاءِ جَـدِيـرُ
رَدَّتْ صَنَـائِعُـهُ عَلَيْـهِ حَيَـاتَـهُ	فَكَـأَنَّـهُ مِـنْ نَشْـرِهَـا مَنْشُـورُ

وكان أسْمرَ دَقيقَ الوَجْهِ ، حَسَنه ، نَحيفَ الجِسْم ، حَسَنَ اللِّحْيَة ، بجَبْهَته شَجَّةٌ .

وكانت خِلافتُه سَنتَين وخَمسَةَ أشْهُر وأيّاماً[3] .

قالَ ابنُ عُيَيْنَة : قالَ رَجلٌ لعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز : جَزاكَ اللهُ عن الإسْلامِ خَيراً ، قالَ بَلْ جَزَى اللهُ الإسْلامَ عنِّي خَيراً .

ماتَ سَنةَ إحْدَىٰ ومئة[4] .

المُهْتَدي بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : أميرُ المؤمنين ، الْمُهْتَدِي بالله ، أبو إسْحاقَ ، وأبو عبدِ الله مُحمَّدُ بنُ الوَاثِق هَارُونَ بنِ الْمُعْتَصِم مُحمَّدُ ابنُ الرَّشيدِ العَبَّاسيُّ .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٨٣ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٢ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٢ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩٢ .

بُويعَ ابنَ بضع وثلاثين سَنةً سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ ومئتين وما قَبلَ مُبايَعَةَ أحَدٍ حتىٰ أحْضَرَ الْمُعْتَزَّ بالله فلمَّا رآهُ قامَ له وقالَ : السَّلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنين ، وجَلسَ بين يَديه ، فجِيءِ بشُهود ، فشَهدوا على الْمُعْتَزّ أنَّه عاجزٌ عن أعْباء الإمامَة ، وأقَرَّ بذلك ، ومَدَّ يدَه ، فبايَع ابنَ عَمِّه الْمُهْتَدِي بالله ، فارْتَفعَ حينئذ الْمُهْتَدِي ، إلىٰ صَدرِ الْمَجلِسِ ، وقالَ : لا يَجْتمِعُ سَيفانِ في غِمْد ، وأنْشَدَ قولَ ابنِ أبي ذُؤَيب .

تُـريـدِيـنَ كَيْمَـا تَجْمَعِينِـي وَخَـالِـداً وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِي غِمْدِ ؟!

وكان الْمُهْتَدِي أسْمرَ رَقيقاً ، مَليحَ الوَجْه ، وَرِعاً عادِلاً صالِحاً مُتعبِّداً بَطلاً شُجاعاً ، قَوياً في أمْرِ الله ، خَليقاً للإمَارَة ، لكنَّه لَمْ يَجدْ مُعيناً ولا ناصِراً ، والوَقتُ قابلٌ للإدْبار .

نَقلَ الخَطيبُ عن أبي مُوسَى العَبَّاسيِّ : أنَّه ما زالَ صائماً منذُ اسْتُخلِفَ إلىٰ أنْ قُتلَ .

وقالَ أبو العَبَّاس هاشِمُ بنُ القاسِم : كُنتُ عندَ الْمُهْتَدِي عَشيَّة في رَمضانَ فقُمتُ لأنْصَرِفَ ، قالَ : اجْلِسْ فجَلستُ ، فصَلَّىٰ بنا ، ودَعا بالطَّعامِ ، فأُحْضِرَ طَبَقُ خِلاَفٍ[1] عليه أرْغِفَةٌ وآنيةٌ فيها مِلْحٌ وزَيتٌ وخَلٌّ ، فدَعاني إلى الأكْلِ ، فأكَلتُ أكلَ مَنْ يَنتظِرُ الطَّبيخَ ، فقالَ : ألَمْ تَكُنْ صَائماً ؟ قُلتُ : بلىٰ قالَ : فكُلْ واسْتَوفِ ، فلَيسَ هنا غَيرُ ما تَرَى ؟! فعَجبتُ ثم قُلتُ : ولِمَ يا أميرَ المؤمنين ، وقدْ أنْعَمَ اللهُ عَليك ؟ قالَ : إنِّي فكَّرتُ أنَّه كانَ في بَني أُمَيَّة عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيز ، فغِرْتُ علىٰ بَني هاشِم وأخَذتُ نفسِي بما رَأيتَ[2] .

قالَ ابنُ أبي الدُّنيا : حدَّثنا أبو النَّضْر الْمَرْوَزيُّ ، قالَ لي جَعْفَرُ بنُ عبد الوَاحِد : ذاكَرتُ الْمُهْتَدِي بشَيء ، فقُلتُ له : كانَ أحْمدُ بنُ حَنْبَل يَقولُ به ولكنَّه كان يُخالَف ـ كأنِّي أشَرتُ إلىٰ آبائِه ـ فقالَ : رَحمَ اللهُ أحْمدُ بنُ حَنْبَل ، لَوْ جازَ لي لتَبَرَّأتُ من أبي ،

---

(١) صنف من الصفصاف ، ومن عيدانه تصنع الأطباق .

(٢) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٩ .

تَكلَّمْ بالحَقِّ وقُلْ به فإنَّ الرَّجُلَ ليَتكلَّمُ بالحَقِّ فيَنبُلُ في عَيني[1] .

قالَ نِفْطَوَيه : أَخبَرنا بعضُ الهاشِميِّين أنَّه وَجَدَ للْمُهْتَدِي صَفطٌ فيه جُبَّة صوفٍ ، وكساءٌ كان يَلبَسُه في اللَّيلِ ، ويُصلِّي فيه ، وكان قد اطْرَح المَلاهي ، وحَرَّمَ الغِناءَ ، وحَسمَ أَصْحابَ السُّلطانِ عن الظُّلمِ ، وكانَ شَديدَ الإشْرافِ علىٰ أمْرِ الدَّواوينِ ، يَجلسُ بنفسِه ، ويَجلسُ بين يَديه الكُتَّابُ يَعمَلونَ الحِسابَ ، ويُلزِمُ الجُلوسَ يَومَي الخَميسِ والإثْنينِ ، وقد ضَربَ جَماعَةً من الكِبارِ ، ونَفَىٰ جَعْفَرَ بنَ مَحْمودٍ إلىٰ بَغْدادَ لرَفْضٍ فيه[2] .

وعاثَت الزِّنْجُ بالبَصْرَة ، ويَعقوبُ الصَّفَّارِ بخُراسانَ ، وقَتلَ الْمُهْتَدي الأميرَ باكيال ، فثار أصحابُه ، وأحاطُوا بدارِ الجَوْسَق ، فأُلقِيَ الرأسُ إليهم ، ورَكِبَ أعْوانُ الخَليفَة ، فتمَّت مَلحَمةٌ كبرَىٰ ، قُتلَ فيها من الأتْراكِ ألوفٌ وقِيلَ : بل ألفٌ في رَجبَ سَنةَ سِتٍّ وخَمْسينَ ومِئتين ، ثم أصْبَحوا على الحَرْب ، فرَكِبَ الْمُهْتَدي وصالِحُ بنُ عليٍّ في عُنقِه الْمُصْحَفُ يَصيحُ : أيُّها النَّاسُ : انْصُروا إمامَكم فحَملَ عليه أخُو باكيالَ في خَمسِ مئة ، وخامَرَ الأتْراكَ الذين مع الخَليفَة إليه ، وحَميَ الوَطيسُ ، وتفلَّلَ جَمْعُ الْمُهْتَدي واسْتحَرَّ بهم القَتلُ فولَّىٰ والسَّيفُ في يدِه يقولُ : أيُّها النَّاسُ : قاتِلوا عن خَليفَتِكم ، ثم دَخلَ دارَ صالح ابنِ مُحمَّدِ بنِ يَزْدادَ ، ورَمَى السِّلاحَ ، ولَبسَ البَياضَ ليَهْربَ من السَّطحِ وجاءَ حاجِبُ باكيالَ ، فأُعْلِمَ به فهَرَبَ ، فرَماهُ واحدٌ بسَهْمٍ ، ونَفخَهُ بالسَّيفِ ثم حُملَ إلى الحاجِب ، فأرْكَبوه بَغْلاً وخَلفَه سائسٌ ، وضَربُوه وهم يَقولُون : أينَ الذَّهبُ ؟ فأقَرَّ لهم بسِتِّ مئة ألفِ دينار مُودَعَةً ببَغْدادَ ، فأخَذُوا خَطَّه بها ، وعَصَرَ تُرْكيٌّ علىٰ أُنْثيَيه فمات ، وقيلَ : أرادُوا منه أنْ يَخلَعَ نَفسَه فأبَىٰ فقَتلوه رَحمَه اللهُ وبايَعوا الْمُعْتَمِدَ على الله .

وفي ذُرِّيَته عُلماءُ وخُطَباءُ[3] .

---

(١) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٠ .

(٢) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٠ .

(٣) انظر السير : (الْمُهْتَدِي بالله) ١٢/ ٥٣٥ـ ٥٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٣٠ .

القَادِرُ بالله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الخَليفةُ أبو العبَّاس أحمدُ ابنُ الأميرِ إسْحاقَ بنِ الْمُقْتَدِر .

وكانَ أبيضَ كَثَّ اللِّحْيَة يخضِبُ ، دَيِّناً عالِماً مُتعبِّداً وَقُوراً من جُلَّة الخُلفاءِ وأمْثَلِهم عَدَّه ابنُ الصَّلاحِ في الشَّافِعيَّة[1] .

قالَ الخَطيبُ : كانَ من الدِّين ، وإدَامَة التهجُّد ، وكَثْرَةِ الصَّدَقاتِ علىٰ صِفَة اشْتُهِرَت عنه وصَنَّفَ كتاباً في الأصُول ، ذَكرَ فيه فَضلَ الصَّحابَة ، وإكْفار مَنْ قالَ : بخَلقِ القُرآنِ ، وكانَ ذلكَ الكتابُ يُقرأ في كلِّ جُمعَة في حَلقَة أصْحابِ الحَديث ، ويَحضُرُه النَّاسُ مُدَّة خِلافَتِه وهي إحْدَىٰ وأرْبَعُون سَنةً وثلاثَة أشْهُر .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ : قامَ بخِلافَته بَهَاءُ الدَّولة .

وذَكرَ مُحمَّدُ بنُ عبدِ المَلك الهَمذاني ، أنَّ القادِرَ كانَ يَلبَسُ زِيَّ العامَّة ويَقصِدُ الأماكِنَ الْمُبارَكَة[2] .

وعَملت الرَّافِضةُ عيدَ الغَدير ، فثارَت السُّنَّةُ ، وقَووا ، وخرَّقوا عَلَمَ السلطان ، وقُتلَ جَماعةٌ ، وصُلِبَ آخَرون ، فكَفُّوا .

وفي سنة ثلاثٍ وثَمانينَ وثَلاث مئة اسْتفحَلَ البَلاءُ بالعَيَّارين ببَغداد ، ولمْ يَحُجَّ أحدٌ من العِراق[3] .

وكان الرَّفضُ عَلانيةً بدمَشْقَ في سَنة أربع مئة ، ولقد أخَذَ نائبُها « تمصُولُت البَرْبَريُّ » رَجلاً في سنة ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مئة فطِيفَ به علىٰ حمارٍ : هٰذا جزاء مَنْ يُحبُّ أبا بكرٍ وعُمرَ ، ثم قُتِل .

وفي هٰذا الوَقت انبثَّتْ دُعاة الحاكم في الأطْرافِ ، فأمَرَ القادرُ بعَمل مَحْضَر

---

(١) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ١١٩٣/٢ .

(٢) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ١١٩٣/٣ .

(٣) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ١١٩٤/١ .

يتضمن القَدْحَ في نَسَب العُبَيْدِيَّة ، وأنَّهم مَنْسُوبون إلىٰ دَيْصانَ ابنِ سَعيد الخُرَّمي ، فشَهِدوا جَميعاً أنَّ النَّاجِمَ بمِصْرَ مَنصورَ ابنَ نزارٍ الحاكم حكمَ اللهُ عليه بالبَوار ، وأنَّ جَدَّهم لمَّا صارَ إلى الغَرب تَسمَّىٰ بالمَهْدي عُبَيد الله ، وهو وسَلفُه أرْجاسٌ خَوارج أدْعياء ، وأنَّ هٰذا النَّاجِمَ وسَلفَه كُفَّارٌ زَنادِقَة ، ولمَذْهَب الثَّنَوِيَّة[1] والمَجوسِيَّة مُعْتقدون ، عَطَّلوا الحُدودَ ، وأباحوا الفُروجَ وسَفكوا الدِّماءَ ، وسَبُّوا الأنْبياءَ ، ولَعَنوا السَّلَفَ ، وادَّعَوا الرُّبوبيَّة .

واسْتتابَ القادرُ فُقهاءَ المُعتزلَة ، فتبرَّؤا من الاعْتِزالِ والرَّفضِ وأُخِذَت خُطوطُهم بذلك .

وامتثلَ ابنُ سُبُكتكين أمرَ القادر ، فبَثَّ السُّنَّة بممَالكه وتَهدَّد بقَتلِ الرَّافِضَة والإسْماعيليَّة والقَرامِطَة ، والمُشبِّهَة والجَهْميَّة والمُعْتزلَة ، ولُعِنوا على المَنابر[2] .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبُكْتِكين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ بالله ، ففِيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوَّلِ سَنةِ عَشرٍ وأربَعِ مِئَة ، وانتُدِبَ لتَنفيذِ الأَوامِرِ فرَتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وأنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخَارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةَ آلافِ راجلٍ ، وانتُخَبَ ثلاثينَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلام ، وانْضَمَّ إليه المُطَّوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعَاً وحُصُوناً وأَسْلَمَ زُهاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأدَّوْا نَحوَ ألْفِ ألْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خَمسُونَ ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصْرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَام ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنائِمِ عِشْرينَ ألفَ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنَا ثلاثَ مِئَةٍ وسِتةً وخَمسينَ فِيلاً .

---

(١) أصحاب الاثنين الأزليين ، النور والظلمة ، يزعمون بأنهما أزليان قديمان انظر « الملل والنحل » ١/ ٢٤٤ .

(٢) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٤ .

وفي سَنَةِ اثْنَتَينِ وعِشرينَ وأَرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ بالله ، وعَاشَ سَبْعاً وثَمَانِينَ سَنَةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحَداً من خُلَفَاءِ هٰذِهِ الأُمَّة بَلَغَ هٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[1] .

القَائِم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : وكان ذا حَظٍّ من تَعبُّدٍ وصيامٍ وتَهجُّدٍ ، لَمَّا أنْ أُعيدَ إلىٰ خِلافَتِه قِيلَ : إنَّه لَمْ يَستردَّ شَيئاً ممَّا نُهِبَ من قَصرِه ، ولا عاقَبَ مَنْ آذاه ، واحْتَسَبَ وصَبرَ وكانَ تاركاً للمَلاهي ـ رَحِمَه اللهُ ـ وكانَت خِلافَتُه خَمساً وأَرْبَعينَ سَنَةً .

وغَسَّله شَيخُ الحَنابِلَة أبو جَعْفَر بنُ أبي مُوسَى الهَاشِميُّ ، وعاشَ سِتًّا وسَبعينَ سَنَةً ، وبُويعَ بعدَه ابنُ ابنِه[2] .

الْمُقْتَدي بأمْرِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الخَليفَةُ الْمُقْتَدي بأمْرِ الله ، أبو القَاسِم .

تَسلَّمَ الخِلافَةَ بعَهْدٍ من جَدِّه سنةَ سَبعٍ وستِّينَ وأَرْبَعِ مئة وهو ابنُ عِشْرينَ سَنَةً[3] .

وكان حَسنَ السِّيرَةِ ، وافِرَ الحُرْمَة أمَرَ بنَفي الخَواطىءِ والقينات ، وأنْ لا يَدخُلَ أحَدٌ الحَمَّامَ إلاَّ بمئزر ، وأخْرَبَ أبْراجَ الحمام ، وفيه دِيانَةٌ ونَجابَةٌ وقُوةٌ وعُلوٌّ هِمَّة ، وكانَ مَلِكْشاه قد صَمَّمَ علىٰ إخْراجِه من بَغْدادَ فحارَ ، والْتَجأ إلى اللهِ ، فدَفَعَ عنه ، وهَلكَ مَلِكْشاه[4] .

وكان مُحبًّاً للعلوم ، مُكْرِماً لأهْلِها ، لمْ يَزلْ في دَولةٍ قاهِرةٍ وصَوْلَةٍ باهِرَةٍ ، وكانَ غَزيرَ الفَضْلِ ، كاملَ العَقْلِ ، بَليغَ النَّثْرِ ، فمنه :

وَعْدُ الكُرَماءِ أَلْزَمُ من دُيون الغُرَماء ، الأَلْسُن الفَصيحَة أَنْفَعُ من الوُجُوه الصَّبيحَة ،

---

(١) انظر السير : (القَادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٤ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٨/ ٣٠٧ـ ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٦ .
(٣) انظر السير : (الْمُقْتَدي) ١٨/ ٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٨ .
(٤) انظر السير : (الْمُقْتَدي) ١٨/ ٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٤١٨ .

والضَّمائرُ الصَّحيحَة أبْلَغُ من الألْسُن الفَصيحَة ، حَقُّ الرَّعيَّة لازمٌ للرُّعاة ، ويَقبحُ بالوُلاة الإقْبالُ على السُّعاة .

وفي أول سنة سبع وثمانين تُوفِّي فَجْأة وهو ابنُ تسع وثلاثين سنة ، وكانت خِلافَتُه عشرينَ سنةً كان هو خَليفَةُ الإسْلام في زَمانِه ، لكنْ يُزاحِمُه صاحبُ مِصْرَ المُسْتَنصِرُ ، فكان العُبَيْدِيُّ والعبَّاسِيُّ مَقْهورَين من وُجوه وكان حُكْمُ العِراق والمَشْرق إلى السُّلْجوقيَّة ، وحكمُ المَغرب إلىٰ تاشْفِين وابنِه ، وحكمُ اليَمَن إلىٰ طائفة ، والأمرُ كلُّه لله[1] .

الْمُقْتَفي لأمْرِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : كان الْمُقْتَفي عاقلاً لبيباً ، عاملاً مَهيباً ، صَارِماً ، جَواداً مُحِباً للحَديثِ والعِلمِ ، مُكْرِماً لأهْلِه ، وكانَ حَميدَ السِّيرَة ، يَرجِعُ إلىٰ تَديُّنٍ وحُسْن سِياسَة ، جَدَّدَ مَعالِمَ الخِلافَة ، وباشَرَ الْمَهَمَّاتِ بنَفسه وغَزَا في جُيوشِه[2] .

قالَ أبو طالِب بنُ عبد السَّميع : كانت أيَّامُه نَضِرَةً بالعَدْلِ زَهِرَةً بالخَيرِ ، وكانَ علىٰ قَدَم من العِبادَة قَبلَ الخِلافَة ومَعها ، ولَمْ يُرَ مع لِينِهِ بعد الْمُعْتَصِم في شَهامَتِه مع الزُّهْدِ والوَرَعِ ، ولَمْ تَزَلْ جُيوشُه مَنصُورَةً[3] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكانَ من حَسَناتِه وَزيرُه عَوْنُ الدين بنُ هُبَيْرَة ، وكان أسْمَرَ آدَم ، مَجدُورَ الوَجْه ، مَليحَ الشَّيبَة ، أقامَ حشمةَ الخِلافَة وقَطعَ عنها أطْماعَ السَّلاطينِ السَّلْجوقيَّة وغيرهم[4] .

وعن ابنِ الجَوْزيِّ قالَ : قَرأتُ بخَطِّ أبي الفَرَج الحَدَّاد قالَ : حدَّثني مَنْ أثِقُ به أنَّ الْمُقْتَفِي رَأىٰ في مَنامِه قَبلَ أنْ يُسْتَخلَف بستَّة أيَّام رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقولُ له : سَيصِلُ هـٰذا الأمْرُ إليكَ فاقْتَفِ بي فلِذا لُقِّبَ الْمُقْتَفي لأمر الله[5] .

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَدي) ١٨/ ٣١٨ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٨ .
(٢) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٨/١٥٦٧ .
(٣) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٦٨ .
(٤) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٨ .
(٥) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٦٨ .

المُسْتَضيء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الخَليفةُ أبو مُحمَّد الحَسنُ ابنُ الْمُسْتَنْجِد بالله يوسُفُ بنِ الْمُقْتَفي مُحمَّدِ بنِ الْمُسْتَظْهِر أحْمَدِ ابنِ الْمُقْتَدي الهاشميُّ العَبَّاسيُّ .

بُويعَ بالخِلافَة وَقتَ مَوتِ أبيه في رَبيعِ الآخِر سَنةَ ستٍّ وستِّين وخمسِ مئة ، وقامَ بأمْرِ البَيْعَة عَضُدُ الدِّين أبو الفَرج ابنُ رَئيس الرُّؤساء ، فاسْتَوْزَره يومئذ .

وُلدَ سَنةَ سِتَّة وثَلاثين وخَمسِ مئة وأمُّه أرْمنيَّة وكانَ ذا حِلمٍ وأناةٍ ورَأفَةٍ ، وبِرٍّ وصَدقاتٍ .

قالَ ابنُ الجَوزيّ في « الْمُنْتَظمِ » : بُويعَ ، فنُودي برَفْع المُكوسِ ، وردِّ المَظالِم ، وأظْهَرَ من العَدلِ والكَرَمِ ما لَم نَرَه من أعْمارِنا ، وفرَّقَ مالاً عَظيماً على الهاشميِّين .

وقالَ ابنُ الجَوزيّ : في خِلافَته زالَت دَولةُ العُبَيديَّة بمِصْرَ ، وخُطِبَ له بها ، وجاءَ الخَبرُ فغُلِّقَت الأسْواقُ للمسرَّة ، وعُملَت القِبابُ ، وصَنَّفتُ كتاباً سَمَّيتُه ، « النَّصْرُ علىٰ مِصْرَ » ، وعَرضتُه على الإمامِ الْمُسْتَضيء .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وخُطبَ له باليَمَنِ ، وبَرْقَة ، وتَوْزَرَ ، وإلىٰ بلاد التُّركِ ، ودانَت له المُلوكُ ، وكان يَطلبُ ابنَ الجَوْزيِّ ، ويأمُرُه أنْ يَعظَ بحَيثُ يَسْمَع ، ويَميلُ إلىٰ مَذْهَبِ الحَنابِلَة ، وضَعُفَ بدَولتِه الرَّفضُ ببَغْدادَ وبمِصْرَ وظَهرَت السُّنةُ ، وحَصلَ الأمْنُ ، ولله الْمِنَّة .

ماتَ الْمُسْتَضيءُ سنةَ خَمْس وسَبْعينَ وخَمْسِ مئة ، وبايَعوا بعدَه ولدَه النَّاصِرَ لدينِ الله[1] .

الظَّاهِرُ بأَمْرِ الله :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : قالَ ابنُ الأثيرِ : وَلِيَ فأظْهرَ العَدلَ والإحْسانَ ، وأعادَ سُنَّةَ العُمَرَيْن فإنَّه لوْ قِيلَ : ما وَلِيَ بعدَ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز مثلُه لكانَ القائلُ صادقاً

---

(١) انظر السير : (الْمُسْتَضِيء بأمْر الله) ٢١/٦٨ـ ٧٢ ، وانظر النزهة : ١٥٩٨/ الْمُسْتَضِيء بأمْر الله .

فإنَّه أعادَ من الأمْوالِ والأمْلاكِ الْمَغْصوبَة شَيئاً كثيراً ، وأطلقَ الْمُكُوسَ في البلادِ جَميعِها ، وأمرَ بإعادَةِ الخَراجِ القَديمِ في جَميعِ العِراقِ وبإسْقاطِ ما جَدَّدهُ أبُوهُ وكان لا يُحصَىٰ ، وقدِمَ صاحَبُ الدِّيوانِ من وَاسِطَ بأكثرَ من مئةِ ألفٍ ظُلماً فرَدَّها علىٰ أرْبابِها ، ونفَّذَ إلى الحاكِمِ عشرَةَ آلافِ دينار ليُوَفِّيَها عن الْمَحْبوسينَ ، وكان يقولُ : أنا قد فَتَحْتُ الدكَّانَ بعدَ العَصْر[1] فذَروني أفعَلُ الخَيرَ ، فكَم بَقيتُ أعيشُ وقد أنْفَقَ وتَصدَّقَ في لَيلةِ النَّحْرِ مئةَ ألفِ دينارٍ ، وكانَ نِعْمَ الخَليفَةَ خُشوعاً وخُضوعاً لربِّه وعَدْلاً في رَعيَّتِه ، وازْدياداً في وَقتٍ من الخَيرِ ، ورَغبَةً في الإحْسان[2] .

وقالَ سِبطُ الجَوْزيِّ : حُكِيَ عنه أنَّه دَخلَ إلى الخَزائنِ ، فقالَ له خادمٌ : في أيامِك تَمتلىء ، قالَ : ما عُملت الخَزائنُ لتُملأَ ، بَلْ لتُفْرَغَ وتُنفَقَ في سَبيلِ الله إنَّ الجَمْعَ شُغلُ التجَّارِ[3] .

٢ـ مُلُوكٌ صَالِحُون :

هِشامُ بنُ عبد الرحمَـٰن الأُمَوي :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الأميرُ أبو الوَليد الْمَرْوانيُّ ، بُويعَ بالْمُلكِ بالأنْدَلُسِ عندَ مَوتِ والدِه ، سَنةَ اثنَتينِ وسَبعينَ ومئة ، وعُمرُه إذا ذاك ثَلاثونَ سَنةً ، فإنَّه وُلدَ بالأنْدَلُسِ ، وكانَ دَيِّناً وَرعاً يَشهَدُ الجَنائزَ ، ويَعودُ المَرضَىٰ ، ويَعدِلُ في الرَّعيَّة ، ويُكثِرُ الصَّدَقاتِ ، ويَتعاهَدُ المَساكينَ ، وأمُّه أمُّ وَلَد ، اسْمُها حَوْرَاءُ .

ولَمَّا احْتُضِرَ ، عَهدَ بالأمْرِ إلىٰ وَلدِه الحَكَم .

وماتَ في سَنةِ ثَمانينَ ومئة ، وله سَبعٌ وثَلاثونَ سَنةً رَحمَهُ الله[4] .

---

(١) أي أنه ولي الخلافة علىٰ كبر السن .

(٢) انظر السير : (الظَّاهِر بأمْر الله) ٢٢/ ٢٦٤ـ٢٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩١ .

(٣) انظر السير : (الظَّاهِر بأمْر الله) ٢٢/ ٢٦٤ـ٢٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩١ .

(٤) انظر السير : (هشام بن عبد الرحمـٰن بن معاوية) ٨/٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥٠ .

نُورُ الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمتِه : صاحبُ الشَّام ، المَلكُ العَادِلُ ، نُورُ الدِّين ، ناصِرُ أمير المؤمنين تَقِيُّ المُلوكِ ، لَيْثُ الإسْلام ، أبو القاسِم ، مَحْمُودُ بنُ الأتابَكِ قَسيمِ الدَّولَة أبي سَعيد زَنْكي بنِ الأميرِ الكَبير آقْسُنْقُر ، التُّرْكيُّ السُّلطانيُّ الْمَلِكْشاهيّ .

مَوْلدُه سَنةَ إحْدَىٰ عَشْرَة وخَمسِ مئَة[١] .

وكانَ نُورُ الدِّين حامِلَ رايَتَي العَدْلِ والجِهادِ ، قَلَّ أنْ تَرى العُيونُ مثلَه ، حاصَرَ دِمَشْقَ ، ثم تَملَّكَها ، وبَقِيَ بها عِشْرينَ سَنةً .

وبَنَى المَدارِسَ بحَلَبَ وحِمْصَ وبَعْلَبَك والجَوامِعَ والْمَساجِدَ وسُلِّمَت إليه دِمَشْقُ للغَلاءِ والخَوْفِ ، فحَصَّنها ، ووَسَّعَ أسْواقَها ، وأنْشأَ المارِسْتانَ ودارَ الحَديثِ والمَدارِسَ ومَساجِدَ عِدَّة ، وأبْطَلَ المُكُوسَ ، ثم أخَذَ من العَدُوِّ بانِيَاسَ والْمُنَيْطِرَة[٢] ، وكَسرَ الفِرَنْجَ مَرَّاتٍ ، ودوَّخَهم وأذلَّهم[٣] .

وكان بَطَلاً شُجَاعاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَعٍ ، وكان يَتعرَّضُ للشَّهادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباعِ وحَواصِلِ الطَّيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبَويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحُمْص وحمَاة وصَرْخَد وبَعْلبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجا ، وعلىٰ بانياس[٤] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٩ .

(٢) حصن بالشام قريب من طرابلس .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٩ .

(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

وكانت الفِرنْجُ قد استضَرَّتْ علىٰ دِمَشْقَ ، وجعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجُيُوشِ شَاوَرُ مُستَجِيراً به ، فأكْرَمَه ، وبَعَثَ معه جَيشاً لِيُرَدَّ إلىٰ مَنصِبه ، فانتَصَرَ ، لكنَّه تَخَابَثَ وتَلائَمَ ، ثم استنجَدَ بالفِرنْجِ ، ثم جَهَّزَ نورُ الدين رحِمَه الله جَيشاً لَجِباً مع نائبه أَسَدُ الدين شِيركُوه ، فافتَتَحَ مِصرَ ، وقَهَرَ دولتَها الرَّافِضيَّة ، وهَرَبَتْ منه الفِرنْجُ ، وقُتِلَ شَاوَرُ وصَفَتِ الدِّيارُ المِصْريَّة لشِيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصَلاحِ الدين ، فأبَادَ العُبَيْدِيينَ واسْتَأصَلَهم ، وأقَامَ الدَّعوةَ العَبَّاسيَّة .

وكان نورُ الدِّين مَلِيحَ الخَطِّ ، كثيرَ المُطالَعَةِ ، يُصَلِّي في جَماعَةٍ ويَصُومُ ويَتْلُو ويُسَبِّحُ ، ويَتَحَرَّىٰ في القُوتِ ويَتَجَنَّبُ الكِبرَ ، ويَتَشَبَّه بالعُلَماءِ والأخْيَارِ ، ذَكَرَ هٰذا ونَحْوَه الحافِظُ بنُ عَسَاكِر ، ثم قال : رَوَىَ الحَدِيثَ ، وأَسْمَعَه بالإجازَةِ ، وكان مَنْ رَآهُ شَاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وهَيْبَةِ المُلكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فَاوَضَهُ ، رَأىٰ من لَطَافَتِه وتَوَاضُعِهِ ما يُحَيِّرُه ، حَكَىٰ مَنْ صَحِبَهُ حَضَراً وسَفَراً أنَّه ما سُمِعَ منه كَلِمَةُ فُحْشٍ في رِضَاهُ ، ولا في ضَجَرِه ، وكان يُواخِي الصَّالِحِين ، ويَزُورُهم ، وإذا احْتَلَمَ مَمَالِيكُهُ أَعْتَقَهُم ، وزَوَّجَهُم بجَوَارِيهِ ، ومتىٰ تشكَّوْا من وُلاتِهِ عَزَلَهُم ، وغَالِبُ ما تَمَلَّكَهُ من البُلْدَانِ تَسَلَّمَهُ بالأمانِ ، وكان كُلَّما أَخَذَ مدينةً ، أَسْقَطَ عن رَعِيَّته قِسْطاً[1] .

وقال أبو الفَرَجْ بنُ الجَوْزِيّ : جاهَدَ نورُ الدِّين وانْتَزَعَ من الكُفَّارِ نَيِّفاً وخَمْسِين مدينةً وحِصْناً ، وبَنَىٰ بالمَوْصِلِ جامِعاً غَرِمَ عليه سَبْعِينَ ألفَ دِينَار ، وتَرَكَ المُكُوسَ قبلَ مَوْتِه ، وبَعَثَ جُنُوداً فَتَحُوا مِصْرَ ، وكان يَمِيلُ إلى التَّواضُعِ وحُبِّ العُلَماءِ ، والصُلَحَاءِ ، وكاتَبَنِي مِراراً ، وعَزَمَ علىٰ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فتُوُفِّيَ سَنَةَ تسعٍ وسِتِّينَ وخَمْسِ مِئَة[2] .

وقال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيفِ : كان نورُ الدِّين لَمْ يَنْشَفْ له لِبدٌ من الجِهَادِ ، وكان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِه ، يَنْسِجُ تارةً ، ويَعْمَلُ أغْلافاً تارةً ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السِّجادَةَ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٠ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨١ .

والمُصْحَفَ ، وكان حَنَفِيّاً يُراعِي مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ ومَالِك وكان ابنُهُ الصَّالِحُ إسْماعِيلُ أَحْسَنَ أَهْلِ زَمَانِه[١] .

وقالَ ابنُ الأثير : طَالَعتُ السِّيَرَ ، فلَمْ أرَ فيها بعد الخُلفاء الرَّاشِدين وعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أَحْسَنَ من سِيرَته ، ولا أَكْثَرَ تَحَرِّياً منه للعَدْلِ ، وكانَ لا يَأكلُ ولا يلبَسُ ولا يَتصرَّفُ إلاَّ من مُلكٍ له قد اشْتراه من سَهْمِه من الغَنيمَة ، لقَدْ طَلَبَتْ زَوجَتُه منه ، فأعْطاهَا ثَلاثةَ دَكاكين فاسْتَقلَّتها ، فقالَ : ليسَ لي إلاَّ هـٰذا ، وجَميعُ ما بيَدي أنا فيه خازنٌ للمُسلمينَ ، وكان يتهجَّدُ كثيراً ، وكان عارفاً بمَذْهَب أبي حَنيفَة[٢] .

قال له القُطبُ النيسابوريُّ : بالله لا تُخاطِرْ بنفسِكَ ، فإنْ أُصِبْتَ في مَعْركَة لا يَبْقَىٰ للمُسلمينَ أحدٌ إلاَّ أَخَذَه السَّيفُ ، فقالَ : ومَنْ مَحْمودٌ حتىٰ يُقالَ هـٰذا ؟!! حَفِظَ اللهُ البِلادَ قَبْلي ، لا إلـٰهَ إلاَّ هُو[٣] .

وقال مَجدُ الدِّين بنُ الأثير في نقل سبطِ الجَوْزِيِّ عنه : لَمْ يَلْبَسْ نُورُ الدِّين حَرِيراً ولا ذَهَباً ، ومَنَعَ بَيعَ الخَمرِ في بلادِه ، قال : وكان كَثيرَ الصَّومِ ، وله أَوْرَادٌ كثيرةٌ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، ويُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرَةِ ، فأنْكَرَ عليه فقيرٌ فكَتَبَ إليه : والله ما أَقْصِدُ اللَّعِبَ ، وإنَّما نَحنُ في ثَغْرٍ ، فربَّما وَقَعَ الصَّوتُ ، فتكونُ الخَيلُ قد أدمَنَت على الانْعِطافِ والكَرِّ والفَرِّ .

وأُهْدِيَتْ له عَمَامَة من مِصْرَ مُذَهَّبَة ، فأعطَاهَا لابنِ حَمُّويه شَيخِ الصُّوفِيَّة فبِيعَتْ بألفِ دينار[٤] .

وقالَ ابنُ الأثير : جاءَه رجلٌ يَطْلُبُه إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزوريِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُكُ مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضَرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحَاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨١ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨١ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨١ .
(٤) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٢ .

حَقٌّ ، وكان مِلْكاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجِزْيَةِ والخَرَاجِ والعُشْرِ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من ألْفِ مَنْشُورٍ[1] .

قالَ سبطُ الجَوْزي : كان له عَجائزُ ، فكان يَخيطُ الكَوافي ، ويَعمَلُ السَّكاكِرَ فيَبعْنَها له سِراً ، ويُفْطِرُ علىٰ ثَمَنِها[2] .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نورُ الدِّين من أَقْوَى النَّاسِ قَلْباً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهْرِ فَرَسٍ أَحَدٌ أَشَدَّ منهُ ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتَحَرَّكُ ، وكان يقولُ : طالَمَا تَعرَّضْتُ للشَّهَادَةِ ، فلَمْ أُدْرِكْها .

قالَ الإمامُ الذَّهبيُّ : قد أدْرَكَها علىٰ فِراشِه ، وعلىٰ ألْسِنَةِ النَّاسِ : نُورُ الدِّينِ شَهِيدٌ[3] .

قال سِبطُ الجُوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نَزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصدِّقُني قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يوم حارِمٍ وانتُبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُني أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرُسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قولِه بعَلامَةِ يوم حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلامِ ، فانفَرَدْتُ ونزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلْتُ : يا سَيِّدي مَنْ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٨٢ .

(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٢ .

مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهـٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكَ ، قال : فنصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبَها تِسْعَ سِنين وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[1] .

صَلاحُ الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : قال العِمادُ : كانَ صَلاحُ الدِّينِ لا يَلْبَسُ إلاَّ ما يَحِلُّ لُبْسُهُ كالكِتَّانِ والقُطْنِ ، نَزَّهَ المجالِسَ من الهَزلِ ، ومَحَافلُه آهِلَةٌ بالفُضَلاءِ ، ويُؤْثِرُ سَمَاعَ الحَدِيثِ بالأسَانِيدِ ، حَلِيماً ، مُقِيلاً للعَثْرةِ ، تَقِيّاً نَقِيّاً وَفِيّاً صَفِيّاً ، يُغْضِي ولا يَغْضَبُ ، ما رَدَّ سائِلاً ، ولا خَجَّلَ قائلاً ، كَثيرَ البِرِّ والصَّدَقاتِ ، أنْكَرَ عليَّ تَحْلِيَةَ دَواتِي بفِضَّةٍ فقُلْتُ : في جَوَازِهِ وَجْهٌ ذَكَرَه أبو مُحمَّد الجُوَيْنيُّ ، وما رَأيتُه صلَّىٰ إلاَّ في جَماعَةٍ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وحَضَرَ وفَاتَه القاضي الفَاضِلُ[2] .

وفي الرَّوضَتَين لأبي شامَة : أنَّ السُّلطانَ لَمْ يُخَلِّفْ في خِزَانَتِه من الذَّهبِ والفِضَّةِ إلاَّ سَبعَةً وأربَعينَ درهماً ، وديناراً صُورِيّاً ، ولَمْ يُخَلِّفْ مِلْكاً ولا عَقَاراً رحمه الله ، ولَمْ يَخْتلِفْ عليه في أيَّامِه أحدٌ من أصْحَابِه وكان النَّاسُ يَأمَنُون ظُلمَه ، ويَرجُونَ رِفدَه ، وأكثرُ ما كان يَصِلُ عَطَاؤُه إلى الشُّجْعانِ ، وإلى العُلَماءُ وأرْبَابِ البُيُوتاتِ ، ولَمْ يكُنْ لمُبطِلٍ ولا لمَزَّاحٍ عنده نَصِيبٌ .

قال المُوَفَّقُ : وكان إذا نَازَلَ بَلَداً ، وأشْرَفَ علىٰ أخْذِه ، ثمَّ طَلَبُوا منه الأمَانَ ، آمَنَهُم ، فيَتَألَّمُ لذلك جَيشُه ، لفَوَاتِ حَظِّهم[3] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٢ .

(٣) انظر السير : (صَلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٣ .

٣ـ خَلِيفَةٌ فاسِق :

الوَلِيدُ بنُ يَزِيد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : الوَلِيدُ بنُ يَزِيدَ بنِ عبدِ الْمَلكِ ابنِ مَرْوَانَ بنِ الحَكَمِ **الخَلِيفَةُ أبو العَبَّاس الدِّمَشقيُّ الأُمَويُّ** .

وُلِدَ سَنةَ تِسعينَ ، ووَقتُ مَوتِ أبيه كان للوَليدِ نَيِّفَ عَشرةَ سَنةً ، فعَقدَ له أبُوه بالعَهْد من بعدِ هِشامِ بنِ عبدِ المَلكِ ، فلمَّا ماتَ هشامٌ ، سُلِّمَت إليه الخِلافَة .

عن عُمرَ قالَ : وُلِدَ لأخي أُمِّ سَلمَة وَلدٌ ، فسَمَّوهُ الوَليدَ ، فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « سَمَّيْتُموهُ بأسْماءِ فَراعِنَتِكم ، لَيَكونَنَّ فِي هَـٰذِهِ الأُمَّةِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : الوَلِيدُ ، لَهُوَ أَشَدُّ لِهَـٰذِهِ الأُمَّةِ مِنْ فِرْعَوْنَ لِقَوْمِهِ »[(١)] رَواهُ الوَليدُ ، والهقلُ وجَماعَةٌ ، عن الأوْزاعيِّ ، فأرْسَلوه وما ذَكروا عُمرَ ، وفي لَفظٍ : « لَهُوَ أَضَرُّ عَلَىٰ أُمَّتِي » وجاء بإسناد ضعيف « سَيَكونُ فِي الأُمَّةِ فِرْعَوْنٌ ، يُقَالُ لَهُ : الوَلِيدُ »[(٢)] .

قالَ حَمَّادٌ الرَّاويةُ : كُنتُ عند الوَليدِ بنِ يَزيدَ ، فقالَ مُنَجِّمانِ له : نَظَرْنا فوَجَدْناكَ تَملِكُ سَبعَ سِنينَ ، فقُلتُ : كَذبا ، نَحنُ أعْلمُ بالآثارِ ، بَلْ تَملِكُ أرْبَعينَ سَنةً فأطْرَقَ ثم قالَ : لا ما قالا يَكْسِرُني ، ولا ما قُلتَ يَغُرُّني ، واللهِ لأجْبيَنَّ المالَ من حِلِّهِ جِبايَةَ مَنْ يَعيشُ الأبَدَ ، ولأصْرِفَنَّه في حَقِّه صَرْفَ مَنْ يَمُوتُ الغَد[(٣)] .

وعن العُتبيِّ : أنَّ الوَليدَ رَأىٰ نَصْرانيَّةً اسْمُها سَفرىٰ ، فجُنَّ بها ، وراسَلها فأبَت[(٤)] .

وعن صالحِ بنِ سُلَيمانَ ، قالَ : أرادَ الوَليدُ بنُ يَزيدَ الحَجَّ ، وقالَ : أشْرَبُ فَوقَ

---

(١) هو في المسند (١/ ١٨) ، وإسناده ضعيف لانقطاعه وسوء حفظ أبي بكر بن عيّاش ، وقد حكم عليه الحافظ العراقي بالوَضع ، وأطال الحافظُ ابن حجر في الردِّ عليه لإثبات أن له أصْلاً في (القول المسدد » (ص : ٥ ، ٦ ، ١١ ، ١٦) فراجعه .

(٢) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١١/ ١ .

(٣) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١١/ ٢ .

(٤) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١١/ ٣ .

الكعْبَةِ ، فهَمَّ قَومٌ بقَتلِه ، فحَذَّرَه خالدُ القَسْريُّ ، فقالَ : ممَّنْ ؟ فامْتَنع أنْ يُعَرِّفَه ، قالَ : لأبْعَثنَّ بك إلىٰ يُوسُفَ بنِ عُمَر قالَ : وإنْ ، فبعثَ به إليه فعَذَّبَه ، وأهْلَكه .

وعن مُصْعَبٍ الزبيريِّ ، عن أبيه ، قالَ : كُنتُ عندَ الْمَهْديِّ ، فذَكَرَ الوَليدَ بنَ يَزيدَ فقالَ رَجلٌ : كان زِنْديقاً ، قالَ : مَهْ ، خِلافَةُ الله أجَلُّ من أنْ يَجْعلَها في زِنْديق[1] .

وقالَ عبدُ الله بنُ وَاقِد الجُرْمي : لَمَّا اجْتَمعوا علىٰ قَتلِ الوَليدِ ، قَلَّدوا أمْرَهم يَزيدَ بنَ الوَليدِ ، فشَاوَرَ أخَاه العَبَّاسَ ، فنَهاهُ ، فخَرجَ يَزيدُ في أرْبَعينَ نَفْساً لَيلاً ، فكَسَروا بابَ الْمَقْصُورَة ، ورَبَطوا وَاليها ، وحَمَلَ يَزيدُ الأمْوالَ علىٰ عَجَلٍ ، وعَقدَ رَايَةً لابنِ عَمِّه عبدِ العَزيز ، وأنْفَقَ الأمْوالَ في ألْفَي رَجلٍ ، فتَحارَبَ هم وأعْوانُ الوَليدِ ، ثم انْحازَ أعْوانُ الوَليدِ إلىٰ يَزيدَ ، ثم نَزلَ يَزيدُ حِصْنَ البخراءِ ، فقَصدَه عبدُ العَزيز ، ونَهبَ أثْقالَه ، فانكَسَر أولاً عبدُ العَزيز ، ثم ظَهرَ ونادَىٰ مُنادٍ : اقْتُلوا عَدُوَّ الله قَتلَةَ قَوم لُوطٍ ، ارْمُوهُ بالحِجارَةِ ، فدَخَلَ القَصرَ ، فأحاطُوا به ، وتَدلُّوا إليه فقَتلُوه ، وقالوا : إنَّما نَنقِمُ عليكَ انْتِهاكَ ما حَرَّم الله ، وشُربَ الخَمْرِ ، ونِكاحَ أُمَّهاتِ أوْلادِ أبيكَ ونُفِّذَ إلىٰ يَزيد بالرَّأسِ وكانَ قد جَعلَ لِمَنْ أتاهُ به مئةَ ألفٍ[2] .

وقيلَ : سَبقَت كَفُّه رَأسَه بلَيْلَة ، فنُصِبَ رأسُه علىٰ رُمحٍ بعد الجُمُعَة ، فنَظرَ إليه أخُوه سُلَيْمَانُ ، فقالَ : بُعْداً له كانَ شَروباً للخَمْرِ ماجِناً ، قد راوَدَني علىٰ نَفسِي[3] .

قيلَ : عاشَ سِتًّا وثَلاثينَ سَنةً ، وكانَ مَصْرَعُه في جُمادَى الآخِرَة سَنة سِتٍّ وعشْرينَ ومئة .

فتَملَّكَ سَنةً وثَلاثَة أشْهُر ، وأمُّه هي بنتُ مُحمَّد بنِ يُوسُف الثَّقَفي أميرُ اليَمَن أخي الحَجَّاج ، ونَقلَ عنه الْمَسْعوديُّ مَصائبَ ، فالله أعْلم[4] .

---

(١) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١١/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١٢/ ١ .

(٣) قال الإمامُ الذهَبيُّ ـ رحمَه الله ـ في تاريخه (٥/ ١٧٦ ، ١٧٩) : قلتُ : مَقتَ الناسُ الوَليدَ لفِسقه ، وتأثَّموا من السكوت عنه وخرجوا عليه ، ولم يصح عنه كفر ولا زَنْدَقة ، نعم اشْتُهر بشُرب الخمر والتلَوُّط .

(٤) انظر السير : (الوَليد بن يَزيد) ٥/ ٣٧٠ـ ٣٧٣ ، وانظر النزهة : ٦١٢/ ٢ .

٤ـ مَلِكٌ يَحْتَفِلُ بعيد النَّصارَىٰ لبَقايا نَصْرانيَّة فيه :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المَلكِ الرَّحيم بَدْرِ الدِّينِ الأتَابكيّ : وكان يَحْتفِلُ لعيدِ الشَّعانين لبَقايَا فيه من شِعارِ أهْلِه ، فيَمُدُّ سِماطاً عَظيماً إلى الغايَة ، ويُحْضِرُ المَغَاني ، وفي غُصُونِ ذلك أوَاني الخُمورِ ، فيَفرَحُ ويَنْثُرُ الذَّهبَ من القَلعَةِ ، ويَتَخاطَفَهُ الرِّجالُ ، فمُقِتَ لإحْياءِ شِعَارِ النَّصارَىٰ ، وقِيلَ فيه[1] :

يُعظِّـم أعيـادَ النَّصـارَىٰ محبـةً	وَيـزعُـمُ أنَّ اللهَ عيسـى ابـنُ مـريـم
إذا نبَّهتْـهُ نَخـوةٌ أريحيَّـةٌ	إلـى المجـدِ قـالـت أَرمنيَّـةُ نَـمِ

٥ـ صُورَةٌ علىٰ تَعْظيم النَّاس للخُلَفَاء :

عن الإمامِ مَالكٍ ، قالَ : دَخلتُ على الْمَنْصُورِ ، وكانَ يَدخُلُ عليه الهَاشِميُّونَ ، فيُقَبِّلُونَ يَدَه ورِجْلَه ـ عَصَمَني اللهُ من ذلك ـ[2] .

٦ـ المُلُوكُ الذين كانوا سُوقَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في ترجَمَة « الصَفَّار » : الملك ، أبو يوسُف ، يعقوبُ ابنُ اللَّيث ، السِّجسْتاني ، المستولي علىٰ خُراسان[3] .

قيلَ : كان هو وأخُوهُ عَمرو بنُ الليث يَعمَلان في النُّحاس ، فتزَهَّدا وجاهَدا مع صالح المُطَّوعي المحارب للخَوارج .

قال ابنُ الأثير : غَلبَ صالحٌ علىٰ سِجِسْتان ، ثم استنقَذَها منه طاهرُ ابنُ عبد الله بنِ طاهِر ، فظَهرَ بها دِرْهَمُ بنُ حُسَين المُطَوِّعي ، فاسْتولىٰ أيضاً عليها ، وجَعلَ يَعقوبَ بنَ اللَّيث قائدَ عَسْكَره ، ثم رأىٰ أصْحابُ دِرْهَم عَجْزَه ، فمَلَّكُوا يَعقُوبَ لحُسْن سِياسَتِه ، فأذْعَنَ لهم دِرْهَمُ واشْتهرت صَوْلةُ يَعقوبَ وغَلبَه علىٰ هراة وبُوشَنْج ، وحارَب التُّرْكَ ،

---

(١) انظر السير : (الْمَلك الرَّحيم) ٢٣/٣٥٦ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٤٠ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٢٨ .

(٣) انظر السير : (الصَّفَّار) ١٢/٥١٣ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٢٦ .

وظَفرَ برُتْبيل ، فقتَلَه وقَتلَ ثلاثة مُلوك ورَجعَ معه أُلوفٌ من الرُّؤوس ، فهابَتْه المُلوكُ ، وكان بوجْهه ضَرْبَةُ سَيف مُخَيَّطة .

وكان يَحملُ إلى المعْتمدِ في العامِ خَمسَةَ آلافِ ألفِ دِرْهَم، وقَنعَ المعتمدُ بمُداراتِه.

ثم أخَذَ بَلْخَ ونيسابُورَ ، وأسَرَ مُتولِّيها ابنَ طاهر في ستِّينَ نَفْساً من آله ، وقَصَد جُرْجانَ ، فهَزم المُتغلِّبَ عليها الحَسَنَ بنَ زَيْد العَلوي ، وغَنمَ منه ثلاثَ مئة حِمل مال ثم دَخلَ جُرْجانَ ، فظَلمَ وعَسفَ ، فجاءَت زَلْزَلَةٌ قَتلَت من جُندِه ألفين .

واستغاثَ جَماعةٌ جُرْجانيُّونَ ببَغْدادَ من يَعْقوبَ ، فعَزمَ المُعتمدُ علىٰ حَرْبه ونفَّذَ كُتباً إلىٰ أعْيانِ خُراسَانَ بذَمِّ يَعقُوبَ ، وبأنْ يَهْتمُّوا لاسْتئصالِه فكاتَبَ المُعتمدَ يَخْضَعُ ويُراوِغُ ، ويطلبُ التَّقليدَ بتَوَليه المشرقَ ، ففَعَلَ المُعتمدُ ذاكَ وأخُوهُ المُوَفَّقُ لاشْتغالِهِم بحَرْبِ الزِّنج .

وأقبلَ يَعقوبُ ليَملكَ العراقَ ، وبَرزَ المُعتمدُ ، فالْتَقى الجَمْعان بديرِ العَاقُول[١] ، وكَثُرت القَتلىٰ ، فانْهزَمَ يَعقوبُ ، وجُرِحَ أُمراؤُه ، وذَهبَت خَزائنُه ، وغَرقَ منهم خَلقٌ في نَهْر .

وكان المَصافُّ في رَجبٍ سَنة اثْنَتين وسِتِّينَ ومئتين فذَهبَ يَعقوبُ إلىٰ وَاسِط ، ثم إلىٰ تُسْتَر فأخَذَها ، وتراجَعَ جَيشُه ، وعَظُمَت وَطأتُه ، وكادَ أنْ يَملكَ الدُّنيا ، ثم كانَ مَوتُه بالقُولَنج ، ووُصِفَت له حُقْنَة ، فأبَىٰ ، وتَلِفَ بعد أسْبوعَين .

وقَلَّ أن رُئي مُتَبسِّماً ، ماتَ بجُنديسابورَ في سَنةِ خَمس وسِتِّين ومئتين[٢] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة عَمْرو بن اللَّيْث الصَّفَّار : قِيلَ : كان ضرَّاباً في الصُّفْر ، وقيل : بل مكاريَّ حَمير ، فآل به الحال إلى السلطنة .

تَملَّكَ بعدَ أخيه ، وأحْسَنَ السِّياسَة ، وعَدل ، وعَظُمَت دُوَلُه ، وأطَاعَ الخَليفَةَ .

وقيلَ : كان في خدمَة زَوجتِه ألفٌ وسَبعُ مئة جارِيَة .

---

(١) وهو بين مدائن كسرىٰ والنعمانية علىٰ شاطىء دجلة .

(٢) انظر السير : (الصَّفَّار) ١٢/ ٥١٣ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٦ .

ثم بَغَىٰ عَمرٌو علىٰ وَالي سَمَرْقَند إسْماعيلَ بن أحمَد بنِ أسَد .

وأقْبلَ إسْماعيلُ ، فأخَذَ أصحابُ عَمرو بنِ اللَّيث في الهَزيمَة ، فرَكبَت عَساكرُ إسْماعيلَ ظُهورَهم ، وتَوحَّلت بعَمرو دابَّتُه ، فأُسِر ، فأُتي به إسْماعيلُ ، فاعْتَنقَه وخَدمَه ، وقالَ : ما أَحْبَبتُ أنْ يَجْري هـٰذا ، ثمَّ بالَغَ في احْترامِه ، فقالَ : احْلِفْ لي ولا تُسْلمني ، فحَلفَ له ، لكن جاءَ رسُولُ المُعْتضِدِ بالخَلْع والتَّقْليدِ لإسْماعيلَ ، ويَطلبُ عَمراً فأُدْخِل بَغدادَ علىٰ بُخْتيٍّ عليه جُبَّةُ ديباج ، ويُرنُس السُّخْط ثم قالَ له المُعْتضِدُ : هـٰذا بَيْعَتُك يا عَمرو! ثم اعْتَقلَه ، فقتَلَه القاسمُ بنُ عُبَيد الله الوَزيرُ يومَ مَوْت المُعْتضِد سَنَةَ تسعٍ وثَمانينَ ومِئتَين وكان دَولتُه نيِّفاً وعشرينَ سَنة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة مُعِزِّ الدَّوْلَة : كان أبوهُ سَمَّاكاً ، وهـٰذا رُبَّما احْتَطبَ ، تملَّكَ العِراقَ نَيفاً وعِشرينَ سَنةً ، وكان الخَليفَةُ مَقْهوراً معه ، وماتَ مَبْطوناً فعَهدَ إلى ابنِه عِزِّ الدَّولَة بَخْتِيار ، وكان يَتشيَّع ، فقيلَ : تابَ في مَرضِه ، وتَرضَّىٰ عن الصَّحابَة ، وتَصدَّقَ ، وأعْتقَ ، وأراقَ الخُمورَ ونَدِمَ علىٰ ما ظَلمَ ، ورَدَّ المَواريثَ إلىٰ ذَوي الأرْحام وكان يُقالُ له : الأقْطَع طارَت يَسارُه في حَربٍ ، وطارَت بَعضُ اليُمْنَىٰ ، وسَقطَ بين القَتلَىٰ ثم نَجا ، وتَملَّكَ بَغدادَ بلا كُلفَة ودانَت له الأُمَمُ ، وكان في الابْتداءِ تَبعاً لأخيه المَلكِ عِمادِ الدَّولَة .

ماتَ سنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وثَلاثِ مِئَة ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً .

وقد أنْشأ داراً غَرم عليها أرْبَعين ألفَ ألفِ دِرْهم فبَقيَت إلىٰ بعدِ الأرْبَع مئة ونُقِضَت ، فاشْتَروا جَرْدَ ما في سُقوفِها من الذَّهَب بثَمانيَةِ آلافِ دِينار[2] .

كافُور :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَته : صاحِبُ مِصْرَ ، الخَادِمُ الأسْتاذُ ، أبو المِسْكِ ، كافُورُ الإخْشيذيُّ الأسْوَدُ .

---

(١) انظر السير : (عَمْرو بن اللَّيث الصَّفَّار) ١٢/ ٥١٦ـ٥١٧ ، وانظر النزهة : ١٠٢٧/١ .

(٢) انظر السير : (مُعِزِّ الدَّوْلَة) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨٣ .

تَقدَّمَ عند مَوْلاهُ الإخْشيذِ ، وسادَ لرَأيه وحَزْمِه وشَجاعَتِه فصَيَّرَه من كِبار قُوَّادِه ، ثم حارَبَ سَيفَ الدَّولَة ، ثم صارَ أتابكَ أنُوجُورَ ابنَ أُسْتاذِه وتمكَّن .

ماتَ المَلكُ أنُوجُور شابّاً في سَنةِ تِسعٍ وأرْبَعينَ وثَلاثِ مئة فأقامَ كافُورٌ أخاهُ عَليّاً في السَّلْطَنة ، فبَقي سِتَّ سِنينَ ، وأزِمَّة الأمُور إلىٰ كافُور ، وبعدَه تَسَلطَن ورَكبَ الأسْوَدُ بالخِلعَة السَّوْداءِ الخَليفَتيّة فأشارَ عليه الكبارُ بنَصْبِ ابنٍ لعَليٍّ صُورةً في اسْمِ المَلكِ ، فاعْتَلَّ بصِغَره ، وما الْتَفتَ علىٰ أحَدٍ ، وأظْهَرَ أنَّ التَّقْليدَ والأُهْبَةَ جاءَته من الْمُطِيعِ ، وذلكَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وثَلاثِ مئة ، ولَمْ يَنْتَطِحْ فيها عَنْزان .

وكان مَهيباً ، سائساً ، حَليماً ، جَواداً ، وَقُوراً ، لا يُشْبهُ عَقلُه عُقولَ الخُدَّام[1] .

وفيه يقول المتنبي[2] :

قَــوَاصِــدَ كَــافُــورٍ تَــوَارِكَ غَيْــرِهِ	وَمضنْ قَصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السَّوَاقِيَا
فَجَــاءَتْ بِنَــا إِنْسَــانَ عَيْــنِ زَمَــانِــهِ	وَدَلَّــتْ بَيَــاضــاً خلْفَهَــا ومَــآقِيَــا

فأقامَ عنده أرْبَع سِنينَ ، نالَه مالٌ جَزيلٌ ، ثمَّ هَجاهُ لآمةً وكُفْراً لنِعْمَتِه وهَربَ على البَريَّة يقولُ :

مَنْ علَّمَ الأَسْوَدَ المَخْصِيَّ مَكْرُمَةً	أقْــوَامُــهُ البِيــضُ أَمْ آبَــاؤُهُ الصِّيــدُ
وذَاكَ أَنَّ الفُحُــولَ البِيــضَ عَــاجِـزَةٌ	عَن الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الخِصِيَةُ السُّودُ

ودُعيَ لكافُورٍ علىٰ مَنابِرِ الشَّامِ ومِصْرَ والحَرمَين والثُّغُورِ .

وكان مُلازِماً لمَصالح الرَّعيَّة .

وكان يَتعَبَّدُ ويَتهجَّدُ ، وُيمرِّغُ وَجْهَه ، ويقولُ : اللّٰهُمَّ لا تُسَلِّطْ عليَّ مَخْلوقاً .

وكان يُقرأُ عندَه السِّيَرُ والدُّوَل .

وله نُدَماء وجَوارٍ مُغنِّياتٍ ، ومن المَماليك ألوفٌ مُؤلَّفة ، وكان فَطِناً ، يَقِظاً ،

---

(١) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١٢٨٣/ ٤ .

(٢) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١٢٨٤/ ١ .

ذَكيّاً ، يُهادي المُعِزَّ إلى الغَرْب ، ويُداري ويَخضَعُ للمُطيعِ ، ويَخدَعُ هَؤلاء وهَؤلاء .

وله نَظرٌ في الفِقْه والنَّحْو .

تُوفِّي سنةَ سَبعٍ وخَمسينَ وثلاثِ مئة ، وماتَ عَشْرَ السَّبعين .

وقيلَ : مُشْتَرَاهُ على الإخْشيذِ ثمانيَةَ عَشرَ ديناراً .

وللمُتَنبِّي يَهجُوهُ ويَهْجُو ابنَ حنْزابَةَ الوَزيرَ[1] :

وَمَـاذَا بِمِصْـرَ مِـنَ المُضْحِكَـاتْ ... وَلَكِنَّـه ضَحِـكٌ كَـالبُكَـا
بِهَـا نَبَطِـيٌّ مِـنَ أهْـلِ السَّـوادْ ... يُـدرِّسُ أنْسَـابَ أهْـلِ الفَـلاَ
وأَسْـوَدُ مِشْفَـرُهُ نِصْفُـه ... يُقَـالُ لَـه أنـتَ بَـدْرُ الـدُّجـا
وشِعْـرٍ مـدحْـتُ بِـهِ الكَـرْكَـدنَّ ... بيـنَ القَـريـضِ وَبيـنَ الـرُّقَـا
فمـا كـان ذلـكَ مَـدْحـاً لَـهُ ... ولكنَّـه كـانَ هَجْـو الـوَرَى

وقد كان في كافُورٍ حِلْمٌ زائدٌ ، وَكفٌّ عن الدِّماءِ ، وجَوْدَةٌ وتَدْبير[2] .

٧ـ القِتالُ على المُلْك :

الأَمينُ والمَأْمُون :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الأمين : الخَليفَةُ ، أبو عبدِ الله مُحمَّدُ ابنُ الرَّشيدِ هارُونَ ، الهاشِميُّ العَبَّاسيُّ البَغْداديُّ .

عَقدَ له أبُوه بالخِلافَة بعدَه ، وكانَ مَليحاً ، بَديعَ الحُسْن ، أبيضَ وَسيماً طَويلاً ذا قُوَّة وشَجاعَة وأدَب وفَصاحَة ، ولكنَّه سَيِّءُ التدْبيرِ مُفْرطَ التبْذيرِ ، أرْعَنَ لعَّاباً ، مع صِحَّة إسْلامٍ ودين .

قالَ المَسْعُوديُّ : ما وَلِيَ الخِلافَةَ هاشِميٌّ ابنُ هاشِميَّة سِوَىٰ عَليٍّ ومُحمَّدٍ الأمين[3] .

وفي سَنةِ أرْبع وتِسْعينَ ومئة أمَرَ الأمينُ بالدُّعاءِ لابنِه مُوسَىٰ بوِلايَةِ العَهْدِ بعدَ وَليِّ

---

(١) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨٤ .
(٢) انظر السير : (كافور) ١٦/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨٥ .
(٣) انظر السير : (الأمين) ٩/ ٣٣٤ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٢٤ .

العَهْد الْمَأمُونِ والقاسِم ، وأغْرَى الفَضلُ بنُ الرَّبيع الأمينَ بالْمَأمونِ وحثَّه علىٰ خَلعِه لعَداوَةٍ بينهما ، وحَسَّنَ له ذلك السِّنْديُّ ، وعليُّ بنُ عيسىٰ بنُ ماهان ، ثم بَعثَ الأمينُ يَطلبُ من الْمَأمونِ تَقديمَ مُوسَىٰ وَلدَه على الْمَأمُونِ ، ولَقَّبه النَّاطِقَ بالحَقِّ ، فأبَىٰ ذلكَ الْمَأمُونُ .

وأمَّا الأمينُ ، فبَلغَه خِلافُ الْمَأمُونِ ، فأسْقَطَه من الدُّعاءِ ، وطَلبَ ما كَتبَه الرَّشيدُ وعلَّقَه بالكعْبَة من العَهْدِ بينَ الأخوَينِ ، فمزَّقَه ، فلامَه الأَلِبَّاءُ فلَمْ يَنْتَصِحْ ، حتىٰ قالَ له خازِمُ بنُ خُزَيْمَة : لَنْ يَنْصَحْكَ مَنْ كَذَبك ، ولَنْ يغُشَّكَ مَنْ صَدَقَك ، لا تُجَسِّر القُوَّادَ على الخَلعِ ، فيَخْلَعوكَ ، ولا تَحْمِلْهم على النَّكْثِ ، فالغادِرُ مَفْلولٌ ، والنَّاكِثُ مَخذولٌ ، فلَمْ يَلتَفِتْ ، وبايَعَ لِمُوسَىٰ بالعَهْدِ واسْتوزَرَ له .

فلمَّا عَرفَ الْمَأمُونُ ، خَلعَ أخاهُ ، وتَسَمَّىٰ بأميرِ المؤمنينَ ، وأمَّا ابنُ ماهانَ ، فجهَّزَه الأمينُ ، وخَصَّه بمئتَي ألفِ دينار ، وأعْطاهُ قَيداً من فِضَّة لِيُقَيِّدَ به الْمَأمُونَ بزَعْمِه ، وعَرضَ الأمينُ جَيشَه بالنَّهْرَوَان ، وأقْبَلَ طاهِرٌ في أرْبَعَةِ آلافٍ فالْتَقوا ، فقُتلَ ابنُ ماهان ، وتَمزَّقَ جَيشُهُ ، هـٰذا والأمينُ عاكفٌ على اللَّهْوِ واللَّعِبِ ، فبَعثَ جَيشاً آخَرَ ، ونَدِمَ علىٰ خَلْعِ الْمَأمُونِ .

وأنْفَقَ الأمينُ بُيوتَ الأمْوالِ على الجُندِ ولا يَنْفَعونَ ، وجاءَت أمْدادُ الْمَأمُونِ مع هَرْثمةَ بنِ أعيَن والفَضلِ بنِ سَهْل ، وضَعُفَ أمرُ الأمينِ ، وجَبُنَ جندُه من الخُراسانيِّين ، وأحاطَت الْمَأمُونيَّةُ ببَغْدادَ ، يُحاصِرونَ الأمينَ واشتدَّ البَلاءُ ، وعَظُمَ القِتالُ ، وقاتَلَت العامَّةُ والرِّعَاعُ عن الأمينِ قِتالَ الْمَوْتِ ، واسْتمرَّ الوَيلُ والحِصارُ ، وجَرَتْ أمورٌ لا تُوصَفُ ، وتَفاقَمَ الأمرُ ونَفَذَت خَزائنُ الأمينِ ، حتىٰ باعَ الأمْتِعَةَ ، وأنْفَقَ في الْمُقاتِلَة ، وما زالَ أمرُه في سِفالٍ ، ودَثَرَتْ مَحاسِنُ بَغْدادَ ، ودامَ الحِصارُ والوَبالُ خَمسةَ عَشرَ شَهراً .

ودَخلَ طاهِرٌ بَغْدادَ عَنْوَةً ، ونادَىٰ : مَنْ لَزِمَ بَيتَه ، فهو آمِنٌ ، وحاصَروا الأمينَ في قُصُورِه أيَّاماً ، ثم رَأىٰ أنْ يَخرُجَ علىٰ حميةٍ ليلاً ، وفَعلَ فظَفروا به ، وهو في

حَرَّاقَةٍ[1] فشدَّ عليه أصْحابُ طاهِر في الزَّوَاريقِ[2] وتَعلَّقوا بحَرَّاقَتِه ، فنُقِبَت ، وغَرِقَت ، فرَمَى الأمينُ بنفسِه في الماء ، فظَفرَ به رَجلٌ ، وذَهبَ به إلىٰ طاهِر ، فقتَلَه ، وبَعثَ برأسِه إلى الْمَأمُونِ ، فإنَّا لله ، ولم يُسَرَّ الْمَأمُونُ بمَصْرعِ أخيه .

وعاشَ الأمينُ سَبعاً وعِشرينَ سَنةً ، وقُتلَ في الْمُحرَّم سَنةَ ثَمانٍ وتِسعينَ ومئة ، وخِلافَتُه دون الخَمسِ سِنين ، سامَحَه اللهُ وغَفرَ له[3] .

صَلاحُ الدِّين مع مَلك الموصِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة مَلكِ الْمَوْصِلِ : المَلكُ سَيفُ الدِّين ، غازي ابنُ صاحِبِ المُوصِل ، قُطْبِ الدِّين مَوْدُودِ ابنِ الأتابك زنكيِّ ابنِ قَسيمِ الدَّولَة آقْسنقر التُّرْكيُّ الْمَوْصِليُّ .

تَملَّكَ بعد أبيه من تَحْت يَدِ عَمِّه الملكِ نُورِ الدِّين ، وطالَت أيامُه ، فلمَّا تَسَلطَنَ صَلاحُ الدِّين ، وحاصَر حَلبَ ، نَفذَ غازي جَيشَه مع أخيه مَسْعودَ يُنْجِدُ ابنَ عمِّه ، فالْتَقَوْا هم وصَلاحُ الدِّين عند قُرونِ حماةَ ، فانْكَسَرَ مَسْعودٌ ، فأقْبلَ غازي بنفسِه ليَأخُذَ بالثَّارِ فوَقعَ الْمَصافُّ علىٰ تَلِّ السُّلطانِ بقُربِ حَلَبَ ، فانْكَسرَت مَيْسَرةُ صَلاحِ الدِّين ، فحَملَ السُّلطانُ بنفسِه ، فكَسرَ الْمَواصِلَةَ ، فقَبَّحَ اللهُ القِتالَ على الْمُلكِ ، ما أرْدَاهُ .

ماتَ غَازي رَحمَه اللهُ بالسُّلِّ في سَنةِ سِتٍّ وسَبعيَن وخَمسِ مئة ، وتَملَّكَ الْمُوصِلَ أخُوهُ الْمَلكُ عِزُّ الدِّينِ مَسْعود[4] .

٨ـ صُورٌ من تَنَعُّم الخُلَفَاء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة يَزيدِ بنِ مُعاويَة : عن زيادِ الحارثيِّ قالَ : سَقاني يَزيدُ بنُ مُعاويَة شَراباً ما ذُقتُ مِثلَه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ لَمْ أُسَلْسِلْ مثلَ هـٰذا

---

(١) ضربٌ من السفن بالبصرة ، فيها مرامي نيران يُرمَىٰ بها العدو في البحر .

(٢) هي القوارب الصغار .

(٣) انظر السير : (الأمين) ٩/ ٣٣٤ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٢٤ .

(٤) انظر السير : (مَلك الْمَوْصل) ٢١/ ٥٤ـ ٥٥ ، وانظر النزهة : ١/١٥٩٧ .

قالَ : هٰذا رُمَّانُ حُلْوانَ ، بعَسَلِ أصْبَهَانَ ، بسُكَّرِ الأهْوازِ ، بزَبيبِ الطَّائِفِ ، بماءِ بَرَدَىٰ[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة أبي مُسْهِر : قالَ عليُّ بنُ عُثْمانَ النُّفَيليُّ : كُنَّا علىٰ بابِ أبي مُسْهر جَماعَةً من أصْحابِ الحَديثِ ، فمَرِضَ ، فعُدْناه ، وقُلنا : كيفَ أصْبَحتَ ؟ قالَ : في عافيَةٍ ، راضِياً عن الله ، ساخِطاً علىٰ ذي القَرْنَينِ ، كيف لَمْ يَجعلْ سَداً بيننا وبين أهلِ العِراقِ ، كما جَعلَه بين أهْلِ خُراسانَ وبينَ يأجُوجَ ومَأجُوجَ ، فما كانَ بعد هٰذا إلاَّ يَسيراً حتىٰ وَافَى الْمَأمُونُ دِمَشْقَ ، ونَزلَ بدَيرِ مُرَّان وبَنى القُبَّةَ فَوقَ الجَبَل ، فكانَ باللَّيلِ يَأمُرُ بجَمْرٍ عَظيمٍ ، فيُوقَد ويُجعَلُ في طُسوتٍ كبار ، تُدَلَّىٰ من عند القُبَيْبَة بسَلاسِلَ وحِبال ، فتُضيءُ لها الغُوطَةُ ، فيُبصِرُها باللَّيلِ .

وكان لأبي مُسْهِر حَلقةٌ في الجامعِ بين العِشاءَين عند حائطِ الشَّرقيِّ ، فبَينما هو لَيلةً ، إذ قد دَخَل الجامعَ ضَوءٌ عَظيمٌ ، فقالَ أبو مُسْهِر : ما هٰذا ؟ قالوا : النَّارُ التي تُدَلَّىٰ من الجَبلِ لأميرِ المؤمنينَ حتىٰ تُضيءَ له الغُوطَةَ فقالَ : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[2] ، وكان في الحلقة صاحِبُ خَبرٍ للمَأمُونِ ، فرَفعَ ذلك إلى الْمَأمُونِ ، فحَقَدَها عليه .

فلمَّا رَحلَ الْمَأمُونُ ، أمَرَ بحَمْلِ أبي مُسْهِر إليه ، فامْتَحنَه بالرَّقَّة في القُرآنِ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : قد كانَ الْمَأمُونُ بأساً وبلاءً على الإسْلام[3] .

٩ـ قولٌ بَليغٌ في خَليفَةٍ بَخِيل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة جَعْفَرِ بنِ مُحمَّد : ومن بَليغِ قَولِه ، وذُكِرَ له بُخْلُ الْمَنْصورِ ، فقالَ : الحَمدُ لله الذي حرَمَه من دُنياه ما بَذلَ لأجْلِه دينَه[4] .

---

(١) انظر السير : (يَزيد بن مُعاوية) ٤/ ٣٥ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٧/٤٣٧ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيتين : ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٣) انظر السير : (أبو مُسْهِر) ١٠/ ٢٢٨ـ ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/٨٧٢ .

(٤) انظر السير : (جَعْفَر بن محمّد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ١/٦٤٩ .

١٠ـ اسْتِماعُ الخَليفَة للمُنَجِّمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمَة الْمَنْصورِ : وقد كان المنصورُ يصغي إلىٰ أقوال المنجمين وينفُقُون عليه وهـٰذا من هنَاته مع فضيلته(١) .

١١ـ شُبُهاتٍ حَولَ هارُونَ الرَّشيد ـ رَحمَه الله ـ ورَدِّها :

(أ) عِبادَتُه وفَضْلُه وغَزْوُه :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجمَتِه : كانَ مِنْ أنْبَلِ الخُلفاء ، وأحْشَمِ الْمُلوكِ ، ذا جِهادٍ ، وغَزوٍ وشَجاعَة ، ورأي .

وأمُّه أمُّ وَلَد ، اسْمُها خَيزُران .

أغْزَاهُ أبوهُ بلادَ الرُّومِ ، وهو حَدَثٌ في خِلافَتِه(٢) .

قيلَ : إنَّه كان يُصلِّي في خِلافَتِه في كلِّ يَومٍ مئةَ رَكعَة إلىٰ أنْ ماتَ ، ويَتصَدَّقُ بألفٍ ، وكان يُحبُّ العُلماءَ ، ويُعظِّمُ حُرُماتِ الدِّين ، ويَبغَضُ الجِدالَ والكَلامَ ، ويَبكي علىٰ نفسِه ولَهْوِه وذُنوبِه ، لاسيَّما إذا وُعِظَ ، ووَعَظَه الفُضَيْلُ مرَّةً حتىٰ شَهِقَ في بُكائِه(٣) .

وعن الأصْمَعيِّ : قالَ لِيَ الرَّشيدُ وأمَرَ لي بخَمسَةِ آلافِ دينار : وَقِّرْنا في الْمَلأ وعَلِّمْنا في الخَلاءِ ، سَمِعَها أبو حاتم من الأصْمَعيِّ(٤) .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : حجَّ غيرَ مرَّة ، وله فُتوحاتٌ ومَواقفُ مَشْهودَةٌ ، ومنها فَتحُ مَدينَة هِرَقْلَة(٥) ، وماتَ غازِياً بخُراسانَ ، وقَبرُه بمَدينَة طُوسَ ، عاشَ خَمساً وأرْبَعينَ

---

(١) انظر السير : (المَنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٦٧٨/ ٥ .

(٢) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٠/ ٢ .

(٣) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٠/ ٣ .

(٤) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٨٢١/ ٣ .

(٥) هي مدينة ببلاد الروم ، سُميت بهِرَقْلة بن الروم ، وكان الرشيد غزاها بنفسه ، ثم افتتحها عنوة بعد حصار وحرب شديد ورمىٰ بالنار والنفط حتىٰ غلب أهلها .

سَنةً ، وصَلَّىٰ عليه وَلدُه صالح ، تُوفِّيَ في سَنةِ ثَلاثٍ وتِسعينَ ومئة .

وَزرَ له يَحْيَىٰ بنُ خالد مُدَّة ، وأَحْسَنَ إلى العَلَويَّة ، وحَجَّ سَنةَ ثَلاثٍ وسَبعينَ ومئة وعَزلَ عن خُراسانَ جَعْفَرَ بنَ أَشْعث بوَلدِه العبَّاس بنِ جَعْفَر ، وحَجَّ أيضاً في العامِ الآتي ، وعَقدَ بوِلايَة العَهْدِ لوَلدِه الأمينِ صَغيراً ، فكانَ أَقْبَحَ وَهْنٍ تمَّ في الإسْلامِ ، وأرْضَى الأُمَراءَ بأموالٍ عَظيمَة ، وتَحرَّكَ عليه بأرضِ الدَّيْلَم يَحيىٰ بنُ عبدِ الله بنِ حَسَن الحَسَنيُّ ، وعَظُمَ أمْرُه ، وبادَرَ إليه الرَّافِضَةُ ، فتَنكَّدَ عَيشُ الرَّشيدِ واغْتمَّ ، وجَهَّزَ له الفَضلَ ابنَ وَزيرِه في خَمسينَ ألفاً ، فخارَت قُوَىٰ يَحْيَىٰ ، وطَلبَ الأمَانَ ، فأجابَه ولاطَفَه ، ثم ظَفِرَ به ، وحَبسَه ، ثم تَعلَّل وماتَ[1] .

وفي سَنةِ تِسعٍ وسَبعينَ ومئة اعْتَمرَ الرَّشيدُ في رَمضانَ ، واسْتَمرَّ علىٰ إحْرامِه إلىٰ أنْ حَجَّ ماشِياً من بَطْنِ مَكة .

وتَفاقَمَ الأمْرُ بينَ قَيسٍ ويَمَنٍ بالشَّامِ ، وسالَت الدماءُ[2] .

وغَزا الرَّشيدُ ، ووَغَلَ في أرضِ الرُّومِ ، فافْتَتحَ الصَّفْصافَ ، وبَلغَ جَيشُه أنْقَرَة .

وفي سَنةِ خَمسٍ وثَمانينَ ومئة ظَهرَ بعبَّادانَ أحمدُ بنُ عيسىٰ بنِ زَيْد ابنِ عَليٍّ العَلويُّ ، وبناحيَةِ البَصْرَةِ ، وبُويعَ ثم عَجزَ وهَربَ ، وطالَ اخْتِفاؤُه أزْيَدَ من سِتِّينَ عاماً[3] .

وفي سَنةِ سَبعٍ وثَمانينَ ومئة قَتلَ الرَّشيدُ جَعْفرَ بنَ يَحيى البَرْمكيَّ ، وسَجنَ أباه وأقارِبَه ، بعدَ أنْ كانوا قد بَلغوا رُتْبَةً لا مَزيدَ عليها ، وفيها انْتُقِضَ الصُّلحُ مع الرُّومِ ، ومَلَّكوا عليهم نِقْفورَ ، فيُقالُ : إنَّه من ذُرِّيَة جَفْنَة الغَسَّانيِّ ، وبَعثَ يَتهَدَّدُ الرَّشيدَ ، فاستَشاطَ غَضباً ، وسارَ في جُيوشِه حتىٰ نازَلَه هِرَقْلة ، وذلَّتِ الرُّومُ ، وكانت غزوَةً مَشْهُودَةً[4] .

---

(١) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٥/٨٢١ .
(٢) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٦/٨٢١ .
(٣) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ١/٨٢٢ .
(٤) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/٨٢٢ .

وفي سَنةِ ثَمانٍ وثَمانينَ ومئة كانت الملحَمَةُ العُظْمَىٰ ، وقُتلَ من الرُّومِ عَددٌ كَثيرٌ ، وجُرِحَ النِّقْفُورُ ثلاثَ جِراحاتٍ ، وتمَّ الفِداءُ حتىٰ لم يَبْقَ في أيدي الرُّومِ أسيرٌ[1] .

(ب) ماذا قِيلَ حولَ شُرْبِه الخَمْرَ :

قالَ ابنُ حزمٍ : أراهُ كان يَشربُ النَّبيذَ الْمُخْتَلَفَ فيه ، لا الخَمْرَ الْمُتَّفَقَ علىٰ حُرْمَتِها[2] .

(ج) تَعْظِيمُه للعُلَماء :

ولَمَّا بَلغَه مَوْتُ ابنِ المبارك ، حَزنَ عليه ، وجَلسَ للعَزاءِ ، فعَزَّاهُ الأكابرُ[3] .

وعن أبي مُعاوِيَةَ الضَّرير قالَ : صَبَّ علىٰ يَديَّ بعد الأكْلِ شَخصٌ لا أعْرِفُه ، فقالَ الرَّشيدُ : تَدْرِي مَنْ يَصُبُّ عَليكَ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : أنا ، إجْلالاً للعِلْمِ[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/٨٢٢ .

(٢) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٤/٨٢١ .

(٣) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ١/٨٢١ .

(٤) انظر السير : (الرَّشيد) ٩/ ٢٨٦ـ ٢٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/٨٢١ .

الوُزَراء

١ـ السُّلْطانُ بحاجَةٍ إلىٰ وُزَراءَ مُخْلِصين :

عن الأَحْنَفِ قالَ : سَمعتُ خُطبَةَ أبي بَكْر وعُمَرَ والخُلفاء فما الكَلامُ من مَخْلوقٍ أفْخَم ولا أحْسَن من أُمِّ المؤمنينَ عائِشَة .

وعنه : لا يَتمُّ السُّلطانُ إلاَّ بالوُزَراءِ والأعْوانِ ، ولا يَنفعُ الوُزَراءُ والأعْوانُ إلاَّ المَوَدَّةِ والنَّصيحَةِ ، ولا تَنفَعُ المَوَدَّةُ والنَّصيحَةُ إلاَّ بالرَّأيِ والعِفَّةِ[١] .

٢ـ وَزيرٌ عُذِّبَ وقُتلَ بغَير حقٍّ :

الكنْدَري :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجمَته : الوَزيرُ الكَبيرُ ، عَميدُ الملك أبو نَصْر ، مُحمَّدُ بنُ مَنْصور بنِ مُحمَّد الكُنْدُريُّ ، وَزيرُ السُّلطانِ طُغْرُلْبَك .

كان أحَدَ رجالِ الدَّهْر سُؤدُداً وجُوداً وشَهامَةً وكِتابَةً .

وكُنْدُر : من قُرَىٰ نيسابُور وُلدَ بها سَنَةَ خَمسَ عَشرةَ وأرْبع مئة ، تَفقَّه وتأدَّبَ ، وكانَ كاتباً لرَئيس ، ثم ارْتَقَىٰ ووَلِيَ خُوارَزْم وعَظُم ، ثم عَصَى السُّلطانَ ، وتَزوَّجَ بامْرأةِ مَلكِ خُوارَزْم ، فتَحيَّلَ السُّلطانُ حتىٰ ظَفرَ به ، وخَصاهُ لتَزَوُّجه بها ثم رَقَّ له وتَداوَىٰ وعُوفي ووَزرَ له .

وقَدِمَ بَغْدادَ ، ولَقَّبَه القائمُ سَيِّدَ الوُزَراءِ ، وكانَ مُعْتَزليّاً له النَّظْمُ والنَّثْرُ فلمَّا ماتَ طُغْرلْبَك ، وَزَرَ لألب آرسلان قَليلاً ونُكِبَ .

ووَزرَ تِسعَ سِنينَ وأخَذوا أمْوالَه ، منها ثَلاثُ مئة مَمْلوكٍ وقُتِلَ صَبْراً ، وطِيفَ

---

(١) انظر السير : (الأَحْنَف بن قَيْس) ٤/٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٦/٤٥٣ .

برأسِه ، وما بَلغَنا عنه كَبيرُ إساءَة ، لكن ما علىٰ غَضَبِ الْمَلِكِ عيارٌ قُتلَ بمَرْوِ الرُّوذ سَنة سِتٍّ وخَمسينَ وأرْبع مئة ، وله اثنَتان وأرْبَعون سَنةً ، ووَزرَ بعدَه نِظَامُ الْمُلك[1] .

٣ـ مَنْ عُذِّبَ من الوُزَراء حتى المَوت :

جاءَ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ إسْرائيلَ ، قالَ الصُّوليُّ : كانت وَزارَتُه دون ثلاث سنين ، وقَتلَه وَصيفٌ بالضَّربِ في رَمضانَ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ ومئتين[2] .

الحَسَنُ بنُ مَخْلَد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجمَة الحَسَنِ بنِ مَخْلَد : ابنُ الجَرَّاح الوَزيرُ الأكْمَلُ ، أبو مُحمَّدٍ البَغْداديُّ ، الكاتبُ أحدُ رِجالِ العَصْر سُؤدُداً ، ورَأياً ، وشَهامَةً ، وكتابَةً ، وبَلاغَةً ، وفَصاحَةً ، ونُبْلاً .

مَولدُه : في تِسْعٍ ومئتين فاتُّفِقَ أنَّه وُلدَ فيها أرْبَعةُ وُزَراء : هو ، وعبدُ الله بنُ يَحْيىٰ بنِ خاقانَ ، ومُحمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ طاهِر وأحمَدُ ابنُ إسرائيل .

وَزرَ الحَسَنُ للمُعتَمِدِ نَوبَتينِ ، فصادَرَه ثم وَزرَ له ثالثاً ، فاسْتمرَّ خَمسةَ أعْوامٍ ، فسَخطَ عليه فتَسلَّلَ إلىٰ مِصرَ ، فأقْبلَ عليه ابنُ طُولونَ ، وجَعلَ إليه نَظَر الإقْليمِ والْتَزمَ له بنُموِّ ألفِ ألفِ دينار في السَّنةِ مع العَدْلِ ، فخافَه العُمَّالُ ، وتَفرَّغوا له ، وقالوا : هٰذا عَينٌ عَليكَ للمُوفَّقِ وَليِّ العَهْد فتَحيَّل وسَجنَه فقالوا : ما الرَّأيُ في حَبسِه في جِوارِك ، فرُبَّما حَدثَ به مَوتٌ فيُنسَبُ إليكَ ، فأرْسَلَ به نائبَه بأنْطاكيَة ، وأمَرَه أنْ يُعذِّبَه ، فتَلفَ تحتَ العَذابِ .

وكان ابنُ مَخْلَد ـ مع ظُلمِه ـ شاعِراً جَواداً مُمَدَّحاً ، امْتدَحَه البُحْتُريُّ وغيرُه .

قالَ ابنُ النجّار : عَملَ الوَزارَةَ مع كتابَةِ الْمُوَفَّق ، وكانَ آيَةً في حِسابِ الدِّيوانِ ، حتىٰ قِيلَ : ما لا يَعْرفُه ابنُ مَخْلَد ، فلَيسَ من الدُّنيا .

وكانَ تامَّ الشَّكلِ ، مَهيباً ، فاخِرَ البِزَّة ، يَركَبُ غِلمانُه في الدِّيباجِ ، ونَسيجِ

---

(١) انظر السير : (الكُندري) ١٨/ ١١٣ـ ١١٥ ، وانظر النزهة : ١٣٩١/ الكُندري .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسرائيل) ١٢/ ٣٣٢ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ١٠٠٥/ ٥ .

الذَّهَب ، وعِدَّة جَنائبَ وإذا جَلسَ في دارِه تَقعُ العَينُ على الفَرْشِ والسُّتورِ ، والآنيَة التي قيمَتُها مئةُ ألفِ دينار كان في هَيئةِ سُلطانٍ كَبيرٍ .

ماتَ في سَنةِ إحْدَىٰ وسَبعينَ ومِئتَين[1] .

٤ـ الوُزَراء المُتَحَكمون في الأمُور أكثر من وَلي الأمْر :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة الحافظ لدين الله العُبيدي : وغَلبَ على الأمُورِ أميرُ الجُيوشِ أبو عَليٍّ بنُ الأفْضَل بنُ بَدْر الجمَالي فأخْرَجَت الأُمَراء أبا عَليٍّ ، وقدَّموهُ عَليهم ، فأتَىٰ إلى القَصْر ، وأمَرَ ونَهَىٰ ، وبَقيَ الحافِظُ معه مُنْقَهراً ، فقامَ أبو عَليّ بالمُلكِ أتَمَّ قيامٍ وعَدَلَ في الرَّعيَّة ، وردَّ أمْوالاً كَثيرَة على المُصادَرين ، ووَقفَ عند مَذْهَبِ الشِّيعَة ، وتَمسَّكَ بالاثْنَي عشر ، وتَركَ ما تَقولُه الإسْماعيليَّةُ ، وأعْرَضَ عن الحافِظ وآلِ بَيتِه ، ودَعَا علىٰ مَنابِرِ مِصْرَ للمُنْتَظَرِ صاحبِ السِّرْدابِ علىٰ زَعمِهم ، وكَتبَ اسْمَه على السِّكَّة ، واسْتَمرَّ علىٰ ذلك ، وقَلِقَت الدَّوْلةُ إلىٰ أنْ شَدَّ عليه فارسٌ من الخاصَّة ، فقَتلَه بظاهرِ القاهِرَة في المُحرَّم سَنةَ سِتٍّ وعشرينَ وخَمسِ مِئَة ، وذلكَ بتَدبيرِ الحافِظِ ، فبادَرَت الأُمَراءُ إلىٰ خِدمَةِ الحافِظِ ، وأخْرَجُوهُ من الضِّيقِ والاعْتِقالِ ، وجَدَّدوا بَيْعَتَه واسْتَقلَّ بالمُلكِ .

وعندَما ماتَ الآمِرُ قَبلَه ، قالَ الجُهَّالُ : هـٰذا بيتٌ لا يَموتُ إمامٌ منهُم حتىٰ يخلِّفَ ابناً يَنُصُّ علىٰ إمامَتِه ، فخَلَّفَ الآمِرُ حَمْلاً فكانَ بِنْتاً .

وكان الحافِظُ كُلَّما أقامَ وَزيراً تَمكَّنَ ، وحَكمَ عليه ، فيَتَألَّمُ ويَتحيَّلُ عليه ، ويعَملُ علىٰ هَلاكِه وبَقيَ الحافِظُ بلا وَزيرٍ عَشْرَ سِنين .

وماتَ سَنة أرْبَع وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة ، فكانَتْ دَولتُه عِشرينَ سَنةً سِوَىٰ خَمسَةِ أشْهُر وعاشَ سَبعاً وسَبعينَ سَنةً فما بَلغَ أحدٌ هـٰذا السنَّ من العُبَيْديَّة ، وقامَ بعدَه وَلدُه الظَّافِرُ[2] .

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن مَخْلَد) ١٣/ ٧ـ ٨ ، وانظر النزهة : ١٠٤٥/ الحَسن بن مَخْلَد .

(٢) انظر السير : (الحافظ لدين الله) ١٥/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٥ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة ابنِ أبي عامِر : الْمَلكُ الْمَنْصُورُ ، حاجِبُ الْمَمالكِ الأنْدَلُسيَّة ، أبو عامِر ، مُحمَّدُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي عامِر مُحمَّدِ القَحْطانيُّ الْمَعافِريُّ القُرْطُبيُّ ، القائمُ بأعْباءِ دَولَة الخَليفَة الْمَرْوانيِّ الْمُؤيَّد بالله هشام بنِ الحَكَم أميرِ الأنْدَلُسِ فإنَّ هـٰذا الْمُؤيَّد اسْتخلِفَ ابنَ تِسْع سِنينَ ، ورُدَّت مَقاليدُ الأُمورِ الى الحاجِبِ هـٰذا فيَعمَدُ إلىٰ خَزائنِ كُتبِ الحَكَم ، فأبْرزَ ما فيها ثم أفْردَ ما فيها من كُتبِ الفَلسَفَة فأحْرَقَها بمَشْهَدٍ من العُلماءِ ، وطَمرَ كثيراً منها ، وكانت كَثيرةً إلى الغايَة ، فعَلَه تَقبيحاً لرأي الْمُسْتَنْصِر الحَكَم[١] .

وكانَ الْمُؤيَّدُ معه صُورةً بلا مَعْنَىٰ ، بل كانَ مَحْجوباً لا يَجتمعُ به أميرٌ ولا كبيرٌ بلْ كان أبو عامِرٍ يَدخُلُ عليه قَصرَه ، ثم يَخرُجُ فيَقولُ : رَسَمَ أميرُ المؤمنينَ كذا وكذا ، فلا يُخالفُه أحَدٌ ، وإذا كانَ بعدَ سَنةٍ أو أكثر أرْكَبَه فَرَساً ، وجَعلَ عليه بُرْنُساً ، وحَولَه جَواريه راكباتٍ ، فلا يَعرفُه أحَدٌ[٢] .

٥ـ مَنْ ظَلَم من الوُزَراء بعد العَدْل والإحْسان :

ابنُ الفُرات :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَته : الوَزيرُ الكَبيرُ ، أبو الحَسَن ، عَليُّ ابنُ أبي جَعْفَر مُحمَّد بن مُوسَىٰ بنِ الحَسَن بن الفُرات العَاقُوليُّ الكاتِبُ .

قالَ الصُّوليُّ : ابتاعَ جَدُّهم ضياعاً بالعَاقُولِ ، وانْتقلَ إليها فنُسِبوا إلى العَاقُولِ كان ابنُ الفُراتِ يَتولَّىٰ أمرَ الدَّواوينِ زَمنَ الْمُكْتَفي ، فلمَّا وَلِيَ الْمُقْتَدِرُ ووَزرَ له العَبَّاسُ بنُ الحَسَن ، بَقي ابنُ الفُراتِ علىٰ وِلايَته ، فجَرَت فِتنَةُ ابنِ الْمُعْتزِّ ، وقُتلَ العَبَّاسُ الوَزيرُ ، فوَزَرَ ابنُ الفُرات سَنةَ سِتٍّ وتِسعينَ ومِئتَين ، وتَمكَّن فأحْسَنَ وعَدلَ وكان سَمْحاً مِفْضالاً مُحْتشِماً ، رأساً في حِسابِ الدِّيوانِ له ثَلاثةُ بَنين ، الْمُحَسَّنُ والفَضْلُ والحُسَينُ ، ثم عُزِلَ في ذي الحجَّة سَنةَ تِسعٍ وتسعينَ ومِئتَين ، ثم وَزرَ في سَنةِ أرْبَع

(١) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ١٦ ، وانظر النزهة : ١٣١٩/ ٤ .

(٢) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ١٦ ، وانظر النزهة : ١٣٢٠/ ٢ .

وثَلاثِ مئة إثْرَ عَزلِ عَليِّ بنِ عيسَىٰ ، ثم عُزلَ بعد سَبعة عَشرَ شَهراً بحامِدِ بنِ العَبَّاسِ ، ثم وَليَها سَنةَ إحْدَىٰ عَشرَ وثلاثِ مئة ، ووَليَ ولدُه الْمُحَسِّنُ الدَّواوينَ ، فعَسفَ وصادَرَ وعذَّبَ وظَلَمَ أباه أيضاً واستأصَلَ جَماعَةً فعُزلَ بعدَ سَنةٍ إلاَّ أيّاماً ، وقِيلَ إنَّه وَصلَ المحدِّثين بعشرينَ ألف دِرْهم .

وذَكرَ جَماعَة أنَّ صاحِبَ خَبرِ ابنِ الفُراتِ رَفعَ إليه أنَّ رَجلاً من أَرْبابِ الحَوائجِ اشْتَرَىٰ خُبزاً وجُبناً فأكلَه في الدِّهْليزِ ، فأقْلقَه هـٰذا ، وأمَرَ بنَصْبِ مَطبَخٍ لِمَنْ يَحضُر من أَرْبابِ الحَوائجِ ، فلَمْ يَزلْ ذلك طُولَ أيّامِه .

وقيلَ : كانَ ابنُ الفُراتِ يَلتَذُّ بقَضاءِ حَوائجِ الرَّعيَّة ، وما رَدَّ أحَداً قَطُّ عن حاجَةٍ رَدَّ آيسٍ ، بلْ يَقولُ : تُعاوِدُني أوْ يَقولُ : أُعَوِّضُكَ من هـٰذا .

قالَ الصُّوليُّ : لَمَّا قُبضَ على ابنِ الفُراتِ ، نَظَرْنا فإذا هو يُجرِي علىٰ خَمسةِ آلافِ نفسٍ ، أقَلُّ جاري أحَدهم في الشَّهْر خَمسةُ دَراهم ونِصفُ قفيزِ دَقيق وأعْلاهُم مئة دينار وعَشرَة أقْفِزَة .

قالَ الصُّوليُّ : لَمْ أسْمَعْه قَطُّ دَعا أحَداً من كُتَّابه بغَير كُنْيَتِه ومَرِضَ مرَّة فقالَ : ما غَمِّي بعِلَّتي بأشَد من غَمِّي بتأخُّر النَّاسِ وفيهم الْمُضْطَرُّ .

وكان يَمنَعُ النَّاسَ من الْمَشي بين يدَيه .

قالَ عليُّ بنُ هِشام الكاتِبُ : دَخلتُ على ابنِ الفُراتِ في وَزارَتِه الثالثة وقد غَلبَ ابنُه الْمُحَسِّنُ عليه في أكثرِ أمُورِه ، فقيلَ له : هو ذا يُسرفُ أبو أحمَد الْمُحَسِّنُ في مَكارِه النَّاسِ بلا فائدَة ، ويَضرِبُ مَنْ يُؤدِّي بغَير ضَرْب فقالَ : لَوْ لَمْ يَفعَلْ هـٰذا بأعدائه ومَنْ أساءَ إليه لَمَا كان من أولادِ الأحْرارِ ، ولكانَ مَيتاً ، وقد أحْسَنتُ إلى النَّاسِ دَفْعَتَين فما شَكرُوني ، واللهِ لأُسيئَنَّ ، فما مَضَت إلاَّ أيَّامٌ يَسيرَةٌ حتىٰ قُبضَ عليه .

قالَ الصُّوليُّ : قَبضَ الْمُتقدِرُ على ابنِ الفُرات وهَربَ ابنُه ، فاشْتدَّ السُّلطانُ وجَميعُ الأولياء في طَلَبه ، إلىٰ أنْ وُجدَ وقد حَلقَ لِحْيتَه ، وتَشبَّه بامرأةٍ في خُفٍّ وإزار ، ثم طُولِبَ هو وأبُوه بالأمْوالِ ، وسُلِّما إلى الوَزيرِ عُبَيدِ الله بنِ مُحمَّد ، فعَلمَا أنَّهما

لا يُفلِتانِ ، فما أذْعَنا بشيء ، ثم قَتلَهما نازوكُ وبَعثَ برأسَيهما إلى الْمُقْتَدِرِ في سَفَط وغرَّقَ جَسَدَيْهما .

ضُربَت عُنقُ الْمُحَسِّن بعدَ أنواعِ العَذابِ سَنةَ اثنتَي عَشر وثلاث مئة وأُلقي رأسُه بين يَدَي أبيه فارْتاعَ ، ثم قُتلَ ثم أُلْقِيَ الرأسانِ في الفُراتِ وكان للوَزيرِ إحْدَىٰ وسَبعونَ سَنةً وشُهور وللمُحَسِّنِ ثَلاثونَ سَنةً[1] .

٦ـ الوُزَراء السُّنيُّون في دَولَة العُبَيْدِيَّة الرَّافِضَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة أميرِ الجُيوشِ الْمَلك الأفْضَل : كان أبوهُ نائباً بعَكا ، فسارَ في البحرِ في ترميم دَولة الْمُسْتَنْصِرِ العُبَيْديِّ فاسْتولَىٰ على الإقْليم ، وأبادَ عِدَّةَ أُمَراء ودانَت له الْمَمالِكُ إلىٰ أنْ ماتَ فقامَ بعدَه ابنُه هـٰذا وعَظُم شأنُه وأهلَكَ « نِزاراً » وَلدَ الْمُسْتَنْصِر صاحبِ دَعوة الباطنيَّة وأتابكَه أفتكين مُتولِّي الثغر ، وكانَ بَطلاً شُجاعاً ، وافِرَ الهَيبَة عَظيمَ الرُّتبَة ، فلمَّا هَلكَ الْمُستَعْلي ، نَصَّبَ في الإمامَة ابنَه الآمرَ ، وحَجَرَ عليه وقمَعَه ، وكان الآمرُ طيّاشاً فاسِقاً ، فعَمِلَ علىٰ قَتلِ الأفْضَل فرتَّبَ عدَّةً وَثَبوا عليه ، فأثْخَنُوهُ ، ونزَلَ إليه الآمِرُ ، وتَوجَّعَ له ، فلمَّا قَضىٰ ، اسْتأصَلَ أموالَه ، وبقِيَ الآمِرُ في دارِه أرْبَعينَ صَباحاً والكَتبَةُ تَضبطُ تلكَ الأمْوالَ والذَّخائرَ وحَبسَ أولادَه وكانت أيّامُه ثَمانياً وعشرينَ سَنةً ، وكانت الأُمَراءُ تَكرَهُهُ لكَونِه سُنِّياً ، فكانَ يُؤذيهم وكان فيه عَدلٌ فظَهرَ بعدَه الظُّلمُ والبِدعَة ، ووَلِيَ الوَزارَةَ بعدَه المأمونُ البَطائحيُّ .

قَتلوهُ سَنةَ خَمسَ عشرةَ وخَمسِ مئة ، وله ثمانٍ وخَمسون سَنةً[2] .

وقالَ أبو يَعْلىٰ بنُ القَلانسي : كانَ الأفْضلُ حَسنَ الاعْتقادِ ، سُنياً حَميدَ السِّيرَة ، كَريمَ الأخْلاقِ ، لَمْ يأتِ الزَّمانُ بمثلِه[3] .

ووَزرَ بعد هَلاكِ الآمِرِ أميرُ الجُيوشِ أبو علي أحمدُ بنُ الأفْضَل ، وكان شَهْماً مُطاعاً

---

(١) انظر السير : (ابنُ الفُرات) ١٤/ ٤٧٤ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٦٧/ ابنُ الفُرات .
(٢) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٠٣ .
(٣) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/ ٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٠٤ .

وبَطلاً شُجاعاً ، سَائساً سُنياً ، كأبيه وجَدِّه ، فحَجَرَ على الحافِظ ومَنعَه من أعْباءِ الأمُورِ ، فشَدَّ عليه مَمْلوكٌ للحافِظ إفْرَنْجيٌّ ، فطَعنَه فقتَلَه ، ووزرَ يانسُ الحافِظيُّ وكان أبو عليٍّ أحمدُ قد بالغَ في الاحْتجارِ على الحافِظِ ، وحوَّلَ ذَخائرَ القَصرِ إلىٰ دارِه ، وادَّعَىٰ أنَّها أمْوالُ أبيه .

وقيلَ : إنَّه تركَ من الخُطبَة اسمَ الحافِظ وخَطَبَ لنَفسِه وقَطعَ الأذانَ بحَيِّ علىٰ خَيرِ العَمَل ، فنَفَرَت منه الرَّعيَّةُ وغالبُهم شيعةٌ ، فقُتلَ وهو يَلعَبُ بالكُرَةِ سَنةَ سِتٍّ وعشرينَ وخَمسِ مئة وجَدَّدوا البَيعَةَ حينئذٍ للحافِظِ ، فماتَ الوَزيرُ يانسُ بعد ثلاثِ سِنينَ ، فوزَرَ وَليُّ العَهْد حَسنُ بنُ الحافِظِ(١) .

٧ـ الوُزَراء المُحْسِنون :

الوَزير :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الإمامُ الْمُحَدِّثُ الصَّادِقُ الوَزيرُ العَادِلُ ، أبو الحَسَن ، عليُّ بنُ عيسَىٰ بنِ داوُد ، البَغْداديُّ الكاتبُ .

وَزرَ غَيرَ مرَّة للمُقْتَدِر ، وللقَاهِرِ ، وكان عَديمَ النَّظيرِ في فنِّه .

وُلد سَنةَ نيف وأرْبَعين ومئتَين(٢) .

كان على الحَقيقة غَنياً شاكِراً ، يَنْطَوي علىٰ دينٍ مَتين وعِلمٍ وفَضلٍ ، وكانَ صَبوراً على المِحَن ولله به عِنايَة ، وهو القائلُ يُعَزِّي وَلدَيْ القاضي عُمرَ بنِ أبي عُمَر القاضي في أبيهِما : مُصيبَةٌ قد وَجَبَ أجْرُها خَيرٌ من نِعْمَةٍ لا يُؤدَّىٰ شُكرُها .

وكانَ ـ رَحمَه اللهُ ـ كَثيرَ الصَّدَقاتِ والصَّلوَاتِ ، مَجلِسُه مَوْفورٌ بالعُلماءِ صَنَّفَ كتاباً في الدُّعاءِ ، وكتابَ « مَعاني القُرآن » أعانَه عليه ابنُ مُجاهِد الْمُقْرِىءُ وآخَر .

وكانَ من بُلَغاءِ زَمانِه وَزرَ في سَنةِ إحْدَىٰ وثلاثِ مئة أرْبَعَةَ أعْوامٍ وعُزِلَ ثم وَزرَ سَنةَ خَمسَ عَشْرَة وثَلاث مئة .

---

(١) انظر السير : (أميرُ الجُيوش) ١٩/٥٠٧ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٤ .
(٢) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/٢٩٨ـ ٣٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٩ .

قالَ الصُّوليُّ : لا أعْلمُ أنَّه وَزَرَ لبَني العَبَّاسِ مثلُه في عِفَّتهِ وزُهْدِه وحِفْظِه للقُرآنِ وعِلمِه بمَعَانيه ، وكانَ يَصومُ نَهارَه ، ويَقومُ لَيلَه وما رَأيتُ أعْرَفَ بالشِّعْرِ منهُ وكانَ يَجلسُ للمَظالِمِ ، ويُنصِفُ النَّاسَ ، ولَمْ يَرَوْا أعَفَّ بَطناً ولِسَاناً وفَرْجاً منه ولَمَّا عُزلَ ثانياً لَمْ يَقْنَع ابنُ الفُراتِ حتىٰ أخْرَجَه عن بَغْدادَ فجَاوَرَ بمَكة[1] .

وله في نكبَته :

ومَـنْ يَـكُ عَنِّـي سَـائـلاً لشَمـاتَـةٍ	لمَـا نـابَنِـي أو شَـامِتـاً غَيـرَ سَـائِـلِ
فقَدْ أبْرَزَتْ مِنِّي الخُطُوبُ ابنَ حُرَّةٍ	صَبْوراً عَلىٰ أحْوَالِ تِلْكَ الزَّلازِلِ
إذَا سُـرَّ لَـمْ يَبْطَـرْ وَلَيْـسَ لِنَكْبَـةٍ	إذَا نَـزلَـتْ بِـالخَـاشِـعِ المُتَضَـائِـلِ

وقد أشَارَ على المُقْتَدِر ، فأفْلَحَ ، فوَقَفَ ما مَغَلُّه في العام تِسْعونَ ألفَ دينارٍ على الحَرَمَين والثُّغورِ ، وأفْرَدَ لهَـٰذه الوُقوفِ دِيوَاناً سَمَّاه دِيوَانَ البرِّ[2] .

وقال المحَدِّثُ أبو سَهْل القَطَّان : كنتُ مع الوزيرِ ، عليِّ بن عيسىٰ لمَّا نُفيَ بمكَّة ، فدَخَلْنا في حرٍّ شَديد وقد كِدْنا نَتلَف ، فطافَ يوماً ، وجاءَ فرمَىٰ بنفسِه ، وقال : أشْتَهي على الله شَرْبَةَ ماء مَثْلوج قال : فنَشَأتْ بعد ساعةٍ سحابةٌ ورَعَدَت وجاء بَرَدٌ كثيرٌ جمَعَ منه الغِلْمانُ جِراراً ، وكان الوَزيرُ صائماً ، فلمَّا كان الإفطارُ جئتُه بأقداح من أصناف الأسْوقة فأقبلَ يَسْقي المجاوِرين ، ثم شَرِبَ وحمِدَ اللهَ ، وقال : لَيْتَني تمَنَّيْتُ المَغْفِرَة .

وكان الوَزيرُ مُتواضِعاً ، قال : ما لَبِسْتُ ثَوْباً بأزْيَدَ من سَبْعَة دنانير .

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : سَمِعتُ عليَّ بنَ عيسَى الوَزيرَ ، يقولُ : كَسَبْتُ سَبع مئة ألفِ دينار ، أخرجْتُ منها في وجُوه البرِّ سِتَّ مئة ألفٍ وثمانينَ ألفاً .

تُوفِّيَ في آخرِ أربعٍ وثلاثينَ وثلاثِ مئة ، وله تسعُون سنة[3] .

---

(١) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/ ٢٩٨ـ ٣٠١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٢٩ .

(٢) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/ ٢٩٨ـ ٣٠١ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٢٩ .

(٣) انظر السير : (الوَزيرُ) ١٥/ ٢٩٨ـ ٣٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٠ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة ابنِ حِنْزابَة : ولَمْ يَزَلْ يُنفِقُ في البرِّ والْمَعْرُوفُ الأمْوالَ ، وأنْفَقَ كَثيراً علىٰ أهْلِ الحَرَمَين إلىٰ أنِ اشْتَرَىٰ داراً أقرَبَ شَيءٍ إلى الحُجْرَة النَّبويَّة وأوْصَىٰ أنْ يُدفَنَ فيها ، وأرْضَى الأشْرافَ بالذَّهَبِ ، فلمَّا حُمِلَ تابوتُه من مِصْرَ تَلقَّوْه ودُفِنَ في تلك الدَّارِ .

تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وتسعينَ وثلاثِ مئة[1] .

فَخْرُ المُلك :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الوَزيرُ الكَبيرُ ، أبو غَالِب ، مُحمَّدُ ابنُ عَليّ بنِ خَلف بنِ الصَّيْرَفيّ .

كانَ صَدراً مُعَظَّماً ، جَواداً مُمَدَّحاً من رجال الدَّهْر ، كان أبُوهُ صَيْرَفياً بديوان وَاسط وكان أبو غالِب من صِباهُ يَتعانَى الْمَكارِمَ والأفَاضِلَ ويُلقِّبُونَه بالوَزيرِ الصَّغيرِ ، وَلِيَ العِراقَ بعدَ عَميدِ الجُيوشِ ، فعَدلَ قَليلاً وأعادَ اللَّطْمَ يومَ عَاشُوراءَ وثارَت الفِتَنُ لذلكَ ، ومَدَحَته الشُّعَراءُ ، ودَامَ سِتَّ سِنينَ ، ثم أُمْسِكَ بالأهْوازِ وقُتلَ في سَنَةِ سَبعٍ وأرْبَعِ مِئة وأخَذوا له جَواهِرَ ونَفائسَ ، وألفَ ألفِ دينارٍ وغيرِ ذلك ، وطُمِرَ في ثِيابه .

وكان شَهْماً كَافِياً ، خَبيراً بالتَّصرُّفِ ، سَديدَ التَّوقيع ، طَلِقُ الْمُحَيَّا يُكاتِبُ مُلوكَ النَّواحي ، ويُهاديهِم ، وفيه عَدلٌ في الجُملَة ، عُمِّرَت العِراقُ في أيَّامِه ، وكانَ من مَحَاسِنِ الدَّهْر ، أنْشَأ بيمَارسْتاناً عَظيماً ببَغدادَ وكانَت جَوائزُه مُتواترةً على العُلماءِ والصُّلَحاء ، وعاشَ ثلاثاً وخَمسينَ سَنةً[2] .

رُفِعَت إليه سِعايَةٌ برَجُل ، فوَقَّع فيها : السِّعايَةُ قَبيحَةٌ ، ولو كانت صَحيحَةً ومَعاذَ الله أنْ نَقبَلَ من مَهْتوكٍ في مَسْتُورٍ ، ولَوْلا أنَّك في خُفَارَةِ شَيْبِكَ ، لعَامَلناكَ بما يُشبهُ مَقالَك ، ويَرْدَعُ أمْثالَك ، فاكْتُم هـٰذا العَيبَ ، واتَّقِ مَنْ يَعْلمُ الغَيبَ فأخَذَها فُقَهاءُ الْمَكاتِبِ ، وعَلَّموها الصِّغارَ[3] .

---

(1) انظر السير : (ابنُ حِنْزابَة) ١٦/ ٤٨٤ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ١٣٠٧/ ٥ .

(2) انظر السير : (فَخر الْمُلك) ١٧/ ٢٨٢ـ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ١٣٤٢/ ١ .

(3) انظر السير : (فَخر الْمُلك) ١٧/ ٢٨٢ـ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ١٣٤٢/ ٢ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ظَهيرِ الدِّينِ أبي شُجَاع : وقيل : إنه أمَرَ ليلة بعَمل قطائف ، فلمَّا أُحضِرَت ، تذكَّرَ نُفوسَ مَساكينَ تَشْتَهيها ، فأمَرَ بحَملِها إلىٰ فُقَراء وأضِرَّاءَ[1] .

وقِيلَ : أُحصِيَ ما أنْفَقَه علىٰ يدِ كاتبٍ له ، فبَلغَ أزْيَدَ من مئة ألفِ دينارٍ قالَ الكاتبُ : وكُنتُ واحداً من عَشرَة يَتوَلَّوْنَ صَدَقاتِه[2] .

عَضُد الدِّين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : وَزيرُ العِراقِ ، الأوْحَد المُعَظَّم ، عَضُد الدِّين أبو الفَرَج مُحمَّد بنُ عبدِ الله بن هِبةِ الله بن مُظَفَّر ابن الوَزيرِ الكَبيرِ رَئيسِ الرُّؤساءِ ، أبي القاسِم ، عليِّ ابنِ المُسْلِمَة ، البَغْداديُّ .

وُلدَ سَنةَ أرْبَع عَشرَ وخَمسِ مئة .

وَزرَ للإمامِ المُسْتَضيءِ ، وكان جَواداً سَرِيّاً مَهيباً كَبيرَ القَدرِ .

قالَ المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيفِ : كانَ إذا وَزَنَ الذَّهَبَ ، يَرمي تَحتَ الحُصْرِ قَراضَةً كَثيرَة ليَأخُذَها الفَرَّاشون ، ولا يَرىٰ صَبيّاً مِنّا إلاَّ وَضعَ في يَدِه دِيناراً .

قالَ : وكانَ والدي مُلازِمَه علىٰ قِراءَة القُرآنِ والحَديثِ اسْتَوْزَرَه المُسْتَضيءُ أوَّلَ ما بُويعَ ، واسْتَفحَلَ أمْرُه ، وكان المُسْتَضيءُ كَريماً رَؤُوفاً ، وكان الوَزيرُ ذا انْصِبابٍ إلىٰ أهْلِ العِلمِ والتَّصَوُّفِ ، يُسبغُ عليهم النِّعَمَ ويَشتَغلُ هو وأولادُه بالحَديث والفِقْه والأدَب كانَ النَّاسُ مَعهم في بُلَهْنيَة[3] ،[4] .

وقد عُزِلَ ثم أُعِيدَ ، وتمكَّن ثم تهَيَّأ للحَجِّ ، وخرجَ في رابع ذي القعدة سَنة ثلاثٍ وسَبعينَ ، وكانَ قد هَيَّأ ستَّ مئة جَمَل ، سَبَّل منها مئة ، صاحَ الباطنيُّ : مظلومٌ!

---

(١) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ١٤٥٤/ ٣ .

(٢) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ١٤٥٤/ ٤ .

(٣) بُلَهنيَة بضم الباء : أي سعة ورفاهية .

(٤) انظر السير : (عَضُد الدِّين) ٢١/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١٥٩٩/ عَضُد الدِّين .

مظلومٌ! وتقرَّبَ ، فزجَرَه الغِلْمانُ ، فقالَ : دَعُوه ، فتقدَّمَ إليه ، فضَربَه بسِكِّين في خاصِرَته ، فصاحَ الوَزيرُ قَتلَني ، وسَقطَ ، وانكشَفَ رأسُه ، فغَطَّىٰ رأسَه بكُمِّه ، وضُربَ الباطنيُّ بسَيفٍ ، فعادَ وضربَ الوزيرَ ، فهَبَّرُوه بالسُّيوفِ وكان معَه اثنانِ ، فأُحْرِقُوا ، وحُملَ الوَزيرُ إلىٰ دارٍ ، وجُرحَ الحاجبُ ، وكان الوزيرُ قد رأىٰ في النوم أنَّه مُعانِقٌ عُثمانَ رضي الله عنه ، وحَكىٰ عنه ابنُه أنَّه اغْتسَلَ قبلَ خُروجه ، وقال : ذا غُسلُ النومِ والإسْلام ، فإنِّي مَقتولٌ بلا شَكٍّ ثم ماتَ بعد الظُّهرِ ، وماتَ الحاجبُ ، وقيلَ : إنَّ الوَزيرَ بقيَ يقولُ : الله الله!! كثيراً ، وقال : ادْفِنوني عندَ أبي[1] .

٨ـ وَزيرٌ عَالمٌ :

جاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ حِنْزابَة : قالَ السِّلَفيُّ : كانَ ابنُ حِنْزَابَة من الحُفَّاظ الثِّقاتِ الْمُتَبَجِّحينَ بصُحْبَة أصْحَابِ الحَديثِ ، مع جَلالَة ورياسَة ، يَروي ويُملي بمِصْرَ في حالِ وَزارَته ، ولا يَختارُ على العِلمِ وصُحبَة أهْلِه شَيئاً ، وعندي من أمَاليه ومن كَلامِه على الحَديثِ وتَصرُّفه الدَّالِّ علىٰ حِدَّة فَهْمِه ووفُور عِلمِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كاتَبَ ابنُ حِنْزَابَة وعِدَّةٌ من الكُبَراء القَائدَ جَوْهَراً يَطلُبونَ الأمَانَ ، فأمَّنَهم ودَخلَ في دَسْتٍ عَظيمٍ ، فاسْتَوْزَرَ ابنَ حِنْزَابَة مرَّة[2] .

٩ـ الوُزَراء العُبَّاد :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَة ابنِ حِنْزابَة : قيلَ : كانَ الوزيرُ ابنُ حِنْزابَة مُتَعبِّداً يَنهَضُ في اللَّيلِ ويَدخُلُ بَيتَ مُصلاَّه فيَصُفُّ قَدمَيه إلى الفَجْر[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ العَادِلِ ظَهيرِ الدِّين أبي شُجاع : وكانَ كثير التِّلاوَة والتَّهَجُّد ، ويَكتبُ مَصاحِفَ ، ويَجلِسُ للمَظالِمِ فيَغتَصُّ الديوانُ بالسَّادَةِ والكُبَراء ، ويُنادي الحُجَّابُ : أينَ أصْحابُ الحَوائج ؟ فيُنْصِفُ الْمَظلُومَ ، ويُؤدِّي عن

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدِّين) ٢١/ ٧٥ـ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٠ .
(٢) انظر السير : (ابنُ حِنْزابَة) ١٦/ ٤٨٤ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٧ .
(٣) انظر السير : (ابنُ حِنْزابَة) ١٦/ ٤٨٤ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٧ .

الْمَحْبوسِ ، وله في عَدلِه حِكاياتٌ في إنْصَافِ الضَّعيفِ من الأمير[١] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ « نِظام الْمُلكِ » : الوَزيرُ الكَبيرُ ، نِظَامُ الْمُلكِ ، قِوامُ الدِّينِ ، أبو عليّ الحَسَنُ بنُ عليِّ بن إسْحاقَ الطُّوسيُّ ، عَاقِلٌ ، سَائسٌ ، خَبيرٌ ، سَعيدٌ ، مُتَدَيِّنٌ ، مُحْتَشِمٌ ، عامِرُ الْمَجْلسِ بالقُرَّاءِ والفُقَهاءِ[٢] .

وكانَ فيه خَيرٌ وتَقْوَىٰ ، ومَيلٌ إلى الصَّالِحينَ ، وخُضُوعٌ لِمَوْعِظَتِهم ، يُعجِبُه مَنْ يُبيِّنُ له عُيوبَ نَفسِه ، فيَنْكَسِرُ ويَبْكي[٣] .

وقيلَ : إنَّه ما جَلسَ إلاَّ علىٰ وُضوءٍ ، وما تَوضَّأ إلاَّ تَنَفَّل ، ويَصومُ الإثْنين والخَميس ، جَدَّد عِمارَةَ خُوارِزْم ، ومَشْهدَ طُوس ، وعَملَ بيمَارِسْتاناً ، نابَه عليه خَمسُونَ ألفَ دينار ، وبَنَىٰ أيضاً بمَرْوَ مَدْرَسةً ، وبِهَرَاةَ مَدْرَسةً ، وببَلْخَ مَدْرَسةً ، وبالبَصْرَةِ مَدْرَسةً ، وبأصْبَهانَ مَدْرَسةً ، وكان رَزيناً جَواداً صاحِبَ فُتوَّة واحْتِمالٍ ومَعْروف كَثير إلى الغَايَة ، ويُبالِغُ في الخُضُوعِ للصَّالِحينَ[٤] .

وقيلَ : كانَ يَتصَدَّقُ كُلَّ صَباح بمِئَة دينارٍ .

قالَ ابنُ عَقيل : بَهَرَ العُقولَ سِيرَةُ النِّظام جُوداً وكَرَماً وعَدْلاً ، وإحْياءً لِمَعالِمِ الدِّينِ ، كانت أيَّامُه دَولَةَ أهْلِ العِلمِ ، ثم خُتِمَ له بالقَتلِ وهو مارٌّ إلى الحَجِّ في رَمَضانَ ، فمَاتَ مَلِكاً في الدُّنيا ، مِلكاً في الآخِرَة ، رَحِمَه الله[٥] .

١٠ـ وَزيرٌ تائِبٌ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الصَّاحِبِ : الوَزيرُ الكَبيرُ العَلاَّمَةُ أبو القاسِم بنُ عبَّاد بن عبَّاس الطَّالقانيُّ الأديبُ ، الكاتبُ ، وَزيرُ الملك مُؤيِّد الدَّولَة بُويه بن رُكْن الدَّولَة .

---

(١) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ١٤٥٤/ ٢ .
(٢) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٤٦٤/ ١ .
(٣) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٤٦٤/ ٤ .
(٤) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٤٦٥/ ١ .
(٥) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٤٦٥/ ٢ .

صَحِبَ الوَزيرَ أبا الفَضْل بنَ العَميد ، ومن ثَمَّ شُهِرَ بالصَّاحِبِ .

وكان شيعيّاً مُعْتَزلياً مُبْتَدِعاً ، تيَّاهاً صَلفاً جبَّاراً ، قيلَ : إنَّه ذُكِرَ له البُخاريُّ ، فقالَ : ومَنِ البُخاريُّ ؟!! حَشويٌّ لا يُعوَّلُ عليه .

وقد نُكِبَ ونُفِيَ ، ثم رُدَّ إلى الوزارَةِ ، ودَامَ فيها ثَمانيَ عَشرةَ سَنةً ، وافْتَتحَ خَمسينَ قَلعَةً لِمَخْدومِه فَخْر الدَّولَة .

وكان فَصيحاً مُتقعِّراً يَتعانَىٰ وَحْشِيَّ الألْفَاظِ في خِطابِه ويَتِيهُ ويَغْضبُ إذا نَاظَرَ[1] .

وقيلَ : جَمعَ الصَّاحِبُ من الكُتبِ ما يَحتاجُ في نَقلِها إلىٰ أربَع مِئةِ جَمَل ، ولَمَّا عَزمَ على التَّحْديثِ تابَ ، واتَّخذَ لنَفسِهِ بَيْتاً سَمَّاه بيتَ التَّوْبَة ، واعْتَكفَ على الخَيرِ أسْبُوعاً ، وأخَذَ خُطوطَ جَماعَةٍ بصِحَّةِ تَوْبَته ، ثم جَلسَ للإمْلاءِ ، وحَضَرَه الخَلقُ ، وكانَ يَتفقَّدُ عُلماءَ بَغْدادَ في السَّنةِ بخَمسَةِ آلافِ دِينارٍ ، وأُدَباءَها ، وكان يَبغَضُ مَنْ يَدخُلُ في الفَلْسَفَة .

ماتَ بالرّيِّ ، ونُقلَ إلىٰ أصْبَهانَ ، ولَمَّا أُبْرِزَ تَابُوتُه ضَجَّ الخَلقُ بالبُكاءِ[2] .

١١ـ الوُزَراء الضَّابطُون للأمْن :

عَميدُ الجُيُوش :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الأميرُ الوَزيرُ ، أبو علي ، الحُسَينُ ابنُ أبي جَعْفَر .

خَدمَ أبو عليّ بَهاءَ الدولَة فاسْتَنابَه على العِراقِ ، فقَدِمَها في سَنةِ سِتٍّ وتسعينَ وثَلاث مئة والفِتَنُ ثائرةٌ بها ، فضَبطَ العِراقَ بأتَمِّ سياسَة ، وأبادَ الحَراميَّة ، وقَتلَ عدَّةً ، وأبطلَ مآتِمَ عاشُوراءَ ، وأمَرَ مَمْلوكاً له بالْمَسيرِ في مَحالِّ بَغْدادَ ، وعلىٰ يَده صينيَّة مَمْلوءَة دَنانيرَ ، ففَعلَ ، فمَا تعرَّضَ له أحَدٌ في اللَّيلِ ولا في النَّهارِ ومات نَصْرانيٌّ ، تاجِرٌ من مِصْرَ ، وخلَّفَ أمْوالاً ، فأمَرَ بحِفْظِها حتىٰ جاءَ الوَرثَةُ من مِصْرَ فتَسلَّموها .

---

(١) انظر السير : (الصَّاحِب) ١٦/ ٥١١ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ١٣١٢/ ١ .
(٢) انظر السير : (الصَّاحِب) ١٦/ ٥١١ـ ٥١٥ ، وانظر النزهة : ١٣١٢/ ٢ .

وكانَ مع فَرْطِ هَيْبَتِه ذا عَدلٍ وإنْصافٍ ، وَلِيَ العِراقَ تسعَ سِنينَ سِوَىٰ أشْهُر .

تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وأربَع مئة ، ووَلِيَ بعدَه فَخْرُ الْمُلكِ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ العَادِلِ ظَهيرِ الدِّين أبي شُجاع : خَدمَ وَلِيَ العَهدِ الْمُقْتَدي وصارَ صاحِبَ سِرِّه ، فلمَّا استُخلفَ ، عَظُمَ وأقْبَلَت سَعادَتُه ، وتَمكَّنَ من الْمُقْتَدي تَمَكُّناً عَجيباً ، وعَزَّت الخِلافَةُ وأَمِنَ النَّاسُ ، وعُمِّرَت العِراقُ وكثُرت الْمَكاسِبُ[2] .

١٢ـ الوُزَراء المُقيمُون للسُّنَن المُحْيُون للدِّين :

عَميدُ الجُيوش :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الأميرُ الوَزيرُ ، أبو علي ، الحُسَينُ ابنُ أبي جَعْفَر .

خَدمَ أبو عليّ بَهاءَ الدولَة فاسْتَنابَه على العِراقِ ، فقَدِمَها في سَنَةِ سِتٍّ وتسعين وثَلاث مئة والفِتَنُ ثائرةٌ بها ، فضَبطَ العِراقَ بأتَمِّ سياسَة ، وأبادَ الحَراميَّة ، وقَتلَ عدَّةً ، وأبطلَ مآتِمَ عاشُوراءَ ، وأمَرَ مَمْلوكاً له بالْمَسيرِ في مَحالِّ بَغْدادَ ، وعلىٰ يَده صينيَّة مَمْلوءَة دَنانيرَ ، ففَعلَ ، فمَا تَعرَّضَ له أحَدٌ في اللَّيلِ ولا في النَّهارِ وماتَ نَصْرانيٌّ ، تاجرٌ من مِصْرَ ، وخلَّفَ أمْوالاً ، فأمَرَ بِحِفْظِها حتىٰ جاءَ الوَرثَةُ من مِصْرَ فتَسلَّموها .

وكانَ مع فَرْطِ هَيْبَتِه ذا عَدلٍ وإنْصافٍ ، وَلِيَ العِراقَ تسعَ سِنينَ سِوَىٰ أشْهُر .

تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وأربَع مئة ، ووَلِيَ بعدَه فَخْرُ الْمُلكِ[3] .

نِظَامُ المُلك :

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ « نِظام الْمُلكِ » : الوَزيرُ الكَبيرُ ، نِظَامُ الْمُلكِ ، قِوامُ الدِّينِ ، أبو عليّ الحَسَنُ بنُ عليِّ بن إسْحاقَ الطُّوسيُّ ، عَاقِلٌ ، سَائسٌ ، خَبيرٌ ،

---

(١) انظر السير : (عَميدُ الجُيوش) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١٣٣٧/ عَميدُ الجُيوش .

(٢) انظر السير : (ظَهيرُ الدِّين) ١٩/ ٢٧ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٤٥٤ .

(٣) انظر السير : (عَميدُ الجُيوش) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ١٣٣٧/ عَميدُ الجُيوش .

سَعيدٌ ، مُتَدَيِّنٌ ، مُحْتَشِمٌ ، عامِرُ الْمَجْلسِ بالقُرَّاءِ والفُقَهاءِ[١] .

أنْشَأَ المَدْرسَةَ الكُبْرىٰ ببَغْدادَ ، وأُخْرَىٰ بنِيسَابُورَ وأُخْرَىٰ بِطُوسَ ورَغَّبَ في العِلْمِ ، وأدرَّ على الطَّلَبَةِ الصِّلات وأمْلَى الحَديثَ وبَعُدَ صِيتُه[٢] .

وكانَ أبوهُ من دَهاقين بَيْهَق ، فنَشأ وقرأَ نَحْواً ، وتَعانَى الكِتابَةَ والدِّيوانَ ، وخَدَمَ بغَزْنَة ، وتنَقَّلت به الأحْوالُ إلىٰ أنْ وَزَرَ للسُّلطان ألْب آرسلان ، ثم لابْنِه مَلِكْشَاه فدبَّر مَمالِكَه علىٰ أتمِّ ما يَنبَغي ، وخَفَّفَ الْمَظالِمَ ، ورَفقَ بالرَّعايا ، وبَنى الوُقوفَ وهاجَرت الكِبارُ إلىٰ جَنابِه وازْدادَت رِفْعَتُه ، واسْتَمرَّ عشْرينَ سَنةً[٣] .

وكانَ فيه خَيرٌ وتَقْوَىٰ ، ومَيلٌ إلى الصَّالِحينَ ، وخُضُوعٌ لِمَوْعِظَتِهم ، يُعجِبُه مَنْ يُبيِّنُ له عُيوبَ نَفسِه ، فيَنْكَسِرُ ويَبْكي[٤] .

مَولدُه في سَنة ثَمان وأرْبع مئة ، وقُتِلَ صائماً في رَمضانَ ، أتاهُ باطنيٌّ في هَيئة صُوفيٍّ يُناوِلُه قِصّة ، فأخَذَها منه ، فضَربَه بالسِكِّين في فُؤادِه ، فتَلِفَ ، وقَتلوا قاتلَه ، وذلكَ سَنةَ خَمسٍ وثَمانينَ وأرْبَع مئة ، بقُرب نَهاوَند ، وكان آخِرُ قولِه : لا تَقْتُلوا قاتلي ، قد عَفوتُ ، لا إلَـٰهَ إلاَّ الله .

قال ابنُ خلِّكان : قد دَخلَ نِظامُ الْمُلكِ على الْمُقْتَدي بالله فأجلَسَه وقالَ له : يا حَسَنُ ، رَضيَ اللهُ عَنكَ ، كَرِضا أميرِ المؤمنينَ عنكَ .

وكان شافعيّاً أشْعَريّاً .

وقيلَ : إنْ قَتْلَه كان بتَدبيرٍ من السُّلطانِ ، فلَمْ يُمْهَلْ بعدَه إلاَّ نَحو شَهْر[٥] .

وقيلَ : إنَّه ما جَلسَ إلاَّ علىٰ وُضوءٍ ، وما تَوضَّأ إلاَّ تَنَفَّل ، ويَصومُ الإثْنين والخَميس ، جَدَّد عِمارَة خُوارِزْم ، ومَشْهدَ طُوس ، وعَملَ بيمَارِسْتاناً ، نابَه عليه

---

(١) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٦٤ .
(٢) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٤ .
(٣) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦٤ .
(٤) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٦٤ .
(٥) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٦٤ .

خَمسُونَ أَلفَ دينار ، وبَنىٰ أيضاً بمَرْوَ مَدْرَسةً ، وبِهَرَاةَ مَدْرَسةً ، وببَلْخَ مَدْرَسةً ، وبالبَصْرَةِ مَدْرَسةً ، وبأصْبَهانَ مَدْرَسةً ، وكان رَزيناً جَواداً صاحِبَ فُتوَّة واحْتِمالٍ ومَعْروف كَثير إلى الغَايَة ، ويُبالِغُ في الخُضُوعِ للصَّالِحينَ[1] .

وقيلَ : كانَ يَتصَدَّقُ كُلَّ صَباح بمِئَة دينارٍ .

قالَ ابنُ عَقيل : بَهَرَ العُقولَ سِيرَةُ النِّظام جُوداً وكَرَماً وعَدْلاً ، وإحْياءً لِمَعالِمِ الدِّينِ ، كانت أيّامُه دَولَةَ أهْلِ العِلمِ ، ثم خُتِمَ له بالقَتلِ وهو مارٌّ إلى الحَجِّ في رَمَضانَ ، فمَاتَ مَلِكاً في الدُّنيا ، مِلكاً في الآخِرَة ، رَحِمَه الله[2] .

ابنُ هُبَيْرَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : الوَزيرُ الكامِلُ ، الإمامُ العَالِمُ العَادِلُ ، عَونُ الدين ، يَمينُ الخِلافَة ، أبو الْمُظفَّر يَحْيىٰ بنُ محمَّد بنُ هُبَيرَة الشَّيْبانيُّ الدُّوريُّ العِراقِيُّ الحَنْبَليُّ ، صاحِبُ التَّصانيف .

مولده سنة تسع وتسعين وأربع مئة .

قالَ ابنُ الجَوْزيّ : كانَ يَجتَهدُ في اتِّباع الصَّوابِ ، ويَحذَرُ من الظُّلمِ ولا يَلبَسُ الحَريرَ ، وكانَ مُبالِغاً في تَحصيلِ التَّعْظيمِ للدَّولَة قامِعاً للمُخالِفينَ بأنْواع الحِيَل ، حَسَمَ أمُورَ السَّلاطينَ السَّلْجوقيَّة ، وكانَ يَتحدَّثُ بنِعَم الله ، ويَذكُرُ في مَنْصِبه شِدَّةَ فَقْرِه القَديم ، وقالَ : نَزلتُ يَوماً إلىٰ دِجْلَة ولَيسَ مَعي رَغيفٌ أعْبُرُ به وكانَ يُكثِرُ مُجالَسَةَ العُلماءِ والفُقَراءِ ، ويَبذُلُ لهم الأمْوالَ ، فكانت السَّنَةُ تَدورُ وعليه دُيونٌ وقالَ : ما وَجَبت عليَّ زَكاةٌ قَطُّ ، وكانَ إذا اسْتفادَ شَيئاً من العِلمِ قالَ : أفادَنيه فُلانٌ ، وقد أفَدتُه مَعنىٰ حَديثٍ ، فكانَ يَقولُ : أفادَنيه ابنُ الجَوْزي ، فكُنتُ أسْتَحيي ، وجَعلَ لي مَجْلِساً في دارِه كُلَّ جُمُعَة ويَأذَنُ للعَامَّة في الحُضُورِ ، وكانَ بَعضُ الفُقَراء يَقرأُ عِندَه كَثيراً فأعْجَبَه ، وقالَ لزَوْجَتِه : أريدُ أنْ أُزَوِّجَه بابنَتي ، فغَضِبَت الأمُّ وكانَ يُقرأُ عنده

---

(١) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢١/١٤٦٥ .

(٢) انظر السير : (نِظامُ الْمُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٥ .

الحَديثُ كُلَّ يومٍ بعدَ العَصْرِ ، فحَضَرَ فَقيهٌ مَالِكيٌّ فذُكِرَتْ مَسألَةٌ ، فخَالَفَ فيها الجَميعَ ، وأصَرَّ ، فقَالَ الوَزيرُ : أحِمَارٌ أنتَ! أما تَرَى الكُلَّ يُخالِفونَك ؟! فلمَّا كانَ من الغَدِ ، قالَ للجَماعَة : إنَّه جَرىٰ منِّي بالأمْسِ في حَقِّ هٰذا الرَّجُلِ ما لا يَليقُ ، فليَقُلْ لي كما قُلتُ له فمَا أنا إلاَّ كأحَدِكم ، فضَجَّ الْمَجْلِسُ بالبُكاءِ ، واعْتذَرَ الفَقيهُ ، قالَ : أنا أَوْلَىٰ بالاعْتِذارِ ، وجَعلَ يَقولُ : القِصَاصَ القِصاصَ ، فلَمْ يَزَلْ حتَّىٰ قالَ يُوسُفُ الدِّمَشْقيُّ : إذا أبَى القِصَاصَ فالفِداءُ ، فقالَ الوَزيرُ : له حُكْمُه ، فقالَ الفَقيهُ : نِعَمَكَ عليَّ كثيرةٌ ، فأيُّ حُكْمٍ بَقيَ لي ؟ قالَ : لا بُدَّ قالَ : عليَّ دَينٌ مئة دينار ، فأعْطَاهُ مئتَيْ دينارٍ ، وقالَ : مِئةٌ لإبْراءِ ذِمَّتِه ، ومِئةٌ لإبْراءِ ذِمَّتي .

قالَ ابنُ الجَوْزيّ : كانَ الوَزيرُ يَتأسَّفُ علىٰ ما مَضَىٰ ، ويَندَمُ علىٰ ما دَخَلَ فيه ، ولقدَ قالَ لي : كانَ عِندَنا بالقَرْيَة مَسْجدٌ فيه نَخْلةٌ تَحمِلُ ألفَ رَطلٍ ، فحَدَّثَتْ نَفسِي أنْ أُقيمَ في ذَلكَ الْمَسجِد وقُلتُ لأخي مَجْدِ الدِّين : أقْعدُ أنا وأنْتَ وحاصِلُها يَكْفينا ، ثم انْظُرْ إلىٰ ما صِرتُ ، ثمَّ صَارَ يَسألُ اللهَ الشَّهادَة ويَتعرَّضُ لأسْبابِها[1] .

وفي لَيلَةِ ثالثَ عَشرَ جُمادَى الأوْلَىٰ سَنةَ سِتِّينَ وخَمسِ مئة اسْتَيقَظَ وَقتَ السَّحَرِ ، فقَاءَ ، فحَضرَ طَبيبُه ابنُ رَشادَة ، فسَقاهُ شَيئاً ، فيُقالُ : إنَّه سَمَّه ، فمَاتَ ، وسُقيَ الطَّبيبُ بعدَه بنِصْفِ سَنةٍ سُمّاً ، فكانَ يَقولُ : سَقيتُ فسُقيتُ ، فمَاتَ .

ورَأيتُ آثاراً بجَسَدِه ووَجْهِه تَدلُّ علىٰ أنَّه مَسْمومٌ ، وحُملَتْ جِنازَتُه إلىٰ جامعِ القَصْر ، وخَرجَ مَعه جَمعٌ لَمْ نَرَه لِمَخْلوقٍ قَطُّ ، وكثُرَ البُكاءُ عليه لِمَا كانَ يَفعَلُه من البِرِّ والعَدْلِ ، ورَثَتْه الشُّعَراءُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : له كتابُ « الإفْصَاح عن مَعاني الصِّحَاح » شَرحَ فيه صَحيحَي « البُخاري » و« مُسْلم » في عَشرِ مُجلَّدات ، وألَّفَ كتابَ « العِبادات » علىٰ مَذهَب أحمَد وله أُرْجُوزَة في الْمَقْصُورِ والْمَمْدودِ ، وأُخْرَىٰ في عِلمِ الخَطِّ ، واخْتَصَرَ كتابَ « إصْلاح الْمَنْطِق » لابنِ السِّكِّيت[2] .

---

(١) انظر السير : (ابن هُبَيرة) ٢٠/٤٢٦ـ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧١ .

(٢) انظر السير : (ابن هُبَيرة) ٢٠/٤٢٦ـ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٢ .

القَاضي الفَاضِل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : المَوْلى الإمامُ العَلاَّمَةُ البَليغُ ، القاضي الفاضِلُ ، مُحْيي الدِّين ، يَمينُ المملكَة ، سَيِّد الفُصَحاء ، أبو عليٍّ عبدُ الرَّحيم بنُ عليِّ بنِ الحَسَن اللَّخْميُّ ، الشَّاميُّ ، العَسْقَلانيُّ المَوْلد ، المِصْريُّ الدَّار ، الكاتبُ ، صاحبُ ديوان الإنْشاء الصَّلاحيِّ .

وُلِدَ سنةَ تسع وعشرين وخَمس مئة[1] .

وانتهَتْ إلى القاضي الفَاضل بَراعَةُ الترسل وبَلاغَةُ الإنْشاء ، وله في ذلك الفَنِّ اليَدُ البَيْضاءُ ، والمَعاني المُبْتكَرَة ، والباعُ الأطْوَل ، لا يُدْركُ شأوُه ، ولا يُشَقُّ غُبارُه ، مع الكَثْرَة[2] .

قالَ العِمادُ : قَضىٰ سَعيداً ، ولَمْ يُبقِ عَمَلاً صالِحاً إلاَّ قدَّمَه ، ولا عَهْداً في الجَنَّة إلاَّ أحْكَمَه ، ولا عَقدَ برٍّ إلاَّ أبْرَمَه ، فإنَّ صَنائِعَه في الرِّقابِ ، وأوْقافَه مُتجاوِزَةُ الحِسابَ ، لا سِيَّما أوْقافُه لفِكاكِ الأسَرىٰ ، وأعَانَ المالكيَّة والشَّافِعيَّة بالمدرَسَة ، والأيْتامَ بالكتابِ ، كانَ للحُقوقِ قاضياً ، وفي الحَقائقِ ماضياً والسُّلطانُ له مُطيعٌ ، ما افْتتَحَ الأقاليمَ إلاَّ بأقاليدِ آرائه .

وقالَ ابنُ خَلِّكانَ : وَزرَ للسُّلطانِ صَلاحِ الدِّينِ بنِ أيُّوبَ .

وبَلغَنا أنَّ كُتبَه التي مَلكَها بَلغَت مئة ألفِ مُجلَّد ، وكانَ يُحَصِّلها من سائرِ البِلادِ[3] .

وحَكَى القاضي ضياءُ الدِّين ابنُ الشَّهرزوريِّ أنَّ القاضي لمَّا سَمِعَ أنَّ العادلَ أخَذَ مصرَ ، دعا بالموتِ خشيةَ أنْ يَستَدعيَه وزيرُهُ ابنُ شُكرٍ ، أو يُهينَهُ ، فأصْبَحَ مَيِّتاً ، وكان ذا تَهَجُّدٍ ومُعَامَلة[4] .

---

(١) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٠ .
(٣) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣٠ .
(٤) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٣٠ .

وقِيلَ : كان القاضي أحْدَبَ ، فحَدَّثني شَيخُنا أبو إسْحاقَ الفَاضليُّ أنَّ القاضيَ الفاضلَ ذَهبَ في الرُّسليَّة إلىٰ صَاحبِ المُوصِل ، فأُحْضِرَت فَواكهُ ، فقال بعضُ الكِبار مُنكِّتاً : خِيارُكُم أَحْدَبُ ، يُوَرِّي بذلك ، فقالَ الفاضلُ : خَسُّنَا خَيرٌ مِنْ خِيارُكم[1] .

قالَ الحافِظُ الْمُنذريُّ : رَكنَ إليه السُّلطانُ رُكوناً تامّاً ، وتَقدَّمَ عندَه كَثيراً وكانَ كَثيرَ البِرِّ ، وله آثارٌ جَميلَةٌ تُوفِّيَ سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ وخَمسِ مئة[2] .

له الدِّينُ ، والعَفافُ ، والتُّقَىٰ ، مُواظِبٌ علىٰ أَوْرادِ اللَّيلِ والصِّيامِ والتِّلاوَةِ لَمَّا تَملَّكَ أسَدُ الدِّين ، أحْضَرَه ، فأُعْجِبَ به ، ثم اسْتخلصَه صَلاحُ الدِّين لنَفسِه وكانَ قَليلَ اللَّذَّاتِ ، كَثيرَ الحَسنات ، دائمَ التَّهَجُّدِ ، يَشتَغلُ بالتَّفْسيرِ والأدَبِ وكانَ قَليلَ النَّحْوِ ، لكنَّه له دُريَةٌ قَويَّةٌ ، وكان مُتَقلِّلاً في مَطْعَمِه ومَنْكَحِه ومَلبَسِه ، لِباسُه البَياضُ ، ويَركبُ معه غُلامٌ وركابيٌّ ، ولا يُمكِّنُ أحَداً أنْ يَصْحبَه ، ويُكثِرُ تَشييعَ الجَنائز ، وعِيادَةِ الْمَرضَىٰ ، وله مَعروفٌ مَعروفٌ في السِّرِّ والعَلانيَة ، ضَعيفُ البِنْيَة ، رَقيقُ الصُّورَة ، له حَدبَة يُغَطِّيها الطَّيْلسانُ ، وكان فيه سُوءُ خُلقٍ يُكْمِدُ به نَفسَه ، ولا يَضرُّ أحَداً به ، ولأصْحَابِ العِلمِ عندَه نَفَاقٌ ، يُحْسِنُ إليهم ، ولَمْ يَكنْ له انْتقامٌ من أعْدائه إلاَّ بالإحْسَانِ أو الإعْراضِ عنهم ، وكانَ دَخلُه ومَعلومُه في العامِ نحواً من خَمسينَ ألفِ دينار سِوَىٰ مَتاجر الهِنْدِ والْمَغرِبِ ، تُوفِّيَ مَسْكوتاً[3] ، أحْوَجَ ما كانَ إلى الْمَوْتِ عند تَوَلِّي الإقْبالِ وإقْبالِ الإدْبارِ ، وهـٰذا يَدلُّ علىٰ أنَّ لله به عِنايَةً[4] .

مُحاوَلات القَتْل التي جَرت لبعضِ الأُمَراء والكبَراء والفُقَهاء :
(سَتجد غَيرَها في فهرس الباطِنيَّة في العَقائد الضَّالَّة)

عن أنَسٍ قالَ : تَعاهَد ثَلاثَةٌ من أهْلِ العِراقِ علىٰ قَتلِ مُعاويَةَ وعَمرو بنِ العاصِ ، وحَبيبِ بنِ مَسْلمَة ، وأقْبَلوا بعد بَيْعَة مُعاوِيَة بالخِلافَة حتىٰ قَدِموُا إلِيْلياءَ ، فصلُّوا من

---

(١) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١٦٣٠/ ٤ .
(٢) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١٦٣٠/ ٥ .
(٣) يعني : فجأة ، وهو ما يُعرف في عصرنا بالسكتة القلبية .
(٤) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/ ٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ١٦٣٠/ ٦ .

السَّحَر في الْمَسجِدِ فلمَّا خَرجَ مُعاويَة لصَلاةِ الفَجرِ كبَّر ، فلمَّا سَجدَ انْبَطحَ أَحَدُهم علىٰ ظَهْرِ الحَرَسي السَّاجد بينَه وبينَ مُعاويَة حتىٰ طَعنَ مُعاويَة فانْصَرفَ مُعاويَة ، وقالَ : أتِمُّوا صَلاتَكم وأُمسِكَ الرَّجلُ ، فقالَ الطَّبيبُ : إنْ لَمْ يكنْ الخِنْجَرُ مَسْموماً ، فلا بَأسَ عَليكَ فأعَدَّ الطَّبيبُ عَقاقيرَه ، ثم لَحسَ الخِنْجَرَ ، فلَمْ يَجدْهُ مَسْموماً ، فكبَّرَ ، وكبَّرَ مَنْ عندَه ، وقيلَ : ليسَ بأميرِ الْمُؤْمنينَ بأسٌ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : هـٰذه المرَّة غَيرُ المرَّة التي جُرحَ فيها وَقْتَما قُتلَ عليٌّ رضي الله عنه ، فإنَّ تلكَ فُلق أليَتُه وسُقي أدْويَةً خلَّصَته من السُّمِّ ، لكنْ قُطعَ نَسلُه .

عن يَزيدَ بنِ الأصَمِّ قالَ : قالَ عليٌّ رضي الله عنه : قَتْلايَ وقَتلَىٰ مُعاويَةَ في الجَنَّة[1] .

وقالَ ابنُ سَعْد : وعَقَدَ مَرْوانُ بنُ الحَكَم لوَلدَيْه عبدِ الْمَلكِ وعبدِ العَزيزِ بعَهْدِه ، وزَهَّدَ النَّاسَ في خالدِ بنِ يَزيدَ بنِ مُعاويَة ، ووَضَعَ منه وسَبَّه يَوماً ، وكان مُتزوِّجاً بأُمِّه ، فأضْمَرَتْ له الشَّرَّ ، فنامَ ، فوَثَبَتْ في جَوَاريها ، وغَمَّته بوَسادَة قَعَدنَ علىٰ جَوانِبها ، فتَلفَ ، وصَرَخْنَ ، وظُنَّ أنَّه ماتَ فُجاءةً .

وقِيلَ : ماتَ بالطَّاعونِ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز : قد كانَ هـٰذا الرَّجُلُ حَسَنَ الخَلْقِ والخُلُقِ ، كامِلَ العَقْلِ ، حَسَنَ السَّمْتِ ، جَيِّدَ السِّياسَة ، حَريصاً على العَدْلِ بكُلِّ مُمْكنٍ ، وافِرَ العِلمِ ، فَقيهَ النَّفْسِ ، ظاهِرَ الذَّكاءِ والفَهْم ، أَوَّاهاً مُنيباً ، قانتاً لله ، حَنيفاً زاهِداً مع الخِلافَة ، ناطِقاً بالحَقِّ مع قِلَّة الْمُعينِ ، وكَثرَةِ الأُمَراء الظَّلمَة الذينَ مَلُّوه وكَرِهوا مُحاققَتَه لهم ، ونَقْصَه أُعْطياتِهم ، وأَخْذَه كثيراً مِمَّا في أيديهم مِمَّا أَخذوه بغَير حَقٍّ ، فما زالوا به حتىٰ سَقَوْه السُّمَّ ، فحَصُلت له الشَّهادَةُ والسَّعادَةُ ، وعُدَّ عند أَهْلِ العِلمِ من الخُلفاءِ الرَّاشِدينَ ، والعُلَماءِ العامِلينَ[3] .

---

(١) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٥٢ .
(٢) انظر السير : (مَرْوان بن الحَكَم) ٣/ ٤٧٦ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤١٣ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١١ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٧ .

وعن مُجاهِد : قالَ لي عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز : ما يَقولُ فيَّ الناسُ ؟ قُلتُ : يَقولون مَسْحُور ، قالَ : ما أنا بمَسْحُور ، ثم دَعا غُلاماً له فقالَ : وَيْحَكَ! ما حَمَلَكَ علىٰ أنْ سَقَيْتَني السُّمَّ ؟ قالَ ألفُ دينار أُعْطِيتُها ، وعلىٰ أنْ أُعْتَق ، قالَ : هاتِها ، فجاءَ بها ، فألقاها في بَيتِ المالِ ، وقالَ : اذْهَبْ حَيثُ لا يَراكَ أحَدٌ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمام أبي حَنيفَة : تُوفِّيَ شَهيداً مَسْقيّاً في سَنَةِ خَمسينَ ومِئة وله سَبعونَ سَنَةً ، وعليه قُبَّةٌ عَظيمةٌ ومَشْهَدٌ فاخِرٌ ببَغْدادَ ، واللهُ أعلَم[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في ترجَمَةِ الهَادي الخَليفَة العَبَّاسيِّ : سَمَّته أمُّه الخَيزُران ، لَمَّا أجْمَعَ علىٰ قَتْلِ أخيهِ الرَّشيدِ ، وكانت مُتَصرِّفَة في الأُمورِ إلى الغايَة ، وكانت من مُولَّدات الْمَدينَة ، فقالَ لها : لَئنْ وَقفَ ببابِكِ أميرٌ ، لأقْتلنَّك ، أمَا لَكِ مِغْزَلٌ يَشغلُكِ ، أو مُصْحَفٌ يُذَكِّرُكِ ، أو سُبْحَةٌ فقامَت لا تَعْقِلُ غَضَباً[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الحاكِمِ العُبَيْديِّ ، قال الإمامُ الذهبيُّ : وذَكَرْنا في تَرجَمته[4] ، أنَّه خَرجَ من القَصْرِ فطَافَ لَيلتَه ، ثم أصْبَحَ فتوَجَّه إلىٰ شَرقيِّ حُلوانَ مَعَه ركابيَّان ، فرَدَّ أحدَهما مع تسْعَة من العَرَب ثم أمَرَ الآخَرَ بالانْصِرافِ فزَعمَ أنَّه فارَقَهَ عند المَقْصَبَة ، فكانَ آخرَ العَهْدِ به وخَرجَ النَّاسُ علىٰ رَسْمهم يَلتمسُون رُجوعَه ، مَعهم الجَنائبُ ففَعلوا ذلكَ جُمعَة ثمَّ خَرجَ في ثاني ذي القِعْدَة مُظفَّرُ صاحبُ المِظلَّة ونَسيمٌ وعِدَّة فبَلغوا دَيْرَ القُصَير ، وأمْعَنوا في الدُّخولِ في الجَبَل فبَصُروا بِحِماره الأشْهَب المُسَمَّىٰ بقَمر ، وقد ضُربَت يَداه ، فأثَّر فيهما الضَّربُ وعَليه سَرْجُه ولجامُه ، فتتبَّعوا أثرَ الحِمارِ فإذا أثرُ راجلٍ خلفَه وراجلٌ قُدَّامَه ، فقصُّوا الأثرَ إلىٰ برْكَة بشَرقيِّ حُلْوانَ ، فنَزلَ رجلٌ إليها فيَجدُ فيهما ثيابَه وهي سَبعُ جِبابٍ ، فوُجدَت مُزَرَّرَة ، وفيها آثارُ السَّكاكينِ فمَا شَكُّوا في قَتلِه[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١١ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٥٩١/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو حَنيفَة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٤ .
(٣) انظر السير : (الهَادي) ٧/ ٤٤١ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ١/٧١٤ .
(٤) يُشيرُ الذهبيُّ هنا إلىٰ كتابه « تاريخُ الإسْلام » .
(٥) « وَفيّاتُ الأعْيان » : ٥/ ٢٨٧ـ ٢٩٨ وقد نقل المقريزي عن المسبحي رواية أخرىٰ لمقتله ، قال : =

وثَمَّ اليوم طائفةٌ من طَغام الإسْماعيليّة الذين يَحلِفُونَ بغَيْبَة الحاكمِ ، ما يَعتقدُونَ إلاَّ أنّه باقٍ ، وأنَّه سَيظْهَر نَعوذُ بالله من الجَهْل .

وقد قَتلَ الحاكمُ جَماعَةً من الأُمَراء بلا ذَنْبٍ ، وذَبحَ قاضيَيْن له .

وسِيرَةُ الحَاكِمِ ، وعَسْفِه تَحْتملُ كَراريسَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الآمرِ بأحْكامِ الله العُبَيْديِّ : وبَقيَ الآمرُ في المُلكِ تسعاً وعشرينَ سَنةً وتسعَةَ أَشْهُر إلىٰ أنْ خَرجَ يَوماً إلىٰ ظاهرِ القاهِرَة ، وعَدَّىٰ على الجِسْرِ إلى الجِيزَة ، فكَمَنَ له رجالٌ في السِّلاح ، ثم نَزلُوا عليه بأسْيافِهِم ، وكان في طائفةٍ لَيسَت بكَثيرَة ، فرُدَّ إلى القَصْرِ مُثْخَناً بالجِراحِ وهَلكَ من غَيرِ عَقِب .

وكان العاشرَ من الخُلفَاءِ الباطنيَّة فبايَعوا ابنَ عَمٍّ له ، وهو الحافِظُ لدين الله .

وكان حَسَنَ الخَطِّ ، جَيِّدَ العَقْلِ والمَعْرفَة ، لكنَّه خَبيثُ المُعْتَقَد سَفَّاكاً للدِّماء ، مُتَمرِّداً جَبَّاراً فاحِشاً فاسِقاً ، صادَرَ الخَلقَ عاشَ خَمساً وثلاثين سَنَةً .

وانْقَلعَ سَنَةَ أرْبَع وعِشْرينَ وخَمسِ مئَة[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الظَّافِر بالله العُبَيْديِّ ، قال الإمامُ الذهَبيُّ : وقَدِمَ من إفْريقية عبَّاسُ بنُ أبي الفُتوح بنِ المَلكِ يَحْيَىٰ بنِ تَميم ابنِ المُعِزِّ بنِ باديس مع أُمِّه صَبياً فتَزوَّجَ العادِلُ بها قبلَ الوِزارَة فتَزوَّجَ عبَّاسٌ ، ووُلِدَ له نَصْرٌ ، فأحبَّه العادلُ ، ثم جهَّزَ أباهُ للغَزْو فلمَّا نَزلَ ببِلْبيسَ ، ذاكَره ابنُ مُنْقِذ[3] ، فاتَّفَقا علىٰ قَتلِ العادِلِ ، وأنْ يأخُذَ عبَّاسٌ

= « وفي المحرَّم سنة خمس عشر وأربع مئة قبض علىٰ رجل من بني حسين ثار بالصعيد الأعلىٰ ، فأقرَّ بأنه قتل الحاكم بأمر الله في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد ، وأظهر قطعة من جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التي كانت عليه ، فقيل له : « لمَ قَتلتَه ؟ » قال : غَيرةً لله وللإسْلام » ، فقيلَ له : « كيف قَتلتَه ؟ » فأخرج سكيناً ضرب بها فؤادَه ، فقَتلَ نفسَه ، وقال : « هكذا قَتلتُه » فقطع رأسه ، وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه هٰذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم ، لا ما تحكيه المشارقة في كتبهم من أن أختَه قَتلته انظر « اتِّعاظ الحُنفا » ، ٣١٤ .

(١) انظر السير : (الحاكم) ١٥/١٧٣ـ١٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٠ .

(٢) انظر السير : (الآمر بأحكام الله) ١٥/١٩٧ـ١٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٤ .

(٣) أسامة بن منقذ الكناني ، أمير من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (قُرب حماة) ومن العلماء=

مَنْصِبَه فذَبَحَ نَصرٌ العادِلَ علىٰ فِراشِه في المُحَرَّم سنةَ ثَمانٍ وأَرْبَعينَ وخَمسِ مئَة ، وتَملَّكَ عبَّاسٌ وتَمكَّنَ[1] .

وكان ابنُه نَصْرٌ من المِلاحِ فمَالَ إليه الظَّافِرُ وأَحبَّه فاتَّفقَ هو وأبُوه عبَّاسٌ على الفَتْكِ بالظَّافِرِ[2] ، فدَعاهُ نَصرُ إلىٰ دارِهم ليَأتيَ مُتخَفِّياً ، فجاءَ إلى الدَّارِ التي هي اليَومَ المَدرَسةُ السُّيوفيَّة فشَدَّ نَصرٌ عليه فقَتلَه وطَمرَهُ في الدَّارِ وذلكَ في سَنةِ تِسْعٍ وأَرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة وعاشَ الظَّافِرُ اثْنَتَينِ وعِشرينَ سَنةً .

ثم رَكبَ عَباسٌ من الغَدِ وأَتَى القَصرَ وقالَ : أينَ مَوْلانا ؟ فطَلَبُوهُ ففَقَدُوه وخَرَجَ جبريلُ ويوسُفُ أخَوا الظَّافِرِ ، فقالَ : أين مَوْلانا ؟ قالا : سَلْ ابْنَك ، فغَضِبَ وقالَ : أنتُما قَتلْتُماه ، وضَربَ رِقابَهُما في الحَالِ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ العاضِدِ العُبَيْديِّ ، قال الإمامُ الذهَبيُّ : وأخَذَ وزيرُه الْمَلكُ الصَّالحُ طَلائعُ في قَطعِ أخْبارِ العَسْكَرِ والأُمَراء ، فتَعاقَدوا بمُوافَقَةِ العاضِد لهم علىٰ قَتلِه ، فكَمَنَ له عدَّة في القَصْرِ ، فجَرَحُوهُ ، فدَخلَ مَماليكُه ، فقَتَلوا أولئكَ ، وحَملوهُ ، فمَا أمْسَىٰ وذلكَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة .

ووَلِيَ مَكانَه ولدُه الملكُ العادلُ رُزِّيك وكان مَليحَ النَّظْمِ ، قَويَّ الرَّفْضِ ، جَواداً شُجاعاً ، يناظِرُ على الإمامَة والقَدَر ، وعَمِلَ قَبلَ مَوْته بثَلاثِ لَيالٍ :[4] .

نَحْـنُ فـي غَفْلَـةٍ ونَـوْمٍ وللمَـوْ ... تِ عُيـونٌ يَقْظَـانَـةٌ لا تَنَـامُ
قـد رَحَلْنَـا إلـى الحِمَـامِ سِنينـاً ... لَيـتَ شِعْـري مَتَـىٰ يَكُـونُ الحِمَـامُ

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ الكَبيرِ نِظامِ الْمُلكِ أبي عَليٍّ الحَسَنِ بنِ

= الشجعان ، له تصانيف في الأدب والتاريخ ، ومن أمتع كتبه « الاعتبار » نحا فيه مَنحى السيرة الذاتية تُوفِّي بدمشقَ سنة ٥٨٤ هـ .

(١) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٦ .

(٢) يذكر أسامة بن مُنقذ أن الظافر حمل نصراً علىٰ قتل أبيه ، فاطَّلع والدُه على الأمر فلاطَفه واستماله وقرَّر معه قتل الظافر ، انظر « الاعتبار » ١٩ ـ ٢٠ .

(٣) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٦ .

(٤) انظر السير : (العاضِد) ١٥/٢٠٧ـ٢١٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢١٩ .

عَليِّ بنِ إسْحاقَ الطُّوسيِّ : كان مَولدُه في سنة ثمان وأربع مئة ، وقُتلَ صائماً في رمضان ، أتاه باطنيٌّ في هيئة صُوفيٍّ يُناوله قِصّة ، فأخذها منه ، فضربه بالسِكِّين في فؤادِه ، فتَلِفَ ، وقَتلوا قاتلَه ، وذلك سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، بقرب نهاوَند ، وكان آخرُ قولِه : لا تَقتلوا قاتلي ، قد عَفوتُ ، لا إلـٰهَ إلاَّ الله .

قال ابنُ خلِّكان : قد دَخلَ نظامُ الْمُلكِ على المُقْتَدي بالله فأجلَسَه وقال له : يا حَسَنُ ، رَضيَ اللهُ عَنكَ ، كَرِضىٰ أميرِ المؤمنينَ عَنكَ .

وكان شافعيّاً أشْعَريّاً .

وقيلَ : إنْ قَتْلَه كان بتدبير من السُّلطان ، فلم يُمْهَلْ بعدَه إلاَّ نَحو شهر[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الأتابَك « زَنْكيّ » : نازل زَنْكي قَلعَةَ « جَعْبَرَ » وحاصَرَ مَلِكَها عَليَّ ابنَ مالك وأشْرَفَ علىٰ أخْذِهَا ، فأصْبَحَ مَقْتولاً ، وفَرَّ قاتلُه خادِمُه إلىٰ جَعْبَرَ ، وذلك في سنة إحدىٰ وأربعين وخمس مئة ، فتَملَّكَ ابنُه نُورُ الدِّين بالشَّامِ ، وابنُه غَازي بالْمَوْصِل .

زاد عُمرُ زَنْكي رَحمَه الله على السِّتِّين[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الْمُسْتَنْجِدِ باللهِ العَبَّاسيِّ ، قالَ ابنُ الأثيرِ في « كامِله » : كان الْمُسْتَنْجِدُ أسْمَرَ ، تامَّ القَامَةِ طَويلَ اللِّحْيَة ، اشْتدَّ مَرَضُه ، وكان قد خَافَه أستاذُ الدَّار عَضُدُ الدَّولَة ابنُ رَئيسِ الرُّؤَساء وقَايمازُ الْمُقْتَفَوي كَبيرُ الأُمَراءِ ، فوَاضَعا الطَّبيبَ عَلىَ أذِيَّتِه ، فوُصِفَ له الحَمَّامُ ، فامْتَنعَ لضَعْفِه ثم أُدخِلَ الحَمَّامَ وأُغلِقَ عَليه ، فتَلفَ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ هُبَيْرَة ، قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وفي لَيلَةِ ثالثَ عَشرَ جُمادَى الأوْلَىٰ سَنةَ سِتِّينَ وخَمسِ مئة اسْتَيقَظَ وَقتَ السَّحَرِ ، فقَاءَ ، فحَضرَ طَبيبُه ابنُ رَشادَة ، فسَقاهُ شَيئاً ، فيُقالُ : إنَّه سَمَّه ، فمَاتَ ، وسُقيَ الطَّبيبُ بعدَه بِنِصْفِ سَنةٍ سُمَّاً ، فكانَ يَقولُ : سَقيتُ فسُقيتُ ، فمَاتَ .

---

(١) انظر السير : (نِظامُ المُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٤٦٤/٥ .

(٢) انظر السير : (الأتَابَك) ٢٠/ ١٨٩ـ١٩١ ، وانظر النزهة : ١٥٣٩/٥ .

(٣) انظر السير : (الْمُسْتَنْجِدُ بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٥٧٠/١ .

ورَأيتُ آثاراً بجَسَدِه ووَجْهِه تَدلُّ علىٰ أنَّه مَسْمومٌ ، وحُملَتْ جِنازَتُه إلىٰ جامِعِ القَصْر ، وخَرجَ مَعه جَمعٌ لَمْ نَرَه لِمَخْلوقٍ قَطُّ ، وكثُرَ البُكاءُ عليه لِمَا كانَ يَفعَلُه من البِرِّ والعَدْلِ ، ورَثَتْه الشُّعَراءُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : له كتابُ « الإفْصَاح عن مَعاني الصِّحَاح » شَرحَ فيه صَحيحَي « البُخاري » و« مُسْلم » في عَشرِ مُجلَّدات ، وألَّفَ كتابَ « العِبادات » علىٰ مَذهَب أحمَد وله أُرْجُوزَة في الْمَقْصُورِ والْمَمْدودِ ، وأُخْرَىٰ في عِلمِ الخَطِّ ، واخْتَصَرَ كتابَ « إصْلاح الْمَنْطِق » لابنِ السِّكِّيت[1] .

* * *

(١) انظر السير : (ابنُ هُبَيْرَة) ٢٠/٤٢٦ـ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٢ .

(٧) السِّياسَة الشَّرعيّة

قَواعِدُ في السِّياسَة الشَّرعيّة

١ـ دَولَةٌ ظالِمَةٌ مع الأمْن خَيرٌ من دَولَةٍ عادِلَةٍ مع الفَسَاد والفَوْضَىٰ :

جاءَ في تَرجَمَةِ ثاني الرَّاشِدينَ ، أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، عند ذكر الهُرْمُزان صاحِبِ تُسْتَر ، قال ابنُ سَعد : بعثَه أبو موسى الأشْعَريُّ إلىٰ عُمرَ ومعَه اثنا عشرَ نَفساً من العَجَم ، عليهم ثِيابُ الدِّيباج ومَناطِقُ الذَّهَب وأساوِرَة الذَّهب ، فقَدِموا بهم المَدينةَ ، فعَجبَ النَّاسُ من هَيْئَتِهم ، فدَخلوا فوَجدوا عُمرَ نائماً في المَسْجد مُتوَسِّداً رِداءَه ، فقالَ الهُرمُزان : هـٰذا مَلِكُكُم ؟! قالوا : نعم ، قالَ أمَا له حاجبٌ ولا حارسٌ ؟ قالوا : اللهُ حارسُه حتىٰ يأتيه أجَلُه ، قال : هـٰذا المَلكُ الهَنيُّ[١] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي مُسْلم الخُراسانيِّ في تعقيب له بعد ما آل الأمر إلىٰ بني العباس : فَرِحْنا بمَصيرِ الأمْرِ إليهِم لكنْ والله ساءَنا ما جَرَىٰ من سُيولِ الدِّماءِ ، والسَّبْي ، والنَّهْب ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجِعُون ، فالدَّولةُ الظَّالِمَة مع الأمْنِ وحَقْنِ الدِّماءِ ، ولا دَولَة عادِلَة تُنتَهك دُونَها المَحارمُ ، وأنَّىٰ لها العَدلُ ؟ بلْ أتَتْ دَولةٌ أعْجميَّة ، خُراسانيَّة ، جَبَّارَةٌ ، ما أشْبَهَ اللَّيلَة بالبَارِحَة[٢] .

٢ـ السُّلْطانُ بحاجَةٍ إلىٰ مَعُونَةِ وُزَراء مُخْلِصين :

عن الأحْنَفِ بنِ قَيْس ، قالَ : سَمعتُ خُطبَةَ أبي بَكْر وعُمَرَ والخُلفاء فما الكَلامُ من مَخْلوقٍ أفْخَم ولا أحْسَن من أُمِّ المؤمنينَ عائِشَة .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بنُ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٧ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٩ .

وعنه : لا يَتِمُّ السُّلطانُ إلاَّ بالوُزَراءِ والأعْوانِ ، ولا يَنْفَعُ الوُزَراءُ والأعْوانُ إلاَّ بالْمَوَدَّة والنَّصيحَة ، ولا تَنْفَعُ الْمَوَدَّةُ والنَّصيحَةُ إلاَّ بالرَّأي والعِفَّة[1] .

٣ـ قَاعِدَةٌ :

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمَنْصُورِ العَبَّاسِيِّ ، قالَ مُبارَكٌ الطَّبَرِيُّ : حَدَّثنا أبو عُبَيد الله الوَزيرُ ، سَمعَ الْمَنْصُورَ يَقولُ : الخَليفَةُ لا يُصْلِحُه إلاَّ التَّقوىٰ ، والسُّلطانُ لا يُصْلِحُه إلاَّ الطَّاعَة ، والرَّعِيَّةُ لا يُصْلِحُها إلاَّ العَدلُ ، وأوْلَى النَّاسِ بالعَفْوِ أقْدَرُهم على العُقوبَة وأنْقَصُ النَّاسِ عَقلاً مَنْ ظَلَمَ مَنْ هو دُونَه[2] .

٤ـ صُوَرٌ على السِّياسَة الشَّرعيَّة :

جاءَ في تَرجَمَةِ ثاني الرَّاشِدينَ ، أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، قالَ أسْلَمُ مَوْلىٰ عُمر : استعملَ عُمرُ مَوْلىً له على الحِمَىٰ فقال : يا هُنَيّ اضْمُم جَناحَك عن الْمُسلمينَ ، واتَّقِ دَعْوَ الْمَظلوم فإنَّها مُسْتَجابَة ، وأدْخِلْ ربَّ الصُّريمَةِ والغُنَيْمَةِ ، وإيَّايَ ونِعَمِ ابنِ عَوْفٍ ونِعَم ابنِ عَفَّانَ فإنَّهُمَا إنْ تَهْلَكْ ماشِيَتُهما يَرْجِعَانِ إلىٰ زَرْعٍ وَنَخْلٍ ، وإنَّ ربَّ الصُّريمَةِ والغُنَيْمَةِ إنْ تَهْلَكْ ماشِيَتُهُما يأتِيني ببَنِيهِ فيقولُ : يا أميرَ المؤمنينَ! أفَتارِكُهُم أنا لا أبَا لَكَ! فَالْمَاءُ والْكَلأُ أيْسَرُ عليَّ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وايمُ الله إنَّهم ليَرَوْنَ أنِّي قَد ظَلمتُهم ، إنَّها لبلادُهم قاتَلوا عليها في الجَاهِلِيَّة وأسْلَموا عليها في الإسْلامِ ، والذي نَفْسِي بيدِه لَوْلا الْمَالُ الذي أحْمِلُ عَليه في سَبيل الله ما حَمَيتُ عَليهم من بلادِهم شِبْراً[3] .

وعن زَيْدِ بنِ أسْلم ، عن أبيه قالَ : لَمَّا كانَ عَامُ الرَّمادَة جاءَت العَرَبُ من كلِّ ناحيَةٍ فقَدِموا الْمَدينَةَ ، فكانَ عُمَرُ قد أمَرَ رجالاً يَقُومون بمَصَالِحِهم ، فسَمِعتُه يَقولُ لَيلَةً : « أُحْصُوا مَنْ يَتَعَشَّىٰ عِنْدَنَا » فأحْصُوهُم من القابِلَة فوَجَدُوهُم سَبْعَةَ آلافِ رَجُلٍ ،

---

(١) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٦/٤٥٣ .
(٢) انظر السير : (الْمَنْصُور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧٨ .
(٣) انظر السير : (عُمَرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/ ٥١ .

وأَحْصُوا الرِّجَالَ الْمَرْضَىٰ والعِيالاتِ فكانوا أرْبَعينَ ألْفاً ثم بعدَ أيَّام بَلَغَ الرِّجالُ والعِيالُ سِتِّينَ ألْفاً ، فمَا بَرِحُوا حَتَّىٰ أرْسَلَ اللهُ السَّماءَ ، فلَمَّا مَطُرَتْ رَأيتُ عُمرَ قد وَكَّلَ بهم مَنْ يُخْرِجُونَهم إلى البَادِيَة ويُعْطُونَهُم قُوتاً وحِمْلاناً إلىٰ بادِيَتِهم ، وكانَ قد وَقَعَ فيهم الْمَوْتُ فأرَاهُ مَاتَ ثُلُثاهم ، وكانت قُدُورُ عُمَرَ تَقومُ إليها العُمَّالُ من السَّحَر يَعمَلونَ العَصَائدَ[1] .

وقالَ عُمرُ وهو يُحْتَضَرُ : أُوصِي الخَليفَةَ مِنْ بَعْدي بتَقوَى اللهِ ، وأُوصِيهِ بالْمُهَاجِرينَ والأنْصَارِ ، وأُوصِيهِ بأهْلِ الأمْصَارِ خَيْراً ، في مثل ذلكَ من الوَصيَّة .

فلمَّا تُوفِّيَ خَرجْنا به نَمْشي ، فسلَّمَ عبدُ الله بنُ عُمرَ وقالَ : عُمَرُ يَسْتأذنُ ، فقالَتْ عائشَةُ : أدْخِلوهُ ، فأُدْخِلَ فوُضِعَ هُناكَ مع صَاحِبَيه[2] .

* * *

(١) انظر السير : (عُمَرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٢ .

(٢) انظر السير : (عُمَرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٥ .

(١) الأَمِيرُ والإِمَارَة

١ـ عَدَمُ الافْتِتان بالأَمِير :

قال ابنُ عَوْن : وَلِيَ عُمَرُ ، فقال : لأَنْزِعَنَّ خالداً ـ يَعنِي ابنَ الوَلِيد ـ حتّىٰ يُعْلَمَ أنَّ اللهَ إنَّما يَنْصُرُ دِينَه ـ يَعنِي بغَيْرِ خالد ـ[١] .

٢ـ الإِمَارةُ تكليف ولَيسَت تَشْرِيفاً :

قال عُبَيْدُ الله بنُ عُمرَ : خَطبَهم عُمرُ بنُ عبد العَزيز ، فقالَ : لَسْتُ بخَيرِ أحدٍ منكم ، ولكنِّي أثقَلُكم حِمْلاً[٢] .

وعن عطاءَ بنِ أبي رَباح ، قال : حَدَّثتني فاطِمَةُ امرأةُ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز أنَّها دَخلَت عليه ، فإذا هو في مُصَلاَّه يده علىٰ خَدِّه ، سائلَة دُموعُه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ألشَيء حَدَث ؟ قالَ : يا فاطِمَةُ! إنِّي تَقلَّدتُ أمْرَ أُمَّةِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتَفكَّرتُ في الفَقيرِ الجائعِ ، والْمَريضِ الضَّائعِ ، والعَاري الْمَجْهودِ ، والْمَظْلوم الْمَقْهورِ ، والغَريبِ الْمأسُورِ ، والكَبيرِ ، وذِي العِيالِ في أقْطارِ الأرْضِ ، فعَلمتُ أنَّ ربِّي سَيسْألُني عنهم ، وأنَّ خَصْمَهم دُونَهم مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فخَشيتُ ألاَّ تثبُتَ لي حُجَّةٌ عند خُصومَتِه ، فرَحِمْتُ نَفسي فبَكيتُ[٣] .

٣ـ الخَوفُ من تَبِعَة الإِمَارَة :

قال سعيد بنُ المُسيِّب : إنَّ عُمرَ بنَ الخطَّاب لَمَّا نفرَ من مِنَىٰ أناخَ بالأبْطحِ ثم كَوَّمَ كَوْمَةً من بَطْحاء واسْتلقَىٰ ورَفعَ يَدَيه إلى السَّماءِ ، ثم قالَ : « اللَّهُمَّ كبُرَت سِنِّي

---

(١) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/٣٦٦ـ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/٩٧١ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٨ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٨٩ .

وضَعُفَتْ قُوَّتي وانْتَشَرَتْ رَعيَّتي فاقْبِضْني إليكَ غيرَ مُضيِّع ولا مُفرِّط » فما انْسَلخَ ذُو الحِجَّة حتىٰ طُعِنَ فمات[1] .

دعا عُمرُ أبا هُرَيْرَةَ ليُوَلِّيه القَضاءَ فأبىٰ فقال : تَكْرَهُ العَملَ ، وقد طَلبَ العَملَ مَنْ كانَ خَيراً مِنكَ : يُوسُفُ ! فقالَ : يُوسُفُ نَبيٌّ ابنُ نَبيٍّ ابنِ نَبيٍّ وأنا أبو هُرَيْرَةَ ابنُ أُمَيْمَة ، وأخْشَىٰ ثَلاثاً واثنَتين قالَ : فهَلاً قُلتَ : خَمساً ؟ قالَ : أخْشَىٰ أنْ أقُولَ بغَيرِ عِلمٍ ، وأقْضِيَ بغَيرِ حِلمٍ ، وأنْ يُضرَبَ ظَهْري ، ويُنْتَزَعَ مالي ويُشْتمَ عِرْضي .

ثم قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : كانَ أبو هُرَيْرَةَ طَيِّبَ الأخْلاقِ رُبَّما نابَ في المَدينَةِ عن مَرْوانَ أيضاً[2] .

وعن عطاءَ بنِ أبي رَباح ، قال : حَدَّثتني فاطِمَةُ أمرأةُ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيز أنَّها دَخلَت عليه ، فإذا هو في مُصَلاَّه يده علىٰ خَدِّه ، سائلَة دُموعُه ، فقُلتُ : يا أميرَ المؤمنين! ألشَيء حَدَث ؟ قالَ : يا فاطِمَةُ! إنِّي تَقلَّدتُ أمْرَ أُمَّةِ مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، فتَفكَّرتُ في الفَقيرِ الجائعِ ، والْمَريضِ الضَّائعِ ، والعَاري الْمَجْهودِ ، والْمَظْلوم الْمَقْهورِ ، والغَريبِ الْمأسُورِ ، والكَبيرِ ، وذِي العِيالِ في أقْطارِ الأرْضِ ، فعَلمتُ أنَّ رَبِّي سَيسْألُني عنهم ، وأنَّ خَصْمَهم دُونَهم مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم فخَشيتُ ألاَّ تَثبُتَ لي حُجَّةٌ عند خُصومَتِه ، فرَحِمْتُ نَفسي فبَكيتُ[3] .

٤ـ احْتِمالُ هَنَّات الأمير إذا كان له مَحاسِن تُغَطِّي عليها :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ صاحِبِ الأنْدَلُسِ النَّاصِرِ لدينِ الله : وقد كُنتُ ذَكَرتُ تَرجَمَتَه مع جَدِّهم ، فأعَدْتُها بزَوائِدَ وفَوائِدَ ، وإذا كانَ الرَّأسُ عَاليَ الهِمَّةِ في الجِهَادِ ، احْتُمِلَتْ له هَنَّاتٌ ، وحِسَابُه على الله أمَّا إذا أمَاتَ الجِهَادَ ، وظَلَمَ العِبَادَ ، وللخَزائِنِ أبَادَ ، فإنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٣/١ .

(٢) انظر السير : (أبو هُرَيْرَة) ٥٧٨/٢ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٣١٣/١ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ١١٤/٥ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/٣ .

(٤) انظر السير : (صاحب الأندلس) ٥٦٢/١٥ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ١٢٥٩/٢ .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الخَليفَةِ العَبَّاسيِّ الْمُسْتَنْجِدِ بالله : الإمامُ إذا كان له عَقلٌ جَيِّد ودينٌ مَتينٌ ، صَلحَ به أمْرُ الْمَمالِك فإنْ ضَعُفَ عَقلُه ، وحَسُنَت ديانَتُه ، حَمَلهُ الدِّينُ علىٰ مُشاوَرَة أهْلِ الحَزْمِ ، فَتسدَّدَت أمُورُه ومَشَت الأحْوالُ ، وإنْ قلَّ دينُه ، ونَبُلَ رَأيُه ، تَعبَتْ به البِلادُ والعِبادُ وقد يَحمِلُه نُبلُ رَأيه علىٰ إصْلاحِ مُلكِه ورَعيَّتِه للدُّنيا لا للتَّقوىٰ ، فإنْ نَقَصَ رَأيُه ، وقَلَّ دينُه وعَقلُه ، كثُرَ الفَسادُ ، وضاعَت الرَّعيَّة ، وتَعبُوا به ، إلاَّ أنْ يَكونَ فيه شَجاعَةٌ وله سَطْوَةٌ وهَيْبَة في النُّفوسِ ، فيَنْجَبِرُ الحالُ ، فإنْ كان جَباناً قليلَ الدِّينِ ، عَديمَ الرَّأيِ ، كَثيرَ العَسْفِ ، فقد تَعرَّضَ لبَلاء عاجِل ، ورُبَّما عُزلَ وسُجنَ إنْ لَمْ يُقتَل ، وذَهبَت عنه الدُّنيا ، وأحاطَت به خَطاياهُ ونَدِمَ ـ والله ـ حَيثُ لا يُغني النَّدَمُ ، ونحنُ آيسُونَ اليومَ من وُجودِ إمَامٍ راشِدٍ من سَائرِ الوُجُوه ، فإنْ يَسَّرَ اللهُ للأُمَّة بإمامٍ فيه كثرةُ مَحاسِنٍ وفيه مَساوىءُ قَليلةٌ ، فمَنْ لنَا به ، اللَّهُمَّ فأصْلِحْ الرَّاعي والرَّعيَّة وارْحَمْ عبادَك ، ووَفِّقهم ، وأيِّد سُلطانَهم ، وأعِنْهُ بتَوفيقِك[1] .

٥ـ تَقْديمُ الفَاضل وتأخيرُ المَفْضُول :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمرَ بنِ الخَطَّاب رضي الله عنه : قالَ القاسِمُ ابنُ مُحمَّد : قال عُمرُ : « ليَعْلمَ مَنْ وَليَ هـٰذا الأمْرَ مِنْ بَعْدي أنْ سَيريدُه عنه القَريبُ والبَعيدُ ، إنِّي لأُقاتِلُ النَّاسَ عَنْ نَفسِي قِتالاً ، ولَوْ عَلِمتُ أنْ أحَداً أقْوىٰ عليه مِنِّي لَكنْتُ أنْ أُقدَّمَ فَتُضْرَبُ عُنُقي أحبُّ إليَّ من أنْ أَلِيَه »[2] .

٦ـ ولايَةُ المَفْضُول مع وُجود الفَاضِل :

جاءَ في تَرجَمَةِ مُعاويَةَ بنِ أبي سُفْيانَ ، قالَ خَليفَة : جَمعَ عُمَرُ الشَّامَ كلَّها لِمُعاويَة ، وأقَرَّه عُثمانُ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : حَسبُكَ بمَنْ يُؤمِّره عُمَرُ ، ثم عُثمانُ علىٰ إقْليمٍ ـ وهو ثَغْرٌ ـ فيَضبِطُه ويَقومُ به أتمَّ قيام ، ويُرضِي النَّاسَ بسَخَائه وحِلمِه ، وإنْ كانَ بَعضُهم تألَّمَ مَرَّة

(١) انظر السير : (الْمُسْتَنْجد بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٥٧٠/٤ .
(٢) انظر السير : (عُمرَ بنِ الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/٤٦ .

منه وكذلك فليَكُن الْمُلكُ ، وإنْ كانَ غَيرُه من أصْحابِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَيراً منه بكَثير وأفْضلَ وأصْلَحَ ، فهٰذا الرَّجُلُ سادَ ، وساسَ العالَمَ بكَمالِ عَقلِه وفَرْطِ حِلمِه ، وسَعَةِ نَفسِه ، وقُوَّة دَهائه ، ورَأيه وله هَنَّاتٌ وأمُورٌ ، واللهُ الْمَوْعِد .

وكان مُحبَّباً إلىٰ رَعيَّته عَملَ نيابَة الشَّامِ عِشرينَ سَنةً ، والخِلافَة عِشرينَ سَنةً ، ولَمْ يَهجُهُ أحَدٌ في دَولتِه ، بَلْ دانَت له الأُمَمُ ، وحَكمَ على العَرَبِ والعَجَمِ ، وكان مُلكُه على الحَرمَين ، ومِصْرَ ، والشَّام ، والعِراقِ ، وخُراسَانَ ، وفارِسَ ، والجَزيرَة ، واليَمَن ، والْمَغرِب ، وغَيرِ ذلك[1] .

وعن الشَّعْبيِّ ، قالَ : لَمَّا قَدمَ مُعاويَة المَدينَةَ عامَ الجَماعَة تَلقَّتهُ قُريشٌ فقالوا : الحَمدُ لله الذي أعزَّ نَصْرَكَ وأعْلَىٰ أمْرَكَ ، فسَكتَ حتىٰ دَخلَ المَدينَةَ وعَلا الْمِنْبَرَ ، فحَمدَ اللهَ ، وقالَ : أمَّا بَعدُ ، فإنِّي والله وَليتُ أمرَكم حينَ وَليتُه وأنا أعْلَمُ أنَّكم لا تُسَرُّون بولايَتي ولا تُحبُّونَها ، وإنِّي لعالم بما في نُفوسِكم ، ولكنْ خالَسْتُكم بسَيفي هٰذا مُخالَسَة ، ولقد أرَدتُ نَفسي علىٰ عَملِ أبي بَكْر وعُمَرَ ، فلَمْ أجِدْها تَقومُ بذلك ، ووَجَدتُها عن عَمَلِ عُمَرَ أشَدَّ نُفُوراً ، وحاوَلتُها علىٰ مثل سُنَيَّاتِ عُثمانَ ، فأبَتْ عليَّ ، وأينَ مثلُ هَؤلاء ، هَيْهاتَ أنْ يُدرِكَ فَضلُهم ، غيرَ أنِّي سَلكتُ طَريقاً لي فيه مَنْفَعةٌ ، ولَكُم فيه مثلُ ذلك ، ولِكُلٍّ فيه مُواكَلَةٌ حَسَنةٌ ومُشارَبَةٌ جَميلَةٌ ما اسْتقامَت السِّيرَةُ ، فإنْ لَمْ تَجدُوني خَيرَكم فأنا خَيرٌ لَكُم ، واللهِ لا أحْمِلُ السَّيفَ علىٰ مَنْ لا سَيفَ مَعَه ، ومَهْما تَقدَّمَ مِمَّا قد عَلِمتُموه ، فقد جَعلتُه دُبُرَ أُذُنَيَّ ، وإنْ لَمْ تَجدُوني أقُومُ بحَقِّكُم كُلِّه ، فارْضَوا ببَعْضِه ، فإنَّها لَيسَتْ بقائِبَةٍ[2] قُوبُها[3] ، وإنَّ السَّيلَ إنْ جاءَ تَتْرَىٰ - وإنْ قَلَّ - أغْنَىٰ ، وإيَّاكُم والفِتنَةَ ، فلا تَهمُّوا بها فإنَّها تُفسِدُ المَعيشَةَ وتُكدِّرُ النِّعْمَةَ ، وتُورِثُ الاسْتئصالَ وأسْتَغفِرُ اللهَ لي ولَكُم ثم نَزلَ[4] .

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٥٠ .
(٢) « القائبَةُ » : البَيْضَة .
(٣) « القُوبُ » : الفَرْخُ ، يُقالُ قابَت البَيْضَةُ : إذا انْفَلَقَت عن الفَرْخ .
(٤) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣٥٣ .

وعن ثابتٍ مَوْلَىٰ سُفيانَ قال : سَمعتُ مُعاويَةَ وهو يَقولُ : إنِّي لَستُ بخَيرِكُم ، وإنَّ فيكُم مَنْ هو خَيرٌ مِنِّي : ابنُ عُمَرَ ، وعَبدُ اللهِ بنُ عَمْرو وغَيرُهما ولَكنِّي عَسيتُ أنْ أكُونَ أنْكاكُم في عَدوِّكُم ، وأنْعَمَكُم لكُم وِلايَةً وأحْسَنَكُم خُلُقاً[1] .

٧ـ عَدَمُ الأنَفَة من مَسْؤولٍ صَغير السِّن :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي أيُّوبَ الأنْصاريِّ رضي الله عنه ، عن أيُّوبَ ، عن مُحمَّدٍ قال : شَهِدَ أبو أيُّوبَ بَدْراً ، ثم لَمْ يَتَخَلَّفْ عن غَزَاةٍ إلاَّ عاماً ، اسْتُعمِلَ على الجَيشِ شَابٌّ ، فقَعَدَ ، ثم جَعَلَ يَتَلَهَّفُ ، ويقولُ : ما عليَّ مَنْ اسْتُعمِلَ عليَّ فمَرِضَ ، وعلى الجَيشِ يَزِيدُ بنُ مُعاوِيَة ، فأتاه يَعُودُه ، فقال : حاجَتُكَ ؟ قال : نَعَم إذا أنا مِتُّ ، فارْكَبْ بِي ، ثم تَبَيَّغْ[2] في أرضِ العَدُوِّ ما وَجدتَ مَسَاغاً ، فإذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً ، فادْفِنِّي ، ثم ارْجِع .

فلمَّا ماتَ رَكبَ به ، ثمَّ سارَ به ، ثم دَفَنَه ، وكان يقولُ : قالَ الله : ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾[3] لا أجدُني إلاَّ خَفيفاً أو ثَقيلاً .

قالَ الواقِديُّ : تُوفِّيَ عامَ غَزا يَزيدُ في خِلافَةِ أبيه القُسْطَنْطينيَّةَ ، فلقد بلَغَني : أنَّ الرُّومَ يَتعاهَدونَ قَبْرَه ، ويَرُمُّونَه ، ويَسْتَقونَ به ، وذَكَرَه عُرْوَةُ والجَماعَةُ في البَدْريِّين .

وقال ابنُ إسْحاقَ : شَهِدَ العَقَبَةَ الثَّانية .

وقالَ الخَطيبُ : شَهِدَ حَربَ الخَوارِجِ مع عَليٍّ[4] .

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣٥٤ .

(٢) قوله : (ثم تَبيّغ) كذا الأصل ، وقد أثبت فوق الكلمة (صح) ، يُقال : تَبيّغ به الدم ، أي : تردّد فيه الدم ، وتَبيّغ الماء إذا تردّد فتحيّر في مجراه مرةً كذا ، ومرةً كذا ، وفي « الطبقات » ، و« النهاية » ، و« أسد الغابة » ، و« تهذيب » ابن عساكر ، (ثم = سغ) ، وفسّره ابن الأثير فقال : أي ادخل فيها ما وجدت مدخلاً ، وساغت به الأرض ، أي : ساخت ، وساغ الشراب في الحلق يسوغ ، أي : دخل سهلاً .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٤١ .

(٤) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاريّ) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ٧/٢٨٢ .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ أُسامَةَ بنِ زَيْد : حِبُّ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومَوْلاهُ ، وابنُ مَوْلاهُ ، أبو زَيْد .

اسْتعْملَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ جَيشٍ لِغَزوِ الشَّام ، وفي الجَيْشِ عُمَرُ والكِبارُ ، فلَمْ يَسِرْ حتىٰ تُوفِّيَ رَسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فبادَر الصِّديقُ ببَعْثِهم ، فأغاروا علىٰ أُبنىٰ ، من ناحيةِ البَلْقاء .

وقِيلَ : إنَّه شَهِدَ يَومَ مُؤتَة مع والدِه وقد سَكنَ الْمِزَّةَ مُدَّة ، ثم رَجعَ إلى الْمَدينة فماتَ بها[١] .

وقال ابنُ عُمرَ : أمَّرَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أُسامَةَ ، فطَعَنوا في إمارَته ، فقال : « إنْ يَطْعَنُوا في إمَارَتِهِ ، فَقَدْ طَعَنُوا في إمَارَةِ أَبِيهِ ، وَايمُ اللهِ إنْ كانَ لَخَلِيقاً لِلإمَارَةِ ، وَإنْ كانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إلَيَّ ، وإنَّ ابْنَهُ هَـٰذا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إلَيَّ بَعْدَهُ » .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : لَمَّا أمَّره النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الجَيشِ ، كانَ عُمرُه ثَمانيَ عَشْرةَ سَنةً[٢] .

٨ـ الأميرُ العَادِلُ مع رَعيَّة فاسِدَة :

جاءَ في تَرجَمَةِ مُعاويَةَ بنِ أبي سُفْيان ، قال الواقِديُّ بعدَ أنْ ذَكرَ أمرَ التَّحْكيمِ بينَ عليٍّ ومُعاويَةَ : فلَمْ يَقع اتِّفاقٌ ورَجَعَ عَليٌّ إلى الكُوفَةِ بالدَّغَلِ[٣] من أصْحابه والاخْتِلافِ فخَرَجَ منهُم الخَوارِجُ ، وأنْكَرُوا تَحْكِيمَه ، وقالوا : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، ورَجَعَ مُعاويَةُ بالأُلْفَةِ والاجْتِماعِ ، وبَايَعَهُ أهْلُ الشَّام بالخِلافَةِ في ذي القِعْدَةِ سَنةَ ثَمانٍ وثلاثين .

ثمَّ اسْتُشْهِدَ عَليٌّ في رَمَضانَ سَنَةَ أرْبَعِينَ وصَالَحَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ مُعاوِيَةَ ، وبَايَعَهُ ، وسُمِّيَ عامَ الجَماعَةِ وحَجَّ بالنَّاسِ سَنَةَ خَمسينَ .

ثمَّ اعْتَمَرَ سَنةَ سِتٍّ وخَمسِينَ في رَجَبَ ، وكان بَينَه وبَينَ الحُسَيْنِ وابنِ عُمَرَ ، وابنِ

---

(١) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/٤٩٦ـ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ١/٢٩٥ .

(٢) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/٤٩٦ـ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٣/٢٩٦ .

(٣) الدغل : الفساد .

الزُّبَيْرِ ، وابنِ أبي بَكْرٍ ، كَلامٌ في بَيْعَةِ العَهْدِ لِيَزيدَ ، ثمَّ قال : إنِّي مُتكَلِّمٌ بكَلامٍ ، فلا تَرُدُّوا عَليَّ أَقْتُلْكُم ، فخَطَبَ ، وأظْهَرَ أنَّهم قد بَايَعُوا ، وسَكَتُوا ولَمْ يُنْكِروا ، ورَحَلَ علىٰ هـٰذا وادَّعَىٰ زِيادٌ أنَّه أخُوهُ فوَلاَّه الكُوفَة بعدَ المُغِيرَة ، فكَتَبَ إليه في حُجْرِ بنِ عَديّ وأصْحابِه ، وحَمَلَهم إليه فقتَلَهم بمَرْجِ عَذْراء ، ثمَّ ضَمَّ الكُوفَة والبَصْرَة إلىٰ زِيادٍ ، فمَاتَ ، فوَلاهُما ابنَه عُبَيْدَ الله بنَ زِياد[1] .

وعن مُحمَّدِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ الثَّقَفيِّ ، سَمعَ أبا صالِح يقول : شَهِدتُ عَليّاً وَضَعَ الْمُصْحَفَ علىٰ رَأسِه ، حتّىٰ سَمِعْتُ تَقَعْقُعَ الوَرَق فقالَ : اللَّهم إنِّي سَألْتُهم ما فيه ، فمَنَعوني ، اللَّهم إنِّي قد مَلَلْتُهم ومَلُّوني ، وأبْغَضْتُهُم وأَبْغَضُوني ، وحَملُوني علىٰ غَيرِ أخْلاقي ، فأبْدِلْهُم بي شَرّاً منِّي ، وأبْدِلْني بهم خَيراً منهم ، ومِثْ[2] قُلوبَهم مِيثَةَ الْمِلْحِ في المَاءِ[3] .

٩ـ اسْتِحْقاقات خَليفَة المسلمين من بَيتِ المَال :

قالَ عَطاءُ بنُ السَّائب : لَمَّا اسْتُخلِفَ أبو بَكر أصْبحَ وعلىٰ رَقَبتِه أثْوابٌ يتَّجِرُ فيها ، فلَقِيَهُ عُمرُ وأبو عُبَيْدَة فكلَّماه فقالَ : فمِنْ أينَ أُطعِمُ عِيالي ؟ قالا : انْطَلِقْ حتىٰ نَفْرِضَ لكَ ، قالَ : ففَرَضوا له كلَّ يومٍ شَطْرَ شاةٍ ، وماكَسُوهُ في الرَّأسِ والبَطْنِ ، وقالَ عُمرُ : إليَّ القَضاءُ ، وقالَ أبو عُبَيْدَة : إليَّ الفَيْءُ ، فقالَ : عُمرُ لَقد كان يأتي عليَّ الشَّهْرُ ما يَختَصِمُ إليَّ فيه اثْنانِ .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ سيرينَ كان أبو بَكر أعْبَرَ هـٰذه الأُمَّة لرُؤيا بعد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم .

وقالَ الزُّبَيْرُ بنُ بَكار عن بَعضِ أشْياخِه ، قالَ : خُطَباءُ الصَّحابَة : أبو بَكر ، وعَليٌّ[4] .

---

(١) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٥١ .

(٢) يُقالُ : مِثْتُ الْمِلْحَ في الماء إذا أذَبتُه .

(٣) انظر السير : (مُعاويَة بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/٣٥٢ .

(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخطّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٢٥ .

قالَ صاحبُ النُّزْهَة : انظُر إلىٰ هؤلاءِ الرِّجالِ ، ما أعْظَمَهم ، وما أعْظَمَ ما قعَّدوه من قَواعِدَ للحُكمِ سبقوا بها الغَرْبَ بقُرونٍ كَثيرة ، يُعطَىٰ خَليفَةُ المسْلمينَ نَصيبَه ، ويُجادِلونَ في أمْرِ رأسِ الشَّاةِ وبَطْنِها ، هل يَسْتحِقُّه أم لا ؟ إنَّ هَؤلاء همُ السَّادَةُ ، وهم فَخْرُ الأُمَم[1] .

وقالَ الأحْنَفُ بنُ قَيْس : سَمعتُ عُمرَ يَقولُ : لا يَحِلُّ لعُمرَ من مالِ اللهِ إلاَّ حُلَّتَينِ : حُلَّةٌ للشِّتاءِ وحُلَّةٌ للصَّيفِ ، وما حَجَّ به واعْتَمرَ ، وقُوتُ أهْلي كرَجُلٍ مِنْ قُرَيْش لَيسَ بأغْناهُم ، ثمَّ أنا رَجلٌ من المسلِمينَ .

وقالَ عُرْوَةُ : حَجَّ عُمرُ بالنَّاسِ إمارَتَهُ كُلَّها .

وقالَ ابنُ عُمرَ : ما رَأيتُ أحَداً قَطُّ بعدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ حينِ قُبِضَ أجدَّ ولا أجْوَدَ من عُمَر[2] .

وقالَ المَدائنيُّ : ولَمَّا فَتحَ اللهُ على المسْلمينَ غَنائمَ رُسْتُم ، وقَدِمَت علىٰ عُمَرَ الفُتوحُ من الشَّامِ والعِراقِ جَمَعَ المسْلمينَ فقالَ : ما يَحِلُّ للوَالي من هـٰذا المالِ ؟ قالوا : أمَّا لخاصَّتِه فقُوتُهُ وقُوتُ عِيالِه لا وَكْسَ ولا شَطَط ، وكِسْوَتُه وكِسْوَتُهم ، ودَابَّتانِ لجِهادِه وحَوائجِه ، وحَمالَتِه إلىٰ حَجِّه وعُمْرَتِه ، والقَسمُ بالسَّويَّة أن يُعْطي أهلَ البلادِ علىٰ قَدرِ بَلائهم ، ويَرُمَّ أمورَ المسْلمينَ ويَتَعاهَدَهم .

وفي القَومِ عليٌّ رضي الله عنه سَاكتٌ ، فقالَ : ما تَقولُ يا أبا الحَسَن ؟ فقالَ : ما أصْلَحَكَ وأصْلَحَ عِيالَكَ بالمَعْروفِ[3] .

وقِيلَ : إنَّ عُمرَ قَعَدَ علىٰ رِزْقِ أبي بَكر حتى اشْتدَّت حاجَتُه ، فأرادوا أنْ يَزيدُوه فأبَىٰ عليهم[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢٥/ هامش (٢) .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٧ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٥ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٥ .

١٠ـ مُمْتَلَكات الخَليفَة :

عن أبي بَكر بنِ حَفْص بن عُمَر : إنَّ عائشَةَ تَمثَّلت لَمّا احْتُضِرَ أبو بَكر :

لَعَمْـرُكَ مـا يُغْنِـي الثَّـرَاءُ عَـن الفَتَـى ... إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضَاقَ بِها الصَّدْرُ

فقالَ : لَيسَ كَذلكَ ، ولكنْ قُولي : ﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ ﴾[(١)] ، إنِّي نَحَلتُك حائطاً وإنَّ في نَفْسي منه شَيئاً فرُدِّيه على المِيراثِ ، قالَتْ : نَعَمْ ، قالَ : أمَا إنَّا مُنذُ وَلينا أمرَ المسلمينَ لَمْ نأكُل لَهم ديناراً ولا دِرْهَماً ، ولكنَّا أكَلْنا من جَريشِ[(٢)] طَعامِهم في بُطُونِنا ، ولَبِسْنا مِنْ خَشنِ ثَيابهم علىٰ ظُهُورِنا ، ولَيسَ عِندنا من فَيْءِ المسْلمينَ شَيءٌ إلاَّ هـٰذا العَبدُ الحَبَشيُّ وهـٰذا البَعيرُ النَّاضِحُ ، وجرد هـٰذه القَطيفَةَ[(٣)] ، فإذا مِتُّ فابْعَثي بِهِنَّ إلىٰ عُمرَ ، ففعَلتْ[(٤)] .

وقال القاسمُ ، عن عائشَةَ : إنَّ أبا بَكر حين حَضرَه الموتُ قال : إنِّي لا أعْلمُ عندَ آلِ أبي بَكر غيرَ هـٰذه اللقحَة وغيرَ هـٰذا الغُلام الصَّيقل ، كان يَعملُ سُيوفَ المسلمين ويَخْدمُنا ، فإذا مِتُّ فادْفَعيه إلىٰ عُمَرَ ، فلمَّا دفَعْتُه إلىٰ عُمَر ، قال عُمَرُ : رَحِمَ اللهُ أبا بَكر لقَد أتْعَبَ مَنْ بَعدَه .

وقال الزُّهريُّ : أوْصَىٰ أبو بَكر أنْ تُغَسِّلَه امْرأتُه أسْماءَ بنتُ عُمَيْس ، فإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ اسْتعانَت بابنِه عبد الرَّحمَـٰن[(٥)] .

١١ـ الشُّورَىٰ :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي بَكر رضي الله عنه ، قالَ الوَاقِديُّ : إنَّ أبا بَكر لَمَّا ثَقُلَ عليه دَعا عبدَ الرحمَـٰن بنَ عَوْف فقالَ : أخْبِرْني عن عُمَرَ ، فقالَ : ما تَسْألُني عن أمْرٍ إلاَّ وأنتَ أعْلَمُ به منِّي ، قالَ : وإنْ ، فقالَ : هو والله أفْضَلُ مِنْ رَأيك فيه ، ثمَّ دَعا عُثْمانَ فسَألَه

---

(١) سورة ق ، الآية : ١٩ .

(٢) أي : خَشن طعامهم .

(٣) أي : التي انجرد حملها وخلقت .

(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٧ .

(٥) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٨ .

عن عُمَرَ ، فقالَ : عِلْمي فيه أنَّ سَريرَتَه خيرٌ مِنْ عَلانيَتِه ، وأنَّه لَيسَ فينا مِثْله ، فقالَ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، واللهِ لَوْ تَرَكْتُه ما عَدَوْتُك ، وشَاوَرَ مَعَهما سَعيدَ ابنَ زَيْد ، وأُسَيْدَ بنَ حُضَيْر ، وغَيرَهما فقالَ قائلٌ : ما تَقولُ لِرَبِّكَ إذا سَألَكَ عن اسْتِخْلافِكَ عُمرَ ، وقد تَرَىٰ غِلْظَتَه ؟ فقالَ : أَجْلِسوني ، أَباللهِ تُخوِّفوني ؟! أقولُ : اسْتَخْلَفتُ عليهم خَيْرَ أهلِك .

ثمَّ دَعا عُثْمانَ فقالَ : اكتُبْ :

بِسْمِ اللهِ الرحْمَـٰنِ الرَّحيمِ ، هـٰذا ما عَهِدَ أبو بَكر بنُ أبي قُحافَة في آخِرِ عَهْدِه بالدُّنيا خارِجاً منها ، وعندَ أوَّلِ عَهْدِه بالآخِرَةِ داخِلاً فيها ، حيثُ يُؤمِنُ الكافِرُ ، ويُوقِنُ الفاجِرُ ، ويُصَدِّقُ الكاذِبُ ، إنِّي اسْتَخْلَفتُ عَليكُم من بَعْدي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، فاسْتَمِعوا له وأطيعُوا ، وإنِّي لَمْ آلُ[1] اللهَ ورَسُولَه ودينَه ونَفْسي وإيَّاكُم خَيراً ، فإنْ عَدَلَ فذلكَ ظَنِّي به وعِلْمي فيه ، وإنْ بَدَّلَ فلُكلِّ امْرِئٍ ما اكْتَسَبَ ، والخَيرَ أرَدْتُ ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2] ، [3] .

وقالَ مَعْدانُ بنُ أبي طَلْحَة اليَعْمُريّ : خَطَبَ عُمَرُ يومَ الجُمُعَة وذَكَرَ نَبيَّ اللهِ وأبا بَكر ثم قالَ : رأيتُ كأنَّ دِيكاً نَقَرَني نَقْرَةً أوْ نَقْرَتَينِ ، وإنِّي واللهِ لا أراه إلاَّ حُضورُ أجَلي ، وإنَّ قَوْماً يأمُروني أنْ أسْتَخْلِفَ ، وإنَّ اللهَ لَمْ يَكنْ لِيُضيعَ دينَه ولا خِلافَتَه فإنْ عَجَّل بي أمرٌ فالخِلافَة شُورَىٰ بين هَؤلاء السِّتَّة الذين تُوفِّيَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ .

وقالَ الزُّهْريُّ : كانَ عُمَرُ لا يأذَنُ لسَبيٍ قد احْتَلَمَ في دُخولِ المَدينَة حتىٰ كتبَ المُغيرَةُ بنُ شُعْبَة ، وهو على الكُوفَة ، يَذْكُرُ غُلاماً عندَه صَنِعاً[4] ، ويَستأذنُه أن يَدخُلَ المدينَةَ ويقولُ : إنَّ عنده أعْمالاً كثيرة فيها منافعُ للنَّاسِ : إنَّه حدَّادٌ ، نَقَّاشٌ ، نَجَّارٌ ، فأذِنَ له أن يُرسلَ به ، وضرَبَ عليه المُغيرَةُ مائة دِرْهَم في الشَّهرِ ، فجاء إلىٰ عُمَرَ

---

(١) لم أقصِّر .
(٢) سورة الشُّعَراء ، الآية : ٢٢٧ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٦/٥ .
(٤) صَنِعاً : حاذق .

يَشْتكي شِدَّةَ الخَراجِ ، قالَ : ما خَراجُك بكَثير ، فانْصَرفَ ساخِطاً يَتذَمَّرُ ، فلَبثَ عُمَرُ لَياليَ ثم دَعاه فقالَ : أَلَمْ أُخبَر أنَّك تقولُ : لَوْ شاءَ لَصَنعتُ رَحىً تطحَنُ بالرِّيح ؟ فالْتَفَتَ إلىٰ عُمَرَ عابِساً وقالَ : لأصْنَعَنَّ لك رَحىٰ يَتحدَّثُ النَّاسُ بها ، فلمَّا وَلَّىٰ قالَ عُمَرُ لأصْحابِه : أوْعَدَني العَبْدُ آنِفاً ، ثم اشْتَمَلَ أبو لُؤلُؤة علىٰ خِنْجَر ذي رأسَين نِصابُه في وَسَطه ، فكَمنَ في زاويَة من زَوايا المَسْجِد في الغَلَسِ .

وقالَ عَمْرو بنُ مَيْمون الأودي : إنَّ أبا لُؤلُؤةَ عبدَ المُغيرَة طَعَنَ عُمَرَ بخِنْجَر له رأسان ، وطَعَنَ معه اثنَي عَشرَ رَجُلاً ، ماتَ منهم سِتَّةٌ فألْقَىٰ عليه رَجلٌ من أهْلِ العِراقِ ثَوْباً ، فلمَّا اغْتمَّ فيه قَتلَ نَفسَه .

وقالَ عامِرُ بنُ عبد الله بنِ الزُّبَيْر ، عن أبيه قالَ : جِئتُ من السُّوقِ وعُمَرُ يَتَوَكَّأُ عليَّ ، فمرَّ بنا أبو لُؤلُؤة ، فنظَرَ إلىٰ عُمَرَ نَظْرَةً ظَنَنْتُ أنَّه لَوْلا مَكاني لبَطَشَ به ، فجئتُ بعد ذلك إلى المَسْجِدِ الفَجْرَ فإنِّي لَبينَ النَّائمِ واليَقْظانِ ، إذ سَمعتُ عُمرَ يَقولُ : قَتلَني الكَلبُ ، فماجَ النَّاسُ ساعَةً ، ثم إذا قِراءَةُ عبد الرَّحْمَـٰنِ بن عَوْفٍ .

وعن أبي رافِع : كانَ أبو لُؤلُؤةَ عَبداً للمُغيرَة يَصْنَعُ الأرْحاءَ ، وكان الْمُغيرَةُ يَسْتغِلُّه كلَّ يومٍ أرْبَعَةَ دَراهِم ، فلَقيَ عُمَرَ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ الْمُغيرَةَ قد أثْقَلَ عليَّ فكَلِّمْه ، فقالَ : أحْسِنْ إلىٰ مَوْلاكَ ، ومن نيَّةِ عُمَرَ أنْ يُكلِّمَ الْمُغيرَةَ فيه ، فغَضبَ وقالَ : يَسَعُ النَّاسَ كُلَّهم عَدْلُه غَيري ، وأضْمَرَ قَتلَه ، واتَّخَذَ خِنْجَراً وشحذه وسمه ، وكان عُمَرُ يَقُولُ : « أَقِيمُوا صُفُوفَكُم » قَبْلَ أنْ يُكَبِّرَ ، فجَاءَ فقامَ حِذاءَه في الصَّفِّ وضَربَه في كَتِفِه وفي خاصِرَته ، فسَقطَ عُمَرُ ، وطَعَنَ ثَلاثَة عَشَرَ رَجُلاً معه ، فماتَ منهم سِتَّةٌ ، وحُملَ عُمَرُ إلىٰ أهْلِه وكادَت الشَّمسُ أنْ تَطلُعَ ، فصَلَّى ابنُ عَوْفٍ بالنَّاسِ بأقْصَرِ سُورَتَين ، وأُتيَ عُمَرُ بنَبيذٍ فشَربَه فخَرَجَ من جُرْحِه فلَمْ يُتَبيَّن ، فسَقَوْه لَبَناً فخَرجَ من جُرْحِه فقالُوا : لا بَأسَ عَليكَ ، فقالَ : إنْ يَكُنْ بالقَتلِ بأسٌ فقد قُتلتُ ، فجَعلَ النَّاسُ يُثْنونَ عليه ويَقولُون : كُنتَ وكُنتَ ، فقالَ : أمَا والله وددْتُ أنِّي خَرجْتُ منها كِفافاً لا عَليَّ ولا لِي ، وأنَّ صُحبَة رَسُولِ الله سَلِمَت لي(١) .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٣ .

وقالَ سالمُ بنُ عبد الله ، عن أبيه قالَ : دَخلَ علىٰ عُمَرَ عُثمانُ ، وعَليٌّ ، والزُّبَيرُ ، وابنُ عَوْف ، وسَعْدٌ ـ وكان طَلْحَةُ غائباً ـ فنَظَرَ إليهم ثم قالَ : إنِّي قد نَظرتُ لكم في أَمْرِ النَّاسِ فلمْ أجدْ عند النَّاسِ شِقاقاً إلاَّ أنْ يَكونَ فيكم ، ثم قالَ : إنَّ قَومَكم إمَّا يُؤمِّروا أحدَكم أيُّها الثلاثَة ، فإن كُنتَ علىٰ شيءِ من أمر النَّاس يا عُثمانُ فلا تَحْمِلَنَّ بَني مُعَيْط علىٰ رِقابِ النَّاسِ ، وإنْ كُنْتَ علىٰ شيءِ من أمرِ النَّاس يا عَليُّ فلا تَحمِلَنَّ أقَارِبَك علىٰ رِقابِ النَّاسِ قوموا فتَشاوَروا وأمِّروا أحَدَكم ، فقاموا يَتَشاوَرون[1] .

قالَ ابنُ عُمَر : فدَعاني عُثْمانُ مرَّةً أو مرَّتَين ليُدخِلَني في الأمْر ، ولم يُسمِّني عُمَرُ ، ولا واللهِ ما أُحبُّ أنِّي كُنتُ معهم علماً منه بأنَّه سَيكونُ مِنْ أمْرِهم ما قَالَ أبي ، واللهِ لقَلَّما سَمعتُه حَوَّلَ شَفَتيه بشَيءٍ قَطُّ إلاَّ كان حقَّاً ، فلمَّا أكْثرَ عُثمانُ دُعائي قُلتُ : ألا تَعْقلونَ! تُؤمِّرونَ وأميرُ المؤمنين حَيٌّ! فوالله لكأنَّما أيقَظتُهم ، فقالَ عُمَرُ : أمْهِلوا فإنْ حَدَثَ بي حَدثٌ فليُصَلِّ للنَّاسِ صُهَيبٌ ثلاثاً ثم اجْمَعوا في اليَومِ الثَّالثِ أشْرافَ النَّاس وأُمَراءَ الأجْنادِ فأمِّروا أحَدَكم ، فمَنْ تأمَّرَ من غَيرِ مَشورَةٍ فاضْرِبوا عُنُقَه[2] .

عن السَّائبِ بنِ الأقْرع قال : زَحفَ للمسلين زَحْفٌ لم يُرَ مثلُه قطّ ، رَجفَ له أهلُ ماهَ وأهلُ أصْبَهان ، وأهلُ هَمَذان والريّ وقومس ونَهاوَنْدَ وأذَرْبيجانَ ، قال : فبَلغَ ذلك عُمَرُ فشاوَرَ المسلمين ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : أنت أفْضَلُنا رأياً وأعلَمُنا بأهلك فقال : لأسْتَعملَنَّ على النَّاسِ رجلاً يكون لأول أسِنَّة يلقاها ، يا سائبُ اذهبْ بكتابي هـٰذا إلى النُّعْمان بن مُقَرِّن ، فليَسِرْ بثلثي أهل الكُوفَة ، وليَبْعَث إلىٰ أهل البَصْرَة ، وأنت علىٰ ما أصابوا من غَنيمَة ، فإنْ قُتِلَ النُّعمانُ فحُذَيْفَةُ الأميرُ ، فإن قُتِلَ حُذَيْفَةُ فجَريرُ بنُ عبد الله ، فإن قُتِلَ ذلك الجَيشُ فلا أراك[3] .

ورَوَىٰ عَلْقَمةُ بنُ عبد الله المُزنيّ ، عن مَعْقلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمَرَ شَاوَرَ الهُرْمُزَانَ في أصْبَهانَ وفارِسَ وأذْربيجانَ بأيّتهن يبدأ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين أصْبَهانُ : الرَّأسُ

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٦ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٥٦ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٣ .

وفَارِسُ وأذْرَبيجانُ : الجَناحانُ ، فإن قُطعَ أحدُ الجَناحَين مالَ الرَّأسُ بالجَناحِ الآخَر ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقَعَ الجَناحَان ، فدخلَ عُمَرُ المسجدَ فوجدَ النُّعْمانَ بنَ مُقَرِّن يُصلِّي فسَرَّحَهُ وسرَّحَ معه الزُّبَيرَ بنَ العَوَّام ، وحُذَيفَة بنَ اليمان ، والمُغيرَةَ بنَ شُعْبَة ، وعَمرو بنَ مَعْد يَكرب ، والأشْعَثَ بنَ قَيْسَ ، وعبدَ الله بنَ عُمر ، فسارَ حتىٰ أتىٰ نَهاوَنْدَ ، فذَكرَ الحديثَ إلىٰ أنْ قالَ النُّعْمانُ لمَّا التقى الجَمعانِ : إنْ قُتلتُ فلا يُلْوي عليَّ أحدٌ ، وإنِّي داعٍ بدَعْوَةٍ فأمِّنُو[1] .

وقالَ حُميدُ بنُ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ عَوْف : أخْبَرَني المِسْوَرُ أنَّ النَّفَرَ الذين ولاَّهُم عُمَرُ اجْتَمَعوا فتَشَاوَروا ، فقالَ عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ عَوْف : لَسْتُ بالذي أُنافِسُكم هـٰذا الأمْرَ ، ولكنْ إنْ شِئتُم اخْتَرتُ لكم منكم ، فجعلوا ذلك إلىٰ عبد الرحمـٰن ، قال : لا يَخْلو به رجلٌ ذو رأيٍ فيعدل بعثمانَ أحداً ، وذكرَ الحَديثَ إلىٰ أن قالَ : فتشهَّدَ وقالَ : أمَّا بعدُ يا عَليُّ فإنِّي قد نَظَرْتُ في النَّاسِ فلَمْ أرَهُم يَعْدِلونَ بعُثْمانَ فلا تَجْعَلَنَّ علىٰ نَفسِكَ سَبيلاً ، ثم أخَذَ بيدِ عُثْمانَ فقالَ : نُبايُعُكَ علىٰ سُنَّةِ الله وسُنَّةِ رَسُولِه وسُنَّةِ الخَلِيفَتَين بعدَه ، فبايَعَه عبدُ الرَّحْمـٰن بنُ عَوْف وبايَعَه المُهاجِرونَ والأنْصارُ[2] .

١٢ـ طُرُق تَوَلِّي الحُكم :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي بَكر رضي الله عنه ، قالَ الوَاقِديُّ : إنَّ أبا بَكر لَمَّا ثَقُلَ عليه دَعا عبدَ الرحمـٰن بنَ عَوْف فقالَ : أخْبِرْني عن عُمَرَ ، فقالَ : ما تَسْألُني عن أمْرٍ إلاَّ وأنْتَ أعْلَمُ به منِّي ، قالَ : وإنْ ، فقالَ : هو والله أفْضَلُ مِنْ رَأيك فيه ، ثمَّ دَعا عُثْمانَ فسَألَه عن عُمَرَ ، فقالَ : عِلْمي فيه أنَّ سَريرَتَه خيرٌ مِنْ عَلانيَتِه ، وأنَّه لَيسَ فينا مِثلُه ، فقالَ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، واللهِ لَوْ تَركتُه ما عَدَوْتُك ، وشَاوَرَ مَعَهما سَعيدَ ابنَ زَيْد ، وأُسَيْدَ بنَ حُضَيْر ، وغَيرَهما فقالَ قائلٌ : ما تَقولُ لِرَبِّكَ إذا سَألَكَ عن اسْتِخْلافِكَ عُمرَ ، وقد تَرىٰ غِلْظَتَه ؟ فقالَ : أجْلِسوني ، أبالله تُخوِّفوني ؟! أقولُ : اسْتَخْلَفتُ عليهم خَيرَ أهلِك .

ثمَّ دَعا عُثْمانَ فقالَ : اكتُبْ : بِسْمِ اللهِ الرحْمَـٰنِ الرَّحيمِ ، هـٰذا ما عَهِدَ أبو بَكر بنُ

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٤ .
(٢) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٨١ .

أبي قُحافَةَ في آخِرِ عَهْدِه بالدُّنيا خارِجاً منها ، وعندَ أوَّلِ عَهْدِه بالآخِرَةِ داخِلاً فيها ، حيثُ يُؤمِنُ الكافِرُ ، ويُوقِنُ الفاجِرُ ، ويُصَدِّقُ الكاذِبُ ، إنِّي اسْتَخْلَفتُ عَليكُم من بَعْدي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ، فاسْتَمِعوا له وأطيعُوا ، وإنِّي لَمْ آلُ[1] اللهَ ورَسُولَه ودينَه ونَفْسي وإيَّاكُم خَيراً ، فإنْ عَدَلَ فذلكَ ظَنِّي به وعِلْمي فيه ، وإنْ بَدَّلَ فلِكُلِّ امْرِئٍ ما اكْتَسَبَ ، والخَيرَ أرَدْتُ ولا أعْلَمُ الغَيْبَ ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2]»[3] .

عن ابنِ عبَّاسٍ ، أنَّ عُمَرَ خَطبَ النَّاسَ فقالَ في خُطبَتِه : وقد بَلَغَني أنَّ قائلاً يقولُ : « لَوْ ماتَ عُمَرُ بايَعْتُ فُلاناً » ، فلا يَغْتَرَّنَّ امرؤ أن يقولَ : كانت بَيْعَةُ أبي بَكر فلتة ، وليس منكم مَنْ تُقطعُ الأعْناقُ إليه مثلُ أبي بَكر ، وإنَّه كان من خَبَرِنا حين تُوفِّيَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم اجْتمعَ الْمُهاجرونَ ، وتَخلَّفَ عَليٌّ والزُّبَيرُ في بَيْتِ فاطِمَةَ بنتِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وتَخَلَّفَ الأنْصارُ في سَقيفَة بَني ساعِدَة ، فقُلتُ : يا أبا بَكر انْطَلِقْ بنا إلىٰ إخْوانِنا من الأنْصارِ ، فانْطَلَقْنا نَؤمُّهم ، فلَقِيَنا رَجُلانِ صالِحانِ من الأنْصارِ فقالا : لا عَليكم أنْ لا تأتوهم وأبْرِموا أمْرَكم ، فقُلتُ : والله لَنأتيَنَّهم ، فأتيناهم في سَقيفَة بني ساعِدَة ، فإذا هم مُجْتَمِعونَ علىٰ رَجُلٍ مُزمَّل بالثِّيابِ ، فقُلتُ : مَنْ هٰذا ؟ قالوا سَعْدُ ابنُ عُبادَة مَريضٌ ، فجَلسْنا ، وقام خَطيبُهم فأثْنَىٰ على الله بما هو أهلُه ، ثم قالَ : أمَّا بعدُ فنَحْنُ الأنْصارُ وكَتيبَةُ الإيمَان ، وأنْتم مَعْشَرَ الْمُهاجِرينَ رَهطٌ مِنَّا ، وقد دَفَّت إليكم دافَّةٌ[4] يُريدُونَ أنْ يَخْتَزِلونا[5] من أصْلِنا ويَحُضُّونَنا[6] من الأمْرِ .

قالَ عُمَرُ : فلمَّا سَكتَ أرَدتُ أنْ أتكلَّمَ بمَقالَة قد كانت أعْجَبَتني بين يَدَيْ أبي بَكر ،

---

(١) لم أقصِّر .

(٢) سورة الشُّعَراء ، الآية : ٢٢٧ .

(٣) انظر السير : (أبو بكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٥/٢٦ .

(٤) الدافَّة : القوم يسيرون جماعة سَيراً ليس بالشديد .

(٥) أي : يقتطعونا .

(٦) بمعنىٰ يُخرجونا .

فقالَ أبو بَكر : علىٰ رِسْلك ، وكُنتُ أعرفُ منه الجدَّ ، فكَرهْتُ أنْ أُغْضِبَه ، وهو كان خَيْراً منِّي وأَوْفَقَ وأَوْقَر ، ثمَّ تَكلَّمَ ، فوالله ما تَركَ كلمَةً أعْجَبَتني إلاَّ قالَها وأفْضَلَ منها حتىٰ سَكتَ ، ثمَّ قالَ : أمَّا بَعدُ ، ما ذَكَرتُم من خَيرٍ فهو فيكم مَعْشرَ الأنْصارِ ، وأنْتم أهْلُه وأفضَلَ منه ، ولَنْ تَعرفَ العَرَبُ هٰذا الأمْرَ إلاَّ لهٰذا الحَيِّ من قُرَيش ، هم أوْسَطُ العَرَبِ نَسَباً وداراً ، وقد رَضيتُ لكم أحدَ هٰذين الرَّجُلَين ، فبايعوا أيَّهما شئتُم ، وأخذَ بيَدي ويَدِ أبي عُبَيْدَة بنِ الجَرَّاح ، قالَ : فما كَرهْتُ شَيئاً ممَّا قالَه غيرَها ، وكان والله أنْ أقدَّمَ فتُضرَبَ عُنُقي لا يُقَرِّبُني ذلك إلىٰ إثمٍ أحَبُّ إليَّ من أنْ أتأمَّرَ علىٰ قَومٍ فيهم أبو بَكر إلاَّ أنْ تَتغيَّرَ نَفسي عندَ الْموتِ ، فقالَ رَجلٌ من الأنْصار[1] : أنا جُذَيْلُها الْمُحَكَّكُ[2] وعُذَيْقُها الْمُرَجَّبُ[3] ، منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ مَعْشرَ الْمُهاجرينَ ، قالَ : وكَثُرَ اللَّغطُ وارْتفعَت الأصْواتُ حتىٰ خَشيتُ الاختِلافَ ، فقُلنا : ابْسُطْ يَدَكَ يا أبا بَكر ، فبَسَطَ يَدَه فبايَعتُه ، وبايَعَه الْمُهاجِرونَ ، وبايَعَه الأنْصارُ ، ونَزَوا[4] علىٰ سَعْدِ بنِ عُبادَة ، فقالَ قائلٌ : قَتلتُم سَعْداً فقُلتُ : قَتلَ اللهُ سَعْداً ، قالَ عُمَرُ : فوالله ما وَجَدنا فيما حَضَرْنا أمْراً أوْفَقَ من مُبايَعَةِ أبي بَكر ، خَشينا إنْ نَحنُ فرَقْنا القَومَ ولمْ تَكُنْ بَيعَةٌ أنْ يُحْدِثوا بَعدَنا بَيعَةً ، فإمَّا بايَعْناهُم علىٰ ما لا نَرْضَىٰ ، وإمَّا خالَفناهم فيَكونُ فَسادٌ .

وعن زِرٍّ ، عن عبدِ الله قالَ : لَمَّا قُبضَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قالت الأنْصارُ : مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ فأتاهُم عُمَرُ فقالَ : يا مَعْشرَ الأنْصارِ ، أَلَسْتُم تَعْلَمونَ أنَّ أبا بَكر قد أمرَه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَؤمَّ النَّاسَ ؟ قالوا : بَلَىٰ ، قال : فأيُّكم تَطيبُ نَفسُه أنْ يَتقدَّمَ أبا بَكر ؟ ـ قُلتُ : يَعْني في الصَّلاة ـ فقالَت الأنْصارُ : نَعوذُ بالله أنْ نَتقدَّمَ أبا بَكر .

---

(١) هو الحُبابُ بنُ الْمُنذر الأنْصاريّ.

(٢) الجُذَيل : تصغير جذل ، وهو عود يكون في وسط مبرك الإبل تحتك به وتستريح إليه فيضرب به المثل في الرجل يُشْتَفىٰ برأيه .

(٣) العُذَيق : تصغير عذق ، وهو النخلة نفسها ، والمرجب : الذي تبنىٰ إلىٰ جانبه دعامة ترفده لكثرة حمله ولعزِّه علىٰ أهله ، فضُربَ به المثل في الرجل الشريف الذي يعظِّمُه قومُه .

(٤) نزوا : وثبوا عليه ووطئوه .

عن ابنِ سيرينَ ، قالَ أبو بَكر لعُمَرَ : ابْسُطْ يَدَكَ نُبايع لك ، فقالَ عُمَرُ : أنْتَ أفْضَلُ مِنِّي ، فقالَ أبو بَكر : أنْتَ أقْوَىٰ مِنِّي ، قالَ : إنَّ قُوَّتي لك مع فَضْلِك .

عن أنَس أنَّه سَمعَ خُطبَةَ عُمَرَ الآخِرَة قال : حينَ جَلسَ أبو بَكر علىٰ مِنْبَرِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم غداً من مُتَوَفَّىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فتَشهَّدَ عُمَرُ ، ثم قالَ : أمَّا بَعدُ ، فإنِّي قُلتُ لكم مَقالَةً ، وإنَّها لَمْ تَكنْ كما قُلتُ ، وما وَجَدتُ الْمَقالَةَ التي قُلتُ لكم في كِتابِ الله ولا في عَهْد رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنْ رَجوْتُ أنَّه يَعيشُ حتىٰ يَدبُرَنا ـ يَقولُ حتىٰ يَكونَ رَسُولُ الله آخِرَنا ـ فاخْتارَ الله لرَسُولِه ما عنده على الذي عندَكم ، فإنْ يَكُنْ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قد ماتَ ، فإنَّ اللهَ قد جعلَ بينَ أظْهُركم كتابَه الذي هَدىٰ به مُحمَّداً ، فاعْتَصِموا به تَهْتَدوا بما هُديَ به مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ، ثم ذَكرَ أبا بَكر صاحِبَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وثانيَ اثْنَين ، وأنَّه أحَقُّ النَّاسِ بأمْرِهم ، فقُوموا فبايِعوه ، وكان طائفَةٌ منهم قد بايَعوه قبلَ ذلكَ في سَقيفَةِ بَني ساعِدَة ، وكانَت البَيْعَةُ على الْمِنْبَرِ بَيْعَةَ العامَّة .

وقد قيلَ : إنَّ عَليّاً رضي الله عنه تَمادَىٰ عن الْمُبايَعة مدَّة ، فقالَ عُرْوَة : عن عائشةَ قالت : لَمَّا تُوفِّيَت فاطمَةُ بعدَ أبيها بستَّة أشْهُر اجْتمَعَ إلىٰ عليٍّ أهلُ بيتِه ، فبَعَثوا إلىٰ أبي بَكر : ائتِنا ، فقالَ عُمَرُ : لا واللهِ لا تَأتيهم ، فقالَ أبو بَكر : والله لآتِيَنَّهم ، وما تَخافُ عليَّ منهم! فجاءَهم حتَّىٰ دَخلَ عَليهم فحَمِدَ اللهَ ثم قالَ : إنِّي قد عَرَفتُ رَأيَكم ، قد وَجَدتُم علىٰ أنْفُسِكُم من هٰذه الصَّدَقات التي ولِّيتُ عليكم ، ووَالله ما صَنعتُ ذلك إلاَّ أنِّي لَمْ أكن أريدُ أن أكِلَ شيئا من أمْرِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم كُنتُ أرَىٰ أثَرَه فيه وعَمَلَه إلىٰ غيري حتَّىٰ أسلُكَ به سَبيلَه وأُنْفِذُهُ فيما جَعلَه الله ، ووالله لأَنْ أصِلَكم أحَبُّ إليَّ من أنْ أصِلَ أهْلَ قَرابَتي لِقَرابَتِكم من رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ولعَظيمِ حَقِّه ثم تَشَهَّدَ عَليٌّ وقالَ : يا أبا بَكر والله ما نَفَسْنا[1] عَليكَ خَيْراً جَعلَه الله لك أنْ لا تَكونَ به أهْلاً لِمَا أُسْندَ إليكَ ، ولكنَّا كُنَّا مِنْ الأمْرِ حَيثُ قد عَلمت

(١) قالَ صاحبُ النُزهَة : معناه حَسَدنا وضَننا «القاموس المحيط» .

فتفُوتَ به عَلينا ، فوَجَدْنا في أنفُسنا ، وقد رَأيتُ أنْ أُبايعَ وأدْخُلَ فيما دَخَلَ فيه النَّاسُ ، وإذا كانت العَشيَّةُ فَصَلِّ بالنَّاسِ الظُّهرَ ، واجْلِسْ على الْمِنْبَر حتَّىٰ آتيكَ فأُبايعُك ، فلَمَّا صَلَّىٰ أبو بَكر الظُّهْرَ رَكبَ الْمِنْبَرَ فحَمدَ اللهَ وأثْنَىٰ عَليه ، وذَكرَ الذي كانَ من أمْرِ عليٍّ ، وما دَخلَ فيه من أمْرِ الجَماعَة والبَيْعَة ، وها هو ذا فاسْمَعوا منه ، فقامَ عليٌّ فحَمدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم ذَكرَ أبا بَكر وفضْلَه وسِنَّه ، وأنَّه أهْلٌ لِمَا ساقَ اللهُ إليه من الخَيْرِ ، ثم قامَ إلىٰ أبي بَكر فبايَعَه .

أخْرَجه البُخاريُّ من حَديثِ عَقيل عن الزُّهْريِّ ، عن عُرْوَة ، عن عائشَةَ ، وفيه : وكانَ لعَليٍّ من النَّاسِ وَجْهٌ حَياةَ فاطمَة ، فلَمَّا تُوفِّيَت اسْتَنْكَرَ عَليٌّ وُجوهَ النَّاسِ ، فالْتَمَسَ مُصالَحَةَ أبي بَكر ومُبايَعَتَه[1] »[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه : فلَمَّا فُرِغَ من دَفْنِه ورَجَعوا اجْتَمعَ هـٰؤلاء الرَّهْطُ ، فقالَ عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ عَوْف : اجْعَلوا أمْرَكُم إلىٰ ثَلاثَة منكم ، فقالَ الزُّبَيْرُ : قَد جَعَلتُ أمْري إلىٰ عَليٍّ ، وقالَ سَعدُ : قَدْ جَعَلتُ أمْري إلىٰ عَبدِ الرَّحمَـٰن ، وقالَ طَلحَةُ : قَد جعلتُ أمْري إلىٰ عُثْمانَ ، قالَ : فخَلا هـٰؤلاء الثَّلاثَة فقالَ عبدُ الرَّحمَـٰن : أنا لا أُريدُها فأيُّكما تبرَّأ من هـٰذا الأمْرِ ونَجْعَله إليه واللهُ عليه والإسْلامُ ليَنْظُرَنَّ أفْضَلَهم في نَفسِه وليَحْرِصَنَّ علىٰ صَلاحِ الأُمَّة ، قالَ : فسَكتَ الشَّيْخان عَليٌّ وعُثْمانُ ، فقالَ عبدُ الرَّحمَـٰن : اجْعَلاه إليَّ ، واللهِ لا آلو علىٰ أفْضَلِكم ، قالا : نعَم ، فخَلا بعَليٍّ وقالَ لك من القِدَم في الإسْلام والقَرابَة ما قد عَلمْتُ ، والله عليكَ لَئن أمَّرْتُك لتَعْدِلَنَّ ، ولَئنْ أمَّرتُ عليكَ لَتَسْمَعَنَّ ولَتُطيعَنَّ قالَ : ثم خَلا بالآخَرِ فقالَ له كذلك ، فلَمَّا أخذَ ميثاقَهُما بايَعَ عُثْمانَ وبايَعَه عَليٌّ[3] .

---

(١) قال الحافظُ ابنُ كثير في «البداية والنهاية » (٥/ ٢٨٦) : فهـٰذه البيعة التي وقعت من عليٍّ لأبي بَكر ، بعد وَفاة فاطمة ، بَيعة مؤكِّدة للصُّلح الذي وقع بينهما ، وهو ثانية للبَيعَة التي ذكرناها أولاً يومَ السَقيفَة ، كما رواه ابنُ خُزيمَة ، وصحَّحَه مسلم ، ولَمْ يَكنْ عَليٌّ مُجانباً لأبي بَكر هـٰذه السِّتَّة الأشهُر ، بلْ كان يُصلِّي وراءَه ويَحضُرُ عندَه للمَشورَة ، ورَكبَ معه إلىٰ ذي القصَّة .

(٢) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٢٩/ بيعة أبي بكر .

(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٥/ ٢ .

وقالَ سالمُ بنُ عبد الله ، عن أبيه قالَ : دَخلَ علىٰ عُمَرَ عُثمانُ ، وعَليٌّ ، والزُّبَيرُ ، وابنُ عَوْف ، وسَعْدٌ ـ وكان طَلْحَةُ غائباً ـ فنَظَرَ إليهم ثم قالَ : إنِّي قد نَظرتُ لكم في أمْرِ النَّاسِ فلمْ أجدْ عند النَّاسِ شِقاقاً إلاَّ أنْ يَكونَ فيكم ، ثم قالَ : إنَّ قَومَكم إمَّا يُؤمِّروا أحدَكم أيُّها الثلاثَة ، فإن كُنتَ علىٰ شيء من أمر النَّاس يا عُثمانُ فلا تَحمِلَنَّ بَني مُعَيْط علىٰ رِقابِ النَّاسِ ، وإنْ كُنْتَ علىٰ شيء من أمرِ النَّاس يا عَليُّ فلا تَحْمِلَنَّ أقارِبَك علىٰ رِقابِ النَّاسِ قوموا فتَشاوَروا وأمِّروا أَحَدَكم ، فقاموا يَتَشاوَرون[1] .

قالَ ابنُ عُمَر : فدَعاني عُثْمانُ مرَّةً أو مرَّتَين ليُدخِلَني في الأمْر ، ولم يُسمِّني عُمَرُ ، ولا واللهِ ما أُحبُّ أنِّي كُنتُ معهم علماً منه بأنَّه سَيكونُ مِنْ أمْرِهِم ما قَالَ أبي ، والله لقَلَّما سَمعتُه حَوَّلَ شَفتَيه بشَيءٍ قَطُّ إلاَّ كان حقَّاً ، فلمَّا أكْثرَ عُثمانُ دُعائي قُلتُ : ألا تَعْقِلونَ! تُؤمِّرونَ وأميرُ المؤمنين حَيٌّ! فوالله لكأنَّما أيقَظتُهم ، فقالَ عُمَرُ : أمْهِلوا فإنْ حَدَثَ بي حَدثٌ فليُصَلِّ للنَّاسِ صُهَيبٌ ثلاثاً ثم اجْمَعوا في اليَومِ الثَّالثِ أشْرافَ النَّاس وأُمَراءَ الأجْنادِ فأمِّروا أَحَدَكم ، فمَنْ تَأمَّرَ من غَيرِ مَشورَةٍ فاضْرِبوا عُنُقَه[2] .

١٣ـ مِنْ وَاجِبات الأمير والمسْؤُول :

(أ) الاسْتعانَة بالعُلَماء والصَّالحين :

وقالَ ابنُ سَعد : أخبَرَنا مُحمدُ بنُ عُمَرَ ، حدَّثنا ابنُ أبي الزِّناد ، عن أبيه ، قال : لَمَّا قَدِمَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ المَدينَةَ وَالياً ، فصلَّى الظُّهْرَ دَعا بعَشْرَة : عُرْوَةَ ، وعُبَيدَ الله ، وسُلَيمانَ بنَ يَسار ، والقاسِم ، وسالِماً ، وخارِجَة ، وأبا بَكْر بنَ عبدِ الرحمَـٰن ، وأبا بَكْر بنَ سُليمان ابنَ أبي حثمَة ، وعبدَ الله بنَ عامِر بن رَبيعَة ، فحَمِدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم قالَ : إنِّي دَعَوْتُكم لأمْرٍ تُؤجَرُون فيه ، ونَكونَ فيه أعْواناً على الحَقِّ ، ما أُريدُ أنْ أَقْطَعَ أمْراً إلاَّ برأيكم ، أو برأي مَنْ حَضرَ منكم ، فإنْ رأيتم

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٦ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٥٦ .

أحَداً يَتعدَّىٰ ، أو بَلغَكم عن عامِلٍ ظُلامَة ، فأُحَرِّجُ بالله علىٰ مَنْ بَلغَه ذلك إلاَّ أبْلغَني فجَزَوْهُ خيراً ، وافْتَرَقوا[1] .

قالَ سَعيدُ بنُ عبدِ العَزيز : وَلِيَ سُليمانُ ، فقالَ لِعُمَرَ بنِ عبدِ العَزيز : يا أبا حَفْص! إنَّا وَلينا ما قد تَرَىٰ ، ولَمْ يَكُن لنا بتَدبيره عِلمٌ ، فما رَأيتَ من مَصْلَحَةِ العامَّة ، فمُرْ به ، فكانَ من ذلك عَزْلُ عُمَّالِ الحَجَّاجِ ، وأُقيمَت الصَّلواتُ في أوْقاتِها بعدما كانت أُميتَت عن وَقْتِها ، مع أُمورٍ جَليلَةٍ كانَ يَسْمَعُ من عُمَرَ فيها ، فقيلَ : إنَّ سُليمانَ حَجَّ ، فرأى الخَلائقَ بالْمَوْقِفِ ، فقالَ لِعُمرَ : أما تَرَىٰ هـٰذا الخَلقَ الذي لا يُحْصي عَددَهم إلاَّ اللهُ ؟ قالَ : هَؤلاء اليومَ رَعيَّتُك ، وهُم غَداً خُصَماؤك ، فبَكىَ بُكاءً شَديداً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : كانَ عُمرُ له وَزيرَ صِدْقٍ ، ومَرِضَ بدابِق أُسْبُوعاً ، وتُوفِّيَ ، وكان ابنُه داودُ غائباً في غَزْوَة القُسْطَنْطينيَّة[2] .

وجاء في ترجَمَةِ أبي عَمرٍو الخَفَّاف ، قال الحاكِمُ : سَمعتُ محمّدَ ابنَ المُؤَمَّل بنَ الحَسَن الماسَرْجسيَّ ، سَمعتُ أبا عَمرٍو الخَفَّاف يقولُ : كان عَمروُ بنُ اللَّيْثِ الصَّفَّار ـ يَعْني السُّلطانَ ـ يَقولُ لي : يا عَمُّ! مَتَىٰ عَلِمْتَ شَيئاً لا يُوافِقُكَ فاضْرِبْ رَقَبَتي ، إلىٰ أنْ أرْجِعَ إلىٰ هَواكَ[3] .

قال الإمام الذهبي : كذا فليَكُنِ السُّلطانُ مع الشَّيخ ، وقد كان عَمرُو بنُ اللَّيث صانعاً في الصُّفر فتَنقَّلت به الأحْوالُ إلىٰ أنْ تَملَّك خُراسَان وتَملَّك بعدَه أخُوهُ يَعقوبُ ، فانْظُر في تاريخ الإسْلام تَسْمَعْ العَجَبَ من سيرتهما .

وكان الرئيسُ أبو عَمرٍو عَظيمَ القَدْرِ ، سَيِّداً مُطاعاً ببَلَدِه ، نالَ رئاسَةَ الدِّينِ والدُّنْيا ، وكانوا يُلقِّبُونَه بزَينِ الأشْرَف .

وكانت وَفاتُه سنةَ تسْعٍ وتسْعينَ ومِئتين ، من أبْناء الثّمانين[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٦/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٢ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرٌو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١١١٧ .
(٤) انظر السير : (أبو عَمرٌو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٧ .

(ب) عَدَمُ تَقْرِيب الضَّالِّين :

قالَ الخَطيبُ : اسْتَولَىٰ أحمَدُ بنُ أبي دُواد على الخَليفَةِ الوَاثِق بالله ، وحَملَه على التشَدُّد في الْمِحْنَةِ ، والدُّعاءِ إلىٰ خَلقِ القُرانِ[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة أحمدَ بنِ حَنبلَ : ثم إنَّ المَأمونَ نَظرَ في الكَلامِ ، وناظَرَ ، وبَقِيَ مُتوقِّفاً في الدُّعاء إلىٰ بِدْعَته[2] .

وقال أبو الفَرْجِ بنُ الجَوْزيّ : خَالَطَه قومٌ من المُعْتَزِلَة ، فحَسَّنوا له القَوْلَ بخَلْقِ القُرآن ، وكان يَترَدَّدُ ويُراقِبُ الشُّيوخَ ، ثم قَويَ عَزْمُه وامْتَحنَ النَّاسَ .

وعن ابنِ عَرْعَرَة ، حدَّثني ابنُ أكْثَم ، قال : قال لنا المَأمونُ : لَولا مَكانُ يَزيدَ بنِ هارون ، لأظْهَرتُ أنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ ، فقال بعضُ جُلسائه : يا أميرَ المؤمنين ، ومَنْ يَزيدُ حتىٰ يُتَّقى ؟ فقال : وَيْحَك!! إنِّي أخافُ إنْ أظْهَرْتُه فيَرُدَّ عليَّ يَختلفُ الناسُ ، وتَكونُ فِتنةً ، وأنا أكْرهُ الفِتنَةَ فقال الرجلُ : فأنا أخْبُرُ ذلكَ منه ، قال له : نَعَم ، فخرجَ إلىٰ وَاسِط ، فجاءَ إلىٰ يَزيدَ ، وقال : يا أبا خالد ، إنَّ أميرَ المؤمنين يُقرِئُك السَّلامَ ، ويقولُ لك : إنِّي أُريدُ أنْ أُظْهِرَ خَلقَ القُرآنِ ، فقال : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين أميرُ المؤمنين لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يَعْرِفُونَه ، فإنْ كُنتَ صادقاً ، فاقْعُد فإذا اجْتَمعَ النَّاسُ في المَجْلسِ ، فقُلْ قال : فلمَّا كان الغَدُ ، اجتمعوا فقامَ ، فقال كمَقالَتِه ، فقال يَزيدُ : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين ، إنَّه لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يعرفُونَه ، وما لَمْ يَقُلْ به أحَدٌ قال : فقَدِمَ ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، كُنتَ أعْلَمَ ، وقَصَّ عليه ، قالَ : وَيْحَك يُلْعَبُ بك!! .

قال صالحُ بنُ أحمد : سَمعتُ أبي يقولُ : لمَّا دَخَلْنا علىٰ إسْحاقَ ابنِ إبْراهيمَ للمِحْنة ، قَرأَ علينا كتابَ الذي صار إلىٰ طَرسُوس ، يَعْني : المَأمونَ ، فكان فيما قُرِىءَ علينا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[3] .

---

(١) انظر السير : (الوَاثِق بالله) ١٠/ ٣٠٦ـ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٨٨٠ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٣ .
(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[1] ، فقلتُ : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[2] .

قال صالحٌ : ثم امتُحنَ القومُ ، ووُجِّهَ بمن امتنَعَ إلى الحَبْس ، فأجابَ القومُ جَميعاً غَيرَ أرْبَعَة : أبي ، ومحمّد بن نُوح ، والقَواريري ، والحَسن ابن حمّاد سجّادة ثم أجابَ هذان ، وبَقيَ أبي ومحمد في الحَبْس أيّاماً ، ثم جاء كتابٌ من طَرَسوس بحَمْلِهما مُقيَّدَين زَميلَين[3] .

(ج) إدْناء العُقَلاء والحُكماء وإنْ كانوا صِغاراً :

عن سَعيدِ بنِ جُبَير ، قالَ : كانَ ناسٌ من الْمُهاجرينَ قد وَجَدوا علىٰ عُمَرَ في إدْنائه ابنَ عَبَّاس دُونَهم قالَ : وكانَ يَسْأَلُه فقالَ عُمَرُ : أما سأُريكُم اليَومَ منه ما تَعْرِفونَ فَضلَه ، فسَأَلَهم عن هذه السُّورَةِ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾[4] ، فقالَ بَعضُهم : أمَرَ اللهُ نَبيَّه إذا رَأى النَّاسَ يَدخُلونَ في دِينِ الله أفْواجاً أنْ يَحْمَدَه ويَسْتَغْفِرَه فقالَ عُمَرُ : يا ابنَ عَبَّاس تَكلَّم فقالَ : أعْلَمَه متىٰ يَموتُ ، أي : فهي آيَتُكَ من الْمَوْتِ ، فسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْه[5] .

(د) عَدمُ تَفْضيل الأقارِب على الرَّعيَّة :

قالَ الليثُ : بدأ عُمرُ بنُ عبد العَزيز بأهْلِ بَيتَه ، فأخذَ ما بأيْديهم ، وسَمَّىٰ أمْوالَهم مَظالِمَ ، ففَزِعَت بَنو أُميَّة إلىٰ عَمَّتِه فاطِمَةَ بنتِ مَرْوان ، فأرْسَلت إليه : إنِّي قد عَناني أمْرٌ ، فأتَتْه ليلاً ، فأنْزلَها عن دابَّتِها ، فلمَّا أخَذَت مَجْلِسَها قالَ يا عَمَّة! أنتِ أوْلَىٰ بالكَلام ، قالَت : تَكلَّم يا أميرَ المؤمنين ، قالَ : إنَّ اللهَ بَعثَ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم رَحمَةً ، ولَمْ يَبْعَثْه عَذاباً ، واخْتارَ له ما عنده ، فتَركَ لهم نَهْراً ، شُرْبُهُم سَواء ، ثم قامَ أبو بَكْر فتَركَ النَّهْرَ علىٰ حالِه ، ثم عُمَرُ ، فعَمِلَ عَملَ صاحِبَه ، ثم لَمْ يَزَلْ النَّهْرُ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٢ .

(٢) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٣) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٣ .

(٤) سورة النصر ، الآية : ١ .

(٥) انظر السير : (عبد الله بن عبَّاس البَحْر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩٠ .

يَشتقُّ منه يَزيدُ ومَرْوانُ وعبدُ الملكِ ، والوَليدُ ، وسُليمانُ حتىٰ أفْضَى الأمْرُ إليَّ ، وقد يَبُسَ النَّهْرُ الأعْظَمُ ، ولَنْ يَرْوِيَ أهلَه حتىٰ يَعودَ إلىٰ ما كانَ عليه ، فقالَت : حَسْبُكَ ، فلَسْتُ بذاكِرَة لك شيئاً ، ورَجَعَت فأبْلَغَتْهم كلامَه[1] .

قالَ الفريابيُّ : حَدَّثنا الأوْزاعيُّ أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ جَلسَ في بَيتِه ، وعندَه أشْرافُ بَني أُمَيَّة ، فقالَ : أتحبون أن أُوَلِّي كلَّ رجل منكم جُنداً من هـٰذه الأجْنادِ ، فقالَ له رجلٌ منهم : لِمَ تَعرِضْ علينا ما لا تَفعَلُه ؟ قالَ : تَرَوْنَ بساطي هـٰذا ؟ إنِّي لأعلمُ أنَّه يَصيرُ إلىٰ بلىٰ ، وإنِّي أكْرَهُ أنْ تُدنِّسوهُ عليَّ بأرجُلِكم ، فكيفَ أُوَلِّيكمُ ديني ؟ وأُوَلِّيكمُ أعْراضَ المسلمينَ وأبْشارَهم تَحكُمون فيهم ؟ هَيْهاتَ هَيْهاتَ ، قالوا : لِمَ ، أمَا لنا قَرابَةٌ ؟ أمَا لنا حَقٌّ ؟ قالَ : ما أنتم وأقْصَىٰ رَجلٍ من المسلمين عندي في هـٰذا الأمْرِ إلاَّ سَواءٌ ، إلاَّ رجلٌ حبَسَه عنِّي طُولُ شُقَّة[2] ،[3] .

(هـ) خِدْمَة الرَّعيَّة :

عن زَيدِ بنِ أسْلَم ، مَوْلَىٰ عُمَرَ ، عن أبيه ، قالَ ابنُ عُمَرَ : يا أبا خالِد ، إنِّي أرَىٰ أميرَ المؤمنينَ يَلزَمُكَ لُزُوماً لا يَلزَمُه أحَداً من أصْحابك ، لا يَخرُجُ سَفَراً إلاَّ وأنْتَ مَعَه ، فأخْبِرْني عنه قالَ : لَمْ يَكُنْ أَوْلَى القَومِ بالظِّلِّ ، وكانَ يُرَحِّلُ رَواحِلَنا ، ويُرَحِّلُ رَحْلَه وَحدَه ، ولقد فَرَغْنا ذاتَ لَيلَة وقد رَحَّلَ رِحالَنا ، وهو يُرَحِّلُ ويَرتَجِز[4] .

(و) اخْتِبارُ البِلاد والتَّأكدُ من عَدَم فُشُوّ المَعاصي بها :

قيلَ : إنَّ صاحِبَ الْمَغْرِبِ يَعقُوبَ بنَ يُوسُف بنِ عبد الْمُؤمنِ أبْطلَ الخَمرَ في مَمالِكِه ، وتَوعَّدَ عَليها فعُدمَت ، ثم قالَ لأبي جَعْفَرَ الطَّبيبَ : رَكِّبْ لنا تِرْياقاً ، فأعْوَزَهُ خَمرٌ ، فأخْبرَه بذلك ، فقال : تَلطَّفْ في تَحْصيلِه سِرّاً ، فحَرِصَ ، فعَجَزَ فقالَ

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ٥ .

(٢) الشُّقَّة : السفر الطويل البعيد ، وفي حديث وفد عبد قيس : إنا نأتيك من شقة بعيدة ، أي مسافة بعيدة .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/ ٤ .

(٤) انظر السير : (أسْلم) ٤/٩٨ـ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٤٥٥/ ٢ .

الْمَلِكُ : ما كانَ لي بالتِّرْياقِ حاجَةٌ ، لكنْ أَرَدتُ اخْتِبارَ بِلادي .

ماتَ سنةَ خَمسٍ وتسْعينَ وخَمْسِ مئة[1] .

(ز) ضَبْطُ الأَسْواق :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ، قالَ قَتادَةُ : كانَ عُمَرُ يَلْبَسُ ، وهو خَليفَة ، جُبَّة من صُوف مَرْقُوعاً بَعضُها بأدَم ، ويَطوفُ في الأَسْواقِ علىٰ عاتِقِه الدُّرَّة يُؤدِّبُ النَّاسَ بها ، ويَمُرُّ بالنَّكْثِ[2] والنَّوَىٰ فيَلقطُه ويُلقيه في مَنازِلِ النَّاسِ لِيَنْتَفِعُوا به[3] .

١٤ـ مِنْ حُقوق الأَمِير والمَسْؤول الطَّاعَة :

(أ) ضابطُ الطَّاعَة :

عن عُمَرَ بنِ الحَكَم بنِ ثَوْبان ، أنَّ أبا سَعيد قالَ : بَعثَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم سَرِيَّة عليهم عَلْقَمَةُ بنُ مُجَزِّز ، وأنا فيهم ، فخَرَجْنا ، حتَّىٰ إذا كُنَّا ببَعضِ الطَّريقِ ، اسْتأذَنَه طائفَةٌ فأذِنَ لهم ، وأَمَّرَ عليهم عبدَ الله بنَ حُذافَة ، وكان من أَهْلِ بَدْر ، وكانت فيه دُعابَةٌ فبَيْنا نَحنُ في الطَّريقِ ، فأَوْقَدَ القَومُ ناراً يَصْطَلون بها ، ويَصْنَعونَ عَليها صَنيعاً لهم ، إذ قالَ : أَلَيْسَ لي عَليكم السَّمْعُ والطَّاعَةُ ؟ قالوا بَلَىٰ قالَ : فإنِّي أَعْزِمُ عَليكم بحَقِّي وطاعَتي إلاَّ تَواثَبتُم في هـٰذه النَّارِ ، فقامَ ناسٌ فتَحَجَّزوا[4] حتَّىٰ إذا ظَنَّ أنَّهم وَاقِعُونَ فيها قالَ : أَمْسِكُوا ، إنَّما كُنتُ أُضْحَكُ مَعَكم فلَمَّا قَدموا علىٰ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، ذَكرُوا له ذلكَ فقالَ : « مَنْ أَمَرَكُمْ بِمَعْصِيَةٍ فَلا تُطِيعُوهُ »[5] .

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٩ .
(٢) النكث : الغزل المنقوض .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥/٤٨ .
(٤) أي شَدُّوا أَوْساطَهم فِعْلَ مَنْ يتهيَّأ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن حُذافَة) ٢/ ١١ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ٦/٢١٠ .

(ب) صُورٌ من الطَّاعَة :

عن زَيْدِ بنِ وَهْب قالَ : لَمَّا بَعثَ عُثمانُ إلى ابنِ مَسْعودٍ يَأمُرُه بالْمَجيء إلى المدينة ، اجْتمَعَ إليه النَّاسُ ، فقالُوا : أقِمْ فلا تَخْرُجْ ، ونَحنُ نَمْنَعُك أنْ يَصِلَ إليكَ شَيءٌ تَكرَهُه فقالَ : إنَّ له عليَّ طاعَةٌ ، وإنَّها سَتكونُ أمورٌ وفِتَنٌ لا أحِبُّ أنْ أكونَ أوَّلَ مَنْ فَتحَها فرَدَّ النَّاسَ وخَرجَ إليه[1] .

عن حُمَيدِ بنِ هِلال ، قالَ : قامَ زَيدُ بنُ صُوحانَ إلىٰ عُثْمانَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ! مِلْتَ فمَالَتْ أُمَّتُك ، اعْتَدِلْ يَعْتَدِلوا قالَ : أَسامِعٌ مُطيعٌ أنْتَ ؟ قالَ نَعم قالَ : إلْحَقْ بالشَّامِ فطَلَّقَ امْرأتَه ، ثم لَحِقَ بحَيثُ أمَرَه[2] .

وعن الأوْزاعيِّ ، قالَ : القاسِمُ بنُ مُخَيْمِرَةَ يَقْدُمُ عَلينا ها هُنا مُتَطوِّعاً ، فإذا أرادَ أنْ يَرجِعَ ، اسْتأذَنَ الوالي ، فقيلَ له : أرَأيتَ إنْ لَمْ يَأذَنْ لك ، قالَ : إذاً أُقيمُ ، ثم قَرأ : ﴿ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ ﴾[3] ،[4] .

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي وَهْبِ ، زَاهِدِ الأنْدَلُسِ : وقالَ فقيرٌ : قُلتُ لَيلةً لأبي وَهْبٍ : قُمْ بنا لِزيارَةِ فُلان ، قالَ : وأينَ العِلمُ ؟ وَلِيُّ الأمْرِ لَه طَاعَةٌ ، وقد مَنَعَ من الْمَشيِ لَيلاً[5] .

١٥ـ من الصِّفات اللاَّزِمَة للأمِير والمَسْؤول :

(أ) مَجموعَة صِفات تَجدُها في الأمير :

جاءَ في تَرجَمَةِ أبي ذَرِ الغِفَاريِّ رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذَرْ ـ مع قُوَّةِ أبي ذَرٍّ وشَجاعَتِه ـ : « يا أبا ذَرْ ، إنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً ، وَإنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن مَسْعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/١٩٦ .
(٢) انظر السير : (زَيْدُ بنُ صُوحان) ٣/ ٥٢٥ـ ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/٤١٩ .
(٣) سورة النور ، الآية : ٦٢ .
(٤) انظر السير : (القاسِمُ بن مُخَيْمِرَة) ٥/ ٢٠١ـ ٢٠٤ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩٥ .
(٥) انظر السير : (أبو وَهْب) ١٥/ ٥٠٦ـ ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٤ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : فهـٰذا مَحمولٌ علىٰ ضَعْفِ الرأي ، فإنَّه لَوْ وَلِيَ مَالَ يَتيمٍ ، لأ نْفَقَه كُلَّه في سَبيلِ الخَيرِ ، ولَتَرَكَ اليَتيمَ فَقيراً فقد كانَ لا يَستَجيزُ ادِّخارَ النَّقْدَين والذي يَتأمَّرُ على النَّاسِ ، يُريدُ أنْ يَكونَ فيه حِلمٌ ومُداراةٌ ، وأبو ذَرْ رضي الله عنه كانت فيه حِدَّة ـ كما ذَكَرْناه ـ فنَصَحَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم[1] .

وعن الأعْمَشِ ، قالَ أبو وَائل ـ شَقيقُ بنُ سَلَمَة ـ : يا سُلَيمانُ ما في أُمَرائِنا هَؤلاء وَاحِدَة من اثْنَتَين : ما فيهم تَقْوىٰ أَهْلِ الإسْلامِ ولا عُقُولُ أَهْلِ الجَاهِليَّة[2] .

وقالَ الإمامُ الشَّافِعيُّ : آلاتُ الرِّياسَةِ خَمسٌ : صِدْقُ اللَّهْجَةِ ، وكِتْمَانُ السِّرِّ والوَفاءُ بالعَهْدِ ، وابْتِداءُ النَّصيحَةِ ، وأَداءُ الأمانَةِ .

وقد صَنَّفَ الحافِظُ أبو بَكر كِتاباً في ثُبوتِ الاحْتِجاجِ بالإمامِ الشَّافِعيِّ[3] .

(ب) الضَّبْط والحَزْم :

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمُعْتَضِدِ بالله العَبَّاسيِّ ، قال أبو علي الْمُحْسن التَّنُوخيُّ : بَلَغَني عن الْمُعْتَضِدِ أنه كان جالساً في بَيتٍ يُبنَىٰ له فرأىٰ فيهم أَسْوَدَ مُنْكَرُ الخِلقَة يَصْعَدُ السَّلالِمَ دَرجَتين دَرَجَتين ، ويَحمِلُ ضِعْفَ ما يَحْمله غَيرُه ، فأنْكرَ ذلك ، وطلَبَه ، وسَأَلَه عن سَببِ ذلك ، فتَلَجْلَجَ فكلَّمَه ابنُ حَمْدونَ فيه ، وقالَ : مَنْ هـٰذا حتىٰ صَرَفْتَ فِكْرَكَ إليه ؟ قالَ : قد وَقَعَ في خَلَدي أمْرٌ ما أَحْسَبُه باطِلاً ، ثم أمَرَ به ، فضُربَ مئةً ، وتَهدَّدَه بالقَتلِ ودعَا بالنَّطَعِ[4] والسَّيْفِ ، فقالَ : الأمانَ ، أنا أَعْمَلُ في أَتونِ الآجُرِّ ، فدَخلَ من شُهورٍ رَجلٌ في وَسَطِه هِمْيَانٌ[5] ، فأخْرَجَ دَنانيرَ فوَثبتُ عليه ، وسَدَدتُ فاه ، وكَتَّفْتُه وأَلْقيتُه في الأَتُونِ ، والذَّهَبُ مَعي يَقْوىٰ به قَلبي ، فاسْتَحْضَرَها ، فإذا عَلى الهِمْيانِ

---

(١) انظر السير : (أبو ذَرْ) ٢/٤٦ـ٧٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٢١ .

(٢) انظر السير : (شَقيقُ بنُ سَلمَة) ٤/١٦١ـ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/٤٦٩ .

(٣) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعيّ) ١٠/٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٤٩ .

(٤) النَّطَع : بفَتح النُّونِ وكَسْرِها ، وفَتْح الطَّاءِ وكَسْرِها وسُكونِها : بساطٌ من جلد ، كثيراً ما كان يُقتَلُ فوقه المحكوم عليه بالقَتل .

(٥) الهِمْيان : كيسٌ للنَّفَقَة يُشدُّ في الوَسَط .

اسْمُ صاحِبِه ، فنُودِيَ في البَلَدِ ، فجاءَت امْرأةٌ ، فقالَت : هو زَوْجي ولِيَ منه طِفلٌ ، فسَلَّمَ الذَّهبَ إليها ، وقَتلَه[1] .

وقالَ أبو عَليٍّ الْمُحْسن التَّنُوخيُّ : وبَلَغَني عنه أيضاً أنَّ خادِماً أتاه فأخْبَرَه أنَّ صيَّادا أخْرَجَ شَبكتَه ، فثَقُلت ، فجَذَبها ، فإذا فيها جِرابٌ ، فظَنَّه مالاً ، فإذا فيه آجُرٌّ بينَه كَفٌّ مَخضُوبَة ، فهَالَ ذاكَ الْمُعْتَضِدَ وأمَرَ الصَّيَّادَ ، فعاوَدَ الشَّبَكَة ، فخَرجَ جِرابٌ آخَرُ فيه رِجلٌ ، فقالَ : مَعي في بَلدِي مَنْ يَفعَلُ هـٰذا ؟ ما هـٰذا بمُلكٍ! فلَمْ يُفطِرْ يومَه ، ثم أحْضَرَ ثقةً له ، وأعْطاهُ الجِرابَ ، وقالَ : طُفْ به علىٰ مَنْ يَعمَلُ الجُرُبَ : لِمَنْ باعَه ؟ فغَابَ الرجلُ ، وجاءَ وقد عَرفَ بائِعَه ، وأنَّه اشْتَرَىٰ منه عَطَّارٌ جِراباً ، فذَهبَ إليه ، فقالَ : نَعَم ، اشْتَرىٰ مني فُلانٌ الهاشِميُّ عَشرةَ جُرُبٍ ، وهو ظالِمٌ إلىٰ أنْ قالَ : يَكفيكَ أنَّه كان يَعْشَقُ مُغَنِّيَةً ، فاكْتَراها من مَوْلاها ، وادَّعَىٰ أنَّها هَرَبَت! فلَمَّا سَمِعَ الْمُعْتَضِدُ ذلك سَجدَ ، وأحْضَرَ الهاشِميَّ ، فأخْرَجَ له اليَدَ والرِّجْلَ ، فاصْفَرَّ واعْتَرفَ ، فدَفَعَ إلىٰ صاحِبِ الجاريَةِ ثمَنها ، وسَجنَ الهاشِميَّ ، فيُقالُ : قَتلَه[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمةِ : صاحِبِ المَغْرب : أبو إسْحاقَ إبرهيمُ ابنُ أحمد بنُ الأغْلب التَّميميُّ الأغْلبيُّ القَيْروَانيُّ ، ابنُ أُمَراء القَيْروَان .

وَلِيَ سَنةَ إحْدَىٰ وستِّين ومئتَين[3] .

وكان مَلكاً حازِماً صارِماً مَهيباً ، كانت التجَّارُ تَسيرُ في الأمْنِ من مِصْرَ إلىٰ سَبْتة ، لا تُعارَض ، ولا تُرَوَّع .

ابْتَنى الحُصونَ والمَحارسَ ، بحيثُ كانت تُوقَدُ النَّارُ ، فتَتَّصلُ في ليلة إذا حَدثَ أمرٌ من سَبْتَة إلى الإسْكَنْدَريَّة ، بحيثُ إنَّه يُقالُ : قد أنْشيءَ في البلاد من بنائِه وبناءِ آبائِه ثَلاثُونَ ألفَ مَعْقِل ، وهو الذي مَصَّرَ مَدينَةَ سُوسَة[4] .

وقد دُوِّنَت أيَّامُه وعَدلُه وجُودُه ، وكان سَديدَ السِّيرَة ، شَهماً ، ظَفرَ بامْرأةٍ مُتعَبِّدَةٍ

---

(١) انظر السير : (الْمُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٣/ ٤ .
(٢) انظر السير : (الْمُعْتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٤/ ١ .
(٣) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١١١٠/ ٢ .
(٤) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ١١١٠/ ٣ .

قادَتْ قودَة ، فدَفَنَها حيَّةً ، وشَنقَ سَبعةَ أجْنادٍ أخَذوا لتاجر ثَلاثةَ آلاف دينار ، بعدَ أنْ قرَّرَهم ، وأخَذَ الذَّهبَ لمْ يَنقُصْ سِوىٰ سَبعَةَ دَنانير ، فوزَنَها من عنده[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ صاحِبِ حِمْصَ ، الْمَلكِ المجاهِدِ أسَدِ الدِّين أبي الحارِثِ شِيركُوه : وكان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، وكانت بلادُه نَظيفَةً من الخُمور ، ومَنعَ النِّساءَ من الخُروجِ من أبْوابِ حِمْصَ جُملةً ، ودامَ ذلك خَوفاً من أن يَنزِحَ بهنَّ رجالُهن لعَسْفِه ، وكان يُديمُ الصَّلَواتِ ، ولا يُحبُّ لهواً ، وكان ذا رَأيٍ ودَهاءٍ ، وشَكْلٍ مَليحٍ وجَلالَةٍ ، كانت الْمُلوكُ تُداريه ويَخافونَه[2] .

(ج) التَّضَرُّع إلى الله والالتِجاء إليه حَالَ الأزمات :

جاءَ في تَرجَمَةِ الخَليفَة العَبَّاسيِّ الْمَهْدي بنِ أبي جَعْفَر الْمَنْصورِ ، قالَ ابنُ رَشيد : هاجَت ريحٌ سَوْداءُ فسَمعتُ سَلَماً الحاجِبَ يَقولُ : فُجِعْنا أن تكون القيامة ، فطلبتُ الْمَهْديَّ في الإيوانِ ، فلَمْ أجِدْهُ فإذا هو في بيتٍ ساجدٌ على التُّرابِ يَقولُ : اللَّهُمَّ : لا تُشْمِتْ بنا أعْداءَنا من الأُمَمِ ولا تُفْجِعْ بنا نَبيَّنا ، اللَّهُمَّ إنْ كُنتَ أخَذْتَ العامَّةَ بذَنبي ، فهٰذه ناصِيتي بيَدِك فما أتَمَّ كَلامَه حتى انْجَلَتْ .

وقيلَ : كان كَثيرَ التَّولية والعَزْلِ بغَيرِ كبير سَبب ، ويُباشِرُ الأُمورَ بنفسِه ، وأطْلَقَ خَلْقاً من السُّجُونِ ، وزادَ في الْمَسْجِدِ الحَرامِ وزَخْرَفَه[3] .

(د) عَدَمُ التَّغيُّر بالإمَارَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي مُوسَى الأشْعَريِّ : قد كان أبو مُوسَىٰ صَوَّاماً قَوَّاماً رَبَّانياً زاهداً عابداً ، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر ، لَمْ تُغَيِّرْه الإمارَةُ ، ولا اغتر بالدنيا .

تُوفِّيَ سَنةَ اثْنَتين وأرْبَعينَ[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن الأغْلَب) ١٣/ ٤٨٧ـ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١١٠ .

(٢) انظر السير : (صاحب حِمْص) ٢٣/ ٣٩ـ٤١ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٣ .

(٣) انظر السير : (الْمَهْدي) ٧/ ٤٠٠ـ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/٧١١ .

(٤) انظر السير : (أبو مُوسَى الأشْعَري) ٢/ ٣٨٠ـ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/٢٨١ .

(هـ) قَبولُ العِظَة والنَّصيحَة :

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي مُسْلِمِ الخَولانيِّ ، عن عَطيّةَ بنِ قَيْس ، قال دَخلَ أبو مُسلم الخَولاني علىٰ مُعاويَةَ ، فقامَ بين السِّماطَين فقال : السَّلامُ عليكَ أيُّها الأَجيرُ فقالوا : مَهْ قالَ: دَعُوه، فهو أعْرَفُ بما يَقولُ وَعَليكَ السَّلامُ يا أبا مُسْلم ثم وَعَظَه، وحَضَّه على العَدْل.

قال المُفضَّلُ بنُ غَسَّان الغَلابي : إنَّ علقَمة وأبا مُسلم ماتا في سنة اثنين وستِّين فاللهُ أعلمُ .

وبدرايَّا قَبرٌ يُزارُ ، يُقالُ : إنَّه قَبرُ أبي مُسلم الخَولاني ، وذلك مُحْتمَل[1] .

(و) الرُّجُوعُ إلى الحَقِّ :

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمَأمونِ العَبّاسيِّ ، قالَ الإمامُ الذهَبيُّ ، وقيلَ : إن المأمونَ لِتَشَيُّعِه أمَرَ بالنِّداءِ بإباحَةِ الْمُتعَة ـ مُتْعَةِ النِّسَاءِ ـ فدَخلَ عَليه يَحْيَىٰ بنُ أكْثَم ، فذَكَرَ له حَديثَ علي رضي الله عنه بتَحْريمِها ، فلَمَّا عَلمَ بصِحَّة الحَديث ، رَجعَ إلى الحَقِّ ، وأَمَرَ بالنِّداءِ بتَحْريمِها .

أمَّا مَسألَةُ القُرآن ، فمَا رَجعَ عَنها ، وصَمَّمَ على امْتِحانِ العُلماء في سَنَةِ ثَمانِيَ عَشرَة ومئتَين ، وشَدَّدَ عليهم ، فأخَذَه الله[2] .

(ز) عَدَمُ العُقُوبَة حَالَ الغَضَب :

قالَ الأَحْنَفُ بنُ قَيْس : لا يَنْبَغي للأميرِ الغَضَب ، لأَنَّ الغَضبَ في القُدْرَة لِقاحُ السَّيفِ والنَّدامَة[3] .

وقالَ الأوْزاعيُّ : كانَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إذا أرادَ أنْ يُعاقِبَ رَجُلاً حَبسَه ثلاثاً ، ثم عاقَبَه كَراهيَةَ أنْ يَعْجَلَ في أوَّلِ غَضَبه[4] .

---

(١) انظر السير : (أبو مُسْلم الخَوْلاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٤٣٢/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الْمَأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/٨٧٧ .

(٣) انظر السير : (الأحْنَف بن قَيْس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/٤٥٣ .

(٤) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٠ .

(ح) الزُّهْد :

عن مَسْلَمَةَ بنِ عبدِ المَلِك قالَ : دَخلتُ علىٰ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيزِ وقَميصُه وَسِخٌ ، فقُلتُ لامْرأتِه ـ وهي أختُ مَسْلَمَة : اغْسِلوهُ قالت : نَفعَلُ ، ثم عُدتُ فإذا القَميصُ علىٰ حالِه ، فقُلتُ لها ، فقالت : واللهِ ما لَه قَميصٌ غَيرُه[1] .

عن عَوْنِ بنِ الْمُعْتَمِر أنَّ عُمرَ بنَ عبدِ العَزيزِ قالَ لامرأتِه : عندَكِ دِرْهَمٌ أشْتَري به عِنباً ؟ قالَت : لا ، قالَ : فعِندَكِ فُلوسٌ ؟ قالَت كلاَّ ، أنتَ أميرُ المؤمنينَ ولا تَقدِرُ علىٰ دِرْهَم ، قالَ : هـٰذا أهْوَنُ من مُعالَجَة الأغْلالِ في جهَنَّم[2] .

(ط) مُشَارَكةُ الرَّعِيّة في الشَّدائِد والمَصائب :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، قالَ عِكرِمَةُ بنُ خالِد : وأصابَ النَّاسَ سَنَةٌ[3] فما أكَلَ عُمَرُ عامَئذٍ سَمْناً ولا سَميناً[4] .

وقالَ أنَسٌ : تَقَرْقَرَ بَطنُ عُمَرَ من أكْلِ الزَّيتِ عامَ الرَّمادَة ، كانَ قد حَرَمَ نَفسَه السَّمْنَ ، قالَ : فنَقَرَ بَطْنَه بإصْبُعِه وقالَ : إنَّه ليسَ لكِ عندَنا غيرُه حتىٰ يَحْيا النَّاسُ[5] .

وعن أسْلَمَ قالَ : لَوْ لَمْ يَرْفَعْ اللهُ الْمَحْلَ عامَ الرَّمادَةِ لَظَنَنَّا أنَّ عُمَرَ يموتُ[6] ،[7] .

١٦ـ الأمِيرُ العَادِلُ بَرَكة :

عن عُمرَ بنِ أُسَيد ، قالَ : واللهِ ، ما ماتَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز حتىٰ جَعلَ الرَّجلُ يَأتينا بالمالِ العَظيم ، فيَقولُ : اجْعلوا هـٰذا حَيثُ تَرَونَ ، فما يَبْرَحُ حتىٰ يَرجعَ بمالِه كلِّه ، قد أغْنَىٰ عُمرُ النَّاسَ[8] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٠/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٩٠/ ٥ .
(٣) السَّنَة : المجاعة .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٨/ ١ .
(٥) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥١/ ٤ .
(٦) زاد ابنُ سَعْد في طَبقاتِه (٣/ ٣١٥) : « هَمّاً بأمر المسلمين » .
(٧) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٢/ ٢ .
(٨) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٩/ ١ .

١٧ـ هَيْبَةُ الحَاكم من قَواعِد اسْتِقْرار الدُّوَل :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، عن ابنِ عَبَّاس ، قالَ : لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ قيلَ له : لَقد كادَ بَعْضُ النَّاسِ أنْ يَحيدَ هـٰذا الأمْرَ عَنْكَ ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قالَ : يَزْعُمُونَ أنَّكَ فَظٌّ غَليظٌ ، قالَ : الحَمْدُ للهِ الذي مَلأَ قَلْبي لهم رُحْماً ومَلأَ قُلوبَهُم لي رُعْباً[١] .

١٨ـ قَوْلٌ بَليغٌ في الإمَارَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي الفَرَجِ ابنِ الجَوْزيِّ : ومِنْ غُرَرِ ألْفاظِه : يا أميرُ! اذْكرْ عندَ القُدْرَةِ عَدْلَ اللهِ فيكَ ، وعندَ العُقُوبَةِ قُدْرَةَ اللهِ عَليكَ ، ولا تَشْفِ غَيْظَكَ بِسقَمِ دينِك[٢] .

١٩ـ قد تُكرَه الإمَارَة لأشْخاصٍ بِعَينِهم :

قالَ أبَيُّ بنُ كعْب لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ : مَا لَكَ لا تَسْتَعْمِلُني ؟ قالَ : أكرَهُ أنْ يُدَنَّس دينُك[٣] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذَرْ الغِفاريِّ ـ مع قُوَّةِ أبي ذَرٍّ وشَجاعَتِه ـ : « يا أبا ذَرْ ، إنِّي أَرَاكَ ضَعِيفاً ، وَإنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي ، لا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : فهـٰذا مَحمولٌ علىٰ ضَعْفِ الرأي ، فإنَّه لَوْ وَلِيَ مَالَ يَتيمٍ ، لأنْفَقه كُلَّه في سَبيلِ الخَيرِ ، ولَتَرَكَ اليَتيمَ فَقيراً فقد كانَ لا يَستَجيزُ ادِّخارَ النَّقْدَين والذي يَتأمَّرُ على النَّاسِ ، يُريدُ أنْ يَكونَ فيه حِلمٌ ومُدارَاةٌ ، وأبو ذَرْ رضي الله عنه كانت فيه حِدَّة ـ كما ذَكَرْناه ـ فنَصَحَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم[٤] .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٧ .

(٢) انظر السير : (أبو الفَرَج ابن الجَوْزيّ) ٢١/٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٣٣ .

(٣) انظر السير : (أبَيُّ بنُ كعْب) ١/٣٨٩ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٨١ .

(٤) انظر السير : (أبو ذَرْ) ٢/٤٦ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٢١ .

٢٠ـ إقالةُ عَثَراتِ أُولِي الهَيئات :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مُحمَّدِ بنِ عجْلانَ : وقَدْ خَرجَ على الْمَنْصُورِ مع ابنِ حَسَن ، فلَمَّا قُتلَ ابنُ حَسَن ، هَمَّ وَالي المَدينَة جَعْفَرُ ابنُ سُلَيْمانَ أنْ يَجْلِدَه فقالوا له : أصْلحَك اللهُ : لَوْ رَأيتَ الحَسَنَ البَصْريَّ فَعلَ مثلَ هـٰذا أكُنتَ تَضرِبُه ؟ قالَ : لا قِيلَ : فابنُ عجْلانَ في أهْلِ المَدينَةِ كالحَسَنِ في أهْلِ البَصْرَة[١] .

قالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْريُّ : كان لابنِ عجْلان قَدرٌ وفَضلٌ بالمَدينَة وكانَ مِمَّنْ خَرجَ مع مُحمَّدِ بنِ عبدِ الله ، فأرادَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ قَطعَ يَدِه ، فسَمعَ ضَجَّةً ، وكان عندَه الأكابِرُ فقالَ : ما هـٰذا ؟ قالوا : هـٰذه ضَجَّةُ أهْلِ المَدينَة يَدعُونَ لابنِ عجْلانَ فلَوْ عَفَوْتَ عنه ؟ وإنَّما غُرَّ ، وأخْطأ في الرِّوايَة ظَنَّ أنَّه الْمَهْديَّ ، فأطْلقَه وعَفا عنه[٢] .

٢١ـ الإدارَةُ الماليَّة لبَيْتِ المال :

جاءَ في تَرجَمَةِ أميرِ المؤمنينَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه ، قالَ الزُّهْريُّ : فَتحَ اللهُ الشَّامَ كُلَّه علىٰ عُمَرَ ، والجَزيرَةَ ، ومِصْرَ ، والعِراقَ كُلَّه ، ودَوَّنَ الدَّواوينَ قبلَ أنْ يَمُوتَ بعامٍ ، وقَسَّمَ على النَّاسِ فَيْئَهم .

وقالَ ابنُ مَسْعود : إذا ذُكِرَ الصَّالِحونَ فحَيْهَلا بعُمَرَ ، إنَّ عُمَرَ كان أعْلَمَنا بكتابِ اللهِ ، وأفْقَهَنا في دينِ الله .

وقالَ ابنُ مَسْعود : لَوْ أنَّ عِلمَ عُمَرَ وُضِعَ في كفَّةِ ميزانٍ ووُضِعَ عِلمُ أحْياءِ الأرْضِ في كفَّةٍ لَرَجَحَ عِلمُ عُمَرَ بعِلمِهم .

وعن حُذَيْفَةَ قالَ : كانَ عِلمُ النَّاسِ مَدْسُوساً في جُحْرٍ مع عُمَرَ[٣] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ سِيرينَ : قَدمَ صِهْرٌ لِعُمَرَ عليه فطَلَبَ أنْ يُعْطيَهُ عُمَرُ من بَيْتِ الْمَالِ

---

(١) انظر السير : (محمّد بن عجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ٨/٦٥٣ .
(٢) انظر السير : (محمّد بن عجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٤ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٧ .

فانْتَهَرَهُ عُمَرُ وقالَ : أرَدْتَ أنْ أَلْقَى اللهَ مَلِكاً خائناً! فلَمَّا كان بَعدَ ذلك أعْطاهُ من صُلبِ مالِه عَشرَةَ آلافِ دِرْهَم(١) .

وقالَ إبْراهيمُ بنُ عبدِ الرَّحْمَـٰنِ بن عَوْف : أُتِيَ عُمَرُ بِكُنوزِ كسْرَىٰ ، فقالَ عبدُ اللهِ بنُ الأرْقَم : أتَجْعَلُها في بَيتِ المالِ حتىٰ تَقْسِمَها ؟ فقالَ عُمَرُ : لا واللهِ لا آويها إلىٰ سَقْف حتىٰ أُمْضِيَها ، فوَضَعَها في وَسَطِ الْمَسْجِدِ وباتوا يَحْرُسُونَها ، فلَمَّا أصْبَحَ كَشَفَ عنها فرَأىٰ من الحَمْراءِ والبَيْضاءِ ما يَكادُ يَتلألأُ ، فبَكَىٰ ، فقالَ له أُبَيٌّ : ما يُبْكيكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فوَاللهِ إنَّ هـٰذا ليَومُ شُكرٍ ويَومُ سُرورٍ! فقالَ : وَيْحَك ، إنَّ هـٰذا لَمْ يُعْطَه قَومٌ إلاَّ أُلْقِيَتْ بَينَهم العَداوَةُ والبَغْضاءُ(٢) .

وقالَ أبو هُرَيْرَة : دَوَّنَ عُمَرُ الدِّيوانَ ، وفَرَضَ للمُهاجِرينَ الأوَّلينَ خَمْسَةَ آلافٍ ، وللأنْصارِ أرْبَعَةَ آلافٍ ، ولأُمَّهاتِ المؤمنينَ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً(٣) .

وقالَ المَدائنيُّ : ولَمَّا فَتحَ اللهُ على المسْلمينَ غَنائمَ رُسْتُم ، وقَدِمَت علىٰ عُمَرَ الفُتوحُ من الشَّام والعِراقِ جَمَعَ المسْلمينَ فقالَ : ما يَحِلُّ للوَالي من هـٰذا المالَ ؟ قالوا : أمَّا لخاصَّتِه فقُوتُهُ وقُوتُ عِيالِه لا وَكْسَ ولا شَطَط ، وكِسْوَتُه وكِسْوَتُهم ، ودَابَّتانِ لجِهادِه وحَوائجِه ، وحَمالَتِه إلىٰ حَجِّه وعُمْرَتِه ، والقَسمُ بالسَّوِيَّة أن يُعْطي أهلَ البلادِ علىٰ قَدرِ بَلائهم ، ويَرُمَّ أمورَ المسْلمينَ ويَتَعاهَدَهم .

وفي القَومِ عليٌّ رضي الله عنه سَاكِتٌ ، فقالَ : ما تَقولُ يا أبا الحَسَن ؟ فقالَ : ما أصْلَحَكَ وأصْلَحَ عِيالَكَ بالمَعْروفِ(٤) .

وقيلَ إنَّ عُمَرَ قَعَدَ علىٰ رِزْقِ أبي بَكر حتى اشْتَدَّت حاجَتُه ، فأرادُوا أنْ يَزيدُوه فأبَىٰ عليهم(٥) .

---

(١) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٠/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥١/ ١ .
(٣) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥١/ ٣ .
(٤) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٥/ ١ .
(٥) انظر السير : (عُمَر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٥/ ١ .

(٢) الشُّهْرَةُ والتَّصَدُّر

١ـ أقْوالٌ بَليغَةٌ في التَّحْذيرِ من :

(أ) حُبِّ الشُّهْرَة :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ شَهْرِ بنِ حَوْشَب : ومِنْ مَليحِ قَولِه : مَنْ رَكبَ مَشْهوراً من الدَّوابِّ ، ولَبسَ مَشْهوراً من الثِّيابِ ، أعْرَضَ اللهُ عنه ، وإنْ كانَ كَريماً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : مَنْ فَعَلَه لِيُعِزَّ الدِّينَ ، ويُرْغِمَ الْمُنافِقينَ ، ويَتواضَعُ مع ذلك للمُؤمنينَ ، ويَحْمَدُ رَبَّ العالَمينَ ، فحَسنٌ .

ومَنْ فَعَلَه بَذَخاً وتيهاً وفَخْراً أذَلَّه اللهُ وأعْرضَ عنه ، فإنْ عُوتِب ووُعِظَ فكابَرَ وادَّعىٰ أنَّه لَيسَ بمُخْتالٍ ولا تَيَّاهٍ فأعْرِضْ عنه فإنَّه أحْمَقٌ ، مَغْرورٌ بنَفسِه[١] .

وقال أيُّوبُ السَّخْتيانيُّ : ما صَدَقَ عَبدٌ قَطُّ ، فأحَبَّ الشُّهْرَةَ[٢] .

وعن طَالُوتَ : سَمعتُ إبْراهيمَ بنَ أدْهَمَ يَقولُ : ما صَدَقَ اللهَ عَبدٌ أحَبَّ الشُّهْرَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عَلامَةُ الْمُخْلِص الذي قد يُحِبُّ شُهرةً ، ولا يَشْعُرُ بها ، أنَّه إذا عُوتِبَ في ذلك لا يَحرَدُ ولا يُبرِّىءُ نفسَه ، بَلْ يَعترِفُ ويَقولُ : رَحمَ اللهُ مَنْ أهْدَىٰ إليَّ عُيوبي ، ولا يَكُنْ مُعْجَباً بنَفسِه ، لا يَشْعُرُ بعُيوبِها ، بل لا يَشْعُرُ أنَّه لا يَشْعُرُ ، فإنَّ هـٰذا داءٌ مُزمِن[٣] .

وعن بِشْرِ بنِ الحارث : لَيسَ أحَدٌ يُحبُّ الدُّنيا إلاَّ لَمْ يُحبَّ الْمَوتَ ، ومَنْ زَهدَ فيها ، أحَبَّ لِقاءَ مَوْلاه وعنه : ما اتَّقَى اللهَ مَنْ أحَبَّ الشُّهْرَةَ[٤] .

---

(١) انظر السير : (شَهْر بن حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٥١٣/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أيُّوب السَّخْتياني) ٦/ ١٥ـ ٢٥ ، وانظر النزهة : ٨/٦٢٦ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧٠٨/ ٥ .
(٤) انظر السير : (بِشْر بن الحارث) ١٠/٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٨٨٦/ ١٠ .

(ب) حُبُّ الرِّئاسَة :

قالَ يَحْيَىٰ بنُ مُعاذ : لا يفلح من شَمَمتَ رائحةَ الرياسَة منه[1] .

٢ـ حُبُّ الرِّئاسَة مُتمكنٌ من القُلُوب :

قال يوسُفُ بنُ أسْباط : سَمعتُ سُفيانَ الثَّوْريَّ يقولُ : ما رَأيتُ الزُّهْدَ في شيء أقَلَّ منه في الرِّئاسَة ، تَرى الرَّجُلَ يَزْهَدُ في الْمَطْعَمِ والْمَشْرَبِ والمالِ والثِّيابِ ، فإنْ نُوزِعَ الرئاسَةَ ، حامَىٰ عليها ، وعادَىٰ[2] .

وعنه[3] قالَ : للصَّادِقِ ثلاثُ خِصالٍ : الحَلاوَةُ ، والْمَلاحَةُ ، والْمَهابَة .

وعنه : خُلقَت القُلوبُ مَساكِنَ للذِّكْرِ ، فصارَت مَساكِنَ للشَّهَواتِ لا يَمحُو الشَّهَواتِ إلاَّ خَوفٌ مُزْعِجْ ، أو شَوقٌ مُقْلِقْ ، الزُّهدُ في الرِّئاسَة أشَدُّ منه في الدُّنيا[4] .

٣ـ الرِّئاسَة والتَّصدُّر يجب أنْ يَكونا مَقْرونَين بالخَشْيَة والتَّوَاضُع :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القاضي عِياض : وحَازَ من الرِّئاسَة في بَلدِه والرِّفْعَة ما لَمْ يَصِلْ إليه أحَدٌ قَطُّ من أهْلِ بَلَدِه ، وما زَادَه ذلك إلاَّ تَواضُعاً وخَشْيَةً لله تَعالَىٰ .

وقالَ القاضي شَمْسُ الدِّين في « وَفيَّات الأعْيان » : هو إمامُ الحَديثَ في وَقْتِه ، وأعْرَفُ النَّاسِ بعُلومِه ، وبالنَّحْوِ واللُّغَة ، وكَلامِ العَرَبِ ، وأيّامِهم ، وأنْسَابِهم .

قالَ : ومن تَصانيفِه كتابُ « الإكمال في شَرح صَحيح مُسْلم » ، كَمَّلَ به كتابَ « الْمُعْلِم » للمازَرِيِّ ، وكتابُ « مَشارِقُ الأنْوار » في تَفسيرِ غَريبِ الحَديثِ ، وكتابُ « التَّنْبيهات » فيه فَوائدُ وغَرائبُ وكُلُّ تَواليفه بَديعَةٌ ، وله شِعْرٌ حَسَن[5] .

---

(١) انظر السير : (يَحْيَىٰ بنُ مُعاذ) ١٣/ ١٥ـ ١٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٤٧ .

(٢) انظر السير : (سُفْيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٩٨ .

(٣) يعني يُوسُفَ بنَ أسْباط .

(٤) انظر السير : (يُوسُف بن أسْباط) ٩/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٥/٨١٤ .

(٥) انظر السير : (القاضي عِياض) ٢٠/ ٢١٢ـ ٢١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٤٣ .

٤ـ عاقِبَةُ طَلَب التَّصدُّر وحُبِّ الرِّئاسَة والظُّهُور :

قال ابنُ الحَدَّاد : ما صَدَّ عن اللهِ مثلُ طَلَبِ الْمَحامِدِ ، وطَلَبِ الرِّفْعَة[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ حَزْم تَعْقيباً علىٰ قولِه : أنا أَتَّبِعُ الحَقَّ ، وأجْتَهِدُ ولا أتَقيَّدُ بمَذهَب ، فقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : نعَم ، مَنْ بَلغَ رُتْبَةَ الاجْتهادِ ، وشَهدَ له بذلكَ عدَّة من الأئمَّة ، لم يُسُغْ له أنْ يُقَلِّدَ ، كما أنَّ الفَقيهَ المُبْتدىءَ والعامِّيَّ الذي يَحفَظُ القُرآنَ أوْ كثيراً منه لا يَسُوغُ له الاجْتهادُ أبداً ، فكَيفَ يَجْتهدُ وما الذي يَقولُ ؟ وعَلامَ يَبني ؟ وكَيفَ يَطيرُ ولمَّا يُرَيِّش ؟ والقِسْمُ الثالثُ : الفَقيهُ المُنْتَهي اليَقِظُ الفَهِمُ الْمُحَدِّثُ ، والذي قد حَفظَ مُختصَراً في الفُروع ، وكتاباً في قَواعِدِ الأُصُول ، وقَرأَ النَّحوَ ، وشارَكَ في الفَضائل مع حِفظِه لكتابِ اللهِ وتَشاغُلِه بتَفسيرِه ، وقُوَّة مُناظَرَته ، فهٰذه رُتبَةُ مَنْ بَلَغَ الاجْتهادَ المُقيَّد ، وتأهَّلَ للنَّظَرِ في دَلائِل الأئمَّة ، فمَتىٰ وَضُحَ له الحَقُّ في مَسألَة ، وثَبُتَ فيها النصُّ ، وعَملَ بها أحدُ الأئمَّةِ الأعْلام كأبي حَنيفَة مَثلاً ، أو كمَالِك ، أو الثَّوْريِّ ، أو الأوْزاعيِّ ، أو الشَّافعيِّ وأبي عُبَيد ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، فليَتَّبعْ فيها الحَقَّ ولا يَسلُكْ الرُّخَص وليَتورَّع ، ولا يَسعُه فيها بَعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليه تَقْليدٌ[2] .

فإنْ خَافَ مِمَّنْ يُشَغِّبُ عليه من الفُقَهَاء فلْيَتَكتَّم بها ولا يَتَراءَىٰ بفعْلِها ، فرُبَّما أعْجَبَته نَفسُه ، وأحَبَّ الظُّهورَ ، فيُعاقَبُ ، ويَدخُل عليه الدَّاخِلُ من نفسِه فكَمْ من رَجلٍ نَطَقَ بالحَقِّ ، وأمَرَ بالْمَعْروفِ ، فيُسلِّطُ الله عليه مَنْ يؤذيه لسُوءِ قَصْدِه وحُبِّه للرِّئاسَة الدِّينيَّة ، فهٰذا دَاءٌ خَفيٌّ سارَ في نُفوس الفُقَهاء كمَا أنَّه داءٌ سارَ في نُفوسِ الْمُنْفِقينَ من الأغْنياءِ وأرْبابِ الوُقُوفِ والتُّرَب الْمُزَخْرَفَة ، وهو دَاءٌ خَفيٌّ يَسْري في نُفوسِ الجُندِ والأُمَراءِ والْمُجاهِدينَ ، فتَراهُم يَلتَقُون العَدوَّ ويَصْطَدمُ الجَمْعانِ وفي نُفوسِ الْمُجَاهِدين مُخَبَّآتٌ وكَمَائنُ من الاخْتِيالِ وإظْهارِ الشَّجاعَة ليُقالَ ، والعُجبُ ، ولُبْسُ القَراقِلِ[3]

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٦ .

(٢) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٠ .

(٣) القَراقِل : ضرب من الثياب ، وقيل : هو ثوب بغير كُمَّين ، وقال أبو تراب : القرقل قميص من قمص النساء بلا لِبْنَة ، وجمعه قَراقِل . =

الْمُذَهَّبَة والخُوَذِ الْمُزَخْرَفَة ، والعُدَد الْمُحَلاَّة على نُفوسٍ مُتكَبِّرَة ، وفُرْسَانٍ مُتَجَبِّرَة ويَنْضافُ إلىٰ ذلك إخْلالٌ بالصَّلاةِ ، وظُلْمٌ للرَّعيَّة ، وشُرْبٌ للمُسْكِر ، فأنَّىٰ يُنصَرون ؟ وكيفَ لا يُخْذَلون ؟ اللَّهمَّ فانْصُرْ دينَك ووَفِّقْ عِبادَك[1] .

٥ـ مِنْ صِفاتِ مُحِبِّ الرِّئاسَة :

قالَ الإمامُ الجُوعِيُّ : إذا رَأيتَ الرَّجُلَ يُخاصِمُ فهو يُحبُّ الرِّئاسَة .

تُوفِّيَ قاسِمٌ الجُوعيّ سَنَةَ ثَمانٍ وأرْبَعينَ ومِئتَين[2] .

٦ـ عاقِبَةُ التَّصَدُّر قَبل الأوَان :

قالَ زُفَرُ بنُ الهُذَيلِ : مَنْ قَعدَ قبلَ وَقتِه ذَلَّ[3] .

وللصُّعْلوكِيِّ ألفاظٌ بَديعَةٌ ، منها : مَنْ تَصدَّرَ قبلَ أوانِه ، فقد تَصَدَّىٰ لِهَوانِه[4] .

٧ـ ضَوابطُ للشُّهْرَة :

مِنْ مَليحِ قَولِ شَهْرِ بنِ حَوْشَب : مَنْ رَكبَ مَشْهوراً من الدَّوابِّ ، ولَبسَ مَشْهوراً من الثِّيابِ ، أعْرَضَ اللهُ عنه ، وإنْ كانَ كَريماً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : مَنْ فَعَلَه لِيُعِزَّ الدِّينَ ، ويُرْغِمَ الْمُنافِقينَ ، ويَتواضَعُ مع ذلك للمُؤمنينَ ، ويَحْمَدُ رَبَّ العَالَمينَ ، فحَسنٌ .

ومَنْ فَعَلَه بَذَخاً وتيهاً وفَخْراً أذَلَّه اللهُ وأعْرضَ عنه ، فإنْ عُوتِب ووُعِظَ فكابَرَ وادَّعَىٰ أنَّه لَيسَ بمُخْتالٍ ولا تَيَّاهٍ فأعْرِضْ عنه فإنَّه أحْمَقٌ ، مَغْرورٌ بنَفسِه[5] .

وعن طَالُوتَ : سَمعتُ إبْراهيمَ بنَ أدْهَمَ يَقولُ : ما صَدَقَ اللهَ عَبدٌ أحَبَّ الشُّهْرَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عَلامَةُ الْمُخْلِص الذي قد يُحِبُّ شُهرةً ، ولا يَشْعُرُ بها ، أنَّه إذا

---

(١) انظر السير : (ابن حَزْم) ١٨/ ١٨٤ـ ٢١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٠٠ .
(٢) انظر السير : (الجُوعِيّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/٩٨٤ .
(٣) انظر السير : (زُفَرُ بنُ الهُذَيل) ٨/ ٣٨ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ٦/٧٢٤ .
(٤) انظر السير : (الصُّعْلوكيّ) ١٧/ ٢٠٧ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٧ .
(٥) انظر السير : (شَهْرِ بنِ حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢ـ ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥١٣ .

عُوتِبَ في ذلك لا يَحرَدُ ولا يُبرِّىءُ نفسَه ، بَلْ يَعترِفُ ويَقولُ : رَحِمَ اللهُ مَنْ أَهْدَىٰ إليَّ عُيوبي ، ولا يَكُنْ مُعْجَباً بنفسِه ، لا يَشْعُرُ بعُيوبِها ، بل لا يَشْعُرُ أنَّه لا يَشْعُرُ ، فإنَّ هـٰذا داءٌ مُزمِن[1] .

٨ـ قِصَّةٌ تُبيِّنُ كراهيَةَ السَّلَفِ للشُّهْرَة :

من محاسن الإمام ابن نُجَيْد أنَّ شَيخَه الزَّاهد أبا عثمان الحِيريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور ، فتأخَّرَ ، فتألَّمَ وبَكَىٰ علىٰ رُؤوس النَّاس فجاءَهُ ابنُ نُجَيْد بألْفي درهم ، فدَعا له ، ثمَّ إنَّه نوَّهَ به ، وقال : قد رَجَوتُ لأبي عمرو بما فعل ، فإنَّه نابَ عن الجماعة ، وحمل كذا وكذا ، فقام ابنُ نُجَيْد ، وقال : لكن إنَّما حملتُ من مال أمي وهي كارهة ، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ ، فأمر أبو عثمان بالكيس فَرُدَّ إليه ، فلمَّا جَنَّ الليلُ جاءَ بالكيسِ ، والتَمَسَ من الشيخ سترَ ذلك ، فبَكَىٰ ، وكان بعد ذلك يَقولُ : أنا أخشىٰ من هِمَّة أبي عَمرو[2] .

٩ـ قِلَّةُ الإخْلاص تُؤدي إلىٰ حُبِّ الشُّهْرَة :

قالَ إبراهيمُ بنُ أدْهَم : مَنْ طَلَبَ العِلمَ لله ، كانَ الخُمولُ أَحَبُّ إليه من التَّطاوُل ، والله ما الحَياةُ بثِقَةٍ ، فيُرجَىٰ نَومُها ، ولا الْمَنِيَّةُ بعُذْر ، فيُؤمَنُ عُذرُها ، ففيمَ التَّفْريطُ والتَّقْصيرُ والاتِّكَالُ والإبْطَاءُ ؟! قد رَضينا من أعْمالِنا بالْمَعَاني ، ومِنْ طَلبِ التَّوْبَة بالتَّوَاني ، ومِنْ العَيشِ البَاقي بالعَيشِ الفَاني[3] .

١٠ـ صُوَرٌ من كراهيَتِهم الشُّهْرَة والتَّصَدُّر :

عن ابنِ مُحَيْريز ، سمع فَضَالَةَ بنَ عُبَيْد وقلت له : أوصني ، قال : خِصالٌ يَنفعُكَ اللهُ بهِنَّ ، إنْ اسْتَطعْتَ أنْ تَعْرِفَ ولا تُعْرَفَ ، فافْعَلْ ، وإنْ اسْتَطعْتَ أنْ تَسْمَعَ

---

(١) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧٠٨/ ٥ .
(٢) انظر السير : (ابنُ نُجَيد) ١٦/ ١٤٦ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١٢٧٥/ ٢ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم بن أدْهَم) ٧/ ٣٨٧ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧٠٨/ ١٠ .

ولا تَكلَّمَ ، فافْعَلْ ، وإنْ اسْتَطعْتَ أنْ تَجْلِسَ ولا يُجْلَسَ إليك ، فافْعَلْ وقد عُدَّ فَضَالَةُ في كبار القُرَّاء[١] .

وقالَ عاصِمٌ الأحْوَل : كانَ أبو العاليَة إذا جَلسَ إليه أكْثرُ من أرْبَعَةٍ قامَ فتَركَهم[٢] .

ومِنْ مَليح قَولِ شَهْرِ بنِ حَوْشَب : مَنْ رَكبَ مَشْهوراً من الدَّوابِّ ، ولَبسَ مَشْهوراً من الثِّيابِ ، أعْرَضَ اللهُ عنه ، وإنْ كانَ كَريماً .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : مَنْ فَعلَه لِيُعِزَّ الدِّينَ ، ويُرْغِمَ الْمُنافِقينَ ، ويَتواضَعُ مع ذلك للمُؤمنينَ ، ويَحْمَدُ رَبَّ العَالَمينَ ، فحَسنٌ .

ومَنْ فَعَلَه بَذَخاً وتيهاً وفَخْراً أذَلَّه اللهُ وأعْرضَ عنه ، فإنْ عُوتِب ووُعِظَ فكابَرَ وادَّعَىٰ أنَّه لَيسَ بمُخْتالٍ ولا تَيَّاهٍ فأعْرِضْ عنه فإنَّه أحْمَقٌ ، مَغْرورٌ بنَفسِه[٣] .

وقيل : كان عبدُ الله بنُ مُحَيْريز من أحْرَصِ شيءٍ أنْ يَكتُمَ من نَفسِه أحْسنَ ما عنده[٤] .

وقالَ عبدُ الواحِد بنُ مُوسَىٰ : سَمعتُ ابنَ مُحَيْريز يَقولُ : اللَّهمَّ إنِّي أسْألُكَ ذِكراً خامِلاً[٥] .

وقالَ إبْراهيمُ النَّخَعي : تَكلَّمتُ ، وَلَوْ وَجَدتُ بُدّاً ، لَمْ أتَكلَّم ، وإنَّ زَماناً أكونُ فيه فَقيهاً لزَمانُ سُوء .

ماتَ سَنةَ سِتٍّ وتِسْعينَ[٦] .

وعن ثابتٍ قالَ لي مُحمَّدُ بنُ سِيرينَ : يا أبا مُحمَّد ، لَمْ يَكُنْ يَمنَعُني من مُجالَسَتِكم إلاَّ مَخافَةَ الشُّهْرَة ، فلَمْ يَزلْ بي البَلاءُ حتَّىٰ قُمتُ على الْمِصْطَبَة ، فقيلَ : هٰذا ابنُ سِيرينَ ، أكلَ أمْوالَ النَّاسِ ، وكانَ عَليه دَينٌ كَثير[٧] .

---

(١) انظر السير : (فَضَالَة بن عُبَيْد) ٣/ ١١٣-١١٧ ، وانظر النزهة : ٢/٣٤٧ .
(٢) انظر السير : (أبو العاليَة) ٤/ ٢٠٧-٢١٣ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧٩ .
(٣) انظر السير : (شَهْر بن حَوْشَب) ٤/ ٣٧٢-٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥١٣ .
(٤) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤-٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٥٣٩ .
(٥) انظر السير : (عبدُ الله بنُ مُحَيْريز) ٤/ ٤٩٤-٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٨/٥٣٩ .
(٦) انظر السير : (إبْراهيمُ النَّخَعي) ٤/ ٥٢٠-٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٤٩ .
(٧) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦-٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٦٨ .

وقالَ مَعْمَرٌ : كانَ في قَميصِ أيُّوبَ السِّخْتيانيِّ بعضُ التذْييل ، فقيلَ له ، فقالَ : الشُّهْرَةُ اليَومَ في التَّشْميرِ[1] .

دَخلَ علىٰ أحْمَدَ بنِ حَنْبَل عَمُّه ، فقالَ : يا ابنَ أخي ، أيْش هٰذا الغَمُّ ؟ وأيْش هٰذا الحُزْن ؟ فرَفَع رَأسَه ، وقالَ : يا عَمُّ ، طُوبىٰ لِمَنْ أخْمَلَ اللهُ ذِكْرَه[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أيُّوب السِّخْتيانيّ) ٦/ ١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦٢٦/ ١٢ .

(٢) انظر السير : (أحمَد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٦/ ٤ .

(٣) الظُّلْمُ والظَّالِمون

١ـ كان الظَّلَمَةُ أولاً جَيِّدي الإسْلام ـ في الجُملَة ـ مُعَظِّمين للشَّعائر :

الحَجَّاج :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : أهلكه الله في رَمضانَ سَنَةَ خَمسٍ وتِسعينَ كَهلاً ، وكان ظَلوماً ، جبّاراً ، ناصبيّاً ، خَبيثاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، وكان ذا شَجاعَةٍ وإقْدامٍ ومَكرٍ ودَهاءٍ ، وفَصاحَةٍ وبَلاغَةٍ ، وتَعظيمٍ للقُرآن قد سُقتُ من سُوء سيرَتِه في تاريخي الكبير ، وحِصارِه لابنِ الزُّبَيْر بالكَعْبَة ، ورَميه إيَّاها بالمِنْجَنيقِ ، وإذْلالِه لأهْلِ الحَرمَين ، ثم وِلايَتِه على العِراقِ والمشْرِق كلِّه عشرين سَنةً ، وحُروبِ ابنِ الأشْعَث له ، وتأخيره للصَّلوات إلىٰ أنْ استأصَلَه الله ، فنَسُبُّه ولا نُحِبُّه ، بلْ نَبْغَضُه في الله ، فإنَّ ذلك من أوْثَق عُرَى الإيمان .

وله حَسناتٌ مَغْمورَةٌ في بَحْر ذُنوبِه ، وأمْرُه إلى الله وله تَوحيدٌ في الجُملَة ونُظَراء من ظَلمَة الجَبابرَة والأُمَراء[١] .

أحمَدُ بنُ طُولُون :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : التُّرْكيُّ ، صاحبُ مِصْرَ أبو العَبَّاس .

وُلدَ بسامَرَّاء ، وقيلَ : بلْ تَبنَّاه الأميرُ طُولونُ وطُولونُ قدَّمَه صاحبُ ما وَراء النَّهْر إلى المأمون ، في عِدَّة مَماليك ، سنة مئتين فعاشَ طُولونُ إلىٰ سَنة أربَعين ومئتَين ، فأجادَ ابنُه أحمدُ حِفْظَ القُرآنِ ، وطلبَ العِلمَ ، وتَنقَّلت به الأحْوالُ ، وتأمَّرَ ووَليَ ثُغورَ الشَّام ، ثم إمْرَةَ دِمَشْق ، ثم وَلي الدِّيارَ المِصْريَّة في سَنة أربَع وخَمسين ، ولَه إذْ ذاكَ أربَعون سنة .

---

(١) انظر السير : (الحَجَّاج) ٤/ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٨ .

وكان بَطلاً شُجاعاً، مِقْداماً ، مَهيباً ، سائساً ، جَواداً ، مُمَدَّحاً من دُهاة الملوك[1] .

قيل كانت مُؤنتُه في اليومِ ألفَ دينار ، وكان يَرجعُ إلىٰ عَدْل وبَذْل لكنَّه جبَّارٌ ، سَفَّاكٌ للدِّماء[2] .

قال القُضاعيُّ : أُحْصيَ مَنْ قَتَله صَبْراً ، أو ماتَ في سِجْنه ، فبَلغوا ثَمانيةَ عشرَ ألفاً .

وأنْشأ بظَاهر مِصْرَ جَامعاً ، غَرِمَ عليه مئةَ ألفِ دينار ، وكان جَيِّد الإسْلام مُعَظِّماً للشَّعائر[3] .

عن مُحمَّد بنِ عليٍّ المادَرائي قالَ : كُنتُ أجْتازُ بقَبْر ابنِ طُولونَ فأرَىٰ شَيخاً مُلازماً له ، ثمَّ لمْ أرَه مُدَّة ، ثم رَأيتُه فسَألتُه ، فقالَ : كان له عليَّ أيادٍ ، فأحْببَتُ أنْ أصِلَه بالتِّلاوَة قالَ : فرَأيتُه في النَّومِ يقولُ : أحبُّ أنْ لا تَقرأَ عندي ، فما تَمرُّ بي آية إلاَّ قُرِّعْتُ بها ، ويُقالُ لي : أما سَمِعتَ هـٰذه ؟

تُوفِّي أحمدُ بِمِصْرَ سَنَةَ سَبعينَ ومِئتَين .

وقامَ بعدَه ابنُه خُمارَوَيْه ، ثمَّ جَيْشُ بنُ خُمارَوَيْه ، ثم أخُوهُ هارُون[4] .

٢ـ عُقُوبَةُ الله للظَّالم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُبَيْدِ الله بنِ زِياد بنِ أبيه : وصَحَّ من حَديث عُمارَة بنِ عُمَيْر ، قالَ : جيء برأسِ عُبَيدِ الله بنِ زياد وأصْحابِه ، فأتَيْناهم وهم يَقُولُونَ : قد جاءَت قد جاءَت ، فإذا حَيَّة تخلل الرُّؤوسَ حتىٰ دَخَلتْ في مِنْخَر عُبيدِ الله ، فمَكثَت هُنَيَّة ، ثم خَرجَت وغَابَت ثم قالوا : قد جاءَت ، قد جاءَت ، ففَعلَت ذلك مرَّتَين أو ثَلاثاً .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ أحمد بن طُولون .
(٢) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ ١ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ ٢ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ١٠٥٦/ ٣ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : الشِّيعيُّ لا يَطيبُ عَيشُه حتى يَلعَنَ هـٰذا ودُونَه ، ونَحنُ نبغضُهم في الله ، ونَبرأُ منهم ولا نَلعَنُهم ، وأمْرُهم إلى الله[1] .

٣ـ عَاقِبَة صُحْبَة الظَّالِمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أيُّوبَ القِرِّيَّة : هو أيُّوبُ بنُ يَزيدَ ابنِ قَيْس بنِ زُرارَة النَّمَري الهِلاليُّ الأعْرابيُّ .

صَحِبَ الحَجَّاجَ ووَفدَ على الخَليفَة عبدِ المَلِك وكانَ رَأساً في البَلاغَة والبَيان واللُّغَة ثم إنَّه خَرجَ على الحَجَّاجِ مع ابنِ الأشْعَث ، لأنَّ الحَجَّاجَ نفَّذه إلى ابنِ الأشْعَث إلىٰ سِجِسْتانَ رَسُولاً ، فأمَرَه ابنُ الأشْعَث أنْ يَقومَ ويَسُبَّ الحَجَّاجَ ويَخْلَعَه أوْ لَيَقتُلنَّه ففَعلَ مُكْرَهاً ثم أُسِرَ أيُّوبُ ولَمَّا ضَربَ الحَجَّاجُ عُنقَه ندمَ وذلك في سَنَةِ أرْبَع وثَمانينَ وله كَلامٌ بَليغٌ مُتَداوَل[2] ،[3] .

٤ـ الدُّعَاء على الظَّالمين :

قالَ سَعيدُ بنُ الْمُسيِّب : ما أُصَلِّي صَلاةً إلاَّ دَعَوتُ اللهَ علىٰ بَني مَرْوانَ[4] .

٥ـ دُعَاءُ المَظْلوم مُسْتَجاب :

عن أبي الدَّرْداء : إيَّاكَ ودَعَواتِ الْمَظلُومِ ، فإنَّهنَّ يَصْعَدنَ إلى اللهِ كأنَّهُنَّ شَرارات من نَّار[5] .

---

(١) انظر السير : (عُبَيْد الله بن زِياد بن أبيه) ٣/ ٥٤٥ـ٥٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٢٥ .

(٢) ومن كلامه ما جاء في « عيون الأخبار » (٣/ ٦٩) أن الحجَّاج قال لأيوب : اخطب عليَّ هند بنت أسماء ولا تزد علىٰ ثلاث كلمات ، فأتاهم فقال : أتيتكم من عند من تعلمون ، والأمير يعطيكم ما تسألون ، أفتنكحون أم تردُّون ؟ قالوا : بل أنكحنا وأنعمنا ، ولما أراد الحجَّاج أن يُطلِّقها أمر ابن القِرِّيَّة أن يأتيَها فيطلقها بكلمتين ، ويُمتِّعْها بعشرة آلاف درهم ، فأتاها فقال لها : إنَّ الحجَّاج يقولُ لك : كُنتِ فبنْتِ ، وهـٰذه عشرة آلاف متعة لك ، فقالت : قلْ له : كُنَّا فما حمدنا ، وبِنَّا فما ندمنا ، وهـٰذه العشرة آلاف لك ببشارتك إيَّايَ بطَلاقي « عيون الأخبار » (٢/ ٢٠٩) .

(٣) انظر السير : (أيُّوب القِرِّيَّة) ٤/ ١٩٧ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ١/٤٧٧ .

(٤) انظر السير : (سعيد بن الْمُسيِّب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٧ .

(٥) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٨/٢٧٢ .

٦ـ اسْتِغاثَة المَظْلوم بالله تَعالَىٰ ودُعَاؤه له :

عن عَمرُو بنِ مَيْمونَ ، أنَّه كان لا يَتمنَّى الموتَ ، ويَقولُ : إنِّي أُصَلِّي في اليوم كَذا ، وكَذا ، حتىٰ أرْسَلَ إليه يَزيدُ بنُ أبي مُسْلم فتَعنَّتَه ، ولَقيَ منه شِدَّة ، فكانَ يَقولُ : اللَّهُمَّ أَلْحِقْني بالأخْيار ولا تُخلِّفْني مع الأشْرارِ واسْقِني من عَذْبِ الأنْهارِ .

ماتَ سنةَ خَمسٍ وسَبْعين[١] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ القائمِ أبي جَعْفَر عبدِ الله بنِ القادِرِ بالله أحمدَ الخَليفَةِ العَبَّاسيِّ : وكان القائمُ فيه خَيرٌ واهْتمامٌ بالرَّعيَّة ، وقَضاء للحَوائج وقيلَ : إنَّه لَمَّا بَقي مُعتَقلاً عند العَرَب كَتبَ قِصَّة ، وبَعثَ بها إلىٰ بَيتِ الله مُسْتَعدياً مِمَّن ظَلَمَه وهي : « إلى الله العَظيمِ من الْمِسْكينِ عبدِه : اللَّهُمَّ إنَّكَ العَالِمُ بالسَّرائرِ ، الْمُطَّلعُ على الضَّمائرِ اللَّهُمَّ إنَّكَ غَنيٌّ بعِلمِك واطِّلاعِك عن إعْلامي ، هٰذا عَبدُك قد كَفَرَ نِعمَك وما شَكَرَها ، أطْغاهُ حِلمُك حتّىٰ تَعدَّىٰ عَلينا بَغياً اللَّهُمَّ قَلَّ النَّاصِرُ واعْتَزَّ الظَّالِمُ ، وأنتَ الْمُطَّلعُ الحاكمُ ، بكَ نَعتَزُّ عليه ، وإليكَ نَهرَبُ من يَديه ، فقد حاكَمْناه إليكَ ، وتَوَّكلنا في إنْصافِنا منه عَليك ، ورَفَعْنا ظُلامَتنا إلىٰ حَرَمِك ، ووَثِقْنا في كَشْفِها بكَرَمِك ، فاحْكُم بَينَنا بالحَقِّ ، وأنتَ خَيرُ الحاكِمين » .

وأمَّا ما كان من طُغْرُلْبَك ، فإنَّه ظَفرَ بأخيه وقَتلَه ثم كاتَبَ مُتَولِّي عانَةَ في أن يَرُدَّ القائمَ إلىٰ مَقرِّ عِزِّه ثم جَهَّز طُغْرُلْبَك عَسْكراً قَاتَلوا البَساسِيريَّ فقُتلَ وطِيفَ برأْسِه فكانَت الخُطبَة للمُسْتَنْصِرِ ببَغْدادَ سَنَةً كاملَةً .

تُوفِّيَ القائمُ سنةَ سَبعٍ وستِّينَ وأرْبع مئة[٢] .

ونُكبَ القائمُ سَنةَ خَمسينَ في كائنَةِ البَسَاسيريِّ ، ففَرَّ إلى البَريَّة في ذِمامِ أميرٍ للعَرَب ، ثم عادَ خِلافَتَه بعد عام بهمَّة السُّلطانِ طُغْرُلْبَك وأُزيلَت خُطبَة خَليفَةَ مِصْر العُبَيْديِّ الْمُسْتَنْصِر بالله من العِراقِ ، وقُتلَ البَساسيريُّ ، لما أنْ فَرَّ القائمُ إلى البَريَّة ،

---

(١) انظر السير : (عَمرو بن مَيْمون) ٤/١٥٨ـ ١٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٤٦٨ .

(٢) انظر السير : (القائمُ بأمْر الله) ١٥/١٣٨ـ ١٤١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٦ .

رَفَعَ قِصَّةً إِلىٰ رَبِّ العَالَمينَ مُسْتَعدياً علىٰ مَنْ ظَلَمَه ، ونَفَّذَ بها إلى البَيتِ الحَرامِ ، فنفعَت ، وأخَذَ اللهُ بيدِه ، وردَّه إلىٰ مَقَرِّ عِزِّه فكذلك يَنبَغي لكُلِّ مَنْ قُهِرَ وبُغيَ عليه أنْ يَسْتَغيثَ بالله تَعالَىٰ ، وإنْ صَبرَ وغَفَرَ فإنَّ في الله كِفايَة ووِقايَة[1] .

٧ـ الصَّبر على الظَّالمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ اللهِ بنِ عون : وكانَ إذا جاءَه إخْوانُه كأنَّ علىٰ رُؤوسِهمُ الطَّيرُ لهم خُشوعٌ وخُضوعٌ وما رَأيتُه مازَحَ أحَداً ، ولا يُنشِدُ شِعْراً كان مَشْغولاً بنَفسِه وما سَمعتُه ذاكراً بِلالَ بنَ أبي بُرْدَة بشيءٍ قَطُّ ولقد بَلغَني أنَّ قَوْماً قالوا له : يا ابنَ عَوْن : بِلالٌ فعلَ كَذا فقالَ : إنَّ الرَّجُلَ يَكونُ مَظْلُوماً ، فلا يَزالُ يَقولُ حتَّىٰ يَكونَ ظَالِماً ما أظُنُّ أحَداً منكُم أشَدَّ علىٰ بِلالٍ منِّي ، قالَ : وكان بِلالُ ضَربَه بالسِّيَاطِ ، لِكَوْنِه تَزوَّجَ امرأةً عَربيَّة[2] .

٨ـ الفَرحُ بمَوْتِ الظَّالمين :

جاءَ في تَرجَمَةِ إبْراهيمَ النَّخَعيِّ ، عن حمَّاد ، قالَ : بشَّرتُ إبراهيمَ بمَوتِ الحجَّاجِ ، فسَجدَ ، ورأيتُه يَبكي من الفَرَح[3] .

٩ـ الإشْفاقُ على الظَّالمين :

عن إبْراهيمَ بنِ يَزيد قالَ : إنَّ الرجلَ ليَظْلِمُني فأرْحَمُه[4] .

١٠ ـ مَنْ ماتَ إشْفاقاً مِنْ ظُلْم الظَّالمين :

عن خُليدِ بنِ دَعْلج قالَ : كُنَّا عند عَطاء السَّليمي ، فقيلَ له إنَّ ابنَ عليٍّ[5] قَتلَ أرْبَعَ مئةً من أهْلِ دِمَشْقَ علىٰ دَمٍ واحدٍ ، فقالَ مُتَنفِّساً : هاه ، ثم خرَّ مَيتاً[6] .

---

(١) انظر السير : (القائمُ) ١٨/ ٣٠٧ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٨ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم النَّخعي) ٤/ ٥٢٠ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ١/٥٤٩ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم بن يزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٨٠ .
(٥) قال صاحب النزهة : هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عبَّاس ، وكان قد أسرَف الأمويين بدمشق .
(٦) انظر السير : (عَطاء السَّليمي) ٦/٨٦ـ٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/٦٣٤ .

١١ـ مَنْ كان لا يَرىٰ سَبَّ الظَّالمين :

عن الزِّبرقانِ ، قالَ : كُنتُ عندَ أبي وَائل[١] ، فجَعلتُ أسُبُّ الحَجَّاجَ وأذْكُرُ مَساوِئَه فقالَ : لا تَسُبَّه ، وما يُدريكَ لعلَّه قالَ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي فغفرَ له[٢] .

١٢ـ عِظَات تَرْدَعُ عن الظُّلْم :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عُمرَ بنِ عبدِ العَزيزِ : وعن ضَمْرَة ، قالَ : كَتَبَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيز إلىٰ بَعضِ عُمَّاله : أمَّا بعدُ ، فإذا دَعَتْكَ قُدْرتُك على النَّاسِ إلىٰ ظُلمِهم ، فاذْكُر قُدرَةَ اللهِ تَعالَىٰ عَليكَ ، ونَفادَ ما تأتي إليهم ، وبقاءَ ما يأتون إليك[٣] .

وقيلَ : بَعثَ مُوسَى الكاظِم إلى الرَّشيدِ برِسالَة من الحَبْسِ يقولُ : إنَّه لَنْ يَنْقَضي عنِّي يَومٌ من البَلاء إلاَّ انْقَضىٰ عنْكَ مَعَه يَومٌ من الرَّخاءِ حتَّىٰ نُفْضي جَميعاً إلىٰ يَومٍ لَيسَ له انْقِضاءٌ يَخْسَرُ فيه الْمُبْطِلون .

وعن عبدِ السَّلامِ بنِ السندي قالَ : كانَ مُوسَىٰ عندنا مَحبوساً ، فلمَّا ماتَ بَعثْنا إلىٰ جَماعَة من العُدولِ ، من الكَرْخِ ، فأدْخَلْناهم عليه ، فأشْهَدْناهم علىٰ مَوْتِه ودُفنَ في مَقابِرِ الشُّونيزيَّة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : له مَشْهدٌ عَظيمٌ مَشْهورٌ ببَغْدادَ ، دُفنَ فيه حَفيدُه الجَواد وَلِوَلَدِه عليُّ بنُ مُوسَىٰ مَشْهدٌ عَظيْم بطُوسَ وكانت وَفاةُ مُوسَى الكاظِم في سَنَةِ ثَلاثٍ وثَمانينَ ومِئة ، عاشَ خَمساً وخَمسينَ سَنةً وخَلَّفَ عِدَّةَ أوْلادٍ ، الجَميعُ من إماء[٤] .

وعن الشَّافعيِّ : بئسَ الزَّادُ إلى الْمَعادِ العُدْوَانُ على العِباد[٥] .

---

(١) يَعني : شَقيقَ بنَ سَلَمَة .

(٢) انظر السير : (شَقيق بن سَلَمَة) ٤/ ١٦١ـ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٦/٤٦٩ .

(٣) انظر السير : (عُمرُ بن عبد العَزيز) ٥/ ١١٤ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٩ .

(٤) انظر السير : (موسَى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥١ .

(٥) انظر السير : (الإمامُ الشَّافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٤٩ .

١٣ـ خُروجُ الصَّالحين على الظَّالمين :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ الأشْعَث : الأميرُ مُتوَلِّي سِجِسْتان ، عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ مُحمَّد بنُ الأشْعَث الكِنْدي .

بعثَه الحَجَّاجُ علىٰ سِجِسْتانَ ، فثارَ هناك ، وأقبلَ في جَمعٍ كَبير ، وقامَ مَعه عُلماءُ وصُلَحاءُ لله تَعالىٰ لِمَا انتُهكَ الحجَّاجُ من إمَاتَة وَقتِ الصَّلاةِ ، ولِجَوره وجَبَرُوتِه فقَاتَله الحَجَّاجُ ، وجَرىٰ بَينَهما عِدَّة مَصافَّات ويَنتصِرُ ابنُ الأشْعَث ودامَت الحَربُ أشْهُراً ، وقُتلَ خَلقٌ من الفَريقين ، وفي آخرِ الأمْرِ انْهَزَمَ جَمعُ ابنِ الأشْعَث وفرَّ هو إلى الْمَلِكِ « رُتبيلَ » مُلْتَجئاً إليه فقالَ له عَلْقَمَةُ بنُ عَمرٍو : أخافُ عَليك ، وكأنِّي بكِتابِ الحَجَّاجِ قد جاءَ إلىٰ رُتْبيلَ يُرَغِّبُه ويُرَهِّبُه ، فإذا هو قد بَعثَ بك أو قَتلَك ولكن ها هنا خَمسُ مئة مُقاتِلٍ قد تَبايَعْنا علىٰ أنْ نَدخُلَ مَدينَةً نَتحَصَّنُ بها ونُقاتِلَ حتىٰ نُعطَىٰ أمَاناً أو نَموتَ كِراماً فأبَىٰ عليه وأقامَ الخَمسُ مئة حتىٰ قَدِمَ عِمارَةُ بنُ تَميم فقَاتَلوه حتَّىٰ أمَّنَهم ووَفَّىٰ لهم ، ثم تَتابَعَت كُتُبُ الحَجَّاجِ إلىٰ رُتْبيلَ بطَلبِ ابنِ الأشْعَث ، فبَعثَ به إليه علىٰ أنْ ترك له الحمل[1] سَبعَةَ أعْوَام .

وأرْسَلَ إلى ابنِ الأشْعَث وإلىٰ ثَلاثينَ من أهْلِ بَيتِه وقد هَيَّأ لهم القُيودَ والأغْلالَ فقَيَّدَهم وبَعثَ بهم ، فلَمَّا قَرُبَ ابنُ الأشْعَث من العِراقِ ألْقَىٰ نَفسَه من قَصْرٍ خَرابٍ أنْزَلُوهُ فَوْقَه فهَلكَ وذلكَ في سَنةِ أرْبَع وثَمانينَ[2] .

وقالَ مَالكُ بنُ دِينار : لَقيتُ مَعبدَ بنَ عبدِ الله بمَكةَ بعدَ فِتنَة ابنِ الأشْعَث وهو جَريحٌ ، قد قاتَلَ الحَجَّاجَ في الْمَواطِنِ كُلِّها[3] .

وعن الشَّعْبيِّ ، قالَ : لَمَّا قَدمَ الحَجَّاجُ سَألَني عن أشْياءَ من العِلمِ فوَجدَني بها

---

(١) كذا الأصل ـ وهو محتمل ـ ولعلها (الصلح) فقد جاءت عبارة الطبري (٦/ ٣٩٠) هـٰكذا : « وترك له الصلح الذي كان يأخذه منه سبعة سنين) .

(٢) انظر السير : (ابن الأشْعَث) ٤/ ١٨٣ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٢ .

(٣) انظر السير : (مَعْبد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٥/٤٧٤ .

عارِفاً ، فجَعلَني عَرِّيفاً علىٰ قَومي الشَّعْبيِّين وَمَنْكباً[1] علىٰ جَميع همْدانَ وفَرضَ لي ، فلَمْ أزَلْ عنده بأحْسَنِ مَنْزِلَة ، حتَّىٰ كانَ شَأنُ عبدِ الرَّحمٰـنِ بنِ الأشْعَث فأتَاني قُرَّاءُ أهْلِ الكُوفَة ، فقالوا : يا أبا عَمرو ، إنَّكَ زَعيمُ القُرَّاءِ ، فلَمْ يَزالوا حتَّىٰ خَرجْتُ مَعهم ، فقُمتُ بين الصَّفَّينِ أَذْكُرُ الحَجَّاجَ وأعيبُه بأشْياءَ ، فبَلغَني أنَّه قالَ : ألا تَعْجَبون من هٰذا الخَبيثِ أما لَئن أمْكَنني اللهُ منه ، لأجْعَلنَّ الدُّنيا عليه أضْيَقَ من مَسْكِ جَمَلٍ[2] قالَ فما لَبِثْنا أنْ هُزِمْنا .

وقال الأصْمَعيُّ لَمَّا أُدْخلَ الشَّعْبيُّ على الحَجَّاجِ قالَ : هيه يا شَعْبيُّ : قالَ : أحْزَنَ بنا الْمَنزِلُ[3] ، واسْتَحْلَسْنا[4] الخَوفَ ، فلَمْ نَكُنْ فيها بَررَةً أتْقياء ، ولا فَجَرَةً أقْوياء فقالَ : لله دَرُّك[5] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : خَرجَ القُرَّاءُ ، وهم أهْلُ القُرآنِ والصُّلاَّحُ بالعِراقِ على الحَجَّاج لِظُلْمِه وتأخِيرِه الصَّلاةَ والجُمَعَ في الحَضَر ، وكان ذلك مَذْهَباً لبَني أُمَيَّة كما أخْبَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَكونُ عَلَيْكم أُمَرَاءُ يُمِيتُونَ الصَّلاةَ » فخَرجَ على الحَجَّاج عبدُ الرَّحْمَـٰن بنُ الأشْعَث بنُ قَيْس الكِنْديُّ ، وكان شَريفاً مُطاعاً ، وجَدَّتُه أختُ الصِّدِّيقِ ، فالْتَفَّ علىٰ مائة ألفٍ أو يَزيدون ، وضاقَت على الحَجَّاجِ الدُّنيا ، وكادَ أنْ يَزولَ مُلكُه وهَزَموه مَرَّاتٍ ، وعايَنَ التَّلفَ وهو ثابتٌ مِقْدامٌ ، إلىٰ أنْ انتُصرَ وتَمزَّقَ جَمعُ ابنِ الأشْعَث ، وقُتلَ خَلقٌ كَثيرٌ من الفَريقَينِ فكانَ مَنْ ظَفَرَ به الحَجَّاجُ منهم قَتلَه إلاَّ مَنْ باءَ منهم بالكُفْرِ علىٰ نَفسِه فيَدَعُه[6] .

وعن عُتْبَة مَوْلَى الحَجَّاجِ ، قالَ : حَضرتُ سَعيدَ بنَ جُبَيْر حين أُتيَ به الحَجَّاج بواسِط فجَعلَ الحَجَّاجُ يَقولُ : ألَمْ أفْعَلْ بك ؟ ألَمْ أفْعَلْ بك ؟ فيَقولُ : بَلَىٰ قالَ : فمَا

---

(١) قال اللَّيثُ : مَنكِبَ القوم رأسُ العُرفاء .

(٢) المسك : الجلد .

(٣) أحْزَنَ بنا المنزل : صار ذا حزونة (خشونة) كأن المنزل أركبهم الحزونة حيث نزلوا فيه .

(٤) استحلس فلان الخوف إذا لم يفارقه الخوف ولم يأمن .

(٥) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٢ .

(٦) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/٥٠٣ .

حَملَك علىٰ ما صَنعتَ من خُروجِكَ عَلينا ؟ قالَ : بَيعَةٌ كانت عليَّ ـ يَعْني لابنِ الأشْعَث ـ فغَضِبَ الحَجَّاجُ وصَفَّق بيَدَيه ، وقالَ : فبَيعَةُ أميرِ المؤمنينَ كانت أسْبَقُ وأوْلَىٰ وأمَرَ به ، فضُربَت عُنقُه وقيلَ : لَوْ لَمْ يُواجِهْه سَعيدُ بنُ جُبَير بهـٰذا ، لاسْتَحْياهُ كمَا عَفَا عن الشَّعْبيِّ لَمَّا لاطَفَه في الاعْتِذارِ .

عن عُمرَ بنِ سَعيدِ بنِ أبي حُسَين ، قالَ : دَعَا سَعيدُ بنُ جُبَيْر حين دُعي للقَتلِ فجَعلَ ابنُه يَبكي ، فقالَ : ما يُبكيك ؟ ما بَقاءُ أبيكَ بعدَ سَبعٍ وخَمسينَ سَنة[1] .

وقيلَ : إنَّ ابنَ عائذ كانَ فيمَنْ خَرجَ مع القُرَّاء على الحَجَّاجِ يَومَ الجَمَاجِم ، فعَفَا عَنه الحَجَّاجُ لجَلالَتِه[2] .

وقيلَ إنَّ الحَجَّاجَ لَمَّا أُتي بعبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ عائذ قالَ له الحَجَّاجُ : كيفَ أصْبَحتَ ؟ قالَ : لا كمَا يُريدُ اللهُ ، ولا كمَا يُريدُ الشَّيطانُ ، ولا كمَا أُريدُ قالَ : وَيْحَك ، ماتَقولُ ؟ قالَ : نَعَم ، يُريدُ اللهُ أنْ أكُونَ عابِداً زاهِداً وما أنا كَذلك ، ويُريدُ الشَّيطانُ أنْ أكُونَ فاسِقاً مارِقاً وما أنا بذَاك ، وأُريدُ أنْ أكُونَ مُخلَّىٰ في بَيتي ، آمِناً في أهْلِي وما أنا بذَاك ، فقالَ الحَجَّاجُ : أدَبٌ عِراقِيٌّ ، ومَوْلِدٌ شَامِيٌّ ، وجِيرانُنا إِذْ كُنَّا بالطَّائفِ ، خَلُّوا عنه[3] .

وقالَ أيُّوبُ السَّخْتيانيُّ : قيلَ لابنِ الأشْعَث : إنْ أرَدْتَ أنْ يُقتَلوا حَولَك كما قُتلوا يَومَ الجَملِ حَولَ جَملِ عائشَة فأَخْرِجْ مَعكَ مُسْلمَ بنَ يَسار ، فأخْرَجَه مُكْرَهاً[4] .

وعن أبي قِلابَة : قالَ لي مُسْلمُ بنُ يَسار : إنِّي أحْمَدُ اللهَ إليكَ ، أنِّي لَمْ أرْمِ بسَهْم ولَمْ أضْرِبْ فيها بسَيفٍ ، قُلتُ له : فكَيفَ بمَنْ رآكَ بينَ الصَّفَّينِ فقالَ : هـٰذا مُسْلمُ بنُ يَسار لَنْ يُقاتلَ إلاَّ علىٰ حَقٍّ ، فقَاتلَ حتَّىٰ قُتلَ ؟ فبَكَىٰ واللهِ حتَّىٰ وَدِدْتُ أنَّ الأرضَ انْشقَّت فدَخلتُ فيها[5] .

---

(١) انظر السير : (سَعيد بن جُبَير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/٥٠٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٣٨ .
(٣) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عائذ) ٤/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥٣٨ .
(٤) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ١/٥٤٨ .
(٥) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٨ .

وقالَ أيُّوبُ السَّخْتيانيُّ : وفي القُرَّاء الذِّين خَرجُوا مع ابنِ الأشْعَث ، لا أعْلمُ أحداً منهم قُتلَ ، إلاَّ رُغِبَ له عن مَصْرَعِه أو نَجا إلاَّ نَدِمَ علىٰ ما كانَ منه[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ الحَكَمِ بنِ هِشام : وكَثُرت العُلماءُ بالأنْدَلُسِ في دَولتِه ، حتَّىٰ قيلَ : إنَّه كانَ بقُرْطُبَةَ أربعة آلاف مُتقلِّس مُتَزَيِّين بزيِّ العُلماءِ ، فلمَّا أرادَ الله فناءَهم ، عَزَّ عليهم انْتِهاكُ الحَكَم للحُرُماتِ ، وائتَمَروا ليَخْلَعوه ، ثم جَيَّشوا لِقتالِه ، وجرَت بالأنْدَلُسِ فِتنَةٌ عَظيمَةٌ على الإسْلامِ وأهْلِه ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، فذَكرَ ابنُ مُزين في تاريخِه طَالوتَ بنَ عبدِ الجَبَّارِ الْمُعَافريِّ ، وأنَّه أحَدُ العُلماءُ العَامِلينَ الشُّهَداء الذين هَمُّوا بخَلع الحَكَم ، وقالوا : إنَّه غَيرُ عَدلٍ ونَكثُوه في نُفُوسِ العَوَامِّ ، وزَعَموا أنَّه لا يَحِلُّ الْمُكْثُ ولا الصَّبْرُ علىٰ هـٰذه السِّيرَة الذَّميمَة ، وعَوَّلوا علىٰ تَقديمِ أحَدِ أهْلِ الشُّورَىٰ بقُرْطُبَةَ ، وهو أبو الشَّمَّاسِ أحمَدُ بنُ الْمُنْذر بنِ الدَّاخِل الأُمَويِّ ابنِ عَمِّ الحَكَم لِمَا عَرَفوا من صَلاحِه ، وعَقلِه ، ودِينِه ، فقَصَدوه وعَرَّفوه بالأمْرِ ، فأبْدَى الْمَيْلَ إليهم ، والبُشْرَىٰ بهم ، وقالَ لهم : أنتم أضْيَافي اللَّيلَة ، فإنَّ اللَّيلَ ، أسْتَر ، وناموُا ، وقامَ هو إلى ابنِ عمِّه بجَهلٍ ، فأخْبرَه بشأنِهم ، فاغْتاظَ لذلك ، وقالَ : جئتَ لسَفك دَمي أو دِمائِهم ، وهم أعْلامٌ ، فمن أين نَتوصَّلُ إلىٰ ما ذَكرتَ ؟ فقالَ : أرْسِلْ معي مَنْ تَثِقُ به ليَتحَقَّق ، فوَجَّهَ مَنْ أحبَّ ، فأدْخَلَهم أحمَدُ في بَيتِه تَحتَ سِتْر ، ودَخلَ اللَّيلُ ، وجاءَ القَومُ ، فقالَ : خَبِّروني مَنْ مَعَكُم ؟ فقالوا : فُلانٌ الفَقيهُ ، وفُلانٌ الوَزيرُ ، وعدُّوا كباراً والكاتِبُ يَكتُبُ حتَّى امْتلأ الرَّقُّ ، فمَدَّ أحَدُهم يدَه وَراءَ السِّتْرِ ، فرَأى القَومَ ، فقامَ وقامُوا ، وقالُوا : فعَلتَها يا عَدُوَّ اللهِ ، فمَنْ فَرَّ لِحينِه ، نَجا ومَنْ لا ، قُبِضَ عليه ، فكانَ مِمَّنْ فَرَّ عيسَىٰ بنُ دينار الفَقيه ، ويَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى الفَقيهُ صاحِبُ مَالِك ، وقُرْعُوسُ بنُ العَبَّاسِ الثَّقَفيُّ .

وقُبِضَ علىٰ ناسٍ كأبي كَعْب ، وأخيه ، ومَالِكِ بنِ يَزيد القاضي ، وموسَىٰ بنِ سَالِم الخَوْلاني ، ويَحْيَىٰ بنِ مُضَر الفَقيه ، وأمثالهم من أهْلِ العِلمِ والدِّين ، في سَبعَةٍ وسَبعينَ رَجُلاً ، فضُربَت أعْناقُهم ، وصُلِبُوا .

---

(١) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٥٤٨ .

وأضاف إليهم عَمَّيه كُلَيْباً ، وأمية ، فصُلبا ، وأَحْرَقَ القُلوبَ عليهم ، وسارَ بأمرِهم الرِّفاقُ ، وعَلمَ الحَكَمُ أنَّه مَحْقودٌ من النَّاسِ كُلِّهم ، فأخَذَ في جَمعِ الجُنودِ والحَشَمِ وتَهيَّأ ، وأخَذَت العامَّةُ في الهَيَج ، واستأسَدَ النَّاسُ ، وتَنمَّروا ، وتأهَّبوا ، فاتَّفقَ أنَّ مَمْلوكاً خَرجَ من القَصرِ بسَيفٍ دَفعَه إلى الصَّيْقَل ، فمَاطَله ، فسَبَّه ، فجاوَبَه الصَّيْقَلُ فتَضارَبا ونالَ منه الْمَمْلوكُ ، حتىٰ كادَ أنْ يُتْلِفَه ، فلمَّا تركَه ، أخذَ الصَّيْقَلُ السيفَ فقتلَ به الْمَمْلوكَ ، فتألَّبَ إلى الْمَقتُولِ جَماعَةٌ ، وإلى القاتِلِ جَماعَةٌ أُخْرَىٰ ، واسْتَفحَلَ الشَّرُّ ، وذلك في رَمضانَ سَنةَ اثنتَين ومئتَين ، وتَداعَىٰ أهْلُ قُرطُبَة من أرْباضِهم ، وتألَّبوا بالسِّلاحِ ، وقَصَدوا القَصرَ ، فرَكبَ الجَيشُ والإمامُ الحَكَمُ ، فهَزَموا العامَّةَ ، وجاءَهم عَسكَرٌ من خَلفِهم ، فوَضَعوا فيهم السَّيفَ ، وكانَت وَقعَةً هائلَةً شَنيعَةً ، مَضىٰ فيها عَددٌ كَثيرٌ زُهاءَ عن أربَعينَ ألفاً من أهْلِ الرَّبَض ، وعايَنوا البَلاءَ من قُدَّامِهم ومن خَلفِهم فتَداعُوا بالطَّاعَة ، وأذْعَنوا ولا ذُوا بالعَفْوِ ، فعَفا عَنهم علىٰ أنْ يَخرُجوا من قُرطُبَة ، ففَعلوا وهُدِّمَت ديارُهم ومَساجِدُهم .

ماتَ الحَكَمُ سَنةَ سِتٍّ ومئتين ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً ، وَوَليَ الأنْدَلُسَ بَعْدَه ابنُه أبو الْمُطَرِّف عبدُ الرحمَـٰن[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ يَحْيَىٰ بنِ مُحمَّد بنِ يَحْيَى الذُّهْليِّ : قَتَلَه أحمدُ بنُ عبد الله الخُجُسْتَانيُّ ظُلْماً سَنةَ سَبْع وسِتِّين ومئتَين لكَونِه قامَ عليه وحارَبَه لاعْتِدائه وعَسْفِه .

قالَ الحَاكِمُ : سَمعتُ أبا بَكْر بنَ إسْحاقَ ، سَمعتُ نُوحَ بنَ أحمَدَ ، سَمعْتُ أحمدَ بنَ عبد الله الخُجُسْتانيَّ يقولُ : دَخلتُ علىٰ حَيْكانَ في مَحْبَسه الذي كنتُ حَبَسْتُه فيه علىٰ أن أضْربَه خَشبان ، وأُخلِّيَ سَبيلَه ، وما كُنْتُ عازما علىٰ قَتلِه ، فلمَّا قَرُبتُ منه ، مَدَدتُ يَدي إلىٰ لِحْيَته ، فقَبضتُ عليها فقَبضَ علىٰ خِصْيَتي ، حتَّىٰ لَمْ أشُكَّ أنَّه قاتِلي ، فذَكرتُ سِكِّيناً في خُفِّي ، فجَرَّدتُ السِّكينَ ، وشَقَقتُ بَطنَه[2] .

---

(١) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/٢٥٣ـ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥١ .
(٢) انظر السير : (يَحْيَى بن محمّد بن يَحْيَى الذُّهْلي) ١٢/٢٨٥ـ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠١ .

وقالَ أبو العبَّاس السَّرَّاج : كان يَحيَىٰ بنُ محمَّد أخْرَجه الغُزاةُ وجماعَةٌ من أصْحَاب الحَديثِ وأصْحاب الرَّأي ، وأرْكَبوه دابَّةً ، وألْبَسوه سَيفاً قال الْمُزَكِّي : بَلَغني أنَّه كانَ سَيفَ خَشَب ـ وقاتَلوا سُلطانَ نِيسابُورَ ، يُقالُ له أحمَدُ بنُ عبد الله ، خارِجيٌّ ، غَلَبَ على البَلَد ، وكانَ ظالِماً غاشِماً وكانَ النَّاسُ أو أكثَرُهم مُجْتَمعينَ عليه مع يَحْيَىٰ ، فكانت الدَّبرَةُ على العامَّة وهَربَ يَحيَىٰ إلىٰ رُسْتاقٍ ، يُقالُ له : بُست فدُلَّ عليه أحمَدُ بنُ عبد الله وجيءَ به ، فقالَ : إنَّ عامَّةَ مَنْ كانَ مع يَحيَىٰ من الرُّؤسَاء ، انْقَلبوا عليه لَمَّا واقفَه أحمَدُ ، وقالَ : ألَمْ أُحْسِن إليكَ ؟ ألَمْ أفعَلْ ، ألَمْ أفعَلْ ؟ وكانَ يَحْيَىٰ فوقَ جَميع أهلِ البَلد فقالَ : أُكْرِهتُ علىٰ ذلك واجْتَمَعوا عليَّ ، قالَ : فرَدَّ عليه الجَماعَة ، أو مَنْ حَضرَ منهم ، وقالوا : لَيسَ كما قالَ فأخَذَه أحمَدُ فقتَلَه ، يُقالُ : إنه بَنَىٰ عليه قالَ : وقالَ إنَّه أمَرَ بجَرِّ خُصْيَيْه حتىٰ ماتَ .

قالَ الحاكِمُ : سَمعتُ أبا عبد الله بن الأخْرَم يقولُ : ما رَأيتُ مثلَ حَيْكانَ ، لا رَحِمَ اللهُ قاتِلَه[1] .

وقال عبدُ الله أحمَدُ بنُ الدُّحَيْميّ : سَمعتُ المَرَّارَ بنَ حَمَّويْه يَقولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْني الشَّهادَة ، وأمَرَّ يَدَه علىٰ حَلْقِه ، قِيلَ : لمَّا وَقَعَتْ فِتْنةُ المُعْتَزِّ والمُسْتَعينُ كان علىٰ هَمَذانَ الأميرانِ جَبَّاخ وجُغْلان من قِبَل المُعتزِّ ، فاستَشارَ أهلُ هَمَذان المَرَّارَ والجُرْجانيَّ في مُحارَبَتِهما ، فأمَراهُم بلُزوم مَنازِلَهم ، فلمَّا أغارَ أصْحابُهُما علىٰ دارِ سَلَمَةَ بنِ سَهْل وغَيرها ، ورَمَوا رَجُلاً بسَهْم ، أفْتَياهُم في الحَرْبِ ، وتَقَلَّدَ المَرَّارُ سَيفاً ، فخَرَجَ مَعَهم فقُتِلَ عَددٌ كثيرٌ من الفَريقَينِ ، ثم طلب مُفلِحُ المرَّارَ ، فاعْتَصَم بأهلِ قُم ، وهَرَبَ معَه إبراهيمُ بنُ مَسْعود المُحَدِّثُ ، فأمَّا إبراهيمُ فهازَلَهُم وقارَبَهُم فسَلِم ، وأمَّا المرَّارُ ، فأظْهَرَ مُخالَفَتَهم في التَّشَيُّعِ ، وكاشَفَهم ، فأوْقَعوا به وقتَلوه ، رَحِمَه الله .

ورَوَى الحُسَينُ بنُ صالح أنَّ عَمَّه المَرَّارَ قُتِلَ في سَنَةِ أربعٍ وخَمسينَ ومِئَتَينِ وله أرْبَعٌ

---

(١) انظر السير : (يَحْيَى بن محمّد بن يَحْيَى الذُّهْلي) ١٢/ ٢٨٥ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١٠٠٢/١ .

وخَمسونَ سَنةً قال صالِحُ بنُ أحمَدَ التَّميميُّ قُتِلَ المرَّارُ في السُّنَّة شَهيداً .

قال الذهبيُّ : كان من أئِمَّة الإسْلام[1] .

١٤ـ مَنْ نَدمَ علىٰ خُروجِه :

عن أبي قِلابَة : قالَ لي مُسْلمُ بنُ يَسار : إنِّي أحْمَدُ اللهَ إليكَ ، أنِّي لَمْ أرْمِ بسَهْم ولَمْ أضْرِبْ فيها بسَيفٍ ، قُلتُ له : فكَيفَ بمَنْ رآكَ بينَ الصَّفَّينِ فقالَ : هـٰذا مُسْلمُ بنُ يَسار لَنْ يُقاتلَ إلاَّ علىٰ حَقٍّ ، فقَاتلَ حتَّىٰ قُتلَ ؟ فبكَىٰ واللهِ حتَّىٰ وَدِدْتُ أنَّ الأرضَ انْشقَّت فدَخلتُ فيها[2] .

وقالَ أيُّوبُ السِّخْتيانيُّ : وفي القُرَّاء الذَّين خَرجُوا مع ابنِ الأشْعَث ، لا أعْلمُ أحداً منهم قُتلَ ، إلاَّ رُغِبَ له عن مَصْرَعِه أو نَجا إلاَّ نَدِمَ علىٰ ما كانَ منه[3] .

١٥ـ مَنْ كان يَرى الخُروجَ لكنَّه لم يُقاتِلْ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَسَنِ بنِ صالح : كانَ يَرى الخُروجَ علىٰ أُمَراء زَمانِه لِظُلمِهم وجُورِهم ، ولكنْ ما قاتَلَ أبداً ، وكانَ لا يَرَى الجُمُعَةَ خَلفَ الفاسِق[4] .

وقال عبد الله بن دواد الخُرَيبي : تَركَ الحَسنُ بنُ صالِح الجُمُعَةَ ، فجاءَ فُلانٌ ، فجَعلَ ينُاظِرُه لَيلَةً إلى الصَّباحِ ، فذَهبَ الحَسنُ إلىٰ تَركِ الجُمُعَة مَعَهم ، وإلى الخُروجِ عَليهم ، وهـٰذا مَشْهورٌ عن الحَسَنِ بنِ صالِح ودَفَع اللهُ عنه أنْ يُؤخَذَ ، فيُقْتَلَ بدينِه وعبادَتِه .

مات الحَسنُ بنُ صالح سنةَ تسعٍ وستِّينَ ومئة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : عاشَ تِسْعاً وستِّينَ سَنةً ، وكان هو وأخوهُ عَليٌّ تَوْأماً[5] .

---

(١) انظر السير : (المَرَّار بن حمويه) ١٢/٣٠٨ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٣ .

(٢) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٨ .

(٣) انظر السير : (مُسلم بن يَسار) ٥/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٥٤٨ .

(٤) انظر السير : (الحَسَن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٠٤ .

(٥) انظر السير : (الحَسَن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٠٤ .

١٦ـ مَنْ خَرجَ على الخُلَفاء والأُمَراء (من غير الخَوَارج) :

قالَ خَليفَةُ بنُ خَيَّاط : حدَّثنا إسْماعيلُ بنُ إبْراهيمَ ، عن أبيه أنَّ يَزيدَ بنَ الوَليدِ ، خَطبَ عند قَتلِ الوَليدِ ، فقالَ : إنِّي واللهِ ما خَرجتُ أشَراً ولا بَطراً ، ولا حِرْصاً على الدُّنيا ، ولا رَغبَةً في الْمُلكِ ، وإنِّي لَظَلومٌ لنَفسي إنْ لمْ يَرْحمْني ربِّي ، ولكنْ خَرجتُ غَضباً للهِ ولدينه ، داعياً إلىٰ كتابِ اللهِ وسُنَّة نَبيِّه ، حينَ دُرِسَت مَعالم الهُدَىٰ ، وطُفِىءَ نُورُ أهْلِ التَّقوىٰ ، وظَهرَ الجَبَّارُ الْمُسْتحِلُّ للحُرمَة ، والرَّاكِبُ البدعة ، فأشْفَقتُ إذ غَشيكم ظُلمُه أنْ لا يُقلعَ عنكم من ذنُوبِكم ، وأشْفَقتُ أنْ يَدعُوا أُناساً إلىٰ ما هو عليه ، فاسْتَخرتُ اللهَ ، ودَعوتُ مَنْ أجابَني ، فأراحَ اللهُ منه البِلادَ والعِبادَ .

أيُّها النأسُ إنَّ لكُم عندي إنْ وُلِّيتُ أنْ لا أضعَ لَبنَةً علىٰ لَبنَةً ، ولا أنْقلُ مالاً من بَلدٍ إلىٰ بَلدٍ حتَّىٰ أسُدَّ الثُّغورَ ، فإنْ فَضلَ شَيءٌ رَددتُه إلى البَلدِ الذي يَليه ، حتىٰ تَستقيمَ الْمَعيشَة وتَكونَ فيه سَواء ، فإنْ أرَدتُم بَيْعَتي على الذي بَذلتُ لكم ، فأنا لكم ، وإنْ مِلْتُ ، فلا بَيْعَةَ لي عَليكُم ، وإنْ رأيْتُم أقْوَىٰ منِّي عليها ، فأرَدْتُم بيْعَتَه ، فأنا أوَّلُ مَنْ يُبايع ، ويَدخُلُ في طاعَتِه ، وأسْتغفِرُ اللهَ لي ولكم[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ زَيدِ بنِ علي : وكانَ ذَا عِلمٍ وجَلالَة وصَلاحٍ ، هَفا ، وخَرجَ فاسْتُشهِد .

وَفِدَ علىٰ مُتوَلِّي العِراق يُوسُف بنِ عُمرَ ، فأحْسَنَ جائزَتَه ، ثم رُدَّ ، فأتاه قَومٌ من الكُوفَة ، فقالوا : ارْجِعْ نُبايعْك ، فما يُوسُفُ بشَيء فأصْغَىٰ إليهم وعَسْكرَ ، فبرَزَ لحَربِه عَسكَرُ يُوسُفَ ، فقُتلَ في المعْركَة ، ثم صُلبَ أرْبع سنينَ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ : خرجَ مُتأوِّلاً ، وقُتل شَهيداً ، ولَيْتَه لَمْ يَخرجْ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مُحمَّدِ بنِ عجْلانَ : وقَدْ خَرجَ على الْمَنْصُورِ مع ابنِ

---

(١) انظر السير : (يَزيد بن الوَليد) ٥/ ٣٧٤ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٣ .

(٢) انظر السير : (زَيْد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٤ .

(٣) انظر السير : (زَيْد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٤/ ٦١٤ .

حَسَن ، فلَمَّا قُتلَ ابنُ حَسَن ، هَمَّ وَالي المَدينَة جَعْفَرُ ابنُ سُلَيْمانَ أنْ يَجْلِدَه فقالوا له : أصْلحَك اللهُ : لَوْ رَأيتَ الحَسَنَ البَصْريَّ فَعلَ مثلَ هـٰذا أكُنتَ تَضربُه ؟ قالَ : لا قِيلَ : فابنُ عجْلانَ في أهْلِ المَدينَةِ كالحَسَنِ في أهْلِ البَصْرَة[1] .

قالَ مُصْعَبُ الزُّبَيْريُّ : كان لابنِ عجْلان قَدرٌ وفَضلٌ بالمَدينَة وكانَ مِمَّنْ خَرجَ مع مُحمَّدِ بنِ عبدِ الله ، فأرادَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ قَطعَ يَدِه ، فسَمِعَ ضَجَّةً ، وكان عندَه الأكابرُ فقالَ : ما هـٰذا ؟ قالوا هـٰذه ضَجَّةُ أهْلِ المَدينَة يَدعُونَ لابنِ عجْلانَ فلَوْ عَفَوْتَ عنه ؟ وإنَّما غُرَّ ، وأخْطأَ في الرِّوايَة ظَنَّ أنَّه الْمَهْديَّ ، فأطْلقَه وعَفا عنه[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الحَميد بن جَعْفَر : وكان سُفيانُ الثَّوريُّ يَنقِمُ عليه خُروجَه مع محمَّدِ بنِ عبد اللهِ بنِ حَسَن[3] ، وكان من فُقهاءِ الْمَدينَة[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ المنصورِ العَبَّاسيِّ : خرجَ عليه ابنا عبدِ الله بن حَسَن ، وكادَ أنْ تَزولَ دَولتُه ، واسْتعدَّ للهَرَب ثم قُتلا في أرْبَعينَ يَوماً ، وألْقَىٰ عَصاهُ ، واسْتقرَّ[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عَليٍّ الرِّضا : قيلَ : إنَّ أخاه زَيداً خَرجَ بالبَصْرَة على الْمَأمونِ ، وفَتكَ ، وعَسَفَ فنفَّذَ إليه الْمَأمونُ عليَّ بنَ مُوسَىٰ أخاه ليَرُدَّه ، فسارَ إليه فيما قيلَ ، وقالَ : وَيلَك يا زَيدُ ، فَعلتَ بالمسلمينَ ما فَعلتَ ، وتَزعُمُ أنَّك ابنُ فاطِمَةَ ؟!! ، واللهِ لأشَدُّ النَّاسِ عَليك رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، يَنبغي لِمَنْ أخذَ

---

(١) انظر السير : (محمد بن عَجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ٨/٦٥٣ .

(٢) انظر السير : (محمد بن عَجْلان) ٦/ ٣١٧ـ ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٥٤ .

(٣) هو محمد بن عبد الله بن حَسَن بن حَسَن بن علي بن أبي طالب ، وكان خروجه على المنصور مع أخيه إبراهيم ، ذلك أنهما تخلَّفا عن الحضور عند المنصور عندما حجَّ في ذلك العام ، فطلبهما وبالغ في ذلك ، وقبض علىٰ أبيهما مع عدد من أهل البيت ، وسجنهم وماتوا في سجنه ، فثار محمد هـٰذا في المدينة ، وسَجنَ مُتوَلِّيها ، وصار له شأن وعُمَّالٌ في المدن إلىٰ أن أرسلَ إليه المنصور جيشاً بقيادة عيسى بن موسىٰ فقضىٰ عليه سنة خمس وأربعين ومئة .

(٤) انظر السير : (عبد الحميد بن جَعْفَر) ٧/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦٧٢ .

(٥) انظر السير : (المنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦٧٨ .

برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُعطيَ به ، فبَلغَ الْمَأمونُ ، فبَكَىٰ ، وقالَ : هَكذا يَنبغي أنْ يَكونَ أهْلُ بيَتِ النُّبوَّة هكذا[١] .

قالَ الخَطيبُ : بُويعَ إبراهيمُ بنُ الْمَهْدي بالخِلافَه زَمنَ الْمَأمونِ ، فحارَبَ الحَسَنَ بنَ سَهْل ، فهَزمَه إبْراهيمُ ، ثم أقبلَ لحَرْبه حُمَيدٌ الطُّوسيُّ ، فهُزمَ جَمعُ إبراهيم واخْتَفَىٰ إبراهيمُ زَماناً إلىٰ أن ظَفرَ به الْمَأمونُ فعفَا عنه[٢] .

قالَ ثَمامَةُ بنُ أشْرَس : قالَ ليَ الْمَأمونُ : قد عَزمتُ علىٰ تَقريعِ عَمِّي ، فحَضرتُ ، فجيء بإبْراهيمَ بنِ الْمَهْدي مَغلولاً قد تَهدَّلَ شَعرُه فيٰ عَينِه ، فسَلَّمَ ، فقالَ : الْمَأمونُ : لا سلَّمَ اللهُ عَليكَ ، أكُفْراً بالنِّعمَة وخُروجاً عليَّ ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّ القُدرَةَ تُذهِبُ الحَفيظَة ، ومَنْ مُدَّ له في الاغْترارِ هَجمَت به الأناةُ على التَّلفِ ، وقد رَفعَك الله فوقَ كلِّ ذَنب كمَا وَضعَ كلَّ ذي ذَنبٍ دُونَك ، فإنْ تُعاقِب ، فبحقِّك ، وإنْ تعفُ فبفَضلِك قالَ : إنَّ هَـٰذين ـ يَعني ابْنَيه العَبَّاسَ والْمُعْتَصِمَ ـ يُشيرانِ بقَتلِك قالَ : أشارا عَليكَ بما يُشارُ به علىٰ مِثلِكَ في مِثلي ، والْمُلكُ عَقيمٌ ، ولكنْ تأبَىٰ لك أنْ تَستجلِبَ نَصراً من حَيثُ عوَّدك اللهُ ، وأنا عَمُّك ، والعَمُّ صنوُ الأب ، وبَكىٰ ، فتَغرْغَرتْ عينا الْمَأمونِ ، وقالَ : خَلُّوا عن عَمِّي ، ثم أحْضَرَه ، ونادَمَه ، وما زالَ به حتَّىٰ ضَربَ له بالعُودِ[٣] .

وقيلَ إنَّ أحْمدَ بنَ خالد الوَزيرَ قالَ : يا أميرَ الْمؤمنينَ ، إنْ قَتلَته ، فَلَكَ نُظَراءٌ ، وإنْ عَفَوْتَ ، لَمْ يَكنْ لَكَ نَظير .

تُوفِّيَ إبْراهيمُ بنُ الْمَهْدي في سَنَةِ أرْبَع وعِشْرينَ ومِئتين[٤] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُعْتَضِدِ بالله العَبَّاسيِّ : ولا رَيْبَ أنَّ أوَّلَ وَهنٍ على الأُمَّةِ قَتْلُ خَليفَتِها عُثْمانُ صَبْرا رضي الله عنه ، فهاجَت الفِتْنَةُ ، وجَرَت وَقْعَةُ الجَمَلِ بِسَبَبها ، ثمَّ وَقْعَةُ صِفِّين ، وجَرَت سِيُولُ الدِّماءِ في ذلك .

---

(١) انظر السير : (عَليٌّ الرِّضَا) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/٨٣٢ .
(٢) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٣ .
(٣) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩٣ .
(٤) انظر السير : (إبْراهيم بن الْمَهْدي) ١٠/ ٥٥٧ـ ٥٦١ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٤ .

ثمَّ خَرَجَت الخَوَارِجُ ، وكَفَّرَت عُثمانَ وعَليّاً ، وحارَبُوا ، ودامَتْ حُروبُ الخَوارِج سِنينَ عِدَّة .

ثمَّ هاجَتْ المُسَوِّدَةُ بخُراسَانَ ، وما زالُوا حتىٰ قَلَعُوا دَولَةَ بَني أُمَيَّة ، وقامَت الدَّولَةُ الهاشِميَّةُ بعدَ قَتْلِ أُمَمٍ لا يُحْصيهِم إلاَّ اللهُ .

ثمَّ اقْتَتَلَ المَنْصُورُ وعَمُّه عبدُ الله ثمَّ خُذِلَ عبدُ الله ، وقُتِلَ أبو مُسْلِم صاحِبُ الدَّعْوَة[1] .

ثم خَرجَ ابنَا حَسَن[2] وكادا أنْ يَتمَلَّكا فقُتلا .

ثم كانَ حَربٌ كَبيرٌ بينَ الأمين الْمَأمونِ ، إلىٰ أن قُتلَ الأمينُ .

وفي أثناءِ ذلكَ قامَ غَيرُ واحدٍ يَطلبُ الإمامَةَ[3] .

١٧ـ مَنْعُ العُلَماء النَّاسَ من الخُروج على الأُمَراء :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الإمام أحمدَ بنِ حَنْبَل : وجاءَ نفرٌ إلىٰ أبي عبد الله ، وقالوا : هـٰذا الأمرُ[4] قد فَشا وتَفاقَم ، ونحنُ نَخافُه علىٰ أكثَر من هـٰذا ، وذَكَروا ابنَ أبي دُوَاد ، وأنَّه علىٰ أنْ يأمُرَ المُعلِّمينَ بتَعليم الصِّبْيانَ في المَكاتب : القُرآنُ كَذا وكَذا ، فنحنُ لا نَرضَىٰ بإمارَته فمَنَعَهم من ذلك وناظَرَهم وحَكَىٰ أحمدُ قَصْدَه في مُناظَرَتهم ، وأمَرَهم بالصَّبْر قال : فبَينا نحنُ في أيام الواثق ، إذ جاء يَعقوبُ ليلاً برسالَةِ الأمير إسْحاق بن إبراهيم إلىٰ أبي عبد الله : يقولُ لك الأميرُ : إنَّ أميرَ المؤمنين قد

---

(١) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٥/٢ .

(٢) هما محمد بن عبد الله بن حَسَن بن حُسَين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأخوه إبراهيم ، وكان خروجهما على المنصور ، ذلك أنهما تخلَّفا عن الحضور عند المنصور عندما حجَّ في ذلك العام ، فطلبهما وبالغ في ذلك ، وقبض علىٰ أبيهما مع عدد من أهل البيت ، وسجنهم وماتوا في سجنه ، فثار محمد في المدينة ، وسَجنَ مُتولِّيها ، وصار له شأن وعُمَّالٌ في المدن إلىٰ أن أرسلَ إليه المنصور جيشاً بقيادة ابن عمِّه عيسى بن موسىٰ فقضىٰ عليه سنة خمس وأربعين ومئة .

(٣) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٥/٣ .

(٤) أي القول بخَلق القُرآن .

ذَكَرَكَ فلا يَجْتَمعَنَّ إليك أحدٌ ، ولا تُساكِنِّي بأرضٍ ولا مَدينَة أنا فيها ، فاذْهَبْ حَيثُ شئتَ من أرضِ الله قال فاخْتَفىٰ أبو عبد الله بَقِيّةَ حياة الوَاثِق ، وكانت تلك الفِتْنَة ، وقُتِلَ أحمدُ بنُ نَصْر الخُزاعيّ ، ولمْ يَزَلْ أبو عبد الله مُخْتَفياً في البيتِ لا يَخْرُج إلى الصَّلاة ولا إلىٰ غَيْرِها حتىٰ هَلَكَ الوَاثقُ[1] .

١٨ـ فَضْلُ الغَوْغاء في مُقارَعَة الأُمَراء الظَّلَمَة :

عن الشَّعْبيِّ : نِعْمَ الشيء الغَوْغاءُ ، يَسدُّونَ السَّيلَ ويُطفِئُونَ الحَريقَ ، ويَشْغَبون علىٰ وُلاةِ السُّوء[2] .

١٩ـ مَنْ ضُرِبَ لأجْلِ نَقْدِه للظَّالمين :

جاءَ في تَرجَمَةِ يَحْيَىٰ بنِ أبي كَثير ، وقالَ أبو حاتِم الرَّازي : يَحْيَى ابنُ أبي كَثير إمامٌ لا يَروي إلاَّ عن ثِقَة ، وقد نالَته مِحْنَةٌ وضُربَ لكَلامِه في وُلاة الجُورِ[3] .

٢٠ـ أمْثِلَةٌ على الظَّالمين :

الحَجَّاج :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : أهلكه الله في رَمضانَ سَنةَ خَمسٍ وتِسعينَ كَهلاً ، وكان ظَلوماً ، جبّاراً ، ناصبيّاً ، خَبيثاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، وكان ذا شَجاعَةٍ وإقْدامٍ ومَكرٍ ودَهاءٍ ، وفَصاحَةٍ وبَلاغَةٍ ، وتَعظيمٍ للقُرآن قد سُقتُ من سُوء سيرَتِه في تاريخي الكبير ، وحِصارِه لابنِ الزُّبَيْر بالكَعْبَة ، ورَميه إيَّاها بالمِنْجَنيقِ ، وإذْلالِه لأهْلِ الحَرَمَين ، ثم وِلايَتِه على العِراقِ والمشْرِق كلِّه عشرين سَنةً ، وحُروبِ ابنِ الأشْعَث له ، وتأخيره للصَّلوات إلىٰ أنِ استأصَلَه الله ، فنَسُبُّه ولا نُحِبُّه ، بلْ نَبْغَضُه في الله ، فإنَّ ذلك من أوْثَق عُرَى الإيمان .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤١ .

(٢) انظر السير : (الشَّعْبي) ٤/ ٢٩٤ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٤ .

(٣) انظر السير : (يَحْيَىٰ بن أبي كَثير) ٦/ ٢٧ـ٣١ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٧ .

وله حَسناتٌ مَغْمورَةٌ في بَحْر ذُنوبِه ، وأَمْرُه إلى الله وله تَوحيدٌ في الجُملَة ونُظَراء من ظَلمَة الجَبابرَة والأُمَراء[1] .

أبو مُسْلم الخُرسَاني :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : اسْمُه عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ مُسْلم الخُراساني ، الأميرُ ، صاحبُ الدَّعْوَة ، وهازِمُ جُيوشِ الدَّوْلَة الأُمَويَّة ، والقائمُ بإنْشاءِ الدَّولَة العبَّاسيَّة[2] .

كان من أكْبرِ الملوك في الإسْلام ، وكان ذَا شأن ونبأ غَريب من رجل يَذهبُ علىٰ حمار بإكافٍ من الشَّام حتىٰ يَدخُلَ خُراسان ، ثم يَملكُ خُراسانَ بعدَ تسعة أعْوام ، ويَعودُ بكَتائب أمْثالِ الجِبالِ ، ويَقلِبُ دَولَةً ، ويُقيمُ دَولَةً أخْرَى!

تأتيه الفُتوحاتُ العِظامُ ، فلا يَظهَرُ عليه أثرُ السُّرور ، وتَنزلُ به الفادِحَةُ الشَّديدَةُ ، فلا يُرَىٰ مُكتئباً وكان إذا غَضبَ لَمْ يَسْتفزَّه الغَضبُ .

قيلَ : مَولدُه في سنة مئة ، وأوَّلُ ظُهورِه كان بمَرْوَ في شهر رَمضانَ يوم الجُمُعَة من سنة تسعٍ وعشْرينَ ومئة ، ومُتوَلِّي خُراسان إذْ ذاكَ الأميرُ نَصْرُ بنُ سيار اللَّيثيُّ ، نائبُ مَرْوانَ بنِ محمَّد ، الحِمارُ ، خاتِمَةِ خُلفاءِ بَني مَرْوانَ ، فكان ظُهورُه يَومئذٍ في خَمسينَ رَجُلاً ، وآلَ أمرُه إلىٰ أنْ هَربَ منه نَصْرُ بنُ سيار قاصداً العِراقَ فنزَلَ به الموتُ بناحيَةِ ساوَة ، وصَفا إقْليمُ خُراسان لأبي مُسْلم ، صاحبِ الدَّعْوَة ، في ثَمانيَة وعشْرينَ شَهْراً[3] .

وقال مُصْعَبُ بنُ بِشْر : سَمعتُ أبي يقولُ : قامَ رجلٌ إلىٰ أبي مُسْلم وهو يَخْطبُ ، فقال : ما هـٰذا السَّوادُ عَليكَ ؟ فقالَ : حدَّثني أبو الزُّبَيْر عن جابرِ بن عبدِ الله ، « أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ مَكةَ يَومَ الفَتْحِ ، وعَليهِ عَمامَةٌ سَوْدَاءٌ » وهـٰذه ثيابُ الهَيْبَة ، وثيابُ الدَّوْلة ، يا غُلامُ اضْرِبْ عُنُقَه!

---

(١) انظر السير : (الحجَّاج) ٣٤٣/٤ ، وانظر النزهة : ٥٠٨/٢ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٤٨/٦-٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٢٧/٦ .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٤٨/٦-٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٢٨/١ .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان أبو مُسْلم سَفَّاكاً للدِّماءِ ، يَزيدُ على الحَجَّاجِ في ذلك وهو أوَّلُ مَنْ سَنَّ للدَّوْلة لبَاسَ السَّوادِ ، وكانَ بلاءً عَظيماً علىٰ عَرَبِ خُراسان ، فإنَّه أبادَهم بحَدِّ السَّيْف[1] .

وفي سنة اثنتَين وثَلاثينَ في ثالثِ يَومٍ من رَبيع الأوَّل ، بُويعَ السَّفَّاحُ بالخِلافَة بالكُوفَة في دار مَوْلاه الوَليدِ بنِ سَعْد وسارَ الخَليفَةُ مَرْوانُ في مئةِ ألفِ فارسٍ حتىٰ نَزلَ الزَّابَيْن[2] .دُون المُوصِل ، يَقصِدُ العِراقَ فجَهَّزَ السَّفَّاحُ له عَمَّه عبدَ الله بنَ عَليّ ، فكانَت الوَقْعَةُ علىٰ كُشاف ، في جُمادَى الآخِرَة فانْكَسَرَ مَروانُ وتَقَهْقَرَ ، وعَدى الفُراتَ ، وقَطعَ وراءَهُ الجِسْرَ وقَصدَ الشَّامَ ليَتقَوَّىٰ ، ويَلتَقي ثانياً .

فجَدَّ في طَلبه عبدُ الله بنُ عَليّ حتىٰ طَردَه عن دِمَشْقَ ، ونازَلَها وأخَذَها بعدَ أيَّام ، وبذَل السَّيفَ ، وقَتلَ بها في ثلاثِ ساعَات نَحْواً من خَمسينَ ألْفاً غَالِبُهم من جُنْدِ بَني أُميَّة .

وانقَضَتْ أيامُهم ، وهَربَ مَرْوانُ إلىٰ مِصْرَ في عَسْكرٍ قَليلٍ ، فجَدُّوا في طَلبه إلىٰ أن بيَّتوهُ بقَرْيَة بُوصِير ، فقَاتلَ حتىٰ قُتلَ ، وطِيفَ برَأسِه في البُلْدانِ ، وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة[3] .

قالَ محمدُ بنُ جَرير في « تاريخِه » كان بُدوُّ أمرِ بَني العَبَّاس أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قيلَ ، أعْلَمَ العبَّاسَ أنَّ الخِلافَةَ تؤولُ إلىٰ وَلَدِه ، فلَمْ يَزَلْ وَلدُه يتوَقَّعون ذلك .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لَمْ يَصِحَّ هـٰذا الخَبرُ ، ولكنَّ آلَ العبَّاسِ ، كانَ النَّاسُ يُحبُّونَهم ، ويُحبُّونَ آلَ عليٍّ ، يَوَدُّونَ أنَّ الأمْرَ يَؤول إليهم ، حُبَّاً لآلِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وبُغْضاً في آلِ مَرْوانَ بنِ الحَكَم فبقُوا يَعمَلون علىٰ ذلك زَماناً حتىٰ

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٨ .

(٢) الزابان : الزاب الأعلىٰ ، والزاب الأسفل ، وهما نهران بين بغداد والموصل ، ونزول مروان بن محمد كان على الزاب الصغير .

(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٢٨ .

تَهيَّأت لهم الأَسْبابُ ، وأَقْبَلت دَولتُهم وظَهرَت من خُراسان[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : فَرِحْنا بمَصيرِ الأمْرِ إليهِم لكنْ واللهِ ساءَنا ما جَرَىٰ من سُيولِ الدِّماءِ ، والسَّبْي ، والنَّهْب ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجِعُون ، فالدَّولةَ الظَّالِمَة مع الأمْنِ وحَقْنِ الدِّماءِ ، ولا دَولَة عادِلَة تُنتَهك دُونَها المَحارمُ ، وأنَّىٰ لها العَدلُ ؟ بلْ أَتَتْ دَولةٌ أعْجَميَّة ، خُراسانيَّة ، جبَّارَةٌ ، ما أَشْبَهَ اللَّيلَة بالبَارِحَة[2] .

وفي سنةِ ثلاثٍ وثَلاثينَ ومئَة سارَ أبو جَعْفَر المَنْصُور إلىٰ خُراسانَ إلىٰ أبي مُسْلم ، ليَأخُذَ رَأيَه في قَتل أبي سَلمَة ، حَفْصِ بنِ سُلَيْمانَ الخَلاَّل وَزيرَهم وذلكَ أنَّه لَمَّا نزلَ به السَّفَّاحُ وأقاربُه ، حدَّثتهُ نفسُه بأنْ يُبايعَ عَلَوِيّاً ، ويَدعَ هَؤلاء وشَرعَ يُعمِّي أمْرَهم ، علىٰ قُوَّادِ شيعَتِهم ، فبادَرَ كبارُهم ، وبايَعوا السَّفَّاحَ وأخْرَجُوه ، فخَطبَ النَّاسَ فما وَسِعَهُ ـ أعْني أبا سَلمَة ـ إلاَّ المُبايَعَة ، فاتَّهمُوه .

فعنْ أبي جَعْفَر قالَ : انتُدِبْني أخي السَّفَّاحُ للذَّهابِ إلىٰ أبي مُسْلم ، فسِرتُ علىٰ وَجَل ، فقَدمتُ الريَّ ثم شَرُفْتُ عنها فَرْسَخين ، فلمَّا صارَ بَيني وبَينَ مَرْوَ فَرْسَخين تلقَّاني أبو مُسْلم في الجُنودِ ، فلمَّا دَنا منِّي ترجَّل ماشياً ، فقبَّلَ يدي ، ثم نَزلتُ ، فمَكثتُ ثَلاثةَ أيَّام لا يَسْألُني عن شيء ثم سَألَني فأخْبَرتُه ، فقالَ : فَعلَها أبو سَلمَة ؟ أنا أكْفيكُمُوه فدَعا مِرارَ بنَ أنَس الضَّبيَّ ، فقالَ : انْطَلِقْ إلى الكُوفَة ، فاقْتُل أبا سَلمَة حَيثُ لَقيتَه ، قالَ : فقَتلهَ بعدَ العِشاء ، وكان يُقالُ له : وَزيرُ آلِ مُحمَّد .

ولَمَّا رَأىٰ أبو جَعْفَر عَظمَةَ أبي مُسْلم ، وسَفْكَه للدِّماءِ رَجعَ من عندِه وقالَ للسَّفَّاحِ : لَسْتَ بخَليفَة إنْ أبقَيْتَ أبا مُسْلم قالَ : وكَيفَ ؟ قال : ما يَصْنعُ إلاَّ ما يُريدُ قالَ : فاسْكُتْ واكْتُمْهَا .

وكانَ أبو جَعْفَر يَقولُ للسَّفَّاحِ : يا أميرَ المؤمنين ، أطِعْني واقْتُلْ أبا مُسْلم فواللهِ إنَّ في رأسِهِ لغَدْرَة ، فقالَ : يا أخي قد عَرفْتَ بَلاءَه ، وما كانَ منه ، وأبو جَعْفَر يُراجِعُه .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٩ .

ثم حَجَّ أبو جَعْفَر وأبو مُسْلم ، فلمَّا قَفَلا تلقَّاهما مَوْتُ السَّفَّاح بالجُدَريِّ ، فوَلِيَ الخِلافَةَ أبو جَعْفَر .

وخَرجَ عليه عَمُّه عبدُ الله بنُ عَليّ بالشَّام ، ودَعا إلىٰ نَفسِه وأقامَ شُهوداً بأنَّه وَليّ عَهْدِ السَّفَّاح ، وأنَّه علىٰ ذلك سارَ لحَرْبِ مَرْوانَ وهَزمَه ، واسْتأصَلَه .

فخَلا المَنْصُورُ بأبي مُسْلم وقالَ : إنَّما هو أنا وأنْتَ ، فَسِرْ إلىٰ عبدِ الله عَمِّي ، فسارَ بجُيوشِهِ من الأنْبارِ ، وسَارَ لحَرْبِهِ عبدُ الله فانْهَزَموا وتَركوا الذَّخائرَ والخَزائنَ ، والمُعَسْكَرَ ، فاحْتَوىٰ أبو مُسْلم على الكلِّ وكَتَبَ النَّصْر إلى المَنْصور .

واخْتفَىٰ عبدُ الله ، وأرْسلَ المَنْصورُ مَوْلاهُ ليُحْصيَ ما حَواهُ أبو مُسْلم ، فغَضِبَ من ذلك أبو مُسْلم ، وهمَّ بقَتْلِ ذَلك المَوْلَىٰ ، وقالَ : إنَّما للخَليفَةِ من هـٰذا الخُمْسُ .

ولَمَّا عَلمَ المَنْصُورُ أنَّ أبا مُسْلم قد تَغيَّر كَتبَ إليه يُلاطِفُه : وأنِّي قد وَلَّيتُك مِصْرَ والشَّامَ ، فانْزِلْ بالشَّام واسْتَنِبْ عنكَ بمِصْرَ ، فلمَّا جاءَه الكتابُ ، أظْهَرَ الغَضبَ وقالَ : يُوَلِّيني هـٰذا وخُراسانُ كلُّها لي ؟! وشَرعَ في المُضِيِّ إلىٰ خُراسَانَ .

فأمَرَ المَنْصورُ مَنْ حَضَرَه من بَني هاشِم يَكتبُونَ إلىٰ أبي مُسْلم يُعظِّمونَ شَأنَه ، وأنْ يُتمَّ على الطَّاعَة ، ويُحَسِّنونَ له القُدومَ على المَنْصُورِ .

ثم إنَّ المَنْصورَ سَيَّرَ أُمَراءَ لتَلقِّي أبي مُسْلم ، ولا يُظهِرُون أنَّه بَعثَهم ليُطَمْئنَه ، ويَذْكرونَ حُسْنَ نيَّة المَنْصُورِ له ، فلمَّا سَمعَ ذلكَ ، انْخَدَعَ المَغْرورُ وفَرِحَ ، فلمَّا دَخلَ عَليه ، سلَّم عَليه قائماً ، فقالَ : انْصَرفْ يا أبا مُسْلم فاسْتَرِحْ ، وادْخُل الحمَّامَ ثم اغْدُ فانْصَرفَ ، وكان من نيَّةِ المَنْصُورِ أنْ يَقتُلَه تلكَ اللَّيلَة ، فمَنعَه وَزيرُه أبو أيُّوبَ المُورياني .

قال أبو أيُّوب : فقالَ ليَ المَنْصُورُ : دَخلَ عليَّ أبو مُسْلم فعَاتَبتُه ثمَّ شَتمتُه ، وضَربَه عُثمانُ بنُ نَهيك فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، وخَرجَ شَبيبُ بنُ وَاج ، فضَربُوهُ ، فسَقطَ ، فقالَ وهُم يَضرِبُونَه : العَفْوُ ، قُلتُ : يا بنَ اللَّخْناءِ ، العَفْوُ ؟ والسُّيوفُ تَعْتَورُك ؟ وقُلتُ : اذْبَحُوهُ فذَبَحُوهُ .

ثم همَّ المَنْصُورُ بقَتلِ الأمير أبي إسْحاقَ صاحبِ حَرَس أبي مُسْلم وبقَتلِ نَصْرِ بنِ مَالِك الخُزاعيِّ ، فكلَّمَه فيهما أبو الجَهْم ، وقالَ : يا أميرَ المُومنينَ إنَّما جُندُه جُندُك ، أمَرْتَهم بطاعَتِه فأطاعُوهُ .

ثم إنَّه أعْطاهُما مالاً جَزيلاً ، وفرَّقَ عَساكرَ أبي مُسْلم وكَتبَ بعَهدٍ للأميرِ أبي دَاوُدَ خالدِ بنِ إبْراهيمَ علىٰ خُراسان ، ثم بَعثَ إلىٰ عِيسَى ابن موسَىٰ وَليِّ العَهْد ، فأعْلَمَه ، وأعْطاهُ الرَّأسَ والمالَ فخَرجَ به ، فألْقاهُ إليهم ونَثرَ الذَّهبَ ، فتَشاغَلوا بأخْذِه .

قُتلَ في سنة سَبعٍ وثَلاثينَ ومئَة .

ولَمَّا قُتلَ ، خَرجَ بخُراسانَ سُنباذُ للطَّلبِ بثَأرِ أبي مُسْلم ، وكانَ سُنباذُ مَجوسياً ، فغلَبَ علىٰ نيسابُورَ والرَّيِّ ، وظَفرَ بخَزائنَ أبي مُسْلم واسْتَفحَلَ أمرُه ، فجَهَّزَ المَنْصُورُ لحَرْبِه جُمهورَ بنَ مَرَّار العجليَّ في عَشرة آلاف ، وكان المَصافُّ بينَ الريِّ وهَمذانَ ، فانْهَزَمَ سُنْباذُ وقُتلَ من عَسْكرِه نحواً من ستينَ ألفاً ، وعامَّتُهُم كانوا من أهْلِ الجِبالِ ، فسُبِيَتْ ذَراريهِمِ ، ثم قُتلَ سُنْباذُ بأرضِ طَبَرِسْتان[1] .

عبدُ الله بن عليّ :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : ابنُ الحَبْر عبدِ الله بنِ عَبَّاس ، عَمُّ السَّفَّاحِ والمَنْصُورِ ، من رِجالِ العالَمِ ودُهاةِ قُرَيش[2] .

كان بَطلاً شُجاعاً مَهيباً ، جَبَّاراً ، عَسُوفاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ وبه قامت الدَّولَةُ العبَّاسيَّة سارَ في أرْبَعينَ ألفاً أو أكْثرَ فالْتَقى الخَليفةَ مَرْوانَ بقُرْبِ المُوصِل فهَزمَه ومَزَّقَ جُيوشَه ، ولَجَّ في طَلبِه ، وطَوَى البلادَ حتىٰ نازَلَ دارَ المُلْك دِمَشْقَ ، فحاصَرَها أيّاماً وأخَذَها بالسَّيفِ[3] .

وقَتلَ بها إلى الظُّهْر نَحواً من خَمسينَ ألفَ مُسْلم من الجُنْدِ وغَيرِهم ولَمْ يَرْقُبْ فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة ، ولا رَعَىٰ رَحِماً ولا نَسَباً ، ثم جَهَّزَ في الحالِ أخَاهُ داوُدَ بنَ عليّ في طَلبِ

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/ ٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٢٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٣٩ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/٦٣٩ .

مَرْوانَ ، إلىٰ أنْ أدْرَكَه بقَرْيَة بُوصِيرَ من بلادِ مِصْرَ ، فبيَّتَه ، فقاتَلَ المِسْكينُ حتّىٰ قُتلَ وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة ، وانتُهَت الدَّولَةُ الأُمَويَّة[1] .

ولَمَّا ماتَ السَّفَّاحُ ، زَعمَ عبدُ الله أنَّه وَليُّ عَهْدِه ، وبايَعهُ أُمَراءُ الشَّام ، وبُويعَ المَنْصُورُ بالعِراقِ ، ونَدبَ لحَرْبِ عَمِّه صاحِبَ الدَّعْوَة أبا مُسْلم الخُراساني ، فالْتَقى الجَمْعان بنَصِيبين ، فاشْتدَّ القِتالُ وقُتلَت الأبْطالُ ، وعَظُمَ الخَطْبُ ، ثم انْهَزمَ عبدُ الله في خَواصِّه ، وقَصَدَ البَصْرَةَ فأخْفاهُ أَخُوهُ سُليْمانُ مُدَّة ، ثمَّ ما زَالَ المَنْصُورُ يُلحُّ حتىٰ أسْلَمَه ، فسَجَنه سَنوات ، فيُقالُ : حَفَرَ أسَاسَ الحَبْسِ وأرْسَلَ عليه الماء فوَقعَ علىٰ عبدِ الله في سَنة سَبعٍ وأرْبَعينَ ومِئَة فالأمْرُ لله[2] .

المَنْصُور :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : أبادَ جَماعَة كباراً حتَّىٰ تَوطَّد له الْمُلكُ ، ودانَت له الأُمَمُ علىٰ ظُلم فيه وقُوَّة نَفس ، ولكنَّه يَرجعُ إلىٰ صِحَّة إسْلام وتَديُّن في الجُملَة ، وتَصَوُّنٍ وصَلاةٍ وخَيرٍ ، مع فَصاحَة وبَلاغَة وجَلالَة وقد وَلي بُلَيدَة من فارس لعامِلِها سُليمانَ بنِ حَبيب بنِ الْمُهَلَّب بن أبي صُفْرَة ، ثم عَزله وضَربه وصادَره ، فلمَّا اسْتُخْلِفَ قَتلَه وكان يُلقَّبُ : أبا الدَّوانيقِ لتَدنيقه ومُحاسَبتِه الصُّنَّاعَ لَمَّا أنْشأ بَغدادَ[3] .

الحَكمُ بنُ هِشام :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : ابنُ الدَّاخِل عبدِ الرحمَـٰن بنِ مُعاويَة ، ويُلقَّبُ بالْمُرْتَضَىٰ .

بُويعَ بالْمُلكِ ، عند مَوتِ أبيه في صَفَر سَنةَ ثَمانينَ ومئة .

وكان من جَبابرَة الْمُلوكِ ، وفُسَّاقِهم ، ومُتَمَرِّديهِم ، وكان فارِساً شُجاعاً ، فاتِكاً ذا دَهاء وحَزْم وعُتُو ، وظُلمٍ ، تَمَلَّكَ سَبعاً وعشرينَ سنةً .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/٦٣٩ .
(٣) انظر السير : (الْمَنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٧٨ .

وكانَ في أوَّلِ أمرِه علىٰ سِيرَةٍ حَميدَةٍ ، تَلا فيها أباه ، ثم تَغيَّرَ ، وتَجاهَرَ بالْمَعاصي .

قالَ أبو محمَّد بنُ حَزْم : كان من الْمُجاهِرينَ بالْمَعاصي ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، كان يَأخُذُ أوْلادَ النَّاسِ الْمِلاحِ ، فيُخْصيهم ويُمْسِكُهم لنَفسِه[1] .

قالَ اليَسَعُ بنُ حَزْمٍ : هَمَّت الرُّومُ بما لَمْ يَنالُوا من طَلَبِ الثُّغُورِ ، فنَكَثُوا العَهْدَ ، فتَجهَّزَ الحَكَمُ بنُ هشَامٍ إليهم حتىٰ جَازَ جَبَلَ السَّارة ـ شَمَالِي طُلَيْطِلَةَ ـ ففَرَّت الرُّومُ أمَامَه حتىٰ تَجَمَّعوا بمدينةِ سَمُّورَة ، فلمَّا الْتَقَى الجَمْعانِ ، نَزَلَ النَّصْرُ ، وانْهَزَمَ الكُفْرُ ، وتَحَصَّنُوا منه بمدينةِ سَمُّورَةَ ، وهي كبيرةٌ جداً فحَصَرَها المُسلمُون بالمِنْجَنِيقِ حتى افْتَتَحُوها عُنْوَةً ، ومَلَكُوا أكثرَ شَوارِعَها ، واشْتَغَلَ الجُندُ بالغَنَائِمِ ، وانضَمَّت الرُّومُ إلىٰ جِهَةٍ من البَلَدِ ، وخَرجُوا علىٰ حَمِيَّة فقتَلوا خَلْقاً في خُروجِهم ، فكانت غَزْوَتُه من أعْظَمِ المَغازِي لولا ما طَرَأَ فيها من تَضْيِيعِ الحَزْمِ ، ورامَت الرُّومُ السِّلْمَ ، فأبَىٰ عليهم الحَكَمُ ، ثمَّ خَرَجَ من بلادِهم خَوفاً من الثُّلُوجِ ، فلمَّا كان العَامُ الآتِي اسْتَعَدَّ أعْظَمَ اسْتِعدَادٍ ، وقَصَدَ سَمُّورةَ فقتَلَ فيها وسَبَىٰ كُلَّ ما مَرَّ به ، ثمَّ نَازَلَها شَهْرَينِ ، ثمَّ دَخلُوها بعد جَهْدٍ ، وبَذَلُوا فيها السَّيفَ إلى المَسَاءِ ، ثمَّ انْحَازَ المُسلمونَ فبَاتُوا علىٰ أسْوارِها ، ثمَّ صَبَّحوها من الغَدِ لا يُبْقُونَ علىٰ مُحْتَلِمٍ .

قال الرَّازِيُّ في « مَغَازِي الأنْدَلُسِ » : الذي أُحْصِيَ ممَّن قُتِلَ في سَمُّورةَ ثلاثُ مِئَةِ ألفِ نَفْسٍ ، فلمَّا بَلَغَ الخَبَرُ مَلِكَ رُوميَّة كَتَبَ إلى الحَكَمِ يَرْغَبُ في الأمَانِ ، فوَضَعَ الحَكَمُ على الرُّومِ ما كان جَدُّه وَضَعَ عليهم ، وزَادَ عليهم أن يَجْلِبُوا من تُرابِ مدينةِ رُوميَّةَ نفسِها ما يُصْنَعُ به أكْوامٌ بشَرْقِي قُرْطُبَةَ صَغَاراً لهم ، وإعْلاءً لمَنَارَةِ الإسْلامِ ، فهُما كَوْمانِ من التُّرابِ الأحْمَرِ في بَسِيطِ مدرَتِها السَّوْداء[2] .

وكَثُرت العُلماءُ بالأنْدَلُسِ في دَولتِه ، حتَّىٰ قيلَ : إنَّه كانَ بقُرْطُبَةَ أربعة آلاف مُتَقلِّس مُتَزَيِّين بزيِّ العُلماءِ ، فلمَّا أرادَ الله فناءَهم ، عَزَّ عليهم انْتِهاكُ الحَكَم للحُرُماتِ ،

---

(١) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٠ .
(٢) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ١/٧٥١ .

واتمَروا ليَخْلَعوه ، ثم جَيَّشوا لقِتالِه ، وجَرَت بالأنْدَلُسِ فِتنَةٌ عَظيمَةٌ على الإسْلامِ وأهْلِه ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ، فذَكرَ ابنُ مُزين في تاريخِه طَالوتَ بنَ عبدِ الجَبَّارِ الْمُعَافريِّ ، وأنَّه أحَدُ العُلماءُ العَامِلينَ الشُّهَداء الذين هَمُّوا بخَلع الحَكَم ، وقالوا : إنَّه غيرُ عَدلٍ ونَكثُوه في نُفوسِ العَوَامِّ ، وزَعَموا أنَّه لا يَحِلُّ الْمُكْثُ ولا الصَّبْرُ علىٰ هٰذه السِّيرَة الذَّميمَة ، وعَوَّلوا علىٰ تَقديمِ أحَدِ أهْلِ الشُّورَىٰ بقُرْطُبَةَ ، وهو أبو الشَّمَّاسِ أحمَدُ بنُ الْمُنْذر بنِ الدَّاخِل الأُمَويِّ ابنِ عَمِّ الحَكَم لِمَا عَرَفوا من صَلاحِه ، وعَقلِه ، ودِينِه ، فقَصَدوه وعَرَّفوه بالأمْرِ ، فأبْدَى الْمَيْلَ إليهم ، والبُشْرَىٰ بهم ، وقالَ لهم : أنتم أضْيَافي اللَّيلَة ، فإنَّ اللَّيلَ ، أسْتَر ، وناموا ، وقامَ هو إلى ابنِ عمِّه بجَهلٍ ، فأخْبَرَه بشأنِهم ، فاغْتاظَ لذلك ، وقالَ : جئتَ لسَفك دَمي أو دِمائِهم ، وهم أعْلامٌ ، فمن أين نَتوصَّلُ إلىٰ ما ذَكرتَ ؟ فقالَ : أرْسِلْ معي مَنْ تَثِقُ به ليَتحَقَّق ، فوَجَّهَ مَنْ أحَبَّ ، فأدْخَلَهم أحمَدُ في بَيتِه تَحتَ سِتْر ، ودَخلَ اللَّيلُ ، وجاءَ القَومُ ، فقالَ : خَبِّرُوني مَنْ مَعَكُم ؟ فقالوا : فُلانٌ الفَقيهُ ، وفُلانٌ الوَزيرُ ، وعدُّوا كباراً والكاتِبُ يَكتُبُ حتَّى امْتلأَ الرَّقُّ ، فمَدَّ أحَدُهم يدَه وَراءَ السِّترِ ، فرَأى القَومَ ، فقامَ وقامُوا ، وقالُوا : فعَلتَها يا عَدُوَّ اللهِ ، فمَنْ فَرَّ لِحينه ، نَجا ومَنْ لا ، قُبِضَ عليه ، فكانَ مِمَّنْ فَرَّ عيسَىٰ بنُ دينار الفَقيه ، ويَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى الفَقيهُ صاحِبُ مَالِك ، وقُرْعُوسُ بنُ العَبَّاسِ الثَّقَفيُّ .

وقُبِضَ علىٰ ناسٍ كأبي كَعْب ، وأخيه ، ومَالِكِ بنِ يَزيد القاضي ، وموسَىٰ بنِ سَالِم الخَوْلاني ، ويَحْيَىٰ بنِ مُضَر الفَقيه ، وأمثالهم من أهْلِ العِلمِ والدِّين ، في سَبعَةٍ وسَبعينَ رَجُلاً ، فضُربَت أعْناقُهم ، وصُلِبُوا .

وأضاف إليهم عَمَّيه كُلَيْباً ، وأمية ، فصُلبا ، وأَحْرَقَ القُلوبَ عليهم ، وسارَ بأمرِهم الرِّفاقُ ، وعَلمَ الحَكَمُ أنَّه مَحْقودٌ من النَّاسِ كُلِّهم ، فأخَذَ في جَمع الجُنودِ والحَشَمِ وتَهيَّأ ، وأخَذَت العامَّةُ في الهَيَج ، واسْتأسَدَ النَّاسُ ، وتَنمَّروا ، وتأهَّبوا ، فاتَّفقَ أنَّ مَمْلوكاً خَرجَ من القَصرِ بسَيفٍ دَفعَه إلى الصَّيْقَل ، فمَاطَله ، فسَبَّه ، فجاوَبَه الصَّيْقَلُ فتَضارَبا ونالَ منه الْمَمْلوكُ ، حتىٰ كادَ أنْ يُتْلِفَه ، فلمَّا تركَه ، أخذَ الصَّيْقَلُ السيفَ فقتلَ به الْمَمْلوكَ ، فتألَّبَ إلى الْمَقتُولِ جَماعَةٌ ، وإلى القاتِلِ جَماعَةٌ أُخْرَىٰ ، واسْتَفحَلَ

الشَّرُّ ، وذلك في رَمضانَ سَنةَ اثنتَين ومئتَين ، وتَداعَىٰ أهْلُ قُرطُبَة من أرْباضِهم ، وتألَّبوا بالسِّلاحِ ، وقَصَدوا القَصرَ ، فرَكبَ الجَيشُ والإمامُ الحَكَمُ ، فهَزَموا العامَّةَ ، وجاءَهم عَسكَرٌ من خَلفِهم ، فوَضَعوا فيهم السَّيفَ ، وكانَت وَقعَةً هائلَةً شَنيعَةً ، مَضىٰ فيها عَددٌ كَثيرٌ زُهاءَ عن أربَعينَ ألفاً من أهْلِ الرَّبَض ، وعايَنوا البَلاءَ من قُدَّامِهم ومن خَلفِهم فتَداعُوا بالطَّاعَة ، وأذْعَنوا ولا ذُوا بالعَفْوِ ، فعَفا عَنهم علىٰ أنْ يَخرُجوا من قُرطُبَة ، ففَعلوا وهُدِّمَت ديارُهم ومَساجِدُهم .

ماتَ الحَكَمُ سَنةَ سِتٍّ ومئتين ، وله ثَلاثٌ وخَمسونَ سَنةً ، وَوَلِيَ الأنْدلُسَ بَعْدَه ابنُه أبو الْمُطَرِّف عبدُ الرحمَـٰن[1] .

٢١ـ تَعْليلٌ لا يَصِحُّ لكثْرَة ظُلم المَنْصُور :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمَنصور : وقيل إنَّ عبدَ الصَّمَد عَمَّه قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ! لقد هَجَمتَ بالعُقوبَة حتىٰ كأنَّك لَمْ تَسْمَع بالعَفْو قالَ : لأنَّ بَني أُمَيَّة لَمْ تَبْلَ رِمَمُهم ، وآلَ عَليٍّ لم تُغْمَد سُيوفُهم ، ونَحْن بينَ قَومٍ قد رَأوْنا سُوقَة ولا تَتمَهَّدُ هَيْبَتُنا في صُدورِهم إلاَّ بنِسْيانِ العَفْو .

حَجَّ الْمَنْصورُ مرَّات منها في خِلافَتِه مَرَّتين ، وفي الثالثة ماتَ ببِئْر مَيْمُونَ ، قبلَ أنْ يَدخُلَ مَكة[2] .

٢٢ـ أمثِلَةٌ على الظُّلم :

(وتجدُ غَيرَها مُفرَّقَة في بعض الفقَرات السَّابقة)

جاءَ في تَرجَمَةِ إبْراهيمَ بنِ يَزيد (التَّيْميّ) ، قالَ ابنُ سَعْد : أخْبَرنا عليُّ بنُ محمَّد قالَ : طَلبَ الحَجَّاجُ إبْراهيمَ النَّخَعي ، فجاءَ الرَّسُولُ فقالَ : أريدُ إبْراهيمَ ، فقالَ إبْراهيمُ التَّيْميّ : أنا إبْراهيمُ ، ولَمْ يَسْتحِلَّ أنْ يدله على النَّخَعيِّ ، فأمَرَ بحَبسِه في الدِّيماسِ ، ولَمْ يَكنْ لهم ظِلٌّ من الشَّمسِ ، ولا كِنٌّ من البَرْدِ ، وكانَ كلُّ اثنَين في

---

(١) انظر السير : (الحَكَم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/ ٧٥١ .
(٢) انظر السير : (المنصور) ٧/ ٨٣ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٦٧٨ .

سِلْسِلَة فتَغيَّرَ إبْراهيمُ ، فعادَته أمُّه ، فلَمْ تَعرفْهُ ، حتَّىٰ كلَّمَها ، فمَاتَ ، فرَأى الحَجَّاجُ في نَومِه قائلاً يَقولُ : مَاتَ في البَلدِ اللَّيلَة رَجلٌ من أهْلِ الجَنَّة ، فسألَ ، فقالوا : مَاتَ في السِّجْنِ إبْراهيمُ التَّيْميّ ، فقالَ : حُلْمٌ نَزغَةٌ من نَزَغَات الشَّيطانِ ، وأمَرَ به فأُلْقِيَ على الكُنَاسَة[1] .

وقال مُصْعَبُ بنُ بِشْر : سَمعتُ أبي يقولُ : قامَ رجلٌ إلىٰ أبي مُسْلم وهو يَخْطبُ ، فقال : ما هـٰذا السَّوادُ عَليكَ ؟ فقالَ : حدَّثني أبو الزُّبَيْر عن جابرِ بن عبدِ الله ، « أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخلَ مَكةَ يَومَ الفَتْحِ ، وعَليهِ عَمامَةٌ سَوْدَاءٌ » وهـٰذه ثيابُ الهَيْبَة ، وثيابُ الدَّوْلة ، يا غُلامُ اضْرِبْ عُنُقَه!

قال الإمامُ الذهبيُّ : كان أبو مُسْلم سَفَّاكاً للدِّماءِ ، يَزيدُ على الحَجَّاجِ في ذلك وهو أوَّلُ مَنْ سَنَّ للدَّوْلة لبَاسَ السَّوادِ ، وكانَ بلاءً عَظيماً علىٰ عَرَبِ خُراسان ، فإنَّه أبادَهم بحَدِّ السَّيْف[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أبي عُبَيْدِ الله الوزير : ويُقالُ إنَّه سَمعَ من الزُّهْريِّ ، وعاصِم بنِ رَجاء بن حيوة ، وكان مع دينِه فيه تِيهٌ وتَعزُّزٌ حَجَّ الرَّبيعُ الحاجب ، فجاءَ إليه مُسَلِّماً ، فمَا قامَ له ولا وَفَّاهُ حَقَّه ، فعَملَ عَليه عند المَهْدي ، ورَمَى ابنَه بالتَّعَرُّض لِحُرَم الهَادي ، فقَتلَ المَهْديُّ ابنَه ، وقَبضَ عليه ، فسَجنَه ، فمَا زالَ في السِّجنِ حتَّىٰ تُوفِّي سَنةَ سَبعينَ ومئة[3] .

٢٣ـ أمْثِلَةٌ على الجَبَروتِ والبَغْي :

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ مَرْوانَ بنِ محمَّد آخرِ خُلفاءِ بَني أُميَّة : ومن جَبَروت مَرْوَانَ أنَّ يَزيدَ بنَ خالِد بنِ عبدِ الله القَسْري الأمير كانَ قد قاتَلَه ثم ظَفرَ به ، فأُدْخِلَ عليه يَوماً ، فاسْتَدناه ، ولَفَّ علىٰ إصْبعِه مِنْديلاً ، ورَصَّ عَينَه حتىٰ سَالَت ، ثم فَعلَ كذلك

---

(١) انظر السير : (إبْراهيمُ بن يَزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٧/٥٨٠ .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخُراسانيّ) ٦/٤٨ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٨ .

(٣) انظر السير : (أبو عُبَيْد الله الوَزير) ٧/٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/٧١٠ .

بعينِه الأُخْرىٰ وما نَطقَ يَزيدُ ، بل صَبرَ ، نَسألُ اللهَ العافيَةَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ طُولونَ : قيل : كانت مُؤنتُه في اليوم ألفَ دينار ، وكان يَرجعُ إلىٰ عَدْل وبَذْل لكنَّه جبَّارٌ ، سَفَّاكٌ للدِّماء[2] .

قال القُضاعيُّ : أُحْصيَ مَنْ قتَله صَبْراً ، أو ماتَ في سِجْنه ، فبَلغوا ثَمانيةَ عشرَ ألفاً .

وأنْشأ بظَاهر مِصْرَ جَامعاً ، غَرِمَ عليه مئةَ ألفِ دينار ، وكان جَيِّد الإسْلام مُعَظِّماً للشَّعائر[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُعْتَمِدِ بنِ عَبَّاد ، صاحِبِ الأنْدَلُس : ومن جَبَروتِه وعُتوِّه أنَّه أخَذَ مالاً لأعْمَىٰ ، فحَجَّ وجَاوَرَ بمَكَّةَ ، فبَلغَ المُعْتَضدَ أنَّه يَدعُو عليه ، فنَدبَ رَجلاً أعْطاهُ جُملةَ دَنانيرَ مَطْليَّة بسُمٍّ فسَارَ إلىٰ مَكَّة ، وأَوْصَلَه الذَّهَبَ ، فقالَ : يَظْلِمُني بإشْبيليَّة ، ويَصلُني هُنا ؟! ثم وَضَعَ منها دِيناراً في فَمِه ، كعَادَة الأضِرَّاء ، فمَاتَ من الغَدْ[4] .

وقد سَكِرَ لَيلَةً ، وخَرجَ في اللَّيلِ مَعه غُلامٌ ، وسَارَ مَخْموراً ، حتىٰ وَافَىٰ قَرْمُونَة[5] ، وصَاحبُها إسْحاقُ البرْزال ، وبيَنهما حُروبٌ ، وكانَ يَشْربُ أيْضاً في جَماعَة ، فاسْتأذَنَ المُعْتَضدُ ، ودَخلَ ، فزادَ تَعجُّبهُم فسلَّمَ وأكَلَ وألَّ[6] من سُكْرِه وسُقطَ في يدِه ، لكنَّه تَجلَّدَ ، ثم قال : أُريدُ أنْ أنامَ ففَرَشوا له ، فتَناوَمَ ، فقَالَ بَعضُهم : هـٰذا كَبشٌ سَمينٌ ، واللهِ لو أنْفَقتُم مُلكَ الأنْدَلُسِ عليه ما قَدِرْتُم فقالَ مُعاذُ بنُ أبي قُرَّة : كلاَّ ، رَجلٌ قَصدَنا ونزَلَ بنا مُستأمِناً ، لا تَتَحدَّثُ عنَّا القَبائلُ أنَّا قَتَلنا ضَيْفَنا ثم انْتَبَه وقامَ ، فقَبَّلُوا رَأسَه ، وقال للحَاجِبِ : أيْنَ نَحْنُ ؟ قالَ : بَين أهْلِك وإخْوانِك

---

(١) انظر السير : (مَرْوان بن محمد) ٦/ ٧٤ـ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٦٣٢ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٦ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن طُولون) ١٣/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٦ .
(٤) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/ ٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٥٧ .
(٥) غربي قرطبة وشرقي إشبيلية ، قديمة البنيان .
(٦) في اللسان ألَّ في سَيره ومَشيه ، إذا أسْرَعَ واهتز واضطرب .

قالَ : هَاتوا دوَاةً ، فكَتبَ لكُلّ منهم بخِلْعَة ومال وأفْراسٍ وخَدَم وأخَذَ مَعَه غِلْمَانَهم لقَبْضِ ذلك ، ورَكبَ ، فمَشَوا في خِدْمتِه لكنْ أساءَ كُلَّ الإساءَة ، طَلبَهم بعدَ أشْهُر لوَليمَة ، فأتاهُ سِتُّون منهم فأكْرَمَهم وأنْزَلَهم حَمَّاماً ، وطيَّنَه عليهم سِوىٰ مُعَاذ ، وقال لمُعَاذ : لِمَ تَرُعْ ، حَضرَتْ آجَالُهم ، ولَوْلاكَ ، لقتلُوني ، فإنْ أرَدْتَ أنْ أُقاسِمَكَ مُلْكي ، فَعَلتُ ، قال : بل أُقيمُ عِندَكَ ، وإلاَّ بأي وَجْه أرْجِعُ ، وقد قَتلتَ سَاداتِ بَني بِرْزال ، فصَيَّرَه من كِبارِ قُوَّادِه ، وكانَ من كِبارِ قُوَّاد المُعْتَمِد .

هَلكَ المُعْتَضِدُ سَنةَ أرْبع وسِتِّينَ وأرْبَع مِئَة .

قال أبو بَكْر مُحمدُ بنُ اللبانَة الشَّاعِرُ : مَلكَ المُعْتَمِدُ من مُسَوَّراتِ البلادِ مِئتَيْ مُسَوَّر ، ووُلِدَ له مئةٌ وثلاثَةٌ وسَبْعُونَ وَلداً ، وكانَ لمَطْبَخه في اليوم ثَمانيَةُ قَناطِير لحْم ، وكُتَّابُه ثَمانيَة عَشَر[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ دِحْيَة : وذَكرَ ابنُ نُقطَة أنَّ سَببَ عَزلِ ابن دِحْيَة أنَّه خَصَىٰ مَمْلوكاً له فغَضبَ الْمَلكُ وهَربَ ابنُ دِحْيَة ولَفظُ ابنُ مَسْدِي ، وقالَ : كان له مَمْلوك يُسمَّىٰ رَيْحان فجَبَّه واسْتأصَلَ أُنْثَيَيْه وزُبَّه وأتَىٰ بزامِرٍ فأمَرَ بثَقبِ شدقِه فغَضِبَ عليه الْمَنْصُورُ وجاءَه النَّذيرُ ، فاخْتَفَىٰ ، ثم سارَ مُتنكِّراً .

تُوفِّيَ سَنةَ ثَلاثٍ وثَلاثينَ وسِتِّ مِئة .

قالَ ابنُ النجَّار : كانَ القَلبُ يأبَىٰ سَماعَ كلامِه سَكنَ مِصْرَ ، وصادَف قَبولاً من السُّلطانِ الكَامِلِ ، وأقْبلَ عَليه إقْبالاً عَظيماً ، وسَمعتُ أنَّه كان يُسَوِّي له الْمَدَاسَ حينَ يَقومُ إلىٰ أنْ قالَ : ونَسَبُه لَيسَ بصَحيح ، وكان حافِظاً ماهِراً تامَّ الْمَعْرفَة بالنَّحْو واللُّغَة ، ظاهِريَّ الْمَذْهَب ، كَثيرَ الوَقيعَة في السَّلَف ، أحْمَقَ ، شَديدَ الكِبْر ، خَبيثَ اللِّسانِ ، مُتَهاوِناً في دِينِه ، وكان يَخْضِبُ بالسَّوادِ[2] .

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمدُ بنُ عَبَّاد) ١٩/٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٥٧ .

(٢) انظر السير : (ابنُ دِحْيَة) ٢٢/٣٨٩ـ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٠٦ .

٢٤ـ الجَزاءُ من جِنْسِ العَمَل :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ طارِقِ بن زِياد مَوْلَىٰ مُوسَىٰ بنِ نُصَيْر : وكان أميراً علىٰ طَنْجَة بأقْصَى المغرب ، فبَلغَه اخْتِلافُ الفِرَنْجِ واقْتِتالُهم ، وكاتَبه صاحبُ الجَزيرَة الخَضْراء ليَمُدَّه علىٰ عَدُوِّه ، فبادَرَ طارقُ وعدَّىٰ في جُندِه ، وهَزمَ الفِرَنْجَ ، وافْتَتَحَ قُرطُبَة وقَتلَ صاحِبَها لُذْريقَ ، وكتبَ بالنَّصرِ إلىٰ مَوْلاه ، فحَسدَه على الانْفِرادِ بهـٰذا الفَتْحِ العَظيمِ ، وتَوعَّده ، وأمَرَه أنْ لا يتجاوَزَ مَكانَه ، وأسْرَعَ مُوسَىٰ بجُيوشِه ، فتَلَقَّاه طارِقُ وقالَ : إنَّما أنا مَوْلاكَ ، وهـٰذا الفَتْحُ لك ، فأقامَ مُوسَىٰ بنُ نُصَير بالأنْدَلُس سَنتَين يَغزو ويَغنم وقَبضَ علىٰ طارِق ، وأساءَ إليه ، ثم اسْتَخلَفَ على الأنْدَلُسِ ولدَه عبدَ العَزيزِ بنِ مُوسَىٰ ، وكان جُندُه عامَّتُهم من البَرْبَر ، فيهم شَجاعَةٌ مُفْرِطَة وإقْدامٌ[1] .

ولمَّا تَمادَىٰ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر في سَيْرِه في الأنْدَلُسِ ، أتَىٰ أرْضاً تَميدُ بأهْلِها ، فقال عَسْكَرُهُ : إلىٰ أيْنَ تُريدُ أنْ تذْهَبَ بنا ؟ حَسْبُنَا ما بأيْدِينَا ، فقال : لَوْ أَطَعْتُمُوني لوَصَلْتُ إلى القُسْطَنْطِينيَّةَ ، ثمَّ رَجَعَ إلى المَغْرِبِ وهو رَاكِبٌ علىٰ بَغْلَةٍ وهو يَجُرُّ الدُّنْيَا بينَ يَدَيْه ، أَمَرَ بالعَجَلِ تَجُرُّ أوْقَارَ الذَّهَبِ والحَريرِ ، واسْتَخْلَفَ ابنَه بإفْريقِيَّةَ ، وأخَذَ معه مِئَةً من كُبَرَاءِ البَرْبَرِ ، ومِئَةً وعِشْرينَ من المُلُوكِ وأوْلادِهم ، فقَدِمَ مِصْرَ في هَيْئَةٍ ما سُمِعَ بمثلِها ، فوَصَلَ العُلَماءَ والأشْرافَ ، وسَارَ إلى الشَّام ، فبَلَغَهُ مَرَضُ الوَلِيدُ ، وكَتَبَ إليه سُلَيْمانُ يَأْمُرُه بالتَّوَقُّفِ : فمَا سَمِعَ منه ، فآلَىٰ سُلَيْمانُ إنْ ظَفِرَ به لَيَصْلِبَنَّه ، وقَدِمَ قَبْلَ مَوتِ الوَلِيدُ ، فأخَذَ ما لا يُحَدُّ من النَّفَائِسِ ، ووَضَعَ باقِيهِ في بَيْتِ المالِ ، وقُوِّمَتِ المَائِدَةُ بمِئَةِ ألفِ دينارٍ .

ووَلِيَ سُلَيْمانُ فأهَانَه ، ووُقِّفَ في الحَرِّ ـ وكان سَمِيناً ـ حتىٰ غُشِيَ عليه ، وبقِيَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ يَتَأَلَّمُ له ، فقال سُلَيْمانُ : يا أبا حَفْصٍ ما أَظُنُّ أَنِّي خَرجْتُ من يَميني .

وضَمَّه يَزِيدُ بنُ المُهَلَّبِ إليه ، ثمَّ فَدَىٰ نَفَسه ببَذْلِ ألفِ ألفِ دينارٍ ، وقِيلَ له : أَنْتَ

---

(١) انظر السير : (طارق) ٤/ ٥٠٠ـ٥٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٢ .

في خَلْقٍ من مَوَالِيكَ وجُنْدِكَ ، أفَلا أَقَمْتَ في مَقرِّ عِزِّكَ ؟! ، وبَعَثْتَ بالتقادم قال : لَوْ أَرَدْتُ لصَارَ ، ولكِنْ آثَرْتُ اللهَ ولَمْ أَرَ الخُروجَ ، فقال له يَزِيدُ : وكُلُّنا ذاكَ الرجُلُ ـ أرادَ بهٰذا قُدُومَهُ على الحَجَّاجِ[1] .

وقد امْتُحِنَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ ، حُبِسَ وضُرِبَ ، فروىٰ حِبَّانُ بنُ زُهَيْر العَدَوِيّ ، قال : حدَّثني أبو الصَّيْداءَ صالِحُ بنُ طَريفٍ ، قال : لمَّا قَدِمَ يُوسُفُ بنُ عُمَرَ العِراقَ بَكَيْتُ وقُلْتُ : هٰذا الذي ضَرَبَ وَهْبَ بنَ مُنبِّهٍ حتّىٰ قتَلَه .

يَعْنِي لمَّا وَلِيَ إمْرَةَ اليَمَنِ ، ثمَّ نَقَلَهُ الخليفَةُ هِشامُ إلىٰ إمْرَةِ العِراقِ ، وكان جَبَّاراً عَنِيداً مَهِيباً ، كان سِماطُهُ بالعِراقِ فيما حَكَى المَدائِنيُّ كلَّ يومِ خميسٍ مِئَةُ مائِدَةٍ ، أبْعَدُ المَوائِدِ وأقْرَبُها سَواءٌ في الجَوْدَةِ .

ثمَّ إنَّه عُزِلَ عن العِراقِ عند مَقْتَلِ الوَلِيدِ الفاسِقِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ وللهِ الحَمْدُ في سَنَةِ سَبعٍ وعشرينَ ومِئَةٍ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الله بن عَليٍّ : كان بَطلاً شُجاعاً ، مَهيباً ، جَبَّاراً ، عَسُوفاً ، سَفَّاكاً للدِّماءِ وبه قامت الدَّولَةُ العبَّاسيَّة سارَ في أرْبَعينَ ألفاً أو أكْثَرَ فالْتَقَى الخَليفةَ مَرْوانَ بقُرْبِ المُوصِل فهَزمَه ومَزَّقَ جُيوشَه ، ولَجَّ في طَلبه ، وطَوَى البلادَ حتىٰ نازَلَ دارَ المُلْك دِمَشْقَ ، فحاصَرَها أيّاماً وأخَذَها بالسَّيفِ[3] .

وقَتلَ بها إلى الظُّهْر نَحواً من خَمسينَ ألفَ مُسْلم من الجُنْدِ وغَيرِهم ولَمْ يَرْقُبْ فيهم إلاًّ ولا ذِمَّة ، ولا رَعَىٰ رَحِماً ، ولا نَسَباً ثم جَهَّزَ في الحالِ أخَاهُ داوُدَ بنَ عليّ في طَلَبِ مَرْوانَ ، إلىٰ أنْ أدْرَكَه بقَرْيَةِ بُوصِيرَ من بلادِ مِصْرَ ، فبيَّتَه ، فقَاتَلَ المِسْكينُ حتّىٰ قُتلَ وهَربَ ابْناهُ إلىٰ بلادِ النُّوبَة ، وانتَهَت الدَّوْلَةُ الأُمَويَّة[4] .

ولَمَّا ماتَ السَّفَّاحُ ، زَعَمَ عبدُ الله أنَّه وَليّ عَهْدِه ، وبايَعهُ أُمَراءُ الشَّام ، وبُويعَ

---

(١) انظر السير : (مُوسَى بن نُصَير) ٤/ ٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/٥٤٠ .
(٢) انظر السير : (وَهب بن مُنبّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٥٧ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/٦٣٩ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٩ .

المَنْصُورُ بالعِراقِ ، ونَدبَ لحَرْبِ عَمِّه صاحِبَ الدَّعْوَة أبا مُسْلم الخُراساني ، فالْتَقي الجَمْعان بنَصِيبِين ، فاشْتدَّ القِتالُ وقُتلت الأبْطالُ ، وعَظُمَ الخَطْبُ ، ثم انْهَزمَ عبدُ الله في خَواصِّه ، وقَصدَ البَصْرَةَ فأخْفاهُ أخُوهُ سُلَيْمانُ مُدَّة ، ثمَّ ما زَالَ المَنْصُورُ يُلحُّ حتىٰ أسْلَمَه ، فسَجَنه سَنوات ، فيُقالُ : حَفَرَ أسَاسَ الحَبْسِ وأرْسَلَ عليه الماء فوَقعَ علىٰ عبدِ الله في سَنة سَبعٍ وأرْبَعينَ ومِئَة فالأمْرُ لله[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ عُثْمانَ بنِ أبي شَيْبَة ، قالَ إبْراهيمُ بنُ أبي طالِب : جئتُه فقالَ لي : إلىٰ مَتَىٰ لا يَموتُ إسْحاقُ بنُ راهَوَيه ؟ فقُلتُ له : شَيخٌ مثلُك يَتمَنَّىٰ هـٰذا ؟! قالَ : دَعْني فلَوْ مَاتَ لصَفَا لي جَريرُ بنُ عبدِ الحَميد .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : فمَا عاشَ بعد إسْحاقَ سِوَىٰ خَمسَةَ أشْهُر[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ سالِمِ بنِ حامِد نائبِ دِمَشْقَ للمُتَوَكل : كانَ ظَلوماً عَسوفاً ، شَدَّ عليه طائفَةٌ من أشْرافِ العَرَبِ فقَتلُوه ببابِ دارِ الإمارَة يومَ جُمُعَة سَنَة بضْع وثلاثينَ ومِئتَين فبلغَ الْمُتَوَكل فتنمَّر ، وقالَ : من للشَّام في صَوْلَة الحَجَّاج ؟ فنَدبَ أفريدونَ التُّركيَّ ، فسارَ في سَبعة آلافِ فارِس ورَخَّصَ له الْمُتَوَكلُ في بَذلِ السَّيفِ ضَحْوَتين ، وفي نَهْبِ البَلد فنزَلَ ببيت لِهْيا فلمَّا أصْبَحَ قالَ : يا دِمَشْقُ ، أيش يَحِلُّ بك اليومَ منِّي ، فقُدِّمَتْ له بَغلَة دَهْماء ليَركَبَها ، فضَربَته بالزَّوْج علىٰ فُؤادِه فقَتلَته فقَبرُه كان مَعْروفاً ببيت لِهْيا ، ورُدَّ عَسكَرُه إلى العِراقِ ثم جاءَ بعد الْمُتَوَكلُ إلىٰ دِمَشْقَ وأنْشأَ قَصراً بداريّا ، وصَلُحَ الحَالُ[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ الأديبِ العلاَّمَة ابنِ الزيَّات : وكانَ يَقولُ بخَلق القُرآن ، ويَقولُ : ما رَحمتُ أحَداً قَطُّ ، الرَّحْمَةُ خَورٌ في الطَّبْع فسُجنَ في قَفَص حَرِجٍ ، جِهاتُه بمَسامِيرَ كالْمَسَالِّ ، فكانَ يَصيحُ : ارْحَمُوني ، فيَقُولونَ : الرَّحْمَةُ خَوَرٌ في الطَّبيعَة[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عليّ) ٦/ ١٦١ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/٦٣٩ .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن أبي شَيبَة) ١١/ ١٥١ـ ١٥٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٧ .
(٣) انظر السير : (سالم بن حامد) ١١/ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٩١٨ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الزيَّات) ١١/ ١٧٢ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٧/٩٢١ .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَوَكلِ على الله : وكان الْمُتَوَكلُ جَواداً مُمَدَّحاً لعَّاباً ، وأرادَ أنْ يَعزِلَ من العَهْد الْمُنْتَصِرَ ، ويقدِّمَ عليه الْمُعْتَزَّ لحُبِّه أُمَّهُ قَبيحَة ، فأبَى الْمُنْتَصِرُ ، فغَضِبَ أبوه وتَهدَّدَه ، وأغْرَىٰ به ، وانْحَرفَت الأتْراكُ على الْمُتَوكل لِمُصادَرتِه وَصيفاً وبُغا حتى اغْتالُوه .

وبُويعَ الْمُنْتَصِرُ من الغَدِ بالقَصْرِ الجَعْفَريِّ سَنَةَ سبعٍ وأرْبَعينَ ومِئتَين[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُنْتَصِر بالله : وكان الْمُنْتَصِرُ وافِرَ العَقْل ، راغِباً في الخَيرِ ، قَليلَ الظُّلمِ ، باراً بالعَلويِّينَ ، ويَسُبُّ الأتْراكَ ويَقولُ : هَؤلاء قَتلَةُ الخُلَفاء ، فقالَ بُغا الصَّغيرُ للذين قَتلوا الْمُتَوَكِّلَ : ما لكم عند هٰذا رِزْقٌ فعَملوا عليه وهَمُّوا ، فعَجَزوا عنه ، لأنَّه كانَ شُجاعاً مَهيباً يَقِظاً مُتَحرِّزاً لا كأبيه فتَحيَّلوا إلىٰ أنْ دَسُّوا إلىٰ طَبيبه ابنِ طَيْفُور ثَلاثينَ ألفَ دينار عند مَرَضِه فأشارَ بفَصْدِهِ ، ثم فَصَدَه بريشَةٍ مَسْمومَةٍ ، فماتَ منها[2] .

ويُقالُ : إنَّ طَيْفُور نَسيَ ومَرِضَ ، وافْتصَدَ بتلك الريشَة ، فهَلكَ[3] .

ووَردَ عنه أنَّه قالَ في مَرَضِه : ذَهبَتْ يا أُمَّاهُ مِنِّي الدُّنيا والآخِرَة عاجَلتُ أبي فعُوجِلتُ وكان يُتَّهَم بأنَّه وَاطَأ علىٰ قَتلِ أبيه ، فما أُمْهِلَ ، ووَزرَ له أحمَدُ بنُ الخصيبِ ، أحَدُ الظَّلمَة[4] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الْمُسْتَعينِ بالله : فكاتبَ ابنُ طاهِر في السِّرِّ الْمُعْتَزَّ ، وانحَلَّ نظامُ الْمُسْتَعين ، وإنَّما كان قَوامُ أمْرِه بابنِ طاهِر ، وكاشَفَه الناسُ ، فتَحوَّل إلى الرُّصافَة ، ثم سَعى النَّاسُ في الصُّلْحِ ، وخَلْعِ الْمُسْتَعين ، فأقامَ في ذلك إسْماعيلُ القاضي وغَيرُه بشُروطٍ وَثيقَة ، فأذْعَنَ بخَلعِ نَفسِه في أوَّلِ سَنة اثنَتين وخَمسينَ ومئتَين ،

---

(١) انظر السير : (الْمُتَوَكِّل على الله) ١٢/ ٣٠ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٩ .
(٢) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٩ .
(٣) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٤/٩٧٩ .
(٤) انظر السير : (الْمُنْتَصِر بالله) ١٢/ ٤٢ـ ٤٦ ، وانظر النزهة : ٥/٩٧٩ .

وأشْهَد عليه ، ثم حُوِّل إلىٰ سامَرَّاء فقُتلَ بقادسِيَّة سامَرَّاء في ثالثِ شَوَّال من السَّنَة ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون[1] .

وقال الصُّوليُّ : بَعثَ الْمُعْتَزُّ أحمدَ ابنَ طُولونَ إلىٰ واسِطَ لقَتلِ الْمُسْتَعينِ فقالَ : واللهِ لا أقْتُلُ أولادَ الخُلَفاء فبَعثَ سَعيداً الحاجِبَ ، فما مَتَعَ اللهُ الْمُعْتَزَّ ، بلْ عُوجِلَ بالخَلْعِ والقَتْلِ جَزاءً وِفاقاً[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ خَيْرُونَ : الإمامُ أبو جَعْفَر محمَّدُ ابنُ خَيرُونَ الْمَعَافِري مَوْلاهُم القُرطُبي[3] .

قال بَعضُهم : كُنتُ جالساً عند ابنِ أبي خِنْزيرٍ فدَخلَ شَيخٌ ذو هَيئَة وخُشوع ، فبَكَى ابنُ أبي خِنزير وقال : السُّلطانُ ـ يَعْني عُبَيْدَ الله ـ وَجَّهَ إليَّ يأمُرُني بدَوْسِ هٰذا ـ يَعْني ابنَ خَيْرون ـ حتىٰ يَموتَ ، ثم بَطَحَه ، وقَفَزَ عليه السُّودانُ حتىٰ ماتَ ، لِجِهادِه وبُغْضِه لعُبَيدِ الله وجُندِه[4] .

وكانَ سَعىٰ به الْمَروذيُّ اللَّعينُ ، ولَمَّا رَأى ابنُ أبي خِنْزير كثْرَةَ أذَاه للعُلماء تَحيَّلَ وسَعَىٰ به ، حتىٰ قَتلَه عُبَيدُ الله سَنةَ ثلاثِ مئَة أوْ بَعدَها ، فيا ما لَقِيَ الإسْلامُ وأهْلُه من عُبَيدِ اللهِ الْمَهْديِّ الزِّنْديق[5] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ القَاهِرِ بالله العَبَّاسيِّ : بايَعُوه بعدَ الْمُقْتَدِر ، فصادَرَ حاشِيَةَ أخيه وعذَّبَهم ، وضَربَ أُمَّ الْمُقْتَدِر بيدِه ، وهي عَليلَةٌ ثم ماتَت مُعلَّقةً بحَبْلٍ ، وعذَّبَ أُمَّ مُوسَى القَهْرمانَة ، وبالَغ في الإساءَةِ ، فنَفَرَت منه القُلوبُ[6] .

ولم يكن القَاهِرُ مُتَمَكِّناً من الأمُورِ ، وحَكمَ عليه عليُّ بنُ بُليق الرَّافِضيُّ الذي عَزَمَ علىٰ سَبِّ مُعاوِيَةَ رضي الله عنه على الْمَنابِرِ فارْتَجَّت العِراقُ ، وقُبضَ علىٰ شَيخِ الحَنابلَة

(١) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ١/٩٨١ .
(٢) انظر السير : (الْمُسْتَعينُ بالله) ١٢/٤٦ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨١ .
(٣) انظر السير : (ابنُ خَيْرون) ١٤/٢١٧ ، وانظر النزهة : ١/١١٤٧ .
(٤) انظر السير : (ابنُ خَيْرون) ١٤/٢١٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٧ .
(٥) انظر السير : (ابنُ خَيْرون) ١٤/٢١٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٤٧ .
(٦) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/٩٨ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٧ .

البَرْبَهاريّ ، ثم قَويَ القَاهِرُ ونَهَبَ دُورَ مُخالفيه ، وطَيَّن علىٰ وَلدِ أخيه الْمُكْتَفي بين حَيْطَين وضربَ ابنَ بُليق وسَجنَه ، ثم أمَرَ بذَبْحِه ، وبذَبْح أبيه ، وذَبَحَ بعدَهما مُؤنساً الكَبيرَ ويُمناً وابنَ زيرك وبَذلَ للجُند العَطاءَ وعَظُمَ شَأنُه ونادَىٰ بتَحْريم الغِناءِ ، والخَمْرِ ، وكَسْرِ المَلاهي ، وهو مع ذلك يَشربُ الْمَطْبوخَ والسُّلافَ ، ويَسكَرُ ويَسْمَعُ القَيْناتِ واسْتَوزَرَ غير واحدٍ وقَتلَ أبا السَّرايا بنَ حمدانَ وإسْحاقَ النُّوبَخْتي ألقَاهُما في بِئْر ، وطُمَّت لكَونِهما زَايَداه في جارِيَة قَبلَ الخِلافَة وبَقي ابنُ مُقْلَة في اخْتِفائِه يُراسِلُ الجُندَ ويُشَغِّبُهم على القَاهِرِ ، ويَخرُجُ مُتنكِّراً في زيٍّ عَجميٍّ ، وفي زيٍّ شَحَّاذٍ ، وأعطَىٰ مُنَجِّماً ذَهباً ليَقُولَ للقُوَّادِ : عَليكُم قطعٌ من القَاهِرِ ثم خُلعَ وأُكْحِلَ بمِسْمارٍ لسُوءِ سِيرَتِه وسَفْكِهِ الدِّماءَ وكانت خِلافَتُه سَنةً ونِصْفاً وأُسْبوعاً[1] .

قالَ الصُّولي : كانَ أهْوَجَ ، سَفَّاكاً للدِّماءِ ، كَثيرَ التَّلوُّنِ ، قَبيحَ السِّيرَةِ ، مُدْمِنَ الخَمْرِ ، ولَوْلا جَوْدَةُ حاجِبه سَلامَةَ لأهْلكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ ، وكانَ قد صَنَعَ حَرْبَةً يَحْملُها فلا يَطْرَحُها حتىٰ يَقْتلَ إنْساناً[2] .

ثم أُخْرِجَ إلىٰ دار ابنِ طاهِر ، فكان تارَةً يُحبَسُ ، وتارَةً يُمْهَلُ ، فوقَفَ يوماً بالجَامِعِ بينَ الصُّفوفِ ، وعليه جُبَّةٌ بَيْضاءُ ، وقالَ : تَصدَّقوا عليَّ ، فأنا مَنْ قد عَرَفْتم .

ثم ماتَ في سَنةِ تِسْعٍ وثَلاثينَ وثَلاثِ مئة ، وله ثَلاثٌ وخَمْسونَ سَنةً[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرْجَمةِ الْمُتَّقي لله العَبَّاسيِّ : أقبل تَوْزونُ من وَاسِط فخَلعَ عليه الْمُتَّقِي ، ولقَّبَه أميرَ الأُمَراء ولكنْ ما تَمَّ الوُدُّ فعادَ تَوْزونُ إلىٰ وَاسِط وصادَرَ الْمُتَّقي وَزيرَه ، وبَعثَ بخِلَعٍ إلىٰ أحمَدَ بنِ بُوَيه واسْتَوْزَرَ غَيرَ واحد ، ويَعزِلُهم ، وصَغُرَ أمرُ الوَزارَة ، ووَهَنَت الخِلافَة العبَّاسيَّة[4] .

وتوجه الْمُتَّقي لله من الرَّقَّة إلىٰ بَغْدادَ ، فأقامَ بهيتَ ، وحَلَفَ له تَوْزُونُ ، فلمَّا الْتَقاه

---

(١) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٧/ ٢ .
(٢) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٧/ ٣ .
(٣) انظر السير : (القَاهِرُ بالله) ١٥/ ٩٨ـ ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٧/ ٤ .
(٤) انظر السير : (الْمُتَّقي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ١١٨٩/ ١ .

تَرجَّلَ له وقَبَّلَ الأرضَ ، ومَشَىٰ بين يدَيه إلىٰ مُخيَّمٍ ضَربَه للْمُتَّقِي ، فلمَّا نزلَ قَبضَ تَوْزُونُ عليه وسَمَلَه ، وأُدخِلَ بغدادَ أعْمَىٰ ، فللَّه الأمْرُ ، وأخَذَ منه البُرْدَ والقَضيبَ والخَاتَمَ ، وأحْضرَ عبدَ الله الْمُسْتَكْفِي بالله ابنَ الْمُكْتَفي فبايَعه بالخِلافَة[1] .

خُلعَ الْمُتَّقِي سَنةَ ثلاثٍ وثَلاثين ، لم يُمْهَلْ تَوْزونُ ولا حَالَ عليه الحَوْلُ تُوفِّي الْمُتَّقِي في السِّجنِ بعدَ كحْلِه بدَهْر وذلكَ سَنةَ سَبعٍ وخَمسينَ وثَلاثِ مئة[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الظَّافِرِ بالله العُبَيْديِّ : كان نَصْرُ ابنُ عبَّاس بن أبي الفُتوح الوَزيرُ من المِلاحِ فمَالَ إليه الظَّافِرُ وأحَبَّه فاتَّفقَ هو وأبُوه عبَّاسٌ على الفَتْكِ بالظَّافِر[3] ، فدَعاهُ نَصرُ إلىٰ دارِهم ليَأتيَ مُتخَفِّياً ، فجاءَ إلى الدَّارِ التي هي اليَومَ المَدرَسةُ السُّيوفيَّة فشَدَّ نَصرٌ عليه فقَتلَه وطَمرَهُ في الدَّارِ وذلكَ في سَنةِ تسْعٍ وأرْبَعينَ وخَمسِ مِئَة وعاشَ الظَّافِرُ اثْنَتينِ وعِشرينَ سَنةً .

ثم رَكبَ عَباسٌ من الغَدِ وأتَى القَصرَ وقالَ : أينَ مَوْلانا ؟ فطَلبُوهُ ففَقَدُوه وخَرَجَ جِبريلُ ويوسُفُ أخَوا الظَّافِر ، فقالَ : أين مَوْلانا ؟ قالا : سَلْ ابْنَك ، فغَضِبَ وقالَ : أنتُما قَتلتُماه ، وضَربَ رِقابَهُما في الحَالِ[4] .

ولَمَّا اغْتالَ عَبَّاسٌ الوَزيرُ الظَّافِرَ ، أظْهَرَ القَلقَ ، ولمْ يَكنْ عَلِمَ أهْلُ القَصْر بمَقْتَله فطَلَبُوهُ في دُورِ الحُرَم فمَا وَجدُوه وفتَّشُوا عليه وأيسُوا منه وقالَ عَباسٌ لأخَوَيْه : أنْتُما الذين قَتلتُما خَليفَتَنا فأصَرَّا على الإنْكارِ ، فقتَلَهما نَفْياً للتُّهْمَةِ عَنه واسْتَدعَىٰ في الحالِ عِيسَىٰ هـٰذا ، وهوطِفْلٌ له خَمسُ سِنينَ وقِيلَ : بلْ سَنتَان فحَمَلَه علىٰ كَتفَيْه ووَقَفَ باكياً كَئيباً ، وأمَرَ بأنْ تَدخُلَ الأُمَراءُ ، فدَخَلوا فقالَ : هـٰذا وَلدُ مَوْلاكُم ، وقد قَتلَ عَمَّاهُ مَوْلاكُم ، فقَتلْتُهما به كَما تَرَوْنَ والوَاجِبُ إخْلاصُ النِّيَّة والطَّاعَة لهـٰذا الوَلَد فقالُوا كُلُّهم : سَمْعاً وطاعَةً ، وضَجُّوا ضَجَّةً قوَيةً بذلكَ ففَزِعَ الطِّفلُ ، وبالَ علىٰ كتفِ المَلِكِ

---

(١) انظر السير : (الْمُتَّقِي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٨٩ .

(٢) انظر السير : (الْمُتَّقِي لله) ١٥/ ١٠٤ـ ١١١ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٩ .

(٣) يذكر أسامة بن مُنقذ أن الظافر حمل نصراً علىٰ قتل أبيه ، فاطَّلع والدُه على الأمر فلاطَفه واستماله وقرَّر معه قتل الظافر ، انظر « الاعتبار » ١٩ ـ ٢٠.

(٤) انظر السير : (الظَّافر بالله) ١٥/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٦ .

عَبَّاس ولَقَّبُوهُ الفائزَ ، وبَعثُوهُ إلىٰ أُمِّه ، واخْتُلَّ عَقلُه من حينَئذٍ وصَارَ يَتحرَّكُ ويُصْرَع ، ودَانَت الْمَمالكُ لعَبَّاسٍ .

وأمَّا أهْلُ القَصْر ، فاطَّلَعُوا علىٰ باطِنِ القَضيَّة ، وأقامُوا المآتِمَ على الثَّلاثَة ، وَتحيَّلوا ، وكاتَبوا طَلائعَ بنَ رُزِّيك الأرْمنيَّ الرَّافِضيَّ[1] .وَالِيَ المُنْيَة[2] ، وكان ذَا شَهامَةٍ وإقْدام فسَألوهُ الغَوثَ ، وقَطَعوا شُعورَ النِّساءِ والأوْلادِ ، وسَيَّروها في طَيِّ الكتابِ وسَخَّمُوه ، فلمَّا تأمَّلَه اطَّلعَ مَنْ حَوْلَه من الجُنْدِ عَليه ، وبَكَوا ولَبسَ الحِدادَ ، واسْتَمالَ عَربَ الصَّعيدِ ، وجَمعَ وحَشَدَ ، وكاتَبَ أُمَراءَ القاهِرَة ، وهَيَّجَهم علىٰ طَلبِ الثَّأرِ فأجابُوهُ فسَارَ إلى القاهِرَةِ ، فبادَرَ إلىٰ رِكابِه جُمهُورُ الجَيشِ ، وبَقيَ عَبَّاسٌ في عَسْكرٍ قَليلٍ فخَارَت قُواهُ وهَربَ هو وابنُه نَصرٌ ومَماليكُه والأميرُ ابنُ مُنقِذ .

ثم قَصَدَ عَبَّاسٌ الشَّامَ علىٰ ناحيَة أيْلَة في رَبيعِ الأول ، فمَا كانَت أيَّامُه بعدَ قَتلِ الظَّافِرِ إلاَّ يَسيرَةٌ ، واسْتولَى الصَّالحُ طَلائعُ بنُ رُزِّيك علىٰ دِيارِ مِصْرَ بلا ضَربَةٍ ولا طَعنَةٍ ، فنَزلَ إلىٰ دارِ عَبَّاس ، وطَلبَ الخَادِمَ الصَّغيرَ الذي كانَ مع الظَّافِرِ ، وسَألَه عن المَكانِ الذي دُفنَ فيه أُسْتاذُه ، فأعْلَمَه فقَلعَ بَلاطَه ، وأخْرَجَ الظَّافِرَ ومَنْ مَعَه من القَتْلَىٰ وحُملُوا وناحُوا عَليهِم وتَكفَّلَ طَلائعُ بالفائِزِ ، ودَبَّرَ الدَّولَة .

وجَهَّزَت أُختُ الظَّافِرِ رَسُولاً إلى الفِرَنْجِ بعَسْقَلانَ ، وبذَلَت لهم مالاً عَظيماً إنْ أَسَروا لها عَبَّاساً وابنَه ، فخَرجُوا عَليه ، فالْتَقاهُم ، فقُتلَ في الوَقْعَةِ ، وأُخِذَت خَزائِنُه ، وأَسَروا ابنَه نَصْراً ، وبَعثُوهُ إليها في قَفَصٍ حَديدٍ ، فلمَّا وَصَلَ ، قَبَضَ رَسُولُهم المَالَ ، وذلكَ في رَبيع الأول سَنَةَ خَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، فقُطِعَت يَدُ نَصْر ، وضُربَ بالمَقَارِعِ كَثيراً ، وقُصَّ لَحْمُه ثم صُلِبَ فمَاتَ ، فبَقيَ مُعلَّقاً شُهوراً ، ثم أُحْرِقَ .

---

(١) لُقِّبَ بالملك الصالح ، كان شُجاعاً حازماً مُدبِّراً ، أصله من الشيعة الإمامية في العراق ، مات غِيلة سنة ٥٥٦ هـ.

(٢) مُنْيَة بني خصيب ، من أعمال صعيد مصر.

ماتَ الفَائزُ سَنةَ خَمسٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، وله نَحْو من عَشْر سِنينَ ، وبايَعوا العَاضِدَ[1] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ سُلَيمَانَ الْمُسْتَعينِ بالله : ثم إنَّ عليَّ ابنَ حَمُّودَ الإدْريسيَّ طَمِعَ في الخِلافَةِ وراسَلَ جَماعةً ، فاسْتجابَ له خَلقٌ ، وبايَعوه ، فعَدَّىٰ من سَبْتَةَ إلى الأنْدَلُسِ ، فبايَعَه مُتولِّي مالِقَة واسْتحْوَذَ على الكِبارِ ، وزَحَفَ إلىٰ قُرْطُبَةَ ، فجَهَّزَ الْمُسْتَعينُ بالله لحَرْبِه وَلدَه مُحمَّدَ بنَ سُليمانَ ، فالْتَقوا ، فانْهَزَمَ مُحمَّدٌ ، وهَجمَ ابنُ حَمُّود ، فدَخَلَ قُرْطُبَةَ في الحالِ ، وظَفِرَ بالْمُسْتَعينِ ، فذَبَحَه بيدِه صَبْراً ، وذَبَحَ أباه الحَكَمَ وهو شَيخٌ في عَشْر الثَّمانينَ ، وذلكَ في الْمُحرَّم ، سَنةَ سَبعٍ وأرْبَع مئة وانْقَضَتْ دَولَةُ الْمَرْوانيَّة في جَميعِ الأنْدَلُس .

وكان الْمُسْتَعينُ أديباً شاعِراً ، عاشَ نَيِّفاً وخَمسينَ سَنةً[2] .

وأما عليُّ بنُ حَمُّود ، فوَثَبَ عليه غِلْمانٌ له صَقالِبَة في الحَمَّامِ ، فقَتَلُوه في آخِرِ سَنةِ ثَمان وأرْبَع مئة[3] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ قِرْواش بنِ مُقلَّد : وكان أديباً شاعراً ، جَواداً مُمَدَّحاً ، نهَّاباً وَهَّاباً ، فيه جاهليَّة وطَبعُ الأعْرابِ ، يُقالُ إنَّه جَمعَ بين أُختَين ، فلامُوهُ ، فقالَ : حَدِّثوني ما الذي نَعمَلُ بالشَّرعِ حتَّىٰ تَذكُروا هـٰذا ؟ وقالَ مَرَّة ما في عُنُقي غَيرُ دمِ خَمسَةٍ سِتةٍ من العَرَب ، فأمَّا الحاضِرَةُ ، فمَا يَعبأ الله بهم[4] .

ثم إنَّه وَقعَ بينَه وبينَ ابنِ أخيه بَرَكة ، فظَفرَ به بَرَكةُ وحَبسَه وتَملَّك ، وتَلقَّبَ زَعيمَ الدَّولَة ، في سَنةِ إحْدىٰ وأربعين وأربع مئة ، فلَمْ تَطُلْ دَولَةُ بَرَكة ، وماتَ في آخِرِ سَنةِ ثَلاثٍ وأرْبَع مِئة ، فقامَ بعدَه الْمَلِكُ أبو المَعَالي قُرَيشُ بنُ بَدْرانَ بنُ مُقلَّد ، فأَخْرجَ عَمَّه ، وذَبَحه صَبْراً في رَجَبَ سَنةَ أرْبَع وأرْبَعينَ وأرْبَع مئة .

---

(١) انظر السير : (الفائز بالله) ١٥/ ٢٠٥ـ٢٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١٧ .

(٢) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٠ .

(٣) انظر السير : (سُلَيمَانُ الْمُسْتَعينُ بالله) ١٧/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٠ .

(٤) انظر السير : (قِراوَش) ١٧/ ٦٣٣ـ ٦٣٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٠ .

وتَمكَّنَ قُرَيشٌ ، ونَهضَ مع البَساسيريِّ ، ونَهبَ دَارَ الخِلافَة ، وكانَ هَلاكُه بالطَّاعُونِ في سَنةِ ثَلاثٍ وخَمسينَ وأرْبَع مئة كَهْلاً ، فتَملَّكَ بعدَه ابنُه شَرَفُ الدَّولَة مُسْلِمُ بنُ قُرَيش ، فعَظُمَ سُلطانُه ، واسْتَولَىٰ على الجَزيرَة وحَلبَ ، وحاصَرَ دِمَشْقَ وكادَ أنْ يَأخُذَها ، وأخَذَ الإتاوَةَ من بلادِ الرُّوم ، وخَرَجَ عليه أهْلُ حرَّانَ سَنةَ سِتٍّ وسَبعين وأرْبَع مئة ، فظَفرَ بهم ، وقَتلَ قاضيَها ، وكان مُحبَّباً إلى الرَّعيَّة مَهيباً[1] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الوَزيرِ السُّمَيْرَميِّ : وقيلَ إنَّ الذي قَتَله كان عَبْداً للمُؤيَّد الطُّغْرائي وَزيرُ السُّلطانِ مَسْعود ، فإنَّ السُّمَيرَميَّ قَتلَ أسْتاذَه ظُلماً ونَبزَه بأنَّه فاسِدُ الاعْتِقادِ ، وكلُّ قاتِلٍ مَقتولٌ[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ البَطَائحي : هو وَزيرُ الدِّيارِ المِصْريَّة ، والدَّولَة العُبَيديَّة ، الْمَلكُ أبو عبد الله الْمَأمونُ بنُ البَطائحيُّ ، وكانَ من قِصَّتِه أنَّ أباه كان صاحِبَ خَبَرٍ بالعِراقِ للمِصْرِيِّينَ من أجْلادِ الرافِضَة ، فمَاتَ ، ونَشأ الْمَأمُونُ فَقيراً صُعْلوكاً فكانَ حَمَّالاً في السُّوقِ بمِصْرَ ، فدَخلَ مرَّة إلىٰ دَارِ الأفْضَلِ أميرِ الجُيوشِ مع الحَمَّالين فرَآهُ الأفْضَلُ شاباً مَليحاً ، خَفيفَ الحَرَكاتِ ، فقالَ : مَنْ هـٰذا ؟ قالَ بَعضُهم : هـٰذا ابنُ فُلان ، فاسْتَخدَمَه فرَّاشاً مع الجَماعَة فتَقدَّم وتميَّز ، وتَرَقَّىٰ به الحالُ إلى الْمُلكِ ، وهو الذي أعَانَ الآمِرَ باللهِ على الفَتكِ بأميرِ الجُيوش ، ووَلي مَنصِبَه ، وكان شَهْماً مِقْداماً ، جَواداً بالأمْوالِ ، سَفَّاكاً للدِّماءِ عُضْلَةً مِنَ العُضَلِ ، ثم إنَّه عامَلَ أخا الخَليفَة الآمِرِ علىٰ قَتلِ الآمِرِ ، ودَخلَ مَعهُما أُمَراءُ ، فعَرفَ بذلكَ الآمِرُ ، فقَبضَ على الْمَأمُونِ ، وصَلبَه ، واسْتأصَلَه ، في سَنةِ تِسْعَ عَشرَةَ وخَمسٍ مئة[3] .

جاءَ في تَرجَمَةِ الْمُقْتَفي لأمْرِ الله العَبَّاسيِّ ، قالَ أبو طالِب بنُ عبد السَّميع : كانت أيَّامُه نَضِرَةً بالعَدْلِ زَهِرَةً بالخَيرِ ، وكانَ علىٰ قَدَم من العِبادَة قَبلَ الخِلافَة ومَعها ، ولَمْ

(١) انظر السير : (قِراوَش) ١٧/ ٦٣٣ـ٦٣٤ ، وانظر النزهة : ١٣٧٠/ ٣ .
(٢) انظر السير : (السُّمَيْرَمي) ١٩/ ٤٣٢ـ٤٣٣ ، وانظر النزهة : ١٤٩٦/ ١ .
(٣) انظر السير : (البَطائحيّ) ١٩/ ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١٥١٣/ البَطائحيّ .

يُرَ مع لِينِهِ بعد الْمُعْتَصِم في شَهامَتِهِ مع الزُّهْدِ والوَرَعِ ، ولَمْ تَزَلْ جُيوشُه مَنصُورةً[1] .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : وكانَ من حَسَناتِه وَزيرُه عَوْنُ الدِّين بنُ هُبَيْرَة ، وكانَ أَسْمَرَ آدَمَ ، مَجْدورَ الوَجْه ، مَليحَ الشَّيْبَة ، أقامَ حِشْمَةَ الخِلافَة وقَطَعَ عَنها أَطْماعَ السَّلاطين السَّلجوقيّة وغَيرِهم[2] .

وقالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ خَوارِزْمشاه وجُيوشِه : كان يُضرَبُ بهم المَثَل في النَّهْب والقَتْل ، وعَملوا كُلَّ قَبيح ، وهم جِياعٌ مُجَمَّعَة ، ضِعافُ العَددِ والخَيلِ الْتَقىٰ جَلالُ الدِّين التَّتارَ ، فهَزَمَهم وهَلكَ مقدمُهم ابنُ جنْكيزخان ، ثم خَرجَ له كَمينٌ فتَفَلَّلَ جَمعُ جَلالِ الدِّين وفرَّ إلىٰ ناحيَة غَزْنَة في حالٍ واهية ، ومعه أرْبَعَةُ آلافٍ في غايَة الضَّعْف فتوجَّه نحو كِرْمَانَ فأحْسَنَ إليه مَلكُها ، فلمَّا تَقَوَّىٰ غدرَ به وقتلَه ، وسار إلىٰ شِيرازَ وعَسْكَرُه علىٰ بَقَر وحَمير ومُشاة ففَرَّ منه صاحبُها ، وجَرَت له أمُور يَطولُ شَرْحُها ما بَينَ ارْتقاءٍ وانْخِفاضٍ ، وهابَتْهُ التَّتارُ ، ولَوْلاه لدَاسُوا الدُّنْيا ، وقد ذَهبَ إليه مُحْيي الدِّين ابنُ الجَوْزي رَسُولاً فوَجدَه يَقْرأُ في مُصْحَفٍ ويَبْكي ، ثم اعْتذَرَ عَمَّا يَفْعلُه جُندُه بكَثرَتِهم ، وعَدمِ طاعَتِهم ، وقد تَقاذَفَت به البلادُ إلى الهِنْدِ ثم إلىٰ كِرْمانَ ثم إلىٰ أَعْمالِ العِراقِ[3] .

وساقَ إلىٰ أَذْرَبيجانَ فاسْتولَىٰ علىٰ كَثيرٍ منها ، وغَدرَ بأتابك أُزبك ، وأخْرجَه من بلادِه ، وأخَذَ زَوجَه ابنَة السُّلطانِ طُغرل ، فتَزوَّجَها ثم عَملَ مصافّاً مع الكَرْج فطَحَنَهم ، وقَتَلَ مُلوكَهم ، وقَويَ مُلكُه ، وكَثُرت جُموعُه ، ثم في الآخِر تَلاشَىٰ أمرُه لَمَّا كَسَرَه الْمَلكُ الأشْرَفُ مُوسَىٰ وصاحبُ الرُّوم بناحيَة أرْمينيَة ، ثم كَبَسَتْه التَّتارُ لَيلةً ، فنَجا في نَحوٍ من مئة فارس ثم تَفرَّقوا عنه إلىٰ أنْ بَقيَ وَحدَه ، فألَحَّ في طلبه خَمسةَ عَشرَ من التَّتارِ فثَبَتَ لهم وقَتلَ اثنين فأحْجَمُوا عنه ، وصَعدَ في جَبَل بناحيَة آمَد يَنزلُه أكْرادٌ فأجارَه كَبيرٌ منهم ، وعَرَفَ أنَّه السُّلطانُ ، فوَعدَه بكل خَيرٍ ، ففَرِح الكُرْدِيُّ ، وذَهبَ

---

(١) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٦٨ .
(٢) انظر السير : (الْمُقْتَفي لأمْر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٥٦٨ .
(٣) انظر السير : (خُوارِزْمشاه) ٢٢/ ٣٢٦ـ ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٩٤ .

ليُحْضِرَ خَيلاً له ويُعلِمَ بَني عَمِّه ، وتَركَه عندَ أُمِّه ، فجاءَ كُرْديٌّ فيه جُرأةٌ فقال : ليش[1] تخلُّوا هـٰذا الخُوارِزْميَّ عندَكم ؟ قيل : اسْكُت هـٰذا هو السُّلطانُ ، فقالَ : لأَقْتُلَنَّه فقد قَتلَ أخي بخِلاطَ ، ثم شَدَّ عليه بحَرْبَة ، قَتلَه في الحالِ في سَنةِ ثَمانٍ وعَشْرينَ وسِتِّ مئة[2] .

* * *

(١) لفظة عامية معناها لأي شيء .

(٢) انظر السير : (خُوارزْمشاه) ٢٢/٣٢٦ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٥ .

أَهْلُ الذِّمَّة

١ـ لا يَجُوزُ أمْرُهم بتأخير الإسْلام إذا أرادوا الدُّخولَ فيه :

قالَ الحاكمُ : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ أحمَدَ الْمَاسَرْجسيَّ ، يَحكي عن جَدِّه وغَيرِه ، قالَ : كانَ الحَسنُ والحُسَينُ ابنا عيسَىٰ يركَبانِ معاً ، فيَتحَيَّرُ النَّاسُ من حُسنِهما وبَزَّتِهما ، فاتَّفَقا علىٰ أن يُسْلِمَا ، فقَصَدا حَفْصَ بنَ عبدِ الرَّحْمَـٰن ، فقالَ : أنتُما من أجَلِّ النَّصارَىٰ ، وابنُ الْمُبَارَك قادِمٌ لِيَحُجَّ فإذا أسْلَمْتُما علىٰ يَدِه كان ذلكَ أعْظَمَ عند المسلمين ، وأرْفَع لكما ، فإنَّه شَيخُ الْمَشْرِقِ فانْصَرَفا عنه فمَرِضَ الحُسَينُ ، فماتَ نَصْرانياً ، فلمَّا قَدِمَ ابنُ الْمُبَارَك ، أسلمَ الحَسَنُ علىٰ يَدِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : يَبعُدُ أنْ يَأمُرَهُما حَفْصٌ بتأخيرِ الإسْلامِ ، فإنَّه رَجلٌ عالمٌ فإنْ صَحَّ ذلك فمَوتُ الحُسَين مُريداً للإسْلام ، مُنْتَظِرٌ قُدومَ ابنِ الْمُبَارَك ليُسْلمَ نافعٌ له[١] .

٢ـ هَلْ يَجُوزُ أنْ يُقالَ له : « أكرَمَكَ الله » ؟

قالَ إبْراهيمُ الحَرْبيُّ : سُئِلَ أحمدُ عن المُسْلمِ يَقولُ للنَّصْرانيِّ : أكْرَمَكَ اللهُ قال : نَعَم ، يَنْوي بها الإسْلامَ[٢] .

٣ـ مَنْ ظُلِمَ منهم فخلَّصَه عالمٌ من المسْلمين :

قال مَالِكُ بنُ دِينَارٍ : حَدَّثَنِي فُلانٌ أنَّ عامِرَ بنَ قَيْسٍ مَرَّ في الرَّحْبَةِ وإذا رجلٌ يُظْلَمُ ، فألْقَىٰ رداءَه وقال : لا أرَىٰ ذِمَّةَ الله تُخْفَرُ وأنا حَيّ ، فاسْتَنْقَذَه ، ويُرْوَىٰ أنَّ سَبَبَ إبْعادِه إلى الشَّامِ ، كَوْنُه أنْكَرَ وخَلَّصَ هـٰذا الذِّميَّ[٣] .

---

(١) انظر السير : (الحَسَنُ بنُ عيسىٰ بنُ ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٧٦ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/٩٤٧ .
(٣) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٤ .

٤ـ زيارةُ أهْلِ الذِّمَّة لعُلَماء المسلمين :

قال الْمَرْوذيُّ : رَأيتُ طَبيباً نَصْرانيّاً خَرجَ من عندِ أحمَدَ مَعه رَاهِبٌ ، فقالَ : إنَّه سَألَني أنْ يَجيءَ مَعي ليَرَىٰ أبا عبدِ الله .

وأدْخلتُ نَصرانيّاً علىٰ أبي عبدِ الله ، فقالَ له : إنِّي لأشْتَهي أنْ أرَاكَ مُنذُ سِنينَ ما بَقاؤُك صَلاحٌ للإسْلامِ وَحدَهم ، بلْ للخَلقِ جَميعاً ، ولَيسَ من أصْحَابنا أحَدٌ إلاَّ وقَدْ رَضِيَ بك[(١)] .

٥ـ كيفَ عَزَلَ الإمامُ الطَّرْطُوشيُّ وَزيراً من أهْلِ الذِّمَّة ؟

قالَ القاضي شَمسُ الدِّين ابنُ خَلِّكانَ : دَخلَ الطُّرْطُوشيُّ على الأفْضَلِ ابنِ أميرِ الجُيوشِ بمِصْرَ ، فبَسَطَ تَحته مِئزَرَة ، وكانَ إلىٰ جانِبِ الأفْضَلِ نَصْرانيٌّ فوَعَظَ الأفْضَلَ حتَّىٰ أبْكاهُ[(٢)] ثم أنْشَدَه :

يَــا ذَا الَّــذِي طَــاعَتُــهُ قُــرْبَــةٌ ... وَحَقُّـــهُ مُفْتَـــرَضٌ وَاجِـــبُ
إنَّ الَّــذِي شُــرِّفْــتَ مِــنْ أَجْلِــهِ ... يَــزْعُــمُ هَـٰـذَا أَنَّــهُ كَــاذِبُ

وأشارَ إلىٰ ذلكَ النَّصْرانيِّ ، فأقامَ الأفْضَلُ النَّصْرانيَّ من مَوْضِعِه .

وقد صَنَّفَ أبو بَكر كتابَ « سِراجُ الْمُلوكِ »[(٣)] للمَأمُونِ بنِ البَطَائحيِّ الذي وَزَرَ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حَنْبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٨ .

(٢) فكان مما قال له كما في « نفح الطيب » : إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتَّقِ الله فيما خوَّلك من هـٰذه الأمة ، فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ سائلُك عن النَّقير والقِطْمير والفَتيل ، واعلم أن الله عزَّ وجلَّ آتىٰ سُليمانَ بنَ داوُدَ مُلكَ الدُّنيا بحذافيرها ، فسخَّر له الإنْسَ والجنَّ والشَّياطين والطير والوحش والبَهائمَ ، وسخَّر له الرِّيحَ تَجْري بأمره رُخاءً حيثُ أصاب ، ورفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ فما عدَّ ذلك نعمةً كما عَددْتموها ، ولا حَسبها كرامةً كما حسبتموها ، بلْ خاف أن يكون استدراجاً من الله عزَّ وجَلَّ ، فقال : ﴿ هَـٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ ﴾ فافتح الباب ، وسَهِّلْ الحجاب ، وانصر المظلوم .

(٣) وهو من أمتع الكتب وأجودها في بابها ، يُقالُ : إنَّه كُتب على اللَّوحَة الأولىٰ منه هـٰذان البيْتان :

النَّـــاسُ يُهْـــدُونَ علـــىٰ قَـــدْرِهـــم ... لكِنَّنـــي أُهْـــدِي علـــىٰ قَـــدْري=

بِمِصْرَ بعدَ الأفْضَلِ ، وله مُؤلَّف في طريقَةِ الخِلافِ ، وكان الْمَأمونُ قد نوَّه باسمِه ، وبالَغَ في إكْرامِه[1] .

٦ـ كيف عُزِلَ نائبان ـ من أهل الذِّمَّة ـ للعَزيز صاحبِ مِصْرَ ؟

جاءَ في تَرجَمَةِ العَزيزِ باللهِ العُبَيْديِّ صاحِبِ مِصْرَ ، قالَ أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيِّ : كان العَزيزُ قد وَلَّىٰ عيسَىٰ بنَ نسْطورس النَّصْرانيَّ أمْرَ مِصْرَ ، واسْتَنابَ مُنشَّا اليَهوديَّ بالشَّامِ فكَتَبَت إليه امْرأةٌ : بالذي أعَزَّ اليَهودَ والنَّصارَىٰ بمُنشَّا وابنَ نسْطورَس ، وأذَلَّ المسلمينَ بِك ، إلاَّ ما نَظَرتَ في أمْري .

فقَبَضَ على الاثنين وأخذَ من عيسَىٰ ثلاثَ مئَة ألفِ دينار[2] .

٧ـ تَعْظيمُ واحدٍ منهم لدِينِه :

وقيلَ : إنَّ الأخْطَلَ قَيَّدَه الأُسْقُفُ وأهانَه ، فلِيمَ في صَبرِه له ، فقالَ : إنَّه الدِّينُ ، إنَّه الدِّينُ .

وقد حصَّلَ أمْوالاً جَزيلَة من بَني أُمَيَّة ، وماتَ قبلَ الفَرَزْدَق بسَنَوات[3] .

٨ـ مَنْ أسْلَمَ من أهْل الذِّمَّة فصارَ عالماً :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَةِ الحَسَنِ بنِ عيسَىٰ بنِ مَاسَرْجس : الإمامُ الثِّقةُ الجَليلُ ، أبو عَليّ النِّيسابوري .

كانَ من كُبَراء النَّصارَىٰ فأسْلَم[4] .

قالَ الحاكمُ : سَمعتُ الحُسَينَ بنَ أحمَدَ الْمَاسَرْجِسيَّ ، يَحكي عن جَدِّه وغَيرِه ، قالَ : كانَ الحَسنُ والحُسَينُ ابنا عيسَىٰ يَركَبانِ معاً ، فيَتحَيَّرُ النَّاسُ من حُسنِهما

= يُهْدُون ما يَفْنَىٰ وأُهدي الَّذي يَبْقَىٰ على الأيَّام والدَّهْر

(١) انظر السير : (الطُّرْطُوشيُّ) ١٩/ ٤٩٠ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٠٠ .

(٢) انظر السير : (العَزيزُ بالله) ١٥/ ١٦٧ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٦ .

(٣) انظر السير : (الأخْطَل) ٤/ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦٤ .

(٤) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٦ .

وبَرَّتِهِما ، فاتَّفقا علىٰ أن يُسْلِمَا ، فقَصَدا حَفْصَ بنَ عبدِ الرَّحْمَـٰن ، فقالَ : أنتُما من أجَلِّ النَّصارىٰ ، وابنُ الْمُبَارَك قادِمٌ لِيَحُجَّ فإذا أسْلَمْتُما علىٰ يَدِه كان ذلكَ أعْظَمَ عند المسلمين ، وأرْفَع لكما ، فإنَّه شَيخُ الْمَشْرِقِ فانْصَرَفا عنه فمَرِضَ الحُسَينُ ، فماتَ نَصْرانياً ، فلمَّا قَدِمَ ابنُ الْمُبَارَك ، أسلمَ الحَسَنُ علىٰ يَدِه .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ : يَبعُدُ أنْ يَأمُرَهُما حَفْصٌ بتأخيرِ الإسْلام ، فإنَّه رَجلٌ عالمٍ فإنْ صَحَّ ذلك فمَوتُ الحُسَين مُريداً للإسْلام ، مُنْتَظِرٌ قُدومَ ابنِ الْمُبَارَك لِيُسْلمَ نافعٌ له[1] .

وقال الحاكمُ : حَدَّثَنا الحافِظُ أبو علي النِّيسَابُوري عن شُيوخِه أنَّ ابنَ المُبَارك نَزَلَ مرةً برأسِ سِكَّةِ عيسىٰ ، وكان الحَسَنُ بنُ عيسىٰ يَركبُ فيُجتَازُ به وهو في المَجلس وكان من أحسَنِ الشَّباب وجهاً ، فسَألَ ابنُ المُبارك عنه فقِيلَ : هو نَصْرَانيّ فقالَ : اللَّهُمَّ ارزُقهُ الإسلامَ ، فاسْتُجِيبَ له .

قال أبو العَبَّاس السَّرَّاج : حَدَّثنا الحَسَنُ بنُ عيسىٰ مَولَىٰ عبد الله ابن المُبارك ، وكان عاقِلاً ، عُدَّ في مَجلِسه ببابِ الطَّاقِ[2] اثنا عَشر ألفَ محبَرَة .

ماتَ مُنْصَرفه من مَكة سَنةَ تِسْعٍ وثَلاثينَ ومِئتين[3] .

٩ـ مَنْ أسْلَمَ من أهْل الذِّمَّة فصَارَ وَزيراً :

ابنُ كلِّس :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : وَزيرُ الْمُعِزِّ والعَزيزِ ، أبو الفَرَج ، يَعقُوبُ بنُ يُوسُف بنِ إبْراهيمَ البَغْداديّ الذي كانَ يَهوديّاً فأسْلَم .

كان داهيةً ، ماكِراً ، فَطِناً ، سائساً ، من رجالِ العالَم .

سافرَ إلى الرَّمْلَة ، وتوكلَ للتُّجارِ ، فانْكَسرَ عليه جُملةٌ وتَعثَّر ، فهَربَ إلىٰ مِصْرَ ،

---

(١) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/٢٧ـ٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/٩٧٦ .

(٢) وهي محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلّىٰ ، وتُعرف أيضاً بطاقة أسماء ، نسبةً إلىٰ أسماء بنت المنصور .

(٣) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/٢٧ـ٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٦ .

وجَرَت له أُمورٌ طَويلَة ، فرَأىٰ منه صاحِبُ مِصْرَ كافورٌ الخادِمُ فِطْنَةً وخِبْرَةً بالأُمورِ ، وطَمِعَ هو في التَّرَقِّي ، فأسْلَمَ يومَ جُمُعَة ، ثم فَهِمَ مَقاصِدَه الوزيرُ ابن حِنْزابَة فعَمِلَ عَليه ، ففَرَّ منه إلى الْمَغرِب ، وتَوصَّلَ بيَهودٍ كانوا في بابِ الْمُعِزِّ العُبَيْديِّ ، فنَفَق على الْمُعِزِّ ، وكَشفَ له أُمُوراً ، وحَسَّن له تَملُّكَ البلادِ ، ثم جاءَ في صُحْبَتِه إلىٰ مِصْرَ ، وقد عَظُمَ أمرُه ، ولَمَّا وَلِيَ العَزيزُ سَنَةَ خَمسٍ وسِتِّينَ اسْتَوزَرَه ، فاسْتَمَرَّ في رِفْعَة وتَمكُّن ، إلىٰ أنْ ماتَ .

وكانَ عاليَ الهِمَّة ، عَظيمَ الهَيْبَة ، حَسنَ الْمُداراة .

مَرِضَ فنَزلَ إليه العَزيزُ يَعودُه ، وقالَ : يا يَعقوبُ وَدِدتُ أنَّك تُباعُ فأشْتَريكَ من الْمَوتِ بمُلكي ، فهَلْ من حاجَة ؟ فبَكَىٰ وقبَّلَ يدَه وقالَ : أمَّا لنَفسي فلا ، لكنْ فيما يَتعلَّقُ بك ، سالِم الرُّومَ ما سَالَمُوكَ ، واقْنَع من بَني حِمْدانَ بالدَّعْوَة والسِّكَّة ، ولا تُبقِ على الْمُفَرِّج بنِ دغفل متىٰ قَدرتَ ثم ماتَ ، فدَفنَه العَزيزُ في القَصْر في قُبَّة أنْشأها العَزيزُ لنَفسِه ، وألْحَدَه بيدِه ، وجَزِعَ لفَقدِه .

ويُقالُ : إنَّه كانَ حَسُنَ إسْلامُه مع دُخولِه في الرَّفْضِ ، وقَرأ القُرآنَ والنَّحوَ ، كانَ يَحضُرُ عنده العُلماءُ ، وتُقرأُ عليه تَواليفُه ليلَةَ الجُمُعَة ، له حُبٌّ زائدٌ في العُلومِ ، على اخْتِلافِها .

وقد مَدحَه عدَّة من الشُّعَراء ، وكانَ جَواداً مُمَدَّحاً .

وقالَ العَزيزُ وهو يَبكي : واطُولَ أسَفي عَليكَ يا وَزيرُ .

ماتَ سَنةَ ثَمانينَ وثَلاثِ مئة ، لهُ اثْنَتان وسِتُّونَ سَنةً ، وخَلَّفَ من الذَّهبِ والجَوْهر والْمَتاع ما لا يُوصَف كَثرةً ، ولا رَيبَ أنَّ مُلكَ مِصْرَ في ذاكَ العَصْر ، كانَ أعْظَمَ بكَثير من خُلفاءِ بَني العبَّاس ، كما الآن صاحِبُ مِصْرَ أعْلَىٰ مُلوك الطَّوائف رُتبَة ومَمْلكَةً[1] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ كلِّس) ١٦/ ٤٤٢ـ ٤٤٤ ، وانظر النزهة : ١٣٠٢/ ابنُ كلِّس .

١٠ـ مِنْ أطِبَّاء المسلمين مَنْ كان يَمْتَنِعُ عن تَعليم أهْل الذِّمَّة عِزَّةً :

جاءَ في تَرجَمَةِ الرَّحبيّ أنَّه قالَ : جَميعُ مَنْ قَرَأَ عليَّ سُعِدُوا وانْتَفَعَ النَّاسُ بهم وكان لا يُقْرِىءُ أحَداً من أهْلِ الذِمَّةِ بلىٰ ، قَرَأ عليه منهُم عِمْرانٌ اليَهُوديّ ، وإبْراهيمُ السَّامريُّ تَشَفَّعاً إليه ، وكُلٌّ منهُمَا بَرَعَ[1] .

١١ـ مِنْ شُعَراء النَّصَارَى الذِّين أسْلَموا :

أبو تَمَّام :

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ في تَرجَمَتِه : شاعرُ العَصْر أبو تَمَّام ، حَبيبُ ابنُ أَوْس بنُ الحارث الطَّائيُّ ، أسْلَمَ وكانَ نَصْرانيّاً مَدحَ الخُلفاءَ والكُبراءَ وشعْرُه في الذِّرْوَة .

وكانَ أسْمَرَ طِوالاً فَصيحاً ، عَذْبَ العِبارَة مع تَمْتَمَة قَليلَة .

وُلدَ في أيّامِ الرَّشيدِ ، وكانَ أوّلاً حَدثاً يَسقي الماءَ بمِصْرَ ، ثم جالَسَ الأُدَباءَ وأخذَ عنهم ، وكان يَتوَقّدُ ذَكاءً ، وسَحَّت قَريحَتُه بالنَّظْمِ البَديع فسَمعَ به المُعْتَصِمُ ، فطَلَبَه ، وقدَّمه على الشُّعَراء وله فيه قَصائدُ وكان يُوصَفُ بطِيبِ الأَخْلاقِ والظُّرْفِ والسَّماحَة .

وقيلَ : قَدمَ في زِيِّ الأعْرابِ ، فجَلسَ إلىٰ حَلقَة من الشُّعَراء ، وطلبَ منهُم أنْ يَسمَعوا من نَظْمِه ، فشاعَ وذاعَ وخَضَعوا له وصارَ من أمْرِهِ ما صارَ .

وقد كان البُحْتُريُّ يَرفعُ من أبي تَمَّام ، ويُقدِّمُه علىٰ نَفسِه ، ويَقولُ : ما أكَلتُ الخُبزَ إلاَّ به ، وإني تابعٌ له[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٤ .

(٢) انظر السير : (أبو تمّام) ١١/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٩ .

محتوى الكتاب